رقمها	ســـــورة يــــــس	آياتها
36	ـــــ مكيّة ـــــ	83

سُمِّيت هذه السورة على لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفي المصاحف، وكتب الحديث: سورة (يسٓ) باسم الحرفين اللّذين أُفتُتحت بها. وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه قوله صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ لكلّ شيء قلبا، وقلب القرآن : يس". وإن كان هذا الحديث عند المحدّثين غير صحيح لوجود هارون أبي محمد في سلسلة الرواة وهو اِسم مجهول غير معلوم.

وروي في فضائلها قوله صلّى الله عليه وسلّم: "اقرؤوا على موتاكم يس" (رواه أبو داود في سننه).

أغراضها كأغراض السور المكيّة: التركيز على المعتقد، وللتّحذير من سوء عاقبة الكفر، وفيها مشاهد ممّا سيكون عند الوقوف للحساب يوم القيامة. وليس لي من قول في مواضيع هذه السورة وأغراضها خير من قول شيخنا محمد الطاهر بن عاشور: قال: "فقامت السورة على تقرير أمّهات أصول الدين على أبلغ وجه وأَتَمِّهِ من إثبات الرّسالة، والوحي، ومعجزة القرآن، وما يُعتبر في صفات الأنبياء، وإثبات القدر، وعلم الله، والحشر والتوحيد، وشكر المُنعم. وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، ومنها تتفرّع الشّريعة، وإثبات الجزاء على الخير والشرّ مع إدماج الأدلّة من الآفاق والنّفس بتفنّن عجيب، فكانت هذه السورة جديرة بأن تُسمّى "قلب القرآن" لأنّ مِنْ تقاسيمها تتشعَّب شرايينُ القرآن كلِّه، وإلى وَتِينِهَا يَنْصَبُّ مَجراها" (التحرير والتنوير ج 22 ص 344).

قال فيها أبو حامد الغزالي : "إنّ ذلك لأنّ الإيمان صحّته باعتراف بالحشر، والحشرُ مقرّر في هذه السورة بأبلغ وجه، كما سمّيت الفاتحة "أمّ القرآن" إذ كانت جامعة لأصول التدبّر في أفانينه كما تكون أمّ الرأس مَلاَك التّدبّر في أمور الجسد".

(وليس لي مع هذين القولين ما أُضيف).

- يسٓ (1) وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (3) :

هذه إلى الآية 6 في التّصديق برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم. (يس) قيل في هذين الحرفين أكثر من قول. "هما عند الرّازي وابن عاشور: "حرفان من حروف التّهجّي التي أعجز الله بها معارضي القرآن". وعند الزّمخشري عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أنّها –في لغة طيء– : "يا إنسان" والله أعلم بصحّته" (الكشّاف ج3 ص279).

وأضاف فخر الدين الرّازي في (التّفسير الكبير ج26 ص40): «ولا يعلم تمام السرّ إلاّ الله، ومن أعلمه الله به... وإنّ العبادة: منها قلبية، ومنها لسانية، ومنها جارحية. وكلّ واحدة منها قسمان: قِسْمٌ عُقِلَ معناه وحقيقتُه، قسم لم يُعلم... فإذا قرأ قارئ:(حم ، يسٓ ، ألم ، طه) عَلِمَ أَنَّهُ لَم يذكر ذلك لمعنى يفهمُه، فهو يتلفّظ به إقامةً لما أُمِرَ به...». وممّا ذكره القرطبي في تفسيره (الجامع ج15 ص4-5) وقال سعيد بن جُبير: هو اِسم من أسماء محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ودليله: (إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ). وقالوا في قوله تعالى: (سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ)(الصافات الآية 130) أي على آل محمّد. وقال مالك: إنّه اِسم من أسماء الله، ومنع مالك من التسمية بـ(يَاسِين) لأنّه اِسم من أسماء الله لا يُدرى معناه، فربما كان معناه ينفرد به الربّ فلا يجوز أن يقدم عليه العبد". وردّ القرطبي على هذا بقوله: "فقد قال الله تعالى:(سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ) قلنا: ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به. وقال الزّجّاج (هو نحوي، مفسّر، من كتبه "معاني القرآن" 241 هـ ومات 311 هـ): "قيل معناه: يا محمّد، وقيل: يا رجل، وقيل: يا إنسان".

أيًّا كان معنى هذين الحرفين، فقد جاء بعدهما القَسَمُ بالقرآن الحكيم أنّك – يا محمّد – لمن المرسلين، وهذا للردّ على الذين كذّبوا به وبرسالته، وما كذّبوه إلاّ لأنّ بعضهم كان يودّ أن تكون الرسالة عند أحد العظيمين في أهل قريش، وإنّ بعضهم كان يتصوّر – من تَوَهُّمِهِ – أنّ رسول الله إلى العباد لا يكون إلاّ ملكا. وجاء هذا الافتتاح تثبيتا للرّسول صلّى الله عليه وسلّم وتصديقا برسالته، وجاء مدّعما بالقسم بالقرآن، وقد وُصِف القرآن بالحكيم لأنّه مُحْكَمٌ لا يتعارض لبطلان وتناقض، كما قال تعالى: (أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ)(هود الآية 1) ولأنّه قد أُحْكِمَ في نظمه ومعانيه، فلا يلحقه خَلَلٌ. وقد جاء التّأكيد على أنّ محمدًا صلّى الله عليه وسلّم من المرسلين في صيغة التأكيد بأداة (إِنَّ) للتوكيد، وبلام التوكيد في (لَمِن) بعد قسم. فمن أنكر رسالته بعد هذا التّأكيد –وهو قول من عند الله– كان آثما حقا إثما عظيما. أبعدَ الله وآياته يكفرون!

- **عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (4) :**

الصراط المستقيم هو دين الله القويم الذي هو دين الإسلام. دين على طريق واضح لا إعوجاج فيه لأنّه هو دين الله. قال تعالى (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ)(آل عمران الآية 19). وإنّ محمّدا صلّى الله عليه وسلّم قد أرسل بهذا الدّين ليقوم النّاس على صراط الله المستقيم.

- **تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (5) :**

وإنّ ما جاء به رسول الله هو تنزيل من عند الله العظيم ذي العزّة والجبروت، الرّحيم الذي لا تنقطع رحمته عن عباده المؤمنين.

- **لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ (6) :**

وقد أُرْسِلْتَ لِتُحَذِّر مشركي قومك من الكفر، لم يأتِ آباءهم من قبلُ رسولٌ يحذّرهم من عذاب الله إذا تمادوا في شركهم ولم يتوبوا منه، وقد كانوا بعيدين عن الهدى، وضالّين عن اِتّباع الحقّ، وكانوا جاهلين لعاقبة الشّرك السيّئة.

- لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (7) :

لمّا جاء في الآيات السابقة التّأكيد على التّصديق بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وبرسالته، ناسب هذا أن يلحقها وعيد بالمكذّبين به وبما جاء به من القرآن الحكيم في هذه الآية إلى الآية12. والمعنى: لقد وجب في قضاء الله تعذيب المكذّبين برسول الله وبكتابه، وهم كُثْرٌ، لا يصدّقون بالله وبرسوله وبكتابه.

- إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ (8) :

هذه في نمط من أنماط تعذيب المكذّبين بالرسول. يقومون يوم القيامة فتُشَدُّ أيديهم بالسلاسل وتربط في أعناقهم حتى تصل أيديهم إلى الأذقان، ويُقْمحُون. المقمح هو الذليل الذي يرفع رأسه ويغضّ بصره، يقال أُقْمِحَت الدابّة إذا جُذِبَ لجامُها لترفع رأسها. ورفع رؤوسهم بسبب شدّ السلاسل لتعذيبهم عن اِنتصاب رؤوسهم في دنياهم من تكبّرهم. وأمّا غضّ أبصارهم فدليل على ذُلِّهِم، ولأنّهم لم يكونوا يبصرون الحقّ.

- وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ (9) :

هذه لبيان سبب تعذيبهم بهذا النّمط المذلّ والشاق، والسبب هو الكبرياء والعناد. والمعنى: لقد جاءهم ما يرشدهم إلى الهدى، ويقيمهم على الصراط المستقيم ولكنّهم جعلوا بينهم وبين ما جاءهم من بين أيديهم حاجزا من أنفسهم حتّى لا يسمعوا، وتركوه من خلفهم ولم يلتفتوا إليه لتدبّره وللنّظر فيه. حجبوا عن أنفسهم النّظر فيما جاءهم به رسولهم من الهدى والعلم والإرشاد تقليدا لآبائهم، وعنادا، فجعل الله على أبصارهم غشاوة: غطاءً حتّى لا يروا ضلالتهم، ولئلاّ يروْا نور الهدى، فإذا هم لا يهتدون للصّواب، ولا ينتفعون بما جاءهم.

ورُوِيَ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد قرأ هذه الآية على الفتية من بطون قريش الذين اِجتمعوا أمام باب داره يتربّصون خروجه ليقتلوه بسيوفهم ليتفرّق بينهم دمه، فلا تدفع لأهله دية، ولا يُؤْخذ بثأره، فأخذ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم حفنة من تراب نفثها على وجوههم، وقرأ عليهم هذه الآية، وخرج ومرّ من بين أيديهم فلم يبصروه، وأنقذه الله تعالى بتقديره ونصره من كيدهم وكيد من كان من ورائهم، وكان أمر الله مفعولا.

- وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (10) :

إنّ هؤلاء – لعنادهم ومكابرتهم– لا ينتفعون بإنذار ولا بتذكير، ولا بإرشاد، إنّهم لا يسمعون ولا يستجيبون لما تدعوهم إليه للإيمان. فلا تتعب نفسك معهم، إنّهم لا يصدّقون ولا يؤمنون بما تقول وبما جئتهم به.

- إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ (11) :

وفي المقابل فإنّما ينتفع بمواعظك وتحذيرك من اِهتدى بالقرآن حينما سمعه وآمن به وصدّق، وخاف الله تعالى في سرّه وخلوته، فهذا بَشِّرْه بمغفرة ربّه، وبحصوله على الثواب والأجر العظيم لينال خيرا في آخرته.

- إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ (12) :

هذه في بلاغ القوم بأنّ الله يحيي الموتى، ويبعثهم بعد موتهم للحساب، وقد سجّل عليهم في حياتهم الدنيوية ما كانوا قد عملوا، وكذلك آثار أعمالهم من حسن أو سيّء. وكلّ شيء عنده مُثْبَتٌ ومسجّل كلّ في سِجلّ عمله، ومحفوظ ليلقاه يوم القيامة واضحا وبيّنا في كتاب هو حجّة ثابتة.

- وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ (13) :

بعد وعيد مشركي قريش المكذّبين برسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم جاءت هذه الآية وما بعدها إلى الآية 30 للاعتبار بسوء عاقبة أصحاب قرية أنطاكية اليونانية الذين كذّبوا رسلهم فهلكوا: والمعنى: ومَثِّلْ للمكذّبين بك – يا محمد – بما حدث لسكّان قرية أنطاكية باليونان لمّا جاءهم المرسلون الذين أرسلهم إليهم عيسى عليه السلام، بهدي من الله، وهذا قُبَيْلَ رفعه إلى السماء.

- إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ (14) :

وأُذكر إذ أرسلنا إليهم رسولين فكذّبوهما – وقد كانوا يعبدون الأصنام، وأصرّوا على كفرهم، فدعّمهما الله تعالى برسول ثالث لدعوتهم لنبذ عبادة الأصنام، وللتوجّه بعبادتهم لله الخالق وقالوا لهم إنّا مرسلون إليكم لتتّبعوا الهدى.

- قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ (15) :

ولقد كذّبوهم بدعوى أنّهم من جنس البشر مثلهم – وكانوا يظنّون أنّ رسل الله لا يكونون إلاّ ملائكة – كظنّ مشركي قريش. وكذّبوا بالتّنزيل: الإنجيل. وصدّوا عن سبيل الله باتّهامهم رسلهم بالكذب.

- قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ (16) :

وما كان قول رسلهم للردّ على تكذيبهم إلاّ أنّهم أشهدوا الله تعالى على أنفسهم بأنّهم مرسلون من عنده تعالى، وكفى بالله شهيدا.

- وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (17) :

وليس لنا من مهمّة إلاّ أن نبلّغكم بشرع الله تعالى وهديه بلاغا واضحا.

- قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ **(18)** :

فما كان جواب قومهم إلاّ أنْ قالوا لهم إنّا تَشَاءَمْنَا بِكُمْ إذا أصررتم على متابعة دعوتنا لدينكم، وترك ديننا فإنّا سنقتلكم رميا بالحجارة، وسنعذّبكم العذاب الموجع حتّى تكفّوا عن دعوتكم.

- قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ **(19)** :

قال لهم الرّسل: شؤمكم هو كفركم المصاحب لكم، فإن أصابكم سوء فمن أعمالكم، وليس تَبَعا لما جئناكم به. أتتشاءمون منّا حين نذكّركم بالله عزّ وجلّ، ولأنّنا نعظكم ونحذّركم من عقابه، بل أنتم قوم متجاوزون الحدّ في الطغيان والكفر.

- وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ **(20)** ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ **(21)** :

وسمع بخبر المرسلين رجل من بني إسرائيل – قيل كان يعبد الله في غار – فقدم على المدينة، وسمع منهم ما يدعون إليه، فأقبل على قومه ناصحا وواعظا ودعاهم إلى اِتّباع ما يدعوهم إليه المرسلون. وأخبرهم بأن لا يسألونهم أجرا ومكسبا على ما يدعون إليه ودعاهم لأن يهتدوا بهم لأنّهم مهتدون للصواب وللرّشاد، وفي هذا تعريض للمشركين الذين عرضوا على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم المال أو المنصب والجاه على ما يختاره شرط أن يترك ما يدعوهم إليه، فرفض الرّسول عرضهم. ولم يعجب القوم وعظ الرّجل ونصرته للرّسول فقتلوه.

- وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ **(22)** :

وكان في ما قاله لهم لموعظتهم – قبل أن يعمدوا إلى قتله – ولماذا لا أعبد الذي خلقني وما الذي يمنعني من ذلك؟ ومَنْ لي خير من خالقي لأعبده. واعلموا أنّكم جميعا عائدون إليه لمحاسبتكم فَانْقِذُوا أنفسكم بطاعته قبل رجوعكم إليه.

- ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ **(23)** :

ثمّ نبّههم الرجل الواعظ بأنّ أصنامهم التي اِتّخذوها آلهة يعبدونها من دون الله تعالى لن تنفعهم لردّ السوء عنهم إذا قضى الله عزّ وجلّ أن يبتليهم ببلاء أو جائحة، ولا تقدر أن تنفعهم بردّ القضاء عنهم ولا تشفع لهم عند الله يوم القيامة إذا قضى بتعذيبهم، فخير لهم أن يتركوا عبادتها ليتوجهوا بعبادتهم إلى الله وحده. وكان من ذكاء هذا الرجل في تقديم موعظته لقومه أنّه تحدّث عن نفسه بضمير المتكلّم حتى لا يحرجهم باتّهامهم بغفلتهم عن التوجّه السليم في طلب الشفاعة من الإصابة بالسوء ممن يملك القدرة عليها.

- إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ **(24)** :

إنّي إذا طلبت الشفاعة والنجدة من السوء من آلهة غير الله تعالى أكون بعيدا عن الصواب بُعْدًا وَاضحا.

- إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ (25) :

إنّي أعلنها فيكم صراحة وعلانية أنّي مؤمن بالله وحده الذي هو ربّي وربّكم. ولما قال هذا أخذوه فقتلوه اِنتقاما لآلهتهم المزعومة.

- قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (27) :

وقالت له الملائكة حين قُتل: أدخل الجنّة مكرّما. قد مات شهيدا. فلمّا عاين الرّجل ما في الجنّة من وجوه التكريم تمنّى لو كان قومه يعلمون ما أعدّ الله لعباده المؤمنين من خير وتكريم، وقد غفر لهم ذنوبهم، وجعلهم من أهل الحظوة والتكريم.

- وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (28) إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ (29) :

وما كان ربّ العزّة بحاجة لينزل على هؤلاء القوم الكافرين المجرمين المعاندين المكذّبين الرّافضين لسماع كلمة الهدى جندًا من السماء لقتالهم، إنّهم أهْوَنُ من أن يُنزل عليهم جندا من السماء، وإنّما أُنزل عليهم صوت صارخ مزعج من السماء فأهلكوا جميعا دفعة واحدة وقُضِيَ عليهم.

- يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (30) :

واحسرتاه على العباد الذين يسخرون من كلّ رسول يأتيهم من عند الله تعالى ويتندّرون بالوعيد، ويضحكون من الإنذار. وفي هذا تعريض بمشركي قريش الذين كانوا يستهزئون برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبالوعيد.

- أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (31) وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ (32) :

في الآيتين اِلتفات لمشركي قريش للاعتبار بسوء مصير الأمم السالفة من قبلهم من أهل الكفر والمعصية وتكذيب الرّسل. والمعنى: ألم يشاهدوا آثار الأمم السالفة المهلكة ليعتبروا بسوء عاقبة كفرهم، أو لم يعرفوا أنّ من هلك فلن يرجع للحياة، أو لا يدركون أنّ جميع الخلق سيحضرون بين يدي الله تعالى للحساب: للجزاء أو للعقاب. والاستفهام هنا للتوبيخ عن كثرة الغفلة.

- وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ (33) :

هذه إلى الآية 45 في عقيدة التوحيد، والإيمان بالبعث، وللتّحذير من عقاب الآخرة. ولفظ (آية) في هذه الآيات يعني الدليل والبُرهان والحجّة وعلامة الصدق، وهي للتّدبّر وللنّظر. والضمير (هم) للغائب الجمع عائد على المشركين والمكذّبين بالرسول وبالوعيد وبالبعث.

والمعنى: فلينظر هؤلاء المكذّبون بالبعث قدرة الله تعالى في الأرض الميّتة كيف يُحييها الله بعد جدبها بما ينزل عليها من السماء من ماء فيجعلها منتجة وحيّة تنبت الحبّ الذي يأكلون وتأكل معهم أنعامهم. كذلك يحيى الله البشر بعد مماتهم حين يأذن ببعثهم.

- وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ (34) :

وجعل الله بقدرته هذه الأرض التي كانت بورًا ومجدبة ذات بساتين بأشجار مثمرة من كروم وأعناب وواحات نخيل. وفجّر في الصحراء عيونا ذات ماء حلو غدق تتدفّق من باطنها.

- لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ (35) :

وهذه من إنعام الله تعالى عليهم ليجدوا ما يأكلون لطعامهم، وليأكلوا من ثمرات البساتين والأشجار المثمرة ومن واحات النخيل، وممّا أنتجته أيديهم وصنعته بالطحن والعصر وغيرهما. أفلا يشكرون الله الذي تفضّل عليهم بهذه الخيرات؟ والاستفهام للتّوبيخ على الجحود.

- سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ (36) :

في هذه الآية نَزَّه الله ذاتَه العليةَ عن قول الكفّار إذ عبدوا غيره ممن لا يستحقّ الألوهيّة، وليس له أيّة آية على إستحقاقه لها من آيات الخلق والإنعام والقدرة. وفي هذا تنبيه لوجوب تسبيح الله تعالى لشكره على نعمه وآثار قدرته وحسن تقديره لإطعام الخلق وسقيهم، ولوجوب تنزيهه عمّا لا يليق به من الصفات. وإنّه تعالى حقيق بهذا التّسبيح لأنّه خلق من كلّ نبات أزواجا، أي أصنافا وأنواعا مختلفة في الشكل والمذاق ومختلفة في فصول إنتاجاتها، فاختلافها هو اِزدواجها. وخلق من البشر الذكور والإناث. وخلق الله لهم من أصناف خلقه في البرّ والبحر ممّا يؤكل ويطعم، أو يستغلّ لحاجاتهم الحياتية ممّا لا يعلمون، وإذا علموا بعضا منه فإنّما علموا الشيء اليسير منه، وما خفي عنهم كان كثيرا. ووجه التّذكير بآيات الخلق هذه تنزيه الله تعالى عن النّدّ وعن الشّريك لإفراده تعالى بالخلق، فلا ينبغي أن يشرك به.

- وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ (37) وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ (38) :

وعلامة أخرى للمشركين ليعلموا أنّ القدرة بيد الله وحده إخراج النّهار من الليل، فيذهب ضوء النّهار، وتحلّ الظلمة، فإذا جميع الخلق داخلون في الظلمة. وعلامة أخرى بيّنة في حركة الشمس في الفلك المخصّص لها والمحدّد لها إلى أن تستقرّ يوم القيامة في مقرّها النّهائي فتنتهي حركتها. هذا من تقدير الله تعالى، ومن حسن تدبيره، ومن عظيم خلقه، وهو العزيز الذي يُسَيِّرُ كلّ شيء وِفق إرادته مهما عظم أو تناهى في الدقّة والصغر، لا يعجزه شيء، وهو العليم بما يناسب الخلق لحياتهم ولضمان بقائهم على الأرض إلى الوقت المعلوم. والقصد أن ينتبه

المشركون لضلالتهم فليس لآلهتهم التي يدعون شيء من القدرة، ولا شيء من الخلق يدلّ على آثارها، فإذا تدبّروا هذه الآيات تعرّفوا على ربّهم الحقّ فسبّحوه وحده، وشكروا له، وخصّوه وحده بالعبادة والطاعة والدعاء.

- وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ (39) :

لمّا أخبر تعالى في الآية السابقة أنّ الشمس ستستقرّ في مقرٍ لها يوم القيامة فلن تجري بعد ذلك، ناسبَ ذلك بيان الصورة التي سيحوّل إليها القمر يوم القيامة. إنّ القمر في حياتنا الدنيويّة يسير دوما في حركة دؤوبة في منازل محدّدة من حول الأرض، وعلى مسافات معلومة، فإذا جاء الأجل المحتوم الذي تتزلزل فيه الأرض زلزالها فإنّه يتحوّل في شكله إلى شبه عود عِذْق النخلة العتيق، عود يابس معوّج.

- لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ (40):

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك مدار القمر وتحتلّ منازله وتذهب به، فلكلّ منهما مداره ومنازله، وهذا من عجيب الصنع والتقدير، وهذا من معنى القيّوم على السماوات حتى لا تضطرب منازل الكواكب، ولا تسبق آية الليل التي يمثّلها القمر آية النّهار التي تمثّلها الشمس، فكلاهما يسير في فلكه ويسبح فيه بحسبان دقيق ودقّة عجيبة.

- وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ (41) وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ (42) :

ومن مظاهر عظيم قدرة الله عزّ وجلّ، ومظاهر إنعامه أن سخّر البحر ليحمل السفن المشحونة بالأنفس البشريّة وبالسلع دون أن تغرق، وما هذا التّسخير إلاّ ليقضوا حاجاتهم ولتجارتهم ولسفرهم ولطلب رزقهم من البحر. وخلق الله تعالى من مثل ما يركبون من السفن وسائل نقل أخرى لأسفارهم. هذا من الإعلام بالغيب بالنّسبة للعصور السالفة، ولكنّا في عصرنا الحاضر نشهد من وسائل النقل البحرية أصنافا متعدّدة وذات إختصاصات متعدّدة، فمنها البواخر العظيمة الناقلة للبشر ومتاعهم وسياراتهم وشاحناتهم لأسفارهم بين القارّات المتباعدة، ومنها حاملات الطائرات المقاتلة المستعملة للحروب، ومنها اليخت للرفاه، ومنها مراكب الصيد في الأعماق، ومنها البطاحات للنقل بين الضفتين، ومنها سفن المراقبة والحماية للحدود وللنّجدة.. إلخ.. وما هذا إلاّ من إبداع العقل البشري في التصنيع، وإنّ العقل البشري من خلق الله، فالله تعالى هو صاحب الفضل والخلق.

- وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ (43) إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ (44) :

ولو شاء الله لأغرق من ركب البحر وكان كافرا بأنعم الله، فعندئذ لا يجد من ينجده من الغرق وينقذه منه، ولكن قضى الله أن ينقذهم منه، وأن يبلّغهم مقاصدهم آمنين برحمة منه

وفضل، وقضى أن يمتّعهم بحياتهم وبدنياهم وزينتها زمنا حتى يأتيهم أجلهم فيرجعون إلى الله تعالى.

- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) :**

هذه في المقصد من عرض هذه الآيات من فضل الله تعالى على عباده، المقصد منها التعرّف على عظمة الله وعلى دلائل خلقه ليؤمنوا به وحده وليخصّوه وحده بالعبادة والطاعة والدعاء، ولكن حين يُدْعَى المشركون للخشية من الله تعالى في تقديسهم لآلهة مزعومة غير الله، وحين يُدْعون للخوف من عقاب الله سبب كفرهم وجحودهم وهم ينعمون في دنياهم بنعيمه وفضائله، ولاتّقاء عذابه يوم لقائه بعد مماتهم عند بعثهم، وهو يوم ملاقوه عساهم يحظون بمغفرة من ربّهم ورحمة فينقذون أنفسهم من وعيده، أصمّوا آذانهم، وتركوا الموعظة من وراء ظهورهم مكابرة وعنادا.

- **وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46) :**

ومن غريب أمر المشركين أنّه كلّما جاءهم من حجّة ودليل على وحدانية الله تعالى وبطلان آلهتهم إلاّ تركوا النّظر فيما جاءهم ولم يتدبّروه، ولم يسمعوا له.

- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (47) :**

هذه في بيان ظاهرة من ظواهر صدّ المسلمين عن دينهم من طرف المشركين. كان أغلب المسلمين في أوّل عهد الدعوة من الفقراء والمستضعفين. وكان العرب يمجّدون أنفسهم بأنّهم أهل جود وكرم وإقراء الضيف لكنّهم مع المسلمين الفقراء يمتنعون عن الإحسان إليهم عمدا. يقول المشركون إذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله تعالى على هؤلاء: أنطعم قوما يعتقدون أنّ الله تعالى لو يشاء أطعمهم، إنّ هؤلاء –ويقصدون فقراء المسلمين – قد أخطؤوا حين تركوا دين آبائهم، وقد اِنحرفوا بدينهم فعاقبتهم الآلهة بتجويعهم. وقد كان العرب يهبون لآلهتهم صنفا من الأنعام ويجعلونها طعاما لفقرائهم، فلمّا أسلم بعضهم صار طعام الآلهة حراما عليهم لأنّها تذبح على غير اِسم الله تعالى. وهذا ما قصدوه بقولهم ذلك، وقد وجدوا في هذا الرفض والتعليل حجّة لصدّ المسلمين عن دينهم لردّهم للشّرك.

- **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (48) :**

وإذا دُعِيَ هؤلاء المشركون للخشية من عذاب الله يوم القيامة قالوا ناكرين ومستبعدين قيام الساعة: متى يكون هذا اليوم الموعود الذي تتوعدوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم؟

- **مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) :**

ليس بعيدًا عنهم ما ينْتَظِرُهُم. إنّها صاعقة واحدة قويّة من نفخة في الصور تنهي أجلهم، تأتيهم بغتة، وهم في أمورهم الدنيوية يختصمون.

- فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ (50) :

إنّ الساعة حين تأتيهم فإنّها تبغتهم وتنهي أجلهم سريعا حتى أنّهم لا يجدون فرصة من زمن لأن يوصوا بشيء، ولا لأن يعودوا لأهليهم يأخذهم الموت على الحال الذي كانوا عليه وفي المكان الذي هم فيه.

- وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ (51) :

ثمّ يُنفخ في الصور النّفخة الثانية فإذا هم يخرجون من قبورهم مسرعين في المشي.

- قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (52) :

ويومئذ يُفاجَؤون بهذا البعث من القبور، وبخروجهم مسرعين في المشي، وهم يقولون متحسّرين على أنفسهم وفي ذعر: من أيقظنا من رقدتنا، فيقال لهم – لعلّه قول الملائكة، أو ربّما يكون من قول المؤمنين – هذا ما سبق أن أخبركم الرّحمان بوقوعه، وصدق رسل الله عليهم السلام فيما أخبروكم به، وفيما أنذروكم منه.

- إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ (53) :

إنْ هي إلاّ صيحة واحدة فإذا جميع الخلائق بين يدي الله مساقون وحاضرون.

- فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (54) :

إنّه يوم الحساب عند العدل الحكم، وهو أحكم الحاكمين فلا تظلم نفسٌ عنده في شيء ممّا عملته من خير لتجزى عنه، وإن كانت هذه النّفس مسيئة ومذنبة وعاصية فإنّها لا تؤاخذ عن أعمالها من العصيان إلاّ بقدر ما عملت بالعدل دون زيادة.

جاء ذكر هذا العرض الذي هو من علم الغيب لتعلم كلّ نفس ما سيكون من أمر الساعة، ومن أمر القيامة، ومن أمر الحساب حتى لا يكون لها حجّة بين يدي الله بأنّه لم يبلغها هذا التّذير. أمّا إذا علمته فأخذت حيطتها وحذرها للنّجاة من الحسرة والنّدم ومن المؤاخذة وسوء العاقبة واِنتفعت بهذه الموعظة فقد آثرت الأمن والأمان لذاتها. وما يغفل عن هذا التّذير، ويتركه وراء ظهره إلاّ مفلس ظالم لنفسه.

- إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ (55) هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (56) لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (57) سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ (58) :

هذه آيات تبشير بعظيم التكريم لصفوة من المؤمنين. جاءت هذه الآي التي يرجو كلّ مؤمن أن يحظى بهذا الشرف العظيم أن يلقى سلاما قولا من ربّ رحيم يوم الهول العظيم فيطمئنّ قلبه



ويأمن ممّا يخافه ويخشاه، جاءت بعد آيات في وصف هول يوم القيامة، وذهول العصاة المكذّبين بالبعث يوم يبعثون ويساقون للميزان، وبعدها وردت آيات أشدّ بأسا لأنّ فيها سماعا لتوبيخ من الله تعالى لعباده الكافرين من ذرية آدم، وفيها عرض لمشاهد من العذاب أليمة. هؤلاء بين الهولين يجدون أنفسهم فاكهين، ومنشغلين برفاههم، وبعيدين عن حضور الأهوال، إنّهم أصحاب الجنّة...

أصحاب الجنّة هم أهلها وسكّانها ومستحقّوها، هم أهل صدق الإيمان، والطاعات الخالصة، وأهل الفضائل، يتقدّمهم المصطفون الأخيار: الأنبياء والمرسلون، وهم الشهداء الذين هم أحياء عند ربّهم يرزقون، والذين أنعم الله عليهم من الصّدّيقين وحسن أولئك رفيقا من مثل القرّاء والعلماء العاملين، وأهل الفضل من مثل الأيمّة العدول الصالحين، والمنفقين في سبيل الله والمصالح العامّة اِبتغاء وجه الله ومنهم المكرمون عند الله سبحانه، ومنهم النّساء الفضليات الصالحات القانتات التائبات العابدات المبشّرات بفضل الله وإحسانه...

هؤلاء في غوغائية البعث والسّوْق للحساب وفيهم الهارب والجاثي والخائف، والنّاس ينتظرون حسابهم وجميعهم يطمعون في النّجاة من عذاب النّار، ويطمعون في أن يحظَوْا بمغفرة من ربّهم ورحمته، هؤلاء المصطفون الأخيار يجدون أنفسهم في الجنّة في نعيم عظيم يُشْغِلُهُمْ عمّا يحدث خارج الجنّة من أهوال. هؤلاء يجدون أنفسهم يتلذّذون بما عندهم من طعام ومن رفاه، ويتفكّهون في سرور ومرح ومعهم أزواجهم جالسين على سرر رفيعة واسعة وعريضة جلسة الملوك. أمامهم كلّ صنف من الفاكهة وبين أيديهم خدم يأتونهم بكلّ ما يطلبون. ثمّ يسمعون من الله عزّ وجلّ تحيتهم بالسلام قولا يعرف كلّ من سمعه أنّه صادر عن ربّ رحيم كريم. إذا كان المؤمن يسأل ربّه كلّما سمع آيات نذير – السلامة وحسن العاقبة– فإنّه حَرِيٌّ به إذا مرّ بهذه الآيات أن يدعو ربّه بأن يكون في زُمرة هؤلاء المكرّمين، هذه غاية رجاء كلّ مؤمن، وغاية دعائه. آيات برّاقة بين آيات شقاء وعذاب، فهي آيات لَألاءَة برّاقة في الظلمة الحالكة، فَلَعَلِّيَ لا أكون مخطئا حين أقول: لعلّ بسبب وجود هذه الآي وصفت هذه السورة بأنّها قلب القرآن، والله أعلم.

- **وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ (59) :**

هيّا –أيّها الكافرون المكذّبون المجرمون– انفصلوا عن المؤمنين، اِبتعدوا عنهم وتميّزوا عنهم.

- **أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (60) :**

هذه إلى الآية 68 في توبيخ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، الذين تميّزوا عن المؤمنين، وهي في ما أعدّ لهم من عقاب قصد تحذير المشركين من هذه العاقبة السيّئة، ولترغيبهم في الإسراع للإنابة والتوبة. والمعنى: ألم أُوصِكُمْ، وآمُرْكم – يا بني آدم ممن جئتموني

بمعاصيكم – بأن لا تطيعوا الشيطان فيما يزيّنه لكم لتغريركم. ألم أنبّهكم بأنّه لكم عدوّ واضح لا يحبّ لكم الخير، وأنّه غرور، وقد حذّرتكم من طاعته؟ والاستفهام هنا للتّوبيخ والتّقريع.

- وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (61) :

ولقد أمرتكم أن تعبدوني، وأن تقيموا على صراطي المستقيم في الدين وفيما شرعته لكم. بهذا التّذكير لا يجد كلّ من غفل عن ذكر ربّه وعن عبادته وطاعته أيّ عذر، ولا يجد قولا يحتجّ به على غفلته، ليس له إلاّ أن ينكّس رأسه، وأن ينادي على نفسه بالويل والثبور، إنّ هذا لمن أبلغ المواعظ، فويل للملحدين وللكافرين من هول هذا الموقف.

- وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ (62) :

ولقد صدّ الشيطان خلقا كثيرا عن عبادة الله، وعن الاستقامة على طاعته وشرعه. أليس لهؤلاء عقول يعقلون بها ليميّزوا بين الحقّ والضلال، بين العمل الصالح والعمل السّيّء المنكر؟ والاستفهام للتّوبيخ على تعطيل العقل والفهم والنّظر، وللتوبيخ على اتّباع الهوى والشّيطان.

- هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (63) ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ (64) :

ثمّ يُقْضَى فيهم بأن يحشروا في جهنّم التي تَوَعَّدَ الله تعالى بها كلّ كافر عاصٍ مذنب، وذلك ليقاسوا حرّ نارها الملتهبة بسبب كفرهم بالله تعالى وبالبعث وبالرسل وبالوعيد.

- ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (65) :

في ذلك اليوم يُطبع على أفواههم فلا يستطيعون كلاما، وتنطق أيديهم بما كانوا يعملون وتشهد على معاصيهم، وتشهد عليهم أرجلهم على ما سعوا بها إلى المعاصي والمنكرات. وهذه كقوله تعالى (يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)(النور الآية 24) غير أنّ الآية في هذه السورة تُشِيرُ للختم على أفواههم، وذلك لأنّه من المعلوم أنّ أفواههم ستنطق بالاعتذار أو بالكذب، لكن اللسان الذي يُنْطِقُهُ اللهُ تعالى – الوارد ذكره في سورة النور إنّما هو شاهد على كذبهم وهزئهم برسل الله وبالوعيد، فوجب بيان الاختلاف بين هذه الآية وتلك. والقصد من الآية تنبيه الغافلين بأنّ الجوارح ستكون شاهدة على صاحبها إذا اِستعملها أو اِستغلّها في المعاصي حتّى يأخذ حذره من الوقوع فيها.

- وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ (66) :

ولو يشاء الله تعالى لتركهم عميانا، ولجعل مكانها شقوقا ممسوحة، فسارعوا إلى الطّريق ليتجاوزوه، فكيف سيبصرون طريقهم وعيونهم مطموسة؟ لقد أنقذهم الله تعالى من هذا العمى وإن كانوا يستحقّونه لأنّهم حينما كانوا يبصرون في دنياهم قد أغْشَوْا أبصارهم من أنفسهم عن إبصار الحقّ والهدى، ولأنّه قد جاءهم من يرشدهم إلى صراط الله المستقيم فلم يهتدوا إليه، فحقّ فيهم أن

يطمس على أعينهم في آخرتهم ليتعثّروا في طريقهم السويّ فينزلقون في المهاوي الساحقة ويظلّون يعذّبون بعذاب الصعود والسقوط مرّة بعد مرّة.

- وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ (67) :

ولو شاء الله لحوّل صور خلقتهم إلى صور قبيحة لإذلالهم رغم ما كانوا عليه في دنياهم من مكانة رفيعة ومن فخر بأنفسهم، ولتنفير النّاس منهم عقابا لهم على كبريائهم واستكبارهم وعلى غرورهم وهزئهم في دنياهم، وبهذا المسخ والإذلال لا يستطيعون أن يمضوا أمامهم، ولا أن يرجعوا وراءهم، وهذا ممّا يجعلهم مكتئبين، لا يحبّون أن يُرَوْا كي لا يشمت فيهم، وكي لا يروا نفورا منهم بعد فخرهم وعزّهم.

- وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ (68) :

ومن يطل الله تعالى في عمره، ويمدّد له فإنّه يردّه بعد ذلك إلى أرذل العمر وإلى الوهن، أفلا تدركون قدرة الله تعالى. وإنّ إطالة عمر المؤمن هي لمزيد إكتساب الأجر والثواب بطاعاته وبصبره على مشقّة الوهن والضعف وفي الحديث الشريف أنّ الله يقدّر الشيبة في الإسلام، وأمّا إن كان الإنسان غير مؤمن فإنّ هذه الإطالة من الإمهال، فمن تاب وأصلح فإنّ الله غفور رحيم، فإنْ لم يتب وظلّ على ضلالته اِزداد آثامًا. نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.

- وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ (69) :

هذه لردّ التّهمة عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأنّه شاعر تكذيبا بالتّنزيل. والمعنى: لم يكن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم شاعرًا وما تعلّم فنون الشعر وقوله، وما كان ليجوز له أو ليُيسّر له لأن يكون شاعرا. وما جاءكم به هو ذكر من عند ربّكم، وهو قرآن دلائله واضحة على أنّه من عند الله لأنّه حديث معجز، وفيه مواعظ وإرشاد لينتفع بها المتدبّرون الذاكرون.

- لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (70) :

ولقد أُرْسِلْتَ – يا نبيّ الله – بهذا الكتاب لتحذّر مِنْ سوء عاقبة الكفر والغفلة كلّ مَنْ كان (حَيًّا) أي عاقلا ناضجا مدركا للحقائق وواعيا بها، وليعلم الكافرون أنّه يستوجب عليهم العقاب والعذاب إذا أصرّوا على كفرهم.

- أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ (71) :

هذه مع الآيتين المواليتين في بعضٍ من دلائل فضل الله تعالى على خلقه. والاستفهام في الآية للتنبيه قصد حفز العقل على التدبّر فيما خلق الله لعباده وجعله مسخّرا للانتفاع به. والمعنى: أو لم ينظروا بعين البصيرة والوعي فيما خلق الله لهم من تقديره، واِنفرد بخلقه دون سواه من الأنعام: (الإبل والبقر والغنم والمعز) فإذا هم يملكونها ويغنمون بملكيتها وإنتاجها وألبانها الثروات.

- وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ (72) :

وجعلها مسخّرة لأمرهم، منقادة لرغباتهم، منها ما يركبون عليها لأسفارهم، وتحمل أثقالهم، ومنها ما يأكلون لحومها.

- وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ (73) :

ولهم فيها منافع أخرى لاستغلالها للحرث أو الحمل أو الكراء، ويشربون ألبانها ويصنعون من ألبانها ما يأكلون ويدّخرون، أفلا يشكرون الله تعالى على نعمه؟ والاستفهام للتوبيخ لأنّ المشركين كانوا يجعلون منها قرابين يتقرّبون بها لأصنامهم، ولا يجعلون منها صدقات اِبتغاء وجه الله تعالى الذي خلق لهم الأنعام وذلّلها لهم.

- وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ (74) :

هذه مع الآية الموالية لتأييس المشركين من الانتفاع بشيء من عبادتهم للأصنام التي تمثّل لهم آلهة مزعومة من نسيج أخيلتهم ومن تقليدهم لضلالات آبائهم. والمعنى: اتّخذ المشركون من دون الله الحقّ آلهة وهمية من زعمهم طمعا في أن تنقذهم من عذاب الله أو من سوء المصير ومن السيّئات ومن حلول الكوارث بهم.

- لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٌ مُّحۡضَرُونَ (75) :

هذه الآلهة المزعومة لن تنقذ المشركين من عذاب الله تعالى، ولن تشفع لهم منه. وقد جُمعت الآلهة هنا جمع عاقل لأنّ من المشركين من ألّه بعضا من الملوك الجبابرة من مثل قارون ونمرود، ومنهم من جعل نبيّ الله عيسى عليه السلام ثالث ثلاثة، ومن الشرك من ادّعى أنّ الملائكة بنات الله من سروات الجنّ وهم يكذبون، ويقولون ما لا يعلمون. ومنهم من يعبد الجنّ، وأكثرهم بهم مؤمنون اِتّقاء شرّهم، ومنهم من قدّس الكهنة، وكان الكهنة يمنحونهم صكوك الغفران، وكلّها من الأوهام المزعومة المختلقة. هذه الآلهة المزعومة وجندهم من الكهنة والدعاة لها وخدمتها وعبّادها سيحضرون يوم القيامة بين يدي الله تعالى لسؤالهم عن معتقدهم، وعن أعمالهم، وعمّا يدّعون، وعن تغريرهم للنّاس.

- فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ (76) :

هذه لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يحزن لصدّ المشركين عن السماع لدعوته وعن الاستجابة له إصرارًا على كفرهم. والمعنى: فلا تتألّم وتتأثّر بإصرارهم على الشّرك، وبإصرارهم على تكذيبك والتكذيب بما جئتهم به. الله حافظك منهم، وإنّه محاسبهم عمّا يقولون فيك جهرا وسرّا.

- أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ (77) :

هذه إلى آخر السورة في التأكيد على القيام للحساب يوم البعث، والمعنى: أو لا ينظر الإنسان كيف خُلق ليتعرّف على خالقه وعلى قدرته وعلى حكمته في الخلق. لقد خلقه الله من اِلتقاء ماء الرّجل ببويضة المرأة. نشأ من هذه النّطفة ثمّ لمّا كبر وقويّ إذا هو شديد الخصومة بالباطل في الاعتراف بخالقه الذي خلقه ليطيعه ويشكره ولا يعصيه، ما أغرب أمره في الجحود!

- وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ **(78)** :

وحين يدعى للإيمان بالبعث للحساب يسأل مستغربا: من يحيي العظام القديمة جدا والبالية أشدّ البِلى حتى تُفتَّتْ؟ وسؤاله دالّ على اِستبعاده لحصول ذلك وينسى ماذا كان قبل خلقه، ثمّ كيف خُلق، وكيف وُلِد.

- قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ **(79)** :

أجبه بأنّ الذي أنشأ هذه العظام وخلق منها إنسانا، وأحياه مولودا جديدا بعد عدم هو الذي يعيد إحياءها من جديد وإعادة صاحبها وبعثه من جديد، وهو تعالى واسع العلم بوسائل الخلق والإيجاد، وهو تعالى عليم بما صارت إليه العظام وبتحلّلها، وهو قادر على أن يأتي بها، وهو القدير على إعادة إحيائها.

- ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ **(80)** :

ألا ترى أنّكم تقدحون النّار من الشجر الأخضر الرّطب، ومن السُّنَنِ الكونية أنّ النّار تُخمد بالرطوبة، ولكنّكم من الرطب قدحتم النّار من غصنين أخضرين. جاء في (الكشّاف للزمخشري ج3 ص 294) : "ثمّ ذكر من بدائع خلقه إنقداح النّار من الشّجر الأخضر مع مضادّة النّار الماء وإنطفائها به، وهي الزناد التي تُورى بها الأعراضُ، وأكثرها من المَرْخِ والعَفَارِ، وفي أمثالهم من كلّ شجر نار، واستُمْجِدَ المَرْخُ والعِفَارُ، يقطع الرّجلُ منهما غصنين مثل الشَّوَاكَيْنِ وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخَ وهو ذكرٌ على العِفَارِ وهي أنثى فتُقْدَحُ النّار بإذن الله. وينبت المرخ والعفار في أرض الحجاز... ومثل ذلك اِحتكاك السُّحُب فإنّ من احتكاكها يولد البرقُ وهو نار ملتهبة".

وقد جيء بهذا التّذكير من حياة العرب قديما ليعلموا عظيم القدرة التي لا تخضع لناموس الطبيعة. قدرة الله قدرة خارقة لكلّ معهود ولكلّ ناموس أو منطق عقلي. إنّه تعالى لا يعجزه شيء في السماوات وفي الأرض.

- أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ **(81)** :

هذه لإقناع قليلي الإدراك والفهم بأنّ الله لا يُعجزهُ بعث الموتى. فالذي خلق السماوات والأرض أول مرّة لا يعجزه أن يخلق مثلهم، فهذا أمر يسير بعد الإنشاء الأوّل الذي هو أعسر.

إنّ إعادة الخلق يسيرة على الله تعالى فإنّه كثير الخلق والإنشاء والإبداع. وهو عليم بما يحتاج إليه خلائقه لقيامهم ولإيجادهم ولبقائهم. والقصد من هذا التّذكير أن يقتنع كلّ من يستبعد حصول البعث بأنّه على الله تعالى أيسر من الخلق الأول. قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)(الأحقاف الآية 33).

- إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ **(82) :**

إذا أراد الله تعالى شيئا فإنّما يأمر بإيجاده بلفظ: (كُن) فيوجد من غير عمل ومن غير مشقّة. أمره يُقْضَى بين حرفي: الكاف، والنّون. وهذا من دلائل عظيم القدرة.

- فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ **(83) :**

تنزّه الخالق المالك لكلّ شيء عن النقص وعن العجز وعن الحاجة وعن الخلق. هو القائم على ملكوته، هو تعالى خالقه وواجده ومالكه، وكلّ ما في ملكوته هو له، وكلّ شيء عائد إليه وخاضع لأمره ولإرادته وقضائه.

والعاقل المتدبّر لهذه الآيات يدرك بأنّه من خَلْق الله تعالى، خُلِق بإرادة الله تعالى وبأمره، وأنّه عبدٌ لخالقه وواجده، وأنّه تعالى لا يعجزه أن يردّه إليه، وأن يقضي فيه بما شاء، ويدرك أنّ وجوده أو بقاءه ليس خاضعا لإرادته، وإنّما هو من إرادة الله تعالى، وعندئذ يسترشد هذا الإنسان فيقابل هذا الفضل بالشّكر والطّاعة لله الخالق الواجد، مالكِ أمره.

رقمها	ســـــورة الصافـّــــــات	آياتها
37	ـــــ مكيّة ـــــ	182

سمّيت بسورة "الصافّات" لافتتاحها بالقسم الإلاهي بالصّافات.

وهي كشأن السور المكيّة في إثبات أصول العقيدة: التوحيد، الرسالة والتصديق بالبعث وبالوعد والوعيد، وعرضت صورًا من مشاهد القيامة والجزاء والعقاب.

وركّزت على فساد المُعتقد بتقديس الملائكة والجنّ لإبطال عبادتهم.

وجاء فيها ذكر قصّة الذبيح، ونجاة يونس من بطن الحوت، وعرض لصفات بعض الأنبياء.

وخُتمت السورة بالثناء على أعمال الملائكة، وبوعد المرسلين بالنّصرة، وبمثل ما ختمت به سورة (يس) فقد تمّت سورة الصافّات بالتّسبيح لله تعالى والثناء عليه جلّ وعلا.

- وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا (1) فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا (2) فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا (3) إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ (4) :

هذه الآيات في القسم بأصناف من الملائكة على أنّ الله تعالى واحد لا شريك له ولا ندّ، ولا صاحبة له ولا ولد. (وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ) قسما بالملائكة المجتمعة يوم القيامة صفوفا منتظمة منتظرة أمر ربّها. و(فَٱلزَّٰجِرَٰتِ) هي الملائكة التي تردع الشياطين على اِستراق السمع، أو التي تسوق السّحب، أو التي تسوق الكافرين الهاربين من التقدّم للحساب فتزجرهم لسوقهم للأمام.

وأمّا (فَٱلتَّٰلِيَٰتِ) فهي الملائكة التي تلقي كلام الله تعالى على الأنبياء والمرسلين، وهي التي تسبّح بحمد الله تعالى دون فتور، وهي التي تستغفر للمؤمنين. قسما بأصناف هذه الملائكة (إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ) غاية هذا القسم إثبات وحدانية الله عزّ وجلّ. هو الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، وليس له كفؤا أحد. وكلّ من ادّعى الألوهية من دونه هو اِدّعاء كاذب، وكلُّ تَوَهُّمٍ بوجود آلهة أخرى أو اِدّعاء هو توهّم باطل وادّعاء كاذب.

- رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ (5) :

هذه مع الآيات الموالية إلى الآية 11، في الاستدلال على اِستحقاق الله الواحد الأحد للألوهية. إنّه تعالى سيّد السماوات والأرض وما بينهما وسيّد الاتّجاهات: مشرقا ومغربا وشمالا وجنوبا وقبلة. هو واجدها، والقيّوم عليها، وكلّ ما فيها يسير بأمره.

والملاحظ أنّ الآية ذكرت (ٱلۡمَشَٰرِقِ) في صيغة الجمع، وذلك لأنّ مطلع الشمس على سطح الأرض يختلف من يوم إلى آخر على مدار السنّة في مكان مشرقها وفي وقت الشّروق، فليس



لمشرق الشمس على وجه الأرض في بلدٍ مَا زاوية واحدة ومكان مطلع ثابت ووقت ثابت للشروق لا يتغيّر، لذلك قيل (وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ)، وكذلك الأمر في أوقات الغروب، وزوايا المغارب، ولم تُذكر المغارب في هذه الآية ولكنّه ذُكر في الآية (فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ)(المعارج الآية 40) وذكر ما بين المشرق والمغرب في (الشعراء الآية 28) (قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ). وما بينهما هو الشمال والجنوب وقبلة المسلمين في الصلاة. وقد جاء ذكر المشرق في هذه الآية مفردا وكذلك لفظ المغرب ولكنّه قد ورد مثنّى في(الرحمان الآية 17) (رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ) . وقد ثنّي المشرق وكذلك المغرب لأنّ الأرض بيضوية الشكل، فإذا أشرقت الشمس في مكان منها فإنّها في الجهة المقابلة لها من ظهرها تغرب، حتّى إذا غربت من حيث أشرقت، فإنّها تشرق في المكان الذي كان قد غربت فيها، فبسبب كروية الأرض وشكلها البيضوي وبحسب دورانها حول الشمس فكأنّ للأرض مشرقين، وكأنّ لها مغربين.

ومن النّاحية اللّغويّة فإنّه يجب العلم بأنّ القرآن نزل بلغة العرب على المعهود من أساليب كلامهم وفنونه. ومن أساليب كلامهم وفنونه: الإجمالي، والتفصيلي، والبسط والإيجاز، لذلك ذكر المشرق مرّة دون المغرب من الإيجاز لأنّه من المعلوم تلازم الاثنين، فلابدّ للمشرق من مغرب، وجاء الإجمالي في المشارق، وجاء التفصيلي في سورة الشعراء. وكان المشرق أولى بالذكر من المغرب لأنّه أشرف إذ هو منبع الأنوار والأضواء.

- إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ (6) :

ومن دلائل خلق الله تعالى، واِنفراده بالخلق دون سواه أن أضاء السماء الليلية بالكواكب وجمّلها بها لتؤنس المسافر والساهر، وإن قيل: كيف خصّ الله سبحانه وتعالى سماء الدنيا بذكر زينتها مع أنّ غير سماء الدنيا مزيّنة بالكواكب أيضا، فإنّ المنطق يقول إنّما خصّها بالذكر لأنّا نرى السماء الدنيا ولا نرى الأخرى رؤية بصرية.

- وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ (7) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ (8) دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ (9) :

وجعل الله السماء الدنيا حافظة للبشر من كلّ شيطان خارج عن طاعة الله تعالى ومتمرّد عنها. هذا الحفظ يمنعهم من اِستراق السمع لما يجري في الملإِ الأعلى ولخبرهم. والمقصود بالملإِ الأعلى كبار الملائكة الموكّلون بتنفيذ أوامر الله عزّ وجلّ. فإذا حاول الشياطين المردة أن يسترقوا السمع ممّا يقولون وممّا يأمرون به أتباعهم فإنّهم يقذفون من كلّ جانب بالشّهب الحارقة الملتهبة ليطردوا من مواقعهم طردا شديدا يبعدهم عنها. ثمّ إنّ لهم عذابا يلازمهم، لا ينقطع

عنهم. قال تعالى ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾(الجنّ الآيتان 8 و9).

- **إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10) :**

وأمّا من اِختلس من الشياطين المردة كلمة سمعها من الملإ الأعلى مسارقة وبسرعة فإنّه يلحق بشهاب يثقبه فيحرقه ويدمّره حتى لا يَبْلُغَ أن يُبَلِّغَ أحدا من قرنائه ما سمع مسارقة. والشهاب شعلة نار محرقة ساطعة تنقضّ على الشيطان فتهلكه.

- **فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (11) :**

هذه إلى الآية 39 في وعيد المشركين الذين يعرضون عن سماع التنزيل، والذين يكذّبون بالبعث ولا يؤمنون به، وفيما أُعِدَّ لهم من العذاب للإنذار والتحذير جزاء طغيانهم، وتكذيبهم بالرّسول واتّهامه بالجنون. والمعنى: فاسأل مشركي العرب أهم أصعب خلقا على الله تعالى أم خلق السماء بما فيها من أجرام وكواكب وسعة، وخلق الأرض وما عليها من الكائنات والموجودات. لقد كان خلقُهم على الله تعالى يسيرا. أصل خلقِهم من طين متماسك ملتصق بعضه ببعض.

- **بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) :**

وإنّك – يا محمّد – لتعجب من شدّة إصرارهم على الشّرك وعلى التكذيب برسالتك رغم ما علموا فيك من صدق وأمانة، ورغم الدلائل التي جئتهم بها، وهم يسخرون بوعظك ويهزؤون بما جاءهم من الوعيد.

- **وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ (13) :**

وإذا وعظوا بالقرآن لا ينتفعون به، أو ذكّروا بما حدث للأمم السالفة من هلاك بسبب كفرهم وهزئهم برسلهم وبالوعيد أعرضوا عن السماع، ولم يتدبّروا ما جاءهم.

- **وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) :**

وإذا رأوْا آية معجزة تراهم يبالغون في الاستهزاء والسخرية.

- **وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (15) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ (18) :**

وإذا حدّثتهم عن البعث وحذّرتهم منه، ودعوتهم للعمل له للنّجاة من سوء عاقبة أنكروا عليك ما وعظتهم به، وظنّوا أنّ بعثهم بعد مماتهم وتحوّل أجسادهم إلى تراب أمر يستحيل وقوعه، ولا يكون إلاّ من عمل السحر الظاهر. وأغرب من أمر بعثهم بعثُ آبائهم الأقدمين الذين اِندثروا، فهذا أمرٌ عندهم يستحيل وقوعه. أخبرهم – يا محمّد – أنّ بعثهم أمر واقع وأنّ رجوع آبائهم إلى



ربّهم أمر أكيد أيضا، وأنّهم سيبعثون يومئذ إلى ربّهم وسيساقون إليه أذلاّء صاغرين. وهذا كقوله تعالى (وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)(النمل الآية 87).

- فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (19) :

إنّ أمر بعثهم وبعث آبائهم أمرٌ يسيرٌ على الله تعالى، إنّها نفخة واحدة في الصور فإذا هم قيام ينظرون من حولهم فزعين، مدهوشين، عيونهم شاخصة.

- وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) :

وعلموا أنّهم قد بُعثوا من قبورهم فقالوا لأنفسهم: الويل لنا، هذا يوم البعث والحساب الذي أُخْبِرْنا به، ولم نصدّق، وقد سُمِّي هذا اليوم بيوم الدين لأنّ كلّ دين سماوي قد جاء بالاعتقاد به، فالتّصديق به من الدين، ومن أنكره فسَقَ عن دينه أي خرج عنه، ولذلك قال هؤلاء بأنّه يوم الدين، أي قد ظهر اليوم الذي يُفْصَلُ فيه بين النّاس بين المتديّن بالدّين الحقّ، وبين الكافر والفاسق.

- هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (21) :

ويقال لهم هذا الحكم في الخلق والقضاء بينهم، ويوم الحكم بين المكذّبين بالبعث والحساب وبين رسلهم ووعّاظهم لتبيين المحقّ من المبطل.

- احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ(23) :

هاتان إلى الآية 39 في مشهد من مشاهد حساب المكذّبين. المعنى: ويُقضى على الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الرّسل وبالتكذيب بالوعيد بأن يدفعوا إلى الجحيم مع (أَزْوَاجَهُمْ) : أشياعهم في الشرك والتكذيب، وهذان من الظلم: ظلم الله في حقّه في التوحيد وتخصيصه وحده بالعبادة والألوهية والطّاعة والعمل بشرعه، وظلم الرّسل بتكذيبهم، وظلموا أنفسهم بسخريتهم من الوعيد. ويدفعون إلى الجحيم ليتسقرّوا فيها للإقامة الدائمة مع ما كانوا يعبدون من الأصنام والشياطين من دون الله. (فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ) سوقوهم إلى النّار، ودلّوهم على طريقهم إليها. وأُستُعمل فعل أهدوهم لتذكيرهم بأنّه قد جاءهم من الله تعالى الهدى فرفضوه وأعرضوا عنه، ثمّ عصوه، فلْيَقْبَلُوا اليوم هدايتهم لما كذّبوا به: الجحيم، ليعلموا أنّ ما جاءهم كان حقّا من عند ربّهم وليتأكّدوا من صدق ما كذّبوا به.

- وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (24) :

ويؤمرون بالوقوف أمام الميزان للحساب عمّا كانوا يعبدون وعمّا كانوا يفعلون.

- مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25) :

وحين يجري حسابهم تشخص أبصارهم وتنعقد ألسنتهم فيسألون عن تخاذلهم على نصرة بعضهم لإنقاذ أنفسهم من العذاب، والاستفهام لتذكيرهم بمناصرتهم لبعض حينما كانوا في حياتهم الدنيوية للكيد للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وفي التآمر عليه خاصة عندما اِجتمعوا في دار الندوة وقضوا على أن يقتلوا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أيدي فتية منهم لتفريق دمه على جميع القبائل حتى لا يدفعوا دية القتيل.

- **بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ (26) :**

بل لم يعودوا يتكلّمون ولا يتناصرون ولا يتكلّمون. اِستسلموا اِستسلام الضعيف بعد قوّتهم وكبريائهم وغرورهم واِستسلام المنهزم الذي باغتته المفاجأة التي لم يكن يقدّر لها حسابا، فانقادوا للجحيم في ذلّة.

- **وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ (27) قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ (28) :**

وفي طريقهم إلى الجحيم أقبل المستضعفون والأتباع من الخدم والنّساء اللاّئي أطعن أزواجهنّ فيما أمروهنّ به يسألون أسيادهم: إنّكم كنتم تقنعوننا بأنّا على الحقّ وأنّ ما كنّا نُدعى إليه من الدين الجديد تصفونه بالباطل وبالافتراء على الله، كنتم تتظاهرون لنا بالنصح ولكنّكم خدعتمونا، وغررتم بنا فأخذتمونا للهلاك.

وهذا من معاني (كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ) فهذه في اللسان العربي في ذاك الزمن عند نزول الوحي كانوا يتباركون بكلّ ما يأتي من اليمين، ويعتبرونه من الخير، ويستبشرون به، ويعتبرونه من اليُمن والبركة.

- **قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ (29) :**

وردّ عليهم أسيادهم: لو أحببتم أن تكونوا مؤمنين بما جاءكم به الرسول لآمنتم، ولكنّكم لم تكونوا مصدّقين بما جاءكم. وهكذا يتبرّأ الأسياد من اتّباع عبيدهم وأزواجهم وضعفائهم لما نصحوهم به. والقصد: تنبيه هؤلاء الأتباع من السماع لأسيادهم ليتحمّلوا مسؤولياتهم في مسألة الدين والمعتقد.

- **وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ (30) :**

وقالوا لهم ليحمّلوهم مسؤوليتهم عن اِختيارهم لدينهم ومعتقدهم، وللتّبرّؤ من تحمّل وزر إضلالهم: لم يكن لدينا تأثير عليكم، ولم نفرض عليكم معتقدكم بالفرض والقوّة: بل لقد كنتم متجاوزين حدّكم في المعصية والإنكار.

- **فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (31) فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (32) :**



وصدق علينا وعيد ربّنا. إنّا جميعا اليوم لَمُعذّبون. لقد دعوناكم للتمسّك بديننا، بشركنا وبمعاصينا، وبرفضنا للدّين الجديد، وتكذيبنا بما جاءنا من عند ربّنا فاستجبتم لما دعوناكم، وإنّا كنّا في ضلالتنا بما أغوانا الشيطان، فجميعنا سواء في ضلالة واِتّباع الشيطان.

- **فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (34) :**

إنّ هؤلاء الضالّين بشركهم وتكذيبهم بالرّسول وبالقرآن وبالوعيد مع أتباعهم ومع شياطينهم، جميعهم في عذاب جهنّم واقعون ومقيمون فيها أبدا. كذا يقضي الله تعالى بالمجرمين في حقّ أنفسهم من أمثالهم. قال تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا)(النساء الآية 48).

- **إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) :**

ويتمثّل جرمُ هؤلاء أنّهم كلّما دُعوا لتوحيد الله عزّ وجلّ يتكبّرون على تخصيصه وحده بالعبادة.

- **وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ (36) :**

وكانوا يقولون لتبرير إصرارهم على الشّرك: أيمكن لنا أن ندع تقديس آلهتنا وطلب شفاعتها من أجل الاستجابة لدعوة شاعر مجنون؟ كلاّ لن ننصرف عن عبادتها.

- **بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (37) :**

ويقال لهم (وهذا من قول الملائكة) لقد كذّبتم رسولكم بما جاءكم به من عند ربّه – وحاشاه الكذب – واِتّهمتموه بالجنون وادّعيتم عليه بأنّه شاعر – ما كان شاعرا ولا مجنونا، بل كان رسولا من عند ربّه، وقد جاءكم بالدّين الحقّ: بتوحيد الله، وبشرعه، وجاءكم بالقرآن، وكان مصدّقا بالمرسلين من قبله.

- **إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (39) :**

إنّكم ستلاقون عذابا موجعا ومؤلما في الجحيم، ولن يخفّف عنكم من عذابها، وما هذا العذاب الذي تتلقّونه إلاّ لمجازاتكم عن أعمالكم بمثل ما قدّمتم، فمن قدّم سوءًا لا يلقى إلاّ السوء، والجزاء من جنس العمل. وكما تدين تدان.

- **إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (40) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (41) :**

الآيتان إلى الآية 61 في مثوبة (عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ) وهم المؤمنون الصادقون في إيمانهم، والمخلصون في طاعاتهم لربّهم فيما أمر به، وفيما نهى عنه، هؤلاء لا يعذّبون يوم القيامة، بل يقومون لها آمنين، ويجدون في إنتظارهم تكريما خاصّا بهم من عند ربّهم في جنّات النّعيم.

- **فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (43) :**



يجدون في إقامتهم الدائمة في جنّات النّعيم والرّفاه ما يشتهون من الفاكهة المتنوّعة الكثيرة، ويجدون فيها الحفاوة والتكريم.

- عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ (44) :

ويجدون فيها الرّفاه فتلقاهم جالسين على الأرائك الفاخرة الواسعة المريحة يتآنسون مع بعض بالحديث والتفكّه.

- يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ (45) بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ (47) :

قال علماء اللسان العربي: كلّ كأس في القرآن فهي الخمر، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إناء وقدح. (قاله الضحّاك والسدّي والنّحاس والقرطبي وغيرهم كثير). والمعنى : ويجول بين هؤلاء الساقي فيملأ لهم كؤوسا خمرا من خمر تجري في الجنّة كما تجري العيون على وجه الأرض. وكؤوسهم بيضاء من خمرة بيضاء يجدون عند شرابها لذّة دون أن يصيبهم منها (غَوۡلٌ): وهم الصداع أو القيء والمرض، ودون أن ينزفوا منها، أي دون أن تُذهب عقولهم: فهي خمرة غير خمرة الأرض التي تعصر بالرجلين وتخمّر، هذه خمرة تجري في نهر جارٍ.

- وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ (49) :

وعند هؤلاء حور لا ينظرن لغير أزواجهنّ، وهنّ جميلات واسعات الأعين من حسنهنّ وهنّ بيضٌ مصانات لم يمسهنّ أحد.

لقد كان العرب في جاهليتهم أهل فخر وكبرياء يحبّون الزعامات والسيادة والتكريم تعظيما لشأنهم. لم يكونوا يمتهنون أيّ مهنة غير التجارة. المهن – عندهم – للعبيد وللفقراء المستضعفين. كانت عندهم نواد للاجتماع والتفكه على نحو دار النّدوة، وكان من خير ما يكرمون الضيف العزيز أن يقدّموا له الفواكه وكؤوس الخمر تقدّمها له القيان والجواري الحسان. وكانوا يكثرون من التزوّج بالنساء ويعدّدون بلا حصر، ويتزوّجون القاصرات، ويغرمون بالحسان الجميلات. ولذلك كان أكثر شعرهم في الفخر والغزل، ولا شيء دونهما. يحبّون الرّاحة والمال والخمرة والنساء والفخر.

لذلك جاء ترغيبهم في طاعة الله بوعدهم بتكريم المؤمنين منهم الصادقين في إيمانهم والمخلصين في طاعته بما يحبّون من مظاهر التكريم: الرّاحة والدعة على السرر ومن حولهم الحور الحسان وعندهم الفواكه وتُدَارُ عليهم كؤوس الخمر للأنس والتفكّه.

- فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ (50) :

وكان حديثهم في مجلسهم أن يسألوا بعضهم عن قرنائهم: هل رآهم، وأين هم موجودون؟

- قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ (52) أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ (53) :

قال أحدهم لأصحابه: قد كان عندي خليل وصاحب، كثيرا ما كان يسألني مستغربا: أأنت من الذين يصدّقون بالبعث؟ أءذا متنا وتحوّلنا إلى تراب وعظام نخرة سنبعث من جديد لنحاسب عن أعمالنا لنجازى عنها خيرا أو شرّا؟ إنّ هذا أمر يستحيل وقوعه، ولا أصدّق به. كذا كان يقول لي.

- قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (54) :

قال أحد المؤمنين لإخوانه: هل أنتم ناظرون لأهل النّار لعلّكم تجدونه فيها. وقيل القائل هو أحد الملائكة، والله أعلم بالقائل.

- فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ (55) :

فلمّا نظر لأهل النّار وجد صاحبه في وسط الجحيم يصلى نارها.

- قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ (56) :

(الردى) هو الهلاك، ويعني الموت لأنّه أعظم الهلاك. والمعنى: ولمّا رأى المؤمن صاحبه على تلك الحال قال قسما بالله لقد قاربت أن تجرّني إلى الهلاك بما كنت تشكّكني في البعث والحساب.

- وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ (57) :

ولولا نعمة الله تعالى بأن هداني للإيمان، وللتّصديق بما جاء به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لكنت من الحاضرين معك في ذاك العذاب. والمقصود من الآية وجوب الحذر من قرناء السوء الذين يزيّنون لأصحابهم الكفر والتّكذيب بالبعث وبالدين.

- أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) :

أكان الأمر كما كنت تقول إن نحن إلاّ ميّتون مرّة واحدة فلا نعود للحياة بعد موتنا، ليس هناك إلاّ ميتة واحدة، وليس هناك إحياء بعدها ولا بعث ولا عذاب. والاستفهام للتقرير الذي يفيد بعده الإنكار، كلاّ، ليس الأمر كما قلتَ، ولقد بُعِثْتَ بعد موتك، وأنت واقع في ما أنكرتَه قبلُ.

- إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (60) :

إنّ النّجاة من هذا العذاب بالجحيم، وإنّ النّعيم الذي يلقاه الفائز بالتكريم في جنّة النّعيم لهو الفوز الكبير لمن كان مؤمنا في دنياه يعمل صالحا وكان رجلا مستقيما وغَدَا في آخرته مكرّما وناجيا من العذاب فهذا هو الرّبحُ الكبير في الداريْن.

- لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ (61) :

هذه خلاصة الموعظة ممّا ذُكِر: لمثل هذا الفوز العظيم الذي يجعل الإنسان آمنا في دنياه من عذاب الله تعالى بفضل هداه إلى الله سبحانه وطاعته، ويجعله مكرّما عند ربّه عند ملاقاته في آخرته لمثل هذا فليجتهد المرءُ في طاعته لربّه، وفي طلب رحمته وجنّة النّعيم.

- أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) :

هذه إلى الآية 68 في الصورة المقابلة للتّكريم الذي أنعم الله تعالى به عباده المؤمنين في جنّة النّعيم. والاستفهام هنا يفيد عدم التسوية. والمعنى: أذاك التكريم في جنّة النّعيم خير ضيافةً للإنسان أم أن يطعم من شجرة الزّقّوم في جهنّم؟ ضيافة غير متوافقة ولا متقاربة، بل هي متباعدة جدا.

- إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) :

شجرة الزّقّوم شجرة خبيثة جعلت لتعذيب الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وبإتيان المعاصي. إنّها شجرة تنبت في وسط الجحيم، في قعر جهنم وأسفلها. ثمرها قبيح المنظر كأنّه رؤوس الشياطين المشوّشة والمنفوشة، ومرّة المذاق وكريهة الطعم، (هذا لمقابلة طعام أهل جنّة النعيم من الفواكه وممّا يشتهون). ورغم قبح منظر ثمرها، ومرارتها وطعمها الكريه فإنّهم آكلون منها غصبا وقسرا حتى تمتلئ بطونهم تعذيبا لهم.

- ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (67) :

ثمّ هم يشربون على طعامهم منها ماءً مخلوطا بحرارة ومرارة متناهيًا في الحرارة والغليان والنتانة والمرارة. (وهذا لمقابلة شرب أهل جنّة النّعيم من كأس من معين بيضاء لذّة للشاربين).

- ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) :

ثمّ إنّ إقامتهم الدائمة التي لا يخرجون منها في نار شديدة الحرارة والإحراق. والعياذ بالله. والقصد من عرض هذا المشهد المروّع الإنذار والتّحذّير من هذا الوعيد ليتوب العقلاء إلى الله عزّ وجلّ، ويستغفروه، وليطلبوا غفرانه، وليخشوا عذابه ويطمعوا في جنّة النّعيم. نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.

- إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70) :

الآيتان إلى الآية 74 في بيان أحد أسباب ضلالة هؤلاء الكافرين المكذّبين برسل الله وبكتاب الله وبوعيده. أحد الأسباب هو تقليد الآباء في ضلالتهم وفي جهالتهم، وجدوهم ضالّين فساروا على طريقتهم في عبادة الأصنام وتقديسها، وفي ترديد زعمهم الباطل في أنّها ستكون شافعة لهم من العذاب، وكانوا (يُهْرَعُونَ) يسرعون ويستعجلون في السير على طريقتهم بدون إعمال عقل، وبدون وعي وتدبّر لما يفعلون.

- **وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (71) :**

ولقد كان أكثر الأوّلين السابقين لهؤلاء بعيدين عن الهدى، وتائهين عنه.

- **وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (72) :**

ولم يشأ الله أن يتركهم على ضلالتهم فأرسل فيهم رسلا لهديهم لطريق الله المستقيم ولينذروهم من عذاب الله تعالى وعقابه إن اِستمرّوا على ما هم عليه من الشّرك واِتّباع الشيطان.

- **فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ (73) :**

ولكنّهم كذّبوا رسلهم فيما جاؤوهم به من الدعوة للهدى وتوحيد الله في العبادة والطاعة، فأهلكهم الله تعالى بعذاب، وترك آثارهم المدمّرة دالّة عليهم وعلى عقابهم لكفرهم، فانظر في آثارهم واعتبر بما صاروا إليه واعتبر بعاقبتهم.

- **إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (74) :**

باستثناء عباد الله تعالى الذين آمنوا وأخلصوا لله تعالى في الطاعة والعبادة فإنّه لم يمسسهم سوء، ولم يُهلكوا بعذاب، بل قد أنجاهم الله عزّ وجلّ ممّا أصيب به أقوامهم.

- **وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ (75) :**

لمّا جاء ذكر المنذَرين ناسب ذلك ذكر خبر نوح عليه السلام الذي كان أوّل المرسلين على ما جاء في أشهر أخبار الأنبياء والمرسلين. والمعنى: ولقد دعا نوح ربّه مستغيثا بأن ينجيه من قومه الذين طال فيهم مقامه يدعوهم لنبذ عبادة الأصنام وليوحّدوا الله تعالى بالذكر والعبادة والطاعة فكذّبوا برسالته ولم يستجيبوا لدعوته وكانوا كثيرا ما يهزؤون به إلى حدّ تهديده في نفسه، فاستجاب له ربّه وأحسن الإجابة، فأنجاه من القوم وأغرق الكافرين المكذّبين بالطوفان.

- **وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ (76) :**

وخلّصه الله تعالى من أذى قومه وجماعة المؤمنين الذين اِتّبعوه وصدّقوا به، وأنقذهم من الغرق في الطوفان الذي غمر القوم فأهلكهم جميعا، وقد شهد القوم بما نزل عليهم من الماء من السماء وبما فاضت عليهم الأودية وبما نبع من الأرض من عيون ماءٍ دافقة كربا عظيما شديدا عليهم جعلهم يعيشون لحظات هلاكهم دون أن يستطيعوا إنقاذ أنفسهم منه. ولقد شهد ركّاب سفينة نوح كربا عظيما كذلك حين كانت السفينة تعلو مع الأمواج ثم تنزل في غمرة من ماء البحر وترتطم بالأمواج ولا تثبت على مسير، وقد أنجاهم الله تعالى مع ما أصابهم من الذعر حين رست بهم على الجوديّ.

- **وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ (77) :**

وجعلنا ذرّيته وحدهم دون غيرهم هم الباقين على قيد الحياة ليعمّروا الأرض بتناسلهم بعد الطوفان.

- وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (78) :

وأبقينا على نوح ذكرا جميلا من بعده إلى يوم القيامة في كلّ أمّة للثناء عليه.

- سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ (79) :

ولقد حيّاه الله بتحيته، وجعل الملائكة عليهم السلام يسلّمون عليه بتحيّتهم، وجعلنا المؤمنين يُثْنون عليه الثّناء الحسن ويسلّمون عليه كلّما ذكر اِسمه.

- إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (80) :

هكذا يجزي الله تعالى عباده الذين صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في طاعاتهم لربّهم وأحسنوا في العمل بشرعه: يُنجيهم من الكرب العظيم، ويَرفع ذكرهم والثناء عليهم من بعدهم. لقد اِحتمل نوح عليه السلام الكثير من أذى قومه وهزئهم واِحتمل أذى زوجه وعقوق ابنه وكان صابرا محتسبا.

- إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (81) :

الملفت للانتباه في هذه الآية أنّ الله تعالى قد أثنى على نوح بأنّه من عباده المؤمنين مع أنّ مرتبة الأنبياء والمرسلين فوق مرتبة المؤمنين. إنّما مدحه بذلك تنبيها لنا على جلالة محلّ الإيمان وشرفه، وترغيبا في تحصيله والثبات عليه والازدياد منه، كما قال في مدح إبراهيم عليه السلام (وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)(البقرة الآية 130). والملاحظة الثانية في هذه الآية هو إضافته لنون العظمة لله عزّ وجلّ في (عِبَادِنَا) وهي إضافة تشريف وتكريم.

- ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ (82) :

وكانت عاقبة الآخرين: الكافرين الغرق.

ومحلّ العبرة في هذه الفقرة أنّ الله تعالى ينجي المؤمنين من الكرب بفضيلة إيمانهم، ويهلك الكافرين العصاة المذنبين وهذا للتّرغيب في الإيمان، وللتّحذير من الكفر، وقد أعذر من أنذر.

- وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ (83) :

هذه إلى الآية 113 في نبذة من قصّة إبراهيم التي تظهر صدق إيمانه وشجاعته في الصدع به وبيانه، وفي هجرته بدينه، وفي تكريمه بإنجاب الذرية المباركة، وفي قصة الذبيح وفديته.

والمعنى: وإنّ من تابعي نوح في سيرته ومن السائرين على منهجه إبراهيم عليه السلام. وقد حكى الزمخشري أنّ بين نوح وإبراهيم حوالي ألفين وستمائة سنة، وكان بينهما نبيّان هما هود وصالح عليهما السلام.

- إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ (84) :

وأُذكر أنّ إبراهيم كان يقبل على طاعة الله تعالى بقلب سليم. القلب السليم هو القلب المخلص من الشكّ والشّرك ومن كلّ معتقد فاسد. وهو القلب الذي سلم معتقده من النفاق والرياء

وكان مخلصا في خشيته من ربّه، ومخلصا في طلب رضوان ربّه بعمل الطاعات. هو القلب الذي خلا من الحقد والحسد ومن كلّ مكر. هو القلب النّاصح بمحامد الأخلاق وصفاء المعاملة مع النّاس في صدق وأمانة ومحبّة. هو القلب الذي يخشى الله في السرّ والعلن، ويذكر ربّه في المسرّة والمكروه رضًى بقضاء الله تعالى. وقد كان من أدعية إبراهيم: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾(الشعراء الآيات 87–89).

- **إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ (85) :**

وأُذكر إذ قال لأبيه آزر، وفريق من قومه، ماذا تعبدون؟ وذلك حينما رآهم يقدّسون أصنامهم. وكان آزر ينحت الأوثان من الخشب ويبيعها للنّاس على أنّها آلهة. وما كان سؤال إبراهيم إلاّ للتّعبير عن اِستغرابه ممّا يفعلون، وممّا يعتقدون، وليعبّر لهم عن عدم رضاه لما يراه منهم. وقد كان جريئا وشجاعا في مواجهتهم بهذا الاستغراب.

- **أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (86) :**

ثمّ عاب عليهم آلهتهم. وقد جاء في كتب قصص الأنبياء وفي كتب التفاسير أنّ القوم كانوا يعبدون الكواكب وكانوا يرمزون إليها بأوثان وأصنام. وكان إبراهيم من الكلدانيين وهم قوم قد سكنوا بلاد العراق. قال لهم: أتعبدون من دون الله تعالى آلهة من إفككم. والإفك هو الكذب، والادّعاء الكاذب، والافتراء.

- **فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (87) :**

وقال لهم إبراهيم عليه السلام لتحذيرهم من الغفلة عن عبادة ربّ العالمين، واتّخاذ آلهة أخرى دونه لا تستحقّ الألوهية: ما تظنّون بربّ العالمين؟ أتظنّون أنّه سيغفر لكم الإعراض عن تقديسه وعبادته، وأنّه غافل عنكم، أو أنّه راض عنكم لغفلتكم عنه وعبادة من سواه دونه؟ ويفيد اِستفهامه هذا تحذيرهم من غضب الله تعالى عليهم. وقد ذكّرهم إبراهيم بأنّ الحقيق بعبادتهم وطاعتهم هو ربّ العالمين : خالق السماوات والأرض، وسيّد الخلق جميعهم، وسيّد الكائنات والموجودات.

- **فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ (88) :**

فلمّا كان قومه يعبدون الكواكب على زعمهم الباطل راح إبراهيم يتأمّل في السماء وكواكبها ليتعرّف على ربّه في النّجوم باحثا عن أعظمها وأكبرها.

- **فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ (89) :**

فلمّا نظر فيها لم يجد ربّه في النجوم ولا في القمر ولا في الشّمس أكبر الكواكب فقال في نفسه إنّي مريض: مريض من عبادة قومه الوهمية، ومريض في ذاته لأنّه لم يتعرّف على ربّه الحقّ في النّجوم والكواكب. فآتاه الله رشده. قال تعالى ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾(الأنبياء الآية 51).



قال تعالى (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)(الأنعام الآية 79).

- فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) :

وعاد إبراهيم إلى قومه يحاججهم فيما أبلغه به رشده من الاهتداء إلى الله الحقّ، وحاجّة قومه فيما اِهتدى إليه. قال تعالى (وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ)(الأنعام الآية 80) ولمّا أعيتهم الحجّة ووجد القوم فيه ثباتا على رأيه اِنصرفوا معرضين عنه وعن سماعه.

- فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ(93):

ولمّا غادر القوم قريتهم إلى البرية في عيدهم: عيد اِستقبال الرّبيع، لم يخرج معهم إبراهيم فهيّأت له الفرصة ليدخل معبدهم حيث نصبوا أصنامهم، فمال إليها يسألها: ألا تحبّون أن تأكلوا؟ ما لكم لا تجيبون ولا تتكلّمون، وهو يعلم أنّها لا تأكل ولا تنطق، ولكن كان اِستفهامه وسؤاله للذمّ وللاحتقار، لِمَ يَصْلح الجماد الذي لا ينتفع بشيء ولا يفيد بشيء. واِستفهامه عن أكلها لذمّ فعل قومه في ذبح القرابين لها: بماذا تنتفع من ذبح القرابين لها. وأما سؤاله عن نطقها لذمّ فعل قومه في طاعتها وهي لم تأمر بشيء لأنّها لا تنطق. فمال عليها يحطّمها تحطيما ويكسّرها بقوّة ليقيم الحجّة على قومه حين يقبلون عليها بأنّ آلهتهم الّتي يعبدون لا تستطيع أن تحمي نفسها ولا أن تنفع نفسها بدفع الضرّ عنها فكيف لها أن تكون قادرة على نفعهم بشيء، أو أن تكون دافعة عنهم أيّ ضر، وهي حجّة قويّة عينيّة.

- فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) :

فلمّا عاد القوم لقريتهم وزاروا معبدهم ذهلوا بما رأوْا من تحطيم لآلهتهم، وعلموا أنّ هذا الفعل لا يمكن أن يكون إلاّ من عمل إبراهيم، عدوّ آلهتهم فذهبوا إليه مُسرعين في حنق وغضب شديد.

- قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) :

وواجههم إبراهيم بكلّ جرأة وشجاعة وهدوء فقال لهم: أيُعقل أن تعبدوا ما صنعتم بأيديكم وعملتم فيها أدوات الحفر والنقش لتكون على الصورة التي تحبّون وهي حجارة صمّاء أو خشب ليّن، وتتركون عبادة الله الحقّ الذي خلقكم، وخلق كلّ ما حولكم من الموجودات لتَشْغَلُوها أو لتشغَلُوا بها أو لتنتَفِعُوا بها.

- قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ (97) :

فحكموا فيه بأن يقيموا له محرقة عظيمة تبنى من الحطب وتوقد إيقادا شاملا من كلّ جانب اِنتصارا لآلهتهم ليرموه في نارها المُستعرة ليحرق بها.

- فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (98) :

وأرادوا بهذا الحكم القاسي تعذيبه والانتقام منه والانتصار لآلهتهم، وأحضروا النّاس ليشهدوا هذا التنفيذ للحكم للتشفّي ولتأديب من تحدّثه نفسه أن يفعل فعله يوما، ولكن جرى الأمر على غير ما أرادوه بتدخّل القدرة الربّانية إذ قضى الله تعالى أن يجعل نار هذا الموقف العظيم بردًا وسلاما على إبراهيم، فلمّا صارت المحرقة رمادا وخمدت نارها خرج منها إبراهيم سليما لم تحرق النّار منه إلاّ القيود التي رُبِطَ بها، خرج سليما معافى على أعين النّاس الشهود، وبذا ردّ الله كيد القوم والكهنة في نحرهم، وجعلهم مخزيين مذهولين منهزمين. قال تعالى (قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ)(الأنبياء الآيتين 69-70) وكذا قضى القوم أمرا، وقضى الله أمرًا آخر، وكان أمر الله مفعولا. وبهذا أُلحقت الهزيمة بعبدة الأصنام والمنتصرين لها فكانوا هم الأسفلين.

- **وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ (99) :**

وشعر إبراهيم أنّ مقامه في قومه لم يعد آمنا فقرّر أن يُهاجر من قريته إلى حيث يقدّر الله وِجهته، فخرج مهاجرا إلى حيث يشاء الله ويهديه إلى المكان الآمن.

- **رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (100) :**

ودعا إبراهيم ربّه أن يمنحه ذريّة طيّبة من الصالحين. والولد الصالح هو الولد المستقيم على طاعة الله تعالى وطاعة الوالدين والعامل صالحا في النّاس لحسن خلقه وحسن تعامله معهم بالحقّ والعدل والإحسان.

- **فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ (101) :**

فبشّره الله تعالى بإنجاب ولد من صُلبه يُعرف بالحلم والرَّوِيَةِ. وقد ولد له (إسماعيل) من جارية قبطية اِسمها (هاجر) أهدتها له زوجه (سارّة) التي كانت عاقرا ليبتغي منها ولدا، ثمّ أكرم الله تعالى زوجته (سارّة) فبشّرها بفكّ عقرها للحمل بولد فولدت له (إسحاق)، وبُشِّرَ إبراهيم بأن يرى له حفيدا، فلم يَمُتْ حتى رأى ولادة (يعقوب) من اِبنه (إسحاق). وثلاثتهم كانوا أنبياء – والنّبيّ قدوة للنّاس في صلاحه – فكانوا صالحين اِستجابة لدعوة (إبراهيم).

- **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (102) :**

ولمّا وُلد لإبراهيم الولد الذي كان يرجوه في حياته، وقد تقدّم به العمر، وحين بلغ هذا الولد سنّ القدرة على المشي مع أبيه لقضاء شؤونه، ويقدّر هذا السنّ بأكثر من عشر سنوات رأى إبراهيم في منامه رؤيا جاءه فيها الأمر بذبحه – ورؤيا الأنبياء وحي – فأخبر نبيّ الله اِبنه بهذا



الأمر، وطلب رأيه فيه، فما كان من اِبنه إلاّ أن دعاه لتنفيذ ما أُمِر به طاعة لربّه حتّى لا يعصيه، ثمّ زاده الغلام اليافع ليطمئنه بأنّه سيجده صابرا وطيّعا عند ذبحه بمشيئة الله تعالى.

- فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ (103) وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (104) :

واِستسلم الاثنان: الولد والوالد لأمر الله تعالى طاعة له، وطواعية تنفيذا لقضائه، واِنقيادا لحكمه، وسارا إلى مكان الذبح، واِرتمى الولد على وجهه، وأخذ الأب السكّين وهمّ بتمريرها على رقبته، فإذا بآلة الذبح تضطرب بيده ويسمع حينها مناديا يناديه باسمه: يا إبراهيم.

- قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (105) :

قد عزمت عزما صادقا على تنفيذ ما أمرك الله تعالى به في المنام. اِرفع يدك عن اِبنك، واِرفع اِبنك عن الأرض. قد عفاك الله تعالى من تنفيذ الأمر، ونجّاك من الغمّ. وهكذا يجزي الله المؤمنين الصادقين في إيمانهم الذين يُطيعون الله بإحسان، ولا يعصون الله فيما أمر.

- إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ (106) :

إنّ الأمر الذي دعيت لتنفيذه لمن أعظم البلاء، ومن أشدّ الامتحانات شدّة على النّفس وثقلا. هذا اِبتلاء عظيم حقّا، وشدّة قساوته على النّفس واضحة. شيخ مسنّ كان يدعو طويلا بأن يُرزق ولدا وهو يعلم أنّ زوجه عاقر، وحينما يولد له الطفل من جاريته أو من زوجته التي أنعم الله تعالى عليها في سنّها المتقدّمة بالحيض بعد تعقرها يُدعى لذبحه بيده، فيستجيب للأمر ويشرع في تنفيذه بعزم لمّا بدأ الولد يكبر وصار يسعى معه! فعلا إنّ هذا لمن أعظم الإبتلاء لاختبار العبد في صدق إيمانه وفي صدق طاعته لربّه، لا يُنفِذُ أمرا كهذا إلاّ من كان من أولي العزم، وإبراهيم كان سيّدهم وأوّلهم. ولقد كان بلاءً عظيما كذلك على الطفل اليافع. من ذا الذي يقدر على اِحتمال البرّ بالوالد في أمر كهذا يزهق روحه. لقد سار هذا الولد لمذبحه طيّعا مستعينا بالصبر. عزم على الجود بروحه طاعةً لله تعالى وبرًّا بالوالد. أمِن شدّةٍ أعظم من هذا البلاء!

والعبرة المستفادة أنّ كلّ ما يُبْتَلَى به المؤمن ممّا يراه على نفسه شديدا ومُرًّا وقاسيا هو هيّن إزاء هذا البلاء، ولقد واجه إبراهيم وابنه هذا البلاء العظيم بالصبر والعزم على الطاعة فأنجاهما الله وجعل لهما من بعد عسرهما يُسرا من حيث لم يحتسبا، فلابدّ من حسن الظنّ بالله ولا بدّ من التسلّح بالصبر عن الشدّة، ولا بدّ من إقرار العزم الصادق على طاعة الله فيما أمر من المشاقِّ والله يجازي المحسنين.

- وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ (107) :

وقد فدى الله تعالى هذا الولد المطيع لربّه، البارّ بأبيه، الصابر على البلاء بذبح عظيم تشريفا له. وقد اُختلف في تعيين هذا الولد، هو عند المسلمين إسماعيل، وهو عند اليهود وفي

أخبار الإسرائيليات : إسحاق. وعند الاختلاف في الرأي والقول نحتكم إلى النصّين الصادقين: القرآن الكريم، وما صحّ من السنّة النّبويّة. وبتتبع النّصوص القرآنية فإنّا نجد ذكر (إسماعيل) في آيتين من سورة البقرة: 125 و127 قد سعى مع أبيه إبراهيم في بناء الكعبة، ولم يذكر (إسحاق) في أيّ سعي، والولد الذبيح كان يسعى مع أبيه. وقد ذكر (إسماعيل) في صفته أنّه كان من الصابرين في سورة الأنبياء الآية 85، وقد جاء في الآية 102 من هذا العرض بأنّه وعد أباه بأن يجده من الصابرين. ولم يذكر (إسحاق) في كلّ القرآن الكريم بأنّه متّصف بهذه الصفة، فلذلك فإنّ الأرجح أن نقول بأنّ الولد الذي رأى إبراهيم أنّه يذبحه هو (إسماعيل). وما يؤكّد هذا الترجيح أنّ (إسماعيل) قد وصف في سورة مريم في الآية 54 بأنّه صادق الوعد. ولم يوصف إسحاق في القرآن كلّه بهذه الصفة. ووصف (إسماعيل) مع مجموعة من الأنبياء والمرسلين في سورة (ص) الآية 48 بأنّه كان من الأخيار. ولم نجد لإسحاق في القرآن من صفة له إلاّ أنّه كان من الصالحين على غرار جملة من الأنبياء في سورة الأنبياء (الآية 72). وصفة الخِيَرة لإسماعيل حُقّت عليه لطاعته لربّه ولبرّه بأبيه، ولجُودِه بنفسه وبروحه طواعية تنفيذا لأمر الله عزّ وجلّ.

أمّا في السيرة النبويّة فكفانا أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قد سنّ لنا الأضحية يوم النحر في عيد الأضحى لإحياء ذكر أبينا إبراهيم في التضحية والفداء كما قال صلّى الله عليه وسلّم ونَدَب إلى هذا العمل، والرّسول والعرب من سلالة (إسماعيل). لذا نرجّح القول بأنّ الولد الذي رأي إبراهيم في رؤياه أنّه يذبحه هو إسماعيل، ومن كان له رأي آخر في غير إسماعيل فليذكر دلائله وحججه إن كانت له دلائل وحجج صادقة. ومن أصدق من الله حديثا.

- **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ (108) :**

وتركنا من بعد إبراهيم عليه السلام ثناء جميلا عليه، وذكرا حسنا إلى يوم القيامة في القرآن الحكيم وعلى ألسنة المؤمنين، وسَنَّ الرّسولُ – لإحياء ذكره وذكر الولد الذي أمر بذبحه وفداه الله تعالى بذبح عظيم – الأضحية في كلّ عام وجعل لذلك عيدا هو عيد الأضحى.

ويحيي المسلمون هذه الذكرى لموعظة النّاس ليذكّروهم بفضيلة طاعة الله في ما أمر، وليعلموا أنّ الله تعالى يكرم المحسنين الصابرين عند الابتلاء، فلا يتركهم لأنفسهم، وإنما يحفظهم من شرّ البلاء، ولموعظة شبابهم قصد الحرص على البرّ بالوالدين عند تذكيرهم بهذه الحادثة التي تجسّم أعلى صورة في البرّ بالوالد، وفي التضحيّة بالنّفس وبالروح طاعة لله تعالى.

- **سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (109) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (111) :**

سلام من الله تعالى على إبراهيم، وهو سلام تكريم وتشريف وأمان، وكذا كلّ سلام على رسول ونبيّ. وسلام من الملائكة عليه، وسلامهم على الأنبياء والمرسلين هو سلام التقدير

والاحترام والإجلال. وأمّا سلام النّاس عليهم جميعا هو الثناء الحسن عليهم، وذكرهم في سننهم في طاعتهم لله تعالى وفي إرشادهم للأمم للأعمال الصالحة، وهو تحية الإجلال والتقدير.

هكذا يجزي الله تعالى عباده المحسنين في طاعاتهم لربّهم والعاملين الصالحات بإخلاص، ينجيهم من الكرب ويعوّضهم خيرا على اِبتلاءاتهم، ويجزيهم خيرا على صبرهم.

إنّ إبراهيم عليه السلام أحد عباده المقرّبين لصدق إيمانه، وثباته على طاعة ربّه مهما عسرت.

- وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ **(112)** :

ولمزيد تكريم إبراهيم في دنياه بُشِّر باصطفاء اِبنه (إسحاق) عليه السلام بالنّبوّة، وبجعله في طاعته لربّه وفي عمله وسلوكه مع قومه في مرتبة الصالحين. والصالحون من أهل جنّة النّعيم.

- وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ **(113)** :

وبارك الله تعالى على (إبراهيم) وعلى ابنه (إسحاق) في حياتهما وفي رزقهما وفي عملهما. والبركة تعني الزيادة في الخير، وتحقيق الرّجاء. وإنّ من ذرّيتهما المحسن المطيع لربّه وسيكون منهم الظالم لنفسه بالكفر. فقد كان منهما الصالح من مثل موسى وهارون وزكرياء ويحيى وعيسى ومريم. وكان منهم قتلة الأنبياء، والعصاة لرسلهم والكافرون الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة، ومنهم من حرّف التوراة، ومنهم من خالف عهده مع ربّه ورسله حين كفر بنبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وكان كفرهم واضحا لأنّهم علموا الحقّ وخالفوا العمل به.

- وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ **(114)** :

هذه إلى الآية 122 في مباركة موسى وهارون، وكانا من ذرية إبراهيم وإسحاق. ولقد منّ الله تعالى عليهما بالرّسالة والنّبوّة.

- وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ **(115)** :

ومِن مِنَنِ الله تعالى عليهما وعلى قومهما من بني إسرائيل تخليصهم من اِستعباد فرعون وملئه، ومن ظلمهم لهم بقتل أبنائهم الذكور واِستحياء نسائهم لخدمتهم، وكان هذا من أشدّ الكروب عليهم.

- وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ **(116)** :

ولقد نصرهم الله تعالى بإخراجهم من سلطان فرعون وملئه عبر شقّ النّهر بعصا موسى، ثمّ أغرق أعداءهم في اليمّ وهم ينظرون ليُشْفِيَ غليلهم، وبهذا تخلّصوا من ظلمهم واِستبدادهم وفُكَّ عنهم محاصرتُهم فكانوا هم المنتصرون، وأعداؤهم الذين ظلموهم هم الهالكون.

- وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ **(117)** :



وآتى الله تعالى موسى وهارون التوراة التي فيها هدًى واضح، وتفصيل للأحكام بوضوح.

- وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (118) :

وأقامهما الله جلّ وعلا على الدّين القويم القائم على التّوحيد وعبادة الله وحده وعلى العمل بشرعه.

- وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ (119) سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (120) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (121) :

ورفع الله جلّ وعلا ذكرهما من بعدهما إلى يوم القيامة، وأبقى عند ذكرهما الثناء الجميل على لسان من يأتي من بعدهما. وقد رفع ذكرهما كما رفع ذكر إبراهيم وذكر نوح وذكر أنبياء آخرين في كتابه العزيز: القرآن الكريم. وسلام عليهما من الله تعالى ومن الملائكة ومن المؤمنين. وهكذا يجزي الله المحسنين الذين صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في عبادتهم وطاعاتهم.

- إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (122) :

إنّهما من خالص عباد الله المؤمنين الخلّص الذين يخشون ربّهم في السرّ والعلن ويداومون على ذكره وطاعته.

- وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (123) :

هذه إلى الآية 132 في خبر إلياس عليه السلام وتكريمه. و(إلياس) هو (إيلياء) أحد أنبياء بني إسرائيل، هو ابن ياسين سبط هارون أخ موسى. هو من التابعين لشريعة التوراة. أرسل إلى قوم بعلبك وما حولها وكانوا عبدوا صنما يقال له (بعل) لدعوتهم لتوحيد الله تعالى وعبادته وحده، وترك عبادة صنَمِهم.

- إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (124) :

وأذكر إذ قال لقومه محذّرا ومُعتبًا عليهم، ألا تخافون الله تعالى بشرككم وعبادة مَنْ دونه من الأصنام.

- أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ (125) :

الاستفهام للاستغراب وللعقاب واللوم: أتعبدون صنما سميتموه (بعلا) وتقدّسونه، وتنصرفون عن عبادة الله الحقّ الذي خلقكم وخلق كلّ هذا الملكوت وهو أحسن الخالقين لحسن تقديره وإبداعه لما خلق في هذا الوجود. ولكلمة (بعل) عند القوم رمز للشمس، وكان عندهم (تانيت) رمزا للقمر، وتسمّى عند الفنيقيين (عشتاروت)، كانوا عبدة للكواكب والأصنام، وكان القوم عند شدائدهم يقرّبون أطفالهم من أطفال عظماء الملوك وسادة القوم قرابين لهذه الآلهة الأصنام.

- ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (126) :

ووعظهم بأن يعبدوا الله وحده الحقيق بالألوهية وبالعبادة والطاعة لأنّه هو سيّدهم الحقّ الذي تفضّل عليهم بنعمة الخلق والوجود وهو ذاته ربّ آبائهم السابقين الذي ضلّوا عن عبادته فعبدوا من دونه آلهة من إختلاقهم وادّعائهم الباطل.

- فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ (127) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (128) :

فكذّب القوم رسولهم، وأصرّوا على شركهم وكفرهم، ورفضوا دعوته للتّوحيد، وستحضرهم زبانية العذاب للحساب، ثمّ تسوقهم إلى جهنّم، إلاّ الذين هداهم الله تعالى للإيمان، فأخلصوا له في الطاعة، فإنّهم ناجون من العذاب.

- وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (129) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ (130) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ(131) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (132):

ورفعنا ذكره من بعده إلى يوم الدين. سلام على إلياس وأتباعه المؤمنين من الله تعالى ومن الملائكة ومن المؤمنين تحية تكريم وتشريف. وكذا يكرم الله عباده المؤمنين المخلصين بإنجائهم من الهلاك، ويجازيهم برفع ذكرهم للثّناء عليهم.

- وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (133) :

ومن المرسلين (لوط) عليه السلام، وهو ابن أخ إبراهيم، وقد كان رسولا لقوم (سدوم) القرية التي كان يسكنها، ولأهالي القرى المجاورة (المؤتفكات).

- إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ (135) :

وأذكر إذ أنجاه الله تعالى وأتباعه من المؤمنين وبناته من العذاب الذي أصاب القوم العصاة إلاّ زوجه لحقها العذاب فهلكت مع المعذّبين.

- ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ (136) :

ثمّ عاقب الله تعالى القوم بالحجارة المدمّرة فجعل بيوتهم مقلوبة عليهم.

- وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ (137) وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (138) :

الخطاب في الآيتين لمشركي العرب ليعتبروا بما حدث في القوم الكافرين من دمار. وإنّكم لترون آثار تدمير قراهم حين تمرّون عليهم في أسفاركم عند الصباح. وعند رجوعكم منها بالليل. أفلا تعتبرون بما جرى لهم لتؤمنوا وتكفّوا عن غيّكم وضلالتكم، وترشدوا.

- وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (139) :

وهذه إلى الآية 148 في عرض نبذة من قصة يونس بن متّى، والمعروف بلقب صاحب الحوت، وهو ذو النّون. هو من فلسطين، أرسله الله إلى أهل (نينوى) بالعراق، وكانت مدينة عظيمة من بلاد الأشوريين، وكان فيها مجموعة من بني إسرائيل أسرى عندهم، وكانوا يعدّون

أكثر من مائة ألف نسمة، وفي ذلك العهد تعتبر نسبة السكّان مرتفعة، وتعتبر البلاد عامرة بالسكّان، وكانت بعثته في أوائل القرن الثامن قبل المسيح.

- إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ (140) :

ولقد أغضبه قومه غضبا شديدا بسبب إعراضهم عنه وعن سماع ما يدعوهم إليه، ومنهم من كان يهزأ به، ومنهم من كان يطرده أو يهدّده، وأصرّوا على كفرهم، فترك القوم وهجرهم دون إذن من ربّه، واتّجه باتّجاه البحر يرغب في التّوجّه إلى قرية أخرى، وركب سفينة كانت مثقلة بالركاب، ومشحونة بالبضاعة.

- فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ (141) :

ولمّا أبحرت السفينة، ودخلت الأعماق، وبعدت عن الشاطئ واليابسة هاج البحر فعَلَتِ الأمواج وصارت السفينة مهدّدة بالغرق، فرأى الركّاب أن يخفّفوا من حمولتها بإلقاء أحدهم في البحر، وعمدوا إلى القرعة، فمن وقعت عليه القرعة ألقي به في اليمّ، وقارعوا وساهم معهم (يونس) في القرعة، فوقعت عليه مرّة أولى، ثمّ أعادوا القرعة فوقعت عليه ثانية وثالثة، فرمي به في البحر ليغرق وتنجو السفينة وركّابها من الغرق، فكان يونس من المدحضين، من الملقين في الحبر.

- فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) :

فلمّا أُلقي به في البحر اِبتلعه حوت كبير دون عضّ بالأسنان أو تقطيع وصار في بطنه في معدة هذا الحوت تفركه فركا، ولمّا كانت القرعة وحين عزم القوم على إلقائه في البحر كان يلوم نفسه ويعاتبها على تعجّله في مغادرة القوم والبلد دون إذنٍ من ربّه. وكان غرقه في البحر الأبيض المتوسط الذي كان يُسمّى قديما بحر الرّوم.

- فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (144) :

ولولا أنّه كان من الذاكرين ومن المصلّين، وكان من أدعيته على ما جاء ذكره (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)(الأنبياء الآية 87) لولا ذلك لبقي في بطن الحوت حتى يموت، ولكان بطن الحوت قبره إلى يوم البعث، ولكن حفّت به رحمة الله تعالى فأخرجه منه.

- فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) :

روي أنّ الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل بالعراء: أرض لا شجر فيها ولا ما يغطّيها سوى شيء من القشّ. وكان يونس عليه السلام حين لفظه الحوت في سقم: كان منهوكا، وكان جلده منزوعا عنه بفعل طحن معدة الحوت وبفعل تقلّبه فيها، لم يكن قد طعم ولا شرب، ولم يكن له لباس، ولم يجد في المكان غيره، فما كان له من معين. وضع شديد البأس لا يقدر على إحتماله إلاّ صابر محتسب، لا يحتمله إلاّ نبيّ.



- وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ (146) :

ولمّا أُرتمى يونس على الأرض متهالكا أحاطت به عناية ربّه، فأنبت له من حوله بقدرته – بأمره "كن" – شجرة صغيرة أحاطت به وظللته وغذّته وسقته بقطرات من الماء من ورقها، هي شجرة الدُبَّاء، (القَرَع) عندنا، وعلى غير المعهود عندنا، إنّما هي من تدخل القدرة الربانية لعلاج قروح جلده ولتغطية جسمه. كانت شجرة ذات ورق كثير وكبير، لا تقربه الحشرات. والمفهوم من السياق أنّ الشجرة لفّت جسده حتى اشتدّ لحمه ونبت شعره ومكّنته من القوت بيُسرٍ ولطف عرّفته بفضل الله عليه وحسن عنايته به، أنجاه من الموت في بطن الحوت، ثمّ أعاد له عافيته.

- وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ (147) :

ثمّ كلّفه تعالى بأن يعود لقرية (نينوى) من أرض الموصل بالعراق، ولبث فيهم زمنا يعظهم في صبر وأناة ويدعوهم إلى دين الله تعالى: التوحيد، وإلى العمل بشرعه، وإلى ترك عبادة الأصنام، وأنذرهم من عقاب الله ووعيده إن لم يؤمنوا خلال أربعين يوما.

- فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ (148) :

ولمّا عاد إليهم يونس بعد أن علموا خروجه من القرية وإلقائه في اليمّ ليغرق، ولمّا عرفوا ما صار إليه بعد ما لفظه الحوت من بطنه تعرّفوا من سيرته على قدرة الله العليّ العظيم فخافوا من الوعيد وصدّقوه فآمن خلقٌ منهم، فرفع الله تعالى عن القرية وأهلها العذاب، وأمهل الكافرين إلى أجلهم. قال تعالى (فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ) (يونس الآية 98).

- فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ (149) :

الخطاب في هذه الآية موجّه لمشركي العرب إلى الآية 170، وفيها تأكيد على بطلان معتقدهم في أنّ الملائكة بنات الله من سروات الجنّ، وما أطلقوا على أصنامهم من أسماء الإناث (اللات، ومناة، والعزّى) هي من اِختلاقهم، والقصد رفع الغشاوة عن أبصارهم، ولتوعيتهم ليتركوا ما يعبدون، وليصححّوا معتقدهم وليتوجّهوا بعبادتهم إلى الله وحده، وجاء في هذه الآيات التّعريف بعمل الملائكة في الملإ الأعلى. والمعنى: فاسألهم – يا محمد – كيف تجعلون لله العليّ الأعلى البنات والحال أنتم تكرهون إنجاب البنات، وتعيّرون أب البنات بما ولد له، وتجعلون لأنفسكم إنجاب الذكور، وبما تفخرون؟ ويجعلون أعوان الله تعالى إناثا، وهم لا يستعينون بالإناث، وإنّما بالذكور يتّخذونهم أعوانا، فكيف تستقيم هذه القسمة؟

- أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ (150) :

أم كانوا حاضرين عند خلق الملائكة فرأوهم إناثا، وكانوا شاهدين على ذلك؟ فمن أين لهم هذا الادّعاء؟

- أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (152) :

(أَلَآ) للتّنبيه لأمر غريب. إنّهم من كذبهم المختلق، والادّعاء الباطل ينسبون لله تعالى الواحد الأحد إنجاب الولد. وإنّهم بكلّ تأكيد كاذبون مفترون على الله سبحانه الذي لم يلد ولم يولد.

- أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ (153) :

هل علمتم أنّه اِختار أن تكون ذرّيته من الإناث وخصّكم بالذكور؟ ما أغرب ما تقولون وتدّعون!

- مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ (154) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155) :

الاستفهام في الآيتين للتّوبيخ والتّقريع. ما هذا الاختيار؟ كيف حكمتم لأنفسكم الفخر بإنجاب الذكور، وتنسبون لله ما تكرهون : البنات؟ أفلا تستحون عند ذكر الله تعالى بالافتراء عليه.

- أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ (156) فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (157) :

أم عندكم حجّة وبرهان واضح عمّا تدعون؟ أم عندكم كتاب سماوي قد أخبركم بما تقولون، أحضروا هذا الكتاب إن كنتم صادقين في ادّعائكم. وما كان لديهم من حجّة ولا علم ولا شهادة ولا كتاب. هذه الآيات جالت بكلّ ما يمكن أن يكون مصدر المعلومة، وبكلّ ما يمكن أن يكون شاهدا على ادّعائهم، فإن اِفتقروا لجميع هذه العناصر فقد بطل زعمهم وظهر كذبهم واِفتراؤهم لمن يعقل. ومن لا حجّة له لا علم له.

- وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ (158) :

وادّعوا بين الله تعالى وبين الجِنّة رابطة نسب. يقول مشركو العرب إنّ الملائكة بنات الله من سروات بنات الجنّ. أشركوا الجنّ في عبادة الله حين جعلوا بينه سبحانه وبين الجنّ نسبًا. ولقد علمت الجنّة أنّهم محضرون للحساب لأنّهم زيّنوا للمشركين هذا القول وادّعاء الباطل وسيعاقبون.

- سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) :

تنزّه تعالى عمّا يصف المشركون له من الصاحبة ومن النسب ومن الولد بالباطل وبالكذب.

- إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (160) :

وأمّا عباد الله المؤمنون الصادقون في إيمانهم بوحدانية ربّهم والمخلصون له في الطاعة فإنّهم ناجون من النّار ومن العذاب.

- فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ (161) مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ (162) إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ (163) :

فإنّكم – يا مشركي قريش – وكهنتكم وألهتكم من الأصنام التي تقدّسونها لا تقدرون على فتنة المؤمنين المسلمين ليرتدّوا عن دينهم، ولن تضلّوهم. لن تضلّوا إلاّ من هو داخل إلى الجحيم عقابا له على شركه.

- وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ (164) :

هذا من خبر الملائكة عن مهامهم في الملإِ الأعلى. والمعنى: إنّ كلّ واحد من الملائكة له مكان محدّد في السماء لا يتجاوزه، وله مهمّة معيّنة في مكانه المعلوم.

- وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ (165) :

هذه كالآية الأولى التي أُفتتحت بها السورة، فإنّ الملائكة يصطفّون صفوفا منتظمة عند تلقّيهم لأمر ربّهم.

- وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ (166) :

جاء في أكثر من آية في القرآن الكريم أنّ الملائكة مداومون على التّسبيح بحمد ربّهم، وعلى تنزيهه من كلّ نقص وللتبرّؤ ممّا يدّعيه عنهم المشركون. والمراد بهذه الآيات الثلاث الإرشاد بأنّ الملائكة يعبدون الله تعالى بالتّسبيح وبالذكر وبالطاعة لأمره، فليسوا معبودين، وليسوا بنات الله. قال تعالى (ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ)(غافر الآية 7).

- وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ (167) لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (169):

هذا من الإخبار عمّا كان يأمله المشركون. كانوا يقولون لو كان عندنا كتاب منزل مثل ما عند أهل الكتاب لكنّا من عباد الله الأخلص له في العبادة والطاعة وفي التسبيح بحمده لشكره. وهذه كقوله تعالى (وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا)(فاطر الآية 42).

- فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (170) :

فلمّا جاءهم كتاب من عند الله "القرآن" كذّبوا به، وأعرضوا عن سماعه واِتّباعه، وتنكّروا لما كانوا يأملونه ويرجون، وسوف يعلمون عاقبة هذا التكذيب وهذا الإعراض عمّا جاءهم من عند ربّهم. وهذه جملة للتّهديد بالوعيد.

- وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ (171) إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ (172) :

بهاتين الآيتين إلى آخر السورة تختم سورة (الصّافّات) بوعد المؤمنين بالنّصرة وبوعيد المنذَرين الذين لم يستجيبوا لله تعالى ولرسوله، ثمّ بتمجيد الله عزّ وجلّ والثناء عليه. والمعنى: ولقد كتب الله في سابق علمه وقضى أن ينصر جميع رسله على المشركين بالحجّة وبالغلبة



عليهم إذا اقتتلوا، وبهذا أوحى الله عزّ وجلّ لرسله. وهذا كقوله تعالى (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ)(غافر الآية 51).

- وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (173) :

وإنّ جند الله تعالى – وهم المؤمنون المخلصون – غالبون حتما لجند المشركين ومنتصرون عليهم بنُصرة من الله عزّ وجلّ، وبحفظهم من كيد أعدائهم.

- فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ (174) :

فأعرض – يا محمد – عن تكذيبهم، وعن تهديدهم، واصبر على أذاهم إلى مدّة معلومة عند الله تعالى، وأجل قريب.

- وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ (175) :

وانتظرهم فسوف يرون ما يحلّ بهم من هزائم ومن عذاب ومصائب عقابا لهم على كفرهم وتكذيبهم.

- أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ (176) :

يهزؤون بالوعيد، ويطلبونه سريعا، ما أشدّ حُمْقهم حين يطلبون اِستعجال حلول العذاب بهم كأنّهم يستبعدون حصوله.

- فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ (177) :

فإذا نزل بهم العذاب من حولهم، فبئس صباح من أُنْذِر بحلول العذاب به فلم يُعِدَّ له عدّته حتى فوجئ به. وكان العرب لا يخافون شيئا قدر خوفهم من الإغارة عليهم آخر الليل، حتى إذا طلع عليهم الصباح وجدوا أنفسهم محاصرين لا يستطيعون حيلة ولا يستطيعون حمل سلاحهم وجمع صفوفهم، وعندئذ تحلّ بهم النّكبة الشديدة والفاجعة. وجاءت هذه الآية بإنذارهم بمفاجأتهم بعذاب يُصَبِّحُهم فلا يستطيعون مقاومته والدفاع عن أنفسهم ولا يجدون لهم نصرةً.

- وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ (178) وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ (179) :

تكرّرت الآيتان في نفس المعنى، وقد جاءتا للتّأكيد على اِنتظار ما سيحلّ بهم من سوء الحال على كفرهم وتكذيبهم.

- سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) :

تنزّه الله تعالى عمّا يصفه به المشركون، وعمّا ينسبون إليه وهو ربّ العزّة المستغني عن الحاجة هو مالك العزّة بالغلبة وبالقوّة والعلوّ.

- وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ (181) :



وتحية تكريم من عند الله على جميع الرّسل الذين أدّوا الأمانة وبلّغوا الرسالة لأقوامهم ونصحوا أممهم. وسلام كذلك على رسل الله من الملائكة الذين يرسلون بأمر الله تعالى لتنفيذه أو لإبلاغه للأنبياء والرسل.

- وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ **(182)** :

والثناء الجميل على الله تعالى سيّد العالمين: الملكوتين العلوي والسفلي، وسيّد جميع الخلائق، وله الحمد في هذه الدنيا وفي الآخرة. وله الحمد في كلّ وقت وحين. وله الحمد على كلّ نعمة وفضل، وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها.

ولقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم – على ما جاء في أكثر من خبر – أنّه كان يردّد هذه الآيات الثلاث في آخر صلاته، وعند اِنصرافه من مجلسه، وقد كان مشائخنا في الخطب الجمعية، وعند ختم القرآن يختمون الخطبة أو أدعيتهم في الختم بهذه الآيات.



رقمها	سـورة ص ـــ مكيّة ـــ	آياتها
38		88

سمّيت هذه السورة بسورة (صاد) لافتتاحها بهذا الحرف (ص).

وذكر الترّمذي في السُّنَنِ أنّها نزلت في آخر حياة أبي طالب، في مرض موته، سنة ثلاث قبل الهجرة.

ومن أهم مميّزات هذه السورة أنّها في توبيخ مشركي قريش على تكذيبهم لرسولهم صلّى الله عليه وسلّم من غير حجّة أو سبب معقول، سوى الاغترار والعناد.

وهي كشأن السور المكيّة في إثبات معتقد التوحيد، والبعث، ولتصديق الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وفيها وعيد للكافرين.

وجاء فيها عرض لِنُبَذٍ من قصص: داوود، وسليمان، وأيّوب. وفي التكريم الذي نال إبراهيم وأبناءه.

وخُتمت بوعيد إبليس لاستكباره بإيوائه في جهنّم مع من اِتّبعه بالمعاصي وهذا لإنذار الكافرين المشركين.

- صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِى ٱلذِّكۡرِ (1) :

هذه الآية إلى الآية 11 في عرض مبرّرات مشركي العرب للتّكذيب بالتوحيد وبالرسول وبالقرآن.

(صٓ) حرف من حروف اللّغة العربيّة، ومن خصائص القرآن المميّزة أنه يفتتح بعض السور بحرف أو بحرفين أو أكثر، ولم يكن هذا الأمر معهودا عند العرب من قبل ولا من بعدُ.

(وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِى ٱلذِّكۡرِ) هو قسم بالقرآن الذي أنزل لتذكير النّاس بوحدانية ربّهم، وبشرعه، وبمواعظه للحضّ على العمل الصالح واِجتناب المعاصي لينالوا خيرا في آخرتهم، ويحفظوا أنفسهم ويَقُوها من العذاب يوم الحساب، وإنّ القسم بالقرآن هو للتعظيم من شأنه.

وجواب القسم مُضمَرٌ، وتقديره: قسما بالقرآن أنّك – يا محمد – رسول من عند الله حقّا، وأنّ ما جئت به لقومك هو الحقّ من عند ربّك ولكنّ قومك عنه غافلون، أو قسما بالقرآن إنّ العمل بما جاء فيه من تذكرة خير للنّاس لإنقاذهم من الكفر والضلالة ومن عذاب الله. أو قسما بالقرآن ذي الذكر ليس الأمر كما يقولون بأنّك ساحر كذّاب، وهم يعرفون صدقك وأمانتك، ولكنّ قومك عن قبول الحقّ مكابرون.



- بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ (2) :

ولكنّ الذين كفروا من قومك في تكبّر، وامتناع عن قبول الحقّ، وهذا كقوله له عزّ وجلّ (وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ)(البقرة الآية 206). والعزّة – عند العرب – الغلبة والقهر، وأمّا الشّقاق فيعني التباين في الرأي وفي الموقف للتّظاهر وللتميّز، وهذا من طبع المستكبر الذي لا يحبّ الخضوع للرأي المخالف لرأيه، أو أن يقتنع بتوجّهٍ وفكرةٍ غير ما يراه، كالذي قال:(مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ) (غافر الآية 29).

- كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ(3) :

هذه في إنذار المشركين عنادا ومكابرة، وذلك بدعوتهم للاعتبار بما حدث لسابقيهم من الأمم الكثيرة السالفة الذين عجُّوا وضجُّوا وتصايحوا حين جاءهم عذاب الهلاك، فلم يغنِ عنهم صياحهم شيئا ولم يجدوا فرصة للتّوبة، ولا للهروب من العذاب، فهلكوا جميعا.

- وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ (4) :

وعجب مشركو مكّة أن جاءهم رسول من عند ربّهم لينذرهم من عذاب الله ليؤمنوا، وما كان لهم من حجّة للتّكذيب به وبما جاءهم به من دعوتهم لتوحيد الله تعالى في عبادتهم إلاّ باتّهام رسولهم بأنّه ساحر كذّاب، وهم يعلمون أنّه الصادق الأمين، ولم يعرفوا عنه قبل إبلاغهم رسالة ربّهم كذبا ولا سحرا ولا شعوذة، وإنّما اِتهموه بالسحر لأنّ القرآن الذي سمعوه منه قد أعجزهم في لسانه العربي وفي بلاغته وفي حسن نظمه، واِتهموه بالكذب حينما أنكر عليهم عبادة الأصنام، وحين دعاهم للإيمان بالبعث والحساب.

- أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ (5) :

عجبوا حين بلّغهـم رسولهم بأنّ الله الحقيق بالعبادة والألوهيـة والطاعة هو واحد أحد، ليس له ندّ، ولا شريك، ولا صاحبـة، ولا ولـد، وأنّه لا إله إلاّ الله، وأنّ الآلهة التي يعبدون آلهة باطلة.

- وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ (6) :

واِندفع أشراف قريش وزعماؤهم ينادون في القوم بالثبات على دينهم، وعلى عبادة آلهتهم، وعلى طاعتهم، وبأن يواصلوا على ما هم عليه في المعتقد، وفي تقديس آلهتهم وتقديم قرابينهم إليها، وبأن يصبروا على من يعيبها، وينكر عليهم تقديسها، وهذا ما يراد منهم. وهذا المراد هو الذي يمنعهم من السماع لرسولهم، والاستجابة لدعوته. وهذه الدعوة من رؤساء القوم هي للصدّ عن اِتّباع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

- مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (7) :

ما سمعنا بأنّ الله تعالى إلاه واحد، وأن لا إلاه إلاّ الله عند آبائنا الأقدمين ولا عند النّصارى، ما هذه إلاّ دعوة مختلقة، من الكذب ومن الافتراء، وما سمع بها أحد من قبلنا. فانصرفوا عن هذا الداعي لها.

- **أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ (8) :**

أيخصّ محمد وحده من بين زعمائنا ورؤسائنا وأشرافنا لينزل عليه هذا الذكر وهذا الحديث، وهذه الدعوة؟ وهذا كقوله تعالى (وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ)(الزخرف الآيتين 31-32) وهم يشكّون في الوحي، وفي القرآن لأنّ أمر التنزيل فوق قدرة اِستيعابهم الذهني. قال تعالى (فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ)(الأنعام الآية33). وما جزاؤهم على هذا الإنكار والشكّ والتكذيب إلاّ اِنتظار العذاب، وهذا لإمهالهم ليتوبوا أو لتقوم عليهم الحجّة فإذا جاءهم العذاب لاَمُوا أنفسهم عن جحودهم.

- **أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ (9) :**

هل بأيديهم رحمة ربّهم فيقسمونها بمثل ما يشاؤون على من يرغبون لينعم بفضل الله عليه؟ وهذا للردّ على اِصطفاء الله العزيز الوهّاب محمد صلّى الله عليه وسلّم للرّسالة. إنّ خزائن رحمة الله بيده تعالى يصطفي بفضله من يشاء من عباده، وهو تعالى العزيز الغالب الذي لا يردّ أمره، وهو الوهّاب يهب فضله ورحمته ونعيمه لمن شاء من عباده. وهذه كالآية التي سبق ذكرها(أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ).

- **أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ (10) :**

هذه في تأنيب الذين تكلّموا في تخصيص محمّد صلّى الله عليه وسلّم واِصطفائه بالرّسالة كأنّهم من مالكي خزائن رحمة الله. والمعنى: أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما حتّى يكون لهم الحقّ في اِختيار من يصطفيه الله تعالى للرّسالة. إن كان لهم هذا الملك فليصعدوا إلى السماء وليعرجوا إلى العرض ليدبّروا أمر الخلق وتوزيع الفضل بينهم. وهذا كقوله تعالى (قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا)(الإسراء الآية 100). فكلام كفّار قريش في اِصطفاء محمد صلّى الله عليه وسلّم بالرّسالة وإنزال الوحي هو من التجرّؤ على الله تعالى وفي تقديره، فلذا يستحقّون كلّ اللوم والتأنيب والمؤاخذة عمّا يقولون وعمّا يحتجّون ممّا ليس لهم فيه خِيرَةٌ.

- **جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ (11) :**

في هذه الآية بشارة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه بنصرتهم على أعداء الدّين. وفيها إخبار بالغيب بأنّ المشركين سيجمعون أحزابهم: جموعهم وأنصارهم وسيقاتلون بجندهم

المسلمين، ولكنّهم سيُهْزَمُون. وصدق الله وعده وخبره، فقد اِجتمع مشركو قريش مع الأحابيش من أهل القرى المجاورة على قتال المسلمين في غزوة الأحزاب والمعروفة بغزوة الخندق، وقد نصر الله تعالى المؤمنين في تلك الغزوة وهزم الأحزاب وحده.

لقد أنذرهم الله تعالى بهزيمتهم قبل سنوات من حدوثها ولكنّهم ظنّوا أنّهم باجتماعهم الغفير مع دعم أنصارهم من أهل الكتاب منتصرون وغالبون وغير منهزمين، وغفلوا عن هذا الذكر فوقع عليهم القول الذي لم يصدّقوه. وكم من ظالم طاغية قد أنذر بسوء عاقبته ومآله ليكفّ عن ظلمه للنّاس فاستخفّ بالإنذار فهلك بسوء فعله ومات شرّ ميتة، أو قتل شرّ قتلة، أو هرب من قومه وهيجانهم الهادر فمات في المنفى غريبا متحسّرا غير مأسوف عليه، وما هذا إلاّ من العناد والمكابرة، وفي القرآن الكريم أكثر من آية في التّحذير من هاتين الصفتين.

- كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ (12) :

هذه مع الآيتين المواليتين للاعتبار بسوء عاقبة الأمم السالفة الذين كفروا وكذّبوا رسلهم وهزؤوا بالوعيد.

والمعنى: وقبل مشركي العرب كذّب قوم نوح برسولهم، وأصرّوا على الشرك ولم يؤمنوا بالتوحيد، ولم يصدّقوا بالوعيد وهزؤوا به وبرسولهم، وكذلك قوم عاد، ومعهم فرعون صاحب الجنود الأقوياء والعتاة.

- وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ (13) :

وكذلك قوم ثمود الذين جاءهم رسولهم صالح بالهدى فكذّبوه وشاقّوه، وكذلك قوم لوط أصحاب المعاصي والفواحش، ومعهم أصحاب الأيكة الذين نهاهم نبيّهم شعيب عن التّطفيف، كلّ أولئك الجموع على كثرتهم وقوّتهم كذّبوا رُسُلهم.

- إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14) :

جميع أولئك كذّبوا رسلهم، ولم يؤمنوا، وهزؤوا بالوعيد فحقّ عليهم عقاب الله تعالى لإصرارهم على الكفر والتكذيب بالوعيد فأهلكهم جميعا، ولم يُبْقِ أحدًا منهم ولم يذر، فاعتبروا بسوء عاقبتهم أيّها المشركون المكذّبون بالهدى، والدين الحقّ، وبالرّسول.

- وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ (15) :

هذه مع الآية الموالية في تحدّي المشركين لرسولهم ولوعيد ربّهم.

والمعنى: وأمّا هؤلاء المشركون فما ينتظرون إلاّ أن تقع عليهم صيحة واحدة من السماء لا تفتر ولا تنقطع عنهم حتى تأخذهم جميعا فتهلكهم وتُبِيدُهُم.

- وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (16) :

فقد قالوا: ربّنا عجّل لنا نصيبنا من العذاب في دنيانا قبل يوم الحساب. وما دعوا بهذا الدعاء على أنفسهم إلاّ من إستبعادهم لحصوله، ولتكذيبهم به، ولتكذيبهم بيوم الحساب ومن جهلهم لقدرة ربّهم عليهم. وهذا كقوله تعالى (وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)(الأنفال الآية 32).

- ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (17) :

هذه الآية إلى الآية 26 في نبذة من قصّة داوود عليه السّلام للثّناء على جملة من صفاته للاقتداء بسنّته. والمعنى: إصبر – يا محمد – على ما يقوله فيك قومك الكافرون من اتّهامك بالسحر وبالكذب، ومن إستنكار إصطفائك بالنّبوّة والرّسالة بمثل ما صبر (داوود) من قبلك، كان عبدا من (عبادنا) وهذه الإضافة للتشريف، وكان ذا قوّة وشدّة، وكان مقداما، فقد قتل جالوت قائد العمالقة، وكان يرمي بالمقلاع فلا يخطئ الرمية، وكان يلوي الحديد بيديه بفضل من الله تعالى ممّا آتاه وإصطفاه به. وكان كثير التّسبيح لله وكثير الرّجوع إلى ربّه بالوقوف عند حدوده.

- إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ (18) وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ (19) :

ولقد أنعم الله عليه بتسخير الجبال للتّسبيح معه عند إشراق الشمس وآخر النّهار كلّما حضر فيها، فكانت ترجّع تسبيحاته. وكان زبور داود المسمّى عند اليهود بالمزامير مشتملا على الكثير من الاستغفار، وكان صوت داود حسنا وكانت ترنيماته شديدة الوقع، وكان ترجيع الجبال ممّا يؤنسه ويشجّعه على المداومة وعلى المزيد. وكانت الطيور تجتمع حوله عند قراءته الزّبور. وقد كان داود يحبّ تسبيح ربّه وإستغفاره مفردا بعيدا عن النّاس بُعدا عن الرّياء. وللاختلاء بنفسه عند مناجاته ربّه، وكان يتخيّر الخروج حتّى لا يزعجه أحد، فسخّر الله تعالى الطيور لتجتمع حوله لتؤنسه، وجعل الجبال تردّد معه تشجيعا له على الاستمرار في الذكر والاستغفار. والطير كثير الرّجوع إليه، يأتيه من مكان بعيد. وهذه معجزة له من تكريم الله له ومن فضله عليه. ومن عادة الطيور أن تنفر من الإنسان، وعلى العكس من ذلك كانت مع داود عليه السلام ومن حوله.

- وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ (20) :

وقوّينا سلطانه، ومكنّاه له، وثبّتناه في حكمه، ووهبنا له النّبوّة وكمال العلم والفهم و(فصل الخطاب): حسن القضاء بين النّاس بالعدل والفصل بين خصوماتهم بالحقّ.

- وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ (21) :

وهل علمت بخبر المتخاصمين الذين تسلّقوا سور مصلّى داوود ونزلوا عليه، وتفاجأ بهم فلم يجرؤ أحد قبلهم أن يفعل فعلهم دون أن يُوقِفَهُ حرّاسه.

- إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ **(22)** :

وأذكر إذ دخلوا على داوود فانزعج منهم لتفاجئه بهم، ولأنّهم دخلوا عليه بدون اِستئذان، ولأنّه لم يتعوّد أن يدخل عليه أحد حين يكون في مصلاّه. فطمأنوه من فزعه منهم، وأخبروه أنّ اِثنين منهم قد تخاصما فيما بينهما، فقد تعدّى أحدهما على الآخر وجَارَ جَوْرًا، وطلبوا حكمه العدل للفصل بينهما بالحقّ دون (شطط) –وهو الابتعاد عن الحقّ– والعدل والقسط، وطلبوا منه أن لا يكون جائرا، وأن يرشدهم إلى الصواب والطريق السويّ. وكان أمر هؤلاء في دخولهم عليه، وفي خطابهم، وفي طلبهم عجبا، أيُطلب من الحاكم العادل العدل وأن لا يكون حكمه جائرا وهو داوود الحاكم القويّ العابد.

- إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ **(23)** :

قال أحدهما إنّ صاحبي هذا – وهو في مرتبة أخي – له تسع وتسعون نعجة، وليس لي إلاّ نعجة واحدة، فطلبها منّي ليضمّها إلى نعاجه، وأنا لا أستطيع أن أردّ طلبه ومخالفته لأنّه أعزّ منّي قدرا، وأرفع منّي شأنا وسلطانا.

- قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ **(24)** :

وسرعان ما أصدر داوود عليه السلام حكمه في القضية التي عُرِضت عليه، فحكم بردّ طلب الصاحب فإنّه من الظلم والجور أن يطلب من أخيه نعجته الوحيدة ليَضُمَّهَا إلى ما يملك، ووعظهما بأن يحذرا المشاركة والمخالطة في الرزق والممتلك لما يحصل فيها من ظلم بسبب الجشع وحبّ التملّك إلاّ الشراكة بين المؤمنين العاملين الصالحات –وهم قلّة– ولا يجورُ أحدهم على أخيه.

وأيقن داود عليه السلام إثر خروج الخصمين أنّه قد سارع في الحكم دون أن يسمع من الخصم، ثمّ اِنتبه إلى أنّ القضيّة التي عرضت عليه إنّما كانت صورة تمثيليّة أرسلها الله إليه عبر ملائكته ليعلم أنّ طلبه من قائد جيشه (أوريا) أن يتنازل له عن المرأة السبيّة التي أعجبه حسنها وجمالها ليضمّها إلى زوجاته –وهنّ عديدات– وجواريه –وهنّ كُثُرٌ – فيه ظلم كما حكم به لأحد الخصمين فسارع داوود إلى طلب المغفرة من ربّه. قام في صلاة: راكعًا مُسبِّحًا بحمد ربّه، وشاكرًا ربّه على هداه إذ أرشده لِمَا يَقيه من ظلم أخيه، وساجدًا مستغفرا ربّه منيبا إليه بالتضرّع إليه ليغفر له.

وقد جاءت في كتب قصص الأنبياء، وفي بعض كتب التّفسير أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وقائد جيشه (أوريا) وأمر المرأة – موضوع الآية – وأكثرها لا يصحّ ولا يتصل إسناده، ولا ينبغي تداولها أو ترويجها – وهذا أمر ثابت عند المحقّقين. ومما تجدر ملاحظته أنّ العدد تسعًا وتسعين يُقصد به التّعبير عن الكثرة، وليس يُقصد به حصر العدد الحقيقي لزوجات نبيّ الله داوود عليه السّلام.

- **فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (25) :**

وتراجع داوود عن طلبه، وقبل الله تعالى توبته فغفر له ما تقدّم به، وإنّ لداود عند الله عزّ وجلّ قربة ومكانة رفيعة، وعودة كريمة إلى الله تعالى عند مماته ويوم بعثه.

- **يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ (26) :**

وناداه ربّه وحيا، وأكرمه بأن كلّفه بأن يكون في الأرض خليفة لله تعالى في إنفاذ شرعه تعالى في الأمّة على ما جاء في التوراة. وجعله حاكما بين النّاس في الأرض فله السلطة والقضاء، وأُمِر بأن يحترس من هوى نفسه أو الصديق أو هوى الجمهور، أو دواعي الغضب والرغبة في الانتقام حتى لا يميل عن الحقّ وعن العدل وعن سبيل الله الذي هو الرّشاد والإنصاف. إنّ الذين يحيدون عن العدل وعن الإنصاف والقسط في المعاملة وفي الحكم سيلقون عذابا شديدا يوم الحساب بسبب إهمالهم للعمل للآخرة وبسبب غفلتهم عن وقوفهم بين يدي الله عند الميزان للتكريم أو العقاب. وما أكثر ما يكون قاضيا، أو واليا، أو سلطانا فلا يعمل إلاّ لما ينفعه ولما يملّكه الأرزاق الواسعة ويغفل عن يوم الحساب! ناهيك عن الطغاة الظالمين المستبدّين!

- **وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ (27) :**

هذه مع الآيتين الواليتين في التّنبيه على أنّ الحياة لم تخلق عبثا. وما لا يُخلق عبثا يكون العمل فيه مسؤولا وخاضعا للتقييم للجزاء أو العقاب، وأنزل الله الكتاب ليرشد لأفضل الأعمال الصالحة وأحسنها.

والمعنى: لم يخلق الله تعالى السماء والأرض وما بينهما بدون هدف وغاية وبلا حكمة. لم يوجد ما خلق للهو، وإنّما أوجده ليدلّ على ألوهيته وعلى وحدانيته وعلى عظمته وعظيم قدرته وعلى حكمته في التقدير، وهذا لمن ينظر لِمَا خُلِقَ ويتبصّره بعين البصيرة، ولمن يعقله. وما يقول بعبثية الخلق إلاّ الكافرون الذين يستبيحون المعاصي، ويكفرون بالحساب، وهم غير



راشدين. قال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)(المؤمنون الآية 115). ويا لسوء حال من يعتقد بعبثية الحياة، ويتهرّب من مسؤوليته عن عمله، ولا يؤمن بالحساب! الويل له من النّار.

- **أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ(28) :**

لو جُعلت الحياة عبثية، ولو لم يكن لتقييم الأعمال يوم ليُكَرَّم فيه العامل الصالحات في إيمان، وليُعاقب فيه المسيء المفسد في الأرض لكان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض سواء، ولكان المتقون المحسنون كالمهاجرين بالطغيان والكفر، وهذا أمر لا يُعقل حصوله، ولا يجب أن يكون، وهذا من الظلم وليس عدلا. لذا اِقتضى العدل أن يوجد يوم لمحاسبة كلّ مخلوق عمّا عمل ليثاب عن عمله إن كان صالحا، وأما من عمل سوءًا فمن العدل أن يعاقب وأن لا يتساوى مع من عمل صالحا.

- **كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (29) :**

هذه الآية في الثناء على القرآن الكريم وبيان فضله، فهو كتاب أنزله الله تعالى على محمد صلّى الله عليه وسلّم ليكون للعالمين هاديا ومرشدا. هو كتاب (مبارك) أي كثير الخير والنّفع لأنّ مواعظه ترشد للخير وللعمل الصالح، وقد نزل ليدبّر آياته أولو العقول الرشيدة والقلوب الواعية فتتكشّف لهم الحقائق الإلاهية في الوحدانية وفي حسن التقدير، وفي حكمة الخلق فيهتدوا بها للدّين الحقّ وتتكشّف لهم منها دلائل الضلالات ليحذروها، وبتدبّرهم الواعي الرّشيد يهتدون للصواب والعمل الذي ينقذهم من الهلاك ويهتدون للإيمان الحقّ الموصل لطمأنينة القلوب وللفوز بنعيم الآخرة.

- **وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (30) :**

هذه إلى الآية 40 في نبذة من مظاهر تكريم الله تعالى نبيّه سليمان عليه السلام، وهو أحد أبناء داوود عليه السّلام، وقد كان سليمان من عباد الله الفضلاء المخلصين لله في الدين. وكان مثل أبيه كثير الأوب إلى الله تعالى بالمناجاة والذكر والاستغفار والتّوبة والوقوف عند حدود الله.

- **إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ (31) :**

وأذكر إذ عرضت عليه الخيول المسرعة السبّاقة (ٱلصَّٰفِنَٰتُ) وهي الخيول الأصيلة التي تقف على ثلاث قوائم وطرف الحافر الرابع في اِستعراض الجند الغازية. وقد كان هذا النوع من الجياد من أفضل ما يتجهّز به الجند لمغازيهم، إذ تعتبر قوات الهجوم والمداهمة السريعة في ذاك الزمان.



• فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ (32) :

وقد طال زمن الاستعراض العظيم الفاخر حتى فات سليمان وقت صلاته، فلمّا اِنتبه لفوات وقت الصلاة قال في نفسه إنّي آثرت الفرجة على الخيول ومظاهر العزّة حتّى شغلتني عن الصلاة وذكر ربّي. وقد كان تجهّز جيشه بالخيول عظيما وكثيرا لأنّ أول الجياد في الاستعراض قد مضى حتى غاب عن البصر عند غروب الشمس.

• رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ (33) :

وبعد أن فرغ سليمان من قضاء صلاته الفائتة نزل من شرفته التي كان يطلّ منها على اِستعراض خيل الجند الغازي، وطلب أن تُردَّ عليه بعض الخيول فجعل يمسح سيقانها بيديه ليباركها لأنّها تتغَبَّرُ في طريقها إلى الغزو في سبيل الله تعالى، ويمسح على أعناقها التي تتقدّم في الجهاد لتكرّ على الأعداء وتهاجمهم وتفزعهم فيفرّون من لقائها ومن أن يُداسُوا بحوافرها، وذلك ليشكر ربّه على ما أنعم عليه من مظاهر العزّة والقوّة ليمضي في تبليغ رسالته في عزّة.

وقد ذهب بعض المفسّرين اِستنادا لرواية عن الحسن وقتادة ومالك بن أنس أنّهم قالوا في تفسير هذه الآية بأنّ مسح سليمان على سيقان الخيل وأعناقها كان مسحا بالسيف لقطعها، وجعل لحومها صدقة على الفقراء، وهذا التفسير لا أراه تفسيرا صائبا ولا معقولا، لأنّ هذه الخيول مُعدّة للغزو في سبيل الله، وهي من أهمّ مظاهر العُدّة التي يجهّز بها الجيش، فليس يُعقل أن يحطّمها سليمان بيده فيذهب بأهمّ عتاد للجيش الغازي وهو المعروف بأنّه سليمان الحكيم، فليس هذا العمل من الحكمة. وقالوا جعل لحوم هذه الخيول صدقة للفقراء ليكفّر بهذا العمل عن تأخّره عن أداء صلاته في وقتها، فهل يضحّي من يشاء أن يكفّر عن ذنبه بما لا ذنب له في ما حدث. وهو المعروف بحُسن فصله في القضاء، فهذا الحيوان لم يكن له ذنب في ما نَسِيَ سليمان ذِكْرَهُ ليقوم لصلاته، كيف يظلم نبيّ مالا ذنب له، ومعلوم أنّ الأنبياء معصومون من الظلم. وإنّ التكفير عن أداء الصلاة في وقتها له أوجه أخرى وهو الأوّاب. لذا فالقول بالذبح هو من التفسير بالرأي غير المرجّح، وهو قول ينافي عمل من وُصف بالحكمة والعدل ورجاحة العقل والإنصاف والأوّاب.

• وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ (34) :

خير ما قيل في تفسير هذه الآية عندي هو ما ذكره أبو حيّان الأندلسي في تفسيره: البحر المحيط (ولد 654هـ وتوفي 745هـ) هو محمد بن يوسف أبو حيّان الغرناطي الأندلسي، مفسّر ومحدّث وأديب ومؤرّخ ونحوي لغوي، له في تفسير القرآن "البحر المحيط"، وفي غريب القرآن: "تحفة الأريب"، وفي القراءات: "عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي".

قال: "نقل المفسّرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها، يُوقَفُ عليها في كتبهم، وهي ممّا لا يحِلُّ نقلُها، وهي إمّا من أوضاع اليهود أو الزنادقة، ولم يبيّن الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان". وقد جاء ذكر بعض هذه الروايات المختلفة في تفسير القرطبي وقد ضعّفها المؤلّف، ولذا وجب الامتناع عن ذكرها واِعتمادها. أحسن الأقوال في هذه الآية ما قاله أبو حيّان، والله تعالى هو العليم بهذه الفتنة وهذا الجسد، ولا علم لنا بهما. وأناب سليمان إلى ربّه بالتوبة وطلب العفو والمغفرة.

- قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (35) :

ودعا سليمان ربّه بأن يغفر له مما فرط من أمره، وأن يمنحه سلطانا لا يتيسّر لأحد من خلقه من بعده، وتوسّل إليه بأنّه سبحانه هو (ٱلْوَهَّاب) كثير العطاء والمِنَح لعباده وكثير التفضّل عليهم بنِعمِه.

- فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (36) :

فتفضّل عليه الله تعالى – اِستجابة لدعائه – أن جعل له الرّيح تسوق سفنه في البحر في لين ورخو وسرعة إلى حيث يشاء من الأماكن، في الاتجاه الذي يريده دون عواصف.

- وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (37) :

وأمر الله تعالى الشياطين لتطيع أمره في كلّ ما يرغب من البناءات ورفع أعمدتها، وفي الغوص في أعماق البحار لاستخراج الخيرات والمعادن النّفيسة التي يطلبها. قال تعالى (وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ)(الأنبياء الآية 81) وقد تقدّم في سورة سبإ الآية 12 و13 ذكر ما كان يعمل له الشياطين من صناعات، ولم يكن الشياطين بقادرين على أن يعصوا له أمرا لأنّ الله تعالى توعد كلّ من يَعْصِي له أمرًا أن يذيقه من عذاب السعير.

- وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (38) :

وجعل آخرين مقيّدين بقيود شديدة الوثاق والرّباط لا يُستطاع الإفلات منها، وهذا لئلاّ يهربوا ممّا يُكلّفوا به من أعمال قاسية وقويّة لا يقدر عليها غيرهم، من مثل صناعة آلات الحرب التي تتطلب ذوبان الحديد بالنّار، وذوبان النّحاس.

- هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39) :

هذا عطاء الله تعالى اِستجابة لدعاء سليمان وتكريما له. وهبه الله ما لم يخطر على باله من الفضل ليمكّنه في ملكه بالقوّة والعزّة فلا يُغلب، فامنح – يا سليمان – من تشاء ممّا سخّره الله لك لتملك ودّه، وليكون لك حليفا ومواليا، ولك أن تمنع عمّن تشاء ممّا تفضّل الله به عليك، فلا مؤاخذة عليك فيما أمسكت عليه من الخير، فلك الحريّة في التصرّف فيما آتاك الله وخصّك به.



- ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ (40) :

وإنّ لسليمان في الآخرة قربى عند الله تعالى وكرامة وفيضا من الثواب والنّعم، وله حسن المرجع عند بعثه، فهو ذو حظّ عظيم في دنياه وآخرته، والله ذو الفضل العظيم.

- ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ (41) :

هذه إلى الآية 44 في تكريم (أيّوب) عليه السلام بالاستجابة لدعائه تكريما لصبره الذي يُضرب به المثل. والمعنى: وأذكر نداء أيّوب ربّه فشكا إليه ما أصيب به من تعب ومشقّة ومرض وألم وضرّ. وقد رُوي أنّ أيّوب عليه السّلام آتاه الله تعالى النّبوّة من بعد يوسف عليه السلام، فقد كان أيّوب زوجا لحفيدة يوسف، تزوّج رحمة بنت أفرائيم بن يوسف. كان رجلا غنيّا فأفقر، وكان رجلا سليم البدن فأُصيب بمرض جلدي أنهكه وأقعده وألزمه الفراش زمنا، ومات أولاده وظلّت زوجُه تُمَرِّضُه زمنا. ومن تأدبه مع ربّه لم ينسب ما أصابه من إفلاس بعد غناه، ومن مرض بعد صحته، ومن وفاة وُلده جميعهم إلى قضاء الله، ولم يَشْكُ ربّه قضاءه، بل شكا ربّه وسوسة الشيطان إذ كان يهمزه، ويلقي في نفسه أنّ ما أصابه كان من قضاء ربّه ليسْخَطَ، فلم يسخَطْ أيّوب من قضاء ربّه بل شكا ربّه من مسّ الشيطان.

وهذا كقول إبراهيم تأدّبا مع ربّه (وإذا مرضتُ فهو يشفيني)، وكقول فتى موسى (وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره). وقد جاء في بعض كتب التفسير وفي كتب قصص الأنبياء روايات وخرافات لا يصدّقها مؤمن، وكلّ عاقل عن مواجهة الشيطان لأيّوب، فوجب الاحتراز منها، وهي روايات لم تصحّ، وإن كانت مروية عن أسماء مشاهير من العلماء، فلقد كذب كثيرون على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونسبوا إليه أحاديث موضوعة، فهل يعجزهم أن يكذبوا على من دونه.

- ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ (42) :

فأوحى إليه تعالى أن يضرب برجله مكانا من الأرض، فإذا خرج له من ذلك المكان نبعٌ من ماء بارد فليغتسل به، وليشرب منه. ولمّا فعل أيّوب ما أُمر به أذهب الماء البارد الحمى التي أصابته، وأدملت القروح الجلدية، وتعافى ممّا أصابه بفضل من عند ربّه.

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(43) :

وأتمّ الله تعالى عليه نعمته فأصلح حال زوجه – حفيدة يوسف– ووهب لهما ذرّية تعويضا لهما عن الميّتين، وأنعم عليهم بالصحة والعافية. إنّ فيما حدث لأيّوب من إصلاح حاله وحال أهله وعياله تذكرة لأهل النّظر والاعتبار ليعلموا أنّ الله تعالى يفرّج كرب المكروبين إذا كانوا مؤمنين وإذا صبروا على الابتلاء واِحتسبوا ودعوا الله ليكشف عنهم ضرّهم.

• ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ **(44) :**

ولقد أثارت زوجته يوما غضبه، فأقسم عليها في ثورة غضبه أن يضربها عددا من الضربات تأديبا لها، وما كان عندهم في شرعه كفّارة اليمين، وكان عليه أن ينفّذ قسمه، فأوجد الله له الفتوى، أمره أن يأخذ حزمة من عيدان الحشائش على عدد ما أقسم عليها من عدد الضربات، فيضرب بها زوجه ليتحلّل من يمينه، وحتى لا يحنث فيه. ومن نِعَمِ الله تعالى على المسلمين أن يشرع لهم كفّارة اليمين للحنث فيه، ولم تكن كفّارة اليمين مشروعة في أيّ دين سماوي سابق للإسلام. وقد كان أيّوب مثالا وقدوة في صبره على تحمّل شدّة الضيق والضرّ. فإن قيل: إنّ الصابر لا يشتكي من ألم البلوى، وأيّوب قد شكا فإنّ الإجابة عن ذلك تقتضي التّذكير بأنّ الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنّما هي من الاِلتجاء إلى الله تعالى لما فيها من إظهار الخضوع والافتقار إليه لتفريج الكَرْب، وإنّها من المناجاة ومن الاِلتجاء إليه عند الضيق، وهذا كقول يعقوب عليه السلام في حزنه وهمّه: (﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾)(يوسف الآية 86) وهو الذي قال قبل ذلك حين فقد اِبنه يوسف (﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾)(يوسف الآية 18) وأمّا القول بأنّ الصبرَ تركُ الشكوى فإنّه يعني ترك الشكوى إلى العباد. وإنّ طلب الشفاء أو تفريج الكرب، أو طلب التّوسعة في الرّزق وقضاء الدَّيْن هو من الدّعاء، وقال تعالى (﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾)(غافر الآية 60) (﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾)، ما أحسنه من عبد! وما أحسن رضاه بقضاء ربّه، وما أجمل صبره! إنّه عبدٌ كثير التوبة والإنابة إلى الله وكثير الذّكر.

• ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ **(45) :**

هذه مع الآيات الثلاث المُوالية في الثناء على مجموعة من عباد الله المصطفين الأخيار. من هؤلاء إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام. كانوا من أصحاب القوة والثّبات في العبادة والطاعة، وكانوا من أصحاب العقول النيّرة، والبصيرة النّافذة للحقّ.

• ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ **(46) :**

إنّ الله سبحانه قد خصّهم بفضائل خاصّة، ونقّاهم من النّقائص ممّا جعلهم يعملون للآخرة عمل المخلصين، ويكون الفوز بنعيم الدار الآخرة محلّ عنايتهم وطلبهم.

• ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ **(47) :**

وأنّ هؤلاء عند الله عزّ وجلّ من عباده المختارين، من خيرة أهل عشيرتهم وذويهم في دينهم وسلوكهم.

• ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ **(48) :**

وأُذكر النّبيّ إسماعيل، والصالحين: اليسع، وهو صاحب إلياس، كان قبل زكرياء ويحيى وعيسى، وذا الكفل، وهو رجل صالح كان يصوم نهاره، ويقوم ليله، ويقضي بنزاهة، وكان كثير

الفضل، يعين الملهوف، ويكفل الضعيف، وجميعهم: إسماعيل واليسع وذو الكفل من خيرة القوم لحسن عملهم، وصدق إيمانهم.

- هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ (49) :

هذه إلى الآية 54 في ما ينتظر المتّقين من مظاهر التكريم في آخرتهم. والمعنى: هذا القرآن ذكرٌ للمؤمنين، وليعلموا أنّ المتّقين موعودون بحسن المنقلب في الآخرة إلى دار النّعيم، وموعودون بالإنعام عليهم بما يستحقّون من التكريم عند رجوعهم إلى ربّهم.

- جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ (50) :

مأواهم في جنّات يقيمون فيها إقامة دائمة، تفتح لهم أبوابها ليتمكّنوا من التّجوال فيها والانتفاع بخيراتها.

- مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (51) :

يجدون فيها راحتهم وأنسهم مع خلاّنهم لتبادل الحديث، يجدون فيها أرائك وأسرّة للجلوس عليها في دعة ورفاه، وتأتيهم في جلساتهم كلّ ما يطلبون من الفواكه، وأنواع الشّراب العذب.

- وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (52) :

ومن حولهم أزواجهم اللاّئي لا ينظرن إلى غيرهم. هنّ زوجات عفيفات طاهرات في مثل سنّ بعضهنّ، وهنّ متساويات في الحسن والجمال.

- هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (53) :

هذا ما يعد الله تعالى به عباده المتّقين يوم الحساب: يوم الجزاء والثواب والتكريم.

- إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ (54) :

إنّ هذا التكريم، وكلّ هذه الخيرات والفضائل من رزق الله تعالى لمجازاة المتّقين، وإنّ فضله وخيراته لا تنفذ ولا تزول، فانعموا أيّها المتّقون بما ترغبون وبما تشتهون.

- هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (55) :

هذه إلى الآية 64 في عرض مشاهد من سوء مآل الطاغين لتحذير أمثالهم من مثل هذه العاقبة. والمعنى: وفي المقابل فإنّ الطغاة الظالمين أنفسهم بالكفر والظالمين أتباعهم بصدّهم عن سبيل الله حتّى لا يهتدوا سيلقون شرّا وعذابا ومهانة يوم يرجعون إلى ربّهم للحساب يوم القيامة.

- جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (56) :

سيحشرون في جهنّم، وسيَفْتَرِشُون النّار لجلوسهم ولنومهم، فما أسوأ فراشهم على النّار!

- هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) :



وسيكون شرابهم من ماء شديد الحرارة ممزوج بصديد يسيل من أجساد المحرقين بالنّار. وما أسوأ هذا المذاق وهذا الشراب!

- وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ (58) :

ويشربون أصنافا من هذا الماء وهذا العصير وأنواعا ممّا يشابهه في سوء المذاق والطعم وشدّة الحرارة.

- هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ (59) :

ويحشر معهم جمع آخر من الفاسقين والطغاة من المفسدين في الأرض بظلمهم للعباد وقهرهم للمستضعفين، يدفعون إلى النّار دفعا قسريا، فلا يجدون ترحيبا من هؤلاء لأنّهم من شرار النّاس، وما هذا الجمع إلاّ من قرنائهم في النّار، وهم ممّا تُكْرَهُ صحبتهم.

- قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ (60) :

فيردّ هذا الجمع من الفاسقين والصعاليك على أولئك الطغاة الذين يدّعون الزّعامة والسيادة والشرف: أنتم الذين لا نرحّب بوجودكم معنا، ذلك لأنّكم أنتم الذين أرشدتمونا إلى ما سبق من أعمالكم، فتَأَذَّيْنَا باتّباعكم وبما أرشدتمونا إليه، فكنتم سببا في إلحاقنا بهذا القرار السيّء وهذه الإقامة الكريهة.

- قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ (61) :

ثمّ دعا هؤلاء الفاسقون الصعاليك شرار النّاس على أولئك الطغاة السادة بأن يزيدهم الله تعالى من العذاب المضاعف في النّار لأنّهم كانوا سببا في ضلالتهم وفي فساد طبعهم وفساد أعمالهم.

- وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ (62) :

وفي إحدى جلساتهم السيّئة المؤلمة تأمّل الطغاة المتزعمّون لأقوامهم في جموع المقيمين في جهنّم فقالوا ما لنا لا نرى معنا أولئك الفقراء والمستضعفين ومن كانوا عبيدا عندنا من الذين آمنوا، وكنّا نظنّهم من أشرّ خلق الله لأنّهم من المحرومين والمحتاجين والفقراء والضعفاء.

- أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ (63) :

أكنّا نهزأ بهم وبإيمانهم واِتّباعهم الرّسول خطأ وهم اليوم من المكرمين، أم أنّنا لم نبصرهم بسبب الغَبَش واِنحراف أنظارنا عنهم؟

- إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ (64) :

إنّ في مثل هذا الحديث يتجادل أهل النّار حقّا، وليس لهم من حديث يتآنسون به غير هذا.

- قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (65) :



هذه إلى الآية 70 في التذكير بمهمّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. أخبرهم – يا محمد – بأنّ من مهام رسالتك أن تنذرهم بسوء عاقبة الشّرك، وبسوء مآل من يعبد إلاها آخر غير الله، أخبرهم بأنّه ليس للعالمين إلاها غير الله الواحد، لا نِدَّ له، ولا شريك، ولا صاحبة له ولا ولد. هو تعالى واحد أحد، لا إلاه غيره، ومن يعبد إلاها آخر غير الله تعالى فإنّ الله تعالى قاهره بعذاب أليم.

- **رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ (66) :**

هو سيّد السماوات والأرض وما بينهما وكلّ ما فيهما لأنّه تعالى هو خالقهما وخالق كلّ شيء فيهما وفيما بينهما وهو (ٱلۡعَزِيزُ) العظيم العليّ الذي لا يَبْلُغُهُ أحدٌ من مخلوقاته وهو الذي لا يُغلب، وهو (ٱلۡغَفَّٰرُ) كثير المغفرة لعباده المؤمنين به والعابدين له والمطيعين له، والراجعين إليه بالتوبة.

- **قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ (67) أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ (68) :**

أخبرهم أنّ هذا القرآن خبر عظيم وله شأن عظيم في إرشاد النّاس وموعظتهم، وأنتم عنه منصرفون غرورا ومكابرة، وجهلا بفضائله، في تنوير العقول والبصائر للاهتداء إلى صراط الله المستقيم في الدين والعمل وحسن المآل.

- **مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۢ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ (69) :**

لم يكن لي علم بما جرى في الملكوت العلوي في تحاور الملائكة عليهم السلام بشأن خلق آدم عليه السلام وبشأن إستخلافه في الأرض.

- **إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (70) :**

وإنّ ما أخبركم به من خبر حسن مآل المتقين، ومن خبر سوء مآل الطاغين، ومن خبر السماء هو ممّا يوحي إليّ من ربّي، وما أنا في هذا التّذكير إلاّ منذر النّذير الواضح للتّحذير من عقاب الله عزّ وجلّ إذا أعرضتم عن طاعته وعن التّصديق بما جئتكم به من عنده تعالى عَبْر الوحي.

- **إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71) :**

هذه إلى الآية 85 في خبر إستكبار إبليس عن طاعة أمر ربّه للسجود لآدم إحترامًا وتقديرا لخلق الله. والمعنى: وأذكر إذ قال الله عزّ وجلّ للملائكة إنّي واجد بشرا، أصل خلقه الأوّل من تراب مخلوط بماء.

- **فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (72) :**

فإذا أتممت خلقه، وعدّلت صورته، ونفخت فيها من روحي، وتحوّل إلى كائن حيّ بعد جموده خرّوا له ساجدين سجود التّحية والتكريم، وسجود التّعظيم للخالق الذي خلقه فأحسن صورته.



- فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ (73) :

فامتثل الملائكة كلّهم لأمر ربّهم، وسجدوا لآدم حين اِستوى خلقه ونفخ الله فيه من روحه تكريما لجنسه وتعظيما لمن خلقه وأنشأه وتعظيما للنفخة التي فيه من روح ربّهم.

- إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (74) :

إلاّ إبليس الذي كان في جمع الملائكة لمّا جاءهم أمر ربّهم –وكان إبليس من جنس الجانّ ولم يكن من صنف الملائكة– لم يسجد لآدم مع الملائكة اِستكبارا واِستعلاء على الجنس الآدمي وعلى أصل خلقه وكان من العصاة لأمر ربّه.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ الاستكبار عن طاعة الله تعالى فيما أمر وفيما نهى عنه يعتبر كفرا، فوجب الحذر من المعصية.

- قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ (75) :

وسئل إبليس عمّا منعه ليسجد لما خلقه الله تعالى بعناية كبيرة فأحسن خلقه. أكان هذا من كبريائه أم كان من تعاليه وتعاظمه على خلق الله وأمره؟ وتنزّه تعالى عن التّجسيم في قوله (لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ) فإنّه سبحانه ليس كمثله شيء، وإنّما اليد هنا تعني العناية والاهتمام وإتقان الصنع. كذا التّعبير في اللسان العربي.

- قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ (76) :

فأجاب إبليس بأنّه لم يسجد لآدم لأفضلية أصل خلقه، فهو مخلوق من نار، وآدم خلق من طين، ورأى أنّ النّار أفضل شرفا في صفتها، فمن صفة النّار العلوّ والارتفاع، ومن صفة التراب الخمود ولا اِرتفاع له. فتبيّن من إجابة إبليس أنّ سبب معصية الله فيما أمر هو الاستكبار، وهذا هو موضوع الموعظة، ومقصد ذكر هذه المحاورة، فإنّ القصد تحذير الإنسان من الكبرياء والاستعلاء فإنّه أصل لكلّ وَقْعَةٍ في المعصية.

- قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ (77) :

فغضب الله تعالى عليه فأمره بالخروج من ملكوته العلوي وأطرده من ذاك التّشريف الربّاني، وأخبره بأنّه مطرود من الملكوت العلوي بالرّجم بالشّهب المحرقة.

- وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ (78) :

وأطرده تعالى من رحمته ومن فضله إلى يوم النّفخة الأولى، عند الفناء التام.

- قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (79) :

وطلب إبليس من ربّه أن يمهله فلا يميته إلى يوم البعث.

- قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ (80) إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ (81) :

فأجاب الله تعالى طلبه بأن يمهله وبأن لا يُميته إلى يوم النّفخة الأولى: يوم الفناء، وليس إلى يوم البعث كما طلب إبليس. فأجابه إلى شيء، ومنع عنه تأخيره إلى يوم البعث ليكون فانيا مع الفانين.

- **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (83) :**

فأقسم بعزّة الله عزّ وجلّ – وهو قسم عظيم – بأن يعمد إلى تضليل جنس البشر بأن يزيّن له المعصيّة وإلى تغريره بالأماني بكلّ وسيلة، وهذا لجميع عباد الله باستثناء عباده الذين أخلصوا دينهم لله تعالى، وعصمهم الله تعالى من الضلالات لصفاء قلوبهم، وكانوا عابدين متبتّلين، فقد علم إبليس أنّ هذا الصنف من عباد الله تعالى لا قدرة له عليهم لاستمالتهم للمعصية أو للضلالات.

- **قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85) :**

قال تعالى فالأمر الحقّ والحكم الحقّ، وما أقوله وأعد به أو أتوّعد هو القول الحقّ الواقع الثابت يقينا: لأملأنّ جهنّم بكلّ تأكيد منك من بني جنسك وممن تبعك من بني آدم ممن أطاعوك واستكبروا على طاعتي من أجل إرضائك.

وجه الاعتبار من عرض هذا الحدث الحذر من غواية الشيطان وإضلاله ووساوسه وتزيينه للمعاصي، وليس من طريق للتّوقّي منه ومن الوعيد بجهنّم إلاّ بالإخلاص في طاعة الله تعالى واتّباع شرعه والوقوف عند حدود ما أنزل.

- **قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ (86) :**

هذه مع الآيتين المواليتين في التذكير بتبرئة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من التقوّل على الله عزّ وجلّ، وفي التذكير بأهمية القرآن في التحذير من سوء العاقبة وبهذا تختم هذه السورة بما بدأت به في التّنويه بفضيلة القرآن، وبهذا يحتكم الربط بين مقدمة السورة وخاتمتها.

والمعنى: أخبرهم – يا محمد – بأنّك لا تطلب أجرا أو سيادة أو مالا عمّا تدعوهم إليه من الهدى، وأنّك لستَ من المتقوّلين على الله عزّ وجلّ، ولست من المرائين المتصنّعين.

- **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ (87) :**

إنّما هذا القرآن موعظة للنّاس أجمعين في كلّ زمان وفي كلّ مكان.

- **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ (88) :**

وبكلّ تأكيد ستعرفون صدق ما أخبركم به عن ما ستلاقونه مستقبلا يوم القيامة ويوم البعث، وعمّا وُعِدتم به من الجزاء والمثوبة بالنّعيم في الآخرة، وعمّا أُنذر به العُصاة الكافرون من العقاب في آخرتهم، وإنّ غدًا لناظره لَقريب. وفي هذا تحذير للكافرين وللمكذّبين بالرسول وبالكتاب وبيوم البعث من سوء المآل.



رقمها	ســــورة الزمـــــر	آياتها
39	ـــــ مكيّة ـــــ	75

سمّيت بسورة (الزّمر) لانفرادها بذكر حشر الكافرين إلى جهنّم زمرا، وسوق المؤمنين إلى الجنّة زمرا. وهي سورة مكيّة، لذا فهي سورة في تصحيح معتقد المشركين ليؤمنوا بالله الواحد الأحد، وفيها الدعوة إلى التّصديق بالكتاب الذي هو تنزيل من الله العزيز الحكيم، وبهذا بدئت السورة، ودعت السورة للإيمان بالبعث وبالحساب وبهذا خُتمت.

ومن أهمّ أغراضها أنّها فتحت أبواب الرّجاء فسيحة للذين أسرفوا على أنفسهم حتى لا ييأسوا من رحمة الله الرّحيم، وللحذر من الحسرة يوم لا ينفع ندم.

في هذه السورة دلائل التوحيد والإنعام والقدرة، ودلائل السمع والاستجابة للدعاء، وكذلك دلائل إبطال الشرك وتنزيه الله تعالى عن الصاحبة والولد، وذلك للإيمان بالله وحده سبحانه، ولذلك تعدّدت في هذه السورة الدعوة لعبادة الله مخلصين له الدّين.

وجاءت في هذه السورة مشاهد من عذاب الكافرين ومن مظاهر الإنعام على المؤمنين في الغرف العالية، مع مشاهد من العرض للحساب، وما هذا العرض إلاّ للحذر من سوء المآل يوم الحساب.

- تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (1) :

هذه مع الآية الموالية في التّصديق بالقرآن. والمعنى: هذا الكتاب – القرآن الكريم – نزل عليك – يا محمد – من الله (ٱلۡعَزِيزِ) العظيم، الملك عظيم الشأن الذي لا يغلب، وهو (ٱلۡحَكِيمِ) الذي يعرف كيف يهدي عباده الضالّين لسواء السبيل بالحجّة والدليل وبالترغيب والترهيب وبالتّذكير بالنّعم، وبالتوجيه للاعتبار بسوء مآل المعرضين عن طاعة الله عزّ وجلّ، وبما يثير مشاعرهم لتلين قلوبهم للاستقامة على دين الله وعمل الصالحات. وأُستعمل لفظ (تَنزِيلُ) بدل النُّزول أو نزل ليدلّ على أنّ نزوله كان مقسّما على فترات زمانيّة لتعهّد النّاس بالموعظة بين فترةٍ وفترةٍ من الزّمن ليتذكّروا.

- إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ (2) :

لئن كان الخطاب في الآية موجّها للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلاّ أنّ المقصود به كلّ مؤمن، إنزال الكتاب من الله العزيز الحكيم إلى محمد، وهو إنزال من عند الله بالحقّ، فمحمد صلّى الله عليه وسلّم صادق فيما يبلّغ به النّاس من القرآن، فاعبد الله – أيّها الإنسان – مخلصا لله في



العبادة والطاعة له وحده، لا تشرك معه أحدا. فليكن إيمانك بالله موحّدا إيّاه في الألوهيّة والعبادة وعند العمل بشرعه، واِتّبِع قرآنه.

- **أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ (3) :**

(أَلَا) للتّنبيه، بمعنى اِنتبهوا – أيّها النّاس جميعا – لله وحده (ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ) أي العبادة والطاعة لأنّه هو وحده "الله" لا شريك له، وما من إلاه غيره، هو الله الحقّ الحقيق بالألوهيّة وبالتّقديس والطاعة له، وكلّ ما يعبد من دونه من إلاه، هو إلاه باطل، ولا دين له، ولا شرع له، ولا أحقّية له في العبادة والتقديس أو الدعاء.

والذين جعلوا من دون الله آلهة، فإنّما هي آلهة باطلة، هي من الوهم ومن الاختلاق الزّائف، وهي معبودات يتَوَلَّوْنها بدعوى أنّها تقرّبهم من الله زلفى، وأنّها تشفع لهم عند الله تعالى من العذاب هم واهمون ومخطئون، وما يعبدون لا تقرّبهم إلى الله زلفى ولا تشفع لهم، وليس بين العبد والله السميع المُجيب واسطةٌ، وما دينهم بالدّين الحقّ، بل إنّهم في ضلالة عن الدّين الحقّ.

إنّ الله الذي هو جامع النّاس ليوم لا ريب فيه لمحاسبة النّاس عمّا يعتقدون وعمّا يعملون وعمّا يقولون والذي هو أحكم الحاكمين سيفصل بين المؤمنين بالدّين الخالص الحقّ وبين الذين ضلّوا عن الصواب فاتّخذوا لأنفسهم آلهة باطلة غير الله وحادوا عن الدّين الحقّ.

إنّ الله لا يرشد للهدى وللصواب وللحقّ من يعرض عن الإيمان بالله وحده ومن يكذّب بكلامه ويصرّ على الكذب على ربّه بادّعاء آلهة أخرى باطلة شريكة له في الألوهيّة وفي العبادة والطاعة، ويصرّ على الكفر بوحدانيّة الله تعالى، وعلى التّكذيب برسوله وبكتابه.

- **لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (4) :**

هذه إلى الآية 7 في بعضٍ من دلائل التوحيد وإبطال الشرك، وفي بعضٍ من دلائل الإنعام. ومعنى الآية: لو أراد الله تعالى أن يكون له ولد لاختار ممّا يخلق ما يشاء ليكون له ولدا، ولكنّ هذا لم يحصل، فكلّ اِدّعاء بأنّ لله الواحد الأحد ولدا – ذكرا أو أنثى – هو ادّعاء باطل، لا حجّة لمن ينسب لله ولدا على صدقه، ولا برهان له، وإنّما هو ادّعاء على الله بالكذب. (سُبْحَٰنَهُۥ) تنزّه الله تعالى على أن يكون له ولد، وليست الملائكة بنات الله كما ادّعى عليه كذبا المشركون، إنّما هو الله الواحد الأحد الذي يعذّب من يكذب عليه عذابا يقهره ويذلّه ويؤلمه، وتنزّه الله تعالى عن الحاجة للصاحبة والولد، فكلّ من يدّعي لله الولد هو كاذب كفّار.

- **خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (5) :**



الله الذي تُدعَوْن لعبادته وطاعته هو الذي خلق السماوات والأرض بالحقّ، وما تَدَّعُون من آلهة غيره لم تخلق شيئا، ولا برهان لها على أحقّيتها في الألوهية، فدعوها وادعوا الله الخالق الحقّ. وإنّه هو تعالى الذي يلفّ الليل على النّهار لفّ اللباس على اللابس فيستره فتكون الظلمة، وهو الذي يقلّب النّهار على اللّيل فيبدّد ظلمته بضيائه. فهل لكم من إلاه غيره يأتيكم بليل لتسكنوا فيه، وبنهار لتسعوْا في ضيائه لمشاغلكم؟ وإنّه تعالى هو الذي سخّر لكم القمر ليظهر لكم ليلا لمؤانستكم بضيائه، ولتعلموا عدد الشهور والسنين والحساب، وسخّر لكم الشمس لمنافع كثيرة، فهل سخّرت لكم آلهتكم شيئا من هذه المظاهر العظيمة لتنتفعوا بها لحياتكم ولمعاشكم؟ كلّ شيء ممّا خلق الله في السماوات وفي الأرض، وكلّ شيء سخّره لنفعكم جارٍ وقائمٌ لأجل معلوم عند الله وحده، فإذا حان هذا الأجل والوقت المعلوم عنده ذهب كلّ شيء فلا تبقى السماوات ولا الأرض ولا الشمس ولا القمر. ألا إنّ الله هو الملك العظيم الذي لا يُردّ أمره. وهو الغالب، وهو كثير المغفرة لمن آمن وتاب واستغفر ربّه، وهو كثير المغفرة يوم القيامة لعباده المؤمنين، فسارعوا إلى ربّكم بالتوبة والإنابة، ودعُوا عنكم شرككم وما تدّعُون كذبا وما تقولون اِفتراءً على الله بغير حقّ وبغير دليل، وتعرّفوا على ربّكم من دلائل خلقه وإنعامه.

- **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (6) :**

الله الأحقّ بالألوهية والطاعة والعبادة هو الّذي أنشأ جميع النّاس من أصل واحد، من آدم عليه السلام، ثمّ جعل من هذه النّفس بالتناسل أصنافا وأنواعا: ذكورا وإناثا، بيضا وسمرا وصفرا. وهو الذي أنزل لكم ثمانية أزواج من الأنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز وجعلها مسخّرة لكم لطعامكم ولخدمات أخرى. وإنّه تعالى يخلقكم في ظلمات ثلاث في بطون أمهاتكم ظلمة الرّحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة، هذا من خلق الله ربّكم الحقّ له ملك كلّ شيء، لا أحد يملك معه شيئا في السماوات وفي الأرض، ولم يخلقكم أحد غيره، ولم يخلق إلاه غيره الأنعام وجعلها مسخّرة لكم، وهو الوارث لكلّ شيء لأنّ كلّ شيء مِلكٌ له. لا إلاه إلاّ هو، فآمنوا به وحده، واعبدوه وحده ولا تعبدوا إلاها غيره، وأطيعوه. فكيف يصرفكم صارف عن توحيده بعدما علمتم دلائل خلقه ودلائل قدرته ودلائل إنعامه، وكيف يصرفكم صارف عن السماع لآياته وعن السمع لرسوله وعن طاعته فيما يأمركم به من أمر الله للعمل بشرعه. والاستفهام للاستغراب.

- **إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (7) :**

هذه في تحميل كلّ إنسان مسؤوليته عن إيمانه وعن عمله في دينه، وفي ما يَبْلُغُه عن ربّه من أمر ونهي. والمعنى: إنّ الله غنيّ عن طاعة عباده وعن عبادتهم له، فهو تعالى غير محتاج إلى طاعاتهم، ولا تنفعه طاعاتهم ولا تضرّه معاصيهم، إنّما هم الذين ينتفعون بثوابه وبمغفرته لهم وبما أعدّ لهم من الحفظ من المهالك وبما أعدّ لهم من النّعيم في آخرتهم إن هم أطاعوه واتّبعوا ما أرشدهم إليه من الهدى، وإنّما هم الذين يظلمون أنفسهم إذا كفروا وعصوْا ربّهم، لا يرضى الله تعالى لعباده الكفر لأنّه سيَسُوؤُهم، وسيضرّ بهم، ويلقي بهم إلى التهلكة لأنّهم أغضبوا ربّهم بكفرهم. ومن شكر ربّه على نعمة الهدى واهتدى إلى طاعته والعمل بشرعه فإنّ الله تعالى يرضى عنه، ويعدّ له من النّعيم والخيرات في دار التكريم ما يسرّه. ولا تحمل نفس آثمة ذنوب نفس أخرى، كلّ نفس مسؤولة عن نفسها. ثمّ إنّ جميع النّاس عائدون إلى ربّهم بعد مماتهم عند بعثهم للحساب، ويؤمئذ يخبر كلّ واحد بما عمل من السيّئات إذا كفر وعصى ربّه، وأمّا من آمن وعمل صالحا فإنّه آمن يومذاك من العذاب ومن المؤاخذة عن العمل المغفور له. والله عليم بما في النّفوس وبما في القلوب من صدق الإيمان ومن حسن النّوايا في العمل والإخلاص في الطاعات.

- **وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ (8) :**

هذه لدعوة الإنسان للعودة لوَعْيِه، وذلك بتذكيره بمن كان يدعوه عند ضرّه، كان يدعو ربّه ليكشف عنه ضرّه، وهذا من فطرته السليمة، ولكنّه عندما يسلم من ضرّه ينسى من كان يدعوه عند ضرّه ويميل إلى الشّرك. وهذا من أقوى الأدلّة على ما ترشده إليه فطرته السليمة لصاحب القدرة السميع المجيب ليدعوه ويطلب فضله لينقذه مما هو فيه من ضرّ، وهو الله سبحانه كاشف الضرّ الرحمان الرحيم، ولكنّه من غفلته يخطئ في تقييم ما يتوجّه إليه في سلامته ليعبّر عن طاعته له، ومن يتوجّه إليه عند إصابته بالضرّ. ولو نظر المشركون في هذه الآية نِظرة وَعْيٍ وتقييم لعلموا ضلالتهم، ولكشفوا تناقض سلوكهم بين هذا وذاك، ولأسلموا وتركوا الشرك، ولكنّهم كانوا لا يسمعون، ولا يعقلون، وأعماهم التقليد وغيّب عنهم الوعي.

والمعنى: وإذا أصيب الإنسان بضرّ آلمه، وهدّده بالهلاك وأخافه توجّه إلى ربّه: الله الحقّ ورجع إليه بالدعاء والتوسّل إليه ليكشف عنه كربه، وما به من ضرّ، وهذا من سلامة فطرته. الإنسان عند كربه لا يدعو أحدا غير الله عزّ وجلّ ليطلب منه الفرج واللطف به. ولكنّه حين يكشف الله تعالى عنه ضرّه، ويسلم من دائه نعمةً من عند ربّه، ينسى سريعا فضل ربّه عليه وينسى من كان يدعوه عند شعوره بالكرب، ويتوجّه إلى الآلهة التي كان يقدّسها ويجعل لله شركاء في الدعاء والطاعة. أخبر هذا الإنسان الذي ينسى فضل ربّه عليه ويناقض نفسه فيمن كان

يدعوه عند كربه وفيما يدعوه من بعد تفريج كربته ويشرك بربّه آلهة أخرى بأن ينعم بحياته على كفره، ولكنّه لن يطول به الزمن، فسيعود إلى ربّه ليحكم عليه بأن يكون من أهل النّار ليقيم فيها الإقامة الدائمة، وقوله تعالى (تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً) يعني الإمهال، ولكنّه ينذر بعقابه بالنّار المتمادي في شركه وقلّة وعيه غفلة أو عنادا.

- أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (9) :

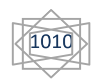
الاستفهام في هذه الآية يدلّ على عدم التّساوي: لا يستوي المؤمن والكافر في الأجر والثواب كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فهما على طرفي نقيض. المؤمن (القانت) المداوم على الخضوع التامّ والعبادة لله تعالى في ساعات من الليل يقضيها في السجود لله عزّ وجلّ وفي القيام لِذكر كلام الله طلبا لرحمة ربّه حتى ينجو من عذاب الآخرة وهول الحساب، والغافل عن ذكر الله وعن طاعته وعن عبادته وعن طلب رحمته فكيف يتساوى هذا مع الذي يقوم الليل ويطلب رضوان الله تعال؟ لا يستويان كما لا يستوي العالم والجاهل الذي لا يفرّق بين الطاعة والمعصية. إنّما ينتفع بهذا التّذكير، وهذا التّنبيه أصحاب العقول الواعية الرشيدة.

والغرض المقصود من الآية ترغيب المؤمنين في القنوت وفي قيام الليل وفي الدعاء بطلب رحمة الله تعالى.

- قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (10) :

لمّا جرى في الآية السّابقة أنّ الذين يعلمون لا يستوون مع الذين لا يعلمون جاءت هذه الآية وما بعدها من الآيات إلى الآية 20 في بيان مثوبة المؤمنين المتّقين، وعقوبة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم لبيان الفوارق بين الفريقين غير المتساويين في الإيمان وفي العمل وفي العاقبة كذلك.

والمعنى: وأخبرْ عباد الله المؤمنين بالله وحده والمتّقين الذين اِمتثلوا للعمل بشرع الله تعالى إظهار للطاعة، واِجتنبوا ما نهى عنه وما حرّمه خوفا من عذابه وغضبه بتبشيرهم بأن يأمنوا من عذاب الله إذا أحسنوا في طاعتهم لربّهم، وبأنّهم سيُكرَّمُون بنصرهم على أعدائهم إذا أُوذوا، وأرض الله واسعة ليهاجروا من دار الكفر إلى أيّ أرض يطمئنّون فيها على أنفسهم عند عبادتهم، والله تعالى يَعِدُ الصابرين على طاعاتهم، المتحمّلين أذى قومهم بسبب تديّنهم بمجازاتهم بثواب لا ينقطع تكريما لهم على ثباتهم على دينهم. ولمّا كانت هذه السورة المكيّة فإنّ في هذه الآية إباحة الهجرة من مكّة لأي أرض من أرض الله الواسعة لكلّ مؤمن تأذّى في دينه، ورغب في أن يأمن على روحه ودينه.



- قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ (11) :

هذه لتثبيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمواجهة اِنتقاد المشركين الذين يعيبون عليه تركه لدين آبائه، ودعوته لدين جديد لم يكن لهم به علم ليقول لهم: إنّما أمرتُ من الله عزّ وجلّ أن أعبد الله وحده مخلصا له في العبادة والطاعة من غير شرك ولا رياء لأنّه لا إلاه إلاّ الله وحده وهذا هو الدّين الحقّ.

- وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (12) :

وأمرت لأن أكون أوّل أفراد هذه الأمة إشهارا لإسلامه، فأنا أول المسلمين.

والإسلام هو دين عقيدة وعمل. هو دين تقوم عقيدته الأساسية على توحيد الله في الطاعة والعبادة، ونبذ الشرك بجميع مظاهره، وهو دين العمل بشرع الله وأحكامه الواردة في القرآن الكريم، وهي أحكام فيها أوامر وفيها نواهٍ وفيها ما هو محرّم، منها ما هو خاصّ بالعبادة ومنها ما هو خاصّ بالمعاملات وهي المعروفة بمصطلح الشريعة الإسلاميّة. وقد جاءت الآية السابقة في العقيدة، وأمّا هذه فجاءت في الالتزام بعقيدة الإسلام وبشريعته معا. فالآيتان في موضوعين مختلفين: الأولى في العقيدة، والثانية في العقيدة والشريعة = الإسلام.

- قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ (13) :

وأخبرهم أنّك لن تترك الدعوة للإسلام، ونبذ الشّرك، وأنّك لن تتّبع دينهم. قل لهم بأنّك تخشى إن عصيت ربّك بترك الدعوة إلى توحيده في المعتقد والطاعة والعبادة أن يصيبك عذاب يوم شديد الهول والمحنة. وفي هذا القول الموجّه للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تعليم لكلّ مسلم ليردّد هذا القول عند مواجهته لمن يصدّه عن دين الله من أفراد قومه المشركين.

- قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي (14) :

الخطاب في هذه الآية لكلّ فرد من المؤمنين إذا حاجّه أحد في دينه ليجهر بتوحيده لله تعالى وليصدع بإسلامه دون خوف أو توارٍ، قل أيّها المؤمن إني أعبد الله وحده لا أشرك به أحدا، أعبده مخلصا له في التّوحيد وفي الطاعة وفي العبادة، ولا أدعو من دونه أحدا. والمستفاد من هذه الآية ومن الآية 10 أنّ أتباع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بدؤوا يتكاثرون، والمواجهة مع المشركين بدأت تقوى، وبدأ المسلمون يعتزّون بدينهم الجديد ويجهرون به، وهذا ممّا كان يثير غضب المشركين ويزيد من غيظهم.

- فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ (15) :

فاعبدوا ما شئتم من دون الله – أيّها المشركون – وما هذه الجملة إلا للإنذار بسوء العاقبة والمآل لأنّهم لم يتّبعوا الحقّ وأعرضوا عنه، فتُرِكُوا لعماهم ولكنّهم سيكونون من الخاسرين.



وأخبرهم–يا محمد– أنّ الخاسرين الحقيقيين هم الذين ألقوا بأنفسهم وأهليهم الذين اتّبعوهم إلى التهلكة يوم القيامة، يوم الحساب حين يفاجؤون بأنّهم كانوا في ضلالتهم يعمهون، وهذا هو الخسران الحقيقي الواضح لأنّهم حرموا أنفسهم من التّنعّم بنعيم الله تعالى واِختاروا لأنفسهم العذاب.

- **لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ (16) :**

ستُحيط بهم النّار من كلّ جانب، ستعلوهم فوق رؤوسهم كأنها تظللهم وبئس الظلّ من النّار ومن تحتهم سحابة من النّار سوداء كأنّها ظلّهم. هذا ما يتوعد به الله تعالى عباده الكافرين المعرضين عنه. يا عباد الله، إنّ الله يدعوكم ويناديكم لتؤمنوا به ولتطيعوه ولتَخْشَوْا عذابه فقُوا أنفسكم من عقابه.

- **وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ (17) :**

وأمّا الذين اجتنبوا عبادة الأصنام والأوثان وكلّ ما يُعبد من دون الله، ولم يقدّسوها، وأعرضوا عنها، واِستنكروا إقامة المعابد بها، ورجعوا بعد شركهم إلى عبادة الله وحده وإلى طاعته، وتابوا ممّا كانوا عليه، واِستغفروا ربّهم، فلهؤلاء البُشرى بكلّ خبر سارّ. فبشّر – يا محمد – عباد الله الذين تركوا الشرك وعادوا إلى ربّهم بالتوبة والطاعة والعبادة بكلّ ما يَسُرُّهم من البشائر.

- **ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ(18) :**

كان المشركون يتصدّون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين يلقونه يدعو النّاس للإيمان بالله الواحد الأحد وطاعته فيتهمونه بالسحر والكذب وبالجنون أحيانا وبالخروج عن دين آبائه وأجداده، ويرفعون أصواتهم فوق صوته فجاءت هذه الآية في التّبشير بالهدى للذين يستمعون القول فيتّبعون ما يقوله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الإيمان بالله تعالى دون سواه، وهو أحسن ما يسمعون من الأقوال. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حديث صحيح "أفضل ما قلته أنا والنّبيئون من قبلي: لا إلاه إلاّ الله". الذين يتّبعون ما يدعو إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هم الذين هداهم الله تعالى للدّين الحقّ ولسواء الصراط الذي يقيهم العذاب ويؤمّنُهم يوم القيامة من سوء الحساب ويضمن لهم المثوبة وحسن التكريم في جنّات النّعيم، وهؤلاء هم أصحاب العقول الرشيدة والقلوب الواعية السليمة من العيوب: عيوب العناد والمكابرة والجهالة.

- **أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ (19) :**

وأمّا الذي رفض أن يستمع لأحسن القول، ورفض النّظر فيه، واِنصرف عنه فوجب عليه العقاب لعناده وكفره ومكابرته فدَعْهُ لشأنه أفأنت قادر على أن تهديه للإيمان فتنقذه من العذاب في نار جهنّم وهو الرّافض لأن يهتدي للحقّ والصواب؟

- لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ (20) :

وأمّا الذين اِستمعوا القول فاتّبعوا أحسنه وأنابوا إلى الله تعالى وتابوا، وآمنوا وأطاعوا واِستغفروا فإنّ لهم في جنّات النّعيم (غُرَفٌ) وهي المنازل الرفيعة العالية ومن فوقها منازل أرقى وأعلى متينة البناء تجري من تحتها الأنهار متعة للعين الناظرة من فوقها. هذا ما يعد الله به عباده المتّقين الذين يرجون رضوانه ويخافون عقابه. وهو وعد ثابت وواقع لا خُلفَ فيه.

- أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ(21) :

هذه الآية مع الآيات الموالية إلى الآية 26 في الاستدلال على توحيد الله تعالى في القدرة والإنعام للإيمان بألوهيته وحده، وفي بيان فضل هذا الكتاب، وفيها تحذير من الكفر به ومن الإعراض عن طاعة الله.

والمعنى: ألم تنتبه إلى قدرة الله الحقّ فيما ينزل على الأرض من ماء من السماء حتى تسيل به المجاري، ويملأ به العيون التي في باطن الأرض فتغدو ينابيع للسقي ولشرب النّاس، ويروي الزرع على اِختلاف أصنافه وأنواعه فيخرج حبّه وسنابله وأعواده ثمّ يهيج ثمّ تراه مصفّرا حتى يتمّ نضجه وجفافه وييبس، ثم بعد حصاده يُصَيِّرُه فُتاتا هشيما متكسّرا من اليُبس. إنّ في هذا دليلا على فضل الله تعالى على خلقه وعلى عظيم قدرته على إحياء الأرض ينتفع به أولو الأبصار وذوو العقول الرشيدة ليعرفوا أنّ الأحقّ بالألوهية وبالعبادة والطاعة هو الله منزل الماء من السماء ومحيي الأرض ورازق العباد من خيرات الأرض.

- أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (22) :

ليس من لان قلبه لذكر الله وخشع ووجل من ملاقاة ربّه فانشرح للإسلام بنورٍ من ربّه وصار على هدى من الله تعالى وعلى بصيرة منه، ليس هذا كالذي كان قلبه قاسيا متحجّرا عند ذكر الله عزّ وجلّ فلم يؤمن ولم يخش الله واِنصرف عن طاعته وطلب مرضاته. فالهلاك للقلوب القاسية المتحجّرة التي اِنصرفت عن ذكر الله تعالى وخشيته، إنّ أصحابها في بعدٍ بعيد عن الحقّ والصواب، في بُعْدٍ واضح.

- ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ (23) :



بدئت الآية باسم الجلالة (ٱللَّهُ) لتعظيم الفعل الذي يخبر عنه الذي هو (نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ) وهذه صفة للقرآن الكريم. الله تعالى هو المنزل. والذي نزل هو أحسن الحديث. ومعنى الحديث هو الخبر والإخبار، وذلك لأنّ في هذا الكتاب: القرآن أخبار الأمم، وأخبار ما سيكون يوم الفناء عند النفخة الأولى، وأخبار يوم البعث، وأخبار الحساب، وأخبار أهل الجنّة، وأخبار أهل النّار، وأخبار المتّقين وصفاتهم، وأخبار أهل المعاصي ومظاهر ضلالاتهم وأسبابها.. إلخ. وهو أحسن الحديث لأنّه حديث الصدق وحديث العقل لما فيه من حجج وأدلّة لإقناع أولي الألباب بأنّ ما جاء به من دعوة للتوحيد وللتقوى بيّنة في الإرشاد لمعالم الصراط السويّ المستقيم، وهو أحسن الحديث لما فيه من مواعظ حسنة ودلالة على الهدى، ولما فيه من أدعية وضرب الأمثلة بسِيَر الأنبياء والمرسلين والصالحين للاقتداء بسيَرِهم في الثبات على الإيمان في صبر، ولأنّه كلام بليغ معجز وبلسان عربيّ مبين يتحدّى البلغاء الفصحاء بأن يأتوا بشيء من مثله.

ووُصف بأنّه (كِتَٰبٗا) وهذا ليكون هذا الحديث الحسن محفوظا على مدى الدهر وليكون مقروءًا على اِمتداد زمن حياة البشر على وجه الأرض لهدي العباد ولتذكيرهم بشرع ربّهم في كلّ زمان وفي كلّ مكان وفي كلّ جيل.

وهو كتاب (مُّتَشَٰبِهٗا) إذ تشبه آياته بعضها بعضا في الموعظة الحسنة أو في الإنذار والتحذير من المعصية والكفر، ويصدّق بعضها بعضا، ويفسّر بعضها بعضا، هي في ذات الموضوع ولكنّها تختلف في أسلوب التبليغ أو في مناسبة ذكرها، وهذا الاختلاف مقصود حتى لا يكون بينها تكرار مملّ.

قال القاضي عياض في كتاب الشفاء في وصفه لهذا الكتاب: "إنّ قارئه لا يملّه، وسامعه لا يمجّه، بل الانكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبّة، لا يزال غضّا طريا..." وقال كثيرون في وصف الكتاب ما يدلّ على عظيم قدره وجميل خصائصه، ومن خير ما قيل فيه قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "بأنّه لا يَخْلَقُ على كثرة الردّ" (أي لا يُمَلُّ من كثرة تلاوته، تلاوةً بعد أخرى) (رواه الترمذي مرفوعا عن عليّ بن أبي طالب).

وقال فخر الدين الرّازي في (تفسيره الكبير ج26 ص 274) في تفسيره للفظ المثاني: "وبالجملة فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل: الأمر والنّهي، والعام والخاصّ، والمُجمل والمفصّل، وأحوال السماوات والأرض، والجنّة والنّار، والظلمة والضوء، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسي، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف، والمقصود به بيان أنّ كلّ ما سوى الحقّ زوج، ويدلّ على أنّ كلّ شيء مُبْتَلَى بضدّه ونقيضه، وأنّ الفرد الأحد الحقّ هو الله سبحانه" (لله درّ الفخر في هذا التفسير الذي بلغ به إثبات الوحدانية لله تعالى لتوحيده!).

ومن خصائص هذا الكتاب المميّزة أنّ قارئه كلّما قرأه، ومرّ على آيات الوعيد، أو على دلائل عظمة الله وجبروته البيّنة فيما خلق أو في ما نزل على الأمم السالفة الكافرة من آيات العذاب، أو مرّ على آيات مشاهد الحساب وعذاب جهنّم اِقشعرّ جلده من خوفه من غضب ربّه ومن عذابه ومن سوء المآل وشدّة الوقوف عند الميزان، ولكنّه حين يمرّ بآيات أصحاب الجنّة وما هم فيه من النّعيم المخلّد، وبآيات الوعد بالمغفرة ووعد العباد الصالحين بجزيل الثواب وعظيم التكريم، وحين يقرأ آيات الرّجاء ويمرّ بصفات الله الرّحمان والرّحيم والغفور والشكور واللّطيف فإنّ قلبه يلين ويطمئنّ ويهدأ خوفه، ويطمع في مغفرة ربّه وفيما عنده من النّعيم والتكريم فيدعوه بهذا، ويقبل على ذكر ربّه وطلب العفو والرّحمة، ويقبل على التّسبيح والصلاة، ولا يحزن بذكر الله تعالى وبوعده.

هذا القرآن هدى الله تعالى، فيه مواعظه لعباده وإرشاده لهم ليستقيموا على صراطه المستقيم في عبادته وطاعته بالعمل بأحكامه وشرعه والانتهاء عمّا نهى عنه وباجتناب محرّماته، فيهتدي به من يشاء الاهتداء إلى ربّه، ويزيد الله الذين اِهتدوا هدى، وأمّا من شاء لنفسه أن يتّبع هواه وأن يصمّ أذنيه عن ذكر ربّه وعن سماع ما يُدعى إليه من الهدى من كلام الله تعالى ويعرض عنه ويتّهم الرّسول بالاختلاق وبالافتراء على الله كذبا ليعرض عن العمل بما جاء في هذا الكتاب من الهدى، فليس له من هاد وقد أضلّه الله عن هداه لعناده ومكابرته وصَمَمِهِ.

- **أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (24) :**

في هذه الآية اِستفهامٌ يدُلُّ على عدم التسوية، وذُكِرَ الجزء الأول منه ولم يذكر الجزء الثاني، وهو معلوم بالسياق، وهذا من مظاهر بلاغة القرآن المعروف بإيجازه وبالإيحاء، وهو بمعنى أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن لا يتّقيه؟ كلاّ، لا يستويان، الذي يتّقي بوجهه سوء العذاب خير. والمعنى: أيّهما أفضل من يحمي وجهه من الحريق في النّار وسوء العذاب يوم القيامة خير أم من لا يحمي وجهه من هذا السوء؟ أليس من الأفضل أن يطلب المرء لنفسه النّعيم والسلامة لوجهه وكلّ بدنه. يوم القيامة يقال للمشركين الظالمين لأنفسهم بالكفر والانصراف عن اِتّباع الهدى: أُدخلوا جهنّم لتعذّبوا بنارها وذوقوا عاقبة ما كسبتم لأنفسكم من عمل المعاصي، والإعراض عن طاعة الله تعالى وطلب رحمته ورضوانه.

- **كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25) :**

هذه لدعوة المشركين للاعتبار بما جرى على الأمم السالفة في دنياهم قصد تحذيرهم من الاغترار بالإمهال ودوام النعمة، فإنّ العذاب في الدنيا لا يأتي إلا بغتة، والمعنى كذّب الذين من قبلهم من الأمم السالفة بوحدانية الله وبرسوله وبآياته فأخذهم العذاب من مكان لم يشعروا أنّه

آتيهم منه وفي شكل لم يألفوه. فقد يأتي في صاعقة أو في ريح صرصر عاتية أو في خسف، وجاء زعماء مشركي العرب عذابهم يوم بدر في ساحة القتال من حيث كانوا يظنّون أنّهم غالبون ومنتصرون.

- فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (26) :

هذه في بيان قلة وعي الكافرين، فلو كانوا واعين ما كانوا ليرضوا أن يسجدوا لأصنام من حجر أو يقدّموا لها قرابينهم أو ليطلبوا شفاعة حجر منحوت بأيديهم، عملهم هذا يذلّ من قدرهم. أن يسجد إنسان مكرّم بالعقل والوعي والإدراك والبصيرة لحجارة صمّاء ينحتها بيده، ويطلب شفاعتها ونصرتها،إنّه عمل مهين فيه إهانة للعقل البشري. ثمّ إنّهم يوم القيامة موعودون بعذاب أكثر إهانة لهم وإذلالا وخزيا، بهذا الحكم والقضاء أخبرهم الله تعالى في كتابه الذي أنزله على رسوله ليبلّغهم به (لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ)، وليتهم كانوا يعلمون بهذا لينقذوا أنفسهم، ولكنّهم أعرضوا عن سماع ما أنزل إليهم، وتولّوا عن النّظر فيه، فحقّ عليهم عذاب الله.

- وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) :

هذه مع الآيتين المواليتين في ضرب المثل لتقريب الفهم للمشركين ليعلموا إستحالة الشرك في الألوهية. والمعنى: ولقد ذكرنا في هذا الكتاب من كلّ نوع من الأمثلة ونوّعناها لتقريب الأفهام عسى أن يفهم مغزاها كلّ من أشرك بالله ليعود لصوابه ويتّعظ، ويتوب.

- قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) :

ولقد أنزلنا هذا القرآن بلسانهم العربي، ليس فيه ميل عن الصواب، وليس فيه شكّ ولا لُبس عساهم يَقُون أنفسهم من الكفر والشرك ويحمونها من الضلال. (يَتَّقُون) في هذه الآية بمعنى وِقاية النفس وحمايتها من المهلكة ومن السوء، وهذا من الضلالة والكفر ومن الإعراض عن تدبّر القرآن.

- ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29) :

ذكر الله لكم مثلا لتعقلوه: رجل معه شركاء في ما يملك وفي عمله وفي ما ينتج من رزق وثمرات، فهو مالك بين جماعة من المالكين، وهؤلاء الشركاء المالكون معه (مُتَشَـٰكِسُون) أي متشاجرون ومتنازعون دائما لسوء طبعهم وأخلاقهم وكلّ واحد منهم يحبّ أن يفرد بالنّصيب الأكبر والأفضل؟ هل يكون حال هذا الرجل مثل حال رجل آخر ليس معه شريك فيما يملك وفيما ينتج من الخيرات (سلم) لا ينازعه أحد في مِلكه، هل يستويان في الملكية وفي الحال وفي الطمأنينة؟ كلاّ لا يستويان، وهذا مثل المؤمن الذي لا يعبد إلاّ الله وحده الملك القادر الرّازق،



والآخر مثل من يعبد آلهة ليس لها قدرة ولا تسمع ولا تُجيب. الحمد لله وحده، هو الحميد المجيد، هو الله الحقّ، ليس له ندّ ولا شريك، هو وحده المعبود، وما سواه إلاه باطل من الاختلاق الوهمي. بل أكثر المشركين لا يعرفون الحقّ فيتّبعونه.

- إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31) :

الآيتان لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يحزن لإعراض قومه عن سماعه وعن اتّهامهم له بالكذب والافتراء على الله عزّ وجلّ، وفي تحميل الكافرين والمكذّبين مسؤوليتهم عن كفرهم. والمعنى: لابدّ لكلّ واحد أن يموت، فأنت ستموت، وهؤلاء الكافرون المكذّبون المعاندون سيموتون، وستعودون جميعا إلى ربّكم يوم القيامة يوم البعث، ويومئذ تجتمعون عند ربّكم للفصل بينكم في ما تخاصمتم فيه، وسيؤخذ من الظالم حقّ المظلوم، ولن يفلت الظالم من عقاب الله عزّ وجلّ، وسيُنصر المظلوم. وأخذ حقّ المظلوم من الظالم هو أمر عام جامع لجميع الخلق المتخاصمين، وليس خاصّا فقط في الفصل بين النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمكذّبين به، وفي هذا طمأنة كلّ مظلوم بأنّه سيأخذ حقّه ممن ظلمه حتما إن لم يأخذه في دنياه فسيأخذه في آخرته.

- فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ(32) :

هذه الآية إلى الآية 42 في محاجّة المكذّبين بالتوحيد، وفي إنذارهم بسوء العاقبة، وفي وعد المؤمنين بالإحسان إليهم يوم الدّين. والمعنى: وليس أحد أظلم لنفسه ممن كذب على الله تعالى الواحد الأحد فنسب إليه بغير علم وبغير حجّة وبرهان شريكا أو ندّا أو صاحبة وولدا. وكذّب بالقرآن وبالوحي الذي جاءه من عند ربّه حقّا وصدقا وأعرض عنه تكذيبا وجهلا وعنادا. (أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ) اِستفهام إنكاري، والجواب عنه: بلى إنّ للكافرين مكانا في جهنّم يأوون إليه، ويسكنونه إلى الأبد.

- وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (33) :

(وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ) هو محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي جاء بالقرآن الكريم، والذي (صَدَّقَ بِهِ) هو كلّ مؤمن صدّق برسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وصدّق بالقرآن الكريم وبالوحي وآمن بالله وحده وعمل بشرعه إيمانا واحتسابا هو من المتّقين الذين يخشون ربّهم ويطمعون في رحمته.

- لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (34) :



يَعِدُ الله تعالى المتّقين بأن يحقّق لهم كلّ ما يرجونه من الله تعالى ويزيدهم الله من كرمه ومن جوده ومن فضله ما يسرّهم، وهذا جزاء الّذين أحسنوا في إيمانهم وفي طاعاتهم وفي عبادتهم لربّهم الحقّ: الله الواحد الأحد.

- لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (35) :

ويبشّر الله جلّ جلاله هؤلاء الذين صدّقوا بوحدانيّة الله تعالى وبالرسول صلّى الله عليه وسلّم وبالوحي وبالقرآن فآمنوا وتركوا الشّرك وتابوا، وإستغفروا ربهم، يبشّرهم بأن يغطّي عنهم سيّئاتهم وأسوأ الذي عملوا حينما كانوا مشركين فلا يؤاخذهم عليها تكريما لإيمانهم وتصديقهم بما جاءهم من عند ربّهم، ويبشّرهم بأن يجازيهم جزاء مضاعفا بأكثر ممّا يستحقّون عن طاعاتهم بعد إيمانهم وعن إخلاصهم في دينهم الحقّ.

- أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ(36):

ويتوعّد الكافرون والمشركون الرّسول صلّى الله عليه سلّم بنقمة آلهتهم ويهدّدونه، وهي آلهة من الدُّونِ، لا تستطيع شيئا حتى لتنفع ذاتها، ألا يعلمون أنّ الله تعالى كاف عبده، يحفظه من كلّ ما يضرّ به، ومن جُبِلَ على الضلالة والكفر والعناد والمكابرة، ولم يكن له من نفسه إستعداد لقبول الهداية فلا هادي له، ولا يخرجه أحد من ضلالته إلى الرّشاد.

- وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ(37) :

ومن وفّقه الله سبحانه للإيمان الحقّ وللعمل الصالح وللاستقامة على دينه فلا يستطيع أحد من أهل الكفر والإلحاد والشرك أن يحيد به عن سبيل الرّشاد ليردّه للضلال وللكفر. (أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ) الاستفهام هنا للإثبات والتقرير والجواب عنه أجل للتأكيد على أنّ الله تعالى غالب على أمره، وليس للشيطان على عباده المؤمنين الصادقين المخلصين سلطان، ومن كان يسعى ليضلّ عباده المؤمنين فإنّ الله تعالى سينتقم منه لأنّه شديد الانتقام من العصاة المذنبين الذين يحاربون الله ورسوله والمؤمنين.

- وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ (38) :

هذه كالآية عدد 8 في بيان تناقض المشركين مع أنفسهم، الآية السابقة عند الإصابة بالضرّ يذكرون الله ولا يدعون غيره، فإذا ذهب عنهم الضرّ ذكروا آلهتهم من دون الله، وهذه في تناقضهم بين ما يقرّون به في قرارة أنفسهم عند سؤالهم عن الخالق وعن المُنعم صاحب الفضل. إذا سألت المشركين عمّن خلق السماوات والأرض أقرّوا بألسنتهم بأنّه هو الله جلّ وعلا، فإذا



واجهتهم عندئذ بما أقرّوا بألسنتهم وسألتهم فلماذا تعبدون غيره؟ خَرَسَت ألسنتُهم. وإذا سألتهم بصيغة أخرى: لو أراد الله تعالى أن يلحق بي ضرّا من داء أو إصابة في ولد أو في رزق مَنْ مِنْ آلهتكم يستطيع أن يردّ عنّي هذا الضرّ الذي اِبتلاني به الله تعالى، أو شاء الله تعالى أن ينعم برزق كثير في تجارة أو أنعام أو رزق أو كثرة الأولاد وجاهٍ كبير هل تستطيع آلهتكم أن تردّ عنّي هذا الرزق فتذهب به أو تذهب بشيء من رحمته بي؟ ستُخْرَسُ ألسنتُهم ولن يجيبوا لأنّهم يعرفون أنّ آلهتهم أعجز من أن تنفعهم بشيء أو أن تردّ عنهم شيئا قد قضاه الله. إذا سكتوا وعجزوا عن الإجابة فقل أما أنا فلا أعبد إلاّ الله عزّ وجلّ خالق السماوات والأرض وهو المنعم صاحب الفضل والرحمة، ولا أعبد سواه، حسبي الله وحده لا أتّكل على غيره، على الله تعالى يتوكّل المتوكّلون الحقيقيون ولا يتّكلون على أحد سواه لا يقدر لهم على شيء.

- قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ **(39)** :

فإن عصوك – يا محمد – وكذّبوك، ثمّ شاقّوك فقل لهم: اِعملوا ما شئتم من الكيد وما يمكنكم عمله من الصدّ، وإنّي ماضٍ فيما أدعوك إليه وما أدعوكم إليه جميع النّاس من ترك عبادة الأصنام والتوجّه بالعبادة إلى الله الحقّ الواحد الأحد، وسوف تعلمون في مستقبل الأيّام وفي الآخرة من كان منّا على حقّ ومن منّا كان على باطل.

- مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ **(40)** :

ستعرفون من كان منّا على حقّ حين يحلّ به عذاب يذلّه ويهينه في دنياه – وقد عرف مشركو مكة عذاب الخزي يوم بدر– وعرفه مشركو العرب من الأحابيش و مَنْ وَالاَهم من أهل الكتاب و مَنْ والاهم من المنافقين يوم الأحزاب. وسيعرفونه ثانية حين يحشرون في آخرتهم في عذاب دائم لا يفارقهم في جهنّم.

- إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ **(41)** :

قال الزمخشري في تفسيره لهذه الآية في (الكشّاف ج3 ص384): "إنّا أنزلنا الكتاب لأجل النّاس، لأجل حاجتهم إليه ليُبشّروا به ويُنذروا به فتقوى دواعيهم إلى اِختيار الطاعة على المعصية، ولا حاجة لي إلى ذلك فأنا الغنيّ، فمن اِختار الهدى فقد نفع نفسه، ومن اِختار الضلالة فقد ضرّها". فهذه الآية لدعم الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولتسليته حتى لا يحمّل نفسه ما لا تطيق بسبب إعراض قومه عن التّصديق به وعن التّصديق بالقرآن، وفي الآن ذاته في تحميل كلّ إنسان مسؤوليته عن اِختياره لدينه في أيّ عصر وفي أيّ مكان وعلى أيّ ملّة كانت، والمعنى: إنّا أنزلنا عليك الكتاب بالحقّ من عند ربّك للنّاس جميعهم ممن يبلغهم العلم بهذا الكتاب في كلّ

مصر وفي كلّ زمن وعلى كلّ ملّة ليقرؤوه وليتدبّروه لأنّه من كلام خالقهم ومن كلام الله تعالى الحقّ، فلا إلاه سواه، وقد نزل لإرشادهم للصواب وللدّين الحقّ فمن اِهتدى فقد نفع نفسه وأنقذ روحه من الهلاك وعذاب الآخرة، ومن أعرض عنه وأصرّ على البقاء على ضلالته فإنّما يضرّ بنفسه وما أنت – يا محمد – بمُوكَّلٍ عليهم ليؤمنوا بالله وحده وليعملوا بشرعه. وهذا كقوله تعالى (فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ)(الغاشية الآيتين 21-22).

- **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (42) :**

هذه الآية إلى الآية 52 في الاستدلال على عقيدة التّوحيد، وللإيمان بالبعث وبالحساب وللتّحذير من سوء عاقبة الكفر والجحود. والمعنى: الله تعالى وحده هو الذي بيده أجل العباد. بمثل ما قدّر للعبد أن يخلقه ويحييه، فهو وحده الذي يتحكم في تحديد أجل حياته وتحديد يوم مماته، فهو الذي يتوفّى الأنفس حين يحضر أجلها، وما من أحد غيره يتوفّاه في ذاك الأجل، وهو الذي يبعث الأنفس بعد نومها إلى الحياة إذا قدّر لها الحياة والعيش فيرسلها، وهذا من أعظم الأدلّة على أنّه سبحانه وتعالى المنفرد بالإحياء وبالإماتة، هو وحده الحيّ الدائم، وكلّ شيء هالك إلاّ وجهه الكريم، ومن خير الأدلّة على أنّه تعالى هو القاهر بالموت لعباده المستكبرين والذين يأملون أن يكونوا من المنظرين والذين يحبّون الحياة ويكرهون الموت. وإنّ الموت أعظم عبرة للإنسان ليعلم أنّ حياته ليست بإرادته، وأنّ الموت خارج عن إرادته، هما بيد الله الخالق، فكيف يغفل عن هذه الوجوه من الدلالات والظواهر ليعرف أنّ له خالقا، وأنّه تحت قبضته، وهو رهن إرادته فيخضع له راكعا ساجدا عابدا له وحده. كيف ينصرف عن عبادة من بيده أمرُه وعن طاعته ليعبد ما لا ينفعه ولا يضرّه. إنّ هذا لمن أعظم مظاهر الجهل والعناد. وهو تعالى يتوفى الأنفس عند المنام بسلبها التّمييز والتّصرّف وإن كانت الأرواح في الأبدان، وهذا ما يُعبّر عنه بأنّ المنام وفاة صغرى. ويمسك الله تعالى الأنفس التي حان أجل اِنتزاع أرواحها منها فيموت أصحابها وتنتقل إلى العدم، ويرسل الأخرى للحياة والوجود إلى أن يحين أجل وفاتها.

إنّ في الموت والمنام والحياة دلائل على أنّ الإنسان مسلوب الإرادة في تقرير وجوده وحياته ووفاته لأنّ الإرادة والقضاء والتقدير وتحديد أجل وجوده ومماته بيد الذي خلقه، وما يعي هذا الأمر إلاّ ذوو العقول الواعية التي تستطيع أن تدرك حقائق الأمور. قال تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى)(الأنعام الآية 60). وفي الحديث الشريف: "لتموتُنَّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تصحون" وقد روي أنّ رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم كان إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه، ثم قال: "اللّهم باسمك أموت وأحيى"، وإذا استيقظ قال: "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور".

- أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ **(43) :**

هذه في الردّ على الذين يدّعون بأنّهم يعبدون أصنامهم التي هي صور للملائكة لتكون لهم شافعة من العذاب والمهالك. والمعنى: أم اتخذوا آلهتهم – وهي أصنام صمّاء – فعبدوها وقدّسوها من دون الله متوهّمين أنّها تشفع لهم من العذاب، قل لهم: أتّتخذونها آلهة إن كانت لا تملك شيئا من الشفاعة لأنّها جمادات، وهي لا تعقل، ولا تسمع ولا تفهم ولا تتحرّك.

- قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ **(44) :**

وقد جاء في القرآن الكريم أنّ الشفاعة لله وحده، وإن كان أحد سيكون شافعا فلا تكون له الشفاعة إلاّ بإذنٍ من ربّه قال تعالى في آية الكرسي (مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ)(البقرة الآية 255) وحتّى الملائكة أو غيرهم من مثل القرآن والصلوات والأعمال الصالحات فإنّها لا تشفع إلاّ بإذن الله ولمن رضي له قولا، قال تعالى(وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ)(الأنبياء الآية 28) فمصدر الشفاعة واحد هو الله سبحانه الذي له ملك السماوات والأرض، والمشركون يقرّون بألسنتهم إذا سئلوا عن خالق السماوات والأرض قالوا هو الله، لذا وجب أن يصحّحوا معتقدهم وأن يطلبوا الشفاعة من مصدرها ومن واهبها وممن يملكها وهو الله، ولا يطلبها من الأصنام. (ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ) ثمّ إن جميع الخلق راجعون إلى الله عزّ وجلّ فليطلبوا مرضاة من هم إليه راجعون وليس من حجارة تتكسّر ولا يرجع إليها أحد. وفي هذا إشارة للبعث لأنّ الشفاعة من العذاب لا تكون إلاّ بعد الممات والمشركون لا يؤمنون بالبعث، فهذا تناقض آخر مع ما يعتقدون ومع ما يقولون، ينكرون البعث والرجوع إلى الله للحساب، ويعبدون الأصنام من جهة أخرى لطلب شفاعتها، فالأمر لا يستقيم عند ذوي الألباب.

- وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ **(45) :**

ومن غريب أمر المشركين المكذّبين بالبعث وبالحساب يوم الآخرة أنّهم إذا دعوا للإيمان بالله وحده وإلى طاعته وعبادته نَفَرُوا واِنقبضت أسارير وجوههم، وأعرضوا عن سماع ما يُدْعَوْنَ إليه لتصحيح معتقدهم، أو لتدبّر ما يسمعون وما يُقْرَأ عليهم من آيات الله ومن حججه، وأمّا إذا ذكرت آلهتهم المزعومة المختلقة وما هي بآلهة تظهر على وجوههم علامات البِشْر والسرور، وتنفرج أسارير وجوههم للحديث الباطل.

- قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَـٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ (46) :

هذه لتفويض الأمر إلى الله عزّ وجلّ عند الاختلاف في التوجّه، وحين يكون الطرف الثاني معاندا ومكابرا، وهذه حتى لا يغتمّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم باتّهامات القوم له بالكذب أو بالسحر أو بالجنون وهو من هذه التّهم بريء. والمعنى: فإذا اِنصرف القوم عن سماعك وعن الاستجابة لدعوتك – يا محمد – ففوّض أمرك إلى الله تعالى. قل : اللّهم يا واجد السماوات والأرض ومبدعها بدون مثال، يا عليم بما يغيب عن النّاس من الحادثات ماضيا وحاضرا كذلك ومستقبلا، يا عليم بما يحدث في السماوات والأرض ممّا يشهده النّاس ويحضرونه، ولكن ما يشهد النّاس وما يشاهدونه هو علم نسبي وقاصر على إدراك الجزئيات والعموميّات، والأسباب والمخلّفات: عِلْمُ الله تعالى أشمل لأنّه علم فيه إطلاع على أحوال مخلوقاته بجميع أصنافها ومن ذوات الأرواح أو من الجمادات. قد يرى النّاس نجما هاويا في الفضاء فيظنّون أنّ سقوطه أمر حادث في لحظتهم تلك، وهم لا يدركون أنّ اِنفصاله عن مجموعته أو أنّ اِحتراقه وفساده قد كان حدث منذ عدة سنين، ولم يره النّاس بأعينهم في ذات زمن حدوث إصابته. وعلم النّاس بالحادثات لا يشمل كلّ ما يقع على سطح الأرض وما في باطنها وما يقع في السماء، ولذا فإنّ علم الشهادة يعني العلم بالحادثات في زمانها بكلّ دقائقها وآثارها ممّا قد يشهد بعض النّاس ويشاهدونه ويحضرونه كالعلم مثلا بآثار جائحة كورونا (كوفيد 19)، يعلمون آثارها لكنّه يغيب عليهم الكثير من العلم بأسباب حدوثها وكيفية اِنتشارها وكيفية علاجها، وحين اجتاحت العالم لم يكن لهم علم بآثارها السلبية في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والنفسية ولكنّ الله تعالى عليم بكلّ ما يحدث في ملكوته بدقائقه في الزمن الذي قدّر له أن يحدث، ولا يحدث في ملكوته شيء بدون أمره. أنت الحَكَمُ العدلُ الذي يحكم بين العباد فيما كانوا فيه يتنازعون من أمور الدين والدنيا للفصل بينهم بالحقّ لتنصف المظلومين، نفوّض أمرنا إليك.

وما أجدر بعض رؤساء الأقوام أو الأحزاب أن يحسموا أمرهم على نحو هذا الخلق إذا اِحتدّ بينهم الخلاف، وإذا ارتفعت أصواتهم على بعضهم، وحين يتحوّل حوارهم حول مسائلهم الخلافية إلى خصومة أو إلى شتيمة وسباب، وهذا لنزع فتيل التوتّر، وليتركوا للصلح مكانا، وللتخلّص من نزغات الشياطين.

- وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ (47) :

هذه لتحذير الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والإعراض عن الاستجابة لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم للهدى من التّفريط في زمن التّوبة والإنابة قبل مماتهم، فيموتون على الكفر. الذين كفروا وماتوا وهم كفّار حين يقومون للحساب يوم البعث ويفاجؤون بصدق ما بُلِّغُوا به، وما أُنذروا به، يومئذ يودّون لو أنّهم كانوا يملكون كلّ ما في الأرض من خيراتها وكنوزها ليقدّموه لافتداء أنفسهم من سوء العذاب الذي ينتظرهم، لكن هيهات فيومئذ لا تقبل منهم فدية، ولا ينفعهم مال ولا جاه وكلّ ما كانوا يملكونه في حياتهم واستكبروا به. وظهر لهم ما ينتظرهم من عقاب الله ما لم يكونوا يتوقّعون، أو يتصوّرون.

- **وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (48) :**

وعندئذ عرفوا عاقبة معاصيهم، وسوء أفعالهم، وأحاط بهم العذاب الذي توعدهم الله به في كتابه ووقعوا في ما كانوا يهزؤون به، ويسخرون لأنّهم كانوا يستبعدونه، وكانوا لا يؤمنون بالآخرة.

- **فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) :**

هذه في جحود الإنسان لنعمة ربّه. والمعنى: إنّ الإنسان حين تصيبه ضائقة مالية، أو حين يصاب بمرض أو كرب أو نقص من الولد يلحّ في الدعاء لله تعالى ليرزقه أو ليكشف كربه وليرفع عنه السوء الذي أصابه، وحين يرفع الله تعالى عنه البلاء أو يرزقه بالنّعمة التي طلبها منه هذا الإنسان تفضّلا من لدنه سرعان ما ينسى هذا العبد فضل ربّه عليه، وينسب ما كسب من رزق أو ولد، أو خلاصه من ضرّه وكربه إلى جهده وإلى ذكائه وعمله وحسن تدبيره، وأنّ ما كسبه كان من إستحقاقه، ولم يعلم أنّ ما ناله وما أُوتِيهُ من نعمة كان إمتحانا له لاختبار جهده في شكر ربّه وحمده على فضله.

- **قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (50) :**

هذه للاعتبار بما جرى لقارون في عهد موسى، وقد جرى ذكره في سورة القصص، آتاه الله تعالى رزقا واسعا، وكنوزا من المال ثقيلة، ولم يكن شاكرا لأنعم ربّه، بل كان جاحدا وطغى على عباد الله "لمّا رآه إستغنى"، ونسب ما آتاه الله من الخير لجهده وذكائه قال (إنّما أوتيته على علم عندي)، فلما جاءه عذاب الخسف فخسف به وبداره الأرض لم ينفعه ما كان يملك من ثروة عظيمة ليدفع عنه عذاب الله ويفتدي به نفسه من عذاب الخسف. ولم يُغْنِ جاهُ فرعون عنه عذاب الغَرَق.

• فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ (51) :

لقد أصاب الجاحدين الذين يجحدون فضل ربّهم عليهم، والذين يطغون بما آتاهم الله من فضله ويستكبرون أصابهم ألوان من العذاب، إمّا بالخسف كالذي أصاب قارون، أو بالغرق كالذي أصاب فرعون وملأه، وإمّا بالدّمار كالذي أصاب قوم عاد وغيرهم كثير، والذين ظلموا أنفسهم ومن هؤلاء مشركو قريش وزعماؤهم سيلحق بهم عذاب الله جلّ وعلا بسبب كفرهم وطغيانهم وصدّهم عن سبيل الله، وحين يأتيهم عذاب الله بالجوع أو بالسيف فإنّهم لا يقدرون على الإفلات منه أو الهروب منه والنّجاة بأنفسهم، ولقد نالهم عذاب السيف يوم بدر وقتلوا ودُفنوا في القُليب.

• أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (52) :

أوَ لم يوقنوا بأنّ الله تعالى هو المتصرّف في قسمة الرّزق على عباده، يوسّع الرّزق على من يشاء من عباده بمثل ما قدّر له، ويقبضه أو يضيّقه على من يشاء من عباده. إنّ في اختلاف الرّزق على العباد دليلا على أنّ الله تعالى هو الرّزاق، وأنّه هو وحده المتصرّف في أحوال العباد، والمؤمنون هم الذين يدركون هذه المعاني فإذا آتاهم الله من نعمه شكروا له وآتوا حقّ النّعمة كما أوجبه الله عليهم، فإذا ضاق عليهم الرّزق صبروا، والتجؤوا إلى الله بالدعاء ليغنيهم بفضله وليرزقهم رزقا حلالا طيّبا.

• قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (53) :

تفتح هذه الآية أبواب الرّجاء وأبواب الرحمة وأبواب الوقاية من العذاب ومن النّدم ومن الحسرة التي عبّرت عنها الآيات الموالية لها إلى غاية الآية 66، وتفتح هذه الأبواب بالإنابة إلى الله تعالى وبالإسلام وخلاصة ذلك: عبادة الله وحده ولزوم شكره.

والمعنى: أخبر– يا محمّد – (يَٰعِبَادِيَ) هم جميع عباد الله، وقد أضيفوا لياء المتكلّم وهو الله عزّ وجلّ للدلالة على تشريفهم أولا، وثانيا هي إضافة التّقريب منهم، وقد كانوا قد تجاوزوا حدّهم في المعصية وفي البعد عن الله عزّ وجلّ بانصرافهم عن عبادته وعن طاعته، أخبرهم بأن لا ييأسوا من رحمة الله إذا ثابوا إلى رشدهم وعلموا أنّهم قد زاغوا عن طاعة ربّهم، ورغبوا في طلبها. بشّرهم بأنّ الله يغفر جميع ذنوبهم إذا تابوا منها، وأنابوا إلى ربّهم، وأقلعوا عنها وسارعوا إلى طاعته لأنّه سبحانه هو (ٱلۡغَفُور) كثير المغفرة لعباده المؤمنين التائبين (ٱلرَّحِيم) وكثير الرحمة بهم.

ولعلّ هذه الآيات قد نزلت إجابة لناس من أهل الشرك، على ما أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنّسائي عن ابن عباس : كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثمّ أتوْا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: إنّ الذي تقول وتدعو إليه حسن، أَوَ تخبرنا بأنّ لنا توبة، أو أنّ لِمَا عملِنا كفّارة، فنزلت هذه الآية، أو تلك الآية (وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا)(الفرقان الآيات 68-71) والله أعلم، والأكيد أنّ هذه الآية تفتح باب الرجاء لمن أسرف على نفسه في المعاصي وشاء أن يستقيم على طاعة الله تعالى وطلب رحمته ورضوانه شرط الإنابة والتوبة والعمل بما جاء في آخر آية من هذه الفقرة.

روي عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه أنّه قال: "قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أرَ أحسن وأرجى من قوله تعالى (نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)(الحجر الآية 49). وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: "قرأت القرآن من أوّله إلى آخره فلم أرَ أحسن وأرجى من قوله تعالى (قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) وعند القرطبي (تفسيره ج10 ص 323)، قال: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أرَ أحسن وأرجى من قوله تعالى: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ)(الأنعام الآية 82). وعند ابن عباس فإن أرجى آية هي التي (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡ)(الرعد الآية 6) وأخرج الطبراني أنّ ابن مسعود قال: "إنّ أعظم آية في كتاب الله (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ)(البقرة الآية 255) وإنّ أجمع آية في القرآن بخير وشرّ: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ)(النحل الآية 90) وإنّ أكثر آية في القرآن فرجا: (قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ)(الزمر الآية 53) وإنّ أشدّ آية في كتاب الله تفويضا (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ)(الطلاق الآيتين 2-3). وقال الشوكاني: وهذه الآية أرجى في كتاب الله لاشتمالها على أعظم بشارة.

- **وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (54) :**

فارجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار، وأقلعوا عن معاصيكم، اِخضعوا لأمر الله مخلصين له في الدّين والطاعة من قبل أن يفوتكم زمن التوبة إذا حلّ بكم العذاب بالسيف أو الأسر أو غيرهما، وعندئذ لا تنقذون من العقاب، ولا ينجيكم منه أحد، ولا تنفعكم زمنها توبة واِستغفار، فسارعوا إلى مغفرة من ربّكم.

- **وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ (55) :**



هذه موعظة من الله للنّجاة من العذاب الفجئي، اِعملوا بما جاءكم في كتاب الله وسيروا على منهجه في التّخلّق بما أرشدكم إليه من قيم وفضائل في تعاملكم مع بعض، وقوموا على الطاعات في العبادات والعمل بشريعته وأحكامه، واجتنبوا المعاصي، ولا تتأخّروا في الإسراع لطلب مرضاة الله قبل أن يفاجئكم العذاب وأنتم في غفلتكم، لا تشعرون بفوات الوقت، وبدنوّ الهلاك.

- أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ **(56)** :

(أَن تَقُولَ) هنا بمعنى: حتّى لا تقول، والمعنى: سارعوا إلى مغفرة من ربّكم، ولا تتأخّروا عن الاستجابة لأمر ربّكم حتى لا يقول أحدكم من المتأخّرين ممن فاجأهم العذاب قبل توبته وإنابته إلى الله: واحسرتاه على نفسي إذ تأخّرت في الاستجابة لطاعة الله وفرّطت في المسارعة لطلب رحمته ورضوانه، وقد كنت من المستهزئين بوعيد الله عزّ وجلّ وبشرعه، وكنت من المُستخفِّينَ بدين الله تعالى وكتابه، فيا حسرة!

- أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ **(57)** :

وحتى لا يقول من ندمه وحسرته على نفسه: آهٍ، لو أنّ الله تعالى مَنَّ عليَّ بهدايته فاهتديت لدينه وعلمت بأمره لكنت اليوم في زمرة المتقين الناجين من العذاب، ومن الفائزين بنعيمه، وهذا حين تقوم الساعة ويكون الحساب.

- أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ **(58)** :

وحتى لا يقول حين يرى جهنّم ونارها التي تتلظّى، ويعلم أنّه سيكون من المحشرين فيها، حينها يتمنّى لو كان له أن ينعم برجعة إلى الدنيا ليكون من العابدين المخلصين في الدّين، ومن العاملين بما أمر الله بصدق ونيّة، ولكنّها أمنية لا تتحقّق لأنّ الدنيا قد فَنِيَت، وفَنِيت معها الحياة الأولى، وقامت الحياة الآخرة وليس فيها عودة للأولى.

- بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ **(59)** :

كلاّ، ليس مع القيام للآخرة عودة للدنيا وللحياة الأولى، لقد جاءك القرآن: كلام الله لإرشادك للهدى، وبالبشرى بحسن المآل لمن آمن واِتقى وعمل صالحا، وجاءك النّذير من الكفر ومن التكذيب ومن المعصية، فكذّبت بالتّحذير وبالوعيد، وكذّبت بالقيام للحساب، واِستكبرت عن الإيمان وعن سماع الحقّ والاستجابة له، وتماديت في كفرك وشركك وجحودك وإعراضك عن الهدى وعن الاستقامة على الدّين الحقّ، وكابرت فلم تؤمن، ولم تطع أمر الله ولم تعبده، ولم تطلب عفوه ولا غفرانه ولا رحمته.

- وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ (60) :

ويوم القيامة تسودّ وجوه الذين كذبوا على الله وادّعوْا له ندّا أو شريكا أو صاحبة وولدا، وذلك من شوائها بالنّار فأحْرقت، ومن دخان الحريق الأسود، ومن الحزن والكآبة والبؤس. قال تعالى (يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ) (أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ) الاستفهام للإقرار بواقع معلوم. بمعنى: فإنّ في جهنّم متّسعًا لإيواء جميع المتكبّرين عن طاعة الله تعالى، وعن تصديق رسوله صلّى الله عليه وسلّم، والمتعالين عن عبادة الله تعالى والعمل بكتابه وبشرعه.

- وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (61) :

وأمّا الذين آمنوا وكانوا يخافون عذاب الله ونقمته ويخشون غضبه فاجتهدوا في عبادته وطاعته ودعائه طلبا لرحمته ورضوانه فإنّ الله سبحانه ينجّيهم من العذاب ومن هول الحساب وشدّته ويجعلهم يفوزون بنعيمه ويظفرون بمرادهم وبما كانوا يرجونه من ربّهم، لا ينالهم مكروه ولا شدّة أو خوف وحزن، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون على ما فاتهم من خيراتهم في دنياهم لأنّهم واجدون عند ربّهم ما هو خير وأفضل وأوسع، خير لا ينفذ من كلّ ما يشتهون من النِّعَم.

- ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ (62) :

في هذه الآية اِلتفات للذين كفروا بربّهم لتذكيرهم بأنّ الله تعالى هو الذي خلق كلّ شيء، فهو الأحقّ بالألوهية، ولا إلاه غيره لأنّه لم يخلق شيئا، فالأحرى بالطاعة والتقديس هو الله الخالق لكلّ ما هو موجود بدون استثناء، وهو على كلّ شيء قيّم ومتصرّف بالحفظ وبتدبير أمره ومساره طوال وجوده، فهو بهذا هو الأحقّ بالدعاء وطلب مرضاته وعونه، فما سواه لا يُدْعى لأنّه لا يقدر لمن يدعون على شيء.

- لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (63):

له سبحانه مفاتيح خزائن السماوات والأرض لأنّه تعالى هو مالكها والمتصرّف فيها فاطلبوا الرّزق من عنده، وغيره لا يملك منها شيئا. والذين كفروا بوحدانية الله تعالى وبصفاته الحسنى التي منها السميع المُجيب والكريم والرزّاق والوهّاب والمعطي والجواد فينصرفون عن سؤاله وعن دعائه وعن طاعته إلى غيره من الآلهة الباطلة من اِختراعهم واِختلاقهم من أوهامهم الكاذبة هم الخاسرون حقّا لرحمة الله ولرضوانه ولنعيمهم في آخرتهم، وهم الخاسرون حقّا لحسن المآل يوم القيامة.

- قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ (64) :



هذه في الرّدّ على المشركين الذين ينصحون بالتّمسّك بدين آبائهم في عبادة أصنامهم، والّذين يصدّون عن سبيل الله تعالى وينكرون التوحيد، وهي بمعنى أتأمرونني – أيّها الجاهلون – أن أعبد إلاها آخر من دون الله الخالق الحقّ المتصرّف في أحوال العباد وجميع المخلوقات، هذا محال لأنّ عبادة آلهة أخرى غير الله هي عبادة باطلة من الحماقة وسفاهة العقل. والاستفهام هنا إنكاري يدلّ على التّعجب من هذا الأمر، والجواب عنه بـ "كلاّ".

- **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (65):**

ولقد أوحي إليك – يا محمّد – وإلى جميع الرّسل والأنبياء من قبلك، أنّ الشّرك يفسد كلّ عمل صالح ويذهب بالأجر والثواب عنه، ويذهب فعل الخيرات هباء من غير جزاء، ويكون المشرك من الذين خسروا آخرتهم بكلّ تأكيد، والخاسر آخرته هالك وتكون إقامته في جهنّم أبدا.

- **بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (66) :**

هذا هو الغرض المقصود من كلّ ما سبق ذكره في هذه الموعظة: أعرض عن قول المشركين، واعبد الله الحقّ الواحد الأحد، وأُشكر له وحده هدايتك إلى دينه القويم، وكلّ ما أنعم به عليك. لا تكن كافرا ولا جاحدا لتظفر برحمة الله تعالى ورضوانه، والنّجاة من العذاب، ولتفوز في آخرتك بالنّعيم الدائم.

- **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) :**

هذه الآية إلى آخر السورة في مشاهد من موكب الحساب ذي المهابة والجلال. ومعنى الآية: وما عرف المشركون والكافرون والمكذّبون بالبعث وبالحساب عظمة الله جلّ وعلا حقّ المعرفة، ومهما تصوّروا عظمته فإنّه أعظم من ذلك سبحانه وتعالى عمّا يصفون. وإنّهم لا يقدّرونها حقّ التقدير. وإنّ الأرض بما فيها وما عليها هي تحت تصرّفه، وهي خاضعة لإرادته وقدرته وسلطانه يوم القيامة وأمّا السماوات بجميع مكوّناتها فتفقد خوّاصها، وتكون مجموعة طوع أمره تعالى وإرادته. تنزّه الله سبحانه وتعالى عن النّد وعن الشريك، كلّ شيء خاضع لإرادته وحده لا إله معه.

- **وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (68) :**

وحين قضى الله تعالى بفناء الوجود بكلّ مكوّناته في السماوات وفي الأرض ممّا خلق الله عزّ وجلّ فإنّه يأمر بالنّفخ في الصور، فإذا نفخ فيه فإنّ جميع الخلق يموتون إلاّ من شاء الله من خلقه بأن لا يموت وهم الملائكة القائمون على تنفيذ أمره. فإذا فنيت الأرض بالزلزال العظيم



وانشقّت السماء فإذا هي واهية وفني جميع الخلق، وأمر الله تعالى بالبعث فَيُنْفَخُ في الصور ثانية فإذا بجميع الأموات منذ عهد آدم يقومون تنفيذا لأمر ربّهم وينتصبون واقفين ينظرون من حولهم فيما يجري بينهم، وينتظرون فيما سيؤمرون به.

- وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) :

وأضيئت أرض المحشر بنور الله تعالى، وهي غير الأرض التي كان يعيش عليها بنو آدم، والله أعلم بهيأتها ومكوّناتها. ونُشِرَت كتب أعمال العباد ووُزِّعت على أصحابها. وعندئذ يقوم لغط كبير في النّاس جميعهم، فمنهم من يُسَرُّ بكتابه يفخر بما فيه، وينادي على خلاّنه: "هاؤم اِقرؤوا كتابيه". ومنهم من ينادي على نفسه بالويل والثبور حين يُؤْتى كتابه بشماله فيقول: "مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها". ويدعو على نفسه "يا ليتني كنت ترابا".

ثمّ ينادى على النبيئين والشهداء فيحضرون عند الميزان، وفي المقدّمة في الدرجة العليا الأولى، الأنبياء والمرسلون الذين يشهدون على أممهم بالتبليغ وللفصل بينهم وبين الذين شاقّوهم، وكذّبوهم، وهزؤوا بهم، وأمّا الشهداء فمنهم الذين قتلوا في سبيل الله على أيدي أعدائهم الكفّار الذين كانوا ينصرون آلهتهم الأصنام وكهنتهم وكانوا أعداءَ للدين ورافضين التوحيد والعمل بشرع الله تعالى. ومنهم العلماء الدعاة للصلاح والإصلاح لمقاومة الأهواء ولموعظة النّاس ليقوموا على شرع الله تعالى والاستقامة على دينه مصداقا لقوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ)(البقرة الآية 143) وهم كذلك الملائكة الكاتبون مصداقا لقوله سبحانه (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ)(ق الآية 21).

وبإحضار النّبيئين والشهداء يزداد حال الكافرين والعصاة المذنبين سُوءًا، وتشخص أبصارهم، وتخرس ألسنتهم وَجَلاً وخوفا وندما وحسرة. ويبدأ الحساب ويتمّ الفصل بين الجميع بالعدل والإنصاف وبالقسط، لا يُنقَصُ من المحسنين حسناتهم بل يزيدهم الله من فضله، ولا يُعاقبُ المسيءُ إلاّ على قدر سيّئاته دون زيادة، فإنّهم لا يظلمون عند أحكم الحاكمين العَدْل المقسط الذي يقضي بالحقّ. (نسأل الله تعالى بدعائه الذي علّمنا إيّاه: "ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النّار").

- وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70) :

وعند الحساب تجازى كلّ نفس بحسب عملها، ولا يُعاقب المذنبُ بأكثر ممّا يستحقّ، وأمّا من عمل صالحا فيزيده الله من فضله جودا وكرما وتكريما، والله أعلم بما كان يفعل عباده في

دنياهم، ولا حاجة به عزّ وجلّ إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك تشهد الكتب والشهود إلزاما للحجّة.

- وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (71) قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ (72) :

وحين يتمّ الفصل بين العباد جماعات بعد جماعات وفِرقا بعد فرق يُساق الكافرون إلى النّار في جهنّم. والمراد بالسَوْقِ دفعهم بالهوان والمذلّة أفواجا بعد أفواج كما يفعل بالأسرى والخارجين عن طاعة السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، حتّى إذا بلغوها اِنفتحت لهم أبوابها السبعة. قال تعالى (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ)(الحجر الآية 43-44) ويدفعون فيها دفعا كلّ مجموعة داخل الباب الذي حُكم عليه به لأنّ درجاتهم في الكفر وإتيان المعاصي متفاوتة، ثمّ تغلق دونهم حتى لا يتأذّى من كان خارج جهنّم بسعيرها، ولا بحسيسها. وفي جهنّم يتقبّلهم خزنتها(مفرده خازن) وهم القائمون على أهل النار، والموكل إليهم تعذيب المحشورين فيها بما حُكِمَ عليهم تنفيذا لأمر ربّهم. وعند قبولهم يسألونهم سؤال التّقرير والتّوبيخ معا: ألم يأتكم رسل من أنفسكم يقرؤون عليكم كلام ربّكم لهديكم وموعظتكم بلسانكم وبلغتكم، وليحذّروكم من هول هذا اليوم: يوم الحساب، وذلك لتؤمنوا وتطيعوا ربّكم؟ قالوا: بلى قد جاؤونا وكذّبنا بهم ولم نصدّقهم. ولكن لم يعد ينفعهم إقرارهم هذا، وندمهم على ما فرط منهم، فقد حقّ عليهم ما أنذروا به من العذاب، وما حذّرهم منه ربّهم ورسله.

- وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ (73) :

ويساق المؤمنون المتّقون الفائزون بدخول الجنّة إليها من طرف الملائكة سوق إرشاد لأنّ أهل الجنّة يتسابقون إلى دخولها سرورا بفضل ربّهم عليهم، وهم جماعات جماعات حسب مراتبهم في الشّرف والتكريم وحسب اِجتهادهم في دنياهم في الطاعات وصالح الأعمال، حتى إذا دَنَوْا منها فتّحت لهم أبوابها الثمانية. جاء في الحديث الشريف "أنّ أبواب الجنّة ثمانية منها باب الريّان لا يدخله إلاّ الصائمون". وحرف الواو هنا هو واو الثماني لأنّ أبواب الجنّة ثمانية: وقد كان من عادة العرب حين يَعُدُّون يذكرون قبل العدد ثمانية حرف الواو يقول: خمسة، ستة، سبعة وثمانية. وحينما يدخلونها يرحّب بهم القائمون عليها فيبادرونهم بالتحيّة، وإعطائهم الأمان من كلّ عذاب، ويعدونهم بإقامةٍ طيّبة فيها إقامةً أبدية، لا خروج لهم من النّعيم الدائم.

• وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ (74) :

ولمّا اِستقرّوا فيها حمدوا الله تعالى على فضله، وعلى ما منحهم من النّعيم المقيم الذي وعدهم به ثوابا وجزاء وتكريما على تقواهم، وحمدوا الله عزّ وجلّ الحليم الجواد الكريم الذي جعلهم مالكين في الجنّة يتصرّفون فيها ويتنقّلون في بساتينها ملكا بلا تعب وبلا شقاء كأنّه من الممتلكات بالإرث، ينعمون بخيراتها والإقامة فيها حيث يشاؤون. (فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ) فما أحسن ثواب المؤمنين المتّقين وما أحسن تكريمهم جزاء عملهم الصالح. وقد كتب الشيخ ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير ج24 ص 73) في تعقيبه على هذه الآي: "واُعلم أنّ الآيات وصفت مصير أهل الكفر ومصير المتّقين يوم الحشر، وسكتت عن مصير أهل المعاصي الذين لم يلتحقوا بالمتّقين بالتّوبة من الكبائر، وغفران الصغائر باجتناب الكبائر، وهذه عادة القرآن في الإعراض عن وصف رجال من الأمّة الإسلاميّة بمعصية ربّهم إلاّ عند الاقتضاء لبيان الأحكام".

• وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (75) :

ويُختم مجلس القضاء بإحاطة الملائكة بالعرش، والالتفاف من حوله، وهم يسبّحون بحمد الله عزّ وجلّ، ويسمع من أهل الجنّة حمدهم لربّهم على فضله ونعمه، "ولله الحمد في الأولى وفي الآخرة" وتمّ القضاء بين الخلق بالعدل والإنصاف. ويسمع في الملإ: الحمد لله ربّ العالمين: قال تعالى "وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين". فلله الحمد ربّ السماوات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم إلى يوم الدّين.

رقمها	ســــورة غـــافـــر ـــــ مكيّة ـــــ	آياتها
40		85

سمّيت هذه السورة في أغلب المصاحف بسورة "غافر" لذكر صفة الله تعالى "غافر الذنب" في أولها، وفي مصاحف المشرق العربي، وفي كتب السنّة تسمّى بسورة "المؤمن" لما ورد فيها خبر مواعظ المؤمن لفرعون وملئه وقومه. وتُعدّ سورة "الحواميم" السبع المنزلة وراء بعض مرتبة كما هي في المصحف على ترتيب التّنزيل. وجميع سور الحواميم تفتتح بالتّنويه بالقرآن الكريم.

ومن أهمّ أغراض هذه السور جميعها الإنذار بالوعيد الشديد والتّحذير منه، ولذلك نجد فيها عرضا لمشاهد من يوم العرض، ومشاهد من خصومة أهل النّار، ومشاهد من عذابهم.

وشأنها شأن السور المكية فإنّها تعرض جملة من دلائل التوحيد، وفضائل القرآن، وتثبيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم والتسلية عنه في تكذيب قومه بما جاءهم به.

واِختصّت هذه السورة بذكر أدعية حملة العرش لفائدة المؤمنين، واِختصّت بعرض مواعظ المؤمن الصالح الصادق، وهي مواعظ شاملة في دعوتها للإيمان وفي تحذير القوم من الكفر ومن وعيد الله تعالى. وفيها دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للاستعانة بالصبر في نشر دعوته.

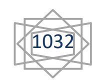
وختمت السورة بالتّحذير من التّفريط في المبادرة للإسراع بالتوبة والإنابة.

- **حم (1) :**

الله تعالى أعلم بمعنى اِفتتاح هذه السورة وما بعدها من السور بهذين الحرفين، وهو تعالى أعلم بالمقصد والغرض.

- **تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ (2) :**

هذه مع الآية الموالية في التّنويه بشأن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى العزيز العليم غافر الذنب، قابل التّوب، شديد العقاب، ذي الطول. وهذه الآية جملة اِسمية مبدؤها: تنزيل الكتاب، وخبرها: من الله العزيز العليم غافر الذنب... بمعنى: القرآن الكريم كتاب أنزله الله المتّصف بالعزّة والعلم، ومغفرة الذنوب... وليس من الكذب ولا من الافتراء على الله وليس من الشعر ولا من السحر. وبهذا فإنّ الآية في التّصديق بالقرآن، وفي التّصديق بالرسول الذي جاء به، وبالوحي الذي نزل عليه، وهو كتاب من لدن (ٱلۡعَزِيز) هو العظيم، القويّ، الغالب الذي لا يُغلب، ولا يردّ أمره، وهو ذو الجلال الذي لا يقربه أحد، ومن يحاول يحترقْ، وهو ذو القدرة والقهر...



وهذا الكتاب منزل من (ٱلۡعَلِيمِ) وهو صاحب العلم الشامل البالغ لكلّ صغيرة ولكلّ دقيقة ولكلّ خافية، فهو لا تخفاه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ناهيك عن العلم بما هو معلوم وما هو مشاهد، وهو تعالى المنفرد بعلم الغيب، وبالعلم بما في السماوات. وهو العليم بما يحتاج إليه جميع مخلوقاته من إنسان أو حيوان أو طير أو حشرة من الرّزق، وهو العليم بما في الأرحام فيكتب للمواليد آجالهم وأرزاقهم وسعادتهم وشقاوتهم، ولا يحيط الخلق جميعهم بشيء من علمه.

- **غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ(3) :**

(غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ) وإنّ منزل الكتاب هو غافر الذنب، وهذا لتسارعوا بالتّوبة عما فرط منكم من السيّئات حتى تُسْتَرَ عليكم فلا تؤاخذوا عليها، والسيّئات هي كلّ ما نهى الله تعالى عن فعلها وارتكابها، وقد تكون من الصغائر، والصغائر تغفرها الطاعات بدءًا من الوضوء إلى الصلاة وكذلك الصيام وعمل البرّ ووجوه أعمال البرّ والإحسان كثيرة بدءًا من تلاوة القرآن طلبا للأجر والمثوبة إلى الصدقة ومنها طاعة الوالدين. والغفران يعني الستر وعدم المؤاخذة، ومغفرة الذنب تشمل الذنوب الصغيرة وكذلك الكبائر، ولكنّ مغفرة الكبائر يجب أن يسبقها إعلان التوبة والعزم على الإقلاع عنها. والله تعالى غافر الذنب وذلك بأن يسترها على عبده يوم الحساب، ولا يؤاخذه عليها، ثمّ يزيد على ذلك المثوبة على الإنابة والتوبة وعلى عمل الطاعات.

وهو تعالى (وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ) وهذه الصفة من صفات الجمال، ومن البشائر لما فيها من الوعد بقبول توبة التّائبين الذين كانوا يعصون ثمّ ندموا على معاصيهم وأنابوا إلى ربّهم يعلنون إقرارهم بعمل السيّئات، ويطلبون عفو الله تعالى.

والذي أنزل هذا الكتاب هو الله تعالى المتصّف بأنّه (شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ) لمن عصاه وأعرض عن الإيمان به، وأعرض عن طاعته وعبادته، ولمن كذّب برسله وبكتابه وبشرعه وبوعده ووعيده، وأبى الاستقامة على دين الله وأصرّ على كفره وشركه.

وهو تعالى ذو الطول الذي لا يفلت منه أحد ممن كفر به وعصاه، وهذه صفة من صفات جلاله يعني عظيم القدرة، والتمكّن من المعرضين عنه ومن المستهزئين بوعيده.

(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) الّذي أنزل الكتاب هو الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التّوب، وهو شديد العقاب، ذو الطول وهو الواحد الأحد، لا إلاه إلاّ هو، وهذه كلمة التّوحيد، من ادّعى كلمة غيرها كان مشركا كالذي قال الله ثالث ثلاثة، ومن أنكرها كان ملحدا وكان كافرا، وهي كلمة الفرقان: كلمة تفرق بين الحقّ والباطل، من قال غيرها كان قوله باطلا كالذي يقول بإلاه الشمس أو بإلاه الحرب... وهي كلمة الإخلاص، من قاله أخلص لله في الدّين الحقّ، ومن قال غيرها لم يكن

مؤمنا بالدين الحقّ. وهي كلمة العتق من النّار، كلمة تدخل الجنّة إذا صحبها عمل صالح، ومن كفر بها كان من أهل النّار..

(إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ) إلى صاحب هذا الكتاب العزيز العليم... مرجع جميع النّاس بعد مماتهم، عند بعثهم للقضاء فيهم، وللفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ليؤتي كلّ ذي حقّ حقّه، ولمجازاة أهل الإيمان الذين عملوا الصالحات، ولتنفيذ وعيده في الذين لم يؤمنوا وكانوا يعملون السيّئات.

والملاحظ في هذا الافتتاح أنّه عرض صفات لله تعالى من صفات جماله: غافر الذنب وقابل التّوب للترغيب، وصفات له من صفات جلاله: العزيز العليم شديد العقاب ذي الطول للتّرهيب وللإنذار من العقاب والأخذ بالعزّة. وفيه إثبات الوحي وأنّ الكتاب من لدنه، وفي هذا تصديق برسالة نبيّه محمد صلّى الله عليه وسلّم. وفي هذا الافتتاح التأكيد على البعث والحساب، وفيه التّأكيد على توحيده، وإبطال الألوهية عن كلّ إلاه غيره سبحانه وتعالى عمّا يشركون.

- مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ (4) :

هذه مع الآيتين المواليتين في إثبات صدق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بما جاء قومه من القرآن. وفيها وعيد للمكذّبين بهما. والمعنى: لا يخاصم في حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده إلاّ الكافرون المعاندون، فاصبر عليهم – يا محمد – ولا يخدعنّك تنقّلهم في الأرض آمنين، ولا مكْثُهم فيها مطمئنّين مع كفرهم، ومع تكذيبهم، ومع ما يفعلون من الإعراض عن الإيمان.

- كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ (5) :

هذه في وعيد المكذّبين برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وذلك بتحذيرهم من أن يلحق بهم عذاب كالذي أصاب من قبلهم قوم نوح وأقوام آخرين من بعدهم كانوا كافرين ومكذّبين برسلهم وبالوعيد، ثمّ مكروا برسلهم ليقتلوهم أو لينفوهم من أرضهم، وخاصموا بقوة وبعناد في رسائلهم التي جاءتهم بنبذ شركهم ودعوتهم للتوحيد، وكانوا أهل كفر، وكانوا متمرّدين على الحقّ ويصدّون عنه، فأخذهم الله بعذاب فأهلكهم واستأصلهم، وكان عقابهم عسيرا ومؤلما ومهلكا ومباغتا. والاستفهام في (فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ) لتعظيم العقاب بسبب هوله.

- وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ (6) :

وهذه لمزيد التّحذير والإنذار من سوء عاقبة الكفر. وهي بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى قد أوجب على الكافرين أن يملأ بهم جهنّم ليكونوا من المقيمين أبدا في النّار.

- ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ(7)



هذه الآية مع الآيتين المواليتين في دعاء الملائكة – حملة العرش ومن حوله – لجميع المؤمنين: أوّلهم وآخرهم إلى يوم القيامة. وهذه الآيات من الآي التي تثلج صدور المؤمنين. هي من أعظم الدلائل وأجلّها في بيان عظيم فضل الله عزّ وجلّ على عباده المؤمنين منذ بدء خلق البشر إلى آخرهم، وفي بيان جميل رحمته، وعظيم كرمه إذ جعل ملائكته المقرّبين من حوله يسبّحون بحمده وسخّرهم لأن يستغفروا للّذين آمنوا وليدعوا لهم بما يؤمّنُهم من العذاب. ما أجلّ فضل الله ونعمته على عباده المؤمنين، وما أعظم هذا التكريم، وهذا التشريف! وما أحسن هذا الدعاء! اللّهم أدخلنا في عموم هذا الدعاء يا عظيم الرّجاء.. والمعنى: إنّ حملة العرش، وهم الملائكة المقرّبون، ومن حول العرش من الملائكة وممن لا يعلمهم إلاّ الله من خلقه في ملكوته العلوي (يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ) يصلّون لله تعالى شاكرين، وصلاتهم وتسبيحهم بحمد ربّهم على طريقتهم التي لا نعرفها، لكنّ المُستفاد من هذا الذي يجب علمه أنّ من أفضل ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله سبحانه وتعالى هو التسبيح بحمد الله عزّ وجلّ. (وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ) ويوقنون بأنّ الله تعالى واحد، أحد، وما سواه باطل. (وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ) ويدعون الله تعالى عن ظهر الغيب لجميع المؤمنين بالمغفرة – أحياء وميّتين – ما أعظم هذا الفضل حين أعلم أنّ الملائكة المقرّبين حملة العرش يدعون لي بالمغفرة – وأنا أعمل أو حين أكون نائما أو لاهيا وأنا حيّ موجود، وحتى حين أموت لأنّ دعاءهم للّذين آمنوا بالمغفرة دعاءٌ عامٌّ، ودعاءٌ شامل كذلك، فهُمْ يدعون لآبائي الميّتين الذين كانوا مؤمنين، وللمؤمنين من أبنائي وأحفادي الذين سيولدون من بعدي لأنّهم سيدخلون في عموم هذا الدعاء! يقولون في دعائهم متوجّهين به إلى الله عزّ وجلّ: (رَبَّنَا) قد وسعت رحمتُك كلّ شيء، فانتفع جميع خلقك، واِتّسع علمُك بكل شيء من أمر خلقك، فلا يخفى عليك من أمرهم شيء، وأنت – يا ربّنا العليم بخلقك وبما يحتاجون إليه من رحمتك فاغفر للّذين تابوا عن شركهم ومعاصيهم، ثمّ اِتّبعوا دين الإسلام: طريق الهدى والدين الحقّ، ونَجِّهم من عذاب النّار.

- **رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (8) :**

ربّنا أنعم عليهم بإدخالهم جنّات الإقامة الدائمة الأبدية التي وعدتهم بها، وأدخل معهم الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم ليأنسوا بهم ويكتمل تكريمهم بِعَدم حرمانهم ممن كانوا يحبّون من أهليهم وذرّياتهم ليُسَرّوا بوجودهم معهم، ويتوسّلون لربّهم بأنّه (ٱلۡعَزِيزُ) الحاكم الذي لا يردّ حكمُه وأمرُه، وهو (ٱلۡحَكِيم) الذي يحسن تدبير كلّ أمر.

- **وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (9) :**

ويدعون للمؤمنين على الدوام – أحياءهم وأمواتهم ولمن سيأتي من بعدهم – وبالنجاة من الضرّ والعذاب.

(ٱلسَّيِّـَٔاتِ) جمع لكلّ سيئة. ومن السيّئات عمل المعاصي، ومنها كلّ إصابة بضرّ، قد يكون هذا الضرّ ملحقا بالصحّة، ومن الضرّ: الموت، ومنه: ضمّة القبر، ومن الضرّ هول القيامة، وشدّة الحساب.. دعوا الله عزّ وجل بأن يحفظ المؤمنين من كلّ جنس من الضرّ ومن كلّ صنف من العذاب، وأن يجنّبهم المعاصي حتى لا يغضبوا ربّهم، وهذا من أعظم الضرّ. (وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ) لفظ (يَوۡمَئِذٖ) يدلّ على يوم القيامة ولحظات الحساب وشدائدها، فهذا دعاء لإنجائهم من شدائد الحساب وهوْله، ومن نجا من هذه الشدائد فقد رحمه الله تعالى حقّا لأنّه بهذه النّجاة نجا من عذاب النّار وأدخل جنّة النّعيم، وهذا هو الفوز العظيم والنّجاح الكبير والإنجاء المفرح. دعاء سخر الله تعالى ملائكته المقرّبين ليدعوا به للمؤمنين، وسجّله تعالى في كتابه ويقرؤه المؤمن أو يسمعه. لو تدبّره الإنسان وأدرك أبعاده ما أظنّ أنّ عاقلا يفرّط في الإيمان ليكون هو ووالديه وأزواجه وذرّياته من أهل النّعيم ومن النّاجين من النّار، لا يفرّط فيه إلاّ شقي.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ (10) :

هذه مع الآيتين المواليتين في ندم المشركين على كفرهم حين رأوْا غضب الله عليهم، والمعنى: وحين يحشر الذين كفروا في نار جهنّم يقال لهم: إنّ غضب الله عليكم أعظم وأشدّ من كرهكم لأنفسكم لأنّكم أردتم لها السوء والعذاب، وأذكروا إذ كنتم تُدعون للإيمان بربّكم وحده دون سواه فآثرتم الكفر على الإيمان.

- قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ (11) :

فقالوا معتذرين وداعين ملتمسين الخروج من عذاب الجحيم: ربّنا كنّا في العدم قبل وجودنا، ثمّ أوجدتنا وبعثتنا للحياة بعد نفخ الرّوح فينا حتى حضر أجلنا فأمتّنا وعدنا للعدم ثانية ثمّ أعدتنا أحياء يوم البعث، فوُجِدنا في العدم مرّتين ووُجدنا أحياء مرّتين، وإنّا نقرّ بذنوبنا وبمعاصينا وبشركنا وغفلتنا عن الإيمان بك وعن طاعتك، وإنّا نلتمس أن تنجينا من هذا العذاب وأن تعيدنا لحياة الدنيا لنؤمن بإخلاص ولنصلح أعمالنا ونترك المعاصي.

- ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ (12) :

ولكن لا يُستجاب لالتماسهم ودعائهم ولا تقبل معاذيرهم، ذلك بأنّه حينما يرون المؤمنين يدعون الله وحده ويعبدونه في صلاتهم وتسبيحهم ينكرون عليهم عبادتهم ويكفرون بدينهم، وحين

يرون مظاهر الشرك وتقديس الأصنام وتقديم القرابين لها يزدادون بها تمسّكا، وإصرارا على تقديسها وإصرارا على الإيمان بآلهة أخرى غير الله تعالى. والحكم اليوم والأمر الفصل لله سبحانه العليّ الأعلى العظيم الذي لا رادّ لحكمه ولا لقضائه ولا رجعة، قُضِيَ الأمر لأنّه لا قول ولا حكم مع قوله وحكمه.

- هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ **(13)** :

هذه إلى الآية 20 في الدعوة للاهتداء الحقّ بإخلاص، وفي التّحذير من الكفر، وفي الإنذار من عذاب يوم القيامة. (هُوَ) ضمير الشأن خاصّ بالله عزّ وجل، يرشدكم إلى دلائل وجوده وألوهيته وحجج توحيده، وبراهين عظمته وقوته ويدلّكم عليها لتؤمنوا به وتخلصوا له في الطاعة والدعاء. وهو الذي ينزّل لكم من السماء غيثا نافعا يجلب لكم الرّزق والخيرات. وما ينتبه إليها ويتدبّرها ويعقلها إلاّ من يرجع إلى ربّه بالتّوبة والاستغفار.

- فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَـٰفِرُونَ **(14)** :

فتوجّهوا إلى الله وحده بأدعيتكم بإخلاص له في الإيمان بوحدانيته وبقدرته وباستجابته، وأخلصوا له في الطاعة ولو كره الكافرون منكم دينكم وعبادتكم وما تؤمنون به من بطلان دعاء الآلهة التي يعبدونها.

- رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ**(15)**

إنّه تعالى (رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ) أي العَلِيُّ في مجده وعظمته وصفاته وقدرته، وهذا يعني التّمام والكمال في جميع الصفات. مثال تمام صفة علمه وكمالها أنّه سبحانه يعلم السرّ وما يخفى، وأنه يستأثر بعلم الغيب، وأنّه تعالى محيطٌ علما بشؤون خلقه، بكلّ الدقائق من شؤون أعمالهم وحاجاتهم لحياتهم وأرزاقهم ورغباتهم وآجالهم الخفية عنهم. وفي قدرته فإنّ أمره يُنفّذ بين "الكاف والنّون"، ولا أحد له مثل هذه القدرة، وهو تعالى في وجوده أزلي. أبدي، سرمدي، ليس له أول ولا آخر. وهو المستحقّ لدرجات المدح والثّناء. فهو تعالى رفيع المقام في كلّ صفة. وهو تعالى (ذُو ٱلۡعَرۡشِ)، أي هو خالق العرش ومَالكُه، وهو مدبّره وسلطانه. (يُلۡقِى ٱلرُّوحَ) يلقي الوحي عَبر الملك رسوله فيه أمره وأحكامه وشرعه على من يصطفي من عباده ويختاره للنّبوّة والرّسالة لينذر قومه يوم البعث للحساب. يوم التلاقِ إِسم من أسماء يوم القيامة الذي يلتقي فيه الخلق بخالقهم للحساب بعد بعثهم.

- يَوۡمَ هُم بَـٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَىۡءٌۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ **(16)** :

(يَوۡمَ هُم بَـٰرِزُونَ) صفة ليوم التّلاقي الذي سبق ذكره، وهذه كقوله تعالى (وبرزوا لله...) أي خرجوا من قبورهم، ظاهرين للعيان، لا يسترهم شيء من مثل جُدُر أو أشجار أو بنايات. لا

يخفى على الله تعالى شيء من أمرهم، من مثل شعورهم بالخوف أو الدهشة من هول المفاجأة أو النّدم والشعور بالحسرة، أو السرور بلقاء الله تعالى لنيل الجزاء والمكافأة والسرور بلقاء الأخلاّء.

(لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ) : اِستفهام تقريري للقائمين للحساب يوم القيامة فيجيبون (لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ) أي لله وحده، ليس من حاكم يومئذ غيره، وما من إلاه غيره يحاسب العباد، فهو الأحقّ بالطاعة وبالخشية منه، والأحقّ بطلب عفوه ورضوانه فمن أطاع غير الله تعالى فإنّه لن ينتفع يومئذ بشيء من طاعته له، وهو الذي قهر عباده بالموت ثمّ أخضعهم للحساب قسرا وقهرا ليؤتي كلّ ذي حقّ حقّه، وليكافئ المؤمنين به والمتّقين، ويقهر المعرضين عنه والكافرين به بعقابه وعذابه.

- ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (17) :

في ذاك اليوم تنال كلّ نفس ما تستحقّ من الجزاء والثواب والتكريم والنّعيم إذا كانت مؤمنة وقدّمت عملا صالحا من أعمال البرّ والطاعات للحساب، فإن كانت هذه النّفس كافرة وكسبت السيّئات وكانت تأتي المعاصي في دنياها فإنّها ستعاقب بعذاب النّار في جهنّم على قدر ظلمها لذاتها. كلّ مخلوق مُلاَقٍ ما يستحقّ من الجزاء أو من العقاب بقدر ما عمل بلا جور، ولا ظلم. إنّ الله تعالى سريع الحساب، لا يؤجّل ثواب المحسنين ولا يؤخّره، ولا يمهل المعاقب كما أمهله في دنياه ليتوب، ما عادله من إمهال ولا من تأجيل، أمره تعالى نافذ سريع، لا يؤخّر، ولا يُردّ.

- وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ(18) :

وحذّر – يا محمد – المشركين والغافلين عن ذكر الله وطاعته – من الحساب (يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ) هو اِسم من أسماء يوم القيامة، سمّي بالآزفة لأنّ موعدها عند الله تعالى قريب، وهذا ليتداركوا أمرهم فيسارعوا للتّوبة وللإنابة. يومئذ تصل قلوب الكافرين والعصاة المذنبين إلى حناجرهم، وهذه اِستعارة للتّعبير عن شدّة الخوف والفزع ممّا ينتظرهم من سوء المآل وشدّة العقاب، وتراهم (كَٰظِمِينَ) ممسكين عن التّعبير عن غمّهم وهمّهم وعن كربهم بسبب ما يخطر على بالهم من صور العذاب الذي يتوقعونه، وبسبب حسرتهم على أنفسهم على التّفريط في اِتّباع صراط الله المستقيم، وبسبب هول المفاجأة. يومئذ لا يجد هؤلاء الظالمون أنفسهم بالكفر صديقا حميما شديد القرب منهم وكثير الشفقة عليهم ليشفع لهم عند ربّهم أو ليحمل عنهم شيئا من الكرب، ولا يجدون شفيعا لهم عند الله تعالى يُستجاب لتدخله بالشفاعة عند ربّهم، وهذا مما يزيد في كربهم وفي يأسهم من النجاة من العذاب.

- يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ (19) :

هذه في الدلالة على سعة علم الله تعالى وإحاطته بكلّ شيء علما حتى بدقائق الأمر وبخفاياها، فهو تعالى عليم بما تريد أو تعبّر عنه النّظرة الخبيثة الماكرة النّاظرة إلى ما حرّم الله تعالى عليها. وهو تعالى عليم بما تخفي النوايا في الصدور من المكر والتآمر بالمؤمنين ومن الكفر ومن الشكّ في الوعد والوعيد، ومن التّكذيب بيوم القيامة وبالتوحيد، فحديث النّفس لا يخفى على الله تعالى علمه ومعرفته.

- وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ **(20)**:

والله يحكم يومئذ بالقسط إذ يؤتي كلّ ذي حقّ حقّه، ويعاقب المذنب على قدر ذنبه دون زيادة، وهذا هو العدل والإنصاف، وأمّا الآلهة التي تعبد من دون الله من طرف المشركين فإنّها لا تحكم بشيء ولا تقيم لعبّادها حسابا للمكافأة والجزاء وللمكذّبين بها حسابا للعقاب، فهي آلهة لا شأن لها، وهي آلهة باطلة، فمن عبدها ضيّع جهده بلا فائدة. إنّ الله تعالى هو الذي يسمع أدعيتكم وتسبيحكم ويسمع ما تلفظون من قول بألسنتكم وما تحدّثه به أنفسكم من رجاءٍ من الله تعالى، كما يسمع كفر الكافرين وتكذيبهم وهزأهم، وهو بصير بما تعملون من أعمال الطاعات وأعمال البرّ، كما هو بصير بما يفعله المشركون مع آلهتهم وبصير بما يمكرون بالذين آمنوا وسيحاسبهم عمّا يعملون وعمّا يقولون.

- أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ **(21)** :

هذه مع الآية الموالية في تحذير المشركين من أن يُصيبهم عذاب مثل ما أصاب سابقيهم، وهذا لإنذارهم ولترغيبهم في المسارعة إلى الإنابة والتّوبة. والاستفهام في أول الآية للتّنبيه من الغفلة، ولتحفيز العقل للاعتبار. والمعنى: أو لم يسافروا في القرى المجاورة ليشاهدوا آثار من كان يسكنها ليعتبروا بما أصابهم من دمار وخراب لبيوتهم ومزارعهم وخيراتهم. ولقد كانوا أشدّ منهم بأسا وأكثر نفرا، وكانت بيوتهم أحسن بناء، وكانت أرضهم أكثر خصبا، فلم ينفعهم بأسهم، ولم تردّ عنهم قوّتهم بأس الله حين جاءهم، ولم تنفعهم أموالهم، ولم تحْمِهم بيوتهم من الهلاك بسبب ما كانوا يأتون من الذنوب والمعاصي، لم يَقِهم شيء ممّا كانوا يحتمون به من تنفيذ عذاب الاستئصال فيهم، فهلاّ اِعتبروا بهذه الآثار المُشاهدة.

- ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ **(22)**

لقد حلّ بهم ذلك الدمار الذي ترون آثاره بسبب تكذيبهم لما جاؤوهم به من البيّنات الواضحة ومن الدعوة لتوحيد الله سبحانه، ونبذ الشّرك، فلم يصدّقوا بما جاءهم من عند الله فانتقم الله تعالى

منهم بأن أهلكهم هلاكا مدمّرا. إنّ الله عزّ وجلّ قويّ في الانتقام من الظالمين وهو شديد العقوبة لا يعجزه شيء من الحصون والقلاع، ولا يفلت من عقابه أحد. فاخشوا ربّكم واِتقوا عقابه وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم وينجيكم من عذابه. وهذا هو المقصود من هذا الاعتبار.

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) :

هذه الآية إلى غاية الآية 27 في التقديم لقصة المؤمن الواعظ وزمنه. لقد كان زمنه زمن إرسال موسى إلى فرعون وملئه بالمعجزات الباهرة الدالّة على صدق رسالته وعلى صدق تكليفه بهذه الرّسالة من لدن الله عزّ وجلّ، وقد دلّت بالحجة والبرهان الصادق الواضح على أنّ المعبود بحقّ هو الله تعالى، وأنّه لا إلاه غير الله سبحانه.

- إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) :

وقد أرسل إلى حاكم مصر فرعون الذي كان يدّعي الألوهية، وإلى وزيره هامان صاحب ديوانه، وإلى قارون وقد كان رجلا ثريّا من بني إسرائيل وكان مواليا لفرعون وملئه. ولمّا سمعوا من موسى مضمون رسالته ولمّا رأوْا معجزاته المؤيّدة له اِتّهموه بالشعوذة والكذب على الله عزّ وجلّ.

- فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25) :

فلمّا بيّن لهم موسى الصواب والدين الحقّ وأظهر لهم ضلالتهم ثاروا وأخذتهم الحَمِية فأمروا بقتل مواليد بني إسرائيل من الذكور، وكذلك مواليد أتباعهم لصدّهم عن اِتّباع موسى، ولترويعهم قصد تخويفهم من الخروج عن طاعة فرعون وملئه ومن التمرّد عن تقديسه باعتباره ابن الإلاه الأكبر الشمس، وأمروا بالإبقاء على المواليد الإناث أحياء ليَنْشَأْنَ لخدمتهم ولإذلالهم لهنّ. كذا كادوا لنبي إسرائيل وأتباع موسى، وما كيد الكافرين وتآمرهم على المؤمنين وعلى الحقّ إلاّ من الجور والظلم والخروج عن الصّواب.

- وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) :

ولمّا رأى فرعون نصر موسى على سحرته على أعين الأشهاد، ورأى تمرّد السحرة على ربوبيته بحضوره، وإصرارهم على الإيمان بربّ موسى رغم وعيده، ثمّ رأى الأضرار التي لحقت به وبملئه وبقومه وأرضه بسبب الجوائح التي أصابتهم بسبب موسى من ضفادع وقمّل ودم... اِستشاط غضبا وحنقا فقال للملإ في ديوانه دعوني أقتل موسى لنستريح من نكباته ومن دعوته، وليدع ربّه – قال ذلك تحدّيا لأنّه لم يكن يرى في أرض مصر إلاها غيره، وهو القائل في القوم: أنا ربّكم الأعلى. وعلّل قراره هذا وعزمه على قتل موسى بأنّه إنّما يفعل ذلك من خوفه على



ضياع دينهم، وأصول ديانتهم، وزعامتهم، وضياع قداسة الكهنة والمعابد، وهذا هو الفساد في الأرض بعينه، مع الذهاب بسلطان فرعون، وسلبه ربوبيته.

- **وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (27) :**

ولمّا علم موسى بهذا الخبر اِستجار بالله ربّه وربّ النّاس جميعهم من شرّ كلّ متكبّر متعاظم لا يخشى يوم الحساب، ولا يخاف عقابه يوم يقوم إليه.

والمُستفاد من الآية: إرشاد المؤمن لأن يستجير بالله تعالى عند تعرّضه لشدّة من مكر أعدائه به، فلا نجاة له من مكر الماكرين إلاّ بالالتجاء إلى الله القدير العليم ليحميه ممّا يكاد له.

وفي هذه الآية اِلتفات لمشركي مكة الذين لم يكونوا يصدّقون بيوم الحساب لوصفهم بالمتكبّرين.

- **وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ (28) :**

هذه الآية إلى الآية 45 في خبر المؤمن الذي ناصر موسى عليه السلام، وخوّف فرعون وملأه من قتله. وهذا الرجل هو قبطي وواحد من ملإ فرعون وأهل بلاطه، كان من أهل المشورة عنده، وكانت له كلمة مسموعة، ويبدو أنّه من أهل قرابته الدمويّة. وكان هذا الرّجل مُصدّقًا بما جاء به موسى، وكان يؤمن بالله وينكر ربوبية فرعون، ولكنّه كان يخفي إيمانه تقيةً ومحافظةً على نفسه من الأذى والهلاك. وليس هذا الرّجل الذي نصح موسى بالخروج من أرض مصر إثر قتله على وجه الخطإ للقبطي. فهذا الرّجل المؤمن من بلاط فرعون ومن آله من بني عمّه ومن قرابته. ولم يؤمن بموسى من آل فرعون إلاّ هذا الرّجل واِمرأة فرعون وذاك الرجل النّاصح.

قال هذا الرجل – حين قرّر فرعون قتل موسى واِستشار في قراره هذا الملأ في بلاطه – كيف تقتلون رجلا لأنّه يقول ربّي الله، ولم يحملكم على الإيمان بما جاء به، ولم يجبركم عليه، والحال أنّه قد جاءكم بالأدلّة الواضحة من ربّكم، فالأمر لا يستدعي قتلَه خاصّة ولم يتبعه أحد من الأقباط. أُتركوه لشأنه إن يك كاذبا في اِدّعائه فسيقع وَبَالُ كذبه عليه، وسيأثم بكذبه وسيلقى مصيره المناسب، وإن يك صادقا فما الذي يدفعنا لمحاربة إلاهه ونتحمّل نحن جريرة غضب ربّه الذي توعّد به. إنّ الله لا يمهل المسرف المتجاوز حدوده في الكذب ولابدّ أن يفتضح أمره. والمُستفاد من الآية أنّ من يستجِرْ بالله من شدّته يقيّض الله برحمته من يسانده لرفع الكرب عنه من حيث لا يحتسب، ويأتِه نصرُ الله تعالى من جهة لا تخطر له على بال. ثمّ إنّ الجملة الأخيرة من إلهام الله لعبده فجرت على لسانه حكمة بليغة.

- يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (29) :

وذكّر الملأ بأنّهم أصحاب المُلك فلا غالب لهم في هذه الدنيا وهم متحكّمون في غيرهم، وعَالُون عليهم، وإنّهم إن أضرّوا بموسى وقتلوه فسلّط ربّه عليهم عذابه الشديد فمن ينصرهم منه إذا جاءهم، فلذا يحسن بهم أن يتركوه لشأنه. ولم يعجب هذا الرأي فرعون، وما زاده إلا تحدّيا وغرورا فقال: ما أرشدكم إليه هو الرأي الأصوب، وما أدلّكم عليه هو طريق الرّشاد والحكمة والأصلح لكم. وقد كان الأقباط يخشون صراع الآلهة، وكانوا ينسجون حول هذا الصراع الكثير من الأساطير.

- وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ (30) :

وأردف الرّجل المؤمن قائلا مخاطبا الملأ–وما كان لأحد أن يجرؤ على فرعون ليجادله في رأيه وحكمه– إني أخاف عليكم أن يحلّ بكم عذاب شديد كالذي أصاب من قبل أُمَمًا تحزّبوا على أنبيائهم.

- مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ (31) :

أخاف عليكم أن يصيبكم من الله عذاب شديد كالذي أصاب قوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود وأقواما جاؤوا بعدهم شاقّوا أنبياءهم فأهلكم الله بظلمهم لأنفسهم، ولم يظلمهم الله لأنّ الله لا يريد بعباده عقابا ظلما.

- وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ (32) :

ويا أيّها الملأ إنّي أخشى عليكم سوء العاقبة يوم تنادون للحشر وللحساب. (يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ) اِسم من أسماء يوم القيامة الذي يُنادَى فيهم النّاس للقيام للحساب.

- يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ (33) :

يومئذ تهربون جميعا مسرعين من هول ما ترون لا تلتفتون إلى الخلف، وما لكم من مكان لتهربوا إليه، وليس لكم من مهرب ولا مانع أو ناصر لتنجوا من الوقوف بين يدي الله للحساب. ومن يزغ عن الهدى ويَحِدْ عنه فليس له غير الله تعالى ليهديه للصواب.

- وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ (34) :

ولقد جاء يوسف لآبائكم من قبل بالبراهين الواضحة الدالّة على إلاهه الواحد الذي دعا إليه، ولكنّهم شكّوا في صدقه وفي نبوّته فحدث لهم ما حدث حتى مات. فلمّا مات ظننتم أنّ إلاهه لن يبعث إليكم أحدا رسولا من بعده، وهذا ظنّ غير صحيح. وقصده من هذا التّذكير تشبيه رسالة موسى برسالة يوسف فخوّفهم من أن يصيبهم مثل ما أصاب قومه من الهلاك في العهد



السابق. وهكذا يفعل الله بمن يتجاوز حدّه في إنكار الرّسل وبالمشكّكين في حقيقتهم وحقائق إخبارهم.

- ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ (35) :

هذه الآية في حكم عامّ على طائفة من النّاس لا يخلو منهم عصر ولا قوم يناقشون في مسائل علمية أو دينيّة وفي كلّ شأن من شؤون النّاس العامّة بغير علم، ولا معرفة أو دراية سابقة، وبغير حجّة أو برهان واضح، ويحاورون أهل الاختصاص ويجادلونهم بحدّة في صوت مرتفع وبدون ضابط أو تواضع لأهل العلم. ليس لهم إلاّ ألسنتهم الحادّة، في أنفسهم عقدة حبّ الظهور في النّاس بأنّهم من أهل اكتمال العقل والفهم وحسن الإدراك، وما هذا إلاّ ممّا في أنفسهم من عُقَدِ الكبرياء والغطرسة والغرور. وما أكثرهم في أوساط الجاهلين المكابرين الذين يحبّون أن ينافسوا بألسنتهم وصوتهم المرتفع أهل العلم بغير علم! نجد هؤلاء في الميدان الديني، فما أكثر فقهاءنا في الدين بغير علم كأنّهم ولدوا فقهاء، أو رضعوا الفقه وعلومه من لبان أمهاتهم!

وإنّ من أهمّ صفات العلماء الحقيقيين: التواضع للعلم ولأهله. ولقد جعل عليّ بن أبي طالب أوّل شرط لحبّ التعلّم وللنجاح في طلبه الاتّصاف بخلق التّواضع للعلم ولأهله. ولا تجد عالما يزهو على النّاس بعلمه. العالم يتخفّى لأنّه يخشى الغرور، والرّياء. والعالم الحقيقي حفظ عن الإمام مالك قوله : "من تواضع لله رفعه ومن ترفّع عن العلم وضعه الله".

والمعنى: الذين يخاصمون في دين الله: في وحدانيته، وفي صدق رسله، وما جاؤوا به من دعوة ومن المعجزات الدالّة على ألوهيته وصدق رسله بدون حجّة وبدون دليل وبدون كتاب إلاهي سماوي جاءهم من عند الله عزّ وجلّ، هم من المغضوب عليهم، ومن غضب الله تعالى عليه حلّ عليه عقابه وعذابه، وهم من المذمومين عند المؤمنين. كذلك يختم الله على كلّ قلب لا يقبل الحقّ ولا يعقل الرّشاد، ثمّ هو يخاصم فيه للصدّ عنه عنادا ومكابرة، وما هذا إلاّ من خلق المتكبّر المتعاظم على طاعة الله تعالى وعبادته، والمتجاوز حدّه في الإعراض عن قبول الحقّ.

وفي هذه الآية اِلتفات لمجادلة مشركي مكّة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في رسالته وفيما جاءهم به لوصفهم بالمتكبّرين الجبّارين.

- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ (36) :

وقال فرعون لوزيره، رئيس ديوانه آمرا: أعطِ أمرك للبنّائين ليقيموا لي بناءً عاليا جدّا عسى أن أدرك به الوسائل للعروج إلى السماء، وبلوغ أبوابها وطرقها.

- أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (37) :

هذه في إبراز فساد معتقد فرعون في الألوهية، وفي بيان عظيم كبريائه وعناده وفساد عمله. فقد طلب الوسيلة ليبلغ بها العروج إلى السماوات لبلوغ طرقها وأبوابها حتّى يرى إلاه موسى ويصل إليه، وهذا من فساد معتقده، فقد توهّم أنّ الله تعالى جسم تحويه الأماكن، تنزّه تعالى عن التّجسيم وعن أن يحيطه مكان، فهو سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، وهذا من قول المجسّم الفاسد والباطل سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

كان فرعون يدّعي الألوهية ويرى تحقيقها بالجلوس على مكان مرتفع مشرف على الخلق، وكانت تروّج في عصره أساطير صراع الآلهة. وكان فرعون موقنا بأنّ موسى كاذب بادعائه وجود إلاه غيره أعظم منه مالك للسماوات والأرض، ظنّا منه أنّ موسى يريد أن يزيحه عن الألوهيّة وعن ملكه، وأمر ببناء الصرح ليعرج به إلى السماوات ليظهر كذب موسى بعدم وجود إلاه فيها وهكذا يبطل دعوته. وهكذا زيّن الشيطان لفرعون أن يفعل لإثبات ربوبيته وليصدّ عن سبيل الله الحقّ وهكذا يفعل الكبرياء بصاحبه، وبمثل هذا الطيش تأمره نفسه وكلّ ما فعل فرعون من بناء الصرح وما كان يريد أن يكيد به لموسى كان من الخسران البيّن للمال وللجهد ولتدبيره. وكان مآله الغرق في اليمّ مع جنده وأنصاره.

- وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (38) :

وقال هذا الرجل المؤمن في موضع آخر مع طائفة من قومه: يا قوم اِسمعوا مني أرشدكم لطريق الحكمة في العمل، ولمنهج الهدى في الدّين والحياة.

- يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ (39) :

يا قوم إنّما الحياة في هذه الدنيا محدودة بأجل قصير يستمتع فيها الإنسان باللهو والامتلاك لشيء من زينتها ثمّ يغادرها للآخرة. والآخرة هي دار الاستقرار الدائم التي ليس فيها موت ولا فناء. وهذه موعظة عامّة لمن شاء أن يتدبّرها بإمعان.

- مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) :

وحين ينتقل المرء للآخرة فإنّه إن كان قد اِرتكب إثما ومعصية في دنياه فإنّه لا يعاقب إلاّ قدر جرمه وإثمه بالقسط. ومن كان مؤمنا – ذكرا كان أو أنثى – وعمل صالحا فإنّه يدخل جنّة النّعيم، وفيها ينعمون بكلّ الخيرات على قدر رغبته عَطاءً من غير نفاد، وبدون اِنقطاع.

- وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ (41) :

ولم يتقبّل القوم موعظته، بل واجهوه بالصد وبمجادلته فيما يدعوهم إليه من الإيمان بالله وحده، فقال يا قوم، لِمَ هذا الجدال، أنا أدعوكم للإيمان بالله للنّجاة من عذابه وعقابه، وأنتم تحضّونني على أن أكون على دينكم لأكون من أصحاب النّار، ما أعجب أمركم!

- **تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ (42) :**

تدعونني لأكفر بالله ولأن أشرك به إلاها لا علم لي بدلائل ألوهيته في حين أنّي أدعوكم لعبادة الله الذي يغلِبُ ولاَ يُغْلَبُ، والمتمكّن من كلّ خلقه، وهو كثير المغفرة لمن أناب إليه وعاد إليه تائبا ومستغفرا.

- **لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ (43) :**

لاشكّ ولا محالة أنّ الإلاه الذي تدعونني لعبادته ليس له من قدرة لينفعني بها في دنياي ولا في آخرتي، وإنّ رجوعنا – نحن جميعا – يكون إلى الله، فهو الأولى بالعبادة والطاعة وطلب رضوانه، وأمّا المتجاوزون حدودهم في الكفر به والإعراض عن طاعته والمتجاوزون حدودهم في المعاصي فإنّهم سيكونون من المقيمين في النّار.

- **فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ (44) :**

وستتذكّرون كلامي يوم تقومون للحساب وستعرفون صدقه يومئذ حينما تواجهكم حقيقة ما أنذرتكم منه، ستعرفون أنّي دعوتكم للنّجاة من النّار، وأنّي دعوتكم للدّين الحقّ وأنّي حذّرتكم من الباطل ولكنّكم أبيتم إلاّ أن تعاندوا فيه، وأمّا أنا فأُسَلِّم أمري إلى الله عزّ وجلّ، وأجعله إليه ليدبّر أمري كيفما يشاء. إنّه سبحانه وتعالى مطّلع على أفعال عباده : يعلم ما يسرّون وما يعلنون.

ويشعرنا تفويض هذا المؤمن أمره إلى الله عزّ وجلّ أنّه لقي من قومه الذين قام فيهم واعظا صدّا عنيفا وتهديدا، ولاشكّ أنّه تَوَجَّسَ منهم خيفة. قال مقاتل: بعد موعظته هذه هرب الرجل إلى الجبل وتخفّى عن أعين النّاس فلم يقدروا عليه.

- **فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ (45) :**

وتشعرنا هذه الآية بأنّ القوم قد بيّتوا له مكرا سيّئا فعلا: سجنه تعذيبه أو قتله، ولكنّ الله تعالى حفظه بتقديره ممّا أرادوا به من كيد، وألحق بآل فرعون عذاب الغرق الذي أحاط بهم من كلّ جانب فلم يَنْجُ منهم أحد.

والمُستفاد من هاتين الآيتين أن يفوّض المؤمن أمره إلى الله عزّ وجلّ إذا أحاط به مكروه ليحفظه الله تعالى منه بمشيئته وتقديره.



- ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ(46) :

يستشهد بهذه الآية على وجود عذاب الأرواح للكافرين والعصاة إثر خروجها من أجسادهم بالموت إلى يوم القيامة، وحين تعود الأرواح لأجسادهم عند الحشر تجتمع أرواحهم وأجسادهم في النّار (هذا عن عذاب الأرواح، وليس كما يتوهم بعضهم عن عذاب القبر). والمعنى: إنّ أرواح فرعون وملئه وآله بعد غرقهم ومماتهم تشاهد مواضعها التي أُعدّت لها في جهنّم صباح مساء – كناية عن دوام هذه المشاهدة التي تخيفهم وترعبهم – ويوم تقوم الساعة يحشرون في مواقعهم التي أعدّت لهم في جهنّم ليلاقوا أشدّ العذاب إيلاما.

جاء في الحديث النّبويّ الشّريف الذي أخرجه الشيخان عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّ أحدكم إن مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة، وإن كان من أهل النّار فمن أهل النّار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة".

- وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ (47) :

هذه إلى الآية 52 في خبر المحاجّة في النّار بين الضعفاء والمستكبرين، وبين المقيمين في جهنّم وخزنتها.

والمعنى: وقال الأتباع للأسياد والأشراف إنّا كنّا لكم أتباعا أوفياء لإرشادكم ونصحكم وأوامركم فهل تحملون عنّا نصيبا من هذا العذاب بالنّار لتخفّفوا عنّا.

- قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ (48) :

فيقول لهم أسيادهم: إنّا على حال واحدة. وقد حكم الله تعالى فينا، ولا رادّ لحكمه.

والمُستفاد من الآيتين تنبيه المستضعفين الأتباع سواء بالخدمة أو بالانتماء لحزب أو لسياسة ولمذهب أنّ كلّ إنسان مسؤول عن نفسه في معتقده وفي عبادته وطاعته لشرع ربّه، فلا ينفعه أحد يوم الحساب ليشفع له من العذاب ولا ينفعه أحد إذا زاغ عن أمره طاعة لسادته أو إخلاصه لمذهبه، فالكلّ في العذاب إذا زاغوا عن أمر ربّهم.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ (49) :

هذه في الدلالة على سوء العذاب وشدّته في جهنّم، ممّا يدفع بالمعذّبين فيها أن يتوسّلوا لخزنة جهنّم – وهم القائمون عليها – بأن يدعوا ربّهم بأن يخفّف عنهم يوما من العذاب ليستريحوا منه قليلا، وليجدوا فيها نفسا غير حارق...



- قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ (50) :

ويجيبهم الخزنة: ألم يأتكم رسل من عند ربّكم فينذروكم ويحذّروكم من هذا العذاب؟ والاستفهام للتّقرير والتّوبيخ، فيردّون: بلى، أي لقد جاؤونا بهذا، فيقول لهم الخزنة: فادعوا ربّكم ليخفّف عنكم من هذا العذاب... وهو أمر للتّأييس، وجاءت الجملة (وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ) للدلالة على أنّ دعاء الكافرين في جهنّم لا يُستجاب له، وإنّما هو دعاء في ضياع، لا يجدي نفعا.

- إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ (51) يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (52) :

(إِنَّا) هو الله عزّ وجلّ، فالقول هنا لله عزّ وجلّ، قضى أن ينصر رسله والذين آمنوا معهم من أتباعهم. فلقد نصر نوحا وصالحا وموسى بإنجائهم من العذاب ومعهم الذين اتّبعوهم بإيمان، ومن الرّسل من نصرهم بأن آتاهم الملك وشدّ ملكهم وسلطانهم من مثل داود وسليمان. ومنهم من نصره بالغلبة على أعدائه كنبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، هذا في حياتهم الدنيوية. وكتب لهم أن ينصرهم (وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ) وهو اِسم من أسماء يوم القيامة، يوم الحساب، وهو يوم يحضر فيه الملائكة الكتبة والأنبياء والمرسلون والمؤمنون العدول للشهادة على النّاس يوم الحساب. في ذاك اليوم لا ينفع الكافرين اِعتذارهم عن كفرهم وعن تكذيبهم برسلهم وبالوعيد، هم من المطرودين من رحمة الله عزّ وجلّ، ومآلهم الإقامة في أسوإ دار للإيواء، هي دار جهنّم في نار مستعرة، والعياذ بالله من هذا المصير.

- وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ (53) هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (54) :

الآيتان في التذكير بتفضّل الله تعالى على موسى باصطفائه بالنّبوّة، وبتفضّله على بني إسرائيل بأن جعلهم أمّة أهل كتاب، وهما تمهيد لما سيأتي بعدهما لما بين هاتين وما بعدهما من تشابه في اِصطفاء النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم بالنّبوّة وتكريم أمّته بأن جعلهم أمّة كتاب. والمعنى: ولقد آتينا موسى (ٱلۡهُدَىٰ) النّبوّة والكتاب، وجعلنا كتابه (التوراة والألواح العشر) ميراثا لبني إسرائيل، فصاروا أمّة كتاب: أمّة ذات علم بالشريعة الرّبانيّة الحقّ. وفي كتاب موسى هدى لبني إسرائيل للاهتداء به إلى سبيل الله الحقّ وللعمل بشريعته، وفيه مواعظ وأحكام ينتفع بها ذوو العقول الراجحة والقلوب الواعية وكذلك علماؤهم وأحبارهم وقضاتهم.

- فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ (55) :



هذه الآية مع التي تليها في تسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عمّا يلاقيه من قومه من صدّ ومشاقّة وتكذيب، وتوجيهه لما يشدّ أزره عند ضيقه، أو ما يشدّ به أزره لتحمّل أذى قومه من هزء وتكذيب: "الصبر" حتى يأتيه الفرج، وعليه أن يثق في وعد الله تعالى بنصره وإظهاره، وتحقيق وعد الله تعالى له أجلُه، فعليه أن ينتظره مستعينا بالصبر. وممّا يشدّ به أزره عند شدّته: المداومة على الاستغفار. وإنّ الاستغفار من الإنابة، وهو من طلب الرحمة، فإنّ الغفران من الرّحمة، والاستغفار يجلب السعة في الرّزق والخيرات. ولم يكن لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذنب ليستغفر منه، فقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، ولكنّ هذا الأمر ليكون من سنّته في قومه، وهو إرشاد من الله تعالى لعبده حين يكون في ضيق أو ضائقة من رزق، ومن توجيهه. وممّا يُشدُّ به الأزر: المداومة على التسبيح بحمد الله تعالى، وإنّ التّسبيح بحمد الله تعالى من عمل الملائكة لا يفترون، وهو ممّا يقرّب العبد من ربّه، ومن طلب القرب من الله عزّ وجلّ واحتمى بحماه فإنّه لا يضرّه شيء من كيد الأعداء، ولا يمسّه سوء بإذن ربّه، فالتّسبيح بحمد الله ممّا يتقوّى به العبد على شدّته ومأساته وضيقه وقلقه، هو الذي يؤنسه عندها بالقرب من الله عزّ وجلّ. والمؤمن يداوم على التسبيح بحمد الله أطراف النّهار، في الصباح الباكر وعند العشيّ. وإنّ تلاوة القرآن الكريم من التّسبيح بحمد الله تعالى ومن الذكر.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ(56) :

هذه في مجادلة المشركين الجاهلين في وحدانية الله تعالى وفي دلائل قدرته وفي هديه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي آتاه الله العلم والحكمة والكتاب، يجادلون بغير علم وبغير كتاب كمجادلة الأعمى للبصير فيما هو مَرْئِي.

والمعنى: إنّ الذين يخاصمونك بغلظة في دلائل الله عزّ وجلّ على وحدانيته وعلى قدرته، وفي دلائل بطلان الشّرك، وتنزيه الله الحقّ عن النّدّ والشريك بغير حجّة، أو منطق، وبلا برهان أو كتاب إلاهي، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنّ ما تقوله حقّ وصدق ولكنّهم يصرّون على رفضه مكابرة وعنادا، ويستكبرون عن عبادة الله الواحد الأحد، يريدون بمخاصمتهم ورفع أصواتهم وبرفضهم لاتّباعك والسماع لك أن يَعْلُوا بأصواتهم على قولك وهديك وفتح بصائرهم، وما هم ببالغين غايتهم ولا بمحقّقين لرغبتهم. إذا جادلوك – يا محمد – عنادا ومكابرة، فَدَعْهم لشأنهم، واِستعذ بالله من الشيطان الذي حضر عندهم، إنّ الله سبحانه هو السميع لما يقولون، وهو البصير بما يجري بينكم.

ومن المستفاد من الآية أنّ الله سبحانه قد وجّه نبيّه صلّى الله عليه وسلّم للاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرّجيم حين يحتدّ النّقاش بينه وبين المخالفين له في الدين والمنطق عنادا ومكابرة، ولم يأذن له بغير الصبر عليهم، وبالاستعانة بالاستعاذة من الشيطان الذي يحضر فيهم لينفخ في أوداجهم، وما أحوجنا لأن نعتبر بهذا الإرشاد الرّباني فيما نشاهده أحيانا في البرامج التلفزية على مرأى ومسمع من النّاس في مجادلة من يدّعي الفهم والخبرة، وما له من علم، وما يملك إلاّ لسانا غير منضبط لمنطق ولا لخُلقٍ، لخبير مختصّ ذي المسؤولية والتجربة في مسألة اِقتصاديّة من اِختصاصه، أو في مسائل ذات أهميّة في حياة المجتمع. لا يملك صاحب العلم مع الجاهل المعاند إلاّ أن يحفظ نفسه من جدال عقيم بالانصراف عنه وبالاستعاذة بالله من الشيطان ومن كلّ جاهل معاند.

- لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ **(57)** :

هذه إلى آخر السورة في دلائل التّوحيد، وهذا للردّ على الذين يحاجّون في آيات الله بغير حجّة وبغير علم، وفيها دعوة للمؤمنين للتمسّك بدينهم الحقّ، وبالحرص على تقرّبهم من الله عزّ وجلّ بالدعاء. والمعنى: إنّ الله قادر كلّ القدرة على التمكّن من هؤلاء المجادلين المعاندين الذين لا يعلمون أنّ خلقه للسماوات وللأرض هو أعظم وأدقّ تفصيلا وأكبر جُرْما من خلق النّاس، فما أبعد الفوارق بين هذا وذاك! وما أعظم جهل الجاهلين حين يتطاولون على المجادلة في آيات الله تعالى، وهم أقلّ شأنا من المخلوقات من حولهم!

- وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ **(58)** :

هذه في تشبيه مجادلة الجاهل للعالم، وفي تشبيه الفارق بين الكافر والمؤمن فإنّهما على طرفي نقيض، فليس الأعمى كالبصير الذي يبصر ما حوله بوضوح، ويقيّم حجمه ولونه وفائدته، ويعرف فائدته أو ضرّه، ويرى طريقه فيعرف مسلكه المَيَسَّر والسالك، ويرى حُفَرَه أو مخاطره فيحذرها ويتجنّبها، فهو على بيّنة ممّا يرى ويشاهد، وأمّا الآخر فيعيش في ظلمة لا يميّز شكلا ولا يعرف لونا ولا يرى خطرا ولا يبصر ضوءًا ونورا، وهذا مثل الكافر الذي لا يعرف مسلكه ولا مخاطره ليحذرها، وأمّا مثل المبصر فهو المؤمن الذي اِهتدى لصراط ربّه المُستقيم فعرف مسلكه الآمن، وعرف مزالقه فتجنّبها. ولا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع الذين كفروا وعملوا السيّئات فهما على طرفي نقيض، ولكنّ أكثر النّاس لا يتبيّنون الصواب وما يصلح لهم لحياتهم ولآخرتهم، فقليلا ما يتأمّلون فيما جاءهم من عند ربّهم ويتدبّرونه.

- إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ **(59)** :



هذه لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليُرْجِئَ خصومه في الدّين بالتّكذيب والصدّ عنه ليوم الحساب، ولتذكير المؤمنين بهذا اليوم للإعداد له، ولتحفيز غير المصدّقين به للإيمان بالبعث وعدم إنكاره، ولذلك جاءت هذه الآية في صيغة التّأكيد بـ (إِنَّ) وفي صيغتها الإنشائية، وفي التأكيد على قيام الساعة بلام التوكيد في (لَآتِيَة)، وبنفي الشكّ عن قيام الساعة باستعمال (لَّا رَيۡبَ فِيهَا)، فمن العجب أن لا يؤمن بقيام الساعة أكثر النّاس وقد أكّد تعالى على إتيانها بكلّ هذه الصيغ، وما ينكرها إلاّ الغافلون، وغير المتدبّرين لآي القرآن.

- وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60) :

هذه من الآيات الّتي يجب أن تُفَسَّر لغويا: لفظا لفظا، وبصيغ جملها لإدراك عمق معناها ومقصدها.

(وَقَالَ رَبُّكُمُ) : هذا خطاب مباشر من الله تعالى إلى عباده المؤمنين بدون واسطة وإن كان الوسيط رسوله، وهذا يعني أن ليس بين العبد وربّه لدعائه واسطة، والجملة فعليّة بدئت بـ (وَقَال) فهذا يعني بأنّها جملة إخباريّة، ولمّا كان الفعل في صيغة الماضي الذي يفيد الاستغراق في الزّمن فهذا يعني أنّ الخبر الذي سيأتي ذكره بعد القول هو ممّا كُتب في اللوح المحفوظ قبل خلق الإنسان، وهو ممّا هو سائر في زمن الوجود مستغرقا في الإخبار، وهو ممّا سيكون موضوع الحساب والمساءلة يوم الحساب عن تنفيذه أو عن الإعراض عنه. فهذا إخبار "أزلّي".

وأمّا جملة مقول القول (ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ) فقد جاءت شرطيّة، فعلها (ٱدۡعُونِيٓ)، وجوابها (أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ). (ٱدۡعُونِيٓ) فعل أمر لجميع الخلق، من إمتثل للأمر كان عبدا مطيعا لربّه، والطاعة تعني الإيمان بالآمر وهو الله عزّ وجلّ. ومن غفل عن دعاء ربّه ناكرا أو جاحدا فقد وصفه الله تعالى في الجملة الموالية (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي) بأنّه مستكبر عن عبادة ربّه، ونسمّيه نحن كافرا أو ملحدا. وهذه الجملة تفسّر (الدعاء) بأنّه (العبادة) عبادة الله، وهذا ممّا أدرك فهمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لذلك قال على ما رواه بعضهم : "الدعاءُ هو العبادة" (رواه النعمان بن بشير) وهو حديث حسن صحيح. وقد روي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : "الدعاء مخ العبادة". لذا فإنّ كلّ عبادة هي دعاء، ومن لم يدعُ ربّه لم يكن عابدا ولا مؤمنا.

وأمّا جملة الجواب (أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ) فهي وعد بالاستجابة، فما كان دعاءً لخير يطلب للدنيا كانت الاستجابة له في حينه أو بعد حين بإذن الله تعالى، وما كان من دعاء للآخرة كطلب المغفرة أُجّلَ للآخرة.



وقضى الله تعالى في آخر الآية بالحكم على كلّ من يستكبر عن دعائه، أي عن عبادته، أي عن الإيمان به وندائه بإيوائه في جهنّم ذليلا مهانا ومحتقرا، وما هذا الحكم إلاّ من الإخبار بكلمة الله في مصيره في آخرته للعلم بها، فمن أعرض عن عبادة الله ودعائه وذكره حقّت عليه هذه الكلمة وكان ظالما لنفسه باختيار سوء المصير لنفسه، ولا مبدّل لكلمات الله، وهذا من الإنذار والتّحذير. (قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ) (الأعلى الآيتين 14-15) وقد جاء في سورة "الفرقان" (قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا)(الفرقان الآية 77) مما يدلّ على أنّ الدعاء من العبادة، ومن غفل عنه أو أعرض فقد ألزم على نفسه العذاب.

وكان خالد الربعي يقول: عجيب لهذه الأمّة! قيل لها: (ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ) أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاستجابة، وليس بينهما شرط. قال له قائل: مثل ماذا؟ قال مثل قوله تعالى (وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) (البقرة الآية 25) فها هنا شرط، وقوله (وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ)(يونس الآية 2) فليس فيها شرط العمل، ومثل قوله (فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ)(غافر الآية 14) فها هنا شرط، وقوله تعالى(ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ) ليس فيه شرط. وكانت الأمة تفزع إلى أنبيائها في حوائجها حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك، (وليس مع هذه الآية فزع للأنبياء، فالدعاء من غير واسطة) (القرطبي – الجامع ج 15 ص 327).

- ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ **(61)** :

ادعوا ربّكم الله الذي جعل لكم لحكمة تقديره الليل لتستريحوا فيه حتى يتجدّد من بعده نشاطكم لتعملوا في نهاره الذي خلقه لكم منيرا مضيئا لتبصروا فيه شؤونكم، وهذا من فضله عليكم. إنّ الله كثير الفضل على النّاس فيما يحيون فيه وفيما يرزقهم ولكنّ أكثر النّاس جاحدون أو لا ينتبهون للكثير من فضله عليهم فلا يشكرون له.

- ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ **(62)** :

صاحب الفضل عليكم في حياتكم هو الله سيّدكم خالقكم وخالق كلّ شيء في السماوات وفي الأرض، هو الله الحقّ واحد أحد لا إلاه إلاّ هو، فلا تدعوا سواه، ادعوه وحده إلى أين تذهبون عنه فتعبدون سواه وما هو بإلاه؟ وكيف تنصرفون عن الإيمان به بعد أن تبيّنت لكم دلائله على ألوهيته، وانحرفتم عن الحقّ بعد أن تبيّن لكم؟

- كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ **(63)** :

كذلك ينصرف عن الحقّ وعن الرّشاد وعن الإيمان وعن الهدى الذين كانوا ينكرون دلائل الله مكابرة وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنّها حقّ.

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (64) :

الله الذي جعلكم بقدرته تستقرّون على الأرض إستقرارا مطمئنّا رغم دورانها المستمرّ وتحرّكها في مدارها، وهو الذي جعل لكم السماء سقفا محفوظا مرفوعا يحميكم من شهبها وصقيعها، وهو الذي أنشأكم على أحسن صورة في الخلق، وأجمل هيأة، وأمدّكم بأطيب الرّزق لطعامكم وشرابكم ولسكناكم وأعمالكم ولمتاعكم. ذلكم خالق كلّ شيء والمتفضّل عليكم بخلقكم وبرزقكم هو الله ربّكم الحقيقي الذي يجب عليكم أن تعبدوه وتدعوه وتطيعوه، والذي يجب عليكم أن تشكروه على نِعَمِهِ، فالثّناء على الله الخالق المنعم عليكم لاتصافه بعظيم الصفات، وهو سيّد الكائنات والموجودات في الوجود كلّه بإنسه وجنّه وملائكته وكلّ ما هو كائن، فتعالى الله وكثرت خيراته وتبارك سبحانه عظيم المجد.

- ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (65) :

هو (ٱلْحَىُّ) أي الذي لا يموت ولا يزول، "كلّ شيء هالك إلاّ وجهه"، هو الأوّل الذي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، هو الباقي على الدوام، هو واجد الوجود سبحانه، وجوده لا تصيبه العوارض للتّغيير أو الزوال، وهذه صفة لله وحده لا يشاركه فيها أحد من خلقه، هو وحده المتصف بهذه الصفة، المفرد بها. (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) هو الله الحقّ، وكلّ ما يسمّى إلاها غيره هو إلاه باطل من الاختلاق الوهمي ولا دليل لمدّعيه على ألوهيته. هو تعالى الله وهو واحد أحد لا إلاه غيره. فتوجّهوا له بالعبادة وبالدعاء في إخلاص، وآمنوا به وحده إيمانا صادقا لا ريب فيه. واشكروا له فضله ونعمه وهديه واحمدوا له لما سخّر لكم ولما جعله لكم لحفظكم ورزقكم ولما بسطه لكم، احمدوا الله وادعوه ولا تدعوا سواه.

وقد جاءت هذه الآيات في التوحيد للتأكيد على ما أمر به في قوله تعالى (وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر الآية 60) وذلك ليؤمن به النّاس في إخلاص وليوحّدوه في الطاعة والعبادة وليشكروا له.

- ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (66) :

بعد دعوة جميع النّاس إلى التّوجّه إلى الله وحده بالدّعاء والعبادة، وإثبات وحدانيته سبحانه وفضله على عباده ببعض دلائل خلقه وإنعامه، جاءت هذه الآية مع الآيتين المواليتين في توجيه كلّ مؤمن للتبرّؤ من عبادة الأصنام، وإشهار إسلامه لربّ العالمين لأنّه هو الخالق، وهو الذي يحيى ويميت. والمعنى: إذا جادلك أحد الكافرين في إنكارك لعبادة الأصنام، وتغيير دينك: دين



آبائك وأجدادك فقل له: بعد ما جاءني من عند ربّي من آيات الرّشد فعرفت بها الحقّ وكشفت لي الباطل، ولمّا جاءني من عنده النّهي والزّجر عن عبادة الأصنام التي تدعون من دونه فإنّي لن أعبد ما تدعون سواه، ولقد أُمرت أن أخضع لله وحده، وأُسْلِمَ له نفسي في الطاعة والعبادة والدعاء، وهو سيّد الخلق أجمعين وسيّد الملكوتين: العلوي والسفلي، فأنا مسلم لربّ العالمين وحده، لا أعبد سواه.

- **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) :**

أُمِرْتُ أن أسلم لربّ العالمين الذي خلق أصل جنس الإنسان من تراب، ثمّ جعل نسله من (نُّطْفَة) (من تلقيح بويضة المرأة بماء الرّجل)، ثمّ ينتج عن هذا التّلقيح وتفاعل الخلايا وتكاثرها (عَلَقَةٍ) دموية تعلق برحم المرأة، وينشأ بعد ذلك جنين يولد طفلا رضيعا، ويظلّ ينمو حتّى يشبّ ويبلغ أشدّه بعد ذلك باكتمال جسمه وقوّته البدنية والعقليّة، ومع مرور الأيّام يبدأ ضعفه حتى يصير شيخا ضعيف القُوى. ومن المواليد من يتوفّاه الأجل قبل أن يبلغ أشّده أو قبل أن يبلغ الشيخوخة. وجميع النّاس يتوفّون حين يبلغون آجالهم التي سمّيت لكلّ واحد منهم. وعساكم – أيّها النّاس – تنتفعون بهذا التّذكير فتعلمون أن كلّ هذه المراحل التي ينشأ عليها كلّ إنسان هي من تقدير حكمة الله في الخلق، فتعرفون بها ربّكم الحقّ الذي يجب عليكم تخصيصه بالعبادة والطاعة والدعاء. تعرّفوا على ربّكم الحقّ من نشأتكم في حياتكم.

- **هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (68) :**

وإنّ ربّكم الحقّ الذي أمركم أن تسلموا له هو الذي يحيي وهو الذي يُميت، هو الذي يحدّد آجال وجودكم في هذه الدنيا، وهو الذي يحدّد آجال وفاتكم، فسارعوا لطاعة من بيده فضل إيجادكم وإحياكم على أحسن صورة، واِخشوا من بيده أمر تحديد أجل قبض أرواحكم، ودعوا عبادة مالا ينفعكم بشيء، وما ليس له أيّ فضل عليكم، وادعوا من ترجون رحمته. إنّ الله الذي تدعون لعبادته وحده هو القدير الذي لا يعجزه تحقيق أيّ أمر يشاؤه. إنّ أمره نافذ بقوله للشيء "كُن" فيكون بأمره على ما يشاء ويُقدِّرُ له، فلا تدعوا العاجز الأصمّ الذي لا يخلُق شيئا، وهي أصنام تُصْنَعُ بأيديكم.

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (69) :**

(أَلَمْ تَرَ) اِستفهام للتعجّب من ضياع الرّشد والعقلانية وقصر النظر عن المشركين الذين يجادلون في خصومة في دلائل الله تعالى على اِنفراده بالخلق، وفي دلائل عظيم قدرته في إنشاء الموجودات، وفي دلائل إنعامه حياة خلقه من جنس البشر وغيره من الأجناس، ولكنّ أكثرهم لا



يعقلون ولا يشكرون ويصرّون على تقديس الأصنام ودعائها رغم ظهور بطلان ألوهيتها ورغم بيان دلائل عجزها ودلائل صممها (أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ) كيف يبعدون عن الحقّ، وينصرفون عنه إلى المُجادلة بالباطل عنادا؟ ما أعظم ظلم الإنسان لنفسه حين يعطّل عقله، ويعمي بصيرته، ويصمّ أذنيه عن سماع الحقّ وإدراكه، ثم يطلق لسانه ليجادل فيما يجهل بالباطل؟

- ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (70) إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ (71) فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ (72) :

هذه في تحذير المكذّبين بالوحي وبرسالة الرسول صلّى الله عليه وسلّم من سوء العاقبة وشديد الإيلام والإذلال والمهانة والذين لم يصدّقوا بالوحي عنادا، وبدون دليل، ولم يؤمنوا بما جاءهم رسولهم لتصحيح معتقدهم في الله تعالى وفي الدين، وأعرضوا عن نبذ شركهم وعن توحيد الله تعالى وعن العمل بشرعه (فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ) جملة للتهديد بسوء المصير يوم لقائهم ربّهم الحقّ الذي أرسل إليهم رسوله، والذي أنزل إليهم كتابه للعمل بشرعه، وللتعرّف على دلائله، وللاتّعاظ بمواعظه، هؤلاء سيعلمون أنّ ما جاءهم من عند ربّهم كان حقّا وأنّهم كانوا على باطل وعلى ضلال حين كذّبوا بما جاءهم حين تُقيّد أيديهم وتربط بأعناقهم لإذلالهم ولتعذيبهم بالأغلال وتُقيّد أرجلهم بالسلاسل، ثمّ يجرّون جرّا مهانا في ماء شديد الحرارة، يغلي غليانا، ثمّ يلقى بهم في النّار، فإذا ألقوا فيها اِزدادت بهم النّار توَقُّدًا واِشتعالا، وهذا إنذار شديد الوعيد للحذر منه، وما يغفل عنه وينكره إلاّ الذين لا يعقلون.

- ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ (73) مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ (74) :

وهم في جهنّم وفي عذابها الأليم يسألون عن آلهتهم التي كانوا يشركون بها من دون الله أين هي لتنقذهم ممّا هم فيه، ولتشفع لهم من العذاب – كما كانوا يعتقدون ويدّعون – والاستفهام هنا للتقريع وللتّوبيخ عن غفلتهم، وسوء معتقدهم، فيقولون: ذهبوا عنّا، ولم نجدهم، وتركونا في العذاب، بل لم نكن ندعو شيئا، كنّا ندعو ما لا يسمع وما لا ينفع وما لا ينجد وما لا يشفع، لقد ضيّعنا عبادتنا في ما لا ينفعنا. وهكذا يترك الله تعالى الكافرين في ضلالتهم لأنّهم كفروا به وأعرضوا عن طاعته وعبادته.

- ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ (75) :

تركَكم الله تعالى لضلالتكم لأنّكم أعرضتم عن طاعته وعن الاستجابة لرسوله واِنشغلتم عنه بما كنتم تملكون من متاع الدنيا وتسرّون بجمعه وبالبطر به دون أن تؤدّوا حقّه من شكر المنعم عليكم، وعوقبتم بترككم لضلالتكم لتماديكم في البطر متفاخرين ومتعاظمين.



- ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ (76) :

وقضى فيهم بإدخالهم أبواب جهنّم السبعة ليذوقوا ألوان العذاب في كلّ قسم منها، وستكون إقامتهم فيها دائمة، وقَبُح مكان إقامة المتكبّرين في جهنّم.

- ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ (77) :

هذه لتسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يضيق بتكذيب المكذّبين به والمعرضين عنه اِستكبارا وعنادا وبإصرار المشركين على شركهم. والمعنى: اِستعن بالصبر في تبليغ دعوتك وفي تحمّل أذى المعرضين، فإمّا أن ترى عذابهم الذي سينزل بهم في دنياهم بوجودك وشهود مصرعهم، فإن لم تره في دنياك واِنتقلت إلى الرفيق الأعلى فسترى عقابهم يوم يبعثون، ويعرضون على ربّك لحسابهم، ففي هذه الآية دعوة للصبر، وتبشير بنصره على أعدائه في دنياهم، وفي وعيد من يتأخّر عذابه إلى آخرته.

- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾(78) :

هذه في الردّ على الذين اِشترطوا على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ليصدّقوا بما جاءهم به أن يأتيهم بمعجزة حسّية عجيبة غير معجزة القرآن الكريم. والمعنى: ولقد أرسلنا قبل بعثتك كثيرا من الرّسل إلى أقوامهم، منهم من ورد ذكرهم في هذا الكتاب، وعرّفنا ببعض من أخبارهم مع أقوامهم، ومنهم منْ لم نورد ذكرهم وذكر خبر أقوامهم معهم. وما يتَأتَّى لرسول أن يأتي بمعجزة من عنده، من نفسه، كلّ معجزة حسّية جاء بها رسول هي بأمر الله تعالى. وأمّا المكذّبون فأمرهم إلى الله حتّى إذا جاءهم قضاؤه بمعاقبتهم تنفيذا لوعيده الحقّ، عندئذ سينصر الله تعالى المؤمنين بتثبيتهم وإظهارهم وسيهلك المكذّبون المشركون ويخسرون المواجهة ويخسرون آخرتهم. وقد صدق في مشركي مكة وعيد الله يوم بدر إذ خسروا معركتهم وهلك زعماؤهم وأظهر الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين والإسلام عليهم وكشف بطلانهم.

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ (79) :

الله هو الذي خلق لكم الأنعام، منها ما تركبون، ومنها ما تأكلون لحومها فكيف تكفرون بالمنعم عليكم.

- ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ (80) :

ولكم في الأنعام التي جعلها مسخّرة لخدمتكم منافع أخرى غير الركوب والأكل وشرب الألبان، فإنّكم تتّخذون من جلودها فرشا ومن أوبارها وأصوافها لباسا وأغطية، وتتّخذون بيوتا من

الجلود، وترتزقون منها وتكسبون الثروات، وتبلغون بها بركوبكم وحمل أثقالكم وتجارتكم المكان البعيد لقضاء حوائجكم، مثلما سخّر لكم البحر لتركبوه بسفنكم وأثقالكم للتجارة أو لطلب الرزق، فهلاّ شكرتم من سخّر لكم هذه الأنعام والبحر لقضاء حوائجكم ولكسب الرزق والمنافع، وهلاّ أدركتم فضل الخالق وآياته لتؤمنوا به ولتطيعوه وتعبدوه وتسبحوا بحمده، ولتدركوا ضلالتكم في عبادة الأصنام فتنتهوا عن تقديسها.

- وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ (81) :

ويرشدكم الله تعالى لدلائل خلقه ودلائل إنعامه عليكم ودلائل عظمته وقدرته ودلائل وعيده وغضبه، ودلائل إحياء الأرض بعد موتها ودلائل صدق رسوله لتؤمنوا ولتخشوا ربّكم ولتتعرّفوا على دلائل ألوهيته ووحدانيته، ودلائل فساد معتقدكم في آلهتكم من دون الله، فأيّ من هذه الدلائل تنكرونها ممّا يجعلكم لا تصدّقون بوحدانية الله وبقدرته ولا تصدّقون بالبعث وبالوعيد، وأيّ من هذه الدلائل تشكّون في صدقها؟

- أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (82) :

هذه ليعتبر بها من لا يصدّق بالوعيد. والمعنى: أفلم يسافروا في بقاع من الأرض ليروا آثار أقوام كانوا قد كذّبوا رسلهم بما جاؤوهم به من هدًى من عند الله عزّ وجلّ، وكانوا قد اغترّوا بكثرة عددهم وقوّة جندهم واِغترّوا بوفرة أرزاقهم ومتانة بُنْيَانِهِمْ وعمارة قراهم، فلمّا جاءهم العذاب لم يدفعه عنهم ما كانوا قد بنوا من بيوتهم وحصّنوها وأعلوها، وما ملكوا من قوة ومال وأرزاق، هلكوا جميعا ودمّرت قراهم تدميرا ترون آثارها رؤية العين، أفلا تخشون أن يُصيبكم مثل ما أصابهم بتكذيبكم لرسولكم وأنتم تعرفون صدقه وأمانته.

- فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ(83) :

أولئك الذي هلكوا ودمّرت قراهم كانوا قد جاءتهم رسلهم بالدين الحقّ وبهدى من الله ليؤمنوا بالله وحده، ويتركوا عبادة الأصنام الباطلة أولئك أعرضوا عنه وأصرّوا على دينهم الباطل، وهزؤوا بالوعيد، و(فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ) وسُرّوا بعلمهم بأنّه لا يوجد بعد الموت بعث ولا حساب، فهم من هذا الوعيد آمنون، فهذه الجملة للاستهزاء بجهلهم بحقائق الأمر، يتوهّمون العلم بالشيء، وهم له جاهلون، وهذا مظهر من مظاهر الغرور والمكابرة والاعتداد بالنّفس، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستبعدونه، ويستعجلون رسلهم لوقوعه تحدّيا واِستخفافا بما كانوا يحذّرونهم منه.

- فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ (84) :



فلمّا وقع عليهم العذاب، ورأوْا شدّته، وعرفوا أنّهم هالكون به، وقتئذ أعلنوا إيمانهم بالله وحده، وأعلنوا كفرهم بآلهتهم التي كانوا يعبدون من دون الله وكانوا بها يشركون بالله الحقّ.

- **فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (85) :**

ولكن هيهات، لم يعد ينفعهم إيمانهم لمّا وقع عليهم العذاب، قد فاتهم زمن الإنابة والتوبة والاستغفار. تلك هي عادة الله مضت وتقرّرت في عباده الكافرين المكذّبين المستهزئين بالوعيد، ولا مبدّل لسنّة الله تعالى. وهكذا خسر الكافرون حياتهم بالهلاك المدمّر وخسروا آخرتهم لأنّهم آثروا الكفر على الإيمان، وآثروا الضلالة على الهدى فما أصبرهم على النّار التي سيأوون إليها يوم القيامة. خسروا الدنيا والآخرة معا. وفي هذه الآيات اِلتفات لمشركي قريش والأعراب ليخشوا ربّهم وليُنذروا بعذابه ليؤمنوا وليصدّقوا برسولهم صلّى الله عليه وسلّم، وليعتبروا بآثار ما سبقهم من الأمم، ولينتفعوا بدلائل الله وليتعظوا بما جاءهم من القرآن ومن العلم، وليتخلّصوا من عنادهم ومكابرتهم، وينبذوا شركهم، وما ينفع بآيات الله تعالى وهداه إلاّ أولو الألباب، ومن أصرّ على كفره بعد كلّ هذه الدلائل والمواعظ عنادا ومكابرة فقد حقّ عليه العذاب وما أعجب ما يفعل الجاهل بنفسه!



رقمها	سـورة فصّلـت	آياتها
41	ــ مكيّة ــ	54

سمّيت هذه السورة بسورة "فُصِّلَتۡ" لافتتاحها بقوله تعالى : ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وتسمّى في كتب السُّنَنِ: (حم السّجدة)، وهي سورة مكية من سور "الحواميم".

ومواضيع السورة في العقيدة كشأن السور المكية. من أهمّ مواضيعها: التّنويه بالقرآن وأهميته، وقد جاء هذا العنصر في ثلاثة مواضع مختلفة، والتّذكير ببشرية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وعرضت زمن خلق السماوات والأرض وتقدير أقوات المخلوقات، وفيها تبشير من آمن بالله واِستقام بخير كثير، وفي المقابل ذكّرت بمصير الأمم السالفة من أمم الكفر للاعتبار ولإنذار المشركين ليهتدوا للحقّ، كما عرضت مشاهد من خصومات أهل الكفر يوم القيامة في جهنّم للحذر من سوء العاقبة، ولطلب النجاة من العذاب بالإخلاص في الإيمان بالتوحيد، وحذّرت من قرناء السوء، وذكّرت بإحياء الأرض لإثبات البعث، كما حذّرت من جحود نِعم الله عزّ وجلّ، وفيها تخويف من شهادة السمع والأبصار والجلود على النّاس يوم الحساب لإدراك شدّة هوله.

- حمٓ (1) تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (2) كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (3) :

حم، هذا القرآن منزل من لدن الله الرّحمان الرّحيم (وقد سبق تفصيل الفرق بين اِسمه تعالى الرّحمان وصفته العُليا الرّحيم في سورة الفاتحة)، وعموما فهذا التنزيل من رحمة الله تعالى بعباده، فمن تداوله بالقراءة والتدبّر ثمّ عمل به فإنّه منتفع برحمة الله عزّ وجلّ. وهو كتاب قد تنوّعت آياته في بيان معانيه وأغراضه ومقاصده ومواعظه ووُضّحت وبيّنت لقوم يفهمون ويدركون أنّ هذا القرآن من عند الله تعالى ويدركون أنّه كتاب هدى وإرشاد للخير وللفضائل في الدين والأخلاق وللاستقامة على الحقّ والصراط المُستقيم، وآياته توضّح الباطل ودلائل الضلالات وتكشفها للحذر منها. وقد جاء عربيّا بلغة العرب وبلسانهم تشريفا لهم وليتيسّر لهم فهمه وتدبّره، وليعرفوا إعجازه ليؤمنوا بأنّه من عند ربّهم، ويستحيل أن يكون من قول البشر.

- بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ (4) :

وقد جاءهم ليبشّر المؤمنين به والعاملين بأحكامه والمتّعظين بمواعظه والواقفين عند حدوده والمنتهين عن نهيه بالنّعيم في آخرتهم وبأمانهم من العذاب في دنياهم، وبالاستجابة لأدعيتهم، وبرفع ذكرهم. وفيه إنذار لمن أعرض عنه وعن العمل به وعن السماع له بالخسران في دنياه



وآخرته وسوء المآل. ولمّا جاء هذا الكتاب أهل قريش بمكة أعرضوا عن سماعه وسماع ما ينتفعون به. إنّ أوّل الطريق للعلم: السّمع، ومن عطّل سمعه عن المعرفة طمس بصيرته وأغلق على فهمه وعقله.

- وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (5) :

ولقد عبّر كفار مكة عن مقاطعتهم للاستجابة لدعوة الرسول لعبادة الله وحده وترك الشرك، وعن رفضهم لسماع ما يقرأه عليهم من القرآن ليتدبّروه ويعقلوه لأنّ قلوبهم مغلّفة ومحصّنة فلا يصل إليها شيء من قوله ومن وعظه وإنذاره، ولأنّ كلامه أو قراءته لا تبلغ مسامعهم ولا تدخلها لما فيها من صمم وثقل في السمع بما يدلّ على موقفهم المبدئي في رفض دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم لدين التّوحيد، وبما يدلّ على شدّة تمسّكهم بشركهم، وهذا لعمري من أشدّ مظاهر العناد والاستكبار. وحسموا أمرهم مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّ بينهم وبينه خلافا في الدّين، وسترا مانعا عن إجابته لدعوته، فله أن يدعو لإلاهه وهم عاملون بدينهم وباقون عليه، وداعون لآلتهم التي يعبدون وناصرون لها، وله أن يعمل لهلاكهم بما ينذرهم به، وهم عاملون في هلاكه. فهذا الموقف شاهد عليهم في كرههم للدعوة للإسلام، وشاهد على اِستكبارهم. وما أشدّ إنكارهم! وما أغرب تحدّيهم! وكذا يفعل بنفسه من عميت بصيرته.

- قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ (6) :

أبلغهم – يا محمد – بأنّك لا تملك لهم شيئا لتُسْمِعهم ما أصمّوا آذانهم عن سماعه، أو لتُجْبِرهم على دين لا يرتضونه، وبأنّك لا تملك قدرةً لتعذبّهم بما تنذرهم به، فما أنت إلاّ بشر مثلهم قد أوحي إليك من الله عزّ وجلّ بأنّه ليس لكم من إلاه إلاّ الله وهو واحد أحد، لا إلاه لكم غيره. فخيرٌ لكم أن تخصّوا الله الحقّ بالعبادة، وأن تخلصوا له في الطاعة، وأن تسيروا على هديه في الدين، وفي العمل بشرعه، واطلبوا مغفرته على ما فرط منكم في عبادة إلاه غيره ممّا تدعون باطلا وضلالا، واطلبوا عفوه في اِفترائكم عليه في نسبة الولد أو الشريك أو النّد له، وهو تعالى لا شريك له، ولا صاحبة له ولا ولد، اِستغفروه من معاصيكم ومن الكذب عليه. واحذروا من الشرك، فللمشركين مآل سيّء وعاقبة مهلكة. اِقتصرت دعوة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في هذه الآية على أمرين: الاستقامة على دين الله تعالى، والمداومة على الاستغفار. وحذّرت من أمر واحد: الشّرك، وهذا يدلّ على التّدرّج في الترغيب في هذا الدين. وما أعجب إلاّ من بعض الدعاة الذين يريدون أن يحملوا النّاس على دين الله تعالى بالتّرهيب مع المبالغة فيه، أو بالإرهاب العنيف!

- **ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ (7) :**

هذه صفة للمشركين المنذرين بالويل، إنّهم يتّصفون بصفتين هامّتين: الأولى أنّهم يمتنعون عن مواساة الفقراء والمستضعفين والمحتاجين اِحتقارا، ومن جشعهم وحبّهم للمال حبّا جمّا. والثانية: أنّهم يكذّبون بالآخرة: أي بالبعث وبالحساب للجزاء أو العقاب. هم في عبادتهم يكذبون على الله تعالى في وحدانيته بادّعائهم نسبة الشريك له، وفيما أنزله الله تعالى إليهم من الهدى والإرشاد يُكَذِّبون. هم يكذِّبون ويُكذِبُون.

- **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ (8) :**

هذه في تبشير المؤمنين الصادقين في توحيد الله تعالى في العبادة والطاعة، والعاملين في إخلاص أعمال البرّ في دعائهم وتسبيحهم وإحسانهم وفي الانضباط لشرع الله تعالى فيما أمر به وفيما نهى عنه، يبشّرهم الله تعالى بأن يُؤْجِرَهم على الصالحات من أعمالهم بحسن الثواب، وبالتّكريم، وبِهِبَتِهِمْ كلّ ما يشتهون من الخيرات بدون اِنقطاع.

- **قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (9) :**

هذه مع الآيات الثلاث الموالية في خلق الله تعالى للسماء والأرض، واِنفراده بذلك، فلم يشاركه أحد في هذا الخلق ولا في تدبير سيرها ولا في تقدير أقوات الخلق ولم يشاركه أحد في التّقدير، فهذه من دلائل التّوحيد، وهي الدلائل التي تعرّف بالله الحق: واجد الوجود، والموجود فعلا بدليل آيات الموجودات، والموجود حقّا بدليل إنزال أخبار خلقه للوجود. والموجودات دالّة على الواجد، ذلك ربّ العالمين. وما يكذّب به إلاّ الجاحدون، أو المعاندون، أو المعتدون على حقّ الله في توحيده، والاستفهام في أول هذه الآي (قُلۡ أَئِنَّكُمۡ) للتعجّب من كفر من ينكر خلق الله للأرض وللسماوات ولتقدير الأقوات، وهو تعجّب من تعطيل العقل ومن عمى البصيرة ومن شدّة الكفر والإنكار عنادا.

والمعنى: قل – يا أيّها الإنسان العاقل – للّذين يقدّسون الأصنام الجمادات: أليس من العجب في أمركم أن ترفضوا الإيمان بالله الذي خلق الأرض التي تعيشون عليها بعظيم قدرته في زمنين، وتجعلون لله الخالق المبدع شركاء في الخلق، وأنتم الذين صنعتموها بأيديكم من مادّة الأرض ونَحَتُّمُوهَا بأيديكم وبأدوات النحت والصناعة عندكم، ثمّ تجعلونها أندادا لله الخالق تؤلّهونها وتقدّسونها!

الله خالق الأرض هو ربّكم، لا إلاه لكم غيره، وهو ربّ العالمين، ربّ الوجود كلّه، ربّ المخلوقات كلّها في الوجود كلّه، هو ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين وجميع من يُخلق من بعدكم إلى يوم الدّين.



ومن الخطإ الذي لا يقبله عالم، ولا عاقل، ولا نبيه أن يحسب اليوم عند الله بحساب اليوم من أيامنا على الأرض، ذلك لأنّ الله تعالى لا يحيطه زمان ولا مكان، ولأنّ الآية تتحدّث عن خلق الأرض وقد خلقت كما ستبيّن الآيات الموالية قبل السماوات وما في السماوات من كواكب ومجرّات التي منها الشمس، فما كان وقتها دوران للأرض حول الشمس ولا زمن، ثمّ إنّه تعالى قد أخبرنا في (السجدة الآية 5) أنّ اليوم عنده يقدّر بألف سنة ممّا نعدّ نحن البشر، قال تعالى (يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ) وقال تعالى (تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ) في(المعارج الآية 4). فالمستفاد من الآيتين أنّ "اليوم" عند الله تعالى يعني "زمنا". والزّمن هذا قد يكون بتقديرنا ألف سنة، أو خمسين ألف سنة، أو مليون سنة أو أكثر على ما يقوله علماء الطبيعة الّذين يتحدّثون في خلق الكواكب والمجرّات. هو تعالى المتحكّم في الزّمن، والزّمن عند الله عزّ وجلّ لا يطول ولا يقصر ولا يحدّ لأنّه تعالى هو الذي يحدّده كيفما يشاء، وخارج عن التّقدير. لذا فمن الخطإ أن نصدّق قول من يقول إنّه تعالى خلق الأرض يومي الإثنين والثلاثاء، وقدّر الأقوات يومي الأربعاء والخميس، وخلق السّماوات يومي الجمعة والسبت. هذا قول مردود، لا يقبله عقل ولا يصدّقه العلم ولا النّبيه. وإنّ من الحقائق العلمية أنّ كوكبا في المجموعة الشمسيّة تستغرق دورته الكاملة الواحدة حول الشمس مدّة ستّ وعشرين سنة من حساب سنواتنا على الأرض، وما هي إلاّ سنة واحدة على ذاك الكوكب، فوجب الاحتراز من قول ليس فيه إثبات، والمهمّ أن نعلم أنّ خلق الأرض قد تمّ في "وقْتَين". والله أعلم بمقدار هذا الوقت وبمقدار السنوات في حياتنا على الأرض. وعلينا أن نعلم أنّ الله تعالى لا يعجزه شيء في ما يشاء خَلْقَهُ، وفي الجاهلية لم يكن عند المشركين حساب للتّاريخ ولا للزمن ولا للسنوات. "فاليوم" هو "زَمَنٌ".

- وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ **(10) :**

وخلق في الأرض جبالا ثابتة مغروسة فيها ومرتفعة فوق سطحها اِرتفاعا عظيما حتى لا تتمايل الأرض بمن عليها فوق سطحها، وجعل هذه الأرض مباركة كثيرة الخيرات ودائمة العطاء والمنافع، وجعل خيراتها تتجدّد ولا تنقطع على مدى اِستمرار وجود الكائنات الحيّة على ظهرها. من خيرات الأرض ما هو للطعام والشراب لضمان الحياة، ومنها ما هو مدّخر في باطنها صالح للعمل والصناعة والبناء، ومنها ما يُتّخذ للزينة، وأسرار هذه المباركة يعلم بعضها علماء الطبيعة وعلماء الأحياء المختصّون. (وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا) وجعل فيها خصائص لتوفير الغذاء لجميع المخلوقات الأحياء على سطحها في كلّ زمن ولكلّ جيل على عادته في الطعام وبحسب ذوقه ورغبته، فالأجيال تختلف من جيل إلى آخر في نمط طعامه ومذاقه. قد قدّر الله تعالى كلّ هذا

وخلقه وضبط أمره قبل أن يخلق الكائنات على وجه الأرض في يومين أي في زمنين، فتمّ بهذا الخلق مع ما كان من خلق الأرض في يومين قضاء أربعة أيام سواء لإيجادها على نحو ما هي عليه. اليومان اللذان ورد ذكرهما في الآية السابقة من جملة أربعة أيّام التي ورد ذكرها في هذه الآية، وهذا ليعرف السائلون عن خلق الأرض كيف تمّ تدبير إيجادها.

- **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ(11):**

ثمّ توجّهت إرادته إلى السماء، وقد كانت شبيهة بالدخان لأنّها كانت فضاء مظلما غير متماسك، فأمر تعالى هذا الفضاء والأرض معه لأن يفعلا ما قضى فيهما مستجيبين للأمر طوعا أو مُكْرَهين على ذلك، فاستجابت السماء والأرض لأمر الله عزّ وجلّ طوعا.

- **فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (12) :**

فصَيَّرَهنَّ بعد تمام خلقهن سبع سماوات، وقد تمّ هذا الخلق والتكوين والصيرورة في زمنين، والله أعلم بمقدار زمن كلّ يوم بحساب أهل الدنيا. (وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا) أي وقدّر لكلّ سماء أمرها: أهميتها ودورها ومجرّاتها وكواكبها وقوامها، وهيّأ لها وجوه النّفع بوجودها ووجود الكواكب التي فيها. وخصّ السماء الدنيا بكواكب متلألئة، وخصّها بحفظ الأرض ومن عليها من الآفات النازلة منها، وجعلها سقفا محفوظا لها. وهذا كلّه من تقدير العظيم الذي لا يبلغه شيء، وهو كثير العلم بما يصلح لعباده ولكلّ الموجودات العلم الدقيق. (وأنظر كتابنا تنوير المستنير ج ص 420-425 لمزيد التعمّق في بيان معاني هذه الآيات).

- **فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) :**

هذه إلى الآية 18 في تحذير مشركي مكة من الشرك ومن الإعراض عن عبادة ربّهم الحقّ حتى لا يصيبهم عذاب بمثل ما أصاب المشركين المكذّبين من قبلهم. والمعنى: فإن أعرض مشركو مكة عن النّظر في الآيات الكونية ودلائلها وعن السماع لهذا القرآن وتدبّر آياته فنبّههم – يا مُجَّد – بأنّك إنّما تحذرّهم من عذاب فجئي يصيبهم بمثل العذاب الذي أصاب قوم عاد وقوم ثمود من قبلهم، أصابتهم صاعقة شديدة من السماء أهلكتهم وخرّبت بيوتهم وقُراهم.

- **إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (14) :**

وأذكر إذ أرسلنا لأولئك الأقوام رسلا (مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) لهم ولآبائهم لإرشادهم لعبادة الله الواحد الأحد حتى لا يشركوا به أحدا، وحاولوا معهم بكلّ وسيلة، وبكلّ منطق، فلم



يصدّقوهم بدعوى أنّهم بشر مثلهم، وظنّوا أنّ رسل الله لا يكونوا إلاّ ملائكة، وكفروا بما جاؤوهم به من عقيدة التوحيد ونبذ الشرك.

- فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ **(15)** :

فأمّا عاد الذي أرسل إليهم (هود) عليه السلام فقد اِغترّوا بقوّتهم وقوّة بنيانهم وكثرة أرزاقهم وكثرة عددهم، وبالغوا في الكِبْر والتّعاظم على طاعة الله (بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ) عنادا بغير دليل ولا حجّة، ولمّا أنذرهم رسولهم من عذاب الله ووعيده قالوا: من يقدر علينا ونحن الأشدّ قوّة والأشدّ بطشا، ولم يكونوا يقدّرون الله تعالى حقّ قدره، ولو آمنوا لعرفوا عظيم قدرة الله تعالى ولعلموا أنّ الله تعالى الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة وبطشا وأنّه تعالى قادر على أخذهم بمثل ما قدر على إنشائهم وإيجادهم، ولكنّهم كانوا بدلائل قدرة الله تعالى وبمعجزاته ناكرين، فلم يقنعهم شيء.

- فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ **(16)** :

فلمّا كذّبوا رسولهم، واستكبروا عن الإيمان بربّهم، وكذّبوا بآيات الله تعالى، واِغترّوا بقوّتهم ولم يخشوا ربّهم أرسل الله تعالى ريحا باردة شديدة الصوت والنّفخ وإثارة الأتربة وقويّة الهبوب تقلع الأشجار وتهدّ الحيطان وتوقع الأسقف اِستمرّت أيّاما دون توقّف، فكانت أيّاما مشؤومة عليهم حبستهم في ديارهم في جوعهم ونقص من الماء وفي برودة شديدة وصوت مزعج وهبوب مثير للغبار والتراب فذاقوا فيها عذابا قهرهم وأذلّهم وخوّفهم وأزعجهم وأعمى أبصارهم وأوصد عليهم الأبواب وقطع عنهم الهواء وعطّلهم عن أعمالهم إلى أن هلكوا بردمهم تحت أنقاض بيوتهم، هذا عذابهم في دنياهم، وينتظرهم عذاب أشد إيلاما وخزيا وإذلالا في آخرتهم، ولن يجدوا شفعاء ليُنقذوهم من عذاب الآخرة، بمثل ما اِفتقدوهم في دنياهم.

- وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ **(17)** :

وأمّا قوم ثمود فأرسل إليهم الله تعالى أخاهم صالحا لهديهم للإيمان الحقّ، لنبذ الشّرك وللإيمان بالله وحده وطاعته، فقابلوا دعوته بالصدّ والرّفض، وآثروا عليها المداومة في عماهم في عبادة الأصنام وفضّلوا الضلالة على الهدى، وعقروا النّاقة التي جاءتهم اِستجابة لطلبهم معجزة حسيّة ليصدّقوا رسولهم وليتّبعوا دعوته، فأهلكهم الله تعالى بإنزال صاعقة نارية عليهم أحرقتهم بنارها وبقوّة صوتها، وذُلّوا بهذه الصاعقة التي لم يجدوا منها ملجأ ولا مهربا ولا حيلة للنجاة منها



فسقطوا هلكى ودمّرت بيوتهم بالصوت وبالنّار بسبب تكذيبهم لرسولهم وعقر النّاقة وبسبب اِختيارهم المعصية على الهدى، والشرك على الإيمان بالله وحده.

- وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (18) :

وأمّا الذين آمنوا من تلك الأقوام فقد أنجاهم الله تعالى من العذاب، أخرجهم من ديارهم إلى أرض آمنة قبل حلول العذاب بديار المكذّبين جزاء خشيتهم من ربّهم ومن عذابه.

- وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ (19) :

هذه إلى الآية 24 في مشهد من مشاهد الموقف للحساب، وقد جاء للإنذار من شدّته على الكافرين والمكذّبين والمستهزئين، فيومه على هؤلاء عسير، وغير يسير لأنّ الشهود الناطقة بمعاصيهم في ذاك الموقف ستكون من ذواتهم. ستشهد عليهم جوارحهم وجلودهم، وعندئذ لا يستطيعون التبرّؤ ممّا سجّل عليهم في صحفهم. والمعنى: وذكّر أعداء الله بيوم يجمعون فيه جمعا لسوقهم إلى النّار سوقا ودفعا لحشرهم في النّار حشرا دون أن يفلت منهم أحد، ويلقون فيها إلقاءً مهينا.

- حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (20) :

في هذه الآية تقديم وتأخير، وهذا من بعض أساليب البيان وأساليب البلاغة في القرآن، والسياق يدلّ على ما قُدّم وما أخّر، وتقديره: ولقد سئلوا عن أفعالهم من الكفر والشّرك ومن تكذيب بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم وبما جاءهم به الكتاب، ومن الهزء بالبعث وبالوعد وبالوعيد، فلمّا تبرّؤوا ممّا اِستُنْطِقُوا فيه، وأنكروا بعضهم أنطق الله تعالى سمعهم وأبصارهم وجلودهم فشهدوا عليهم، وشهدوا على معاصيهم وكذّبوهم في تبرّؤهم منها فأبكتوهم، فلمّا دخل أعداء الله إلى النّار توجّهوا باللوم والتأنيب لسمعهم وأبصارهم وجلودهم لشهادتهم عليهم بما كانوا يعملون، وبما كانوا يقولون فَوَرَّطُوهم. وقد جاء قوله تعالى (ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا)(الإسراء الآية 14) فما أشدّ الحساب والاستنطاق على عاصٍ حين تكون نفسه عليه هي الشاهدة!

- وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (21) :

وقالوا لجلودهم وهي تحرق عليهم لتعذيبهم وإيلامهم قول اللائم المؤنّب: كيف تشهدون (عَلَيۡنَا) أي ضدّنا، فتجيبهم جلودهم: لقد أنطقنا الله بقدرته سبحانه، (وكيفية هذا النطق وهيئته غير معروفة ولا معلومة عندنا)، فهو سبحانه وتعالى ينطق كلّ شيء، وهو الذي خلقكم من عدمٍ من قبلُ، وإلى الله ترجعون، وهذه للموعظة وللإنذار، فمن كفر بالبعث وبيوم الرجوع إلى الله للحساب فمسكين حقّا وهو الخاسر حقّا لحياته يوم تباغته مفاجأة البعث.



• وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ (22) :

وهذه لردّ التأنيب على أصحابهم، وهي أيضا للتّوبيخ على سوء ظنّهم بالله تعالى، وعلى جهلهم به جلّ وعلا، والمعنى: وما كنتم تتخفَّوْن عند اِرتكاب المعاصي والفواحش، وما كنتم تستطيعون أن تستروا أنفسكم عن سمعكم، وعن أبصاركم، وعن جلودكم حينما تصمّون آذانكم عن سمع دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى الهدى وعن سماع كلام الله تعالى، وحين كنتم تغمزون بعيونكم وتلمزون لإيذاية المؤمنين وحين كنتم تأتون الفواحش، وما كنتم تعرفون قدرة ربّكم عليكم، فما قدّرتم وما توقّعتم، لجهلكم بربّكم – أن نشهد عليكم، وساء ظنّكم بالله تعالى فما كنتم تؤمنون بأنّ الله تعالى يعلم كثيرا ممّا تعملون، كنتم تظنّون أنّه لا يعلم شيئا ممّا تعملون فوقعتم في سوء ظنّكم بالله تعالى.

• وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (23) :

ذلكم إعتقادكم الخاطئ بالله عزّ وجلّ: ظننتم أنّه لا يعلم كثيرا ممّا تعملون ممّا تستترون به، وما كان أعظم خطأكم من سوء إعتقادكم! هو تعالى أماتكم، وهو الذي أحياكم ليحاسبكم، وتبيّن لكم أنّه عليم بما أخفيتم وأعلنتم وأشهد عليكم أنفسكم، أنطق سمعكم وأبصاركم وجلودكم فأصبحتم بسوء معتقدكم من الخاسرين لحياتكم إذ ساءت عاقبتكم، فحُشرتم في النّار في مهانة وذلّة وحسرة.

• فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ (24) :

فإن يرضوا بعاقبتهم في النّار فليصبروا وليحتملوا البقاء في مسكنهم في جهنّم وإن لم يصبروا على عذاب النّار ولم يطيقوها وجزعوا فالنّار مثوى لهم أيضا، وليندبوا على أنفسهم، وإنْ يطلبوا زوال العتاب والرّحمة، والرّجعة إلى الذي يحبّون من تخفيف العذاب عنهم فإنّ طلبهم غير مجاب، ولن يزول عنهم العذاب.

• وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ (25) :

هذه في صحبة قرناء السوء ومآلها. والمعنى: وهيّأنا للعصاة وأهل الفواحش أصحابا ملازمين لهم من أصحاب السوء ومن نظرائهم ممن يزيّنون كلّ معصية، ولا يرشدون لخير، فزيّنوا لهم أعمالهم الفاسدة في دنياهم، وشجّعوهم على التكذيب بـ (وَمَا خَلۡفَهُمۡ) بالآخرة، وجعلوهم يغفلون عنها، ويهزؤون بالوعيد، فوجب عليهم تَبَعًا لفساد أعمالهم ولتكذيبهم بآخرتهم عذاب الله تعالى وعقابه بمثل ما عوقب به سابقوهم من الأمم السالفة من الجنّ والإنس من أهل الكفر والإفساد في الأرض. إنّهم قوم خاسرون لآخرتهم، وقد كانوا من الخاسرين لحياتهم الدنيويّة بسبب فساد أعمالهم.



• وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ **(26) :**

هذه من أجلى المظاهر وضوحا في صدّ مشركي مكة النّاس عن سماع القرآن باعتماد التشويش على قارئه ليختلط عليه ما يقول، ولمعارضته بصوت أرفع من صوته فلا يبلّغ سامعيه شيئا منه، وقد وَرَدَتْ الآيات الموالية إلى الآية 29 في وعيدهم. والمعنى: ويقول مشركو مكة – وخاصة زعماؤهم وسادتهم – لأتباعهم لا تجلسوا في المجالس التي يُقرأ فيها هذا القرآن، وإذا سمعتم أحدا يقرأ منه فلا تسمعوا له ولا تقفوا عنده. وإذا وجدتم مجلسا يقرأ فيه هذا القرآن فصيحوا في وجهه حتى لا يُفهم ما يقول، وارفعوا أصواتكم بالصفير، وبالتصفيق، وأكثروا الكلام ليختلط على القارئ ما يقول، وعارضوه بكلام لا يفهم، وأنشدوا الشعر والأراجيز حتى تغلب أصواتكم على قراءته فينفضّ المجلس.

وقد جاء في أمر الله تعالى للمؤمنين (وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ)(الأعراف الآية 204) والإنصات كما تقدّم بيانه هو لزوم السكوت للإصغاء قصد فهم ما يقرأ منه، ولذا كان لزاما على المصلّي أن ينصت للإمام في صلاته الجهرية، فلا يقرأ معه. ومن السّنّة حسن الإنصات عند سماع خطبة الجمعة للتذكّر وللإنصات للشاهد من كلام الله تعالى لتدبّره، وجاء فيها النّهي عن اللّغو والإمام يخطب.

وعملا بهذه الآية التي تستنكر رفع الصوت بالحديث واللّغو عند سماع قراءة القرآن، والإعراض عن السماع له، وعملا بآية الأعراف التي توجب على المؤمن الإنصات للقرآن إذا قرئ عليه فإنّه يجدر بالقائمين على شؤون بيوت الله أن يحتكموا إليها عند تمرير تسجيل صوتي لقارئ للقرآن عبر مصدح لمِئذنة بجامع في سوق، أو قرب مدرسة أو معهد، أو في حيّ صناعيّ أو حيّ تجاري، أو حيّ سكني، أو على طريق رئيسيّة مزدحمة بالمارّة، والنّاس عن السمع منشغلون بقضاء شؤونهم أو بأعمالهم، أو بسعيهم لحاجاتهم، فلا أحد منهم يتوقّف ليسمع لما يمرّر بالمصدح بالمئذنة من كلام الله عزّ وجلّ، ولا أحد ينصت، ولا أحد يصغي، والحال أنّ المِئذنة اسم مكان لرفع الأذان للصلاة، ولم تُبْنَ المئذنة لغير ذلك، وإنّ لقراءة القرآن آدابا، أو واجبات، أو شروطا يجب اِحترامها تقديسا لكلام الله عزّ وجل. ولتتوفّر للقارئ أو السامع فرصة لتدبّر ما يسمع وما يُتلى عليه. من يتحمّل إثم قوم عن السمع معرضين، وعن الإنصات منشغلين؟ العامل في مشغله، أم المرأة العاملة في بيتها، أو الماشي في الطريق.. إلخ. أم الذي تعمّد تمرير تسجيل صوتي لقارئ القرآن بمصدح في مئذنة في اِجتهاد خاطئ، خارج عن هذين النّصين باستعمال مئذنة أقيمت لرفع الأذان، ولم تُقَم لتسميع قراءة القرآن. لقد رجا مفتي مصر سابقا في فتوى صدرت له في (مجلة الأزهر)، وكذلك مفتي الديار التونسية في وقت سابق في

مجلة (الهداية) القائمين على شؤون بيوت الله أن يخصّصوا المآذن لما أقيمت له، وأن يحفظوا للقرآن الكريم قداسته عند تلاوته.

- فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ (27) :

هذا وعيد من الله تعالى للكافرين الذين يصدّون عن سبيل الله تعالى وعن السماع لكلامه. قضى تعالى أن يعذّبهم العذاب الشديد عمّا كانوا يعملون ليجزيهم به جزاء أكثر سوءًا ممّا كانوا يعملون وكانوا يقصدون.

- ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ (28) :

ما أعظم جرم هؤلاء، وما أعظم ذنبهم ممّا جعلهم يوصفون بأنّهم أعداء الله، ذلك لأنّهم كانوا يكرهون سماع كلامه تعالى، ويكرهون هديهُ، فحقّ عليهم أن يكونوا من أصحاب النّار يقيمون فيها الإقامة الدائمة التي لا مخرج لهم منها جزاء بما كانوا بآيات الله يكفرون ويكذّبون وينكرون.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ (29) :

ولمّا دخل المشوّشون على قراءة القرآن إلى جهنّم قالوا داعين الله عزّ وجلّ أن يمكنّهم من رؤية زعمائهم وساداتهم من الإنس الذين أرسلوهم للغو في القرآن عند قراءته، والجنّ الذين زيّنوا لهم أعمالهم، وأوحوا لهم بما كانوا يفعلون من الغناء والكلام والتّصفير والتصفيق للخلط على القارئ في قراءته لرفسهم بأقدامهم إذلالا لهم وإنتقاما منهم لأنّهم أضلّوهم، وكانوا سببا لهم في دخولهم لجهنّم وسببا في تعذيبهم، وليجعلوهم في أسفل نار جهنّم، المُستفاد من الآية أن هؤلاء الأتباع كانوا في منزلة من جهنّم، وأنّ أسيادهم كانوا في منزلة أخرى حسب ترتيبهم في درجة التّعذيب لذلك لم يَرَ الأتباع أسيادهم فطلبوا من الله عزّ وجلّ أن يريهم إيّاهم للتشفّي فيهم ولرغبتهم في مزيد التّنكيل بهم بإذلالهم برفسهم بأقدامهم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (30) :

هذه الآية إلى غاية الآية 36 في منزلة عباد الله تعالى المؤمنين بالله وحده والمستقيمين على دينه، وفيها بشائر كثيرة ترغيبا للنّاس في أن يكونوا أمثالهم في الإيمان والاستقامة في الدّين، وفيها مواعظ في تعاملهم مع الآخرين المختلفين معهم ليزدادوا رفعة وقدرا ومنزلة في الخلق النبيل الرّفيع. إنّها موعظة لمن شاء أن يكون عند الله تعالى ذا حظّ عظيم.

(إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ) إستعمال الفعل (قَالُوا) يدلّ على الإعلان عَلَنًا أمام الأشهاد، دون خوف، وعن قناعة أقرّوا إقرارا بألسنتهم بأنّ ربّهم الله، أقرّوا بالتّوحيد، وبأنّهم لا يشركون به أحدا، وصفت



بهذا الإقرار نفوسهم وآمنوا به قلْبِيًا، ثمّ (ٱسۡتَقَـٰمُوا) على دينه، لم يخالفوه فيما نهى عنه، واِجتنبوا ما حرّمه عليهم، وعملوا بما أوجبه عليهم، وانتهجوا في سلوكهم النّهج الذي رغّبهم فيه، وطمعوا فيما وعد به عباده المؤمنين من الأمن وإتيانهم فضله والإنعام عليهم بخيراته، واِستعاذوا به تعالى من غضبه وعذابه. من معنى هذه الآية نصح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سفيان الثقفي الذي سأله نصيحة في الدين لا يسأل أحدا عنها غيره فأجابه الرّسول بقوله صلّى الله عليه وسلّم: "قل آمنت بالله ثمّ اِستقم" (رواه مسلم في صحيحه).

هؤلاء المؤمنون المعتزّون بإيمانهم بربّهم الواحد الأحد دون سواه، والمستقيمون على دينه: طاعة وعبادة وطمعا في رحمته وخشية من عذابه (تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ) يفيد الفعل المزيد (تَتَنَزَّل) أنّ تنزيل الملائكة يكون بأمر الله تعالى لأنّه تعالى هو وحده الذي يأمر بتنزيلهم، ولمّا جاء بالمزيد فإنّه يفيد بأنّ التنزيل لا يكون دفعة واحدة بل يكون تنزيلا بعد تنزيل، فالتنزيل يكون فوجا بعد فوج، الفوج الأول لتبشيرهم بـ (أَلَّا تَخَافُواْ) من الموت وممّا سيلاقون بعد مماتهم، حتى إذا اِطمأنّوا لذلك وطابت به أنفسهم، واِرتاحوا لتقبّل آجالهم جاءهم الفوج الثاني لتبشيرهم بأن (لَا تَحۡزَنُواْ) على أولادهم فإنّ الله تعالى خليفتهم عليهم، وبأنْ لا يحزنوا على ذنوبهم فإنّ الله تعالى غافرها لهم، ثمّ ينزل عليهم الفوج الثّالث والأخير لتبشيرهم بمقاعدهم في الجنّة التي وعدهم الله تعالى بها في كتابه، وعلى لسان رسوله صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى في آخر سورة (القمر الآيتين 54-55) (إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقۡتَدِرِۭ). إن تنزيل الملائكة على عباد الله المؤمنين المستقيمين عند حضور آجالهم لطمأنتهم حتى لا يخافوا ممّا سيواجهونه وحتى لا يحزنوا عمّا خلّفوه وراءهم من زينة دنياهم: أزواجهم وذرّياتهم ومتاعهم، ثمّ لتبشيرهم بما وعدهم الله تعالى من الأمن والإنعام من أعظم الكرامات التي يكرم بها العباد في فترة مفارقة الأهل والدنيا وزينتها، ومن أعظم الرّجاء الذي يُرْتَجَى. وقد قيل في تنزيل الملائكة أنّهم ينزلون في مواقف ثلاثة: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث، والله أعلم بأيّ القولين أصوب؟ القول بتنزيلهم عند الاحتضار الذي ذهبتُ إليه كما ذهب إليه جمعٌ ممن سبقني بالتّفسير، أو بهذا القول الذي قال به بعضهم، ولم أطمئنّ لهذا القول الثاني لأنّ الملائكة لا تتنزّل عند البعث.

- **نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31) نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ (32) :**

القول للملائكة في هذه الآية. والمعنى: وتقول لهم الملائكة عند تنزّلهم عند اِحتضارهم: كنّا لكم حفظة في دنياكم وكذلك نكون لكم في آخرتكم. وستجدون في آخرتكم كلّ ما تشتهي أنفسكم من النّعيم ومن التكريم، وسيتوفّر لكم كلّ ما تطلبون، وما تتمنّوْن في خاطركم، وهذا من حسن



اِستضافتكم عند ربّكم عظيم الغفران وكثير المغفرة لعباده المؤمنين تكرّما منه تعالى وتفضّلا وإنعاما، وهو عطاء من رحمته تعالى وهو كثير الرّحمة بعباده المؤمنين يوم رجوعهم إليه سبحانه. فما أسعد المؤمنين المستقيمين على دينه بهذا التّشريف والتكريم!

- وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (33) :

وليس من أحد أحسن كلاما وموعظة وإرشادا من الذي يدعو النّاس إلى عبادة الله وحده وطاعته والعمل بشرعه، وقال إنّي على ملّة الإسلام في العقيدة وفي العمل بشرعه وبمبادئه وأخلاقه وفي الطاعات. وهذا ممّا يرفع مكانة الدعاة والوّعاظ والمعلّمين الذين يرغّبون النّاس في أن يكونوا على ملّة الإسلام: عقيدة وشريعة وسلوكا في المعاملات وفي تعاملهم مع إخوانهم في إحسان وصدق وإخلاص في القول وفي العمل، وكذلك الوالدين اللذين يربيّان أبناءهما على الصلاح وعلى ملّة الإسلام في الدّين والخُلق. من المدرّسين من يشذّ عن أداء رسالته التّعليمية في موضوعية، وفي تجرّد عن مبادئه المتفرّد بها عن تلامذته في الإلحاد والسخرية من المعتقد الديني ومن المقدّسات ومن العبادات. من أهمّ أغراض التّدريس تنوير العقول بالعلم والمعرفة في موضوعيّة، وغرسٍ للقيم الإنسانيّة النبيلة، واِحترام ذات كلّ فرد في المجتمع، صغيرا كان أو كبيرا، واِحترام توجّهه في حياته. أمثال هذا المدرّس يتَبَاهَوْن بأنّهم من أنصار التحرّر الفكري، ومن أنصار اِحترام حقوق الإنسان، ولكنّ ممارستهم في تشكيك تلامذتهم في معتقدهم في وجود الله تعالى، وفي تقديمهم رسولهم القدوة في صور كاريكاتورية ساخرة، وفي سخريتهم بوعيد الله تعالى ووعده ومن أخطر ما يدّعون أنّ التّديّن منبع للإرهاب وأصله. هذا هو الاعتداء الحقّ على حقّ الآخر في اختيار معتقده، وإنّ السخريّة من الآخر إعتداء على كرامته. إنّه عمل لا يمثّل حقّا ممّا يدّعون من الانتصار لحرية الفكر واِحترام حقوق الإنسان. يسيرون في منهجهم على عكس مبادئهم ويتعمّدون التّعسّف الفكري، وإبطان سوء النّية. كان هذا من أعمال أعداء الله ربّ العالمين عند ظهور الرّسل في الصدّ عن سبيل الله.

- وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ (34) :

هذه في إرشاد المؤمن للمبدإ الذي يجب أن يلتزمه في تعامله مع غيره إذا أساء إليه في القول أو في العمل والمعاملة. وقد بُدئت الآية بالتّذكير بأمر بديهي لا يجب تناسيه في علاقة المؤمنين ببعضهم، فإنّ الحسنة لا يمكن أن تكون في نفس الدّرجة في الحسن وفي الفضل وفي الشّرف والقدر مع السيّئة، شيئان متناقضان ومتقابلان، لا يستويان في القدر والمكانة والشرف، ولذا فإنّ الله عزّ وجلّ ينصح المؤمن بأن يقابل بحلمه من يجهل عليه، أو أن يصبر عند

الغضب على من نال منه بالسبّ أو التّعيير، أو بأن يعفو عن من أساء إليه في معاملة لم تكن جيّدة ولم تكن مقصودة. المؤمن مطالب بأن يكون حليما، صبورا، عفوا، متجاوزا عن الصغائر إذا أسيء إليه في قول أو عمل أو معاملة. وقد أشارت الآية إلى فضيلة التّعامل بها الخلق، فإنّه يذهب بالعداوة بين المؤمنين ويجعلهم أنصارا لبعض، وأصدقاء قريبين من بعض ومتلازمين. التّعامل بين المؤمنين لا يجب أن يكون فيه عنف ولا غلظة ولا شدّة ولا مقاطعة يجب أن يكون التعامل بينهم قائما على الصفح، والحلم، والإحسان. وبإفشاء السلام، وبالصبر عند الغضب، وبالتّجاوز عن أخطاء البعض خاصة إذا كانوا من الأقارب أو من الجيران أو من الإخوان في الدّين ينبني المجتمع الإسلامي على التعامل بالتي هي أحسن. والمتعاملون بالحسنى لا يتخاصمون ولا يتنازعون ولا يفسد عليهم شيطان أخوّتهم وتآلفهم وتعاونهم، وهذا هو المقصد من هذا الإرشاد الإلاهي.

- وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) :

وما يعطى هذا الخُلق، وهذه الخصلة في سلوكه مع غيره إلاّ الذي يمتلك نفسه عند الغضب، الحليم، المتسامح الذي لا يقدر الشيطان على إثارته، وما يكون على هذا الخلق في التّعامل بالحسنى ودفع السيّئة بالتي هي أحسن إلاّ من كان له نصيب وافر من خصال الخير، وصفات النُّبْلِ.

- وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (36) :

وهذا إرشاد ربّاني ثان للتغلّب على نزغات الشيطان، والنّزغات هي وساوس الشّيطان التي تدفع بالشخص للغضب وللثّورة على صاحبه، وربما للردّ عليه بعنفٍ أو بالسّباب ممّا يؤدّي إلى قطع حبل الوِدّ بينهما وإلى القطع بين الطرفين، وما تؤدّي هذه النّزغات بالشخص الذي لا يطردها عنه إلاّ بأن يوصف بسوء الطّبع، وبسوء الخلق، فيتجافى النّاس عنه، ويستبعدونه عن مجالسهم وعن مخالطته. والمؤمن مدعوّ لأن يعمل بهذا الإرشاد الربّاني فكلّما ألقى الشّيطان في نفسه وساوسه ليثير غضبه إستعان بالله السّميع العليم، وإستجار به، وإعتصم به ليطرد الشّيطان عنه، وذلك بالاستعاذة بالله من الشيطان الرّجيم متوسّلا إليه بأنّه سبحانه هو السّميع العليم بما يجري في نفسه ومن حوله.

- وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) :

هذه الآية مع الآيتين المواليتين في التّذكير بآيتين من آيات الله في القدرة وذلك للحذر من الاستكبار عن السّجود للخالق، وللحذر من الشرك. والمعنى: ومن دلائل خلق الله تعالى وحسن



تقديره وحكمته في التّدبير، وانفراده بذلك خلق الليل لتسكنوا إليه وجعل لكم النّهار معاشا ومضيئا لتسعوْا فيه لأعمالكم وكوّر الليل على النّهار وكوّر النّهار على الليل من حكمته في التّدبير. وجعل لكم الشّمس لتنتفعوا بمنافعها ولتعرفوا بها عظيم خلق ربّكم، وعظيم إنعامه عليكم، وجعل لكم القمر لتأنسوا به عند الظلمة ولتعلموا عدد السنين والحساب، فلا تسجدوا للشمس وللقمر وأسجدوا للذي خلقهما وللذي خلق الليل والنّهار وهو الله إن كنتم تخصّونه وحده بعبادتكم، وإن كنتم لا تشركون به أحدا من مخلوقاته.

- فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ (38) :

فإنْ اِستكبر بعضهم عن عبادة الله وحده، وتخصيصه بالتّقديس والسجود له والطاعة فالله تعالى غنيّ عنهم جميعا لأنّ ملائكته لا يملّون من الصلاة لله سبحانه، ولا يملّون من التسبيح بحمده وقدسه لتنزيهه عن كلّ شرك وعن كلّ نقص، وهذا على اِمتداد الزمن بالليل والنّهار دون فتور، ولا ملل، وهذه الآية موضع سجود التلاوة عند جميع الفقهاء اِمتثالا لأمره : (وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ) في الآية السابقة، وللتّشبّه بعمل الملائكة عليهم السلام.

- وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (39) :

ومن دلائل قدرته سبحانه تحويل الأرض الجدباء الساكنة التي لا نبات فيها ولا شجر إلى أرض منتفشة، منتفخة عالية وحيّة إذا أنزل عليها الماء من السماء، ثمّ تنبت من كلّ الخيرات من الزرع والشجر وإخراج الثمر. إنّ الذي أحيا هذه الأرض فجعلها خصبة بعد جدبها ومماتها قادر على إحياء الموتى وبعثهم إلى الوجود لأنّه تعالى لا يعجزه شيء، وهو على هذا الإحياء عظيم القدرة.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ (40) :

هذه إلى الآية 46 في التّنويه بتنزيل القرآن الكريم على العرب بلغتهم، وفي فضيلته، وفي أنّه محفوظ من التّحريف، وفي وعيد أهل الكتاب الذين يلحدون في آيات الله تعالى. والمعنى: الإلحاد، هو الميل والعدول عن الحقّ إلى الباطل، ومن ألحد في الدّين فقد مال عن الدين الحقّ إلى الشّرك، أو عدل عنه فأنكره. وأمّا الذين يلحدون في آيات الله تعالى فهم الذين ينكرون القول بأنّ القرآن من عند الله، فهو عندهم قول مفترًى على الله، أو هو شعر أو سحر، أو قول محمد من عنده، وهم الذين يميلون عن الحقّ في أدلّة الله في الخلق والقدرة كقول بعضهم بالدهرية، وإنكار البعث، ومنهم الهازئون بالوعيد، أو يُؤَوّلونها على مذاهبهم فيحرّفون معانيها الحقيقية والمكذّبون



بالرّسل وبالمعجزات. الذين يلحدون في آيات الله تعالى – أيّا كانت– لا يخفون على الله عزّ وجلّ، هو عليم بهم، وبما يمكرون، وبما يقولون ويوم القيامة حين يقوم العباد للحساب سيعرف الجميع أيّ الفريقين أسعد بمقامه ومأواه: فريق الذي يُرمى على وجهه في النّار، أم فريق الذي يتقدّم للحساب آمنا غير خائف من الخزي ومن إلقائه على وجهه في النّار؟ (ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ) جملة للتحذير والتّهديد، إعملوا ما شئتم من صدّ النّاس عن دين الله وقولوا ما شئتم في آيات الله تعالى، فإنّكم لن تبلغوا بأعمالكم شيئا، وستذهب جهودكم أدراج الرّياح، وتظلّ مواقفكم وأقوالكم وأعمالكم مسجّلة عليكم لتحاسبوا عليها سوءِ الحساب، فالله تعالى بصير بما عملتم وعليم بما كنتم تفعلون وبما كنتم تقولون.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ (41) :

(ألذِّكر) في هذه الآية اِسم من أسماء القرآن الكريم. الجملة الإسميّة التي بدئت بها الآية لم يذكر خبرها، وتقديره معلوم من السياق، فإنّ الذين كفروا بالقرآن وكذّبوا به سيعاقبون على كفرهم، ولقد جاءهم لهداهم، ليهتدوا به والذين كفروا به فقد خسروا أنفسهم لأنّهم لم ينتفعوا به، وهذا من حماقتهم وعنادهم. وإنّ هذا القرآن (عَزِيز) أي عظيم القدر، والمكانة، والشرف، لا يقدر أحد أن يأتي بمثله في لغته وفي مواعظه وهديه، وهو منيع من أن يحرّف لأنّه محفوظ بعناية الله عزّ وجلّ، لا يتطرّق إليه الباطل، وهو كريم عند الله تعالى.

- لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ (42) :

إنّ هذا الكتاب محفوظ بعناية الله عزّ وجلّ فلا يُصيبه التّحريف والتّبديل بالباطل بنقص شيءِ منه، أو بإلحاق ما ليس منه فيه. هذا الكتاب تنزيل من عند الله الحكيم الذي يحسن التّدبير لكلّ أمر، والعليم بما يصلح لعباده وبما يحقّق مصالحهم، وهو كتاب مشتمل على الحكمة لأنّه من تنزيل الحكيم، وهو من الحميد الذي يستحقّ من عباده حمده تعالى لأنّه أنزل عليهم كتابا يدلّهم على ما فيه خير لهم، ويحذّرهم ممّا هو شرّ لهم، وفيه هلاكهم، فيه ما يدلّهم إلى طريق رحمته ورضوانه لينعموا بنِعَمِه، وفيه ما يعرّفهم بالباطل ليجتنبوه.

- مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ (43) :

إنّ ما يوحى إليك – يا محمد – هو بمثل ما أوحي إلى الرّسل من قبلك، أن تكون بشيرا لكلّ من تاب عن معاصيه وثاب إلى رُشده فأناب إلى ربّه فعبده واِستقام على دينه وعلى طاعته بأنّ الله تعالى ذو مغفرة: يتجاوز عن إساءة المسيئين إذا تابوا، لا يؤاخذهم عليها. ولقد أوحي إليك كما أوحي إليهم بأنّ الله تعالى ذو عقاب أليم لمن كفر بربّه، وجحد نِعَمَه، وأصرّ على معصيته، وأنكر وعيده أو اِستخفّ به.

- وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (44) :

هذه في الدلالة على سوء تقدير العرب للفضل الذي نالهم من ربّهم بإنزال كتابه عليهم بلغتهم ليتيسّر عليهم تدبّره، وليعرفوا به سبيلهم إلى الدين الحقّ، وليعتزّوا بشرف تنزيل كلام الله بلغتهم، وليسرّوا بأنّهم نافسوا غيرهم إذ جعلهم الله عزّ وجلّ أهل كتاب، وأمّة رسول، فلمّا جاءهم أعرض بعضهم عنه، وأصمّوا آذانهم عن سماع ما أنزل إليهم، وكفروا به وكذّبوا بما نزل، ورموا رسولهم بالافتراء على الله، فما أحمقهم! وما أجهلهم بفضل ربّهم عليهم! فماذا كان أمرهم لو نزل عليهم هذا الكتاب بغير لغتهم وجاءهم بلسان أعجميّ؟ أليس من المفروض عليهم أن يكونوا عبادا شاكرين، معتزّين بفضل الله عليهم، ولكنّهم قوم صمّ عمي فهم لا يعقلون. والمعنى: ولو أنزلنا هذا القرآن بلغة أعجميّة على العرب لا يفهمونها لقالوا: هلاّ بُيِّنَتْ لنا آياته بلسان نعرفه ونفهمه، أيكون الوحي القرآني بلغة العجم والرّسول عربي، والمرسل إليهم عرب لسانهم عربيّ غير أعجمي؟ ولقد نزل عليهم القرآن بلسان عربيّ مُبين، فمنهم من آمن، فكان لهم هذا القرآن هاديا لهم للرّشد وللدّين الحقّ وللصراط المستقيم في الإيمان بربّهم: الله الواحد الأحد، وفي عبادته وحده وفي طاعته، ومنقذا لهم من الضلالة ومن الشّرك ومن سوء العاقبة في الآخرة، وكان لهم شفاء لصدورهم من الشّكّ والشّبهة، يرفع عنهم الالتباس في العبادة والدعاء، وفي الهدى لأفضل الأعمال والأخلاق. وأمّا الّذين كذّبوا به فإنّ صوت قارئه عليهم ينزل على مسامعهم كالدّويّ وكالرّصاص الثقيل الذي يصمّ الآذان، وإنّ أبصارهم تعمى عن إبصار دلائل الحقّ وآيات الله الكونية الدالّة على وجوده وعظيم قدرته وعلى وحدانيته وعلى بطلان شركهم. مَثَلُهم في هذا مَثَلُ من يُنادى عليه من بعيد لينقذ نفسه من مهلك أمامه في طريقه فلا يسمع صوت مناديه، وهو أعمى لا يرى الحفر التي سيسقط فيها في مسيره. وكان هذا مثلا عند العرب فقد كانوا يقولون في من لا يريد أن يسمع وفي الذي لا يستجيب للدعوة: يُنادى من مكان بعيد.

- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (45) :

هذه لتسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أن ما يلاقيه من صدّ عنه ومن تشكيك في صدقه قد لقي مثله موسى عليه السلام، فقد أنزل على موسى التّوراة، فعمل بالتوراة قوم، وأنكره قوم، فلا يحزنك – يا محمد – اِختلاف قومك في كتابك. ولولا أن قضى الله تعالى إمهال قومك، وبأن لا يعذّبهم وأنت فيهم لعجّل لهم العذاب لتكذيبهم بالتّنزيل، وبصدقك. وإنّ هؤلاء المكذّبين

لفي شكّ من القرآن شكّا شديد الرّيبة رغم الإعجاز البياني، ورغم الأدّلة والبراهين والبيّنات التي جاءت فيه.

- **مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (46) :**

هذه قاعدة عامّة في المحاسبة: من آمن بالله تعالى وأطاع أمره وعمل بشرعه فقد أفاد نفسه وأنقذها من ثقل السؤال وشدّة الحساب. ومن كفر وتمادى في معاصيه وكذّب بما جاءه به رسوله فقد أساء لنفسه وأضرّ بها، وأوقعها في المهلكة. والله سبحانه لا يظلم أحدا من العصاة المذنبين فإنّه لا يعاقبه إلاّ على قدر جرمه، ولا يجازي بالخير إلاّ من كان مؤمنا مستقيما على دينه. قال تعالى (وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا)(الكهف الآية 49).

- **إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ (47) :**

هذه إلى آخر السورة في تحذير المشركين من تبرّؤ آلهتهم من عبادتهم حين تقوم الساعة التي يشكّون في وقوعها ويكثر سؤالهم عنها لاستبعادهم حصولها، وفي تحذيرهم من جحود نعم الله تعالى عليهم. والمعنى: علم الساعة، وموعد حصولها من علم الله عزّ وجلّ، وليس لأحد من خلق الله دراية بها. قال تعالى (قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ)(الأعراف الآية 187). وفي إجابة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لجبريل عليه السلام حين سأله عنها قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل" (رواه الشيخان) ممّا يؤكّد على أنّ ليس لأحد من الخلق علم بموعد الساعة، فحتى الأنبياء عليهم السلام والملائكة المقرّبون وأمين الوحي لا يعرفون ما اِحتفظ الله تعالى بعلمه لذاته العلية. ومن سعة علم الله عزّ وجلّ وإحاطته بكلّ ما خَفِيَ فإنّه تعالى يعلم ما اِستتر في الأوعية التي تحمل الثمرات قبل ظهورها، وإنتاجها، ويعلم أجناس ما تحمل الحوامل في أرحامهنّ. ولا تَلِدُ والدة مولودها إلاّ بتقدير من الله عزّ وجلّ في تحديد أجل الولادة، وكيفية صحة الوالدة ووليدها عند الوضع. ويوم القيامة يُنادى على المشركين وآلهتهم التي كانوا يقدّسون وكانوا يزعمون في دنياهم أنّها آلهة شافعة لهم من كلّ عذاب ومن كلّ سوء، فتُحضر فتقول آلهتهم (ءَاذَنَّٰكَ) أي أقررنا وأعلمناك يا ربّنا – بأنّه لا أحد منّا يشهد في هذا اليوم على أنّ لك شريكا، إنّا نتبرّأ ممّا يقولون وممّا يدّعون. وهذه كقوله تعالى (تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ)(القصص الآية 63) وهذه في تبرّؤ شياطينهم من عبادتهم. وهذه الآية لتحذير المشركين من شركهم حتّى لا يفاجؤوا بتبرّؤ آلهتهم من عبادتهم لها، فإذا علموا هذا بما جاءهم من خبرهم ثمّ أصرّوا على شركهم فقد قامت عليهم الحجّة.

- **وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ(48) :**

وهكذا غاب عنهم شفعاؤهم بتبرّئها منهم ومن عبادتهم، وضاعت عنهم جهودهم في عبادتها ولتقديسها وتقديم القرابين لها في دنياهم، وعلموا وقتئذ أنّه ليس لهم مهرب ولا مفرّ من العذاب، وأنّه واقع بهم.

- **لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ (49) :**

لا يملّ الإنسان من طلب المال الكثير، والعافية، ومظاهر العزّ والترف، وإذا أصابه فقر أو مرض، أو شدّة وأزمة فهو شديد اليأس من فرج الله تعالى.

- **وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ(50):**

هذه في جحود الكافر لفضل ربّه عليه، وفي سوء معتقده في الآخرة. والمعنى: إن آتاه الله خيرا وغنًى بعد فقر، أو جاها بعد أن كان مغمورا، أو قوة وصحة بعد مرض وسقم فإنّه ينسب فضل ربّه إلى جهده ليجحد نعمة ربّه عليه، فيقول هذا من حسن تدبيري، ومن ثمرة تعبي وشقائي. ومن معتقده الفاسد في الآخرة أنّه يقول إذا قامت الساعة على سبيل الفرض فإنّي سأجد عند ربّي مقاما في الحسنى، وهذا من فرط غروره، وقد قال تعالى (كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ)(العلق الآيتين 6-7) هيهات فإنّ الله تعالى سيخبر الكافرين بما كانوا يقولون من معتقد فاسد ويحاسبهم عن جحودهم، وبما كانوا يعملون من مفاسد ومعاصٍ، وسيجازيهم بعذاب أليم وشديد، فالغلاظة تعني الشدّة.

- **وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ(51) :**

هذه في الذي يذكر ربّه في البلاء ويعرفه، ويجحد فضله في الرّخاء ولا يذكره، وهذا ليس من شأن المؤمن، وإنما هو من شأن (مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ)(الحج الآية 11) هذا الإنسان إذا اِغتنى وأثرى أو صار صاحب جاه وخيرات اِنصرف عن شكر ربّه وتباعد عن طاعته بدعوى كثرة مشاغله أو لانشغاله بلهوه أو تباعد عن العبادة تكبّرا، وأمّا إذا أصابته فتنة وعُزِل من مكانته الرّفيعة أو خسر أرزاقه في جائحة فإنّه يصبح صاحب إلحاح في الدعاء، وتراه في دعاء مستمرّ، الدعاء العريض في اللسان العربي القديم يعني الإلحاح في الدعاء، والاستمرار فيه مستعجلا الإجابة.

- **قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ (52) :**

الخطاب في هذه الآية موجّه للمكذّبين بالقرآن الكريم. اِسأل هؤلاء المكذبين بالتّنزيل: كيف سيكون حالكم وماذا سيكون موقفكم إذا تبيّن لكم يوم الحساب أنّ الكتاب الذي جاءكم هو حقّا من



عند الله عزّ وجلّ، ولكنّكم كفرتم به، وأعرضتم عنه، وفرّطتم في الاستفادة من رشاده؟ إنّه لا أحد أبعد عن الصواب وعن الحقّ مَنْ كان في عداوة كبيرة للرّشاد.

- **سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (53) :**

هذه الآية في الإخبار بما سيراه المكذّبون بهذا الدين، والمعادون له ولرسوله ولكتابه في أنفسهم وفيما حولهم من هزائمهم، ودَحْضٍ لمكائدهم، وفي إظهار المسلمين عليهم، ومن نشر واسع لهذا الدين في الآفاق. والمعنى: سيرى هؤلاء المكذّبون بالدين المشركون والجاحدون لقدرة الله تعالى وفضائله على النّاس، والهازئون بالوعد والوعيد آيات هزائمهم في ما حولهم من أقطار وفي أنفسهم، وآيات نصر الله تعالى لهذا الدين ولكتابه لنشره في أقطار الأرض من حولهم وفي قطرهم ومدنهم حتى يتبيّن لهم أنّ وعد الله تعالى بإظهار دينه حقّ وبتطهير الأرض من الشّرك لعبادة الله وحده في أرضه. سيرون ما سيحدث فيهم من هزائم ومن نشر الإسلام فيهم ومن حولهم ليعلموا أنّ وعد الله حقّ بإظهار دينه على الدّين كلّه ولو كره الكافرون. (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ) يا محمد – أنّه شاهد على أعمال الكافرين: أعداء الدين، وشاهد على أنّ القرآن من عند الله تعالى ليصدّقوا به، ويتوبوا عن كفرهم، ويستغفروا ربّهم، إنّه عليم بكلّ ما يفعله عباده، ومطّلع على كلّ ما يفعله المشركون وأعداء الدين اطلاعا دقيقا وهو على كلّ شيء شهيد وعليم وسيحاسبهم عمّا كانوا يقولون وعمّا كانوا يفعلون من أفعال المكر.

وذكر الشيخ ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: "وفي هذه الآية طرَفٌ من الإعجاز بالإخبار عن الغيب إذ أخبرت بالوعد بحصول النّصر له ولدينه، وذلك بما يسّر الله لرسوله صلّى الله عليه وسلّم ولخلفائه من بعده في آفاق الدنيا والمشرق والمغرب عامّة وفي باحة العرب خاصّة من الفتوح وثباتها، وانطباع الأمم بها ما لم تتيسّر أمثالها لأحد من ملوك الأرض والقياصرة والأكاسرة على قلّة المسلمين إن نُسِبَ عددُهم إلى عدد الأمم التي فتحوا آفاقها بنشر دعوة الإسلام في أقطار الأرض، والتّاريخ شاهد بأنّ ما تهيّأ للمسلمين من عجائب الانتشار والسلطان على الأمم أمر خارق للعادة، فتبيّن أنّ دين الإسلام هو الحقّ، وأنّ المسلمين كلّما تمسّكوا بعُرَى الإسلام لقُوا من نصر الله أمرا عجيبا يشهد بذلك السابق واللاّحق... ولم يقف ظهور الإسلام عند فتح الممالك، والغَلَبِ على الملوك والجبابرة، بل تجاوز ذلك إلى التّغلغل في نفوس الأمم فتقلَّدُوه دينا، وانبثّت آدابه وأخلاقه فيهم، فأصلحت عوائدهم ونُظُمهم المدنية المختلفة التي كانوا عليها فأصبحوا على حضارة متماثلة متناسقة، وأوجدوا حضارة جديدة سالمة من الرعونة..." (التحرير والتنوير ج25 ص 19). وعموما فإنّ الآية تُشير إلى أنّ كلّ ما يفعله أعداء هذا الدين وأعداء رسوله

وأعداء كتابه القرآن إنّما هو تهويش زائل، وأنّهم لن يبلغوا شيئا ممّا يمكرون، وأنّ كلّ مكر سيّء بهذا الدين لا يحيق إلاّ بأهله.

- أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ **(54)** :

ألا إنّ هؤلاء في شكّ من يوم البعث والحساب لذلك كانوا لا يصدّقون بهذا القرآن وبما جاءهم فيه من الهدى، ومن الوعد والوعيد، وأنّهم لو آمنوا بيوم البعث لآمنوا، ولتابوا، ولأصلحوا أعمالهم، ولَمَا كذّبوا بالكتاب وبالرّسول. والمُستفاد من الآية أنّ الاعتقاد بيوم القيامة وبالحساب أصل لإصلاح المعتقد ولإصلاح العمل، وأصل للتقوى رغبة ورهبة، فالإيمان بالبعث وبالحساب أصل أساسي ومهمّ في المعتقد السليم، وهو الدافع القويّ لأن يكون العبد مؤمنا وعابدا وصالحا في قوله وعمله وتقِيًّا. ألا إنّ الله تعالى عالمٌ علمًا تامّا وشاملا بجميع أمور خلقه، وقادر عليهم قدرة كاملة لأنّه تعالى محيط بهم فلا يقدر أحد على أن يفلت منه إذا شاء أن يأخذه بعذاب، فليتق كلّ إنسان ربّه، ولْيَخْشَهُ في سرّه وعلانيته.

بهذين التنبيهين تختم هذه السورة، وهما من أهمّ ما يجب أن ينتبه لأهميتهما كلّ إنسان ليُصلح معتقده وعمله ليبلغ درجة المؤمن التّقيّ الذي يعمل صالحا.



رقمها	سورة الشورى	آياتها
42	ـــ مكيّة ـــ	53

سمّيت هذه السورة بسورة "الشورى" لما جاء فيها من دعوة المؤمنين لأن يجعلوا أمرهم شورى بينهم، وتعرف في كتب السير بسورة (حمٓ عٓسٓقٓ). وهي سورة مكية، ولذلك فمواضيعها في تصحيح المعتقد للإيمان بالله وحده، ونبذ الشّرك، ولتصديق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وللتّصديق بالقرآن الكريم، وفيها تحذير من سوء عاقبة الشّرك والتكذيب، وفيها آيات للترغيب، كما فيها آيات للترهيب، ورغّبت في التّوبة والاستجابة لله تعالى وهديه. واِختصّت بآيات تنظّم علاقة المؤمنين ببعض بما يوثّق علاقتهم ببعض، ويوحّد موقفهم في مصالحهم المشتركة، وبم يؤدّبهم على الفضائل من الأعمال والأخلاق. وذكّرت بالوحي وفضل الله على رسوله وعلى المؤمنين بما أنزل عليهم، كما عرضت السورة بعضا من دلائل التّوحيد ودلائل القدرة للتّدبّر وللإيمان.

حمٓ (1) عٓسٓقٓ (2) :

لا أحد يعرف معاني هذه الحروف، والمقصد من اِفتتاح جملة من السور بها، ولا نعرف لمَ جُعلت هذه الحروف في آيتين، والله تعالى يفعل ما يشاء، وهذا من خصائص هذا الكتاب، القرآن الحكيم من لدن العزيز العليم.

- كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (3) :

هكذا يوحي الله تعالى إليك – يا محمد – كلامه، مثلما أوحى إلى الرّسل من قبلك. والذي أوحى إليك هذا الحديث هو الله (ٱلۡعَزِيزُ)، العظيم الرّفيع الذي لا يغلب على أمره، وهو (ٱلۡحَكِيمُ) الذي يحسن التّدبير، والذي يهدي عباده بحكمته إلى ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم، وإلى ما يرفع منزلتهم في الخلق والدين والعمل، ويوحي إليك بالحكمة وهو العلم الصحيح الثّابت الذي يوجّه للخير. و(ٱلۡحَكِيمُ) صيغة تعظيم لذي الحكمة، فيكون معنى الحكيم: العظيم في حكمته، وقد قيل في الحكمة بأنّها حسن التدبير في العلم والعمل والعدل والتنظيم والتقويم.

- لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ (4) :

الذي أوحى إليك الكتاب هو مالك كلّ ما في السماوات وكلّ ما في الأرض من موجودات ومن خلق، وهو (ٱلۡعَلِيُّ) أي العالي علوّ الجلال والكمال. قال أحدهم في معنى العليّ: "إنّه الذي ليس فوقه فيما يجب له من معالي الجلال أحدٌ، ولا معه من يكون العلوّ مشتركا بينه وبينه، لكنّه



العليّ بالإطلاق". وهو تعالى(ٱلْعَظِيمُ) والعظمة تعني العزّة والمجد والفخامة والكبرياء، هو المستحقّ لصفات العلوّ والمجد ورفعة القدر، وإنّ العقول لا تهتدي لوصف عظمته وهو ذو الثّناء الفاخر.

- تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (5) :

يُوشك أن تنشقّ السماوات من فوقهنّ من عظمة الله وجلاله، أو من كثرة ما عليها من الملائكة ومن الكواكب، وروى أحمد والترمذي عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "أطّت السماء، وحُقّ لها أن تئطّ. ما فيها موضع قَدَمٍ إلاّ وفيه ملك راكع أو ساجد". ومعنى أطّت" صوتّت من ثقل ما عليها وأنَّتْ بِصَوت مسموعٍ. وعند الزمخشري صاحب (الكشّاف): تكاد تنشقّ من قول المشركين بأنّ الله اِتّخذ ولدا، أو حين جعلوا له ندّا، ودعَّمَ رأيه بقوله تعالى (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا)(مريم الآيات 88-92). وهذا لتعظيم هذا الإفتراء والادّعاء الكاذب على الله عزّ وجلّ المتفرّد بالألوهية سبحانه وتعالى عمّا يصفون. والملائكة مداومون على التّسبيح بحمد الله عزّ وجلّ على مدى الوقت لما يرون من عظمة الله سبحانه ومن تسييره لملكوته، ولعلمه بكلّ شيء، ولكثرة أوامره في التّسخير. والملائكة يستغفرون لأهل الأرض الذين تلقّوا نِعَم الله تعالى الوفيرة، ولم يشكروا له، أو لأنّ بعضهم طغى بها، أو لم يعط حقّ ربّه فيها لمن أمره بأن يسلّمه له من عباده الفقراء والمساكين، أو لأنّهم غفلوا عن طاعته وعبادته لانشغالهم بها وبأمور دنياهم (أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) للتّنبيه للإسراع في طلب مغفرة الله تعالى بطاعته وعبادته لشكره على نعمائه وفضائله، وما أكثرها من نِعم! وأجلّها نعمة الوجود، ونعمة الصحة والعافية، ونعمة الهداية والزوجة والذرية...، وللإسراع في طلب رحمته حتى يديم النّعمة ولا يُزيلها، ولينظر الإنسان حال من كان صحيحا معافى ثمّ مرض واِعتلّ، ومن كان صاحب رزق فأفلس، وانظر في الأرض الخصبة المنتجة إذا أصابتها جائحة فخرّبت أو أحرقت، وأنظر في البلد الذي أصابت أهله جائحة فأماتت الكثير منهم، ودمّرت اِقتصاده، وعطّلت الأعمال والشغّالين. فليداوم المؤمن على طلب رحمة ربّه وعلى شكره على نعمائه ليقيّد هذه النّعم. قال القرطبي في هذه الجملة : "قال بعض العلماء: هيَّبَ وعظّم جلّ وعزّ في الابتداء، وألطف وبشّر في الانتهاء" (الجامع لأحكام القرآن ج.16 ص5).

- وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (6) :

والمشركون الذين جعلوا لله أندادا من اِختلاقهم وجعلوها معبودات لهم متوهّمين أنّها ستنصرهم عند الشدّة، فإنّ الله سبحانه يحصي أعمالهم هذه، وهو رقيبٌ عليهم، وسيحاسبهم عمّا

كانوا يدّعون، ولست – يا محمد – بمسؤول على أعمالهم، إنّما أنت منذر لهم من الشّرك، فلا تحمل همّهم، إنّما أمرهم إلى الله تعالى.

- **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ (7) :**

ومثلما أرسلنا رسلا من قبلك – يا محمد – بألسنة أقوامهم أرسلناك، وأوحينا إليك كتابا قرآنا بلسان قومك العربي لتحذّر أهل (أُمَّ ٱلْقُرَىٰ) وهي مكّة المكرّمة، أُعتبرت أم القرى لأنّ فيها أقيم بيت الله الحرام، وفيها المشاعر العظام، وينتظم فيها موسم الحجّ: الرّكن الخامس من أركان الإسلام، ليحذّرهم من الشّرك ليؤمنوا بالله وحده، ولتخويفهم من عاقبة عمل المعاصي، ولتحذّر ما حولها من القرى وأهليهم والنّاس كافّة من الكفر والمعصية، ولتحذير الجميع من يوم الجمع، هو يوم البعث للقيام للحساب عن الإيمان وعن الأعمال، قال تعالى (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ)(التغابن الآية 9). يومئذ يُفرق بين النّاس، فمن كان مؤمنا يعمل بالطاعات ويعمل صالحا يفوز بدخوله جنّة النّعيم ويكون آمنا من العذاب، ومن كان كافرا ولم يعمل صالحا وكان ظالما لنفسه وظلوما للآخر فإنّه يساق إلى جهنّم ليعذّب بنارها المستعرة، وهكذا يُفْرَقُ بين النّاس، إلى فريقين: فريق في الجنّة، وفريق في السعير. ولاشكّ في وقوع هذا اليوم.

- **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (8) :**

ولو شاء الله لجعل النّاس جميعهم على دين واحد، ولجعلهم جميعا مؤمنين، ولكن شاء الله تعالى أن يجعل كلّ إنسان مسؤولا عن نفسه، وعن إختياراته لمعتقده "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، ولنَمط سلوكه، وكسبه، ولصنف عمله بين الحسن أو السيّئ بحسب مدى اِنضباطه لشرع الله تعالى وقناعاته، أو على قدر رغبته في اتّباع هواه، وتحلّله من كلّ اِنضباط. ومن شاء لنفسه أن يكون مهتديا مستقيما على دين الله: عقيدة وشريعة أدخله الله تعالى في رحمته. وأمّا الظالمون لأنفسهم فإنّهم لن يجدوا يوم الحساب من يتولاّهم ليعينهم على تحمّل شدائدهم، ولا من ينصرهم لينقذهم من العذاب.

- **أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (9) :**

بل اِتّخذ الظالمون لأنفسهم أصنامهم أولياء لهم لتتولّى أمورهم، ولتساعدهم عند الشّدائد للتخفيف عنهم، وقد أخطؤوا في توجههم لأنّ الله هو الوليّ الحقّ، ولا ولي للعباد غيره. والوليّ هو القريب من الإنسان، وهو تعالى الذي يدبّر أمور عباده، هو النّاصر لمن أطاعه، والقاهر لأعدائه، وهو الوليّ الذي ينصر العبد على نفسه حتى يجتنب المعاصي. وهو تعالى الذي يحيي



الموتى ببعثهم يوم القيامة للحساب، وهو على هذا البعث، وعلى نصرة عباده المؤمنين وهزيمة أعدائهم قدير، وإنّه لا يعجزه أيّ أمر وأيّ شيء ليحقّقه.

- **وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (10) :**

في الآية إرشاد للمؤمنين لأن يردّوا الحكم إلى الله عزّ وجلّ عند اِختلافهم مع غير المؤمنين أو المشركين في مسائل العقيدة والعبادة. والمعنى: وما اِختلفتم فيه من شيء في أمور الدين: في المعتقد والعبادات فردّوا الحكم في اختلافكم إلى الله عزّ وجلّ للفصل بينكم بالحقّ، ولا تجادلوا جدالا عقيما أو عنيفا، واِجتنبُوا الخصومة والنّزاع، دعُوا الحكم في الأمر لله عزّ وجلّ. قل – يا محمد – للمخالفين لك في الدّين: إنّي على ديني، أعبد الله ربّي وحده، عليه اِعتمدت، وإليه أرجع بالتّوبة، وبالاحتكام إليه في كلّ أمر من أموري.

- **فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ(11) :**

إنّ ربّكم الحقّ الذي تُدْعَوْن لتخصيصه بالعبادة وحده وبالطاعة هو الله (فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) الذي خلقهنّ وأبدعهنّ إبداعا من تقديره وتصويره بدون مثال سابق، واخترعهنّ وأوجدهنّ على أحسن مثال، وهو الذي خلق لكم من جنسكم حلائل لتسكنوا إليهنّ ولتأنسوا بهنّ وليكنّ عونا لكم، ولتسعدوا بهنّ عند إنجاب الذرّية، وهو الذي أوجد لكم من الأنعام أصنافا وأجناسا، وهو الذي يكثّركم بالتّناسل، وليجعل لكم بتكاثر أنعامكم ما تعيشون به بلحومها وألبانها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ولتكون لكم بها الثروات. ليس لكم شبيه ولا مثيل لربّكم في ذاته العُليا، فنزّهوه عن المثيل وعن التّجسيد، وهو تعالى (ٱلسَّمِيعُ) وهي صفة للّذي يسمع الصوت سمعا جيّدا ودقيقا وإن خفت هذا الصوت أو بعُد، ويتبيّن جهته ودلائله إن كان صوت اِستغاثة واِستنجاد، أو كان أنينا وتأوّها. إن كان صراخا وصياحا من غضب أو نداء، أو كان تناجيا ورجاء، فهذه صفة للذي لا يغيب عن سمعه صوت حراك النمل، وصوت الداعي في بطن الحوت، ولا يغيب عن سمعه دقّات قلب مؤمن ذكر ربّه فسارعت دقّات قلبه خشية ورهبة. ولمّا كان هذا السّميع دقيق السمع لما يصدر عن عبده فهذا دليل على أنّه تعالى قريب من عبده، فالسميع صفة للقريب من صوت المنادي أو الداعي أو المكروب، ولمّا كان من صفات هذا السّميع أنّه مجيب فإنّه إذن ناصر لعبده المستغيث، لطيف بعبده المكروب الذي يئنّ، وعليم بمناجاة مناجيه. وهو تعالى (ٱلۡبَصِيرُ)، وهذه صفة للذي ينفذ بصره لما يحدث في ملكوته، ولما يخفى عن أعين النّاس. البصير هو الذي لا تخفى عليه خافية حتى دبيب النّملة السوداء في الليلة الظلماء يراها، فبصره نافذ لكلّ حركة. ولمّا كان البصر نافذا فإنّه لا يغيب عن البصير العليم بما تخفي الصدور. فهذه

صفة العليم بدقائق الأمور. فإذا اِجتمع السمع مع البصر بدقائق الأمور صار أمر العباد معلوما ومكشوفا وبيّنًا عند الله عزّ وجلّ فيما أظهروا وفيما أخفوا وأضمروا.

- لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ **(12)** :

إنّه سبحانه وتعالى مالك لخزائن السماوات والأرض، فهو الغنيّ والمغني، وهو المتصرّف فيها، يصرف منها ما يشاء لمن يشاء من عباده على ما قدّر له منها. يوسّع الرّزق والخيرات لمن يشاء، ويعطي لمن يشاء من الرّزق على قدر حاجته دون توسعة حتى يعلم النّاس أنّ الرّزق بيد الله تعالى وأنّه هو الرّزاق. إنّه تعالى عليم بما ينفع عباده، وبما يُصلح أحوالهم، وعليم بما يحتاجون إليه، وعليم بالشاكر والجاحد، والصابر والساخط.

فمجموع هذه الآيات من مقدمة السورة في التوحيد وعناصر الإيمان القويم.

- شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ **(13)** :

هذه مع الآيات الثلاث المُوالية في وحدة دعوة الأديان السماويّة للاستقامة على الدّين القويم: دين التّوحيد، والإيمان بالرّسل، وبالكتب السماويّة، وتجنّب الاختلاف فيه والجدال العقيم القائم على العناد والمكابرة. والمعنى: بيّن الله لكم طريقا واضحا ومنهجا في الدّين لتسيروا عليه، وهو المنهج الذي وصّى به نوحا وألزمه به، وأوجبه عليه ليبلّغه لقومه ليقيموا عليه في معتقده وفي شريعته، وهو بمثل ما أوحينا به إليك – يا محمد – وبمثل ما ألزمنا به إبراهيم وموسى وعيسى كذلك، أوجبنا على الجميع أن يدعوا أقوامهم لأن يلتزموا بدين التّوحيد، وأن يسيروا على منهجه وعلى شريعته في العبادة وفي الطاعات وفي الأعمال، ولأن يتمسّكوا به، وبأن يحذروا من الإختلاف فيه، وفي العمل به إلى درجة التّفرّق في الاِلتزام بأحكامه، فيعملوا ببعضها ويتركوا بعضها فيتفرّقوا إلى مذاهب شتّى وينحرفوا على مبادئه. ولقد عَظُم على المشركين أن تدعوهم – يا محمد – لأن يتركوا تقليد آبائهم في شركهم وعبادة الأصنام ليؤمنوا بدين الله الواحد الأحد وليقيموا على شرعه في عبادتهم وطاعاتهم، وهذا من جهلهم ومن إعراض عن تدبّر ما جئتهم به ولتكذيبهم به بمثل ما عظم على المشركين من قبلهم لمّا جاءتهم رسلهم بالدعوة لدين الله الحقّ فتفرّقوا عليهم أحزابا وملل. ولكنّ الله عزّ وجلّ يختار لدينه من يصطفيه، ويهدي إليه من يهتدي إليه، ويرجع إليه بالتّوبة والاستغفار، وبطاعته لأمر ربّه.

- وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ **(14)** :



وما اِختلف المشركون على أنبيائهم وشاقّوهم إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بالدّين الحقّ، وبيان ضلالتهم في ما يعتقدون، وما يعبدون، وكشف أوهامهم الباطلة، وما كان اِختلافهم على أنبيائهم وما كانت معاداتهم لما جاؤوهم به إلاّ من ظلمهم لأنفسهم ومن بغيهم عليها بإكراهها على الكفر. ولولا الإمهال الذي كتبه الله تعالى لأمّتك – يا محمد – تكريما لوجودك فيهم لعجّل بعذابهم، ولكنّه أخّره لهم إلى يوم القيامة. وإنّ الأجيال التي عاقبت الأجيال الذين نزلت فيهم كتب الله عزّ وجلّ: التوراة والإنجيل، وورثوا عنهم كتبهم من طائفتي : اليهود والنّصارى لفي شكّ كبير من تنزيل القرآن الكريم، ومن رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وهم في ريبة وحيرة.

- **﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾(15) :**

فدَعْ من تفرّق عليك – يا محمد – لشأنه، وثابر على الدعوة لتوحيد الله الواحد الأحد، ولدين الله تعالى على النّحو الّذي أمر بتبليغه، والزم منهج الإسلام وما أمرت بالعمل به من شرعه. ولقد كان هوى المشركين أن لا يذكر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم آلهتهم بسوء، وكانوا يفرّقون بين آي القرآن ليؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض. قال تعالى (وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً)(النساء الآية 150). كان هذا هوى المشركين وكان هذا اِشتراطهم على النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ليؤمنوا به، فأمره تعالى بأن لا يتّبع أهواءهم، وأن لا ينظر إلى خلافهم معه الدالّ على كبريائهم وعنادهم. وأمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم في هذه الآية بأن يعلن فيهم بأنّه يؤمن بكلّ كتاب سماوي، وبكلّ رسول لأنّ مصدرهم واحد هو الله عزّ وجلّ، وبأنّه قد أُمر بأن يحكم فيهم وفي أهل الكتاب فيما اِختلفوا فيه من الأحكام وفي جميع أحوالهم بالعدل على ما شرع الله لخلقه. وأُمر كذلك بأن يبلّغ أهل الكتاب بأنّ الله عزّ وجلّ هو ربّ المُسلمين وربّهم، وبأنّ لكلّ فئة عملهم في الطاعات والعبادات، وبأنّه لا خصومة بينهم في الدّين. وهذا كقوله سبحانه (وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ)(العنكبوت الآيتين 46-47).

فإذا أصرّ الكافرون على موقفهم من اِتباع أهوائهم، وعلى موقفهم بالتّمسّك بالخلاف مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فليحسم الأمر بردّه إلى الله عزّ وجلّ للحكم بينهم بالحقّ والعدل إذا صاروا إليه يوم القيامة.

الملاحظ في هذه الآية حملُها لتسعة أوامر ونواهٍ للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، الأول: المداومة على الدعوة إلى دين الله تعالى، الثاني: المداومة على تبليغ الرّسالة (وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ)، الثالث: بأن لا يجامل المخالفين له اِتّباعا لأهوائهم (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ)، الرابع: التّصريح بالإيمان بكلّ الكتب السماويّة (وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ)، الخامس: كلّف بالتحكيم فيهم عن خلافهم (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ)، وفي هذا تشريف كبير للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأنّه النّبيّ الخاتم فأمر بالتحكيم بشرع الله تعالى في خلافات أهل الكتاب فيما بينهم، السادس: التّصريح بأنّ الله عزّ وجلّ ربّ جميع الخلق (ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ)، السّابع: كلّ واحد يتحمّل مسؤوليته عن عمله وكلّ واحد مخيّر في اِختيار توجّهه في عمله في حياته (لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ)، الثامن: إبلاغ أهل الكتاب بأنّه لا خصومة بينهم وبين المسلمين (لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ)، التاسع: ردّ الأمر إلى الله سبحانه وتعالى في الفصل بين المختلفين في الدين يوم الدين (ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ).

- **وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16) :**

والذين يخاصمون في اِصطفاء الله تعالى لمحمد بالرّسالة، ويناقشون بحدّة واِحتجاج على ما جاءهم في الدين، وتصحيح المعتقد والعمل على صراط الله المستقيم حتى قال جمع منهم: (وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ)(الزخرف الآيتين 31-32) يناقشون في هذا الاختيار من بعدما اِستجاب النّاس لدين الله: الإسلام. إنّ ما يجادلون فيه جدال باطل وقول ذاهب في الرّياح، لا يُسمع له، وهو قول واِحتجاج عند الله عظيم في تطاوله على اِصطفاء الله لمن يشاء من عباده لتبليغ رسالته للنّاس، هو قول يغضب الله تعالى عليهم، ويوجب عليهم التّعذيب الشّديد في إيلامه.

- **ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) :**

هذه الآية إلى الآية 26 في التّحذير من المحاسبة في الآخرة، وفي الوعد والوعيد. والمعنى: الله جلّ جلاله هو الذي أنزل القرآن ومن قبله التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم بالحقّ، وهو للردّ على المكذّبين بالقرآن وبالوحي الذي ينزل على النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، ومن يكفر به فإنّه مُلاقٍ ربّه، ويومئذ يكون من الذين خسروا أنفسهم بتكذيبهم بكلام الله عزّ وجلّ. وهو تعالى الذي أنزل (ٱلْمِيزَانَ): الميزان هو رمز الإنصاف، والحكم بالعدل بين المتخاصمين، وهو رمز تعديل الأحكام حتّى يُقْضَى بالقسط، أي بتعديل كفتي الميزان دون جور أو بخس في الحقوق، والذي وضع الميزان للأحكام لتقوم على العدل والفصل بين النّاس بالقسط هو الله عزّ وجلّ حين بيّن أسس العدل في الشرائع التي أنزلها في كتبه على رسله، وأمر كلّ قاض بأن يحكم بالعدل.

قال تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ)(النحل الآية 90). وللتّأكيد على أنّ الميزان يعني الحكم بشرع الله تعالى الاستشهاد بقوله تعالى (لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ)(الحديد الآية 25). فالميزان يعني الضوابط التي يُعرف بها الحلال من الحرام، والحقّ من الباطل، والميزان الذي يوضع يوم القيامة للمحاسبة هو الذي توزن به الأعمال لتعرف درجته في التكريم أو في العقاب. فاحذر أيّها الإنسان من ميزان العدل في دنياك حتى لا يكون في الأرض ظلم بين النّاس في حقوقهم، واعمل بميزان شرع الله تعالى لتكون مؤمنا ومن الذين يعملون الصالحات ومن الذين يجتنبون المعاصي والمنهيات، واِحذر من ميزان الآخرة وأَعِدَّ له عدّته لتكون من الفائزين بأعلى مراتب الجنان، ولا تنشغل كثيرا بدنياك وتغفل عن آخرتك حتى لا يفاجئك الموت فيذهب عنك الكسب للآخرة، اعمل لآخرتك فما يدريك لعلّ الساعة قريب فتفاجئك.

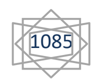
- **يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ (18) :**

والكافرون المكذّبون بالبعث وبقيام الساعة وبالحساب يستعجلون قيام الساعة تحدّيا واِستخفافا لاستبعادهم وقوعها وحصولها، وأمّا المؤمنون بقيام الساعة وبالحساب فإنّهم يخافون أهوالها وشدّتها رغم ما قدّموا لها من الإيمان بها وما قدّموا لها من أعمال صالحة يرجون بها المثوبة والنّجاة من العذاب. ألا إنّ الذين يجادلون في قيام الساعة من شكّهم في وقوعها لفي بُعْدٍ بعيد عن الحقّ، وفي ضياع وتيه عنها وفي غفلة، ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون المشكّكون فيها والقائلون عنها بالباطل: "وما أظنّ السّاعة قائمة".

- **ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ (19) :**

اعبدوا الله اللّطيف بعباده، وهو الرّزاق الذي يرزقكم من فضله وخيراته، وهو القويّ الذي ينصركم على أعدائكم ويظهركم عليهم، وهو العزيز الذي لا يُغلب والذي يعزّ عباده المؤمنين فلا يجعلهم يُغلبون، ولا تعبدوا سواه الذي لا يوصل لكم خيرا ولا ينصركم أو يقوّيكم على أعدائكم ولا يرفع من قدركم وشأنكم، وتبيّنوا ما يصلح لكم فأطيعوا أمره، ولا تتولّوا عنه لما لا ينفعكم.

و(اللّطيف) اِسم من أسماء الله الحسنى الّذي يعني أنّه تعالى الرّفيق بعباده، وهو الذي يرزقهم عند حاجتهم للرّزق، ويوصل إليهم ما يحبّون من الشفاء والعافية أو الصبر على معاناة ما أحاط بهم من الكرب، وهو الذي يريد لهم الخير وتيسير أسباب بلوغ مرادهم برفق ومن حيث لا يحتسبون. وهو الذي يحبّ الخير لعباده (انظر القرطبي ص 16-17 للزيادة) و(الرّزاق) هو الذي يفيض على عباده من النّعم والخيرات والصحة وأسباب التّوفيق للحصول على المكاسب وقضاء حاجاتهم في سَعَةٍ ويُسْرٍ. و(القويّ) هو النّصير الذي ينصر عباده المستضعفين أو المظلومين



ليظهرهم على أعدائهم وليقتصّوا منهم. و(العزيز) هو الذي لا يبلغ مكانه لرفعته وهو الذي لا يُغلب، وهو الذي يرفع قدر عباده المؤمنين وشأنهم فلا يجعلهم ينهزمون ويقهرون.

- مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (20) :

هذه للتّرغيب في العمل للآخرة، فمن كان يريد ثواب الآخرة وهو مؤمن وعامل بالطاعات يزيده الله تعالى في الأجر والثواب والتكريم. ومن زهد في الآخرة، ولم يكن همّه إلاّ في الكسب الدنيويّ والتنعّم بلذّاتها وزينتها أعطاه الله تعالى من أسباب نعيمها ولذائذها ما اِشتهى منها ورغب، ولكنّه يحرم نفسه بسبب حبّه لدنياه من نعيم الآخرة، فلا يكون له في آخرته نصيب من الثّواب ومن الجزاء ومن نعيمها.

- أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21) :

هذه في فضح اِفتراء الشّرك، وفي وعيد المشركين، والمعنى: هل لَهُم آلهة شرّعوا لهم من الشّرك ومن العبادات ما لم يأمر به الله تعالى. وهذه من الحجج المضادّة بمعنى إذا كان هذا الدّين وهذه الشرائع والسّنن التي يتّبعها المشركون في عباداتهم ممّا لم يأمر به الله تعالى وممّا لم يأذن به ولم يسمح به فهذا دليل واضح على أنّ هذا الدين الذي يتّبعونه هو من اِبتداعهم ومن اِختلاقهم ومن أوهامهم. ولولا أن كتب الله تعالى من رحمته أن يمهل لهم ليرشدوا ويتوبوا عندما يتبيّن لهم الحقّ لأهلكهم بسبب كفرهم وادّعاء الكذب على الله تعالى الواحد الأحد. وإنّ للمشركين والعصاة والرّافضين للاستقامة على دين الله لمّا جاءهم الحقّ من ربّهم عذابا موجعا يوم يلقونه.

- تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (22) :

في ذاك اليوم: يوم الرّجوع إلى الله عزّ وجلّ للحساب ترى المشركين العصاة المذنبين المكذّبين بالحقّ لمّا جاءهم خائفين خوفا شديدا ممّا جاؤوا به من حصاد أعمالهم من الكفر ومن التولّي عن طاعة الله، وإنّ العذاب الأليم الذي توعدهم الله تعالى به واقع بهم، ولن يفتلوا منه. وأمّا الذين آمنوا وصدقوا في إيمانهم، وعملوا الصالحات وأخلصوا فهُمْ في أحسن مواقع البساتين في الجنّة مقيمون في ضيافة الرحمان يلقون فيها كلّ ما يشتهون وكلّ ما يرغبون كرما من عند الله عزّ وجلّ وتكريما لهم، وذلك هو الفضل العظيم والتّكريم الكبير والرّبح الحقيقيّ.

- ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23) :



بذاك التّكريم الكبير فضلا من لدن الله الجواد الكريم يبشّر الله عباده المؤمنين الصادقين والعاملين الصالحات من أعمال الطّاعات وأعمال البرّ بإخلاص، ويعدهم به لآخرتهم. أخبرهم – يا محمد – بأنّك لا تطلب منهم لما تدعوهم إليه من الإيمان بالله وحده والعمل بشرعه إلاّ أن يحفظوا قرابتك منهم، وأن لا يقطعوها. كان المشركون يؤذون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فنزلت هذه الآية بأمره تعالى بالصلة، صلة القرابة والرّحم، وقد كان أهل مكّة يعظمّون صلة الأرحام. روي عن عكرمة أنّه قال: وكانت قريش تصل أرحامها، فلمّا بعث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قطعته، فقال: "صلوني كما كنتم تفعلون". فهذه الآية لتذكيرهم بحقّ القرابة. (وَمَن يَقۡتَرِفۡ) أي من يكسب حسنة بالمودّة لمحمد صلّى الله عليه وسلّم وآله ولما يدعو إليه تضاعف له حسناته أضعافا كثيرة من باب الشكر على حسناتهم، ويزيدهم فوق ذلك مغفرة ذنوبهم حتى لا ينقص من حسناتهم شيء.

- **أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (24) :**

أم يتّهمونك بالكذب على الله، يدّعون أنّ القرآن لم ينزل وحيا عليه من عند ربّه، وإنّما هو حديث من عنده، وينسبه كذبا إلى الله عزّ وجلّ، لا تتهموه بهذا – يا أهل مكة – لو فعل محمد ما تدّعون لختم على قلبه حتّى يجعله لا يفهم ما يقول، ولجعله ينسى ما قال، ويمحو الله تعالى الباطل ممّا قاله، ولكنّه لم يكن ينسى ما قرأه عليكم، وما اِضطرب في أقواله، وما جهل ما قاله فهي الشهادة له بصدقه، وبأنّ ما جاءكم به هو حقّا وحيٌ من عند الله، وإنّه لقرآن من عنده تعالى ليظهر الحقّ بكلماته وآياته وسوره، ويثبّت الدين الإسلامي الذي جاءكم به، وإنّ الله تعالى عليم بما في قلوب العباد. فهذه الآية لإثبات صدق رسوله صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغ به عن ربّه.

- **وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ (25) :**

هذه في فتح باب الرّجاء لمن كفر بالله تعالى وكذّب برسوله وبكتابه وبيوم الحساب، يبشّره ربّه بأنّه قابل توبة التّائبين الذين ثابوا لرشدهم فآمنوا وأنابوا إلى الله عزّ وجلّ، واِستبدلوا السيّئات بالعمل الصالح، فإنّه تعالى من رحمته بعباده المنيبين يقبل توبتهم ويعفو عن سيّئاتهم وذلك بمحوها من سجلاّت أعمالهم فلا يؤاخذهم عليها، وهو تعالى عليم بما يفعلون بعد توبتهم وهذه الجملة للتّحذير من العودة للمعصية، وهي في الآن ذاته لتبشير المؤمنين العاملين الصالحات بإيتائهم ثوابهم وأجورهم عمّا يكتسبون من أعمال البرّ والطاعات.

- **وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ(26) :**



هذه الآية في تفسير الجملة الأخيرة في الآية السابقة (وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ) بمعنى: ويجيب داعي الله تعالى الذين آمنوا بربّهم وصدقوا في إيمانهم، وصدق الإيمان يدلّ عليه ويثبته عملهم إذا كان صالحا بعيدا عن عمل السيّئات، هؤلاء يجازيهم ربّهم عن أعمالهم خيرا، ومن كرمه تعالى و جوده فإنّه يزيدهم من فضله بمضاعفة حسناتهم. وأمّا الكافرون الذين رفضوا الاستجابة لداعي الله تعالى فإنّهم موعودون بتلقّي العذاب الأليم الموجع يوم لقائهم لربّهم سبحانه.

- **وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ(27) :**

هذه الآية إلى الآية 35 في بعض من دلائل تقدير الأرزاق، ودلائل القدرة على العباد، وفي مظاهر من رحمة الله تعالى بعباده. والمعنى: ومن حكمة الله تعالى في التقدير أنّه لم يوسّع للنّاس في الأرزاق، وهبهم من الخيرات على قدر ما يحتاجون وما يستحقّون ليحافظوا على النّعم وليحسنوا التّصرّف فيها ويتعارفوا على توزيعها، ولو وسّع لهم بأكثر ممّا يحتاجون إليه لأسرفوا في تبذير الخيرات، ولتجاوزوا الحدّ في البطر والتّعاظم والظلم. قال تعالى (كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ)(العلق الآيتين 6-7) لذلك قضت حكمته أن ينزّل عليهم من الخيرات على قدر ما يحتاجون، وبمقدار معيّن، ولتوثيق علاقتهم بربّهم بين الدعاء والتوسّل لطلب نِعَم الله وبين الشّكر، وحتى لا يكفروا بالنّعمة وكيلا يكونوا جاحدين. إنّ الله عزّ وجلّ خبير بما يحتاج إليه عباده، وبما يصلح لهم، وخبير بطباعهم، وإنّه تعالى مطّلع على أفعالهم، وعلى أحوالهم ويعرف حاجاتهم.

- **وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (28) :**

ومن دلائل رحمة الله بعباده جميعهم – مؤمنيهم وكافريهم – ومن حسن تقديره أنّه ينزّل عليهم الغيث بأمره وإذنه من بعد ما يئسوا من نزوله، وينشر بهذا الإنزال رحمته تعالى على العباد ليشربوا وليسقوا أنعامهم، وليروي أرضهم ليخرج لهم به الزرق والثّمر، ومنهم من يشكر ربّه على فضله ومنهم من يغفل عن ذلك. وهو الله (ٱلۡوَلِيُّ) الذي يتولّى عباده بإحسانه وبرحمته وبالاستجابة لأدعيتهم، وهو المتكفّل بأمورهم كلّها ليحيَوْا ويعمروا الأرض، وهو الذي يتولّى الصالحين بنصرتهم وحفظهم من أعدائهم، وبولايته لهم فهو قريب منهم بالغوث وبالإحسان وبالنّصرة، وهو وليّ المؤمنين بإخراجهم من الظلمات إلى النّور، وبهدايتهم لصراطه المستقيم، وبأن يجعلهم كارهين للكفر والعصيان. وهو تعالى (ٱلۡحَمِيدُ) الذي يستحقّ الحمد والثناء على ما تفضّل به على عباده من نِعَم الوجود والنشأة وحسن الخلقة والصحة والعافية والقدرة على السعي وبإسعادهم بالزواج وإنجاب الذريّة وإغداق الخيرات عليهم، وهو المستحقّ للحمد في السّراء

والضرّاء، ولا يحمد على مكروه سواه، فإن لم يحمده الحامدون فإنّه الغنيّ عن حمدهم لأنّه تعالى أثْنَى على ذاته قبل حمد الحامدين له فقال "الحمد لله ربّ العالمين". وإنّ ملائكته يسبّحون بحمده، وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده.

- وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ(29) :

وإنّ من دلائل عظيم خلقه وقدرته خلق السماوات والأرض بعظمتهما ونظام قيامها وثباتهما في الأفلاك، وما نشر فيهما من خلائق وفرّق في الأجناس والصفّات والمهام. وهو تعالى على جمع ما خلق إذا يشاء عظيم القدرة لا يعجزه هذا الجمع ولا يفلت منه شيء. وفي هذه الجملة الأخيرة اِلتفات للمشركين ليعلموا أنّ وعد الله تعالى حقّ في ما وعدهم به من البعث، وأنّه تعالى على هذا الأمر قدير، وهذا لإنذارهم ليؤمنوا بيوم الحساب وليصلحوا معتقدهم وأعمالهم، فإنّ الذي خلق السماوات والأرض بعظمتهما لا يعجزه جمع خلقه.

- وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ(30) :

هذه في مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده. فما أصاب قوما من النّاس من مرض أو فقر أو فتنة أو بلاء فيما كسبت أيديهم، وما عفا الله تعالى عنهم من مصائب وأنقذهم هو أكثر ممّا أصابهم. مثال هذا ما يفعله بعضهم بمزابلهم وفضلات بيوتهم يلقونها عشوائيا في بعض الأماكن ثمّ تتكدّس عليها أخرى حتى تصبح مصدر روائح كريهة، وإنتشار البعوض، وتسبّب في أمراض جلديّة، فهذه الإصابات المضرّة هي مصيبة من كسب أيدي سكّان تلك المنطقة، وحين يبني بعضهم بناءً فوضويّا بالقرب من مجاري الأودية وليس هناك تصريف صحيّ لمياهه الفاسدة فإذا غمرت مياه الأمطار والأودية بيوتهم وأضرّت بهم فكلّ ما يُصيبهم من مصائب فبما كسبت أيديهم، وغيرهم ممّا لم يفعل فعلهم فهم في أمان ممّا أصاب الآخرين وفي عفو من الله عزّ وجلّ.

- وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ (31) :

هذه في قدرة الله تعالى على عباده، وهذه لإثبات أمرين: تنفيذ الوعيد إن شاء، وإثبات البعث والحساب. والمعنى: والخطاب للكافرين والمعاندين: ولستم بمفلتين من العذاب أو الهاربين منه إذا قضى أن يوقعه فيكم في دنياكم، ولستم بمفلتين منه في آخرتكم إن أصررتم على الكفر ولم تتوبوا وتستغفروا وإن لم تستقيموا على دينه. وليس لكم غير الله تعالى من يتولّى أموركم ومن يدبّرها ومن يعينكم على تحقيق ما ترغبون فيه لما ينفعكم في دينكم ودنياكم وآخرتكم. والنّصير هو الذي يعين المظلوم على الظالم، وهو الذي يعين الملهوف ويحسن معونته.

- وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ (32) :

ومن دلائل فضل الله تعالى على عباده المسافرين عبر البحر أن أجرى سفنهم الخشبية الخفيفة على سطح البحر العميق دون أن تغرق، وجعلها تُرى عن بُعد كأنّها الجبال أو المساكن العالية.

- إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ **(33) :**

فإذا قضى التّجارة شوؤنهم، وبلغ المسافرون غاياتهم آمنين فليشكروا ربّهم كثيرا على تفضّله عليهم بتسيير مراكبهم عبر الرياح، لئن لم يفعل الله تعالى ذلك، ولو جعل لهم الرّيّاح ساكنة لظلّوا في عمق البحر ثابتين لا يتحرّكون ولا يستطيعون بلوغ غاياتهم، ولا هم يستطيعون العودة إلى حيث كانوا قبل خروجهم.. إنّ في هذا دليلا على فضل الله عليهم، وحسن تقديره لفائدتهم، وكم من إنسان غير صابر على البلوى! وكم من إنسان غير شاكر على ما أنعم به عليه! على الإنسان أن يكون قويّا في صبره على ما يُبتلى به، وعليه أن يكون كثير الشكر على النّعم.

- أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ **(34) :**

وبمثل ما هو قادر على إيقاف حركة سير السفن بركود الرّياح، فإنّه قادر سبحانه على أن يجعل الرّياح عواصف فتتكسّر السفن وتطرح حمولتها في البحر من الركّاب والبضائع فيهلك من يهلك من ركّابها، وينجي آخرين بقدرته تعالى، ويعافيهم من الغرق، إنّه تعالى يتصرّف في ملكه كما يشاء.

- وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ **(35) :**

ويعلم هؤلاء الكفّار الذين يخاصمون محمد صلّى الله عليه وسلّم فيما ينزل عليه من القرآن ومن الوعد والوعيد أنّهم حين يركبون البحر ويتوسطونه، ثم تهبّ عليهم الرّيّاح عواصف ويغشاهم الموج من كلّ جهة، أو حين تنحبس سفنهم عن الحركة بسبب ركود الرياح وهم في وسط البحر أن لا منجى لهم من الكرب إلاّ بالله فيدعونه متوسّلين لينجيهم ممّا هم فيه، يعلمون وقتئذ أن لا ملجأ لهم سوى الله، لا دافع لهم من الهلاك ولا منقذ لهم منه إلاّ الله سبحانه، ولا أحد سواه، ويعلمون أنّ الله تعالى إذا أراد لهم الهلاك فليس لهم من مهرب من قضائه، ولا مفرّ.

- فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ **(36) :**

هذه إلى الآية 43 في الصفات التي يرغّب فيها الله تعالى عباده المؤمنين. يذكّرهم تعالى في هذه الآية بأنّ كلّ ما يملكون من مال وأرزاق وبنين وشرف وجاه في هذه الدنيا هو كسب زائل بالموت، وأنّ ما عند الله تعالى من خيرات ونعم ممّا أعدّه لهم لحياتهم في الآخرة خير وأفضل ممّا كانوا ينعمون به في دنياهم، وأنّه أدوم لهم وغير زائل، وهو تكريم يَعِدُ به الله عزّ وجلّ عباده



المؤمنين الذين صدقوا في إيمانهم وعملوا بطاعته، والذين أسلموا أمرهم إلى الله تعالى في أعمالهم وفي طاعتهم ووثقوا في أنّه تعالى كافل لهم رزقهم وحسن عاقبتهم فأحسنوا ولم يبخلوا، وجاهدوا في سبيل الإنفاق على أهاليهم وعيالهم ولكفالتهم راجين برضوان الله تعالى عليهم.

- **وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ (37) :**

الآية السابقة ذكرت صفتين من الصفات الذي يرغّب فيها الله تعالى عباده، وهما: صدق الإيمان والتوكّل على الله وحده فيما يفعلون. وهذه الآية في ثلاث صفات: اِجتناب كبائر الإثم، وهي كبائر الذنوب التي تستوجب شدّة العقاب التي منها: الكذب، والغيبة والنّميمة، وقذف المحصنات البريئات، والاعتداء بالعنف اللفظي والبدني على الغير، وأكل مال النّاس بالباطل، وشهادة الزور، والغدر، والخيانة، وكلّ ما يستقبحه الدين والنّاس ويستنكرونه، وهذا من السلوك الذي ينافي الاستقامة على الدّين، والذي لا يدلّ على حسن الإيمان. وصفتهم الرابعة أنّهم لا يأتون الفواحش، وهي الأفعال الشنيعة والأكثر دناءة وسقطا من الصّفة السابقة والأكثر فظاعة من الإثم، ومن أتاها اِستوجب عقابه في الدنيا، وحقّ عليه عذاب الآخرة ومنها: الاغتصاب، وقتل النّفس بغير حقّ، والسرقة، وقطع الطريق على المارّة أو المسافرين، وعموما هي كلّ الأعمال التي تستوجب إقام الحدّ الشرعي على من يأتي فاحشة منها، وهي الأعمال التي يُصطلح عليها في القانون الوضعي بالجنايات والجرائم التي تستوجب العقاب الشديد الذي يبلغ أحيانا الإعدام أو ما يعرف في الشرع بالقصاص، وهذا أمر لا يجب الاستهانة به حتى يُحفظ المجتمع من الآفات البشرية. والمؤمن الصادق هو الذي لا يأتي شيئا من الآثام ولا من الفواحش، ويتّقيها باجتنابها. ومن صفات المؤمنين المرغوب فيها، الحلم عند الغضب، إذا غضبوا يمسكون أنفسهم ويكظمون غيظهم ويقابلون الإساءة بالإحسان، وإحسانهم هو بالإمساك عن ردّ الفعل وبمقابلة الإساءة بالعفو والتسامح، وإنّ العفو عند المقدرة من شيم الكرام والنبلاء. وقد جعل تعالى العفو عن النّاس من خصائص المسلمين المحسنين الذين أثنى عليهم في قوله تعالى (وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)(آل عمران الآية 134). ولم تذكر كتب السنّة أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد غضب على أحد من المشركين رغم ما لقيه منهم من عَنَتٍ ومشاقّة لأنّه كان على خلق عظيم، وقد أرشد تعالى المؤمن إذا نزغه نزغ من الشيطان أن يتذكّر فيستعيذ من الشيطان الرجيم.

- **وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (38) :**

ويرغّب الله تعالى عباده في أن يستجيبوا له جلّ وعلا. والاستجابة لله تعالى تعني الخضوع لأمره طواعية ورغبة في ثوابه، وتتمثّل في اِجتناب نواهيه ومحارمه خشية عذابه وغضبه، وتتمثّل

في الحرص على أن لا يراهم فيما لا يحبّ أن يراهم فيه، أو أن يسمع منهم قولا يحيد بهم عن الحقّ، وتتمثّل في مراقبة الله في أنفسهم في السرّ والعلن، في المسرّة وفي المكروه. ويرغّبهم في المداومة على إقام الصلاة آناء الليل وأطراف النّهار ليرْضَى عنهم، ولتَقْوَى صلتُهم به عزّ وجلّ وقد كتب عفيف عبد الفتاح طبّارة (في كتابه روح الصلاة في الإسلام فصلا في معنى الصلاة ص 23-24) : "الصلاة عبادة مشتركة بين الديانات، وهي لون من ألوان الابتهال إلى الله. وكلمة الصلاة لم يستحدثها الإسلام، بل اِستعملها العرب قبل الإسلام بمعنى الدعاء والاستغفار، وهي مشتقّة من الصلة لأنّها تصل الإنسان بخالقه وتقرّبه من رحمة ربّه. أمّا الإسلام فأطلق لفظ الصلة على الصورة المعهودة من العبادة التي علّمها الرّسول للمسلمين وهي : أقوال، وأفعال يُقصد بها تعظيم الله، مفتتحة بالتكبير (الله أكبر) ومختتمة بالتّسليم (السلام عليكم) بشروط خاصّة وضعها لذلك... وقد فرض الله الصلاة على المُسلمين للثّناء عليه بما يستحقه من حمد وتمجيد على نعمه التي لا تحصى، كما فرضها عليهم ليذكّرهم بأوامره، وليستعينوا بها على تخفيف ما يلقونه من أنواع المشقّة والبلاء في الحياة الدنيا".

ومن أورع ما عُرِّفت به الصلاة ما قاله الأستاذ أجوست سباتييه (Auguste Sptatiyé) مدرّس الفلسفة في جامعة باريس كتابه: فلسفة الدين : "إننّا نستطيع الآن أن نستخلص أصل الدين وأن نضع له تعريفا، فهو صلة وعلاقة معروفة ومُرادة تُنْشِئها الرّوحُ المكروبة بينها وبين القدرة الخفية التي تشعر هي أنّها تابعة لها وأنّ مقدّراتها تحت مشيئتها، فالصلاة هي الدين في حالة العمل، أو هي الدين الحقّ".... وقد جاء في السيرة النبويّة أنّ وفد ثقيف رغبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة فأبى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال لهم: "لا خير في دين لا صلة فيه".

ويرغّبهم كذلك في أن يجعلوا أمرهم شورى بينهم ليرشدوا في اِتّخاذ القرار الأنسب لفائدتهم الدنيوية دون خسران آخرتهم، وحتّى لا يقعوا في المحظور، وفي سوء تقدير للنتائج. قال ابن العربي الأندلسي في تفسيره (أحكام القرآن) : "الشورى ألفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هُدُوا".

وقد كتب الشيخ محمود شلتوت في كتابه(الإسلام: عقيدة وشريعة) فصلا مهمّا في هذا المبدإ، ذكر فيه: "أمّا الشورى فهي أساس الحكم الصالح، وهي السبيل إلى تبيّن الحقّ، ومعرفة الآراء النّاضجة، أمر بها القرآن وجعلها عنصرا من العناصر التي تقوم عليها الدولة الإسلامية.. أمر الله نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بمشاورة أصحابه فيما يطرأ لهم من الشؤون ربطا للقلوب، وتقريرا لما يجب أن يكون بين المؤمنين من حسن التضامن في سياسة الأمور، وتدبير الشؤون...، وقد كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يشاور أصحابه فيما لم ينزل عليه فيه الوحي، وكان في بعض

الأحيان يعدل عن رأيه ويأخذ برأي أصحابه. {وقد حدث هذا في اِختيار مكان تمركُز جند المسلمين في غزوة بدر، وأخذ برأي صاحبه في حفر الخندق حول المدينة لحمايتها من الغزو في غزوة الأحزاب}. ولم يضع القرآن ولا الرّسول للشورى نظاما خاصّا، وإنما هو النظام الفطري... لأنّه من الشؤون التي تتغيّر فيها وجهة النظر بتغيّر الأجيال والتقدّم البشري... {وهذا من التوسعة عليهم}، وتمكينهم من اِختيار ما يُتاح للعقول وتدركه البشرية النّاضجة... وبتقرير القرآن مبدأ الشورى قضى الإسلام على الاستبداد بالحكم والرأي، واِحتكار التشريع والتّصريف والإدارة. وحقّق للفرد كرامته الفكرية، وللجماعة حقّها الطّبيعيّ في تدبير شوؤنها" (ص ص 447-449).

وممن يَعِدُهم الله تعالى برزق كريم في آخرتهم المؤمنون الذين لا يبخلون بأموالهم التي رزقوا بها من عند ربّهم لينفقوا منها في المصالح العامّة التي ينتفع بها النّاس من مثل بناء المساجد، والمدارس والمصحّات ودور الأيتام تجسيما لمبدإ التّعاون على أعمال البرّ والتّقوى، وتراهم ينفقون منها سرّا وعلانية، بالليل والنّهار لسدّ حاجة الفقير المحتاج، أو لإعانة الملهوف، أو لتبليغ طالب العلم ليبلغ معاهده تجسيما لمبادئ الإخاء والتّكافل الاجتماعي والتآزر، لا يجب أن يبيت في المجتمع الإسلامي جوعان، ولا عريان، ولا صاحب فاقة. وإنّا لنشهد في الأزمات من مثل الفيضانات أو الأزمات الصحية أو عند نداء رؤساء الأمّة للمساهمة في إصلاح منظومة صحيّة أو مدرسيّة أو لتسديد ديون الدولة قيام جمعيات من النسيج الاجتماعي بمهمة تقديم المساعدات الضرورية والخدمات اللازمة المتأكدة لمستحقّيها، وهذا من أجلّ مظاهر التآزر والتكافل الاجتماعي الذي يدعو إليه ديننُا.

- **وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ (39) :**

ومن صفاتهم أنّه إذا نال بلدهم ظلم واِعتداء أجنبي خارجي يفسد عليهم أمنهم ويهدّدهم في معتقدهم وفي مكاسبهم هبّوا هبّة واحدة ليقاوموا العدوان وليتصدّوا له دون تجاوز الحدّ ولابدّ أن يكون تحت إمرة قادة الدولة والأمّة حتى لا يصبح هذا الانتصار غير منظّم وغير مدروس، ولكيلا يكون فوضويّا غير مفيد، وربما اِنقلب على أصحابه سوءًا.

- **وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (40) :**

هذه في القصاص عند الجروح، والإصابة بأذى بدني من مثل الكسور، فمن تعرّض لعنف بدني فإنّه يقاضيه لدى المحاكم، والقاضي هو الذي يفصل بينهما، وهو المؤهّل لأن يحدّد للجاني عقوبته، وليس من حقّ المعتدى عليه أن يقتصّ بنفسه ممن أصابه بأذًى، وإذا كانت السيّئة غير بليغة، وتدخّل العقلاء بين المتخاصمين بالفصل بينهما وتأنيب المعتدي وقابل المعتدى عليه إساءة الظالم بالعفو عنه، وتنازل عن مقاضاته فإنّ الله تعالى كافل بتأجيره عن صفحه وعفوه



ويثيبه على تعامله بالحسنى. إنّه تعالى لا يحبّ الظالمين الذين يعتدون على النّاس بالعنف ولا يحبّ الذين يتجاوزون حدودهم في الانتقام بدعوى الثأر لأنفسهم، فالوجهان مرفوضان لأنّهما مفسدان للأخوة الإيمانية التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الإسلامي.

- وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ (41) :

ومن طالب بحقّه بمقاضاته لتأديب خصمه وكفّ شرّه عنه وأخذه، فليس عليه أيّ مؤاخذة.

- إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ(42) :

وتجب مؤاخذة الذين يظلمون النّاس بالسطو على حقوقهم المدنية من مثل سلب حرّياتهم في التعبير عن آرائهم وعن اِحتجاجهم بسبب مواقفهم المعارضة لأسلوب الحكم أو للتظاهر ضدّ مظاهر الفساد في الدولة وفي نظام الحكم وضدّ الاستبداد بالرأي، أو يظلمون النّاس بالسطو على ممتلكاتهم بالسرقة أو بالتحيّل أو بقطع الطرق عليهم، والذين يتجبّرون في أحكامهم وفي حكمهم ليستبدّوا بمناصبهم التي لا يحقّ لهم فيها بسبب فسادهم وأطماعهم وقلّة كفاءاتهم، هؤلاء يجب مقاضاتهم ومحاسبتهم على مفاسدهم في دنياهم، وفي آخرتهم سيلقون العذاب الأليم لإفسادهم في الأرض وظلمهم للنّاس، والله لا يحبّ الظالمين، ولا المفسدين.

- وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ (43) :

وإذا اِنقلبت الأوضاع على الظالمين المفسدين في الأرض فتمكّن منهم النّاس وعرضوهم على القضاء للحكم فيهم، فحوكموا على ظلمهم لمحكوميهم في تضييقهم على حريّاتهم الدينيّة والمدنية، وفي ظلمهم في حقوقهم في العمل وفي العدالة وفي الأمن على أرواحهم وممتلكاتهم، وأدينوا إدانة لا لُبسَ فيها، وأقرّوا بأخطائهم، ثمّ اِعتذروا من جميع المظلومين وطلبوا عفوهم والصفح عنهم، وردّوا الأرزاق المنهوبة، وقبلوا بمصادرة أموالهم لإصلاح ما أفسدوا، فإنّ من الأخلاق العالية التي يرغّب فيها الله تعالى عباده المؤمنين الصادقين أن يقابلوا الاعتذار مع ردّ الحقّ لصاحبه بالمغفرة. والله يعد من صبر على الأذى بحفظ أجره وثوابه على صبره، ويثيب الذي قبل الاعتذار بالمغفرة لتحقيق المصالحة العامّة في أفراد المجتمع، وإنّ هذا الخلق ممّا يجب فيه العزم والثبات عليه لأنّه ممّا ندب إليه، وما يفعله إلاّ ذوو العزائم من أهل الفضائل والإحسان.

- وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ (44) :

ومن أعرض عن ذكر ربّه، ولم يهتد للإسلام، وأبى إلاّ أن يكون من الضالّين تركه الله تعالى لضلالته، ومن تركه الله لضلالته فلن يجد له من بعد الله تعالى من ينقذه من العذاب ومن ينجيه



منه. ويوم القيامة ترى المشركين والملحدين والمكذّبين برسله وكتبه وبيوم الحساب في ندم شديد وفي حسرة يتمنّون لو يكون لهم من رجعة إلى دنياهم ليؤمنوا ويعملوا الصالحات حين يرون العذاب الذي ينتظرهم.

- وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ **(45) :**

وترى هؤلاء حين يعرضون على جهنّم في ذلّة وانكسار خاضعين خانعين يسترقون النظر من طرف ذليل منكسر بعد أن كانوا يمشون في الأرض مرحا مرفوعي الرؤوس والبصر، وكانوا في دنياهم يظلمون النّاس ويبغون في الأرض، واليوم يشعرون بالذلّة والمهانة. وما أشدّ على المتكبّر الطاغية المتجبّر على نفسه من الشُعور بالمذلّة بعد شعوره بالعزّة والرّفعة والعظمة! ويقول المؤمنون يومئذ إنّ الخاسرين الحقيقيين لحياتهم الدنيويّة ولأنفسهم هم الذين أضرّوا بأنفسهم وبأهليهم يوم القيامة بسبب قضاء حياتهم في الباطل، ولم يعدّوا لآخرتهم عدّتهم. ألا إنّ المشركين والظالمين لأنفسهم باختيارهم الكفر على الإيمان، وبتماديهم في الضلالة وتولّيهم عن الاهتداء للحقّ لفي عذاب دائم لا ينقطع عنهم.

- وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ **(46) :**

ولم يجد هؤلاء أنصارا لينقذوهم من المصير الذي أحاط بهم، وعلموا أنّ زعمهم الذي كانوا يعتقدونه في آلهتهم التي كانوا يعبدون كان زعما باطلا ووهما من إختلاقهم، كانوا يعتقدون أنّها شافعة لهم من كلّ عذاب. كلاّ لم يجدوا من دون الله تعالى من ينجيهم من العذاب. ومن لم يوفّقه الله جلّ وعلا للإيمان وللاهتداء بما جاءه من عند ربّه عن طريق رسوله فليس له مهرب من العذاب ولا مفرّ من الإقامة الدائمة في جهنّم.

فهذه الآيات الثلاث في الوعيد للتحذير من المعتقد الفاسد، وللتحذير من الاستكبار عن الاهتداء بما جاء به رسل الله.

- ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ **(47) :**

بعد تلك الآيات الثلاث في التّحذير من سوء العاقبة يوم الرّجوع إلى ربّهم عزّ وجلّ جاءت هذه الآية في توجيه العباد لما يُؤَمِّنُ له الأمان من تلك الشقاوة يوم يُرَدّون إلى الله تعالى للحساب. والمعنى: أجيبوا داعي الله تعالى في توحيده بالعبادة والطاعة، ونزّهوه عن الشّرك والندّ والصاحبة والولد، وأجيبوا داعي رسوله إذا دعاكم للعمل بشرع الله وحده ولتقواه وللعمل لآخرتكم من قبل أن تقوموا ليوم المحاسبة على إيمانكم وعلى أعمالكم، فليس لكم إذا قامت الساعة من



أمل في العودة إلى الدنيا لتحسنوا في إيمانكم وأعمالكم، وإنّه حين يأتيكم لا يؤخّر عن موعده، ولا يُرَدُّ إلى موعد آخر، وفي ذاك اليوم لا منجى منه، ولا ملجأ لكم من هوله ومن اِتّقاء شدّته إلاّ باللجوء إلى الله عزّ وجلّ، هو وحده الذي إليه الملجأ، وهو وحده القادر على أن ينجيكم من هوله ومن عذابه، وليس لكم من أحد سواه ينصركم من عذاب يومئذ، ولا أحد يستطيع يومئذ أن ينكر معاصيه وكفره إن كان كافرا وعاصيا، يومئذ لا يَسَعُه إلاّ الإقرار بذنبه.

- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ **(48)** :

هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة في التأكيد على أنّ مهمّة الرّسول هي في تبليغ رسالة ربّه للنّاس، وكلّ من بلغته الرسالة هو مسؤول عن نفسه فيما يؤمن به أو يكفر، وهي في التذكير بأنّ الله تعالى هو خالق البشر وأنّه هو الذي قدّر جنس كلّ مخلوق ومولود بين ذكر أو أنثى، وختمت بالتأكيد على أنّ الوحي من عند الله عزّ وجلّ للردّ على المكذّبين به، وبهذا جاءت خاتمة هذه السورة لما تقدّم فيها من مواعظ ومن إنذار وتبشير. ومعنى الآية: لا تألم – يا محمد – ولا تحزن إن كذّب بك جمع من قومك، وكذّبوا بما جئتهم به، وإن أعرضوا عن السماع لك، وإن تولّوا عن الاستجابة لما تدعوهم إليه فما أُرسلت إليهم لتحملهم على الإيمان، وما أُرسلت إليهم لتكون رقيبا عليهم ملزما لهم بالإيمان فإنّما عليك تبليغ رسالة ربّك، ما عليك إلاّ البلاغ، وكلّ من بلغته رسالتك هو المسؤول عن اِختياره للإيمان بما جئت به واِتباعه والاستجابة لربّه تعالى، ومن كفر فأمره إلى الله تعالى، يقضي فيه بحكمه يوم الرّجوع إليه. وإنّ الإنسان عموما جاحد لفضل ربّه عليه إلاّ من رحم ربّك، إذا آتاه الله تعالى نعمة من رزق وصحة وقوة وبنين وخير كثير بطر بالنّعمة ولم يشكر ربّه على ما آتاه الله عزّ وجلّ، ولا يذكره بعبادة أو طاعة، وإذا أصابته مصيبة من فقر أو فاقة من سوء تصرّفه ومن سوء تدبيره أو قلّة عمله أو لكسله أو لجائحة أصابته أو كارثة وبلاء فإنّه يكفر على القضاء والقدر، ولم يحكّم عقله في تقييم سلوكه وعمله، فإنّ الإنسان كافر بربّه كفرًا بليغا في كلّ حالة وفي كلّ وضع: عند الإنعام عليه بالخيرات، وعند وقوع مصيبة عليه، لا يشكر عند النّعمة، ولا يصبر أو يحتسب ويستغفر عند المصيبة.

- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ **(49)** ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ **(50)** :

الله الذي تُدعون لعبادته وطاعته هو مالك السماوات والأرض وما فيهنّ، وهو الذي خلق جميع البشر، وهو الذي تخيّر جنس كلّ مخلوق منهم على ما يشاء وبحسب تقديره ليخلق التوازن في الخلق بين الجنسين ليتناسلوا ولعمارة الأرض. لو كان أمر الإنجاب خاضعا لإرادة الإنسان



لفسد نظام الحياة ولانقطع بمرور الزمن تناسل البشر وعمارتهم للأرض لأنّ الإنسان ميّال لإنجاب الذكور دون الإناث، ولا تقوم الحياة بغير تحقيق التوازن في خلق الصنفين من كلّ جنس من المخلوقات بنسبة متكافئة ومعتدلة، وهذا أمر تكفّل به الله عزّ وجلّ لأنّه هو القيّوم الحقّ الذي يعلم ما يصلح لخلقه، وهو الخبير بما يحقّق عمارة الأرض، وقد جعل تعالى من قدرته بعضا من خلقه عقيما ليعلم من سلم من خلقه من العقم فضل ربّه عليه حين ينجب الذريّة عساه يشكر ربّه. فهذه الآية من آيات الله في تقدير الخلق لتذكير النّاس بحكمة الله في التّقدير وأنّه هو المتصرّف بحقّ في ملكوته، وأنّ حياة البشريّة خاضعة لإرادته حتى في تحديد جنس ما ينجبون، وأنّ أمر الإنجاب خارج عن إرادة كلّ واحد منهم أو كلّ واحدة منهنّ لأنّه سبحانه هو وحده الذي يقدّر لأحدهم أن ينجب أولادا ذكورا، ولا يهبه الأنثى، أو يهبه إناثا ولا يمنحه ذكرا مثلما يرغب، وإنّه تعالى يهب لمن يشاء بنين من الجنسين، ويجعل من يشاء عقيما فلا يكون له خلف من الذكور ولا من الإناث، فهل للمشركين إلاه من آلهة من يستطيع أن يغيّر من خلق الله تعالى، ولكنّ أكثرهم لا يعقلون...

- وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ **(51) :**

حين بُعث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم برسالته، وحين قام في قومه داعيا إلى الله وحده لأن يكونوا مسلمين، وليتبرّؤوا من شركهم وممّا يعبدون، وليستغفروا ربّهم، ولمّا بلّغهم بآيات ربّهم اِفترق عليه قومه، فمنهم من آمن، ومنهم من كذّب به وبرسالته وبالوحي الذي يأتيه والذي يقرأه عليهم. ومن الذين طعنوا في صدقه سألوه لماذا لم يكلّمه الله بمثل ما كلّم موسى، ومنهم من رماه بالجنون أو بالسحر، وجاءت هذه الآية وما يليها في الردّ على شبهة المكذّبين لإثبات صدق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في ما يدعوهم إليه من الهدى، وفيما يبلّغهم به من الوحي عند ربّه. وبهذا يحتكم الربط بين المقدمة التي أُفتتحت بالتأكيد على صدق الوحي وبين هذه الخاتمة.

والمعنى: إنّ التّكليف بالرّسالة الإلاهية يتِمُّ عن طريق الوحي. لا يكلّم الله تعالى أحدا من البشر إلاّ على وجه من ثلاثة أوجه، إمّا وحيا، أو أن يسمع رسوله كلاما من وراء حجاب، أو يرسل إليه رسولا من الملائكة ليبلّغه أمر ربّه. والوحي هو الإلهام أو القذف بمعان أو ألفاظ تُلقى بالقلب في اليقظة، أو في المنام كرؤيا إبراهيم بذبح اِبنه، ومن الإلهام ما قُذِفَ في قلب أم موسى. وقد جاء في صحيح البخاري (ج 1 ص 3-4) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنّ الحرث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّهُ

عليّ فيفصم عنّي (ينجلي عني ما غشّاني من الكرب)، وقد وعَيْت عنه ما قال، وأحيانا يتمثّل لي الملك رجلا فيكلّمني فأعِي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصّد عرقا" (الحديث عدد2). وروي عنها رضي الله عنها أنّها قالت أول ما بُدِئَ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه وهو التّعبّد الليالي ذوات العَدَد (تريد وصفها بالكثرة) قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحقّ وهو في غار حراء فجاءه الملك. فقال: اِقرأ.." (الحديث). ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ إنّه تعالى رفيع الدرجات، عالي المقام علو الجلال والكمال، وليس معه من يكون العلوّ مشتركا بينه وبينه، هو العليّ في المطلق، لا يكلّم الرّسل مباشرة، ولا يبلغ مكانه رسول ولا ملك، ولو تجلّى لشيء أو لكائن ورفع حجابه لدكّت الجبال دكّا، ولانشقّت السماء، ولخرّ العباد صرعى. وهو تعالى حكيم في تدبيره، اقتضت حكمته إذا أراد أن يكلّم رسولا أوحى إليه أمره وحيا، أو كلّمه من وراء حجاب، أو أرسل إليه ملكا ليبلّغه بأمر الله تعالى.

- وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ **(52) :**

وهكذا أوحى الله سبحانه إليك – يا محمد – روحا من أمره، أي من اِختياره واِصطفائه. وقد اختلفت الآراء في مفهوم الرّوح الذي جاء ذكره في هذه الآية وتعدّدت بين الصحابة السابقين والمفسّرين من بعدهم. هي عند ابن عباس وغيره النّبوّة، وهي عند الحسن وقتادة: الرحمة، وهي عند السدّي: الوحي، وهي عند مالك بن دينار القرآن، والروح عند الربيع: مَلك الوحي: جبريل عليه السلام. وكلّ هذه الأقوال مجتمعةً تحتملها الآية، لأنّ النّبوّة لابدّ لها من الوحي، ويؤتى صاحب الرسالة كتابه، وما إرسال رسول لقومه لهديهم إلاّ بعض من رحمة الله تعالى بعباده الذين أراد الله تعالى بهم خيرا ليحيي نفوسهم حتى لا يكونوا على ضلالاتهم. ما كنت تدري – يا محمد – قبل نزول الوحي عليك ما الإيمان ما الرسالة ما الكتاب وما الهداية وما هو شرع الله تعالى، ولكن جعلنا هذا الوحي، هذا الرّوح الذي هو من أمر الله تعالى، والذي يحويه كتاب، والذي تحمله في رسالتك، والذي تدعو النّاس إليه نورا للعقل حتّى يتخلّص من الوهم والجهل والضلال، ونورا للبصيرة لتَبَيُّنِ الدلائل الكونية الوجودية التي تدلّ على وحدانية الله وعظيم قدرته وإحاطته بكلّ شيء، والتي تكشف الباطل وتفضحه، وتنير الحقائق، وهو نور للقلب ليلين لذكر الله عزّ وجلّ وما نزل من الحقّ، فهذا هدى للنّاس الذين يحبّون أن يهتدوا إلى الله تعالى فيوفّقهم الله للإيمان ولاتباعه، ومن شاء أن يتّبع هواه وأعرض عن ذكر ربّه وعن طاعته وغرّته الحياة

الدنيا وغرّه بالله الغرور فدَعْهُ لشأنه، وإنّك يا محمد بما جاءك من الوحي وبما تدعو النّاس إليه إنما ترشدهم إلى الاستقامة على طريق الله القويم: دين الإسلام.

- صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ **(53)** :

إنّك يا محمد – ترشد النّاس إلى اِتّباع طريق الله الحقّ، سبيل الله الذي له ملك جميع ما خلق في السماوات وما في الأرض. ونَبِّه الناس بأنّهم جميعا وبأنّ جميع أعمالهم صائرة إلى الله يوم القيامة ليحاسبهم عليها ثوابا وتكريما أو عقابا وإذلالا. فهذه جملة في الوعد والوعيد، وفي البلاغ بالبعث.



رقمها	ســــورة الزّخــرُف ـــــ مكيّة ـــــ	آياتها
43		89

سمّيت هذه السورة بسورة "الزّخرف" لانفرادها بذكر هذا اللفظ دون سواها، والزّخرف هو الذهب، وكلّ مظاهر الزينة الدّالة على الثّراء والتّرف. وهي سورة مكيّة، ولذا فإنّ مواضيعها في العقيدة.

وقد بدئت السورة بالثّناء على القرآن كشأن الافتتاح في كلّ سور الحواميم، ومن أهمّ أغراضها التّحذير من الاستهزاء بالرّسل، وبإبطال المعتقد في أنّ الملائكة إناث، أو هم بنات الله، وعرضت بعضا من دلائل الخلق والقدرة لله عزّ وجلّ وإنعامه للتّوحيد، ورغّبت في الاعتبار بقصة تبرّؤ إبراهيم عليه السلام من الشرك، بعد أن حذّرت من تقليد ضلالة الآباء. ومن أغراض السورة تحذير المتعاظمين والمستكبرين عن طاعة الله تعالى من عذاب الله تعالى ووعيده، وعرضت مظاهر من تكريم الأخلاّء المتّقين ومظاهر من سوء عاقبة الكافرين وسوء عذابهم، وختمت بتحميل كلّ إنسان مسؤوليته عن معتقده، فيوم الحساب يكرم المرء أو يُهان.

- حمٓ (1) وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (3) وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4) :

هذه في الثّناء على القرآن الكريم. قسما بالكتاب، وهو اِسم جنس لكلّ كتاب نزل من عند الله تعالى على كلّ نبيّ، و(ٱلۡمُبِينِ) هو الذي يبيّن فيه أحكامه وفرائضه، وعلى هذا فالقسم بكلّ الكتب المنزّلة على الأنبياء والتي بيّنت أحكام شرع الله تعالى وفرائضه. وجواب القسم أنّ كتاب محمّد صلّى الله عليه وسلّم هذا الذي نقرأه قد جعله الله تعالى ينزل ويُقرأ بلسان العرب عساهم يفهمون أحكامه ومعانيه ومقاصده فيرشدون للحقّ ويعرفون به الباطل فيعقلون ولا يتّبعون الهوى والضلالات. وإنّ هذا التّنزيل، أي القرآن كان محفوظا في اللوح المحفوظ عند الله عزّ وجلّ. وإنّ هذا القرآن رفيع محكم لا يوجد فيه اِختلاف ولا تناقض. قال تعالى (إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ)(الواقعة الآيتين 77-78) وهو اللوح المحفوظ، وقال (بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ) (البروج الآيتين 21-22). إنّه كتاب حكيم لأنّه يرشد للحكمة في القول، وللقول الحقّ، وكلمة التّوحيد هي القول الحقّ والقول الفصل، ولأنّه يرشد لحسن العمل وحسن الطاعة، ويبيّن وجوه المعصية لاتّقائها، وإنّ هذا الكتاب ذو رفعة على الكتب السماوية، ومهيمن على كلّ ما سبقه.

- أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ (5) :

هذه في فضيلة هذا التّنزيل على المشركين، بمعنى: أفنتركّكم – أيّها المشركون – بدون تذكيركم بالدّين القويم وبوعيد المتجاوزين حدّهم في الكفر وفي غفلتهم عن طاعة الله تعالى في إعراض عنهم وتركهم لأنفسهم دون إرشاد وهدي.

- **وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ (6) :**

ولقد أرسلنا كثيرًا من الأنبياء في السابقين، فإرسال الأنبياء بين زمن وآخر في الأمم السالفة كان أمرا متعاقبا، فلِمَ خلافكم على نبيّكم ﷺ، ولِمَ التّكذيب كأنّ الأمر غير معهود في إرسال الأنبياء من عند ربّهم إلى أقوامهم؟

- **وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (7) :**

وكلّما جاء قوما رسول من عند ربّهم لهديهم للدّين القويم، وأنذرهم بطش ربّهم إلاّ وقابلوا دعوته بالصدّ، واِستخفّوا بالوعيد، وهزؤوا به وبما يدعوهم إليه.

- **فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ (8) :**

فأهلكنا الطغاة منهم، وأكثر القوم قوة وعُتُوًّا، وقد قصصنا عليكم ما حلّ بالأمم السالفة من أهل الكفر. والقصد من هذه الآيات الثلاث تحذير المشركين من الكفر بالرسول ومن الهزء به، ولإنذارهم من سوء عاقبة مشاقّة رسولهم، فقد أهلك الله تعالى من كان أشدّ منهم قوّة.

- **وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ (9) :**

هذه الآية إلى الآية 14 للتّذكير ببعض من آيات خلق الله وآيات قدرته وإنعامه للإيمان بالله وحده دون سواه، ولتنزيهه عن الشّرك. والمعنى: ولئن سألت هؤلاء المشركين عن الذي خلق السماوات والأرض من هو؟ لأجابوا بكلّ وثوق بأنّ خالقهما هو الله (ٱلۡعَزِيز) العظيم، صاحب هذا المُلك العظيم بما فيه، وهو الحاكم العليّ، وهو (ٱلۡعَلِيمُ) الذي لا يفوته شيء من معرفة ما يجري في ملكه وممّا يلزمه. يقرّون لله تعالى بأنّه هو الخالق وهو العظيم العليم، وذلك من منطوق فطرتهم، ولكنّهم في عبادتهم ينصرفون عن عبادته لعبادة غيره ممّا ليس له من فضل عليهم، وممّا ليس له على ألوهيته أيّ دليل.

- **ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (10) :**

وإنّ الله الذي يدعوكم رسوله لعبادته هو الذي جعل لكم الأرض فراشا ممهّدا للاستقرار عليها، وشقّ لكم فيها طرقا لتسلكوها لتبلغوا بها مقاصدكم، ولتعرفوا بها طريقكم الذي يبلّغكم غاياتكم، فهلاّ تعرّفتم على ربّكم الحقّ بما أفادكم به لحياتكم.

- **وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ (11) :**

ومن آيات إنعام الله عليكم أنّه أنزل لكم من السماء ماء لتشربوا ولتسقوا أنعامكم.

ومن الماء ما أحيا لكم به الأرض البوار الذي لا نبات فيه فصارت أرضا تدرّ لكم بخيراتها وغدت حيّة منتجة خصبة، كذلك سيتمّ إخراجكم من قبوركم أحياء بعد مماتكم، فآمنوا ببعثكم وآمنوا بآخرتكم واِعملوا لها. ولقد أنزل عليكم من السماء الماء بقدر معيّن، حتى لا يُصيبكم طوفان فتهلكوا غرقا فيه، فاشكروا الله على فضله، وتوبوا إليه، ولا تعبدوا سواه.

- **وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ (12) :**

وهو الذي خلق جميع الأصناف المختلفة في الألوان والأشكال والإفادة من أصناف الحيوان ومن أجناسهم، ومن أصناف الزروع والشجر والثمر والنبات، وحتى في البشر اِختلفوا في لون البشرة وفي نمط الحياة والعيش، وفي حياة الإنسان يعرف حينا مرضا وأحيانا صحة وعافية، ويعرف فقرا وغنًى، وشقاوة وسعادة ورفاها، ويعرف خيرا وشرّا، هذا التّنوّع من خلق الله عزّ وجلّ. وجعل لكم من السفن ومن الإبل والخيل والبغال والحمير ما تركبون في البرّ والبحر لتسافروا عليها ولتحملوا عليها أثقالكم لتبلغوا بها غاياتكم، وهذا من فضل ربّكم عليكم لتشكروه.

- **لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (14) :**

لتركبوا على ظهور الدوّاب وعلى متن السفن ثمّ لتستحضروا فضل ربّكم عليكم في تسخيرها لحملكم وحمل أثقالكم عند ركوبها ولتشكروا له، ولتقولوا: تنزّه الله تعالى عن الشريك وتنزّه عن النقصان فقد ذلّل لنا هذا لركوبه وسخّره لنا للانتفاع به، ولولا هذا التّذليل وهذا التّسخير من الله عزّ وجلّ ما كنّا قادرين على تذليل هذه الوسائل، ومطوّعين لها، أو ضابطين، وإنّا إلى الله عزّ وجلّ لراجعون للحساب على الشكر على النّعم. وقد تعلّمنا من آبائنا أن نقول إذا ركبنا وسيلة للسفر، سواء أكانت سيارة أو طائرة أو باخرة، أن نستفتح بالبسملة ثم نقول (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ) ثم ندعو بالدعاء المأثور عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "اللّهم إنّي أسألك في سفري هذا البرّ والتّقوى، ومن العمل ما ترضى، اللّهمّ هوّن علينا السّفر، واِطْوِ لنا البعيد، اللّهمّ أنت الصاحب في السّفر، والخليفة في الأهل" (رواه مسلم وأبو داود والنّسائي والترمذي عن ابن عمر). وذلك لأنّ المسافر معرّض لجملة من الأخطار فوجب التحصّن منها بذكر الله عزّ وجلّ ودعائه لطلب حفظه تعالى.

- **وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (15) :**

هذه الآية وإلى الآية 25 في مناقشة باطل ما يدّعيه المشركون في نسبة الملائكة إلى الله سبحانه وتعالى عمّا يصفون. والمعنى: وادّعى مشركو العرب أنّ لله تعالى وِلْدانًا إناثا. يقول العرب قديما عن المرأة إذا أنجبت أنثى: أجْزَأت، فالمشركون حينما جعلوا لله من عباده جزءًا فقد

نسبوا له بقولهم هذا الصاحبة ومواليد إناثا، وقد اِفتروا على الله كذبا بهذا الادّعاء، وإنّ كلّ من يقول بهذا القول فإنّه كثير الكفر بالله وبوحدانيته وبخصائص ألوهيته، وكفرُه واضح ومفضوح ويدلّ على جهله بالحقّ.

- أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ **(16)** :

ما أغرب أمركم فيما نسبتم إلى ربّكم! وما أغرب قسمتكم! يتّخذ له ممّا يخلق بنات: الجنس الذي تكرهون، ويقدّر لكم أن تنجبوا الذكور، ويختارهم لكم. كيف يصحّ هذا التّوزيع الذي ينافي الكمال وصفة العظمة عندكم؟

- وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ **(17)** :

إنّ الواحد من هؤلاء المشركين إذا بشّر بما ينسب لله تعالى من البنين، أي بولادة أنثى من زوجته اِغتمّ، واكتأب، وتغيّر لون وجهه واِسودّ من الغيظ والحزن، وأمسك عن الكلام كمدا، وربّما غادر بيته من شدّة كربه.

- أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ **(18)** :

وتنسبون لله تعالى كذبا واِفتراءً من يُرَبّى على لباس الزّينة من الحليّ، وعلى الإنفاق عليه، ومن لا يظهر عند المبارزة والمخاصمة وفي ساحة المعركة خوفا عليه من السبي، أيُضاف إلى الله العليّ العظيم من هذا وصفُه عندكم؟

- وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ**(19)**

وفي قراءة قالون (ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ)، والمعنى: وادّعوا أنّ الملائكة الذين هم بين يدي الله تعالى لتنفيذ أوامره – وهم من خلقه – من جنس الإناث. هل شاهدوا خلقهم عند الولادة؟ سيُسجّل عليهم هذا الادّعاء الباطل، وسيسألون عن هذا الادّعاء الكاذب من أين جاؤوا به يوم القيامة؟ فهذه الآية وما قبلها في الدلالة على أنّ المشركين يدّعون ما لا يعون، وهذا من عمق جهلهم، ومن غريب أمرهم أنّهم كلّما ظهر لهم جهلهم بحقائق الأمر اِزدادوا عنادا ومكابرة في تمسّكهم بما وجدوا عليه آباءهم من قبلُ في معتقدهم.

- وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ **(20)** :

هذه الآية في الحجّة التي يبرّر بها المشركون عبادتهم للأصنام التي مثّلوا بها الملائكة التي يعبدون حسب زعمهم. قالوا لو شاء الله ما عبدناهم. ردّوا الأمر إلى مشيئة الله، تعالى الله عمّا يقولون. وهذا من عظيم الافتراء على الله عزّ وجلّ، ومن كبير الإثم. (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ) أي هذه الحجّة أو هذا القول مردود عليهم، فإنّ الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر والشرك، ولذلك أرسل إليهم رسوله وأنزل عليهم كتابا ليهتدوا للصواب وليرشدوا، وليتوبوا إليه من كفرهم وشركهم



ومن اِفترائهم عليه سبحانه. وهذا كاِفترائهم الذي أخبربه تعالى (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)(الأنعام الآية 148). (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) أي وما قولهم هذا إلاّ من الكذب ومن الحدس الوهمي، ومن الادعاء الباطل في نسبة شرائع إلى دين الله بلا برهان وبلا حجّة.

- أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ (21) :

أم جاءهم كتاب سماوي يجيز لهم عبادة ما يعبدون من دون الله، فهم متمسّكون بالعمل بأوامره. وهذه من الحجج المضادّة، إذا كان لهم هذا الكتاب فليُظهروه، فإن لم يكن لهم كتاب بما يقولون فهم يكذبون، ويقولون ما لا يعلمون.

- بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ (22) :

بل قالوا إنّما نعبدها كما عبدها آباؤنا. لقد وجدناهم على هذه الملّة وهذه الطريقة. فسِرْنا على طريقتهم، واِقتدينا بما اِهتدوا إليه. وهكذا أقرّوا بأنّه لم يكن لهم كتاب بما يفعلون، وإنّما هم يقلّدون أسلافهم فيما كانوا يدّعون من ضلالتهم بدون وعي.

- وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ (23) :

ومثل هذا القول في الإقرار بأنّ دينهم كان قائما على تقليد الآباء في ضلالتهم قاله أقوام من قبلهم حين جاءتهم رسلهم بتصحيح معتقدهم بترك الشّرك، وللاستقامة على دين الله الحقّ القائم على عبادة الله تعالى وحده وطاعته والعمل بشرعه، وللتّوبة ممّا كانوا يفعلون في تقديس الأصنام. كلّما أُرسل رسول لقوم مشركين لهديهم للتوحيد ولإنذارهم من معصية الله تعالى ومن الانصراف عن طاعته إلاّ واجهه سادتهم وزعماؤهم وأثرياؤهم بالصدّ عنه، وبرفض دعوته للتوحيد بدعوى أنّهم لن يتركوا دين آبائهم وملّتهم وطريقتهم في العبادة، وأصرّوا على أنّهم متمسّكون بالاقتداء بآثار أسلافهم. والمستفاد من هذه الآية ومن سابقتها ذمّ التقليد الأعمى الذي لا يقوم على حجّة أو كتاب أو وعْيٍ خاصّة إذا تعلّق الأمر بالعبادات والطاعات.

- قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (24) :

أخبرهم – يا محمد – لو أنت جئتهم بدين وعقيدة وشريعة ووعود بخير ممّا عندهم من تقليدهم لآبائهم أيتبْعُونك ويهتدون بما تدعوهم إليه أم سيقولون لك بمثل ما قال أسلافهم من المشركين من الأمم السابقة لرسلهم الذين أرسلوا إليهم لتصحيح معتقدهم: إنّما بما أُرْسِلت به وبما أرسل به السابقون من الرّسل كافرون، وغير مصدّقين بأنّا على ضلالة، وإنّا غير تاركين لدين آبائنا.



- فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (25) :

فلمّا أصّروا على كفرهم برسلهم وعلى كفرهم بالله الواحد الأحد، ولمّا كذّبوا بالوعيد أهلكهم الله بعذاب الاستئصال، فاعتبروا بما صاروا إليه، وإنّ آثارهم المدمّرة شاهدة على سوء مصير المكذّبين برسل الله وبالوعيد.

- وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ (26) :

هذه مع الآيتين المواليتين في تبرّؤ إبراهيم من عبادة أبيه وقومه الضالّة، واذكروا إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه في شجاعة وثبات إنّني أتبرّأ ممّا تعبدون من الأوثان والأصنام.

- إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ (27) :

وقال فإنّي لا أعبد إلاّ الذي خلقني وأوجدني من غير مثال سابق وإنّه سيرشدني إلى طريقه وإلى سبيله لطاعته وشكره.

- وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (28) :

وجعل إبراهيم هذه الكلمة: لا أعبد(إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي) وصية باقية في ذرّيته: ولدا بعد ولد، حتّى لا يعبد أحدهم إلاها آخر غير الله تعالى. قال تعالى مخبرا عن هذه الوصية (وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ)(البقرة الآية 132). وكلمة الإسلام هي : "لا إلاه إلاّ الله". (لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ) وعسى ذرّيته يذكرون من بعده على مرور الزمن هذه الوصية للثبات عليها حتى لا يعبدوا من بعده الأصنام، فالرّجوع هنا هو العودة إلى عبادة الله وحده وطاعته إذا زاغوا عنها، وإذا اِنحرفوا عن عقيدة التوحيد.

- بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ (29) :

هذه مع الآيات الأربع الموالية في بيان فضل الله تعالى على مشركي العرب، ولكنّهم كانوا قوما متعاظمين مستكبرين عن الحقّ. والمعنى: ولقد أمهلنا هؤلاء العرب وآباءهم من قبل، ولم نعجّل لهم بالعقوبة على شركهم حتى جاءهم (ٱلۡحَقُّ) وهو القرآن الكريم، (وَرَسُولٞ مُّبِينٞ) والرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي أرسلناه إليهم ليبيّن لهم شرع الله تعالى والمعتقد السليم وليرفع عنهم الضلالات والجهالة.

- وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (30) :

ولمّا جاءهم القرآن كذّبوا به وأنكروا أن يكون من عند الله تعالى، وأعرضوا عن سماعه وتدبّره، واِتّهموا رسولهم بأنّه ساحر، وجاءهم بكلام سحر، وجاهروا بالكفر به، جاء في سورة المدثّر في موقف أحدهم من سماعه للقرآن (ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ)(المدثر الآيات 21-25).

- **وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ (31) :**

وما كان حجّتهم في تكذيبهم بالقرآن إلاّ لأنّه لم ينزل على عظيم من عظمائهم بما يشهد على اِستكبارهم، وبما يدلّ على تعاظمهم واِحتقارهم لمن لم يكن ثريا وغنيا فيهم. قالوا لولا نزّل هذا القرآن على عظيم قريش. وكانوا يقصدون الوليد بن المغيرة الذي كان أفحشهم ثراءً وتعاظما لكثرة أمواله وأبنائه، كان يكسو الكعبة بنفسه ومن خاصّة ماله عامًا، ويكسوها الآخرون مجتمعين عاما، أو على عظيم ثقيف، وهي قرية قريبة من مكة، وكان فيها حبيب بن عمرو الثقفي، كان رجلا ثريّا وعظيما في قومه: "قالوا لولا نزّل على أحد هذين الرّجلين لآمنوا به"، ولمّا نزل على أحد ضعفائهم كفروا به.

- **أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (32) :**

ما أغرب أمرهم، أهم يتصرّفون في مشيئة الله تعالى واِختياره؟ الله سبحانه هو الذي يختار فيمن يضع النّبوّة، وفي من يشاء من عباده، والله سبحانه هو الذي قسم الأرزاق بين النّاس فأغنى قوما، وأفقر آخرين، وجعلهم مختلفين في نمط معايشهم في حياتهم الدنيوية، وفاضلنا بينهم فكان فيهم الرئيس، وفيهم المرؤوس ليستخدم بعضهم بعضا، ويحتاج أحدهم لخدمة الآخر: بعضهم بجهده وعرقه وخبرته، والآخرون يدفعون لهم أموالهم، والنّاس بعضهم لبعض خدم وإن لم يشعروا، وهذا هو التّسخير المذكور في الآية، وليس اللفظ بمعنى السخرية والاستهزاء، وذلك لأنّ (السِّخْرِي) اِسم للشيء المسخّر لعمل ما.

(وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ) رحمة الله في هذه الجملة تعني التكريم بالاصطفاء بالنّبوّة، وهذا التكريم أفضل درجة وأكثر خيرا ممّا يجمعون من المال، فاصطفاء محمّد صلّى الله عليه وسلّم بالنّبوّة هو الشّرف العظيم، وهو الذي يجعلهُ أعظم منزلة وقدرًا من أغناهم مالا وأكثرهم وجاهة وأوّلهم زعامة.

- **وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ (33) :**

هذه مع الآيتين المواليتين في بيان أنّ الأفضلية للتّقوى وليس بالثّراء والغنى، (إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ)(الحجرات الآية 13) ولولا ضعف قدرة النّاس على اِمتلاك أنفسهم ومغالبتها إزاء حبّ التملّك وكثرة الأطماع في متاع الدنيا ومظاهر الترف والثّراء، ولولا غلبة حبّ الدنيا على النّفوس ممّا يحملهم على الكفر والميل إلى الحياة الدنيا وزينتها لجعلنا للكافرين بالرّحمان سقف بيوتهم مصنوعة من الفضّة للدلالة على كثرة أموالهم، ولجعلنا لهم دُرُجًا ومصاعد من فضّة كذلك لكثرة

ثرائهم وللتنافس في مظاهر الزينة والفخامة، وليصعدوا فوق سطوحهم ويرتقوا إلى شرفاتهم في فخر وخُيلاء. وقد جاء في الحديث النّبويّ: "لو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى إليه ثانيا، ولو كان له واديان لَابْتَغَى لهما ثالثا، ولا يملأ جوف اِبن آدم إلاّ التراب، ويتوب الله على من تاب" (رواه الشيخان أحمد والترمذي).

- **وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ (34) :**

ولجعلنا لبيوتهم أبوابا ذات فخامة، وأرائك فخمة مزخرفة يتكئون عليها فاكهين وفي رفاه.

- **وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35) :**

(وَزُخْرُفًا) وآتيناهم ذهبا كثيرا. وما كلّ هذا إلاّ متاع من مُتع الدنيا الزّائلة، فإنّه بموتهم يذهب عنهم كلّ شيء، ولا ينتفعون بما ملكوا إذا ماتوا، وفي الآخرة لا يُكَرَّمُ إلاّ المتّقون: المؤمنون المطيعون لربّهم، الجنّة التي عند الله تعالى والتي فيها جميع أصناف الرّفاه والنّعيم جعلها لعباده المتقين.

- **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (36) :**

هذه الآية مع الآيات الثلاث الموالية في التّحذير من الغفلة عن ذكر الله وطاعته، فإنّ عاقبة هذه الغفلة سيّئة في الدنيا وكذلك في الآخرة. والمعنى: ومن يعرض عن ذكر الله وطاعته يهيّئ له الله تعالى شيطانا فيجعله مصاحبا له يغريه ليأتي المعاصي وليغفل عن الخشية من ربّه. وإذا إعتبرنا أنّ الذِّكر اِسم من أسماء القرآن الكريم فإنّ المعنى يكون على النحو التالي: ومن يعرض عن سماع القرآن وتدبّره، وقد جاء في أول هذه السورة ومفتتحها التحذير من الإعراض عن سماع القرآن في قوله تعالى (أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا)(الزخرف الآية5) نجعل له شيطانا قرينا له ومصاحبا يبعثه للحرام، ويزيّن له الأباطيل والتمسّك بالضلالات عقابا له في دنياه حتى يلقى سوء العاقبة في آخرته.

- **وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (37) :**

وإنّ الشياطين يمنعون قرناءهم من الاهتداء إلى سواء السبيل وإلى طريق الهدى، ويحسب الكفّار أنّ ما يبلغهم من وساوس الشياطين هو الاهتداء للحقّ فيتبعونهم، ويرفضون التّصديق بالقرآن الكريم وبالرسول صلّى الله عليه وسلّم، وبالوعيد.

- **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (38) :**

ويوم القيامة حين يتقدّم الكافر مع قرينه الشيطان إلى الحساب ويعرف الكافر عاقبته في النّار وتتبيّن له يتوجّه بالتَّبَرُّم من قرينه، ويتمنّى لو كان الشيطان بعيدا عنه بُعد المشرق عن المغرب، وهيهات، فقد فاته زمن الاستفاقة من غفلته، وزمن التوبة، والتبرّؤ من الشيطان ووساوسه، وما أسوأ مصاحبة الشيطان، وطاعته في إغراءاته المخالفة لشرع الله تعالى!



- **وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ (39) :**

ويومئذ لا ينفع الكافرين تبرّؤهم من شياطينهم لمّا عصوا ربّهم وأعرضوا عن طاعته فإنّهم جميعا مشتركون في الإثم والمعاصي وإنّهم جميعا مجتمعون في العذاب بنار جهنّم.

والقصد من هذه الآي الترغيب في تلاوة القرآن الكريم فإنّه يحصّن قارئه من الشيطان القرين، وهي في التّحذير من الغفلة عن ذكر الرّحمان.

- **أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (40) :**

الخطاب في هذه الآية والآيات الخمس الموالية للنّبي صلّى الله عليه وسلّم، وهي في تسليته وفي دعوته للمثابرة على نشر رسالته لهدي النّاس ولو كره المشركون. والمعنى: لا تتضايق – يا محمّد – من إعراض قومك عن سمع ما تدعوهم إليه وعن سماع ما تتلوه عليهم من القرآن أفأنت قادر على أن تسمع الصمّ صوتك، إنّه لا يسمع ولا يفهم ما تبلّغه به فدعه لشأنه، وهل بإمكانك أن ترشد الأعمى إلى طريقه وهو لا يبصر، وكذلك التائه الضائع عن طريقه تيها بعيدا؟ لا تَقْسُ على نفسك، فإنّ الأصمّ وكذلك الأعمى ومثلهما التائه المتحيّر تيها بعيدا لا ينتفع بما تدعوه إليه من الرّشاد، وادع لسبيل ربّك من يسمع ومن يبصر ومن يتبيّن طريقه.

- **فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ (41) :**

دعهم لشأنهم، ولا تغتمّ بسبب كفرهم وإعراضهم عن الاستجابة لدعوتك، فإنّما حسابهم عند ربّهم، فإن مِتَّ – يا محمّد – قبل أن ترى عذابهم ومصيرهم فاعلم أنّ الله تعالى منتقم منهم.

- **أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ (42) :**

وربّما ترى قريبا ما سيؤولون إليه من الهلاك الذي توعّدناهم به، إنّهم لن يفلتوا منه فإنّا متمكّنون منهم، وقادرون على الانتقام منهم.

- **فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (43) :**

فتمسّك بما يوحى إليك من الأوامر ومن تبليغ النّاس بما يأتيك من الوحي، واِعلم أنّك على الدين الحقّ وعلى صراط ربّك القويم الموصل لرضوان الله تعالى، والذي يمنحك الأمان من العذاب في الدنيا وفي الآخرة.

- **وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ (44) :**

وإنّ ما يوحى إليك هو ذكر لك ولقومك لتعرفوا به أمر الله سبحانه، وتعرفوا السبيل إلى طاعته وعبادته، ولتعلموا الصواب من الدّين، وتميّزوا به بين الحقّ والباطل، ولتتقرّبوا به إلى ربّكم بذكره وبتسبيحه وشكره، وقد جاءكم بلغتكم لتعوه وتعقلوه، وفي هذا شرف لكم، فأنتم أولى



النّاس بسماعه وبتلاوته وبتدبّره، وسوف تسألون يوم القيامة عن العمل بما جاءكم فيه، وسوف يسأل من أعرض عنه ولم يصدّق به عن حجّته في الإعراض عنه والتكذيب به.

- وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ (45) :

في هذه الآية إثبات بأنّ جميع الرّسل من قبل رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم كانوا يدعون أقوامهم للتّوحيد، ولعبادة الله وحده ولطاعته دون سواه وللعمل بشرعه، وأنّ جميعهم قد دعوا أقوامهم لنبذ الشّرك. والمعنى: وإسأل جميع الرّسل الذين أرسلوا قبلك هل أذن الله تعالى بعبادة الأصنام والأوثان، وهل جعل للنّاس آلهة يتقرّبون بها إلى الله، ويطيعونها لتشفع لهم عنده من عذابهم. وهذا الاستفهام إنكاري جوابه بكلاّ، لم يأذن الله بهذا، وإنّ ما يفعله المشركون في عبادتهم هو من اختلاقهم، ومن كذبهم على الله عزّ وجلّ، ومن ضلالتهم، فقد جاء على ألسنة جميع الرّسل أن اعبدوا الله وإجتنبوا الطاغوت.

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (46) :

هذه الآية إلى الآية 56 للاعتبار بسوء نهاية آلِ فرعون وملئه الذين إستكبروا في الأرض وكذّبوا بآيات الله تعالى، والمقصود بهذا العرض موعظة كفّار قريش كيلا يستكبروا على الاستجابة لله ولرسوله ولتحذيرهم من التكذيب بآيات الله. والمعنى: ولقد أرسلنا موسى بالمعجزات لتدلّ على صدقه فيما يدعو إليه فرعون وملئه ليؤمنوا بالله وحده ولعلهم يرشدون، وبلّغهم بأنّه رسول من عند ربّهم، ربّ الوجود كلّه وكلّ العوالم المخلوقة في الأرض وفي السماء.

- فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (47) :

فلمّا أظهر لهم المعجزات والحجج الدّالّة على صدقه إذا هم منها يستهزئون، ويتّهمونه بالسحر.

- وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) :

وما يرون من معجزة أقوى دلالة على قدرة الله سبحانه وأقوى بيانا بأنّها ليست من السحر وبأنّها من عند الله الخالق من مثل الإصابة بالقمل، أو تلوين ماء الشراب بلون أحمر مثل لون الدم، وأُفتتنوا بإصابتهم بالمصائب المتتالية عساهم يرجعون عن غيّهم وعن التكذيب بنبيّهم، وعساهم يتداركون أمرهم ليؤمنوا بربّهم.

- وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) :

ولمّا كثرت عليهم المصائب وأعْيَتْهم توجّهوا إلى موسى فقالوا له أيّها الساحر أُدع لنا ربّك بما عهد إليك من الأمر وبما خصّك به من أسراره أن يكشف عنّا البلاء الذي أصابنا به وسنهتدي به لِمَا يرشدنا إليه مُستقبلا.

ونداء موسى بـ (يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ) عند القوم في زمنهم هو خطاب فيه التّعظيم لأنّ الساحر عندهم هو العالم، وهو الغالب الذي يقهر خصمه بسِحْرِه.

- فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (50) :

ولمّا رفع عنهم البلاء الذي آلمهم وآذاهم إذا هم ينقضون العهد الذي ألزموا به أنفسهم: الاهتداء إلى الله عزّ وجلّ.

- وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) :

ولمّا كشف الله تعالى آيات العذاب عن قوم فرعون خشي هذا أن يفتتن النّاس بموسى فيتّبعوه ويخرجوا عن طاعته، وخشي كذلك على سلطانه وهيبته فدعا النّاس لجمع حاشد كما يفعل رؤساء البلدان في زماننا هذا إذا أرادوا أن يشدّوا صفوفهم لتحقيق أمر مهمّ، وإذا أرادوا إظهار قوّتهم وعزّتهم، وترهيب معارضيهم والخارجين عن سلطانهم وإرادتهم. ولمّا جُمِع له النّاس قام فيهم خطيبا فقال فيهم: يا قوم ألا ترون أنّي ملك مصر، وكلّ هذه الأرض خاضعة لسلطاني، وهذا النهر الذي تجري فروعه من حولكم لتشربوا منه، وترووا مزارعكم هو يجري بإرادتي – وذلك لأنّهم يعتقدون أنّ فرعون هو ابن إلاه النيل العظيم.

ويقصد بهذا التذكير ترهيب كلّ من يفكّر في اِتّباع موسى، ويخرج عن طاعته، فإنّه مهدّد بنفيه من أرض مصر الخاضعة لسلطان فرعون، ومهدّد بقطع الماء عنه، وهذا من الصدّ عن سبيل الله تعالى. وكذا يغترّ البعض ممن يؤتيهم الله تعالى سلطانا على أقوامهم، فإنّهم بدل أن يشكروا ربّهم على ما تفضّل به عليهم من تمكينهم من الجاه والسلطان، وبدل أن يتّقوا الله تعالى في عباده المحكومين تحت إمرتهم، يتعاظمون ويطغون إلى درجة الاستبداد، والتحكّم في خيرات أرض البلدان، ويحبّون أن يُؤَلَّهُوا، وتراهم يعيثون وأهليهم وحاشيتهم في الأرض فسادا.

- أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) :

وقال لهم : أيّنا خير لكم لطاعته واِتباعه: أنا ملك مصر، وابن إلاه النيل الذي يسقيكم أم هذا الذي يدعوكم للاستجابة له وهو ضعيف ليس لهُ ملك ولا جند ولا خدم، ويقصد موسى، وحتى إذا تكلّم فإنّه لا يكاد يفصح عن مراده، وهذا للإشارة للثقل الذي في لسان موسى ولَكْنَتِهِ.

- فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) :

فهلاّ ألقى هذا الرّجل على نفسه أساور من ذهب بزَنْده تدلّ على رئاسته إن كان صادقا في أنّه رسول من عند ربّه، وقد كان من عادة الفراعنة لبس أسورة من ذهب بالزّند تدلّ على الرئاسة، ولا يلبسها عندهم إلاّ الملك، والوزراء يلبسون أساور من فضّة، أو جاء معه الملائكة متتابعين

يشهدون بصدقه، ويقصد فرعون الطعن في صدق موسى واِتّهامه بالكذب وذلك لصدّ النّاس عنه وعن اِتّباعه الدين الذي يدعو إليه.

- ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ (54) :

وهكذا اِستبْلَهَ فرعون قومه، وغسل أمخاخهم حتى لا يخرجوا عن طاعته وليصدّهم عن سبيل الله، واِستجابوا له وأطاعوه، وكانوا قوما خارجين عن الدين الحقّ، ونقضوا عهدهم مع الله تعالى ومع نبيّه لمّا عاهدوا بتصديقه والاستجابة له إذا دعا لهم موسى ربّه فكشف عنهم ضرّهم.

- ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ (55) :

فلمّا أغضبوا الله تعالى بنقضهم لعهدهم وبصدّهم عن سبيل الله تعالى اِنتقم منهم بأن دفعهم إلى دخول النيل وأغرقهم جميعا فيه. وهم الذين يدّعون أنّ فرعون هو ابن إلاه النيل، أغرقهم عند إلاههم الذي يدعون ولم يُنْجِهِمْ إلاههم الأكبر: أبو إلاههم فرعون، وكذا دلّ تعالى النّاجين من الغرق أنّه لا إلاه إلاّ الله، وأنّ اِدّعاءهم في ألوهية صاحب النيل ادّعاء باطل، وإنّ ادّعاءهم في ألوهية فرعون وربوبيته ادّعاء خاطئ بدليل أنّه لم يكن قادرا على إنجاء نفسه من عذاب الله واِنتقامه.

- ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾ (56) :

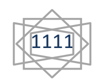
وهكذا جعل ما حدث لفرعون وجنده وملئه آية عقاب للمشركين ودرسا للاعتبار به لمن يأتي بعدهم وعظة.

- ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ (57) :

من التّهم التي رمى بها المشركون النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما بلّغهم بنبوّته أنّ بعضهم قد قال: "إنّ محمدا كان يريد أن نعبده كما عبد النّصارى عيسى فأُنزلت هذه الآي. وروى ابن عبّاس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لقريش: "يا معشر قريش لا خير في أحدٍ يُعبد من دون الله" قالوا: أليس تزعم أنّ عيسى كان عبدا نبيئا وعبدا صالحا، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله. فأنزل الله هذه الآي. فهذه الآية إلى الآية 65 في تبرئة عيسى ممّا كانوا يقولون، والمعنى: ولمّا ذُكر خبر نبوءة اِبن مريم إذا قومك من قريش يضجّون بالضحك ويصخبُون.

- ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ (58) :

وقالوا – عند صخَبِهم – أنعبد آلهتنا خير أم (هُوَ)، وكان بعضهم يقصد عيسى بهذا الضمير، وقصد آخرون محمد صلّى الله عليه وسلّم، وما ضربوا بعيسى المثل في عبادة النّصارى له إلاّ إرادة الجدل والخصومة. بل إنّ هؤلاء المشركين قوم مجادلون بالباطل لمجرد الصخب. روى الترمذي عن أبي أمامة قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ما ضلّ قوم بعد هُدًى كانوا



عليه إلاّ أوتوا الجدل". ثمّ تلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذه الآية (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ). والمستفاد من هذه الحكمة النّبويّة ترك الجدال وِاجتنابه عند الاجتماع للنّظر في المسائل التي تهمّ قضاء مصالح الأمّة. فما نراه في المجالس التشريعيّة عند مناقشة قضايا الأمّة الهامّة والأساسيّة ذات البُعد الاجتماعي أو الاقتصادي أو التنموي لتحقيق المنافع للنّاس من تحوّل المناقشة من النّظر فيما يجب فعله لتحقيق المصالح العامّة إلى جدال وخصام للتراشق بالتّهم أو لاستفزاز البعض هو فعلا من البُعد عن الهدى، وهو ضرب من سوء التّصرّف، وضرب من تعطيل المصلحة العامّة وإيصال النّفع للنّاس.

- إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَاءِيلَ (59) :

إنّ عيسى عبد من عباد الله تعالى أنعم الله تعالى عليه بالنّبوّة، وجعل ولادته آية من آيات الله الدالّة على عظيم قدرته، إذ وُلد بدون أب، من مريم البتل لم يمسسها بشر، وجعله يحيي الموتى بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام بإذن الله تعالى، وجرت على يديه آيات لبني إسرائيل تدلّ على عظيم قدرة ربّه عزّ وجلّ.

- وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) :

ولو شاء الله تعالى لاستبدل سكّان الأرض بالملائكة، وجعلهم خلفاء للبشر في الأرض، ويعمرونها. والغرض من هذه الآية التأكيد على أنّ رسل الله إنّما يكونون من جنس الذين يرسل إليهم رسله، ولا يكونون مختلفين عليهم، وليكونوا معروفين عندهم بصدقهم وأمانتهم وصلاحهم، وليكونوا غير متميّزين عليهم، وليكونوا قدوة لهم في طاعتهم لربّهم وسلوكهم، وليخاطبوهم بلغتهم، وليكونوا أمثالهم في معاشهم وحياتهم الدنيوية وفي سعيهم وفي زيجاتهم وفي معاملاتهم مع محيطهم البشري، لذا لا يكون رسل الله للبشر من غير جنس البشر، وحين يكون على الأرض ملائكة فإنّ رسول الله إليهم يكون ملكا ولا يكون من جنس البشر.

- وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (61) :

وإنّ عيسى الذي رفعه الله تعالى إليه ليحفظه من مكر الماكرين سيعود إلى الأرض حين تقترب الساعة لهدي النّاس ولإنقاذهم من سوء عاقبة إتيان المعاصي، وإنّ ظهوره سيكون علامة يعلم بها قرب الساعة، ظهوره علامة من أشراط الساعة، كذا أجمع المفسّرون على تفسير هذه الآية على هذا النحو، إلاّ ابن إسحاق قال فيها: وإنّ إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة، وبعث الموتى، وهذا قول محمّل ولا يُردّ، ويناسب سياق معنى الآيات في هذه الفقرة. فلا تشكّوا في قيام السّاعة، ولا تكذّبوا بها، ولا تجادلوا فيها فإنّها قائمة لا محالة. والخطاب موجّه لمشركي العرب. (وَاتَّبِعُون) وِاستجيبوا لدعوة محمد صلّى الله عليه وسلّم في التوحيد، واتّبعوه فيما يدعوكم إليه من طاعة اللهومن

العمل بشرعه، ومن نبذ الشرك. وكونوا على طريق قويم إلى الله عزّ وجلّ، والطريق إليه يكون بالاستقامة على شريعة الإسلام، فكونوا مسلمين تهتدوا إلى صراط الله المستقيم.

- وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (62) :

ولا تتركوا الشيطان يتغلّب عليكم بوساوسه ليبعدكم عن ذكر الله تعالى وعن طاعته، لا تسمعوا له حتى لا يبعدكم عن ذكر الله ويصرفكم عن مرضاته. إنّ الشيطان لكم عدوّ واضح لا يحبّ لكم الخير ولا يرضى لكم الإيمان.

- وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) :

ولمّا أرسل عيسى لبني إسرائيل قال لهم قد جئتكم بالمعجزات الدالّة على صدقي في إحياء الموتى والإنباء بالغيب، وبخلق الطير بإذن الله وإبراء الأسقام، وجئتكم بالنّبوّة ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه من الحلال والحرام ممّا كان منكم من تبديل في التوراة، فاتقوا الله تعالى فيما تعتقدون، فلا تشركوا به أحدا، ولا تعصوه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، وأطيعوني فيما جئتكم به من شرع من عند ربّكم.

- إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (64) :

إنّ ما أدعوكم إلى عبادته وطاعته هو ربّي وربّكم فاعبدوه لا تعبدوا سواه، وإنّ من عبادته طاعته فيما أمر به وفيما نهى عنه، هذا هو الطريق إلى الحقّ، وكلّ طريق سواه باطل ومضلّ عن سبيل الله تعالى.

- فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) :

ولمّا أخبر عيسى قومه بنبوّته وبدعوته لتوحيد الله وتصحيح ما حرّفوه من التوراة اِختلفوا عليه فرقا وجماعات منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون، كذّب به من كذّب، ومكر به الماكرون ليقتلوه، وشاقّه آخرون، والويل للذين كفروا به من عذاب يوم القيامة، سيلقون عذابا موجعا شديد الإيلام.

- هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) :

الخطاب في هذه الآية موجّه لمشركي قريش، وجاءت هذه الآية وما بعدها إلى الآية 83 في التّرغيب في التّقوى للفوز بنعيم الآخرة، وفي التّرهيب من عذاب جهنّم بسبب الكفر للتّحذير منه، والشّرك أعظم الكفر. والمعنى: ماذا ينتظرون ليؤمنوا بالله وحده، وليستجيبوا له ولرسوله؟ هل ينتظرون أن تفاجئهم الساعة ليؤمنوا.. إنّ السّاعة لا تقوم إلاّ فجأة دون أن يشعروا بدُنُوّها، وليست لها علامات مسبقة ليسارعوا بالتّوبة وبالإيمان؟ ستأتيهم على حين غفلة دون أن يفطنوا إلى حلول موعدها، ستأتيهم وهم عنها منشغلون بأمور دنياهم.

- ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (67) :

ويوم تقوم الساعة يتبرّأ الأصحاب المتلازمون على المعاصي من بعضهم، وكلّ واحد منهم يعادي الآخر لأنّه زيّن له المعصية إلاّ الأصحاب الأتقياء فإنّهم يُسَرُّون بملاقاة بعضهم، صداقة المتّقين لبعضهم نافعة.

- ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ (68) :

ويدعون يومئذ لتبشيرهم بأنّه لا خوف عليهم من شدّة الحساب ومن سوءِ العاقبة، وبأنّه لن يحزنوا على ما فاتهم من نعيمهم وأُنسهم في دنياهم لأنّهم سيجدون ما هو أفضل منه في آخرتهم. وإنّ المتحابّين في الله يستظلّون بظلّ العرش يومئذ.

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ (69) :

هذه في صفة من صفات من ناداهم الله تعالى بـ (يَٰعِبَادِ) في الآية السابقة وهذا نداء تشريف لوجود الإضافة لياء المتكلّم، وهم الأخلاّء المتقون: إنّهم الذين آمنوا بوحدانية الله تعالى وصدّقوا بكتابه وأخلصوا له في الدّين والطّاعة، وكانوا على ملّة الإسلام التي جاء بها محمد صلّى الله عليه وسلّم في رسالته: عقيدةً وشريعة، والتي اِرتضاها الله تعالى لعباده المؤمنين.

- ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ (70) :

ويوم القيامة يَمُنُّ الله تعالى عليهم بإدخالهم جنّة التكريم والنّعيم، ويأذن لأزواجهم أن يدخلن معهم من تمام الإنعام عليهم للتمتّع بالإنس والخُلَّة التي كانت بينهم في دنياهم، وليكونوا بهذا الأنس مسرورين سرورا عظيما، وهذا هو الحبور.

- ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (71) :

ويقُدَّمُ لهم الطعام في قصاع مصنوعة من الذهب كما يقدّم الطعام من مثل هذه القصاع للملوك والمكرّمين من علية القوم، وتُقَدَّمُ لهم أقداحُ الشّرب واللّبن والعصير، ولهم في الجنّة كلّ الأصناف من الغلال والثمار من كلّ ما تشتهيه أنفسهم، وكلّ ما تراه الأعين فترغبه، وهم خالدون في هذا النّعيم لا يخرجون منه.

- ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ (72) :

وتلك الجنّة مكنّاكم من الإقامة فيها حيثما تشاؤون تكريما لكم، وجزاء لكم على إيمانكم وطاعاتكم وذكركم لربّكم ولأعمالكم الصالحة، وإجتنابكم المعاصي، ولمقاومة أهواء أنفسكم ووساوس الشيطان.

- ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ (73) :

ولكم فيها الفواكه من كلّ صنف لتأكلوا منها في مجالس أنسِكم تكريما لاستضافتكم.

- **إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (74) :**

وفي المقابل، وعلى نقيضهم فإنّ المجرمين الذين أجرموا في حقّ أنفسهم بالكفر وبعمل المعاصي وبإعراضهم عن ذكر الله تعالى فإنّ مستقرّهم سيكون في عذاب جهنّم يقيمون فيه إقامة دائمة لا يخرجون منه.

- **لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ (75) :**

ولا يُخفَّفُ عنهم العذاب، وهم فيه يائسون من النّجاة منه أو الإفلات.

- **وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ (76) :**

وما ظلمناهم بهذا الحكم، فقد سبق إنذارهم به ولكنّهم إستخفّوا بالوعيد وهزؤوا به وكذّبوا به، وأعرضوا عن الطاعات، وغرّتهم الحياة الدنيا، وأنكروا القيامة وكذّبوا بالحساب فكانوا هم الظالمين لأنفسهم بالكفر وبالغفلة عن العمل للآخرة.

- **وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ (77) :**

وإنّهم من شدّة ما يلقون من العذاب المستمرّ الذي لا ينقطع عنهم، يتمنّون الهلاك والموت الأبدي ليستريحوا ممّا يلقون، فيطلبون من خازن جهنّم (مالك) أن يطلب لهم من الله تعالى الموت ليستريحوا ممّا هم فيه، فيقول لهم إنّ هذا العذاب مُلازِمُكم، وإنّكم باقون فيه أبدا.

- **لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (78) :**

لقد جاءكم رسل ربّكم بالدّين الحقّ، وجاؤوكم بهدى الله تعالى ومواعظه وشرعه، ولكنّكم كرهتم إتّباعهم، وأعرضتم عن السماع لهم، وكرهتم طاعة الله والانضباط لشرعه وهديه، فتحمّلوا الآن عاقبة أمركم التي إخترتموها لأنفسكم وقد أُنْذِرتُمُوها.

- **أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ (79) :**

بل أحكموا كيدا لأنبيائهم ورسلهم، وشاقّوهم، وهدّدوهم، وأحكم الله تعالى لهم أمرا لا يفوتهم، ولا يُنقذون منه، وما يلاقونه من عذاب الآخرة هو ممّا حذّرهم منه، وممّا توعدهم به، فحقّ فيه أمرهم، وذهب كيدهم سُدًى.

وفي هذا العرض تحذير لمشركي العرب من هذه العاقبة السيّئة ليتعظوا وليخشوا ربّهم وليتّبعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وحتى لا يشاقّوه، فإن لم يفعلوا فقد حقّ عليهم ما أبرمه الله لهم وأنذرهم منه.

- **أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ (80) :**

ضمير الجمع للغائب الذي في هذه الآية والموالية لها عائد على مشركي مكة، وهذه الآية إلى الآية 87 في التحذير من الشرك. والمعنى: أم يظنّ هؤلاء المشركون أنّ الله غير مطّلع على

ما يقولون في سرّهم في محاوراتهم الخفية فيما بين بعض أفرادهم مُراكَنَةً من إضمار الشّر برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبأتباعه المؤمنين، ومن تدبير للتشويش عليهم عند قراءتهم للقرآن أو أثناء صلواتهم أو عند حديثهم لموعظة بعض الناس. كلاّ إنّ الله تعالى يسمع كلّ ما يجري بينهم من حديث ومن كيد وتآمر، وإنّ الملائكة حاضرون في مجالسهم ويكتبون عليهم جميع ما يصدر عنهم من قول ومن تدبير ومن عمل: صغيره وكبيره، خَفِيه وعلانيته، قال تعالى (مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ)(ق الآية 18) وسيحاسبون عمّا يصدر منهم يوم القيامة.

- **قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ (81) :**

أخبرهم – يا محمد – لو كان لله تعالى ولد – على سبيل الافتراض، لكنتَ أوّل عابد له، وهذا غير وارد لأنّه ليس لله صاحبة ولا ولد، (لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ)(الإخلاص الآية 3).

- **سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) :**

تنزّه الله سيّد المخلوقات في السماوات وفي الأرض، وهو صاحب العرش عمّا ينسبون إليه باطلا وإفتراءً.

- **فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (83) :**

فاتركهم –يا محمد –يتكلّمون في باطلهم، وأعرض عنهم، ودعهم لشأنهم في إنشغالهم بزينة الحياة الدنيا ولهوها حتى تقوم الساعة ويحضروا اليوم الموعود للحساب، ويومئذ سيلاقون ما أنذروا به.

- **وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ (84) :**

وهذه في التأكيد على عقيدة التوحيد. الله تعالى هو الذي يُعبد في السماء، وهو وحده الذي يُعبد في الأرض، وليس من إلاه غير الله فيهما. هو المعبود بحقّ فيهما وهو المطاع بعبادته وطاعته، وهذا لإبطال عقيدة الشرك عند المشركين. وهو تعالى (ٱلۡحَكِيم) الذي يحسن تدبير شؤون المخلوقات في ملكوتيه: العلوي والسفلي، ويحسن تسيير أمورهم وتدبير حاجاتهم لضمان وجودهم وقيامهم إلى آجالهم. والحكيم هو الموصوف بكمال العلم وإحسان العمل والتّقويم. وهو (ٱلۡعَلِيم) لأنّ علمه شامل محيط بكلّ شيء صائر في ملكه، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عن علمه شيء، وهو سبحانه المتفرّد بعلم الساعة، وهو سبحانه العليم بغيب السماوات والأرض، وهو العليم حيث يجعل رسالاته.

- **وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (85) :**

(وَتَبَارَك) وتعاظم الله وكثُرت خيراته وبركاته، وتعالى علوّا كبيرا في عظيم ملكه، فهو المالك الحقّ للسماوات وللأرض وما بينهما من كائنات وفضاء واسع وغازات للحياة، وهو المالك الحقّ



للكواكب والنجوم والأجرام. وهو وحده الذي ينفرد بعلم الساعة، وزمن وقوعها. وإليه وحده يرجع جميع الخلق للحساب، ليس معه أحد يحاسب الخلق ويجمعهم إليه، لذلك هو الأحقّ بالتّقديس، وهو الأحقّ بالألوهية والطاعة والعبادة، وهو الذي يجازي العبد عن إيمانه وعن عمله، وهو الذي يعاقب الكافر العاصي المذنب، فهو الأحقّ بالخشية منه، وهو الأحقّ بالدعاء لطلب مرضاته وطلب النّجاة من عذابه، وهو الأحقّ بطلب عظيم فضله وكرمه ورزقه.

- **وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (86) :**

وهذه لإبطال معتقد من يظنّ أنّ الملائكة أو الجنّ أو القرابين التي تذبح للأصنام قد تشفع لعُبّادِها من العذاب والعقاب. والمعنى: إنّ كلّ معبود من دون الله تعالى لا يقدر على أن يشفع عند الله لعباده في شيء. لا يملك الشفاعة عند الله تعالى إلاّ من أتى الله بقلب سليم من الكفر ومن الشّرك، وكان يشهد بالحقّ ويجاهد في سبيل الله ومن أذن له بالشفاعة لصدق إيمانه وحسن عمله بالعدل والإحسان ورضي له قولا.

- **وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ (87) :**

وإنّ هؤلاء المشركين يقرّون في قرارة أنفسهم بأنّه الله تعالى هو الخالق، ذلك بأنّك إذا سألتهم عمّن خلقهم ليقرّون بألسنتهم بأنّه هو الله عزّ وجلّ الذي خلقهم إقرارا بيّنا، ولكنّهم في عبادتهم ينصرفون عنه إلى عبادة غيره من الأصنام أو ممّا يعتقدون خطأ بأنّه القادر على حمايتهم وعلى حفظهم من المكاره.

- **وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ (88) :**

هذه الآية في طلب الرسول صلّى الله عليه وسلّم من ربّه عُذْره في أنّه لم يُوفَّق في إقناع قومه للإيمان به وحده وفي الاستجابة لله تعالى ليدعوا شركهم، فقال في نفسه، ولم يفصح بهذا القول إفصاحا بيّنا، ولذلك جاء الفعل مَبْنِيًا للمجهول: "قيل" قال معتذرا: يا ربّ إنّ هؤلاء من قومي لا يصدّقون بما أرسلتني به من وجوب الإيمان بك وحدك إلاها ربّ العالمين.

- **فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (89) :**

وتختم هذه السّورة بهذا الإرشاد الرّبّاني للمبدإ العام الذي يجب التّعامل به مع المُعارضين عموما. يرشدنا الله تعالى وهو الحكيم العليم لأن نتعامل مع المعارضين الذين لا يقبلون الرّشاد للخير عنادا ومكابرة أو عن جهل بـ"الصفح". والصفح هو الإعراض عن أذاهم فيما يقولون دون التّنازل عن المثابرة للدعوة لما ينفع النّاس في دينهم ودنياهم ولعاقبتهم بالحكمة والحجّة والموعظة الحسنة، والصفح ضد العنف، وضد الإرهاب. ذلك لأنّ الإيمان شعور ذاتي في الإنسان إن لم يكن عن قناعة ذاتيّة وعن اِقتناع فإنّه لا يُثاب عن إيمانه، ولا يكون الإيمان بالإكراه. وبالصفح

وبالتّعامل بالحسنى وبالإقناع بالحجّة والبيان مع المثابرة على الدعوة للإيمان بصدق وإخلاص وإحسان يبلغ الداعي غايته مع الذين يهديهم ربّهم للإيمان ويوفقّهم إليه. (وَقُلۡ سَلَٰمٌ) ومع الذين يصرّون على كفرهم وشركهم، ورفضهم للاستجابة لله ولرسوله، فدعهم لشأنهم، وقل سلام، لكم دينكم ولي دين. و(سَلَٰم) هنا لا يدلّ على التحيّة، وإنّما هو بمعنى لكُلٍّ منّا شأنُه. (فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ) ويوم القيامة يُفصل بينكم، وسيعلم الذين ظلموا والذين ضلّوا والذين لم يستجيبوا لربّهم أيَّ مُنقلبٍ ينقلبون، وسيعلمون من كان منكم على حقّ، ومن كان على باطل وضلالة: فدعهم لشأنهم إذا رفضوا التّصديق بما جئتهم – يا محمد – نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.

آياتها	ســــورة الدخــــــان	رقمها
59	ـــــ مكيّة ـــــ	44

سمّيت هذه السورة بسورة "الدخان" لورود لفظ الدخان فيها. والدخان هو الذي أُبتلي به المشركون فأصابهم جفاف وقحط شديد. وبما أنها مكيّة فإنّ مواضيعها في التركيز على العقيدة السليمة، ولمّا كانت من سور "الحواميم"، فإنّها بدئت بالثّناء على القرآن الكريم، وبتشريف ليلة إنزاله، ثم ذكّرت بقدرة الله تعالى في عقاب المكذّبين كالذي حدث أيّام الدخان، وذكّرت بعاقبة فرعون لمّا شاقّ رسول الله موسى عليه السلام فلم ينفعه ماله وجاهه بل خسرهما ولم ينتفع بما كان عليه لينجو من العقاب، وهذا للتحذير من سوء عاقبة الكفر، وفي السورة وعد ووعيد، ومشاهد من التكريم في الآخرة للتّرغيب، ومشاهد وصور من العذاب للتّرهيب، وأكّدت على الإيمان بالبعث.

- حمٓ (1) وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (2) إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) :

حم، قسما بالقرآن الواضحة دلائله ومعانيه والواضح في إرشاده للهدي الحقّ، والمبيّن لشرع الله تعالى، إنّ تنزيله من اللوح المحفوظ على مُحمَّد صلّى الله عليه وسلّم بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام كان في ليلة كثيرة البركة، لأنّ تنزيله إلى الأرض لهدي النّاس أجمعين عظيم البركة على عباد الله تعالى لما فيه من بشائر بالخير للمؤمنين به وبما جاء فيه من هدي للإيمان الحقّ ولشريعة الله تعالى، وهي ليلة كثيرة البركة لأنها ليلة تنزيل النّور الهادي لطريق الله المستقيم من لدن الرّحمان الرّحيم، فهي ليلة تنزيل الرّحمة وتنزيل النّور وتنزيل الهدى. ولقد كنّا في هذا الكتاب منذرين المعرضين عنه والمصرّين على معاصيهم ورفض هدي الله تعالى بعذاب الله يوم الرّجوع إليه عزّ وجلّ للحساب. وهذه الليلة كانت من إحدى ليالي شهر رمضان والذي جاء تسميتها بليلة القدر.

- فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ (4) :

هذه في فضيلة ليلة التنزيل، وهي تتمة للثّناء على القرآن الكريم وليلة تنزيله. في هذه الليلة من كلّ عام يُفَصِّلُ ويُبَيِّنُ كلّ أمر يقضيه الله تعالى ويقوم على الحكمة في التّدبير وتقدير المصالح لخلق الله تعالى ولملكوته. وعِلْمُ هذا الأمر من الغيبيات، ممّا يستأثر الله تعالى بعلمه، وقد قيل في هذا الأمر الكثير من الآراء التي لا تستند إلى رواية صحيحة ثابتة، أو حجّة ثابتة، وما يؤكّد رأيي هذا هو قوله سبحانه وتعالى في الآية الموالية.

• أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ (5) رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (6) :

فهذا الأمر لا يعلمه أحد لأنّه من عند الله عزّ وجلّ، وليس لأحد من علم بما عند الله ويقضيه في زمنه. وقد جاء لفظ (أَمۡرٗا) ها هنا نكرة للدلالة على أنّه غير معلوم. وإنّه تعالى يرسل في هذه الليلة المباركة رحمةً من عنده، لذلك كانت ولا تزال مباركة لما فيها من إرسال رحمته فيها. وجاء لفظ (رَحۡمَة) نكرة، وهي (مِّن رَّبِّكَ) أي من حكمة تدبيره، فهذه الرحمة هو الذي يقدّرها وهو الذي يعيّنها ويرسلها، ولا أحد يعرف صنف هذه الرحمة، والمسلمون يتفاءلون بها خيرا. وعند (الزمخشري) فقد ورد هذا اللفظ (رَحۡمَةٗ) منصوبا على الاختصاص، أي يختصّ الله وحده بإرسالها، وهي من أمره ومن حكمته. وقد أعجبني رأيه في هذا الإعراب الذي تفرّد بذكره. إنّه تعالى هو (ٱلسَّمِيعُ) الذي يسمع أدعية عباده، ولا يشغله دعاء عن دعاء، ولا تمنعه إجابة دعاء شخص عن إجابة دعاء آخر، وهو (ٱلۡعَلِيمُ) بحاجاتهم، وبما يصلح شؤونهم، والعليم كذلك بما يردّ كيد الكائدين بعباده المؤمنين وبما يمنع عنهم أذى أعدائهم، وهو العليم بما يصلح لقيام ملكوته قياما حسنا منتظما.

وأمّا (الرّحمة) التي أنزلها تعالى ليلة التّنزيل، في تلك الليلة المباركة فهي معلومة، إنّها بعثة النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم برسالته التي كانت رسالة رحمة للعالمين، فهو صلّى الله عليه وسلّم رحمة للعالمين، وهو صلّى الله عليه وسلّم الرحمة المُهداة، وأرسل بالقرآن: كلام الله العزيز، وهو كتاب هدى ورحمة للمؤمنين. ويرسل تعالى رحمة من لدنه في موعد ليلة التنزيل من كلّ عام، وهذه من علم الله تعالى بما تقتضيه حكمته جلّ وعلا، ولذلك رغّب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في إحياء ليلة القدر بالإكثار من الدعاء وهو تعالى السميع العليم، وبالذّكر طلبا لرحمته.

• رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (7) :

إنّ الذي أنزل القرآن ليلة التّنزيل، والذي أرسل محمدا رحمة للعالمين هو ربّ السماوات والأرض وما بينهما وخالقهنّ ومدبّر أمرهنّ والقائم عليهن إن كنتم على يقين بأنّه ليس للسماوات والأرض وما بينهما من خالق إلاّ الله عزّ وجلّ، فإن كنتم موقنين بأنّه سيّد هذين الملكوتين: العلوي والأرضي فآمنوا بالتّنزيل وصدّقوا به وصدّقوا بالرسول الذي بُعِث رحمة للعالمين واِتّبعوه لعلكم تهتدون.

• لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (8) :

إذا علمتهم علم اليقين أنّ الله سبحانه هو ربّ السماوات والأرض وما بينهما فأُعلموا أنّه ليس لكم من إلاه إلاّ هو، ليس لكم من إلاه غيره، فلا تعبدوا إلاّ هو، ولا تُطيعوا إلاّ هو، ولا تدعوا غيره، وهو الذي يحيي وهو الذي يُميت، هو صاحب الفضل عليكم بإحيائكم وإيجادكم وإخراجكم للدنيا، وهو الذي يحدّد آجال حياتكم فلا تطلبوا غيره ليحييكم حياة طيّبة ولا تشكروا غيره، ولا

تغفلوا عن ذكر فضله عليكم، وإنّه تعالى هو الذي خلق آباءكم الأوّلين من قبل، فليس لكم ولآبائكم ربّ غيره فاشكروا له، واطلبوا رضوانه، ولا تنصرفوا عن عبادته لعبادة غيره.

- بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ (9) :

هذه الآية إلى الآية 16 فيما أصاب مشركي مكة من شدّة ليعرفوا قدرة ربّهم عليهم ليؤمنوا، وليعلموا فضله عليهم حين فرّج كربتهم ليشكروا له وليطيعوه ولِيدَعوا عبادة سواه الذي لم يسعفهم بتفريج شدّتهم لمّا أصابتهم.

والمعنى: بل إنّ هؤلاء المشركين قد شكّوا في صدق نبوّة رسولهم، وفي صدق الوحي والقرآن، وفي التوحيد، وِاختلطت عليهم الأمور لأنّهم يعلمون أنّ محمد صلّى الله عليه وسلّم صادق أمين لا يكذب، ويعلمون من فطرتهم أنّ الله تعالى هو الذي خلقهم، وأنّه تعالى هو خالق الوجود كلّه، فانصرفوا عن النّظر في الدلائل التي جاء بها التّنزيل إلى نواديهم يلهون ويمرحون ويتندّرون ويخوضون في حديث آخر غير الحديث عمّا جاءهم به رسولهم تعطيلا لعقولهم.

- فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ (10) :

من المفسّرين من رأى في هذه الآية تحذيرًا للمشركين والكافرين من مُفاجأتهم بقيام الساعة فيفوتهم زمن التوبة من شركهم فيعذّبون في دنياهم بالدخان الخانق الذي سيظهر عند اِقتراب الساعة، وعلى هذا فالدخان لم يأت بعد، وإنّما جاء ذكره للترهيب ترغيبا في الإسراع للإيمان، وجاء في الآية فعل (فَٱرۡتَقِبۡ) ممّا يدلّ على أنّ هذا الدخان لم يأتِ بعدُ. وقال بهذا الرأي عليّ، وابن عبّاس، وابن عمر، وأبو هريرة، وزيد بن علي، وابن أبي مليكة، وفي صحيح مسلم عن حذيفة حديث عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم فيه ذكر الدخان على أنّ ظهوره من أشراط الساعة، ومن المفسّرين من ذكر اِستنادا على ما جاء في صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن الترمذي عن الأعمش عن مسلم عن مسروق قال عبد الله: إنّما كان هذا الأمر لأنّ قريشا قد اِستعصت على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم دعا عليهم بسنين كَسِنين يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى هذه الآية... قال فأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقيل له: يا رسول الله، اِستسق الله لمُضر فإنّها قد هلكت، فاستسقى فسُقُوا...

وللخروج من هذا الاختلاف في الرأي وفي الاستشهاد بالحديث وأقوال الصحابة أقول بأنّ الآية في التحذير من عقاب الله تعالى وعذابه في الدنيا قبل الآخرة، وهذا للترغيب في الإسراع لمغفرة من الله عزّ وجلّ وللترغيب في الإيمان والعمل الصالح، ولتجنّب الكفر والشكّ في الرّسالة وفي القرآن، وللانصراف عن اللهو للجدّ في العمل وفي الطاعة لله عزّ وجلّ، والمعنى: فانتظر

– يا محمد– يوم يُفَاجَأُ القومُ بانتشار دخان كثيف في السماء ينذر بالقحط، وبالتضييق على الأنفاس، وينذرهم بالهلاك إختناقا ليعرفوا قدرة ربّهم عليهم فيُسارعون للدعاء له ليفرّج عنهم كربهم، وعندئذ يصدّقون بالوعيد وبالرّسالة. ولا أشكّ في الرّوايتين المختلفين عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالرّواية الأولى قد جاءت إجابة عن سؤال أحد الصحابة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن أشراط الساعة، فأجابه بأنّ من أشراطها ظهور الدخان، وهذا أمر مُؤَكّد حينما يقع الانفجار الأعظم بانشقاق السماء وزلزلة الأرض، وأمّا الرواية الثانية فهي في الإخبار عمّا جدّ زمن البعثة في مكة حينما طغى أهلها ولم يؤمنوا فآتاهم الله تعالى آية من آياته لتخويفهم بها ليسارعوا للإيمان وللاستغفار رحمة بهم، وربّ ضارّة نافعة، وهذا كما حدث في مصر زمن موسى حينما أرسل الله تعالى عليهم آياته التي ضجّوا منها من مثل الدم والقمل.. فلكلّ رواية زمنُها وسببُها ومكانُها. الثانية بمكة والأولى جاءت بالمدينة، ولم يظهر بالمدينة دخان.

وإنّ هذه الظاهرة الطبيعية التي أصابت القوم بالاختناق، وبالجوع والقحط والاختناق من أقرب الأسباب لهلاك الإنسان وقضاء نحْبِهِ، وأمّا الجوع والقحط فهما من أسباب الموت البطيء بالعذاب: عذاب العطش والهزال العليل تذكّر بما أصاب أقواما على وجه الأرض حينما اِجتاحتهم جائحة (فيروس كورونا – كوفيد19) : ووجْه التّشابه في الإصابة بضيق التّنفّس وإصابة الرئتين والشعور بالاختناق وتعطيل حاسّة الشمّ ممّا يجعل المُصاب شديد الحاجة للأكسجين ولاسترداد أنفاسه. وقد أظهرت الجائحة عظيم حاجة جميع النّاس للماء للشرب ولغسل اليدين وتعقيم الأماكن وغسل مواد الطعام، وتهافت النّاس على المواد الغذائيّة خوفا من الجوع، وصار همّ النّاس ألا يجوعوا وألاّ يعطشوا وألاّ يمرضوا، وخاف الجميع من الموت والهلاك فكثرت أدعيتهم إلى الله تعالى ليرفع عنهم الداء والوباء والبلاء، وعرفوا في شدّتهم هذه ربّهم فأقبلوا عليه بالتضرّع، وصلح شأن الكثير من النّاس في تديّنهم وفي خوفهم من ربّهم، فكانت هذه الجائحة آية من آيات ربّهم ليردّهم إليه. قال تعالى في آخر سورة النّمل (وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)(النمل الآية 93) ولْيَحمد الله تعالى كثيرا كلُّ من وجد طعامه وشرابه وعافيته في تنفسّه وفي صحته وقوّته...

- **يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) :**

حين يظهر هذا الدخان الذي يضيّق على النّاس أنفاسهم فيموت من يموت منهم إختناقا، ويجوع آخرون فيهلك بعضهم ويتعب آخرون من جوعهم، ويقحطون فلا يجدون ماء ليشربوا وليسقوا أنعامهم، عندئذ سيعذّبون العذاب الأليم بالخوف من الموت أو الهلاك جوعا وعطشا أو إختناقا.

- رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ (12) :

هذه الآية كالدُرَّة في هذه السورة، وهي بارقة الأمل والرّجاء بعد الحديث عن هول العذاب بدخان السماء، وقد عذّب تعالى قوم شعيب بهذا العذاب، عذاب الدخان والاختناق، وسمّاه عذاب يوم "الظلّة"، وأهلك الكافرين به، وقد جاء خبره في قوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ)(الشعراء الآية 189) جاءت هذه الآية في إرشادنا – وهو إرشاد من الله عزّ وجلّ، وهو العليم بما يجب الدعاء به ليرفع عن عباده البلاء ويكشف عنهم الكرب، فقال: ادعوا ربّكم فقولوا (رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ) أي ادفعه عنّا وارفعه عنّا، وسلّمنا منه فإنّا عبادك المؤمنون الطامعون في رحمتك الملتجئون إليك فلا ملجأ لنا إلاّ إليك. ولكم تمنّيت عند اِنتشار جائحة الكورونا أن يدعو جميع النّاس بهذا الدعاء الذي أرشدنا إليه تعالى إذا اِشتدّ عليهم الكرب!

- أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ (13) :

عودة لمشركي مكة: من أين لهم الاتّعاظ بما جاءهم من الكرب لتخويفهم، ومن أيّ وجه يتأتّى لهم التذكّر وقد جاءهم رسول يعرفون صدقه وأمانته بكتاب الله تعالى لإرشادهم فكذّبوه ولم يصدّقوا به، ولقد جاءهم بالحقّ.

- ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ (14) :

ولمّا جاءهم بالهدى من عند ربّهم أعرضوا عنه ولم يسمعوا له، واِتّهمه بعضهم بأنّ ما يتلوه عليهم من القرآن إنّما هو كلام من عنده علّمه واحد ممن عنده علم بأخبار الماضين، واِتّهمه آخرون بأنّه مجنون، وليس برسول، فما أبعدهم عن الاتّعاظ وعن الذكرى.

- إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ (15) :

ولقد رفع الله تعالى عنهم العذاب وسقاهم ورفع عنهم غُمّة دخان السماء، وإنّه كشفٌ لزمن قليل، وإنّهم لن يُوفُوا بعهدهم للإيمان حين يُكشف عنهم العذاب، سيعودون للتّكذيب وسيستمرّون في شركهم، وإنّهم راجعون إلى الله تعالى يوم القيامة، وسيعرفون عاقبة كفرهم إن لم يؤمنوا.

- يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (16) :

فانتظر يوم نأخذ زعماء الكفر والتّكذيب والذين يرفضون الإيمان بالشدّة والقوّة، وقد أخذوا يوم بدر، وفي معارك أخرى، وسيُؤْخذون بالعذاب يوم القيامة أخذا بعذاب شديد الإيلام، والله ذو اِنتقام شديد من الذين يفترون عليه بالكذب بنسبة الشّرك إليه، والذين يصدّون النّاس عن سبيله وعن الإيمان.

- وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ (17) :

هذه إلى الآية 33 في الاعتبار بما حدث لفرعون بسبب تكذيبه لموسى، وهي لتحذير مشركي العرب من سوء عاقبة الكفر والتكذيب برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد كان فرعون

أشدّ منهم قوّة وبأسا وثراءً وجاهًا وسلطانا. والمعنى: ولقد اِمتحنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون في طاعاتهم لربّهم ولرسولهم، وقد جاءهم موسى بهدي الله، وكان رسولا محمود الخصال والأفعال.

- أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ (18) :

وقد طلب منهم موسى أن يرسلوا معه قومه من بني إسرائيل ليغادروا مصر إلى أرض أخرى ليتحرّروا من الاستعباد والاستغلال وتسخيرهم لخدمتهم قهرا وقسرا، وأخبرهم بأنّه رسول من عند ربّهم، وأنّه أمين في تبليغهم رسالة ربّهم وصادق.

- وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ (19) :

ودعاهم لأن لا يتعاظموا على الله عزّ وجلّ، وأن لا يتكبّروا على طاعته، وأخبرهم بأنّه قد جاءهم بحجّة وبرهان واضح يدلّ على صدقه في إبلاغهم بأنّه رسول من عند الله تعالى، وبأنّ ما جاءهم به هو من أمر الله تعالى ويقصد المعجزتين الواضحتين: العصا واليد.

- وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ (20) :

ولمّا رأى موسى منهم إعراضا واِستكبارا وصدّا عن الاستجابة لأمر الله، وسمع منهم اِتّهامه بالسحر والشعوذة قال لهم إنّي أستجير بالله تعالى منكم، وأعتصم به ليحفظني من كيدكم، ومن تهديدكم لي بقتلي على أعين النّاس رميا بالحجارة.

- وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ (21) :

وقال لهم: وإن كنتم لا تصدّقون برسالتي وبما أدعوكم إليه من الإيمان بالله وحده فدعوني لشأني وأتركوني.

- فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ (22) :

ولمّا ضايقوه اِلتجأ موسى إلى ربّه فدعاه أن يحفظه وقومه من ظلمهم ومن جرمهم. وصفهم بالمجرمين لأنّهم كانوا مستبدّين يستعبدون النّاس الأحرار ويستغلّون نساءهم لمآربهم ويهدّدون معارضيهم بقتلهم، وهذا هو الإجرام بعينه.

- فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (23) :

فأمره تعالى بأن يخرج صحبة قومه وأتباعه من أرض مصر ليلا، وأن يسْرِيَ بهم في ظلمته، وأخبره بأنّ فرعون وملأه سيفطنون لخروجهم وسيتبعون آثارهم ليلحقوا بهم.

- وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ (24) :

وحين يُشقُّ لك ولقومك البحر ليُفْتتح لكم فيه طريقٌ يَبَسٌ تمشون فيه لا تخشون عند دخوله غرقا، امْضِ فيه على النّحو الذي سخّره الله لكم، ولا تخشوا جند فرعون إذا اتّبعوكم ودخلوا البحر في الطّريق الذي سِرْتُم فيه، فإنّهم سيُغْرَقُون فيه حين يبلغون وسطه حيث عمقُه.



- كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ (25) :

يا حسرة عليهم! أصرّوا على الظلم والجرم، وعاندوا فيه فأُغْرِقُوا في اليمّ وخسروا ما كانوا فيه من نعيم الدنيا وتركوا من ورائهم بساتينهم وضياعهم وفيها آبار السقي، ولهم فيها من كلّ الثمرات.

- وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ (26) :

وودّعوا مزارعهم الخصبة وحقولهم التي كانت تدرّ عليهم من خيراتها لطعامهم وتجارتهم، وفقدوا بموتهم مقاماتهم العالية، ومراكزهم في دولتهم، وزعاماتهم.

- وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ (27) :

وكم كان عندهم من مظاهر النّعيم، كانوا فيها مرفّهين، متفكهين، وناعمين.

- كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ (28) :

كلّ ما كانوا فيه من نعيم ومن ثراء ومن مظاهر الفخامة والعزّة فقدوه بموتهم غرقا في اليمّ من حيث لم يحتسبوا، وضاعت عنهم تلك الأرزاق والممتلكات والجواري والمقامات العالية واكتسبها غيرهم، وتحوّلت عنهم أملاكهم إلى غيرهم من غير عناء كأنّهم ورثوها إرثا بلا مقابل..

- فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ (29) :

فما حزن أحد لفقدهم لا في السماء لكفرهم، ولا في الأرض لأنّهم كانوا ظالمين ومجرمين ولم يكونوا من ذوي الفضل، ولم تدُمْ حياتهم لينعموا بما كانوا عليه من الخير والنّعيم والرّفاه والتفكّه، قصفهم الموت فهلكوا غير مأسوف عليهم. والغرض المقصود من هذه الفقرة أن يعتبر كلّ من ولي أمرا من أمور الرعية، أو ولي أمرهم كلّه بزعامته ورئاسته وحكمه أو قضائه بهذه النّهاية الأليمة التي اِنتهى إليها فرعون وجنده، وليعلم الحاكم في البلاد مهما إعتزّ بجنده لكثرتهم وقوّتهم فإنّه إذا جاءه أمر الله تعالى فإنّ جنده مهما عظمت قوّتهم فإنّهم لا يستطيعون له شيئا إزاء قضاء الله، فالله تعالى أحقّ أن يُطلب حفظُه وتوفيقُه وأحقّ أن يُرْجَى لإنجائه من المهالك والشدائد، وهذا حتّى لا يكفر بالله عزّ وجلّ. ومن أراد أن يُذكر بحُسن الذِّكر من بعده، ويفتقده قومه من بعده عند شدائدهم وأزماتهم، وأحبّ أن يأسف النّاس لفقده إذا مات فعليه أن ينفع البلاد والعباد بما يصلح أحوالهم ويحفظ عليهم أمنهم وأرزاقهم وكرامتهم وبما يؤسّس لهم من مشاريع تنفعهم لحياتهم من مثل نشر المدارس والمصحات والمستشفيات ومراكز التكوين المهني في المهارات الصناعية واليدويّة. ليس المجد في إمتلاك القوة المعنويّة والمادية ومظاهر الثراء الفاحش وفي التعاظم والتفاخر على الناس، كلّ هذا من متاع الدنيا الزائل، "والإنسان حديثٌ من بعدِه" على قدر عزائمه ومنافعه للبلاد والعباد وإنشاء المصالح العامة وفي تأمين النّاس على أرواحهم وأعمالهم.

وقد شهدنا في حاضرنا عواقب جِدُّ سَيِّئة ومؤلمة لبعض من رؤساء الدول وزعماء أقوام وهيئات قضائية وحكّام ووزراء كانوا طغاة مستبدّين ظلموا النّاس وأرهبوهم وكتموا على أفواههم وسخّروهم لخدمتهم ولتمجيدهم ومدحهم، هم لا يستحقّون إلاّ ذمّ أفعالهم وسلوكهم. وكانوا قد كسبوا الكثير من غنائم الدولة، وملكوا القصور والمزارع والطائرة واليخت والسيارات، وكلّ مظاهر النّعيم والرّفاه، وإذا بهم بين عشية وضحاها اِنقلبت عليهم النّاس فلم ينفعهم جندهم لإنقاذهم من الغضب العارم لشعبهم، فقُتِل مَنْ قُتِل شرّ قتلة وتشفّى فيه من ظلمهم، ومنهم من هرب ونفى نفسه حتى مات في منفاه متحسّرا مريضا عليلا حزينا ولم يأسف أحد على موته، بل لا يُذكر إلاّ بسوء فعله وإجرامه وظلمه، ومنهم من حُبس في السجن فحُرم من كلّ نعمة وانقلبت عليه النّعمة فغدت عليه نكبة حتى مات حبيسا وقُبر ولم يمشِ في جنازته أحد. قد جرى عليهم ما جرى على فرعون وجنده زمن موسى، وفي هذا عبرة لمن يعتبر...

- **وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (30) :**

وبإخراج بني إسرائيل من أرض الفراعنة إلى الأرض المباركة، وبإغراق فرعون وجنده أنجاهم الله تعالى من عذاب الاستعباد والإذلال والمعاناة الذي كانوا فيه في مصر، وأنجاهم من كلّ مهانة.

- **مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (31) :**

وأنجاهم من فرعون الذي كان مستعليا على النّاس ومستكبرا، وكان من المتجاوزين حدّهم في الظلم واِستعباد الضعفاء.

- **وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (32) :**

ولقد اِختارهم الله تعالى فجعل منهم الأنبياء والرّسل على علم بالمهتدين منهم وبالفاسقين، اختارهم على عالم زمانهم.. ولمّا أرسل محمد صلّى الله عليه وسلّم بالإسلام جعل من أتباعه الصادقين خير أمّة أخرجت للنّاس.

- **وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ (33) :**

ولقد آتاهم الله تعالى من المعجزات: من مثل فلق البحر – على أعينهم– وإغراق فرعون وجنده فأشفى بإغراقهم صدورهم، ثمّ أنجاهم بعد أربعين سنة من التّيه وأخرجهم منه وتمّ لهم في هذا التيه إنزال المنّ والسلوى عليهم ليأكلوا، وأظلّهم بالغمام ليشربوا ويستظلّوا – فكشف عنهم بهذه المعجزات الشرّ الذي كانوا فيه والكرب، وكذا اِبتلاهم بالشدّة والرّخاء.

- **إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (34) :**

عودة لمشركي قريش مع هذه الآية إلى الآية 41، وهي في عنادهم، وفي تكذيبهم بالبعث، وفي تحذيرهم من سوء العاقبة يوم القيامة.

والمعنى: إنّ هؤلاء المشركين من أهل مكة وما جاورها يقولون في البعث...

- إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (35) :

يقولون ليس هناك البعث، فليس بعد موتنا من خروج من القبور، ليس بعد موتنا عودة للحياة.

- فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (36) :

وإن كنتم صادقين في دعواكم بأنّ هناك من بعد الموت بعثًا فأحيوا آباءنا الذين ماتوا وقُبِرُوا، وأعيدوهم للحياة. وخطابهم مُوَجَّه للرّسول صلّى الله عليه وسلّم وللمؤمنين الذين اِتّبعوه.

- أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (37) :

هذه في تحذيرهم من سوء عاقبة الشكّ في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وبعثهم بعد موتهم حتى لا ينتهوا بمثل ما اِنتهى إليه قوم تبّع الذين أهلكهم الله تعالى، وكان العرب يعرفون خبر هلاكهم رغم أنّهم كانوا ذوي قوّة وبأس وكانوا أكثر تعاظما من أهل قريش. وهؤلاء كانوا كهنة وكانوا كافرين وكانوا غزاة وأهل سيطرة على من يغزوهم في ديارهم، وكان منهم أبرهة الحميري صاحب الفيل الذي أراد أن يهدم البيت الحرام. وقد أهلك الله من قبلهم من كفر به وكذّب برسله وكذّب بالبعث وبيوم الحساب. وقوم تبّع هم سكّان اليمن، وكان أهل اليمن يسمّون مَلِكهم : "التّبْعة" بمثل ما كان يسمّى ملك فارس: "كسرى" وعند المصريين "فرعون"، وعند الروم "قيصر"، وعند المسلمين "الخليفة". ووجه الاعتبار في الآية إذا قدر الله تعالى على إهلاك قوم تبّع على قوّتهم وعظمتهم وهم خير من أهل مكة في الكثرة والعزّة فكيف بهلاك من هم أضعف منهم، إنّه أمر أكثر يُسْرًا، ومنَالاً؟

- وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ (38) :

هذه لإثبات قدرة الله تعالى العظيمة، فالذي خلق السماوات بكواكبها وأجرامها وبعظمتها والذي خلق الأرض بما فيها من خيرات وأسرار لا يعجزه أن يبعث الموتى من قبورهم. لم يخلق الله تعالى السماوات والأرض باطلا وعبثا، وإنّما خلقهما ليدلّ على عظيم قدرته، وليدلّ على أنّه لا يعجزه شيء، وأنّ الخلق لا يكون للعبث وللهو، وإنّما لحكمة، وقضى الله عند خلقه للإنسان أن يجعله مستخلفا في الأرض وقد تحمّل الإنسان مسؤولية الأمانة فوجب محاسبته عن عمله بأمانته وباستخلافه في الأرض بعد اِنقضاء مدّة عمله ومدّة تكليفه.

- مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39) :

ما خلقهما الله تعالى إلاّ لإقامة (الحقّ) وإظهاره، والحقّ الذي يريد إظهاره: ألوهيته، وتوحيده، وقدرته على الخلق وعلى فعل ما يريد، وهذا لإثبات قدرته على البعث، ولكنّ أكثر النّاس لا يدركون هذا الحقّ، وأبعاده.

- إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَـٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ (40) :

إنّ يوم القيامة الذي يفصل فيه بين الخلائق قائم وآتٍ، وسيكون موعدا لهم لجمعهم، ويومئذ سيعرفون أحقٌّ هُو...

- يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـًٔا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (41) :

يومئذ لا ينفع قريب قريبه، ولا صديق صديقه، ولا يدفع عنه شفيع ضرّه، ولا ينصر بعضهم بعضا بنجدة أو دفع أذًى.

- إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (42) :

إلاّ من رحمه الله تعالى برحمة منه، فإنّه لا يرى ضرّا ولا أذى إنّه تعالى (ٱلۡعَزِيزُ): وهو الذي لا يوجد مثله، ليس كمثله شيء، والذي ليس له ضدّ ولا شبيه، وهو الذي يصعب الوصول إليه، وهو القويّ الذي لا يُغلب. وهو الرّحيم بعباده المؤمنين في دنياهم وآخرتهم.

- إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (43) طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ (44) كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ (45) كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ (46):

هذه إلى الآية 50 في مشهد من مشاهد عذاب الجحيم، وقد وردت للتّحذير من الوقوع فيه ترغيبا في الإيمان والمداومة على الطاعات والعمل الصالح للنّجاة منه. والمعنى: فإنّ في الجحيم – مأوى الكافرين والعصاة المذنبين– شجرة خبيثة هي شجرة الزقوم، وسمّاها تعالى في (سورة الإسراء) : الشجرة الملعونة، والزقوم هو ما يُجْبَرُ على إبتلاعه غصبا وهو يكرهه لمرارته ونتانة رائحته، وهي شجرة تنبت في أصل الجحيم، وهي طعام (ٱلۡأَثِيمِ) وهو المذنب عظيم الذنب، وأعظم الذنوب: الكفر بالله تعالى والهزء بوعيده وعدم التّصديق بكلامه وكتابه. وينزل طعامها في بطن المذنب كالمعدن المذاب من نوع الرصاص، وحين يبلغ المعدة يشعر آكله غليانا في بطنه كغلي الماء الذي إرتفعت حرارته واشتدّت، فيشعر بحرقة شديدة مؤلمة داخله، والنّار من حوله تتّقد بجلده، إنّه عذاب شديد الإيلام، والعياذ بالله منه.

- خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ (47) :

وبعد أن يطعم الكافر المذنب الطاغية من هذا الطعام بالغصب والقوة ويُزَقُّ إيّاه زقًّا يقال للخزنة الموكل إليهم أمره خذوه بالقوّة وسُوقوه سوقا غليظا وبعنف إلى وسط النّار حيث تلتهب.

- ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ (48) :

ثمّ صبّوا فوق رأسه ماءً حارّا شديد الحرارة ليُعذّب به – والعياذ بالله.

- ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ (49) :

ويقال له تلذَّذْ بهذا العذاب يا صاحب العزّة والجاه والشّرف الرّفيع الذي لا يُقهر، ولا يقدر عليك أحد، وأنت صاحب المعالي العظيم الذي يكرّم في كلّ مجلس تشرّفه بحضورك. فهذا

للتّهكّم، والمقصود به تحذير الجبابرة الطغاة المتكبرين على النّاس من هذا العذاب المذلّ المُهين والأليم بالحرق بالنّار، وبالماء الحميم، وبالطعام الخبيث، فما أقسى عاقبة الملوك والسلاطين الذين ظلموا النّاس، وإستكبروا عليهم وطغوا طغيانا!

- إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ (50) :

إنّ هذا العذاب الأليم الذي تلقونه هو الذي جاءكم التّحذير منه فشكّكتم فيه وكذّبتم به وهزأتم، فذوقوه اليوم لتعرفوا أنّ ما جاءكم به الرّسول من الإنذار به كان حقّا وصدقا.

- إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) :

هذه إلى الآية 57 في تبشير المؤمنين المتّقين بالفوز العظيم بالنّعيم وبالنجاة من عذاب الجحيم، وذلك في الترغيب في الإيمان والتقوى، وجاء هذا التبشير على عادة القرآن في اِتّباعِ الإنذار بالبشارة ليكون الإنسان مسؤولا عن اِختياره لمنهجه في حياته بين الإيمان والتقوى أو الكفر والعصيان، ولا يظلم ربّك أحدا، فقد بيّن عاقبة هذا، وحسن عاقبة ذاك: "وكلٌّ يعمل على شاكلَتِه" على نحو ما قال تعالى: والمعنى: إنّ المتقين يحظَوْنَ بالإقامة في مكان آمن يحفظهم من المكاره ومن السوء.

- فِي جَنَّـٰتٖ وَعُيُونٖ (52) :

يقيمون في بساتين جميلة فيها من كلّ الثمرات، ومن حولها عيون وجداول ماء للسقي ولحسن المنظر وللرطوبة.

- يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَـٰبِلِينَ (53) :

يلبسون من الداخل ملابس من (سُندُس) : وهو الحرير الرّقيق أو الديباج الرّقيق، ومن فوقه لباس من (إِسۡتَبۡرَقٖ) وهو الديباج الغليظ الذي تصنع منه السراويل والسترات والمعاطف، والديباج هو ما يعرف باللّغة الدخيلة بـ (Velour) ويجلسون مع بعض في جلسات متقابلة مع بضع للتفكّه وللأنس ولتبادل الحديث، وهذا من حسن صحبتهم لبعض.

- كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٖ (54) :

ويأنسون كذلك بزوجاتهم الجميلات ذات العيون الواسعة والحدقة الجميلة.

- يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ (55) :

يطلبون ما يشاؤون من كلّ فاكهة فتحضر لهم طلباتهم من غير عناء، بل هم آمنون من كلّ ضرّ، ويُستجاب لكلّ مطالبهم.

- لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (56) :

لا يموتون في مقامهم الأمين، بل يعيشون فيه عيشا دائما، ويقيمون فيه إقامة أبديّة، لا يعتريهم الموت كما حصل لهم أول مرّة في حياتهم الدنيوية، وفوق ذلك فإنّ الله تعالى قد أنجاهم من عذاب النّار المستعرة.

- فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (57) :

وهذا التّعيم وهذا التكريم هو من تكرّم الله تعالى عليهم ومن إحسانه، وهذا هو الفوز العظيم الذي يلقاه عباد الله المؤمنون المتقون، يلقون كلّ نعيم، ويأمنون من عذاب الجحيم.

- فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (58) :

هذه خاتمة السورة تذكّر بما جاء في أولها بالكتاب المبين الذي أنزله تعالى في ليلة مباركة، وبهذا يحتكم الربط بين المقدمة والخاتمة، والمعنى: فإنّما أطلقنا لسانك بهذا القرآن وسهّلنا عليك ذكره وتلاوته على النّاس لعلّهم يعتبرون بما جاء فيه، وقد جاءهم بلسانهم العربي ليتدبّروه ويعقلوه، وليذكروا به ربّهم وليتّعظوا بمواعظه ويعملوا بشرعه.

- فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ (59) :

فمن كذّبك وكذّب به، ولم يصدّق بالوحي، وبالتوحيد، وأعرض عنه، وعن العمل بشرعه فلا تأبه، وانتظر عاقبته يوم تأتي السماء بدخان مبين ويوم القيامة، وحين تقوم الساعة ويعلم أنّ ما جاء كان حقّا وصدقا وعدلا، وإنّهم منتظرون ما سيلقون من خوف شديد ومن فزع يومئذ ومن عذاب، وفي هذا وعيد للكافرين، وتسلية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يحزن عن عدم إكتراث بعض من قومه بدعوته. والحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان.

رقمها	ســــورة الجاثيـــة	آياتها
45	ـــــ مكيّة ـــــ	37

سمّيت هذه السورة بسورة "الجاثية" لما جاء فيها من الإخبار بأنّ كلّ أمّة ستأتي يوم القيامة جاثية في اِنتظار موعد دعوتها للحساب. وهي من سور "الحواميم" المكية، ولذا فإنّ مفتتحها في الثّناء على القرآن الكريم، ومواضيعها في عقيدة التوحيد ودلائله، وفي وعيد الكافرين، وجاء فيها مشهد من مشاهد يوم الحساب للحذر من شدّته وذلك بالإقبال على الإيمان الذي يمنح المؤمن يومئذ الأمان منه، وفيها التّحذير من اِتّباع هوى النّفس، وحذّرت من الاستهزاء بالبعث وبالوعيد، وجاء فيها وصف القرآن بالهدى والبصائر وغيرهما من صفات الثناء للترغيب في الاهتداء بهداه، وفي اِتّباع شريعته، واِتّباع ما يدعو إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

- حمٓ (1) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (2) :

حم، إنّ القرآن الكريم تنزيل من الله (ٱلۡعَزِيزِ) العظيم المنيع الحاكم القويّ (ٱلۡحَكِيمِ) في فعله وتدبيره وتوجيهه وهديه وفي مواعظه النّافعة للنّاس، التي تُرشدهم للخير.

- إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (3) :

هذه إلى الآية 13 في آيات القدرة وآيات الإنعام للإيمان بالله الواحد الأحد، والغرض المقصود التّصديق بالوحي وبالقرآن وبالبعث والوعيد للهدى، وللحذر من الكفر والهزء بآيات الله لسوء عاقبتهما في الآخرة.

إنّ في خلق السماوات واِرتفاعها ونظام سير كواكبها وظهورها في أوقات دون أخرى، وفي خلق الأرض دلائل واضحة على قدرة الله العظيمة في الخلق والإيجاد ينتفع بها المؤمنون ليعرفوا ربّهم الحقّ الحقيق بالألوهية والعبادة والطّاعة. وإنّ فيهما دلائل وحججًا على اِنفراد الله بالخلق.

- وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ (4) :

وإنّ في أطوار خلقكم المختلفة منذ تكوينكم في الأرحام إلى شيخوختكم وموتكم، واِختلاف أحوالكم في الضعف والقوة والصحة، وفي كلّ ما يُنشر من كلّ نوع ممّا يدبّ على الأرض من حولكم ممّا هو نافع لكم وما هو ضارّ أو سامّ وعلى اِختلاف أحجامهم وعلى اِختلاف أحوال دبيبهم بين زاحف وقائم على أربع أو طائر دلائل وحججًا على اِنفراد الله تعالى بالخلق وعلى حكمته في التّقدير، وعظيم قدرته لقوم يؤمنون إيمانا ثابتا قويّا وصادقا.

• وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (5) :

وإنّ في تكوير الليل على النّهار وتعاقبهما ليقضي كلّ إنسان في نهاره مصالحه، وليجد في ليله سكنه وراحته، وإنّ في إنزال الماء من السماء لتشربوا وتحيوا في غير جفاف ولا قحط، ولتخصب به أرضكم فتدرّ عليكم من خيراتها طعاما لكم ورزقا، ولتسقوا بها دوابّكم لنموّها ولتدرّ عليكم ألبانها، فهذا الماء هو الذي يدرّ عليكم الرزق، وبهذا الماء الذي يأتيكم من عند الله تعالى وبإذنه تحيا الأرض البَوَار فتغدو ذات خصب، وإنّ في تقليب الرّياح وتغيير اِتّجاهها، أو تغيير حالها من عنيفة شديدة مضرّة إلى لواقح ومُسَيِّرةٍ للأفلاك، إنّ في كلّ هذه المظاهر الطبيعية دلائل على إنعام الله تعالى عليكم، وعلى رحمته بكم، وهي دلائل ينتفع بها أهل العقول الرّشيدة ليعرفوا بها فضل ربّهم عليهم ليشكروه، وليخلصوا له في طاعتهم.

• تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ (6) :

هذه آيات الله تعالى، أي حججه وبراهينه ودلائله الدالّة على وحدانيته وعلى عظيم قدرته، وعلى فضائله ونِعَمِه عليكم تتلى عليكم بالصدق في كتابه القرآن، وهي آيات بادية للعيان وظاهرة لمن يتأمّلها ويبصرها بعينيه، وهي آيات تدرك بتدبّرها بالعقل. فبأيّ كلام وبأيّ حديث بعد قرآنه يصدّقون؟ وهذا الاستفهام للتوبيخ ولتقريع من أعرض عن سماع آيات الله وعن تعقّلها. قال تعالى (فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ)(يونس الآية 32).

• وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ (7) :

ما يكذّب بآيات الله إلاّ من كان في ذاته كذّابا، كثير الكذب، من كان طبعه الكذب فإنّه لا يصدّق شيئا ممّا يسمع وإن كان حقّا لأنّه لا يعرف الصدق. ولا يصدّق بآيات الله إلاّ من جُبِلَ على اِرتكاب الآثام والمعاصي لأنّ القرآن يدعوه للاستقامة على العدل وعلى الصالح من الأعمال والأخلاق، وهذا لا يُناسب ما جُبِل عليه من التحلّل من كلّ فضائل الأعمال والأخلاق، فالويل لكلّ من جُبل على الكذب وعلى إتيان الآثام والمعاصي فإنّ جِبِلَّته تمنعه من الاهتداء لحسن العمل وللإيمان.

• يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (8) :

إنّ هذا الكذّاب الأثيم كلّما سمع آيات الله تُقرأ عليه تولّى عنها، وأقام على كُفره مستكبرا، ولم يُذْعِنْ للحقّ، كأن لم يسمع شيئا. وكأن في أذنيه ثقلا. هذا الذي تولّى عن سماع الحقّ وأعرض عنه مآله الإقامة في العذاب الموجع. واِستعمال لفظ (فَبَشِّرۡهُ) بالعذاب يُفيد الاحتقار، لأنّ إخباره بأنّ مآله الإقامة في العذاب ليس من البشائر.

- **وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (9) :**

وإذا سمع شيئا عن القيامة، وعن الوعد والوعيد سخر ممّا يسمع، وهزأ كما يحلو له من الهزء. هذا وأمثاله من الهازئين بالوعيد سيعاقبون بالعذاب المهين الذي يذلّهم، ويحقّر من شأنهم.

- **مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10) :**

إنّ هؤلاء الذين يكذّبون بكلّ ما جاءهم من عند ربّهم تتعقّبُهم جهنّم من ورائهم في اِنتظار موتهم، وفي اِنتظار بعثهم للحساب لتأويهم في منازلها، ويومئذ لا ينفعهم كلّ ما كسبوا في دنياهم من مال وولد ورزق وأملاك لتشفع لهم من عذاب، ولا يشفع لهم كلّ ما اِتّخذوا من دون الله من آلهة كانوا يعبدونها ويقدّمون لها قرابينهم من عظيم العذاب الذي يتلقّونه فيها.

- **هَـٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (11) :**

هذا القرآن، وكلّ ما جاء به محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هدى للنّاس، يهديهم لربّهم الحقّ الذي بيده كلّ أمر والحقيق بالعبادة والطاعة، ويهديهم لشرعه الذي يقيمهم على صراط الله المستقيم الذي يبلّغهم للنّعيم وينجيهم من كلّ عذاب. والذين لم يصدّقوا بآيات الله المتلوّة عليهم، ولم يصدّقوا بدلائل الله تعالى وحججه، وكذّبوا برسوله، وبوعيده، والذين جحدوا فضل ربّهم عليهم، وأنكروا لقاءه سينالهم عذاب قَذِرٌ مثل الرّجز من ذلك سقيُهم من ماء صديد، ومن مثل ما جاء في سورة الدخان الأكل من شجرة الزقوم، وهو أليم في تجرّعه وعند صبّ الحميم فوق الرؤوس.

في هذه الآيات تدرُّجٌ في وصف أصناف العذاب من الهيّن إلى الأشقى والأكثر إيلاما من عذاب أليم إلى عذاب مهين، إلى عذاب عظيم، إلى عذاب من رجز أليم، وهذا من أقسى أصناف العذاب –والعياذ بالله–.

- **ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)**

آمنوا بربّكم الذي أنعم عليكم بتسخير البحر ليحملكم في أسفاركم في فلككم وليحمل أثقالكم لتبلغوا مدنا لم تكونوا لتبلغوها إلاّ عبر شقّ البحر والمرور منه إلى الضفاف المقابلة، وسخّر لكم البحر لتبتغوا منه رزقكم من الحيتان لطعامكم، أو لتلتقطوا منه ما تتّخذونه للزينة من مثل الدرّ والمرجان، آمنوا بصاحب الفضل عليكم وأطيعوه، وأشكروا له، ولا تكونوا من الجاحدين. يعلم سكّان سواحل البحر مدى فضائل الله عليهم في الإنعام عليهم بلطف نسيمه صيفا، وبالإنعام عليهم بالكثير من خيراته لطعامهم وزينتهم وكذلك لصحة أبدانهم عند الاستحمام فيه (وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ) (النحل الآية 18).

- **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ(13) :**

وإنّ الله تعالى الذي تدعون لعبادته وحده ولطاعته ولشكره هو الذي سخّر لكم كلّ ما في السماوات التي جعلها لكم سقفا محفوظا، وجعل لكم ما في الأرض ذلولا لكم لتنتفعوا به لقضاء شؤونكم ولضمان حياتكم وإستقراركم عليها، كلّ ذلك من خلقه، ومن أمره بإذلاله لفائدتكم، ومن إحسانه، ومن إنعامه عليكم، وكلّ ذلك جميعا من إرادته وقضائه وحكمة تسييره. وهذه دلائل يعيها أصحاب الفكر والوعي فيعرفون بها فضل ربّهم عليهم فيشكرونه، ويصدقون في طاعته ويخلصون.

- **قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (14) :**

هذه مع الآية الموالية في التّرغيب في التّعامل بخلق التّسامح مع الآخر المختلف معك في المعتقد، والذي لا يخاف بأس الله عزّ وجلّ. والمعنى: اِنصح المؤمنين، وأرْشدهم لأن يصفحوا عن الذين لا يخافون بأس الله ونقمته ووعيده، والذين لا يتّعظون بالمصائب التي أنزلها بالأمم الكافرة من قبلهم، وكلّ إنسان مثاب عن كسبه من عمله في دنياه فمن أحسن منكم وكان مؤمنا لقيَ تكريما ورضوانا من ربّه، ومن كفر فعليه كفره، والمؤمن محسن بطبعه، وقلبه مطمئن فلا يكون إلاّ متسامحا ومعرضا عمّن كفر لا يسبّه ولا يواجهه بمثل خلقه السيّئ.

- **مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ (15) :**

من عمل صالحا فسينتفع بصلاح عمله ويثاب عليه إن كان مؤمنا يوم الرّجوع إلى الله للحساب، ومن أساء للنّاس بقوله أو عمله أو بسوء خلقه وفساد طبعه في معاملته فسيردّ عليه سوء فعله وسيعاقب عليه. والقصد من الآية مراقبة النّفس في معاملة المؤمن لأخيه حتى يعامله بالحسنى: بالحقّ وبالإحسان وبالعدل.

- **وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ(16) :**

هذه مع الآية الموالية في التّذكير بأنّ الله تعالى قد أرسل رسُلاً من قبل لبني إسرائيل وجعلهم أمّة كتاب وفضلهم على أهل زمانهم بهذا التّشريف وإن كان القوم قد اِختلفوا فيما بينهم على دينهم، والقصد تنبيه العرب، فلماذا لا تصدّقون – يا أهل قريش ويا أيّها العرب– برسولكم وبما جاءكم من عند ربّكم من كتاب وترفضون هذا التّشريف وتختلفون على رسولكم وعلى الكتاب الذي جاءكم؟

والمعنى: ولقد آتينا بني إسرائيل التوراة ثمّ الإنجيل، ورفعنا قدرهم إذ آتيناهم الحكم على النّاس والقضاء خاصة زمن داود وسليمان، وشرّفنا جمعا منهم بالنّبوّة: إسحاق ويعقوب ويوسف إلى



زمن عيسى، ورزقناهم من الرزق الحلال من مال وثمرات ومن الطعام حتى غدوا من أغنى النّاس، وشرّفناهم على أهل زمانهم لأنّهم أهل كتاب وأهل شريعة سماويّة.

- وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ **(17) :**

وآتاهم الله شرائع واضحة في الحلال والحرام، والمعجزات القاهرة والواضحة لتأييد رسلهم، فآمن بعضهم وكفر بعضهم من بعد ما جاءهم من العلم بنبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم حسدا وللمنافسة على الرئاسة في الدّين. إنّ ربّك – يا محمد – يحكم بينهم ويفصل يوم الرّجوع إليه يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه بين التّصديق والتّكذيب، وهم يعلمون أنّه قد أخذ عليهم العهد بالإيمان برسول مصدّق لما معهم يأتي خاتما للرّسالات، وقد بشّرهم به عيسى وسمّاه أحمد.

- ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ **(18) :**

هذه إلى الآية 27 في فضيلة الرّسالة المحمديّة لمقاومة الأهواء السيّئة، وهي في عقيدة الإيمان بالبعث. وقد جاء في هذه الآية ذكر لفظ الشريعة. والشريعة هي النُّظُمُ التي شرعها الله، وشرع أصولها ليُحسن الإنسان علاقته بربّه بما يقرّ به إلى الله تعالى زلفى، عَبْرَ ما يُعرف بالطاعات أو الواجبات الدينيّة كالصلاة والصيام والزكاة... وهي النّظّم التي تنظّم علاقة الإنسان المؤمن بأخيه، ومنها الأحكام الخاصة بالأحوال الشخصيّة التي منها الزواج والطلاق والميراث... ومنها ما يخصّ حفظ الحقوق التي منها أداء الأمانات إلى أهلها، والفصل بين المتخاصمين بالعدل... ومنها ما يخصّ وحدة الأمة التي منها الترغيب في حفظ المصالح العامّة والقيام عليها، والتعامل بالإحسان وبالمعروف، وبروح المؤاخاة والتعاون والتسامح، ومن الشريعة النّظم التي تحدّد علاقة البلدان بالمحيط البشري، والتي منها إشاعة السلم والمحافظة على كلّ عناصر البيئة السليمة، وهذا ما يعرف "بالعمل الصالح". ولا يكون هذا العمل الصالح مثمرا، ومثابا عليه إلاّ إذا كان نابعا من عقيدة إيمانية سليمة أساسها الإيمان بالله وحده، والتّصديق برسله وبكتبه وبملائكته واليوم الآخر تصديقًا خالصا من الرّياء.

والعلم بالشريعة هو علم بالأحكام وهي ذات إختصاصات، منها أحكام في العبادات، وأحكام في المعاملات، ومنها أحكام خاصة بالأحوال الشخصيّة، ومنها الأحكام السلطانية المتعلّقة بأحكام القضاء وأحكام ساسة الرّعية، وأحكام السلم والحرب.. وبيان هذه الأحكام في كتب الفقه. وما من أحد بقادر على أن يلمّ بجميع هذه الأحكام وفصولها لتنوّعها وتعدّد مجالاتها وكثرة فروعها ونوازلها، ولذا فلابدّ من جماعة من المختصّين.

والمعنى: ثمّ أُرسلتَ – يا محمد – بعد أولئك الأنبياء والمرسلين خاتما للرسل، وجعلنا رسالتك على شريعة الله الحقّة بأحكام الله الواضحة التي تحدّد معالم العمل الصالح القائم على الأمر بالعدل والإحسان والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فاتّبع هذا المنهج الذي أمر الله تعالى به عباده، وادعُ النّاس إليه، ولا تهتمّ بما يدعو إليه الجاهليون الجاهلون من المحافظة على منهج آبائهم في المعتقد والعمل إنّهم لا يعلمون وجوه الحقّ والرشاد ووجوه الحكمة والمكارم من الأعمال والأخلاق.

- إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ (19):

إنّ هؤلاء الجاهلين الذين يتّبعون أهواءهم وينصرفون عن الحقّ وعن العلم لا يدفعون عن أتباعهم الذين يسايرونهم في اِتّباع أهوائهم من عذاب الله شيئا. وإنّ الكافرين الذين لا يتّبعون شريعة الله الحقّ ومعهم أتباعهم أصدقاء لبعضهم وأنصار وأحباب. وأمّا الذين اِتّقوا الشّرك والمعاصي وكانوا مؤمنين بالله ويخشون عذابه فإنّه وليّهم الله عزّ وجلّ: ناصرهم ومعينهم ومنقذهم من العذاب.

- هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20) :

هذا القرآن يبصّر النّاس بطريق الحقّ، ويوضّح لهم الباطل، ويبيّن لهم طريق النّجاة من العذاب، وسبيل الفوز برضوان الله وعونه وتوفيقه، وفيه هداهم لمعرفة ربّهم الحقّ الخالق وصاحب الفضل والإنعام عليهم، وصاحب القدرة. وهداهم لوجوه العمل الصالح، ووجوه الضلال للتّوقي منها. وإن هذا القرآن رحمة لقوم يؤمنون إيمانا صادقا بأنّه من عند الله تعالى، لأنّ المداومة على تلاوته مع الحرص على العمل بإرشاده، والاتّعاظ بمواعظه يدخلهم جنّات النّعيم التي وعدهم الله بها وينقذهم من عذابه الذي توعّد به الكافرين به.

- أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (21) :

وهل يظنّ الذين اكتسبوا في حياتهم معاصي وآثاما في معتقدهم القائم على الشرك وفي أعمالهم باستكبارهم عن سماع القرآن والاستجابة لله تعالى ولرسوله وبتكذيبهم بالبعث وبالوعد والوعيد أن نجعلهم يتساوَوْن في الحفظ وفي المثوبة مع الذين آمنوا بالله الحقّ الواحد الأحد والذين عملوا بشرعه في الطاعات والأحكام. كلا! لا يستوون في المنزلة عند ربّهم في دنياهم وعند مماتهم، فما أبعد ظنّهم عن الحقّ وعن العدل، وما أفسد حكمهم في التّسوية بين الصنفين لأنّه غير عادل.

- وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22) :

ولقد خلق الله السماوات والأرض قائمتين على الحقّ والعدل، وجعل الآخرة لتجزى كلّ نفس عمّا قدّمت لنفسها من كسب، فإن كان خيرا أُثِيبت وكانت عاقبتها حسنة، وإن كسبت السيّئات فإنّها لا تلقى إلاّ سوءا عند محاسبتها، (وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا)(الكهف الآية 49) (وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)(النجم الآية 39).

- **أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23) :**

هذه في الأسباب التي منعت المشركين من الإيمان ومن اِتّباع الهدى والإسلام أو الأسباب التي جعلتهم يصرّون على الكفر. والمعنى: أرأيت أمرًا أعجب من أمر الذي رفض الاهتداء لما يُدْعَى إليه من اتّباع الحقّ خضوعا لمزاجه، ولِمَا تميل إليه نفسه في المعتقد وفي العمل. أصمّ سمعه لما يتلى عليه من كلام الله عزّ وجلّ، وعطّل عقله وغلّق على قلبه حتّى لا يتدبّر آيات الله، وغطّى على بصره حتى لا يرى دلائل الله فكيف يهديه الله تعالى وقد ضلّ عن الصواب وابتعد عنه فلْيَبْقَ على ضلالته وهو يعلم أنّ ما جاءه هو الحقّ ولكنّه أصرّ على الباطل عنادا ومكابرة، فلا أحد يهديه من بعد ما جاءه من الهدى من عند الله تعالى. (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) هذه للاعتبار وللاتّعاظ للاستفاقة من الغفلة ومن سيطرة هوى النّفس على عقل الإنسان وقلبه وإدراكه بالسمع والبصر للحقائق، فإنّ الميل لرغبات النفس الميّالة للمعاصي أو المتمسكة بالتّقليد من أهمّ أسباب البعد عن الصواب.

وجاءت هذه الآية لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّ إصرار المشركين على شركهم، وأنّ رفضهم للاستجابة لدعوته لم يكن من تقصيره في تبليغ رسالته، وإنّما كان بسبب تمسّكهم باتّباع هواهم ممّا جعلهم يقدّسونه إلى حدّ تأليهه.

- **وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) :**

وإذا قيل لهؤلاء آمنوا بربّكم، واِخشوا يوم الرّجوع إليه للحساب فيعذّبكم بعذاب النّار لكفركم أنكَروا البعث، وأنكَروا الحساب والوعيد، وقالوا: لا نموت ببلوغ الأجل، وإنّما نموت بمرور الأيّام والأعوام، إنّما يهلكنا الدهر، وهو الزّمن. يقولون هذا القول رافضين الإيمان بتقدير الله تعالى لآجال خلقه، ومنكرين البعث بعد الموت، ويقولون من جهلهم لحقائق الأمر، وعن غير دراية، يقولونه عن ظنّهم الخاطئ.

- **وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (25) :**

وحينما يُوعظون بدلائل الله تعالى الدالّة على قدرته على إحياء الموتى في إحيائه للأرض بعد موتها، وبدلائل قدرته في الخلق وفي عقاب الأمم السّالفة من أهل الكفر وهي دلائل واضحة لأهل الوعي والتدبّر يرفضون الاقتناع بها، وحجّتهم في التّكذيب بالبعث وإحياء الموتى أنّهم لم يروا آباءهم قد عادوا للحياة بعد موتهم، فإن كانوا صادقين في ما يدعون، فعليهم أن يحيوا آباءهم ليتأكّدوا من صدقهم.

- قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ **(26)** :

أخبر هؤلاء المكذّبين بأنّ الله قد أحياهم من العدم وخلقهم، ثمّ هو الذي يميتهم حين تحضر آجالهم ثمّ يرجعهم إليه ويجمعهم عند الميزان يوم الحساب – وهذا أمر واقع حقّا وصدقا لاشكّ فيه، ولكنّ أكثر النّاس لا يعرفون حقّ المعرفة قدرة الله تعالى عليهم، ولا يتصوّرون كيف تكون القيامة وكيف يكون البعث.

- وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ **(27)** :

فإن لم يقتنعوا بما جاءهم، وكذّبوا به فالله تعالى غنيّ عنهم وعن طاعتهم فهو تعالى مالك السماوات والأرض وكلّ ما فيهما من الخلق، ويوم تقوم الساعة يومئذ سيكون المصرّون على الباطل وعلى التكذيب بالبعث هم الخاسرون لأنفسهم ولعاقبتهم حين يلقون أنفسهم قد صاروا وقودا لنار جهنّم.

- وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ **(28)** :

هذه الآية إلى الآية 35 في مشهد من مشاهد يوم القيامة ليعلم الكافرون والمكذّبون ما ينتظرهم يومئذ، ومن أصرّ بعد هذا العلم على تكذيبه ثمّ ساءت عاقبته فقد قامت عليه الحجّة وكان ظالما لنفسه.

والمعنى: يوم القيامة تجمع كلّ أمّة ذات مِلّةٍ مع غيرها من الأمم، وكلّ فرد في كل أمة جالس على رُكبتيه في اِنتظار دعوة هذه الأمّة للتّقدُّم للميزان للحساب. وكلّ أمّة (تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا) أي إلى حسابها على ما جاء في كتاب كلّ واحد منها من عمل قدّمه لآخرته من خير أو شرّ. وفي ذاك اليوم تُجْزَى كلّ نفس من خير أو شرّ عمّا عملت وعمّا كسبت في دنياها.

- هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ **(29)** :

في ذاك اليوم يتلقّى كلُّ إنسان كتابه بيمينه أو بشماله، ويجد كلُّ واحد في سِجِّلِهِ إحْصَاءً لجميع أعماله وهو سِجلٌّ ينطق عليه (بِٱلۡحَقِّ) إحصاءً ثابتا بشواهده وزمنه وحيثياته بلا زيادة ولا



نقصان. لقد كان ملائكة الرقابة يسجّلون على كلّ عبد ما كان يعمل وما كان يلفظ من خير أو شرّ، ويثبّتونه بكلّ دقّة وبشواهده.

- فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ **(30)**

يومئذ يُفصل بين المؤمنين والكافرين: فأمّا الذين آمنوا وعملوا بالطاعات واِجتنبوا المعاصي فإنّ الله سبحانه يدخلهم في رحمته، ومن أدخله الله تعالى في رحمته فإنّه ينجو من عذاب جهنّم ويُدخل جنّة النّعيم والتكريم، وهذا هو الفوز الحقيقيّ بالحياة الكريمة في الدنيا وبالأمان من العذاب في الآخرة.

- وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ **(31) :**

وأمّا الذين كفروا فإنّهم يُوَبَّخُون يومئذ على تكبّرهم عن سماع آيات الله تعالى لمّا جاءتهم ليهتدوا بها، وعن إعراضهم عن العمل بما أمروا به، وعن الاِتّعاظ بمواعظه تعالى. ويُصَنَّفون يومئذ في صنف المجرمين الذين عصوا ربّهم ولم يستجيبوا له ولرسوله ولتكذيبهم بالوعيد.

- وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ **(32) :**

وكانوا حين يُذكّرون بيوم الحساب وبأنّ قيام الساعة أمر واقع حقّا لاشكّ فيه وبأنّ الوعد والوعيد أمر ثابت أيضا كانوا يقولون لم نسمع من قبل من آبائنا بقيام الساعة ولا نعلم ما هي الساعة وما فيها، ولسنا بموقنين بالبعث وبالحساب، فهذا من الظنّ الذي لا يُصدّق، ولسنا متحقّقين من وقوع هذا اليوم.

- وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ **(33) :**

وظهر للكافرين المكذّبين في سجلاّتهم التي تسلّموها بشمائلهم معاصيهم وهزؤهم وأقوالهم المنكرة مسجّلة عليهم بشواهدها، وأحاط بهم جزاء هزئهم بالوعيد ليعلموا أنّ ما جاءهم كان حقّا من عند ربّهم.

- وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ **(34) :**

وقيل لهم عند دخولهم جهنّم وحين أحاط بهم العذاب الآن ستظلّون فيما أنتم فيه وتتركّكم فيه أبدا لا تخرجون منه حتى تنسوا بمثل إهمالكم للعمل للنّجاة من شدائد هذا اليوم ومن عذابه، بمثل إهمالكم النظر في آيات الله والعمل بمواعظه. مقامكم الأبديّ في النّار ولن يخرجكم منه أحد أو ينقذكم من العذاب الأليم أو ينجيكم منه.

- ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ **(35) :**



ذاك جزاء اِستهزائكم بوعيد الله تعالى، وبما جعلتم آيات الله في البعث موضع تندّر وسخرية. وقد خدعتكم الحياة الدنيا وما كنتم عليه من قوّة وترف وجاه ومن اِنغماس في المعاصي. اليوم ليس لكم خروج من عذاب جهنّم وعذاب الحميم، وليس لكم من توبةٍ أو طلبٍ للرّجوع لدنياكم لتعملوا بالكتاب ولتحذروا الآخرة، فاتكم موعد الاستتابة والاستغفار، واِستبدال السيّئات بالحسنات.

- فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (36) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (37) :

وتختم هذه السورة بهاتين الآيتين في الثناء على الله عزّ وجلّ العزيز الحكيم كما ورد في مقدمة السورة. (فَلِلَّهِ) هذا الأسلوب يدلّ على الاستحقاق، أي إنّ الذي يستحقّ الحمد للثّناء عليه هو الله وحده، الذي هو سيّد السماوات وسيّد الأرض وسيّد جميع عوالم المخلوقات على اِختلاف أصنافها وأجناسها وعلى اِختلاف أشكالها وألوانها ووظائفها وعلى اِختلاف أحجامها وأنواع كلّ صنف منها، هو سيّد كلّ ما هو موجود في الوجود كلّه، هو السيّد لأنّه هو الخالق لجميعها، خلقت بأمره، وتنتهي بأمره في الأجل الذي حدّد لكلّ مخلوق، وهو القائم عليها لتحيا ولتوفير طعامها وتكاثرها إذا كانت كائنات حيّة، وأمّا إذا كانت من الجمادات فلضمان اِستقرارها أو حركتها في اِنتظام دقيق ولتكون مسخّرة لأمره. وله تعالى صفة العظمة والجلال والسلطان، وهو القاهر القادر المقتدر في السماوات والأرض، فلا يخرج شيء منها عن إرادته، وهو (ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) وقد تقدّم بيان هاتين الصفتين في مقدمة السورة.

رقمها	ســـــورة **الأحقـــــــاف**	آياتها
46	ـــــ مكيّة ـــــ	**35**

سمّيت هذه السورة بسورة "الأحقاف" وهي ديار قوم عاد لانفرادها بذكر هذا الاسم. وبما أنّها سورة مكية ومن سور الحواميم فهي سورة في أصول العقيدة الإسلامية السليمة، وقد اِنفردت هذه السورة بخبر إرسال نفر من الجنّ يستمعون القرآن فغدوا إلى قومهم منذرين.

ومواضيع هذه السورة في الثناء على التّنزيل، وفي إبطال عقيدة شفاعة ما يدعى من دون الله تعالى، وفي الدعوة للتّصديق بالوحي وبالقرآن، ونفي تهمة الكذب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغ به عن ربّه، وفيها الوصية بالوالدين خيرا وطاعتهما، وفيها الحذر من الاغترار بزينة الحياة الدنيا، وللاعتبار بنهاية قوم عاد العصاة، وتحذير القريشيين من مثل هذه العاقبة، مع ذكر خبر إرسال نفر من الجنّ إلى الرسول يستمعون القرآن، وفيها وعد للمؤمنين المستقيمين على الدين بالنّعيم، ووعيد بالعذاب على الكافرين.

- حمٓ **(1)** تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ **(2)** :

حم، إنّ تنزيل القرآن على محمد من عند الله العزيز الحكيم، وليس القرآن من كلام محمد صلّى الله عليه وسلّم، وهذه الافتتاحية كافتتاحيّة السورة السابقة: الجاثية. والملاحظ في اِسمَي الله الحسنيين: العزيز والحكيم أنّهما كثيرا ما يترادفان في الذكر. لقد ورد اِسمه تعالى: "العزيز" في ثمان وثمانين آية في كتاب الله، منها واحدة وأربعين مع اِسمه "الحكيم"، وفي اثنتي عشرة مرّة مع صفته "الرّحيم"، وذكر اِسم العزيز مع العليم، ومع القويّ، ومع ذي اِنتقام، ومع الحميد، والمقتدر والوهّاب، والغفور والغفّار في بقية الآيات. والمستفاد من هذا الترادف أنّ العزّة الحقيقيّة لا تكون إلاّ مرفوقة بالحكمة والعلم والرّحمة والقوة والقدرة على المغفرة أو على الانتقام. ولذلك يعُزُّ ويندر على كلّ من آتاه الملك وقوة السلطان والمال والأنصار أن يكون ذا عزّة لأنّ الصفات الأخرى التي يجب أن تكون مرادفة لها من الاستحالة أن تجتمع عند إنسان، ولذلك فإنّ العزّة لله جميعا، ولله وحده العزّة الحقيقيّة، والإنسان حين يؤتى أسباب العزّة الماديّة يغترّ ويتكبّر، ويظلم... وحينما نربط هذه الآية بالآية التي سبقتها واختتمت بها السورة السابقة (وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ) ندرك أنّ الكبرياء مع العزّة والحكمة لا تجتمع إلاّ عند الله عزّ وجلّ، فهذه من صفاته وحده سبحانه.

- مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ (3) :

هذه مع الآيات الثلاث الموالية في التنبيه لعبادة الله الخالق الأحقّ بالألوهية والطاعة والدعاء له للنّجاة من المكاره، فإنّ من يدعو من دون الله من لا يستجيب له هو من الخاسرين.

والمعنى: ما خلق الله تعالى السماوات والأرض وما بينهما إلاّ (بِٱلْحَق) أي لغاية وحكمة ولم تخلقَا عبثا. خُلِقَتَا وما بينهما لتدلّ على الخالق ولتدلّ على عظمته وحكمته في الخلق والتّدبير، ولتُعرف ألوهيته. وإنّ إقامتهما غير دائمة، فإذا حان موعد قيام الساعة إستبدلتا أرضا غير الأرض التي كانت في الحياة الدنيوية وزلزلت زلزالا عظيما، وأمّا السماوات فلها شأن آخر غير أن تكون سقفا محفوظا للأرض. والذين كفروا بالله وبالوحي وبآيات مواعظه معرضون عن النّظر في دلائل الله في الخلق وفي التّقدير وعن الإعداد للآخرة، ومعرضون عن العمل ليوم الحساب الذي أنذروا به.

- قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (4) :

الآية السابقة جاءت باستدلال على إستحقاق الله الخالق للألوهيّة، وجاءت هذه الآية بمطالبة المشركين باستظهار دليلهم على إستحقاق آلهتهم التي يدعون للألوهيّة. والمعنى: أظهروا آيات الخلق لآلهتكم. ماذا خلقت من الأرض؟ وماذا أبدعت فيها؟ وأيّ تدبير وتصرّف عندها في السماوات، في الأفلاك والنّجوم وفي تسييرها؟ أمِدُّوني بكتاب سماويّ جاءكم قبل هذا القرآن، أو ببقيّة من علم وصل إليكم يشهد لكم بصحّة ما تدعون من ألوهيتها إن كنتم صادقين في دعواكم. والقصد إقناع المشركين بأنّ عبادتهم لآلهتهم المزعومة لا تقوم على أيّ دليل منظور أو مكتوب أوْ له أثر، فإذا إفتقدوها ظهر بطلان ما يعتقدون، فهذه الآية لإقامة الحجّة عليهم بأنّ معتقدهم لا أصل له ولا أثر منظورا.

- وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ (5) :

وليس من أحدٍ أبعدَ عن الصواب، وعن الرّشد والعمل العقلاني من الذي يدعو إلاها مصنوعا من حجر أصمّ أو من خشب منحوت ليحقّق له رجاءً، أو لينقذه من هلاك وهو لا يسمع ولا يتحرّك ولا يجيب ولا ينفع بشيء إلى يوم القيامة لأنّه جماد. هذه الآلهة من الأصنام والأوثان لا تنفع عبّادهَا بِشيء لأنها لا تسمع، ولا تعي، ولا تجيب، وهي في غفلة من عُبّادها.

- وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ (6) :



ويوم القيامة حينما يحشر النّاس للحساب يُؤتى بالمشركين وبآلهتهم المعبودة من الأحجار والأخشاب المنحوتة وما رمز لها من الشياطين أو الملائكة – كما يدّعون – أو من الشمس والقمر، وحينما يسألون عمّا دعاهم لعبادتها تتبرّأ آلهتُهم التي كانوا يعبدون منهم ومن عبادتها، وتكذّبهم بما كانوا يدَّعون، وتنقلب عليهم فبَدَلَ أن تكون شافعة لهم، كما كانوا يأملون، تغدو أعداء لهم، وتكفّر بعبادتهم لها.

- **وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ (7) :**

ومن غريب أطوار المشركين أنّهم حينما يُوعَظُون بما يقرأ عليهم من آيات القرآن لترفع عنهم جهالتهم، ولتنقذهم من ضلالتهم، ولتهديهم للرّشاد، وليعلموا أنّ عبادتهم للأصنام والأوثان لا تنفعهم بشيء في دنياهم، ولا في آخرتهم لأنّها جمادات صمّاء لا تعي ولا تسمع ولا تُجيب ولا تنفع ولا تضرّ، وحينما يوعظون بأنّه ليس لديهم دليل عقلي، ولا شاهد منظور، أو كتاب مقروء على اِستحقاقها للألوهية ولا للتقديس أو الدعاء، قال الذين كفروا للحقّ لمّا جاءهم، وللرشاد الذي يوقظ فيهم الوعي، وللهدى الذي أتاهم ليرفع عنهم الغشاوة والضلالة وليقرّبهم من الله تعالى الحقّ، قالوا فيما يُتْلى عليهم هذا سحر واضح. فأين السحر فيما تُلِيَ عليهم، وفيما يتبيّن لهم ويتّضح السحر والشعوذة فيما سمعوا من آيات القرآن؟ أليس هذا من الجهل المُطْبق ومن العناد؟

- **أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (8) :**

وحين تُعْييهم الحجّة، وتكشف لهم آيات الله تعالى ضلالتهم يتهرّبون من الانصياع للحقّ باتّهام رسولهم صلّى الله عليه وسلّم بأنّ ما يتلوه عليهم من القرآن إنّما هو من اِختلاقه ليكفروا بالوحي وبما جاءهم من عند ربّهم لأنّه قد جاءهم بعكس ما يعتقدون، ولأنّه يُسَفِّهُ أعمالهم، ويصفها بالضلالات، وما هذا الإتّهام إلاّ من مكابرتهم واِستكبارهم، ومن شدّة تمسّكهم بعاداتهم الفاسدة. أخبرهم – يا مُحَمَّد – حينما تسمع منهم اتّهامك بالافتراء على الله تعالى فيما تتلوه عليهم بأنّهم لا يقدرون على أن يدفعوا عنك عذاب الله وعقابه لو كنت مفتريا على الله عزّ وجلّ. وأخبرهم أنّ الله عليم بما في نفوسهم، وعليم بما يقولون في القرآن من طعن فيه ومن تكذيب ومن هزء بوعيده، ومن دعوة أتباعهم للغو فيه إذا سمعوه للتشويش على قارئه. ثمّ أشهد عليهم الله تعالى للفصل بينكم، أخبرهم بأنّه كفاك أن يكون الله تعالى شاهدا على صدقك وصدق ما تدعوهم إليه وأنّه تعالى مطّلع عليك وعلى أعمالهم وأقوالهم، وهو تعالى كثير المغفرة لمن تاب عن غيّه وعن شركه وعن عناده ومكابرته فآمن وأحسن عملا، وأنّه كثير الرحمة بعباده المؤمنين، حفيظ عليهم في دنياهم وآخرتهم، لا يعذّبهم أبدا.

- ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ (9) :

هذه إلى الآية 12 في التصديق برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وبالوحي، وبالقرآن، وبما يدعو إليه من المعتقد. قل لهؤلاء المكذّبين بالرسالة وبالوحي: لست بأول رسول، وما كان مجيئي إليكم بدعة خارجة عن سنن من أرسلوا من قبلي من أنبياء ومن رسل، وإنّي لا أعلم شيئا عن مصيري مستقبلا ولا عن مصيركم، وما سيكون من أمري ومن أمركم، إنّما أن أبلّغكم بما أمرت به لتبليغكم به، وأن أنفّذ أمر ربّي الّذي يوحى إليّ، ولستُ سوى منذر أحذّركم من الغفلة عن عبادة الله وطاعته، ومن التمادي في الإشراك به ومعصيته، ولأحذّركم من وعيده وسوء عاقبة الكفر، وإنّي صادق في إنذاركم.

- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (10) :

قل لهؤلاء المشركين: ما عساكم تقولون حين يتبيّن لكم أنّ القرآن هو كتاب من عند الله عزّ وجلّ حقّا وصدقا، وقد كفرتم به، ولم تصدّقوا به، ولم تصدّقوا بالوحي، وماذا ستكون حجّتكم عند ربّكم إذا سمعتم شهادة شاهد من بني إسرائيل – هو عبد الله بن سلاّم – يشهد أمامكم بصدق الرّسول، وصدق نبوّته، وبصدق التّنزيل بمثل ما نزل على نبيّهم موسى التّوراة، وقد أعلن فيكم أنّ إيمانه بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم وبالكتاب، وأمّا أنتم فظللتم على اِستكباركم وعلى عنادكم فلم تؤمنوا برسولكم وبما جاءكم به، فاعلموا أنّ الله لا يوفّق الذين ظلموا أنفسهم بإصرارهم على الكفر للهداية للإيمان الحقّ ولصراطه المستقيم.

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ (11) :

هذه في بيان مظهر من مظاهر استكبار زعماء الشرك، وفي مظهر من مظاهر عنادهم. فأمّا اِستكبارهم فيدلّ عليه قولهم في الذين آمنوا لو كان في ما اتّبعوه خيرٌ لكنّا نحن السبّاقين إليه، وما جعلناهم سابقين إليه، وذلك لأنّ الذين سبقوا للإيمان كانوا من المستضعفين ومن الفقراء، فلم يرضوا أن يكونوا في غير الصفّ الأوّل المتقدّمين في كلّ أمر وفي كلّ فعل، طغى عليهم كبرياؤهم فلم يؤمنوا.

وعنادُهم ظاهر في اِتّهامهم لما جاءهم من تحذيرهم من عاقبة سيّئة بمثل سوء عاقبة الأمم السالفة من الكافرين بأنّه من أقبح كذب الأولين وأشنعه، وما هذا الاتّهام إلاّ ليُبرِّروا عدم اِهتدائهم للاستقامة على هذا الدّين.



• وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (12) :

كيف لا يؤمن هؤلاء بما جاءهم من عند الله تعالى، وكيف لا يصدّقون بالوحي وبالقرآن تنزيلا من عند الله تعالى، وهم يعلمون من أهل الكتاب أنّه قد جاءهم موسى رسولا من عند ربّهم وأنّه قد أنزل عليهم كتابا هو التوراة، ولذلك كانوا يسمّون اليهود أهل كتاب. وقد كان كتابهم قدوة لهم للإيمان بالله الحقّ ونبذ الشرك، وقدوة لهم للخيرات وللرّشاد ولصالح الأعمال، وكان كتاب رحمة لأنّه هداهم لصراط الله المستقيم، ونظّم لهم حياتهم على شريعة متّبعة. ومثل ما جاء أهل الكتاب من قبلكم رسول ومعه كتاب، جاءكم هذا النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ومعه هذا القرآن: كلام الله تعالى في كتاب مقروء يصدّق بالكتب المنزّلة التي سبقته، وهو بلسانكم العربيّ لتتدبّروه وتفهموه، وجاء بإنذار الذين يظلمون أنفسهم بالكفر بغضب الله تعالى وعذابه، وتبشير المؤمنين الذين يصدقون في إيمانهم ويخلصون في طاعاتهم بالإنعام عليهم بالأمان من عذاب الله تعالى، وبإكرامهم بالنّعيم المقيم عند الرّجوع إليه سبحانه.

• إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) :

هذه مع الآية الموالية في بيان ما يُبشّر به الله تعالى عباده المحسنين الذين جاء الإخبار به في الآية السابقة. المقصود بالمحسنين الذين ورد ذكرهم في الآية السابقة هم الذين قالوا ربّنا الله ثمّ اِستقاموا، الإحسان يقوم على أمرين: أولهما: توحيد الله عزّ وجلّ في التّقديس والألوهية والعبادة والطاعة والدعاء، وثانيهما: الاستقامة على شرعه، فعملوا بأوامره، واِجتنبوا المنهيات، واِبتعدوا عن المحرّمات فحرّموها على أنفسهم عن طواعيةٍ طاعةً لربّهم. هؤلاء مبشّرون بالأمان من العذاب في دنياهم وعند مماتهم وعند رجوعهم إلى ربّهم يوم البعث، يقومون آمنين لا يخافون من الحساب، ولا يخافون من أن يُلْقى بهم في المهلكة، وهم مبشّرون بأنّه سيقابلهم من التّكريم والنّعيم في آخرتهم بما يجعلهم لا يحزنون على فراق دنياهم، وعلى متاعهم الدنيوي.

• أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (14) :

وأكبر بشراهم أنّهم سيكونون من أهل الجنّة وسكّانها ومن المقيمين فيها الإقامة الدائمة الخالدة لا يخرجون منها ومن نعيمها ولا يفارقون خيراتها، وهذا جزاء لهم بما كانوا يعملون من الطاعات لربّهم ومن الأعمال الصالحة وأعمال البرّ. والملاحظ أنّ اِستعمال اِسم الإشارة للبعيد (أُو۟لَٰٓئِكَ) يفيد الدّلالة على رفعة قدرهم ومقامهم ومكانتهم، فهذه الرّفعة العالية جعلتهم في مقام البعيد عند الإشارة إليهم.

- وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ **(15):**

هذه إلى الآية 20 في علاقة الإنسان بوالديه، وفي عاقبة البرّ، وعاقبة العقوق.

والمعنى: وفرضنا على الإنسان أن يحسن لوالديه. ووجب العلم بأنّ الفعل (وَوَصَّيْنَا) حينما يكون أمره من الله عزّ وجلّ بأنّه أرقى في الفرض مِن فَرَضْنَا، وهو أَلْزَمُ من لم يعمل بالفرض فقد عصى الأمر ولزمته العقوبة أو المؤاخذة على المعصية فإن تاب المرء من معصية عفا الله تعالى عنه وغفر له، وأمّا من خالف وصية الله تعالى فقد خسر رضوان الله جّل وعلا ومن عمل بها كان وفيا ومحافظا على الوصية وقائما عليها، وبذلك يتقرّب بها من ربّه. وجاء لفظ (إِحْسَٰنًا) في صيغة اِسم جنس، وجاء نكرة ليدلّ على كلّ ما يراه الابن كمظهر من مظاهر الإحسان وحسن المعاملة وكلّ ما يراه من أعمال البرّ حتى لا يأتي شيئا ممّا يراه من عمل العقوق. (حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا) هذه في بيان سبب اِستحقاق الأم لبرّها والإحسان إليها، وتخصيصها عن الأب بمزيد الرعاية، وذلك لأنّها تحمّلت عناءً كبيرا ومشقّة عند حملها للجنين أشهرا أجهدتها وثقل عليها تباطؤ الوضع حتى وضعته بوجع كبير وآلام ومشقّة مضنية، وحملته وأرضعته حتّى فُطِم مدة ثلاثين شهرا، وكانت فترة أتعاب ومشقّة في الرّعاية، فهذا الشقاء والإرهاق موجبان للبرّ بالأمّ برّا متّصلا غير منقطع. (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) حتّى إذا اِكتمل عقل هذا المولود وكبر، واكتمل رشده،وحسن فهمه وبلغ سنّ الأربعين أصبح والداه ضعيفين ومحتاجين للعناية والرّعاية، وبحاجة إلى الأنس بالذرّية لقضاء حوائجهما بانتظام، عندئذ لزمه العمل بوصية الله تعالى في برّهما والإحسان إليهما تنفيذا لأمره تعالى وليس تكرّما وتفضّلا منه، وقال تداعيا (قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ) أي يا ربّ ألهمني حسن شكرك ووفّقني إلى حمدك الحمد الذي يليق بجلالك على ما تفضّلت به عليّ من نعمك التي لا أُحصيها عليك، وعلى ما تفضّلت به على والديّ من نِعَم الوجود والصحة وإيجاد الخيرات. والمُستفاد من هذه الجملة العلمُ بأنّ من أبواب البرّ بالوالدين ذكرهما عند شكر الله تعالى على الفضل والنّعمة، بمثل ما أوجب الله على الأبناء الدعاء لهما من بعد حياتهما، وفي غيبتهما، وقد جاء في الحديث النّبويّ المتواتر: "إذا مات اِبن آدم اِنقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بَثَّهُ في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له..." وقال تعالى (وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا)(الإسراء الآية 24).

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ) وهذا من فضيلة الرُّشْد، فإنّ العاقل يدعو ربّه أن يلهمه رشده ليوفّقه ليعمل بالطاعات التي أمره بها ربّه، وليعمل أعمال البرّ بوالديه، وليعمل صالحا في أسرته وفي

محيطه البشريّ في ذوي القُربى ومع كلّ من حوله ممن يتعامل معهم ليكون عملا بالحسنى وبالقسط وبالتعاون والتراحم، وليعمل عملا يُذكر به من بعده من الأعمال الخيرية. (وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ) ومن صالح القول والعمل أن يدعو المرء لأبنائه بالصلاح في الرأي وفي العمل حتى لا يكون للشيطان وللهوى على أنفسهم دليلٌ، وفي الدين وأن يكونوا من حُسن الخلف، ومن البارّين بوالديهم، والصلاح في الرّأي هو الرشد، وإكتمال العقل في تحسن الخلق، والصلاح في العمل هو الإلهام ليعمل عمل البرّ بالوالدين، وليعمل خيرا في محيطه البشري، وليُوفّق في عمله في دنياه، وفي كسبه، وفي تكوين أسرته، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الأثر الذي يُرفع إلى الحديث الشريف: ثلاث دعوات مستجابات لاشكّ فيهنّ: دعوة الوالد لولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم" (حديث مرفوع ولذلك يُستحسن أن يُعَدَّ من الأثر).

(إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ) هذه في الإنابة، وفي تجديد العهد مع الله تعالى ليكون مسلما. وهذا بمثل دعاء يوسف عليه السلام: (فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ)(يوسف الآية 101). وهذه الجملة تذكّر المؤمن بأن يثابر على طلب التوبة، وعلى الاستغفار، وهذا من حسن الإنابة إلى الله عزّ وجلّ، وهذا كأنّه غسل يومي للذنوب، وإنّ تجديد العهد بالإقرار بأنّه من المسلمين ليعمل بشرع الله عملا مخلصا، وليقوم على عقيدة التّوحيد، وهذا ليذكّر المؤمن نفسه بما هو واجب عليه في دينه، عقيدة وشريعة. وما أحوج كلّ مؤمن لأن يرطّب لسانه بهذا الدعاء الذي فيه طلب للتّوفيق لحسن الثّناء على الله عزّ وجلّ، والاستعانة به تعالى على البرّ بوالديه، وأن يلهمه الرّشاد ليعمل صالحا، وفيه الدعاء بالصلاح للذرّية، وفيه الإنابة إلى الله تعالى بإعلان التّوبة، وتجديد العهد بالثبات على الإسلام، وحين يعلم المرء ما يعِدّ الله تعالى به الداعي بهذا الدعاء والعامل به على قدر طاقته وإستطاعته من الأجر والثواب في آخرته كما جاء في الآية الموالية فإنّه يزداد تمسّكا بذكره آناء الليل وأطراف النّهار.

- **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ (16) :**

هذه في جزاء من كان منضبطا للعمل بما جاء في دعائه بالآية السابقة. كلّ من كان على منهجه فإنّ الله تعالى يعده بقبول صالح أعماله وحسن أقواله وحسن أدعيته، ويعِدُه تعالى بالعفو عنه في ما أساء فيه عملا أو قولا، وبالصفح عنه بأن لا يؤاخذه عمّا فرط منه، ويكون وأمثاله من أهل الجنّة ينعمون فيها بالأمان وبما فيها من خيرات ووجوه التكريم، وهذا وعد صادق وثابت من الله تعالى تنفيذا لما وُعدوا فيه كما جاء في كتابه.

- وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِى وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (17) :

وهذه في الصورة العكسية لوجوه البرّ بالوالدين، هذه في العقوق، والآية الموالية في سوء عاقبته، والمعنى: والذي يتأفّف من نصح والديه – وما يريد الوالدان لابنهما إلاّ خيرا ورشادًا وحسن عمل واِستقامة وحسن الذكر ليفخرا به – ويتضايق من إرشادهما ومن كلامهما وخاصة إذا حذّراه من سوء عاقبة الكفر يوم القيامة، ووعظاه للعمل للآخرة بأن يقدّم لنفسه إيمانا صادقا وعملا صالحا فإذا هو يسخر من توجيههما وإرشادهما ووعظهما له ويتندَّرُ بالبعث وبإحياء الموتى محتجّا بأنّ أحدا من السابقين الأولين من الأموات لم يرجع للحياة بعد موته، والأبوان يستغيثان الله تعالى ويستنجدان به تعالى ليهديه للإيمان وللرّشاد، وليتوب من كفره، وهما يدعوانه للإيمان خيرا له من الكفر الذي لا يعقبه إلاّ الويل والهلاك، فقد أوجب الله على الكافرين العقاب، وهذا وعيد ثابت لاشكّ فيه، فيردّ عليهما بأنّ كل ما جاء في كلامهما هو من خرافات الأقدمين، ولا صحّة له، وغير واقع مُصِرًّا على إنكار البعث والقيام للآخرة.

- أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ (18) :

كلّ الذين ينكرون البعث، ولا يصدّقون بيوم القيامة والحساب، ويظنّونه والوعيد، من الخرافات، وعقّوا آباءهم حين وعظوهم بالحذر من يوم الحساب ليؤمنوا بالبعث وليعملوا صالحا وليخشوا ربّهم وعقابهم فتأفّفوا منهم وظنّوهم من المصدّقين بالخرافات، جميع هؤلاء وجب عليهم عقاب الله تعالى وعذابه في آخرتهم بنار جهنّم مع أمم قد تقدّمتهم في الحياة والوجود ومضَوْا من طائفتي الجنّ والإنس الذين زيّنوا للنّاس الكفر بيوم القيامة وزيّنوا لهم التمادي في إتيان معاصيهم دون الخشية من الله تعالى، ومن وعيده، جميع هؤلاء قد ضاع عنهم سعيهم في دنياهم وخسروا أعمالهم وخسروا آخرتهم.

- وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (19) :

ولكلّ إنسان من الفريقين : المؤمنين البارّين والكافرين المكذّبين العاقّين لوالديهم مراتب في الإحسان والتكريم والثواب أو في العقاب والعذاب، المؤمنون البارّون يرتقون في منازل الجنّة، والكافرون المكذّبون العاقّون ينزلون إلى الدرجات السفلى إلى الدرك الأسفل من النّار، وكلّ واحد مثاب على عمله خيرا لا ينقص له من درجات إحسانه وإنّما يوفّى له في الإحسان، وأمّا الكافر المكذّب فيعاقب على قدر إساءاته دون زيادة، فلا يُظلم في عقابه بأكثر ممّا يستحقّ.

- وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ **(20) :**

ويوم يُحشر الكافرون في نار جهنّم يقال لهم أضعتم الطّيبات التي كانت عندكم في حياتكم الدنيوية، ومتاعكم الذي كنتم تفخرون به في دنياكم، لقد إستمعتم بها وبشهواتكم كما أحببتم، وأمّا اليوم فتجزون على معاصيكم وعلى غفلتكم عن العمل للآخرة بعذاب الإذلال بسبب مكابرتكم وإستكباركم في الأرض واستعلائكم عن اتّباع الدين الحقّ وعن العمل بشرع الله عنادا وظلما لأنفسكم، اليوم تعذّبون بعذاب المهانة لخروجكم عن طاعة الله تعالى وعن العمل بأوامره والانتهاء عن نواهيه.

- وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ **(21) :**

هذه الآية إلى الآية 28 في التّذكير بما أصاب الأحقاف لموعظة مشركي مكة، وكانت الأحقاف على طريقهم في رحلتهم الشتويّة إلى اليمن، وذلك لتحذيرهم من أن يُصيبهم بمثل ما أصابهم من الهلاك وخراب ديارهم لأنّهم لم يؤمنوا بالله وحده، وكانوا قد كذّبوا رسولهم "هود" وأصرّوا على الشرك، فحالهم في الإنكار والتكذيب سواء.

ومعنى الآية: وذكّر قومك – يا محمد – بخبر "هود" عليه السلام أخ قوم عاد بالنّسب، إذ حذّر قومه الذين كانوا يسكنون مدينة حضرموت باليمن في منطقة "الأحقاف". و"الأحقاف" هو واد الرّمل العظيم المستطيل كان مشرفا على البحر بين عمار وعدن، وفي منتهى الأحقاف أرض حضرموت. جاءهم رسولهم بدعوتهم لتوحيد الله عزّ وجلّ بالعبادة والطاعة، وقد جاء القوم (مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ) من قبله رسل بنفس الدعوة، (وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ) ورسل آخرون بعيدون عنه في الزمن لتحذيرهم من الشّرك، وحذّرهم "هود" من أن يصيبهم الله تعالى بعذاب عظيم يوم الرّجوع إليه، وخوّفهم من عذاب يومئذ.

وفي هذا التّذكير ما يُسلي على الرسول صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّ من سبقه من الرّسل قد شاقّتهم أقوامهم بالتّكذيب، وبالإصرار على الشّرك، وهذا حتى لا يغتمّ ولا يحزن بموقف قومه منه، ومن رسالته ودعوته.

- قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ **(22) :**

ولمّا دعا "هود" قومه لعبادة الله وحده، ونهاهم عن تقديس الأصنام فإنّ عبادتها ضارّة بهم، وغير نافعة أو مجدية تصدّوا إليه باستنكار ما يدعوهم إليه، وواجهوه بالاحتجاج عليه فقالوا: أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا، وما كان قولهم إلاّ للاستغراب من دعوته، وأصرّوا على ما هم

عليه، ولمّا أنذرهم من عذاب الله قالوا له في تحدٍّ: ائتنا بما تتوعدنا به من العذاب إن كنت من الصادقين. وقولهم هذا يدلّ على تكذيبهم برسالته وبدعوته، ويدلّ على اِستخفافهم بتحذيره وإنذاره، وعلى أنّهم يستبعدون حصول ما حذّرهم منه.

- قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ (23) :

عندئذ فوّض "هود" أمره إلى الله تعالى في قومه فقال لهم: إنّما عذاب الله تعالى من أمره سبحانه ومن تقديره ولا يعلم أحد غيره موعد حصوله، ولا يحدث إلاّ بأمره، إنّما عليّ أن أبلّغكم ما أرسلت به إليكم من دعوة للتوحيد والخشية من غضبه واِنتقامه، ولتحذروا الشّرك وسوء عاقبته، لكنّي أراكم قوما معاندين، أهل جهالة لا تقدّرون قدرة الله تعالى عليكم، وإنّكم تجهلون ما ينتظركم من سوء العاقبة.

- فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ (24) :

ولمّا حقّ عليهم أمر الله تعالى أرسل عليهم سحابا في اِتّجاه قريتهم وكانت على وادٍ فسيح، وظنّ القوم سحاب غيث لسقيهم وشرابهم، ولكنّه لم يكن على نحو ما توقّعوه إذْ لم يكن غَيْمَ مطر رحمة، وإنّما كان غيم ريح عاتية تحمل معها إنذارًا بحلول عذاب موجع بالقوم،عذاب اِستبعدوا حصوله، وتعجّلوا حلوله.

- تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (25) :

ولمّا بلغهم الريح العاصف بشدّة رأى القوم متاعهم يتطاير في مهبّ الرّيح، ورأوا مواشيهم تدفع بقوة الريح بعيدا، وسارعوا في الاحتماء ببيوتهم ولم يسلموا من وقوع الرمل الذي تحرّك بفعل الريح عليهم، وقد كانوا يقيمون عند واد الرمل، وحبسوا في بيوتهم لا يستطيعون الخروج منها خوفا على أنفسهم من الهلاك، وما قدروا على إعداد طعام، وجفّ عنهم زادهم من الماء ذلك لأنّ الرّيح ظلّ عليهم عاصفا بشدّة سبع ليال وثمانية أيّام حسوما (أي دائما شرّها) لم تتوقّف عن تهييج الرمل على بيوتهم حتى هلكوا وهم يبصرون الموت يدنو منهم وهم في شدّة من ضيق النّفس ومن جفاف الحلق وجوع البطن وصرير الرّيح المصمّ للآذان، إلى أن ردموا في بيوتهم جوعا وعطشا واِختناقا. كذا رأوْا أمر ربّهم الحقّ، وما اِستطاعوا أن ينجوا من حتفهم في بيوتهم وهم ينظرون. وما عاد يُرى من أثر القوم إلا بيوتهم الخاوية، ومساكنهم التي غدت قبورا لهم مُرْدَمين بالرّمل، وهكذا كانت عاقبة المجرمين الذين أصرّوا على كفرهم بالله تعالى، وعلى تكذيبهم برسولهم وبالوعيد.

- وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ(26) :

ولقد بسطنا لهم في الأرض وأعطيناهم من كلّ شيء، ولو أنّ الله تعالى مكّنكم – يا أهل قريش– بمثل ما مكّنهم فيه من البسط في الأرض ومن العطاء من كلّ شيء لكان جرمكم أعظم، ولكنتم أشدّ منهم عنادا. ولقد أنعم الله تعالى بتمام الخلق في السمع والبصر، وجعل لهم قلوبًا ليفقهوا بها ولتلين لذكر الله سبحانه وتخشع، فلم ينفعهم ما أنعم الله تعالى به عليهم بشيء للانتفاع بآيات الله والاتّعاظ بها، لأنّهم كانوا ينكرونها، ويكذّبون بها من غير حجّة ولا دليل، وبدون النّظر فيها وتدبّرها، فأحاط بهم العذاب المدمّر المهلك الّذي أماتهم وردمهم في بيوتهم مع متاعهم، العذاب الذي كانوا منهم يسخرون ويكذّبون به ويهزؤون، والذي كانوا يستعجلونه.

- وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (27) :

الخطاب في هذه الآية لمشركي العرب. ولقد أهلك الله تعالى بأمره ما حولكم – يا مشركي العرب – كحجر ثمود وأرض سدوم ومأرب، والأحقاف، ونوَّعَ الدلائل والحجج للاتّعاظ بها، وإنّكم في رحلتي الشّتاء والصيف تمرّون بقراهم وترون آثارها عساكم تتّعظون، وترجعون إلى الله عزّ وجلّ بالتوبة.

- فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (28) :

فهلاّ نصرتهم الآلهة التي كانوا يقدّسونها، ويقدّمون لها قرابينهم والصدّقات للتقرّب إليها لتنقذهم من العذاب الذي حلّ بهم، بل لقد ضاعت عنهم وغابت عن نصرتهم وذلك لأنّها آلهة من صنع خيالهم ومن إبتداعهم في الدّين الابتداع الكاذب الفاحش على الله تعالى.

- وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ (29) :

هذه الآية إلى الآية 32 في إيمان نفرا من الجنّ بالقرآن وفي إنصاتهم لما يُتلى منه وذهابهم لإعلام قومهم به وإنذارهم، وفي دعوتهم لقومهم لإيجاب دعوة الله وداعي الله تعالى وهو الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وقد جاءت هذه الآي لتأييد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الزمن الذي كذّب به قومه وشاقّوه ليعلم أنّ الله تعالى قد صرف إليه نفرًا من الجنّ فآمنوا به وبكتابه، وزاده هذا التأييد تشريفا لأنّه قد رفعه لأن يكون رسولا للثّقلين: الإنس والجانّ، وفي هذا توبيخ لمشركي مكة ليعلموا أنّهم إن كذّبوه فقد آمن به من كانوا يعبدون من الجنّ ويخافون، والجنّ من مخلوقات



الله تعالى منهم المؤمنون ومنهم الكافرون الفاسقون، ومَنْ يتّبع وسوسة الشياطين في تكذيبه برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن فهو من الضالّين. والمعنى: ولقد وجّهنا نحوك – يا محمد – جماعة من جنس الجنّ يستمعون القرآن، فلمّا حضروا مجلسك وأنت تتلو القرآن قالوا لبعضهم: أُسكتوا، وأحسنوا الاستماع لما يُتلى منه ولما يذكر. فلمّا فرغ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من قراءة ما تيسّر منه رجعوا إلى أصحابهم من جنسهم فأخبروهم بما سمعوا، وبلّغوهم بما جاء في القرآن من تخويف من بأس الله تعالى لمن كفر به، وكذّب بالوعيد وبرسله.

- قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ (30) :

وأخبروهم بأنّهم قد سمعوا آيات من كتاب أنزله تعالى على محمد صلّى الله عليه وسلّم بعد التّوراة التي أنزلت على "موسى" عليه السلام، وهو كتاب يصدّق ما سبقه من الكتب السماوية المنزلة على الرّسل، وما سبقه من الأديان السماوية الحقّة، وهو كتاب هدى يرشد للدين الحقّ القائم على المعتقد السليم، والتّوجيه لأعمال البرّ، وللطاعات التي يرتضيها الله تعالى لعباده، ويرشدهم للضلالات البيّنة ليحذروها وليحذروا سوء عواقبها ليكونوا سالكين الطريق السويّ المبلّغ للأمان من غضب الله تعالى وعقابه. وقد ذكرت "التوراة" في هذه الآية دون الكتب السماوية الأخرى لأنّ التوراة هي العمدة في التّشريع لبني إسرائيل، وقد كان كتاب "الإنجيل" كتاب مواعظ ورقائق إنسانيّة أخلاقية، وأمّا "الزّبور" أو "المزامير" فهي تسابيح وأذكار، وهذان الكتابان مكمّلان للتّوراة مع "الوصايا العشر".

- يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (31) :

وقالوا لقومهم واعظين ناصحين: أجيبوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيما يدعو إليه من توحيد الله عزّ وجلّ في عبادته وطاعته، وأجيبوا داعي الله الذي جاءكم في كتابه وكلامه في القرآن الكريم عسى أن يغفر لكم بعضا من ذنوبكم، ويسترها عليكم يوم الحساب، ويحميكم من عذابه وينقذكم منه جزاء طاعاتكم فإنّ عذابه موجع، شديد الإيلام.

- وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (32) :

ومن لا يمتثل لأمر الله تعالى بالعمل بأوامره وبالانتهاء عمّا نهى عنه، وأصرّ على معصيته أو على الغفلة عن طاعته فإنّه ليس بمُفْلتٍ من عذابه وعقابه، وليس له من ذلك مهرب في دنياه، ولن يكون له من مجير أو منقذ من عذاب الآخرة، إنّه وأمثاله بعيدون عن الصواب وتائهون عن الحقّ تيهًا بيّنا وواضحا.

• ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (33) :

هذه في التذكير بقدرة الله العظيمة ليعلم كلّ كافر به أنّه عليه قادر، فهذه في إنذار المكذّبين بوعيد الله عزّ وجلّ، وليؤمنوا بالبعث، والمعنى: ألا يرى هؤلاء المشكّكون في البعث والمكذّبون به أنّ الله الذي لم يُعجزه خلق السماوات والأرض على عظمتهنّ، والذي لم يتعب في إنشائهنّ ولم يَجْهَدْ لا يعجزه إحياء الموتى، بل هو قادر على ذلك كما قدر على خلق هذا الخلق العظيم بمكوّناته. إنّه على فعل كلّ ما يريد قادر، مقتدر، بل هو عظيم القدرة (إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)(يس الآية 82) إنّ الذي قدر على خلق الشيء الأوّل مرّة، قادر كلّ القدرة على إعادة خلقه إذا هلك أو فسد.

• ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ (34) :

بعد إثبات عظيم القدرة لله تعالى على إعادة إحياء الموتى جاءت هذه في بيان سوء عاقبة المكذّبين بما جاءهم من وجوب الإيمان بالبعث، وبموعظتهم بحسن الإعداد ليوم الحساب بصالح الأعمال وحسن المعتقد. والمعنى: ويوم يعاين الذين كفروا مأواهم في النّار ومنازلهم فيها يسألون عن الساعة: أحقّ هي؟ وعن البعث: وهل بُعثتم اليوم بعد مماتكم؟ وعن الحساب والوعيد: أليس ما وعدتم به كان حقا؟ عندئذ يُقِرّون بأنّ ما كانوا يكذّبون به قد وقع حقّا، وثبت حصوله ولم يكن اِفتراء وربّنا الحقّ. ولم يعد ينفعهم إقرارهم ولا إيمانهم بربّهم لينجوا من عذاب يومئذ، ويقال لهم: أُدخلوا جهنّم لتذوقوا العذاب الذي كنتم به تكفرون وتكذّبون وتهزؤون، وكنتم تنكرون حصوله.

• ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (35) :

وتختم هذه السورة بدعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأن يصبر على أذى المشركين من قومه الذين كذّبوا به وبرسالته وبالوحي الذي جاءه وبالتنزيل، وأن يكون من أولي العزم في الثبات على دعوتهم للاستجابة له ولله تعالى فيما يدعوهم إليه للاستقامة على دين الله الحقّ وفي الثبات على تحمّل أذاهم ومشاقّتهم، وفيها تسليته حتى لا يألم لإعراضهم عنه وعن السماع له، والكلّ راجع لله تعالى للحساب ليروا ما يوعدون. والمعنى: فاحتمل أذاهم كما اِحتمل أولو العزم من الرسل أذى أقوامهم وصبروا على عظيم المكاره والشدائد والأذى، ولا تتعجّل عليهم بالعذاب، وسيرون يوم رجوعهم إلى ربّهم للحساب ما ينتظرهم من العقاب والعذاب، وسيشعرون يومئذ أن بين موتهم وبعثهم لم يمض إلاّ زمن قصير جدّا كأنّه ساعة من نهار. إنّ هذا القرآن بلاغ لهم بما يكون

لأهل الكفر من العذاب بعد اِنقضاء آجالهم، وفيه إخبارهم بما يوعدون، ولا يهلك، ولا يُعذّب إلاّ المتمردّون على أمر الله عزّ وجلّ، والخارجون عن طاعته بالشّرك واِنتهاك حرماته. والاستفهام هنا للتّذكير بالنتيجة المتوقعة بمعنى لا هلاك إلاّ للمارقين عن الحقّ والصواب.

رقمها	ســـــورة محمّـــد ﷺ	آياتها
47	ـــــ مدنيّة ـــــ	38

هذه سورة مدنية، قيل نزلت بعد واقعة بدر، ومنهم من يقول بنزولها بعد واقعة الأحزاب. وقد سمّيت بسورة "محمّد" في أغلب المصاحف لما جاء فيها من تفضيل المؤمنين على الكافرين بما نُزِّل عليه، وعلى الذين يُشاقّونه، ودعت إلى طاعته بعد طاعة الله عزّ وجلّ. وفي بعض المصاحف سمّيت بسورة "القتال" لما جاء فيها من تشريع القتال للمسلمين المعتدى عليهم، ومن تحديد لبعض أحكام القتال والأسر، ولما جاء فيها من ترغيب المسلمين في الجهاد وفي الإنفاق فيه.

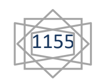
ومن مواضيع هذه السورة التّحذير من اِتّباع الباطل، ومن النّفاق وهدّدت بكشف المنافقين، وفيها تبشير المؤمنين بالتّكفير عن سيّئاتهم وبإصلاح بالهم، وحذّرت الكافرين والذين يصدّون عن سبيل الله تعالى والذين يشاقّون رسوله بسوء العاقبة. وجاء فيها موعظة المؤمنين للاهتداء للحقّ وللتّقوى.

- ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ (1) :

هذه مع الآيتين المُواليتين في تفضيل المؤمنين العاملين الصالحات المصدّقين بما نزّل على محمد رسول الله ﷺ على الكافرين الذين يصدّون عن سبيل الله تعالى. والمعنى: الذين كفروا بالله وتوحيده وبرسوله وكتابه، ومنعوا المستضعفين وأتباعهم من الإسلام ومن توحيد الله تعالى واِتّباع رسوله خسّر أعمالهم، وأبطل كيدهم ومكرهم بالنّبيّ ﷺ، وجعل الدائرة عليهم.

- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) :

وأمّا الذين آمنوا بالله وحده، ولم يشركوا به أحدا، وعملوا الصالحات من أعمال الطاعات وأعمال البرّ، وصدّقوا بالقرآن وبالوحي الذي نزّل على نبيّ الله ورسوله محمد ﷺ، ولم يخالفوه فيما دعاهم إليه من الطاعات ومن الحكمة في القول والعمل والسلوك وهو الحقّ من ربّهم غطّى عنهم ما مضى من سيّئاتهم وذنوبهم التي سبقت إيمانهم، وأصلح لهم شأنهم، وحالهم، وكلّ تدبير من تدابير شؤون دنياهم، وأصلح كذلك نواياهم. و"البالُ" كلمة عربية فصيحة تعني كلّ تفكير عميق، وكلّ تعقّل، وكلّ تدبير حسن، وكلّ تبصّر بالعواقب وبالنتائج المحتملة مستقبلا، فصلاح البال من الرُّشد، ووضوح البصيرة، والرؤية المستقبلية مع الحذر من العواقب السّيئة في اِتّزان وهدوء.



- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ (3)﴾ :

فذلك الإضلال للكافرين، وذلك الهدى وإصلاح البال للمؤمنين بسبب اِتّباع الكافرين للباطل، والشّرك أعظم مظاهره، ولأنّ المؤمنين اِتّبعوا الحقّ: التّوحيد، وصراط الله المستقيم ومنهجه وشرعه الذي جاء في كتابه. وهكذا يُبيّن الله تعالى للنّاس أمر الحسنات والسيّئات، ويوضّح سبيل خسران الأعمال، وسبيل صلاح البال للاعتبار وللاتّعاظ.

- ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ (4)﴾ :

هذه إلى الآية 11 في حكم من أحكام القتال، وفي ترغيب المؤمنين في القتال ووعدهم بالنّصر وبإدخالهم الجنّة، وفيها ما يدعو الكافرين للاعتبار بعاقبة أمم سالفة للانتهاء عن الكفر وعن الصدّ عن سبيل الله تعالى. والمعنى: فإذا حمل عليكم الكافرون الذين يصدّون عن سبيل الله السلاح لأنّكم خالفتموهم في العقيدة بترككم تقديس الأصنام، ولأنّكم آمنتم بالله وحده وبرسوله وبكتابه فقاتلوهم، واقطعوا رؤوسهم حتى إذا أكثرتم فيهم القتل والجراح، وأريتموهم بأسكم، وضعفوا عن مواجهتكم، فأحكموا قيد أسراهم، ثمّ انظروا في أمرهم، فإمّا أن تطلقوا سراحهم تكرمة منكم وتفضّلا لإذلالهم وشفقة على عيالهم، وإمّا أن يفديهم أهلوهم بالمال أو بمبادلتهم بأسراكم حتى يعلنوا إيقاف القتال ووضع السلاح. هذا ولو شاء الله تعالى لانتقم منهم بالإهلاك بغير حرب، ولكن قد شاء أن يختبر صبر المؤمنين ويمحق الكافرين بأيدي المؤمنين ليعرف كلّ معتبر أنّ الله مع المؤمنين وأنّه ناصرهم ومؤيّدهم، وأنّ الكافرين لا مولى لهم ولا نصير، وليجزي المؤمنين الذين قاتلوا في سبيل الله، ولن يضيّع الله تعالى أعمالهم وجهادهم فسيثيبهم على ما عملوا خيرا.

- ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ (5) وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ (6)﴾ :

الآيتان فيما يعدهم الله تعالى من الثّواب، الأولى فيما يعجّل لهم من الثواب في دنياهم: سيهديهم الله تعالى ليعملوا بطاعاته ليعظم لهم الأجر في آخرتهم وليجعلهم في سلوكهم قدوة، ويصلح تدبيرهم لما ينفعهم في حياتهم الدنيوية ليكسبوا من ورائه خيرا، وليحقّق لهم رجاءهم فيها ممّا يحبّون من الكسب من المال والولد والخيرات، وأمّا الثانية فيعدهم لآخرتهم بأن يدخلهم الجنّة التي وضّح لهم مُتعها ونعيمها وزينتها ومنازلها.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ (7)﴾ :

يا أيّها الّذين آمنوا إن تنتصروا لدين الله عزّ وجلّ بحفظ حدود ما أنزل من تشريعه وأحكامه

وتنتصروا له بطاعة الله وبالأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر، يكن الله تعالى لكم نصيرا، مؤيّدا لكم، ويُقَوّكم على أعدائكم، ويثبّت قلوبكم بالأمن، وعلى الإسلام، وينصركم ويُعِزّكم في موطن الحرب.

- **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ (8) :**

وأمّا الذين كفروا فلهم الخيبة، والشقاء، والقُبح، والانحطاط، ولن يفلحوا في أعمالهم، ولن يجنوا من طاعتهم لشياطينهم وأصنامهم خيرا، ولا يكون لهم منها إلاّ الخُسران.

- **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ (9) :**

وذلك لأنّهم كرهوا ما أنزل الله من مواعظ لهم لإصلاح معتقدهم، ولرفع الجهالة عنهم، ولإنقاذهم من ضلالتهم، فلم ينتفعوا به وأصمّوا آذانهم عن سماعه، فأفسد عليهم رأيهم وأعمالهم فلم يفلحوا في شيء ولن يفلحوا.

- **أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا (10) :**

هذه للتحذير من عاقبة كعاقبة الكافرين من قبلُ: دمّروا تدميرا. والمعنى: أفلم يروا في أسفارهم شمالا وجنوبا آثار قُرى مدمّرة تدميرا مهولا لأقوام كانوا كافرين وكانوا قد شاقّوا رسلهم ليعتبروا بما حدث لهم وبما صاروا إليه ولينتهوا عن شركهم وليتبعوا رسولهم وليخافوا عذاب ربّهم، لقد أحاط بالسابقين عذاب أهلكهم وخرّب بيوتهم وممتلكاتهم، ولكلّ الكافرين من أمثالهم عاقبة سيّئة كعاقبتهم. وفي هذا وعيد لأهل مكة ليعلموا أنّهم إن لم يؤمنوا فسيلحقهم مثل هذا التّدمير.

- **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ (11) :**

وهذا ليعلم الجميع أنّ الله تعالى نصير للمؤمنين ومؤيّد لهم ومُؤَمِّنهم من العذاب، وأنّ الكافرين لا نصير لهم وليس لهم من الله تعالى ومن عقابه حافظ، ومدافع عنهم الأذى.

- **إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ (12) :**

هذه الآية وإلى الآية 15 في ما أعدّ الله تعالى من النّعيم للمؤمنين في آخرتهم للترغيب للاستجابة للرسول فيما يدعو إليه من إستقامة على الدين الحقّ، وهي كذلك لترهيب من كفر وطغى. والمعنى: إنّ الله تعالى يعد الذين صدقوا في إيمانهم بوحدانيته وصدقوا في إيمانهم برسله وكتبه واليوم الآخر، وعملوا بشرعه وبالطاعات التي رغّب فيها بأن ينعم عليهم بإيوائهم في بساتين مرفّهة تجري من حولها الأنهار، وأمّا الذين كفروا فليس لهم من نعيم الآخرة شيء، ليس لهم إلاّ ما تمتّعوا به في دنياهم من شهوات وما تمتّعوا به من طعام شهيّ ولذيذ، شأنهم في ذلك شأن الأنعام ليس لهم من تمتّع إلاّ بملء بطونهم، وأمّا في آخرتهم فسيكون مأواهم ومستقرّهم في النّار.



- وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ **(13) :**

وهذه في تحذير أهل مكة، فكم من قرية قد دمّرناها، وأهلكناها وكان أهلها طغاة، وكانوا يسكنون المساكن المنيعة الحصينة، وكانوا يملكون قوّة بشريّة وماديّة، وكان أهلها أشدّ بأسا من أهل قريتك الّتي أخرجتك يا مُحمّد من بيتك فهجرتها وهاجرت إلى المدينة، ولم يكن لهم من حافظ أو نصير ليدفع عنهم عذاب الله عزّ وجلّ الذي حلّ بهم فأهلكهم، فهل أمِنَ هؤلاء من بأس الله بما فعلوا بك وبالمؤمنين؟

- أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم **(14) :**

أفمن كان على حجّةٍ وبصيرة ونور من ربّه كمن حسّن له الشيطان معاصيه وذنوبه وعبادته للأصنام وساير أهواءه في إتيان الفواحش والمفاسد من الأعمال. والاستفهام يدلّ على عدم المساواة، فهما لا يستويان في حسن الإدراك، وحسن العمل، وحسن العاقبة.

- مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ **(15) :**

لمّا ذكر تعالى وعده للمؤمنين العاملين الصالحات بإدخالهم الجنّة، جاء في هذه وصفها. فالجنّة المعدّة للمتّقين فيها أنهار من ماء غير متغيّر الرائحة، وأنهار من لبن لم يحمضْ بطول المقام، وأنهار من خمر لم تُدنِّسْها الأرجل ولم تكدّرها الأيدي، طيّبة الشّرب، وأنهار من عسل مصفّى من الشوائب والقذى، ولهم فيها من كلّ الغلال التي تُشتهى ويرغب في أكلها والتلذّذ بها، وفوق كلّ هذه النّعم فإنّ الله تعالى قد أنعم عليهم بمغفرة ذنوبهم، وأصفح عنهم، ولم يؤاخذهم عن الكثير من سيّئاتهم التي لم تكن من ذوات المعاصي، ولذلك دخلوا هذه الجنّة بفضل ما أنعم الله تعالى بهذه المغفرة. (كَمَنۡ هُوَ) أفمن يُخلّد في هذا النّعيم، وينعم بمغفرة ربّه كمن يخلّد في عذاب النّار، ويسقى بماء حميم شديد الحرارة يقطّع الأمعاء، ويتسبّب لهم في آلام حادّة وأوجاع باطنية تجعلهم يتقلّبون بها في النّار، والعياذ بالله تعالى، الحالان لا يستويان، وكلّ إنسان، من ذكر أو أنثى، مخيّر بأن يختار لنفسه هذه العاقبة أو تلك، وقد سَبَقَهُ العلم بالحالين.

- وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ **(16) :**

هذه إلى الآية 19 في المنافقين، وفي موعظتهم للاهتداء والاستغفار لذنوبهم. ومعنى الآية: ومن الذين يحضرون مجلسك – يا نبيّ الله – على أنّهم أصحابك ومن المؤمنين، من يستمع إلى ما تدعوهم إليه من الاستجابة لأمر الله ولصدق الإيمان وحسن العمل وللجهاد وفي موعظتهم

حتى إذا غادروا المجلس قالوا لمن كان معهم من الصحابة الذين كانوا يتابعون بعناية واِهتمام ما كنت تقول في مجلسك: ماذا كان يقول رسول الله في المجلس؟ وسؤالهم دالّ على اِستخفافهم بما كان قد قيل لهم من مواعظ وإرشاد. هؤلاء هم المنافقون الذين قالوا بألسنتهم آمنّا، ولم تؤمن قلوبهم، فطبع الله تعالى عليها، واِتّبعوا رغباتهم وشهواتهم في أن يظلّوا على ما هم عليه من الزّيغ، ومن الميل إلى المعاصي، ورفض الإهتداء.

- **وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ (17) :**

وأمّا أصحاب رسول اللهﷺ الصادقون فقد اِهتدوا إلى الحقّ، وأخلصوا دينهم لله، واِستجابوا لرسوله، وسارعوا إلى مغفرة من ربّهم، فزادهم الله تعالى توفيقا لحسن الإيمان وحسن الأعمال وعمّر صدورهم بحبّ الله ورسوله، وزكّوا أنفسهم من الشّرك ومن الضلالات، وآتاهم الله تعالى رشدهم فألهمهم تقواه والخشية منه، والرّغبة في الحصول على رضوانه.

- **فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ (18) :**

فهل ينتظر هؤلاء المنافقون قيام الساعة ليتوبوا عن نفاقهم وليستغفروا ربّهم، إنّ الساعة لا تقوم إلاّ فجأة، وقد ظهرت علامات قيامها وقرب وقوعها فسارعوا إلى مغفرة من ربّكم وأخلصوا دينكم وطاعاتكم وتوبوا إلى الله تعالى قبل أن تفاجئكم، ووقتئذ لا تنفعكم توبة ولا اِستغفار، كيف لكم أن تتداركوا ما فرط منكم من طاعة الله تعالى إذا قامت الساعة وأنتم على ما أنتم فيه من اِستخفاف بما تؤمرون به، وبما توعظون.

- **فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ(19) :**

فاعلم –أيّها الإنسان– أنّ الحقيق بالتقديس والعبادة والطاعة هو الله سبحانه، وهو الله الواحد الأحد لا إلاه إلاّ هو لم يلد ولم يولد وليس له ندّ ولا شريك، فاستقم على طاعته وعلى العمل بشرعه، واِستغفر ممّا فرط منك من ذنب ومن معصية ومن الغفلة، وادع للمؤمنين والمؤمنات بالهداية وبالتوفيق لتقوى الله. واعلموا – أيّها النّاس – أنّ الله تعالى مطّلع على أعمالكم وتصرّفاتكم في كلّ وقت وحين، لا يفوته شيء من أمركم ممّا كان من عمل صالح ومن طاعة وإحسان، أو ما كان منه من عمل باطن وسيّء، وهو تعالى عليم بمرجعكم ومآلكم في الجنّة أو في النّار بحسب مكاسبكم.

- **وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ (20) :**

هذه الآية إلى الآية 31 في الحضّ على الصمود والثبات إذا اِحتدم القتال.



والمعنى: ولقد كان المؤمنون يرجون أن يأذن الله تعالى لهم في قتال الكافرين لردّ أذاهم، وأن ينزل عليهم حكما في ذلك، فإذا أنزلت عليهم سورة يأمرهم الله فيها بقتال المشركين الذين يقاتلونهم، وكانت آياتها محكمة بوجوب القتال شُوهد المنافقون المتردّدون في إيمانهم والموالون للمشركين وأعداء المسلمين شاخصي البصر خائفين من قتال أصحابهم الكافرين وكارهين للقائهم في ساحة القتال، وخائفين من أن يُقتلوا في ساحة المعركة والمواجهة، فالويل لهم ممّا يشعرون من الخوف من الهلاك ومن كرههم لأمر الله عزّ وجلّ.

- طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ **(21)** :

كان أولى بهم، وخيرا لهم أن يطيعوا الله فيما أمر، وأن يقولوا: سمعا وطاعة حتّى إذا جدّ الجِدُّ ووجب القتال وفُرض عليهم لمواجهة المقاتلين الأعداء ثبتوا في المواجهة وفي ساحة المعركة، وصدقوا في طاعة الله.

- فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ **(22)** :

الخطاب في الآية موجّه للمنافقين، والاستفهام في الآية للتكذيب. والمعنى: فهل يحقّ لكم إن تخاذلتم عن قتال المشركين – أعداء المسلمين – أن تمضوا في الأرض مفسدين فيها بأعمالكم، وبسط نفوذكم على المستضعفين كما ترغبون في اِستعبادهم واِستغلال جهودهم، وفي تسخيرهم لخدمتكم. وتزعمون أنّكم ترفضون قتال أهل قريش بدعوى أنّكم لا تحبّون قطع أرحامكم، فهل سيتحقّق لكم ذلك إذا تولّيتم عن قتالهم؟ كلاّ، لا يتحقّق لكم ما تدّعون لأنّكم تخلفون العهد والوعد. وقد رُوي أنّ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول قد قال في قومه يوم أُحد – بدعوى النّصح–: "لا تخرجوا لقتال ذوي أرحامكم، وأنسابكم.." وما كان قوله فيهم إلاّ لخذلان المسلمين الذين خرجوا لقتال المشركين: لإضعاف شوكتهم بقلّة العدد.

وفسّرها القرطبي اِستنادا على أقوال السابقين على النحو التالي: فلعلّكم إن تولّيتهم الحكمَ وصرتم حكّاما تفسدون في الأرض بأخذ الرّشاوي وبالظلم، وبالإكثار من المعاصي وقطع الأرحام، لعلّكم إن تولّيتم أمر المسلمين سفكتم الدماء الحرام وقطعتم الأرحام (الجامع ج.16 ص245).

ولقد رأيتُ في هذا التفسير خروجا عن السياق العام لهذه الفقرة من السورة، إلاّ أنّ هذا التفسير قويّ الدلالة وبليغ الموعظة لو جاءت الآية في سياق موعظة ولاة الأمر، فكم من حاكم حين تولّى أمرا من أمور المسلمين، في القضاء، أو في إدارة وزارية، أو في سيادة الأمة، قد أفسد في الأرض باستغلاله لنفوذه، فبسطه على النّاس بالظلم، أو بابتزاز خيراتهم أو خيرات البلاد ومكتسباتها، وأشاع فيها فسادا واِنتهاكا للحرمات، وأقام المحاكم الجائرة للقضاء على معارضيه،

وحكم بقوة السيف أو بالنفي أو بالحبس في سجونه دون خشية من أحكم الحاكمين، والله تعالى عليم بما يفعلون.

- أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ **(23)** :

وهذه في جزاء من خذل المسلمين عند مواجهتهم لأعدائهم، ومثل هذا الجزاء ينال الحكّام الذين يَلُونَ أمرا من أمور المسلمين فيفسدون في الأرض بأيّ وجهٍ من وجوه الظلم. أولئك يطردهم الله تعالى من رحمته. ومن طُرِدَ من رحمة الله لم ينلْ شيئا من نعيم الآخرة، ولن ينجُوَ من عقابه وعذابه، ولا يخفّف عنه منهما، وفي دنياهم يصابون بالصمم عن الانتفاع بالمواعظ فلا يتّعظون، ولا ينتهون عن الإفساد في الأرض، وتُعمى أبصارهم عن إبصار طرق الخير والحقّ وطريق النّجاة من سوء العواقب حتى يقعوا فيها.

- أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ **(24)** :

الإستفهام في هذه الآية للتّوبيخ: أفلا يتفهّمون ما جاءهم في القرآن من إرشاد للخير، ومن المواعظ، ومن الحذر من سوء عاقبة من يتولّى عن تلاوة القرآن وعن المسلمين وعن نصرتهم، ومن سوء عاقبة المعاصي والإفساد في الأرض، بل على قلوبهم أقفال، فإذا هم لا يعقلون، ولا يفهمون، وإذا هي قلوب صلبة لا تخشع لذكر الله عزّ وجل، ولا تخشى عقابه، وإذا هي فاقدة الإحساس لا تلين لتنتهي عن الإفساد، وعن الغدر...

وتدبّر القرآن يعني حسن النّظر في آياته بالعقل والفكر والبصيرة على قدر المُستطاع، وغايته حسن فهم كلام الله عزّ وجلّ وإستيعاب إرشاده وهديه للاهتداء للحقّ وتبيُّنِهِ، وكشف الباطل ووجوهه للحذر من الوقوع فيه عن جهل أو غفلة. وهذا لا يتأتَّى إلاّ بالقراءة المتأنيّة، أو بحسن الإنصات والإصغاء، ولهذا جاء الأمر في القرآن الكريم بوجوب تدبّر آيات الله، والأمر بالتفكّر فيها وبالنظر، وبحسن الإنصات والإصغاء لتحقيق تلك الغاية، ولهذا جاء التّحذير من الإعراض عن سماعه وعن التولّي عن النّظر فيه. ويُسهم في حسن النّظر في آيات الله تعالى لفهمها وإدراك مقاصدها حضورُ دروسِ التفسير لأهل العلم النزهاء الثقات، ودروس الذكر في المنابر الجمعية والدروس الوعظية. ويُثاب قارئ القرآن بكلّ حرف يقرأه منه من حسنة إلى عشر من أمثالها، ولكنّ الثواب أعظم إذا كان مع هذه القراءة تدبّرٌ.

وفي القرآن الكريم: مواعظ وإرشاد، وقصص لجملة من الأنبياء، وأحكام، وآيات التوحيد والقدرة. والمؤمن حين يتدبّر آيات الوعظ والإرشاد يزداد خشية من الله تعالى حينما يقرأ آيات الوعيد، وينشرح صدره بآيات الرجاء، ويطمع في رحمة الله عزّ وجلّ ورضوانه ويرجو عفوه

ومغفرته وكرمه وجوده وجنّته بقراءته لآيات الترغيب، وما يزداد بها إلاّ تقوى وحرصا على اِتّقاء عذاب الله تعالى وغضبه، وذلك بالعمل بأوامره، واِجتناب نواهيه.

وحين يمرّ بقصص الأنبياء يحاول المؤمن أن يستخلص بتدبّرها العبر المُستفادة منها للاعتبار لمزيد الاهتداء والرّشاد. ومع آيات الأحكام فإنّه يجتهد على الوقوف عند حدود الله تعالى حتى لا يظلم نفسه أو يظلم غيره في معاملاته في الأحوال الشخصيّة المتعلّقة بالمحيط الأسري، وكذلك في معاملاته الاجتماعيّة والمالية في محيطه الاجتماعي والإنساني.

وبتدبّره لآيات التوحيد والقدرة فإنّه يتعرّف على الله الحقّ ذي الجلال والقدرة فيزداد بها إيمانا بتوحيد الله تعالى في الألوهية والطاعة والعبادة، ولا يعبد سواه، ويؤمن بقدرته على البعث ليصدق في إيمانه ويعمل صالحا ليتقرّب إلى الله عزّ وجلّ زلفى.

وما هذه إلاّ من بعض أغراض تدبّر القرآن ومقاصده حتى لا يغفل الإنسان عن ذكر ربّه والتّعرّف عليه.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ(25) :

هذه في الذين غادروا ساحة القتال بعد ما خرجوا إليها منتظمين في صفوف المقاتلين بدعوى الحرص على صلة الرّحم مع أنسابهم المشركين، فأربكوا بهذه المغادرة صفوف المقاتلين وأضعفوهم عددا، وقد حدث هذا في معركتي أُحُد والأحزاب خاصّة، وكان أغلبهم من المنافقين. هؤلاء الذين رجعوا على أعقابهم إلى ديارهم، وغادروا ساحة القتال من بعد أن خرجوا إليها، ومن بعد ما تبيّن لهم أنّ المشركين قد خرجوا للانتقام من المسلمين ظلما وعدوانا ولم يكونوا على حقّ، وأنّ المسلمين لم يخرجوا لقتالهم، وإنّما دُفعوا إليه لصدّ هجومهم على مدينتهم وديارهم، ومن بعد ما تبيّن لهم هدى الإسلام، وهُدُوا إليه إنّما أوقع بهم الشيطان في زَيْغِهِ، وفي الضلالة والمعصية وهو الذي رغّبهم في الرجوع على الأعقاب، وهو الذي زيّن لهم حجّة المحافظة على حسن صلتهم بأرحامهم، والحرص على عدم مقاطعتها، وهذا كقوله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ)(آل عمران الآية 155).

- ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ (26) :

هذه الآية في كشف ما اِتّفق عليه سِرًّا جماعةٌ من الذين غادروا صفوف المقاتلين يوم أُحد من جهة، وأمّا الطرف الثّاني فَهُمْ الذين (كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ) على رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم من الوحي، وهم جماعة من يهود بني قريظة وبني النّضير.



هذا المعنى يدلّ عليه اِسم الإشارة (ذَٰلِكَ) في هذه الآية، وهو يشير لِما سوّل الشيطان للذين ارتدّوا على أدبارهم، وعلى مَا أمْلَى لهم.

وأمّا ضمير الجمع في فعل (قَالُوا۟) فعائد على (ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى) الذين ورد ذكرهم في الآية السابقة.

وأمّا (لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ) فهم جماعة من يهود بني قريظة وبني النّضير كرهوا ما نزل على رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم من الوحي. قال تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ) (البقرة الآية 109).

لقد كانوا يودّون أن لا تخرج النبوّة عن بني إسرائيل إلى غيرهم.

وأمّا قوله تعالى (سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ) فيُشير إلى ما عاهد عليه جماعةٌ من المُنافقين اليهودَ من السعي في المؤمنين الصادقين من إحباط لعزائمهم ولتفريق صفوفهم (وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ) فيما كانوا يدبّرون في السرّ في إثارة الفتنة في جموع المسلمين لكسر شوكتهم، وإفساد أخوتهم، وتفريق جموعهم.

ومن عجائب الدهر أنّ نشاط الذين كرهوا ما نزّل الله تعالى من الهدى ومعالم الدين الحقّ لم يخفت ولم يفتر ولم يتوقّف عن الكيد للمسلمين لتفريق صفوفهم، وفي إثارة الفتنة في جموعهم لإفساد وحدتهم وحسن علاقتهم ببعضهم، وإفساد أخوتهم في الدّين والنّسب أو في الجوار، لم ييأسوا بعدُ من إيقاد نار الحرب الأهلية فيهم، وذلك باستمالة جموع منهم بدعمهم بالمال والسلاح ليتقاتلوا، فهلاّ تذكّر هؤلاء الذين يستعينون بأولئك الذين كرهوا ما نزّل الله تعالى لينصروهم على إخوانهم في عدوانهم: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟)(المائدة الآية 82).

- **فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ (27) :**

هذه في توعد كلّ الذين يكيدون للمسلمين المكائد قصد شقّ صفوفهم واِفتتانهم في الزمن الّذي يحتاج فيه هؤلاء لوحدة الصفّ وشحذ العزائم لمواجهة العدوان الخارجي الظالم، ومعهم الموالون لهم فيخذلون إخوانهم زمن محنتهم ليربكوهم ويضعفوهم. والاستفهام في هذه الآية لتهويل الحدث، ففي اليوم الذي يحتضر فيه هؤلاء ويحلّ بهم أجلهم تتلقّاهم الملائكة بصفع وجوههم، وبضرب أدبارهم، وليس من صورة أدلّ على الإذلال والإهانة والتحقير من هاتين الصورتين في وقت مخيف ومفزع ومن أعظم المصائب على الإنسان، زمن اِستقبال الموت. لحظات حرجة جدا يتلقّى فيها أبشع صورة للمهانة والذلّة، هذا توعد في دنياهم، ناهيك عمّا ينتظرهم يوم تقوم الساعة.

- **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ (28) :**

(ذَٰلِكَ) اِسم إشارة عائد على عذاب الإذلال والمهانة الوارد في الآية السابقة، وقد حقّ هذا العذاب على المنافقين الذين خرجوا عن طاعة الله تعالى ورسوله، وأخلفوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ورسوله من النّصرة، فخذلوا المسلمين المقاتلين في ساحة القتال، وهذا سلوك يُلحق بهم سخط الله تعالى عليهم وغضبه، ويحرمهم من رحمته، ولا يدلّ إلاّ على عدم رغبتهم في الحصول على رضوان ربّهم عليهم، وبهذا الموقف المخزي أفسدوا عليهم أن ينالوا خيرا وثوابا عمّا كان منهم من إشهار إسلامهم والكفر بالشرك، لقد أحبطوا أعمالهم السابقة لأنّ إيمانهم لم يكن صادقا، وإنّما كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

- أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ (29) :

فهل يظنّ هؤلاء المنافقون أن لن يكشف نفاقهم، وأن لن يظهر الله تعالى ما يخفون في قلوبهم من أحقاد وأضغان على المسلمين، والجواب عن الاستفهام، كلاّ سيتضح أمرهم ونفاقهم بما يعملون وبمواقفهم وبتولّيهم عن القتال وتخلّفهم عنه، والاستفهام للتهديد وللتحذير من كشف أسرارهم.

- وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ (30) :

وهذه في مزيد تحذير المنافقين من كشفهم بوسمهم بعلامات على وجوهم يُعرفون بها بأنّهم منافقون لفضحهم وتمييزهم عن صنفي: المؤمنين والكافرين، ولكن شاء الله تعالى أن يمهلهم ليصلحوا ما بأنفسهم، وعساهم أن يصدقوا في إيمانهم، ولكن لن يغيب عن الرّسولﷺ كشفهم، فإنّه سيعرفهم من خلال كلامهم الملتوي، ومنطقهم المستهجن، والله عليم بجميع أعمالهم وأفعالهم.

- وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ (31) :

الخطاب في هذه الآية إلى آخر السورة موجّه للمؤمنين، وهي في موعظتهم ليمتثلوا لطاعة الله تعالى وطاعة رسوله، وليعرفوا وجوه العمل الصالح الذي يرفع عند الله تعالى درجاتهم، وليدلّوا به على صدق إيمانهم وطاعاتهم لله جلّ وعلا. والمعنى: تأكّدوا أيها المؤمنون، بأنّكم ستختبرون في صدق إيمانكم، وفي مدى صبركم وشدّة اِحتمالكم بما يفرض عليكم من الأمر بالخروج للجهاد في سبيل الله نصرة لدينه ولرسوله، وبالتكاليف الشاقّة، وهذا ليُعلم الصادق في طاعته لربّه ولرسوله، وليعرف الصابر المحتسب والثابت في إيمانه، وليكشف خبرُ الكاذب أو الضعيف أو الجبان، فتتميّزون في درجة إيمانكم وطاعاتكم والإخلاص فيها، ولتظهر كذلك أخبار الأبطال الشجعان المِقْدامين في ساحة المعركة، وأخبار شدّة بأسهم، وأخبار الأقوياء الصابرين على تحمّل آلام الجوع والعطش، أو آلام الجراح والطعان. وهذه الآية في إثارة حماسة المقاتلين لرفع معنوياتهم وتثبيتهم عند تعرّضهم لشدائد المواجهة مع المقاتلين المعادين لهم في زمن كان المسلمون في قلّة من العدد، ولم يكونوا في قوّة من العتاد والمال والزّاد...

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ (32) :

وهذه في إحباط عزائم المشركين المعادين لرسول اللهﷺ وللإسلام، فقد قضى تعالى فيهم بإحباط أعمالهم. إنّ الذين لم يؤمنوا بوحدانية الله تعالى فأشركوا به، وكانوا يمنعون أتباعهم من أبنائهم ومواليهم وعبيدهم عن اِتّباع دين الله تعالى الإسلام بالإكراه والتهديد والتعذيب أحيانا، أو بالإغراء، ثمّ خالفوا رسول اللهﷺ وناصبوه العداء، وكادوا له من بعد أن تبيّن لهم صدقه وصدق دعوته في التوحيد بالحجج والبراهين المشاهدة والعقلانيّة بما جاءه من الوحي. فإنّهم لن يستطيعوا له ولدين الله تعالى شيئا، ولن ينالوا خيرا أو نصرا، ولن يتحقّق لهم شيء ممّا يريدون أو يخطّطون له، وستذهب جهودهم في كيدهم للإسلام ولرسوله وفي اِستمالة أتباعهم كيلا يؤمنوا سُدًى، ولن يفلحوا في قتالهم وسيُهزمون، وسيعلو دين الله تعالى وسيظهر عليهم رغم كيدهم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ (33) :

هذه في موعظة المؤمنين لتثبيت ثوابهم وأجرهم على طاعاتهم وأعمال برّهم، وهي في مقابلة أعمال الكافرين والمنافقين، فإنّ الأمر بطاعة الله تعالى لمقابلة أعمال الكافرين والمنافقين الذين كانوا يكفرون بوحدانيته، وكانوا يصدّون عن سبيله، وأمّا الأمر بطاعة الرّسولﷺ فلمقابلة أعمال المكذّبين به الذين كانوا يشاقّونه من بعد ما تبيّن لهم الهدى، وأمّا الحضّ على أن لا يبطلوا أعمالهم فلمقابلة ما جاء في الآية السابقة من إخبار بأنّه تعالى سيحبط أعمال الكافرين الذين يصدّون عن سبيل الله والذين يشاقّون رسول اللهﷺ.

وإنّ طاعة الله تعالى تتمثّل في توحيده في الإيمان بربوبيته دون سواه وفي توحيده في العبادة وفي الاِلتزام بالعمل بأوامره واِجتناب نواهيه، مع ما يتبع هذا التّصديق من إيمان برسله وملائكته وكتبه وباليوم الآخر، وبالقضاء: خيره وشرّه. وأمّا طاعة رسوله فتكون بالعمل بسنّته وإرشاده، بهذا ينتفع المؤمن بطاعته لله تعالى ولرسولهﷺ فيكون له الأجر والثواب على حسن إيمانه، وعلى صالح أعماله.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ (34) :

وهذه للتحذير من سوء عاقبة الكفر والصدّ عن سبيل الله وللتأكيد على إحباط أجر أعمال البرّ إن لم تكن بدافعٍ إيماني يُراد به وجْه الله عزّ وجلّ وطلب رضوانه. فمن مات على كفره بوحدانية الله تعالى، وعلى صدّه عن سبيل الله تعالى فإنّه سيُحرم من مغفرة ربّه خالقه، ومن حرم المغفرة يوم الدين سيق إلى جهنّم وساء مصيره، ولن يكون له من أعمال برّه في دنياه أيّ شافع لأنّه لم يفعله طاعةً لله تعالى أو رغبةً في رضوانه.



• فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ (35) :

لمّا أذنت السورة بالاختتام، وكان موضوعها في حضّ المؤمنين على القتال، جاءت هذه الآية في النّهي عن الجُبن، وعن الضعف والهوان وعن التخلّف عن مواجهة الأعداء وطلب السلم في موقف العزم والحزم، وهذا للتأكيد على ما جاء في الآية السابقة عدد7 : (إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ) والمعنى: لا تضعفوا – أيّها المؤمنون – عند مواجهتكم لأعدائكم طلبا للراحة والدَعَةِ، ولا تكونوا من المبادرين لطلب السلم لإيقاف الاقتتال طلبا للسكينة، ولغاية الارتياح من المواجهة، والحال أنّكم الأقوى بأسا، وأنّكم قادرون عليهم بالغلبة، وأنّ الله تعالى مؤيّدكم برعايته ونصرته.

وللتذكير فإنّ طلب السلم إذا جاء من أعداء المسلمين وجب على هؤلاء الاستجابة له، لقوله تعالى (وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا)(الأنفال الآية 61) ولا يطلب المسلمون السلم ولا يبادرون بطلبه حتى لا يتجرّأ عليهم أعداؤهم، وحتى لا تكسر شوكتُهم فيصبحوا مطمع الطامعين.

• إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ (36) :

لمّا جاء في الآية السابقة نهي المؤمنين عن إذلال أنفسهم بالجبن، وطلب السلم مع الأعداء رغبة في الراحة والدعة بدَلاً عن طلب العزّة والمنَعة حتى لا يتجرّأ عليهم أعداؤهم، جاءت هذه الآية في موعظتهم ليعلموا أنّ الحياة الدنيويّة في عمر الإنسان وإن طال به العمر إزاء حياته في آخرته هي قصيرة المدى، وأنّ كلّ ما مضى في حياته من عناء أو شقاء ومجاهدة لكسب قوته أو بمشاركته في قتال أعداء المسلمين كأنّها لعبة مصارعة قد اِنقضت سريعا، وأنّ كلّ مشاغله الّتي شغلته في حياته في كسب الولد أو الأرزاق والممتلكات للسكن أو الرفاه وأنّ كلّ متعة اِستمتع بها في حياته كانت لهوا سرعان ما فات واِنقضى لأنّ ما عند الله تعالى هو خير وأبقى وهو الأفضل والأدوم، وكان رغدا لا ينقطع دون أن يشقى إذا كان هذا الإنسان قد فاز عند ربّه بالفوز العظيم، وأمّا إن وجد نفسه من أهل الشقاوة فإنّه يشعر أنّ حياته في دنياه قد مضت في لعب، لم يكن فيها جِدٌّ، ولم يكن له فيها عمل يُجْديه نفعا، وأنّه قد قضى حياته في غفلة واِنشغالٍ بهوى نفسه فأنساه لهوه العمل لآخرته فآذاه لعبُه ولهوه، وعموما فإنّ اللّهو هو الاستمتاع بلذّات الدنيا، وأنّ اللّعب هو العبث، واللهو هو الإعراض عن الحقّ كذلك، وأمّا اللعب فهو الإقبال على الباطل. لذا جاء تذكير الإنسان بترغيبه في الإيمان والخشية من الله تعالى بطلب رضوانه ليجد عنده تعالى الحسنى والأجر والثواب ليحظى بنعيم الآخرة، وليعلموا أنّ الله تعالى لا يطلب من المؤمنين أن ينفقوا جميع أموالهم، أو أموالا غير الزكاة المفروضة، فكلّ ما يكسبوه من الطيّبات ومن الأرزاق هو خالص لهم من عند الله تعالى إذا كان اكتسابه من وجوه الحلال.

- **إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ (37) :**

إنّ الله تعالى لا يأمركم أن تخرجوا من أموالكم ما يسبب لكم العَنتَ، وإنّما يسألكم أن تخرجوا منها ما لا يعسُر عليكم وما لا يجحف بكم وما لا يُجْهِدكم فيجدكم تبخلون بإنفاقها، فيكون هذا الشحّ والبخل سببا في إظهار ما في صدوركم من شعور بالحقد الشديد والضيق عند إخراج الزكاة.

- **هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم(38) :**

وهذه في الترغيب في تجهيز الجيش نصرة للدين ولردّ كيد الأعداء وتقوية الشوكة لضمان أمن المسلمين على أنفسهم وعلى دينهم وعلى أوطانهم، والمعنى: ها أنتم – أيّها المسلمون– تدعون لتنفقوا من أجل تجهيز جيشكم للدفاع عنكم وعن أمنكم وعن حريّتكم في ممارسة دينكم الحقّ، فمنكم من يشحّ بماله ويمسك عن الإنفاق منه: زكاةً أو صدقة تطوّعٍ، وهذا شحّ وبخل من سوء الطبع. والبخيل لا يبخل إلاّ على نفسه لأنّه ببخله يحرم نفسه من فضائل كثيرة، ومن منافع متنوّعة يحصل عليها من بعد إنفاقه، والله تعالى غنيّ عن نفقاته لأنّه ناصر لعباده المؤمنين بقدرته، فقد نصر نبيّهﷺ وأصحابه في غزوة الأحزاب بالريح، وردّ الكافرين عنهم لم ينالوا شيئا ممّا أراداوا بهم، ومهما كان غِنَى الغنيّ منكم فإنّه يظلّ دائما فقيرا إلى رحمة ربّه وبركاته.

وإن أعرضتم عن نصرة المقاتلين بتجهيزهم بالعتاد والمؤونة فإنّ الله تعالى سيستبدلكم بقوم آخرين أفضل منكم إيمانا، وأحرص منكم على طاعة الله ورسوله، ولن يكونوا أمثالكم في البخل والعصيان والتردّد في الإنفاق.

الجملة الأخيرة بالغة التهديد، وغاية ذلك أن يكون المؤمنون مخلصين في طاعتهم لربّهم، وحين نربطها بالآية التي أُفتتحت بها السورة يحتكم الربط بينهما في التحذير من ضلالة الأعمال بالتولّي عن الإيمان إلى المعصية، وحين ننظر بعمق في غاية هذا الربط نشعر بالكثير من الخشية من الغفلة عن العمل بما أمر به الله تعالى.

هذه السورة تذكّر كل من عرف سيرة النّبيّﷺ وعرف معاناته مع قومه في تبليغ رسالَته، ومعاناته مع المنافقين الذين كانوا من حوله بما جرى له، وتذكّر من عرف بعضا من سير صحابته المخلصين رضوان الله تعالى عليهم وتضحياتهم في سبيل الله نصرة لهذا الدين وللرسولﷺ إذا تذكّر كلّ هذا أبكته هذه السورة لأنّ كلّ آية تشير إلى شيء من تلك السِّيَر، ولا يتملّك عينيْهِ من أن تدْمعا.



رقمها	ســـــورة **الفتـــــح**	آياتها
48	ـــــ مدنيّة ـــــ	**29**

سمّيت هذه السورة بسورة "الفتح" لافتتاحها ببُشرى الفتح المُبين، وهي سورة مدنية نزلت سنة سِتٍّ للهجرة عند اِنصراف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من صلح الحديبية راجعا إلى المدينة دون أن يعتمر، نزلت ليلا في طريقه إلى المدينة. وقد جاء في "الموطأ" للإمام "مالك" أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا عمر بن الخطاب حين نزولها فقال له: "لقد أُنزِلت عليَّ الليلة سورةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيّ ممّا طلعت عليه الشمس ثمّ قرأ: "إنّا فتحنا لك فتحا مبينا".

ولعلّ وصفه صلّى الله عليه وسلّم بأنّها أحبّ إليه ممّا طلعت عليه الشّمس عائد لما جاء فيها في قوله تعالى : "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخّر".

ومن أهمّ أغراض هذه السورة تبشير النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالفتح العظيم، ووعده بفتح آخر أعظم وهذا في أعقاب صلح الحديبية حتى يعلم المؤمنون أنّ هذا الصلح لم يكن تنازلا ولا اِستسلاما لشروط أهل قريش الذين رفضوا دخول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والذين كانوا معه إلى مكة للعمرة على أن يعودوا إليها بعد عامهم ذلك. ثمّ كان التّنويه ببيعة الرّضوان تحت الشجرة، وذمّ المتخلّفين من أعراب المدينة عن الخروج مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للقتال. وبشّرت السورة المؤمنين بنصر قريب ومغانم كثيرة يأخذونها – وقد حصل عند فتح خيبر – وختمت السورة بوعد الرسول صلّى الله عليه وسلّم بتحقيق رؤياه التي رآها قبل صلح الحديبية بدخوله المسجد الحرام مع المؤمنين آمنين مطمئنين، وبالتّنويه بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين الذين معه.

تقديم صلح الحديبية وبيعة الرّضوان : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد رأى في منامه – وهو في المدينة – أنّه دخل مكة وطاف بالبيت، وفهم من الرؤيا بأنّ الله تعالى قد أذن له بالحجّ والعمرة، فلمّا أصبح أخبر صحابته بما رآه وبما فهمه ففرحوا فرحا عظيما بما فهموا من الرؤيا، وعزموا في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة على أداء مناسك العمرة، وتجهّزوا لذلك فإذا هم قد تجمّعوا في ألف وخمسمائة معتمر من المهاجرين والأنصار ومسلمي أعراب المدينة، وساقوا معهم هديهم، ثمّ أحرموا بالعمرة "بذي الحليفة"، ولم يكن معهم سلاح سوى سلاح المسافر. ومن حذر الرسول صلّى الله عليه وسلّم وحيطته بعث عينا له من خزاعة ليخبره عن تدبير قريش من مكرهم، ولمّا قرب الرَّكْبُ من مكة جاءه بشر بن سفيان الكعبي الذي بعثه الرسول صلّى الله عليه وسلّم عينا

له على قريش فأخبره بأنّ القوم قد خرجوا من مكة فأنزلوا نساءهم وأطفالهم بذي طوى، وأقسموا بأيمانهم المغلّظة أنّهم سيمنعونهم من دخول مكة، وجمعوا معهم الأحابيش لقتالهم لصدّهم عن البيت. مرّة أخرى تظهر حكمة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في معالجة الموقف الصعب محافظة على أمن المكان وأرواح من خرج معه فقرّر إرسال عثمان بن عفّان إلى قريش ليبلّغهم بقصده، وأنّه لا يريد إلاّ العمرة. ولمّا غاب عثمان طويلا ولم يظهر خبرُه بلغه في الأثناء أنّ عثمان قد قُتِل، عندئذ دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المسلمين إلى "البيعة"، واِجتمعوا تحت شجرة سمّيت من بعدُ بشجرةِ الرّضوان، فبايعوه على القتال، وبأن لا يفرّوا عند المواجهة، ولمّا بلغ هذا الأمر قريشا عبر عيونهم أرسلوا إلى النّبيّ داعين إلى الصلح والموادعة، وجاء في أثناء البيعة أنّ ما بلغه من أمر قتل عثمان كان خبرا غير صحيح.

وتمّ توقيع هذا الصلح الذي فاوض فيه عن قريش "سهيل بن عمرو" ودُوِّنَ. وجاء في هذا الاتفاق أن يكفّ الفريقان عن الحرب عشر سنين، يأمن فيها النّاس على أنفسهم من الاعتداء، وجاء فيه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد صلّى الله عليه وسلّم وعَهْدِهِ دَخَل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن لا يدخل المسلمون مكة في عامهم هذا، فإذا كان العام المقبل خرجت قريش من مكة ودخلها المسلمون لمدّة ثلاثة أيام فقط ومعهم سلاح الراكب فقط. (وهناك تفاصيل أخرى في هذه المعاهدة، يمكن مراجعتها في كتابنا "رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم" ص ص 350-370) وقد عدَّ بعض الصحابة هذا الصلح "فتحًا"، وإن كان قد إعترض عليه جمع آخر منهم.

ولمّا اِنصرف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من الحديبية، ووصل إلى موضع يقال له "كُراع الغَميم" ، وهو على ثلاثة أميال من عسفان قرب مكة نزلت هذه السورة، ولمّا سمعها المسلمون نزلت السكينة في قلوب المؤمنين الذين أحْزنهم الصدّ عن البيت للعمرة، وأحزنتهم كذلك بعض شروط الصلح المجحفة.

لقد رأى بعض المفسّرين أنّ المقصود بهذا الفتح المبين هو فتح مكة، ولكن باعتماد زمن نزول هذه السورة، ومكان نزولها يجعل هذا الرأي مُسْتَبْعدا، ويؤكد هذا الاستبعاد أنّ ما جاء فيما سيأتي من البشارة بفتح لاحق وبغنائم كثيرة كان قد تأكّد عند فتح (خيبر)، وقد تمّ هذا الفتح قبل فتح مكة.

فوجب الاحتراز في تعيين المقصود بهذا الفتح المُبين.

- **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (1) :**

هذه الآية مع الآيتين المواليتين في إخبار النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن ما حصل من صلح الحديبية كان فتحا مُبينا في تأييده وتأييد رسالته لضمان نشرها، وفي تبشيره بالمغفرة الّتي هي

مفتاح الرضوان وإتمام نعمته عليه بإظهاره على أعدائه وبتمكينه من النّصر العزيز القاهر بالغلبة. والمعنى (إِنَّا) ضمير المتكلّم هنا هو ضمير العزّة لله عزّ وجلّ، وجاء مؤكّدا بأنّ لتأكيد الخبر المُخْبَرِ عنه وتعظيمه. والفتح المُبين هو النَّصْر والظَّفَرُ، أي إنّا قضينا لك – يامحمد – بالنّصر والظّفر على كلّ من خالفك في الدّين، وكَفَرَ بك، ولم يصدّقك تكذيبا أو اِستخفافا. والمقصود بهذا الفتح هو توثيق صلح الحديبية، وكان هذا الصلح بطلبٍ من أهل قريش، وهو عَقْد قد كسر شوكتهم وأرغم أنوفَهم، ففيه إقرار ضمني باعترافهم بشوكة المسلمين ولم يعودوا مستضعفين كما كانوا، وطلبُ الأمان من سطوتهم لعشر سنوات قادمة، وفيه ضمان لأمْن مَن دخل في عَقْد محمد وعهده، وهذا نصر كبير لأتباع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد ما كان يُصيبهم من عظيم الأذى من أهل قريش. وفي هذا العَقْد خروج المشركين من مكة وإخلاؤها عند دخول المسلمين إليها للعمرة، وهم في عزّة وأمان. لقد تغيّرت معاملة القريشيين للمسلمين واِنقلبت رأسا على عقب، وعقد صلح الحديبية هو الدليل على ذلك. أليس هذا فتحا مبينا للمسلمين ولدينهم، ونصرا عزيزا ظاهرا يعتزّ به المسلمون ونبيّهم صلّى الله عليه وسلّم.

- **لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (2) :**

لقد كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم معصوما من الوقوع في الذنب، وقد كان من عباد الله المصطفين الأخيار اُخْتِير لأن يكون مبلّغا برسالته الخاتمة والجامعة، والمهيمنة على كلّ الأديان السابقة، وقد كان الوحي يتنزّل عليه في كلّ مناسبة، وكان صلّى الله عليه وسلّم مُلْهَمًا فما كان ليقع في ذنب، ولذا فإنّ المغفرة هنا هي للتّشريف، كذا قال ابن عطية من قبلُ في تفسيره، قال: "إنّما المعنى التّشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب، وقوله تعالى (مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) يعني: التّعميم، فهي مغفرة عامّة، وإن لم يكن قد فرط منه ذنب، أو أنّه سيقع منه ذنب، وإنّما المقصود: رَفْعُ قدره رِفعةً تصل إلى الغفران العام حتى لا يُؤاخذ على ذنب لو قُدِّر صدورُه عنه، وهذا يعني أنّ الله يسّر له الفتح وجعله له نصرا، وكرامةً، وسببًا للمغفرة العامّة الشاملة إتمامًا للكرامة.

وقلتُ إنّ في الآية إشعارا للمؤمنين بأنّ المغفرة العامّة هي من أعظم مراتب التشريف والتكريم التي ينعم بها الله تعالى على عبده لأنّ من غُفر له جميعُ ذنبه لا يُقدَّمُ للحساب، وإنّما هو ناجٍ من الوقوف عند الميزان، وتبعًا لذلك فإنّه آمنٌ من كلّ مؤاخذة أو شدّة، وإنّه داخل جنّة ربّه من أيّ باب شاء، وهذا من أعظم فضل الله تعالى على عبده، ومن أعظم وجوه التّشريف والتكريم.

وفي هذا ترغيب للمؤمنين للمداومة على الاستغفار. إنّ المداومة على الاستغفار طوق النجاة من العذاب للفوز بنعيم الآخرة، وتكريم الرّحمان. أخرج أصحاب الصحاح الستة عن المغيرة بن

شعبة رضي الله عنه أنّه كان يقول: كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يصلّي حتّى تتورّم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم: أفلا أكون عبدا شكورا". وهذا يعني أنّ المحافظة على أداء صلوات الفرض في أوقاتها مع الإكثار من صلوات النوافل من أفضل الطاعات لطلب المغفرة ولأداء واجب الشكر على النّعمة. وقد جاء في الكثير من آي القرآن الترغيب في الاستغفار وإقام الصلاة، منها قوله تعالى في تمجيد المتهجدين بصلاتهم آخر الليل : "والمستغفرين بالأسحار". وجاء في مواعظ الأنبياء والمرسلين دعوة أقوامهم للاستغفار. وَمَجَّدَ تعَالى ذاته العلية فسمّى ذاته جلّ جلاله بأنّه: غافر الذنب، والغفور، والغفّار للدلالة على عظيم رحمته تعالى بعباده لطلب غفرانه، والمغفرة من فضائل رحمة الله تعالى بعباده.

إذن قد يسّر الله تعالى هذا الفتح، وجعله له نصرا، وكرامةً، وسببا لنيل مغفرته العامّة الشاملة. (وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ) تمام نعمته تعالى على نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بإظهار دينه على الدين كلّه، وبنصره على أعدائه، وبكسر شوكة الشرك والمشركين، وبتطهير البيت من رجس الشرك. وقد أنجز الله تعالى وعده هذا بعد بضع سنوات فأسلمت قريش وتخلّصت مكة من الشرك ومظاهره ومن طقوسه.

(وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا) وهذا بالتوسّع في بيان شريعة الله تعالى وبيان فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق، وهداية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للصراط المستقيم ثابتة مذ ولادته وعند بعثته، ولكن تزداد بيان تعاليم الشريعة ومعالم الهداية الربانية، وإرشاده للعمل الصالح وللوقاية من المحظورات ونزغات الهوى والشيطان، والصراط المستقيم صفة لهذا الدين الحقّ، دين الإسلام.

- وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا (3) :

ويجعل لك بعد هذا الفتح المبين نصرا آخر عزيز المنال، وعظيم الأثر، ونصرا قاهرا غالبا فيه تأييدك بالقوة والغلبة، وفيه عزّة لك – يا محمد – فتطلب بها مودّتك ومسالمتك، والذي يكون من أثره إظهار الإسلام على كلّ الأديان، وهدم دولة الشرك، وفيه غلبة المسلمين على أعدائهم فتكون لهم بها الشوكة والمنعة فلا يعرفون بعدها ذلّة، ولا قهرا. وقد أنجز الله تعالى وعده هذا بعد صلح الحديبية ففُتحت خيبر والطائف ثمّ مكة، ودخل بعد هذا الصلح قبائل العرب في عهد محمد صلّى الله عليه وسلّم ثمّ جاؤوه مسلمين فوجا إثر فوج، ودخل النّاس في دين الله أفواجا. والحمد لله الذي نصر عبده وأنجز وعده، وهزم الأحزاب وحده، وأظهر دينه على الدّين كلّه.

- هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا (4) :

هذه الآية مع الآية الموالية في بيان حظّ المؤمنين من التّكريم بعد هذا الفتح، وهما في تسكين نفوسهم بعدما أصابهم من الغمّ لعودتهم لمدينتهم دون أن يبلغوا غايتهم. لقد أحزنهم أن يعودوا إليها – كما خرجوا منها – دون أن يؤدّوا مناسك العمرة رغم بلوغهم الحديبية، وهي منطقة قريبة من الحرم. وآلمهم أن يتوقّفوا عن التلبية، وأن يخلعوا عنهم ثوب الإحرام بعد عناء سفرهم وما كان من اِستبشارهم بمقصدهم. وقد داخلت بعضَهم خواطرُ شكّ في رؤية النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وإنّ بعضهم قد عارض هذا الصلح ولم يَرْتضِه، وعمل الشيطان في بعضهم عمله من خواطر.

أشارت هذه الآية إلى فضل الله تعالى عليهم في إنزال السكينة في قلوبهم ليقبلوا بما عاهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أهل قريش عليه، ولقد اِطمأنّت نفوسهم، ورضوا بعودتهم مؤمّلين العودة في أمان ليقضوا منسكهم، وزالت شكوكهم وخواطرهم التي تملّكت نفوسهم، وثبتوا، فترسّخ الإيمان في قلوبهم بهذا الرضى والثبات والسكينة، ووثِقُوا بوعد الله تعالى واِطمأنّوا، وهذا ما يُعرف عندنا بمصطلحنا الحديث، رفع الروح المعنوية، واِنصرفت عنهم خواطر الشّك والانهزام. (وَلِلَّهِ جُنُودُ) والله تعالى هو الذي يملك جميع وسائل النصر، وله القوّة القاهرة في السماوات والأرض يقضيها بأمره، ويسخّر لها من يرتضيه من جنده سواء أكانوا ملائكة أم بشرا، أم ظواهر طبيعية، والله تعالى فعّال لما يريد. وما يزال الله تعالى عليما بما يصلح لعباده وبالزّمن الذي يقضي فيه أمره، وهو تعالى حكيم في تدبير الأمر في موضعه اللازم وفي زمنه لتأييد رسوله ولتثبيت عباده المؤمنين، ولإظهار دينه الحقّ، ولتقوية شوكة المجاهدين في سبيله.

- لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) :

وهذه في تبشير الذين خرجوا للعمرة مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ رُدُّوا عنها وَصُدُّوا عن بلوغ قصدهم فتملّكهم الحزن، وهذا التبشير لمزيد تسكين قلوبهم وليُذهب عنهم الحزن. لقد أكرمهم تعالى بتبشيرهم بإيوائهم جنّات تجري من تحتها الأنهار يقيمون فيها إقامة أبدية جزاء ثباتهم وجزاء صبرهم على صدّهم عن بلوغ بيت الله الحرام، وجزاء صبرهم على تحمّل مشاقهم. وقد ذكرت الآية المؤمنات مع المؤمنين لإزالة الوهم عن أن يكون الوعد خاصّا بالرجال دون النّساء. هذا تبشير ووعد عام للذين خرجوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للعمرة، وصُدّوا عنها. وبشّرهم ربّهم مع هذا الفضل والتكريم بالتكفير عن السيّئات الذي يعني ستر ذنوبهم حتى لا يُؤاخذوا على شيء ممّا سلف منهم من ذنب، ومن ستر الله تعالى عنه ذنوبه فقد نجا من كلّ مؤاخذة، ودخل بهذا جنّة ربّه دون حساب آمنا متطهّرا من كلّ ذنب. وهذا هو الفوز العظيم

الحقيقي الذي يرجوه كلّ مؤمن يوم الدّين، يوم الوقوف عند الميزان للحساب بين يدي الله عزّ وجلّ.

- وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا (6) :

وهذه مع الآية الموالية في وعيد أولئك المشركين والمشركات الذين صدّوا المسلمين عن أداء عمرتهم، والذين كانوا يشاقّونهم من قبل وما يزالون يناصبونهم العداء، ومع أولئك فإنّ المنافقين والمنافقات أمثالهم في وعيدهم بهزيمتهم وكسر شوكتهم وبطردهم من رحمة ربّهم، وفي وعيدهم بسوء المصير في آخرتهم، وذلك بإعداد مواقع لهم في جهنّم للعذاب، والله سبحانه عزيز قاهر لا يُغلب. والآيتان في تثبيت المؤمنين الذين صُدّوا عن العمرة ليعلموا أنّ الله تعالى منتقم من الذين أكرهوهم على الرّجوع على أعقابهم دون بلوغ قصدهم من زيارة بيت الله الحرام. والمعنى: وأمّا المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات، على السواء، الذين قهروا المسلمين، وردّوهم على أعقابهم فلم يدخلوا مكة للعمرة، وِاعتبروا هذا الصدّ نصرة لهم، وإذلالا للمسلمين وقهرا، وأمضوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عهدا فيه إجحاف على المسلمين، ثمّ ظنّوا بأنّ الله تعالى غير قادر لهم على شيء، فَقَدْ قضى الله فيهم أن يجعل ما فعلوه بالمسلمين نكبة عليهم، وأن تدور عليهم دائرة السوء، وذلك بتعذيبهم إمّا بحدّ السيف لقوله تعالى (قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ)(التوبة الآية 14) أو بتعذيبهم التعذيب النفسي وذلك بإحساسهم بالغمّ والهمّ والنّكد والكمد حين يرون الإسلام يزداد اِنتشارا، ويزداد الشّرك اِنحسارا وأفولا، وحين ينهزم زعماؤه في قتالهم بحدّ السيف أو بحبسهم أو بهروبهم مخزيين، وحين تُردّ مكائدهم وتنقلب عليهم سوءًا. وجاء في الآية إنذارهم بحلول سَخَط الله تعالى عليهم، وبوعيدهم بأنّهم لن يروا خيرا ممّا يأملون، وبإبلاغهم بأنّه تعالى قد أطردهم من رحمته، وبتحديد مصيرهم بإيوائهم في جهنّم، في أسوأ مقام، وما أسوأ منزلهم وإقامتهم!

- وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7) :

وهذه لتنبيه الظانّين بالله ظنّ السوء ولإخبارهم بما هم عنه غافلون: بأنّ لله سبحانه وتعالى جنودا في السماوات، وجنودا في الأرض غير الذين يرون في المواجهة عند قتالهم للمسلمين، وبجنده تعالى فإنّه غالبهم وقاهرهم، وأنّهم لن ينالوا خيرًا ولا نصرا، وأنّه تعالى ذو عزّة، ولا يمتنع عنه مُمْتَنِعٌ، وأنّه تعالى حكيم في تقديره، وفي تسييره للأحداث والأمور. ولقد غلبهم تعالى وقهرهم بالرّيح يوم الأحزاب فأهلك مواشيهم، وقلع خيامهم، وأفسد طعامهم، وأطمس عيونهم، وردّهم عن غايتهم خائبين، ويوم بدر قتل زعماءهم بضربات ورمي في ظاهرها بأيدي المؤمنين، ولكنهم لم

يرموا حين رَمَوْا ولكنّ الله تعالى هو الذي رمى، وأرسل ملائكة مردفين، وما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم.

- إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا **(8)** :

بعد تلك المقدمة التي جاءت في بيان فضل صلح الحديبية في الفتح على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بتأييده، وعلى المؤمنين الذين كانوا معه بتبشيرهم بجنّات الرّضوان وبالفوز العظيم جاءت هذه الآية مع الآية التي تليها في ذكر وظائف الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وفي واجب المؤمنين إزاء دعوته ورسالته. والمعنى: إنّ الله تعالى أرسلك – يا محمد – لتشهد على أمّتك بالتبليغ: تبليغ رسالة ربّك إليهم لتوحيده ولتخصيصه وحده بالطّاعة والعبادة والذكر والدعاء. وهذه الشهادة حاصلة في الدنيا بتبليغه القوم الذين عايشوه، والذين علموا برسالته عن طريق المبلّغين من أصحابه، ومن العلماء الذين ورثوا عنه العلم، بشريعته وسنّته عن طريق العلم والنقل وثبتوا على ملّته في صدق وإخلاص وأمانة، وهي شهادة حاصلة كذلك يوم القيامة عند الحساب.

وهو صلّى الله عليه وسلّم مكلّف بتبشير أتباعه من المؤمنين الصادقين العاملين بالطاعات والصالحات بالأمان يوم الحساب وبالنجاة من هول القيامة وهول الحساب، وبالنجاة من العذاب، وبتبشيرهم كذلك بعفو الله تعالى عنهم وبمغفرته وبرضوانه ليدخلوا جنّات النّعيم مخلّدين فيها جزاء لهم على اِستجابتهم لهدي ربّهم. وهو صلّى الله عليه وسلّم مكلّف بإنذار كلّ من كفر وكذّب وأدبر عن الاستجابة لدعوته، وآثر المعصية على الطاعة بسوء العاقبة يوم الحساب حين يقوم النّاس لربّ العالمين.

- لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا **(9)** :

هذه في الواجب الموكول لكلّ من بلغته دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم للإسلام، وعلم بكتابه المنزل عليه من عند ربّه. والخطاب في هذه الآية عام وشامل لكلّ إنسان: ذكرا أو أنثى في أيّ مكان من الأرض، بلغته دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم النّبيّ الخاتم المبعوث للنّاس كافّة برسالة الإسلام. الواجب المطلوب من الجميع أن يؤمنوا بالله وحده، وأن ينزّهوه تعالى عن الشرك: لا ندّ له، ولا صاحبة، ولا ولد.

وإنّ الإيمان بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم من موجبات الإيمان. **(وَتُعَزِّرُوه)** : أي ومن واجبات الإيمان: نصرة دين الله تعالى، ونصرة دين الله تكون بتأييده، وبالثبات عليه، وبنشره، وبالدفاع عن مبادئه وقِيمه بالتي هي أحسن إلاّ إذا قُتِلُوا فيه فإنّ الدفاع عنه يكون بالجهاد لحماية أتباعه من الافتتان فيه للصدّ عنه، أو الارتداد عنه. **(وَتُوَقِّرُوه)** أي وتعظّموا الله تعالى بتقديسه، وإقامة شرعه، وبالخشية منه، وبالدعاء له وحده لطلب هديه وتوفيقه في كلّ عمل. ومن

توقيره تعالى حفظ اللسان عن الحلف به إلاّ في ما أُضطرّ إليه المؤمن اِضطرارا، ثمّ حلف به صادقا غير كاذب أو مخادع. (وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) أي وتعبدوا الله تعالى بتوجّهكم بالصلاة له وحده تعظيما وذكرا لكلّ ما يليق به من الصفات والأسماء، سبحان ربّي الأعلى صباح مساء مع تنزيهه عن الشرك وعن نسبة الولد له والصاحبة

- **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10) :**

وهذه في تشريف البيعة التي تمّت تحت الشجرة لنصرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ونصرة دين الله تعالى، وفي تشريف المؤمنين المناصرين لله ورسوله، والمؤيّدين لنبيّهم. وسبب هذه البيعة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أرسل عثمان بن عفّان من الحديبية إلى أهل مكة ليفاوضهم في شأن اِعتمار المسلمين. وفي غيبة عثمان واِنقطاع خبره، بلغ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه نبأ قتله، فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابه المرافقين له لقتال المشركين، ودعاهم إلى بيعته على الموت، وعلى أن لا يفرّوا عند المواجهة، فبايعوه على هذا، وسُمِّيت "بيعة الرّضوان" حين نزل عليهم قوله تعالى (لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) (الفتح الآية 18). والبيعة هي عقد الميثاق مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وهي العهد على الطاعة والنّصرة. والمعنى: إنّ الذين يعاهدونك على النّصرة إنّما هم يعاهدون الله على الطاعة. (يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أي والله مبارك هذه البيعة، وهو تعالى ناصر لهم ومؤيّد لهم. ولمن ينقض العهد، فلا يفي به فإنّ ضرر نقضه واقع عليه. ومن وفّى بعهده في مبايعته، ونفّذ ما أوجب عليه العهد فإنّ الله تعالى يبشّره بالجزاء الكبير. وأعظم الجزاء هو في دخول الإنسان جنّة ربّه، جنّة التكريم والرّضوان.

- **سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) :**

لمّا رغّب تعالى في الوفاء بالعهد وحذّر تعالى من نقض العهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا تمّ العزم على قتال أعداء المسلمين أتبع هذا التّحذير كشف أعذار المتخلّفين عن المبايعة للخروج مع رسولهم للقتال، وهي أعذار واهية وغير صادقة. وقد تخلّف من أعراب المدينة عن الاِنضمام إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند خروجه للعمرة ستُّ قبائل: غفار، ومُزينة، وجُهَيْنة، وأشجع، وأسلم، والدَّيْل بعد أن بايعوه على الخروج معه، وتثاقلوا على الخروج خوفا ممّا يمكن أن يحدث لهم عند بلوغهم مكة. ثمّ تخلّفوا عنه حين دعاهم للخروج معه إلى

"خيبر" بدعوى اِنشغالهم بأموالهم وأهليهم، وقد دُعوا ثالثةً لقتال قوم أولي بأس شديد لاختبار مدى صدق إيمانهم (أُنظر كتابنا رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم للتوسّع في هذا الموضوع، أو كتب السيرة النّبويّة).

والمعنى: (سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ) وحين تبلغ المدينة – يا محمد – عند عودتك من الحديبية سيعتذر لك المخلّفون من أعراب المدينة عن خروجهم معك بانشغالهم بتجارتهم وأعمالهم في أراضيهم، وبانشغالهم بأهليهم الذين يفتقرون لمن يحميهم لتعذرهم ثمّ إنّهم سيطلبون منك أن تستغفر لهم الله لتخلّفهم، وإنّ ما سيقولونه لك عند مرجعك هو من الاعتذار الكاذب، فلا يَنْخَدِعَنَّ المؤمنون بما يقولون وبما يعتذرون. وهذا من الإخبار بالغيب حتى لا يخدعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ) إنّهم كاذبون فيما يزعمون من وجوه الاعتذار، يقولون ما يقولون مصانعة بألسنتهم، وأمّا ما تنطوي عليه قلوبهم فأمرٌ آخر، إنّهم يضمرون في أنفسهم أمرا آخر. (قُلْ فَمَن يَمْلِكُ) هذا الإخبار لتصحيح إيمان هؤلاء الأعراب. لم يكونوا منافقين، ولكنّ إيمانهم لم يكن متمكّنا من قلوبهم من ضعفه، فجاءهم هذا الردّ لتذكيرهم بأنّ الله تعالى عليم بما في الصدور. ومعنى هذا الردّ الإخباري : من يمنعكم من الله إن أراد بكم هلاكا وعقابا، وما أدراكم بأنّ الله تعالى قد أراد بكم خيرا لو خرجتم مع رسوله. لو اِتّبعتم رسولكم ووثقتم بربّكم وبنصره لكان خيرا لكم، ولكسبتم من وراء ذلك خيرا، وهذا كقوله تعالى (قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً)(الأحزاب الآية 17). (بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) أي بل إنّ الله تعالى عليم بكذبكم في الاعتذار، وهو عليم بما في نفوسهم، وبجميع أفعالهم.

- **بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا (12) :**

هذه في كشف ما كان في قلوبهم ممّا جعلهم يتخلّفون عن الخروج مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وما كان هذا الكشف لفضح حقيقة أمرهم فحسب، وإنّما ليتأكّد كلّ مؤمن بأنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء من أمور عباده وإن كان أمر هذا العبد مكتوما في صدره، والغاية من ذلك أن يَصْدُقَ المؤمن في نيَّتِه وفي قَوْلِهِ، وأن لا يعتذر عن شيء كذبا ومخادعةً. قال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ)(التوبة الآية 119) والمعنى: بل لم يكن تخلّفكم بسبب اِنشغالكم بأموالكم وأهليكم، ولكن كان عن توقّعكم بأنّ محمدا وأصحابه لن يعودوا للمدينة أحياءَ سَالِمِين معافين أبدا.

لقد توقعوا لهم الهلاك على أيدي مشركي مكة والأعراب الذين كانوا يبحثون للمسلمين عن غرّة ليثأروا لقتلاهم ولهزائمهم في معاركهم معهم، وكانت قلوبهم كثيرة الحقد عليهم، وقد تهيّأت



لهم فرصة قدومهم إليهم وهم في لباس الإحرام، غير مجهّزين للقتال بالسلاح والدروع، وغير محصنين في مكانهم، فهذه فرصتهم فيهم للانتقام منهم، وليستردّوا شوكتهم وسطوتهم. هذا ما كانوا يتوقعون من سوء ظنّهم بالله تعالى الذي وعد عباده المؤمنين بالنّصر، وأنذر أعداءهم من المشركين بردّهم على أعقابهم خائبين لا ينالون خيرا، والذي وعد نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بإظهاره وإظهار دينه على الدين كلّه، وهذا ممّا يشهد لهؤلاء المتخلّفين عن الخروج مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بضعف إيمانهم، وهذا ما كشفه الله تعالى ممّا يبطنون في قلوبهم فدفعهم للاعتذار عن مصاحبته للعمرة متعلّلين بانشغالهم بأموالهم وأهليهم. (وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا) أي وكنتم ضعيفي الإيمان، لا خير فيكم، وكنتم هالكين. والأرض البور هي الأرض التي لا خير فيها، هي الأرض القاحلة التي لا تنتج زرعا ولا كلأ ولا تنبت شجرا.

- وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا (13) :

وهذه لشحذ العزائم ليكون المؤمن صادقا في إيمانه، واثقا بوعد الله تعالى ووعيده غير شاكّ ولا مُرتاب. ومعنى الآية في وعيد الله عزّ وجلّ الذين لم يؤمنوا بالله تعالى ولم يؤمنوا برسوله ولا بكتابه، ولم يتّبعوه في ما جاءهم به من شرع الله عزّ وجلّ بإيوائهم في نار جهنّم المحرقة ليقيموا فيها إقامة دائمة عقابا لهم على كفرهم به وبرسوله.

- وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا(14) :

وعلى عادة القرآن في إتباع الوعيد بالوعد، جاءت هذه الآية للتّذكير باستحقاق الله تعالى وحده للألوهيّة لأنّه تعالى هو مالك ملك السماوات والأرض وحده، وليس له شريك في ملكه، وبهذا فإنّ جميع المخلوقات والموجودات في السماوات والأرض هي له وحده يتصرّف فيها بما شاء بحكمه، فيغفر لمن طلب مغفرته ورحمته من خَلقِه لأنّه هو تعالى الغفور الرّحيم، ويعذّب الله من يشاء من عباده الذين أعرضوا عنه وكفروا به وعصوه فيما أمر به أو نهى عنه. وإنّه تعالى كان وما يزال غفورا رحيما لأنّ من أسمائه عزّ وجلّ الحسنى، ومن صفاته العلية: الغفور، وهو كذلك الرّحيم بعباده التائبين الآئبين إليه بالذكر والطاعة وحسن الإيمان. وهذه الآية لحفز أولئك المتخلفين وكلّ الذين يشكون في وعد الله تعالى ووعيده للأوْبَةِ إليه وللإنابة إليه بصدق وإخلاص في الطاعة والعمل.

- سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا (15) :

(سَيَقُول) صيغة الفعل تدلّ على أنّ القول سيُصرَّحُ به في مستقبل الأيّام. وفعلا فإن هذه الآية قد نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في طريق عودته من الحديبية إلى المدينة. والحدث المشار إليه في الآية هو خروج المسلمين لغزوة "خيبر"، الأمر الذي ستأتي الآية 18 بعد الآيتين المواليتين على ذكره، والتي وعد الله تعالى فيها المسلمين بأن يغنموا منها غنائم كثيرة. وقد جاءت هذه الآية بمنع أولئك المتخلّفين الظانّين بالله ظنّ السوء من الخروج مع المسلمين لهذه الغزوة ليحرمهم من مشاركة المؤمنين الصادقين المناصرين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم قسمتهم للغنائم. وجاءت هذه الآية بإخبار المؤمنين بأنّ المتخلّفين سيتّهمونهم عند مَنْعِهِمْ من الخروج معهم بالحسد، ولكنّ الأمر على عكس ما يظنّون فإنّ الأمر بمنعهم هو أمر من عند الله عزّ وجلّ، ولكنّهم قوم لا يفقهون بأنّ الله تعالى هو العليم بما في نفوسهم، والعليم بما سيقولون قبل أن يقولوه لعلّهم يتوبون إلى الله عزّ وجلّ فيصدقوا في إيمانهم، وهو تعالى الحكيم الذي يؤدّب الظانّين به ظنّ السوء ليردّهم للجادّة من أمرهم. ومعنى الآية: سيقول الذين تخلّفوا عنكم عند خروجكم إلى مكة خوفا على أنفسهم من الأذى حينما تقصدون "خيبر" لقتالهم : دعونا نخرج معكم للقتال معكم. كانت "خيبر" على الدوام مصدر خطر على "المدينة"، وعلى أهلها. كانت على بُعد ستين ميلا شمال المدينة أو سبعين، ومن جهتها يهاجم الأحابيش سكّانها من حين لآخر. وفي "خيبر" سادة وقادة من ألدّ أعداء المُسلمين، كانوا أهل مكر ودسيسة، وكانوا أهل تحرّش لإثارة الحروب على المسلمين، فكان من الحكمة السياسية وحسن التدبير أن تُؤَمَّنَ هذه الجهة لضمان أمن أهل المدينة، ولتأمين طريق الدعاة والرسل والبعثات لنشر الدعوة للإسلام، ولتأديب أهل المكر والدسيسة وتفريق جموعهم ونفيهم من حصونهم المنيعة ولكفّ أذاهم، لهذه الأسباب كان خروج المسلمين لخيبر، وكان سكّان المدينة يعرفون سَعَة مكاسب قرى "خيبر"، وتوقّع المتخلّفون للمسلمين إخراج أهلها منها لأنّهم صاروا ذوي قوّة وشوكة، ولذلك طمعوا في أن يقتسموا معهم غنائمهم لذلك طلبوا أن يرافقوهم في خروجهم إلى هذه القرى ليغنموا معهم بعضا من المكاسب، ولكنّ الله عزّ وجلّ كشف مطامعهم فأمر المسلمين بأن يرفضوا مرافقتهم، فإذا سألوكم عن سبب ردّهم عن الخروج معكم، ومَنْعِكُمْ من مصاحبتكم في القتال فقولوا: (كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ) أي بهذا حَكَم الله عزّ وجلّ من قبلُ حين كنّا بالحديبية، قبلَ بلوغنا إلى المدينة، وقبل عودتنا إليكم، وقد كشف الله سبحانه سبب منعهم من الخروج إلى "خيبر" في قوله تعالى (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) أي يريدون أن يغيّروا وعد الله تعالى للمهاجرين وللمناصرين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتمليكم غنائم "خيبر" بتشريكهم في الغُنْمِ منها من طمعهم وجشعهم. ولقد جاء في خبر السيرة النبويّة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد قال لهم: "إن

خرجتم لم أمنعكم إلاّ أنّه لا سهم لكم". فلمّا سمعوا هذا قالوا: هذا حسد. وقال المسلمون: قد أخبرنا الله تعالى في الحديبية بأنّهم سيقولون (بَلۡ تَحۡسُدُونَنَا). ولقد قالوا هذا لأنّهم لم يكونوا يفقهون ويعلمون من أمر الله تعالى ومن علمه ومن إحاطته بكلّ شيء علما إلاّ النزر القليل وذلك من ضعف إيمانهم.

- قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا **(16) :**

هذه في اِختبار صدق نوايا المخلّفين من أعراب المدينة في القتال في جند المسلمين نُصرة لدين الله عزّ وجلّ. ومعنى الآية: قيل لهؤلاء المخلّفين ستدعون لقتال جند الفرس، وجند الروم مستقبلا، ومقاتلي هوازن وثقيف وبني حنيفة أهل اليمامة المشركين. وهذه الدعوة قد تكون في حياة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو من بعده لنشر دين الإسلام، أو للذود عن المسلمين في قُراهم ليأمنوا على دينهم من دعاة الردّة بحدّ السيف والإكراه. ستدعون لقتالهم للدفاع عن المسلمين، أو نشرا للدعوة ليسلموا. فإن اِستجبتم للدعوة فإنّ لكم الغنائم، ويؤيّدكم الله تعالى بالنّصر في الدنيا، ولكم في آخرتكم الجنّة، وإن تتولّوا عن الدعوة، وعن الانضمام للجند المسلمين كما تولّيتم من قبل عام الحديبية، فستعذّبون العذاب الموجع في دنياكم: عذاب الإذلال، ولكم في آخرتكم عذاب النار في جهنّم.

- لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا **(17) :**

وهذه في رفع الحرج عن أصحاب الأعذار في الخروج للجهاد ذودا عن المسلمين ليأمنوا على أنفسهم وعلى معتقدهم من الافتتان فيه، أو نشر للدعوة للإسلام. وأصحاب الأعْذار هم المعاقون إعاقة بصرية أو بدنية، أو كانوا أصحاب علّة مرضية، فهؤلاء لا إثم عليهم، ولا حرج في تخلّفهم عن الجهاد. وعموما فمن يطع الله تعالى فيما أمر، وفيما نهى عنه، ويطع رسوله فيما سنّ، وأرشد إليه، ورغّب فيه، أو حذّر منه يبشّره الله عزّ وجلّ بأن يُسكنه بساتين مرفّهة في جنّة النّعيم، ومن يُعرضْ عن طاعة ربّه ورسوله صلّى الله عليه وسلّم فإنّه سيُعذّب العذاب الموجع يوم الحساب في نار جهنّم.

- لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا **(18) :**

هذه الآية مع الآية الموالية في بيعة الرّضوان، وهي إلى الآية 26 في خبر الحديبية. وملخصها أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خرج معتمرا في ذي القعدة، ودعا الأعراب الذين من

حول المدينة لمرافقته فتخلّف عنه أكثرهم، فخرج مع من رافقه من المهاجرين والأنصار وبعض العرب، وجميعهم نحو ألف وأربعمائة، وساق معه الهدي، وأحرم ليعلم النّاس أنّه لم يخرج للحرب. ولمّا بلغ قريشا خروجهم إلى مكة خرج جمعُهم ليصدّوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومن معه عن المسجد الحرام وعن دخول مكة، وعزموا على قتالهم إن لم يرجعوا عن عزمهم، وخرج إليهم خالد بن الوليد قائدًا للخيالة، وأقاموا بمكان اِسمه "كراع الغميم"، وهو مكان بين مكة والمدينة. ولمّا علم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بخروج هذه الكتيبة من الخيالة المقاتلين سلك طريقا غير الطريق المعتاد للسفر بين القريتين. سلك طريقا خرج به في ظهر هذه الكتيبة التي أرادت به شرّا وصدّا عن مواصلة طريقه إلى مكة، وبلغ به الطريق إلى الحديبية. في هذا المكان بركت ناقته وحرنت، وقال أصحابه عن النّاقة: خَلَأَتْ، خَلَأَتْ (أيْ حرنت وبركت وأبت القيام)، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "ما خلأَتْ، وما هو لها بُخُلُقٍ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة" (قصد أن اُلنّاقة مأمورة بإرادة من الله عزّ وجلّ). وقرّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقيم وأصحابه في هذا المكان، ثمّ أردف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم القول: "لا تدعوني قريش اليوم إلى خطّة يسألوني فيها صلة رحم إلاّ أعطيتهم إيّاها.." ثمّ نزل بالمكان. ثمّ جرت بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكفّار قريش السفراء محاورات، وطال النقاش الّذي اِنتهى لأن ينصرف الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن دخول مكة في عامِهِ ذاك، فإذا كان العام الذي يليه دخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح على أن يقيم فيها ثلاثة أيّام فقط، ثمّ يخرج. وفي هذا التفاهم تم الاتفاق على أن يكون بينه وبين كفّار قريش "هدنة" وصلح لعشرة أعوام: "يتداخل فيها النّاس ويأمن بعضهم بعضا". (وكان في هذه المعاهدة عناصر أخرى غير هذه الهدنة تعرف بالرجوع إلى كتب السيرة النبويّة). وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد شعر بإلهامٍ من ربّه أنّ الله تعالى سيجعل للمسلمين بهذه المعاهدة فرجا، فقال لأصحابه: "اِصبروا فإنّ الله يجعل هذا الصلح سببا إلى ظهور دينه"، وذلك ليخفّف عنهم حزنهم على عودتهم للمدينة دون بلوغ غايتهم، فأنس النّاس بقوله هذا بعدما شعروا به من حزن ونفور...

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل توقيع الصلح قد بعث عثمان بن عفّان رسولا إلى مكة، ثمّ جاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم خبرٌ بأنّ أهل مكة قد قتلوه لمّا جاءهم، فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عندئذ كلّ من كان معه إلى المبايعة له على الحرب لقتال أهل مكة، فبايعوه على الموت على أن لا يفرّوا، هذه المبايعة هي التي سمّيت ببعية "الرّضوان"، وهي التي جاء خبرها في هذه الآية لقد بدئت بقوله عزّ وجلّ (لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ) ثمّ تبيّن أنّ الخبر غير صحيح حين جاءهم عثمان بعد تأخّره بما أرسله به أهل مكة من رسالة إلى رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم. (وهذا ما يؤكّد قولي السابق الذي جاء في تفسير سورة التوبة بأنّ القرآن الكريم لا يُفَسَّرُ إلاّ بعد توفّر الشروط العلمية الواجبة للقيام بهذا العمل ليكون تفسيره موضوعيا وعلميا وواضح الدلالة والإشارة، ومن هذه الشروط : حسن الاطلاع على السيرة النبويّة، ومعرفة الصحيح الثابت من أسباب النّزول إلى جانب الشروط الأخرى التي منها اِمتلاك ناصية اللّغة العربية: "فقه اللغة" وأساليب البيان، وتعبير اللسان العربي القديم...).

ومعنى الآية: لقد بارك الله تعالى مبايعة المؤمنين لرسوله على قتال المشركين إلى الموت دون الفرار من المواجهة عند اِحتدام المعركة نصرةً لدين الله ولرسوله، فكتب لكلّ من بايعك – يا محمد – رضوانه.

ومن رضي الله عنه فلنْ يرى بأسا في دنياه، وكتب له الأمان إذا قام في آخرته، ودخل جنّة ربّه بغير حساب مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. وقد تمّت هذه المبايعة تحت شجرة. هذه الشجرة صارت بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مزارا لقاصدي بيت الله الحرام في حجّ أو عمرة. وفي عهد الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه رأى من بعض الزائرين تعظيما لهذه الشجرة، فأمر بقلعها خوفا من الوقوع في شُبْهَةِ التقديس لها، وكذا حارب عمر الشبهة للمحافظة على صفاء العقيدة ونقاوتها. (فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ) أي لقد علم صدق إيمانهم، وعلم ما في نفوسهم من الرضا بأمر البيعة وما فيها من العزم على قتال المشركين دون الفرار من المواجهة، وعلم ما في قلوبهم من الوفاء بما بايعوا عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

(فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ) وقذف في قلوبهم الطمأنينة لِتَسْكُنَ، وتزول عنها الكآبة التي أصابتها بصدّ المشركين إيّاهم عن الدخول إلى بيت الله الحرام، وهذا من بعض فضيلة الرضوان عنهم. (وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا)، وسيُجْزَوْنَ عن هذه المبايعة، والرضى بما عاهد عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المشركين فتح خيبر، وفتح مكة، وفتح القرى المجاورة لمكة والمدينة نشرا لدين الله ولإظهاره على الدين كلّه. وقد تحقّق هذا الوعد في أيام معدودات بعد هذه البيعة، وغنم المسلمون من ورائها مغانم كثيرة أهمها: ظهور الإسلام ونشره، واِمتلاك الشوكة والعزّة والمنعة من أعدائهم وأعداء الدين. (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ).

- **وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا (19) :**

وسيغنمون من هذه الفتوحات مغانم عديدة: دينية بظهور دينهم الإسلام على الدين كلّه، وأخرى معنوية باكتساب العزّة والقوّة والمنعة والعلم الشرعي الصافي المعتدل الوسطي السمح الحقّ، والفخر بالانتساب لأمةِ كتابِ الله الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،

تنزيل العزيز الحميد، الكتاب المهيمن، ولأمّة النّبيّ الخاتم صلّى الله عليه وسلّم، ومغانم أخرى مادية فتأتيهم الخيرات من كلّ مكان ينتشر فيه الإسلام. والله سبحانه وتعالى هو العزيز: القاهر القويّ الذي لا يُغلب، وهو تعالى الحكيم الذي يدبّر الأمر كلّه ويحسن تدبيره ويقضيه.

- **وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (20) :**

وعدكم الله مغانم كثيرة ستحصلون عليها قريبا – وقد تحقّق هذا الوعد في خيبر، وفي غزوات أخرى بعدها، وعجّل لكم (هَٰذِهِۦ) أي صلح الحديبية. في هذا الصلح أقرّ كفّار مكة بحقّ المسلمين في الاعتمار، وأقرّوا ضمنيا بقوّتهم بعد أن كانوا عندهم مستضعفين ولا يحسبون لهم حسابا، وتكسّرت شوكتهم حين طلبوا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هدنةً لعشر سنوات، ولولا تحسّبهم من قوّة المسلمين ما طلبوا هذا المطلب. (وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ) أي كفّ أيدي أهل مكة عن قتالكم بهذا الصلح وهذه المعاهدة، ثمّ سيكفّ أيدي يهود المدينة عنكم بعد فتح خيبر، وكذلك أيدي الأحابيش. (وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) ولتكون هزيمتهم ومطالبة أولئك للهدنة لحفظ سلامتكم، ولإظهار دين الإسلام الذي بُعِثَ به رسولكم صلّى الله عليه وسلّم آية للمؤمنين يعرفون بها أنّ الله تعالى حافظهم وحارسهم وناصرهم ومجازيهم، ويعلمون بها آية صدق رسوله فيما يبلّغ به عن ربّه من هدى ودين وشريعة ووعد ووعيد. (وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا) ويريد الله تعالى بهذا كلّه هداكم لدينه، وتثبيتكم على نصرة رسوله ودينه لتكونوا على الصراط الحقّ السويّ في الدّين الذي جاءكم به محمد صلّى الله عليه وسلّم من عند ربّه، وهو دين الإسلام، فالإسلام هو دين الصراط المستقيم.

- **وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) :**

(وَأُخْرَىٰ) هي مكّة لم يتهيّأ لكم فَتْحُها في الحال، (قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا) وقد جعلها الله تحت قبضته، وستفتح لكم، وإنّ قدرة الله تعالى غالبة، فهو تعالى لا يُعجزه أيّ شيء لأنّه على كلّ شيء قدير.

- **وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) :**

ولو قرّر مشركو مكة أن يقاتلوكم لدارت عليهم دائرة السوء، ولعادوا على أعقابهم دون أن ينالوا منكم شيئا، ودون أن يلحقوا بكم ضرّا لأنّ الله تعالى حافظكم بقدرته، ولأنّهم سيخافون من أن يلحقهم الخزي والعار إذا قاتلوكم، فشاع عنهم أنّهم هاجموا رَحِمًا وجوَارا في لباس الإحرام، عزّلا لا يحملون سلاحا، قصدوا بيت الله الحرام، قاتلوهم في مكان من حَرَمِ مكة، في شهر من الأشهر الحرم، وغنموا منهم ما كانوا يسوقون من هَدْيِهِمْ للكعبة. هذا الخوف سيمنعهم من أن

يقاتلوكم، ولو أنّهم قاتلوكم فسيهلكون، ولن يجدوا من ينصرهم أو يمنع عنهم ما سيلحقهم من العذاب لينقذهم منه، أو يَحْبِسَهُ عنهم.

- سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً (23) :

وما سيجري فيهم من الهلاك هو بمثل ما جرى من قبلُ في الذين شاقّوا رُسُل الله والمؤمنين ليصدّوهم عن دين الله تعالى. هذه عادة الله في خلقه مضت من قبلُ، ولا تغيير في عادة الله تعالى في عقاب قوم كافرين يصدّون عن سبيل الله ويشاقّون رسولا من رُسُلِهِ.

- وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) :

وهذه الآية فيما كان من تقدير الله عزّ وجل في حفظ عباده المؤمنين من أذى المشركين. هو سبحانه الذي حبس عنهم الاقتتال فكفّ أيدي المشركين وردّ كيدهم فجعلهم لا يرغبون في قتال المسلمين في الحرم المكي وفي الشهر الحرام الذي كانوا يعظّمون القتل فيه، وكانوا يغمدون فيه أسلحتهم، وكانوا يرون من العار أن يقاتلوا الأعزل من ورائه غدرا. وكفّ أيدي المسلمين عن قتالهم كيلا ينتهكوا الحرمات بالحرم المكي خاصّة (مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) وذلك لأنّ أهل قريش قد بعثوا رجالا من أعوانهم ومواليهم ليطوّقوا بعكسر الرسول صلّى الله عليه وسلّم لينالوا منهم على حين غرّة، وليصيبوا منهم من يصيبهم غدرا، ففُطِنَ بهم، وأُخِذُوا أسرى، ثمّ خُلِّيَ عنهم كرامةً وفضلا، والعرب يرون الغدرَ بالكريم عارا. وكان الله عزّ وجلّ متابعا لما يحدث، يرى ما يجري، ويرشد رسوله لما يجب عليه فعلُه إلهامًا.

- هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25) :

لقد شعُر مرافقو الرسول صلّى الله عليه وسلّم للعمرة في الحديبية حين عُقِدَ الصلح الذي فَرض عليهم العودة للمدينة وأن يُرْجُوا عمرتهم للسنة الموالية بالحزن والغَبَنِ، خاصّة وقد عاهدوا من قبله رسولهم تحت الشجرة على القتال إلى الموت حتى لا يمنعهم مانع من دخول مكة، فجاءت هذه الآية في كشف السبب الذي خفي عنهم، ولو أنّهم مضوا بما عزموا عليه للحقهم العار لِقَتْلِهم مؤمنين كانوا يقيمون بمكة، وكانوا يكتمون إيمانهم عن النّاس. وجاءت الآية بهذا التّوضيح ليعلموا أنّ الله تعالى قد قدّر بذاك الصلح، وبردّهم عن دخول مكة بقتال قد حفظ عباده المؤمنين الذين كانوا يكتمون إيمانهم من الهلاك أو الخوف، وليحفظ أتباع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من أن يلحقهم العار والنّدم، وبهذا سكنت نفوسهم، ورضوا بما قضى الله تعالى

ورسوله، واِزدادت سكينتهم حين علموا أنّ الله تعالى قد رضي عنهم حين بايعوا رسوله على نصرته. وفي الآية بيان بأنّ تقدير ذاك الحفظ للمؤمنين الذين كانوا يقيمون بمكة وكانوا يكتمون إيمانهم هو الذي أنْجَى قريش من العذاب الأليم لكفرهم وصدّهم المسلمين عن بيت الله الحرام، ولمنعهم الهدي من أن يبلغ محلّه. ومعنى الآية (هُم) : أهل قريش، كفروا حين أصرّوا على شركهم ولم يؤمنوا بالله وحده، ثمّ ظلموا المسلمين حين منعوهم عن الدخول إلى المسجد الحرام ليرفعوا فيه ذكر الله عزّ وجلّ، ومنعوا الهدي إلى الكعبة أن يصل إلى منحره، ولولا المؤمنون المسلمون المستضعفون الذين كانوا فيهم، وكانوا يكتمون إيمانهم عنهم، لولا الخوف عليهم وعلى المؤمنات اللاّئي كنّ مسلمات متخفّيات بإيمانهنّ من أن يصيبهم الأذى أو الهلاك والقتل على أيدي أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعذّب الله تعالى أهل قريش العذاب الموجع. لولا أن قدّر الله عزّ وجلّ أن يحفظ هؤلاء المؤمنين والمؤمنات المقيمين بمكة والمتخفّين بإسلامهم، ولولا تقديره سبحانه بأن يحفظ المسلمين المقاتلين من أن يلحقهم لآخر حياتهم عار قتل إخوانهم المسلمين بأيديهم، وإن كان قتلا خطأً عن جهل، وبغير عمد لجهلهم بإسلامهم، (لَوۡ تَزَيَّلُواْ) لو تميّز المسلمون عن المشركين، ولو كانوا قد خرجوا من مكّة لعذّب الله تعالى زعماء الكفر العذاب الموجع، وكان هذا التقدير بمنع المسلمين من دخول مكة بقتال، وبرضاهم بصلح الحديبية من رحمة الله تعالى بعباده، ومن مظاهر رحمته تعالى بعباده المؤمنين والمؤمنات: حفظُهم من الوقوع في المهالك، أو في ما يُلحِقُ بهم العار، وهذا من لطفه تعالى ومن حسن تقديره تكريمًا لعباده المؤمنين، وللمؤمنات. وإنّ تثبيت ذكر النساء المؤمنات في هذه الآية هو لرفع ذكرهنّ، ولتشريفهنّ ويعلمنَ أنّ ما جرى من ردّ المسلمين للمدينة، وردّهم عن دخول مكة عنوة هو من لطفه تعالى بهنّ حتى لا يؤذَيْن، ويعلمْن أنّ الله تعالى حافظهنّ تكريما لإيمانهنّ، وأنّ الله تعالى عليم بما في قلوبهنّ من الإيمان به، ومن التصديق برسوله، وبكتابه...

- **إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا (26) :**

وإنّ اِستحقاق كفّار قريش للعذاب الأليم سببُهُ الحمية التي شُحِنَتْ بها قلوبهم، وهي من حمية الجاهلية التي تجعل صاحبها شديد العناد: لا يقبل الرأي المخالف وإن كان رأيا أصوب من رأيه، وأرشد، وأقوى حجّة، يرفضه كبرياء وأنفة حتى لا يشعر بأنّه غُلِبَ على رأيه كقول فرعون: "ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد"، وحمية الجاهلية تجعل صاحبها سريع الانفعال إذا نوقش في رأيه، سريع الغضب، وتجعله شديد القسوة على خصمه في الرأي أو في العمل أو في

المكانة. وهذه من صفات الطغاة الجبابرة، لا يبتلى بأحدهم قومٌ إلاّ ظلموا، وقُهِرُوا. وأمّا المؤمنون فإنّ الله تعالى ينزل عليهم السكينة زمن الشدّة فإذا هم صابرون محتسبون، وثابتون في إيمانهم وفي طاعتهم لربّهم، ويلزمهم (كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ) وذلك بتثبيتهم على كلمة التوحيد "لا إلاه إلاّ الله" التي تقي العبد من العذاب، وتقرّبه من الله تعالى زلفى. وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين هم الأحقّ بهذه الكلمة من كفّار مكة لأنّ الله سبحانه قد اِصطفى رسوله لتبليغ دينه، واِختار أتباعه لصحبة نبيّه ولإعلاء كلمة الحقّ نصرة لدين الله عزّ وجلّ. وكان الله بكلّ شيء عليما، لا يخفى عليه من أمر عباده شيء فيما يحتاجون إليه، وفيما يشعرون به، وبما يستحقّون من الدعم والنّصرة والإرشاد ولتثبيت أقدامهم وأقوالهم.

- لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا **(27)** :

قال قتادة : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأى في المنام أنّه يدخل مكة على هذه الصفة، فلمّا صالح قريشا بالحديبية اِرتاب المنافقون حتى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إنّه يدخل مكة، فأنزل الله تعالى (لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ) فأعلمهم أنّهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأنّ رؤياه صلّى الله عليه وسلّم حقّ. وقيل: إنّ أبا بكر هو الذي قال إنّ المنام لم يكن مُؤَقَّتًا بوقت، وأنّه سيدخل. ورُوِيَ أنّ الرؤيا كانت بالحديبية، وأنّ رؤيا الأنبياء حقّ. (نقلته عن القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج.16 ص ص 289–290).

والمعنى : إنّ رؤيا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صادقة، وحقّا ستدخلون المسجد الحرام بمشيئة الله تعالى قريبا (ءَامِنِينَ) من العدوّ ومن أذى المشركين، وستحجّون وتعتمرون ثم تحلّقون بعد إتمام مناسككم، أو تقصّرون في أمان لأنّ أعداءكم سيكونون بعيدين عنكم خارج مكة، ولن يقربوكم. (فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ) وعلم الله ما لا تعلمون من أمر تأخير حجّكم واِعتماركم، فانتظروا زمن دخولكم لتعلموا ما خفي عنكم (فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) لقد كان بين هذه الرؤيا ودخول المسلمين يوم فتح مكة في حجّة الوداع فتوحات كثيرة أهمها فتح خيبر الذي غنم منها المسلمون مغانم كثيرة، فعزّوا بذلك ماديا، وبالفتوحات الأخرى ودخول المسلمين لدين الله أفواجا اكتسبوا عزّة وقوّة وشوكة، وقذف الله في قلوب أعدائهم الرعب، وصدق وعد الله فقد دخل المسلمون يوم فتح مكة إلى المسجد الحرام في حجّ وعمرة في عزّة وقوة وعظمة في العدد، وهُدِمت دولة الشرك وتطهّرت يومها مكة وحرمها وما حولها من جميع مظاهر الشرك، وأظهر الله تعالى دينه ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، واِرتفع صوت الحق في المسجد الحرام بلا إلاه إلاّ الله وحده وبمحمد رسول الله، وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا. وهذا هو الفتح القريب الذي

بُشِّر به محمد صلّى الله عليه وسلّم في رؤياه، وأخبر به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أصحابه، ودوّنه الوحي في هذه الآية، وكان أمر الله مفعولا.

- **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا(28):**

إنّه هو الله عزّ وجلّ الذي أرسل رسوله محمدا صلّى الله عليه وسلّم للنّاس كافّة ليبلّغهم هدى الله الذي جاء في كتابه العزيز: القرآن الكريم، (وَدِينِ ٱلۡحَقِّ) وهو الإسلام ليُعْلِيَهُ على جميع الأديان والملل. وكفى الله شهيدا على صحة نبوّته ورسالته وعلى صدقه في ما يبلّغ به عن ربّه. وفي هذه الشهادة ردّ على سفراء قريش لصلح الحديبية الذين رفضوا أن يكتبوا في الصحيفة: "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" فقال سهيل بن عمرو المفاوض: لو صدّقناك بذلك ما دفعناك عمّا تريد، فلابدّ أن تكتب : باسمك اللهمّ. كُتبت هذه، ومحا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيده الشريفة الجملة السابقة.

- **مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا (29) :**

جاء في الآية السابقة شهادة الله عزّ وجلّ لمحمد صلّى الله عليه وسلّم بأنّه تعالى هو الذي أرسله بالهدى ودين الحقّ، وجاء في مفتتح هذه الآية تثبيت صفته صلّى الله عليه وسلّم بأنّه رسول الله. فمن آمن بمحمد رسولا من عند ربّه جاء بكتاب من عند الله وبشرع ربّه للنّاس كافّة فقد كان مصدّقا بكلام الله عزّ وجلّ وبكتابه وبتنزيله. ومن كذّب بمحمد صلّى الله عليه وسلّم رسولا، وكذّب بما جاء به من الهدى ودين الحقّ حُقَّ وصْفُه بأنّه قد كفر بكلام الله وبرسوله وبهداه وبأنّه قد كذّب بشهادة الله عزّ وجلّ. ويجب الوقف عند قراءة هذه الجملة (مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ) لأنّ ما جاء بعدها في تمجيد صفات أتباعه الذين كانوا معه، وكلّ الأتباع عامّة الذين جاؤوا من بعده، والذين سيأتون إلى يوم الدين إذا صدّقوا بمحمد رسولا، وصدّقوا برسالته، وبالقرآن الذي أنزل عليه، واِتّبعوا الدين الحقّ الذي هدى الله تعالى عباده إليه، وشهدوا له بالرسالة بعد شهادتهم بتوحيد الله عزّ وجلّ وتنزيهه عن الشرك، ثمّ ساروا على منهجه وسيرته وسننه في العبادات والطاعات وفي ما رغّب فيه من العمل الصالح وحُسْن الخلق، وأحبّوه عند ذكره فَصَلّوْا وسلّموا عليه. من صفات أتباع هذا الرّسول عامّة الغلظة في تعاملهم مع الكفّار الذين يكذّبون بالله تعالى وبرسوله وبكتابه، ولكنّهم مع إخوانهم المؤمنين متوادّون ومتآزرون ومتعاونون يحمل بعضهم بعضا عند الشدّة والعسر. وإنّهم يكثرون من صلوات النوافل مع أدائهم للصلاة المفروضة، ومن

كثرة سجودهم وركوعهم ظهرت على وجوههم علامات التهجّد بالليل وإمارات السهر، وقيل "السيما" هو السَّمْتُ الحسن، ومن علامات السَّمْتِ الحسن: الوقار والبهاء، والخشوع والتواضع خاصّة، وجاء في الأثر : من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهُه بالنّهار. وليس يقصد من هذا "السيما" ما يشاع بين النّاس ما يظهر على جبين بعضهم من بقعة بُنِّيةٍ. وهذا ممّا ورد في صفاتهم في التوراة. وجاء في الإنجيل وصفهم بأنّ أصحاب الرسول كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباته، وتخرج فراخه: أي الفروع المتفرّعة في جوانبه، وهذا معنى (أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ)، وهذا يعني أنّهم يكونون قليلين فيكثرون، ويكونون ضعفاء ثمّ يقوون (لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ) حين يقوُون، ويكثرون، ويشتدّ عودهم، وتقوى شوكتهم وبأسهم عند اللقاء في المواجهات.

وعد الله أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم عامّة، من لقيه وكان معه مُؤَازِرًا، ومن جاء بعده من المخلصين للعمل بسنّته ومن يأتي من بعدُ إلى قيام الساعة، وعدهم لصدق إيمانهم ولعملهم الصالحات بمغفرته يوم الحساب، وبمنحهم الأجر العظيم وذلك بفتح أبواب الجنّة لهم ليدخلوها آمنين. نسأل الله الكريم الحليم أن يمنّ علينا بمغفرته وأن يكتبنا من الفائزين بالأجر العظيم.

حين يتمثّل قارئ هذه السورة ما أحاط بالرسول صلّى الله عليه وسلّم من معاناة من متخلّفي أعراب المدينة، ومن موقف المشركين في صدّه وأتباعه عن دخول مكة معتمرين، وحين يتمثّل مشاعره حين يرى جمعا من أتباعه يحتجّون عليه على معاهدة قريش في صحيفة صلح الحديبية لأنّهم رأوا فيها تعسّفا عليه وعلى المسلمين، ولم تكن عادلة في بعض بنودها، وحين رأى حزنهم حين خلعوا عن أنفسهم لباس الإحرام، وحين نحروا ما ساقوا من الهدي دون بلوغ الكعبة ودون بلوغ مرادهم، حين يتمثّل هذه العناصر سيعرف شيئا ممّا لقيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم من عظيم الألم في نفسه قابله بعظيم الصبر، وبالرضى بقضاء الله تعالى محافظة على أرواح أتباعه وأمن الحرم المكي. لقد كان صلّى الله عليه وسلّم جَلْدًا، صبورا، وهادئا، وعندئذ يستطيع أن يفهم عظيم سروره بفضل ربّه عليه حين نزلت عليه هذه السورة بتلك المقدمة المستبشرة، وبهذه الآية الخاتمة التي جاءت بتثبيته وبتبشير أتباعه بما يُثلج صدورهم وبما يسرّهم بعد حزنهم، والله عليم بذات الصدور، وناصر رسوله وعباده المؤمنين. ومن المستفاد من الآية أنّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذين كانوا صادقين في إيمانهم وكانوا يعملون الصالحات حظوا بمكانة رفيعة عند الله عزّ وجلّ، وقد بُشِّرُوا في حياتهم بمغفرة ربّهم وبالإنعام عليهم بالأجر العظيم: من هؤلاء من صار خليفة للرسول صلّى الله عليه وسلّم في الحكم من مثل أبي بكر الصدّيق، وعمر

الفاروق، وعثمان ذي النّورَيْن، وعليّ بن أبي طالب، ومنهم القرّاء الحفظة رواة الوحي الثقات، ومنهم الفاتحون، والصالحون والعلماء رواة الحديث والسنن، فلا يجب التعرّض لأيّ واحد منهم أو لأمهات المؤمنين : نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رضي الله عنهنّ جميعا، ورضي الله عن الصحابة جميعهم، لا يجب التعرّض لأيّ واحد منهم، أو لإحداهنّ بالسبّ أو سوء الذكر على ما يفعله غلاة الشيعة من التعرّض لصحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالسَّبّ، ولنساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بسيّء الذكر وهن أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهنّ، فليتقوا الله عزّ وجلّ في عباده المؤمنين الذين رفع الله تعالى ذكرهم، وأثابهم بمغفرته والأجر العظيم.

آياتها	ســـــورة الحجـــــرات	رقمها
18	ـــــ مدنيّة ـــــ	49

سمّيت هذه السورة بسورة "الحجرات" وهي بيوت نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولا يُعرف لها اِسم آخر غير هذا، وهي سورة مدنية في ثماني عشرة آية.

ومن أهمّ مواضيع هذه السورة: الأمر بفضائل الأخلاق ومكارمها، وفضائل الآداب في التعامل مع الآخر لبناء المجتمع الإسلامي على قيم التآخي والاحترام، وحفظ اللسان عن الإساءة للغير. ومن مواضيعها وُجوب التأدّب عند خطاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ذلك لأنّه كان في العرب جفاء وسوء الأدب في مناداة صاحب المقام، أو الصاحب، وكانوا يقسمون أنفسهم إلى طبقات اِجتماعية : بين رفيع وأقلّ منه منزلة فجاءت هذه السورة للمساواة بين جميع الناس مبدأً أساسيا في التعامل بينهم، وجعلت الأفضلية في التقوى، وليست في النّسب وفي وفرة المكاسب. وخُتمت السورة بتحديد مفهوم الإيمان وواجباته نحو الله عزّ وجلّ، وفي علاقة المؤمن مع ذاته في تزكية نفسه وقلبه، وفي علاقته مع أفراد الأمّة. وعموما فإنّ هذه السورة في الأخلاق التي يجب أن يتحلّى بها كلّ مؤمن إذا صفت نفسه وزكى قلبه، وكان صادقا في إيمانه.

وتُعتبر هذه السورة أول سور "المفصّل" على أحد الأقوال في المذهب المالكي، لأنّ من بعض الأقوال أنّ أوّلها يبدأ بسورة "ق"، ووسط "المفصّل" سورة "عبس"، وقصاره يبدأ بسورة "الضحى". وجاء في ("التفسير الكبير" للفخر الرّازي ج27 ص118) في تحديد مواضيع هذه السورة قوله: "هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إمّا مع الله تعالى، أو مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، أو مع أبناء الجنس وهم على صنفين : إمّا أن يكونوا على طريقة المؤمنين، أو داخلين في رتبة الطاعة، أو خارجا عنها وهو الفاسق، والداخل في طائفتهم: السالك لطريقتهم: إمّا أن يكون حاضرا عندهم، أو غائبا عنهم، فهذه خمسة أقسام، أحدها يتعلّق بجانب الله، وثانيها بجانب الرّسول، وثالثها بجانب الفسق، ورابعها بالمؤمن الحاضر، وخامسها بالمؤمن الغائب. فذكرهم الله عزّ وجلّ في هذه السورة خمس مرّات بـ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)، وأرشدهم في كلّ مرّة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة".

وعموما فإن هذه السورة في تحديد القيم الأخلاقية والإنسانية، والقيم الدينية التي يجب أن يحافظ عليها كل مؤمن، ويراقب نفسه في حرصه على الِإلتزام بها ليكون من عباد الله المؤمنين المتقين الصادقين العاملين الصالحات.

• يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ **(1)** :

هذه الآية إلى الآية الخامسة في التأدّب مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند مناداته، ومخاطبته، وعند التّعامل معه، فهو رسول الله وليس كأحد من الرجال. وقد جاءت هذه الآي في تربية المؤمنين على التأدّب عند مناداته وخطابه لأنّه كان في العرب – وخاصة الأعراب منهم– جفاء، وفيهم الأجلاف.

وقد نزلت هذه الآي – على ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره – في جُفَاةٍ بني تميم. قَدِمَ وَفْدٌ منهم على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فدخلوا المسجد، ثمّ نادوا بأصوات مرتفعة من وراء حجرات أزواجه أن : أُخرج إلينا يا محمد..

وأمّا هذه الآية فهي في النّهي عن قطع الكلام على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واِستباق قوله في حكم شرعي، أو في فتوى، وهي كذلك في النّهي عن إبرام شيء يهمّ المسلمين دون إذن منه صلّى الله عليه وسلّم، ودون مشورته أو علمه، ولا يجب كذلك التعرّض لأقواله صلّى الله عليه وسلّم. وكلّ هذا كان عند البعض ممن كان من حوله، أو من الذين يأتونه من البادية. (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) أي يا أيّها الذين آمنوا لا تسبقوا بالقول بالرأي، أو بالفعل بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما يجب عليكم أن تعرفوا حكم الله تعالى فيه أو حكم رسوله سواء أكان في أمر من أمور الدين أو الدنيا – اِحفظوا ألسنتكم عن سبق القول على قول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، اِسمعوا قوله وإرشاده، واعملوا بما أمركم به، أو رغّبكم فيه.

ومن عجيب الأمر أنّ الاستباق بإدلاء الرأي في جملة من المسائل المعروضة على نظر أهل العلم والمشورة والخبرة في مجالس المشورة قد صار سَجِيَةً في جمْعٍ من المُتَنَطِّعين من محترفي السياسة والإعلام. تعرفهم برفع أصواتهم إذا تكلّموا. لا يتكلّم العالم الحقيقي إلاّ في سكينة ووقار وفي هدوء، كذا صوت الحكمة والعقل. ورفع الصوت من صفة المهرّج أو المشاكس، المتنطّع إذا رُدَّ عليه قوله بقول على خلاف رأيه تشنّج وهاج وماج، له في كلّ موضوع وفي كلّ علم قول. وما هذا إلاّ من صفة المغترّ الذي يحبّ أن يتظاهر بما ليس فيه. أمَا عَلِمَ أَنّ كلّ من كثُر علمُه اِزداد تواضعُه، وأنّ كلّ جاهل عدُوٌّ لِمَا جَهِلَ اِغترارا. لذا كان من الحكمة الربانية تربية المؤمنين على السمع والعلم قبل القول بالرأي بدون علم وحجّة وخاصّة إذا كانوا في حضرة العالم، أو أهل الذكر.

(وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ) وأطيعوا أمر ربّكم، ولا تعصوه خشية، فإنّ التّقي من آمن وأطاع الله ورسوله، وخشي معصيته. واعلموا أنّ الله لا يخفى عليه من أمركم شيء ممّا تقولون وممّا تعملون لأنّه عليم بما في الصدور، ولا يفوته سمع ما تجهرون به من القول أو تَسُرُّون.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ (2) :

لا ترفعوا أصواتكم عنده إذا كنتم في مجلسه، وكنتم في حضرته تأدّبا، واِحتراما لاصطفائه بالرسالة، ولمكانَتِه فيكم. (وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ) ولا تنادوه، أو تخاطبوه باسمه يا محمد أو يا أحمد، ولكن نادُوه إذا خاطبتموه بيا نبيّ الله، أو يا رسول الله توقيرا له ولرسالته وجلالة قدرِها، لا تخاطبوه كما يخاطب أحدُكم صاحبَه.

(أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ) أي من أجل أن لا تبطُلَ صالحُ أعمالكم دون أن تشعروا بغَلَطِكم. والقصد من الآية تأديب المؤمنين على تعظيم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لجلالة قدر الرّسالة التي كلّفه الله عزّ وجلّ بتبليغها لقومه، ولأنّه داع إلى صراط الله المُستقيم، وإلى دين الإسلام: دين الله تعالى الحقّ، والقصد كذلك توقير حضرته إذا حدّثهم، ذلك لأنّ حديثه من الإرشاد، أو من الموعظة، أو من السنن في الطاعة والعبادة فلا يجوز قطع الحديث عنه، أو رفع الصوت عنده، وكلّ ما يخُلُّ بمظاهر الاحترام لمنزلته فيهم، ولمنزلته عند ربّه سبحانه، ولأنّه شهيد على قومه بين يدي الله يوم الحساب. ولقد كره العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفا لهم، لأنّهم ورثة الأنبياء. والفقهاء أرشدوا المصلّين عند حضورهم صلاة الجمعة لأن ينصتوا، ومنعوا عنهم اللغو، وقالوا في حكمهم عمّن لَغَا يوم الجمعة – والإمام يخطب بأنّه لا جمعة له، أي قد ضيّع ثوابه وأجره عن حضوره خطبة الجمعة.

وليس المقصود برفع الصوت، والجهر به: الاستخفاف بالقول، أو التشويش عليه واللغط فيه، فهذا في حضرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كفر لأنّه من المشاقّة والاستهانة ومن الصدّ عن السمع له كما كان يفعل المشركون في دسّ بعضٍ من أتباعهم في مجلسه لفضّه عن الاجتماع بأصحابه.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في تفسير (أحكام القرآن) ونقله عنه تلميذه القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): "حرمة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ميّتا كحرمته حيًّا، وكلامه المأثور بعد موته في الرِّفْعَة مثالُ كلامه المسموع من لَفْظِهِ، فَإذا قُرِئَ كلامُه وجب على كلّ حاضرٍ ألاَّ يرفَعَ صوتَه عليه، ولا يَعْرِض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلَفُّظِهِ بِهِ" (ج.16 ص307).

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ (3) :

لمّا جاء في الآية السابقة النّهي عن رفع الصوت في حضرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم تأدّبا، جاءت هذه في توجيه المؤمنين لخفض الصوت إذا اِسترشدوه في مسائلهم وحين يحدّثونه، وهذا لرفع الحرج عنه حتى لا يمتنعوا عن التحدّث إليه مخافة الوقوع في الخطإ دون أن يشعروا.



ومعنى الآية: إنّ الذين يخفّضون أصواتهم عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا تكلّموا معه، أو إذا سألوه في مسائلهم إجلالا له، أولئك الذين طهّر الله تعالى قلوبهم من كلّ قبيح، وجعل فيها الخوف منه تعالى حابسا لهم من الوقوع في الخطإ أو الزلّة، وجعلها خالصة صادقة في تقواها. وأولئك الذين يبشّرهم ربّهم بمغفرته، ودخول جنّة النّعيم والرضوان.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (4) :

إنّ الذين نَادَوْك عند باب بيتك من خارج حجرات زوجاتك: "يا محمد أُخرج لنا"، أكثرهم جهّال بآداب مخاطبة رسول الله، ولا يعرفون حقّه في التّوقير. هؤلاء القوم –في رواية– كانوا تسعة عشر من بني تميم أتوْا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي كان نائما في القائلة في بيته، فجعلوا ينادونه: يا محمد، يا محمد، أُخرج إلينا، وكانوا جُفَاةً من جملة قوم الغالب عليهم الجهل بأدب الخطاب، وباحترام البيوت...

- وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (5) :

أي ولو أنّهم اِنتظروا في المسجد زمنا قليلا حتى تخرج من بيتك لكان خيرا لهم لدينهم ودنياهم، ولكان أصلح لهم في خُلُقِهم، وفي أدبهم مع من كان في بيته في قيلولته، غفر الله لهم لأنّه تعالى كثير المغفرة بعباده، ورحيم بهم عساهم يرشدون لما فيه صلاحهم.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ (6) :

هذه مع الآيتين المواليتين في التأكيد على ما جاء في الآية الأولى من النّهي عن اِستباق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بقضاء أمر والتعجّل في المُضِي فيه قبل إخباره صلّى الله عليه وسلّم بذلك الأمر، واِستشارته فيما يجب فعله، وجاءت هذه الآيات في إيضاح سبب هذا النّهي وتعليله، وذلك لأنّ من الأخبار التي تبلغهم أخبارا كاذبة الغرض منها إيقاع المؤمنين في مأزق وأخطاء وخديعة ماكرة. لذلك لابدّ من الحذر من كلّ خبر يبلغهم إذا جاءهم من فاسق لا يُؤْمَنُ جانبُه، وهذا بالتثبّت في مصدره، وفي صدقه، وحقيقته تجنّبا للإيقاع بهم فيما يكرهون، وفيما يندمون فيه على التعجّل في اِتّخاذ أمر مهمّ قائم على كذبة فاسق فيلحقهم عار الهزءِ بهم. ومعنى الآية: يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم من لا تثقون بصدقه، أو كنتم تجهلون عدالته في نقل الخبر، فتثبّتوا من صحة ما يبلغكم من الأخبار المثيرة لتتأكّدوا من صحّتها أو تكشفوا زَيْفَها، وذلك حتى لا تنخدعوا بافتراء ذاك الفاسق فتؤذوا قوما بالظنّ، وهم أبرياء ممّا اتّهموا به، ودُعِيَ عليهم به وهم غافلون، وحين تتبيّن حقيقة انخداعكم بقول فاسق يلحقكم العار والنّدم، والعدول

الحكماء لا يقرّون أمرا يمضون في تنفيذه وتحقيقه أو الحكم فيه إلاّ بعد التثبّت من صدق ما يبلغهم من قول أو خبر أو اِدعاء وتهمة.

- ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (7) فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (8)﴾ :

الخطاب في(وَٱعۡلَمُوٓاْ) للذين يقدّمون قولا وفعلا بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أمر من أمور الدين أو قضايا المسلمين الدنيوية والرّسول صلّى الله عليه وسلّم حاضر فيهم، أو بدون إعلامه ومشورته وأخذ رأيه إن لم يكن فيهم. وصيغة الفعل تُفيد في هذه الآية: التّنبيه والتّحذير، وذلك لأنّ في مجتمع المؤمنين الفاسق الذي لا يريد بهم خيرا، وإنّما يسعى في بعضهم بكيده ليفتتن جموعهم، أو ليوقعهم في خديعة وفخّ من فخاخه، ومادام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بين ظهرانيهم فإنّ الفاسقين لن يبلغوا بكيدهم ما يريدون لأنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم ملهم، والوحي يوجّهه للتي هي أحسن، ويفضح له ما خفي على المؤمنين ما كان يُدَبَّر لهم في الخفاء من مكائد. لذا وجب على المؤمنين مادام فيهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن لا يبادروا بقول أو فعل في أمر من أمور الدين والدنيا بدون إذنه ودون علمه حتى يسمعوا منه رأيه وإرشاده، ثمّ عليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به، وإن كان إرشاده غير موافق لرغبتهم وتَوَجُّهِهِم ولرأيهم. ومن بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعلى المؤمنين أن يتثبّتوا من كلّ خبر يبلغهم حتى لا يأخذوا غيرهم بالظنّ، وحتى لا يقعوا في خديعة الخادع الماكر الذي يريد بهم كيدا أو فتنة. ولقد رأينا في عصرنا الحاضر بلدا عظيما من بلداننا الإسلامية يُدمّر، ويُخرّب، ويُقَتَّلُ فيه ناسُه تقتيلا جماعيا بوحشية وعلى حين غرّة بليلٍ بسبب كذبة أشاعها عنه فاسقون كاذبون هم أعداءٌ لهذا البلد، وأصحاب مطامع في خيراته فقالوا فيه بأنّه تُصَنَّعُ فيه الأسلحة الكيمياوية الجرثومية الخطيرة والفتّاكة بأرواح العباد والمهدّدة باستقرار العالم، فانخدع لهذه الكذبة من كان في قلبه مرض على زعماء هذا البلد ممن هم على ملّته ومن بني جنسه فساندوا الفاسقين ومضوا للفتك بإخوانهم.

وفي عهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يرض جماعة من مرافقيه في "الحديبية" بالصلح، واعترضوا عنه، ولكن أمضاه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ثمّ نزل الوحي بالرضى به، وبشّر المسلمين بفتوحات من بعده وبإظهار الدين على دين الشّرك.

في هذه الآية توجيه للمؤمنين ليطيعوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيما يأمر به، ويرشد إليه. وليعلموا أنّ الله سبحانه أنقذهم من الوقوع في الإثم، وسلّمهم منه. ولقد سعى الوليد بن عُقبة في قوم لو تسارع الذين صدّقوه إلى ما أراد من القتال لعداوة كانت بينه وبينهم لوقعوا في إثم كبير

وخطإ جسيم دون أن يتّضح لهم حقيقة الأمر. ولقد حبّب الله جلّ وعلا الإيمان للمؤمنين المخلصين الذين يخبرون النّبي صلّى الله عليه وسلّم بما يَبْلُغهم من الخبر وكانوا يصدقون في إخباره، وكانوا يمتثلون لأمره ويخلصون فيه، (وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ) أي حسّن لكم في قرارة أنفسكم الرضى بما قضى الله تعالى ورسوله، ووفّقكم للعمل بما أمرتم به. (وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ) وبمثل ما حبّب الله تعالى إليكم الإيمان فقد كرّه إليكم بحسن عنايته وبرحمته كلّ خروج عن الطاعة، وكرّه إليكم جميع المعاصي ونفّركم منها. وإنّ هؤلاء الذين وفّقهم لصدق الإيمان والإخلاص فيه، وقبّح إليهم المعاصي والخروج عن الطاعات لله تعالى ورسوله هم أهل الرّشد، وأهل الاِستقامة، وهم ذوو الألباب.

وما هذا الرّشد واِكتمال العقل بالاستقامة على الدين وعلى الطاعات وعلى حسن الخلق إلاّ من فِعْلِ الله عزّ وجلّ تفضّلا منه تعالى، ومِنَّةَ منه جلّ وعلا، ونِعمة، والله عزّ وجلّ عليم بما يصلح لعباده، وحكيم في تدبير الأمر ليكونوا على الصراط المستقيم الذي يرتضيه لكم.

وهذه الآيات في إرشاد المؤمنين للتثبّت من كلّ خبر، ولئلاّ يصدّقوا بكلّ ما يبلغهم من قول قد يستفزّهم للقيام بأعمال تجرّ لهم الخيبة والعار والنّدم والإثم، وهذا إرشاد من العليم الحكيم لحفظ المؤمنين من تصديق من يتبيّن لهم فسقُه، فإنّ الفاسق لا يرجو للمؤمنين خيرا، إنّه لا يسعى فيهم إلاّ بِالوقيعة وبالكيد. وما أكثر ما يحدث فينا من إشاعات واِفتراءات تزعج النّاس أو تحيّرهم أو تفتري على بعضهم بما يسيءُ إلى دينه باتّهامه بالكفر، أو إلى شرفه أو شرفها بالطعن فيه، أو باتّهامه بالاختلاس أو الفساد، أو التآمر على أمن الدولة وأمن العباد، وذلك عبر وسائل الاتّصال الاجتماعي أو بعض وسائل الإعلام غير النّزيهة، فَعَلَى المؤمن ألاّ يصدّق بما يسمع أو بما يبلغه عبر وسائل التواصل الاجتماعي حتى يتبيّن الحقّ من الباطل، وقال تعالى في صفات المؤمنين : (وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ)(المؤمنون الآية3)

- **وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ (9) إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (10) :**

الآيتان في تقرير مبدإ الإخاء، أو المؤاخاة، أو التأَخّي بين المؤمنين المسلمين. وتفرض الآية الأولى على المؤمنين المتجاورين أن يسعوا بين المتخاصمين منهم بالصلح القائم على العدل، وإيتاء كلّ ذي حقّ حقّه بالقسط، فإن بغت فئة على أخرى عدوانا وظلما وقاتلت على ذلك وجب على المؤمنين أن يردّوا على المظلومين العدوان بالقوة إن لزم الأمر، لأنّ الدين الإسلامي دين العدل، ودين الأخوة وإفشاء السلام ليأمن المؤمنون على أرواحهم وأرزاقهم.

والمعنى: وإذا إحتدّ خلاف بين فريقين من المؤمنين حتّى بلغ بهما إلى الإقتتال فعلى المؤمنين القريبين منهم أن يسعوا بينهم بالصلح ليخمدوا فيهم فتنتهم بالعدل، وليؤاخوا بينهم، ويردّوهم للرّشاد ولما كان بينهم من مؤاخاة فرضها عليهم دينهم، فإذا تجاوز أحد الفريقين الحدّ في العدوان، ورفضوا الاستجابة للاحتكام للعدل وللصلح، ولما رغّب فيه هذا الدين من إفشاء السلام، والتعامل بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، فعلى المؤمنين أن ينصروا المظلومين بمقاتلة المعتدين الجائرين الظالمين حتى يرجعوا عن الظلم والعدوان، ويحتكموا للعدل والصلح، فإن توقّف الاقتتال بين الفريقين وألقوا السلاح فعلى أهل الحكمة والعدالة من المؤمنين أن يصلحوا بينهم بالعدل وذلك بإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وهذا هو القسط في الحكم، وهذا للفصل بينهم بالعدل وردّ الحقّ لصاحبه، وبهذا تُخمد الفتنة ويُقْضَى على أسباب الخلاف والنّزاع، ولردّ الظلم عن المظلوم، ولنشر السلام وأسباب التعايش في المؤمنين، وللقضاء على عناصر الفوضى فيهم. إنّ الله سبحانه يحبّ أهل العدالة وأهل الرشاد الذين يفصلون بين المتخاصمين بالعدل، وبردّ الحقّ لصاحبه من أجل القضاء على جميع أسباب الخلاف والفتنة في أهليهم المؤمنين تثبيتا لوحدتهم، ولتآخيهم، ولسلامتهم من كلّ فتنة وأذى.

والحصر في الآية الثانية (إِنَّمَا....) يفيد تقرير وجوب الأخوة الإيمانية، ووجوب المحافظة عليها، والحرص عليها ممّا يجعلها قيمة أساسية من قيم هذا الدين الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، ولذلك فإنّ هذا الدين هو دين الإخاء أو المؤاخاة أو التأخّي وهي بمعنى واحد إلى جانب القيم الأخرى النبيلة والإنسانية الفاضلة المتعدّدة وهذا ممّا يجب أن يكون معلوما بالضرورة. وفي القرآن الكريم آيات تدلّ على أنّ المؤمنين إخوة وإن لم يجمعهم مكان، وحتى الزّمان مهما تباعد، من ذلك قوله عزّ وجلّ (يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(الحشر الآية 10) ولقد كان من أول أعمال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عند هجرته للمدينة أن آخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين الأنصار أنفسهم : بين طائفتي الأوس والخزرج، وقد جاء في الحديث الشريف المتفق عليه: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله(..أوْ قال : لا يُسْلِمُه)، ومن حديثه صلّى الله عليه وسلّم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه..." وإذا ظهرت بوادر الاختلاف بين الأخوين، وبدأ يقوى هذا الاختلاف فعلى الصحبة من حولهما أن يسعوا بالصلح بينهما، وهو أمر واجب لقوله تعالى (فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) ويتأكّد العمل بهذا الأمر بقوله تعالى (وَٱتَّقُواْ)، ورغّب فيه تعالى بقوله سبحانه (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) فالإصلاح بين الأخوة لفضّ النّزاع بينهم ولتوثيق الصلة بينهم تجلب رحمة الله عزّ وجلّ.

• يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ **(11) :**

هذه الآية مع الآية الموالية في النّهي عن جملة من رذائل السلوك المنافي لخلق التّآخي، والمفسد للعلاقات الاجتماعية الحميمية، والمضرّ بالصِلَة، ولا تدلّ هذه الرذائل إلاّ على سوء الطبع وسوء الخُلق، وسوء التربية، وهذه الرذائل ليست من خلق المتقين والعاملين الصالحات، ولذا وجب الحذر منها، ووجب حفظ اللسان، وحفظ النّفس من الجرّ إليها أو مجالسة من لا يصون نفسه عنها. والمعنى: يا أيّها الذين آمنوا لا يهزأ أحد منكم بآخر عسى أن يكون الذي يهزأ به خيرًا منه في دينه وخلقه وسلوكه وتقواه، وأفضل منه شرفا في عمله وفي منزلته عند ربّه. ولا يجوز لأيّ اِمرأة أن تهزأ بأختها المؤمنة، وأن تجترئ عليها إذا رأت رثَّ حالها في لباسها، أو تُعَيِّرها لعَيْبٍ في خلقتها، أو لعاهة في بدنها، أو للكُنَةٍ في لسانها فقد تكون تلك التي هزأت بها أو عيّرتها خيرا منها في نقاوة قلبها، وصفاء إيمانها وتقواها وطاعتها لله تعالى ولحسن عنايتها بأهل بيتها. ولقد جاء على لسان عبد الله بن مسعود قوله: "البلاء مُوكَّل بالقول، لو سخرتُ من كلبٍ لخشيتُ أن أُحَوَّلَ كلبا". وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "إنّ الله لا ينظر إلى صوَركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

ومن الخُلقِ الذّمِيم: اللَّمْزُ لقوله تعالى (وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ). واللمز هو ذكر الغير بعيبٍ فيه عند غيبته، فإن حضر أشار إليه بعَيْبِه بَشَفَتَيه، وبكلام خفِي، وهو من خلق من يحتقر غيره بعَيْبٍ فيه، ومن خلق التكبّر. وقد توعّد الله عزّ وجلّ الهمّاز الذي يشير للذي يحتقره بإشارة من عينه أو بيده وتوعَّدَ اللمّاز بالويل في قوله عزّ وجلّ (وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ)(الهمزة الآية 1) وهذا الخلق يكثر في النساء أكثر منه في الرجال، وهو أمرٌ معيب في كلا الجنسين.

(وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ) ويكثر هذا الخلق في أوساط الرجال، ومعناه مناداة الأخ المؤمن بلقب مُسْتَكرهٍ لنبزه، أو بما يدلّ على التّحقير، وهذا النَّبْزُ ممّا يفسد علاقة الأفراد ويُنَفِّرُهُم من بعض، والدّينُ يحبّ للمؤمنين أن يحبّوا بعضهم وأن يحترم كلّ واحد منهم الآخر لتتّحد صفوفهم وليتآزروا زمن الشدّة، أو اِنقلاب الحال. فكم من إنسان أُحتُقِرَ لفقره أو لدمامة خلقه غدا بعد عُمُرٍ شريفا في قومه لعلمه، أو لشرف أبنائه وعلوّ قدرهم في العلم أو الجاه، وتحوّل من بعد فقره منبسطا في رزقه وحاله، وكم من غنيّ مستكبر غدَا بعد مرضه أو بعد إفلاسه يضرب به المثل في ضياع ثروته وفي فشله في كسبه، أو صار محلّ اِستعطاف ممن كان عاملا عنده. فالأيّام دُوَلٌ.

(بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ) أي ما أقبح إِسم التّعيير، وهذا من الإثم بعد اسم الإيمان من مثل إِسم من أسماء الأنبياء والرسل أو إِسم من أسماء العبادلة.

(وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) والمطلوب من المؤمنين والمؤمنات أن يقلعوا عن هذه السلوكيات الذميمة التي تفسد العلاقة بين المؤمنين، وهي تتنافى مع خلق الأخوة.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ (12) :

لئن كانت الآية السابقة في ذمّ بعض السلوكيات في التّعامل مع الآخر في حضوره، إلاّ أنّ هذه في ذمّ سلوكيات أخرى في ذكر بعض الإخوان في غيبتهم بما يسيء إليهم بالذكر بالطعن، وإساءة الظنّ فيهم، وبتتبّعهم خفية، وليس هذا من خلق النّبلاء والكرام، وليس هذا ممّا يوحّد الصفوف.

والمعنى: يا أيّها الذين آمنوا لا تسيئوا الظنّ بإخوانكم بشكوكم وبالريبة في نواياهم من غير دليل وبغير حجّة ثابتة. أحسنوا الظنّ بإخوانكم وخاصّة من أهل النوايا الحسنة. ليس من شيء أفسد لحسن الصلة بينكم ولحسن خلقكم، وحسن صداقاتكم من إساءة الظنّ في بعضكم، واتّهامهم في نواياهم، فهل علمتم بما في صدورهم. اجتنبوا الوقوع في الاثم بإساءة الظنّ في أهل الخير خاصّة، وبالشكّ في نواياهم. وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: "إيّاكم والظنّ، فإنّ الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تحسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا –عباد الله– إخوانا، ولا يخطب الرّجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك". وقد ذكره "مالك" في "الموطإ" بما يشهد على صحة هذا الحديث صحةً لا يداخلها شكّ كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي. ومعنى أكذب الحديث: حديث النّفس. قال الغزالي: "من مكائد الشيطان سوء الظنّ بالمسلمين" (انظر فيض القدير للمناوي، مجلد3 ص122 الحديث عدد 2901) وعموما فإنّ كلّ ظنّ من حديث النّفس، ومن التّخمين، وبغير دليل وأمارة فإنّه إثم.

ومن الخُلق الذميم الذي نهى الله تعالى عنه "التّجسّس"، وقد نهى عنه كذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الحديث السابق، وذلك لأنّه من اللؤم. والتجسّس هو تتبّع شؤون النّاس الخاصة، وهذا من الفُضول، وهو كذلك البحث عن أسرار الغير للحديث بها لَغْوًا، أو لإثارة الفتنة بين من تجسّس عليه والمتكلّم فيه. وهذا من تتبّع عورات النّاس بالبحث فيما يكتم عنه أو يُسَرُّ به.

(وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ) ونهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية عن "الغيبة" التي تعني ذكر الغير في غيابه بما يكره أن يسمعه منه في حضوره، ولا يكون هذا الذكر إلاّ بما يسوء أخاه المؤمن، وبما يسيء إلى سمعته في الجمع الذي يذكر فيه في غيبته، وبما يفسد علاقة الجمع



به، وبما يجعلهم يسيئون به الظنّ. ولا يكون المغتاب إلاّ باغضا لمن يغتابه، أو حاسدا له، والمؤمن الحقيقي نقي القلب لا يعرف حسدا ولا بُغْضًا.

(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) هذه الصورة لتشبيه الغيبة، وهي صورة لبيان بشاعة الغيبة ورذالتِها، ولتقبيح الفعل للتأكيد على النّهي عن هذا السلوك، فإنّ مثل المغتاب كمثل الذي يأكل لحم أخيه ميّتا ويمضغه وهو يكرهه. (فَكَرِهْتُمُوهُ) فإنّ هذا الأكل هو ممّا تعافه النّفس وتكرهه، كذلك الغيبة هي ممّا يكرهه الخلق جميعهم لأنّه من سوء الطبع وأحقره.

(وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) فهذا الأمر بتقوى الله تعالى هو للتّرغيب في الحذر من هذه الرذائل، ولينتهي عنها من كانت فيه صفة من هذه الصفات، ولْيذكُرْ بأنّ الله عزّ وجلّ (تَوَّابٌ) لمن أناب إليه، وسارع بالإقلاع عمّا كان فيه من خلقٍ ذميم، وتاب منه ولم يعُدْ إليه، وزكّى قلبه ونفسه ممّا نهى الله تعالى عنه. وإنّه تعالى كثير الرحمة بعباده التّائبين، يقابل توبة عبده بالمغفرة، ويهديه لما يُصلح شأنه برحمته تعالى.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ(13) :

توجّه الخطاب في الآيات السابقة للمؤمنين خاصّة لتأديبهم على حسن المعاملة فيما بينهم على أساس الأخوة الإيمانية بما يقوّي صلتهم ببعض، وبما يمثّل اِحترامهم لبعض، وبما يعزّز أواصر التعاون والتحابب والتآزر لتتحدّ صفّهم، وبما يحفظهم من سوء الطبع، ومن التباغض والتحاسد، ومن كلّ ما يفسد علاقتهم ببعض ليكونوا في محيطهم البشري سعداء بلقاء بعضهم وبجوارهم وصلات القربى، فجعل تعالى من هذا الإرشاد هذا الدين دين الإخاء ودين المحبّة، ودين الصلة، ودين الأخلاق الفاضلة السامية. وتوجّهُ الخطاب في هذه الآية للنّاس كافّة يشهد لهذا الدين بأنّه دين للنّاس كافّة وأنّه دين الأخلاق الإنسانية ، فيما يرغّب فيه من خُلقٍ للتّعامل مع النّاس كافّة: مسلمين ومؤمنين أو غير مسلمين ومؤمنين، بيضا أو سودا أو حمرا، ذكورا وإناثا دون تفرقة بين الأجناس والألوان والمعتقدات والأنساب.

وفي قوله تعالى (إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ) دليل على أنّ خلق جنس الإنسان هو من تقدير الله وحده. فمن لم يُسَرَّ بالمولودة الأنثى لحُبِّه للذكر فهو قليل الوعي بأنّ الخلق هو من تقدير الله عزّ وجلّ. وقد جعل تعالى هذا الأمر بيده ليخلق به التوازن في الخلق. لذا فإنّ المفاضلة بين الجنسين غير جائزة. وبالذكور والإناث معا يتكاثر النّاس فيكوّنون القبائل والشعوب وتترابط المجموعات البشرية بالنَّسَب والمصاهرة. وإنّ هذه الجموع البشرية سواء أكانت منتظمة في أنظمة قبلية أم في أنظمة شعبية مكتوب عليهم أن يتعارفوا ليتواصلوا وليتبادلوا منافعهم، وإن اِختلفت



ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم ودياناتهم ومهما تباعدت أقطارهم، ذلك لأنّ مواهبهم مختلفة ومهاراتهم متنوّعة وصنائعهم وابتكاراتهم في فلاحتهم وإقام بناياتهم وفي صنائعهم متنوعة فلزمهم تبادل الخبرات والانتفاع بالمهارات لتطوير أنماط حياتهم وألوان طعامهم وتبادل تجاراتهم. فالناس جميعهم خلق الله عزّ وجلّ، وقد اِستخلفوا في الأرض إلى حين و"الإنسان مدَنِيٌّ بطبعه"، واختلافهم هذا من تنوّع الخلق، ولا أفضلية لقوم على قوم، أو لإنسان على إنسان، أو لجنس على جنس عند الله تعالى إلاّ بدرجة تقواه. على قدر تقوى الإنسان – سواء أكان ذكرا أم كان أنثى – يكون مكرّما عند ربّه. "وفي هذا فليتنافس المتنافسون". إن الله تعالى عليم بما في صدور عباده من عمق الإيمان أو ضعفه، ومن مدى خشيته من ربّه ودرجة رجائه منه تعالى. والله تعالى مطلع على عمل كلّ إنسان، ويعرف حقّ المعرفة ما هم عليه من تزكية نفوسهم وقلوبهم.

- ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ **(14)** :

هذه الآية إلى آخر السورة في التّوجيه للإيمان الحقيقي الصادق الذي يخلو من الريبة، والذي لا يكون فيه مَنٌّ بالإسلام. وقد نزلت في قبائل من البدو: أعراب من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سنة جدباء، أظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في سرّهم، فقالوا له: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنّون عليه بإسلامهم. وعموما فإنّ الآيات في تصحيح المعتقد ليكون راسخا في القلب ويكون عن قناعة.

والمعنى: قال البدوُ قد صدّقنا بما جئت به يا رسول الله، قل لهؤلاء : لم تؤمنوا حقّا وصدقا بما يجب عليكم الإيمان به، ولكن قولوا: إنّا منقادون ظاهرا لما أمرتنا به، وأسلمنا أنفسنا لهذه الأوامر، فإنّ الإيمان بالتّوحيد وبالرسالة وبالطاعات لم يَنفذ بعدُ لقلوبكم، ولم توقنوا به حقّ اليقين. وإن تطيعوا الله تعالى في ما يأمركم به، وتطيعوا رسوله فيما يرغّبكم فيه وإلى ما يدعوكم إليه وفيما يحذّركم منه فإنّه لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئا، وإنّ الله سبحانه كثير المغفرة لعباده المنيبين التائبين، وكثير الرحمة بهم لا يعذّبهم عمّا سلف منهم من المعاصي إذا أقلعوا عنها، ورجعوا إلى ربّهم بالطاعات.

- ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ **(15)** :

هذه في صفة المؤمنين الصادقين الذين زكّت نفوسهم وقلوبهم فتطهّرت من الشّرك ومن الشكّ في ما جاءهم من عند ربّهم عن طريق رسوله، وجسّموا صدقهم في إيمانهم بأعمالهم



الصالحة من أعمال الطاعات وفي اِستجابتهم لما يدعوهم إليه رسولهم صلّى الله عليه وسلّم. آمنوا بالله وحده وصدّقوا بتنزيهه عن الندّ والشريك والصاحبة والولد، ولم يعبدوا غيره، ولم يدعوا أحدا غيره. وهم الذين صدّقوا بمحمّد نبيّا ورسولا فاتّبعوه ولم يشاقّوه، واِستجابوا لما دعاهم إليه. وهم الذين بلغ بهم عمق الإيمان فلم يشكّوا في شيء ممّا يبلّغهم به رسولهم عن الله عزّ وجلّ. ثمّ إنّهم لم يبخلوا بأموالهم وبأنفسهم في الخروج مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للجهاد في سبيل الله نصرةً لدينه، وذوْدًا عنه من الأعادي. هؤلاء هم الصادقون في إيمانهم الذين تصدّق أعمالهم عمّا وقَرَ في قلوبهم.

- قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ(16) :

قل لهم يا رسول الله: أتُخْبرون الله تعالى بإيمانكم؟ وهو سبحانه العليم الذي لا يخفى عليه شيء ممّا يجري في السماوات، وما يجري في الأرض، والذي أحاط بكلّ شيء علما، فلا يفوته شيء من أمر خلقه! فالاستفهام في الآية للاستغراب الذي يبلغ درجة التّوبيخ، فلو كان لهؤلاء علم يقيني بأنّ الله سبحانه عليم بذات الصدور ما كانوا يصرّحون للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأنّهم مؤمنون، ويمُنُّون عليه بإيمانهم ليعطيهم من الصدقات، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

- يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (17) :

هذه في الردّ على الذين جاؤوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يقولون له: لم نقاتلكم كما قاتلكم بنو فلان وفلان، وأنّهم قد جاؤوه مسلمين ونطقوا بالشهادتين، وما كانوا صادقين في إسلامهم، وإنما جاؤوه طامعين في الصدقات وجاؤوه ومعهم عيالهم للاستعطاف فقالوا: "أتيناك بالأثقال والعيال". قل لهم يا رسول الله (لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ) أي بل إنّ المنّة لله إذ هداكم للإيمان، فالهداية للإيمان من فضل الله تعالى على عبده. قال تعالى (وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ)(الأعراف الآية 43)، فالمؤمن الصادق إذا ذكر إيمانه فإنّه لا يتحدّث به إلاّ بحمد ربّه إذ هداه للإيمان. والهداية للإيمان هي من هدى الله ومن فضله تعالى عليه.

- إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (18) :

في آخر السورة يذكّر الله عزّ وجلّ عباده جميعهم بأنّه لا يخفى عليه شيءٌ ممّا يجري في السماوات والأرض مهما دقَّ وخفي، والله مطّلع على جميع أفعال عباده و مُجازيهم عليها، وهذا لمراقبة الله سبحانه في كلّ طاعة، وفي كلّ عمل.

وكذا تختم السورة بهذا التّذكير لمزيد مراقبة النّفس وللتزوّد بالتّقوى والعمل الصالح للنّجاة يوم الحساب من المؤاخذة. وهكذا يتبيّن لمن يتدبّر هذه السورة بحسن النّظر وبعقلانية بأنّها سورة التّأديب على حسن الخلق في المجالس العلمية، وعلى ضرورة المحافظة على رباط التّآخي بين المؤمنين ووَأْدِ الفِتن العاصفة بالأُخوة، وعلى اِحترام الآخر في حضوره، وحفظ اللسان عن الإساءة إليه في غيبته. وفي هذه السورة إرشاد للحرص على التّعارف والتّعامل مع المجتمع البشري المختلف في الدين واللسان والعادات وِفق مبدإ الاحترام وتبادل المنافع دون تمييز أو اِحتقار، فالجميع من آدم، وآدم من تراب، وخُتمت السورة بما سبق ذكره، فهي سورة تأديب المؤمنين على الأخلاق الفاضلة السامية وعلى الأخلاق الإنسانية وعلى صفاء النّفس ونقاوة القلب وحسن السلوك وصدق الإيمان مع حفظ اللسان واليد الجارحة ليكون المؤمن في إيمانه وفي سلوكه مع الآخر مثالا وقدوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وليكون هذا المؤمن حقيقا بالتكريم يوم لقائه لربّه. نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.

رقمها	ســــورة ق ــــ مكيـة ــــ	آياتها
50		45

سمّيت هذه السّورة باسم الحرف الممدود الّذي اُفتتحت به (قافْ)، وهي سورة مكية في 45 آية. ومواضيعها في تركيز العقيدة الإسلامية كشأن السور المكية عموما. جاءت بموجب التّصديق بالقرآن وبما جاء فيه من الإيمان بالبعث، وبالحساب، وذكّرت بمظاهِر شاهدة على عظيم القدرة الربانية لرفع اللبس عن الإيمان بالخلق الجديد والبعث. وجاء فيها وعد ووعيد للترغيب وللترهيب، وختمت السورة بالتذكير بالقرآن لمن كان له قلب والقى السمع.

- قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ (1) :

هذه الآية في القسم بالقرآن المجيد للتّأكيد على ما سيأتي في الآيتين المواليتين من أنّ الذي أنذر به المنذر من خبر البعث بأنّه أمر واقع. والحرف (قٓ) الممدود الذي اُفتتحت به السورة لا يعلم سرّه إلاّ الله عزّ وجلّ. وأمّا (الواو) فهو للقسم بالقرآن: كتاب الله المنزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي فيه رسالته سبحانه للنّاس كافّة فيهديهم به إلى الدين القيّم وصراطه المستقيم: الإسلام، ويرشدهم للعمل الصالح في العبادات والمعاملات والأخلاق ليحظوا برحمته وكريم فضله يوم رجوعهم إليه تعالى للحساب. وقد وصفه الله تعالى بأنّه مجيد. والمجد هو الشرف الرّفيع وعلوّ المنزلة. وجواب القسم مُضَمَّنٌ في الآيات الموالية في كلّ السورة، وهو أنّ الخلق جميعهم سيُبعثون للحساب، ويخلقون بعد مماتهم خلقا جديدا، أو قد يكون تقديره: والقرآن المجيد إنّه لتنزيل من ربّ العالمين.

- بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ (2) :

(بَلۡ) هنا للتعدية لموضوع آخر، بمعنى: دَعْ هذا، وتأمّل في عجيب أمرهم. لمّا جاءهم رسول من عند الله تعالى وهو واحد منهم يعرفون صدقه وأمانته، ولمّا أخبرهم بأمر البعث بعد الممات قال المكذّبون به وبرسالته وبالقرآن وبوحدانية ربّهم: هذا الخبر الذي جئتَ به شيء عجيب لا يُصدّق.

- أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ (3) :

قالوا : أبعد مماتنا، وبعد تحوّل أجسادنا إلى تراب مدفون في باطن الأرض نرجع للحياة؟ هذا أمر لا يمكن حصوله، وغير كائن، وهو أمر مستبعد.



والاستفهام يُفيد عندهم الاستحالة. وهذا الشكّ الذي يبلغ درجة التكذيب بالبعث لا يجعل صاحبه مؤمنا.

- قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ (4) :

هذه مع الآية الموالية في الردّ على أولئك المكذّبين بإحياء الموتى. يخبرهم الله تعالى بأنّه عليم بما تأكل الأرض من أجسادهم بعد موتهم، وما يندثر، وعند الله عزّ وجلّ سِجِلٌّ لا يزول منه ما يكتب فيه من ضياع واِندثار، ولا يتغيّر، فيه إحصاء لكلّ شيء ولا يفرّط في كلّ صغيرة وكبيرة ممّا يجري في السماوات وفي الأرض، وممّا يعتقده كل إنسان، وممّا يعمل من خير أو من شرّ.

- بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ (5) :

بل كذّبوا بالقرآن وبما جاء فيه من بلاغ ووعظ وإرشاد ومن تصحيح للمعتقد، وكذّبوا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبما جاءهم به من دعوة للإسلام، ونبذ الشّرك، والحذر من يوم الحساب بعد البعث، كذّبوا بكلّ ما جاءهم من البلاغ فهم في قلق واِضطراب واِلتباس منه، وفي خلط من التصديق برسولهم، يتّهمونه مرّة بالساحر، ومرّة بالكاهن، ومرّة بالشاعر.

- أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ (6) :

هذه إلى الآية 11 في الاستدلال بمظاهر من قدرة الله تعالى العظيمة لإثبات قدرته عزّ وجلّ على إعادة الحياة للأموات وإخراجهم من قبورهم لبَعْثِهم للحساب. و(النّظر) المشار إليه في هذه الآية هو التّفكّر، والتّبصّر والاعتبار للاقتناع وإدراك ما يجب على الإنسان علمُه لفتح بصيرته على حقائق الأمر ليرفع عنه اللُّبس والاضطراب. ومعنى الآية: أفلا ينظر هؤلاء المشكّكون في قدرة الله عزّ وجلّ في إحياء الموتى إلى السماء التي فوق رؤوسهم كيف أُقيمت رفيعة وكيف زُيّنت بالكواكب والنجوم، وليس فيها فُتوق ولا شقوق من بديع الصنع وعظيم القدرة ليعلموا أنّ خالق السماء التي فوقهم لا يعجزه إعادة الحياة لمن مات وإن اندثر في التّراب، ولتتقبّل أفهامهم بعثهم بعد موتهم. والاستفهام في هذه الآية للإرشاد.

- وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ (7) :

ولينظروا في الأرض التي يقيمون عليها كيف مهّدها الله تعالى بعظيم قدرته وبحكمته في الخلق والتدبير وبسطها لهم للاستقرار عليها، وغرس فيها جبالا ثوابت حتى لا تميل بهم، ثمّ أخرج منها من كلّ نوع ومن كلّ صنف من النبات والشّجر والثمر والحبّ والخضر حسن المنظر وجميل لطعامهم وظلّهم وزينتهم ولمنافع أخرى، فيعرفوا من خلق الأرض وبسطها وممّا عليها وممّا يخرج منها أنّ الله سبحانه على كلّ شيء قدير، فقد أخرج من التراب الحبّ والثمر والعشب

والشجر لهم ولدوابّهم رحمة من الله عزّ وجلّ ليأكلوا منها ما يقتاتون به ليحيوا، ولو مادت بهم الأرض أو مالت لهلكوا، أفليس الله بقادر على أن يحيي الموتى؟

- تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ (8) :

ندعوكم للنّظر لهذه المخلوقات العظيمة وما فيها من خصائص بالعقل وبعين التأمّل والبصيرة تنبيها على عظيم القدرة ولإعمال العقل وللتفكّر ليعلم بها أنّ الله الخالق لا يعجزه أن يردّ المخلوق بعد فنائه لخلقه من بعده فيرجع بذلك العبد إلى الله بالتوبة عن غفلته، وبالاستغفار عن شكّه في قدرته تعالى، وليؤمن بكمال قدرة ربّه عزّ وجلّ.

- وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ (9) :

ومن قدرته تعالى وحسن تقديره لإطعام أهل الأرض من الإنس والدواب ولسقيهم وشرابهم أنّه سبحانه أنزل من السحب التي يجريها حول الأرض ماءً كثير البركة لينبت الشجر في البساتين وحبّ النبت الذي يحصد في الحقول والمزارع.

- وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ (10) :

وأنبت به النخل بالواحات، نخلا مستقيما في الطول، ويخرج منه (طَلۡعٌ) هو ثمر النّخل، وهي الشماريخ التي تحمل البلح والتمر بجميع أصنافه وأنواعه، ثمر (نَّضِيدٌ) أي منضود في أكمامه بعضه على بعض.

- رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ (11) :

وجعلنا كلّ ما يخرج من الأرض من الحبّ والثمر والتمر ومن النبات بما سقيناه بالماء المبارك النازل من السماء طعاما للعباد ورزقا ينتفعون به لتجارتهم وتبادل المنافع. وأحيا الله تعالى بذاك الماء النازل من السماء برحمة منه الأرض البور والجدباء لتكون حيّة ومثمرة. ومثلما يحيي الله تعالى الأرض الميتة فيجعلها نضرة زاهية مثمرة وخصبة يخرج العباد من قبورهم، ويبعثهم للحياة ثانية للحساب، وما هذا على الله تعالى بعسير.

- كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ (13) وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) :

هذه للاعتبار بسوء عاقبة أقوام كذّبوا بما جاءتهم رسلهم من البيّنات من لَدُن ربّهم ليؤمنوا بالله وحده المنعم عليهم بالخلق وبالنِّعم ليحيوا، وليصدّقوا بالبعث ليعملوا صالحا في دنياهم حتى يكرموا في آخرتهم بثواب ربّهم الأبدي، وليحذروا من معصيته حتّى لا يُؤاخَذوا عليها بالعقاب، فلمّا أصرّوا على التّكذيب بما جاءهم، وبما أُنذروا به من بأس الله هلكوا. هلك قوم نوح بالطوفان، وأباد الله أصحاب (ٱلرَّسّ) الذين قتلوا نبيّهم الذي أرسله الله إليهم، ثمّ ألقوا به في (ٱلرَّسّ) وهو

البئر، ولم يعد لهم ذكرُ، وأما (ثَمُود) فهلكوا بالطاغية، وهي الصيحة شديدة الوقع، وأمّا (عَاد) فهلكوا بريح صرصر عاتية في أيّام الحسوم، وهلك (فِرۡعَوۡن) غريقا في النيل، وهلك إخوان (لُوط) بمطر بحجارة من طين، وهلك أهل (مدين) : أصحاب (ٱلۡأَيۡكَةِ) وهي الغابة ذات الأشجار الكثيفة بعذاب (الظلّة) الذي أماتهم خنقا وعرقا وبالحرّ الشديد، وهلك قوم (تُبَّع) الذين كانوا وَثَنِيين، وهم قوم أبي كرب الحميري ملك اليمن. جميعهم هكلوا بعذاب في دنياهم قبل آخرتهم لأنّهم كذّبوا رسلهم بما جاؤوهم به من هدي ربّهم ليستقيموا على الدين الحقّ وعلى العمل الصالح، وليؤمنوا بالبعث، ولأنّهم كذّبوا بالنُّذرِ فلَقُوا ما أنذروا به.

- **أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ (15) :**

هذه للتّأكيد على أنّ الله سبحانه لا يعجزه أن يبعث عباده بعد مماتهم. ومعنى الآية: هل عجزنا وتعبنا في الخلق الأول حتى نتعب أو نعجز على إعادته، بل إنّ هؤلاء المكذّبين في خَلط وشكّ واِضطراب في فهم قدرة الله عزّ وجلّ من ضعف إيمانهم وقلّة إدراكهم.

- **وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ (16) :**

هذه في مراقبة الله تعالى في النّفس للخشية منه تعالى ليكون العبد صادقا في إيمانه، وسليم القلب، وذلك بتَنْبِيهه بأنّه تعالى عليم كلّ العلم بدقائق ما تحدّثه به نفسه وبما تضمره، وليعلم أنّه تعالى قادر عليه لأنّه أقرب إليه من العرق الذي يَضُخُّ فيه قلبُه الدمَ ليُوزِّعَ على كامل الجسم، فلو شاء تعالى قَبْضَ روحه عطّل هذا الوريد فيموت هذا العبد النّاكر للنّذير والمشكّك في قدرة الله عزّ وجلّ في حينه، فليحذر الله تعالى وليحذر عذابه.

- **إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ (17) مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ(18) :**

الآيتان في التّأكيد على أمرين أساسيين: أولهما أنّ الله تعالى لا يفوته شيء من أمور عباده بأدقّ تفاصيلها: كلّ فرد على حِدَةٍ، وأنّ كلّ قول وعمل يصدر عن عبدٍ مسجّل عليه، وسيحاسب عمّا قدّم: خيرا كان أو شرّا، وأمر التّسجيل دقيق جدا، والغاية من هذا والقصدُ بلوغُ الأمر الأساسي الثّاني: تنبيه الإنسان ليعلم أنّه مراقبٌ في ما يصدر عنه من قول ليحفظ لسانه عن ما يسيء إليه من بعدُ، وليكون لسانُه لسانا ذاكرا، وإذا قال صدق، وليراقب الله تعالى في عمله حتى يكون أمينا فيه ومحسنا وصادقا كي لا يفاجأ يوم الحساب بما يكره ممّا سُجِّلَ عليه من كذب أو غشّ أو اِفتراء وما إلى ذلك من مساوٍ ومعاصٍ. و(التّلقّي) هو اِلتقاط ما يخرج من فم الإنسان من قول، أو ما يصدر عنه من فعل. و(ٱلۡمُتَلَقِّيَان) كما جاء على لسان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيما رواه عنه أبو أمامة، وكما جاء على لسان الصحابة : الحسن وقتادة ومجاهد وسفيان

هما ملكان أحدهما القعيد عن اليمين لتسجيل الحسنات، وثانيهما القعيد عن الشمال لتوثيق السيّئات. و(القعيد) هو الرقيب الّذي يرْصُدُ قول الإنسان وعمله ويسجّل ما يصدر عنه بأمانة. وأمّا (الرقيب العتيد) فهو المراقب الحافظ الحاضر الذي لا يفوته شيء دقيق من الملاحظة، وهو سريع التّسجيل. والمطلوب أن يحفظ المرء لسانه عن كلّ باطلٍ من القول، وأن يخلص في طاعته وعمله وأن يكون أمينا فيما يتحمّل من مسؤولية، وذلك لينجو من كلّ مؤاخذة يوم الحساب، وليكون في آخرته من الفائزين بالثواب والأجر.

- **وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ (19) :**

وهذه لتذكير الإنسان بأنّ حياته في دنياه منتهية حتما إلى موت بعدها، وذلك حتّى لا يغترّ بطول الأمد، ولا يغفل عن لحظة توديع حياته الفانية. ووصف لحظة الموت بالسكرة للتعبير عن شدّة لحظات توديع الحياة التي تذهل العقول، وتجعل الإنسان خائفا مرتاعا وملتاعا. ولكنّ الموت لا مفرّ منه، ولا تَحِيدَ منه أي لا مهرب ولا نفير. و(الحقّ) هو الموت، سمّي كذلك إمّا لوجوب وقوعه فلا مفرّ منه، وهذا ما كتبه الله تعالى على جميع خلقه، وإمّا لأنّه النُّقلة إلى دار الحقّ ليلقى الإنسان ما كان الله تعالى قد وَعَدَهُ، أو أَوْعَدَه وليعلم يؤمئذ الكافر أنّ الحساب واقع حقّا.

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كانت بين يديه رِكْوَةٌ فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه ويقول: "لا إلاه إلاّ الله إنّ للموت سكرات" ثمّ نصب يده فجعل يقول: "في الرّفيق الأعلى" حتى قُبضَ ومَالَتْ يدُهُ صلّى الله عليه وسلّم. نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.

- **وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ (20) :**

هذه الآية إلى الآية 37 في أحداث قيام الساعة للحساب، وفي مشاهد من الوعد والوعيد. والإعلان عن قيام الساعة يكون بالنّفخ في الصور النّفخة الثانية، ذلك لأنّ النّفخة الأولى تأذن بالزّلزلة الكبرى المؤذنة بانتهاء الحياة الدنيوية الفانية لتُسْتَبْدَلَ بالحياة الآخرة الأبديّة الدائمة التي ليس فيها موت، والنّاس فيها بعد الحساب فريقان: إمّا شقي وإمّا سعيد. والآية تخبر عن النّفخة الثّانية لتقوم السّاعة للحساب الذي أنذر به الله عباده وَوَعَد بقيامه ليُثيبَ من كان مؤمنا وعمل صالحا، وليعاقب من أعرض عن ذكر ربّه وعمل السيّئات.

- **وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ (21) :**

ويوم الحساب يُساقُ كلّ كافر إلى الميزان يدفعه مَلَك إليه دفعا وسَوْقًا، ومعه ملكٌ آخر شاهد على جميع ما كان عليه عمله في دنياه. وقيل عن الشهيد بأنّه عمله، وقيل هي جوارح الإنسان من الأيدي والأرجل وذات نفسه. وأيًّا كان هذا الشهيد فإنّ الغرض المقصود أن يعلم كلّ إنسان بأنّه

لا ظلم في ذلك اليوم، وفي ذلك الموقف، وأنّ الوزن في ذاك اليوم بالقسطاس المستقيم. قال تعالى (حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ)(فصلت الآيتين 20-21)، وليعلم كلّ إنسان أنّ مصيره في آخرته يقرّره بنفسه على قدر صدق إيمانه، وبحسب نمط عمله وطاعاته. ولا يظلم ربّك أحدا، وكان الإنسان ظلوما جهولا إذا كذّب بآيات ربّه، واتّبع هواه.

- لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ (22) :

الخطاب في هذه الآية لمن كَفَرَ، وكذّب بالبعث، ولم يصدّق بقدرة ربّه على إحياء الموتى. يوم يبعث هذا الذي كان يستبعد بعثه للحساب ويهزأ به، ويرفع عن عينيه الحجاب، ويرى وعد الله على حقيقته يقال له: أرأيت حقيقة يوم الوعيد الذي كنت تكذّب به، وكنت غير مهتمّ به، وغير آبِهٍ، ها أنت ترى حقيقته بعينيك بنظرك الحادّ النّافذ القويّ!

- وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) :

قال مجاهد في تفسيرها: يقول المَلَكُ الموكّل بهذا الإنسان الذي تقدّم به للحساب وساقه بين يدي الله عزّ وجلّ: "هذا الّذي وكَّلْتَنِي به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله".

- أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ (24) مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ (25) ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (26) :

هذه في التّحذير من سوء عاقبة كلّ كفّار (عَنِيد) أعرض عن الحقّ الذي جاءه في كتاب الله، وعن لسان رسوله، وهو يعرف أنّه الحقّ بالدلائل الذي ذُكِّرَ بها وبالمنطق وبالمواعظ ولكنّه لعناده صدَّ نفسَه عن اِتّباعه، ثمّ كان يمتنع عن فعل الخير، ومساعدة الملهوف، وعن البذل للفقير أو المسكين قال تعالى (أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ)(الماعون الآيات 1-3)، ومن صفته في منطقه وسيرته وأمره: ظالم، وصاحب سطوة، ويمنع أتباعه عن الإيمان، ويصدّهم عنه، وهو (مُّرِيب) يشكّ في كلّ ما يقال له، وفي التوحيد، وفي أنّه في ضلالة، ويشكّ في البعث وفي الحساب وفي الوعد والوعيد، لا يسمع إلاّ صوت نفسه المعاندة، ثمّ هو مشرك بالله الواحد الأحد عزّ وجلّ ويجعل له شريكا أو نِدًّا، هذا يُقْضى فيه يوم الحساب بأن يلقى في العذاب الشديد في جهنّم. وقد أُخْبِرَ هذا الصنف من الكافرين بهذا الحكم للتّحذير ليسرع للإنابة إلى الله عزّ وجلّ خشية من سوء المصير وليتوب وليطلب المغفرة، فإن لم يفعل قامت عليه حجّة البلاغ، فإذا داوم على ما هو فيه يكون قد اِختار لنفسه هذا المصير الأليم، فلا يكون له مجال للاعتذار يومئذ. والأمر في (فَأَلۡقِيَاهُ) للملكين: السائق والشهيد، وفعل الإلقاء يدلّ على الرمي بمثل ما يلقى الحجر أو الشيء الفاسد، وهذا

للدلالة على إهانة هذا الكافر، ولبيان أنّه عبد فاسد يجب إلقاؤه في النّار كما يرمى الشيء الفاسد غير المرغوب فيه.

- قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ **(27)** :

وهذه في تبرّؤ الشيطان الوسواس الّذي كان مصاحبا للكافر العتيد من كفره ومن سلوكه ومن معاصيه، ثمّ هو يكذّبه فيقول حين يُقدّمُ للحساب: ربّنا ما زيّنتُ له الكفر والمعصية والظلم والطغيان، ولكنّه كان بعيدا عن الحقّ لعناده وكبريائه ومكابرته فأبعد نفسه عن الهدى، وأضلّها عن الاستقامة على الحقّ.

- قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ **(28)** :

تشير الآية لوقوع خصومة شديدة بين الكافر الضالّ وشيطانه الذي زيّن له المعصية والضلالة ثمّ تبرّأ من عمله، وكذّبه، ولكن يفصل بينهما بأمرهما بالكفّ عن المخاصمة، والحال أنّه قد سبق إنذارهما باجتناب الضلالة، وسبق إنذارهما بالوعيد بسوء العاقبة لكلّ من لم يؤمن ولم يستقم على الدين الحقّ والعمل الصالح. والغرض المقصود من الآية أن يعلم كلّ إنسان بأنّه لا يقبل منه اِعْتِذَارٌ أو تكذيب أو تبرّؤ من سوء الفعل يوم الحساب ليتحمّل مسؤوليته عن أفعاله وعن تَوَجُّهِهِ في معتقده، وليكون واعيا بالعاقبة السيّئة إن أعرض عن الحقّ والهدى.

- مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ **(29)** :

هذه للتّأكيد على أنّ الجزاء من جنس العمل، وقد حذّر أهل الكفر أشدّ التحذير من سوء المآل، وبيّن لهم العاقبة الأليمة، وقد جاءهم وعد المؤمنين العاملين الصالحات بالنّعيم وبالنّجاة من العذاب، ولا تبديل لكلمات الله فمن آمن وعمل صالحا كان آمنا يوم الوعيد، ومن أعرض عن ذكر ربّه واتّبع هواه في إتيان المعاصي، وغوى وكابر عن الهدى ولم يستقم ساءت عاقبته، وأُلْقِي به في جهنّم مهانا، وكانت هذه العاقبة السيّئة نتيجة حتمية عند تقييم عمله وعند سؤاله عند الميزان وعند مواجهته بسجلّ عمله، ولذلك لا يُظلم الإنسان بما يُحكم به عليه من العذاب إذا ضلّ وغوى وإنما هو الذي ظلم نفسه بجرمه، ولا يظلم ربّك أحدا. قال تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ)(يونس الآية 44).

- يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ **(30)** :

السؤال في هذه الآية، والجواب من باب التّخيّل والتّصوّر، والمقصود تحذير العصاة المذنبين ليعلموا أنّ في جهنّم مكانا ضيّقا لكلّ واحد منهم، فأمكنتهم مضمونة، وإنّ في جهنّم طاقة اِستيعاب لتحويهم جميعا. وهذا ليعلموا أنّه لا مفرّ لأحدهم من العذاب ومن تنفيذ وعيد الله تعالى فيه. وهذا لمزيد النّذير والتّحذير.

- وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) :

وهذه إلى الآية 35 في تبشير المتّقين بحسن العاقبة، وذلك على عادة القرآن في إِتْباعِ الوعيد بالوعد. ومعنى الآية: وقرّبت الجنّة للمتقين وأُدْنِيَتْ منهم حتى لا تكون بعيدة عنهم، وحتى لا يتباطؤوا في دخولها أو يتعبوا في بلوغها، وهذا من التّكريم.

- هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) :

وحين يدخلونها وحين يفاجؤون بوفرة خيراتها وعظيم وسعها وكثرة وجوه النّعيم والتّكريم ويعجبون ويدهشون، يقال لهم: كلّ ما تشاهدون من الخيرات ومن مظاهر النّعيم هو ممّا أُعِدَّ لكم من قبلُ وهو ممّا أُخْبِرتُم به، ووُعِدْتم به تحقيقا لما وعد الله تعالى به كلّ من أناب إليه بالتّوبة والاستغفار والإقلاع عن الذنب، وحفظ أوامر ربّه فأدّاها، وحفظ نواهيه ومحرّماته فاجتنبها، وداوم على الطاعات ووقف عند حدود الله عزّ وجلّ فلم ينتهكها.

- مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (33) :

ما يكون المرء على ذاك النّحو إلاّ إذا كان يخشى الرّحمان، ويخشى أن يعصيه، ويخشى عقابه وعذابه من إيمانه الصادق بأنّ الله تعالى يراه في كلّ حال من أحواله في سعيه وعمله، وعلم أنّ الله تعالى عليم بسرائره وبما في صدره فزكّى قلبه ونفسه وجاء ربّه بقلب سليم لا يشرك به أحدا، ويطمع بطاعاته في رحمة ربّه عزّ وجلّ.

- ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (34) :

ويقال لهم أُدخلوا الجنّة من أيّ باب من أبوابها الثمانية بأمان لا تخافون من الهمّ ومن اِنقطاع النّعيم والخيرات، وأقيموا فيها إقامة دائمة لا تموتون فيها أبدا.

- لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35) :

ويجدون فيها كلّ ما يشتهون، وكلّ ما يرغبون من النّعيم ومن مظاهر الإسعاد والتّكريم، وعند الله تعالى ما لا يعلمون وما لا يخطر ببالهم لمزيد إسعادهم.

- وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ(36) :

هذه الآية مع الآية الموالية للاعتبار بما حدث في أمم سالفة كانوا قد كفروا بوحدانية الله تعالى وكذّبوا برسله، وأصرّوا على معاصيهم، فأهلكهم الله، وكانوا أشدّ قوّة، من العرب والأعراب، وكانوا قد توغّلوا في الأرض، وبسطوا عليها نفوذهم، وعمّروها بالبيوت وبالحصون والقلاع، واِستغلّوا خيراتها واستثمروا قال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(الروم الآية 9). هؤلاء العظماء الأشدّاء الأكثر قوة وبسطا

لنفوذهم من مشركي العرب لمّا حلّ بهم عقاب الله في دنياهم سخطا عليهم هكلوا جميعا، ولم يكن لهم مفرّ، ولا مهرب منه للنّجاة. وتُعَدُّ هذه الآية تحذيرا شديدا لمشركي مكة، وتثبيتا للرسول صلّى الله عليه وسلّم، في الآن ذاته.

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37) :

إنّ في هذا التّذكير بما جرى لأمم سابقة كذّبوا برسلهم عبرةً لكلّ إنسان له قلب واعٍ لا يرضى لنفسه الهلاك، ولمن يحسن الاستماع لما يأتيه من عند ربّه عبر ما يوحي به لرسوله، والاستماع لمواعظ الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإرشاده، ولمن يشهد مجالس الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فينتفع بما يسمع منه بوعي وعقلانية وينظر في الدلائل الكونية المشاهدة والدلائل العقلية ليعرف بها طريق الحقّ الذي ينجيه في دنياه وكذلك في آخرته من العذاب.

- وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (38) :

وهذه في دليل من أدلّة القدرة الربانية ليعلم الكافرون قدرة ربّهم عليهم، أو عساهم يهتدون إليه بالنّظر في آيات الخلق يستقيموا على الدّين الحقّ. والمعنى والله تعالى هو الذي خلق السماوات وهو الذي خلق الأرض وما بينهما من فضاء شاسع، وكواكب ونجوم وأفلاك وما لا تعلمون. وقد خلق كلّ هذا في ستة أوقات دون تعب أو إرهاق وإعياء، لأنّه تعالى يقول للشيء : كن فيكون.

- فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ (39) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ (40) :

الخطاب في الآيتين إلى آخر السورة لتثبيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليواصل دعوته لصالح المعتقد وصالح العمل. والثبات على الأمر لمواجهة الصدّ والهزء اللذين يلقيانه من قومه، وللمثابرة على تبليغ رسالة ربّه تعالى للنّاس كافة يلزمهما :"الصبر". الصبر مفتاح الفرج، بالصبر مع الثبات للمداومة على تبليغ ما كلّف به من أمر ونهي، ووعد ووعيد، وهدي وفتح للبصيرة على الضلالات تقوى العزيمة، وتهون كلّ المشاقّ، ولا تتأثّر النّفس بهزء الهازئين. وفي هذه الآيات دعوة للصلاة، ولانتظار الفرج، وللتذكير بالقرآن لكلّ من يخشى ربّه.

والآيتان في الأمر بالصبر على ما يقول معارضو الدعوة للتوحيد وللإيمان بالرسول وبالقرآن وبالبعث والوعد والوعيد من شكوك، وطعن فيما يبلغهم عن ربّهم بالتكذيب. وفيهما الأمر بالتسبيح بحمد الله عزّ وجلّ آناء الليل وأطراف النهار. ويتجلّى هذا التسبيح في أداء الصلوات المفروضة. صلاة الصبح هي الصلاة التي تسبق طلوع الشمس، وصلاة الظهر مع صلاة العصر هما اللتان تصلّيان قبل الغروب، وأمّا صلاتا المغرب والعشاء فهما اللتان تقامان من اللّيل. وقال عمر بن الخطّاب وعليّ بن أبي طالب وأبو هريرة والحسن بن عليّ، والحسن

البصري، والنّخعي والشعبي والأوزاعي والزهريّ رضي الله عنهم في (إدبار السجود): الركعتان بعد المغرب، وإدبار النّجوم الركعتان قبل الفجر (عن القرطبي الجامع ج17 ص 25).

- وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ **(41)** يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ **(42)** :

واصبر – يا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم- وسترى ما يؤول إليه أولئك الذين يكذّبونك، ويكفرون بما تبلّغهم به يوم ينفخ في الصور النّفخة الثانية لمناداة النّاس جميعهم – أولهم وآخرهم- للخروج من قبورهم للبعث. ستكون الصيحة مدوّية في جنبات الأرض ليقوم النّاس اِستجابة للنداء يسمعها كلّ فرد بوضوح كأنّها دوّت من مكان قريب منه فأفزعته. يوم يسمع أولئك الكافرون هذه الصيحة: صيحة البعث بالحقّ ليوم الحساب، يومئذ يوقنون بأنّ البعث حقّ حين يخرجون من قبورهم.

- إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ **(43)** :

إنّ الله عزّ وجلّ هو الذي أحيا الإنسان وأوجده، ثمّ هو الذي يميته في الأجل الذي حدّده له، ثمّ يرجعه إليه ليحاسبه عمّا عمل في حياته. فالآية للتّذكير بأنّ شأن خلق الإنسان وشأن إماتته وشأن إعادته إليه بعد موته من شؤون الله عزّ وجلّ، ولا يعلم أحد كيف تتمّ هذه الشؤون وكيف تجري ولكنّ الدلائل الكونية المشاهدة تدلّ عليها فوجب الإيمان بها دون العلم بكيفيتها ودقائقها لأنّ هذه من شأنه تعالى وحده.

- يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ **(44)** :

ويوم تتصدّع الأرض فتخرج كلّ ما في باطنها من أجساد الخلق حين يأذن الله تعالى بقيام الساعة عند النّفخة الأولى، ثمّ إذا نُفخ في الصور النّفخة الثانية يقوم الأموات للحشر مسرعين، ولا يفوت منهم أحد، وإنّ أمر البعث وأمر حشر جميع الخلق للحساب من الأمور اليسيرة عند الله عزّ وجلّ، ليس فيها مشقّة، ولا عسر، قال تعالى (**وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ**)(النحل الآية 77). وليس الأمر مستحيلا كما يتوهم الواهمون من المكذّبين به.

- نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ **(45)** :

اِصبر – يا رسول الله – فإنّ ربّك عليم كلّ العلم بما يقولون فيك بحضورك وبغيابك من تكذيب وهزء، وبما يقولون في القرآن وفي الوحي وفي التوحيد وفي البعث والوعد والوعيد، فلا يضيقنّ صدرك بما يقولون، ولست أنت بالجبّار لتكرههم بالقوّة ليؤمنوا أو ليكفّوا عن ما يقولون. لم تبعث لتكرههم على الإيمان بالجبر والقهر، فليس عليك إلاّ البلاغ. وبلّغ ما ينزل عليك من

القرآن للذين يخشون ربّهم، ويخافون عقابه وعذابه، الذين يرجون رحمة ربّهم، ويرجون النّجاة يوم الحساب ممّا يخافون، وأمّا الكافرون المكذّبون فأمرهم إلى ربّهم.

وكذا تختم هذه السورة بتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عمّا يلاقيه من صدّ ومن مشاقّة من المكذّبين به، وتؤكد له الآية بأنّه مكلّف بتبليغ رسالته لمن يخاف الوعيد ليعرف طريقه للأمان منه.

رقمها	ســـورة الذّاريــــــات	آياتها
51	ــــ مكيــة ــــ	60

سمّيت هذه السّورة باسم اللفظ الأول الذي أُفتُتحت به : "الذّاريات" وهو لفظ لم يذكر في غيرها. ومواضيعها كشأن السور المكية في العقيدة، وقد ركّزت على عقيدة البعث، وجاء فيها عرض لمظاهر من الوعد والوعيد. فيها ثناء على صفات في المؤمنين، وفيها تحذير من عقاب كعقاب أمم سالفة. جاء فيها خبر بشرى إبراهيم بمولود له من زوجه، وخبر هلاك قوم لوط، وقوم فرعون للاعتبار. وجاءت فيها آيات دالّة على عظيم القدرة للإيمان بقدرته سبحانه على إحياء الموتى لبعثهم للحساب، وختمت بالدعوة للفرار إلى الله تعالى – كما جاء على لسان نوح عليه السلام- وبتسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عمّا يلاقيه من قومه من صدود.

- وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا (1) فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا (2) فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا (3) فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ(5) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ (6) :

هذه الآيات في القسم بآيات من آيات القدرة للتّأكيد على أنّ قيام الساعة، وبعث الموتى، وأنّ الحساب على الأعمال أمور واقعة حقّا وصدقا. (وَٱلذَّٰرِيَٰتِ) قسما بالرّياح التي تحمل التراب وتذروه فتكون إنذارا بعقاب لما فيها من إهلاك للزرع أو قلع بيوت الخيام. وأمّا الحاملات وقرا فهي السحب الحاملة للماء، وهذه آية من آيات الرّحمة والإنعام. والجاريات هي السفن التي تجري على سطح الماء بقدرة من الله عزّ وجلّ فإن كان هذا الجري يسيرا كان من الرّحمة وتيسير الأسباب لبلوغ الغاية في الصيد والارتزاق أو السفر. وأمّا المقسمات أمرا فهم الملائكة التي تنفّذ أمر الله عزّ وجلّ في قسمة الأرزاق بين العباد وقضاء الله عزّ وجلّ. قسما بهذه الآيات التي تحدث فيكم – يا عباد الله – فإنّ ما توعدون به من قيام الساعة وبعث الأموات لإحيائهم لحشرهم للحساب هو أمر كائن وواقع بحقّ، وكذلك الحساب على الأعمال الذي بلّغتم به هو واقع حقّا وصدقا يوم الدّين. سُمِّي يوم القيامة للحساب: يوم الدّين، لأنّ الإيمان بالبعث وبالحساب من أركان الدين ومن أركان العقيدة، فمن أنكر البعث وأنكر القيام للحساب لم يكن متدينا.

ذكر الفخر الرّازي (في التفسير الكبير ج. 28 ص.ص 194-195) : "في جميع السور التي أقسم الله في اِبتدائها بغير الحروف كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة: الوحدانية والرسالة والحشر، وهي التي يتمّ بها الإيمان، ثمّ إنّه تعالى لم يقسم لإثبات الوحدانية إلاّ في سورة واحدة من تلك السور وهي : "والصافّات" حيث قال فيها (إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ)(الصافات الآية 4) وفي سورتين منها أقسم

لإثبات صدق محمد صلّى الله عليه وسلّم وكونه رسولا، في إحداهما أقسم بأمر واحد، وهو قوله تعالى (وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ)(النّجم الآية 1) وفي الثانية بأمرين في قوله تعالى (يسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ)(يس الآيات 1-3) وفي باقي السور كان المقسم عليه: الحشر والجزاء...".

- وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ (7) :

قسما بالسماء ذات الطرق التي تسير فيها الكواكب، وهي المجرّات، وعلماءُ الفضاء أَعلمُ النّاس بمعرفة هذه الطرقات. وجواب القسم هو الوارد في الآية الموالية.

- إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ (8) :

الخطاب لمنكري البعث والمكذّبين بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن: إنّكم بين مصدّق ومكذّب للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وللقرآن، وبين مصدّق بالبعث وإحياء الموتى وناكر وهازئ.

- يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ (9) :

يصرف عن الإيمان بالقرآن أو بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم أو بيوم البعث من صُرِف عنه، فالله غنيّ عن إيمانه، وإنّه هو الخاسر الخسران المبين.

- قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ (10) ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ (11) :

الموت للمكذّبين المرتابين في كلام الله تعالى وفي إنذار رسوله، والذين يقولون لسنا نُبعث، ويكذّبون بما لا يعلمون، والذين يقولون إنّ محمدا مجنون، كذّاب، ساحر، أو شاعر، الذين هم لاهون وغافلون عن أمر الآخرة.

- يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ (12) :

يسألون سؤال الهازئ المكذّب: متى يكون يوم الحساب، يسألون عنه سؤال الشاكّ في قيامه.

- يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ (13) :

يوم يكونون على النار يحرقون، سيختبرون أهو حقّ أم هو من الكذب ليتأكّدوا من صدق الخبر، وصدق الوعيد الذي كانوا يكذّبون به.

- ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ (14) :

وعندئذ يقال لهم ذوقوا عذابكم حرقًا، وهذا الذي كنتم في دنياكم تستعجلون حصوله من هزئكم به ومن تكذيبكم.

- إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ (15) :

وعلى عادة القرآن في إرداف الوعيد بالوعد، جاءت هذه الآية وما بعدها إلى الآية 19 في تكريم المؤمنين الذين كانوا يخشون ربّهم ويخافون عذابه ويرجون رحمته بالعمل بالطاعات، وفي

عرض لبعض من صفاتهم ومن عملهم الصالح. يوم الحساب ينعم المتقون ربّهم بإيوائهم في بساتين مرفهة، فيها عيون للشراب من كلّ ما يلذّ ويطيب.

- ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ (16) :

هذه وما بعدها من الآيات في صفات المتقين المكرمين بالجنّات والعيون. كانوا (آخذين ما آتاهم ربّهم) أي عاملين بأوامره، ومنتهين عن نواهيه، وكانوا عاملين بالطاعات التعبدية المفروضة. وكانوا في معتقدهم صادقين: يعبدون الله كأنّهم يرونه، وكانوا يراقبونه في أعمالهم وأقوالهم خشية أن يقعوا في معصيته، وكانوا يرجون بأعمالهم الصالحة رحمته ورضوانه، والتقرّب إليه تعالى.

- كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ (17) :

ومن دلائل رغبتهم في التقرّب إلى الله زلفى، ومن دلائل صدق إيمانهم أنّهم كانوا ينامون قليلا من الليل، ويصلّون أكثره صلاة نوافل من صلاة القيام أو من صلاة التهجّد.

- وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ (18) :

وهذا مدح آخر، إذا قاموا عند السحر، قبل الفجر، لصلاة التّهجّد كانوا يكثرون من الدعاء طلبا للمغفرة للتكفير عن ذنوبهم رغبة في أن يلقوا ربّهم بصحف نقية من الذنوب فيدخلون الجنّات والعيون بغير حساب. ومن الأوقات التي يرجى فيه إجابة الدعاء: السَّحَرُ، وتسمّى الصلاة في ذاك الوقت إستغفارا عند أغلب المفسّرين لأنّ غاية المصلّي منها أن يحصل على مغفرةٍ من ربّه ورضوان.

- وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ (19) :

ومن حسن أعمالهم أنّهم يؤدّون حقّ الله تعالى في أموالهم وهي هنا الزكاة المفروضة، يبلّغونها للفقير المحتاج الذي يسأل النّاس عونا وطعاما وللمحروم بسبب العجز أو المرض أو الفاقة الشديدة. ويحسنون بشيء من أموالهم من باب البرّ والإحسان لذي الرّحم الذي يحتاج للمساعدة ولم يطلبها، وليحمل الكلّ على المصاب من ذي قرابته من باب الصلة، أو لجار قريب للمؤازرة، وخاصة زمن الشدائد أو الكوارث والجوائح فيمدّ يد العون للمصابين حتى وإن لم يكونوا من ذوي القرابة، ومن ذلك يساعد البطّال بشيء من رأس المال ليعمل ويكسب، وإنّ وجوه الخير كثيرة ووجوه المساعدة للمؤازرة والعون عديدة في الأوساط المهمّشة، وعند الفاقة وعند الكارثة.

- وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ (20) :

هذه الآية مع الآيات الثلاثة الموالية في التّنبيه للنّظر في آيات القدرة الربانية للإيمان الإيمان اليقيني بقدرة الله عزّ وجلّ على إحياء الموتى، وأنّ وعده تعالى حقّ لا ريب فيه. ومعنى الآية:

وفي الأرض دلائل كثيرة تدلّ على اِنفراد الله تعالى بالخلق، وعلى عظيم قدرته، وفيها دلائل الإنعام يدركها إدراكًا جيّدا من كان مؤمنا إيمانا ثابتا يقينيّا ليس في ريب، فعَلِم منها أنّ ما جاءه من عند ربّه تعالى من وعد بالبعث لتكريم المؤمنين ومجازاتهم على طاعاتهم فهو الحقّ وهو العدل وهو الكريم، وعلِموا أنّ نبيّهم صادق وأمين ما يبلّغه للنّاس عن ربّ الوجود الذي يحيى العود اليابس والأرض الجرداء، والذي قدّر الأقوات لكلّ ما خلق من دابّة فأطعمهم وسقاهم وأحياهم. ورأوْا آثارا لقُرًى مدمّرة فعلموا أنّ وعيده حقّ فاستقاموا على الطريقة المثلى. نظروا فاعتبروا، ووَعَوْا حقائق الأمور، ولم يكونوا من الغافلين.

- **وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ (21) :**

في هذه الآية دعوة لكلّ إنسان عاقل متبصّر لأن ينظر في ذاته ليعرف من ذاته ربّه: ينظر في خلقه ونشأته، وفيما يجري من حوله وما يجري عليه في شدّته ورفاهه فربّه: سيّده وخالقه، واجده، المنعم عليه، والمتصرّف فيما يجري من حوله: في شأنه وشأن غيره. فلينظر في خلقه: كيف خُلق؟ وكيف أُنْشِئَ؟ قال تعالى (هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)(غافر الآيتان67-68). فلا يعقل أن لا يكون لكلّ مخلوق خالق كمثل مالا يُعقل أن لا يكون لكلّ مصنوع صانع.. ولا يمكن أن يكون كلّ الخلق الموجود في هذا الوجود قد وجد من نفسه، أو وُجد صُدفة، أو وُجد عبثا، فعندئذ يجب أن يكون كلّ شيء فوضويا، وبما أنّ كلّ ما في الحياة يسير سيرا منتظما من مثل تعاقب الليل والنّهار، ومن مثل قيام السماء بأبراجها وكواكبها ونجومها قياما منتظما في سيره غير متساقط فإنّ العبث والمصادفة والفوضوية منتفية عن الوجود، ومادام هذا غير كائن فلابدّ أن يكون لهذا الوجود قائم قيّوم على سير نظام هذا الكون الذي يعيش فيه الإنسان، وما خُلق الإنسان عبثا، قال تعالى (أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ)(المؤمنون الآية 115). وقال تعالى (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ) (الغاشية الآيات 17-21). ولينظر الإنسان في تركيبه وفي شكله وفي كيفية خلقه في أحسن تقويم، وفي تنظيم حياته في نشاطه اليومي، في نومه وعمله، وفي تكوين جسمه داخليّا: في عمل دماغه، وفي الدورة الدمويّة، وفي تنفّسه للهواء، وفي منفسه من فضلات طعامه وشرابه، وغير ذلك كثير في تكوين البدن من لحم وعظام ومفاصل، أكان هو أو أولياؤه أو أحد آخر غير الخالق هو الذي أبدعه على تلك الصورة الدقيقة في التكوين، وفي ما وُهِبَ من قدرات ليفكر وليبصر وليبدع وليشعر ويحسّ ولينتج وليحيا... أفلا

ينظر الإنسان بما أودع فيه من فكر واع ومن بصيرة ومشاعر بأنّه لم يخلق عبثا وبأنّ له خالقا قد خلقه وصوّره فأحسن خلقه، وليعلم بأنّ خالقه هو سيّده حقّا، وأنّه هو المنعم عليه، وأنّه قادر عليه، وأنّ على الإنسان مقابل هذا الفضل أن يكون مطيعا لخالقه، مقرّا له بالخلق والربوبية، وأن يقابل نعمة وجوده وحياته بشكر المنعم وحمده على فضله، وأنّ عليه أن يخشاه حتى لا يأخذه بنقمة وعذاب لجحوده ولكفره بنعمته عليه، وبالإعراض عنه... والاستفهام في هذه الآية لحفز عقل الإنسان ليعرف ربّه من ذاته وليعرف حقوق ربّه عليه، وليعلم واجبه نحو سيّده الخالق تبعًا لذلك كيلا يكون عبدا جاحدا وكفورا يكذّب به، وبقدرته عليه...

- **وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ (22) :**

هذه في التّذكير بالإنعام وفي التّرهيب كذلك. لقد جعل تعالى السماء سقفا محفوظا، غطاءً للأرض حفظا لها ولما عليها من المخلوقات من المكاره، وجعلها تحمل السحب المثقلة بالماء لشرب الخلق وريّ الأرض وسقي البهائم، وبهذا الماء تنتعش الأرض وتنتعش الحياة فيها ويذهب وعمّن فيها الجدبُ والقحطُ والجفاف المنذر بالهلاك. والماء الذي يأتي من السماء هو رزق للعباد لأنّه يمنحهم خصب الأرض لينبت النبات ويثمر الشجر ويشرب الأنعام فتدرّ اللبن الذي هو غذاء للنّاس، وفي هذا الإنتاج كسبهم ومالهم وتجارتهم ومدّخراتهم. والله تعالى هو المنعم على من ساق إليهم الغيث النّافع فأتاهم رزقهم رغدا. قال تعالى (وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا)(الجاثية الآية 5) ومثلما يأتي من السماء الرزق فإنّ منها تأتي مصاريف الهلاك والإبادة من مثل الصواعق المحرقة أو إذا أمطرت حجارة أو أرسلت ماءً جارفا فأجرت السيول ودمّرت البيوت وأغرقت السّفن ومَنْ عليها، أو حبست المطر فجفّت القيعان وأجدبت الأرض وهلكت المواشي والإبل، وجاع الناس وعطشوا فهجروا الأرض وبيوتهم. قال تعالى (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ)(النحل الآية 112). والغرض المقصود أن يكون النّاس شاكرين لله تعالى فضله وإنعامه إذا جاءهم الرزق من عنده تعالى، وألاّ يكونوا غافلين وجاحدين لأنعم الله عليهم، وليظلّوا دوما بين الخوف والرّجاء: ذاكرين ومتّقين.

- **فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ (23) :**

هذه الآية تُشعر بالرّهبة لأنّ فيها أقوى الأيمان على الإطلاق: لأنّ الله تعالى قد أقسم بذاته العلية. الآيات التي أُفتتحت بالقسم كان فيها القسم بمخلوقاته، وأمّا هذه فقد كان القسم بنفسه، والقسم كان على البعث والحساب، فمن لم يصدّق بهذا اليمين وبموضوعه فالويل له. قال جمع من العلماء من لم يصدّق بهذا اليمين فهو كافر حقّا. ورُوي عن الحسن أنّه بلغه عن النّبيّ صلّى

الله عليه وسلّم قوله: "قاتل الله أقواما ما أقسم لهم ربّهم بنفسه ثم لم يصدّقوه". وروى الأصمعي عن أعرابيّ أنّه قال حين تُليت عليه هذه الآية: "يا سبحان الله مَن الذي أغضب الجليل حتّى حَلَفَ؟ ألم يُصدّقوه في قوله حتّى أَلْجَؤوه إلى اليمين". (فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ) هو مالكهما وسيّدهما وخالقهما، وهو المتصرّف فيهما على عظمتهما، فما أعظمه من خالق! و(إِنَّهُۥ لَحَقٌّ) الضمير عائد على البعث الذي هو موضوع السورة، والذي كان موضع تكذيب الجاهلين المشركين وموضع تندّرهم وهزئهم، ولم يصدّقوا به. وقد قيل: القسم على القرآن بأنّ كلّ ما جاء فيه حقّ، وأنّه كلام الله بحقّ. وقيل القسم على دين التوحيد، والقول الأقرب هو القسم على ما أُفتتحت به السورة: التأكيد على أنّ البعث للحساب حقّ وأمر واقع حتما يوم القيامة. (مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ) أي بمثل ما أنتم تقرّون بأنّكم تنطقون، ولستم بُكْمًا، ولا تستطيعون إنكار هذا الواقع، فكذلك البعث أمر واقع وثابت لا تستطيع إنكار حصوله. مثلما أنطقك الله – أيّها الإنسان- ومثلما أحياك فإنّه سيُميتك – وأنت تعلم أنّ الموت حقّ على كلّ إنسان لا يفلت منه مخلوق آدميّ – فإنّه سيُحييك ثانية بعد موتك ليحاسبك على عملك بلا شكّ.

- هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (24) :

هذه الآية إلى الآية 30 في تكريم آل إبراهيم عليه السلام. والمعنى: هل جاءك خبر ضيف إبراهيم، وكان ضيوفه رسلا من الملائكة عليهم السلام جاؤوه بالبشارة، والاستفهام للتشويق لمعرفة الخبر وسرّه. وأمّا (ٱلۡمُكۡرَمِينَ) فهي صفة الملائكة عند الله عزّ وجلّ. قال تعالى عنهم (كِرَامِۭ بَرَرَةٍ)(عبس الآية 16) أي خيار، مطيعون لله تعالى وصادقون عليهم السلام.

- إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ (25) :

وأُذكر إذ دخل هؤلاء الملائكة في صورة بشرية على إبراهيم في بيته، وسلّموا عليه فرحّب بهم إبراهيم على أنّهم ضيوف غرباء، رآهم قوما يجهلهم ولا يعرفهم، وإستضافهم عنده.

- فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ (26) :

ثمّ دخل على أهل بيته سرّا، وأمرهم بإعداد طعام لضيوفه، وإستعجلهم، فلمّا حضر الطعام، وكان عجلا مشويا، وكان من عادة الضيافة في ما مضى: لا يكون حديث مهمّ وتعارف إلاّ بعد الأكل من طعام البيت، لأنّهم يعتبرون الأكل من طعام البيت هو عقد الأمان بين صاحب البيت وضيوفه إذ كانوا يعظّمون الإطعام ويحرّمون الأذى بين الطرفين اللذين أكلا من طعام أحدهما.

- فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ (27) :

ولمّا قدّم لهم إبراهيم الطعام ليأكلوا منه لم تمتدّ أيدي ضيوفه إليه، وفي عادات القوم في ذاك الزمن الامتناع عن الأكل من طعام المضيّف يعني تبييت الشرّ والعداوة والخصومة، لذلك حين

رأى إبراهيم ضيوفه لا يتقدّمون للأكل من طعامه سألهم متحيّرا: ألا تأكلون؟ وهو سؤال عن سبب رفضهم للأكل من طعامه.

- فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ (28) :

عندئذ أحسّ إبراهيم بالخوف منه، وشعر بأنّهم يريدون به شرّا – على عادتهم فيمن يرفض الأكل من طعام مضيّفه – لكنّهم سرعان ما طمأنوه، وأخبروه بأنّهم رسل الله من الملائكة وأمّنوه على نفسه وأهل بيته، وأخبروه بأنّهم جاؤوه لبشارته بمولود يولد له من زوجه "سارّة" التي كانت عاقرا، وبشّروه بأنّ هذا المولود سيكون بعد بلوغه من ذوي العلم بوحدانية الله تعالى وبدينه وشرعه. والمولود المبشّر به هو "إسحاق" عليه السلام. ومن الخطإ القول بأنّ المولود المبشّر هو "إسماعيل" عليه السلام بدليل ما سيأتي في الآية الموالية بأنّ التي بشّرت بالولادة هي زوجة إبراهيم – وهي سارّة – وأمّا هاجر فقد كانت جارية لسارّة، و"سارّة" هي التي كانت عجوزا عقيما.

- فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ (29) :

ولمّا سمعت "سارّة" البشارة من أفواه الجمع، دخلت عليهم في ضجّة كبيرة وصخب في جمع من النساء اللائي كنّ معها، وفي صخب وصياح من وقع المفاجأة عليها، وضربت يدها على وجهها على عادة النساء عند التعجّب والذهول، ولَطَمته، وقالت: كيف ألد وأنا عجوز – تعني أنّها لم تعد تحيض – وعقيم لم يحصل لها عند شبابها أن رأت أعراض حمل.

- قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ (30) :

فأجابوا: الأمر كما قلنا لكِ، وأخبرناكِ به، فلا تشكّي في أمر ربّك، وفي تقديره، إنّه تعالى حكيم فيما يقدّره وفيما يعمله ويقضي، وعليم بما يصلح لخلقه وبما يسرّهم، وبما يريد قضاءه.

- قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ (31) :

هذه الآية إلى الآية 37 في خبر ما قضاه الله تعالى في قوم لوط ومعنى الآية: ولمّا علم إبراهيم بأنّهم ملائكة، وهو يعلم أنّ الملائكة لا تنزل جماعة إلاّ لعذاب قوم. قال تعالى (يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا)(الفرقان الآية 22) سألهم عن شأن نزولهم، ذلك لأنّ البشرى لنبيّ لا تنزل بها مجموعة منهم، وإنّما يتلقّاها النّبيّ وحيا من عند ربّه أو عن طريق ملك واحد.

- قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ (32) :

فأخبرته الملائكة عليهم السلام بأنّهم قد أرسلوا إلى قوم عصاة مذنبين مُتَفَحِّشِين.

- لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ (33) :

وأخبروه بأنّهم مأمورون بأن يرجموا أولئك المجرمين بحجارة من طين قوية مدمّرة.

- مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) :

حجارة معلّمة بأمر الله عزّ وجلّ ومأمورة لتكون عند إسقاطها مهلكة قاتلة للعباد، مدمّرة للبيوت والبنيان عقابا لقوم قد تجاوزوا حدودهم في المعصية والفاحشة.

- فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (35) :

وقبل إنزال هذه الحجارة فإنّا مكلّفون بإخراج المؤمنين من تلك القرية – والمقصود بالمؤمنين: لوط عليه السلام وبناته ومن اِتّبعه من المؤمنين، والمقصود بالمكان هي قرية سدوم حيث كان فيها قوم لوط الذين كانوا يأتون الذكران دون الإناث (وقد تقدّم ذكر هذا في سورة هود في الآيات 69–83).

- فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (36) :

ولم يكن من المؤمنين في القرية إلاّ من كان في بيت لوط عليه السلام، كانوا مسلمين أمرهم لله عزّ وجلّ، وكانوا موحدين طائعين لله عزّ وجلّ، عاملين بشرعه وهديه، إلاّ زوجته كانت ناشزا عن لوط، وعوقبت مع القوم بُعَيْد خروجها مع لوط عندما اِلتفتت من ورائها رغم أنّها أمرت بأن لا تلتفت من خلفها، وعوقبت بتجميدها في مكانها فصارت كالتمثال الحجري، ولم ترمَ بالحجارة كقومها تكريما للجمع الذي كانت معهم حتى لا يصاب أحد من الجمع بذُعْرٍ.

- وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (37) :

وترك الملائكة في القرى آثار الدمار والهلاك عِظَةً وعبرةً للذين يخشون ربّهم، ويخشون عقابه وعذابه الموجع حتى يستقيموا على طاعته تعالى ولا يعصوه فيما أمرهم به، وفيما نهاهم عنه.

- وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (38) :

هذه مع الآيتين المواليتين في تحذير ضمني لرؤساء الكفر من قريش من أن يصيبهم عذاب الاستئصال بمثل ما أصاب فرعون وجنده الذين كذّبوا برسول ربّهم: موسى عليه السلام، وبما جاءهم به من عند الله عزّ وجلّ.

والمعنى: واُذكر خبر إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون ليستقيم على دين الله عزّ وجلّ، ويَدَعَ تألِيهَ نفسه، ولينتهي عن اِستعباد عباد الله، وقد آتاه بحجّة قوية ظاهرة من عند ربّه لتصديقه.

- فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) :

فأعرض فرعون عن السماع لموسى وعن الاستجابة لدعوته، وعن التّصديق بما جاءه به موسى من عند ربّه، واتّهمه بالسحر والشعوذة حتى يكذّب بالمعجزة التي أظهرها له موسى، واِتّهمه بالجنون لمّا دعاه موسى لأن يخلع عن نفسه صفة الربوبية، ولأن يؤمن بالله تعالى ربّا.

- فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40) :

فلمّا أصرّ فرعون على كفره بالله تعالى ربّا، وعلى تكذيب موسى مُستَقْوِيًا بجنده ساقه الله تعالى وجنده إلى عمق نهر النيل، وألقاهم فيه فأُغْرِقُوا وهلكوا، وقتل فرعون غرقا وهو على حاله من الكفر، وسيقوم بين يدي ربّه يوم الحساب بصحف فيها الكثير من الآثام التي يستحقّ عليها اللوم والمؤاخذة.

وفي هذا التذكير بغرق فرعون وجنده اِلتفات لمشركي قريش وزعماء الكفر الذين أُتّهموا رسول الله محمدا صلّى الله عليه وسلّم بالجنون مرّة، وبالسّحر أخرى، وكذّبوا بما جاءهم به من عقيدة التّوحيد ونبذ الشّرك ليحذروا من سوء العاقبة بمثل ما أصاب فرعون وجنده.

- **وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ (41) :**

وهذه مع الآية الموالية في الاعتبار بما أصاب عاد قوم نبيّ الله هود عليه السلام من عذاب عامّ دمّر البلاد رغم قوّة البنيان ودفن القوم تحت أنقاض الدمار والخراب، وهذا لتحذير قريش من الإصرار على تكذيبهم برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم.

ومعنى الآية: وأُذكر ما أصاب قوم هود إذ أرسل عليهم الله عزّ وجلّ ريحا مهلكة قاطعة لنسلهم ولمظاهر الحياة في قريتهم.

- **مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ (42) :**

هي ريح لا تمرّ بشيء إلاّ أهلكته وفتّته وجعلته يابسا ثمّ ذرّته بعيدا.

- **وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ (43) :**

وهذه مع الآيتين الموالتين في الإنذار بعاقبة سيّئة كعاقبة ثمود قوم صالح عليه السلام.

وأُذكر ثمود إذ قيل لهم، إثر ما جاء صالحا عليه السلام من أمر ربّه ليخرج من مدينة ثمود ومعه أتباعه المؤمنون، اِنعموا بحياتكم واِزهوا واِمرحوا كما شئتم إلى الوقت المعلوم، وقد تمّ هلاكهم بعد ثلاثة أيّام.

- **فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ (44) :**

وخالفوا أمر ربّهم، وعقروا النّاقة، فأصابتهم صاعقة من السماء أفزعتهم جميعا وأهلكتهم نهارا، وهم يبصرون أنفسهم كيف يهلكون ويقعون أمواتا. والصاعقة في القرآن تعني العذاب قد تكون بنارٍ، أو بغَشْيَةٍ نتيجة صيحة شديدة الوقع، يقال صعق فلان صعقة إذا غُشِيَ عليه.

- **فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ (45) :**

فما قدروا على دفع عذاب الله عزّ وجلّ، ولا أن يطيقوه أو يتحمّلوه، وما كانوا ناجين من العذاب، وما كان لهم من ناصر لينقذهم منه، فهلكوا.

- **وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (46) :**

وأذكر كذلك خبر قوم نوح قبل هؤلاء وأولئك، هلكوا أيضا بإغراقهم في الطوفان ولم ينج من هذا الطوفان إلاّ من ركب سفينة نوح. وقد هلكوا لأنّهم كانوا خارجين عن طاعة الله تعالى ولرسوله، ولم يؤمنوا بما جاءهم به، وكانوا به يستهزئون.

- وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) :

بعد الدعوة إلى الإيمان بالبعث بالقسم بعزّة الله وجلاله، وبقدرته على الإنعام أو الإنذار الظاهرة في آيات طبيعية من تقدير الله تعالى، وبعد التّحذير من سوء عاقبة التّكذيب على غرار ما جرى في بعض الأمم، جاءت هذه الآية مع الآيتين المواليتين في الاستدلال على عظيم القدرة للإيمان بأنّ البعث لا يُعجز الله عزّ وجلّ.

والمعنى: وأنظروا إلى السماء، واِسألوا أنفسكم عمّن بناها وكيف بُنِيَتْ لتعرفوا عظيم قدرة صانعها وكمال القدرة. إنّما بناها الله عزّ وجلّ (بِأَيۡيْد) أي بتقديره وقدرته وبقوّته. (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) أي وإنّه تعالى لا يعجزه أن يُمَدِّد في سعَتِها، وأن يحدث فيها ما يشاء من مسافات ليباعد بين كواكبها. وعند علماء الفضاء أقوال تؤكّد أنّ المسافات تتغيّر بين الكواكب في زمان ممتدٍّ، هم أولى النّاس بتفسير هذه التوسعة ودلائلها وكيفيتها. وتعتبر هذه الآية من آيات الإعجاز العلمي الدقيق الذي لا يعرفه إلاّ خاصة الخاصّة من أهل العلم الفضائي.

- وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ (48) :

وتعرّف على فضل الله تعالى على عباده إذ بسط لهم الأرض لطفا بهم ورفقا، ومهدها لهم ليفترشوها ويضطجعوا ويستريحوا، وليقيموا عليها آمنين مطمئنين رغم أنّها متحرّكة تدور حول نفسها دورانًا دائما كلّ يوم لينعموا بسكنهم في الليل، وليسعوا فيها نهارا، وتدور حول الشمس في العام مرّة لينعموا بتحوّل الفصول. (فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ) هذه للثناء على الله عزّ وجلّ الذي قدّر هذا، وجعل النّاس على هذه الهيأة لينعموا بحياتهم في طمأنينة، فلله الحمد والثّناء.

- وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (49) :

ومن مظاهر إبداع الله تعالى في الخلق أن أوجد لكلّ شيء مخلوق صنفين للتّكامل وللتّناسل والتّكاثر لعمارة الأرض ولدوام الحياة على الأرض بمثل ما يكون في جنس البشر، أو في أجناس الحيوان والأنعام، أو للتنوّع في الطعم، أو في الزّينة، أو في الإفادة بمثل ما يكون في أجناس النبات والخضر والغلال، وفي أجناس الشجر وتنوّع الثّمر، أو لخلق التوازن في الحياة ولحاجة الإنسان لطعامه أو قضاء شؤونه فأوجد تعالى الصنفين المتضادّين من مثل النور والظلام، والبرد والحرّ، والسهل والجبل، والحلوّ والمرّ، والماء والنّار، والنظافة والقذارة وكذلك الحياة والموت. وما إلى ذلك من مظاهر التنوّع في المخلوقات لتنظيم حياة الإنسان، وليجد طعامه وشرابه، ولسعيه

وعمله ونشاطه، ولزينته، وقضاء شؤونه. كلّ هذه المظاهر التي خلقت في تنوّعها، أو تضادّها، أو للتكاثر، هي لذوي العقول والأفهام دلائل على أنّ الحياة لم تخلق عبثا، وإنّما لها مدبّر حكيم يحسن التّدبير، وهي عظيم الفضل على خلقه، وعليم بما ينفعهم فيهتدي بها لخالقه، ويعلم أنّه تعالى عظيم القدرة فلا يعجزه أن يحيي الموتى، وهو الذي خلق لكلّ مخلوق بداية ونهاية، حياة وموتا، لا يعجزه أن يحييه بعد موته، وإنّ إحياء الموتى أيسر عند الله تعالى من الخلق الأول. قال تعالى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ)(يس الآيات 78-80).

- **فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(51) :**

حرف الفاء الذي أُفتُتِحت به هذه الآية يفيد النّتيجة، بمعنى أنّ الغاية المقصودة ممّا سبق ذكره أن تفرّوا إلى الله، وقد عُطِف على هذا الأمر نهيٌّ ورد في الآية الموالية (وَلا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ)، فالآيتان في التوحيد، الأولى في الأمر بالمسارعة إلى الإيمان بالله وبطاعته، والثانية في النّهي عن الشّرك لتجسيم التّوحيد، وصاحب هذا الأمر والنّهي الذي أعقبه جملة (إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) وضمير المتكلّم في الجملة هو للنّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، والمخاطَبُون في (لَكُم) هم المشركون، وهذا الخطاب يبلّغه محمّد صلّى الله عليه وسلّم للمشركين بأمر (مِّنْهُ) هو الله عزّ وجلّ، والبلاغ يحمل إنذارا واضحا من إيقاع العذاب المدمّر الذي تظهر آثاره ويبقى مشهودا إن أصرّوا على معصيتهم في المداومة على شركهم، وفي الإعراض عن الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد، والإعراض عن التكذيب برسوله وبما جاءهم به من كتاب وهدي وشرع للخروج من ضلالاتهم، وعمى بصائرهم. وهكذا يتبيّن أنّ الآيتين في التّرغيب للإسراع في التّقرّب إلى الله تعالى بتوحيده: إيمانًا وطاعةً وعبادةً، وفي التّحذير من الشّك وتكذيب الرّسول، وكذلك من عذاب الله عند الإصرار على المعصية والضلالة.

- **كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) :**

هذه مع الآيات الثلاثة لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عمّا يُلاقيه من قومه من صدّ، ورفض للسماع له وللاستجابة لدعوته، ومن اِتّهام في أمانته وصدقه وتبليغه، وهي كذلك في تثبيته ليواصل في التّذكير برسالته وبما يوحى إليه.

والمعنى: وإنّ ما تتعرّض إليه– يا محمد– من طعن في صدقك حتى اتّهمك المكذّبون بك بأنّك مشعوذ أو مجنون للإعراض عن سماعك وعن الاستجابة لك، وللصدّ عنك، ولإسكاتك، قد سبق

لرسل من قبلك أن تعرّضوا لما تتعرّض إليه، وقد أُتُّهموا كذلك بمثل ما أُتهِمت به، وهكذا شأن جميع المشركين ما جاءهم من رسول لهديهم لصراط الله المستقيم إلاّ طعنوا فيه وفي رسالته.

- **أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (53) :**

هل وصّى بعضهم بعضا بهذا الطعن والتّكذيب والاتهام، بل إنّهم أهل عناد وكبرياء وتجاوز الحدّ في الكفر والظلم. والاستفهام في الآية للتّوبيخ.

- **فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ (54) :**

فلا تأْبَهْ – يا رسول الله – بما يقولون فيك، وأعرض عن مجادلتهم فيما يتّهمونك به، واِصفح عنهم، ولست ملوما عن أيّ تقصير لأنّك أدّيت ما عليك من تبليغ ما كُلِّفْت به من رسالتك.

- **وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (55) :**

واِستمرَّ في وعظك للنّاس رغم ما تلاقيه من مشقّة، فإنّ مواعظك يستفيد منها أتباعك المؤمنون، ذكّرهم بالله تعالى بوعده ووعيده لينتفعوا بتذكيرك ليعملوا صالحا وليزدادوا خشية من الله عزّ وجلّ، وليرتفع عنهم حجاب الغفلة، وليعرفوا شرع ربّهم وأحكامه.

- **وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ (56) :**

بهذه الآية إلى الآية 60 تختم السورة، وقد جاء فيها التّنبيه بأنّ الله سبحانه لم يخلق الخلق وينعم عليهم بنعمة الوجود –سواء أكانوا إنسا أم جنّا– ليعبدوا غيره، إنّهم حين يُسألون عن خالقهم يقولون هو الله عزّ وجلّ. قال تعالى (وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ)(الزخرف الآية 87). فكيف يخالف عملهم قولهم ومعتقدهم حين يعبدون أصناما جمادا لم تخلقهم بل إنّها من حجارة مخلوقة ومنحوتة بأيديهم؟ وأمّا الجنّ فقد كانوا يقولون كذبا في ما يزيّنون لأتباعهم من الإنس ليضلّوهم عن سبيل الله. قال تعالى (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا)(الجنّ الآيتان 5-6). وما أُمِرَ الإنس والجنّ إلاّ ليعبدوا الله وحده. قال عزّ وجلّ (وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ)(البيّنة الآية 5) .

لذا فإنّه من ضعف العقل، وقلّة الوعي، ومن الانحراف عن الرّشاد أن يعبد مَنْ خلقه الله تعالى وأنعم عليه بنعمة الوجود غير خالقه، ويتّخذه إلاها يعبده ويقدّسه ويدعوه وهو صنم أو إلاه نَصَّبَه على نفسه من خياله ومن أوهامه. إنّ الشّرك من أعظم الضلالات والأوهام ومن أعظم دلائل الجحود للمنعم.

- **مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ (57) :**

في هذه الآية تعريض بمشركي مكة الذين كانوا يذبحون هديهم ذاكرين أسماء آلهتهم المزعومة عليها، وينحرونها على النُّصُب، وكانوا يقدّمون لها القرابين من مثل الوصيلة والحام،

وكانوا يهدون لأصنامهم أموالا وطعاما تتلقّاها منهم سدنة الأصنام، وتبيّن الآية أنّ الله سبحانه غنيّ عنهم، وما يريد من عباده حاجةً، فإنّه هو الرّزاق وهو المنعم وهو المعطي وهو المطعم بما ينزل عليهم من رزق من السماء لتخصب أرضهم وتنبت الزرع والكلأ ولتُنْتِجَ الشجرة والنخلة الثّمر. وإنّه مِنْ عظيم الغفلة، ومن الجهالة، ومن عمى البصيرة، وسخف العقل أن يدعو عبد ما لا ينفعه بشيء، وأن يتقرّب إليه بقربانه، وأن يسجد له، ويترك عبادة صاحب الفضل عليه في خلقه، والمنعم عليه بالصحة والقوة والعقل والخيرات، ويشرك به غيره...

- إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ (58) :

إنّ الله هو الرّزّاق الحقيقي الذي ينعم على خلقه بالخيرات الكثيرة والمتنوّعة ليحيوا حياة كريمة، وأنّه هو صاحب القدرة القوية الشديدة، هو المعتمد عليه، وهو الوليّ والنّصير الذي لا يغلب، فتوكّلوا عليه، وأُدعوه إذا طلبتم الرّزق أو النّصرة، ولا تدعوا أحدا غيره لا يملك لكم رزقا ولا يدفع عنكم ضرّا، ولا ينصركم إذا إستنصرتموه.

- فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ (59) :

(الذّنُوب) في اللّغة هو الدلو الكبير الذي يُلقى به في البئر لمَلْئِه بالماء، ويُستعمل للسقي، وفي هذه الآية يراد به: النّصيب من العذاب، ذلك لأنّ الآية في تحذير المشركين الذين أصرّوا على شركهم، ولم يتدبّروا فيما جاءهم من عند ربّهم ليهتدوا به إلى الحقّ وإلى صراطه المستقيم، وليفتحوا بصيرتهم فيعلموا أنّ ما هم عليه هو من الضلال البيّن، وفي تحذير الذين يؤذون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالتّكذيب، أو بالصدّ عنه، ومعنى الآية: فإنّ للمشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وبمشاقة الرسول صلّى الله عليه وسلّم نصيبا من العذاب بمثل ما نال سابقيهم من أمثالهم، فلا يستعجلون نزول العذاب فإنّه آتيهم، وقد حلّ بهم ما توعدهم الله تعالى به وذلك يوم بدر بحدّ السيف، وفي معارك أخرى فأصابهم الخزي، وهلك رؤساء الكفر، فقد قالوا للرّسول صلّى الله عليه وسلّم (فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)(هود الآية 32).

- فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (60) :

وهذه في ما ينتظرهم في آخرتهم: في اليوم الموعود : يوم الحشر والحساب. ينتظرهم الويل، وهو الهلاك بالعذاب الأليم. وما هذا الوعيد إلاّ ليتوبوا عن الكفر، وأعظم أشكال الكفر: الشّرك بالله الواحد الأحد.

نسأل الله أن يجيرنا من عذابه، ونسأله تعالى أن نكون من الهداة المهتدين إلى صراطه المستقيم.

رقمها	ســــورة الطـــــور	آياتها
52	ـــــ مكيــة ـــــ	49

سمّيت هذه السورة باسم القسم الذي أُفتُتحت به : "الطور" وهي سورة مكية، ولذا فإنّ مواضيعها في العقيدة. وقد أُختصّت في الوعيد والوعد للنّذير والتّبشير. وفيها تحذير من طعن المشركين في أمانة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وصدقه، وتحدّاهم لأنْ يأتوا بمثل هذا القرآن الذي يكذّبون به. وفيها وعيد شديد على الشرك ومظاهره، ومن خصائص هذه السورة أنّها عرضت جميع الفرضيات الممكنة التي دفعت بالمكذّبين بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وبدعوته للإعراض عن الاستجابة له وللاستقامة على دين الله تعالى، وقد نفت كلّ هذه الفرضيات فلم يبق لهم إلاّ العناد والمكابرة. وخُتمت السورة بدعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للصبر على أذى المكذّبين مع الاستعانة بالصلاة.

- وَٱلطُّورِ (1) :

قسما بالجبل الذي كلّم الله تعالى عنده موسى عليه السلام. أقسم الله تعالى به لما كان فيه من تشريف لموسى ولرسالته، ولما كان فيه من الآيات.

- وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ (2) فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ (3) :

وقسما بالقرآن المكتوب في مصاحف ينشره المؤمنون لقراءته وللعلم بكلام الله تعالى وهديه وشرعه ومواعظه. وقيل هو قسم بالتّوراة التي كتبها موسى عليه السلام بعد نزول الألواح عليه، ثمّ نسخها المؤمنون ونشروها تبليغا لشرع الله تعالى ودينه. وقيل هو قسم بصحائف أعمال الخلق المكتوبة في صحف محفوظة ثمّ تنشر على أصحابها عند بعثهم. وقيل هي كلّ الكتب المنزلة على الأنبياء والمرسلين، وكلّ كتاب كان مسطورا في اللوح المحفوظ ثمّ كتب في صحف ونشرت على المؤمنين ليقرؤوها. وأيّا كان القول فإنّ الآيتين في القسم بكتاب (مسطور) أي محفوظ عند الله عزّ وجلّ ثمّ نُشِرَ ليُقْرَأ. والله تعالى أعلم بالمقصود.

- وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ (4) :

وقسما بالكعبة، وُصفت بالبيت المعمور لأنّها لا تخلو من طائف يطوف بها في كلّ وقت وزمن.

- وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ (5) :

وقسما بالسماء، سمّيت سقفا في قوله تعالى (وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا)(الأنبياء الآية 32)، وهي مرفوعة لقوله تعالى (وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا)(الرحمان الآية 7). وقد كثر القسم بالسماء في القرآن لأنّها من أعظم الدلائل المشاهدة على عظيم القدرة، وعظيم الحفظ، وحسن القيّوم عليها.

- وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ (6) :

وقسما بالبحر (ٱلۡمَسۡجُورِ) الممتلئ، لعلّه للإشارة للبحر الذي غرق فيه يونس عليه السلام، ثمّ أنجاه الله تعالى من الغرق فيه، فهو آية من آيات الله تعالى للوعيد والوعد، ولعلّه نهر النيل الذي أُغرق فيه فرعون وجنده لتنفيذ الوعيد، وهذا من الأنسب لموضوع جواب القسم الذي في الوعيد. وعموما فإنّ هذه الآيات في القسم بأماكن شريفة، الطور كان لكلام الله تعالى لموسى، والكتاب هو مصحف لهدي الله تعالى وشرعه، والسماء دليل على عظمة الله تعالى في الخلق والتدبير والتسيير، والكعبة لذكر الله عزّ وجلّ والبحر لوعيد المكذبين نصرةً للحق.

- إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ (7) :

وهذا جواب القسم. إنّ عذاب الكافرين بوحدانية الله تعالى وبرسله وبكتبه، والمكذّبين بالبعث وبالوعيد، والعصاة المذنبين لواقع في دنياهم يوم يأذن به الله سبحانه، وهو واقع حتما في آخرتهم يوم القيامة، فلا مفرّ لهم منه ليعلموا أنّ وعد الله حقّ لا ريب فيه.

- مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ (8) :

وهو عذاب لا يردّه أحد عن وقوعه، ولا أحد يشفع فيه، وفي هذا إبطال لمزاعم المشركين الذين يدّعون أنّهم يعبدون الملائكة – بنات الله على حدّ زعمهم– لتشفع لهم عند ربّهم. ولا أحد يفرّ من هذا العذاب أو يستطيع أن يعطّله.

- يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرًا (9) :

وهذه في إحدى علامات قيام الساعة: موعد وقوع العذاب بالكافرين. يومئذ (تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ) أي تضطرب، وتتحرّك في غير اِنتظام وتموج كما تتحرّك الأمواج في البحر الهائج.

- وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرًا (10) :

وهذه في العلامة الثانية من علامات قيام الساعة، تصبح الجبال غير ثابتة، وتصبح أكداسا من حجر وتراب تمتدّ على سطح الأرض فتردم ما تَسيخُ عليه، وعندئذ يختلّ توازن الأرض فتَمِيدُ وتتمايل بما عليها، ويتلاطم فيها البنيان ويختلط الماء باليابسة.

- فَوَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (11) :

حين تحدث هذه الظواهر، فيومئذ تقع الواقعة التي تذهب بجميع مظاهر الحياة، ويتبعها قيام الساعة للبعث وللحساب. ويومئذ يرى الويْلَ المكذّبون بوحدانية الله، وبرسله، وبكتبه، وبيوم البعث والحساب، وبالوعد والوعيد، وهو ويل يُذهِلُهم، ويشعرهم بالحسرة والنّدم، ويعلمون أنّهم مقبلون على عذاب أليم.

- ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٍ يَلۡعَبُونَ (12) :

هؤلاء المكذّبون كانوا في دنياهم في اِضطراب وجدل كلامي بالباطل، وفي تكذيب بما يبلغهم عن ربّهم، وكانوا يطعنون في صدق رسلهم، وفي صدق الوعد والوعيد، وكانوا يهزؤون ويتندّرون بما يسمعون من أنباء البعث والوعيد.

- يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) :

يومئذ يُدفعون إلى النّار دفعا بشدّة وقوّة، فيه مهانة لهم وإذلال، وبما يمنعهم عن الفرار من حشرهم في نار جهنّم.

- هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) :

حين يحشرون في نار جهنّم سيعلمون أنّهم وقعوا حقّا في النّار التي بها يكذّبون، وأنّ الوعيد الذي لم يصدّقوا به، وكانوا به يهزؤون كان حقّا وأمرا ثابتا، وكان وعيدا صادقا.

- أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ (15) :

ويُقال لهم للتّقريع والتّوبيخ والتّهكّم: أَمِنَ السّحر هذا الذي وقعتم فيه، كما كنتم تقولون عن هذا الوعيد في دنياكم؟ أم أنّكم لا ترون شيئا من النّار ومن عذابها مثلما كنتم في دنياكم لا ترون الحقائق؟

- ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (16) :

اُدخلوها اليوم لتُحْرَقُوا بها، واِصبروا على ما أنتم فيه أو تذمّروا منه واِسخطوا واِجزعوا كما شئتم على سواء، فإنّه لا ينفعكم هذا ولا ذاك ولا يُخَفَّفُ عنكم من عذابها، وما هذا إلا جزاؤكم على ما كنتم تعملون.

وهذه الآيات كلّها في وعيد الكافرين المكذّبين بالدين وبالرسول وبالقرآن وبالبعث وبالحساب، وهي كلّها في جواب القسم الذي ورد في مفتتح السورة.

- إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ (17) :

وعلى عادة القرآن الكريم في إرفاق الوعيد بالوعد، جاءت هذه الآية إلى الآية 28 ما ينعم به الله تعالى على عباده المتقين من الخير والنّعيم في آخرتهم، وهذا للتّرغيب في الإيمان وفي الاهتداء بهدى الله عزّ وجلّ للاستقامة على دينه. ومعنى الآية: إنّ الذين كانوا يخشون ربّهم فآمنوا به وعملوا بالطاعات واِنتهوا عن المحرّمات والمنكرات، واِجتنبوا الآثام فإنّ إقامتهم في آخرتهم ستكون في بساتين فيها من كلّ الخيرات، وسينعمون فيها بجميع مظاهر الإسعاد والرّفاه وما يشتهون.

- فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (18) :

وفي إقامتهم يتلذّذون بما أنعم الله تعالى عليهم من الخيرات، ويسرّون بها، ومن فضل الله عليهم أنّه تعالى أنجاهم من عذاب النّار، وحماهم منه وأنقذهم من جحيمها.

- كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (19) :

ويُقال لهم: كلوا ممّا تشتهون من ثمار الجنّة آمنين مطمئنّين من غير حساب جزاءً لكم على ما كنتم تعملون من عمل الطاعات ومن الصالحات.

- مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (20) :

وتراهم في ديار الضيافة في جلسة مريحة على فرش جعلت صفوفا للضيافة والأنس، وزُوِّجوا بحسنوات واسعات الأعين.

- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21) :

هذه في تبشير الأُسَرِ الّتي تُنْشِئُ ذرّيةً على الإيمان بإيواء الآباء والأمّهات وذريّاتهم جميعهم في جنّات التكريم للأنس ببعض ولإسعادهم بتلاقيهم ومصاحبتهم في النّعيم المقيم.

والغرض المقصود: حضّ الأولياء على تربية أبنائهم على الإيمان الحقّ، وعلى صراط الله المستقيم حتى لا يحرموا من تلاقيهم مع بعض في آخرتهم، وحتى لا يكون بعضهم في آخرته شقيّا بسبب كفره فيُحْرم من أن يكون مع والديه وأحبّائه وإخوته وأخواته في النّعيم، وفي أنس.

وفي الآية بُشرى أخرى، وتتمثّل في وعد الله سبحانه الذرية بالعفو عن من أساء منهم في حياته الدنيوية وأذنب فيما لم يكن من الكبائر، وبالتكفير عن سيّئاته تكريما لوالديْه حتى لا يحرمهما من مصاحبة أحد أبنائهما لهما، وذلك لمزيد إسعادهما لحرصهما على تربية الابن أو البنت على الدين الحقّ، وهذا معنى قوله تعالى (وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ) أي لا يؤاخذهم عمّا صدر منهم خطأ أو طيشا.

وفي قراءة قالون عن نافع المدني، فإنّ لفظ (ذُرِّيَّتَهُم) جاء في صيغة جمع الجمع، فلعلّ ذلك يعني ذرية الذرية، فيكونون أحفادا للأولياء الذين ربّوا أبناءهم على حسن الإيمان الحقيقي، وبهذا يجمع الله تعالى الآباء بأبنائهم وبأحفادهم، وهذا من أعظم التكريم للآباء والأمّهات المؤمنين الذين أنشؤوا أبناءهم على الاستقامة على دين الله تعالى وطاعاته. وجاء في (الرعد الآية 23) (جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ).

(كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) أي كلّ إنسان مُرْتَهَنٌ بعمله، ويلقى جزاء عمله، فمن أحبّ الله تعالى وثابر على طاعته، وخشي معصيته أحبّه الله تعالى وأكرمه وزاده من فضله. قال تعالى(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(آل عمران الآية 31) ومن أعرض عن ربّه وتولّى عن طاعته تُرِكَ لنفسه، ولا يُنظر إليه، كالذين قال فيهم تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ

يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(آل عمران الآية77).

ففي هذه الآية إرشاد للأولياء المؤمنين لئلاّ يفرّطوا في تربية أبنائهم على الاستقامة على دين الله الحقّ: الإسلام، عقيدةً وشرعة وعملا وخُلقا، وأن لا يستقيلوا من هذه المسؤولية إن كانوا يحبّون الخير لأبنائهم. وإذا كانوا يحبّون الاجتماع بهم في آخرتهم مع أحفادهم في جنّات النّعيم والتّكريم.

- وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (22) :

وأكثرنا لهم من الفاكهة غير التي كانت لهم زيادةً من عند الله تعالى، وممّا يشتهون من أصناف اللحوم كرما من عنده تعالى.

- يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23) :

ويشربون كؤوسا من شراب، وما لذّ من العصير، ويتبادلونها. وشربُ هذه الكؤوس من الشراب المباح لا يجعلهم يلغُون في حديثهم وتفكّههم، ولا يأثمون، لأنّه ليس في جنّة عدن لغو وليس فيها وقوع في الإثم. في جنّة عدن ذكر الله تعالى بحمده، وفيها كلام للأنس.

- وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (24) :

ويقوم على خدمتهم غلمان يأتمرون بأمرهم ويقضون لهم ما يشاؤون. وغلمانهم – في جمالهم – كأنّهم الدّرر المحفوظة المصانة فهي صافية.

- وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (25) :

وفي جلساتهم للحديث والأنس يسأل بعضهم بعضا عمّا كانوا يعملون في دنياهم من الطاعات التي أدخلتهم جنّات النّعيم، وجعلتهم محلّ التكريم من عند الله عزّ وجلّ.

- قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ(27) :

قال جمع منهم: إنّا كنّا في حياتنا الدنيوية نخاف أن نقع في المعصية خشية من عذاب الله تعالى وغضبه علينا، كنّا نشفق على أنفسنا من أن نثير غضب ربّنا علينا، فأنعم علينا وأنجانا من عذاب لهب النار وحرّها الذي ينفذ من مسامّ الجلد إلى الباطن.

- إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (28) :

وكنّا ندعوه تعالى لأن يحفظنا من غضبه وعذابه متوسّلين إليه بأنّه تعالى هو (ٱلْبَرُّ) أي المحسن، اللطيف بعباده، وأنّه كثير الرحمة بعباده المؤمنين، فسمع دعاءنا واستجاب لنا واليوم ننعم ببرّه إذ صدق وعده وننعم برحمته التي نراها في تكريمنا بما نحن فيه من النعيم ومن النّجاة من عذاب السموم.

وفي هذا إلهاب لمشاعر المؤمنين ليخشوْا ربّهم، وليدعوه للنّجاة من عذابه وغضبه بأنّه هو البرّ الرّحيم.

- فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ (29) :

هذه في دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للمداومة على دعوة عباد الله لدين الله الحقّ ولشرعه رغم طعن المكذّبين في اِتّهامه في أمانته وصدقه. وفي الآيات تحذير للمشركين المكذّبين بالقرآن الكريم وبوحدانيته من أن ينزل عليهم عذاب من السماء.

ومعنى الآية: داوم على دعوة النّاس للإيمان بالله وحده وللحذر من غضبه وعذابه في دنياهم وآخرتهم، ولا تهتمّ بما يتّهمونك به، فلست – كما يدّعون– ممن يدّعي العلم بالغيب بما تخبرهم عن البعث وعن الحساب وعن الوعد والوعيد، وحاشاك أن تكون مجنونا فتقول لهم كلاما من الهذيان، لست تهذي فإنما أنت رسول ربّك تبلّغهم ما يوحى إليك من ربّك.

- أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ (30) :

أم يتّهمونك في ما تقرأ عليهم من القرآن بأنّك شاعر، وأنّهم ينتظرون موتك أو حتفك بحادث من حوادث الدهر ليستريحوا ممّا تقول فيهم ممّا يأتيك من الوحي، وما كان اِتّهامك بهذه الصفة ومُنيتهم في قضاء نحبك إلاّ للصدّ عنك، وللإعراض عمّا يسمعون منك.

- قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ (31) :

قل لهؤلاء الذين ينتظرون موتك: اِنتظروا، وإنّي معكم من المنتظرين للموت، ولا أدري أيّنا يصيبه الموت قبل الآخر. وهكذا كقوله تعالى (قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ)(التوبة الآية 52).

- أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (32) :

الأحلام هنا هي العقول الصبيانية، غير الناضجة وغير الواعية، وجاء على ألسنة العرب من الأمثلة "أجسام البغال وأحلام العصافير" لضرب المثل في مَنْ كان سخيف العقل الذي لا يحسن الفهم ولا يحسن التدبير لسذاجته. هؤلاء الذين يتمنّون موتك أو حتفك حتى لا يسمعوا منك ما يهديهم للرّشاد هم من أهل السُّخْفِ، وضعف العقل، وقلّة الوعي، أم هم قوم قد تجاوزوا حدّهم في العناد والإصرار على الباطل وفي الكبرياء. والاستفهام وإن كان يفيد التخيير بين الانتساب لهذا الصنف أو ذاك إلاّ أنّه يقصد التّأكيد على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن لا يأبَهَ بما يقولون، وبما يتمنّون له، فإنّما صدر قولهم أو كان تمنّيهم من سخف عقولهم. ولا يأبه العاقل بما يصدر عن الساذج السخيف ولا يوليه اِهتماما، وإن صدر عن المستكبر فليس من شيء أثقل على نفس المتكبّر من تسفيهه، وعدم الالتفات إليه، ومن اِحتقار قوله.

- أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (33) :

ويقول آخرون عن القرآن المنزل إليك من الرّحمان، إنّه يقوله من نفسه، وينسبه إلى الله تعالى كذبا، ولم يُوحَ إليه بشيء، هو من كلامه وإنشائه. بل إنّهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنّه ليس من كلامك، وأنّك لم تتقوّله ولكنّهم يتّهمونك بهذا الاتّهام إخلاصا لشركهم وإصرارًا عليه، وتهرّبا من أن يغيّروا ما بأنفسهم من الباطل.

- فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ (34) :

قل لهؤلاء: أنشئوا كلاما مثل هذا الكلام، وقولوا من عندكم قولا مثله إن كنتم صادقين في الطعن في صدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّه جاءكم بشيء من عنده، فهاتوا من عندكمْ حديثا مثله.

- أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ (35) :

ولينظروا في أنفسهم: أكانوا قد خُلقوا بغير قدرة، وبغير سبب، وبدون أب وأم: من الهواء مثلا، أم بالمصادفة على نحو ما هم عليه من حسن الخلق ودقّته، أم هم الذين خلقوا أنفسهم بأنفسهم؟ وهم الذين خلقوا هذا الخلق الذي في الوجود؟ وهذه كقوله تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا)(المؤمنون الآية 115).

- أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (36) :

أم خلقوا السماوات بما فيها من كواكب ومجرّات وأقمار، أم خلقوا الأرض بما فيها وما عليها؟ فجعلهم يتمرّدون على الخالق الحقيقي فلا يؤمنون به خالقا وقادرا وصاحب الفضل المنعم عليهم وعلى كلّ الموجود بالوجود، ثم تمرّدوا على طاعته. بل إنّهم يرفضون أن يعتقدوا الاعتقاد الجازم بأنّهم على باطل في شركهم وفي كفرهم بالله خالقا بسبب سخفهم ومكابرتهم وبسبب عنادهم وتمكّن التّقليد في سلوكهم الديني.

- أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ (37) :

هذه في زعماء قريش الذين شاقّوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ولم يؤمنوا، ولم يسمعوا له، ثمّ صدّوا عنه بدعوى أنّ القرآن لم ينزل على أحد عظمائهم وأنّ الرسالة لم يُكلّف بها عظيم سوى محمد صلّى الله عليه وسلّم. قال تعالى مخبرا عنهم (وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ)(الزخرف الآيتان 31-32) والمعنى أعند هؤلاء مفاتيح خزائن رحمة الله تعالى ليتصرّفوا في مشيئة الله تعالى واختياره لرسله، أو لتوزيع نعمه على من يشاء من عباده ليضعوا الرسالة حيث يشاؤون ويمنحوها لمن شاؤوا واختاروا؟ أم هم المتسلّطون على خزائن نِعَمِ الله تعالى ومُقَدّرَاتِهِ ليتصرّفوا في توزيعها على نحو ما يُريدون؟

والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع لأنّهم من شدّة كبريائهم يضعون أنفسهم في مقامات لا حقّ لهم فيها من عظيم اِغترارهم.

- أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38) :

أم لهؤلاء مدارج ومَرَاقِي يرتقون بها إلى السماء ليستمعوا منها لأخبارها الخاصة بعلم الغيب على نحو ما يصل إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم من أخبارها عبر ما يُوحَى إليه: إذا كانت لهم هذه المراقِي وهذه القدرة فليسْتَظْهِر من سمع منهم لأخبارها بحجّة بيّنة واضحة يثبت بها ما بلغه من الكذب والافتراء الذي جاء على لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

لقد جاءت الآية السابقة في التأكيد على أنّ اِصطفاء الرسول لحمل رسالة ربّه إلى عباده هي من خصائص الله وحده، لا أحد من المخلوقات يتصرّف في مشيئة الله عزّ وجلّ، ومن يتكلّم في الاصطفاء إنّما هو مسيطر يضع نفسه في مقام لا يبلغه أحد من الخلق. وجاءت هذه الآية في التأكيد على أنّ المكذّب بالوحي وأخبار السماء وما يبلّغ به رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم لا يعتمد على حجّة ثابتة بيّنة في تكذيبه، ولا يملكها، فتبيّن أنّ المكذّبين بالوحي وبالرسول وبرسالته إنّما هم يتّبعون أهواءهم في المكابرة والاستكبار. وهكذا سُلِبَ المكذّبون في هاتين الآتين من كلّ حجّة عن تكذيبهم القائم على الوهم والغرور.

- أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) :

وهذه في الردّ على المشركين الذين نسبوا لله سبحانه: اللاّت والعزّى ومناة، وقالوا هنّ بنات الله من سروات الجنّ، وادّعوا أنهنّ ملائكة يعبدونهنّ لتُقَرِّبَهُمْ إلى الله زلفى. وهذه كقوله تعالى (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)(الصّافات الآيات 149-155). وكان الرّد على هذا الزعم المفترى بغير علم، ولا شهود في قوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ)(الأنعام الآية 100). والاستفهام في هذه الآية للتعجّب ممّا يَدَّعُون على الله سبحانه كذبا، وهو تعجّب يفيد التوبيخ على الكذب والافتراء فكيف ينسبون لله تعالى ما يكرهون: جنس البنات، ويحبّون لأنفسهم إنجاب الذكور؟ اِختيار من الاختلاق الباطل السخيف. وهذه كقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ)(النحل الآية 57).

- أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (40) :

وفي مواصلة لمساءلة هؤلاء الرافضين للاستجابة لدعوة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم للاستقامة على دين الله الحقّ جاءت هذه الآية في سؤالهم: أكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد

فرض عليهم عطاء ماليا مقابل تبليغهم برسالته ليعرضوا عنه حتى لا يثقل عليهم الغرم المالي ويجهدهم ويسلبهم أموالهم، فلذلك رفضوا اِتباعه وأعرضوا عنه؟ وتعدّد الاستفهام في هذه الآيات هي في عرض كلّ الفرضيات الممكنة التي تجعل المعارضين لهذه الدعوة والمكذّبين بها للوقوف عن سبب واحد من هذه الفرضيات الذي جعلهم يمتنعون عن الاستجابة لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فإذا اِنتفت الأسباب مع عرض جميع هذه الفرضيات الممكنة تبيّن عندئذ أنّ اِمتناعهم عن الاستجابة للدعوة ليس له من مبرّر إلاّ العناد والمكابرة.

- **أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ (41) :**

أم عندهم علم بالغيب، وعندهم اِطلاع عليه ومعرفة به لأنّهم كانوا من كَتَبَتِهِ، فعلموا أنّ ما جاءهم به محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أمر الدين ومن أمر البعث والوعد والوعيد مخالفٌ لما كتبوه، فلذلك رفضوا الاستجابة له وكذّبوه. ومادام هؤلاء لا يملكون العلم بالغيب، وما كانوا من كتبته، فمن أين لهم أنّ ما جاءهم به محمد صلّى الله عليه وسلّم من خبر الدّين والقيامة خبرٌ باطل؟ إنّه لا حجّة لهم لحدّ الآن لتبرير موقفهم الرّافض للدّعوة أو لتبرير سبب تكذيبهم للرّسول صلّى الله عليه وسلّم بما جاءهم به.

- **أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ (42) :**

أم يدبّرون مكيدة بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم في ناديهم لإيقافه عن نشر دعوته، ولصدّ النّاس عن اِتّباعه لوَأْدِ الدعوة في مهدها. كلاّ لن يبلغوا غايتهم فالذين كفروا بهذه الدعوة ويكيدون لها ويمكرون ستدور عليهم الدوائر وسيُغْلَبُونَ، وسيقهرون بانتصار الدعوة على مكائدهم.

- **أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (43) :**

أم لهؤلاء إلاه آخر غير الله، خلقهم وسوّاهم، ورزقهم ونفعهم، ويخشون ضرّه ومعصيته فأعرضوا عن عبادة الله الحقّ وعن الاستجابة لدعوته للاستقامة على دينه. تنزّه الله تعالى عن أن يكون له شريك أو ندّ. قال تعالى (وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ)(النحل الآية 51). بعد هذا العرض لم يعد للمشركين ولا للمكذّبين أيّ مبرّر للتخلّف عن الاستجابة لدعوة الله لتوحيده والاستقامة على دينه.

- **وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ (44) :**

هذه الآية مع الآيات الثلاثة الموالية في وعيد المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله بالتّكذيب والطعن في صدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وبالكيد الخفيّ أو باعتماد تأذية المؤمنين المستضعفين ليرتدّوا عن دينهم نصرةً لباطلهم.

ومعنى الآية: وليحذر هؤلاء من أن يروا قطعا من السماء بانشقاقها فيكذّبوا بها ويقولوا إنّما هذا سحاب متراكب على بعض لأنّهم إعتادوا على التكذيب بكلّ ما يأتيهم من الوعيد. وقد جاءت هذه الآية ردًّا على طلبهم من الرسول صلّى الله عليه وسلّم حين بلّغهم وعيد الله القريب فقالوا متحدّين (أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا)(الإسراء الآية 92). والكِسَفُ: هي القطع المدمّرة التي تتساقط عليهم من السماء.

- فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ (45) :

فلا تأبَهْ – يا رسول الله – بكفرهم بالوعيد، وبهزئهم منه، وبتحدّيهم لقدرة الله تعالى عليهم، فسيأتيهم يوم يصعق فيه جميعهم ويهلكون هلاكا بيّنا، وقد جاءهم هذا الهلاك يوم بدر، وفي معارك أخرى غيرها.

- يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (46) :

يومئذ لا يدفع عنهم كيدهم الذي كانوا يكيدونه في الخفاء للقضاء على الدعوة شيئا من العذاب والهلاك، ولا يجدون من آلهتم التي يدعون ولا من أنصارهم وأتباعهم، ولا من مالهم وجاههم ما يخلّصهم من حتفهم وموتهم وصَرْعهم، ولا يَلْقَوْنَ نُصرةً ولا نجدة.

- وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (47) :

وسيلقى هؤلاء الظالمون لأنفسهم بالكفر والظالمون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالتكذيب، والظالمون للمؤمنين المستضعفين بأذيتهم عذابا آخر غير ذلك العذاب الذي فيه يُهلكون. سيصابون بعذاب في أبدانهم، وفي أموالهم، وفي إنصراف أبنائهم عنهم للإيمان، وقد يلحقهم عذاب الجوع والقحط ونزول المصائب عليهم وهم غافلون، لا يعرفون سبب ما يجري فيهم، وغافلون عن سوء المصير الذي ينتظرهم بعد ذلك إذا ماتوا وهلكوا، وغافلون عمّا سيصيرون إليه من الذلّة والمهانة يوم ينتشر دين الله تعالى ويظهر فيُذكر فعلُهم فيما كان منهم أيّام جبروتهم فيشعرون بالخزي والعار بعد كبريائهم وهزئهم بدين الله تعالى.

- وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) :

الخطاب في هذه الآية وفي التي تليها للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهذه في تسليته وتدعيمه وتوجيهه، والثانية في التّوجيه لما يقرّب الإنسان من ربّه. ولئن كان الخطاب للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الآيتين إلاّ أنّهما في عمومهما ترشدان كلّ مؤمن لأن يثابر على الصبر عند تحمّل أيّ مسؤولية ليمتلك القدرة على تحمّل مشقّة التكليف، وإذا كان صادقا في عمله وفي إستقامته فإنّه يثق بحفظ الله تعالى له ومساندته، ومع هذا وذاك عليه أن يستعين بالصلاة والدعاء. قال تعالى (وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ)(البقرة الآية 45).

ومعنى الآية: تجمّل – يا رسول الله – بالصبر، وداوم عليه في تحمّلك أعباء الرسالة، ومهمة تبليغ التّكليف، ولا تضعف، ولا تحزن لتباطؤ قومك في الاستجابة لدعوتك، ولا تخش منهم شيئا فإنّك محفوف بعناية ربّك وحفظه، فلن يصلوا إليك بشيء من كيدهم وأذاهم لأنّ الله تعالى حارسك بقدرته وبألطافه، ولا تكدّر نفسك ومزاجك بما تسمع منهم من تكذيب وهزء، وداوم على الذّكر والصلاة والتّسبيح بحمد ربّك إذا صحوت من يومك.

- وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ (49) :

أُذكر ربّك بالتّسبيح بحمد الله تعالى، وبالصلاة، وبالدعاء إثر كلّ صلاة إذا قمت من مجلسك أو إذا فرغت من عملك، وحين تقوم من منامك، وصلِّ زمنا باللّيل لصلاة القيام أو التّهجّد، وصلِّ حين يختفي النّجم ويذهب ضياؤه. والآيتان تشيران لصلوات الفرض وللرّغائب مع المداومة على الذكر باللسان.

رقمها	ســـورة النّجـــم ـــــ مكيــة ـــــ	آياتها
53		62

سمّيت هذه السورة باسم اللفظ الذي أُفتتحت به: "النّجم"، وهي سورة مكية، ولذا فإن مواضيعها في العقيدة. ومن أهمّ أغراضها: إثبات صدق الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، وإثبات صدق الوحي الذي يأتيه عَبر أمين الوحي: "جبريل" عليه السلام.

ومن مواضيع السورة: بيان فساد معتقد المشركين في آلهتهم المزعومة، وفيما يعتقدون في شفاعة الملائكة. وفيها ترغيب في اِجتناب كبائر الإثم، وكذلك البخل. وذكّرت بأنّ تقييم عمل العباد في آخرتهم واقع حتما، وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى.

وقد جاء في هذه السورة إخبار بمسائل من علم الغيب: من مثل النجم الهاوي، وسدرة المنتهى، ورؤية جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية. وهذه مسائل لم يرد فيها عند علماء الضبط والتصحيح الباحثين في صحة السند والرواية قول صحيح ثابت مروي عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لذا فإنّ من الأمانة العلمية أن يقف المفسّر عند معنى النّصّ القرآني، وأن يدَعَ العلم بها لعالم الغيب والشهادة سبحانه، خاصّة إذا تبيّن بنفسه اِضطراب هذه الرّوايات، ولم يطمئنّ إليها قلبه، وخشي أن يقول فيما لا يعلم قولا غير ثابت.

- وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ (1) :

قسما بالنّجم إذا سقط من السماء، وخرج من مجراها، ويكون هذا إذا اِنشقّت السماء يوم يأذن الله تعالى بقيام الساعة.

- مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ (2) :

هذا جواب القسم السابق، والصاحب هنا هو رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم. والمعنى: قسما بالنّجم إذا سقط من مركزه إنّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم ما حاد عن الصواب، وما حاد عن الحقّ والهدى، ولا اِعتقد الباطل، أو دعا إلى باطل، بل إنّه هادٍ ورشيد، ومكلّف بتبليغ رسالة ربّه إلى النّاس كافّة.

- وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ (3) إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ (4) :

وما يتكلّم بهذا القرآن من عند نفسه، أو عن رغبة منه وشهوة. ما هذا القرآن إلاّ وحي يوحى إليه من عند ربّه عزّ وجلّ، وهو كلام الله سبحانه وتعالى. وهذا للردّ على من يتّهم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم باختلاقه، أو بالافتراء على الله عزّ وجلّ، أو بأنه شاعر أو كاهن. فالآية لإثبات

صدقه صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغ به من عند ربّه، وأنّ ما يبلّغ به هو من الهدى والرّشاد وليس من كلام الهوى أو الغواية.

- عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ (5) :

وهذا القرآن الذي تسمعونه منه قد علّمه إيّاه، وحفّظه له أمين الوحي: جبريل عليه السلام، وهو ملك عظيم الاستطاعة في تنفيذ كلّ ما يكلّفه الله تعالى به من أمر.

- ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ (6) وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (7) :

وهو ملك (ذُو مِرَّةٖ) أي ذو متانة وقوّة، وذو دقّة لا يخطئ الصواب، وذو أمانة، وظهر جبريل عليه السلام لمحمد صلّى الله عليه وسلّم في صورته الحقيقة مستويا بأجنحته التي تملأ الأفق الأعلى في السماء. كان جبريل عليه السّلام يأتي الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في صورة رجل مهيب جميل الطلعة وبَهِيّها عندما ينزل عليه ليعلّمه شيئا من أمر الدّين، وعند نزوله بالوحي، وأكرم تعالى رسوله صلّى الله عليه وسلّم فجعله يراه مرّة في صورته الحقيقية، وخصّه بهذا التكريم.

- ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (8) :

ثمّ اِقترب جبريل عليه السلام من مستوى الأرض، ونزل من علوّه.

- فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ (9) :

حتّى صار قريبا من النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم قدر طرفي القوس، وهذا للتعبير عن قصر المسافة بينهما.

- فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ (10) :

فألقى إلى عبد الله : محمد صلّى الله عليه وسلّم كلام الله تعالى. والوحيُ هو إلقاء الكلام في النفس والذهن والعقل بسرعة، وهو أمرٌ نؤمن به عبادةً، ولا نعرفه، ولا نعلم كيف يتمّ وكيف يكون. وقد أوحى جبريل عليه السلام لمحمد صلّى الله عليه وسلّم "القرآن" الذي هو كلام الله تعالى الذي فيه مواعظه وهديه وشرعه ومعالم الاستقامة على دينه، ومعالم العمل الصالح، وفيه دلائل وحدانيته وصفاته الحسنى، ودلائل القدرة، ومعالم الإيمان بالبعث والوعد والوعيد، وفيه نَبذٌ من شرائع الأمم السالفة وتاريخهم للموعظة وللاعتبار، وفيه وعده ووعيده، وزجره ونواهيه، وبشائره، حوى كلّ ما يكون عليه الإنسان الرّشيد، ذو العقل والبصيرة، واللبيب ذو القلب الواعي الذي يلقي السمع على الدين القويم وصراط الله المستقيم، وهو كتاب مبارك، لكلّ قارئه حسنات بكلّ حرف يقرؤه منه. الإيمانُ بأنّه كتاب من عند الله تعالى أُوحيَ به إلى رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم ليبلّغه للنّاس كافّة للذّكر وللعمل بشرع الله تعالى قصد الاستقامة على دينه أمرٌ

واجب. ومن لم يعتقد بهذا الوحي، أو أنكره فقد كفر. وما يكفر به إلاّ معاند أو مكابر. وما كان نكران أهل قريش لهذا الوحي إلا لأنّهم لم يستوعبوا كيفية وقوعه وحصوله حتّى أنّهم لم يصدّقوا به، فاتّهموا الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالشعوذة والسحر والكذب والجنُون حين حدّثهم عنه وعمّا يجري فيه من شدّة وغطّ وتصبّب بالعرق، ولم يعلموا أنّ الوحي أمرٌ مخصوص لا يكون إلاّ لنبيّ أو رسول أو يقذف في قلب مَنْ خصّه الله تعالى لأمر قضاه كالذي حدث مع أم موسى.

- **مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (11) :**

تُفيد الآية أنّ رؤية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لجبريل عليه السلام بالأفق الأعلى كانت رؤية قلبية، أي لم تكن رؤية بصرية. هذا لأنّ للبصر طاقة محدودة لاحتواء مشهد نوراني، نوره ساطع لأنّ المَلَك مخلوق نوراني، ولأنّ هذا النور الساطع منتشر بالأفق الأعلى، فكيف تحتوي عينان مشهدا عظيما في سعته، وفي بُعده، وفي صفاء نوره الذي يجهرهما؟ لذا كانت الرؤية قلبية. ونؤمن بهذه الرؤية على هذا النحو – تصديقا لكلام الله تعالى إيمانا صادقا – وتجنّبا للوقوع في تصوّرات بعيدة عن إدراكنا العقلي وتتجاوز قدراتنا العلمية والخياليّة، وتجنّبا كذلك لترديد روايات في هذا الموضوع جاءت متباينة أحيانا، ووردت مضطربة، والشكّ في صحتها أقوى من التّصديق بها لأنّها لم تُرْوَ بأسانيدها.

وهذه الرؤية قد خصّ الله تعالى بها محمدا صلّى الله عليه وسلّم دون سواه من الأنبياء والمرسلين تفضّلا منه تعالى لتثبيته وتكريمه.

- **أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (12) :**

وجاءت هذه الآية للردّ على المكذّبين بهذا الخبر: خبر رؤية الرسول صلّى الله عليه وسلّم لجبريل على صورته الحقيقية رؤية قلبية، ومعناها: أتجادلونه مكذّبين على ما رأى من آيات ربّه الكبرى، وخصّه بها وحده دون سواه.

- **وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (13) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (14) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (15) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (16) :**

تشير هذه الآيات لحادثة المعراج، فقد رأى فيها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية مرّة ثانية. وكانت هذه الرؤية في الملكوت العلوي (عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ): هو اِسم أطلقه القرآن على المكان السماوي العلوي الذي ينتهي إليه الملائكة والأنبياء وكلّ ما يُعْرَجُ به من الأرض، ويقفون عنده، ولا يتجاوزونه، (عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ) هي الجنّة التي أوى إليها آدم عليه السلام وزوجه وأقاما فيها قبل نزولهما إلى الأرض، وهي الجنّة التي تصير إليها أرواح الشهداء، وتصير إليها أرواح المتقين. وفي هذا المكان: سدرة المنتهى كلّ مظاهر

الجلال والجمال والعظمة، الله تعالى أعلم بما فيها من دلائل ملكوته وخلقه ومن مظاهر تكريمه، ذلك لأنّ التعبير بـ (يَغۡشَى) يدلّ على التعظيم لما فيها، وهو ممّا لا يوصف، ولا يدرك معرفته وتصوّره، فيها ما لا عين رأت، ولا خطر على بال بشر.

- مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (17) :

ومَا مَالَ بَصَرُ محمد صلّى الله عليه وسلّم عمّا رأى، ولا جاوز أمر ربّه ولم يلتفت يمنة ولا يسرة، وهذا يدلّ على صفة الخشوع والخضوع في النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تعظيما للمكان وإجلالاً لربّه وتقديسا للمكان ورهبةً من ربّه جلّ وعلا كذلك، وتأدّبا.

- لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ (18) :

لقد رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في معراجه لسدرة المنتهى من عظائم آيات الله تعالى، وعجائب ملكوته ما يشعره بتشريفه وتكريمه.

- أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ (19) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ (20) :

بعد عرض تلك المشاهد من الملكوت العلوي لله ذي العزّة والجلال التي حصلت للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تكريما وتشريفا، جاءت هاتان الآيتان إلى الآية 28 في إبطال الظنّ الوهمي في معتقد المشركين في آلهتهم التي يزعمون أنّها ملائكة، وأنّ غايتهم من عبادتهم لها أن تكون شافعة لهم، وما هو إلاّ ظنّ ممّا تهوى الأنفس. وفي عرض هذا الزعم الموهوم بعد ذاك العرض العظيم التكريمي للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي لا تدركه العقول والأبصار يتبيّن البون الشاسع، والفارق الذي لا يُقَارنُ بين ما هو حقّ وواقع، وبين ما هو وهمٌ وباطل عسى أن ينتفع به الواعون.

والمعنى: أُنظروا إلى آلهتكم التي تعبدون، وتسمّونها لات وعزّى ومناة أكانت قد أكرمت أحدا من عبّادها، أم كانت قد أوحت لأحد عظمائكم شيئا من هداها، أو قد شاهد أحدكم شيئا من مظاهر عظمتها فحدّثكم عن ما عندها كما أكرم ربّ محمد نبيّه وكما رفعه إلى ملكوته السماوي، فرأى ما لم تروْا من عظائم خلقه وجلاله؟ وهذا الاستفهام لإغاظة المشركين. وكانت اللاّت آلهة ثقيف، وهي من أكبر قبائل العرب، وكانت العزّى لقريش وبني كنانة، وكانت مناة لهُذيل وخزاعة وبني هلال، وكانت مناة صَنَمًا، وكانت العزّى حجرا أبيض، وكانت اللاّت صنما. وقد جاء وصف مناة بأنّها (ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ) لأنّ هذه الأصنام كانت مرتبة عند المشركين في التعظيم على ما جاء في الآيتين، اللات أولا ثمّ العزّى ثمّ مناة. وكانوا يعتقدون أنّها أسماء لبنات الله سبحانه عمّا يصفون، وبنات الله ملائكة، وهذه أسماؤها.

- أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ (21) :

الاستفهام في الآية للتوبيخ والتقريع، فقد اِختاروا لله عزّ وجلّ ذرّية من جنس الإناث، وهم الذين يكرهون إنجاب الإناث ويحبّون لأنفسهم إنجاب الذكور، وهو الجنس الأرقى درجة عندهم من جنس الإناث، ولذلك جاء في الآية الموالية التعليق على اِختيارهم هذا لنسل الله، تعالى الله عمّا يصفون.

- تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ (22) :

أي هذه قسمة جائرة، وبعيدة عن الصواب، ومائلة عن الحقّ: هي قسمة باطلة، لا عدل فيها ولا رشاد.

- إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ (23) :

إنّ هذه الأسماء التي سَمَّيْتُم بها أصنامكم هي من وضعكم، ومن وضع آبائكم، ومن اِختلاقكم واِختلاقهم ما نزل بها كتاب من عند الله تعالى، وما جاءكم بها من علم ثابت قائم على حجّة وبرهان. إنّها تسميات وهمية، وآلهة وهمية من اِبتداع ظنّكم وخيالكم، ومن اِبتداع ما مالت إليه نفوسكم، وما لكم على ما ذكرتم حجّة، ولا برهان، ولا دليل. ولقد جاء هؤلاء المشركين من عند ربّهم الحقُّ الهدى عبر ما بلّغهم به رسوله ليتبيّنوا الحقّ من الباطل، ويرفع عنهم الوهم، ولكنّهم أعرضوا عنه من جهلهم وأصرّوا على باطلهم.

- أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (24) :

أم هل كان للإنسان أن يختار بنفسه لنفسه معبودا حسب ما يشتهيه ويمتنّاه؟ أم هل كان له أن يختار لنفسه النّبوّة أو لأحد غيره يتمنّى له النّبوّة على غرار الذين قالوا: (لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ)(الزخرف الآية 31).

- فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ (25) :

ليس المعبود على ما يتمنّاه الإنسان لنفسه، ولا النّبوّة لتُوضع في من شاء، إنّما الأمر كلّه لله عزّ وجلّ. هو وحده المعبود، ولا عبادة لسواه، ويؤتي النّبوّة لمن يشاء، وكلّ عطاء في الدنيا وفي الآخرة خاضع لمشيئته تعالى، ولا يخضع لما يتمنّاه كلّ إنسان لنفسه من الأماني. لله تعالى وحده الحكم والسلطان والألوهية والربوبية، وله تعالى وحده التصرّف في شؤون خلقه في دنياهم وفي آخرتهم على حسب ما قدّر لكلّ واحد منهم عند خلقه. قال تعالى (أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا)(الزخرف الآية 32).

- وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ(26)

هذه في أهل الشفاعة: فيمن تكون؟ وهي كذلك في إبطال معتقد المشركين بأنّهم يتعبّدون للملائكة: بنات الله – على زعمهم الوهمي – لتكون لهم شافعة عند ربّهم، وجاءت الآية لتبلّغهم بأنّه لا يملك أحد من الخلق – ملكا كان أم إنسا – حقّ الشّفعة في أحد من النّاس بين يدي الله تعالى يوم الحساب إلاّ بمشيئته تعالى. يعطي الله تعالى هذا الفضل لمن شاء واِختار من أهل الكرامة عنده، ولا تكون لأصحاب الجاه أو لأيٍّ كان ممّا يتصوّره بعضهم أو يتمنّاه، الشفاعة تكون لمن يأذن الله تعالى له بها. قال تعالى (مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ)(البقرة، آية الكرسي، الآية 255).

والغرض المقصود من هذه الآية، ومن الآية السابقة أن لا يتوجّه الإنسان بعبادته وطاعته ودعائه إلاّ لله عزّ وجلّ لأنّه تعالى هو وحده الذي يملك منح العفو والرّضوان لعبده، ولأنّ أمر الإنسان بيد الله وحده سواء أكان في دنياه أم في آخرته، وأنّ العبادة ومنح الشفاعة أو العفو عن الإساءة ليست بالأماني أو التمنّي الوهمي، وهذا ممّا يجب أن يدرك حقيقته كلّ إنسان.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ **(27)** :

(إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ) هذه صفة للمشركين لأنّهم ينكرون البعث والحساب ويستبعدونهما. وإنّهم يدّعون من وهمهم الباطل أنّ الملائكة بنات الله – سبحانه وتعالى عمّا يصفون– ثمّ أعطوهنّ أسماء إناث من عندهم ومن اِختلاقهم.

- وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا **(28)** :

وليس لهم علم ولا برهان على ما يدّعون باطلا ووهمًا، وإنّما هو من اِختلاقهم، ومن عملهم بالظنّ، وهو نقيض اليقين. ولا يناسب الظنّ العلم، ولا يقوم مقامه، ولا يُعوّض العلم الثابت الحقيقي اليقيني، أو يُغني عنه في أيّ أمر.

- فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا **(29)** :

وينتقل الموضوع مع هذه الآية والتي تليها من الحديث عن جهالة الجاهلين إلى دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن لا يهتمّ بمن آثر الإعراض عن الحقّ والعلم اليقيني للاهتمام بتبليغ دعوته لمن يلقي السمع ويهتدي. ومعنى الآية: والخطاب فيها للنّبي صلّى الله عليه وسلّم، فَدَعْكَ من الذي أدبر عن ذكر الله الحقّ ومعرفة الصواب، ولم يرغب في إنقاذ نفسه من لقاء الآخرة، وآثر على ذلك أن يحيا حياته الدنيوية على هواه.

- ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ **(30)** :

إنّ حديث أولئك عن الملائكة بأنّهم بنات الله وتسميتهم بتلك الأسماء، وإنّ ظنّهم الخاطئ في شفاعتهم، وتقديسهم لما ينصبون من نُصُبٍ سَمَّوْهَا بأسماء من عندهم، كلّ هذا من وهمهم

الباطل؟(ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ) أي ذلك على قدر عقولهم، وغاية ما وصل إليهم علمهم. وهذا التعبير يفيد اِستصغار عقولهم، وتسفيه ظنونهم، وبيان مدى جهلهم بحقائق الأمور. إنّ ربّك هو العليم بمن حاد عن سبيله، واِبتعد عنه وتاه. وهو الأعلم بمن اِهتدى لسبيله، واِستقام على دينه الحقّ، وسيجازي كلاًّ على عمله بما يستحقّ من التكريم أو المؤاخذة.

- وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى (31) :

هذه مع الآية الموالية في الترغيب في طلب المغفرة من الاستعلاء عن عبادة الخالق، وفي الترغيب كذلك في الإحسان في الطاعات. ومعنى الآية: الله جلّ جلاله خالقٌ لكلّ موجود في السماوات وكذلك لكلّ ما هو كائن في الأرض، وكلّ ما فيهما مِلْكٌ له تعالى. وقضى الله سبحانه بأنْ يحاسب كلّ مخلوق من عباده، فمن أساء منهم في معتقده وعمله في دنياه آخذه عمّا فعل على قدر إساءاته. وأمّا الذين أحسنوا في دينهم بحسن المعتقد، وصدق الطاعات فإنّه تعالى يجازيهم بإيوائهم (بِٱلۡحُسۡنَى) وهي جنّة التّكريم.

- ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (32) :

والمجَازُون بالجنّة هم الذين يحذرون من الوقوع في الذنوب الكبيرة التي شدّد الله تعالى في عقوبتها، وتوعّد أصحابها بالعذاب الأليم، وأعظم هذه الكبائر: الشّرك بالله الواحد الأحد. وهم الذين يصونون أنفسهم من إتيان القبيح من الأفعال، وأقبح الفواحش: الزنى والاغتصاب واللواط، ويصونون أنفسهم من فاحش القول الذي يستوجب العقاب من مثل قذف المحصنات وكذلك شهادة الزور، والكذب الذي يُثير الفتنة وقطع الصلة.

ويغفر الله تعالى لمن وقع في صغائر الذنوب، وتاب عنها، واِستغفر ربّه، وهي ما تعرف بـ(ٱللَّمَم) التي منها الغمز واللّمز والهمز، والسخرية ممن كان فيه عيب خَلقي، ونهر الفقير المحتاج، وقهر المستضعف وتسخيره لخدمة شاقّة، ومنها: العنف اللفظي والعنف البدني، وإيذاء الجار، وتتبّع عورات النّاس، هذه أخلاق وسلوكات تنافي حسن الخلق وحسن الإيمان، ولا تناسب خلق التقوى، هذه ممّا يجب الإقلاع عنها إذا وقع فيها المؤمن في حالة طيش أو حالة غضب، وتستوجب طلب الصفح والعفو، وطلب المغفرة من الله تعالى.

(إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ) هذه في الترغيب لطلب عفو الله تعالى وغفرانه حتى يكفّر الله تعالى بواسع رحمته عن الواقع فيها سيّئاته وإن عظمت وكثرت. قال عزّ وجلّ (قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)(الزمر الآية 53).

وقال تعالى ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾(النّساء الآية 110).

(هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ) هذه كقوله عزّ وجلّ ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾(الإسراء الآية 25). وهذا يعني أنّ الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أمرنا مهما كان خفيا، فهو تعالى أعلم منّا بما نضمر في أنفسنا وبما في صدورنا، وبما نظهر ونعلن من أعمالنا وأقوالنا وذلك لأنّه هو الذي خلقنا، بدأ خلقنا من طين مطبوخ، كذا خلق أبانا آدم عليه السلام. ثم جعله يتناسل فنشأ من ذرّيته كلّ هذا الخلق من البشر الذي يعمر الأرض بكلّ جنباتها، وهو الذي اِختار أجناسنا وألواننا وآباءنا منذ أن كنّا (أَجِنَّةٌ) ج. جنين، في أرحام أمهاتنا، لذا فمن المحال أن يخفى عليه من أمورنا شيء، فلا يدّعي أحد لنفسه الطهر والصلاح والتقوى اِفتخارا، ولا تمتدحوا أنفسكم، هو الأعلم منكم بأتقاكم والصالح فيكم، والأحسن خلقا ودينا.

والغرض المقصود من الآيتين أن لا ينخدع الإنسان فيظنّ أنّ الله تعالى خالقه قد لا يعلم عنه ما يخفي في قرارة نفسه ممّا يفكّر فيه أو يدبّره من خير أو شرّ، وممّا يُبْطِنُه من نوايا وأغراض ممّا يقول أو يعمل، ناهيك عمّا يصدر عنه من قول وعمل: الصغير منهما أو عظائمهما، ويظننّ أنّه غير مجزي بالخيرات والأمان من العذاب إن عمل خيرا، وزكّى نفسه، واِستقام على الطريقة المثلَى، أو أنّه ناجٍ من العقاب عن الكبائر، ومن المؤاخذة عن الصغائر إن لم يتب منها، ويستغفر ربّه. ومن أغراض هذه الآية أن يعلم الإنسان أنّ التقييم الحقيقي ليس بما يقيّم به المرءُ نفسه، ويفخر، ويمتدح، كلاّ فإنّ التقييم الحقيقي عند العليم الخبير الذي جعل لكلّ إنسان كتابا يحصي له فيه كلّ صغيرة وكبيرة من عمله، لذا فلا يزكّى أحد نفسه حتى يعلم ما أحصاه الله عنه في كتابه الذي إذا أُوتيه بيمينه فسيسَرُّ به صاحبه، ويقول هاؤم اِقرؤوا كتابيه، وأمّا إذا ما أوتيه بشماله فسيعلم سوء مُنْقَلَبِهِ.

- **أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ (33) :**

هذه الآية إلى الآية 42 في التّأكيد على أنّ كلّ إنسان مسؤول عن نفسه فيما يصدر عنه من قول أو عمل، وفي معتقده، في صفائه وصدقه، أو في ضلالته ونفاقه، وجاءت للتأكيد على أنّ المنتهى إلى الله عزّ وجلّ للمحاسبة: لمجازاة من آمن صدقا واِحتسابا وعمل صالحا، ولعقاب من أساء عملا وكفر.

وقد اِختلفت الرّوايات في تحديد من نزلت فيه هذه الآيات من أسماء عظماء قريش الطغاة، منها من جعلتها في الوليد بن المغيرة، ومنها من ذكرت في أنّها في العاص بن وائل السهمي، وغيرها جعلتها في أبي جهل، ومنها من جعلتها في النّضر بن الحارث. وعموما ليست العبرة في

خصوص السبب، وإنّما العبرة في عموم اللفظ ليكون الاعتبار من موضوع الآيات أعمّ وأشمل لكلّ جيل في كلّ زمن.

ومعنى الآية: أرأيت سلوكا أعجب من سلوك الذي عُرض عليه أن يرفع عن نفسه جهالته وضلالته في معتقده ليستقيم على الدّين الحقّ فأعرض عن الاستقامة على الهدي وعن التّصديق بما جاءه وبُلّغَ به عنادا واستكبارا وعصيانا.

- وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ (34) :

وأنفق قليلا على المحتاجين والمستضعفين للتّظاهر بالكرم، ثمّ منع عطاياه وقطعها بخلا، وتأديبا لكلّ من أسلم وترك عبادة الأصنام من أتباعهم الفقراء ليجبره عن الردّة للشّرك، وصدّا عن سبيل الله تعالى.

- أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (35) :

هذه في الرّدّ على الذي يشجّع غيره على عمل المعصية، أو على الردّة للشّرك كالذي كان يفعل بعض زعماء الشرك في الجاهلية على أن يتحمّل عنه عقاب الآخرة إذا كان فيها عقاب – على ما يقول – هذا الذي يَعِدُ صاحبه ليشجعه على عمل المعصية بأن يحمل عنه جريرة عمله في الآخرة أله عنده بما سيكون في الآخرة الذي هو من علم الغيب، فاطّلع على حقائق الأمر وما سيكون فيها فَيَعِدُ غيره بما يراه. والاستفهام للاستغراب من اِدعاء العلم بما يجهل.

ويفهم من الآية كذلك أنّ الإنسان لا يملك القدرة للاطلاع عمّا ينتظره في مستقبل أيّامه، ذلك لأنّ قدَرَه من تقدير الله عزّ وجلّ، والإنسان لا يحتكم في قدره في مستقبله ليعلم أنّ أمره كلّه بيد الله تعالى. وقديما قيل (تجري الريّاح بما لا تشتهي السفن) للتذكير بأنّ الإنسان لا يحتكم في قدره في مستقبله.

- أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (36) وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ (38) :

أو لم يخبر هذا الذي يَعِدُ بما لا يستطيعه وبما لا يملك القدرة عليه، وبما لا يعلم سرّه بما جاء في كتاب موسى عليه السلام: التوراة بحسب ما كانوا يسمعون منه على ألسنة اليهود، وكذلك بما جاء في صحف إبراهيم عليه السلام الذي أتمّ تبليغ ما أمر به من الطاعات وشرع الله عزّ وجلّ – وهم الذين يدّعون بأنّهم على ملّة أبيهم إبراهيم – بأن كلّ إنسان مسؤول عن نفسه وعن عمله، وأنّه لا يُعاقب أحد بذنوب غيره، أو يحمل أحد عن آخر جريرة سوء عمله، وآثامه. وهذه كقوله تعالى (وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ)(الأنعام الآية 164)، فلا تحمل نفس إثم غيرها وإن كان الآثم والدا أو ولدا.. كلّ إنسان مسؤول عن نفسه فقط.

- وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (39) :

هذه لتوضيح معنى الآية السابقة (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) للتّأكيد على أنّ الإنسان لا يتحمّل جريرة غيره، فكلّ واحد لا يحاسب إلاّ عمّا عمل وسعى إليه ورغب فيه، وخاصّة في ما كان من عمل سيّء أو في ما دبّر من مكائد سيّئة. وأمّا إذا عمل الإنسان صالحا، فقد جاء في السّنّة النبويّة الشريفة ما يدلّ على أنّ المؤمن يصل إليه ثواب عمل غيره من عمله الصالح، فقد جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن المبارك : "إذا مات الإنسان اِنقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.." ثلاثة أشياء لا ينقطع ثوابها على الإنسان بعد موته لكونها أفعال دائمة الخير، ومتّصلة النفع، ولأنّه كان سببا في إيجادها: الصدقة المتّصلة الدائمة من مثل التبرّع لإنشاء مرافق عامّة للبلاد وأهلها من مثل المساجد والمدارس والمصحّات وحفر الآبار وإنشاء الطرقات... وكذلك تصنيف الكتب لتعليم النّاس العلوم والفضائل واِكتساب المعارف في جميع فنون الحياة في الصناعة والفلاحة والطبّ والأدوية، وكذلك دعاء الولد الصالح لأبيه وأمّه ومن له فضل عليه في تنشئته وتعليمه وتأديبه على الصلاح. والقصد من الحديث التّرغيب في أن يترك الإنسان من بعده أثرا طيّبا ونافعا للنّاس ليكون له ثواب وأجر متّصل من بعده مادام ذاك الأثر قائما.

- وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (40) :

وإنّ عمل كلّ إنسان في دنياه سيقيّمه النّاس من حوله، فيذكرونه بخير إن عمل خيرا، أو سيذكرونه بسوء عمله إن عمل شرّا في قومه، من مثل عمل الطغاة من الرؤساء والمسؤولين الفاسدين، فكم من طاغٍ اِنتهى للانقلاب عليه، فقُتل أو نُفي وصار لمآل سيّئ، وكم من ثري ظلم العمّال واِستكبر بما له فأصيب في صحته أو ماله فانتهى لمرض عضال أقعده أو لإفلاس فصار هذا وذاك مثالا للاعتبار والموعظة، والاستعاذة بالله من سوء المنقلب. قال تعالى (كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ) (الدخان الآيات 25-29).

- ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (41) :

ثمّ يُجزى الإنسان على عمله في آخرته من لدن العليم العدل الحكم فيؤتيه ما يستحقّ من العقاب على سوء عمله، وأمّا إذا عمل صالحا وكان مؤمنا تقيّا فإنّه يثاب على صالح أعماله بأكثر ممّا يستحقّ، بالأجر المضاعف من لدن الجواد الكريم عطاءً لا ينفد.

- وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (42) :

هذه في الخلاصة المستفادة من الموعظة المذكورة، إنّها في التّذكير والتّنبيه بأنّ جميع النّاس: سابقين في الخلق والوجود وآخريهم منتهون حتما إلى الله عزّ وجلّ بعد موتهم وحين

يُبعثون للحساب. سيرجع جميعهم لخالقهم ويقادون إليه ليلقى المسيء حسابه عن إساءاته، وليثاب المؤمن الصادق المطيع لشرع ربّه على حسن عمله وطاعته. وما هذا التذكير إلاّ ليعدّ الإنسان عدّته من حسن العمل مع صدق الإيمان ليأمن من العذاب يوم لقاء ربّه، وليجد عند ربّه حسن المآل.

- وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ (43) :

موضوع هذه الآية إلى آخر آية من السورة في الدلالة على أنّه تعالى هو الفاعل الحقيقي في جميع أحوال العباد على ما قدّر لكلّ واحد منهم في مشاعره، أو موته وحياته، أو رزقه وكسبه، هو الذي خلق وقدّر، وليس للإنسان أن يختار لنفسه ما يشاء حسب مشيئته، وإنّما الكلّ خاضع لمشيئة الله تعالى ومسخّر لفعله. وفي هذه الآيات إنذار من إعتماد معصيته تعالى، وذلك بالاعتبار بما حدث للأمم سالفة عصوْا رسله فأخذهم عذاب في دنياهم أبادهم جميعا رغم كثرتهم وقوّتهم. لا تجَبُّرَ مع الجبّار سبحانه. وفيها الأمر بالانتفاع بما جاءهم من كتاب للذكر وللطاعة.

وهذه الآية في تذكير العباد بفضل الله تعالى عليهم، إذ خصّهم دون سائر خلقه بالمشاعر والتعبير بأحاسيسهم عمّا يشعرون في باطن أنفسهم. ويعلم الإنسان أنّ الحيوان لا يعبّر عن أحاسيسه ومشاعره بالضحك أو البكاء مثل الإنسان، وحتى إذا إن كان القرد كثير الضحك إلاّ أنّه لا يبكي، وإذا كانت الإبل تبكي إلاّ أنّها لا تضحك. والإنسان يشعر بالسرور فيضحك ليعبّر عن فرحته، ويشعر بالألم أو بالقهر أو بالحنين فيبكي ليدلّ على ما يحسّ به في قرارة نفسه. وربّما يعبّر عن سخريته بالضحك، وهذا من سوء الخلق، وقد يبكي بكاء التماسيح للخديعة والكذب للتحيّل، وهذا من سوء الطبع. وقد وهب الله تعالى الإنسان الأحاسيس والمشاعر ليكون إنسانيا ليسابق لفعل الخيرات إذا رأى بكاءً من أحد، وليعبّر بضحكه عن سعادته. ولا يكون الإنسان المؤمن متحجّر القلب وقاسيه، وأرقى النّاس في إنسانيته من كان مرهف الحسّ ورقيق المشاعر دون ضعف.

- وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا (44) :

والله عزّ وجلّ هو الذي أوجد الخلق، خلق الإنسان بتقديره، وهو الذي يحدّد له زمن حياته ويحدّد له زمن وفاته، ثمّ هو حين يشاء يأذن بقيام الساعة فيحيي من أماته ليحاسبه عن عمله. فبيد الله تعالى حياة الإنسان، وليس لأحد من البشر حقّ اِختيار زمن ولادته أو أن يكون له أن يختار والديه، أو مكان ولادته، أو أن يحدّد زمن وفاته إذا شاء أن يموت، وما يشاء أحد أن يموت. لذا فإن حياة الإنسان في تحديد زمان وجوده ومكانه وعرق نسله هو من تقدير الله عزّ وجلّ، وهو تعالى الذي يحدّد أجل حياته ووجوده. حياة الإنسان ووفاته: أمران خارجان عن إرادة

الإنسان المخلوق، وهما من تقدير الله تعالى وحده، فهلاّ عرف الإنسان فضل ربّه عليه في إيجاده، وعرف قدرته تعالى عليه لقَبْضه وردّه إليه. ما أكثر غفلته عن ذكر ربّه إن لم يكن واعيا بفضل من أحياه وأوجده، وإن جهل قدرة ربّه عليه فأنكر قدرته عليه لإحيائه بعد مماته لمحاسبته!

- وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ (45) مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ (46) :

ومن الدلائل على أنّ أمر كلّ خلق خاضع لمشيئة الله وحده وتقديره: تحديد جنس المولود. إذا أفضى الزوجان لبعضهما رغبة في إنجاب الولد، وأمنى الرجل في رحم المرأة، ونشأت عن هذا تكوين نطفة ثمّ تطوّرت النطفة إلى جنين، فإنّ جنس الجنين يتحدّد بما قدرّه الله تعالى فقد يأتي ذكرا على ما يشتهيه الوالدان وما يرغبان، وقد تكون المولودة أنثى، وهذا ما كان يكره حصوله الوالد ويتطيّر منه، ورغم أنّه هو الذي أمنى، وكانت النّطفة من مَنِيهِ إلاّ أنّ اِختيار جنس المولود كان خارجا عن رغبته وإرادته ومشيئته، بل كان على ما شاء الله تعالى وقَدَّرَه...

- وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ (47) :

وإنّه سبحانه وتعالى قد قدّر أن يعيد الإنسان للحياة بعد مماته ليقوم للْحساب على إيمانه، وعلى عمله، وما يقدّره تعالى فإنّه واقع حتما. قال عزّ وجلّ (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ)(الذاريّات الآيتان 5-6) .

- وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ (48) :

تفيد الآية بأنّ الله تعالى هو الرزّاق. وما من أحد غير الله تعالى يرزق الخلق: بشرا، وغيرهم من الكائنات الحيّة. لذا فمن كان يطلب رزقا فليطلبه من الرّازق الذي بيده الرّزق والخيرات كلّها، ولا يطلبه من عند ما لا يملك له شيئا، ولا يستطيع أن ينفعه بشيء، أو يضرّه. ومعنى الآية أنّ الله تعالى هو الذي يرزق عبده حتّى يُغنيه عن الفقر والحاجة والطلب، وقد يؤتيه من المال والخيرات ما يجعله ثريا. ويكسب عبده (القُنْيَةَ) وهي الممتلكات العقارية والزّراعية، أو من المكاسب المدرارة للمال الوفير، وما أكثر وجوه القنية التي منها: المصانع، ومعامل التحويل، وشركات الخدمات والمقاولات وغيرها من مثل وسائل النقل الضخمة أو وسائل الاتصال، أو المناجم وآبار البترول، فهو تعالى المُغْني والمُقْنِي الذي يكسب عبده الممتلكات العينية.

وعلى الإنسان أن ينتبه في هذا العنصر لواجبه المفروض عليه إذا أوتِيَ مالاً أو مكاسب عينية تُغْنيه. ومن أهمّ الفرائض الواجبة: تقييد النّعمة بالشكر، وشكر الله تعالى على فضيلة الإنعام بالرزق يكون بإخراج الزكاة المفروضة، ويزيد عليها – من باب الإحسان ومن وجوه حمدِ الله تعالى – الإنفاق منها في وجوه البرّ خدمة للمصلحة العامة، وفي عون المحتاجين من باب التّعاون والتآزر، وتجسيما لمبدإ المؤاخاة الذي حضّ عليه الدّين. وما بَطَرَ إنسانٌ بما آتاه الله

تعالى من فضله إلاّ سلب منه نعمته عليه عقابا، وقد جاء هذا الإنذار من البطر بالنّعمة في سورة "الدخان"، فليحذر الإنسان من اِنقلاب الحال، وليذكر دوما أنّ الله تعالى هو الرّزّاق. قال تعالى (وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ)(النحل الآية 53) وقال سبحانه (وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ)(النحل الآية 114).

- **وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ (49) :**

هذه لتنبيه عبدة كوكب (ٱلشِّعۡرَىٰ) من أهل الجاهلية بأنّه أولى بهم أن يعبدوا الله تعالى خالق ذاك الكوكب، وذلك أفضل لهم من أن يقدّسوا المخلوق ويغفلوا عن عبادة الخالق المبدع صاحب الفضل على الموجود الذي وُجِد بفضله وبتقديره، فإنّ الله تعالى هو ربّ الشعرى. والشعرى عند عرب الجاهلية هو الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء، ويطلع في شدّة الحرّ، فكان بعضهم يسجد له ويدعوه ليحميهم من شدّة الحرّ ومن القيظ.

- **وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ (50) :**

وهذه الآية إلى الآية 58 في التّحذير من سوء العاقبة كعاقبة أمم سالفة هلكوا لإصرارهم على الكفر وعلى التّكذيب بالمرسلين. ومعنى الآية: اِحذروا خالقكم فقد أهلك من قبل قوم عاد بريح صرصر عاتية لأنّهم كذّبوا برسولهم "هود" عليه السلام، ولم يتبعوه فيما دعاهم إليه من الاهتداء لصراط الله القويم، ودينه الحقّ، فإنْ كذّبتم برسولكم كما فعل أولئك الذين كانوا قبلكم فستهلكون.

- **وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ (51) :**

واِعتبروا بما صار إليه أهل ثمود الذين كذّبوا برسولهم "صالح" عليه السلام فأهلكهم الله تعالى بالصيحة ولم يُبْق منهم أحدا حيّا.

- **وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ (52) :**

وقبل هؤلاء وأولئك هلك قوم "نوح" عليه السلام غرقا في الطوفان لأنّهم ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا رسولهم بالتّكذيب والسخرية منه وشاقّوه، وجاوزوا حدودهم في إتيان المعاصي، فاحذروا عاقبة سيّئة كعاقبتهم، آمنوا بالله وحده خير لكم، وآمنوا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم لتأمنوا من عذاب الله سبحانه في دنياكم قبل عذاب الآخرة.

- **وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ (53) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (54) :**

(وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ) هي مدائن قوم "لوط" عليه السلام، ائتفكت بهم: أي اِنقلبت وصار عاليها سافلها، (أَهۡوَىٰ) جعلها تعالى تهوي، أي تسقط مبانيها على رؤوس أصحابها فهلكوا بدمار بيوتهم عليهم، وبهذا غشّاهم من العذاب ما غشّى، وهذا لتعظيم أمر الدمار الذي جعل الحجارة ترتطم ببعضها وتهوي على رؤوس العباد، ثم تردمهم تحت الأنقاض.

- **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (55) :**

الخطاب في الآية لمن يكذّب بالوعيد حتّى أنّه يتحدّى نبيّ الله بأن يأتيه بعذاب إن كان من الصادقين. ومعنى الآية، فبأيّ آية من آيات ربّك في وعيد المكذّبين والكافرين الذين شاقّوا رسول ربّهم تشكّون وترتابون. والاستفهام للإنذار والتحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم.

- **هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (56) :**

(هَـٰذَا نَذِيرٌ) ورد لفظ (نذير) نكرة، فلذلك فهو دالّ على وجوه كثيرة للنّذير. ومن وجوه النّذر من التّكذيب بوعيد الله تعالى للتّصديق بالرّسل: كتاب الله تعالى: القرآن الكريم، وكذلك ما سبقه من صحف إبراهيم وموسى وكذلك الإنجيل، ومن وجوهه: رسل الله عليهم السلام، وخاتمهم محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، جميعهم أنذروا أقوامهم من الكفر بالله تعالى ومن معصيته، ومن وجوهه كذلك: أخبار هلاك الأمم السالفة الذين عصوا رسل الله وهزؤوا بوعيدهم. وهي نذرٌ من حلول العذاب بالمكذّبين "بالأولى" أي في حياتهم الدنيوية قبل عذاب الآخرة.

- **أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ (57) :**

(ٱلْـَٔازِفَة): اِسم من أسماء يوم القيامة. والمعنى: واِحذروا يوم القيامة: يوم الحساب وأهواله، فقد اِقترب موعدها. فبادروا بالتوبة والاستغفار مع الاستقامة على الدين الحقّ وأوامره قبل أن تفاجؤوا بحلول آجالكم وهو رقاد عميق يعقبه القيام للحساب، ويومئذ لا ينفع نفس إلاّ إيمانها وعملها الصالح.

- **لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) :**

لا أحد من خلق الله يعرف زمن وقوعها، أو يقدر على كشف مقدّماتها، أو يقدر على تأخير موعدها، فهي ممّا اِستأثر الله تعالى بتحديد موعدها، وهو الذي يأذن بوقوعها. وإذا وقعت فلا مَنْجَى منها إلاّ الله عزّ وجلّ. لا تأتي إلاّ فجأة.

- **أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) :**

الخطاب في الآية للمكذّبين بالقرآن، وبأخباره، والاستفهام للتّوبيخ. والمعنى: أتكذّبون بأخبار القرآن ولا تصدّقون بإظهار العجب منها للتّعبير عن إنكارها؟

- **وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) :**

وتسخرون من وعيده من شكّكم في وقوعه، واِستبعاده، ولا تبكون ندمًا على معاصيكم، وحسرة على التّفريط في التّوبة والاستغفار قبل مماتكم.

- **وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ (61) :**

(و) هنا للحال، بمعنى: ومن غريب أمركم أنّكم ظللتم غافلين عمّا ينتظركم في آخرتكم، وكنتم لاهين بمشاغلكم الدنيوية حتى فاجأكم الموت ثمّ فاجأتكم الساعة.

- **﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾ (62) :**

بهذه الموعظة التي تنجي العبد من عذاب الآخرة، ومن العقاب في الدنيا تختم السورة، وهي موعظة جِدُّ مختصرة، يسيرة الفهم والحفظ، هي في كلمتين: السجود لله تعالى طاعة واِمتثالا لأمره ولتخصيصه تعالى بالألوهية والتقديس والطاعة والدعاء. والكلمة الثانية (ٱعۡبُدُوا) أي أفردوا الله سبحانه بالعبادة ولا تشركوا به أحدا، ولا تغفلوا عن طاعته، واحذروا معصيته.

وبهذه الموعظة يكون حسن الختام لسورة ركّزت على فساد معتقد من يتّخذ الأصنام آلهة دون الله عزّ وجلّ.

رقمها	ســـــورة القمـــــــر	آياتها
54	ـــــ مكيـة ـــــ	55

سمّيت هذه السورة باسم : "القمر" لذكرها لانشقاق القمر الذي سيكون علامة بيّنة للنّاس لحلول قيام الساعة التي وعد الله تعالى بها. وهي سورة مكية. ولا تختلف مواضيعها عن مواضيع السور التي سبقتها: "ق" و"الذّاريات"، و"الطور"، و"النجم" في التأكيد على وجوب الإيمان بالبعث للحساب للإعداد له بحسن الإيمان وحسن العمل، وللتّصديق بالرّسل وما جاؤوا به من هدي الله تعالى للاستقامة على دينه ونبذ الشّرك، وللاعتبار بسوء مصير من كذّب من قبلهم من الأمم بالدّين وبالرسل وبالوعد والوعيد للحذر من سوء المآل، مع التّرغيب في الإيمان بالله وحده وبما جاء به رسله من هدي للأمان من عذاب الله تعالى في دنياهم، وللتّنعم بما أعدّه سبحانه لعباده المؤمنين من النّعيم الدائم.

- **ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ (1) :**

إذا رأيتم القمر قد اِنفلق واِنشطر إلى نصفين فاعلموا أنّ موعد قيام الساعة قد اِقترب. إنّ من أشراط قيام الساعة اِنشقاق القمر. وجاءت هذه الآية لإلهاب مشاعر النّاس ليسارعوا للإيمان بما جاءهم به رسولهم ليأمنوا هولها، وحتى لا يندموا على التّفريط في الإسراع للتّوبة وللإنابة إلى الله عزّ وجلّ بطاعته.

- **وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ (2) :**

بعد ذاك التنبيه للتحذير من التّفريط في الإسراع للإيمان بالله تعالى وبما جاءهم من بلاغ، جاءت هذه الآية مع الآيات الثلاثة الموالية في توبيخ المعرضين عن الإيمان، وتوبيخ المكذّبين برسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم بسبب غفلتهم ومكابرتهم. والمستفاد من الآية أنّ المكذّبين بالرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم لا يُعجبهم العُجاب، فمهما يروا من الدلائل الدالّة على صدق النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم يعرضوا عن الإيمان بصدقه وبصدق ما جاءهم من الأمر بتوحيد الله تعالى بالعبادة والدعاء، والتوبة من الشّرك والإقلاع عنه، ويقولوا عن الدلائل إنّما هي من أعمال الشعوذة، وأنّ سحره محكم وقويّ ومُتَتَالٍ، وهو سحر ذاهب غير دائم، ذلك لأنّ لفظ (مستمرّ) مشتقّ من فعل (مرّ) الذي يدلّ على الذهاب، ويكون مشتقًا من (المِرّة) وهي القوّة، من إمرار الحبل إذا فَتله وشدّه.

- **وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ (3) :**



وكذّبوا بما جاءهم به رسولهم صلّى الله عليه وسلّم من عند ربّهم جلّ وعلا بشأن توحيد الله عزّ وجلّ بالعبادة والطاعة، والتحرّر من معتقدهم الفاسد بأصنامهم الصمّاء، وللإيمان بالبعث وبالحساب، وليعملوا صالحا ليفوزوا بنعيم الآخرة ولينجوا من عذاب الله في الأولى وفي الآخرة، وأصرّوا على الإعراض عن الهدى تبعا لأهوائهم في التمادي في معاصيهم وبالتّمسّك بضلالاتهم، (وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ) الواو هنا ليست واو عطف على اتّباع الهوى، وإنّما هي واو اِستئناف لجملة جديدة، ومعناها: فالخير مستقرّ بأهله في الجنّة لا ينقطع عنهم، والشرّ مستقرّ بأهله في النّار، وكلّ إنسان يتحمّل مسؤوليته في اِختيار مستقرّه ومقامه: في الخير أو في الشرّ، وما كان الله بظلاّم للعبيد.

- وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ (4) :

ولقد جاءهم من أخبار هلاك أمم سالفة من أهل الكفر والمعصية وتكذيب الرّسل ما فيها من الموعظة لردعهم عن الكفر والمعصية والتكذيب لرسولهم صلّى الله عليه وسلّم، وما يردّهم عن المعاصي ويخوّفهم من الكفر لو اِتّعظوا به.

- حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ (5) :

ولو أنّهم قرؤوا القرآن وتدبّروه لكان لهم كتاب الحكمة البالغة، الذي يهديهم للرّشاد، ويبصّرهم بالضلالات ليتّقوها، ولينجوا بأنفسهم من سوء عواقب الجهالات والمعاصي، ولكنّ الجاهل العنيد المكابر لا ينفع معه الإنذار والتّحذير ليقلع عمّا نشأ فيه، وتربّى عليه، ويصلح شأنه. وهذا كقوله تعالى (وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ)(يونس الآية 101). لقد تمكّن الشّرك من قلوبهم حتى صاروا عمي البصيرة لا تنفعهم حكمة بليغة ولا نذير أو تحذير.

- فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ (6) :

فَدَعْهُمْ – يا نبيّ الله– لما اِختاروا لأنفسهم، وسيعرفون عاقبة إعراضهم عن الاستجابة لهدى الله عزّ وجلّ يوم يدعوهم الداعي للقيام لأمر عظيم ليشهدوا أهوالا وأوضاعا تضيق بها النّفوس، وتنكرها، وتكرهها.

فهذه الآية لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يضيق بتكذيب المكذّبين له، وحتى لا يضيق كذلك بمن أعرض عن الاستجابة للسماع منه وللاستجابة لدعوته، وهي كذلك مع الآيتين المواليتين في إنذار هؤلاء بسوء المآل إن أصرّوا على الشرك والتكذيب برسالة الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

- خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ (7) :

في ذاك اليوم يقومون من قبورهم ويخرجون منها مذعورين خائفين ذليلين بعد كبريائهم لا يرفعون رأسا ولا بصرا من الذلّة، ويندفعون من قبورهم اِستجابة لدعوة الداعي أسرابا كأسراب



الجراد المنتشر في كلّ مكان. وقد كان العرب يتطيّرون ويتشاءمون من الجراد، ووصفهم عند بعثهم بصفة الجراد المنتشر هي للتحقير والمهانة، وذلك لمقابلة مكابرتهم واِستكبارهم على الاستجابة لدعوة الحقّ، ولمقابلة اِستهزائهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

- مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ (8) :

في ذاك اليوم يخرج الكافرون المكذّبون بوحدانية الله الأحد وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم من قبورهم (مُّهۡطِعِينَ) يجرون مسرعين مادّين أعناقهم – كما تفعل الإبل إذا هربت مذعورة من السباع– وهي صفة للتحقير وللدلالة على فزعهم وعلى سرعة اِستجابتهم لدعوة داعيهم للهرولة إليه. يومئذ يقول بعضهم لبعض هذا يوم شدّة وعسر، هذا يوم صعب علينا من شدّة هوله.

- كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ (9) :

هذه الآية إلى الآية 42 للاعتبار بما أصاب أمما سالفة من عذاب الاستئصال عقابا لهم على إصرارهم على شركهم، وعلى التّكذيب برسلهم. وقد ذكّرت هذه الآية إلى الآية 17 بإهلاك قوم نوح غرقا في الطوفان، وجاءت الآية 18 إلى 22 في عذاب عاد، وأما الآيات من 23 إلى 32 في عذاب ثمود، ومن 33 إلى 40 في قوم لوط، وبعدها الآيتان 41 و42 في آل فرعون. وخُتمت كلّ فقرة بالتّذكير بالإنذار للاعتبار بسوء مآل من كفر وكذّب بالدين وبالرسل وبالقرآن، وبالترغيب في الادّكار بما جاء في القرآن للاهتداء للحقّ، وللتّوقّي من العذاب.

وتذكّر هذه الآية بأنّ تكذيب أهل مكّة لرسولهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم قد سبقه تكذيب قوم نوح. كذّبوا رسولهم "نوحا" عليه السلام، ولمّا دعاهم لتوحيد الله تعالى بالعبادة والطاعة ونبذ الشّرك والإقلاع عنه اِتّهموه بالجنون، وشاقّوه بزجره عن التّمادي في دعوته، ونَهَوْه عن التّبليغ بها، وهدّدوه.

- فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ (10) :

فشكا نوح عليه السلام ضُعْفه إلى ربّه إزاء تعَنُّتِ القَوْمِ وتهديدهم له، ودعاه لأن ينصره عليهم.

- فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ (11) :

ففتح الله تعالى أبواب السماء وأنزل على القوم ماءً منها ينصبّ عليهم بغزارة وبقوّة.

- وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ (12) :

وفجّر من الأرض من تحت أقدامهم عيونا من الماء، فالتقى عليهم ماء السماء الغزير ونبع العيون الكثير تنفيذا لأمر قد قدّره الله تعالى لهم لإغراقهم بالطوفان إلى الموت والهلاك.

- وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ (13) :

وأمّا نوح عليه السلام فقد أنجاه الله تعالى من الطوفان مع كل من ركب معه من المؤمنين في سفينته التي صنعت بألواح مربوطة بحبال ومشدودة بمسامير.

- تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14) :

وكانت السفينة تجري بهم على سطح الماء بعناية من الله تعالى وبألطافه وحفظه فلم يصبها وراكبيها أيّ سوء. وأمّا القوم فلم يَنْجُ منهم أحدٌ من الغرق. هذا جزاء كلّ من كفر بالله تعالى وكذّب برسوله.

- وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (15) :

ولقد تركنا آثار القرية الخالية من أهلها، وخبر السفينة، وخبر الطوفان حجّة وآية لمن يأتي بعدهم للاعتبار ليؤمنوا بربّهم الحقّ الذي لا شريك له، وليعلموا أنّ كلّ إلاه غيره لا ينفعهم بشيء ولا يضرّهم، ولا يقدر لهم على شيء، وليصدّقوا برسل الله ولا يشاقّوهم بالتكذيب. فهل من متّعظ بخبر السابقين وهل من ناظر في العواقب؟ وفي هذا حفز للعقل للنّظر والتدبّر والتبصّر، وفي الآن ذاته تهديد للمشركين بعذاب مهلك إن لم يتوبوا إلى ربّهم ويستغفروه.

- فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (17) :

الآيتان يُعادُ ذكرُهما مع التّذكير بسوء مآل قوم كانوا قد كفروا بربّهم سبحانه، وكذّبوا برسوله. والغاية المقصودة من هذه الإعادةِ: التحذيرُ من النّذير، والاعتبارُ بما جرى على تلك الأقوام للتوقّي من نفس المآل المدمّر. وفي الآية الثانية منهما: ترغيبٌ في الاستفادة من القرآن الذي أنزل ميسّرا في لسانه، وفي التبليغ بمواعظه وشرع الله تعالى للذكر أولا، وللتدبّر للاعتبار وللاستقامة على الدين الحقّ. والاستفهام في الآية الأولى بـ (فَكَيۡفَ) يفيد الدعوة للنّظر وللتدبّر لرفع حجاب الغفلة، بمعنى فانظروا – يا قوم – كيف كان عذاب الله شديدا وقاسيا ومهلكا بالذين كفروا، الذين اِستخفّوا بإنذار الله عزّ وجلّ ولم يصدّقوا به أو اِستبعدوه، فلا تكونوا أمثالهم، واِتقوا عذاب الله سبحانه.

وأمّا الآية الثانية فتفيد بأنّ القرآن الكريم قد أنزل بلغة ميسّرة، وبمواعظ يسيرة الإدراك والفهم لتذكروا ربّكم، ولترفعوا ذكره في طاعاتكم وفي شكركم، وحتى لا تذكروا إلاها غيره.

(فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ) فهل من منتقع بمواعظه؟ وهل من طالب لمعرفة الدين الحقّ؟ وهل من عاقل متبصّر يتدبّر آياته ليتبيّن الحقّ من الباطل؟ والاستفهام للترغيب في قراءة القرآن وللترغيب في تدبّره.

- كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) :

ولقد كذّب قوم عاد برسولهم "هود" عليه السلام، وبما جاءهم به من عند ربّه، ثمّ هدّدوه لينتهي عن دعوتهم للهدى، فتأمّلوا في عاقبتهم كيف كانت مدمّرة لهم ولبيوتهم وقصورهم المنيعة،

وما نجا منهم أحد من عذاب الله تعالى، ولقد أنذرهم رسولهم بطش ربّهم فلمّا إستبعدوه إستخفافا حلّ بهم النّذير، فاحذروا النّذر، ولا تكونوا أمثالهم.

- إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ (19) :

وقد عُذِّب قوم عاد بالرّيح ذات العصفِ الشديد الذي يقلع الشجر من نباته، ويعصف بسقف البيت فيرفعه أو يدكّه، وذات الصوت القويّ والصفير الذي يصمّ الآذان ويوحش النّفس، والذي يثير التراب فيعمى الأبصار ويحرّكه فيردم به ما ظهر على وجه الأرض. يوم عصف به الرّيح العاتية كان يوم نحس على القوم إذ أبادهم وخرّب عليهم الأرض ومساكنهم، وكان يوما مشؤوما عليهم، ودام عليهم نحسه وضُرُّه وصفيره وهيجان ريحه واشتدّ عليهم كربه حتى ذهب بهم جميعا.

- تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ (20) :

ومن شدّة ثورة الرّيح ومن قوّة عصفها كان النّاس يُقْتَلَعُون من أماكنهم ومن مخابئهم اِقتلاعا، ويرفعهم الرّيح ثمّ يَكُبُّهُم على رؤوسهم ويدُقُّ أعناقهم ويُرْديهم قتلى ثم يرْدِمُهم بالغبار والتّراب الذي أثاره، وترى الجثث بلا رؤوس كأنّها أصول نخل مقتلعة من منابتها ومغارسها، وأجوافها مسوّسة، وجذوعها بلا جريد.

- فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (22) :

قد تقدّم البيان فيهما مع الآيتين 16 و17.

- كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ (23) :

ومثل هؤلاء وأولئك كان قوم ثمود مع رسولهم "صالح" عليه السلام، كذّبوا به وبرسالته، وكذّبوا بالوعيد والإنذار لتحذيرهم من عاقبة الكفر.

- فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ (24) :

وما كان حجّتهم في تكذيبهم برسولهم إلاّ لأنّه كان رسولا من جنسهم من جنس البشر من ظنّهم الخاطئ بأنّ رسل الله تعالى لا يكونوا إلاّ ملائكة، ولأنّه كان مُفْرَدًا ولم يكن معه قوّة من الأنصار والجند وعظماء القوم، ولأنّه لم يكن من أهل الزعامة فيهم، فظنّوا أنّهم باتّباعه سيضلّون عن الصواب وسيُخْطِئُونه، وسيصابون بالجنون، ذلك لأنّ العرب كانوا يطلقون على النّاقة المجنونة قولهم: ناقة مسعورة، وكانت الناقة المسعورة عندهم تَلْتَهِبُ حِدَّةً.. إعتمدوا هذه الاحترازات للنّفور منه ومن اِتّباعه ومن السماع له، وما اِحترزوا منه لهذه الأسباب إلاّ لأنّهم اِحتقروه فكذّبوا بنبوّته وبرسالته.

- أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ (25) :

ودلّوا على اِحتقارهم لرسولهم بالتّعجّب من أن يُخَصَّ هو بالذات بأن يكون رسولا إليهم من عند ربّهم، وفيهم من هو أكثر مالا وأعظم جاها وأحسن حالا، وهذا من مثل قول أهل قريش في

اِصطفاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالنّبوّة والرِسالة. واِتّهموه بالكذب بادعائه النّبوّة وحمل رسالة ربّه إليهم، ورموه بأنّه (أَشِر) وهو المعجب بنفسه والمَرِحُ والبطِرُ الذي يدّعي ما ليس فيه.

- سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ (26) :

وسيرون حال وقوع العذاب بهم من (ٱلۡكَذَّابُ) الذي قال لهم إنّ الله واحد، أحد لا شريك له ولا ندّ، وأنذرهم بوعيده، أم الذين اِتّخذوا من دونه آلهة أخرى وعبدوها لتكون لهم شافعة لهم من العذاب؟ وسيعرفون حينذاك من كان (ٱلۡأَشِر) الذي تكبّر عن الحقّ، فلم يقبله، ومن كان معجبا بنفسه ساخرا من الوعيد الذي أُنذر به. وفي هذه الآية اِلتفاتة لما كان عليه مشركو مكة للإنذار.

- إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ (27) :

الخطاب في الآية "لصالح" عليه السلام تدعوه لأن يصبر على أذى قومه، ولأن يتحمّل سخريتهم مما يُنْذرهم به حتى يأتيَهم ما أعدّه الله تعالى لهم في الأجل الذي قدّره تقديرا. وهذا بعد إرسال النّاقة ليختبروا في صدق إيمانهم بقدرة ربّهم.

- وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ (28) :

وأخبرْ القومَ – يا صالح – حين ترسل إليهم ناقة الله المعجزة التي تخرج لهم من صخرة عظيمة من الجبل تحت أنظارهم، بأنّ ماء البئر الذي يشربون منه مقسوم بينهم وبين النّاقة. تشرب النّاقة يوما، ويشربون يوما، ولكلّ منهما نصيب وحصّة من الماء يحضره صاحبه في يومه دون اِعتداء.

- فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) :

فنادى الأشقياء الذين لا يخشون ربّهم، والذين لا يشكرونه على نعمته، نادوا صاحبهم الطائش الأمهر في الرمي ليعقر النّاقة، فأخذ سهمه ورماها بنِبَالِه فأصابها في مقتل وقتلها.

- فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) :

قد تقدّم بيانها في الآية 16.

- إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ (31) :

فلمّا عتَوْا عن أمر ربّهم، وجاوزوا حدّهم في الاستخفاف بوعيد الله تعالى، أمر تعالى "صالحا" عليه السلام بالخروج من القرية مع أتباعه المؤمنين. وبعد ثلاثة أيّام من خروجه مع أتباعه أرسل الله عزّ وجلّ صاعقة مفزعة ومُرَوِّعة لشدّة الصوت – وكان القوم نياما – فأصابهم الذعر وأثّرت على أسماعهم وقلوبهم فسقطوا مُغَشًى عليهم وتحوّلوا بعدها إلى جثث جافّة كاليابس من الشّجر أو كالحطب الجافّ.

- وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (32) :

وقد تقدّم بيانها مع الآية 17.

- كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ (33) :

وكذّب قوم لوط برسولهم الذي نهاهم عن إتيان الفاحشة وحذّرهم من عقاب الله تعالى إن لم ينتهوا عن معاصيهم، واستخفّوا بالوعيد.

- إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ (34) :

فقضى الله تعالى فيهم بأن يرسل عليهم ريحا تحمل الحصباء والحجارة وترجمهم بها وهم نيام حتّى هلكوا قتلى رجْمًا بالحجارة إلاّ رسول الله لوطا عليه السلام وبناته وجمعا ممن آمن معه، أنقذهم من هذا الهلاك وهذا العذاب بإخراجهم من القرية في آخر الليل.

- نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ (35) :

أنقذ الله تعالى لوطا ومن اِتّبعه من المؤمنين من الهلاك نعمةً من عنده تعالى ورحمة. كذا يجزي الله تعالى كلّ من يشكر ربّه على نعمة الهداية للإيمان، ويقرّ بفضله عليه، يجزيه بإنقاذه من عذابه.

- وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ (36) :

ولقد سبق للوط أن حذّر القوم من عقاب الله تعالى الشديد المدمّر إن لم ينتهوا عن معصيتهم، ويقلعوا عنها، ويتوبوا، إلاّ أنّهم شكّكوا في أن يلحقهم ما حذّرهم منه، وكذّبوا به.

- وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ (37) :

ولقد طلبوا من "لوط" أن يُخْلُوا بينهم وبين ضيوفه – وكانوا ملائكة أرسلهم الله تعالى لإبراهيم بالبُشرى، وإلى لوط ليأمروه بالخروج مع أهله من المؤمنين من القرية وأخبروه بأنّهم مأمورون بإرسال العذاب على القوم – فمسح الله تعالى على أعين العصاة – طالبي فعل الفاحشة – فصارت أعينهم شقوقا لا تكاد تبصر شيئا وردّهم بهذا عن طلبهم وأطردهم عن بيت لوط وعن مضايقته، وقيل لهم ذوقوا الآن بداية العذاب بالعمى، وسيأتيكم ما هو أشدّ منه قسوة وإيلاما، وتذوّقوا عندئذ ما كنتم تكذّبون به من الإنذار والتحذير، وما كنتم تستبعدونه.

- وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (38) :

وفي الصباح الباكر أتاهم أمر الله تعالى وهم نيام، فألحق بهم عذابا عاما اِستقرّ فيهم حتى أوْدَى بهم إلى الموت ودمار بيوتهم على رؤوسهم وخراب قريتهم، فجعل عاليها سافلها.

- فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ (39) :

جاءت هذه الإعادة للتأكيد على شدّة ما نالهم من العذاب لأنّهم كانوا يأتون فاحشة منكرة، ومعصية بالغة في قبحها. وغايتها التأكيد على التّحذير من إتيانها. وممّا يثير بالغ العجب أن

تظهر في مجتمع كتابه القرآن دعوة لجماعة شواذ جنسيا يطلبون رفع تجريمهم ممارسة المثلية في الجنس، والإقرار بحقّهم في ممارسة فاحشتهم باسم الدفاع عن حرية الإنسان – والحال أنّهم يعلمون العلم اليقيني بأنّ اللواط في الدين الإسلامي محرّم، وأنّ من كان قبلهم من ممارسي هذه الفاحشة كقوم لوط قد عذّبوا بسبب تعاطيهم هذه الفاحشة، قد عذّبوا في دنياهم بعذاب الاستئصال والدمار وأنّهم موعودون بعذاب أشدّ في آخرتهم. وما كان أقبح جهْرهم بطلبهم الفاحش الشاذّ!

- وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (40) :

قد سبق بيان معنى هذه الآية (راجع الآية 17).

- وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ (41) :

ولقد أنذر فرعون وملؤه بعذاب الله عزّ وجلّ إن لم يؤمنوا بربّ العالمين إلاها واحدا لا إلاه غيره، وإن أصرّوا على تكذيب "موسى" عليه السلام برسالة ربّهم إليهم ليحرّروا بني إسرائيل من الاستعباد.

- كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ (42) :

وجاءهم موسى بمعجزات ظاهرة أيّده الله بها ليصدّقوا برسالته وبدعوته، فكذّبوا بها وادّعوا أنّها من عمل السحر والشعوذة، فساقهم الله عزّ وجلّ إلى نهر النيل الذي قطعه موسى ومن اِصطحبه من بني إسرائيل، فلمّا بلغوا اليمّ وبلغ جمعُ المؤمنين اليابسة أطبق عليهم ماء النّهر فغرقوا فيه، وكذا أهلكهم الله تعالى هلاك القاهر الذي لا يُغلب، القادر عليهم والمتمكّن منهم.

وهكذا يأخذ الله تعالى بقدرته الأمم التي تجتمع على الكفر به وعلى التكذيب برسله وبهديه، يأخذهم أخذ عزيز مقتدر من حيث لا يحتسبون، وبما لا يخطر على بالهم : بريح، أو بحصباء، أو بصيحة مفزعة، أو بخسف، أو بظُلَّةٍ، قال تعالى (فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ)(العنكبوت الآية 10).

- أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ (43) :

الخطاب في هذه الآية لكفّار قريش، وبدأ يتبيّن أنّ ما سبق عرضه من أخبار هلاك الأمم السالفة لكفرهم وتكذيب الرّسل كان لغاية إنذار القرشيين المشركين الذين كذّبوا برسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم، والذين اِستخفّوا بالنُّذُرِ، وأنّ ما جاء من التّحذير من عذابه تعالى ونذره في الآيات السابقة كان هؤلاء هم المعنيون به، وأنّ الترغيب في قراءة القرآن الميسّر للذكر وللادّكار والاعتبار، والذي ورد في أكثر من آية كان موجّها لهؤلاء كذلك ليهتدوا للرشاد، وليخشوا ربّهم، وليؤمنوا بوحدانيته تعالى، وليصدّقوا برسوله وبكتابه.

والاستفهام في هذه الآية للتّحذير من اِستبطاء عذاب الله تعالى، أو من اِستبعاده، وللتحذير من ظنّهم الخاطئ بأنّهم في أمان منه. وتفيد الآية في معناها: أكفّار قريش خير من الكفّار السابقين ليظنّوا أنّهم آمنون منه بحكم جوارهم لبيت الله الحرام، أم جاءهم في كتب الله السماوية السابقة بأنّ لهم براءة من العذاب، فلا يمسّهم عذاب وهلاك. والاستفهام إنكاري لأنّ الجواب عنه بـ : "كلاّ" فهم مثل من سبقهم، ليسوا خيرا منهم، وليس عندهم أمان من الله تعالى من عذاب في كتاب سابق، فليخشوا الله سبحانه.

- أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ (44) :

أمْ يَتَوَهَّمُون لكثرة عددهم ولشدّة قوّتهم وبطشهم في المعارك أنّهم منتصرون على جمع المؤمنين المستضعفين إذا اِقتتلوا، وأنّهم ممتنعون لا يُغلبون ولا يُقْهرون؟

- سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (45) :

كلاّ.. سيُهْزَمُ جمعُهم وسيقرون، وسيهربون من مواجهة المؤمنين خائفين مذعورين. وقد حدثت هزيمتهم يوم بدر، ووقعت في معارك أخرى، وقد ولّوا الدبر من غير قتال في (الأحزاب) بسبب الريح الهوجاء التي قلبت عليهم خيامهم وذهبت بأنعامهم ودثورهم وأزعجتهم.

- بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ (46) :

وإنّ لهم موعدا عند قيام الساعة ليُعرضوا على الحساب، ويومئذ يكون قيامهم لها أشدّ بلاءً وفظاعة، وأقسى مرارةً على أنفسهم.

- إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ (47) :

إنّ الذين أجرموا في حقّ أنفسهم بالكفر وبإتيان المعاصي بعيدون عن الحقّ والطريق السويّ في دنياهم، وفي آخرتهم سيُحرقون بالنّار المستعرة في جهنّم.

- يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ (48) :

وهذه لتأكيد تحذير العصاة المذنبين المصرّين على الشّرك والكفر بعقيدة التوحيد الوارد في الآية السابقة من عذاب الحريق، وهذا للتّرغيب في الإسراع للإقلاع عن الشّرك وللتّوبة منه، وللإقبال على الإيمان والطاعات للنّجاة من هذا الوعيد.

معنى الآية: وفي النّار المستعرة يُسحب أولئك على أعزّ عضو فيهم: على وجوههم لإذلالهم، ولتشويه صورتهم وتقبيحها، ويقال لهم لمزيد إهانتهم: تذوّقوا اليوم ما كنتم تكذّبون به، وبما كنتم تَهْزَؤُون به، ذوقوا لَسْعَ نار جهنّم، وعذاب حرّها.

- إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ (49) :



هذه مع الآية الموالية في تقدير الله عزّ وجلّ. لقد خلق الله سبحانه كلّ شيء بتقدير سابق وبنظام محكم. كلّ ما خلق الله سبحانه قد قدّر له أحواله وزمان ظهوره وزمن بقائه قبل إيجاده، وكذلك حاجاته لوجوده لم يخلق شيئا عبثا وبغير تقدير.

- وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ (50) :

وإنّ خلقه سبحانه وتقديره لإيجاد الأشياء ولوازمها وأزمان ظهورها وانتهائها يكون سريعا أسرع من لمح البصر. واللّمح هو النّظر السّريع في عجَلٍ. قال تعالى في آخر سورة يس (إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)(يس الآية 82). فأمره تعالى يَقَعُ عند أمره للشيء أن يكون بين "الكاف والنون". سبحانه.

- وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (51) :

ولقد أهلك الله تعالى أمثالكم في الكفر وأشباهكم في التّكذيب بالرّسل من الأمم السالفة – يا أهل الشّرك من القريشيين – فهل فيكم من يعتبر بهم فيتوب ممّا هو فيه ويستغفر ربّه ويقلع عن معصيته؟

- وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ (52) :

وأُذكر أن كلّ أفعالهم قد سجّلت عليهم في سجّلات محفوظة عند الحفظة، وسيحاسبون عمّا قدّموا لأنفسهم.

- وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ (53) :

وكلّ فعل صغير، وكلّ فعل كبير مُثْبَتٌ ومسطور ومسجّل في كتاب كلّ إنسان.

ومع هذه الآية يكتمل في هذه السورة إنذار كلّ من عصى ربّه بالشّرك أو بالتكذيب برسوله وبالوعيد بسوء المآل في هذه الدنيا وفي الآخرة، ويكتمل إبلاغه بأنّ كلّ فعله مسجّل عليه في كتاب سَيُؤْتاه في آخرته ليحاسب على ما فيه، وهذا قصد ترغيبه في الإنابة إلى الله عزّ وجلّ بالتّوبة من فساد معتقده، وبالاهتداء بما جاءه من بلاغ على لسان رسول الله لإنقاذ نفسه من عذاب الله تعالى ونقمته، وحتى لا يفاجأ بما في كتابه فيقولن : (مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا) (الكهف الآية 49).

- إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ (54) فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ (55) :

وعلى عادة القرآن الكريم في اتّباع الوعيد بالوعد، جاءت الآيتان اللّتان أُختتمت بهما هذه السورة في تبشير الذين يخشون ربّهم، فقاموا على طاعته والعمل بشرعه والاستقامة على دينه بإيوائهم في بساتين زاهية يجدون فيها عيونا وأنهارا مما يُسْتَلَذُّ شرابُه، ويجدون فيها مجالس حقّ لا باطل فيها ولا لغو عند ذي الملك القدير على كلّ شيء سبحانه وتعالى له الملك وله الحمد لا إلاه إلاّ هو.



رقمها	ســــورة ٱلرَّحۡمَٰن (عزّ وجلّ)	آياتها
55	ــــــ مكيــة ــــــ	78

سمّيت هذه السورة بسورة "الرّحمان" لأنّها أُفتتحت بذكر إسم الله عزّ وجلّ: "الرّحمان". وهي السورة الوحيدة الّتي أُفتتحت في القرآن بذكر اسم من أسماء الله الحسنى جلّ جلاله.

وقد روي عن علي رضي الله عنه عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "لكلّ شيء عروس، وعروس القرآن سورة "الرّحمان". ولعلّها اِكتسبت هذه الصفة لما جاء فيها من عديد أوجه المسرّة، وأوجه التّكريم بجميع مظاهر البذخ والنّعيم في ما أعدّ الله سبحانه لمن خاف مقام ربّه من عباده.

وهي سورة مكية، ولمّا دُعِيَ المؤمنون للجهر بالقرآن الكريم لقراءته على النّاس قام اِبن مسعود فقرأ هذه السورة عند المقام رافعا بها صوته، وقريش في أنديتها، وكان ابن مسعود أول من جهر بالقرآن بعد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

ومواضيع السورة في دلائل القدرة والإنعام، وفي صفات الجلال والجمال للرّحمان جلّ جلاله. وذكّرت بالبعث وبالوعيد، ثمّ عظّمت مظاهر تكريم عباد الله المكرمين الذين يخافون مقام ربّهم.

وقد جاء فيها تكرار آية: (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) 31 مرّة طردا للغفلة، وللتنبيه على النّعم.

ومن خصائص هذه السورة أنّ الخطاب فيها موجّه للثقلين : الإنس والجانّ.

- **ٱلرَّحۡمَٰنُ (1) :**

اِسم من أسماء الله الحُسنى، وهو اِسم من أسماء الجمال. وهو اِسم من أسماء الإنعام على جميع المخلوقات بالكَيْنُونَةِ وبالوجود، بشرا كانوا أو خلقا آخر ممّا هو كائن في الوجود حاضرا في الملكوت العلوي، أو في السماوات وفي الأرض وفي ما بينهما ممّا نعلم بوجوده وممّا لا نعلمه لأنّه خفيّ عنّا وممّا نقرّ بوجوده ولا نَعرف كُنْهه ولا مستقرّه، وممّا كان موجودا فيما مضى واِندثر، وممّا هو في علم الغيب وهو في تقدير الله تعالى واقع وحادث مستقبلا، وهذا ممّا خُلق أو سيُخلق في حياتنا الدنيوية، وكذلك كلّ الحادثات التي ستكون حين سيأذن الله جلّ وعلا بزوال الدنيا وقيام الآخرة من مثل البعث وكذلك النشور،ونشر الصحف، ووضع الميزان، ويوم تُرَى كلّ أمّة جاثية، وحين تُفتح الجنان لعباد الرّحمان، ويُحشر العصاة في جهنّم- كلّ هذا من تقدير الرّحمان، قدّر الرّحمان للوجود وُجودَه وهيأ له أسبابَ حياته وبقائه وسخّر له من القوت ما يحيا به وهذا من رحمته. ومن رحمته حسن التقدير. ومن رحمته أن جعل الخلق متنوّعا في الهيأة والصورة وأسلوب حياته ونوع طعامه ونمط بقائه، قدّر كلّ صغيرة وكبيرة، وحفّت ألطافه

بمخلوقاته، وهذا كلّه من مظاهر رحمته تعالى بمن خلق وبما أوجد وأنشأ فهو تعالى الرّحمان. رحمته سبحانه رحمة عامّة سابقة لخلق المخلوقات بتقدير أجل الحياة وأجل الممات، وبتقدير الأرزاق في نظام محكم لحكمة أرادها: لعمارة الأرض على نحو خلق البشر، أو ليكون رزقا للعباد، أو ليكون دليلا على عظمته وعلى وجوده وتوحيده كخلق السماوات وما فيها، أو ليكون دليلا على الرحمة والإنعام كإرسال الماء من السماء رزقا وشرابا ورحمة أو ليكون إنذارا كالصواعق والرّياح العاصفة، ومن المحال إحصاء مظاهر رحمة الرّحمان فقد جاء في سورة غافر على لسان الذين يحملون العرش ومن حوله (رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا)(غافر الآية 7). ولذا فلا قدرة لأحد مهما أوتي من سعة علم ومعرفة وكشف واِطلاع أن يستوفي معنى هذا الاسم الجليل الذي من صفته سبحانه "الرّحيم"، وهذه صفة تدلّ على كثرة وجوه رحمته وعظيمها. وإنّه يستحيل على أيّ إنسان أن يستوفي حقّ بيان مظاهر رحمة الرّحمان لأنّه لا علم له بعالمي الملائكة والجانّ، ولا قدرة له على معرفة رحمته تعالى التي ادّخرها لعباده المتقين يوم الدين. ومن معاني الرّحمان أنّه مُيسّر أسباب ما يحتاج إليه عباده لحياتهم ولهداهم ولتحقيق رغباتهم ولتفريج كُرباتهم ويستحيل على عبد أن يحصي مظاهر رحمة الرّحمان عزّ وجلّ.

وقد جاء اسم "الرّحمان" في آية مفردة للتّعظيم، وللتنبيه لعظيم إنعامه على خلقه بالرّحمة، وأعظم رحمة بعبده هدايته للإيمان ولحمد ربّه على نعمة خلقه والإنعام عليه في رزقه وإسعاده في حياته بما وهبه له لحياته ليعيش كريما. وجاء هذا الاسم مفردا في آية للردّ على الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ)(الفرقان الآية 60). غفر الله لي تقصيري في إيفاء حقّ ربّي في بيان آيات رحمته فهو الرّحمان الذي لا يُسمّى غيره بهذا الاسم، فإنّه لا علم لي إلاّ ما علّمني ربّي سبحانه (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا)(الإسراء الآية 85) غفرانك ربّي فأنت "الرّحمان" وصفتك "الرّحيم"، وفي تقصيري هذا أنا متعلّق – يا ربّي – برحمتك، وهذا رجائي في كلّ ما جاء في بيان اِسم من أسمائك الحسنى وصفاتك العُلا.

- **عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (2) :**

الرّحمان علّم محمّدا صلّى الله عليه وسلّم القرآن. كان محمد صلّى الله عليه وسلّم فيكم قبل نزول الوحي عليه "أمّيا"، ولمّا اِصطفاه الرّحمان ليكون فيكم نبيّا ورسولا يحمل رسالته إليكم علّمه القرآن وعلّمه شريعته ليبلّغها لكم. قال تعالى (وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا)(النّساء الآية 113).

والقرآن هو كلام الرّحمان، هو كتاب الرّحمان، فيه شريعة الرّحمان. أنزله إليكم رحمةً من لدنه ليهديكم الصراط المستقيم: صراط الله الحقّ. قال تعالى (إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ

أَقۡوَمُ)(الإسراء الآية 9). وقال جلّ وعلا في نفس السورة في التحذير من التفريط في الاهتداء بهذا القرآن الذي أنزل رحمة (وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلاً ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرًا)(الإسراء الآيتان86-87). فتنزيل القرآن دليل على رحمة الرّحمان بعباده ليرشدوا فيهتدوا للإيمان الحقّ وللعمل الصالح، وحتّى لا يضلّوا. فمن تعلّمه وعمل به فقد اِهتدى لما جاءه من عند الرّحمان، وكان في ظلّ عرش هدي الرّحمان. ولقد نزل على رسول أمِّيّ ما كان يعلم قبل نزول القرآن عليه قراءة ولا كتابة وما كان يعلم شيئا من شرائع الأمم السالفة وما كان يدعو لدين وما كان يتكلّم عن هدي الرّحمان فلمّا علّمه الرّحمان القرآن تكلّم بكلام معجز يتحدّى الثّقلين: الإنس والجنّ: بُلغاءهما وفصحاءهما لأن يأتوا بسورة من مثله، فدلّ بما علّمه الرّحمان من كلامه في كتابه القرآن بأنّه رسول أمين صادق لا يتكلّم بكلامه وإنّما يبلّغ قومه ما أنزل عليه من ربّه من الهدى والحكمة: بشرى للمؤمنين وإنذارًا للكافرين. فالقرآن كلام الرّحمان، وما ينطق به محمّد صلّى الله عليه وسلّم منه هو ممّا علّمه الرّحمان ليبلّغكم به للاهتداء لله الحقّ الرّحمان الرّحيم، فآمنوا خيرًا لكم، ومن كفر به فقد خسر خسرانا مبينا، خسر رحمة الرّحمان في دنياه بمعصيته فَضَلَّ عن سبيله، وخسر رحمة الرّحمان في آخرته فساءت عاقبته. وعلى الإنسان أن يقرأ القرآن، وعليه أن يجتهد في تدبّره لفهمه وليعمل به فقد يسّره لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورًا.

وفي كتابي (تنوير المُستنير ج.7 ص 75-76) بيان لفضيلة تقديم آية (عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ) على الآية الموالية (خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ).

- **خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (3) :**

الآية موجّهة للذين قالوا: (وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ) حين دُعُوْا للسجود له سبحانه(انظر سورة الفرقان الآية 60)، ليعلموا أنّ الرّحمان هو الّذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا، وهو الذي خلق الإنسان وأحسن خلقه، وصوّره، وقدّر له رزقه، وأجل حياته في دنياه، فهل للإنسان من خالق غير الله سبحانه؟ قال تعالى (ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ)(الروم الآية 40) وجاء قوله (لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ)(التين الآية 4). وهذا لأنّه الرّحمان، برحمته تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وفضّله على كثير من خلقه تفضيلا، فاشكروا له. قال تعالى في مفتتح سورة الأعلى (سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ)(الأعلى الآيات 1-3).

- **عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ (4) :**

ومن رحمته تعالى بعباده – وهو الرّحمان – أنّه علّم الإنسان الإفصاح عن مراده، ويسّر له وسائل الفهم والإدراك التي منها العقل والفكر والبصيرة والنباهة والحسّ والحدس، ويسّر له الإفهام

بشتّى وسائل التعبير التي منها الكلام والتعبير بالإشارة وبالإحساس الدالّ على الخوف أو الحزن أو السرور والانبساط. وأهمّ وسائل البيان هو النّطق بالكلام المناسب بلغة القوم، أو بالتعبير بالقلم إذا كان من أهل العلم الذين إِستوعبوا العلم، وتمكّنوا من وسيلة التبليغ، وهذه ميزة وهبها الرّحمان للإنسان وخصّه بها ففضّله بها على سائر خلقه من البهائم.

- **ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ (5) :**

هذه الآية يفسّرها قوله تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾(يس الآيات 37-40). وهذه الآية تشير إلى أنّ حركة القمر حول الشمس تسير وفق نظام دقيق مضبوط ضبطا يعرف به الإنسان فصول السنة وأيّام الشهر ومواقيت الليل، وبالشمس عند طلوعها وعند غيابها يعرف منها الإنسان مواقيت نهاره، ويعرف فصول العام. وكلاهما: الشمس والقمر في تبادلهما لوقتي الليل والنّهار قائمان إلى أجل مسمّى محسوب بحساب دقيق، فإذا اِنشقّ القمر وإذا الشمس كوّرت أذنتا بقيام الساعة. قال تعالى ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾(الزمر الآية 5) والغرض المقصود من الآية التنبيه لعظيم القدرة وحكمة التقدير والتّسيير لنظام الكون، فكلّ ما خلق الله عزّ وجلّ يدلّ على حكمة التقدير وعظيم الخلق، وهو من آلاء الله عزّ وجلّ.

- **وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ (6) :**

﴿وَٱلنَّجۡم﴾ نبات يظهر على وجه الأرض، وهو من جنس الطفيليات، ليس له ساق. هذا النّبات الذي يكثر ظهوره في الأرض الراوية بالماء مع الشجر بجميع أصنافه وأشكاله يسجدان للرّحمان جلّ وعلا. والسجود في اللّغة وفي القرآن يعني الخضوع لله والاستسلام. بهذا المعنى فإنّ الآية تفيد بأنّ كلّ ما ينبت في الأرض ويخرج منها خاضع لإرادته تعالى ومستسلم، يظهر بقدرته ثمّ يَيْبَس ويجفّ أو يُقتلع على مشيئة الله عزّ وجلّ. قيل: سجودهما في حركة ظلّهما لقوله تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾(النحل الآية 48). وعلى هذا فإنّ ميلان ظلّهما من سجودهما لله خضوعا.

وإذا فُهم ﴿ٱلنَّجۡم﴾ على أنّه الذي ظهر في السماء نقطة مضيئة، وعلى أنّ ﴿ٱلشَّجَر﴾ هو كلّ نبات له ساق وله ظلّ فإنّ سجودهما في حركتهما. النّجم يتحرّك في فلك ويسبح فيه، وظلّ الشجرة يتحرّك نهارا ويسكن ليلا.

والغرض المقصود من الآية أن يعلم كلّ مؤمن أنّ كلّ ما خلق الله تعالى برحمته ممّا هو على الأرض أو في السماء خاضع لأمر الله تعالى ومستسلم لقدرته، وكلٌّ يجري إلى أجل مسمّى، وإنّ في حركة كلّ ما خلق في الأرض وفي السماء هو سجود لله تعالى لأنّه من عمل الخضوع للخالق، فهلاّ أدرك الإنسان إستسلام كلّ الموجودات لله تعالى فأناب إلى ربّه وسجد له تعالى خاضعا وشاكرا، وأقلع عن تقديس النّجوم أو الشمس أو غيرهما من مخلوقات الله تعالى.

- **وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ (7) :**

ومن آيات الله تعالى الدالّة على عظيم القدرة خلق السماء التي رفعها بغير عمد، قال تعالى: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)(الرعد الآية 2) وهي آية في الخلق تفوق كلّ تصوّر، وكلّ علم بلغ من السّعة والإدراك، وأعمال إكتشاف الفضاء ومكوّنات الأجرام. وإنّ خلقها من دلائل رحمة الله تعالى بالبشر الذين قضى الله جلّ جلاله باستخلافهم في الأرض لأن تكون سقفا محفوظا للأرض، قال تعالى (وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ)(الأنبياء الآية 32).

ومن آيات الله تعالى الدالّة على حكمة التقدير: وضع الميزان، فما هو الميزان الموضوع؟ وماذا يعني وضعه؟ قد يكون الوضع بمعنى: الفرض، وقد يكون المقصود بالميزان: العدل، لأنّ الميزان رمزٌ له. وقد جاء (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ)(النّحل الآية 90). فقد فرض الله على النّاس التعامل بينهم بالعدل. وانتبه ابن خلدون عند دراسته لتاريخ الأمم إلى نتيجة تدلّ على بصيرة نافذة فقال: "العدل أساس العمران.." وعلى العكس من ذلك فإنّ الظلم مؤذن بخراب العمران وقيام الفتنة المهلكة.

وقد يكون هذا الفعل (وَضَع) بمعنى: أوجد، أي أوجد لكم الميزان، ثمّ أرشدكم إلى المحافظة على إعتداله في معاملاتكم مع بعض حتى لا تبخسوا أشياءكم، أو تظالموا.

وقد يكون بمعنى: جعل، أي جعل لكم ميزانا في آخرتكم لتقييم أعمالكم، وهذا للمثوبة أو للعقاب على ما تُرَجِّحُه كفّةُ أعمال كلّ واحد من النّاس، وللقضاء بين المتخاصمين والمتظلّمين يوم الحساب بالعدل، وللقصاص من المعتدين الظالمين لردّ المظالم والحقوق لأصحابها.

وقد يكون الميزان بمعنى حفظ حقّ الغير من البخس والنّقص، ودليل ذلك قوله تعالى في الآيتين المواليتين 8 و9 : (أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ) ولقوله تعالى (فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ)(الأعراف الآية 85) وكان هذا الأمر من خاصية رسالة "شعيب" عليه السلام إلى أهل "مَدْيَن".

وقد يكون "الميزان" بمعنى "التّوازن" الذي جعله تعالى فيما خلقه لتقوم الحياة الدنيوية بجميع مكوّناتها على الموازنة بحسبان دقيق وبتقدير حكيم، وأوجد الشيء ومقابله، خلق النّار وخلق



الماء، خلق الحرّ وخلق القرّ والبرد، جعل الليل وجعل النّهار خِلْفَةً لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكورا، وخلق الذكر والأنثى في سلالات خلق البشر فكانت نسبة ولادة الذكور معادلة لنسبة الإناث، ولو لم يخلق الله تعالى هذا التقدير ولو أنّه لم يجعل هذا التقدير من وضعه ولو أنّه جعله أمرا قائما على رغبة البشر لاختلّ توازن الحياة ولقُضِي على سلالة إنجاب الإناث وعندئذ لا يتكاثر النّاس ويندثرون. قال تعالى (يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)(الشورى الآيات 49-50). فالحياة الدنيوية قائمة على "التوازن" من مثل خلق اليابسة والبحار، والجبال والوهاد، ولولا هذا التوازن الذي قدّره تعالى بحكمة التقدير لَمَادَتْ الأرض وهلك من عليها وكلّ شيء عنده تعالى بمقدار، وكفَّتَا الميزان لا تعتدلان إلاّ إذا كانا متوازنين.

وقد يكون (ٱلْمِيزَانَ) بمعنى ميزان الأعمال الذي يكون في الآخرة ليقيم الله تعالى في خلقه العدل فيجازى العامل الصالحات بالخير، وأمّا أصحاب الشرور فيُعاقبون على ظلمهم، وللقصاص من الذين ظلموا.

قال تعالى (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ)(الأنبياء الآية 47)، وقال عزّ وجلّ (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ)(القارعة الآيات 6-9).

كلّ هذه المفاهيم المتعدّدة مجتمعةً تفيدها هذه الآية، وهذا خير من أن نحصر معنى (وَضَعَ ٱلْمِيزَانَ) في مفهوم واحد فحسب دون أن يكون لدينا تأكيد واضح على تخصيصه دون سواه.

- أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ (8)وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ (9) :

ذكرت الآية السابقة بأنّ الميزان قد وضعه الرّحمان، وجاءت آية (أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ) في مخاطبة النّاس كلّهم بنَهْيهم عن الطغيان فيه، وأُلحقت بهذا النّهي الآية التي تلتها في تفسير ما يقتضيه هذا النّهي من أمرٍ ونهي معًا. فالآيتان في تحديد حُكم الله عزّ وجلّ في التّعامل مع الميزان عند التّنازع على الحقوق، وفي المعاملات التجارية. في الحالتين نهى الله عزّ وجلّ عن الجور والتظالم وتجاوز الحقّ تعاظما. ولتحقيق هذا النّهي وجب الحكم (بِٱلْقِسْطِ) أي بردّ الحقّ لصاحبه لإنصافه.. وهذا لتحقيق العدل، وهذا من عمل أهل العدالة ومن عمل الناس العدول. ولتحقيقه في المعاملات التجارية نهى الله تعالى عن بخس النّاس في حقوقهم وذلك بتطفيف الكيل، وهذا حتى لا يُنقص صاحب الحقّ من حقّه. والموعظة المستفادة من الآيتين: اِفصلوا في نوازل النّاس بالقسط عند التّنازع لإصلاح ذات البين ولإقام العدل حفاظا على أمن الناس وحقوقهم.

قال تعالى ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾(الحجرات الآية9)
وكونوا فيما بينكم قوّامين بالقسط فاعدلوا في المكاييل والموازين ولا تكونوا كالذين إذا إكتالوا يستوفون وإذا كالوهم يخسرون. قال تعالى في مفتتح سورة المطفّفين ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾(المطفّفين الآيات 1-3). وبهذا فإنّ المقصود بالميزان في الآيتين: إقام العدل، والحذر من التطفيف في الكيل والوزن في المعاملات التجارية، وإنّ إقام الوزن بالقسط يعني إنصاف النّاس بردّ الحقّ لصاحبه، ولْيعلم المؤمن بأنّ الميزان هو من وضع الرّحمان، وأنّه تعالى قد نهى عباده عن الطغيان فيه. إنّ من أهمّ ما يجب أن يخشاه المؤمن في علاقته مع النّاس: الميزان، وعليه أن يعدّ لميزان الآخرة زاده من التقوى والعمل الصالح.

- **وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ(10) :**

وسخّر الرّحمان الأرض (لِلۡأَنَامِ) لكلّ ما دبّ على وجهها: إنسًا كان أو جانًا أو ما دبّ عليها من المخلوقات، والإنسان، كذا الجنّ، مسؤول عمّا يعمل فيها من خير أو شرّ. قال تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾(الروم الآية41).

- **فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ(11) وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ (12) :**

وجعل فيها بتقديره كلّ جنس من الفاكهة لينعم خلقه بألوان الثمار، وأنبت لكم فيها من كلّ جنس من النّخل ذات الأغطية التي تحفظ التّمْر قبل نضجه. وسخّرها لتُنْبِت لكم الحبّ لطعامكم، والحبّ ذَا التِّبْن أو الورق اليابس ممّا تأكله الدوّاب وتعصف به الرّيح، ولتُنْبِتَ كلّ نبات ينشر رائحة طيّبة ذكية لزينتكم، ولطيب هوائكم ورائحتكم أو لطيب طعامكم، وهذا من فضل الله الرحمان عليكم.

- **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13) :**

فبأيّ نعمة من نِعم الله تعالى، وبأيّ فضل من فضائله تكفران وتنكران وتجحدان (والخطاب للثّقلين: الإنس والجانّ) وذلك لأنّ الله تعالى تحدّث في هذه السورة عن خلق الإنسان وخلق الجانّ. وقال مفسّرون : الخطاب في الآية للإنس فقط، وقد كان من عادة العرب مخاطبتهم للمفرد بالتثنية، وهذا كثير في الشعر العربي كقول الشاعر: "قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل" وهذا كقوله عزّ وجلّ (أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ)(ق الآية 24) وكقولهم: "لبّيْك وسعديْك" وعموما فإنّ الآية تتحمّل المعنيين معًا.

وانفرد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور برأي خاصّ به في هذه التثنية فكتب في تفسيره (التحرير والتنوير ج.27 ص243) : "الخطاب للمؤمنين والكافرين الذين ينقسم إليهما جنس الإنسان.. والمقصود الأصلي: التّعريض بالمشركين وتوبيخهم على أن أشركوا في العبادة مع المنعم وغير المنعم، والشهادة عليهم بتوحيد المؤمنين".

وقد تكرّرت هذه الآية مع كلّ مظهر من مظاهر القدرة أو الإنعام للتأكيد والمبالغة في التقرير، واِتّخاذ الحجّة على النّاس طردا للغفلة وتنبيها للنّعم وآيات الخلق والتوحيد.

- خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ (14) :

والرّحمان هو الذي خلق الإنسان. يتوهّم بعضهم أنّ آية (عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ) هي خبر للرّحمان، والواقع هي خبر أول، وكلّ الآيات في كامل السورة من آيات الخلق والإنعام هي أخبار عدّة لمبتدإ واحد: الرّحمان. وخلق الإنسان من أعظم آيات الإبداع في الخلق، ذلك لأنّ الإنسان خلق في أحسن تقويم. كلّ ما في جسم الإنسان دالّ على حسن الخلق وحسن التقدير وجمال الإبداع. تأمّل في الدورة الدموية في خلقه وفي الجهاز التنفسي وفي جهاز الهضم وفي بصره وفي سمعه وفي بيانه، وتأمّل فيما تميّز به عن سائر المخلوقات: أودع الله تعالى فيه عقلا ليفكّر به وليتعلّم وليبتدع ويبتكر، وأودع فيه منبعا للإحساس والمشاعر النبيلة ليميّز به بين الخير والشرّ، وليندفع لصالح الأعمال، وليشعر بالغبطة والسعادة أو الأحزان، وجعله تعالى مستخلفا في الأرض وحمّله الأمانة والمسؤولية عن عمله وعن معتقده، وسخّر له كلّ ما في الأرض، ثمّ لم يتركه لنفسه فكان الله عزّ وجلّ يتعهّده بالهدي والإرشاد لما ينفعه في دنياه وآخرته عبر رسله عليهم السلام وبالكتب المنزلة.. وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها في تكريم الرّحمان لآدم حين خلقه وتكريم بنيه بما وعد صالحيهم من حسن الجزاء والثواب في آخرتهم. وقد خُلق الإنسان في أصل تكوينه حين خُلِق "آدم" عليه السلام من (صلصال):طين يابس (كالفخّار) وهو الخزف المطبوخ بالنّار. وما أغرب فعل الإنسان الذي نكر فضل خالقه عليه في خلقه في أحسن تقويم، وفضّله على كثير من خلقه تفضيلا، فيغفل عن شكره ويتولّى عن عبادته وطاعته، ويدّعي لنفسه ربّا غيره ليس له عليه أيّ فضل ولم يكن له خالقا!

- وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ (15) :

وإنّه تعالى خلق إبليس وسلالته الشياطين من (مَّارِج) خليط من نار مع عناصر أخرى، وإنّ في خلق الإنسان وفي خلق الجانّ آيات من آيات قدرته تعالى وحسن إبداعه. وقد فُضِّل جنس الإنسان على إبليس الذي أُمِر بالسّجود لآدم عند خلقه.

- فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16) :

تقدّم بيانها مع الآية 13.

- رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ (17) :

وهو تعالى سيّد الأرض كلّها، وهو سبحانه مالكها بمشرقَيْها ومغربيْها (المكان الذي يواجه الشمس عند دوران الأرض حول نفسها يكون مشرقا لها، والمكان الذي اِستدار بحكم دورانها

للناحية المقابلة لمواجهة الشمس يكون مغربا لها، فإذا اِستدارت فصارت هذه الجهة مقابلة للشمس غَدَتْ مشرقا، وما كان مشرقا يصير مغربا لها لأنّه اِستدار عن الوجهة المقابلة للشمس، بحكم دورانها حول نفسها وتقلّب أحوال موقعها للجهة المواجهة للشمس فكأنّ للأرض مشرقين ومغربين). لو فهم النّاس زمن الوحي هذا الفهم لعلموا في زمنهم ذاك أنّ الأرض تدور حول نفسها.

- **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18) :**

تقدّم بيانها مع الآية 13.

- **مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (20) :**

هذه كقوله تعالى(وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)(الفرقان الآية 53) الآيتان في آية عجيبة من آيات خلق الرّحمان، تثير العجب الكبير والحيرة. يرسل الله سبحانه ماءً عذبا في نهر فيكون نهرا فراتا ينتفع به جواره لشرابهم، ولسقي دوابّهم، ولريّ أرضهم ومزارعهم، فيكون لهم مصدر رزق ثمين، ونعمةً من الله تعالى وهِبَةً من أفضل النّعم ومن أفضل أسباب الحياة والرزق. ويرسل في نهر آخر ماءً مِلحًا أُجَاجًا لا يُسْتَسَاغُ شربُه، ولكن يُنْتَفَعُ به لسفرهم، ولاستخراج طعامهم من الأسماك منه وخيرات أخرى ممّا لا يوجد إلاّ في ماء مَلِحٍ أجاج. ويلتقي في بعض المصبّات النهران: عذبهما وملحهما، كنهري دجلة وفرات في بلد العراق، أو كنهر النيل الذي يصبّ في البحر الأبيض المتوسط الملح، ومن العجائب ما أُكتُشف في مكان في عمق المحيط الأطلسي مَنْبَعُ ماءٍ حارّ في وسط ماء بارد. المتناقِضان يجتمعان في مكان واحد فلا يؤثر أحدهما على الآخر، لا يتحوّل الماء العذب إلى ماء ملحٍ عند اِلتقائهما، ولا يتأثّر الملح بعذوبة ما يُصبّ فيه، وذلك لأنّ الله سبحانه قد جعل برحمته – وهو الرّحمان– (**برزخا**) وهو السدّ أو الحاجز، وهذا السدّ أو الحاجز لا يرى قائما وإنّما هو من فعل تقدير الرّحمة ليرى النّاس عظيم القدرة فيؤمنوا بالقدير المقتدر، وليعرفوا فضل ربّهم عليهم فيشكروا له، أفلا يبصرون؟ أفلا يتدبّرون؟ فبأيّ آية من هذه الآيات المذكورة يكذبان؟

- **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) :**

بأيّ آية من آيات هذه القدرة لربّكم الخالق، وبأيّ آية من آيات الرحمة لربّكم الرّحمان تشكّكون وتكذّبون. آمنوا بربّكم الرحمان وأُشكروا له خير لكم من الغفلة عنه، وتدبّروا آياته لتعرفوا قدرته عليكم إن كفرتم به ولتؤمنوا به ربّا واحدا لا إلاه لكم غيره، وأُشكروا له، ولا تغفلوا عنه وأنتم تبصرون، وأنتم تنعمون بنِعَمِهِ.

- **يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (22) :**

ومن الرّحمان أن جعل لكم في أعماق النّهرين منافع أخرى لزينتكم ولرزقكم بما أودع في الماء العذب من لؤلؤ –وهو حجر برّاق وعاكس للضوء بألوان مختلفة لأنّه منكسر الأضلاع يباع بأثمان باهظة ويتّخذ للزينة، وأجود أنواعه في نهر الفرات ومن أسمائه : الدُرُّ – وأودع في الماء المالح في بعض الأنهار (ٱلْمَرْجَانُ) وهو اِسم لعروق حمراء تتّخذ للزينة كذلك، وهذا كما أخرج لكم من نبات الأرض: الفاكهة والريحان.

- **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23) :**

فبأيّ نعمةٍ من نعم الله تعالى الدالّة على فضله عليكم والدالّة على رحمته بكم تكذبون، توبُوا إلى الله جلّ وعلا واِستغفروه وأُرشدوا، ولا تكونوا من الغافلين.

- **وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ (24) :**

هذه كقوله (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ)(الشورى الآية 32) واِستنادا على هذه الآية فإنّ لفظ (لَه) في الآية يفيد بأنّ للرحمان آية الجوار المنشآت في البحر كالأعلام تدلّ على حسن تقديره في تسيير أمر خلقه فجعلهم يُبْحِرُون على سطح ماء البحر في سفن خشبية تسبح سبحا حتّى تبدو من بعيد لناظريها حين ترفع أشرعتها كأنّها قصور مرتفعة عائمة على سطح الماء. لولا حسن التقدير، ولولا تسخير البحر ليحمل على سطحه أثقالهم على سفن خشبية أو ليبلّغكم مقاصدكم في أسفاركم لبلدان لا تبلغونها إلاّ بتجاوز البحر ما كنتم لتأمنوا من الغرق في عمقه فاشكروا لله الرحمان الذي سخّر لكم البحر ليحملكم على سطح مائه، وتعرّفوا على فضل الله عليكم، وعلى آية من آيات قدرته، ولا تكفروا به.

- **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (25) :**

قد تقدّم بيانها.

- **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) :**

هذه في تذكير النّاس بأنّهم جميعا ميّتون، ذاهبون ومنتهُون وهالكون، لا أحد ناجٍ من الموت مهما كانت قوّته، وأيّا كانت منزلته في قومه، حياة الإنسان منتهية. لا خلود إلاّ في الحياة الأخروية. وهذه كقوله (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)(الزّمر الآية 30).

- **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (27) :**

البقاء لله وحده، هو سبحانه الحيّ الدائم. هو الحيّ القيّوم. قال تعالى (كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ)(القصص الآية 88) الوجهُ: رمز للذات. لا يجوز أن نجسّم الذات الإلاهية، ذلك لأنّه تعالى ليس كمثله شيء، وإنّ التّجسيم من أعظم الخطإ في المعتقد. إنّه تعالى (ذُو ٱلْجَلَـٰلِ): ذو التّناهي في العظمة والعزّة والمجد والاستغناء المطلق عن خلقه، وهو من أسماء الجلال. وإنّه تعالى ذو

(ٱلۡإِكۡرَام) وهو من أسماء الجمال الذي يفيد بأنّه سبحانه ذو الفضل العظيم، وذو الإحسان بدون مقابل، وأنّه تعالى هو المنعم. والله سبحانه يُخشى لأنّه ذو الجلال، ويُشكر لأنّه ذو الإكرام. وقد جاء في الحديث الشريف : "ألِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام".

- فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) :

فبأيّ حقيقة من هذه الحقائق وبأيّ دليل من أدلّة عظمة الله تعالى ودلائل إنعامه تكذّبان. اتّقوا الله وعظّموه بالسجود له وبطاعته، وأُشكروا له فضله ونِعمه عليكم.

- يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ (29) :

سؤال الله تعالى يعني دعاءه لتحقيق رجاء السائل. أهل السماوات يسألون الله تعالى القوّة والعون لأداء ما عليهم من فروض ومن أوامر، والملائكة يسألون الله تعالى المغفرة للمؤمنين كما جاء في سورة غافر في دعاء حملة العرش ومن حوله. وأهل الأرض يسألون الله تعالى أمورا كثيرة: أهمّها الصحة والسعادة، والرزق والرحمة والهداية والمغفرة ونعيم الحياة والرّفاه وأسباب القوة والعزّة وقضاء الحاجة...

(كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ): روى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في تفسيرها فقال: "مِنْ شأنِه أن يغفر ذنبا، ويفرّج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين". وروى ابن عمر تفسيره هذا بصيغة أخرى فقال صلّى الله عليه وسلّم: "يغفر ذنبا، ويكشف كربا ويجيب داعيا". (ذكره القرطبي في الجامع ج.17 ص 166 دون ذكر المصدر). وعموما فإنّ شأنه تعالى هو التّقدير، وتقديره تعالى في ملكوت السماوات وفي خلقه في الأرض لا حصر له ولا عدّ، إنّه تعالى القيّوم، وكلّ المحدثات هي بأمره ومن تقديره سبحانه.

- فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30) :

أُنظر الآيات : 13 – 21 – 28.

- سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (31) :

هذه لتنبيه الثّقلين (وهما جنسا الخلق من الإنس والجانّ، سمّيا ثقلين لأنّهما أثقلا الأرض بوجودهما) من الغفلة عن لقائهما ربّهما للحساب عن أعمالهما يوم الميزان، وذلك بالإعداد لذاك اليوم بصدق الإيمان وحسن القول والعمل والطاعة، وخير الزاد: التقوى. ومعنى الآية: سنحاسبكم على أعمالكم يا معشر الإنس والجانّ، وهذا وعيد وتهديد لمن قصده الله تعالى بالمحاسبة، وأمّا المتقون فتفتّح لهم أبواب الجنان ويدخلونها بغير حساب.

- فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32) :

تقدّم بيان الآية مع الآيات : 13 – 21 – 28.

- يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ(33) :

الخطاب في الآية لمعشر الجنّ والإنس الذين لا يصدّقون بالوعيد والذين يكذّبون بيوم الحساب كأنّ لهم علما بالغيب وبعلم السماء وأخبارها وذلك ليعلموا اِستحالة هروبهم من أمر الله وقضائه إذا جاءهم فإنّهم لن يستطيعوا أن يهربوا من الموت، ولن يستطيعوا اِختراق أيّ جهة من السماء أو الأرض للهروب من العقاب، ولن يستطيعوا اِختراق السماء للاطلاع على أمر من أمره تعالى، هيهات أن يستطيعوا هذا أو ذاك (إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ) إلاّ بقدرة الله ومشيئته، وأنّى لهم ذلك وهم عصاة!..

- فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) :

تقدّم بيانها.

- يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36) :

لو حاولتم فإنّه سيأخذكم عذاب مانع من الهروب أو اِختراق أيّ جهة للإفلات من لهب نار لا دُخان لها، (وَنُحَاس) وهو في أحد معانيه اللغوية: الدخان القاتل اِختناقا، وهذا لون من ألوان الهلاك بعذاب. فهذه الآية في تحذير عصاة معشر الجنّ والإنس من عذاب الهلاك في دنياهم قصد موعظتهم ليتوبوا، وليخشوا ربّهم، وليستقيموا على طاعته.

ووردت الآية الثانية لمزيد التّحذير، وقد سبق تقديم معناها وإفاداتها.

- فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ (37) :

فإذا تصدّعت السماء وتشقّقت وفقدت خصائصها كسقفٍ محفوظ، وتحوّل لونها الأزرق المائل إلى البياض إلى لون أحمر (كَٱلدِّهَان) كلون درديّ الزّيت في شدّة حمرته المائل إلى لون بنّي فاعلموا أنّ الله تعالى قد أذن بقيام الساعة.

- فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38) :

فبأيّ تقدير ممّا وعد الله تعالى بوقوعه تكذّبان.

- فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ (39) :

ويوم يبعث الإنس والجانّ بعد مماتهم ليقوموا للحساب فإنّ الملائكة لا يسألون المجرمين منهم عن آثامهم ومعاصيهم لأنّها معلومة من كتبهم وسجلاّتهم الّتي مُدَّتْ لهم بشمائلهم وفيها إحصاء لذنوبهم.

- فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (40) :

قد تقدّم بيانها.

- يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ (41) :

ويومئذ يتميّز المجرمون عن المؤمنين المتقين بلون وجوههم الأسود، وبشخوص أبصارهم، قال تعالى (وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ)(الزمر الآية 60). وقال عزّ وجلّ (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ) (إبراهيم الآيتان 42-43). هؤلاء يساقون إلى الميزان ليقضى فيهم، ثمّ إلى جهنّم –دار العقاب– جرّا من شعر مُقدّم الرأس لإذلالهم، يسحبون من أقدامهم حتى يتوقّفوا عن الفرار والهروب من مواجهة مصيرهم.

- فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (42) :

فبأيّ خبر من أخبار هذا الوعيد تكذّبان، وبأيّ قدرة من تقدير الله تعالى تكذّبان.

- هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ (44) :

ويومئذ يُحشرون في جهنّم حشرا ليعلموا أنّ ما كانوا يوعدون به كان حقّا، وأنّ جهنّم التي كانوا يكذّبون بها هي مأواهم الحقيقي في آخرتهم. ويجدون أنفسهم في هذا المأوى ينتقلون من حين إلى آخر بين نار حارقة مستعرة، فإذا أرادوا الاستراحة منها للتبرّد بمياه جهنّم وجدوا ماءها حميما شديد الحرارة وحارقا، فإذا لبثوا فيها زمنا وأرادوا الاستراحة من حرقتها راحوا لنارها، فهم بين نار وماء حميم يتنقّلون. ففي الآيتين زجرٌ بليغ وتحذير شديد من سوء عاقبة التمادي في المعصية دون الإقلاع عنها والتوبة منها، والعاقل هو الذي يتّعظ بهذا التّحذير وهذا الوعيد فينقذ نفسه بالإنابة إلى الله تعالى بالطاعات ليأمن من هذا العذاب شديد الهول.

- فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45) :

قد تقدّم بيانها.

- وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) :

بعد التّحذير من سوء مآل العصاة المذنبين للردع جاءت هذه الآي إلى آخر السورة في عرض أصناف النّعيم، وألوان التكريم التي يحظى بها المتّقون ترغيبا في الإنابة إلى الله تعالى بطاعة أمره والانتهاء عمّا نهى عنه خاصّة الشّرك والتّكذيب بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن الكريم وبالبعث والوعد والوعيد.

(وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ) اللاّم في (وَلِمَنۡ) حرف يُفيد إسناد فائدة. والفائدة مسندةٌ للّذي يخاف مقام ربّه. والمقام يعني المنزلة العالية للعظيم المهاب الذي يُطلَب رضاه، والقرب منه، ويُخشَى مخالفة أمره، ويُخشى غضبه. وحين يكون المقام للعليّ الأعلى فإنّ هذا يعني تعظيم منزلة العليّ الأعلى، وتقديره حقّ قدره في نفس الإنسان حتى يظلّ في جميع أعماله وأقواله مراقبا له تعالى

وحَذِرًا من أن يراه ربّه حيث لا يحبّ أن يُرَى فيه مخافة أن يغضبه، وهكذا يكون العبدُ الذي يخاف مقام ربّه حريصا في جميع تصرّفاته على ألاّ يعمل عملا، أو ألاّ يقول قولا إلاّ وعنده رغبة في أن ينال بما فعل أو بما قال رضوان ربّه، والتقرّب إليه زلفى طمعا في ما عنده من النّعيم والسعادة في دنياه وآخرته. كلّ من خاف مقام ربّه لا يتبع هواه فيما فيه شقاوة ومعصية، وإنّما يَنْهَى نفسَه عن هواها ويقيمها على الاستقامة على طاعة أمر ربّه الذي لا تخفى عليه خافية. قال عزّ وجلّ (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ)(النّازعات الآيتان 40-41). وبين الخوف من الله تعالى، والخوف من مقام الله عزّ وجلّ فوارق.

هناك الخائف من الله عزّ وجلّ من عقابه وعذابه، وشدّة بأس يوم السؤال، وهو خوف يدفع صاحبه لأن يطيع أمر ربّه ليأمن عذابه، ويطمع في رحمته ورضوانه. وهذا أمر ممدوح، وصفة من صفات المتقين الذين يرجون رحمة ربّهم.

وأمّا من يجلّ مقام ربّه فإنّه يطمع فيما هو أفضل من ذاك الرجاء، إنّه يطمع في أن يتقرّب من العظيم لينال شرف علوّ المنزلة عنده. وتدفعه هذه الرّغبة لأن يحسن الإصغاء لكلّ ما يأمر به العليّ العظيم من أمر، وإذا هو يجتهد في أن ينضبط لكلّ أمر بحرص شديد، ثمّ إنّه يسبّح باسم صاحب المقام لإعلاء ذكره وطمعا في الحصول على مرضاته. يجتهد في أن يعمل كلّ عمل يعلم أنّ صاحب المقام يسرّ به. يفعل هذا وذاك طمعا في أن ينال عنده منزلة تميّزه عن غيره من النّاس، ويعلم أنّه إذا نال هذا الشرف فإنّه ينعم عند العظيم بأفضل النّعم وأوسعها.

فالخوف من الله تعالى دافع إلى طاعته للأمن من عذابه ولينال الثواب عن الطاعات.

وأمّا الخائف من مقام الله، والساعي للتقرّب من العظيم العليّ الأعلى بالسمع والطاعة وبالعمل بما يسرّه ويرضيه فغايته أن ينال شرف القرب منه، وأن ينال عنده الحظوة وعظيم المنزلة، وهذا من صفة المقرّبين من الله عزّ وجلّ ومن المكرمين.

وإنّ العطاء الذي وعد الله تعالى عبده الذي يخاف مقامه العليّ أن يؤتيه في جنّة المأوى التي هي دار المقام في الآخرة جنّتين، والمقصودُ بهما: بستانان فيهما جميع مظاهر النّعيم والخيرات والرّفاه، وذلك لتكريمه ورفع منزلته. وإنّ في الجنّة التي هي دار مقام المُكْرمين في الآخرة من عباد الله المؤمنين العاملين الصالحات جنانا كثيرة أو جنّات عدّة، وهذه بمعنى البساتين الخاصّة، وفيها غُرف مبنية وذلك لأنّ المؤمنين في صلاحهم وتقواهم وفي تقييم أعمالهم على درجات، لذلك تختلف منازل تكريمهم وخير منازل الجنّة دار مقام المؤمنين في الآخرة: الفردوس الأعلى حيث مقام الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وقد تقدّم بيان آية (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ).



- ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ (48) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) :

بعد بيان صفة أهل الجنان، جاءت هذه الآية وما بعدها في صفة الجنّتين اللّتين وعد الله تعالى بهما من خاف مقامه العليّ الأعلى. في هاتين الجنّتين أشجار مثمرة كثيرة ومتنوّعة الثمر، وذات أغصان وفيرة. والشجرة التي تكثر أغصانها تكثر ثمارها ويعظم جمالها.

- فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) :

وفي كلّ بستان من هذين البستانين عين جارية لسقي الغراسات ولجمال منظر البُستان.

- فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ (52) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53) :

وفي كلّ فاكهة من فواكه الأشجار المثمرة صنفان مختلفان في اللون والمذاق، وهذا لمزيد النّعيم والتّكريم والتلذّذ.

- مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ (54) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(55) :

ورد لفظ (مُتَّكِـِٔينَ) في صيغة الجمع ليدلّ على أنّ هذا المكرّم بالجنتين يستضيف جمعا من أخلائه الذين هم من أمثاله في خوفه مقامَ ربّه للأنس وتبادل الحديث للتفكّه، فيجلسون جلسة العظماء يستندون في أرائكهم على فرش منسوجة من حرير سميك، ويتناولون في ضيافتهم ما يشتهون من الفواكه والثمار التي يقطفونها بيسر من أشجارها الدوالي عليهم دون عناء حين يشاؤون. والآية التي تلتها قد سبق بيان معناها.

- فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ (56) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) :

وفي جنان التّكريم هذه ينعم أصحابها بلذّة الأنس بنساء جميلات محتشمات لا ينظرن لغير أزواجهنّ، وهنّ أبكار لم يمسسهنّ أحد من الإنس أو الجانّ قبل أزواجهنّ. وسبق معنى الآية الموالية.

- كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ (58) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59) :

وهنّ في حسنهنّ وجمالهنّ في بياض البشرة وصفائها كأنهنّ الياقوت، وفي حمرة الخدود والوجه كالمرجان، فبأيّ نعمة من نِعم الله تعالى وبأيّ تقدير ربّكما تكذّبان.

- هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ (60) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61) :

وما جزاء طاعة الله تعالى والخوف من مقامه إلاّ حسن الجزاء والثواب والتكريم. وفي هذا فليتنافس المتنافسون.

- وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (63) :

ولمن خاف مقام ربّه جنّتان أخريان غير الأولبين، وذلك للفخامة وللتّجوال ولتكريم مقامه عند ربّه، وهذا للتّرغيب في التقوى وصدق الإيمان والمثابرة على الطاعات وحسن العمل.

وذهب بعض المفسّرين على أنّ الآية في الإخبار عن تكريم أصحاب اليمين – وهم أدنى درجة من الذين يخافون مقام ربّهم بمراقبة أنفسهم في كلّ عمل من أعمالهم وفي كلّ قول. هؤلاء يهب الله تعالى لكلّ واحد منهم بستانين دون بستاني الأولين وأقلّ درجة في كمال الحسن والفخامة. والله أعلم بأيّ الرأيين أصوب، وذلك لأنّ الخبر من علم الغيب، فبأيّ نعمة من نِعم الله تعالى تكذّبان.

- مُدْهَآمَّتَانِ (64) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (65) :

بستانان خضروان خضرة ضاربة للسّواد من كثرة الأشجار، وخضرة الأوراق، فبأيّ نعمة من نعم الله تعالى تكذّبان.

- فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (67) :

فيهما عينان فوّارتان بالماء، لا ينقطع ماؤهما...

- فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (69) :

فيهما فاكهة متنوّعة، ونخل مثمر، ورمّان، فهما جميلتان في المنظر، ومتنوّعة الثّمر والفاكهة.

- فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (70) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71) :

في هذا الصنف من البساتين نساء موصوفات بحسن الخِلْقة وبالجمال في ذواتهنّ وبكريم الأخلاق والفضائل.

- حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (72) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (73) :

هنّ نساء جميلات الأعين، ملازمات بيوتهنّ، وهذه من صفات النساء المُتْرفات، لا يغادرن (ٱلْخِيَامِ) بيوتهنّ لأنّهنّ مخدومات ومكرمات، وقد قُصِرْن على أزواجهنّ.

- لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (74) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (75) :

لم يَمْسَسْهنَّ أحدٌ من الإنس أو الجنّ قبل أزواجهنّ، فهنّ أبكار وعفيفات وطاهرات.

- مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (77) :

هنّ وأزواجهنّ يجلسن مجالس فاخرة متكئين على بسط وزرابي يغلب عليها اللون الأخضر، وعلى ثياب تبسط على الأرض منقوشة نقشا جميلا حسنا. فبأيّ نعيم من مظاهر التكريم تكذّبان، يا معشر الإنس والجانّ.

- تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (78) :

جاءت هذه الآية خاتمة لسورة بُدِئَتْ بتعظيم إِسم الرّحمان، ثمّ عرضت آلاءه الدالّة على جلاله، وعظيم قدرته، ووفرة مظاهر إنعامه على خلقه. وجاءت هذه الخاتمة بالثناء على إِسم ذي الجلال والإكرام الذي هو الله سبحانه، وإِسمه: الرّحمان، وهو إِسم من أسمائه الحسنى. (تَبَٰرَكَ)

سبحانه، هو كثير البركة، يبارك في رزق عباده وفي حياتهم، فيسعدهم بما يهبهم من خيره وإحسانه بما يسعدهم، وبما يحقّق رجاءهم فينعمون بفضائله. ومن واجب المؤمن إذا نال خيرا من فضل ربّه أن يعظّم ذكره فيقول مثلا (الحمد لله، ما شاء الله، تبارك الله، هذا فضل عظيم، أو هذا خير عميم...) وهو تعالى (ذِى ٱلْجَلَـٰلِ) المتناهي في العظمة، والعزّة، والمجد، والاستغناء المطلق عن خلقه، وهو جلّ جلاله ذو (ٱلْإِكْرَامِ) أي ذو الفضل التامّ على خلقه، وذو الإحسان بلا مقابل.

فإن غفل عباده عن تعظيم ربّهم الرّحمان الخالق القدير، وغفلوا عن حمده وشكره على نعمه فإنّه تعالى مُسْتَغْنٍ عن تمجيدهم له تعالى وعن شكرهم له لأنّه سبحانه قد أثنى على ذاته العليّة قبل أن يثني عليه أحدٌ من خلقه.

الحمد لله ربّ العالمين الرّحمان الرّحيم لا نحصي ثناءً عليه كما أثنى على ذاته العلية وهو الحميد المجيد سبحانه جلّ جلاله.

رقمها	سـورة الواقعـة ـــ مكيـة ـــ	آياتها
56		96

سمّيت هذه السورة باسم "الواقعة" لأنّها أُفتتحت بهذا اللفظ. وهي سورة مكية، ولذا فإنّ مواضعها في تثبيت العقيدة السليمة الصحيحة شأنها في ذلك شأن كلّ السور المكية.

أكّدت السّورة في مقدّمتها على أنّ البعث واقع حقّا، وأنّ النّاس قائمون للحساب، وأنّهم سيكونون عند الفصل بينهم على ثلاثة أصناف: مقرّبين وأهل يمين، ولكلّ من الصنفين صنف من المثوبة والجزاء عمّا قدّموا من عمل، وأمّا الصنف الثالث: أهل الشمال المكذّبون بالبعث وبالحساب فنُزُلهم في الجحيم عقابا.

وذكّرت السورة في جملة من الآيات بقدرة الله تعالى، وبآلاء نِعَمه. وخُتمت بالتأكيد على أنّ القرآن كتاب الله المنزل من اللوح المحفوظ، وحذّرت من التكذيب به، وبحديثه عن الرّجوع إلى الله عزّ وجلّ.

ذكر الفخر الرازي في (التفسير الكبير ج.29 ص 139) فقرة في صلة هذه السورة بسورة الرّحمان التي سبقتها تدلّ بحقّ على نباهته وعمق تحليله لمواضيع السورتين، فكتب: "أمّا تعلّقها بما قبلها فذلك من وجوه، (أحدها) أنّ تلك السّورة مشتملة على تعديد النّعم على الإنسان، ومطالبته بالشكر، ومَنْعِه من التّكذيب كما مرَّ. وهذه السّورة مشتملة على ذكر الجزاء بالخير لمن شكر، وبالشّرّ لمن كذّب وكفر. (ثانيها) أنّ تلك السّورة متضمّنة للتّنبيهات بذكر الآلاء في حقّ العباد، وهذه السّورة كذلك لذكر الجزاء في حقّهم يوم التّناد. (ثالثها) أنّ تلك السّورة سورة إظهار الرّحمة، وهذه السّورة سورة إظهار الهيبة... وكلّ واحد منهما يدلّ على علوّ اِسمه، وعظمة شأنه، وكمال قدرته، وعزّ سلطانه".

- إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ **(1)** :

هذه الآية في الإخبار عن وقوع قيام الساعة، وهي إلى غاية الآية 12 في بيان هول حدوث القيامة ومقدّماتها، وتميّز الخلق إلى ثلاث أصناف. هذه الآية هي جملة الشرط، وجواب الشرط في الآية الموالية.

و(ٱلْوَاقِعَةُ) اِسم من أسماء يوم القيامة الذي يأذن الله تعالى فيه ببعث الخلائق بعد مماتهم للمثول بين يديه للحساب عن أعمالهم. وسمّي هذا اليوم بهذا الاسم للتأكيد على أنّه واقع حتما. ومعنى الآية: أُذكروا إذا قامت القيامة، ووقعت، وصدق خبرها.

- لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ **(2)** :

يومئذ ستعلمون بأنّ قيامها ليس فيه تكذيب، وإنّما كان الإخبار عنها خبرا صادقا.

- خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ (3) :

ويوم تقوم هذه الواقعة ستُخْفَضُ رؤوسُ قومٍ كانوا من أهل التكذيب وأهل المعاصي، وستَرْفَعُ قوما، وهم أهل الإيمان، وأهل التّصديق بكلام الله الذي جاء في كتابه وعلى لسان رسوله.

- إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا (4) :

وستقوم هذه القيامة الموعودة حين تضطرب الأرض بما فيها وبما يكون عليها، وتتزلزل زلزلة عظيمة يتفجّر بها باطنها، وينقلب بها ما يكون على سطحها.

- وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا (5) :

وحين تتفتّت بارتجاجها الجبال تَفَتُّتًا يجعلها أكداسا من تراب دقيق بعد صلابتها.

- فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا (6) :

ثمّ تتحوّل أكداس التراب إلى غبار كثيف منتشر ومتفرّق حتى لا يبقى للجبال أيّ أثر بعد إِنتصابها.

- وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ (7) :

ويوم يُبعث الخلق يوم القيامة يتميّزون إلى ثلاثة أصناف.

- فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (8) :

فأمّا الذين يُؤْتَوْن كُتُبهم بأيمانهم فما أعظم إِستبشارهم حين يؤتون كتبهم باليمين!

- وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (9) :

والذين يُعْطَون كتبَهم بشمائلهم فيتشاءمون بما أُعْطُوا من كتبهم، ويتشاءمون ممّا ينتظرهم من شؤمٍ، وما أسوأَ ما يستقبلهم من شؤم!

- وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (10) :

وأمّا الذين كان لهم السَّبْقُ في الإيمان بالله الواحد الأحد، وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم، وبما جاءهم به من عند ربّهم من كتاب وموعظة وشرع، وسابقوا لطاعة الله تعالى وسارعوا إلى مغفرة من ربّهم فإنّهم السّابقون إلى كلّ نعيم، وتكريم.

- أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ (11) :

أولئك هم المقرّبون من رحمة الله تعالى ومن رضوانه، وهم الذين يحظَوْن بأرفع منازل التكريم عند الله عزّ وجلّ.

- فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (12) :

هم الذين يكون لهم السَّبْقُ لدخول بساتين النّعيم والرّفاه فضلا عند ربهم وتكريما لِسَبْقهم للإيمان وللطاعات.

- ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (14) :

الآيتان إلى الآية 26 في مظاهر تكريم المقرّبين السابقين للإيمان والتصديق بما جاءهم من عند ربّهم، هم جماعة من الأمم الماضية الذين آمنوا وصدّقوا برسلهم وجاهدوا معهم في تحمّل أذى المكذّبين، وقليل من أتباع محمد صلّى الله عليه وسلّم، جعلنا الله تعالى وآباءنا من هؤلاء بكرمه وجوده وفضله.

- عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ (15) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ (16) :

وينعمون في جنّات النّعيم بالأنس وبكلّ ما يُشتهى من مظاهر الفخامة، يجلسون على أرائك وسرر مصنوعة بالذهب ومنقوشة بنقوش تزيّنها كسُرر الملوك والعظماء، متّكئين عليها اِتّكاء العظماء ومتقابلين للحديث والتّفكّه.

- يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ (17) بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ (18) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ (19) :

ويجول بينهم لخدمتهم صبيان في سنّ مُحدّدة لا يهرمون ولا يموتون ليقدّموا لهم أكواب العصير اللذيذ، ويجولون بينهم بأباريق الماء العذب وكؤوس من خمر جار ظاهر للعيون، لا يصابون بشربهم لها بصداع الرأس، ولا تذهب بها عقولهم بخلاف شراب الدنيا.

- وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) :

ويقدّمون لهم ما يشتهون من الفاكهة وما يختارون منها.

- وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ (21) :

ويقدّمون لهم لطعامهم ما يشتهون من لحوم الطيور الطازجة.

- وَحُورٌ عِينٞ (22) :

ومن حولهم للأُنْسِ بيض حسان جميلات الأعين.

- كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ (23) :

هنَّ كاللؤلؤ في صفاء بياضهنّ، وهنّ محفوظات.

- جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (24) :

يحظون بهذه النّعم الفاخرة ثوابا على الصالحات من أعمالهم وعلى طاعاتهم.

- لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا (25) :

ولا يسمعون في جنّاتهم لغطا ولا ضجيجا ولا كلاما باطلا وكذبا، ولا الكلام الذي يأثم بقوله صاحبهُ إذا كان فيه شتم أو فحش أو همز ولمز، لا يسمعون إلاّ ما فيه خير وأنسٌ.

- إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا (26) :

ولا يسمعون فيها إلاّ التّحية: تحية الدعاء بالأمان وبالسلامة مما يُكْرَهُ، هي تحية الله تعالى لقوله عزّ وجلّ (سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ)(يس الآية 58). وتحية الملائكة عليهم السلام الذين يدخلون عليهم من كلّ باب.

- وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ (27) :

هذه إلى الآية 40 فيما ينعم به أهل اليمين في آخرتهم. وأهل اليمين هم عباد الله الذين كانوا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات واِتّبعوا الرّسول ولم يعصوا الله تعالى فيما أمر، فلمّا بُعثوا يوم الميعاد أوتوا كتبهم بأيمانهم، ومن يُؤْت كتابه الذي هو سجلّ أعماله يستبشر خيرا، ويَسُرُّ به. وأصحاب اليمين موعودون بالأجر الحسن من عند ربّهم ثوابا من لدنه على إيمانهم وحسن عملهم، وما أدراك ما أصحاب اليمين، هم قومٌ فائزون بالنعيم الذي وعدهم الله تعالى به!

- فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ (28) :

هؤلاء يأْوُون إلى ظلال وارفة تحت شجر كثير الظلّ(مَّخۡضُودٖ) قطعت منه أشواكه، فلا شوك له.

- وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ (29) :

وفي شجر مثل شجر الموز –أوراقه ممتدة وكثيفة– وثمَرُه (مَّنضُود) متراكب بعضه فوق بعض.

- وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ (30) :

وظلّ هذه الأشجار (مَّمۡدُودٖ)، دائم، باق، لا يزول، ولا يخترق، حرٌّ.

- وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ (31) :

ومن حولهم أنهار ذات مياه جارية مسكوبة، أي جارية بقوّة كجريان مياه الشلالات فتمنح متعة للعيون ورفاها للنّفوس.

- وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ (32) :

وينعمون بجني كلّ ما يشتهون من الفواكه الكثيرة التي من حولهم، وهي فواكه غير منقطعة ولا هي عزيزة المنال.

- لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ (33) :

لا تنقطع عنهم هذه الفواكه بجنيها، أو لاختلاف الفصول مثلما يكون حالها في الدنيا، وليست عليهم محظورة، فكلّ من اِشتهى منها شيئا نالهُ.

- وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ (34) :

الفُرُش هي محلّ الاضطجاع مع النّساء، وفرش أهل اليمين مرتفعة لارتفاع القدر.

- إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ (35) :

والله تعالى أوجد الزّوجين من جديد إيجادا وخلقا بديعا بعد أن كنّ عجائز أو ذوات عيوب.

- فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا (36) :

وأعادهنّ إلى حال الشباب وكمال الجمال وردّهنّ صبايا أبكارا.

- عُرُبًا أَتۡرَابًا (37) :

(عُرُبًا) العُرُب ج. عَرُوبٌ، وهي المرأة الغَنْجَاءُ، الجميلة المتدلّلة، والمتحبّبة إلى زوجها. (أَتۡرَابًا) وجعلهنّ الله سبحانه أندادا لأزواجهنّ في السنّ.

- لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (38) :

هذه النِّعم قد جعلها الله تعالى لأصحاب اليمين تكريما لهم، وجزاءً عمّا كانوا يعملون.

- ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (39) :

أصحاب اليمين هم جماعة من الذين آمنوا من الأمم السالفة وصدّقوا برسلهم وعملوا الصالحات من الطاعات.

- وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (40) :

وجمعٌ من أتباع النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم الذين صدّقوا به نبيّا ورسولا، واِتّبعوا هديه وما جاءهم به من أمر الله تعالى وهداه في كتابه، وآمنوا بالله الواحد الأحد ولم يشركوا به أحدا، وأخلصوا له في الطاعات، وانتهوا عن المعاصي.

- وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (41) :

وأُذكر أصحاب الشّمال، وهم الذين يُؤْتَوْن كتبهم بشمائلهم، فلمّا علموا ما فيها تشاءموا ممّا ينتظرهم من عذاب، وعظِّمْ ما سيلقى أصحاب الشمال من بلاء وأهوال. وبدءًا من هذه الآية إلى الآية 56 في عاقبة أصحاب الشمال.

- فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ (42) :

سيلقون في مأواهم ريحا حارّة من ريح لفح نار جهنّم، فإذا فزعوا للماء للتبرّد أو للشراب سُقُوا ماءً شديد الحرارة، وإنّهم لن يجدوا في جهنّم ماءً للتبرّد إذ ليس فيها إلاّ الماء الحارق.

- وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ (43) :

وليس لهم من ظلٍّ إلاّ ظلّ دخانٍ شديد السواد والحرارة، وخانق قاطع للأنفاس.

- لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ (44) :

ظلّ لا يجد فيه المستظلّ به بُرُودةً ولا رطوبة، ولا يُكرم فيه براحة لأنّه ظلّ حارّ ومؤلم وخانق.

- إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ (45) :

لقد اِستحقّوا هذا المقام المشؤوم، وهذا المآل المؤلم لأنّهم كانوا في حياتهم الدنيوية مُتَنَعِمِّين بالحرام. يكسبون المال من الحرام وينفقّونها في التّنعم بالملّذات الحلال والمحرّمة، وينفقون من

مالهم للصدّ عن دين الله تعالى، لا يتحرّون فيما يكسبون من مال وجوه الحلال، ولا يؤتون حقّ الله تعالى فيما كسبوا.

- وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ (46) :

(ٱلۡحِنثِ) هو الإثم، وأعظم الآثام: الشّرك. وأصحاب الشمال كانوا مُداوِمين على الشرك ويتمسّكون به ولا يتوبون منه.

- وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ (47) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ (48) :

وكانوا ينكرون البعث ولا يصدّقون بما جاءهم من عند ربّهم، وكانوا يستبعدون إعادة الحياة لهم بعد مماتهم وتحوّل أجسامهم إلى تراب وعظام، ويقولون باستحالة إعادة آبائهم القدامى إلى الحياة بعد أن اِندثروا ولم يبق لهم أثر من أجسادهم، فكانوا بقولهم هذا يكذّبون بالبعث رغم ما جاءهم من الآيات والبيّنات الكونية من إحياء الأرض وبيّنات آيات القدرة بأنّ الله تعالى لا يعجزه إحياؤهم بعد مماتهم.

- قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ (49) لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ (50) :

أخبر –يا محمد– هؤلاء الذين يكذّبون بالبعث وبيوم الحساب بأنّ جميع الخلق– السابقين بالوجود وبالممات وكلّ من وُلِدَ من بعدهم وسيُتَوَفَّى حين يحين أجله، وكلّ من سيولد من بعدهم إلى نهاية الحياة الدنيا سيموتون، ثمّ سيبعث جميعهم للوجود، وسيجمعون إلى يوم معلوم ومقرّر للحساب للمجازاة.

- ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ (51) :

ثمّ إنّكم أيّها البعيدون عن الاستقامة على الدّين الحقّ، المكذّبون بوحدانية الله الواحد الأحد، وبرسله، وبيوم البعث والحساب، والمكذّبون بالوعد والوعيد، أخبرهم بأنّهم

- لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ (52) :

سيأكلون من شجر كريه الرّائحة وطعامه مرّ، نابت في جهنّم فهو حارق، وليس لكم من طعام غيره

- فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ (53) :

سيأكلون منها غَصْبًا حتى تُمْلأُ منها بطونهم، وتحرق بها..

- فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ (54) :

وسيَشربون على ما أكلوا ماءً بالغا نهايتَه في الغليان والحرارة.

- فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ (55) :

سيشربون من هذا الماء شُرْبَ الإبل العطاش المصابة بالداء، فتظلّ تشرب من الماء دون أن ترتوي أو تكفّ عنه. وإنّ من أعظم ما يثقل على نفس الإنسان أن يُشَبَّهَ بواحد من قطيع الإبل لما في هذا التشبيه من إذلال وإهانة.

- هَـٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ (56) :

هذا مأواهم، وهذا منزلهم الذي سيقيمون فيه يوم الحساب والجزاء على العمل.

نعوذ بالله الرّحمان الرّحيم من الانتهاء إلى هذا المآل المروّع، الرّهيب المذلّ. وليس من حالٍ أعجب من حالِ مَنْ بلغه العلم بهذا المآل الكريه الأليم، فلم ينقذ نفسه منه بالإقلاع عن معاصيه وعن الهزء بالوعيد وعن التكذيب بالبعث، وبالإسراع إلى الإنابة إلى الله تعالى يطلب عفوه ومغفرته والنّجاة من عقابه وعذابه! ما أشد غفلة مَنْ بَلَغَهُ هذا الوعيد وعَلِمَه فلم يرتدع، وأصرّ على اِتّباع هواه! وما أعظم عناده، وإضْرَارَه بنفسه!

- نَحۡنُ خَلَقۡنَـٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ (57) :

الخطاب في هذه الآية إلى الآية 74 لعموم النّاس ليعلموا فضل ربّهم عليهم وليعرفوا قدرته سبحانه، وهذا للتّذكير ولرفع حجاب الغفلة عن القلوب والأبصار. والمعنى: واِعلموا أنّ الله الذي دعيتم لعبادته وطاعته ودعائه هو الذي خلقكم، فهلاّ آمنتهم به إلاها واحدا، وهو الأحقّ بالعبادة والطاعة وتركتم الشّرك، وأنقذتم أنفسكم من الضلالة!

- أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ (58) :

وتأمّلوا فيما يخرج منكم من مني عند مباشرتكم لأزواجكم فتقذفونه في أرحامهنّ إبتغاء الولد.

- ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَـٰلِقُونَ (59) :

هل كنتم أنتم المنشئين له والواجدين أم هو الله تعالى الذي خلقكم من قبل وخلق فيكم ما تمنون؟ إذا اِنتبهتم لفضل الله تعالى عليكم فيما سبّبه لكم ليُسعدكم بإنجاب الولد، فسارعوا إلى الإيمان به خالقا ومنعما وربًّا، وتوبوا إليه، ودعُوا ما أنتم عليه من عبادة أصنام صمّاء حجرا منحوتا بأيدكم لم تنفعكم بشيء، ولا فضل لها عليكم.

- نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ (60) :

والله تعالى هو الذي حدّد آجال حياتكم، وهو الذي قدّر أجل موت كلّ واحد منكم فعجَّلَه لبعضكم، وأخّره عن بعض، وليس لآلهتكم التي تعبدون من زعمكم أيّ تقدير. وإنّ الآجال التي حدّدها الله تعالى لأعماركم لا تُبَدَّلُ ولا يَغْلِبُه أحدٌ لمنع تنفيذها في وقتها المحدّد، لا يستقدم أحد غيره أجل الموت أو يؤخّره، قضاؤه نافذٌ، ولا رادّ لقضائه.

- عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَـٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ (61) :

ولا أحد يغلبه أو يمنعه من أن يذهب بكم، ويستبدَلكم بآخرين، أو يحوّلكم إلى صُوَرٍ أو كائنات أخرى لا تعرفونها، ولا تخطر لكم على بال. اِعلموا أنّما أنتم جميعا من خلقه وأنّه هو الذي أوجدكم وصوّركم على ما أنتم عليه، وأنّه ليس يُعجزه أن يستبدل صوركم.

- وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ (62) :

ولقد عرفتم كيف نشأتم من نطفة ثم من علقة ثمّ كنتم أجنّة في بطون أمّهاتكم ثمّ ولدتم على الصورة التي خلقها الله تعالى لكم، لم يكن لأحد غيره أثر في تحديد صُوَرِكم، ثمّ بلغتم أشدّكم، فهلاّ نظرتم في أنفسكم كيف نشأتم من البذرة الأولى لتعرفوا خالقكم الحقّ فتشكروا له فضله عليكم في خلقكم على أحسن صورة وأنشأكم على ما أنتم عليه. آمنوا به ربّا خالقا وإلاها واحدًا لا معبود سواه، ولا تكونوا من الجاحدين.

- أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ (63) :

وأُنظروا في مزارعكم، وتأمّلوا في ما تبذُرون فيها، وفي ما يخرج لكم من باطن الأرض من بذوركم.

- ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (64) :

أأنتم تخرجون زرعه من باطن الأرض وتصيرونه حبًّا في سنابل أو زرعا ممّا تشاؤون أم هو الله تعالى بقدرته بما سخّر الأرض لفعله وبما سقاها من ماء السماء؟

- لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ (65) :

لو شاء الله تعالى لجعل ما يخرج من البذور التي بذرتموها هشيما وحشائش مفتّتة طعاما للدوّاب، وبقيتم تعجبون من المصيبة التي حصلت لزرعكم، وتتحسّرون على خسارتكم لأموَالكم وجهودكم.

- إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ (66) :

إنّ الله سبحانه هو الذي أوقع بكم الخسارة، لأنّكم رُزقتم من خيرات الأرض ثمّ نَسَبْتم ما جاءكم من الخير لأنفسكم، وقدّمتم بعضا من خيراتها للقائمين على أصنامكم شكرا لآلهتكم المزعومة، ولم تذكروا ربّكم الحقّ ولم تشكروا له فعاقبكم على جحودكم بإتلاف ما بذرتم، فالغرم هو الخسران.

- بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ (67) :

عاقبكم الله تعالى بهذه الخسارة حتى تقولوا في حسرةٍ وألمٍ لقد حُكم علينا بالحرمان والخسارة والتّعب والشّقاء بلا فائدة.

- أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ (68) :

أفلا تنظرون في نعمة الماء الذي تشربونه لتحيوا في أمان من الموت والهلاك عطشا.

- ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ (69) :

(ٱلۡمُزۡنِ) هو السحاب الممتلئ ماءً. إِسألوا أنفسكم عن الماء الذي نزل عليكم من السحاب لشربكم ولريّ أرضكم ومزارعكم وأشجاركم ولسقي أنعامكم ولإحياء الأرض هل كنتم أنتم المنزلين

له من السحاب أم هو الله جلّ وعلا الذي أنزله، وهو الذي ساق إليكم السحاب الممتلئ ماءً، نعمةً من عنده، وفضلا لينقذكم من العطش والجفاف ومن الهلاك بالقحط، فأُشكروا لله المنعم وأخلصوا له في الطاعة، واِحذروا معصيته بعبادة ما زيّن لكم الشيطان عبادته لإضلالكم عن الهدى.

- لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ (70) :

(أُجَاجٗا) الأجاج هو الماء المالح الذي لا يصلح للشّرب لشدّة ملوحته، وهو الماء الذي يحوّل الأرض الصالحة للزراعة سبخة. وتفيد الآية بأنّ من رحمة الله تعالى بعباده أن أنزل على النّاس الماء عذبا صالحا للشّرب وللسّقي وللريّ.

لو أراد الله تعالى أن ينزل على قوم ماء ملحا أجاجا، أكان أحد منهم أو واحد من آلهتهم المزعومة أن يردّ الماء للسحاب الذي أنزله، أو أن يمنع نزوله؟ كلاّ.. فهلاّ شكرتم الله تعالى على نعمته وعلى فضله وعلى رحمته إذ أنزل عليكم ماءً عذبا فسقاكم به وسقى أنعامكم وروى أرضكم، وهلاّ تركتم عبادة ما لا يستطيع لكم نفعا ولا ضرّا، ممّا زعمتم أنّه لكم إلاه، والحقّ أنّه لا إلاه لكم إلاّ الله الواحد الأحد.

- أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ (71) :

وأنظروا في النّار التي (تُورُونَ)، تقدحونها من الزَّنْدِ والمرخ والعفار (وهي أعواد من هذا الشجر يخرج من اِحتكاكها قدح يوقد بها الفتيل فتشتعل، وتعطي نار الإشعال الحطب للطبخ أو للاستنارة أو للتدفئة أو لإبعاد الحيوانات الضارية)، والاستفهام في الآية لحفز الفكر على تدبّر آيات الله تعالى في خلقه لنفع العباد.

- ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ (72) :

أأنتم خلقتم من اِحتكاك عودين من شجرة رطبة نارا تحرق حطبا يابسا أم هو الّذي أنشأ ذلك وقدّره؟ إذا عرفتم قدرة الله الخالق في ما يحدث بين هذين المتضادّين فسارعوا لطلب مغفرته بعبادته وطاعته، وترك شرككم بالله.

- نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ (73) :

ولقد جعل الله تعالى ما تفعله النّار الموقدة في محيطها موعظة للنّاس فيما يكون في وسط النّار الكبرى التي يتوعد بها الكافرين والعصاة المذنبين. ولقد جعلها تعالى لكم في دنياكم لينتفع بها (المقوون) وهم المسافرون في القفر، يوقدونها لطعامهم، ويوقدونها ليلا لتهرب منهم السباع، وللأنس والتدفئة. فاذكروا فضل ربّكم عليكم فيما تنتفعون به ممّا خلقه لكم.

- فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ (74) :

جاء في الآيات السابقة الاستدلال على أنّ الله تعالى هو المنعم الحقيقي على الإنسان بنعمة خلقه وإيجاده، وهو تعالى المتفضّل عليه بماء الشّرب، وبإنبات الأرض لطعامه، ولولا هذا الفضل لهلك عطشا أو جوعا. وجاء فيها ما يدلّ على القدرة والإنعام حين جعل له من العود الرطب عند اِحتكاكه بآخر نارا لينتفع بهذه النار بمزايا أخرى نافعة له لحياته، وموعظة. ودعي أثناء هذا العرض ليعرف ربّه الحقّ حتى لا يضلّ عن عبادته وعن شكره لعبادة ما لا نَفْع له منه ولا يقدر له على شيء.

وجاءت هذه الآية بعد هذا العرض لإرشاده لتنزيه ربّه عن النّدّ والشّريك (فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ) أيّ نزّه ربّك عن أن يكون له ندّ أو شريك، فإنّ ربّك هو الله الذي خلقك، لا إلاه لك غيره، هو الأحقّ بالتّعظيم، عظِّمْهُ بالامتثال لأمره، وعظّمه بالمداومة على شكره على ما أنعم عليك من النّعم والفضائل، وأُسجد له تقديسا وتعظيما وللشكر، ولا تسجد لغيره، ولا تعبد سواه.

- فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (75) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ (76) :

الآيتان إلى آخر السّورة في التّأكيد على التّصديق بالقرآن كتابا من عند الله عزّ وجلّ، وفي التأكيد على تصنيف النّاس ثلاثة أصناف عند الحساب حين تقع الواقعة، وهذا للوعد والوعيد، وبهذا يحتكم الربط بين هذه الخاتمة ومقدمة السّورة وجوهر موضوعها.

وتفيد الآيتان بأنّه لا حاجة للقسم بمنازل النّجوم ومداراتها لأنّه قسم عظيم، فمهما بلغ الإنسان من سعة علم، ومن قدرة خارقة على الكشف، أو من وسع خيال وتصوّر أن يدرك عظمة خلق النّجوم: كيف أُنشئت؟ وكيف وُضعت في مداراتها؟ وكيف اِستقرّت فيها؟ وكيف يتمّ تدبير أمرها حتى لا تخرج عنها؟ وكيف يتمّ تسييرها؟ هذه مسائل لو كانت للإنسان قدرة ومَلَكة لفهمها ومعرفتها لعلم أنّ هذا القسمَ قسمٌ عظيمٌ يدلّ على عظمة الخالق، وعظمة تدبيره وتسييره لما خلق وعلى عظمة تقديره، ولكنّ علمَه محدود، ومستوى إدراكه محدود كذلك. واِستعمال لفظ (لَّوۡ) في قوله (لَّوۡ تَعۡلَمُونَ) يدلّ على اِستحالة بلوغ درجات معرفة هذه العناصر، فما غاب عن علمه أعظم وأكثر ممّا يعلم.

- إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ (77) :

هذه الآية جوابٌ للقسم الذي لم يكن من الضروري القسمُ به بسبب محدودية إدراك الإنسان في معرفة عظيم إنشائه. والمُستفاد من هذا الجواب بأنّ ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلّم من كلام الله تعالى وحيًا هو قرآن كريم. والقرآن هو الكتاب الذي سُطِّرَ فيه كلام الله عزّ وجلّ الذي أوحِي به إلى الرّسول النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم عبر أمين الوحي: المَلك جبريل عليه السلام. سمّي قرآنا لأنّه كتاب مُنَزَّلٌ ليقرأه النّاس مرّة بعد مرّة، تلاوة بعد تلاوة قصد الذِّكْر

والتذكّر، وللموعظة والاعتبار، وللعلم بشرع الله تعالى وأحكامه، ولمعرفة آيات الله تعالى وآلائه في الخلق والإنعام لتثبيت الإيمان، ولمعرفة معالم فضائل الأخلاق وصالح الأعمال. ووُصف القرآن بأنّه (كَرِيم). والكريم هو الذي يُعطي عطاءه بسخاء تفضّلا وإحسانا بلا مقابل. ويتمثّل عطاء القرآن لقارئه الذي أحسن القراءة وتدبّرها في أنّه يكشف له بالدلائل الكونية البيّنة، والدلائل العقلية التي لا يعقلها إلاّ العالمون، يكشف له وجوه الباطل والضلالة والجهالة في العقيدة والعبادة، فتتفَتَّحُ بصيرتُه على الحقّ، وحينئذ ترتفع عن عينيه الغشاوة، ويستنير عقلُه فيهتدي للصواب، ويعرف ربّه الحقّ. فإذا أناب إلى ربّه، وأقام على ذكره اِطمأنّ قلبه (أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ)(الرعد الآية 28). ويزداد المؤمن بتلاوته إيمانا ويقينا وِاحتسابا. وحين يمرّ بآيات الوعد والوعيد تقوم عبادته على الخوف وعلى الرّجاء. وحين يمرّ بآيات الأحكام وفضائل الأخلاق يقيم نفسه على الوقوف دون حدود الله تعالى فلا يتجاوزها لما فيه معصية. وإنّه كريم لما فيه من بشائر للمؤمنين بالأمان من العذاب، وبالنّجاة من العقاب، وبالفوز بجنّات النّعيم. قال تعالى (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ)(الأنعام الآية 82). وقد أخبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّ لكلّ قارئ للقرآن بكلّ حرف يقرأه حسنة، وقد تتضاعف إلى عشر. فهو إذن كتاب كريم لما فيه من فضائل تهدي إلى الحقّ وإلى صراط الله المستقيم. قال تعالى (وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ)(النّحل الآية 89). (وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ)(النّحل الآية 18)، ولا يُعْرِضُ عن قراءة القرآن وتلاوته إلاّ محرومٌ من خير كثير، وكرمٍ كبير.

- **فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ (78) :**

كان –قبل تنزيله على مُحمّد صلّى الله عليه وسلّم – محفوظا عند الله تعالى ومصونا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ، وهذا لتشريف قدره.

- **لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (79) :**

والكتاب المكنون (لَا يَمَسُّهُۥٓ) لا يقْرَبُهُ، ولا يأخذ أحد شيئا ممّا هو مُسَطَّرٌ فيه (إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ) وهم الملائكة الذين وُكِلَ لهم حفْظُهُ، والذين كُلّفوا بحمل شيء ممّا فيه لينزلوا به على رسل الله. (ٱلۡمُطَهَّرُونَ) هم الذين طهّرهم الله تعالى من الشّرك ومن النّفاق. ويكاد يُجْمِعُ المفسّرون على أنّهم هم الملائكة والأنبياء والمرسلون. والمطهّرون صَرْفًا صفة مُشَبَّهة، وأمّا الذين يغتسلون للطهارة الكبرى فهم المتطهّرون، وهو اِسم فاعل من تطهّر أي اِغتسل، وأمّا المطهّرون فهم الذين طهّر الله تعالى قلوبهم من الشّرك والنّفاق فكانوا طاهرين، ولا يقال لهم متطهّرين.

- **تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (80) :**

هذه في الردّ على المكذّبين بالوحي والمكذّبين برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واتّهموه بافتراء ما يسمعهم من القرآن الكريم، أو بالسحر. الآية تؤكّد تأكيدا قاطعا لكلّ من يشكّ في التنزيل بأنّ القرآن الكريم قد أنزله الله عزّ وجلّ ربّ العالمين حقّا وصدقا. نزل به الرّوح الأمين – جبريل عليه السلام – على قلب محمد صلّى الله عليه وسلّم ليبلّغه بأمر ربّه تعالى إلى النّاس كافّة للذّكْر، وليكون لهم هاديا ومرشدا للاستقامة على دين الله الحقّ.

- أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ (81) :

وهذه في توبيخ المكذّبين بالقرآن، وبالوحي، لأنّ الاستفهام فيها للتوبيخ، والمعنى: أفبهذا القرآن المنزّل من عند الله سبحانه (أَنتُم مُّدۡهِنُونَ) أي تشكُّون، وتكذّبون، وتتهاونون في الاستفادة من هديه وإنذاره وترغيبه.

- وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ (82) :

وتجعلون مقابل ما أنعم الله تعالى به عليكم من الرّزق والخيرات أنّكم تكذّبون بما أنزله إليكم لهديكم.

- فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ (83) :

هذه مع الآيات الأربع الموالية في التّذكير بقدرة الله تعالى، وأنّه لا أحد من البشر قادر على أن يردّ قضاءه إذا حضر أجل أحدهم. وفاعِلُ فِعْل (بَلَغَتِ) في هذه الآية غير مذكور لأنّه معلوم بالضرورة، وتقديره: روحُ أحدكم، أي فلولا إذا بلغت روح أحدكم الحلقوم عندما يحضر أجلُها لخروجها، ولتعود لخالقها...

- وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ (84) :

وكان مِنْ حوله جمعٌ من أهله وأصحابه عند اِحتضاره، وهم ينظرون صرعات وفاته، فلا أحد يستطيع له شيئا، ولا أحد بقادر على أن يردّ عليه الموت، ويمنع روحه من الخروج منه.

- وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ (85) :

والحال في تلك اللحظات فإنّ الله تعالى بقدرته وبعلمه وبقضائه، وبرسله من الملائكة الذين أرسلوا لصاحبهم لتنفيذ قضاء الله تعالى فيه بالموت جعلهم قريبين من جمع الحاضرين الذين ينظرون لميّتهم وهو يحتضر، بل هم أقرب إلى ميّتهم منهم، ولكنّهم لا يرونهم.

- فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ (86) :

إذا كنتم – أيّها النّاس – غير مدينين إلى الله عزّ وجلّ بالأرواح التي قذفها فيكم لتكونوا أحياء، وإن كنتم غير مستعْبدين بها إلى الذي زرعها فيكم...

- تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (87) :

فتمسّكوا بها عند الاحتضار، واِمنعوها من بلوغ الحلقوم، ومن الخروج من أجسادكم إذا كانت الأرواح مِلكا لكم، ولم تكن من مِلْك الله عزّ وجلّ يردّها إليه متى شاء كما تزعمون.

والمُستفاد من هذه الآي أن يعلم الإنسان بما يشهده من الأموات أنّ الرّوح التي في جسده هي ملك لله عزّ وجلّ، وأنّه مدِين إلى الله تعالى بحياته وبوجوده، وأنّه عبدٌ لله عزّ وجلّ لأنّه لم يكن ليُخلَق لولا فضل الله عليه بقذف الرّوح فيه، وليعلم أنّ روحه راجعة إلى مالكها حين يطلبها المالك الحقيقي لها، وهو الله عزّ وجلّ.

- فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ (89) :

وحين يرجع الخلق إلى ربّهم للحساب فإنّهم يُصنَّفُونَ إلى ثلاثة أصناف. أفضل أصنافهم المقرّبون إلى الله عزّ وجلّ. وهؤلاء هم الذين من السابقين إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وبرسله، وبكتبه، وباليوم الآخر، وكانوا صادقين في إيمانهم ومن المصدّقين بالوعد والوعيد فكانوا يدعون ربّهم بين الخوف والرجاء، وكانوا مخلصين في طاعاتهم سرّا وعلانية، ويفعلون ما يؤمرون. هؤلاء حين يقومون لربّ العالمين يُستقبلون في (رَوۡح) اِستراحة طيّبة ليس فيها حرٌّ ولا نَصَبٌ، وإنّما يجدون فيها راحةً ورحمةً، وينعمون في اِستراحتهم بـ (رَيۡحَان)، بكلّ رائحة منعشة طيّبة، وهذا من حسن الاستضافة ثمّ يُدخلون (جَنَّتُ نَعِيمٖ) حيث يجدون كلّ مظاهر التكريم والإنعام، وقد تقدّم في الآيات 15 إلى 26 مظاهر ممّا سيلقونه فيها من النّعيم.

- وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (90) فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (91) :

وأمّا الصنف الثاني فصنف أصحاب اليمين الذين يُؤْتَوْن كتبَهم بأيمانهم فيستبشرون بها ويرجون حسابا يسيرا. وهم الذين كانوا من المؤمنين الصادقين ومن العاملين الصالحات، وكانوا لا يعْصُون الله تعالى فيما أمرهم. هؤلاء تستقبلهم الملائكة عند قيامهم لربّ العالمين، ملائكة الرحمة بالتحية: تحية السلام من العذاب، وتحية الأمان من سوء المآل. وقد بيّنت الآيات من 28 إلى 38 حُسن إقامتهم.

- وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (92) فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ (93) وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ (94) :

وأمّا الصنف الثالث فهو صنف المكذّبين بالدّين وبالتّوحيد وبالرّسل وبالوحي وبالقرآن وبالوعد والوعيد وبالبعث، وكانوا مشركين أو ملحدين. هؤلاء حين يبعثون ويقومون للحساب يكون مقرّ ضيافتهم في ماء حارّ جدّا، ويُدخلون في نار حارقة ليُصْلَوْا فيها صُلِيًا. والصليّ هو التعرّض إلى النّار من فوق ومن أسفل ومن كلّ جانب كما يُفعل في الطعام المصليّ.

- إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ (95) :

إنّ هذا إخبارٌ لوقائع حقيقيّة وثابتة وصادقة لما سيكون للخلق جميعهم إذا وقعت الواقعة، والعاقل هو من أعدّ لهذا اليوم الحقّ عدّته من إيمان ثابت وصادق، وعمل صالح، واِجتهد لأن يكون من صنف المقرّبين ليَنْأَى بنفسه من كلّ كرب ومكروه، ولينعم بالفوز بجميع مظاهر النّعيم والتكريم.

- **فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ (96) :**

فنزّه ربّ العزّة والجلال المتفرّد بالألوهية وبالعظمة عمّا لا يليق بكماله، واعبده، واِستقم على دينه وعلى طاعته، ولا تدعُ مع ربّك العظيم أحدا. وهذه الموعظة من خير ما يسترشد بها كلّ ذي عقل ورشاد وبصيرة.

رقمها	سـورة **الحديـد**	آياتها
57	ـــــ مدنية ـــــ	**29**

سمّيت هذه السورة بسورة "الحديد" لأنّها اِختصّت في ذكر تفضّل الله على البشر بإنزال الحديد وخلقه في باطن الأرض ليحقّقوا منافع لهم. وهذه سورة من "المُسَبِّحَاتِ"، وهي السور التي تُفْتَتَحُ بـ"سبّح" وهي : الحديد، الحشر، الصفّ، الجمعة، التّغابن، والأعلى.

وهذه الخاصية المميّزة هي الّتي تعقّد على كلّ مفسّر عمله، فأنَّى له من العلم حتى يتكلّم في بيان اِسم من أسماء الله الحُسنى، وعلمُه بالذّات العليّة محدودٌ جدّا إلاّ ما كان من الواجب عليه علمُه بالضرورة؟

وجاءت مواضيع هذه السورة في الترغيب في الإيمان، وفي الإنفاق طلبا للمغفرة والجنّة، وحذّرت من النّفاق، ومن التّشبّه بأهل الكتاب الذين فسقوا عن دينهم، كما حذّرت من البخل ومن اللهو بمتاع الدنيا.

- سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ **(1)** :

هذه الآية إلى الآية السادسة في تمجيد الله تعالى بأسمائه الحسنى، وبصفاته العلية الدالّة عل جلاله تعالى، وعلى عظيم قدرته، وعلى سَعَة مُلكه وسَعَة علمه. ومعنى الآية: إنّ كلّ ما في السّماوات وما في الأرض من خلائق يرفعون ذكر الله عزّ وجلّ بتمجيده وبتنزيهه عن كلّ ما لا يليق بألوهيته وبوحدانيته وبعظمته، وبكمال صفاته، وهو تعالى (ٱلْعَزِيزُ) أي القويّ الذي لا يُغلب، ولا يُردّ أمرهُ وقضاؤه، يُطاع فيما يأمر به أو ينهى عنه، ومن عصاه فإنّه لن يفلت من عقابه. وهو تعالى (ٱلْحَكِيمُ) الذي يُحسن تصوير جنس كلّ مخلوق، ويحسن خلقه، ويحسن تدبير أمر وجود الأحياء وما تحتاج إليه لبقائها مع تقدير آجال فنائها أو اِستبدالها، ويحسن تسيير الأشياء والحادثات للرّحمة أو للإنذار. وهو (ٱلْحَكِيمُ) في إرشاد النّاس لما ينفعهم لدينهم ودنياهم ولآخرتهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وبما خلق فيهم من فطرة وعقل رشيد وقلب واعٍ...

- لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ **(2)** :

وإنّه تعالى هو المالك الحقيقي لكلّ ما هو موجود في هذا الوجود. كلّ ما في السماوات وما في الأرض من كائنات حيّة أو جمادات ممّا تراه العين على سطح الأرض، وممّا لا تراه لأنّه مستقرّ في باطنها، وكلّ ما لا تدركه الأبصار ممّا هو في السماوات إنّما هو من خلق الله

سبحانه ومن إبداعه وهو الذي أوجده لغاية، لذا فهو ملك له وحده، وهو خاضع لإرادته، وهو مُسَبِّحٌ بحمده، والله تعالى هو المالك لما فيهما.

وهو تعالى (يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ) أي إنّه سبحانه هو الذي يخلق من العدم الكائن الحيّ. وحين يحيي الله تعالى عبدا فإنّه يقدّر له أجل حياته ووجوده، حتى إذا اِنقضى هذا الأجل أماته وأعاده إلى العدم. ولا أحد ممن أحياه الله تعالى مالك لنفسه، ولا أحد مالك لزمن وجوده، ولا أحد بقادر على أن يردّ الأجل عن نفسه، أو يؤخّره، قهر الله تعالى عباده بالموت وبتحديد آجالهم ليعلموا أنّهم مِلْكٌ لله تعالى، وعبادٌ له سبحانه.

وهو تعالى (عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ)، إنّه تعالى قادر على الإحياء، وعلى الإماتة، وقادر على أن يبعث الموتى بعد عدمهم مثلما أوجدهم من قبلُ من العدم. وكلّ شيء خاضع لإرادته وسلطانه لأنّ كلّ شيء ملكٌ له. لم يخلق أحدٌ نفسه، ولا أحد قادر على أن يردّ ما كتب الله تعالى له من تقدير لحياته. قال تعالى (قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ)(الزمر الآية 38).

- **هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ (3) :**

وهو تعالى (ٱلۡأَوَّل) بلا بداية، فليس قبله شيء،وهو (ٱلۡأٓخِرُ) بلا نهاية، فليس بعده شيء. وقد جاء عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في شرح هذه الآية ما يغني عن كلّ تفسير في قوله صلّى الله عليه وسلّم الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه، "اللّهم أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخرُ فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء اِقض عنّا الدَّيْن واِغننا من الفقر" (رواه مسلم في صحيحه). وعَنَى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالظاهر الغالبَ الذي لا يُغْلَبُ، وعنى بالباطن: العالم، على ما قاله شرّاح الحديث.

و(ٱلظَّٰهِرُ) هو المعلوم بالضرورة، فالدلائل الكونية دالّة على صنعه وعلى وجوده، ودالّة على قدرته، ودالّة على تسييره، وكلّ ما يقتضيه الموجود ليكون موجودا بالفعل، إذًا فإنّ الموجودات دالّة على وجوده، آثاره دالّة عليه، فلذلك فهو موجود بالقوّة، وموجود بالفعل، والموجودات المخلوقة موجبةٌ لوجوده.

و(ٱلۡبَاطِنُ) هو الموجود الذي يدرك وجوده بالعقل، فالدلائل العقليّة تدلّ على أنّه من العبث أن توجد الأشياء والكائنات متقنة الصنع عَبَثًا، وهي ذات نظام مُتَعَيِّنٍ في تواجدها وتكاثرها وفي نمط حياتها. ومادامت الحياة غير قائمة على العبثية فلابدّ أن يكون لها مدبّر حكيم يسيّرها، فإن لم يكن يُرَى بالعين المجرّدة ذات المحدودية في إبصارها، ومادام الكون أو الوجود ذات توسُّع عظيم فإنّه يستحيل على جهاز الإبصار المحدود أن يشمل ببصره ما هو غير محدود، قال

تعالى (لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ)(الأنعام الآية 103). وإنّ كلّ إنسان بغريزته الباطنية يلتجئ عند كربه ومصابه وعند شدائده، وعند حاجته الملحّة وطلبه يلتجئ إلى القوّة العظيمة التي عند ربّه: سيّده الأعظم ليرفع عنه كربه أو ليحقّق رجاءه، لذلك فإنّ في باطن كلّ إنسان إيمانًا بأنّ له خالقا سيّدا عظيما يراه ويسمعه.

- هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ(4) :

هذه الآية من آيات الجلال والعظمة في الخلق والتقدير، وفي الملك. وهي كذلك من دلائل سعة العلم والإحاطة بكلّ ما يجري في ملكوته العلوي والسفلي. (هُو) إنّه الله سبحانه وتعالى الذي خلق السماوات بسعتها وبعظمتها بما فيها من كواكب ونجوم ومجرّات، وخلق الأرض بما فيها من مدّخرات ومكوّنات الحياة، وقد خلقهما في ستّة أزمنة أو أوقات. والزّمن عنده أو الوقت غير مُقَدَّرٍ بمثل تقديرنا على كوكب أرضنا. (ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ) وهو اِستواء القيّوم على ملكه، واِستواء التقدير والأمر والإشراف والإحاطة. هو اِستواء معلوم، وواقع، وهو اِستواء يليق بجلاله وكرمه وبعظمته لأنّه تعالى الملك والمالك، وأمّا ماهيته وكيفيته فمجهولتان عندنا، وهو أمر خارج عن طاقة تصوّرنا، وطاقة اِستيعابنا وإدراكنا، لذلك فإنّنا نؤمن به دون أن نخوض فيه حتّى لا نقول فيه بما لا علم لنا به.

وإنّه تعالى واسع العلم والاِطّلاع والإحاطة بكلّ ما يجري في ملكه لأنّه يعلم ما يدخل في الأرض من مطر أو رزق أو في ما يُردَمُ فيها ويُطْمَر. وهو تعالى عليم بما يصعد منها إلى السماء من الملائكة والأرواح، وأعمال العباد.

(وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ) وهو تعالى مع عباده بقدرته وسلطانه أو بلطفه وبرحمته، وهو مطّلع على أفعالكم وأقوالكم، فلا يخفى عليه شيء من أمركم ممّا جهرتم به أو دبّرتموه سرّا. وهذا ممّا يدلّ على سعة علمه تعالى بكلّ ما يجري بين عباده في سرّهم وعلانيتهم.

(وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ) والله تعالى مطّلع على أعمالكم، ومُجازيكم عليها إذا كانت من صالح الأعمال، ومُؤَاخِذٌ المسيء على إساءته، فاحذروه، وراقبوا الله تعالى في أنفسكم وفي ما تقولون وما تفعلون.

- لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (5) :

وإنّ ملكية السماوات والأرض لله وحده، لأنّه الخالق لهما، ولما فيهما، وما عليهما، ولأنّ التّسيير لقيامهما بيده، فهو المتصرّف الحقيقي فيما يجري فيهما ذلك لأنّ ما يجري فيهما من



تقديره، وإليه تعالى يرجع كلّ أمر من أمور تسيير وجود خلقه، وكلّ ما يجري فيهما من الحادثات من تقدير الله تعالى وحده. وإليه يرجع الأمر كلّه في قضائه في أمور الخلائق في الآخرة.

- **يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (6) :**

وبأمره وتقديره يتعاقب الليل والنّهار. مَنْ غير الله تعالى يأتيكم بليل لتسكنوا فيه؟ ومَنْ غيره يأتيكم بالنّهار لسعيكم ونشاطكم؟ قال تعالى (قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ). فتعاقب الليل والنّهار من دلائل الألوهيّة والقدرة. وهو تعالى عليم بالنوايا التي في الصدور، وبالخواطر التي تخطر علي بال الإنسان، ولا يخفى عليه شيء منها.

ومن يتدبّر هذه الآيات بعُمق، وحسن نظر يتأكّدْ له أنّ الله تعالى هو الذي خلقه، وعليه إزاء ذلك أن يكون لخالقه شاكرا، وأن لا يدّعي لنفسه إلاها آخر غيره، وأن لا يستكبر عن طاعته وعبادته. ويدرك بتدبّره لهذه الآيات بأنّه كشأن جميع المخلوقات خاضع لتقدير الله تعالى في شؤون حياته، لا يملك لنفسه أمرا إلاّ في إطار ما قدّره الله تعالى له، وأنّه راجع إليه تعالى، ذلك لأنّ إلى الله تُرجعُ الأمور. وحين يعلم المتدبّر لهذه الآيات بأنّ الله تعالى عليم بذات الصدور فإنّه إن كان عاقلا وراشدا فإنّه يزكّي نفسه من خواطر السوء ومن كلّ مكر سيّء.

- **ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ (7) :**

بعد عرض تلك الدلائل الدالّة على الخالق الحقّ التي ترشد العاقل لله الحقّ الأحقّ بالطاعة والعبادة، والتي ترفع عن الجاهل لربّه غفلته، وعن المُشرك بالله الواحد الأحد ضلالته، جاءت هذه الآية وما تلتها من الآيات إلى الآية 15 في موعظة النّاس ليؤمنوا بالله وبرسوله، وللإنفاق في سبيل الله ترغيبا في ما سينالهم من هذه الطاعة من أجر كبير، وتكريم عظيم.

ومعنى الآية: عباد الله، آمنوا بالله الحقّ خالق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، ولا تؤمنوا بإلاهٍ غيره ليس لكم على ألوهيته دليل من خلق أو نفع، وليس له عليكم سلطان، وصدّقوا برسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي جاءكم بالهدى من عند ربّكم، وأُبذلوا في سبيل الله، وفي مؤازرة المساكين وعون المحتاجين ممّا وهبكم الله تعالى من مال وأرزاق وجعلكم قائمين عليها وإِعلموا أنّ كلّ ما بين أيديكم من رزق قد آل إليكم بعد أن كان عند غيركم، وما ملكتموه الآن من رزق آيلٌ لغيركم من بعدكم. يبشّر الله تعالى الذين آمنوا منكم وبذلوا من أموالهم في وجوه البرّ والإحسان بأن ينعم عليهم بالأجر الكبير ثوابا من عنده.

- وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (8)

لمّا اِنتقل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بدعوته إلى المدينة المنوّرة اِتّبعه كثير من النّاس. كان أغلبهم أنصار الله ورسوله: أخلصوا لله تعالى في الدّين، واِتّبعوا رسوله ونصروه. وكان فيهم من قالوا آمنّا بأفواههم، ولمّا يَدْخُلِ الإيمان الصادق قلوبهم، هؤلاء هم المعنيون بهذه الآية. ومعناها: ما بالكم لا تؤمنون بالله تعالى بصدق وعزم، وما بالكم لا تنصرون رسوله فيما يدعوكم إليه، والحال أنّه يدعوكم لتؤمنوا بربّكم مخلصين له الدين، وفي الطاعات، ولقد عاهدتموه من قبل حين أشهرتم بين يديه إسلامكم بأن تنصروه في المَكْرَهِ، وتوقّروه بالسّمع والطاعة. إن كنتم صادقين في إيمانكم وفي ما عاهدتم عليه رسولكم فأوفوا بعهدكم الذي عاهدتموه عليه.

- هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (9) :

ما بالكم لا تؤمنون بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم الذي أنزل الله تعالى عليه هديه فيما جاءكم به من قرآن كريم فيه دلائل واضحة على أنّه لا إلاه إلا الله وحده، وأنّ كلّ معبود سواه ليس بإلاه، وإنّما هو من الافتراء الباطل ليضلّ عن السبيل، وإنّها دلائل ترفع الجهالة عن مَن جهل بأنّ له ربّا هو الذي خلقه وهو الذي رزقه ومَنَّ عليه بنِعَمٍ في خلقه وفي ما سخّره له لحياته، وعليه إزاء من أنعم عليه بهذه النّعم واجبُ الشكر والطاعة حتى لا يكون من الغافلين. فهذا التنزيل الذي جاء بهذه الدلائل الواضحة غايته هديكم ليخرجكم من ظلمات الضلالة، والجهالة بربّكم إلى نور الإيمان للاستقامة على دين الله الحقّ، ولتعبدوا ربّكم الحقّ ولتطيعوه. وما هذا التنزيل إلاّ من دلائل رأفة الله تعالى بعباده حتى لا يضلّوا عنه وحتى لا يجهلوه وهو من مظاهر رحمته تعالى بهم حتى لا يؤاخذهم عن الغفلة عنه تعالى، وعن عبادة سواه فيهلكوا.

- وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) :

هذه في الترغيب في الإنفاق في سبيل الله تعالى. ومعنى الآية: وما بالكم لا تنفقون في سبيل الله، والحال أنّ الله سبحانه هو الذي رزقكم بما تملكون، وما أنتم له مالكون في حاضركم مُنتقلٌ إلى غيركم من بعدكم، وكلّ ما في السماوات والأرض مِلْكٌ لله تعالى وراجع إليه من بعدكم، فخير لكم أن تنتفعوا بشيء منه بادّخاره لآخرتكم وذلك بالإنفاق منه في سبيل الله، فما أنفقتم ممّا رزقكم الله مأجورون عنه في آخرتكم. والأجر عن الإنفاق في سبيل الله متفاوت في القيمة. ما أُنفِق في سبيل الله قبل فتح مكة أعظم أجرا ممّا أنفق من بعده لأنّ حاجة المسلمين للنفقة قبل فتح مكة

كانت أكبر، وأوكد لتقوية شوكتهم ولسدّ حاجاتهم ولأنّ النفقة في تلك الفترة أشقّ على المنفق لحاجته إليها. والثّواب على قتال المشركين متفاوت كذلك بين من قاتل قبل فتح مكة، ومن قاتل بعد الفتح، ذلك لأنّ المسلمين كانوا قبل الفتح في قلّة من العدد، والعُدّة والعتاد والزّاد. وأمّا من بعد الفتح فقد صار المسلمون في قوّة وكثرة من العدد والعدّة والعتاد، وعندهم المدد. فالأمر ليس سواء بين حال المقاتلين في هذه الفترة وتلك. ومن فضل الله تعالى على المُسلمين أنْ وعد كُلاًّ من الفريقين الذين قاتلوا المشركين قبل الفتح وبعده، وكلاًّ من الفريقين الذين أنفقوا في سبيل الله قبل الفتح وبعده بـ (ٱلۡحُسۡنَىٰ) وهو اِسم من أسماء الجنّة. مأواهم يوم يلقون ربّهم في جنّة النّعيم والتكريم. والله سبحانه عليم بأفعال عباده، ومطّلع على جميع أحوالهم، وعليم بما يصلح لهم لمؤازرتهم ولنصرتهم وتأييدهم.

- مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ **(11)** :

هذه في الترغيب في الإنفاق في سبيل الله. والآية بمعنى من منكم يرغب في أن ينفق نفقة في سبيل الله محتسبا أن يجد الأجر والثواب عنها عند ربه يوم لقائه. ينفقها (قَرۡضًا حَسَنًا)، أي يطلب ردّها إليه ردًّا بأحسن منها (فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ) أي يزيده الله تعالى بها من النّعيم والبركة ما يُسَرُّ به. (وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ) وإنّ كلّ من ينفق نفقة يريد بها وجه الله تعالى، لا ينفقها مراءً، وإنّما ينفقها عن طيب نفس ورغبة في نيل مرضاة ربّه فإنّ الله سبحانه وتعالى يَعِدُه بالمثوبة الحسنة وبالأجر العظيم الذي فيه كرم كبير.

- يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ **(12)** :

وهذا الأجر الكريم سيلقونه يوم يرى النّاس حين يقومون للحساب طائفة من المؤمنين ومن المؤمنات يسيرون في كوكبة من نور: نور (بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ) أي من ذواتهم : نور السرور والبهجة يشعّ منهم ومنهنّ، (وَبِأَيۡمَٰنِهِم) وكذلك من حولهم: كلّ على قدر عمله من الإنفاق، ومن المشاركة في قتال المشركين نصرةً لدين الله تعالى، وقد ذكرت الآية (وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ) ليتأكدنّ أنّ الله تعالى لا يُحْرَمْنَ أجورهنّ إن كنّ من اللائي أنفقن في سبيل الله، وإنْ كنّ قد شاركن المسلمين المقاتلين في الخروج معهم لخدمتهم.

(بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ) وجميعهم يتقدّمون لجنّات النّعيم مستبشرين بالإقامة الدائمة في بساتين مرفّهة، وبأنّهم سيكونون من أهل السعادة الدائمة. (ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ) هذا التكريم وهذه المثوبة، وهذا الظهور في هذه الكوكبة من النور يوم ينتظر النّاس ما يوعدون هو الفوز العظيم الحقّ الذي لا يُضاهيه أي فوز، وأي ربْح.

- يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ(13) :

على عادة القرآن الكريم في الجمع بين التبشير والإنذار، جاءت هذه الآية في إنذار المنافقين والمنافقات الذين كانوا ينسبون أنفسهم للإسلام بأفواههم، ولم يتمكّن الإيمان في قلوبهم لأسباب عدّة (أنظر كتابنا: رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم)، والذين كانوا يبخلون بأموالهم عن الإنفاق منها في تجهيز الجيش، والذين كانوا يتخلّفون عن المُشاركة في القتال، أو دعم المقاتلين، وكان بعضهم يعمد إلى تثبيط عزائم المؤمنين المطوّعين للقتال. هؤلاء هم المُنْذَرُون في هذه الآية والتي تليها. هؤلاء حين يرون المؤمنين والمؤمنات الذين كانوا معاصرين لهم في كوكبتهم من النّور ينادونهم لينتظروهم حتى يلحقوا بهم طمعا في أن يستضيئوا بنورهم، وليكونوا من المكرمين، ولكنّ الملائكة تمنعهم من الاقتراب من محيطهم، وتزجرهم عن التحرّك. ويقال لهم: اِرجعوا إلى موضعكم. ويقام بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات المكرمين فَاصِلٌ للإبعاد بينهم: الجهة التي فيها المؤمنون فيها الرّحمة وتقود إلى الجنّة، وأمّا الجهة الخلفية فَمُنْذِرةٌ بالعذاب.

- يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ (14) :

وحين لقي المنافقون والمنافقات أنفسهم وراء السور الذي فصلهم عن المؤمنين والمؤمنات نادوا على هؤلاء يسألونهم الشهادة لهم: (أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ) أي ألم نكن مؤمنين ومؤمنات أمثالكم، وكنّا معكم في زمرة المؤمنين؟ غير أنّ أهل النور يجيبونهم على غير ما يحبّون. (قَالُواْ بَلَىٰ) أي لقد كنتم تنسبون أنفسكم للمؤمنين، إلاّ أنّكم (فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ) بارتكاب المعاصي، (وَتَرَبَّصۡتُمۡ) وانتظرتم بنا السوء والهلاك على أيدي المشركين وأهل الكتاب، (وَٱرۡتَبۡتُم) وشككتم في صدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وفي صدق وعد الله تعالى له بالنّصر والإظهار على أعدائه وشككتم في الوعد والوعيد، (وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ) وانخدعتم بما كنتم تمنّون أنفسكم به من أن تفشل الدعوة وتتوقّف ولا تظهر، وخدعتكم الأباطيل بسبب رغبتكم في دنياكم (حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ) حتى أدرككم الموت وأنتم على حالكم لم تكونوا في إيمانكم مخلصين. (وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ) وغرّكم بالله تعالى الشيطان: خدعكم بأباطيله فاتّبعتموه وعصيتم أوامر الله في الإنفاق في سبيله، وفي نصرة دينه، وفي الاستجابة لدعوة رسوله حين دعاكم للخروج للجهاد وتعلّلتم بعلَلٍ كاذبة لخذلانه.

- فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ(15)

وهذه في عاقبتهم، والخطاب فيها للمنافقين والمنافقات، واليوم هو يوم القيامة، يوم الحساب.

في ذاك اليوم يقال لهم وللذين كفروا: ليس لكم اليوم من مأوى إلاّ في النّار، وليس لكم من إيوائكم فيها نجاة ولا مهرب، ولا يقبل منكم أيّ فدية – إن كانت لكم فدية وهيهات – للخلاص من سوء هذا المصير التَعِسِ، النّار هي (مَوۡلَىٰكُمۡ) أي هي التي ستتولّى أمركم، وهي التي تتولّى شؤونكم – وهذا التّعبير للتهكّم لأنّهم في دنياهم لم يؤمنوا بالله تعالى مَوْلًى لهم، فلْتَكُنْ النار مولًى لهم.

- أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ (16) :

هذه الآية إلى الآية 24 في موعظة النّاس لتلين قلوبهم لذكر الله تعالى، وليكونوا من المصدّقين والمنفقين في سبيل الله. ومن مواعظ هذه الفقرة الحذر من اللهو بمتاع الدنيا في غفلة عن العمل للآخرة. وفيها حضّ على طلب مغفرة الله تعالى ورضوانه، وتحذير من الاختيال والفخر والبخل. فهذه للعاقل آياتٌ للرّشاد وللفوز في الآخرة بالنّعيم والرضوان. ومعنى الآية: ألم يَحِنِ الوقت للّذين آمنوا أن تلين قلوبهم لذكر الله تعالى بالصلاة والتسبيح وبمراقبته تعالى في كلّ عمل وقول، وتلين لسماع القرآن. وهذه الدعوى للحضّ على الإخلاص لله تعالى في الدين، والصدق في الطاعات، والاستجابة لما يدعوهم إليه رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ولمزيد الخشوع في الصلاة.

(وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ) وعلى المؤمنين أن لا يكونوا مثل أهل الكتاب: اليهود والنّصارى في اِنقلاب حالهم بعد إيمانهم وبعد طاعتهم لرسل الله عليهم السلام، لمّا اِمتدّ بهم الأجل والزّمان عادوا للمعاصي وقسوة القلب: خالفوا رسلهم فيما وعظوهم به، وخالفوا أوامر الله تعالى وشرعه، فخرج أغلبهم عن اِتّباع سنن أنبيائهم وعن شرع الله تعالى فصاروا فاسقين، اِبتدع بعضهم الرهبانية، وأنكر بعضهم بعثة محمد صلّى الله عليه وسلّم. والغرض المقصود من الآية إلهاب مشاعر المؤمنين ليحافظوا على دينهم وعلى طاعاتهم وعلى تلاوة القرآن وعلى الاهتداء بسنّة رسولهم صلّى الله عليه وسلّم، وليكونوا على الدوام ذاكرين لله تعالى وخاشعين في صلاتهم.

- ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (17) :

وتأكّدوا من أنّ الله تعالى سيحييكم بعد مماتكم للحساب، وأنّ هذا الإحياء لا يُعجزه بمثل ما رأيتم عين اليقين من إحياء الأرض بعد موتها. اِعلموا أنّ الله تعالى هو الذي أحياها ليكون لكم هذا الإحياء آية لكم على صدق ما بلغكم من أمر البعث بعد الممات عساكم تتدبّرونها بعقلانية وبما أبصرتم فتؤمنوا برجوعكم إلى ربّكم للحساب.

- إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ (18) :

يقرأ لفظ (ٱلۡمُصدِّقِينَ) في قراءة بتخفيف الصّاد فيكون معناهم هم الذين صدّقوا بما أنزل الله تعالى، وصدّقوا برسوله وبالبعث والحساب. وفي قراءات أخرى يقرأ هذا اللفظ بتشديد الصّاد، فيكون معنى (ٱلۡمُصَّدِّقِينَ) هم المتصدّقون بالصدقات، والتّشديد ناتج عن اِدغام التاء بالصّاد.

وذكر (ٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ) ليعلم النساء المؤمنات اللاّئي يصدّقن بما أنزل الله تعالى، ويتّبعْنَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ويصدّقنَ بما جاءهنّ به بأنّ الله تعالى يرفع ذكرهنَّ، وأنّهنّ مكرمات عند الله عزّ وجلّ، وأنّ لهنّ منازلهنّ الخاصّة عنده. المصدّقون بالله وبرسوله وبما أنزل الله تعالى والمصدّقات، وتصدّقوا بصدقة التطوّع محتسبين أجرهم عند الله، وأمثالهم المصدّقات والمحسنات بصدقاتهنّ التطوعية يُبشّرهم ربّهم بمضاعفة الأجر والثّواب على حسن إيمانهم وعلى إحسانهم، وفوق ذلك فإنّه تعالى ينعم عليهم بالأجر الكريم. والأجر الكريم عند الله جلّ وعلا تُمثّله الجنّة، والتّنعّم فيها بجميع وجوه الإنعام والتّكريم والخيرات.

- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ **(19) :**

هذه الآية في الترغيب والترهيب معا. فالذين آمنوا بالله تعالى ولم يكونوا من المشركين وصدّقوا برسله دون أن يفرّقوا بين أحدٍ منهم، واِتّبعوهم بإحسان وبالطاعات، فإنّهم هم (ٱلصِّدِّيقُونَ)، وهذه الصفة من التّصديق، وعلى عكسهم هم المكذّبون. هؤلاء لهم عند ربّهم أجر كريم. و(ٱلشُّهَدَآءُ) الذين قتلوا في سبيل الله نصرةً لدينه ونصرةً للحقّ لهم عند ربّهم ثواب عظيم، ويتميّزون يوم القيامة بوجوههم النيّرة، وبالنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم. وأمّا الذين كفروا بالله تعالى، وأشركوا به أو كانوا ملحدين، وكذّبوا برسله وبكتبه، وكذّبوا بالبعث والحساب، وكذّبوا بدلائل الله تعالى فقالوا عنها هي من أعمال السحر والشعوذة إصرارا على كفرهم فأولئك أصحاب النار الموقدة المستعرة يستقرّون فيها اِستقرارا أبديا لا يخرجون منها.

- ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ **(20) :**

هذه في موعظة النّاس ليعلموا أنّما الحياة الدنيا فانية، ومنقضية، وأنّ حياة الإنسان فيها قصيرة وإن طال به العمر، وأنّ متاعها – مهما بلغ من الوفرة والقيمة – زائل، وشاغل لمن حرص عليه عن كسب الآخرة. والغرض المقصود من الآية أن لا يجعل الإنسان أكبر همّه في حياته الدنيوية كسب متاع الدنيا واِنغماسه في لهوه في غفلة عن العمل لآخرته ليسعد بدنياه

ويسعد في آخرته. جاء في الأدعية القرآنية : (رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ)(البقرة الآية 201).

ومعنى الآية: أيّها النّاس إنّما الحياة الدنيا (لَعِبٌ)، واللعب هو التّلهي بالمزاح والمرح فيما لا يُنتفع به. وهي (لَهۡوٌ)، وكلّ مايشغلك – أيّها الإنسان – عن العمل الجادّ هو لهو. اللّهو هو الذي يُبعدك عن الانتفاع بوقتك وبجهدك في ما ينفعك، ويصرفك عن العمل الحسن إلى الانشغال بشهوات النّفس. والحياة الدنيوية مُغْرية بزينتها. وكلّ مكاسب السلطة والجاه والغِنى والثّراء من مال وممتلكات هي من زينة الحياة الدنيا. ومن النّاس في دنياه مَنْ يَتَمَلَّكُهُ حبّ الظهور بمظهر الثّراء، أو العظمة مفتخرا بنفسه وبمركزه في مجتمعه أو بكسبه وممتلكاته، وما هذا إلاّ (تَفَاخُرٌ)، وكلّ مفتخر مغرور. والناس يتنافسون في دنياهم في الحرص على رفع الرّصيد المالي المدّخر، وعلى تميّز الأبناء بالظّفر بمراكز القوّة والجاه والمكانة الرفيعة في العلم أو غيره...

كلّ هذه العناصر الّتي يتنافس فيها المتنافسون في حياتهم الدنيوية مَثَلُها مَثَلُ زرعٍ طُمِرَ في أرضٍ وسقاه مطرٌ، فخرج نباته زاهيا يعجب (ٱلۡكُفَّارَ) وهم الزّراعُ الذين زرعوه وطمروه وغطّوه بالتراب، ثمّ هاج النبات وماج، ثمّ بعد زمن اِصفرّ، ثمّ تحوّل إلى(حُطَٰمٗا) فُتاتٍ يذروه الرّيح ويأكله خشاش الأرض، ويضيع أثره. كذا متاع الحياة الدنيا يزهو به الإنسان في أوّل حياته، ثمّ ينقطع عن اللهو به والفخر عند شيخوخته، ثمّ يموت فيذهب عنه كلّ شيء ويندثر ما خلّفه وراءه، وينتقل هذا الإنسان إلى آخرته فيجد قبالته عذابا موجعا شديد الإيلام إن لم يكن مؤمنا ومتزوّدا لآخرته بعمل صالح يقيه من العذاب، أو يلقى مغفرة من الله تعالى ورضوانا ومأوى في النّعيم المخلّد إن كان من أهل الإيمان ومن الذين لم تشغلهم دنياهم ومتاعها عن ذكر ربّهم وعن طاعته. قال تعالى (أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ)(فصلت الآية 40).

وإنّ ختم هذه الآية بقوله تعالى (وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ) هي موضع الموعظة في هذه الآية للتّنبيه بأنّ (متاع الدنيا) أي ممتلكاتها مشاغل تغرّ بالإنسان وتخدعه فتجعله منشغلا بها وبتنميتها والاستزادة منها، وتصرفه بالانغماس فيها وفي طلب اللهو والزينة عن الإعداد لآخرته، فيكسب في دنياه كسبا زائلا ومندثرا ويخسر الأمان في آخرته ونعيمها. وجاءت الآية الموالية لإرشاد الإنسان لما ينفعه في آخرته فقال جلّ وعلا:

- سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ **(21)** :

وهذه كالآية التي جاءت في سورة (آل عمران الآية 133) (وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ). جاء في الآيتين الإرشاد للإسراع في طلب المغفرة من



الله عزّ وجلّ، ذلك لأنّ المغفرة هي السبيل للدخول للجنّة، لا يدخل الجنّة من كان في سجلّه سيّئات يُؤَاخذ عليها صاحبها.

والمغفرة يسبقها طلب الإنسان من ربّه عفوه عن سيّئة أتاها. وطلب العفو تسبقه إنابة إلى الله تعالى، وطلب توبته مع عزمٍ منه على الإقلاع عن العودة لمثلها. والمغفرة هي عفو من الله تعالى عن سيّئة فعلها عبده، ثمّ يزيده من فضله تعالى حسنات جزاء إنابته إليه، وجزاء إقراره بذنبه، وعزمه على الإقلاع عنه، وجزاء توبته. والمغفرة يطلبها العبد الذاكر لربّه، قال تعالى (وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ)(آل عمران الآية 135). وليس من الغفران إلاّ جنان الرّحمان في جنّة النّعيم : دار المكرمين عند ربّ العالمين، لها سَعَةٌ لا تخطر على بال البشر مهما اِتّسع خيالهم وتصوّرهم، ذلك لأنّ عرضها كعرض السماء والأرض. وقد أعدّها الله تعالى لإقامة الذين آمنوا بالله واِستقاموا إليه وأطاعوه، ولم يشركوا به إلاهًا آخر غيره، ولم يكونوا ملحدين، وآمنوا كذلك برسله ولم يفرّقوا بين أحد من رسله. هذه الجنّة يدخلها المؤمنون بالله وبرسله، المغفور لهم برحمة من الله عزّ وجلّ وفضله وكرمه. والله سبحانه ذو جود وكرم وإحسان عظيم، وعطاؤه واسع وكثير وعميم.

- **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (22) :**

لمّا ذُكِرَ الحضُّ على القتال، وهو أمر شاقّ، وفيه خوف من الإصابة بموت أو إعاقة أو جراح وضرر بدني، أو أسْرٍ جاءت هذه الآية لتذكير المؤمنين بقضاء الله تعالى وقدَرِهِ. ومعنى الآية: ما حدث من حادث سيّءٍ في الأرض من مثل اِنتشار جائحة معدية مهلكة –كالذي حدث في عصرنا الحاضر بتفشّي (فيروس كوفيد19 – كورونا) في بلدان العالم أجمع فقتل أنفسا بشرية كثيرة، وأضرّ بالكثيرين، وأضرّ باقتصاد البلدان، وبالعمل والعمال، أو أصاب بعض البلدان الساحلية بتسونامي أغرق مدنا بأكملها: بيوتها وساكنيها وغمر أراضيها بماء ملح أضرّ بها وبفلاحتها، أو أصاب مدنا صحراوية بالقحط والمجاعة فهلك من هلك، وما إلى ذلك من مصائب أودت بالأرواح وأضرّت بالممتلكات، وما حدث من حادث سيّء لبعض الأنفس من النّاس كالذي يحدث في حوادث الطرقات أو عند الزلازل أو يصاب المرء بمرض خبيث يقضّ مضجعه ويذهب بماله ثمّ بحياته، كلّ ما حدث وما يحدث من مصائب وكوارث فردية أو جماعيّة أو عامّة كانت مسطّرة من قبل حدوثها في سِجِلّ صحائفه في اللوح المحفوظ من قبل أن تحدث هذه الحوادث ومن قبل خلق المصابين بها. إنّ هذا التقدير، وهذا التدبير على الله تعالى

يسير، وليس بالأمر المعقّد الذي يعسر تنفيذه. وما أصاب المقاتلين كان مقدّرا، فليهوّنوا على أنفسهم فيما أصابهم من جرح أو ضرّ في البدن أو في المال، فالكلّ مكتوب ومقدّر، وما كان مقدّرًا فلا دفاع له.

- لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ (23) :

وقد جاءكم هذا التّذكير حتّى لا تحزنوا حُزْنًا مفرطا على ما فاتكم من الكسب والرزق، وحتّى لا تزهوا على النّاس بما وهبكم الله تعالى من الرّزق والمكاسب والممتلكات والجاه والسلطان، الكلّ من عند الله تعالى فمن وسّع الله تعالى له في الكسب فعليه أن يشكر ربّه صاحب الفضل عليه وعليه واجب الإنفاق ممّا آتاه الله، ومن قدر عليه رزقه، أو أصيب بمكْرهٍ فعليه بالصبر ودوام السعي والاجتهاد فيه وفي الدعاء. وقد جاء في حديث نبويّ عن ابن عباس قوله صلّى الله عليه وسلّم : "... واِعلم أن لو اِجتمعت الإنس والجنّ على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلاّ بما كتبه الله لك، وأن لو اِجتمعت الإنس والجنّ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك، ارتفعت الأقلام وجفّت الصحف". (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ) والمختال هو المتكبّر المتعاظم، المتعالي على النّاس ومحتقرهم بما تفضّل الله عليه بالرزق واِختبره به، ولا يحبّ الله كلّ (فَخُورٍ) هو الذي يمدح نفسه في النّاس، ويمجّد عمله وتدبيره، ويكثر من الحديث عن نفسه بفخر وزهو معظّما نفسه. وهاتان صفتان في النّاس ذميمتان، إذا اِنقلب الحال على صاحبيهما ظلاّ عند النّاس محلّ الاعتبار والموعظة، وكانا موضع حديث الشامتين.

- ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (24) :

عودة للحضّ على الإنفاق في سبيل الله، ولذمّ البخل. الذين يبخلون عن الإنفاق في سبيل الله تعالى شحّا وتقتيرا، أو خوفا على أنفسهم من الفقر، ولا تلين قلوبهم لمؤازرة المحتاجين من إخوانهم، (وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ) ويُثبّطونَ عزائم غيرهم من الراغبين في الإحسان حتّى لا ينفقوا ممّا آتاهم الله تعالى، وليكونوا أمثالهم في البخل وفي الشحّ وفي الإمساك فإنّ الله تعالى غنيّ عن من يعرض عن طاعته، فهو سبحانه المعطي وهو الرّزّاق ولا يحتاج لعطاء عباده، وهو تعالى (ٱلۡحَمِيد) الذي يحمد عمل عبده المنفق من ماله في وجوه البرّ والإحسان طاعة لله تعالى فيثيبه ويؤتيه أجرا حسنا. قال تعالى (أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ)(الماعون الآيات 1-3).

- لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ(25) :



هذه مع الآيتين المواليتين في بيان فضل الله تعالى على خلقه فيما ينفعهم لهُداهم، ولمعاملاتهم بالحقّ، وفيما ينفعهم لحياتهم اليومية في دنياهم. وتفيد الآية أن الله تعالى قد تفضّل على عباده بإرسال الرّسل من حين لآخر لتعهّدهم بالهدى حتى لا يضلّوا. وحتّى لا يُتْركوا لأنفسهم وحتّى لا يقول بعضهم يوم الحساب مُتَعَلِّلاً على ما جاء في قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ)(طه الآية 134). إذن بإرسال الرسل من زمن لآخر ومعهم الكتب ما عاد للكافرين والضالّين من حجّة يحتجّون بها على الله سبحانه. وحينما أرسل الله تعالى رسله أيّد بعثتهم (بِٱلْبَيِّنَٰتِ) وهي المعجزات الدالّة على صدقهم حتى لا يُكذَّبُوا برسائلهم، وأيّدهم كذلك بالبراهين والحجج الدالّة على صدق ما يبلّغون به من دعوة لتوحيد الله تعالى ونبذ الشّرك، ومن الإيمان بالبعث ليعملوا صالحا. وليحذروا من إتيان المعاصي. وأنزل الله جلّ وعلا معهم (ٱلْكِتَٰبَ) الذي فيه هدى للنّاس ليستقيموا على الدين الحقّ، وليعرفوا الحقّ من الباطل في المعتقد، وليتّعظوا بخبر ما كان قبلهم، وليحذروا سوء عاقبة المنذرين. وأنزل معهم (ٱلْمِيزَانَ) الذي يدلّ على الضوابط التي يعرف بها الحلال من الحرام، والحقّ من الباطل. وهذه الضوابط مثبتة في شريعة الله عزّ وجلّ للحكم بالعدل (لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ) أي ليُفْصَل بين الناس بالإنصاف الذي يعني ردّ الحقوق لأصحابها كاملة غير منقوصة، كيلا يتظالموا.

ومن معاني(ٱلْمِيزَانَ) آلة الوزن المعلومة، وأداة الكيل لمنع التّطفيف، وغمط الناس في حقوقهم، ولتقوم معاملات الناس فيما بينهم بالقسط، أي بدون غبن وبخس وظلم. (وَأَنزَلْنَا) أي وأنشأ الله تعالى في باطن الأرض مادة (ٱلْحَدِيدَ) وهو معدن صُلب، (فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) فيه قوّة وصلابة، يجد النّاس فيه منافع كثيرة لإقامة مبانيهم وسقفهم التي تحميهم من عاديات الطبيعة الهائجة، ولإنشاء مصانعهم، ولصناعة أوانيهم وآلاتهم وأدوات عملهم وحملهم وحركتهم لمساراتهم الطويلة وحمل أثقالهم من مثل صناعة القاطرات، وغير ذلك كثير، ولصناعة أسلحتهم ودروعهم التي تحميهم من الطعنات في حروبهم القتالية.

وقد تفضّل الله تعالى على عباده بهذه الفضائل المتعدّدة (وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ) أي ليختبرهم في مدى صدق إيمانهم بالله عزّ وجلّ، ومدى طاعاتهم له في سرّهم وفي قرارة أنفسهم، وليختبر صدق إيمانهم برسله من بعد موتهم، ومدى وفائهم للعمل بسننهم وحفظ شرائعهم وعهودهم. وهنيئا لكلّ من آمنوا برسل الله، وحفظوا سننهم، وحافظوا على الاقتداء بآثارهم... (إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) لا يغلب، وإنّما هو الغالب، وهو القويّ القادر على أخْذِ من عصى وكفر وظلم أخْذَ عزيزٍ مقتدر.

- وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ (26) :

ولقد أرسلنا في أمم من قبلكم رسلا من بينهم نوح عليه السلام وكذلك إبراهيم. وتفضّل الله تعالى على نوح بأن جعل في بعضٍ من ذريّته النّبوءة كنبوّة هود وصالح وتُبّع عليهم السلام. وجعل في بعض من ذرّية إبراهيم النّبوّة منهم إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب ويوسف ويوشع عليهم السلام. وأنزل على بعض هؤلاء الرسل والأنبياء كتبا منها صحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل. وكان من ذرّية هؤلاء الأنبياء والمرسلين المؤمنون المهتدون، وكان أكثرهم مارقين عن الدين وخارجين عن شريعة الله سبحانه، من هؤلاء أقوام عاد وثمود ولوط، وسكّان اليمن، ومشركو مدين والعرب الذين هم من ذرية إبراهيم...

- ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ (27) :

ثمّ أتبع الله تعالى برحمته بعد نوح وإبراهيم وآخرين من ذرّيتهما رسلا، وأرسلهم بشريعته إلى أقوامهم، وأرسل عيسى ابن مريم عليهما السلام إلى قومه من بني إسرائيل. وآتاه كتابا هو الإنجيل فيه تسابيح ومواعظ وهدى ليرشدوا به لذكر ربّهم مع العمل بالشريعة التي جاءتهم في التوراة (وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ) وجاءت في الإنجيل أوامر وإرشادات للحواريين وللذين هم أتباع لعيسى للتخلّق بأخلاق الرأفة والرّحمة في تعاملهم مع بعض ومع النّاس من حولهم حتى لا تقسو قلوبهم كالذي حدث مع بني جنسهم من بعد موسى. قال فيهم تعالى (ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ)(البقرة الآية 74). لذلك جاء الإنجيل بتهذيب النّفوس والطبائع وللتعامل بالإحسان والتّراحم، وبالعطف والحنان ورقّة القلب. (وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا) الرهبانية من الرّهبة, وهي الخوف، ويقصد بها العمل بما يدلّ على الخوف من الله تعالى. والمترهب هو الراهب، وهو مصطلح يطلق على العابد من النّصارى أتباع الديانة المسيحية، والراهب هو المنقطع للعبادة من خوفه من ربّه، وهو الزّاهد في متاع الدنيا. وقد غالى الرهبان في تحميل أنفسهم مشاقّ فرضوها على أنفسهم من ذلك الامتناع عن الزواج وعن طيب الطعام واللباس والسكن، خصّوا أنفسهم لخدمة الكنيسة ولخدمة المحتاجين من النّاس والمرضى يقومون بهم مجانا طلبا لمرضاة الله تعالى وإحسانا، وإنّ بعضهم قد حبس نفسه في صومعة أو كهف يتعبّد فيه بزهد، والتحق بعضهم بالبرية أو الجبل ليتعبّد وليبتعد عن هرج الحياة ومتطلباتها وعن النّاس. (مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ) لم يأمرهم الله بهذا الانقطاع عن حياتهم الدنيوية،

وإنّما اِبتدعوا الرّهبانية اِبتغاء رضوان الله عزّ وجلّ. (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) ولكنّهم لم يعطوا تَفَرّغَهُمْ للعبادة حقّه من التوجّه المخلص إلى الله وحده بالعبادة، فقد تعمّدها بعضهم طلبا للرئاسة على النّاس، وبعضهم كان يأكل منها أموال النّاس. قال تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ)(التوبة الآية 34). (فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡ) فالذين رعوا حقّ الرهبانية وكانوا صادقين في إيمانهم وعملهم فأجرهم وثوابهم عند الله تعالى محفوظ وقائم، وأمّا الذين انحرفوا بمبادئها وخالفوا بها ما أُمِرُوا به في دينهم، ولمّا جاءهم نبيّ الله محمد صلّى الله عليه وسلّم مصدّقا لما معهم خالفوه وشاقّوه كما فعل أهل خيبر، وكذلك بنو قريظة فقد فسقوا عن دين الله تعالى وخرجوا عنه. وللتّذكير فإنّه لا رهبانية في الإسلام، ذلك لأنّ الإسلام دين للدنيا والآخرة معا.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورًا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (28) :

بهذه الآية مع الموالية تختم هذه السورة، وقد جاء في هذه إلهاب مشاعر المؤمنين، ليسارعوا للإيمان بالله وبرسوله وقد سبقتها آية الترغيب للسباق لهذا الأمر لما فيه من الحصول على خير عظيم. ومعنى الآية: يا أيّها الذين آمنوا اِخشوا ربّكم وذلك بالحرص على طاعته، وبتجنّب معصيته، وآمنوا برسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم ليَهَبَكُم رَبُّكم نصيبين من رحمته، نصيب يكون لكم في دنياكم فلا ينالكم به مكروه وعقاب، والنصيب الثّاني تلقونه في آخرتكم فيكون لكم به الأمان من العذاب. ويجعل الله تعالى لكم بما اِتبعتم من هُدى الله عزّ وجلّ ومن هَدْيِ رسوله صلّى الله عليه وسلّم نورا وضياء تسيرون عليه في دنياكم، وتسيرون به في آخرتكم على ما ذُكر في الآية السابقة (عدد12). وينعم عليكم ربّكم بمغفرته، ومن غفر له دخل جنّته ولم يعذّب على نحو ما جاء في الآية 21. والله سبحانه وتعالى كثير المغفرة بعباده المؤمنين، ورحيم بهم رحمة واسعة، رحمة تجعلهم آمنين من العذاب يوم يقومون لربّ العالمين ويوم يعرضون عليه تعالى للحساب.

- لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (29) :

والله تعالى يعدكم – أيّها المتقون الذين آمنتم بالله وبرسوله – بذاك الفضل العظيم لتأمنوا من العذاب ومن كلّ مكروه برحمة منه تعالى لئلاّ يعلم أهل الكتاب الذين يدّعون من أنفسهم بأنّهم أبناء الله وأحبّاؤه وبأنّهم هم وحدهم المخصوص بذاك الفضل. قال عزّ وجلّ (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَ)(المائدة الآية 18)



وليعلموا بأنّ الفضل بيد الله تعالى وليس لأحد غيره، والله سبحانه يؤتي فضله من يشاء من عباده، وهو سبحانه ذو الإحسان العظيم والفضل العظيم وهو تعالى واسع الكرم والجود. فهنيئا لعباده المتقين المؤمنين بالله وبرسوله بهذا الفضل.

آياتها	ســــورة **المجادلـــــة**	رقمها
22	ــــــ مدنية ــــــ	**58**

تسمَّى هذه السورة عند المؤدّبين عندنا بسورة "قد سمع" باللفظ الذي أُفتُتِحَت به، وهي في المصاحف سورة "المجادلة" بفتح الدال (دَ) وبخَفْضِهِ (دِ) لأنّها عرضت قضية اِمرأة مسلمة جادلت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حكم الظِّهار. وهي سورة "مدنية"، وقد جاءت ببعض الأحكام الشرعية شأنها في ذلك شأن السور المدنية.

وقد عرضت أحكام "الظّهار"، ونَهَتْ عن مخالفة أحكام الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وعرضت آداب المناجاة في المجالس مناجاة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ونَهت عن موالاة اليهود: أعداء الدّين، وخُتمت السّورة بالرّضى عن المؤمنين المستجيبين لأمر الله تعالى ورسوله.

- **قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (1) :**

هذه الآية إلى الآية 4 في أحكام "الظِّهار"، وهذه الآية في المقدّمة التي أثارت هذا الموضوع. لقد جاءت خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت وهو أخو الصحابي الجليل عُبادة بن الصامت، جاءت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تشتكي إليه زوجها، وكان فيما قالت له عن زوجها: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبُر سنّي واِنقطع ولدي ظَاهَرَ مِنّي، اللّهمّ إنّي أشكو إليك. وما برحت مجلسها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى نزل عليه جبريل عليه السلام بهذه الآية وما بعدها في حكم الظّهار. ومعنى "الظّهار" أن يقول الرّجلُ لزوجته: أنتِ عليّ كظهر أمّي، فيحرّمها بهذا القول على نفسه، ولا يطلّقها ليسرّحها، وهذا من عمل أهل الجاهلية، وهذا من أبشع مظاهر ظلم الزوجة حينما تكبر، يتركها معه في بيته ويتزوّج عليها تحت ناظريها ولا يطلّقها لأنّ له منها الولد، إهانة ومهانة للمرأة. وكان عند أهل الجاهلية غير الطلاق، وغير الظهار : "الإيلاء" وقد مضى القول فيه مع الآية 226 من سورة البقرة.

ولمّا عرضت المرأة قضيتها على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للفتيا قال لها الرسول صلّى الله عليه وسلّم : "مَا أُوحِي إليّ في هذا شيء"، فبقيت تراجعه في هذه المسألة حتى نزلت هذه الآي التي أبطل الله تعالى فيها هذه العادة السيّئة المهينة ومعنى الآية: قد سمع الله تعالى قول هذه المرأة التي تناقشك – يا محمد – في تصرّف زوجها تطلب حلاًّ لمسألتها، وهي تشتكي ظلم



زوجها ونكران العشرة وحقوق المعاشرة والمؤانسة، والله تعالى يُتابع ما يدور بينكما من حوار في حكمك في الظّهار، وفي دفاعها عن نفسها. إنّ الله سبحانه دقيق السمع لا يفوته شيء ممّا يدعوه به عبده وممّا يشتكي منه، وممّا يقال له ليثبّته على دينه، وكذلك كلّ ما يجري بين النّاس من حديث أو قول أو دعاء أو موعظة أو دعاوى. وهو يبصر بدقّة ما يفعله عبده في سرّه وعلانيته من الطاعات أو من المعاصي.

- ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) :

هذه الآية في إبطال الظّهار، ومعناها: الذين يقولون لنسائهم: "أنتنّ علينا كظهور أمّهاتنا" – ليُحَرّمْنَهُنّ عن أنفسهم– قولُهم باطل، المرأة الزوج لا تصبح مثل الأم في المعاشرة الزوجية. إنّما أمّهاتهم اللاّئي ولدنهم فحسب، ولا تأخذ أيّة امرأة مكانة الأم. الظّهار قول باطل وفظيع وشنيع وهو من القول الكذب وقول الزّور، وإنّ الله تعالى عفوّ عمّن ظلم نفسه بقوله لزوجته أنتِ عليّ كظهر أمّي إذا تاب عن قوله، واِمتنع بعد ذلك عن التلّفظ به، وكثير المغفرة لمن تاب وأصلح أمره في الإنتهاء عن القول الباطل الشنيع والكذب.

- وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) :

والذين تلفظّوا بلفظ الظّهار ثمّ عادوا لنسائهم كما كانوا، ثمّ عاودوا التلفّظ بالظّهار ليحرّموا نساءهم عليهم ثانية بعد رجوعهم إليهنّ بعد التلفّظ الأوّل فإنّ عليهم أن يتحلّلوا ممّا قالوا بتحرير رقبة من قبل الجماع والرجوع للمعاشرة الزوجية. هذا ما تؤمرون به لتنتهوا عن هذا القول الباطل وعادتكم السيّئة. وتحرير رقبة يعني عتق إنسان من الرقّ والعبودية. والله مطّلع على أعمالكم وخبير بما يُصلح شأنكم، حَكَمَ بهذا الحكم لتنتهوا عن هذا القول الباطل المهين والكاذب.

- فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4) :

فمن لم يجد مالا ليشتري به عبدًا ليَعْتِقه، فعليه أن يصوم شهرين متتابعين دونما اِنقطاع من قبل أن يرجع لمعاشرة زوجته، فإن شقّ عليه الصوم لأسباب صحيّة وكان من أصحاب الأعذار فعليه أن يطعم ستّين مسكينا بالعدد، وطعام المسكين وجْبَةٌ تُشْبِعُه. وقد ذكر الله تعالى كفّارة الظّهار مُرَتّبَةً: فلا يذهب المرء إلى الصيام إلاّ عند العجز عن إيجاد المال لتحرير رقبة، ولا يجوز الإطعام إذا كان المرء قادرا على الصيام. وأفتى الشافعي لمن لم يجد ستّين مسكينا لإطعامهم فإنّه يطعم مسكينا وحدا ستّين يوما. وقد جاءكم هذا التّغليظ في الحكم لتكونوا واقفين



عند حدود الله تعالى في أحكامه، ولتنتهوا عن ظلم نسائكم وعن القول الباطل ولئلاّ تعودوا إلى الظّهار مُطلقا، ولتطيعوا رسوله فيما يأمركم به لتكونوا مؤمنين. وإنّ هذه الكفارة من الطاعة ومن حدود الله تعالى التي لا يجب تجاوزها، ومن عصى وتَعَدَّى حدود الله تعالى ولم يعمل بأحكام الله تعالى فله عذاب موجع في نار جهنّم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (5) :

هذه في النّهي عن مخالفة حدود الله الشرعية وأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وجاء في الآية التي تليها عقاب الذين يحادّون الله ورسوله. وجاء في اللسان العربي لابن منظور (ج.4 ص55) في معنى "المحادّة: أنّها المخالفة ومَنْعُ ما يجب عليك، وفي حديث عبد الله بن سلاّم: "إنّ قوما حادّونا لمّا صدّقنا الله ورسوله. المحادّة: المعاداة والمخالفة والمنازعة". إنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل حدودًا لأشياء بيّن تحريمها، ونهى عنها فمن تجاوزها فقد حادّ حدود الله. والذي كذّب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعاداه أو خالف أمره فقد حادّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. الذين يحادّون الله ورسوله (كُبِتُواْ) أُذِلُّوا، وأهلكوا وأخذوا بعذاب كما أُهْلِك الذين من قبلهم الذين تجاوزوا حدود الله تعالى وانتهكوها بمعاصيهم، والذين شاقّوا رسل الله بالتكذيب ومخالفة أوامرهم. وقد جاء في كتاب الله تعالى خبر عاقبة الذين كانوا يحادّون الله ورسوله من الأمم السالفة للاعتبار. وليس للكافرين في آخرتهم إلاّ الإقامة الدائمة في العذاب المهين لإذلالهم.

- يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ (6):

يوم يقومون جميعا للحساب فيخبرهم الله تعالى بما عملوا من معاصٍ ومن تعدٍّ على حدوده ومن تكذيب لرسلهم، وكلّ أعمالهم قد سُجِّلت عليهم في كتبهم وأثبتنها عليهم، وإنّ من أعمالهم ما لم يعودوا يذكرونها وسيذكرونها حينما يطلعون على سجلاتهم (وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ) مطّلع على كلّ أمر من أمور عباده وعلى كلّ قول وعلى كلّ عمل من أعمالهم، وهو تعالى شاهد على أفعالهم وأقوالهم، ومن أصدق من الله حديثا.

- أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ (7) :

(أَلَمۡ تَرَ) أسلوب في التعبير يدلّ على التّنبيه لأمر معلوم بالبداهة، لا يخفى على أحد من أهل العلم والعقل، فإنْ لم تكن تعلمه من قبلُ فاعلمه الآن، فإنّه أمر حقّ لا جدال فيه. وهذه الآية إلى الآية 10 في آداب النّجوى عامّة. ومعنى الآية: ألم تعلم أنّ الله سبحانه وتعالى على علمٍ ودراية

بكلّ ما يجري في السماوات وفي الأرض ويعلم كلّ ما فيهما من مخلوقات لأنّها مخلوقات من خلقه وصُنعه وتدبيره، وإنّه تعالى يسمع ما يتناجى به عباده، فإن كانوا ثلاثة يتكلّمون بما يُسِرُّون به من حديث ويكتمونه على غيرهم حتى لا يطّلع على سرّهم أحد فإنّ الله سبحانه كان رابعَهم فيما تَنَاجَوْا به وهو على علم به، لا يخفى عليه شيءٌ من أسرارهم فيما تحدّثوا به، فإن كانوا خمسة فإنّ الله تعالى كان سادسهم قد سمع ما تناجوا به واطلع على أسرارهم، وحتى إن كانوا أقلّ من ذلك في العدد كأن يكونا إثنين فقط أو كانوا جمعا كثيري العدد، فالله تعالى معهم بالعلم بما يتحدّثون به سرّا ثم يخبرهم تعالى بما أسرّوا به، وبما مكروا، وبما عملوا تبعا لما اِتّفقوا عليه من مكائد للمسلمين ولرسول الله صلّى الله عليه وسلّم للصدّ عن سبيل الله يوم الحساب لأنّ كلّ ما تحدّثوا به مدوّن عليهم في سجلاّتهم. إنّ الله تعالى بكلّ شيء عليم، لا يخفى عليه من أمر عباده شيء.

- **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (8) :**

نزلت هذه الآية في اليهود والمنافقين. رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله في هذه الآية فيما كان من أمر هؤلاء: "نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم"... وكان هذا ممّا يسوء المسلمين فشكوْا هذا الأمر للرسول صلّى الله عليه وسلّم، فنهى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الذين كانوا ينسبون أنفسهم للإسلام وما كانوا صادقين في إيمانهم عن النّجوى حتى لا يظنّ المؤمنون بما يتناجوْا به شرّا. والاستفهام في(أَلَمْ تَرَ) للتعجّب من سلوك المنافقين تعجبّ يفيد التوبيخ، نهاهم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن التحادث سرّا حين يرون المؤمنين من المهاجرين والأنصار، ويكتمون ما يتحدّثون به مع بعضهم، ولكنّهم لا ينتهون عن النّجوى، ويعودون إليها ليتناجوْا (بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ)، أي يتسارّون بالكذب وبالإشاعة المسيئة والظنّ السيّء، وبإضمار الشرّ والسوء بالمسلمين، وبمعصية الرّسول فيما يأمرهم به أو بما يعظهم به.

(وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ) رُوي أنّ جماعة من اليهود كانوا إذا جاؤوا إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حيّوْهُ بقولهم: "السّام عليكم"، بدل السلام عليكم. والسّام في اللّغة العِبْرية يعني: الموت، وقد كان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يردّ عليهم بقوله: "وعليكم". وهذا من مكرهم ومن سوء طبعهم ومن حسدهم في أن كان نبيّ الله محمد صلّى الله عليه وسلّم من غير ملّتهم. وكانوا يقولون في أنفسهم: لو كان نبيّا لأهلكنا الله بالموت اِستجابة لدعائه (حين كان قال فيهم

الرّسول صلّى الله عليه وسلّم : وعليكم)، وهذا ممّا يدلّ على أنّهم يشكّون في نبوّته. يكفيهم أن تكون جهنّم مأوى لهم في آخرتهم، وما أسوأ عاقبتهم وما أشْأمَها!

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (9) :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ) هذه الآية في توجيه المؤمنين وإرشادهم ليكونوا صادقين في إيمانهم. والمعنى: إذا تساررتم بحديث فلا تسارّوا بما تأثمون به لأنّه من القول الباطل ومن الغمز واللمز، ولا تسارّوا بالتآمر على المسلمين الصادقين، وبمخالفة أوامر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، بل تحدّثوا بما فيه عمل من البرّ، والتناصح بالتقوى والتواصي بها، واخشوْا الله تعالى بالانتهاء عمّا نهاكم عنه، وبالكفّ عن التناجي بما فيه ضرر لكم ولغيركم، واعلموا أنّكم ستحشرون إليه وستجمعون عنده وهو الذي لا تخفى عليه خافية وأنّ أعمالكم وأقوالكم وإن كانت قد تلفّظتم بها سرّا مسجّلة عليكم بدقّة في صحائفكم، فاحفظوا ألسنتكم، وزكّوا أنفسكم....

ولمّا كان الخطاب في الآية للذين آمنوا فإنّ جميع المؤمنين بما جاء فيها من أمر ونهي، إذا اِجتمع بعضهم في جلسة سرية للتّحاور في كتمان في موضوع يهمّهم، فعليهم أن يراقبوا الله تعالى ويخشوه فيما يدبّرون وفيما يعتزمون عمله حتى يكون اِجتماعهم لخير يريدونه لبلدهم ولإخوانهم من أهل البلد، كأن يكون اجتماعهم لتدبير وسائل توفير اللوازم الضرورية للبناءات المدرسية من مثل بناء دورات مياه نظيفة ولائقة، وربطها بشبكة الماء الصالح للشراب، أو لتعهد البناية وتسييجها، أو لتوفير اللوازم الضرورية لعلاج المرضى بالمراكز الصحية في القرى والأرياف والمناطق النائية، وفي المستشفيات المحلية التي تفتقر للأدوية ولأسرة التمريض، أو لتعهّد طرق ذات مخاطر كبيرة وتجري فيها حوادث مرورية قاتلة، أو ربما لتدبير لقاءات بين أطراف سياسية متنازعة للإصلاح بينهم خدمةً للمصلحة العامّة، وللحدّ من أسباب التوتّر في البلاد، هذه من مظاهر أعمال البرّ التي تنتظم لها اِجتماعات البعض من جمعيات المجتمع المدني، وهي من الأعمال الممدوحة والمرغوبة. وأمّا اِجتماعات أهل الفساد من جماعة المهرّبين المخربين لاقتصاد البلاد لتدبير وسائل التهريب للسلع المدعمة وللأدوية الضرورية الحياتية خارج البلاد قصد جمع الأموال الطائلة بغير وجه مشروع، وفي غفلة عن حرّاس الحدود، وكذلك اِجتماعات المتهرّبين من أداء الضرائب لتدبير وسائل تدليس حسابات الدخل، واجتماعات الإرهابيين المخرّبين للمصالح العامة، والمجرمين الذين يدبّرون المكائد والمصائب لقتل بعض الأنفس البشريّة غدرا، واِجتماعات رؤوس الفتنة في بعض الأحزاب لإثارة أزمة سياسية في البلاد قصد التنافس على المناصب والمراكز السياسية، فهذه اِجتماعات مَنْهِيٌّ عنها لأنّها اِجتماعات

للمناجاة بالإثم والعُدوان ومعصية أولي الأمر، وهذه اِجتماعات لا يُباركها الله تعالى لأنّه تعالى نهى المؤمنين عنها، وإنما يحضرها الشيطان لما فيها من معصية الله تعالى ولما فيها من أذى للناس. فاذكروا الله تعالى – عباد الله – إذا تناجيتم لتتناجوْا بالبرّ والتقوى.

- إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (10) :

هذه لترذيل خُلق التّناجي بين نفرين أو أكثر في وسط مجموعة من النّاس، إنّه خلق ذميم من تزيين الشيطان ليفسد علاقة النّاس ببعضهم، ويجعل المقصي من النّجوى يشعر بأنّه غير مرغوب في وجوده مع جماعة المتناجين دونه، وتساوره الظنون، من ثَمَّ يتأذّى في قرارة نفسه من هذا السلوك، وخاصة إذا كان المقصون من جماعة المؤمنين فإنّهم يتوجسّون شرّا من التناجي دونهم، ولكنّ الله تعالى يطمئن المؤمنين بأنّه لا يمسّهم ضرر من كيد الكائدين بهم. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حديث لابن عبّاس رضي الله عنهما : "واعلم أن لو اِجتمعت الإنس والجنّ على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلاّ بشيء قد كتبه لك...". وعلى الله فليتوكّل المؤمنون في أعمالهم وفي طاعاتهم دون أن يخشوا أحدا من عباد الله عزّ وجلّ فإنّهم منصورون بعناية الله تعالى وحفظه، وعموما فإنّه من سوء الأدب أن يتناجى إثنان أو ثلاثة بكلام يتسارّون به في وسط جماعة.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(11) :

هذه في أدب حضور مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفي عمومها ومن بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنّها في أدب حضور مجلس العلم، ومجلس تدبير أمر الأمّة خاصّة عند النّوازل وتدارس ما يجب فعله لمواجهة خطر محدق بالأمّة.

والمعنى: إذا حضرتم – أيّها المؤمنون – مجلسا لحضور صلاة الجمعة، أو لتدارس أمر من أموركم في الحرب، أو في مواجهة جائحة أو خطر محدق بالأمّة، واِزدحم الناس في المجلس، وتنافستم على القرب من المسؤول الأوّل للسماع منه أو لمشاركته في الحديث، وقيل لكم توسّعوا قليلا لتتركوا المكان لغيركم من المسؤولين أو المستشارين وأهل الخبرة والرّأي، فلا تتضايقوا من دعوتكم للتوسّع، ولا تتضايقوا. ولا تُضايقوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مجلسه، ولا تتزاحموا عليه، إذا قيل لكم توسّعوا فتوسعتم وتركتم المكان لغيركم يوسّع الله لكم في الرّزق أو في الصدر أو في القبر والجنّة، فإنّ الفسحة من عند الله تعالى غير محدودة. (وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟

فَٱنشُزُواْ) وإذا قيل لجمعٍ منكم : قوموا إلى صلاة أو إلى عملكم، فقوموا من غير حرَجٍ. وإنّ النّشور في هذه الآية يعني القيام من المكان وإخْلاءَهُ للآخر. وقد حدث هذا ذات مرّة في عهد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لنفر للقيام من أمكنتهم ليتركوها للبدريين، وكان فيهم من كان من أهل مشورة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولقد كانت مجالس النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مجالس علم وموعظة، وأحيانا يدعو أحد الكتبة لكتابة ما نزل عليه من الوحي، لذا فمن التأدُّبِ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مجلسه أن لا يتحرّج المؤمن إذا دُعِي للقيام من مكانه ليتركه لأحد من كتبة الوحي، أو لأحد من رُسُلِه إلى قوم من الأقوام برسالته إليهم، أو ليخصّه بالجلوس مع بعضٍ ممن يريد مشاورته في جلسة سرية.

(يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ) قال في هذه الجملة ابن مسعود: "مدح الله العلماء في هذه الآية"

ومعنى الجملة: يرفع الله تعالى عنده مكانة المؤمن على من لم يكن مؤمنا، ويرفع المؤمن العالم على المؤمن غير العالم. والمقصود برَفْعِ الذين أوتوا العلم درجات: منحهم مكانة أرفع من غيرهم تكريما لتحصيلهم العلم، ونفع النّاس بعلمهم لتنوير بصائرهم ولإرشادهم. وقد روي عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم قوله: "فضل العالم على العابد كفضل ليلة البدر على سائر الكواكب" (رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه) (حديث عدد 5860 في فيض القدير للمناوي، ج4 ص433)، وعنه صلّى الله عليه وسلّم : "العلماء ورثة الأنبياء". المراد بالعالم هنا من صرف زمنه للتعليم والإفتاء والتصنيف ونحو ذلك، والمقصود بالعابد من اِنقطع للعبادة زاهدا في دنياه. وإنّ الله سبحانه عليم بأعمالكم ونواياكم، وخبير بما يُصلح شأنكم ويرفع درجاتكم في الإيمان والطاعات فيرشدكم لما ينفعكم لدينكم ودنياكم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ **(12)** :

يا أيّها الذين آمنوا إذا أردتم محادثة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فتصدّقوا بصدقة قبل مناجاتكم له (وقد نُسخ هذا الحكم في الآية الموالية لرفع الحرج عن المؤمنين إذا أرادوا أن يسارّوه بأمر من أمورهم). وقد جاء هذا الحكم على ما ذكره (القرطبي ج17 ص301) عن ابن عباس قال: نزلت بسبب أنّ المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى شقّوا عليه، فأراد الله عزّ وجلّ أن يخفّف عن نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا نزلت هذه الآية كفّ كثير من النّاس، ثمّ وسّع الله عليهم بالآية التي بعدها. وإنّ تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم خير للمؤمنين من إمساكها، وأطهر لقلوبهم من المعاصي، فإنْ لم تجدوا

صدقة لتقدّموها لفقركم فإنّ الله تعالى كثير المغفرة لا يؤاخذكم إن لم تقدّموا الصدقة لفقركم وهو رحيم بكم لا يعذّبكم عمّا لم تستطيعوا فعله لضعفكم وفقركم.

- ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (13) :

هل خفتم الفقر وكثرة الإنفاق بتقديم الصدقات قبل مناجاة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فإن لم تفعلوا ولم يتصدّق أحد بشيء فلا حرج عليه، فقد تاب الله عليكم، وحافظوا على أداء الصلاة في وقتها، وعلى إيتاء الزكاة، وأطيعوا الله في فرائضه وفي ما نهاكم عنه، وأطيعوا رسوله في سُننه وفي ما رغّب فيه، والله مطّلع على أعمالكم وعلى مدى اِلتزامكم بالطاعات. وفي هذه الآية نسخ لحكم تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي جاء في الآية السابقة.

- أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (14) :

هذه الآية إلى الآية 21 في المنافقين الذي يوالون اليهود ليحادوا الله سبحانه ورسوله، وفيما يأتون من الأكاذيب للتّمويه والمغالطة، وفي وعيدهم. (أَلَمۡ تَرَ) أسلوب للتّعجب من سلوك الذين تولّوا قوما غضب الله عليهم، وهذا التعجّب لاستنكار سلوكهم، ولتشنيع عملهم السّيّء. والموالاة تعني المصاحبة والمناصرة، والقوم الذين غضب الله عليهم صفة في القرآن لليهود العصاة الماكرين الذين يحادّون الله ورسوله.

ومعنى الآية : ما أعجب ما يفعل المنافقون الذين اِتّخذوا اليهود أنصارا لهم يسارّونهم ويطلبون تدبيرهم الماكر، ويطلبون نصرتهم بالمال وبالسلاح. هؤلاء المنافقون ليسوا من طائفة المسلمين، وليسوا من الأوفياء لهم، ولا هم من أنصار اليهود والأوفياء لهم، إنّهم ليسوا أنصارا لهؤلاء ولا إلى أولئك. وما أكثر ما يحلفون للمؤمنين بأنّهم من أوليائهم ومن أنصارهم، وهم يكذبون في أيمانهم وهم يعلمون بأنّهم يحلفون لهم بأيمان كاذبة للتّمويه عليهم ولمغالطتهم حتى لا يشكّوا في إخلاصهم للإسلام وللمسلمين.

- أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (15) :

ولقد أعدّ الله تعالى لآخرتهم عذابا شديد الإيلام حصادًا لما كانوا يعملون. وما أسوأ ما كانوا يعملون !

- ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (16) :

اتّخذوا أيمانهم غطاءً ليخفوا نفاقهم، ولينقذوا أنفسهم من المؤاخذة ومن المحاسبة. ولقد كانوا يصدّون عن سبيل الله بتثبيط عزائم المطوّعين للقتال في سبيل الله ليتخلّفوا عن الخروج مع رسول

الله صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا يثبّطون عزائم المنفقين في سبيل الله حتى يبخلوا بأموالهم عن الإنفاق، وكانوا يشيعون الإشاعات المرجفة لصفوف المقاتلين. هؤلاء لهم عذاب يذلّهم بعد عزّهم، ويقهرهم بكشف ما كانوا يخفون في أنفسهم من كذب ومن عداوة للإسلام والمسلمين.

- لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (17) :

لن تدفع عنهم أموالهم وما كسبوا، ولا أولادهم من عذاب الله شيئا، ولن ينقذهم منه شيء، إنّهم من أهل النّار الذين يقيمون فيها إقامة أبدية لا يخرجون منها. قال تعالى (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا) (النّساء الآية 145).

- يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (18) :

وذلك يوم يبعثهم الله تعالى من بعد موتهم ليقوموا للحساب، فإذا تقدّموا للحساب فإنّهم سيعاودون الحلف بالكذب بأنّهم كانوا مؤمنين صادقين، وبأنّهم لم يكونوا منافقين من جهلهم بالله تعالى بأنّه عليم بذات الصدور، وبأنّه لا تخفى عليه خافية، ومن نشأتهم على الكذب، ويحسبون أنّهم على شيء من الذكاء وحسن التمثيل وحسن القدرة على المغالطة والمداهنة، كلاّ إنّهم هم الكاذبون المطبوعون على الكذب.

- ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (19) :

لقد تغلّب عليهم وعلى عقولهم الشيطانُ واِستولى عليهم حتى أنساهم مراقبة الله في أنفسهم، والخوف منه، وأنساهم الحذر من وعيده. المنافقون من حزب الشيطان ومن أعوانه وأنصاره. واِعلموا أنّ الشيطان وأعوانه وأنصاره لن يفلحوا في كيدهم وتدبيرهم، ولن تنطلي أكاذيبهم، وإنّهم أبدا هم الخاسرون، لن يفلحوا في تحقيق أغراضهم، ولن يفلتوا من العقاب في آخرتهم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ (20) :

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ) وهم الذين يخالفون أمر الله عزّ وجلّ، ويعصونه في ما نهى عنه، ويمتنعون عن تنفيذ ما أمر به رسوله، ويتهرّبون من الاستجابة له، ويشاقّونه بإشاعة الأكاذيب، وبالتخلّف عن الخروج معه، أولئك في مقام المحتَقَرين الذين لا يستحقّون أيّ اِحترام أو تقدير.

- كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (21) :

قضى الله عزّ وجلّ وقدّر ليَنْتَصِرَنَّ لرسله، ولتكون الغلبة لله تعالى ولرسوله على الكافرين وعلى المنافقين والعصاة فسيقهرون بقهرهم بأن لا يبلغوا مرادهم في دنياهم، ولأن يُعذّبوا في آخرتهم، ولن يجدوا لهم أنصارا، إنّ الله عزّ وجلّ قويّ عزيز، أي غالب وقاهر لأعدائه، لا يمتنع

عنه أحد، ولن يفلت أحد من قضائه. قال تعالى (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ)(الصافات الآيات 171-173).

ومن المستفاد من هذه الآي موعظة الإنسان لأن يطهّر نفسه من الكذب ومن النفاق ومن الحلف كذبا، وعليه كذلك أن يحذر من موالاة أعداء وطنه، فإنّ هذا السلوك من أعمال السوء والشرّ والفساد، عاقبتها على المرء سيّئة لأنّها عاقبة مذلّة، ولابدّ أن يكشف نفاقه وكذبه وموالاته للأعداء، وله في الآخرة عذاب عظيم، فهو من الخاسرين لدنياه ولآخرته معا، ولن يفلح أبدا في تحقيق كيده ومكره وما يصبو إليه.

- لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (22) :

هذه لإلهاب مشاعر المؤمنين لأن لا يوالوا الكفّار وأعداء الدين. ومعنى الآية: المؤمنون بالله تعالى إيمانا صادقا، والمؤمنون باليوم الآخر ويعملون له ويتزوّدون له بالتّقوى لا يوالون الكفّار وأعداء الدّين ولا يتقربون إليهم بالودّ لأنّهم يعصون الله ورسوله، وإن كانوا آباء لهم أو كانوا من أبنائهم أو إخوانهم أو من أهل العشيرة ممن يتجاهرون بعداوتهم للإسلام وللمسلمين. المؤمنون الذين لا يوادّون من يجاهر بعداوته للإسلام هم المؤمنون حقّا الذين (كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ) أي حبّب إليهم الإيمان وهداهم إلى الإسلام وزيّنه في قلوبهم. قال تعالى (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ)(الحجرات الآية 7). (وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) أي وثبّت إيمانهم وقوّاه برحمة من عنده وهدي من لدنه وببرهان وحجج من القرآن. وإنّ الله تعالى مُنْعِمٌ عليهم بإدخالهم جنّات تجري من تحتها الأنهار لمزيد من النّعيم والرّفاه يقيمون فيها إقامة دائمة. وفوق هذا فإنّ الله تعالى قد أنعم عليهم برضوانه، ومن رضي الله تعالى عنه فإنّه لا يعذّب، وحينما سيلقون نعيمه الذي أعدّه لهم لآخرتهم سيرضيهم ما ينالون، فلا يطلبون المزيد منه. هؤلاء هم أولياء الله تعالى وجنده في دنياهم، وهؤلاء هم الفائزون بتأييده وحفظه وبالفلاح وبالنّصر على الأعداء.

فهذه الآية صريحة في حضّ المؤمنين على الاعتماد على أنفسهم في تسيير أمورهم في سياستهم وفي حياتهم العامّة، وفي تحذير من موالاة أعداء الدين وأعداء رسوله الذين يكرهون الإسلام، فمن كان يكره دينهم فإنّه لا يحبّ لهم الخير والسعادة، فعليهم بأنفسهم لا يضرّهم من ضلّ، وحتى لا يحرموا أنفسهم ممّا وعدهم الله تعالى من الفلاح والتأييد ومن الرضوان.

رقمها	ســـــورة **الحشـــــــر**	آياتها
59	ـــــ مدنية ـــــ	**24**

سمّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذه السورة بسورة "الحشر"، وقد نزلت في أعقاب إخراج بني النّضير من قريتهم سنة أربع للهجرة تقريبا، فهي سورة مدنية.

ومن مواضيع هذه السورة: حكم غنيمة أرزاق بني النّضير، وفي توزيعها. وجاء فيها الثناء على الأنصار وعلى مؤازرتهم للمهاجرين، وكشفت أمر المنافقين وخذلانهم لأنصارهم، وما ينتظرهم من سوء العاقبة. وجاء فيها حضّ المؤمنين على التقوى، والثناء على القرآن الكريم. وختمت السورة بآيات ذات شأن عظيم لما فيها من ذكر لجملة من أسماء الله تعالى الحسنى.

- سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ **(1)** :

إِفتتاح لتعظيم المالك القويّ الغالب المدبّر. والمعنى: لقد صلّى لله عزّ وجلّ كلّ ما في السماوات وما في الأرض، وسجد له، ونزهّه من كلّ عيب ونقص، وهو تعالى (ٱلۡعَزِيزُ) : القويّ الغالب الذي لا يُقهر، بل هو القاهر، وهو تعالى (ٱلۡحَكِيم) الذي يُحسن تدبير أمر خلقه وتسيير كلّ ما في ملكوته.

- هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ **(2)** :

هذه مع الآيتين المواليتين في خبر إجلاء بني النّضير من المدينة المنوّرة لتطهيرها من مكائدهم وإِبتغاء الفتنة فيها بين المسلمين: المهاجرين منهم والأنصار، وكان هذا الإجلاء في أعقاب تدبير زعمائهم بأن يرمي واحد من قومهم صخرة كبيرة على رأس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من فوق جدار حصنهم ليُرْدُوه قتيلا (أُنظر تفاصيل هذه المؤامرة وأخبار المنافقين الموالين لهم في كتابنا رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم ص ص 306-314). ومعنى الآية: (هُوَ) الله سبحانه وتعالى الذي أجلى اليهود من بني النضير من قريتهم إلى خارج قريتهم بسبب نقضهم لعهدهم مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين. يجب العلم بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند هجرته للمدينة المنوّرة كان من أول عمله أن آخى بين المهاجرين والأنصار، ثمّ ألّف بين قلوب الأوس والخزرج من أهل المدينة، ثمّ كتب كتابا بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين اليهود، شرط لهم في هذا الكتاب وإِشترط



عليهم، وان في هذا الكتاب 12 بندا ضمنت حرية المعتقد لليهود وحرية التصرّف في المال والسعي في طلب الرزق مع ضرورة توفير أسباب تحقيق الوفاق والعدل والاستقرار والأمر والخير لسكّان المدينة (انظر كتابنا رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم ص ص 238-240)، ولكنّ هؤلاء القوم رأوْا ذات يوم من شهر ربيع الأوّل في السنة الرابعة من الهجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى جانب جدار من بيوتهم قاعدا فخلاَ بعضهم ببعض فقالوا: إنّكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فَمَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ تطوّع عمرو بن جحاش بن كعب لهذا فقال: أنا لذلك. ونزل الأمر على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليغادر المكان فقام إلى المدينة فجمع نفرا من أصحابه وعاد بهم إلى حصون بني النضير، ولمّا رأى هؤلاء جموع المسلمين متوجهين إليهم تحصّنوا بحصونهم، فحاصرهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم ستّ ليال، وقذف الله تعالى الرُعب في قلوبهم فسألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يجليهم وأن يسمح لهم بالمغادرة ويكفّ عن دمائهم وكان لهم ذلك...

وسمّي هذا الإجلاء (لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ) للإشارة بأنّ هذا الإجلاء كان إجلاءً جماعيا، وهو عقاب، وسيعقبه حشر ثان يوم القيامة، وسيحاسبون على كيدهم وعلى كفرهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد علموا مِنْ قَبْلُ بخبر مجيئه، ثمّ عرفوا صدقه لمّا جاءهم، ولنقضهم عهودهم. (مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ) وما كان المسلمون يتوقعون في زمنهم أن يخرجوا من ديارهم وأن يغادروا حصونهم ويتركوها لهم. وقد كان اليهود يحسبون أن حصونهم المنيعة تحميهم من الهجوم عليهم، وتمنعهم من العدوان عليهم، وأنّها عَصِيَةٌ على كلّ غازٍ، وكانوا يحسبون أنّها مَانِعَتُهم من الله عزّ وجلّ، أي مِنْ قدره وقضائه، لا تستطيع الرياح العاتية لها شيئا ولا الفيضانات وعاديات الطبيعة. (فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ) فجاءهم أمر الله وعقابه من جهة لم تخطر لهم على بال ولم يقدّروها، فقد (قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ): أنزل في قلوبهم الخوف الشديد من أن يقتلوا جميعا على أيدي المسلمين فيبيدوهم إبادة تامّة- كذا جالت فيهم خواطرهم – فذعروا، خافوا على أنفسهم وعلى أبنائهم فآثروا أن يطلبوا المسالمة: رضوا بأن يغادروا بيوتهم وحصونهم بما فيها إلاّ زاد المسافر والرّواحل مقابل أن يأمنوا على أنفسهم وأرواحهم ودمائهم، فكان لهم ذلك. (يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) وقبل أن يغادروا بيوتهم – وهم يعدّون رحالهم للخروج منها – عمدوا إلى تخريبها حتى لا ينتفع بها المسلمون، وهدموا الأركان، ولمّا دخل المسلمون هذه البيوت ووجدوها على تلك الحال أتمّوا هدمها لأنّها لم تعد صالحة للسكن ليبنوا بيوتا أخرى. فاتّعظوا يا أصحاب العقول الرّشيدة والقلوب الواعية والبصيرة النّافذة بما جرى لهؤلاء لتعلموا أنّ الله تعالى لا يعجزه

شيء فإنّه تعالى حين يقدّر أمرا فإنّه يُنَفَّذْ من حيث لا يحتسب الذين لا يخشون ربّهم، فاتقوا الله واعملوا صالحا لتأمنوا كلّ مكروه، واعلموا أنّ لكلّ ظالم نهاية أليمة.

- وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ (3) :

ولولا أن كتب الله عليهم الخروج من ديارهم وحصونهم لأهلكهم بعذاب في دنياهم فأبادهم، وإنّ لهم في عذاب النّار جزاء كيدهم ونقضهم لعهدهم مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولكفرهم.

- ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (4) :

(ذَٰلِكَ) الإجلاء من ديارهم كان عقابا لهم لأنّهم (شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) أي عادوا دين الله بالكيد لقتل رسوله لإثارة الفتنة في المؤمنين، وصدا للنّاس عن دين الله حسدا من عند أنفسهم. قال تعالى (وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ)(البقرة الآية 109). وإنّ كلّ من يعادي دين الله ويصدّ عن نشره والدعوة إليه فسوف يعرّض نفسه لعقاب شديد الوقع على النفس إيلاما من عند الله عزّ وجلّ لأنّه يحارب دينه، والله تعالى هو القويّ العزيز.

- مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (5) :

هذه مع الآيات الثلاث الموالية في الفيء وتوزيعه. والفَيْءُ هو ما رجع للمسلمين من أموال الكفّار من غير حرب وقتال، وهو غير الغنيمة الّتي يغنمها المسلمون من أعدائهم بعد حرب وقتال. وحينما دخل المسلمون حصون بني النّضير، وكان بداخلها غراسات من نخيل رطب فقُطعت نخلة أو نخلتان للتّوسّع وأحرقت أو أحرقتا وكان هذا قد آلم أصحاب الحصن من بني النّضير، وكان هذا الإيلام من الخزي الذي أصابهم. ومعنى الآية: ما قطعتم من نخلة رطبة أو تركتموها قائمة على أصولها للانتفاع بها فذلك بإذن الله، وقد أجازه لكم ليُخزي الذين مرقوا عن دين الله وشاقّوه وخرجوا عنه، وليذلّهم.

- وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (6) :

الخطاب في هذه الآية للمؤمنين ليعلموا أنّ الفيء الذي حصلوا عليه كان من عمل الله تعالى وتدبيره وتقديره، لم يتعبوا عليه لتحصيله، ولذلك أوكل الله تعالى إلى رسوله صلّى الله عليه وسلّم قسمته على ما يأتيه من الوحي لتوزيعه كما أمر الله عزّ وجلّ، وليس لأحد من المسلمين الذين شاركوا رسولهم في محاصرة حصون بني النّضير أن يتملّكوا منه شيئا على أنّه غنيمة من غنائمه. ومعنى الآية: ما حصلتم عليه من الفيْء ممّا أعطاكم الله تعالى إيّاه بدون قتال (فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ) لم تكونوا قد سرتم إليه مسرعين راكبين إليه خيولكم وإبِلكم، ولم تتعبوا في تحصيلها، ولم

تسافروا إليها، وإنّما منحكم الله تعالى إيّاها بدون مشقّة وبدون قتال وإراقة دماء، فقد سلّط الله تعالى على بني النّضير رسله فقذفوا في قلوبهم الرعب والهواجس والمخاوف فتركوا لكم ديارهم وحصونهم ونخيلهم وممتلكاتهم وخرجوا منها، وكلّ هذا كان من تقدير الله القدير الذي لا يعجزه قضاء أمره، فاتركوا الفيْء لرسوله للتّصرّف فيه على ما يوحى به إليه.

- مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (7) :

وهذه في توزيع الفيء. وقسمة الفيء على خمسة، مثلها مثل قسمة الغنائم التي جاء حكمها في الآية 41 من سورة الأنفال، وأمّا قسمة الصدقة: الزكاة المفروضة التي جاء ذكرها في الآية عدد 60 من سورة التوبة فأحكامها مختلفة عن قسمة الفيء والغنائم. يقسم الفيء على خمسة أخماس : الخمس الأوّل لله وللرسول، يأخذ منه الرسول صلّى الله عليه وسلّم بقدر حاجة عياله، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين : لسدّ الثغور، وحفر الآبار، وبناء القناطر، وحاجة الجند. والخمس الثاني: لبني هاشم وبني المطلب لأنّهم مُنِعُوا الصدقة، ومن بعدهم صار هذا الخمس لمصالح المسلمين. والثالث ليتامى المسلمين خاصة لمن قُتل آباؤهم في الجهاد أو في الكوارث، والرابع للمساكين وهو المعاقون والذين أقعدهم المرض أو العجز عن العمل والسعي، والخامس لأبناء السبيل الذين يسعون بين المدن للتعلّم خاصّة أو لسفر في حاجة مؤكدة. وقد قضى الله لكم بهذه القسمة لتحقيق المصالح العامّة للبلاد وللمسلمين، وللتّوسعة على الفقراء والمساكين واليتامى، وحتى لا يكون المال متداولا بين الأغنياء فحسب، ويظلّ المعاقون والمرضى والضعفاء والمحاويج في ضيق وبؤس وتهميش، فهذه القسمة لتحقيق عدالة اِجتماعية وليعرف هؤلاء البؤساء فضل الله تعالى بانتمائهم لدينه الحقّ: الإسلام. وما أعطاكم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من مال الفيء فخذوه وأشكروا ربّكم على فضله وقضائه وتقديره، وما أمركم به من أمر فأطيعوه فيه، وما نهاكم عنه فكفّوا عمّا نهاكم عنه، واِخشوا ربّكم بطاعته، وليخشَ العصاة عقابه فإنّ الله تعالى شديد العقاب.

- لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (8) :

هذه في إسهام الفقراء المهاجرين في الفيء. وقد خُصّوا بالذكر حتى لا يُظَنَّ أنّ الفيء لأهل المدينة المسلمين وحدهم، فإنّ الفقراء المهاجرين منهم، وفيهم الفقراء والمساكين والأرامل واليتامى وذوي قرابة. وقد علّل تعالى اِستحقاقهم لهذا الفضل لأنّهم أخرجوا من ديارهم فصاروا مشرّدين بلا

مأوى. وأخرجوا من أموالهم وتجارتهم فافتقروا، وقد غادروا بيوتهم وتجارتهم اِمتثالا لأمر ربّهم، وهروبا من الافتتان في دينهم، فكانوا يبتغون بهجرتهم رضوان الله تعالى والنيل من فضله. وما يحصلون عليه من الفيء هو من فضل الله عليهم. وإنّهم يشاركون في قتال المشركين نصرة لدين الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم بما يدلّ على صدق إيمانهم. إنّهم إذن هم الصادقون في إيمانهم لأنّهم تحمّلوا من أجله الخروج من ديارهم وأرزاقهم، وهذا ليس من الأمر الهيّن على الإنسان ذي العيال، فهم يقتسمون مع أهل المدينة فَيْأَهُمْ اِستردادًا لبعضٍ من حقوقهم تفضّلا من عند الله عزّ وجلّ.

- وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ **(9) :**

وهذه في الثناء على الأنصار، ذلك لأنّهم آووا المهاجرين الذين اِنتشروا في الأرض عندما أخرجوا من ديارهم بمكة ومن أموالهم، ولأنّهم أحبّوهم، وإنّ بعضهم قد شاركوا أفرادا منهم في بيوتهم وأعمالهم واتّخذوهم إخوة لهم (وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟)، ولم يخامر نفوسهم رغبة أو طمع في أن يأخذوا شيئا ممّا حصل عليه المهاجرون من الفيء، ولم يحسدوهم عليه، بل كانوا (يُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) يقدّمونهم على أنفسهم في نيل المنافع والمكارم ولو كان بهم حاجة لمثل ما حصلوا عليه من الفيء لشدّة اِحتياجهم للتّوسعة في الرّزق، ولسدّ حاجاتهم اليومية، وهذا من أعظم وجوه الإيثار، وهو من خلق النبلاء والكرام والأشراف ولا يستطيعه إلاّ من كان غنيّ النّفس، غير طامع وغير بخيل (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ) ومن يخلص نفسه من خلق الشحّ، ويحفظها منه، ويحملها على البذل والإحسان والعطاء فهو الفائز حقّا بثواب الله تعالى يوم القيامة والفائز برضوانه، مع ما يحظى في دنياه في مجتمعه من تقدير وتعظيم وحسن الذكر، ومع ما ينعم به في قرارة نفسه من رضى.

- وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ **(10) :**

هذه الآية في ترغيب عموم المؤمنين إلى يوم الدّين لأن يثابروا على الدعاء لأنفسهم، ولجميع من سبقهم بالإيمان وماتوا بالمغفرة، ولأن يدعوا لأنفسهم بتزكية النّفس متوسّلين بالله تعالى الرّؤوف الرّحيم. فالذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار هم جميع المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. هؤلاء من رجائهم في الله تعالى يدعونه طالبين مغفرته، ويستغفرون لمن سبقهم بالإيمان بدءًا من الصحابة المهاجرين والأنصار، ويدعون ربّهم ليطهّر قلوبهم من الغلّ، وهو الحسد

والبغض للذين سبقوهم بالإيمان. وفي هذا دليل على وجوب محبّة الصحابة المؤمنين الصادقين، لا يجوز سبّهم ولا بغضهم، لقد أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين الذين جاؤوا من بعدهم بالاستغفار لهم، فمن سبّهم فقد أبغضهم، ولقد جاهدوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل نشر هذا الدين ونصرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وآزروا المهاجرين والمستضعفين منهم، وتركوا للمسلمين سيرة مشرّفة في صدق إيمانهم وفي جهادهم وتقواهم، أفيعقل أن يسبّ مؤمن أبا بكر أو عمر أو عثمان أو عليا أو بعضا من أزواج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمّهات المؤمنين كما سمّاهم الله تعالى، وقد دعا الله تعالى لأن لا يكون في قلوب المؤمنين غلّ للذين آمنوا وسبقوهم بالإيمان. والداعي بالمغفرة لنفسه ومستغفرا للذين سبقوه بالإيمان، وطالبا من ربّه أن يطهّر قلبه من الغلّ للذين آمنوا يتوسّل إلى ربّه في دعائه بأنّه تعالى الرؤوف بعباده. والذي هو تعالى كثير الرّحمة بعباده المؤمنين في آخرتهم ليأمنوا فيها من عذابه، ولينعموا بما أعدّ لهم من التكريم والخير العميم.

- أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ(**11**) :

هذه الآية إلى الآية 17 في المنافقين، في وعودهم الكاذبة، وفي جبنهم، وفي عاقبتهم. حين كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمكة يدعو الناس لدين الله الحقّ واجه عنتا شديدا من المشركين الذين شاقّوه بتكذيبه، وباتهامه بالافتراء على الله عزّ وجلّ، وبالسحر والجنون، وآذوه، ثمّ أرادوا به كيدا لقتله فأنجاه الله تعالى من كيدهم بأن أذِن له بالهجرة. ولمّا هاجر إلى المدينة المنوّرة لقيت دعوته إنتشارا، ولقي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نصرة من المهاجرين والأنصار وتصديقا وطاعة وكانوا صِدّيقين، كما لقي عنتا من صنف آخر من أهل المدينة ممن كانوا يهودا، كانوا أعداءً للإسلام وللرسول، وكذلك من طائفة من أهلها قالوا بأفواههم بأنّهم مؤمنون ولم تؤمن قلوبهم، وهؤلاء هم المنافقون يحضرون مجالس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومجالس المؤمنين، ويوادّون من جهةٍ أخرى أعداءهم من أهل الكفر من اليهود ويحسنون صحبتهم ويؤازرونهم في كيدهم ومكرهم. هؤلاء المنافقون كانوا خطرا على المسلمين لأنّهم يظهرون ما لا يُبطنون من كرههم ومن مكرهم، ولم ينفعهم توادّهم مع الذين كفروا من أهل الكتاب من طائفتي: قريظة وبني النّضير.

(أَلَمۡ تَرَ) هل رأيت سلوكا عَجَبًا أعجب من سلوك الذين نافقوا (كان من جماعتهم: عبد الله بن أبيّ بن سلول، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، وأوس بن قَيْظي.. وغيرهم) يقولون لإخوانهم في كرههم للإسلام وللمسلمين من أهل الكتاب من بني قريظة والنّضير: لئن أجلاكم المسلمون

عن دياركم لنخرجنّ معكم مهاجرين إلى حين تهاجرون، وسنترك لهم المدينة، وإنّا لا نطيع أحدا منهم لقتالكم، لن نكون معهم في صفوفهم أبدا، ولن نخرج معهم أبدا، ولئن قاتلكم المسلمون لانتصرنا لكم ولقاتلناهم معكم نصرة لكم ودفاعا عنكم. والله تعالى يعلم علم اليقين الثابت بأنّهم كاذبون في ما يقولون وفي ما يعدون به إخوانهم من أهل العداوة للإسلام.

- **لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (12) :**

عَلِمَ الله أنّهم لا يخرجون من المدينة إن أُخْرِجَ اليهود من ديارهم، ولن يتبعوهم، وإنّهم لا ينصرون من وعدوهم بنصرهم إن قوتلوا، ولئن شاركوهم في القتال فإنّهم لا يداومون على نصرهم، بل سيهربون من القتال والمواجهة، ثم سيُهزمون. وهذه الآية من الإعلام بالغيب، وهي في كشف وعد المنافقين الكاذب، وهي في إبلاغ المسلمين بأنّهم منصورون على أهل المكر والكيد من أهل الكتاب والمنافقين لطمأنتهم.

- **لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (13) :**

إنّ المنافقين يخافونكم خوفا أشدّ من خوفهم من الله تعالى ومن عذابه، وإنّهم قوم يقولون ما لا يفعلون، ويعدون ولا يفُون بوعودهم، ويتصرّفون تصرّف مَنْ لا يدرك عاقبته وإنّهم لا يدركون قدرة الله تعالى على إظهار دينه ونصر المؤمنين وكسر شوكة أعدائهم حقّ التّقدير. وتُعَدُّ هذه الآية من آيات رفع معنويات المؤمنين التي تُقَوّيهم على مواجهة أعدائهم وهم مستبشرون بتأييد الله تعالى لنصرتهم.

- **لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (14) :**

وإنّهم إذا قرّروا مواجهتكم فلن يواجهوكم مواجهة مباشرة عند قتالكم من جبنهم، ومن خوفهم على أنفسهم إلاّ إذا تحصّنوا بحصون منيعة تحميهم من ضرباتكم ومن المواجهة المباشرة، أو يقاتلونكم بالرمي متخفّين وراء جدران متينة لأخذكم على غرّة لأنّهم جُبلوا على الغدر والخيانة. وإنّ المنافقين في علاقتهم ببعض لا تقوم على الإخلاص والودّ، فإنّ عداوتهم فيما بينهم شديدة. تظنونهم متوافقين ومنسجمين مع بعض، ولكنّهم في حقيقة أمرهم مختلفين، وبينهم وبين اليهود وُدٌّ ظاهر، ولكنّ قلوبهم (شَتَّى) أي غير متوافقة مع ما يُظهرون، إنّهم لا يحتملون بعضهم، كلّ واحد منهم كاشف الآخر، ويعلم أنّما صحبته له لمصلحة يرجو قضاءها من ورائها، كلّ واحد منهم يعرف أنّ الآخر لا يمكن أن يكون صادقا فيما يقول وفيما يظهر من قول وعمل، قلوبهم متفرّقة بسبب عداوتهم لبعض. وهذا لأنّهم قوم لا يتصرّفون بعقلانية وبرشاد، وإنّا هم قوم مَصْلَحِيُون

اِنتهازيون، لا يظهرون ولا يُبرزون إلاّ إذا قامت فتنة في بلادهم، عندئذ يظهر كيدهم وفسادهم، ليحقّقوا من وراء ذلك مصالح خاصّة بهم، وإنّهم لا يعقلون أنّهم مقبلون على يوم عظيم للحساب، يوم تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم وجلودهم بما كانوا يُسرّون وبما كانوا يفعلون.

- كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ **(15) :**

لقد اِغترّ الكافرون من أهل الكتاب باحتمائهم بحصونهم، وبكثرة أموالهم، وبوعود أنصارهم المنافقين، وظنّ المنافقون الجبناء بتأييدهم لأعداء الله ورسوله أنّهم بالغون ما أضمروا في نفوسهم من الإضرار بالمسلمين بافتتانهم، ولو كانوا يعقلون لاعتبروا بما حدث تحت أنظارهم ومن حولهم لجموع المشركين الذين حاربوا الله ورسوله في (بدر) و(أُحد) على كثرة عددهم وعتادهم. لقد رُدّوا على أعقابهم لَمْ ينالوا خيرا ممّا كانوا يريدون، بل عادوا خائبين متحسّرين على قتلاهم، وذليلين لما أصاب بعضهم من عذاب الإذلال بالأسر. ذاقوا مرارة كيدهم الذي وقع عليهم، ويوم القيامة سيلقون عذابا موجعا لأنّهم حاربوا الله ورسوله.

- كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ **(16) :**

عمل المنافق كمثل عمل الشيطان في الغدر بالإنسان، فإذا اِتّبعه الإنسان الغِرُّ واِغترّ بوساوسه ووقع في حبائله وكفر بربّه وبرسوله، واِطمأنّ الشيطان على ضلالته تركه لحاله ويوم الحساب يتبرّأ الشيطان من تابعِه ومن كُفرِهِ وضلالته ومن عمله، ويتهرّب من مسؤوليته عن إضلاله، ويشهد الشيطان على نفسه بأنّه يخاف الله ربّ العالمين، ليُؤكّد بأنّه بريء من كُفر الإنسانِ الذي اتّبع تدبيره. فالمستفاد من الآية أنّ عمل المنافق شبيه بعمل الشيطان بالغدر والتهرّب من المسؤولية عن إضراره بتابعيه.

- فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ **(17) :**

فكان عاقبةُ الشيطان وتابعه الإنسان الذي ضلّ وكفر يوم الحساب القضاءَ عليهما بالإقامة الأبدية في النّار جزاء ظلمهما، الشيطان كان ظالما بالكفر وبغدره للإنسان لإضلاله، والتبيعُ ظلم نفسَه بكفره وبتعطيل عقله وبانخداعه لكيد الشيطان، ومثل هذين الشيطان وتابعه المنافق، أحدهما غدّار ومضلّ وماكر، والآخر ساذج، ولا يتّبع أهل الحقّ، ولا يميّز بين الحقّ والباطل.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ**(18) :**

هذه الآية إلى آخر السورة في موعظة المؤمنين لتقوى الله عزّ وجلّ، وللعمل للآخرة، وللانتفاع بقراءة القرآن الكريم، ولذكر الله سبحانه لتنزيهه عن الشرك ولتعظيم أسمائه الحسنى



وصفات جلاله وجماله. ومعنى الآية: يا أيّها الذين آمنوا اِخشوا الله تعالى وخافوه، وقُوا أنفسكم من نقمته ومن عقابه وعذابه، وذلك بطاعته في العبادة وفي تنفيذ أمره واِجتناب نواهيه. وحاسبوا أنفسكم عمّا تقدّموا من عمل وطاعات لحسابكم بين يديه في آخرتكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وذلك لتتداركوا أمركم بالتوبة عن المعصية والزلّات وبالاستغفار، ولتجتهدوا في التكفير عنها بعمل الصالحات فإنّ الحسنات يغلبن السيّئات. اِخشوا الله تعالى بالصدق في إيمانكم وبالإنابة إليه عند الوقوع في الخطإ أو السيّئة، واِعلموا أنّ الله مطّلع على أعمالكم، وعليم بما تفعلون.

- **وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (19) :**

واذكروا الله كثيرا بصلاتكم وأدعيتكم وتسابيحكم بحمده، واذكروه في أنفسكم عند أعمالكم وفيما تقولون، ولا تكونوا كالذين غفلوا عن ذكره، وعن العمل بأوامره، وعن الإنهاء عمّا نهى عنه، وانشغلوا بدنياهم (فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ) فتركهم لغفلتهم حتى نسوا واجباتهم نحو ربّهم، وإزاء نِعَمِه، فتركوا الصلاة واِستباحوا المعاصي والفواحش واِنشغلوا بالملاهي حتى جاءهم أمر الله تعالى فماتوا على ذلك، أولئك هم الذين فسقوا عن دينهم وخرجوا منه إلى إتيان الفواحش والمعاصي واِتّباع هواهم.

- **وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (20) :**

لا تكونوا كأولئك الغافلين الذين نسوا ذكر ربّهم، وفسقوا عن دينه فكانوا من أهل النّار، تذكّروا أنّ أهل النّار المقيمين في جحيمها ليسوا سواء مع أصحاب الجنّة المقيمين في النّعيم والرفاه لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرا. أصحاب الجنّة خيرٌ، هم الفائزون بالراحة والدعة والتّكريم وكلّ مظاهر الإنعام، كانوا في دنياهم يذكرون ربّهم ويرجون غفرانه ورحمته فذكرهم الله تعالى عنده، وأنعم عليهم بما يشاؤون من أسباب النّعيم.

- **لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ (21) :**

هذه الآية في بيان جلال هذا القرآن، وفي عظيم تأثيره على كلّ من يَعِيه ويتدبّره. لو نزل هذا القُرآن على جبل من صخر شديد الصلابة، وكان لهذا الجبل عقل يعيه أو قلب مرهف الحسّ، فإنّه يتصدّع ويتشقّق ويتفتّت صخره ويهوي خاشعا ساجدا لله تعالى من أثر خشيته وخوفه من الله عزّ وجلّ، ومن شدّة رهبته ممّا جاء في القرآن من بيان لعظيم جلاله وعزّته. ولقد ضرب الله سبحانه هذا المثل للنّاس عساهم يدركون جلال ما أنزل إليهم ليذكروا به ربّهم، وليعرفوا آيات وحدانية الله عزّ وجلّ فتستنير بَصَائِرُهُم فيعرفون الحقّ من الباطل، ولينتفعوا بمواعظه، وليتبيّنوا حدود الله تعالى وزواجره، وليكونوا مصدّقين بالبعث وبالحساب ليعدّ له عاقلُهم عدّته لذاك اليوم

لينقذ نفسه من الغبن يوم التغابن، ليعمل عمل من يرجو رضوانه ورحمته والفوز بنعيمه وتكريمه. ما أعجب أمر الإنسان إذا سمع كلام ربّه فأعرض عنه، ولم يخشع لذكر ربّه، ولم يرهب! أو إذا قرأه فلم يتدبّره لينتفع بنوره وهداه، ولم يَوجَلْ قلبُه، ولم تدمع عيناه طمعا في رحمة ربّه وخوفا من وعيده. قال تعالى (إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ)(الأنفال الآية2) ولقد جاء ما يدّل على جلال القرآن وعظيم تأثيره في قوله تعالى (وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانًا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا)(الرعد الآية31).

- **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (22) :**

الّذي أنزل القرآن هو الله، وهو الله الذي تُدعَوْن لعبادته ولطاعته ودعائه، وهو الله الحقّ الذي لا إله إلاّ هو، ليس له ندّ ولا شريك، ولا صاحبة ولا ولد، وما لكم من إلاه غيره، هو الله الحقّ، وما سواه إلا باطل. (عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ) وإنّه تعالى العليم بما لا يعلمه خلقه ممّا كان في ملكوته قبل الخلق، وبما هو كائن في السماوات وفي الأرض وما هو كائن في ما بينهما، وهو سبحانه عليم بما يجري في خلقه وفي ملكوته في مستقبل الأيام من أحداث إلى أن يأذن باستبدال الحياة الدنيوية بالحياة الآخرة، كلّ هذا بكليّاته وبجزئياته ممّا يغيب على كلّ الخلق العلمُ به فإنّ الله سبحانه به عليم لأنّه تعالى هو الذي قدّره، وهو تعالى العليم بعالم (ٱلشَّهَٰدَةِ) أي العليم بما يحدث وبما يجري في ملكوته في الزمن الذي يحضره خلقه ويشهدونه.

إنّه سبحانه على علم بما يفعله خلقه فيما بينهم بما يبصرونه ويشاهدونه، وعلى علم بما يجري في السماوات في حركة الأفلاك والكواكب، وبما يجري في الأرض من حوادث وتقلّبات ممّا يشهده بعض النّاس ويغيب عن الكثير من خلقه الآخرين، لكنّ الله تعالى لا يغيب عن علمه شيء ممّا يحدث في زمن النّاس في حاضرهم. الله سبحانه مستأثر بعلم ما حدث ماضيا وسيحدث مستقبلا وبما يحدث حاضرا ممّا لا يشاهده خلقه وممّا لا يعلمون وممّا يشهده بعض الخلق. وهم قلّة. وممّا لا يشهدونه وهو حادث فيهم وفي زمن وجودهم وحياتهم، وأمّا ما سيكون في الآخرة فليس لأحد من خلقه علمٌ به، لأنّ الله تعالى إستأثر بعلمه. قال تعالى (وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ)(هود الآية 123).

(هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ) هو تعالى الذي يشمل خلقه – المؤمنين منهم وغير المؤمنين – برحمته ليحيوا في ملكه آمنين مطمئنّين ينعمون بحياتهم وبتكاثرهم وبثمرات سعيهم وأعمالهم، ولينعموا بما سخّره الله تعالى لهم من نِعَم الحياة، وفي الآخرة هو رحيم بعباده المؤمنين يدخلهم في رحمته فيُؤَمِّنُهم من الخوف يوم الفزع الأكبر، وينعم عليهم بإدخالهم جنّة التكريم والرّضوان.

• هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ **(23) :**

(هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ) للتّأكيد على عقيدة التّوحيد، ومن أشرك بالله الواحد الأحد فقد ضلّ ضلالا بعيدا عن الحقّ. (ٱلْمَلِكُ) وإنّه تعالى هو المالك لكلّ ما هو كائن في السماوات وما في الأرض وما بينهما، ولله ميراث السماوات والأرض، وهو السلطان كلّ ما يجري في ملكوته من تقديره، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الحاكم يوم الدين، بل هو أحكم الحاكمين يقضي بالحقّ ولا يضيع أجر من أحسن عملا وإن كان مثقالا من حبّة من خردل، وهو الغالب على أمره، قاهر للظالمين ولمن طغى وتجبّر.

(ٱلْقُدُّوسُ) هو تعالى المبارك الذي تنزّه عن كلّ عيب وعن كلّ نقص في الذات والصفات والأفعال، وهو الذي كثرت بركاته. وفي التنزيل على ما جاء على ألسنة الملائكة (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)(البقرة الآية 30)، أي نطهّر أنفسنا لك حتى لا نعبد سواك وحتى ننزهّك عن كلّ شريك وعن كلّ نقص وعيب. وقولنا المكان المقدّس، أو بيت المَقْدِس أي البيت أو المكان الذي يُتطهّر به من الذنوب لأنّه مكان تعبّد لله وحده وتعظيم جلاله.

(ٱلسَّلَـٰمُ) إنّه تعالى ذو السلامة من النقائص، وهو تعالى الأمان لمن خافه، وهو الذي لا يظلم فهو العدل، وهو الذي سلم من العوارض التي تعرض لخلقه من مثل الإعياء أو المرض أو الفناء، هو الباقي على الدوام.

(ٱلْمُؤْمِنُ) هو الذي آمنَ أولياءه من عذابه، فهو يؤمنهم وهو المؤمن. وقال مجاهد: "المؤمن هو الذي وحّدَ نفسه بقوله (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ)(آل عمران الآية 18)، فالله سبحانه هو المؤمن الذي شهد لذاته العلية بالوحدانية، وجعل لشهادته دلائل كثيرة في الوجود والموجودات في السماوات وفي الأرض، وهو المؤمن الذي شهد لرسله برسائلهم، قال عن محمد صلّى الله عليه وسلّم: (يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(يس الآيات 1-4). وقد شهد للقرآن الكريم في آيات كثيرة بأنّه تنزيل من عنده من الرّحمان الرّحيم، من ربّ العالمين. قال تعالى (الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ)(السجدة الآيات 1-3)، وهو تعالى المؤمن بيوم القيامة وبالبعث فقال عزّ وجلّ (لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ)(القيامة الآيات 1-4) وهو تعالى المؤمن بالوعد والوعيد، قال جلّ وعلا (وَٱلطُّورِ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ)(الطور الآيات 1-7)... وهكذا فمن آمن مِنَ النّاس بالله الواحد الأحد، وبرسله، وبصدق ما نزل، وبالبعث وبالوعد والوعيد فقد آمن، ومن لم

يؤمن بهذا من عباد الله تعالى فقد كفر، والله تعالى غنيّ عن إيمانه لأنّه تعالى هو المؤمن، وكفى بالله شهيدا.

(ٱلۡمُهَيۡمِنُ) (جاء في لسان العرب لابن منظور ج15 ص96) : المهيمن : اِسم من أسماء الله تعالى في الكتب القديمة. والمهيمن هو الشاهد، وهو من آمن غيرَه من الخوف، وهو القائم على خلقه، والقائم بأمورهم، وهو الرّقيب المسيطر عليهم، يأخذ بقبضته من يعصيه، وهو الذي يبسط سلطانه على كلّ شيء ويرقبه.

(ٱلۡعَزِيزُ) هو الذي لا يوجد له نظير، ليس كمثله شيء، وهو الغالب القاهر الذي لا يُغلب، وهو الرّفيع الذي لا يقربه أحد، ولا يبلغه أحد، والمُمتنعُ عن كلّ الخلق مهما عظم، وهو ذو المجد العظيم.

(ٱلۡجَبَّارُ) هو العظيم، والله ذو العزّة والجبروت، أي ذو العزّة والعظمة، هو الذي يجبر خلقه على فعل ما يأمر به، وهو ذو السطوة الذي لا تطاق سطوته، وسطوته تكون على العُصاة وعلى الذين يكفرون به، ويكونون على خلقه جبابرة يظلمونهم بغير حقّ، ويقهرهم، فعلى الطاغية والظالم من البشر أن يخشاه.

(ٱلۡمُتَكَبِّرُ) هو الذي يترفّع عن كلّ نفص، ويستغني عن طاعة مَنْ يعصيه من خلقه، والذي تعاظم برُبُوبِيَّتِهِ، وهو المتعظّم عمّا لا يليق به من صفات الذمّ، والمتكبّر هو المتعالي والممتنع عن الانقياد لأيّ شيء، بل كلّ شيء مطاوع لأمره طمعا في القرب منه بطاعته. والكبرياء في صفات الله تعالى صفة مدح لعظمته، وهي صفة في البشر من صفات الذّم. والمتكبّر هو المتعالي وهو الكبير. وعموما فإنّ هذه الصفة لله تعالى لا يجب أن تفهم بمثل ما تُفهم به إذا وصف بها أحد من المخلوقين.

(سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ) أي تنزّه الله تعالى لجلاله وعظمته عن أن يكون له مثيل في صفاته، أو شريك في الخلق، والتدبير، والتسيير لما هو كائن وما سيكون في السماوات وفي الأرض، أو يشاركه في الحكم والتقدير، ويشاركه في الربوبية، تنزّه سبحانه عمّا يدّعيه المشركون الجاهلون لربّهم الحقّ.

- **هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (24) :**

هو الله (ٱلۡخَٰلِقُ) الذي أوجد الموجودات في السماوات وفي الأرض، وأخرجهم من عدم: أحياء– بشرا وحيوانات على اِختلاف أجناسها وحشرات ونباتات – وجمادات ترابا وصخرا وماء ومعادن، وكواكب ونجوما وأفلاكا – وما ليس بحيّ ولا جماد من مثل الهواء والفضاء والنور

والظلام... كلّه من صنعه، خلق الله كلّ شيء وقدّره تقديرا أحسن خلقه وقدّر له أجل ظهوره وأجل فنائه.. وما من إلاه غيره قد خلق شيئا... قال تعالى يعيب على المشركين جهلهم وضلالتهم (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا)(الفرقان الآية 3).

(ٱلۡبَارِئُ) هو المبدع، المخترع والمنشئ من العدم من غير تقليد لصورة، من غير مثال سابق.

(ٱلۡمُصَوِّرُ) أي إنّ الله تعالى يخلق المخلوق الذي يقدّر له الوجود، فيُبْدِعُه إبداعا من اِختراعه بدون مثال سابق ويصوّره على الصورة الّتي أرادها له وهيّأها له وعلى الشكل الذي يميّزه على غيره من المخلوقات، قال تعالى في تصوير الإنسان (يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ)(الإنفطار الآيات 6-8).

(لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ) أي له أسماء الكمال والجمال وأسماء الجلال والصفات العُلا لكلّ صفة في الكمال والجمال والعظمة، وهي بالغة في منتهى معانيها وحقائقها، لا يتّصف بها مُجْتَمِعةً إلاّ الله سبحانه، فهو الله الحق وما سواه باطل لا يملك شيئا من صفاته الله العزيز الذي ليس كمثله شيء، فهو وحده المتفرّد في الألوهية والربوبية، فسبّحه وأعبُده وأدْعُه، ولا تدعُ مع الله أحدا.

(يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) ومن يُعرِضْ عن ذكر ربّه فإنّ الله غنيّ عن ذكره وعن تسبيحه وعن عبادته وطاعته لأنّ كلّ المخلوقات بجميع أصنافها في السماوات وفي الأرض تسبّح بذكر الله ربّها تعظيما له تعالى وإجلالا وطاعة وخشية وتنزهه عن كلّ عيب وعن كلّ نقص وعن أن يكون له شريك في الملك. قال تعالى (وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ)(الرعد الآية 13). وقال جلّ وعلا (تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ)(الإسراء الآية 44).

(وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ) وهو تعالى القويّ الذي لا يُغلب ولا يقهر، وإنما هو الغالب القاهر وهو ذو المجد العظيم والحكيم الذي يحسن تدبير كلّ أمر ويُحكمه، هو ذو الحكمة البالغة في الوعظ والإرشاد لخلقه لهديهم للحقّ والصواب، ومن حكمته تعالى أنّه أقام الحجّة على الباطل لكشفه، وأظهر الحقّ بالحجّة والدليل، وهو الذي أرسل رسلا لهدي النّاس للحقّ حتى لا تكون للكافرين والضالّين على الله حجّة بعد الرّسل، وهذا من حكمة التقدير حتّى لا يُظلمَ أحدٌ بقضائه. قال عزّ وجلّ (رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا)(النساء الآية 165). وهذا حتّى لا يقول الضالّون الكافرون يوم العذاب قبل يوم الحساب ليقيموا على الله الحجّة، قال تعالى (وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ)(طه الآية 134). فمن حكمة الله عزّ وجلّ تقدير الشيء قبل وقوعه وترتيبه.

تمّ بعَوْن الله وتوفيقه تفسير هذه السورة، ولم يكن هذا الأمر هيّنا ولا سهلا لما جاء في الآيات الثلاث التي ختمت بها السورة من عرض لجملة من الأسماء الحُسنى وصفات الذات الربّانية العُليا. وقد اِختصّت الآية الأولى منها بعرض الصفات الدالّة على الوحدانية، واِنفراد الله عزّ وجلّ بالخلق والإيجاد. وجاءت الآية الثانية بعرضٍ لصفاتٍ من صفات الجلال والعزّة والهيمنة. وجاءت الآية الخاتمة بالصفات الدالّة على بديع الصنع والاِختراع، وحسن التقدير، والحكمة.

وأنّى لأيّ عبدٍ من عباد الله عزّ وجلّ مهما أوتي من علم وسعة اِطلاع ومعرفة أن يتكلّم في التّعريف بالذات العلية بأسماء الله تعالى الحُسنى وصفاته العلا وهو الذي ليس كمثله شيء، ولا يحيط به علم كما لا يحيط به مكان ولا زمان؟ لذا أرجو من الله عزّ وجلّ بأسمائه الرّحمان والرّحيم والكريم والعليم الذي لا تخفى عليه خافية أن يغفر لي كلّ تقصير في بيان معاني ما جاء في هذه الآية من أسمائه الحسنى وصفاته العلا، فهذا كلّ ما جاء به الجهد، وليس لي من العلم إلاّ ما علّمني ربّي.

ولقد روى أبو هريرة أنّه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن اِسم الله الأعظم، فأجابه الرسول صلّى الله عليه وسلّم قائلا: "عليك بآخر سورة الحشر، فأكثر قراءتها".

نسأل الله تعالى باسمه الأعظم غفرانه ورحمته وهداه.

رقمها	ســــورة **الممتحنـــــة**	آياتها
60	ـــــ مدنية ـــــ	**13**

سمّيت هذه السورة بسورة "الممتحنة" لما جاء فيها من اِمتحان المهاجرات في إيمانهنّ حتى لا تكون بينهنّ اِمرأة هاربة من زوجها ولم تكن هجرتها لله ورسوله.

ومن أغراض هذه السورة: نهيُ المؤمنين عن التودّد لأعداء الدين الذين أخرجوهم من ديارهم وقاتلوهم ولو كانوا ذوي قربى مُقْتدين في ذلك بسنّة أبيهم إبراهيم عليه السلام وأتباعه، إلاّ الذين لم يقاتلوهم في الدين ولم يظاهروا على إخراجهم من ديارهم، ولم يكونوا أعداءً لهم. وفي هذه السورة الأمر بامتحان المهاجرات في دينهنّ، فإن كنّ مسلمات فقد صرن محرّمات على أزواجهنّ المشركين، وعندئذ وجب على المسلمين أن يردّوا لأزواجهنّ مهورهنّ. وفي هذه السورة الحكم بتحريم تزويج المسلمة بالمشرك. وفيها مبايعة المؤمنات للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم على الصالحات من الأعمال. وخُتمت السورة بالنهي عن موالاة اليهود.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ **(1)** :

هذه الآية إلى الآية 9 في سُبُلِ التّعامل مع المشركين. فأمّا الذين يعادون الله ورسوله والمؤمنين فمَنْهِيٌّ عن موالاتهم. وهذا هو موضوع هذه الآية – وأمّا الذين لا يعادون الدين والمؤمنين فلا ضير من التعامل معهم بالقسط. وقد جاء في أسباب النزول لهذا الحكم – واللفظ لمسلم – عن عليّ رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم – أنا والزبير والمِقداد– فقال : "اِئْتُوا رَوْضَة خَاخٍ (موضع بين مكة والمدينة على بعد اِثني عشر ميلا من المدينة) فإنّ بها ظَعِينَةٌ (هي المرأة في هَوْدج) معها كتاب فخذوه منها". فانطلقنا تجري بنا خيلُنا، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: مَا مَعِي كتابٌ. فقلنا: لَتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لَتُلْقِيَنَّ الثّياب، فأخرجته من عِقاصها (من ضفير الشّعر)، فأتينا به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بَلْتعَة إلى ناسٍ من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "يا حاطب ما هذا؟" قال: لا تعجل عليّ يا رسول

الله، إنّي كنتُ امْرَأً مُلْصَقًا في قريش، فأحبَبْتُ إذ فاتني ذلك من النَّسَبِ فيهم أن أتّخذ فيهم يدًا يحمُون بها قرابتي، ولم أفعلْه كُفرا ولا اِرتدادًا عن ديني، ولا رِضًى بالكفر بعد الإسلام. فقال النّبي صلّى الله عليه وسلّم : "صدق". جاءت بعدها هذه الآية في النّهي عن موالاة المشركين: أعداء الله ورسوله وأعداء المؤمنين وهي بمعنى يا أيّها الذين آمنوا لا تجعلوا أعداء الله تعالى وأعداءكم (وهي صفة للمشركين لأنّهم يعصون الله ما أمرهم ويحاربون رسوله وهذا الدين وأتباعه) أعوانا لكم وأنصارا توادّوهم وتطلعوهم على أسراركم بسبب ما كان بينكم من المودّة والمحبّة أو قرابة، والحال أنّهم قد كفروا بوحدانية الله تعالى، وكفروا بدينكم، وكذّبوا بالقرآن وبالوحي وبالرّسول وبما جاءهم به، ثمّ أخرجوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من داره وموطنه، وأخرجوكم أيضا من دياركم وأموالكم بدون موجب سوى أنّكم آمنتم بالله الواحد الأحد وهذا ما كانوا يكرهونه منكم. لا تتخذوهم أنصارا لكم وأحبابا إن كنتم قد خرجتم من دياركم مهاجرين بدينكم بحقّ نصرةً لدين الله تعالى وثباتا عليه واِبتغاء مرضاة الله سبحانه. تسرّون إليهم بأنباء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبعزْمه لما بينكم من ودّ يربطكم ببعضهم، ينهاكم الله تعالى عن هذا والله عليم بما تفعلون سرّا وبما تجهرون به. ومن يفعل هذا بعد هذا النّهي فقد حادَ عن الصواب وعن الطريق الموصل لرضوان الله تعالى.

- **إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءً وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ (2) :**

وِاعلموا أنّهم إن يظفروا بكم على عين غرّة ويصادفوكم ويتمكّنوا منكم ويحاربوكم حينئذ ترون منهم عداوة شديدة وكرها ونقمة، ويمُدّون إليكم أيديهم بالأذى، ويُسمعونكم من السباب والشتائم والنّعوت ما تكرهون وما لا ترضون، ويتمنّون منكم لو يردّونكم للكفر بعد الإسلام وترتدّون عنه من شدّة عداوتهم لكم ولدينكم، فاحذروهم، وأطيعوا الله ورسوله، ولا تُوالُوا أعداءكم وأعداء دين الله تعالى.

- **لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (3) :**

وتذكروا أنّ الأهل والأولاد لا ينفعونكم شيئا يوم القيامة إن عصيتم الله تعالى من أجلهم. وفي ذاك اليوم يُفرق بينكم وبين ذوي الأرحام والأولاد إن لم يكونوا مؤمنين. قال تعالى (يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ)(عبس الآيات 34-37). فيكون المؤمنون من أهل الجنّة، وأمّا الذين كانوا يحاربون الله ورسوله فيحشرون في جهنّم لا يجدون لهم شفيعا ولا نصيرا لينقذهم من العذاب. والله سبحانه مطّلع على جميع أعمالكم، ولا يخفى عليه من أمركم شيء فاتّقوه في سرّكم وعلانيتكم.

- **قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ**

وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ (4) :

هذه في التّرغيب في التأسّي بسنّة إبراهيم عليه السّلام في قطع موالاته لأبيه لمّا أصرّ على الكفر، ولكنّه ظلّ مداوما على الإستغفار له من باب البرّ، وللتأسي بأتباع هذا النّبيّ عليه السلام في التبرّؤ من قومهم لمّا كفروا وفي قطع حبل المودّة والصلة بهم. ففي تبرّؤ إبراهيم عليه السلام وأتباعه من قومهم لمّا كفروا قدوةٌ حسنة في إيمانهم وعملهم وأقوالهم لأتباع الرّسول النّبيّ الأميّ صلّى الله عليه وسلّم ليكونوا أمثالهم في التبرّؤ من قومهم المشركين الكافرين.

قالوا لقومهم لمّا هاجروا من القرية ومن ديارهم: إنّنا نتبرّأ منكم ومن شرككم وقد كانوا أهلا لهم وكانوا من أهل ودّهم – ورغم ذلك صرّحوا لهم تصريحا واضحا: بكفركم أنشأتم بيننا وبينكم عداوة وبغضاء إلى يوم الدّين، فلستم منّا ولسنا منكم، وهذا من إخلاصهم لدينهم ومن اِبتغائهم لرضوان ربّهم. وأمّا إبراهيم عليه السلام فقد قال لأبيه – من باب البرّ – سأستغفر لك ربّي، ولا أستطيع أن أدفع عنك شيئا من عقاب الله تعالى.

ولمّا هاجر إبراهيم عليه السلام وأتباعه من القرية تاركين ديارهم وأموالهم وأهليهم من ورائهم توجّهوا إلى ربّهم بدعائهم مستعينين به، توجّهوا إليه تعالى بالتوكّل عليه ليمهّد لهم الطريق وليُهَيِّئَ لهم أرضا يجدون فيها أمنَهم ورزْقَهم، وأعلنوا له تعالى بأنّهم راجعون إليه جلّ وعلا بالاستغفار والتوبة إليه، وبأنّهم رجعوا إليه ممّا يكره إلى ما يحبّ من الطاعات في أمان وإخلاص وطمأنينة، وأقرّوا بأنّهم صائرون إليه راجين غفرانه ورضوانه والنّجاة من المؤاخذة والفوز بنعيمه وتكريمه.

- رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (5) :

ودعا إبراهيم عليه السلام وأتباعه الذين هاجروا معه، وهم يغادرون ديارهم وموطنهم – بأن يحفظهم الله تعالى من تسلّط الكافرين المشركين عليهم حتى لا يؤذوهم في دينهم وفي أنفسهم وفي اِستقرارهم في أرض الهجرة، ودعوا الله عزّ وجلّ أن يغفر لهم بأن يستر عليهم ما فَرَطَ من ذنوبهم متوسّلين إليه تعالى بأنّه (ٱلۡعَزِيزُ) الغالب الذي لا يقهر، (ٱلۡحَكِيمُ) الذي يحسن لهم التدبير لحفظهم وحمايتهم.

- لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (6) :

هذه هي محلّ العبرة ممّا سبق ذكره. لقد كان في ما عمل إبراهيم عليه السلام وأتباعه من التبرّؤ من قومهم، ومن الهجرة بدينهم لمكان آمن ليعبدوا ربّهم من غير اِفتتان. ومن توجّههم إلى



الله عزّ وجلّ بأدعيتهم متوكّلين عليه ليغفر لهم، وليحميهم من تسلّط الكافرين عليهم، كان هذا العرض كلّه ليكونوا لهم قدوة حسنة للتأسّي بهم وليكونوا أمثالهم في التّبَرُّؤِ من أهليهم وذويهم المشركين إن كانوا صادقين في طلبهم بأعمالهم وجْه الله تعالى ورضوانه ونعيمه في الآخرة. ومن يعرض عن الاقتداء بهذه القدوة الحسنة ويستمرّ في تودُّدِهِ للكافرين من أهله وذويه والحنين إليهم فإنّ الله تعالى غنيّ عن طاعته وعن فعله وهو تعالى المحمود في السماوات وفي الأرض (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)(الإسراء الآية 44).

- **عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (7) :**

هذه في دعوة المهاجرين المسلمين لأن يستعينوا بالصبر والصلاة والدعاء لأهليهم وذويهم وأحبابهم رجاء أن يهديهم الله سبحانه للإيمان والإسلام فيعودون لما كانوا عليه من حسن الصحبة والمودّة بعد العداوة بسبب ما كانوا عليه من الشرك ومن العداوة للدين، والله قادر على هداهم للإيمان وإلاَنة قلوبهم للإسلام كلّ القدرة. والله واسع المغفرة لمن تاب بعد معصيته وأناب إلى ربّه وأقلع عمّا كان فيه، ثمّ اِستقام على طاعة ربّه، ورحيم به يوم الدين يؤمّنه على نفسه، فلا يعذّبه، بل يُنعم عليه بوافر نِعَمِهِ.

- **لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (8) :**

لا ينهاكم الله تعالى عن برّ الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يدفعوكم للخروج من دياركم خوفا من بطشهم وعن الإحسان إليهم، ولا ينهاكم عن أن تعاملوهم بالعدل حتى لا تظلموهم، فالمسلم لا يكون ظالما، وإنما هو من الذين يعدلون في معاملاتهم: يؤتون كلّ ذي حقّ حقّه، والله يحبّ أهل العدل (ٱلْمُقْسِطِينَ) الذين لا يظلمون النّاس في حقوقهم اِستعلاءً وجبروتا. لقد حدث أن عاهدت قبيلة "خزاعة" النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أن لا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحدا، ودخلوا في حِلْفِهِ، وقد أمر تعالى في هذه الآية بالبرّ بهؤلاء وأمثالهم. وهذا مما يشهد للإسلام بأنّه ليس دين قتال، وإنما شرّع للمسلمين القتال حين يُقاتلون للدفاع عن أنفسهم. وهذه الآية تشهد كذلك للإسلام بأنّه دين نشر السلام، وأنّه دين العدل، ودين القسط الذي يعني إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه بلا حيفٍ، وأنّه دين البرّ والوفاء لمن يُسالم، ويعاهد على التعامل بالإحسان. قال أهل العلم تعقيبا على هذه الآية "ويؤخذ من هذه الآية جواز معاملة أهل الذمّة بالإحسان وجواز الاحتفاء بهم"، وأضاف (ابن عاشور في تفسيره) على هذا "ويضاف إلى هذا جواز قيام علاقات وُدٍّ وصداقة ومعاملات تجارية مع الشعوب والأمم الأجنبية المختلفة عنّا في الدين، ولا تناصبنا العداء، وهذا لتبادل المنافع والمصالح والخيرات، وربما يكون لهذه العلاقة إذا قامت على العدل والإحسان فتح

جديد لجمعٍ من أفراد شعوبها على الإسلام إذا رأوْا في سلوك المسلمين عدلا وصدقا في الإيمان ممّا يرغّبهم في هذا الدين ويفتح بصائرهم على الحقّ".

وفي هذه الإضافة إفادة مهمّة للغايات النبيلة المستهدفة من قيام هذه العلاقات، وذلك حين تكون الدولة الإسلامية في عزّتها، وتكون هذه العلاقات قائمة على النِّدِية، لكنّ الذي حصل في القرنين الماضيين وفي العهد الحاضر هو أنّ هذه العلاقات التي قامت بين دول غربية غنية ودول عربية ضعيفة، غير ذات عزّة، قد كانت غاياتها بسط النفوذ على الشعوب الفقيرة فكان الاستعمار السياسي وسلب نفوذ حكّامهم، وكان الاستعمار الاستيطاني واِستغلال أرض الدولة الإسلامية لاستخراج خيراتها والتّصرّف فيها فجاع المسلمون وصاروا خدما عند المستعمرين، فوجب الحذر من علاقات مع أجانب ذوي أطماع توَسُعِيّةٍ، وعَقْدِ اِتفاقات معهم ليس فيها عدل وإنصاف وإنّما فيها غدر واِستغلال وتفاضل في المعاملة.

- إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (9) :

إنّما ينهاكم الله تعالى أن تتّخذوا أعداءكم في الدين أنصارا لكم وأصحابا توادّونهم وتتعاملون معهم في معاملاتكم الاقتصادية ناهيك عن علاقاتكم السياسية والأمنية. لا تنسوا أنّهم رفعوا أسلحتهم في وجوهكم، وكانوا يقاتلونكم ويودّون هلاككم، وقد أجْلَوْكم من دياركم وأرزاقكم، و(وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ) أي وساعدوا الذين قاتلوكم وحاربوكم على أخراجكم من وطنكم، ودلُّوهم على أمكانكم.

ينهاكم الله تعالى أن توادّوا هؤلاء القوم. ومن يتّخذ هؤلاء أنصارا لهم وأعوانا فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بنصرة أعداء الدين على إخوانهم المسلمين، وهو الظالمون لإخوانهم المؤمنين المسلمين بسوء تصرّفاتهم.

والذين قاتلوا المسلمين – ماضيا – وأخرجوهم من ديارهم ووطنهم مكة هم مشركو مكة، والذين ظاهروا على إخراجهم هم المنافقون والأحابيش من الأعراب. وحاضرا تنطبق هذه الأوصاف على الصهاينة الذين قاتلوا الفلسطينيين وأخرجوهم من ديارهم، والذين ظاهروا على إخراج هؤلاء من وطنهم وديارهم هم زعماء الدول الغربية المناصرون لليهود الصهاينة. ومن غريب الأمر أن يغفل جمع من رؤساء الدول الإسلامية عن هذه الآية، وعن هذا النهي الربّاني فنرَاهم يوقّعون مع الصهاينة أعداء الدين الإسلامي معاهدات اِقتصادية وسياسية وأمنية، ويقيمون معهم علاقة ودّ، ويتبادلون الزيارات والسفّارات، وليس من وراء هذه المعاهدات إلاّ قهر إخوانهم الفلسطينيين المسلمين، فكيف إذا علموا أنّ الله تعالى قد حكم عليهم بأنّهم (هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ) لأنّهم فعلوا ما نهاهم الله تعالى عنه.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ **(10)** :

هذه في اِمتحان المهاجرات في إيمانهنّ، وفي تحريم زواج المسلمة بالكافر، وتحريم زواج المسلم بالكافرة، وفي اِسترجاع المهور. ومعنى الآية: يا أيّها الذين آمنوا إذا جاءكم المهاجرات فاختبروهنّ في داعي هجرتهنّ حتى لا تكون هجرة إحداهنّ لبغضها لزوجها وللهروب منه، والله تعالى عليم بما في قلوبهنّ من صدق الإيمان. فإذا تأكّدتم من صدق إيمانهنّ ومن هجرتهنّ إلى الله عزّ وجلّ بدينهنّ فلا تردّوهنّ إلى أزواجهنّ الكفّار، فإنّ إسلامهنّ يجعلهنّ محرّمات على أزواجهنّ الكفّار، إذ لا يحلّ لمسلمة أن تتزوّج بكافر. (وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ) أي وأرجعوا لمن كانوا أزواجا لهنّ ما دفعوه إليهنّ من مال. ولم يُسَمِّ نفقة المشرك لزوجته التي كانت على الشرك "مهرا"، لأنّ "المهر" من شروط عقد المسلم على المسلمة.

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) أي لا حرج على المسلمين أن يخطبوهنّ للزوّاج بعد اِنقضاء عدّتهنّ بشرط أن يدفعوا لهنّ مهورهنّ لأنّه من أركان الزّواج، فإنّ المهر من اِستحقاق التي تُطلب للزوّاج. (وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ) هذا خطاب للمهاجرين الذين تركوا نساءهم بمكة، ولم يرضين أن يتبعن أزواجهنّ للهجرة، وأبَيْنَ أن يسلمن، وحافظن على دينهنّ في الشّرك، وتقديس الأصنام، وفي هذا الخطاب نهْيُهم عن التمسّك بزواجهنّ، وعليهم أن يسرّحوهنّ وأن لا يبقوا على عقود الزواج ، وأن لا يتركوهنّ بعِصمَتهم.

(وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ) ومثلما دُعِيتم لأنّ تعيدوا للمشركين المال الذي دفعوه لزوجاتهم المسلمات اللاّئي هَاجَرْن اِبتغاء مرضاة الله تعالى، فعلى المشركين أن يردّوا للمسلمين ما دفعوه لنسائهم اللواتي لم يرضين أن يتبعن أزواجهنّ ومثلهنّ اللاّئي عُدْنَ إلى مكة بعد هجرتهنّ وارتددن عن الإسلام. وتفيد الجملة بالتّعامل بالتساوي في ردّ الحقوق، فإذا رفض المشركون ردّ حقوق المسلمين المهاجرين في مالهم الذي دفعوه لنسائهم عبدة الأصنام الرافضات للإسلام، فإنّ المسلمين يمتنعون كذلك عن ردّ أموال المهاجرات إلى أزواجهنّ المشركين.

(ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ) هذا ما يحكم به الله تعالى للفصل بينكم لاسترداد حقوقكم، وللفصل بين الزيجات المختلفة في الدين، والله هو الأكثر علما بما يصلح لكم لاستقرار زواجكم، وللاستقرار في بيوتكم، وللفصل بينكم بما يرفع الحرج عنكم في تزاوجكم، وفي القضاء بينكم في اِستحقاقاتكم المالية، وهو تعالى الحكيم في قضائه، لتعدلوا في الفصل بينكم.

- وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ **(11) :**

وإذا رفض المشركون ردّ أموال المسلمين الذين تحلّلوا من عقود زواجهم بالمشركات أو المرتدّات عن الإسلام، ففات هؤلاء اِسترداد حقوقهم، فإذا قاتلتم المشركين ونلتم منهم في حرب غنائمَ أو فيئا فادفعوا لمن هربت عنهم أزواجهم بسبب شركهنّ أو اِرتدادهنّ أموالهم التي دفعوها لنسائهم اللائي تمّ الانفصال عنهنّ من مال الغنيمة أو الفيء. واِخشوا الله في أحكامه وذلك بالعمل بها والوقوف عند حدودها إن كنتم صادقين في إيمانكم.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ **(12) :**

هذه تتمة لامتحان النّساء في إيمانهنّ. وهي ما بايعن عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد أخذت عليهنّ البيعة في ستّة بنود أو شروط. أول شرط: أن يتطهّرن من الشرك، ويلتزمن بالإيمان بالله الواحد الأحد، لا يدعون معه إلاها آخر، ولا يعبدن سواه. والشرط الثاني: أن لا يسرقن، والثالث: ألاّ يزنين، والرابع: لا يئدن المؤوُودات، ولا يُسقطن الأجنّة بدون موجب قاهر. والخامس (وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ) أي لا يكذبن في نسبة الولد إلى والده الحقيقي، وكذلك لا يأتين بالأخبار المكذوبة والمختلفة ليفسدن علاقة أزواجهنّ بذوي أرحامهم، ومن الأخبار المكذوبة القذف والنّميمة. والسادس: لا يعصين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيما يأمر به من واجبات الإسلام، ومن مكارم الأخلاق، ولا يخالفنه فيها من مثل تجنّب مشاهد الإغراء، وصُوَر إثارة الغرائز. فإذ اِلتزمن بهذه الشروط، وعاهدن الله ورسوله على الالتزام بها (فَبَايِعْهُنَّ) فأتمم معهنّ المبايعة، إنّ الله غفور رحيم لمن حسن إسلامه، وعمل بما عاهد عليه الله تعالى ورسوله، وأقلع عن المعصية وتاب منها واِستغفر ربّه.

قيل : إنّ هذه المبايعة كانت على المناهي التي يكثر الوقوع فيها في النّساء وإن كنّ شريفات في النّسب، لذلك خصّت بالذكر، وهذا لا يعني أنّ الكثير من النّساء يقعن فيها كلّها، كلاّ فقد تقع الواحدة في واحدة منها فحسب، وإنّما جاء ذكرها لتربية النساء على فضائل الأخلاق صيانة لطهرهنّ وعفّتهنّ فإنهنّ أمّهات وزوجات وبنات، والجنّة تحت أقدام الأمهات، والزوجة صاحبة ورفيقة وأم البنين، والبنت قرّة عين.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ **(13) :**

الآية خاتمة للسورة، وفيها تذكير لما جاء في آيتها الأولى وموضوعها العام: النّهي عن موالاة القوم الكافرين، وهذا لمزيد التأكيد والتّحذير، يا أيّها الذين آمنوا لا توادّوا قوما لا يحبّهم الله تعالى لكفرهم به ولشركهم ولا تناصروهم فإنّهم من المغضوب عليهم، وإنّهم يائسون من الفوز بنعيم الآخرة بمثل ما هم يائسون من عودة موتاهم من قبورهم إلى الحياة لأنّهم ناكرون ليوم البعث ولا يصدّقون بوعد الله الحقّ.

آياتها	ســـــورة **الصـــفّ**	رقمها
14	ـــــ مدنية ـــــ	**61**

سمّيت هذه السورة بسورة (الصفّ) لما جاء فيها من دعوة المسلمين لأن يجاهدوا في سبيل الله صفًّا مرصوصا. وهي سورة مدنية. من أهمّ مواضيعها دعوة المؤمنين لأنّ يكونوا أنصار الله ورسوله، ولأن يتجنّبوا إيذاء الرّسول بمعصيته لما يدعوهم إليه. وفيها بيانٌ لأحبِ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ، وما يكرهه من المؤمنين.

- سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ **(1)** :

اِفتتاح فيه ثناء على الله عزّ وجلّ وإجلال بما يفيد أنّ ما يأتي من بعده من حكم أو إرشاد فيه حكمة، وفيه عزّة لله تعالى. ومعنى الآية: كلّ الكائنات في السماوات وكلّ المخلوقات في الأرض تنزّه الله تعالى عن الشرك وعن النّقص، وتبرّئه عن كلّ عيب، فمن لم يسبّح الله من خلقه فإنّ الله عزّ وجلّ غنيّ عنه ومستغنٍ عن تسبيحه. وهو تعالى (ٱلْعَزِيزُ) العظيم الجليل الغالب القاهر الذي لا يغلب، وهو تعالى (ٱلْحَكِيمُ) في توجيه عباده لما ينفعهم، ويحذّرهم ممّا يضرّ بهم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ **(2)** :

هذا الخطاب الموجّه للذين آمنوا بعدما جاء من الثناء على الله العزيز الحكيم لإلهاب مشاعر المؤمنين ليسمعوا ويطيعوا. والاستفهام في الآية للتوبيخ، وهذا يعني أنّ الله تعالى يكره لعباده أن يقولوا ما لا يفعلون. كأن يعِدُوا بشيء ثمّ يتحلّلون منه ولا يَفُون بوعودهم. قيل نزلت هذه الآية في قوم سألوا عن أحبّ الأعمال إلى الله تعالى، فلمّا نزل الأمر بالجهاد في سبيل الله شقّ عليهم هذا الفرض. وممّا اِستفاد منه علماؤنا من قبلنا من هذه الآية أن يحذر الواعظ من أن ينهى الناس عن أمر وهو يأتيه، أو يأمرهم بأمر هو لا يفعله، يجب أن يكون النّاصح المرشد، والواعظ، ناهيك عن وليّ أمر المسلمين من حكّامهم، صادقا في وعده وقوله وإرشاده، وأن لا يأمر بأمر هو لا يفعله كأن ينهى عن الرشوة والفساد والظلم والكذب وهو يرتشي ويظلم ويكذب.

- كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ **(3)** :

هذه للتأكيد على النّهي السابق، فإنّ من أعظم الأعمال شناعة وكراهة عند الله عزّ وجلّ أن يقول المؤمنون ما لا يفعلون، لأنّ من صفة المؤمنين الصدق والإخلاص في القول والعمل. والنّاس لا يحبّون من يقول ما لا يفعل، فإنّهم يرمونه بالسَّفَهِ.

- إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ (4) :

بعد التنبيه لما يحبّه الله تعالى من عباده المؤمنين، جاءت هذه في الترغيب لما يحبّه تعالى منهم مواجهتهم لأعدائهم في الدّين.. يحبّ الله تعالى أن يكون المؤمنون الذين يقاتلون في سبيله نصرةً لدينه الحقّ، مصطفين في مواجهة عدوّهم كأنّهم حيطان متماسكة لا تُخترق، ولا فُرجة فيها، محكمة البناء كأنّها قطعة واحدة. وهذا يعني أن يكونوا متلاحمين ومتآزرين يحمي بعضهم بعضا، ويواجهون العدوّ مواجهة الرجل الواحد بعزم قويّ وفي ثبات وشدّة بأس وتلاحم.

- وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (5) :

الآية في عتاب موسى عليه السلام لقومه لأنّهم يكذّبون بما جاءهم به من كلام الله عزّ وجلّ لهديهم وإرشادهم، ولأنّهم يشاقّونه بعصيانهم وهم يعلمون أنّ موسى عليه السلام رسول الله صادق ولا يكذب. والمقصود بهذا التذكير الالتفات للمنافقين بالمدينة الذين كانوا يشاقّون رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم بالتكذيب أحيانا، وبمعصيته حينا. ثمّ جاء تحذيرهم وإنذارهم من (الزّيغ) وهو الميل عن الحقّ إلى الباطل بتذكيرهم بما قضى الله تعالى في قوم موسى الذين زاغوا عنه، فلمّا زاغوا (أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ) أي حرمهم الله تعالى التوفيق إلى الهداية والإيمان، لأنّه سبحانه لا يهدي القوم الذين يفسقون عن الصواب، أي يخرجون منه إلى الباطل كما يخرج الفستق من قشره. وهذا يعني أنّ الله تعالى لا يحبّ من عباده المؤمنين الزّيغ عن الحقّ وإيذاء رسوله صلّى الله عليه وسلّم بالتّكذيب وبمشاقّته بمعصيته.

- وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ (6):

وهذه كسابقتها، هي في خبر عيسى عليه السلام مع قومه من بني إسرائيل، ولكنّ توجّهها لليهود المقيمين بالمدينة لتذكيرهم ببشارة عيسى عليه السلام بأحمد صلّى الله عليه وسلّم، ولقد كان عيسى عليه السلام مصدّقا لما معهم من التوراة، وكان رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم مصدّقا لما معهم من التّوراة، ومصدّقا بالإنجيل، ومصدّقا بموسى وعيسى عليهما السلام.

ومعنى الآية: وأذكروا إذ قال عيسى ابن مريم لقومه من بني إسرائيل: إنّي رسول الله إليكم مصدّقا لما تقدّمني من التّوراة، ومبشّرا برسول سيأتيكم من بعدي حين يأذن الله تعالى بظهوره واِسمه أحمد. ولمّا أظهر لقومه دلائل صدقه بالمعجزات المؤيّدة له قالوا عن معجزاته هذا من عمل السحر الظاهر، وكذّبوا به. وكذلك فعل يهود المدينة مع رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم لمّا جاءهم : كذّبوا به ولم يتّبعوه بل شاقّوه.

- وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ(7):

وليس من أحد أكثر ظلما لنفسه من الذي ادّعى لله الواحد الأحد شريكا أو ندّا أو صاحبة وولدا فأشرك بالله وكفر بوحدانيته، والحال أنّه يدعى للإسلام: دين التّوحيد، ودين التّصديق بالرسل وبالكتب وبالبعث، والله لا يوفّق للهداية للحقّ من كفر به، وكذب عليه، وأصرّ على ضلالته، وعلى ظلمه لنفسه بالتكذيب بما جاءه من الحقّ، فهذه الآية موجّهة لكلّ مشرك.

- يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (8) :

يريد هؤلاء الظالمون أن يعيقوا نشر الإسلام، ويرغبون في طمس الحقّ الذي جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يظهر (بِأَفۡوَٰهِهِمۡ) بالتكذيب، وبطعونهم، وباتّهاماتهم للرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالسحر أو الجنون أو الافتراء على الله سبحانه. ولكن فليعلموا أنّ الله تعالى (مُتِمُّ نُورِهِۦ) ناشر دينه ومظهره على الدين كلّه، وهادي النّاس إليه حتى يدخلوا فيه أفواجا راغبين رغم كيد الكافرين، ورغم كرههم لهذا الدين، فلن يبلغوا مرادهم. وضمير الجمع في هذه الآية جامع لكلّ من صدّ النّاس عن الإسلام– سواء أكان مشركا أم كان من أهل الكتاب المعادين لدين الله ولرسوله.

- هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ (9):

(هُوَ) الله سبحانه الذي أرسل رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم (بِٱلۡهُدَىٰ) : بالقرآن الكريم الذي هو هدى للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان، وأرسله بـ(دِينِ ٱلۡحَقِّ) الذي هو الإسلام (لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ) ليُعْليَهُ على كلّ دين سواه، لأنّ ما سبقه من الأديان قد حرّف بعضه، وليُعْلِيَه على كلّ دين باطل من ديانات الشرك وعبادة الأصنام أو الكواكب رغم ما يكيد له المشركون، رغم كرههم له لأنّه كاشف لهم بحججه وبيّناته ضلالتهم وباطلهم، وقد تمّ وعد الله تعالى لهذا الدين ففي زمن قصير دخل فيه النّاس أفواجا، وتقوّضت دولة الشرك، وظهر دين الله تعالى واِنتشر في أصقاع العالم وفي كلّ بلد، وكثر أتباعه.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (10) :

هذه الآية إلى آخر السورة في الإرشاد لأحبّ الأعمال عند الله في المؤمنين. والنداء بـ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) في مقدّمة هذه الفقرة للتّرغيب في الإنصات وإلقاء السمع. والاستفهام في (هَلۡ أَدُلُّكُمۡ) الذي هو بمعنى: هل أرشدكم لما لكم فيه الرّبح والغنيمة؟ يفيد الإغراء والحضّ على الإقبال لما يجلب لهم الخير والمنفعة. وأمّا (تِجَٰرَةٖ) فلفظ يفيد الحصول على الربح مقابل عمل محدّد، أو

عرض لجهد. ومقابل العمل المطلوب أو الجهد المبذول في الاتّجار، النّجاة من العذاب الأليم. ومن نجا من العذاب الأليم فقد أمن على نفسه من المكروه وفاز بالنّعيم.

- تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (11) :

هذه في العرض المطلوب من الإنسان ليتاجر به التّجارة الرابحة المنقذة من العذاب الأليم. المطلوب أن يؤمن الإنسان بالله وحده لا يشرك به أحدا، ولا يعبد أو يدعو سواه، ويطيعه فيما أمر ولا يعصيه فيما نهى عنه أو حرّمه عليه، ومطلوب منه أن يصدّق برسوله، وبما أنزل عليه من الوحي، وأن يطيعه فيما يأمره به، وأن يقتدي بسنّته، وعليه أن يجاهد في سبيل الله نصرةً لدينه الحقّ إذا دعي إلى ذلك جهادا بالنفس وبالمال للإنفاق على جُند الله تعالى ولوازمه، ولما تدعو إليه المصلحة العامّة للدفاع عن الحوزة وعن المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات. هذا هو المطلوب، وهو أمر ليس بالشاقّ على من يريد أن ينجو بنفسه من العذاب الأليم، وهذا خير للعباد من الهلاك ومن الجهالة والضلالة ومن إتيان المعاصي للذين يرشدون ويعقلون، ويطلبون الأمن على أنفسهم ويطلبون سعادتهم.

- يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (12) :

وهذه في الأجر المقابل للعرض السابق. يَعِدُ الله عزّ وجلّ – ووعده حقّ – لكلّ من قدّم عملا من ذاك العرض السابق بأن يغفر له ذنوبه، فيسترها عليه حتّى لا يؤاخذه عليها لتكون صحائفه يوم الحساب نقية من الذنوب، ويدخله بساتين مرفهة وجميلة تجري من تحتها الأنهار، ويسكنه مساكن رائعة فخمة في جنّات يُخلّدُ فيها، لا يموت فيها، ولا تنقطع عليه خيراتها. وهذا هو الربح العظيم الكبير من الغني الجوّاد الكريم ذي الفضل العظيم.

- وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (13) :

ويزيد الله تعالى أولئك المؤمنين الذين اِستجابوا لربّهم من فضله، وذلك بأن يحقّق لهم ما يرغبون فيه وما يرجونه من ربّهم من نصر على أعدائهم وإظهار دينهم، ويبشّرهم بتعجيل فتح مكة على دين الله الحقّ، وتقويض دولة الشّرك فيها. (وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) الخطابُ في هذه الجملة للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ليبلّغ المؤمنين بأنّ الله سبحانه يَعِدُهُم برضوانه، وبإجابة رغباتهم في حفظهم وإظهار دينهم ليعبدوا الله ربّهم في أمن وأمان وعزّة.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ (14) :**

هذه في تقديم الأنموذج الذي يحبّه الله تعالى في علاقة المسلمين برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يحبّهم أن يكونوا أنصار الله بمثل ما كان عليه الحواريون مع عيسى ابن مريم عليه السلام. (ٱلۡحَوَارِيُّون) صفة أطلقت على صفوة أتباع عيسى عليه السلام، سمّوا بهذه الصفة لأنّهم كانوا يلبسون البياض من الثياب، ولقد كان من خير لباس عند النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم الأبيض. ومعنى الآية: يا أيّها الذين آمنوا كونوا في علاقتكم مع رسولكم أنصارا لدين الله وله صلّى الله عليه وسلّم كما قال عيسى ابن مريم عليه السلام للصفوة من أتباعه من منكم معي مدافعا عن الحقّ، ناشرا للدين الحقّ، وقائما عليه غير خائف؟ فقال الحواريون جميعهم، نحن أنصار الله المدافعون عن دين الله الحقّ، المجاهدون في سبيل الله بما أوتينا من علم وقوة. وقد آمن جمع من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام وبما جاءهم به من عند ربّه، وكفر آخرون وكذّبوه وشاقّوه، فقوّى الله تعالى المؤمنين ونصرهم على أعدائهم فكانوا هم الغالبون والمنتصرون، وظهر دين الله تعالى ولم يُطمس...

آياتها	ســــورة الجمعـــــة	رقمها
11	ـــــ مدنية ـــــ	62

سمّيت هذه السورة باسم سورة "الجمعة" لما جاء فيها من الحكم بفرض صلاة الجمعة، وهي سورة مدنية. ومن أهمّ أغراضها: الثّناء على بعثة محمد صلّى الله عليه وسلّم نبيّا ورسولا لأمّة أمّية لتعليمهم الكتاب، والحكمة ولتزكيتهم، وفيها تأنيب لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة، وتواكلوا على زعم باطل بأنّهم أولياء لله تعالى، ثمّ جاءت بفرض صلاة الجمعة وحذّرت من التخلّف عنها.

- يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ **(1)** :

أُفتتحت السورة بتنزيه الله سبحانه عن الشريك وعن كلّ نقص أو عيب كشأنه سور "المسبّحات". وجاء الفعل (يُسَبِّحُ) في صيغة المضارع ليدلّ على التجدّد والمداومة في كلّ وقت وحين. ومعنى الآية أنّ كلّ الموجودات والكائنات وكلّ المخلوقات العاقلة وغير العاقلة في السماوات وفي الأرض كذلك – الأحياء منها والجمادات – تداوم على تسبيح الله تعالى لتنزيهه عن الشرك وعن الندّ وعن الصاحبة والولد، وعن كلّ نقص وكلّ عيب، وإنّ تواجدها في حدّ ذاتها هو دليل على خلق الله تعالى، وهي تدلّ على وجوده تعالى وعلى اِنفراده بالخلق والإيجاد وتدبير أمرها لقيامها أو لتسييرها أو لتسخيرها لعمل محدّد.

وهو تعالى (ٱلْمَلِكِ) السلطان العظيم المدبّر القاضي المسيّر الحاكم بأمره، وكلّ ما هو موجود خاضع لسيطرته وإرادته، موجود بقضائه ومُنْتَهٍ وفانٍ بتقديره. وهو عزّ وجلّ (ٱلْقُدُّوسِ) الطاهر ذو العزّة والجلال هو الأحقّ بالعبادة والتقديس وطاعة أمره والخوف من إتيان ما نهى عنه. وهو سبحانه (ٱلْعَزِيزِ) القاهر الغالب الذي لا يُغلب، ولا يبلغ أحد عصيان أمره لأنّ أمره نافذ لا يردّ ولا يُناقش. وهو تعالى (ٱلْحَكِيمِ) في تدبير وجود كلّ شيء وتدبير أمر خلقه لِمَا خُلقوا له لتسيير أمورهم في نظام دقيق جدا، ولأجل محدود كما شاء لهم أن يكونوا عليه، وكلّ شيء عنده بمقدار لوقت معلوم.

- هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ **(2)** :

هذه الآية مع الآيتين المواليتين في عظيم فضل الله على النّاس بإرساله رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم إليهم.



(هُوَ) إنّه الله جلّ جلاله ذو الفضل العظيم الذي بعث في (ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ) وهم العرب الذين عاصروا بعثة النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، كانوا قوما يجهلون القراءة والكتابة والأديان السماوية والشرائع الربانيّة، بعثه إليهم رسولا من لدنه، وهو واحد منهم من عشيرتهم، كان خيارهم من خيارهم يصل نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. بعثه إليهم يقرأ عليهم كلام الله ربّهم، (وَيُزَكِّيهِمۡ) أي ويطهّرهم من دنس الكفر والشرك والخبائث في المعتقد والعبادة والدعاء، (وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ) ويعرّفهم بشرائع الله عزّ وجلّ: الحلال والحرام، المباح والمنهي عنه من العمل والطعام والشراب، (وَٱلۡحِكۡمَةَ) ويعظهم الموعظة الحسنة ليعملوا صالحا وليستقيموا على حسن الخلق وحسن القول، وحسن المعاملات مع الغير، وكذلك السنّة الطاهرة، لأنّ القوم (كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ) كانوا من قبل مجيئه في بُعْدٍ بعيدٍ عن الحقّ والصواب في المعتقد وفي العمل وفي الطاعات.

- وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (3) :

كَمَا بعثَهُ الله لِهَدْيِ أقوام آخرين لم يلحقوا بصحبته، وبأصحابه، وسيلحقون بهم بعد زمن وسيسلمون ويتّبعون سنّة هذا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويتلون القرآن، ويزكّون أنفسهم من الشرك ومن المعاصي والضلالات. والله تعالى هو (ٱلۡعَزِيزُ) ذو الجاه والمكانة والجلال، القويّ الغالب الذي لا يُغلب ولا يُقهر، وهو (ٱلۡحَكِيمُ) في تدبيره وتصريف الأمر في خلقه بنظام دقيق لهديهم إلى صراطه المُستقيم، ومن يهد الله فهو المهتد.

- ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (4) :

إنّ الرّسالة التي جاء بها محمد صلّى الله عليه وسلّم للنّاس كافّة، وما أنزل عليه من القرآن لرفع الضلالة عنهم ولفتح بصائرهم على الحقّ، وما ترك من آثار سنّته الرّشيدة للاقتداء بها لينالوا خيرا هي من فضل الله تعالى على نبيّه ورسوله صلّى الله عليه وسلّم. والله تعالى يؤتي فضله لمن شاء أن يصطفيه لهذا الشرف والله كثير الفضل والإحسان على صفوة خلقه.

- مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (5) :

هذه الآية مع الآيات الثلاث الموالية في تأنيب اليهود الذين كلّفوا بالعمل بالتوراة ولكنّهم لم يعملوا بما جاءهم فيها، وفي كشف باطل زعمهم في اِدعائهم بأنّهم أولياء لله تعالى، وفي سوء عاقبة الغافلين، وفي هذه تشبيه الذين كلّفوا بالعمل بالتّوراة ولكنّهم لم يعملوا بها، بل أهملوا العمل بها وتركوها وراء ظهورهم، هؤلاء مثّلهم الله تعالى بالحمير التي تحمل على ظهورها كتبا علمية، وهي لا تنتفع بها، ولا تدرك ما فيها من علم ومعارف وفوائد، ولا تعرف قدرها. وما أسوأ هذا

التمثيل والتشبيه لكلّ قوم جاءهم كتاب من عند ربّهم عزّ وجلّ، فلم ينتفعوا بكلام الله تعالى وهديه وإرشاده وحججه، والله تعالى لا يهدي القوم الذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الانتفاع بهديه وإرشاده وأصمّوا آذانهم، وغلّقوا على قلوبهم.

- قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (6) :

هذه في إبطال زعم (ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ)، وهم اليهود يزعمون أنّهم (أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ)، أحبّاء الله وأنصاره بدعوى أنّ الله تعالى قد اصطفاهم فجعل منهم أنبياء ورسلا: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وعيسى وزكرياء ويحيى وكذلك داود وسليمان وغيرهم كثيرون ممن قصّ علينا قصصهم ومنهم من لم يذكروا إلاّ بصفاتهم من مثل صاحب الحمار. فظنّوا بهذا أنّهم أولياء لله من دون النّاس. وهذا زعم باطل، وظنّ كاذب، فإن كانوا صادقين في زعمهم فليتمنّوا الموت لينتقلوا سريعا إلى دار كرامته التي أعدّها لأوليائه، وهذا كقوله عزّ وجلّ (قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)(البقرة الآية 94).

- وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (7) :

هذه كقوله عزّ وجلّ (وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ)(البقرة الآيتين 95-96). أي إنّهم لن يتمنّوا الموت أبدا بسبب ما عملوا من المعاصي، ومن أعظم معاصيهم تكذيبهم بنبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم وبرسالته، وقد نبّأهم موسى من قبل بمجيئه، وقد بشّر به عيسى ابن مريم، وكذّبوا بالقرآن وقد أُخذ عليهم العهد بأن يُصدّقوا برسل الله وبالكتب السماوية، وكانوا قد كفروا بعيسى عليه السلام وشاقّوه، والله عليم بظلمهم وبكذبهم وبمشاقّتهم لرسله، وسيحاسبهم على ظلمهم لأنفسهم بالكفر برسل الله وخاصّة بمحمد صلّى الله عليه وسلّم نبيئا ورسولا.

- قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (8) :

هذه في تحذير كلّ من غفل عن طاعة ربّه، وتمسّك بوهم باطل من سوء العاقبة. لا هروب لأحد من الموت، كلّ نفس ذائقة الموت، وكلّ من على الأرض فانٍ. ثمّ سيُبعث الجميع بعد مماتهم ويردّون إلى الله عزّ وجلّ الذي لا يغيب عليه من أمر خلقه شيء، وكلّ عنده مسجّل في كتبهم. قال تعالى (يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ)(المجادلة الآية 6). ويومئذ يخبرهم تعالى بما كانوا يعملون من المعاصي ومن السيّئات، لذا

وجب الحذر من يوم ملاقاة الله عزّ وجلّ للحساب وذلك بالإعداد له بعمل الطاعات والصالحات، وهذا للنّجاة من سوء العاقبة.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (9) :

هذه مع الآيتين الواليتين في تشريع صلاة الجمعة. ومعنى الآية: يا أيّها الذين آمنوا إذا سمعتم النّداء لحضور صلاة الجمعة، ولم تكونوا قد سبقتموه بالدخول للمسجد الجامع، فأسرعوا لحضور ذكر الله ولا تباطؤوا. وصلاة الجمعة صلاة أسبوعيّة، لابدّ فيها من الجماعة، ما يزيد عددهم عن 11 نفرا، وسماع الموعظة التي قبلها التي يلقيها الإمام على النّاس، لابدّ من اِفتتاحها بالحمدلة، ثم تليها الشهادتان، ثمّ الدعوة إلى تقوى الله، ثمّ الموعظة، وهي على خطبتين. وتُؤدَّى هذه الصلاة في وقت الظهر فتعوّض صلاة الظهر، وتصلّى ركعتين بجهر القراءة فيهما. وهي فرض عين على المسلم العاقل البالغ، ونصّ فرضها هي هذه الآية، وجاء في ما ثبت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "الرّواحُ إلى الجمعة واجب على كلّ مسلم". وقوله تعالى (فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ) يعني حضور الصلاة، وسماع ما يُتلى فيها من قراءة جهرية، وسماع الخطبة والموعظة، فقد عدّ بعض الفقهاء الخطبة من الصلاة ولذلك قُصّرت الصلاة. وقد خرّج الدارقطني عن أبي الزبير عن جابر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "من يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلاّ من كان مريضا أو مسافرا أو اِمرأة أو صبيّا أو مملوكا، فمن اِستغنى بلهو أو تجارة اِستغنى الله عنه والله غنيّ حميد". وجاء في (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج18 ص103) : "وقال علماؤنا رحمهم الله: ولا يتخلّف أحد عن الجمعة ممن عليه إتيانها إلاّ بعذر لا يمكنه الإتيان إليها، مثل المرض الحابس، أو خوف الزيادة في المرض، أو خوف جور السلطان عليه في مال أو بَدَنٍ دون القضاء عليه بحقّ، والمطرُ الوابل مع الوَحل عذرٌ إن لم ينقطع، ولم يره مالك – على ما حكاه المهدَوِي – عذرًا له، ولو تخلّف عنها متخلّفٌ على وليّ حميم له قد حضرته الوفاة، ولم يكن عنده من يقوم بأمره رجاء أن يكون في سعةٍ، وقد فعل ذلك ابن عمر. وفي سنن ابن ماجه عن أبي الجَعْدِ الضميري قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "من ترك الجمعة ثلاث مرّات تهاوُنا بها طبع الله على قلبه".

وحين تفشّى اِنتشار (فيروس كوفيد19 ومحوّلاته) في العالم أجمع، أفتى المفتون في البلدان الإسلامية جميعها بغلق جميع المساجد والجوامع في بلدانهم لمدّة محدّدة للحدّ من اِنتشار هذا الفيروس القاتل والفتّاك بالعدْوَى في صفوف المسلمين وفي أوساطهم العائليّة والمهنية والاجتماعية، فعطّلوا بذلك صلاة الجمعة وإقام الصلوات الخمس الجامعة حتى المسجد الحرام

بمكة قد مُنع عن المصلّين دخوله، وذلك خوفا على المرتادين من المرض ونقل العدوى لأهليهم وخوفا من اِنتشار واسع للعدوى وللهلاك، عملا بالمقصد الشرعي: حفظ النفس مقدّم على الحفظ على الدين، وعملا بقوله تعالى (وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ)(البقرة الآية 195)، وقوله تعالى (وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ)(النّساء الآية102) وقوله عزّ وجلّ (رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا)(الإسراء الآية 25)، وكان هذا الغلق للحدّ من اِنتشار العدوى ومحافظة على أرواح المصلّين وسلامة أبدانهم وسلامة أهليهم وذويهم.

وقد أوصى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في صلاة الجمعة بتقصير الجمعة بتقصير الخطبة وإطالة الصلاة على ما ورد في صحيح مسلم، قال صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنَّةٌ من فِقهه، فأطيلوا الصلاة، وقصّروا الخطبة، وإنّ من البيان لسحرا". والمقصود بإطالة الصلاة أن لا يتعجّل في أدائها، فيصلّيها بقصار السور ويتعجّل في الركوع والسجود، ويطيل في الخطبة حتى يشقّ على النّاس ويملّوا من كلامه، ومن طال كلامه كثُر سَقَطُه، وفي المثلِ: ما قَلَّ ودلَّ. (وقد جاء في كتابنا تنوير المستنير ج7 ص 191-193، فصل في تخيّر الإمام وفي خطبته يحسن الرجوع إليه لمن شاء التوسّع في هذين العنصرين).

(وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ) وأُتركوا عقود البيع حتى تنقضي الصلاة. ويقول الفقهاء بتحريم البيع في وقت الصلاة والإمام يخطب، والبيع يشمل الشّراء، الشّراء محرّم كذلك، ويُرجى حتى تنقضي الصلاة، وهذا لما في البيع والشراء من ذهول عن أداء الواجب، والتفريط فيه. وتوقيت صلاة الجمعة في بلادنا غير محدّد بوقت واحد ثابت، هو موزّع من أول دخول زمن الظهر إلى زمن قريب من العصر، ولذا فإنّ التّحريم على من يشغله البيع والشراء عن أداء صلاة الجمعة ممّا يجعله يفرّط فيها في هذا التوقيت الموسّع. فالمحافظة على صلاة الجمعة وعلى سماع الموعظة وعلى الانتفاع بالذكر في هذه الصلاة خير لكم من التّفريط في أداء هذا الواجب لانشغالكم بمشاغلكم الدنيوية أو بالتهاون في حضورها (إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ) ما في أدائها في وقتها على شروطها من الطهارة ومن الحرص على الانتفاع بالذكر من حسن الأجر والثواب.

- **فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ(10) :**

فإذا أتممتم أداء واجب الصلاة، فامضوا لقضاء شؤونكم، واطلبوا من رزق الله تعالى بالعمل، وأدركوا طلباتكم، وداوموا على ذكر الله تعالى بصلاتكم وبتسبيحكم وبإحسانكم وبأدعيتكم ولا تفرّطوا في ذلك لتكونوا من الفائزين برضوان الله عزّ وجلّ، وبتوفيقه في أعمالكم الدنيوية، وبكرمه بالإنعام عليكم بجنّة رضوانه يوم ترجعون إليه.

- وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ **(11)** :

هذه في النّهي عن مغادرة الجامع عند صلاة الجمعة والإمام يخطب من أجل شراء وبيع أو للانصراف لما يلهى عن إتمام واجب أداء الصلاة، وفي هذا النّهي تأكيد لما جاء في الآيتين السابقتين من تحريم البيع والشراء بدءًا من النداء لصلاة الجمعة إلى انقضائها، وليكون الانتشار بعد اِنقضائها. وقد جاء في أسباب النزول على ما جاء في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله "أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عيرٌ من الشام فانتقل النّاس إليها حتى لم يبق إلاّ إثنا عشر رجلا". ومعنى الآية : لا يجب أن يغادر المصلّون الجامع أثناء أداء صلاة الجمعة إذا رأوْا تجارة ليغنموا منها ما يرغبون من معروضاتها، أو إذا سمعوا طبلا ومزمارا مارّا قرب المسجد فخرجوا إليها للاستطلاع والفرجة، هذا غير جائز لينفضّوا إلى هذا أو تلك ويتركوا الإمام يخطب قائما على منبره. إنّ ما عند الله تعالى من الأجر والثواب والنّعيم والرّزق خير ممّا عرض عليهم من عروض التجارة، والله هو الرّزاق، بل هو خير الرّازقين لأنّه يرزق عبده بدون مقابل وبدون عوض، ويَهَبُهم من النّعيم ما يلهون به خير من اللّهو الذي تفرّقوا من أجله عن صلاتهم ليمرحوا به.

رقمها	ســــــورة **المنافقون**	آياتها
63	ـــــــ مدنية ـــــــ	**11**

سمّيت هذه السورة بسورة "المنافقين" لأنّها اِختصّت بفضح دخائل نفوس هذه الطائفة من النّاس في عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفيما طُبعُوا عليه من الكذب والمخاتلة للمخادعة، وهذه صفة عامّة فيهم وليست خاصة بعهد أو مع الرسول فحسب. وهي سورة مدنية. وخُتمت السورة بحضّ المؤمنين على ذكر الله تعالى، وعلى الإعداد للآخرة.

- إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ (1) :

هذه الآية إلى الآية 8 في المنافقين. ومعنى الآية: إذا جاءك – يا نبيّ الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم– المنافقون فقالوا لك بأنّهم يقرّون ويصدّقون بأنّك رسول الله، فلا تصدّقهم. يشهد الله تعالى بأنّك رسوله صادق وأمين، ويشهد بأنّ المنافقين فيما شهدوا لك بالرّسالة كانوا كاذبين فيما شهدوا لك به. إنّهم لا يصدّقون بأنّك رسول الله ونبيّه. ولكنّهم منافقون يقولون بأفواههم ما ليس بقلوبهم مكرا وخديعة.

- ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (2) :

وإنّ من أعمالهم الحلف كذبا ليتستّروا به، وليتّقوا به من المؤاخذة، وما كان القَسَمُ عِندهم وشهادتهم إلاّ للمخادعة، وهذا كقوله تعالى (وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ)(التوبة الآية56). (فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) وقد أعرضوا عن طاعة الله في الخروج للجهاد أو الإنفاق في سبيله، ومنعوا أتباعهم عن الجهاد، وزيّنوا لهم أن يتخلّفوا عنه اِقتداءً بهم. بئست أعمالهم الخبيثة، يحلفون بأيمان كاذبة، وينافقون، ويصدّون عن سبيل الله، ولو كانوا في إيمانهم صادقين لعلموا أنّ الله تعالى عليم بما في نفوسهم، وعليم بما يعملون، وقد كشف الله تعالى ما كانوا يُسرّون ويبطنون ولم يتوبوا ولم يستغفروا.

- ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ (3) :

ساء ما كانوا يعملون لأنّهم أقرّوا بألسنتهم بأنّهم مؤمنون بالله ومصدّقون برسوله وبكتابه وعاهدوا على طاعة الله تعالى ورسوله، ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم فعملوا عمل الكافرين



في الصدّ عن سبيل الله، وإنّ بعضهم لمّا خرج مع الجند المسلمين في أحد ثمّ في الأحزاب هرب من المواجهة وارتدّ عن الإسلام، فختم الله تعالى على قلوبهم، فلم تعُدْ تدرك ما ينفعها لدينها ودنياها، وإنّهم لا يدركون سوء عاقبة فعلهم الشنيع من غفلتهم وضعف الإدراك والعقل والفهم.

- وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (4) :

وإذا رأيت هؤلاء المنافقين تعجبك أجسامهم لحسن صُورِهم وسَمْتهم، وحسن هيآتهم واستواء خلقتهم. ولقد كان عبد الله بن أبي – رأس المنافقين بالمدينة على ما قاله عبد الله بن عبّاس: وسيمًا جسيما، صحيحا، صَبيحا، ذلق اللسان. وكان شريفا في قومه، زعيما فيهم قبل هجرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة أفل نجمُ الرجل، وكذلك كان مُعتب بن قُشير، وجدُ بن قيس، كانت لهما أجسام وهيأة وفصاحة. فكان إذا تكلّم أحدهم – وخاصة عبد الله بن أبيّ – سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مقالته، وأنصت لكلامه، وأَعَارَه اِهتماما. ولكنّهم كانوا كأنّهم قطع من الخشب مُسندة إلى الحائط لا نفع فيها، ولا منها، لا يسمعون ولا يعقلون، كأنّهم أشباح بلا روح ولا عزم، ولا يعملون، اِستندوا إلى الإيمان ليحقنوا دمائهم، وليجدوا في مجالس القوم وخاصة في مجالس النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مكانا لائقا بهيآتهم وغرورهم. وإنّهم في قرارة أنفسهم جبناء ويرتعبون خوفا كلّما سمعوا صيحة عليهم، ونداءً عليهم بصوت مرتفع، يظنّون أنّهم مرادون ومُلاحقون لأنّهم يعلمون حقّ العلم بأنّهم غير مؤمنين، ويخافون كشف نفاقهم. (هُمُ ٱلْعَدُوُّ) إنّهم حقّا أعداءٌ للمسلمين، فلا يجب الاِطمئنان إليهم، بل يجب الحذر منهم ومراقبتهم. (قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ) هذا دعاء عليهم بالهلاك والموت (أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) كيف ينصرفون عن الرّشد؟ وكيف يكذبون على أنفسهم وعلى النّاس؟ وكيف يعدلون عن الحقّ وإلى إتّباع أهوائهم الضالة؟ والاستفهام للتّوبيخ.

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (5) :

ومن عجيب أمرهم أنهم إذا دُعوا لأن يصدقوا في إيمانهم، ولتطهير أنفسهم من الكفر والنّفاق، وللتّوبة، ولأن يطلبوا من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أن يدعو لهم الله جلّ وعلا بالمغفرة حرّكوا رؤوسهم وأمالوها اِستخفافا، وتراهم يعرضون عمّا دُعوا إليه في كبرياء. قيل أنّ عبد الله بن أبيّ لمّا لوى رأسه قال: أمرتموني أن أومن، فقد آمنت، وأن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت، فما بقي لي إلاّ أن أسجد لمحمّد.

- سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ (6) :

هذه الآية من أشدّ الآيات نذيرا، لما فيها من تأييس المنافق الفاسق عن دين الله تعالى من مغفرة ربّه. وليس من عبد أعظم شقاوة من القضاء فيه بأن لا يُغفر له، فما أسوأ عاقبته. وليس من أحد أسوأ منه عاقبة إلاّ من بَلَغَه العلمُ بهذا النّذير الشديد. ومعنى الآية: لقد قضى الله تعالى في المنافقين الذين مرقوا من الدّين بخروجهم عن طاعة الله عزّ وجلّ بحرمانهم من مغفرته، فإن اِستغفر لهم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أولم يستغفر لهم، فالأمر عند الله تعالى سواء، لن ينالوا مغفرته والله تعالى لا يوفّق للإيمان من يخرج عن طاعته.

- **هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ (7) :**

هذه في بيان مظهر من مظاهر صدّ المنافقين عن سبيل الله، يقولون لأتباعهم : لا تحسنوا لفقراء المهاجرين، أُتركوهم على ما هم عليه من جوعهم وفقرهم حتى يتفرّقوا من حول نبيّهم، وليرجعوا لدينهم ولبلادهم ولما كانوا عليه. والله جلّ جلاله هو المالك الحقيقيّ لجميع الخيرات في السماوات والأرض، وهو المتصرّف فيها يسوقها بتقديره لمن يشاء، ولكنّ المنافقين لضعف إيمانهم ولجهلهم بصفات الله تعالى وبتقديره لا يدركون هذه الحقيقة. ولقد أغنى الله تعالى هؤلاء الفقراء المهاجرين بفيء بني النّضير، ثمّ بفيء قريظة، ثمّ بعد ذلك بغنائم أهل الشرك، والله تعالى هو الغنيّ...

- **يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ (8) :**

وهذه للدلالة على عمق كرههم للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكرههم لهجرته إليهم، وكفرهم بدينه. ولقد كان عبد الله بن أبيّ قد قال في نفرٍ من أتباعه إثر عودته من غزوة المصطلق إلى المدينة: ليُخرجنّ الأعزّ منا الأذلّ، وكان يقصد بالأعزّ نفسه وبعضا من أصحابه، ويقصد بالذي ينوي إخراجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فلمّا وُجِّه به أنكر المنافق القول وسفّه ابن أخيه، وكان يقصد بالعزّة: وفرة المال، ومكانته في القوم وجاهَهُ ووَجَاهَتَهُ، وروت الأخبار أنّ رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ قد مات بعد مدّة قصيرة من هذه العودة، فخرج الأذلّ بنفاقه وكذبه من الدنيا، ولمّا مات اِستغفر له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وألبسه قميصه وكفّنه به.. ما أعظم سماحة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم!!! وعموما فإنّه لا يخلو زمن من وجود منافقين يعصون الله ورسوله، وإذا كانوا في جماعة المسلمين أظهروا الورع، وإنّ بعضهم ليصلّي مع النّاس في المواكب الرسميّة الدينية بدون وضوء، وعند التشهد يتشهّد بالسبابتين ويتابع حركة المصلّين في ركوعهم وفي سجودهم تقليدا لما يفعلون. ويظنّ هؤلاء أنّ العزّة بالمال والجاه، ويغفلون عن سوء

مآل من نافق في الدّين، واحتقر المؤمنين، وتآمر عليهم، ومعنى الآية: وقال المنافقون في طريق عودتهم للمدينة سنعْمدُ لإخراج الرّسول والمهاجرين معه من مدينتنا، فهو الأضعف وهم الغرباء عنّا، ونحن الأقوى والأشدّ وأصحاب الجاه والمال في أرضنا، ولم يعلموا أنّ المجد والقوّة والمنعة لله ولرسوله، وللمؤمنين الغلبة والنّصرة عليهم، وذلك لجهلهم بقدرة الله عزّ وجلّ.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (9) :

بهذه الآية مع الآيتين الواليتين تختم هذه السورة. وهذه آية في موعظة المؤمنين للمداومة على ذكر الله عزّ وجلّ مع واجب الاهتمام بالأولاد ومصدر الرّزق إلاّ أنّه لا يجب أن يتجاوز هذا الاهتمام حدّه ليكون سببا للغفلة عن ذكر الله جلّ جلاله ممّا يتسبّب للمرء في خسارة كبيرة في آخرته. على المؤمن أن يهتمّ بما عليه من واجبات دنيوية نحو نفسه وإزاء عياله ليعولهم دون أن يغفل عن العمل لآخرته ليسعد في دنياه وآخرته، الإسلام دينٌ للدنيا وللآخرة.

- وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (10) :

وهذه في الحضّ على الإنفاق في وجوه الإحسان قبل أن يفاجئه الموت فيندم على التّفريط في التّصدّق لِيَنْتَسِبَ لأهل الصلاح. فالآية تدعو المؤمنين للبذل في وجوه البرّ والإحسان من قبل موته حتى لا يأتي في آخرته متحسّرا على ما فرّط في الإنفاق في صالح الأعمال وفي وجوه المؤازرة والإغاثة فيقول ربّ هلاّ أمهلتني زمنا آخر حتى أتصدّق بمالي ولأعمل عملا صالحا ترضاه حتى تجعلني من عبادك الصالحين الفائزين برضوانك وعظيم فضلك ونعيمك.

- وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (11) :

وفي هذه الآية تذكير للمؤمنين بحقيقة قد قضى الله تعالى فيها بأمره، وهذه الحقيقة النّافذة تؤكّد أن الإنسان إذا حضر أجله وتوفّي فإنّه لن يعود لدنياه أبدا، وإذا مات فإنّه لا يصاحبه إلا عمله، والله تعالى مطّلع على عمله إن كان خيرا أو شرّا، أو إن كان صالحا أو غافلا ومقصّرا في الطاعات، فعلى الإنسان أن يغنم حياته ليعمل فيها بالطاعات ولأن يعمل صالحا حتى لا يتحسّر على ما فاته، وليأتي يوم القيامة آمنا مستبشرا بما في كتابه من حسن العمل، ومستبشرا بوعد الله تعالى للصّالحين من عباده.



رقمها	ســــورة **التّغابـــــن** ـــــ مدنية ـــــ	آياتها
64		**18**

سمّيت هذه السورة بسورة "التغابن" لذكرها يوم التغابن، وهي سورة مدنية.

ومن مواضيع هذه السورة موعظة الإنسان ليكون مؤمنا بالله تعالى وبآياته البيّنات الدالّة على وحدانيته في الخلق والتقدير، وليؤمن برسله وبالكتاب، وبالبعث ويوم الجمع: يوم التّغابن. وهي في التّحذير من الكفر بالله جلّ جلاله وبآياته وبالبعث، ومن الانشغال عن ذكر ربّه بالأزواج والأولاد في إهمال للإعداد ليوم الجمع بطاعة الله تعالى، وبالبذل في وجوه البرّ والإحسان.

- **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) :**

هذا الافتتاح لتعظيم الله تعالى، وتقديسه وإجلاله. وإنّ الآيات الثلاثة الموالية في دلائل خلقه وفي إحاطته بكلّ شيء علما: ما خفِي منه وما أعلن، وفي التأكيد على أنّ مصير كلّ مخلوق إليه سبحانه.

ومعنى الآية: كلّ ما في السماوات وكلّ ما في الأرض من مخلوق وموجود، كائنا ما كان، حيّا كان أو جمادا، يذكر الله تعالى منزّهًا إيّاه عن كلّ عيب وعن كلّ نقص، وعن الشريك والنّدّ، ومن لم يسبحه تعالى من خلقِه فإنّ الله تعالى غنيّ عن تسبيحه لأنّ جميع الخلق سواه يسبّح له باللّيل والنّهار دون فتور.

(لَهُ ٱلْمُلْكُ) له تعالى التصرّف المطلق في كلّ ما هو كائن في ملكوتيه العلوي والسفلي، هو الذي يسيّره وهو الذي يقدّر له الوجود والعدم. (وَلَهُ ٱلْحَمْدُ) وهو تعالى محمود في السماوات وفي الأرض، (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)(الإسراء الآية 44) هو تعالى الحقيق بالثناء والشكر لأنّه هو وحده الذي أنعم على خلقه بنعمة الوجود، وهو الذي رزقه، وهو الذي سخّر له ما يحتاج إليه لحياته ليكون طَيّعًا له. (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) لا يفلت من حكمه ومن قضائه ومن سيطرته أيّ شيء وأيّ مخلوق. وما يريد تحقيقه فإنّما يقول له كُن فيكون.

- **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) :**

وإنّه الله تعالى الذي خلق جميع البشر. كلّ إنسان مخلوق، وقد خلقه الله تعالى بتقديره، وما كان ليخلق لو لم يقدّر الله له الخلق. ومِنَ النّاس مَنْ يؤمن بالله خالقا له، ويصدّق بالله تعالى ويطيعه، ومنهم من لا يؤمن بالله خالقا له، ويكفر بوجود الله تعالى، ويقضي عمره ملحدًا بربّه.



والله سبحانه مطّلع على أعمال عباده: طاعةً أو جحودًا وكفرا، سيحاسبون عمّا كانوا يعملون.

- خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ (3) :

وإنّه هو الله الذي خلق السماوات والأرض حقّا. ولم يخلقهما عبثا، وإنّما خلقهما لحكمةٍ، خلق الأرض وخلق الإنسان وجعله مستخلفا فيها، وخلق السماوات لتكون سقفا محفوظا للأرض وللدلالة على عظمته وعظيم خلقه، وعلى حكمته في التقدير، وكلّ ما فيهما آيات تدلّ عليه سبحانه وتعالى، وهو القيّوم عليها وكلّ شيء يسير فيهما في إطار نظام دقيق. وأخرج الإنسان على الشكل والصورة الّتي وُجِدَ عليها، لم يشكّله أحد على صورته وعلى هيأته الحسنة، ثمّ سيصير الجميع إليه حين يأذن بانتهاء الحياة الدنيوية، وبدء الحياة الأخروية.

- يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (4) :

هذه للدلالة على الله سبحانه لا يخفى عليه شيء ممّا يجري في مُلكه في السماوات وفي الأرض، فكلّ ما يجري فيهما من تغيّرات وتقلّبات وحركة وتفاعل يعلمه، وكلّ أمر خاضع لإرادته لأنّه تعالى قيّوم عليهما.

وبالنسبة لخلقه من البشر فإنّه تعالى واسع العلم، يعرف ما تحدّثه به خواطرهم، وما تضمره أنفسهم، وما يدبّرون، ويعلم ما في قلوبهم من صدق إيمان وحسن النوايا أو من سوئها ومن ضعف إيمان وشكوك، وهو تعالى عليم بما يصدر عنهم من أفعال، ويسمع ما يصدر عنهم من قول، وهو واسع العلم بما في قرار صدورهم من حسن نوايا أو مكائد وتدبير وإضمار لشرّ. والمقصود من هذا التنبيه أن يزكّي المؤمن قلبه فيطهّره من إضمار السوء، وليراقب الله تعالى في عمله وقوله حتى لا يعمل إلاّ صالحا، وحتّى لا يقول إلاّ الكلمة الطيّبة وما يرضي الله تعالى، وليستقيم على الحق والصدق في كلّ ما يصدر عنه أو في ما يفكّر فيه ويخطّط له ليكون مؤمنا طاهرا حقّا زَكِي القلب والنفس وليكون من الصالحين.

- أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (5) :

هذه مع الآيتين المواليتين في الاعتبار بأنباء الأمم السّالفة الذين كفروا فأصيبوا بعذاب. كانوا قد كذَّبُوا رسلهم، وكذّبوا بما جاؤوهم به من هدي الله جلّ وعلا، وكذّبوا بالبعث. ومعنى الآية: ألم يبلغكم خبر ما حدث للذين كفروا من الأمم السالفة الذين تَلَقَّوْا عاقبة سيّئة بسبب أعمالهم وبسبب كفرهم، لقد أصابهم عذاب أليم اِستأصلهم وهلكوا، فاحذروا عاقبة بمثل ما أصابهم. والاستفهام للتّنبيه وللتّحذير.

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ (6) :

قد عذّبوا بعذاب الهلاك لأنّهم كذّبوا بما جاءهم به رسلهم من عند ربّهم لهديهم للدين الحقّ، دين التّوحيد، ولأنّهم اِحتقروا رسلهم فقالوا: أيكون إنسان رسولا يرشدنا لما يجب أن نكون عليه في عقيدتنا وأعمالنا – وهذا كالذي قاله المشركون في النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، وبهذا فإنّ في الآية تعريضا بهم لتحذيرهم من عاقبة سيّئة كعاقبة أسلافهم – وكفر أولئك بما جاءهم من الحقّ وبرسل الله، وأعرضوا عن الإيمان والتصديق بالتوحيد وبهدي الله تعالى، واِستغنى الله تعالى عن إيمانهم وعن طاعاتهم وعنهم كذلك وتركهم لشأنهم، والله تعالى غنيّ عنهم لا يحتاج لطاعاتهم ولإيمانهم وهو (حَمِيد) المحمود في السماء وفي الأرض مِنْ قِبَلِ جميع الكائنات.

- ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾(7)

ومن كفرهم بما جاءهم به رسلهم تكذيبُهم بالبعث. زعموا أنّ بعثهم للحياة بعد مماتهم للحساب اِدّعاء باطل، وأنّه أمر مستحيل وقوعه. توهّموا أن ليس بعد موتهم إعادةٌ للحياة، وأنّهم لن يقوموا للحساب. أخبرْ – يا نبيّ الله – الكافرين بالبعث بأنّهم سيُبعثون حقّا. وربّ العزّة – ربّك وربّ جميع الخلق– ستعودون للحياة بعد مماتكم، وستُخْبَرُون بما عملتم وبأفعالكم جميعها وستُجازون عليها: خيرا أو شرّا، وإنّ إعادتكم للحياة أمر يسير على الله تعالى، فكما خلقكم أوّل مرّة وكما أماتكم بقدرته، فإنّه قادر على إعادتكم للحياة، كما أنشأكم أول مرّة تعودون، وإنّ أمر محاسبتكم على أفعالكم بدقّة أمر يسير على الله كذلك.

- ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾(8) :

هذه مع الآيتين الواليتين في موعظة النّاس بما يجعلهم من الفائزين بالفوز العظيم، وبما يحفظهم من سوءِ المصير. عليكم بالإيمان بوحدانية الله عزّ وجلّ، ليس مع الله إلاه آخر. وصدّقوا برسوله وبالقرآن الكريم الذي أنزله على محمد صلّى الله عليه وسلّم وحيًا. واِعلموا أنّ الله مطّلع على أفعالكم فاعملوا صالحا واحذروا نواهيه واتّقوا حدوده.

- ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (9) :

واِعلموا أنّ الله سبحانه سيحاسبكم على أعمالكم يوم يبعثكم بعد مماتكم، ويجمعكم في يوم يجمع فيه جميع خلقه عند الميزان. وإنّ ذلك اليوم عند الكافر هو يوم (ٱلتَّغَابُنِ)، يشعر فيه الكافر بالغبينة لأنّه من فساد رأيه لم يصدّق به فظهر له أنّه قد وقع حقّا، فتحسّر على ما فَرّط منه من الإعداد له، وندم على إنكاره لوقوعه. ومن يؤمن بالله الواحد الأحد وصدّق عمله الصالح إيمانه



وكذلك طاعاته يُغطِّ الله تعالى عن سيّئاته فلا يؤاخذه عليها ويسترها عنه، ويدخله بساتين مرفهّة وجميلة المنظر تجري من تحتها الأنهار يقيمون فيها إقامة دائمة لا يخرجون منها ولا يموتون فيها. وهذا هو الفوز العظيم الذي يجعل المؤمن في رغد من العيش، لا يرى فيها نَكَدًا، ويأمن فيها من كلّ سوء ومكروه.

- **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (10) :**

وأمّا الذين كفروا بالله تعالى وأشركوا به وتولّوا عن طاعته والتّصديق برسوله صلّى الله عليه وسلّم وبكتابه العزيز، وبالدلائل والبراهين والحجج الدالّة على وحدانية الله وعلى البعث وإحياء الموتى وبشواهد عاقبة الأمم السالفة الكافرين فإنّهم سيقيمون إقامة أبدية في نار جهنّم، وما أسوأ مصيرهم الذي أوْقَعُوا أنفسهم فيه، وكانوا به مكذّبين ومستهزئين! والعاقل هو الذي يأخذ بالأسباب ليقي نفسه من هذا المصير السّيّء، ويتّبع منهج الفوز بجنّات النّعيم. وهذا هو محلّ الموعظة من هذه الآيات.

- **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (11) :**

هذه في تثبيت قلوب المؤمنين ليعلموا أنّ كلّ مؤمن مصاب ومُبْتَلَى ليختبر في صدق إيمانه بقضاء الله تعالى وقدره، وليُمتحن في صبره وثباته على الإيمان دون سُخْطٍ على القضاء، ودون يأس. وقد قال تعالى بما يؤكّد على أنّ كلّ مؤمن مصاب بالبلوى (وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ)(البقرة الآية 155).

ومعنى الآية: ما تعرّض مؤمن لابتلاء شقّ عليه إحتماله إلاّ كان وِفْقَ ما قدّره الله تعالى له، وكان من قضائه، ليختبر في صدق إيمانه وفي ثباته عليه. ومن يؤمن بالله بصدق، ويؤمن بقضائه وقدَرِه، ولا يجزع عند مصابه (يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ) أي يجعله صابرا محتسبا متقبّلا لقضاء الله عزّ وجلّ ويجعله ثابتا على الإيمان فلا يصخب ويسخط. والله سبحانه عليم بمدى صبر عبده المؤمن ومدى ثباته، ومطّلع على كيفية تقبّله لمُصابِهِ، وتسليم أمره إلى ربّه.

- **وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (12) :**

هَوِّنُوا على أنفسكم عند مصابكم واستعينوا بالصبر والصلاة، واِشتغلوا بطاعة الله وبالاسترجاع. قال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ)(البقرة الآية 153). وقال (ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ)(البقرة الآية 156).

وأطيعوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في العمل بسنّته، وأُذكروا اِبتلاءاته وصبره ومناجاته لربّه إذا اِشتدّ عليه الأمر. فإن أعرضتم عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، فليس على الرسول إلاّ أن يبلّغكم هدي الله تعالى وإرشاده وستحاسبون على إختياراتكم.



- ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (13) :

لمّا جرى فيما سبق من الآيات التّحذير من الكفر المنذر بسوء العاقبة والمآل، ثمّ جاء بعده الحضّ على الإيمان باللّه تعالى، والعمل بالطاعات للفوز برضوانه وبنعيمه الخالد، جاءت هذه الآية خاتمة لهذا العرض للتأكيد على الإلتزام بالعقيدة السليمة المنقذة من عذابي الدنيا والآخرة، وهي العقيدة الفارقة بين الكفر والإيمان، هي عقيدة التّوحيد: فاللّه سبحانه واحد، أحد، ليس معه إلاه آخر، لا شريك له ولا ندّ، ولا صاحبة ولا ولد. وعلى الله تعالى فَلْيَتّكِل المؤمنون ولْيَعْتَمِدُوا في شدّتهم على الصبر والدعاء باللطف والفرج، وإذا نالوا خيرا فعليهم بالحمد والشكر ليكونوا فائزين برضوانه وبنعيمه المخلّد.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (14) :

بهذه الآية مع الآيات الأربع الموالية تختم السورة، وهي في موعظة المؤمنين حتّى لا يفتتنوا بأزواجهم وأولادهم وأموالهم فتلهيهم عن طاعة الله عزّ وجلّ، وعن الإحسان بأموالهم طلبا لما عند الله تعالى من المغفرة والثّواب. وقد جاء في أسباب نزول هذه الآيات عن ابن عباس "أنّها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم جفاء أهله وولده، فنزلت". كان عوف ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بَكَوْا إليه، ورقَّقُوه فقالوا: إلى مَنْ تَدَعُنا؟ فيَرِقُّ ويُقيم. وعندنا في مجتمعنا مِنَ النّساء مَنْ تضيّق على زوجها صلته برَحِمِهِ، وربما تجعله يقطعها مع إخوته وأخواته، وتقرّبه كثيرا من أهلها لأسباب من نَسْجِ الخواطر الواهية. وعندنا في بعض الأسر في مجتمعنا الولدُ الذي يتقرّب كثيرا لوالديه، أحدهما أو كليهما بالتحبّب والدُلِّ، ويتظاهر لهما بالفاقة والشكوى حتّى يدفعهما : كليهما أو أحدهما لأن يخصّه بنصيب وافر من ماله وتَرِكَتِهِ، ويحرم الإناث: أخواته من حقهنّ في مال الأب أو تركة الأم، وهذا كثير عندنا في مجتمعنا، وهذا من الإغراء الذي يجعل الوالد أو الأم أو كليهما يقعان في مخالفة شرعية في قسمة التركة، ويظلمان بفعلهما بناتهما في النّصيب الذي كتبه الله لهنّ.

ومعنى الآية: إنّ بعضا من أزواجكم – أيّها المؤمنون – وبعضا من أبنائكم كذلك قد يلهونكم عن طاعة الله عزّ وجلّ، أو قد يصرفونكم عن طاعة أمره وعن طاعة رسوله إذا دعاكم للجهاد، أو للإنفاق في سبيل الله، فيعملون بما لهوكم عنه أو بما صرفوكم عنه عمل عدوّ الله الذي يصدّ عن سبيل الله بما لهم من دُلٍّ لهم عليكم، فخذوا حذركم من الميل لهم، والتولّي عن طاعة الله عزّ وجلّ. أُرشدوهم لما ينفعهم لدينهم ودنياهم، ولصالح الأعمال، وللاستقامة على طاعة الله تعالى ورسوله، واعف عنهم فيما صدر عنهم من دلّهم، ومن حبّهم للحياة الدنيوية واللهو بها وبزينتها،

واصفحوا عنهم إذا أخطؤوا في الطلب المنافي لأحكام الله الشرعية ممّا يجعلكم تظلمون أصحاب الحقّ عليهم بعد أن تبيّنوا لهم وجوه خطئهم، وأُستروا عليهم أخطاءهم فإنّ الله سبحانه غفور رحيم بعباده المنيبين التّائبين. حافظوا على أسركم بإرشادكم للاستقامة على دين الله، ولا تجعلوا أزواجكم وأولادكم يلهوكم عن طاعة الله تعالى.

- **إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ (15) :**

واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم زينة الحياة الدنيا قد تلهيكم عن طاعة الله تعالى وقد تشغلكم باللّهو بها لإرضاء الأولاد بما يطلبون لرفاههم، أو للتّوسّع في الرّزق والكسب، وعندئذ تَفْتَتِنُكم بدنياكم وتلهيكم عن العمل لآخرتكم، واحرصوا على كسب ما عند الله من الأجر العظيم الذي فيه سعادتكم في آخرتكم وذلك بالعمل بالطاعات بإخلاص. وهذه كقوله تعالى (ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا)(الكهف الآية 46).

- **فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (16) :**

وهذا من أعظم الإرشاد الربّاني لعباده المؤمنين في هذا الإرشاد دعوة للمداولة على مراقبة الله تعالى في النّفس في قول وعمل خوفا من الوقوع في معصيته، وذلك على قدر الطاقة والجهد، وعلى قدر الوسع والعلم بالأحكام، للتوقّي من غضبه طلبا لمرضاته. وفيه دعوة لسماع ما جاء في كتابه من مواعظ ومن أحكام ومن قصص للاعتبار للانتفاع بها، ولسماع مواعظ الواعظين وأفضل موعظة بعد ما جاء في كتاب الله تعالى مواعظ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهداه وإرشاده، ومن بعده مواعظ الصادقين من العلماء النّزيهين العاملين بما علموا من التّنزيل وسنّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والحكمة. والعنصر الثالث في هذا الإرشاد أداء الطاعات التي أمر بها الله تعالى ورسوله وأرشد إليها العلماء الصادقون الذين هم من أهل الذّكر. ثم أرشد تعالى لما يجلب لعباده المؤمنين جزيل الأجر والثّواب، وهو الإنفاق في وجوه البرّ والإحسان فهذا خير لهم لأنفسهم في دنياهم وفي آخرتهم. ومن يحْمِ نفسه من البخل ويحملها على البذل فإنّه من أهل الفلاح الموعودين برضوان الله تعالى والإيواء في جنّات النّعيم والتكريم.

- **إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) :**

وهذه في الحضّ على الإنفاق في وجوه البرّ والإحسان، وهذا هو القرض الذي يدعو الله تعالى المؤمنين إليه، ويكون قرضا حسنا إذا كان إنفاقا عن طيب خاطر، وكان خالصا لوجه الله تعالى طلبا لمرضاته. يَعِدُ الله تعالى المنفق النفقة الحسنة بمضاعفة الأجر له والثواب، وأن يعوّض له عِوَضًا مضاعفا مع ما يكرمه به من المغفرة له حتى يستر عليه ذنوبه، فلا يكون يوم

القيامة مؤاخذا على شيء من عمله، والله تعالى (شَكُورٌ) يشكر عمل عبده الصالح فيثيبه على عمله الثواب الحسن الجزيل. وهو (حَلِيمٌ) لا يعجّل بعقوبة المذنب، يُمهله حتى يتوب.

- عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (18) :

قد تقدّم بيان معاني هذه الأسماء الحسنى والصفات العلا في خاتمة سورة الحشر.

رقمها	ســــورة الطـــــلاق	آياتها
65	ـــــ مدنية ـــــ	12

سمّيت هذه السورة بسورة "الطلاق" لأنّها جاءت بأحكام الطلاق، وهي سورة مدنية. وقد جاء فيها بعد أحكام الطلاق دعوة النّاس للاعتبار بما حدث للأمم السالفة من هلاك لأنّهم عصوا أمر ربّهم، ودعت المؤمنين في خاتمتها للإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا (1) :

هذه الآية مع الآيات الستّ الموالية في أحكام الطلاق. أُفتتحت هذه الأحكام بتوجيه الخطاب للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ)، ثمّ جاءت الأفعال مقترنةً بضمير جمع المخاطبين، بما يفيد أنّ المخاطَبَ في هذه الآية هي أُمّةُ هذا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كلّ المسلمين معنيون بهذا الخطاب الذي وُجّه لنبيّهم تعظيما له لأنّه صلّى الله عليه وسلّم هو رسول الله إليهم ليعلّمهم شرع ربّهم. فالخطاب للنّبيّ والمراد أمّته. إذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لطّف الخطاب بقوله: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ)، وإذا كان الخطاب بقوله "يا أيّها الرسول" عنى الرسول صلّى الله عليه وسلّم وحده. والمعنى : يا أيّها النّبيّ قُل للمؤمنين: (إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ). والطلاق يعني فسخ عقد الزّواج، وفكّ الرباط الذي بين الزّوجين الذي سمّاه ربّ العزّة "ميثاقا غليظا". وروى الثعلبي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "إنّ من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق". وعن عليّ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: تزوّجوا، ولا تطلّقوا فإنّ الطلاق يهتزّ به العرش". وعن أنس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ما حلف بالطلاق ولا اِستحلف به إلاّ منافق"... والمستفاد من هذه الأحاديث المشهورة المتواترة بين النّاس اِتّخاذ جميع الأسباب للمحافظة على كيان الأسرة، واِجتناب هدم أركانها، فليس من وراء الطلاق إلاّ المآسي: مأساة إهمال العيال، وما يتبع ذلك من تشرّد أو اِنحراف في السلوك، وعقوق لأحد الأبوين، وقطع لصلة الرحم بالدم أو النّسب. ولا يلتجئ أحد للطلاق إلاّ إذا فقد الحكمة في تدبير أمره مع زوجه، وفقد حسن التّصرّف لمعالجة أمره، واِفتقد في محيطه لحكماء راشدين لإصلاح ما بين الزوجين من خلاف. ومن غريب الأمر أنّ جلّ قضايا الطلاق لا تقوم على أسس موضوعية في الخلاف، أغلبها ناجمة

عن "قيل وقال"، وعن تدخّل بين الزّوجين بالوشاية الكيدية، وزوج قليل الإدراك لواجباته الزوجية وقليل الإدراك بالعواقب.

وجواب الشرط في الآية هو : (فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) أي فطلّقوهنّ عند طهرهنّ من الحيض. لا يجوز طلاق المرأة وهي حائض، على هذا رأي جمهور الفقهاء القدامى اِعتمادا على هذا النّصّ. (وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ) اِحفظوا وقت الطلاق، وأكملوا العدّة ثلاثة قروء. قال تعالى (وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ)(البقرة الآية 228). و"القُرءُ" هو الطهر من الحيض. لا يتمّ الطلاق إلاّ بعد أن تطهر المرأة من ثلاث دورات من حيضها، وذلك ليَتَطهَّرَ رحمُها من كلّ أثر ممّا قذف فيه من مَنِيِّ الزوج الّذي طلّقها. (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ) ولا تعصوا الله تعالى فيما أمركم به، ولا يحقّ لكم جماع نسائكم إذا طلقتموهنّ في فترة العدّة إلاّ إذا راجعتموهنّ إلى عِصْمَتِكُم. (لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ) أي ليس للزوج حقّ أن يخرج طليقته من بيت الزوجيّة مادامت في العدّة، ولا يجوز لها كذلك الخروج من بيت الزوجيّة إلاّ لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أثِمَتْ. وقال مالك والشافعي وابن حنبل والليث (وهم الفقهاء الأوائل المجتهدون): "إن المعتدة تخرج بالنّهار في حوائجها، وإنما تلزم منزلها بالليل". (إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ) أي لا يُخْرَجْنَ من بيوتهنّ إلاّ إذا صدر عنهنّ عمل شنيع ومعصية. ولفظ (فاحشة) هنا ورد نكرة غير معرّف بأل، فدلّ اللفظ على اِستطالة المرأة بلسانها على الزّوج أو على أهل الزوج المقيمين معها في المسكن، وكانت شرسة في أخلاقها ومؤذية وعنيفة في معاملة الزّوج ناشزة تحتقره بحضور الأولاد والأهل، ولا يدلّ اللفظ على الزّنى إلا حين يرد معرّفا بأل. (وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ) هذه أحكام الله تعالى، وهذا شرعه فاحفظوه، ولا تعتدوه، واِلتزموه حفاظا للحقوق، وحفظا لكرامة كلّ طرف وإن اِختلفا. ومن يتجاوز حدود الله تعالى ويحكم بأحكامه وفق رغباته فقط ظلم نفسه وظلم زوجه وظلم أبناءه، وأورد نفسه في المهالك. اِحفظوا حدود الله ولا تتجاوزوها فلا تدري ما يمكن أن يحدث في مدّة العدّة فقد يحدث أن يُلَيِّنَ قلب الرّجل فيحوّل عاطفته من بغض الزوجة إلى محبّتها، فيراجع نفسه فيتحوّل من عزيمة الطلاق إلى النّدم عليه فيراجعها. وهذا كقولنا: أُتركوا للصلح مكانا. قال تعالى (وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ)(النساء الآية 128).

- **فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا (2) :**

فإذا قَارَبْنَ اِنقضاء عدّتهنّ فاحْسِمُوا في أمركم: فإمّا أن تراجعوهنّ بالمعروف من غير قصد الضرر بمراجعتهنّ لإذلالهنّ ولقهرهنّ، وإنّما عن رغبة في المحافظة على بيت الزوجية والأسرة

من التصدّع، وخوفا على العيال من الإهمال، وإمّا أن تتركوهنّ حتى يُتْمِمْنَ عدّتهنّ فيمْلِكْن أنفسهنّ. (وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ) فإذا طلقتموهنّ فعليكم بالإشهاد على الطلاق، وفائدة الإشهاد على هذا الطلاق أن تكون المرأة مالكة لنفسها إذا خوطبت للزوّاج من غيره. وحتّى لا يكون خصام إذا مات أحدهما فيدّعي أحدهما ثبوت الزّوجيّة ليَرِثَ. والإشهاد عند أغلب الفقهاء على الرجعة أمرٌ مندوبٌ. (وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ) أي أقيموا الشهادة على وجهها من غير اِنتقاص للحقّ تقرّبا إلى الله عزّ وجلّ. وهذا الحكم لموعظة المؤمنين الصادقين في إيمانهم بالله وبالبعث ويوم الحساب لحفظ حقوق كلّ من الزوجين. ومن يُطِع الله ويتَّقِهِ بالصبر عند المصيبة، المرأة أو الرجل، يجعل الله تعالى له بعد شدّته فرجا، وبعد ضيقه اِنفراجا حتّى لا يحزن على ما فاته أو ما أصابه، أو ليرضى بتنازلاته عن رغباته مكرها.

- وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا **(3)** :

(وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) جواب ثانٍ عن الشرط السابق (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ)، والمعنى: وإذا كان عسر الإنفاق على طلبات الزّوجة ورغباتها هو الدافع الرئيسي للطلاق، فليتّق كلّ منهما ربّه، وليراجع الرّجل زوجه، ولتَرْضَ الزوجة بواقعها عسى أن يوسّع الله لهما في الرّزق من حيث لا يدريان، ويهيّء للزوج أسباب الكسب من حيث لا يتوقّع ومن حيث لم يخطر على بَالِهِ، وليحافظ على الرّباط الوثيق بينه وبين زوجه. ومن يفوّض أمره إلى الله سبحانه فهو كافيه، ومُفَرّجٌ كربه. روى ابن عباس أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "من أكثر الاستغفار جعل الله له من كلّ همٍّ فرجا، ومن كلّ ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب". (إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ) : إنّ الله تعالى إذا أراد أمرا يسّر له أسبابه، وقضاه، وواصل إلى مُراده سبحانه. ولقد جعل لكلّ شدّة أو عسر أجلا ينتهي عنده، وحدًّا لا يتجاوزه. والغرض المقصود من الآية: دعوة الطرفين للصبر عند العسر والشدّة، وأن لا يتعجّل الرجل بالطلاق عند شعوره بالضيق من الزوجة لأي سبب من الأسباب، وليتق الله ربّه وليستعن بالدعاء والصلاة ليفرّج الله كربه، وليَكْفِيه شرَّ ما أهمَّه، فإنّ مع العُسر يُسرا، ولا ييأس المؤمن من رحمة الله تعالى إذا توكّل عليه وفوّض أمره إليه.

- وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا **(4)** :

وعدّة المرأة المطلّقة إذا كانت متقدّمة في السنّ بانقطاع الحيض عنها ثلاثة أشهر إن شككتم في مدّة العدّة، ولم تعرفوا الحكم في المرأة التي اِنقطع عنها الحيض، ولم تعرفوا مدّة طهرها منه، ونفس الحكم في عدّة الجارية الصغيرة إذا طلّقها زوجها بعد الدخول بها فعدّتها ثلاثة أشهر.

وعدّة الصغيرةِ القاصرة التي لم تبلغ سنّ المحيض ثلاثة أشهر كذلك. وأمّا المرأة الحامل فعدّتها تمتدّ حتى تضع مولودها، فإذا وضعت المولود إنتهت مدّة عدّتها. ومن يَخْشَ الله تعالى باتّقاء محارمه واِجتناب معصيته يوفّقْه لتحقيق كلّ ما يَصْبُو إليه ويرغب في تحقيقه، وييسّر له بلوغ مراده، وييسّر له إحتمال هذه الأحكام في الأحوال الشخصيّة بكلّ ما فيها من مشقّة، وهذه لمُواساة المطلّقة أكثر ممّا هي في مواساة الرّجل وذلك لسوء أثر الطلاق على حياتها الخاصّة وحياتها النّفسيّة.

- ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا (5) :

هذا هو حكم الله تعالى وشرعه الذي فرضه عليكم، ومن يعمل به ولا يعصيه فيه يستر عنه سيّئاته فلا يؤاخذه عليها يوم الحساب، ويمنحه أجرا عظيما على طاعته لأمر ربّه. والمقصود بالتأكيد على تقوى الله تعالى في أحكامه الحضّ على العمل بها، واِجتناب مخالفتها حتى لا يختلف المسلمون في أحكامهم الخاصة بالأسرة وتنظيم أحوالهم الشخصيّة، وليحترموا الآجال المأمورين بها، وهي آجال لمنح الزّوجين فرصة للمراجعة، ولمنح الأسرتين المتصاهرتين فرصة للتدخّل بين الطرفين للإصلاح بينهما لضمان فرصة الاستقرار للحياة الزّوجية وضمان تواصلها، الحلّ الأسلم هو في الصلح والمراجعة وليس في الطلاق. في الطلاق ضرر وإضرار وليس حلاًّ، فاتّقوا الله في النّساء، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في خطبة الوداع: "تَوَاصَوْا بالنّساء خيرا، لقد إستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، وهُنَّ عوَانٌ لكم" وفي حديث مأثور عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "يَغْلِبْنَ كلّ كريمٍ، ولا يغلبهنّ إلاّ لئيم".

- أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ (6) :

هذه في بعض من حقوق المطلّقات. للمطلّقات طوال مدّة العدّة حقّ السكنى في مسكن من سعة أزواجهنّ الذين اِنفصلوا عنهنّ، وعلى قدر إمكاناتهم المادية. وللفقهاء أقوال في حقّ المطلّقة في السكنى لتباين آرائهم، والذي عليه شيخنا محمّد الطاهر ابن عاشور: "والصواب أنّ حقّ السكنى للمطلّقات كلّهنّ، وهو قول الجمهور" (كتابه التحرير والتنوير ج.28 ص 326-327). وقال أشهب عن مالك: يخرج عنها إذا طلّقها ويتركها في المنزل. وإن كانت حاملا فلها النفقة والكسوة والمسكن حتى تَلِدَ مولودها. (وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ) وللمطلّقة مدّة العدّة حقّ النّفقة، "وتركُ النّفقة من أكبر الأضرار" (قاله أبو حنيفة إستنادا على هذا اللفظ). ومن حَرَمَ طليقته من السكن والنّفقة فقد أضرّ بها، وضيّق عليها لإذلالها وتعذيبها فقد خالف شرع ربّه وعمل بما نهاه الله عنه في قوله تعالى (وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ

لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّ). والمطلّقة الحامل لها الحقّ في السكنى والنّفقة والكسوة حتى تضع حملها، فإذا تكفّلت بإرضاع المولود فعلى طليقها أن يدفع لها أجرةً على الرّضاع بمثل ما تُسْتَأْجَرُ المرضعة، وزمن الرّضاع حوْلان كاملان، (وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم) وتشاوروا في الأجر على الرّضاع، وعلى كسوة الوليد ولوازمه، واِصنعوا المعروف فيما بينكم. قال تعالى (وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ)(البقرة الآية237)، وإذا اِمتنعت المرأة عن رضاع وليدها فلا تُكْرَهُ على ذلك، وعلى الوالد أن يستأجر لِابنه مرضعة.

- **لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا (7) :**

الخطاب في هذه الآية موجّه للرجل الذي طلّق زوجته وهي حامل ثمّ ولدت له منه مولودا وقامت على رضاعه، وقد جاء الخطاب في صيغة الأمر. فالرجل مأمور، إذا كان ثريا وفي سعة من الرّزق، بأن ينفق على الطّليقة وولده بسخاء وتوسعة، وقد قال تعالى (وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ)(البقرة الآية 233). وأمّا إذا كان الرّجل فقيرا فعليه أن ينفق على الطّليقة وعلى ولده وعلى الرّضاع على قدر حاله من غير شحّ وبدون إضرار، لا يُكَلِّفُ الفقير بمثل ما يُكَلَّف به الغنيّ. وسيجعل الله بعد الضيق توسعة، وبعد الشدّة فرجا.

والملاحظ في هذه الأحكام أنّ فيها: "إمهالا" في الزّمن، وفيها نَهْيًا صريحا عن كلّ "مظاهر الإضرار والتّضييق" في : الإنفاق، والمعاملة بالإحسان مع التّوسعة. والغرض المقصود فَسْحُ المجال واسعا لمراجعة النّفس في أسباب الطلاق ودواعيه عسى أن تعقب هذه الفسحة ومراجعة النّفس للتراجع عن الطلاق، وللمراجعة لبيت الزّوجية، ولفسح المجال لأهل الحكمة من أهله وأهلها للتّدخل للإصلاح بين الطرفين ولمعالجة أسباب الخلاف بالحسنى محافظة على صلة القُربى بالنّسب وللمحافظة على تربية الأبناء في ظلّ الأبوين حماية لهم من الإهمال والتشرّد، ولضمان حسن المعاشرة، وحتى لا يَنْسَوْا ما كان بين الطرفين من الودّ والرحمة وما كان بينهما من فضل، وكلّ هذا لحماية الأسرة من التّصدع، واِجتناب الطّلاق الذي يهتزّ له عرش الرّحمان سبحانه.

والملاحظ في هذه الأحكام كذلك شدّة الحرص على المحافظة على كرامة المرأة وحقوقها التي تضمن لها المعاملة بالإحسان وبالمعروف، وتضمن لها المحافظة عليها من الإضرار بها والتضييق عليها إذلالا وشماتة.

- **وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا (8) :**

هذه الآية إلى آخر السورة في موعظة النّاس ليؤمنوا بربّهم الخالق القدير وليعملوا صالحا ولاتباع رسوله وما جاءهم به من عند ربّهم ليهتدوا لما ينجيهم من العذاب، ويُؤَمّن لهم الأمان والسعادة في آخرتهم.

ومعنى الآية: اِتّقوا عاقبة سيّئة كعاقبة كثيرين من أسلافكم كانوا قد تجبّروا، وتكبّروا عن طاعة الله تعالى ولم يمتثلوا لأمر ربّهم، وعصوْا رسله فعجّل الله تعالى حسابهم، وعذّبهم عذابا شنيعا مهلكا أبادهم وقُراهم إبادة تامّة وخرّبت، ولم يبق فيها إلاّ آثار دمارهم. وسيعذّبون في آخرتهم بعذاب أشدّ شناعة وإيلاما، عذاب أشدّ وطأةً وثِقَلاً عليهم.

- فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) :

كان كفرهم وَبَالاً عليهم، وذاقوا تبَعًا لذلك طعم هذا الوبال بما أصابهم من الجوع والقحط والخسف وسائر المصائب، وكانت عاقبة كفرهم أن خسروا دنياهم بهلاكهم على أسوإ حال، وخسروا كذلك آخرتهم لأنّ مأواهم سيكون في جهنّم.

- أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا(10)

أعدّ الله لهم عذابا قاسيا في جهنّم لا يُحتمل لشدّة هوله وإيلامه يوم رجوعهم إليه عند بعثهم، فاخشوا ربّكم – يا أصحاب العقول الرشيدة، وأصحاب البصيرة، وأصحاب القلوب الواعية– وذلك بالعمل بطاعاته، وباجتناب معصيته ونواهيه، وبالوقوف عند حدوده في إيمانكم وفي العمل بأحكامه، واِعتبروا بمصير الأمم السالفة فلا تكونوا أمثالهم في الإعراض عن ذكر ربّهم وبالكفر بالله وبرسله وبكتبه، ولقد أنزل إليكم القرآن لتنتفعوا بهديه وبمواعظه وبتذكيره، ولتعرفوا به صراطه المستقيم الذي يهدي إليه ويمنحكم الأمان من نقمته ومن غضبه وعقابه، والذي يبلّغكم الفوز برضوانه ونعيمه.

- رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا (11) :

بعد الوعيد جاء هذا الوعد لعباد الله المؤمنين العاملين الصالحات تبشيرا وترغيبا. وجاءت هذه في بيان فضيلة الذكر الذي أنزله الله إليهم والوارد ذكره في الآية السابقة. ومعنى الآية: ولقد أرسل الله تعالى إليكم رسولا – هو محمّد صلّى الله عليه وسلّم – يقرأ عليكم آيات الله تعالى التي أوحى له بها، وهي آيات واضحة المعنى، وواضحة الأدلّة والحجج الدالّة على الدين الحقّ: دين التّوحيد: دين الإيمان بالله الواحد الأحد والإيمان برسله، وبكتبه وباليوم الآخر، وهي آيات لمن يتدبّرها ويهتدي بها ترشده للعبادة السليمة وللاستقامة على المُثل العُليا ووجوه الطاعات وتوضّح له وجوه الضلالات والمعاصي ليحذرها، وإنّها ناقِلةٌ للمؤمنين العاملين الصالحات من ظلمات الجهالة والضلالة إلى نور الهدى، ونور العلم بدلائل الله تعالى وصفاته، ونور العلم بشرعه المبلّغ لنيل رضوانه. ويبشّر الله جلّ وعلا كلّ من آمن وعمل صالحا واهتدى بهداه بأن يكرمهم



في آخرتهم بإيوائهم في بساتين مرفّهة تجري من تحتها الأنهار يقيمون فيها إقامة دائمة لا يخرجون منها أبدا، مع الإنعام عليهم بالرّزق الحلال الواسع الذي لا يجدون معه فاقةً ولا حاجةً، والله ذو الفضل العظيم.

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ **(12)** :

وتختم السورة بهذه الآية التي تذكّر بالله تعالى الخالق، القدير، والعليم قصد الحضّ على الاستقامة على دينه حتّى لا يُعْبَدَ أحدٌ سواه، وليعلم النّاس أنّه تعالى لا يُعجزه أن يأخذ العصاة بذنوبهم، وليخشوا أن يرى الله تعالى منهم ما لا يرضيه، وممّا نهى عباده عنه.

وفي هذه الآية إشكال لا يستطيع أن يقول فيه إلاّ أهل الاختصاص الدقيق من علماء الفضاء، والإشكال في قوله تعالى (خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ)، أفي الوجود سبع أرضين ونحن البشر جميعا نعيش على سطح واحدة منهن فقط أم أنّ القصد أمر آخر يغيب عن علمنا حتى يفتح الله تعالى على علماء الفضاء المختصّين كشف حقيقة هذا التّعبير؟ الله وحده هو العليم بما خلق، وما أوتينا من العلم إلاّ قليلا.

وقد جاء في أقوال المفسّرين السابقين في تفسير هذه الآية ما لا يُعتمد لأنّه من التّخمين، لذا نقول بأنّ الله عزّ وجلّ الحقيق بالعبادة والألوهية والتقديس والطاعة هو الذي خلق السماوات السبع بما فيها، وخلق مثلها في التقدير وبديع الصنع الأرض. يتنزّل أمر الله تعالى بينهنّ في التّسيير وتقدير أحوالها وأحوال الكائنات عليها كلّ حين وحيا لهدي النّاس، أو من أمره الذي يكون بين "الكاف والنون" ليعلموا أنّ الله تعالى على كلّ شيء قدير ليحذروا معصيته، أو ليطلبوا رزقه ورحمته كأن يغيثهم بغيثه أو ينجيهم من قحط وجائحة، فهذا للخوف وللرّجاء، وإن الإنسان عند الشدّة يذكر ربّه، وتنزل الشدائد لترجع النّاس لربّهم ليدعوه مخلصين له الدّين ليفرّج عنهم كربهم. ولْيَعْلَمِ النّاسُ أنّ الله تعالى محيطٌ بكلّ شيء علما، لا يغيب عنه من أمر خلقه شيء فعليهم أن يخشوه في سرّهم وعلانيتهم حتّى لا يرى منهم معصية وتجاوُزًا لحدوده التي نهى عن اِقترابها.

نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.



رقمها	سـورة التحريـم	آياتها
66	ـــ مدنية ـــ	12

سمّيت بسورة "التّحريم" بسبب ما حرّمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على نفسه بسبب غيرة زوجاته، وهي سورة مدنية. والسورة في موعظة النّساء حتى لا يُضايقن أزواجهنّ لما يمكن أن يؤدّي للطلاق وهدم أركان بيت الزوجية، فكأنّها تتمة لسورة الطلاق في معالجة قضيةٍ من قضايا أسباب فراق الأزواج. ومن مواضيعها حضّ النّاس للعمل بما يجعلهم يفوزون بنعيم الآخرة. وخُتمت السورة بضرب مثلين بامرأتين صالحتين وبامرأتين كانتا قدْ أشْقَتَا زوجيهما وهذا للاعتبار.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ **(1) :**

هذه مع الآيات الأربع الموالية في تأديب نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لضمان بقائهنّ في بيت الزوجية النبوية. قد سبق أن ذكرتُ في مفتتح سورة الطلاق – على ما اِتّفق عليه جمهور المفسّرين – بأنّ الافتتاح للسّورة بـ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ) لا يعني بأنّ الحكم أو الأحكام التي ستلي هذا الخطاب خاصّ بالنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما هو خطاب لكلّ فرد من أفراد أمّته، وإنّ العمل بالحكم أو الأحكام الموالية لهذا الخطاب سواء الذي في هذه الآية أو في سورة الطلاق أو في سورة الأحزاب هو من طاعة الله تعالى ومن طاعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ولذا فليس من المهمّ تعيين سبب نزول هذه الآية – وقد جاء فيه قولان أو أكثر وروايات – وإنّما المهمّ معرفة الحكم الذي جاء في الآية والعمل به. والحكم في الآية بأن لا يحكم المسلم على نفسه بتحريم ما أحلّ الله له اِبتغاء مرضاة زوجه، وترضية لها للتخلّص من مشكل حدث بينهما أثار شكوك الزّوجة، غفر الله لك في ما حكمت به على نفسك من تحريم، والله غفور رحيم بعباده.

- قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ **(2) :**

قد شرع الله تعالى لكم التحلّل من اليمين بالكفّارة، وهذا كيلا تحرموا أنفسكم ممّا أحلّه الله تعالى لكم. قال تعالى في كفّارة اليمين (لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)(المائدة الآية 89). (وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ) أي هو مَالِكُكُمْ وسيّدُكم وأنتم عباده، وهو الذي يَعتِقكم من النّار ومن عذابه وينعم عليكم بنعيمه فهو المنعم عليكم بالتشريع الذي يرفع عنكم



الحرج، وهو الذي يتولاّكُم برحمته وينصركم. وهو تعالى (ٱلۡعَلِيمُ) بما يصلح شأنكم، يعلم أحوالكم وبما في نفوسكم من رغبة أو ندم، وهو (ٱلۡحَكِيمُ) في إرشادكم لما يسرّكم دون أن تقعُوا في مخالفة أو محظور.

- وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ(3) :

وأُذكر إذ أخبر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم زوجته حفصة بأنّه حرّم على نفسه (مارية) جاريته القبطية، وأسرّ لها بهذا الخبر وقال لها: لا تفشيه، ولكنّها أخبرت به عائشة، وروي أنّه أسرّ لها بأنّ أباها وأبا عائشة سيكونان خَلِيفَتَيْهِ على المسلمين من بعده (رواه ابن عباس والدارقطني عن الكلبي...) ولكنّ حفصة لم تكتم هذا الخبر كذلك عن عائشة، وكَرِهَ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أن يُنشر هذا الخبر الثاني في النّاس. ولمّا أفشت حفصة إلى عائشة بالخبرين ولم تكتمهما عنها لما كان بينهما من صفاء العلاقة، ومن تميّزها على نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الأخريات، أطلعه الله تعالى على ما فعلت حفصة، وعمّا دار بينهما، ولمّا أظهره الله تعالى عمّا دار بينهما واجه حفصة بما فعلت بإفشائها ما أسرّها به، وعاتبها على ذلك ولاَمَهَا على إفشائها السرّ الذي اِستأمنها عليه، (وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ) ولم يشأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يلومها عمّا جاء في بعض حديثها لعائشة، ولم يذكره لها. ولمّا أخبرها الرسول صلّى الله عليه وسلّم بما دار بينها وبين عائشة من إفشاء للسرّ سألته عمّن أخبره بخبرهما وبما دار بينهما. كان سؤالها هذا من دافع الشكّ الذي خطر في بالها، فقد ظنّت أنّ عائشة قد سارعت بإخباره بما دار بينهما، وأجاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأنّ الذي أخبره بما دار بينهما هو الله تعالى (ٱلۡعَلِيمُ) بما يجري في بيت النّبوّة من ورائه وهو (ٱلۡخَبِيرُ) الذي لا يخفى عليه شيء من العلم، ومن معرفة ما يُسَرُّ وما يُعْلَنُ، وقد كان اِطلاع الله تعالى لما جرى من ورائه في بيته لغايةٍ مقصودة تتمثّل في ضمان اِستقرار بيت النّبوّة، وحفظ أسراره، وصيانة لقدر نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأنّهنّ لسن كسائر النّساء، فإنهنّ أمهات المؤمنين رضي الله عنهنّ وأرضاهنّ.

والمستفاد من الآية بالنسبة للنّساء المؤمنات عموما حَضُّهُنَّ على حفظ أسرار بيوتهنّ وأسرار أزواجهنّ، وهذه صفة فضيلة ترفع قدرهنّ عند أزواجهنّ وفي محيطهنّ الأسري.

- إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ(4) :

الخطاب في الآية لحفصة وعائشة رضي الله عنهما، وهذا لرفع الحرج عن بقية نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رضي الله عنهنّ لأنّه لم يكن لهنّ في موضوع إفشاء سرّ رسول الله صلّى

الله عليه وسلّم أيّ علم وأيّ دراية. ومعنى الآية: إن تندما عمّا كان بينكما وعن إفشاء أسرار النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقد مالت قلوبكما إلى واجب المعاشرة مع الزّوج، وحسن السماع للموعظة. وإن تَعَاوَنْتُمَا عليه بما يضايقه ويحرجه فإنّ الله تعالى ناصره وحافظه، وسيكون جبريل عليه السلام وصالح المؤمنين والملائكة عليهم السلام بعد ذلك أعوانًا له وأنصارا له على من يريد به أذًى أو إساءة. وهذا التّحذير للتّأكيد على وجوب المحافظة على أسرار بيت النّبوّة، وللتأكيد على مؤازرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في مهمّته، وعلى السمع والطاعة له.

- عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا (5) :

وهذه في الصفات التي يحبّها الله تعالى في نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والآية لحفز همم نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لينضبِطنَ لهذه الصفات، وهي صفات للمرأة الصالحة. والصالحات من النّساء (مُسْلِمَٰتٍ) أي خاضعات لأمر الله تعالى، وعلى منهج الإسلام: عقيدة وعبادة وعملا صالحا، و(مُّؤْمِنَٰتٍ) صادقات في تصديقهنّ بوحدانية الله تعالى وبرسوله ورسله، وبكتبه، وملائكته، واليوم الآخر، وبكل عناصر الإيمان بالوعد والوعيد وقضاء الله تعالى وقدره، وهنّ (قَٰنِتَٰتٍ) أي قائمات بالطاعات على أكمل وجه وأحسنه، ومطيعات لله تعالى طاعة صادقة، و(تَٰٓئِبَٰتٍ) عائدات إلى ما يحبّه الله تعالى منهنّ، ومستغفرات من كلّ ذنب، و(عَٰبِدَٰتٍ) متذلّلات لله تعالى في عبادتهنّ وطاعاتهنّ، و(سَٰٓئِحَٰتٍ) صائمات أو مهاجرات في سبيل الله تعالى. فإن لم يكنّ على هذه الصفات التي يحبّها الله تعالى منهنّ، وهنّ أمّهات للمؤمنين جميعهم، وقدوة لنسائهم، فإنّ الله تعالى يبدّل رسوله صلّى الله عليه وسلّم بهنّ أزواجا ثيّبات وأبكارا يكنّ على النّحو الذي يريده الله تعالى فيهنّ.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6) :

هذه الآية مع الآيات الثلاث الموالية في العنصر الثاني في السورة، وقد جاء هذا العنصر في موعظة المؤمنين للحذر ممّا يلقي بهم في الهلاك، وذلك بالتّوبة النّصوح التي تفتح لهم أبواب المغفرة، وأبواب الجنان. ومعنى الآية: يا أيّها الذين آمنوا جنّبوا أنفسكم وأهليكم – أزواجكم وذريّاتكم– النّار، واحفظوها من العذاب فيها بطاعة الله عزّ وجلّ، وإنّ هذه النّار تتّقد وتشتعل وتُضْرَمُ بأجساد العباد وبالحجارة المحمية. ويقوم ملائكةٌ على النّار للمداومة على توقُّدِها واشتعالها وإحراق كلّ من يُلقى فيها من عباد الله العصاة الكافرين. وهم ملائكة غلاظ في طباعهم، لا يرحمون، ولا يستجيبون لاستغاثة مَن يستغيث من شدّة ألمه، وهم أقوياء ذوو شدّة في

تعذيب مَنْ أمر الله تعالى بتعذيبه تنفيذا لأمره تعالى، ولا يخالفون في أمره بزيادة أو نقصان، ويفعلون ما يؤمرون به في تعذيب من قضى الله فيه بتعذيبه في وقته، فلا يؤخّرون ولا يقدّمون.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (7) :

يا أيّها الكافرون العصاة المذنبون لا يقبل منكم إِعتذار اليوم، فقد فات أوان الاعتذار وأوان التوبة بموتكم، واليوم تجزون بأفعالكم التي عملتم في دنياكم. قال تعالى (فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ)(الروم الآية 57).

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ(8) :

هذه في ترغيب المؤمنين في التوبة النصوح التي تحقّق لهم الفوز بالنّعيم في الآخرة ومظاهر الإعزاز والاعتزاز. والتوبة النّصوح هي التوبة من الذنب التوبة الصادقة والمخلصة، هي الشعور بالندم على ما فرط من الذنب والإقلاع عنه وعن كلّ سيّئة، مع العزم على أن لا يعود لمثله، والتوبة النصوح محلّها القلب ويُجَسِّمُها العملُ في حزم وعزم على ألاّ عودة لما كان من عمل المعاصي، والتوبة النّصوح الّتي يرغّب الله تعالى فيها عباده المؤمنين في هذه الآية هي التي يرجى منها أن يستر الله تعالى عليهم سيّئاتهم فلا يؤاخذهم عليها ويطهّرهم منها، ويكرمهم بها بأن يدخلهم جنّات النّعيم والإقامة المرفهة يوم القيامة، يوم يكرم الله تعالى النّبيّ مجد صلّى الله عليه وسلّم مع زمرة الذين آمنوا معه بأن تشعّ منهم أنوار فتحفّ بهم من كلّ جانب، من أمامهم ومن حولهم تكريما من عند ربّهم والنّور المقصود إشراقة الإيمان وإشراقة المسرّة بتكريم الله لهم وبالحفاوة والتمييز الذي يحيط بهم، تمييزًا لهم عن سائر خلقه إعزازا، وإنّهم من إعتزازهم بما شرّفهم الله تعالى بهذا التكريم يدعون ربّهم بأن يزيدهم من هذا الفضل، وأن يُديم عليهم هذا التنوير فلا يقطعه عنهم، ويدعونه ليغفر لهم متوسّلين له تعالى بأنّه سبحانه القدير على كلّ شيء، وأنّه لا يعجزه أن يجيب دعواهم، نسأل الله تعالى أن نكون في زمرة هؤلاء المكرمين في صحبة سيّد الأنبياء والمرسلين عليه أفضل صلاة وأزكى سلام يوم الدين وهو تعالى على كلّ شيء قدير وبالاستجابة جدير.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (9) :

يا أيّها النّبيّ اِجتهد في إقناع الكفّار والمنافقين بالحجّة والبرهان بأنّهم على ضلالة، وبأنّهم بعيدون عن الحقّ والصواب، وأنّهم إذا تمادوا في عنادهم وإصرارهم على الكفر والنّفاق فسيكون

مآلهم في جهنّم وما أسوأها من خاتمة، وما أسوأه من مآل ومصير، وأُشدد عليهم في الموعظة وفي الوعيد، ولا تهادنهم، وعاملهم بصلابة وقوّة دون تسامح معهم حتّى لا يتجرّؤوا عليك وليهابوك.

- ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ (10) :

هذه مع الآيتين المواليتين في موعظة المؤمنات ليكنّ سندا لأزواجهنّ وليكنّ عابدات قانتات، وهكذا يحتكم الربط بين بداية السورة وخاتمتها. وهذه الآية في ضرب المثل بامرأتين كانتا خائنتين لزوجيهما. وخيانتهما تمثّلت في إفشاء أسرار زوجيهما لأعدائهما، فكانتا معينتين للأعداء على زوجيهما. ولا يجب فهمُ الخيانة على أنّها خيانةُ فراشٍ كلاَّ هذا ليس من صفات أزواج الأنبياء والرسل. ومعنى الآية: ويوضّح الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات مثل النّساء اللاّئي لا يحبّهنّ الله بامرأتي نوح ولوط، كانتا زوجين لعبدين من عباد الله الصالحين القائمين على طاعة الله تعالى (فَخَانَتَاهُمَا) إذ لم تَفِيَا بحقوق الزوجية، كانتا لا تكتمان عن أعدائهما أسرارهما، وكانتا تنفران من اِتّباع منهجهما في الدّين وطاعة الله عزّ وجلّ، لم تكونا عَوْنَيْنِ لهما، بل كانتا عينين عليهما لفائدة قومهما الكافرين ممّا يتسبّب لهما في إلحاق الأذى بهما وفي مشاقّهما. كانت اِمرأة نوح تصف زوجها بأنّه مجنون، وكانت زوج لوط تفشي جميع أسرار زوجها لقومها. (فَلَمۡ يُغۡنِيَا) ولم يدفع نوح ولوط عليهما السلام مع أنّهما كانا رسولين وكانا عند الله تعالى من المصطفين الأخيار – شيئا من عذاب الله عن الزوجتين – ولن يدفع عنهما يوم القيامة عذاب جهنّم، ولن يشفعا لهما حين يأمر الله تعالى بإدخالهما النّار مع الداخلين إليها من الكفّار.

وفي هذه الآية تنبيه للنّاس ليعلموا أنّ كلّ إنسان لا ينفعه عند ربّه يوم الحساب إلاّ إيمانه وعمله في طاعة ربّه، ولن تنفعه شفاعة الشافعين إن لم يكن مؤمنا.

- وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (11) :

ومَثَلُ المرأة المؤمنة الصالحة اِمرأة فرعون – كانت امرأة مؤمنة عند عبد كافر طاغية يتألّهُ على النّاس، وكانت عنده صبورة رَضِيَةً بما قُسِمَ لها، ولكنّها كانت مخلصة في إيمانها بربّها الواحد الأحد وكانت تناجي ربّها وتدعوه لأن يجعل لها عنده تعالى مقرّا في الجنّة وأن يكرمها بهذا الفضل، وكانت تتبرّأ إليه من كفر زوجها وكفر قومها وتتبرّأ إليه من عمل فرعون، وتطلب من ربّها أن يبعدها عنه وعن قومها الظالمين لأنفسهم بالكفر وبالمعاصي. لقد كانت هذه المرأة صادقة في إيمانها، صبورة على الأذى، منيبة لربّها بالدعاء ومستعينة بربّها عن شدّتها، مُفوّضة



أمرها إليه تعالى فرفع الله تعالى ذكرها وجعلها مثلا في صدق إيمانها وحسن إنابتها لربّها للمؤمنات وجعلها قدوة لهنّ وجعلها أثِيرَةً عنده تعالى ومكرّمة، وهي اِمرأة عادية كسائر النّساء في حياتها العامّة.

- وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ **(12)** :

وضرب الله تعالى للمؤمنات مثل مريم ابنة عمران. كانت صالحة عفيفة وكانت قانتة تمنع نفسها عن الرّجال، وقد آثارها تعالى على سائر الخلق لطهارتها ولاستقامتها في عبادة ربّها ومناجاته فجعلها أُمًّا لنبيّ هو عيسى عليهما السلام بنفخة من روح الله عزّ وجلّ بدون وصل مع رجل. تكوّن فيها الجنين بنفخة نفخها جبريل عليه السّلام في جيبها، وقد صدّقت بما بلّغها به جبريل عليه السّلام عن ربّه تعالى، وصدّقت بالإنجيل الذي أخبرها به جبريل بأن يكون كتاب ابنها عيسى، وصدّقت بأنّ الصبيّ الذي ستحمله هو ممّا كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ ليكون آية على خلقه للإنسان بأمره: كن فيكون. وكانت مريم من (ٱلۡقَٰنِتِينَ) أي من سلالة قوم صالحين عابدين طائعين. وكانت مريم قانتة مطيعة لأمر ربّها، وما كانت ولادتها لعيسى إلاّ من إرادة الله عزّ وجلّ وهي مثال للعفّة وللصلاح.



آياتها	ســـــورة **المُلـــــك**	رقمها
30	ـــــ مكية ـــــ	**67**

تسمّى هذه السورة في المصاحف سورة "المُلك"، وتسمّى عند قرائنا سورة: "تَبَـٰرَك" لافتتاحها بهذا اللفظ، وأمّا السورة الثّانية التي أُفتتحت بنفس هذا اللفظ فتسمّى عندهم وفي المصاحف سورة الفرقان. وهي في الحديث النبويّ الشريف – على ما رواه الترمذي عن ابن عباس وعن أبي هريرة – فهي "المانعة" و"المنجية" تنجي قارئها من عذاب القبر. وهي سورة مكية، وكشأن السور المكية فإنّ مواضيعها في العقيدة: في التوحيد، وفي عظيم قدرة الله سبحانه، وسعة علمه، وهي في الوعد والوعيد، وفي التحذير من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وفي الإيمان بالبعث.

ومن الرغائب في المداومة على تلاوة هذه السورة وحفظها التي جاءت في الحديث النبوي قوله صلّى الله عليه وسلّم : "وددت أنّ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ في قلب كلّ مؤمن" (رواه الترمذي)

- تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ **(1)** :

تعاظم، وتقدّس، وجلّ جلاله، وتعالى قدره، وكثرت خيراتُه الذي بيده القضاء والقدر، المتصرّف في شؤون خلقه تصرّف المَلِكِ، صاحب المُلك كلّه، الوجود كلّه، يعزّ من يشاء، يذلّ من يشاء، يغني ويُفقر، يحيي ويميت، وهو عظيم القدرة، كلّ ما في الوجود تحت سيطرته ونفوذه، وكلّ شيء وكلّ كائن خاضع لأمره ولإرادته.

"هذه الآية دالّة على أنّه الإلاه تعالى واحد" (قاله الرّازي في تفسيره). وقال القرطبي: "قدير على الإنعام والانتقام". وعموما فإنّ الآية تدلّ على تعظيم الله المالك المَلِك القدير وإجلاله.

- ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ **(2)** :

وتبارك الذي خلق الموت والحياة. إنّ الخلق هو الإيجاد والبعث من العدم، من اللاّشيء إلى شيء كائن مصوّر، ولكن كيف يُخلق الموت؟ والموت هو العدم؟ لو تقدّم لفظ الحياة على الموت لقلنا خلق الله سبحانه الحياة للكائن ثم قضى عليه بالموت، ولكن الآية تذكر أنّ الله تعالى قد خلق الموت ثمّ ذكر الحياة، تقدّم لفظ الموت على الحياة فيه إشكال للفهم، ومثل هذا قوله عزّ وجلّ (قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ)(غافر الآية 11). والمعلوم لدينا أنّ الإنسان إذا حيي فإنّه بعد حياته يموت ثمّ يبعث حيّا للحساب، فماذا يعني أنّه يموت ميتَتَيْنِ؟ وتفيد هذه الآية وآية غافر أنّ الله تعالى قد خلق موته قبل حياته، وهذا هو الإشكال في الآية. هل يخلق الموت؟ هل يُخلق



العدم؟ تكلّم علماء الكلام قديما في هذه المسألة. وبرَع فيهم الفيلسوف (ابن رشد) فتحدّث عن واجد الوجود، والموجود بالفعل، والموجود بالقوّة، والمستفاد أنّه لا يجب نفي وجود ما ليس موجودا بالفعل لأنّه قد يأتي إذا كان واجب الوجود وكان في العدم. الإنسان الموجود اليوم، كان في القرن الماضي في العدم ولكنّ الله تعالى قد قدّر إحياءه وإيجاده في زمن معيّن، فمادام قد قدّر الله تعالى إيجاده وحدّد نسله من آبائه فقد خلقه تعالى في صلب آبائه وهو في العدم، وحدّد له أجل ميلاده فلما بلغ أجله وُلِدَ ووُجِدَ حيّا، ثمّ يموت حين يحضر أجل وفاته ثمّ يحيا الحياة الثانية بعد وفاته في دنياه ليقوم للحساب. فخلقُ الموت هو تقدير إيجاد الإنسان أو الكائن قبل حياته، وجعله في العدم إلى أن يحين زمن ظهوره. لقد قدّر الله تعالى أن يبعث للنّاس كافّة نبيّا خاتما ورسولا يعلّمهم الكتاب والحكمة، وأخذ على الأنبياء والرّسل من قبل إيجاده العهدَ ليؤمنوا به، وهو في العدم موجودٌ، وفي الحياة لم يولد بعدُ، وبعد زمن اِمتدّ قرونا بعد هذا العهد، ظهر هذا النّبيّ الرسول وكان محمدا صلّى الله عليه وسلّم من نسل إسماعيل من إبراهيم عليهما السلام. فقد خُلِقَ محمدٌ صلى الله عليه وسلّم قبل ظهوره في قومه، خُلِقَ في نسل أبناء إسماعيل عليه السّلام. فخَلْقُ الإنسان أو الكائن في العدم هو تقدير لوجوده، فإذا وُجد صار حيّا، لذا فإنّ التّقدير في العدم سابق للإيجاد حيّا. وهذا يعني أنّ كلّ موجود كان قد قُدِّرَ له أن يوجد قبل وجوده، وأنّه لم يَحْيَ أو لم يُخْلَقْ أو يُوجَدْ عَبَثًا أو مصادفة. قال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)(المؤمنون الآية 115). وقال عزّ وجلّ (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)(الأعراف الآية 172). فالآيتان تفيدان بأنّ الإنسان قبل أن يوجد حيّا في دنياه كان مخلوقا – بالتقدير، وليس بالتكوين والتصوير – في ظهور آبائه، ثمّ يظهر حيّا في دنياه.

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وقد خلق الله تعالى البشر ليتنافسوا في الأعمال الصالحة، وليُختبروا في إيمانهم، وليمتحنوا فيما يؤتيهم الله تعالى من فضله من الخيرات والقدرات والمواهب والذرية، منهم من يوجّهها في الصالحات من الأعمال، ومنهم من يكون ظالما ومتجبّرا، ثمّ يسألون عمّا فعلوا بما أوتوا. ومن النّاس من يبتلى بالشدّة ويصبر ليتقوّى على اِجتياز الصعوبة، ومنهم من يسخط ويكفر.

ويجوز فهم الآية على النحو التالي: والله تعالى قدَّر للإنسان أجلاً لموته بعد حياته الدنيوية، ثمّ يعيده للحياة يوم البعث في الآخرة ليُحاسب عمّا أُختُبِرَ به في حياته ممّا آتاه الله تعالى من الخيرات أو من الشدائد ليُجازَى عن حسن أعماله إذا أحسن التصرّف فيما أوتي في حياته ممّا قضاه الله تعالى له من خير أو شدّة على أنّ المعنى السابق في الحضّ على التنافس في الإستباق للخيرات، والتنافس في الإكثار منها بما ينفع البلاد والعباد وتحقيق المصالح العامّة.

(وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ) والله تعالى هو القويّ الغالب للكافر العاصي، وهو الغفور للتّائب من عباده المؤمنين.

- ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ **(3) :**

وهو تعالى الذي خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض من غير تَمَاسٍّ. وإنّك – أيّها الإنسان المتدبّر في عظيم خلق الله – لا ترى في ما خلق الله تعالى في الكون من اِختلاف وتباين : كلّ شيء يسير في تناسق واِنسجام ونظام دقيق كالذي تراه في تكوير الليل على النّهار وتكوير النّهار على الليل، وفي حركة القمر، وفي سير الكواكب، إنّك ترى خلقا محكما في صنعه وفي اِستقراره وفي مساره بغير عيب ولا خلل بما يدلّ على حسن الخلق وحكمة التقدير، وأنّ كلّ ما في الوجود خاضع لأمر الله في قيامه كما قُدِّر له. وقلّب بصرك جيّدا فيما خلق الله تعالى في السماوات وتأمّل فيه بدقّة هل تجد فيها خروقا أو صدوعا أو شقوقا. ألا يدلّك هذا على عظمة الله تعالى في الخلق، وعلى حكمته في التقدير والتسيير، وكلّ شيء عنده بمقدار وبميزان.

- ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ **(4) :**

ثمّ أعد النّظر والتّأمّل مرّة بعد أخرى لتكشف أيّ خروق أو أيّ اِضطراب في سير الأفلاك واِنتظام حركتها في دقّة مضبوطة فستتعب في النّظر وفي البحث ويرجع إليك البصر صاغرا ذليلا لأنّه لم يدرك أيّ خلل في بناء السماوات وسيرها وتكوينها، ويعود إليك وهو كليل متعب لأنّه لم يظفر بعد طول نظره بخلل فيها، أعياه النّظر ولم يجد ما يطلبه، وما عليك بعد ذلك إلاّ أن تسلّم لله تعالى بحسن الخلق وعِظمِه، وحكمة التسيير ودقّته، وأن تسلّم لله عزّ وجلّ بعظيم القدرة فتسبّح بعظمته وقدسه وتؤمن به إلاها عظيما قديرا حكيما، لا إلاه سواه.

- وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ **(5)**

وهذه الآية الخامسة في فقرة دلائل التّوحيد. فمن الآيات الدّالة على الله الخالق القدير أنّه جلّ وعلا قد زيّن السماء الدنيا المحيطة بالأرض بنجوم مضيئة، وجعلها مراجم ترمي الشياطين التي تحاول اِستراق السمع بالشهب الحارقة لإحراقها، وقد أعدّ الله تعالى لهذه الشياطين من بعد ذلك عذابا في نار شديدة الإحراق. والمستفاد من الآية تكذيب المنجّمين والكهنة فيما يدّعون لأنفسهم العلم بالغيب، فإنّه لا أحد من البشر وما يتبعهم من شياطينهم عَلِمَ بالغيب والتّنجيم. ليس في النّجوم أخبار عن الغيب، إنّما خلق الله تعالى النّجوم لتكون آية من آياته على عظيم الخلق، وجعلها مصابيح، وزينة، ورجوما للشياطين، وعلامات للاهتداء بها في البرّ والبحر عن الجهة، وعلامات عن الوقت لا غير، ولا يُستنبطُ منها علمٌ بالغيب.

- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (6) :

بعد عرض آيات بيّنات من دلائل التوحيد، ناسب ذلك وعيد الكافرين بهذه الآيات، على الذين لم يؤمنوا بربّهم الخالق القدير، والذين عطّلوا عقولهم عن إدراك الحقّ وتعظيم الخالق وتقديسه.

ومعنى الآية: وإستحقّ الذين كفروا بربّهم عذاب جهنّم في آخرتهم، فما أسوأ مصيرهم ومآلهم!

- ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾ (7) :

وعند إلقاء الكافرين في جهنّم، فإنّهم يسمعون لألسنة اللهيب فيها صوتا يخرج من جوفها بشدّة يزعج سامعه، (وَهِيَ تَفُورُ) وهي تغلي كغلي القدور حين يُحمى عليها بنار مستعرة.

- ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ (8) :

والنّار في جهنّم تكاد تتقطّع وتتفرّق من شدّة الغضب على مَنْ فيها من أعداء الله، وكلّما ألقي فيها فوج من الكفّار يسألهم خزنة جهنّم على جهة التوبيخ والتقريع، ألم يأتكم أيّ رسول من عند ربّكم ينذركم من هذه العاقبة ويحذّركم منها؟

- ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ (9) :

وأجابوا : بلى قد جاءنا رسول حذّرنا من هذا اليوم ومن هذه العاقبة، ولكنّا كذّبنا به وبالبعث وبالوعيد، وكذّبنا بالكتاب الذي جاء به وبالوحي وقلنا له: ما نزّل الله تعالى عليه من شيء. ويردّ عليه خزنة جهنّم: لقد كنتم بعيدين عن الحقّ والصواب بعدا كبيرا حين كذّبتم رسولكم وحين كذّبتم بهذا اليوم وبالوعيد.

- ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (10) :

ويقولون عندئذ مقرّين بضلالهم وبعنادهم وغفلتهم: لو لم نصمّ آذاننا عمّا جاءنا، لو سمعناه وعقلناه بوعينا وفكرنا، واهتدينا بما أرشدنا إليه ما كنّا اليوم من أهل النّار المشتعلة المتّقدة المحرقة.

- ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (11) :

لقد أقرّوا بذنبهم، فبُعْدًا لهم من رحمة الله، وليستقرّوا في السعير، والسحق لأهل النّار...

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ (12) :

وعلى عادة القرآن الكريم في إلحاق الوعد بالوعيد، جاءت هذه الآية في وعد الذين يخافون ربّهم، وذلك بالعمل بطاعته واجتناب محارمه ونواهيه والذين يطمعون في رحمته ورضوانه ويخشون غضبه وعذابه في قرارة أنفسهم، وذلك بمراقبة الله تعالى في أنفسهم وفي أعمالهم وفي أقوالهم مراقبة من يعتقد بأنّ الله سبحانه يراه ويطّلع على ما يفعل وهو لا يراه. هؤلاء يبشّرهم الله

الجوّاد الكريم بمغفرة حتى لا يُؤاخذوا عن سيّئات فرطت منهم، فإنّ الله تعالى يسترها عنهم وينعم عليهم بالثّواب الجزيل والعطاء الكبير في آخرتهم جزاء عمّا كانوا يعملون وعمّا كانوا يعتقدون.

- وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ **(13)** :

هذه في سعة علم الله تعالى، وفي إحاطته علما بما يفعله عباده، وهذا ليخشى المؤمن ربّه بالغيب. ومعنى الآية واكتموا حديثكم فيما تقولون في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفي ما جاءكم به من عند ربّكم، واكتموا حديثكم فيما تتآمروا به على دين الله تعالى وأتباعه من المؤمنين، أو اِجهروا بعداوتكم للدين، وبصدّ أتباعكم عنه، واِجهروا بهزئكم بالوعيد، واجهروا بكفركم فإنّ الله تعالى عليم بكلّ ما يصدر عنكم من قول، وعليم بما يجول في قرارة أنفسكم من خواطر، وبما تدبّرون من مكائد. والخطاب في الآية للكافرين وزعمائهم الذين يصدّون عن سبيل الله، والغرض من الآية إشعارهم بأنّ الله سبحانه سيبطل مكائدهم، وسيفضح أسرارهم، ثم سيحاسبهم عمّا كانوا يقولون سرّا وجهرا.

- أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ **(14)** :

كيف يخفى على الله العليم شيء من أمر خلقه وهو الذي خلقهم وهو الذي صوّرهم وهو الذي أحياهم؟ لا يخفى على الله تعالى شيء من أمر خلقه سرّهم وعلانيتهم، وكلّ صغير وكلّ كبير مسطّرٌ عنده، وهو تعالى (ٱللَّطِيفُ) أي الذي يريد بعباده الخير واليُسر، وييسّر لهم أسباب الفرج من المرض، وأسباب الوقاية من المكروه، ويفتح لهم أسباب اِبتغاء الرزق وتحقيق الرجاء والمصالح التي يبتغونها من حيث لا يحتسبون، وهو الذي يحفظهم من الشرور والمهالك. وهو جلّ وعلا (ٱلْخَبِيرُ) أي العليم بالخفايا والخبايا الباطنية، والعليم بالوجه الأمثل لتسيير أمر خلقه، ويقدّر لهم ما يصلح لهم.

- هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ **(15)** :

هذه آية من آيات الإنعام لمعرفة فضل الله تعالى على عباده ليكونوا له تعالى شاكرين. إنّه تعالى الذي سخّر لكم الأرض رغم صلابتها لتكون لكم ليّنة سهلة مُذَلَّلَة لكم للبناء عليها وللإقامة عليها ولاستغلال خيراتها التي في باطنها، فاسعوا في أطرافها وجوانبها وطرقها لسعيكم ولتجارتكم ولتبادل المنافع، وكلوا من رزق الله تعالى الذي يرزقكم ممّا ينبت فيها من شجر وثمر أو حبّ وزرع وكلإٍ طعاما لكم ولأنعامكم، وأُشكروا الله تعالى على فضله. وعلى ما يسّره لكم لطعامكم ولرزقكم وإقامتكم ولحياتكم، وأذكروا أنّكم عائدون إليه حين يبعثكم من القبور للحساب فأطيعوا الله ورسوله، واعبدوه واشكروا له، واعملوا صالحا، ولا تكونوا من الغافلين.

- ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ **(16)** :

هذه الآية إلى الآية 22 في تحذير المكذّبين بالدّين وبالرسول وبالوعيد من عقاب الله تعالى في دنياهم قبل آخرتهم. ومعنى الآية: أم هل تأمنون قدرة الله تعالى عليكم وأمرَهُ وسلطانَهُ من أن يأمر مَلائكتَه بأن تُنْزِلَ عليكم من السّماء (خاسفا) وهي الزّلزلة القوية التي تجعل الأرض تهتزّ فتدمّر كلّ ما تأتي عليه من بناء قائم وتجعلها تبتلع في باطنها كلّ نفس كان عليها.

- أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ **(17)** :

أم تراكم تأمنون قدرةَ ربّكم عليكم، وتأمنون عذابه، ولا تتوقّعون أن يأمر مَنْ عنده في السماء من جندٍ ليرسلوا عليكم من السماء (حَاصِبًا) وهي الحجارة والحصباء التي تحملها الريح الشديدة فتدمّر البيوت على رؤوس أصحابها وتهلك الزرع والنسل وتزهق الأرواح تحت الأنقاض كما فعلوا بقوم لوط وبأصحاب الفيل، فستعرفون يومئذ كيف يكون إنذار ربّكم وتحذيره وتخويفه من أن تكفروا به وبرسوله وبوعيده، وستعرفون عاقبة تكذيبكم بما جاءكم به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعاقبة هزئكم بالنّذير.

- وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ **(18)** :

ولْيَعتبر المكذّبون بالدّين بعاقبة أسلافهم المكذّبين، كيف كان غضبُ الله عليهم. هلك قوم عاد بريح صرصر عاتية، وعوقب قارون بالخسف، وأغرق قوم نوح وكذلك فرعون وجنده، وأخذت الصيحة قوم صالح، إنّ غضب الله تعالى شديد البأس على المكذّبين بوحدانيته وبرسله.

- أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ **(19)**

أُنظروا إلى قدرة الله تعالى في خلقه للطير، وفي حركته لتعرفوا قدرته على خلقه، فقد أرسله على أصحاب الفيل بحجارة من سجّيل فجعلهم كعصف مأكول، ولتعرفوا كذلك لطفه بأضعف مخلوقاته إذ سخّر للطير الصغير الضعيف الفضاء الفسيح الرحب والأجواء العالية لطيرانه ولسعيه وللنجاة ممّا يخاف، وللطير ريش لا يوزن من خفّته ورقّته ولكنّه عظيم الأثر في تكييف جسمه فلا هو يقتل من برد قارس، ولا يتأذّى به من شدّة الحرّ والقيظ. ومعنى الآية: أو لم يدقّقوا النّظر في الطير الذي يطير فوق رؤوسهم باسطا أجنحته في تناسق عجيب، وفي حركة منتظمة في فضاء فسيح دون أن يسقط أو يتأذّى بريح أو شمس أو برد، ويلعب في جوّه فيقوم بحركات بهلوانيّة، (وَيَقۡبِضۡنَ) وأحيانا يضرب الطائر بجناحيه ليزيد من تحريك الهواء ليستمرّ هذا بعضٌ ممّا أودع الله تعالى في أضعف خلقه من أسرار فجعله آية من آيات بديع خلقه وصنعه وآية من آيات حكمته في التسيير وفي تنظيم حياة مَنْ خلق. الطير الذي يطير فوق رؤوسكم في الفضاء الرحب ما يمسكه إلاّ الرّحمان الذي تسألون عنه بقولكم : "وما الرّحمان"؟ ألا ترون آية من آيات رحمة الخالق الذي خلق الضعيف في أحسن صورة وجعله آية زينة وآية عظمة من ضعف،

وكذلك جندا لعقاب القوم الكافرين. إن الله تعالى بصير بما يلزم خلقه ليحيا وعليم بلوازمه ومقتضياته.

- أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ (20) :

أم هل عندكم أعوان وأنصار أشدّاء تعتمدون عليهم لينقذوكم من عذاب الله تعالى إن جاءكم، ويردّونه عنكم، وينصرونكم فلا يصل إليكم شيء من عقابه، فلذلك كفرتم وهزأتم بوعيده. إنّما الكافرون المكذّبون لفي جهل كبير من أمر ربّهم، وفي اِغترار.

- أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) :

أم عندكم من يرزقكم لتأمنوا حياتكم ومكاسبكم غير الله تعالى، حتى إذا أمسك الله تعالى عنكم الرّزق وحرمكم المكاسب وجدتموه معينا لكم؟ كلاّ.. ليس لكم من رازق كريم غير الله الرّزاق المالك لما في السماوات وما في الأرض... ولكنّ هؤلاء ضلّوا في عنادهم، وتمادوا في كبريائهم وفي إعراضهم عن الإيمان وعن الاستقامة على دين الله من عمى بصيرتهم ومن جهلهم.

- أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (22) :

هذه الآية في ضرب المثل بالمؤمن المهتدي، وبالضالّ عن دين الله تعالى. مثل المتكبّر عن الاهتداء لدين الله تعالى مَثَلُ من يمشي في طريقه منكسر الرأس، وجهه إلى أسفل، لا يأمن العَثْرَة، أو السقوط في حفرة، وهو تائه، وأمّا مثلُ المؤمن المهتدي كمثل من يمشي في طريقه معتدلا، منتصب القامة، آمنا على نفسه من العثرة ومن سقوط في هاوية، وهو يعرف طريقه وهدفه. فأيّهما أعلم بطريقه؟ وأيّهما آمنٌ على نفسه من المكاره؟ وأيّهما أحسن حالا في مشيه وفي معرفة طريقه؟ وأيّهما أكثر ضمانا على سلامة نفسه وراحتها؟

- قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (23) :

هذه الآية مع الآية الموالية في الرّدّ على الذين لا يؤمنون، الذين يصرّون على كفرهم وجهالتهم. وهذه الآية كقوله تعالى (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)(الأحقاف الآية 26) ومعنى الآية : ذكّر هؤلاء المعاندين المكذّبين بالدين وبالوعيد والكافرين بوحدانية الله عزّ وجلّ بأنّ الله سبحانه هو الذي خلقهم وهو الذي أنْبَتَهم وأخرجهم أطفالا ثمّ بلغوا أشدّهم، وهو الذي جعل لهم السمع ليعقلوا ما يسمعون فيهتدوا بما يسمعون أو يحذروا ممّا يخفيهم بما بلغ لمسامعهم، وهو الذي جعل لهم الأبصار ليعرفوا طريقهم ولينتفعوا بما يبصرون ممّا خلق الله تعالى لهم، وجعل لهم قلوبا ليكونوا واعين ولترشدهم مشاعرهم وأحاسيسهم لما يجب عليهم فعله، ولكنّهم عطّلوا سمعهم وأصمّوا آذانهم عن معرفة الحقّ ودلائله، وأغشوا على أبصارهم وأعموها فلم

يروا بها آيات الله تعالى ودلائله فبقوا على جهالتهم، وغطّوا على قلوبهم وغلّفوها فلم تَلِنْ للحقّ، وتحجّرت عنادا ومكابرة، ولم يكونوا من عباد الله الشاكرين على فضله إذ أرسل إليهم رسولا لهديهم فلم يسمعوا له وكذّبوا، وأنزل لهم قرآنا هاديا للحقّ فكذّبوا به وتولّوا عن سمعه، ولم ينظروا في حججه ودلائله، وصدّوا عن سبيل الله كفرا وعنادا من تحجّر قلوبهم.

- **قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) :**

وذكّرهم بأنّ الله تعالى الذي خلقهم هو الذي نشرهم في أصقاع الأرض فجعلهم شعوبا وقبائل، وأنّهم جميعا سيعودون إليه تعالى بعد مماتهم، وسيُعرضون عليه لمحاسبتهم عن إيمانهم وعن أعمالهم، وسيعرفون حقيقة ما كانوا به يكذّبون، وويل لهم ممّا يكذّبون به من الوعيد على الكفر وعمى البصيرة.

- **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (25) :**

هذه الآية مع الآيات الثلاث في الردّ على المكذّبين بالبعث وبالوعيد. يسألون سؤال الذي يستبعد حصول البعث، وسؤال من يُنكر حصول عقاب وعذاب للكافرين بالدّين ويوم القيامة: متى هذا الوعد؟ وممّا يؤكّد تكذيبهم بما بلغهم عن يوم القيامة للإعداد له بالإيمان والعمل الصالح، وممّا يؤكّد تكذيبهم كذلك بالوعيد قولهم: إن كنتم صادقين، وقد توجّهوا بهذا للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي عرفوا من قبلُ صدقه وأمانته، وللمؤمنين الذين اِتّبعوه، وما كان شكّهم في صدق رسولهم وفيما بلّغهم به إلاّ من عنادهم ومكابرتهم وكبريائهم.

- **قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (26) :**

هذه كقوله تعالى (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ)(الأعراف الآية 187) ومعنى الآية: إذا سألك –يا نبيّ الله – المكذّبون بالقيامة متى ستقوم، فأجبهم بأنّ العلم بموعدها عند الله تعالى، لا يعرفه إلاّ هو سبحانه، وإنما أنا رسول ربّكم لأبلّغكم بها ولأحذّركم من الغفلة عن الإعداد لها بصدق الإيمان وحسن العمل، وأنا شاهد عليكم بأنّي قد أنذرتكم منها.

- **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (27) :**

وهذه في حال المكذّبين يوم يبعثون. ومعنى الآية: وحين تقوم الساعة ويُبعث جميع الخلق، وحين يُعاينُ المكذّبون بالوعيد ما ينتظرهم من الحساب ومن العذاب، ويتأكّدون يومئذ بأن ما كانوا ينذرون به كان حقّا إذْ رأوه قريبا منهم (تسُوءُ) وجوههم، أي تسودّ وتتقبض وتكتئب خوفا وذُلاًّ وغمًّا، (وَقِيل) وفي نفس كلّ واحد منهم قائل من ذاته يقول له: هذا الذي تراه هو الذي كنت وأمثالك من الكافرين به تطلبون أن تروه، وتستعجلون حصوله من اِستبْعادكم لحصوله ومن اِستهزائكم بخبره ومن إنكاركم له.



- قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) :

وهذه في الردّ على الذين كانوا يصدّون عن سبيل الله وكانوا يتمنّون الموت للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو يتآمرون على قتله. ومعنى الآية: أخبرهم – يا نبيّ الله – أرأيتم إن أماتني الله تعالى – والموت بيد الله سبحانه وليس بأيديكم، وأمات جميع من معي ممن آمن واِتّبعني فاسْتَرَحْتُم من الإنذار بالوعيد ومن البلاغ بأنّكم على ضلال وجهالة في دينكم ومعتقدكم وفي تكذيبكم بما جئتُكم به من عند ربّي، أو أنّه تعالى يقدّر أن يرحمنا فيُحْيِينا ويُمِيتُكم، فمن سيشفع لكم من عذاب الله الموجع أو يحميكم منه ليدفعه عنكم؟ ليس لكم من عذاب الله تعالى إذا جاءكم لا شفيع ولا نصير ولا دافع...

- قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (29) :

بهذه الآية مع المُوالية لها تختم هذه السورة، وفي هذه إعلانٌ عن الإيمان، وتهديد لمن هو في ضلال مُبين. وفي الموالية تحذير من عذاب بالقحط واِنقطاع الماء، وليس من بلاء أشدّ وعذاب لا يحتمل لمن سكن في صحراء وجبال رواسي ومُنع القطر، وغار عنه ماء البئر. ومعنى الآية: أعلن فيهم – يا نبيّ الله – بأنّك وأتباعك المؤمنين بأنّكم قد آمنتم بالرّحمان ربّا، وأنّكم على الرّحمان قد توكّلتم في جميع أعمالكم وأداء طاعاتكم. وقد جاء في هذه الآية ذكر الله تعالى باسمه الرّحمان لإغاظة المشركين الذين قالوا: وما الرّحمان، وزادهم نفورا، ومن غرائب القوم أنّ مسيلمة الكذّاب الذي ادّعى النّبوّة بعد اِنتقال النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى الرفيق الأعلى قد سمّى نفسه: رحمان اليمامة، وما هو إلا كذّاب اليمامة.

(فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) الخطاب في هذه الجملة لكفّار قريش، وهي في تهديدهم بسوء العاقبة في آخرتهم لأنّهم كفروا بربّهم وكذّبوا رسوله وكذّبوا بالوحي وبالقرآن وبالبعث وبالوعيد فكانوا بكفرهم هذا بعيدين عن الحقّ بعدا واضحا وبعيدين عن الصواب وضائعين عنه وتائهين لجهلهم وعنادهم.

- قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ (30) :

وحذِّرْهُم من عقاب الله تعالى بالقحط، واِسألهم إذا أصبح الماء المكتنز في باطن الأرض بعيد المنال عنهم، غائبا، فمن غير الرّحمان سبحانه يجري لهم الماء السائل، سهل التناول، الظاهر للعيان؟ فاتقوا الله واعبدوه، وسلوه رحمته وفضله. ومن نباهة المؤمن فإنّه حين يسمع هذه الآية أو حين يقرأها فإنّه يجيب نفسه عن هذا السؤال بقوله: إنّه الله الرّحمان سبحانه.

ولقد أصاب قريشا بعد نزول هذا التحذير عذاب القحط الذي جاء خبره في سورة الدخان، فليحذر المؤمنون غضب ربّهم بالمداومة على طاعته، وبتقييد نعمة الله عزّ وجلّ بالشكر.



رقمها	سـورة القلـم	آياتها
68	ــــ مكية ــــ	52

سمّيت هذه السورة بـ"القلم" لما جاء في مفتتحها القسم به. وهي سورة مكية، ولذلك فإنّ مواضيعها في العقيدة: في تثبيت الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم وتصديقه، وفي تعزير الكافرين وخاصة ساداتهم غلاظ الطبع الشرّيرون، وفي تحذيرهم من سلب النّعمة منهم كشأن أصحاب الجنّة الذين حرموا خيرات أرضهم، وجاء فيها إنذارهم كذلك بسوء العاقبة يوم الدين لشدّة عداوتهم للدين ولرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وللقرآن.

وقد روي أنّ هذه السورة قد نزلت بعد "اقرأ باسم ربّك..."، وفي رواية لعائشة رضي الله عنها، "أنّ أوّل ما أُنزل سورة اِقرأ باسم ربّك، ثمّ فتر الوحي، ثمّ نزلت سورة "المدثّر"، وانتهى قول عائشة وزاد الرّواة فقالوا ثمّ نزلت سورة "المزمّل"، ثمّ هذه السورة. وعموما فإنّها سورة من أوائل سور التنزيل.

- نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ (1) :

هذه الآية إلى الآية 7 في تمجيد القلم وأخلاق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لإبطال مزاعم المشركين في الكتاب وفي صدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وإذا علمنا أنّ هذه السورة من أوائل سور التنزيل، فإنّ هذا الافتتاح بهذا الحرف هو أوّل إفتتاح للسور بالحروف المقطعة التي لا يعرف سرّ الافتتاح بها لكلامه تعالى في القرآن إلاّ هو سبحانه. وقد أثار هذا الافتتاح سؤال الفصحاء والبلغاء اِهتمامهم وسألوا عن سرّه وحيّرهم الجواب عنه.

وأمّا القسم بالقلم فلتشريف هذه الأداة للكتابة. والقلم عند الله عزّ وجلّ هي الأداة الّتي تخطّ أمره وأحكامه وقضاءه وقدره، وكلّ ما يقدّر من أمر لكلّ مخلوق من مخلوقاته إلى يوم القيامة، وما يقدّره لأجَلِ كلّ مخلوق ليظهر حيّا، وأجل موته أو اِندثاره وهلاكه، وما يقدّر له لرزقه تسخيرا أو تدبيرا من السعي والكسب، وكُلٌّ عنده في كتاب قد سطّره القلم بأمره كن فيكون. قال تعالى (وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ)(هود الآية 6)، وقال عزّ وجلّ (وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ)(يونس الآية 61).



والقلم بيد الملائكة الحافظين أداة لتسطير ما يأمرهم الله تعالى بخطّه في اللوح المحفوظ. وما يُكتب في اللّوح المحفوظ لا يعرفه أحد ولا يطّلع أيّ أحد إلاّ من أذن الله تعالى له من ملائكته المقرّبين ولمن شاء تعالى لأحد من أنبيائه أو رسله وحيا.

والقلم الذي بيد الملائكة الرقباء الكاتبين هو الذي يسطّرون به في سجلّ كلّ إنسان قوله وعمله وكلّ ما يصدر عنه عن حسن نيّة أو لكيدٍ يكيده، ويسطّرون به الشواهد على فعله: صغيرها وكبيرها، قال تعالى (وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا)(الكهف الآية 49). وقال عزّ وجلّ (فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ)(الحاقّة الآية 19). فهذه الكتب التي تقدّم لأصحابها يوم القيامة للمحاسبة على ما فيها من حصائد الأعمال والأقوال هي من تسطير الملائكة. والتسطير هي الكتابة، وضمير الجمع في (وما يسطرون) هو للملائكة الحفظة، والكتبة، وهي الأقلام التي تجري على اللوح المحفوظ بأمر الله عزّ وجلّ لكتابة ما يُملى عليها من قضاء الله تعالى وقدره وأمره.... والله أعلم.

وأمّا القلم بيد الإنسان فهو أداة تواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان وإن باعد بينهما الزمان، وإختلفا في المكان وفي اللغة. إذا كان بيد العالم فهو أداة نقل للعلم والتجربة للمتعلّم، وإذا كان بيد الأديب الأريب كان أداة تعبير عن حكمة وفكر رشيد، وعن عواطف إنسانية نبيلة ترقّ لها المشاعر وتسمو بها الأخلاق وتدفع لكلّ عمل نبيل فيه حبّ الإنسان والدفاع عن حقّه في الحياة وفي العدل وفي العلم وفي الحرية... وهو في يد المؤرّخ شواهد عن العصر وتدوين وثائق وعبر، وهو في يد المهندس تخطيط لعظائم إبداعات الإنسان في العمارة وعمران المدن. فالقلم يسطّر على صفحات الكتب والمدوّنات علما وثقافة وفكرا وحكمة عِبَرًا وشواهد وحضّا على حسن الخلق وعلى الصدق في كلّ قول وعمل، وعلى الإحسان في كلّ معاملة بين البشر. وعلى قدر جدّية الكتابة وأهميتها يطول عمر الكتاب ويطول ذكر صاحبه وإن عفا عنه الزمن بوفاته، وأمّا السفاسف فتذهب جُفاء. وإنّ من خير ما يُخَلّدُ به الإنسانُ كتابًا يقرأه النّاس لتنوير بصائرهم وللانتفاع بعلمه. والكتاب من ثمرة عمل "القلم". وإنّ من عظمة هذا الدّين أن بادر الوحي بالأمر بـ "اقرأ" للعلم والمعرفة ولفتح البصيرة ورفعًا للجهالة والضلالة، ثمّ كان القسم بـ "القلم" أداة البيان عن الفكر وصوت العقل والحكمة. وإنّ الخطّ بالقلم موهبة، ومن أوتي هذه الموهبة ليعبّر عن مكنون النفس والفكر فقد أوتي خيرا كثيرا بما يرفع ذكره بعد موته، وأمّا من أوتي هذه الموهبة فصرفها فيما يفسد أخلاق الناس وفيما يزيّن لهم الباطل والفواحش والمفاسد فسيكون شاهدا عليه يوثّق فساد دينه وفساد خلقه يوم الحساب، وسيحشره ما سطّره بقلمه في صفحات كتابه مع

المفسدين في الأرض في أتّون العذاب مع الأشرار. وعموما فإنّ القسم بالقلم تشريف للكتابة والقراءة والتعليم والتأليف والتّدوين، وليحذر كلّ كاتب من أن يخطّ بيده وبقلمه وثيقةً تكون شاهدة على فساد رأيه، أو على كفره، فيكون قد خطّ بيده سوء عاقبته.

- **مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ (2) :**

هذا جواب القسم بالقلم. المخاطَبُ فيه هو النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم. وفي هذا الجواب ردُّ التّهمةِ عنه بالجنون. قال تعالى (وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ)(الحجر الآية 6). لمّا صدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما أُمِرَ وأخبر قومه بأنّه نبيّ من عند الله تعالى مرسل إليهم ليهديهم إلى صراط الله المستقيم وأنّه قد أوحي إليه كلامه تعالى قرآنا عربيا لهداهم ليرفع عنهم الجهل الذي كانوا عليه اِتّهمه زعماء الكفر وسادة قريش بالجنون. وجاءت هذه الآية بنفي الجنون عنه نفيا مؤكّدا قصد تثبيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولإثبات صدقه. وأمّا نعمة ربّه عليه فهي اِصطفاؤه بالنبوّة وبالرسالة وبالوحي وبالكتاب.

- **وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ (3) :**

وهذه في تبشير النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأرفع الأجر على أداء رسالته في صبر وثبات ومداومة على التبليغ، وهو أجر متّصل غير منقطع. هو في الدنيا نصرٌ وإظهار على المشركين وعلى المنافقين، وهو في الآخرة أرفع درجات التكريم.

- **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ (4) :**

وإنّك – يا محمد – على درجة عالية من الفضائل ومكارم الأخلاق والآداب التي أدّبك الله تعالى عليها. وهذه شهادة من الله تعالى على رسوله صلّى الله عليه وسلّم بأنّه ذو أخلاق بالغة في حسنها وكمالها، وهذا لإلهاب مشاعر المؤمنين ليتّخذوا رسولهم أسوة حسنة في دماثة الأخلاق وحسن القول ولطف المعاملة مع الناس بالكرم واللين والتودّد وبالحقّ والعدل والنّصح والإرشاد. والخلق ملكة نفسية تُهذّب بالتربية على المكارم في البيت ثم في المدرسة وفي المسجد والأماكن العامّة من مثل المعاهد ودور الثقافة والجمعيات الخيريّة. وهي ملكة تكتسب بالعلم والتثقّف بما يقوّم الاعوجاج، وظاهرها التعامل بالحسنى مع الناس وبالبرّ مع الوالدين وبحسن الصلة مع القرابة وحسن الصحبة مع الأقران في صدق وإخلاص ومؤازرة، فإذا كان المرء محبوبا عند الناس حسنَ الذِّكْر عندهم في غيبته، وإذا كان يحظى عند أقرانه ومحيطه ومع من يعمل معه بالتقدير والاحترام فهو على خلق، وإذا كان أحدهم غليظ الطبع، متجافيا، يتحاشى الناس تقربَه والتعامل معه فهو رجل لا خُلقَ له. وقد جاء في الحديث النّبويّ الشريف: إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا، وإنّ من أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلسا

يوم القيامة الثرثارين والمتشدّقين والمتفيقهين" وروى الترمذي عن أبي الدرداء أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإنّ الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء".

وإنّ أفضل مصدر للتأدّب على حسن الخلق العمل بما أرشد الله تعالى إليه في كتابه القرآن الكريم. قد رَوَى مسلم عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنّها قالت في خلق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "كان خُلُقُهُ القرآن". وقال عليّ رضي الله عنه: "هو أدب القرآن". والمصدر الثاني للتأدّب على حسن الخلق العمل بسنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، فقد روي عنه أنّه قال: "إنّ الله بعثني لأتمم صالح الأخلاق" وفي رواية: "مكارم الأخلاق". وروي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "أدّبني ربّي تأديبا حسنا" إذ قال: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين". وقد جاء في الكثير من أحاديثه صلّى الله عليه وسلّم الحضّ على أن يُتْبِعَ المؤمنُ السيئةَ بالحسنة، وأن يخالق الناسَ بخُلُقٍ حسن.

ويعجب المرء من الذي يرسم لهذا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم صورة الإرهابيّ المخيف ليعبّر برسمه عن كراهيته لهذا الدين وأتباعه. ومن الكتّاب من يكتب عن بيت النبوّة وعن الغزوات ما يسيء لسيرة هذا النّبيّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، ومنهم من كتب في الوحي: الآيات الشيطانيّة، ومنهم من كتب الكتاب أو المقال في هذا الدين بما يصفه بأنّه دين العنف والإرهاب والتشدّد من حقده على الإسلام والمسلمين وعلى نبيّهم الكريم الذي شهد الله تعالى له بأنّه على خلق عظيم، وكفى بالله شهيدا...

- فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ (5) بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ (6) :

وقريبا سترى وسيرى المشركون حقائق ما ينكرون، وسيرون من هو المجنون حين ينهزمون وحين تكسر شوكة الشرك، ويظهر دين الله عزّ وجلّ.

- إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ (7) :

وهذه الآية لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّ الله عزّ وجلّ سيفصل بين الضالّين والمهتدين بالحقّ، إنّه تعالى لأعلم بما في صدور عباده، يعرف المعرض عن هديه والمتولّي عن دينه والمتمسك بضلالته، وهو تعالى العليم بعباده المؤمنين المهتدين المستقيمين على دينه وطاعته، وهو الذي سيفصل بينهم بإظهار المهتدين ونصرهم يوم يحلّ عقابه على من ضلّ عن سبيله ونَأَى عنه.

- فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (8) :

هذه إلى الآية 16 في صفات المكذّبين بالدّين وبالرسول وبالقرآن وفي أخلاقهم.

وهذه الآية في تسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يحزن لموقف زعماء قومه وساداتهم بتكذيبه وقد عرفوه من قبل بأنّه صادق وأمين، لا يكذب، وأنّه أمّيّ ما كانوا يسمعون منه قولا كالذي جاءهم به والذي تحدّى بلغاءهم وفصحاءهم بأن يأتوا بقول مثله. ومعنى الآية: فلا تطع – يا نبيّ الله – المشركين فيما دعوك إليه من العودة إلى دينهم، وترك ما تدعوهم إليه من الهدى.

- وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ (9) :

ودّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم، وذلك بأن تركن إليهم وتترك الحقّ فيلينُون إليك ويُرَاؤون. طلب منه بعضهم بأن يعبد محمد صلّى الله عليه وسلّم آلهتهم مدّة، ويعبدوا إلاهه مدّة. وعموما فإنّ المداهنة هي المصانعة، وهي من الكذب والرياء والنّفاق.

- وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ (10) :

ولا تطع – يا نبيّ الله – كلّ من كان كثير الحلف. ولا يكثر من الحلف إلا كذّاب حقير، وضيع. ومن المُثُلِ التي حفظناها في صغرنا: "كلّ حلاّف كذّاب". وذلك ليطمس على كذبه بالحلف. والصادق الصدوق لا يحلف.

- هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ (11) :

الهمّاز هو الذي يغتاب النّاس يعيب عليهم أعمالهم وأخلاقهم، والمشّاء بنميم هو الذي يفسد بين النّاس بالوشاية ونقل الكلام على غير وجهه. وقد قال تعالى في مفتتح (سورة الهمزة) (وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ). وهاتان الصفتان من خلق اللئيم. وقد نهى الإسلام عنهما، ولا يكون المسلم همّازا ولا نمّاما.

- مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ (12) :

هذه كقوله تعالى في مفتتح (سورة الماعون) (أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ). المكذّب بالدّين بخيلٌ لا ينفق ماله في وجوه البرّ، وكثيرا ما ينفقه في معاصيه، لا يأتي منه خير لمصلحة عامّة، وهو ظالم، وجائر في حكمه، وجلف في تعامله مع الضعفاء، وهو (أثيم) كثير الآثام، يأتي المعاصي بكلّ أشكالها، ولا يكون المؤمن على هذا النحو مطلقا.

- عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (13) :

ومن صفات المكذّب بالدّين أنّه (عُتُل) وهذه مذمّة في خلقه وفي سلوكه، فهو في تعامله مع النّاس غليظ الطبع، سريع الغضب، متجافٍ وسيّء الخلق. وفوق هذا فإنّه (زَنيم). والزّنيم هو



المطعون في نسبه، أو هو الذي ألحق بقوم أو بعشيرة وهو ليس منهم، وهذا الصنف من الناس لا يكون إلاّ شرّيرا، وحاقدا.

- **أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) :**

وقد ساءت أخلاقه على هذا النحو لأنّه كان ذا مال كثير، فاغترّ بغناه واِحتقر الفقراء والمستضعفين وكان ذا بنين يطيعونه فيما يأمرهم به فاستكبر وطغى. قال تعالى (كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ)(العلق الآيتين 6-7). وقد توعَّد الله سبحانه هذا الصنف بشدّة العذاب فيما جاء في قوله تعالى (ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا وَبَنِينَ شُهُودٗا)(المدثر الآيات 11-13).

- **إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (15) :**

هذه كقوله تعالى (وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ)(الأنفال الآية31). ومعنى الآية: ومن مظاهر اِستكبارهم أنّهم حين تتلى عليهم آيات الله تعالى لهديهم وللاعتبار بسوء عاقبة الأمم السالفة الذين كفروا بربّهم وبرسله قالوا عن كلام الله عزّ وجلّ إن هذا خرافات الأوّلين وأقاويلهم. وهذا من أشدّ مظاهر كفرهم بالقرآن ومن أشدّ مظاهر صَمّ آذانهم عن سماع هدى الله تعالى وما كان قولهم هذا إلاّ من شدّة غرورهم ومن اِستكبارهم عن الحقّ.

- **سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ (16) :**

وهذه لوعيدهم. سنجعل لكلّ واحد منهم علامة على أنوفهم يعرفون بها بأنّهم من أهل الشرّ، فلا يُقربون، ويظلّون بها مهانين، منبوذين ومحتقرين.

- **إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ (17) وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ (18) :**

الآيتان إلى الآية 33 في موعظة المكذّبين ليعتبروا بسوء عاقبة أصحاب الجنّة. والجنّة هنا بمعنى البستان المتّسع الذي فيه من كلّ ثمرات المكان، وفيه زرع، وفيه عين ماء، وتنتج أرضه الخير الكثير. وكان هذا البستان ملك رجل صالح، كان يتصدّق من خيراتها على كلّ محتاج وفقير يقصده، وكان عنده عمّال يكرمهم، فلمّا مات ورثه أبناؤه، ولم يكن أبناؤه بمثل سيرته في عمله الصالح، بل كانوا يتذمّرون من كثرة عطاء أبيهم وكثرة صدقاته وكثرة توافد الفقراء عليه حين يحين حصاد الزرع، أو حين يحين جنيُ الثّمر، فقرّروا أن يجمعوا حصادهم أو أن يجنوا ثمارهم بكرة والنّاس نيام ودون أن يفطن بخروجهم فقراؤهم حتّى لا يعطوهم شيئا ممّا يحصدون أو يجْنُون، فعاقبهم الله تعالى على بطرهم بأن طاف على البُستان طائف فأهلك زرعهم وثمارهم لأنّهم كانوا جاحدين ولم يكونوا مثل أبيهم عبادا شاكرين ومنفقين.

ووجه الاعتبار بهذا المثل تذكير أهل مكة بأنّ الله تعالى قد أنعم عليهم إذ جعل بيته الحرام في أرضهم، وجعل بلدهم حرما آمنا، وكان الناس يأتونهم من كلّ فجّ عميق بثمارهم وبالأموال



وبالتّجارة، فتدفّقت عليهم الخيرات من كلّ جهة دون أن يُسافروا أو يتعبوا في طلبها، ثمّ أتمّ الله عليهم نعمته بأن أرسل فيهم رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم نبيّا منهم ليعلّمهم الكتاب والحكمة وليرفع عنهم الضلالة والجهالة ولهديهم لصراط الله المستقيم، وأنزل عليهم كتابا بلغتهم فشرّفهم بهذا تشريفا عظيما، ولكنّهم لم يكونوا عبادا شاكرين، بل قابلوا الهدى بالكفر، وكذّبوا بالتنزيل، واتّهموا الصادق الأمين بالجنون، وصدّوا عن سبيل الله، فكانوا جاحدين. وضرب المثل هذا بأصحاب الجنّة في توعدهم وفي تهديدهم وفي تحذيرهم بأن يسلبهم الله تعالى نعمته عليهم إن أصرّوا على كفرهم ولم يرجعوا عن غيّهم.

ومعنى الآية، وضمير الجمع للغائبين عائد على أهل مكة، إنّا اِختبرنا أهل مكة بالإنعام عليهم بالكثير من الخيرات والفضائل أهمها أمن بلادهم ووجودهم في حرم بيت الله الحرام وباصطفاء النّبيّ الخاتم من أنفسهم وبإنزال كتاب الله المهيمن القرآن بلسانهم لهديهم وليستقيموا على دين الله ليفوزوا في آخرتهم بالرضوان وجنّات النّعيم، بمثل ما اِختبرنا ورثة الرجل الصالح صاحب البُستان الواسع ذي الخيرات الكثيرة المتنوعة، ولكنّهم لم يكونوا عبادا شاكرين، فقد أقسموا بأن يجمعوا ثمار أشجارهم عند الصباح الباكر قبل أن يستيقظ الفقراء، وقبل أن يشعروا بهم عند خروجهم حتى لا يتبعوهم، وهم ينوون أن لا يعطوا المساكين حصّتهم ممّا يجمعون على ما كانوا يأخذون في حياة أبيهم، مخالفين بهذا عادة أبيهم الرجل الصالح الذي كان من عباد الله الشاكرين المنفقين في سبيل الله ممّا آتاه الله تعالى من فضله.

- **فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ (19) فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ (20) :**

فمرّ على البُستان بلاءٌ أهلك ثمارها وأفسدها وأضرّ بالتُربة فأصبحت بعد ما كانت جنّة (كَٱلصَّرِيمِ) كالليل الأسود، أصبحت بعد غِناها ونضارتها كأنّها محروقة حرقا شديدا. ومرّ عليها هذا الطائف ليلا وأصحابها نيامٌ.

- **فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ (21) أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ (22) :**

وعند اِنبلاج الصباح أيقظ الأولاد بعضهم، ودَعَوْا أنفسهم لأن يباكروا في الذهاب لبستانهم وحقلهم لجني الثمر وحصد الزرع، وجمع المحصول إذا كانوا (صَٰرِمِينَ) أي عازمين على المُضِي للجنّة وعازمين على العمل.

- **فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ (23) أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ (24) :**

ونهضوا من نومهم، ومضوا إلى جنّتهم مسرعين، ويوصي بعضهم بعضا بصوت خافت منخفض بأن يحافظوا على خفض أصوات حركتهم حتى لا يشعر أحد من المساكين بخروجهم

لعملهم، وحتّى لا يدخل عليهم أحد منهم عند جنيهم لثمارهم كيلا يُضطرّوا لأن يتصدّقوا بشيء من المحصول على أحد منهم، وليستأثروا بكامل المحصول في غَيبَتِهِم.

- وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ (25) :

ومضوا في جِدٍّ من أمرهم في عزمٍ وهم على اِستعداد تامّ وفي قدرة على الجمع أو على الحصاد وفي عزم على حرمان المساكين ممّا كانوا ينتفعون في حياة أبيهم، وفي إصرار على ذلك.

- فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ (26) :

وحينما بلغوا جنّتهم، ورأوها محروقة كالليل الأسود اِندهشوا لما حدث لها وللصابة وشعروا بخيبة كبيرة، حتّى قال بعضهم: لقد أضعنا طريقنا إلى جنّتنا، ما هذه جنّتنا، وذلك من شدّة ما أصابهم من الدهشة، ثمّ لما هدؤوا وهم في حيرة كبيرة عرفوا أنّهم قد عوقبوا بسبب ما عزموا عليه من حرمان المساكين حقّهم فيما فرضه الله تعالى على خراج الأرض، أرادوا حرمان المساكين من حقّهم فحرمهم الله تعالى خيرات الأرض وما نبت فيها.

- بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ (27) :

قالوا: لم نَضَلَّ الطريق ولم نخطئه إلى جنّتنا ولكنّ الله تعالى حرمنا من خيراتها وثمارها بما عزمنا عليه من حرمان المساكين.

- قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ (28) :

وقال (أَوۡسَطُهُم) أي أرجحهم عقلا، وأحسنهم تدبيرا وموعظة ورشدا: لقد قلتُ لكم: هلاّ ذكرتم الله تعالى وفضله عليكم، وقد قُلت لكم: اُشكروا الله تعالى على فضله وعلى نِعَمِه وداوموا على حمده، وأنفقوا ممّا رزقكم الله عزّ وجلّ، ولا تحرموا المساكين ممّا فرضه الله عليكم من الإنفاق ممّا أخرجه لكم من الأرض، ولكنّكم أصررتم على ما عزمتم عليه فأصابكم البلاء.

- قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (29) :

وثابوا إلى رشدهم، وعلموا أنّهم كانوا خاطئين، وأقرّوا بذنبهم فقالوا: سبحان ربّنا تعظيما وإجلالا، لقد كنّا ظالمين لأنفسنا حين عزمنا على معصيته في منع المساكين حقّهم الذي فرضه الله تعالى على صاحب الأرض من خراجها.

- فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ (30) :

ونظر بعضهم إلى بعض، وصار أحدهم يلوم الآخر على سوء تدبيره، أو على ما زيّنه لأخوته في معصية أمر الله تعالى، أو على ترك النّصح، ورفض العمل بما أرشدهم إليه أخوهم الأوسط.



- قَالُواْ يَـٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ (31) :

وشعروا بأنّهم قد طغوْا بنعمة الله تعالى وبطروا، وأنّهم قد حادوا عن الصواب حينما لم يكونوا حامدين لله تعالى على فضله وشاكرين له، وحينما عصوْا بمنع حقّ الفقراء والمساكين ممّا أخرجه الله تعالى من الأرض بتقديره.

- عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرًا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (32) :

ورَجَوْا من الله عزّ وجلّ أن يعوّض عليهم بأرض خير من الأرض التي كانت عندهم والتي فسدت وما عادت صالحة للغراسة وللزرع، ورجَوْا من الله عزّ وجلّ أن يغفر لهم ما كان من ذنبهم ومن غفلتهم فإنّهم راغبون في عفوه وفي مغفرته وفي صَفْحِهِ....

- كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (33) :

وهكذا يكون عقاب الجاحدين الذين آتاهم الله تعالى من فضله نعما كثيرة، أرزاقا وثمرات، ثمّ بطروا بالنعمة، ولم يشكروا الله الذي أنعم عليهم من خيرات أرضه بالإنفاق ممّا أخرجه لهم منها ممّا فرضه عليهم حقّا للفقراء والمساكين. يعاقبهم الله تعالى بنزع الخيرات التي آتاها لهم، فيحرمهم منها في دنياهم، ويسلبهم ما بطروا به. ولهم في الآخرة عذاب أكبر من الحرمان ومن الشعور بالندم لو كانوا يُوعون سوء عاقبة من يبطر بالنّعمة ولا يؤدّي حقّها من الشكر بالإنفاق منها ممّا فرضه الله عليه.

- إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ (34) :

وأمّا الّذين يخشون ربّهم بالمداومة على طاعاته، وبالمداومة على التسبيح بحمده لشكره تعالى على نعمائه، والذين ينفقون من أموالهم للسائل والمحروم وفي سبيل الله ويؤدّون ما فُرض عليهم من الصدقات فلهم عند ربّهم جنّات النعيم جزاء لهم عمّا كانوا يعملون، وهذا لمزيد الإنعام عليهم، وهؤلاء هم الفائزون حقّا بما أوتوا في دنياهم وبما سينعمون به من تكريم وإنعام في آخرتهم.

- أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ (35) :

لمّا جرى إنذار أهل مكة بعذاب دنيوي كالذي أُصيبَ به أهلُ الجنّة، عذاب سلب النّعمة، مع وعيد بعذاب أخروي، وبعد الذي جاء من وعد المتقين بالإنعام عليهم بجنّات النّعيم، جاء هذا الاستفهام الذي يفيد عدم التّسوية بين الذين آمنوا وكانوا مسلمين، وبين الذين أجرموا بالكفر، وهم الموعودون بسوء العاقبة في آخرتهم. وإنّ وصف الكافرين بالمجرمين يدلّ على سوء عاقبتهم لأنّ كلّ إنسان يعلم أنّ المجرم موعود بعقاب من لدن أحكم الحاكمين، وأنّه مطارد، وأنّه غير مفلت من الحكم عليه بأقسى عقوبة..

- مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ (36) :

الاستفهام في الآية إنكاري، ذلك لأنّه من الأمر العجب والمستغرب أن يتوهّم الناكرون للبعث وللحساب أن يكون حساب المسلمين كحساب المجرمين المكذّبين بالدين وبالرسول وبالقرآن، والمصرّين على إتيان المعاصي على السواء، وأنّ عاقبة هؤلاء كعاقبة أولئك. هذا توهّم باطل ولا يعقل. وإن الآيات الموالية إلى الآية 47 في دحض هذا الزعم والتوهّم الباطل...

- أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ (37) :

أم لهؤلاء المجرمين كتاب فيه أحكامهم قد اِطّلعوا عليها فاطمأنّوا على عاقبتهم؟ والاستفهام يدلّ على أنّهم لا يملكون الدليل على ما يزعمون وما يتوهّمون. وفي هذه الآية ردّ على صناديد قريش الّذين كانوا يقولون كلّما ذكّروا بحساب الآخرة: إن صحّ أن نبعث، كما يزعم محمد وأصحابه، فإنّ حالنا وحال المسلمين سيكون مثل حالنا وحالهم في دنيانا، لا يزيد قدرهم على قدرنا، ولن يفضلونا في شيء.

- إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) :

أي ألكم في الكتاب السماوي الذي بين أيديكم ما تختارون وما تشاؤون من الأحكام والأعمال فاخترتم لأنفسكم العاقبة التي تشاؤونها؟ كلاّ ليس لكم ذلك، ليس لكم علمٌ بما في الكتاب، وليس لكم الخِيرَة فيما يُقضى فيكم، ولا تستوون في أحكامكم مع المسلمين.

- أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ (39) :

أم لكم (أَيۡمَٰن) عهود ومواثيق (بَٰلِغَةٌ) مؤكّدة على الله تعالى بأنّكم ناجون من العذاب، وداخلون الجنّة، وعهود بأنّكم آمنون من عذابه في دنياكم إلى يوم القيامة فاطمأننتم على حياتكم ورفضتم الاستجابة لما دعاكم إليه رسوله. كلاّ ليس الأمر بمثل ما تحكمون به لأنفسكم، الأمر على خلاف ما تتوهمون، وعلى خلاف ما تقولون...

- سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (40) :

اِسألهم عمّن ضمن لهم الأمان من العقاب ومن العذاب: أعندهم كفيل وضامن لهم بالنّجاة من الهلاك؟

- أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ (41) :

أم عندهم آلهة غير الله عزّ وجلّ ناصرة لهم، أو عندها من الأجر والثواب ما تمنحهم يوم القيامة بمثل ما يَهَبُ الله تعالى لعباده المؤمنين المسلمين. إن كان لهم آلهة أخرى غير الله سبحانه فليحضروها معهم يوم القيامة عند الحساب إن كانوا صادقين في زعمهم. وهذا الشرط يفيد التعجيز، لأنّه ليس لكلّ من في السماوات ومن في الأرض من إلاه إلاّ الله الواحد الأحد جلّ جلاله.



- يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ (42) :

بعد كشف أوهام المشركين من مزاعمهم التي ليس لهم عليها حجّة ولا كتاب ولا سلطان جاءت هذه الآية إلى الآية 47 في تحذيرهم من سوء العاقبة يوم القيامة للإنذار والموعظة. (يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ) هو يوم القيامة وحين يعرض الناس على الميزان للحساب يشتدّ على الكافرين وعلى العصاة المذنبين الهول، ويعظم عليهم الأمر. يقول العرب: كشف هذا الأمر عن ساق إذا اِشتدّ هوله وعظُم أمره. ويقولون عن الهارب من المواجهة في خوف وذعر: كشف عن ساقه وفرّ هاربا. قال أحد شعرائهم: كشفت لهم عن ساقها *** وبدا من الشرّ الصُّرَاحُ.

فهذا تعبير عربي عن شدّة الأمر، فهذا يوم يكشفُ عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصلها وهذا يعني أنّ يوم القيامة هو يوم كرب ويوم شدّة بالنسبة للكافرين والمكذّبين به، بينما هو يوم الجزاء والمثابة والتكريم بالنّسبة للمؤمنين. وقد قيل في تفسير هذا التعبير ما لا يجوز رواجُه والقولُ به من مثل ما قيل بأنّه يوم يكشف فيه عن ساق جهنّم، وقال آخر: يوم يكشف فيه عن ساق العرش، وأمّا القول بأنّه يوم يكشف الله فيه عن ساقه فهو قول باطل فإنّه عزّ وجلّ يتعالى عن التجسيم وعن الأعضاء، وهو قول مرفوض عقائديا وعقليّا. هؤلاء حين يدعون للسجود لله سبحانه يفتقدون القدرة البدنية ليسجدوا لما أصابهم من الذهول والخوف ولأنّهم من شدّة كربهم جادّون في الفرار، ولكن أين المفرّ...؟

- خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ (43) :

ويُرَوْنَ في ذلك اليوم ذليلين، مطأطيء الرّؤوس من الندم والحسرة، وقد دُعوا في دنياهم للسجود لله تعالى في صلاتهم لمّا كانوا أصحّاء معافين في أبدانهم، فلم يستجيبوا لِمَا أمروا به، ويوم القيامة حينما يريدون السجود لله تعالى للاستغفار لا يستطيعون.

- فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ (44) :

تُعَدُّ هذه الآية من أشدّ الآيات القرآنية تخويفا، فما أعظم كرب من كان الله تعالى خَصْمَهُ! فمعنى الآية: فاتركني وهذا الذي يكذّب بهذا القرآن. ما عساه يقول لربّه، هذا الذي يكذّب بالقرآن، إذا سأله ربّ العزّة عن حجّته في تكذيبه بتنزيله، وهو بين يدي عظمته وجلاله! يا لهول الموقف! ويا حسرتاه على نفسه، وحينما يفتقد الحجّة وينعقد لسانه سيوصل للهلاك وللعذاب من حيث لا يتوقّع هلاكه. وإنّ المكذّبين بالدّين وبالقرآن سيُوصَلون للهلاك وللعذاب من حيث لا يتوقعون هلاكهم.

- وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ (45) :

(وَأُمۡلِي لَهُمۡ) أمهلهم زمنا، والذين لم يتوبوا من كفرهم ولم يستغفروا ربّهم، بل أصرّوا على كفرهم فإنّ أخذ ربّهم لهم سيكون أخذا شديدا، وإنّ اِنتقام الله عزّ وجلّ من الذين كفروا شديد.

- أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ (46) :

الخطاب في هذه الآية إلى الآية الأخيرة في السورة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وموضوعها في تسليته صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يحزن أو يغتمّ لما يُلاقيه من قومه من صدّ لتبليغ دعوته، ومن إعراض عن السماع له وتصديقه. ومعنى الآية: أم كنتَ قد طلبتَ منهم مالاً أجرةً على هديهم لصراط الله المُستقيم، فثقُلت عليهم الغرامة المالية، وعجزوا عن دفعها، فلذلك أعرضوا عمّا تدعوهم إليه.

- أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ (47) :

أم عندهم سلطان وتأثير على ما سيكون في عاقبة أمرهم ممّا يغيب عنهم من العلم به، فهم يسجّلون في اللوح المحفوظ ما يحكمون به لأنفسهم ممّا يريدون ليطمئنّوا على مصيرهم، فلذلك لا يهمّهم ترغيب، ولا يخيفهم وعيد وترهيب.

- فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ (48) :

فاصبر لقضاء ربّك في ما تلاقيه من عناء وصدّ وإعراض من زعماء قومك ومن المعاندين المكابرين، ولقضاء ربك في المشركين، ولا تكن غاضبا عليهم كما غضب يونس عليه السلام على قومه لمّا شاقّوه فغادرهم وهو يدعو ربّه مستغفرا وهو ممتلئ غيظا وحنقا على قومه.

- لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ (49) :

ولو لم تدركْ يونسَ رحمةُ ربّه لعبادته التي سلفت ولنُبوّته ولندائه: "لا إلاه إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين"، فأنقذه من بطن الحوت الذي لفظه على الشاطئ، لولا هذه الرّحمة لبقي لآخر حياته بأرض لا نبات فيها ولا شجر وهو شاعر بذنبه ويلوم نفسه.

- فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (50) :

ولقد اِصطفاه ربّه بالرسالة وجعله من عباده الصالحين، فردّ الله تعالى إليه الوحي، وقبل توبته، وشفّعه في قومه، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

- وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ (51) :

ويكاد الذين كفروا ليقتلونك بأبصارهم من شدّة عداوتهم لك – يا نبي الله – ومن حسدهم لك على ما آتاك الله تعالى من شرف النبوّة ومن شرف التكليف بالرسالة ومن اِصطفائك بالوحي لمّا سمعوا منك القرآن، ولذلك كانوا يتّهمونك بالجنون لإغاظتك، وما أنت بمجنون، وبهذا يحتكم الرّبط بين هذه الخاتمة ومفتتح السورة :(نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ)

- وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ (52) :

وما القرآن إلاّ ذكر للعالمين ليهتدوا به لصراط الله المستقيم، وليتذكّروا ويعتبروا، وليذكّرهم بالله سبحانه وبطاعته وبشرعه وبوعده ووعيده.

رقمها	سـورة الحـاقّـة	آياتها
69	ـــ مكيـة ـــ	52

سمّيت هذه السورة باسم "الحاقّة" لورود هذا اللفظ فيها، ولم يرد في غيرها. وهي سورة مكية. ولمّا كانت مكية فإنّ موضوعها في العقيدة.

في هذه السورة التأكيد على أنّ القيامة قائمة حقّا. ويومئذ يكرم المرءُ أو يُهان، وإنّ ميزان الثواب يقوم على الإيمان والعمل الصالح، وفي السورة إنذار بوقوع عذاب في الدنيا لمن كفر وشاقّ الرسول وأصرّ على المعصية بمثل ما وقع في أمم سالفة أعرضوا عن الإيمان وعن التصديق بالوعد والوعيد.

- **ٱلۡحَآقَّةُ (1) :**

هذا اِسم من أسماء يوم القيامة، سمّي هذا اليوم باسم الحاقّة للتأكيد على أنّ القيامة واقعة حقّا، بلا ريب.

- **مَا ٱلۡحَآقَّةُ (2) :**

وهذا الاستفهام للتّعظيم وللتّفخيم من شأنها، فيوم القيامة شديد الأهوال على الكافرين والمذنبين.

- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ (3) :**

وهذا الاستفهام لمزيد التّأكيد على التفخيم من شأن الحاقّة. وهذا التأكيد وهذا التّفخيم يُفيدان بأنّ الإنسان مهما بلغ به الفهم والإدراك لواقع الأمر فإنّه لا يمتلك القدرة على اِستيعاب شدّة هول هذه الحاقّة وعظيم شأنها، فواقع الحاقّة وهولها ممّا لا يعلمه أيّ إنسان. فهذه الآيات لتهويل أمر القيامة، ويا تعسَ الذي لم يؤمن بهذا اليوم، ولم يُعِدَّ له عدّته من إيمان وعمل صالح بالطاعات.

- **كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ (4) :**

هذه إلى الآية العاشرة للاعتبار بما أصاب الأمم السالفة من أهل الكفر بالله وبرسله وبالوعيد قصد الحذر من سوء العاقبة، وهي للإنذار. ومعنى الآية: كذّبت قبيلة ثمود وقبيلة عاد بالساعة التي تقرع القلوب فتفزعها، ويقال للأهوال والشدائد: قوارع الدهر، ونعوذ بالله تعالى من القوارع. والقارعة اِسم من أسماء يوم القيامة.

- **فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ (5) :**

فأمّا ثمود فأهلكوا بالصيحة المدوّية المتجاوزة الحدّ في الهول. قال تعالى (إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ)(القمر الآية 31). وقد أهلكوا بالطاغية الصاعقة لأنّهم تجاوزوا



حدودهم في الكفر والطغيان: كذّبوا بالله تعالى وبرسولهم وعقروا الناقة المعجزة تحدّيا واِستخفافا بالوعيد.

- وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ (6) :

وأمّا عاد فأهلكوا بريح شديدة الصوت وشديدة البرودة، فإنّ الصرّ هو البرد...

- سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ(7) :

أرسل الله تعالى عليهم بقدرته هذه الرّيح، وسلّطها عليهم مدّة سبع ليال وثمانية أيّام (حُسُومٗا) أي متتابعة، غير منقطعة عنهم، وإنّها قاطعة بعذاب الاستئصال، ومن معاني الحسوم: الشؤم لقوله تعالى (فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ)(فصّلت الآية 16). في تلك الليالي والأيّام لقي القوم عنتا شديدا، وتساقطوا واحدا بعد آخر، وجماعات بعد جماعات هلكى مطروحين على الأرض كأنّهم أصول نخل خاوية الأجواف لا تنفع لشيء.

- فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ (8) :

فهل تجد أحدا منهم باقيا حيّا؟ كلاّ... لقد هلكوا جميعا.

- وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ (9) :

ولقد كان فرعون ومن قبله من مثل نمرود وغيره (وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِ) وهي المنقلبات، وهي قرى قوم لوط (بِٱلۡخَاطِئَةِ)، بالأعمال الشنيعة وبالخطايا والآثام.

- فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً (10) :

لقد كانوا جميعا عصاة، شاقّوا رسلهم بالتكذيب وبالإصرار على معاصيهم وآثامهم فأهلكهم الله تعالى هلاكا (رابيا) أي زائدا في الشدّة.

- إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ (11) :

وأذكروا إذْ أنقذ الله تعالى عباده المؤمنين الذين آمنوا بالله وحده واتّبعوا رسولهم نوحا، فجعلهم يركبون السفينة الّتي جرت بهم فوق سطح الماء الذي جاوز حدّه في الإرتفاع وفي الفيضان حتى أغرق قوم نوح الكافرين، فأنجى ركاب السفينة من الغرق والهلاك، وجعل ذرّيتهم هم الباقين، وتطهّرت الأرض من القوم المشركين.

- لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ (12) :

فجعلنا نجاة المؤمنين من الغرق، وهلاك الكافرين غرقى موعظة يَعيها ويستوعبها ويدرك غرضها كلّ من كانت له أذنٌ حسنة الاستعداد للفهم والاعتبار والاِتّعاظ.

- فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ (13) :

هذه الآية إلى الآية 37 في مشاهد واقعة يوم القيامة، يوم العرض الأكبر على الحساب، وهذا ليتخيّر كلّ إنسان العاقبة الّتي يريدها لنفسه.فإمّا أن يختار لنفسه أن يُؤْتَى كتابه بيمينه، وعندئذ وجب عليه أن ينضبط لشروط إتيان الكتاب باليمين التي تقتضي صدق الإيمان بالله تعالى وحده، وتقتضي العمل بفرائضه واِجتناب نواهيه. وإمّا أن يتّبع هواه وحينئذ فلا يلومنّ إلاّ نفسه إذا ساءت عاقبته فإنّ الله لا يظلم أحدا، ولكنّ الإنسان يظلم نفسه إذا كفر وعصى وأعرض عن هدى الله عزّ وجلّ. ومعنى الآية: فإذا نفخ الصور النفخة الأولى المؤذنة بنهاية الحياة الدنيوية، والتي يكون بها خراب معالم الحياة الدنيوية بجميع مظاهرها بما في ذلك موت جميع الخلائق.

- وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ (14) :

وإذا رفعت الجبال ودقّت بالأرض دقّا عنيفا يخرّبها ويخرّب الأرض تخريبا مدمّرا يجعل كلّ ما فيها متناثرا خفيفا متطايرا.

- فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ (15) :

إذا حدث هذا فحينئذ تقوم القيامة الموعودة، وذلك لأنّ الواقعة اِسم من أسماء يوم القيامة وقد تقدّم ذكر هذا في سورة "الواقعة".

- وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ (16) :

ويومئذ تنشقّ السماء فلا تكون على هيأتها المعلومة في الدنيا (أُنظر سورة الانشقاق)، فهي يومئذ ضعيفة متداعية غير متماسكة.

- وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ (17) :

هذه من آيات الغيب. وما يمكن القول فيها أنّ السماء إذا اِنشقّت، وإذا زلزلت الأرض زلزالها ودكّت دكّا فإنّ الملائكة تقف على أطراف السماء ونواحيها وعلى حافات الأرض المدمّرة. وأمّا العرش فيعني أعظم مخلوقات الله عزّ وجلّ، وحملُه اِستعمال مجازي يدلّ على القائمين عليه فوق كلّ ما يجري في مُلك الله تعالى. والعدد ثمانية عند العرب يدلّ على الكثرة... ولذا فإنّ القائمين على العرش كُثْر. والله تعالى أعلم بالصواب من القول.

- يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ (18) :

في ذلك اليوم يقوم الناس ويُقدَّمُون للحساب، ويومئذ تُكشف أعمالكم، ولا تغيب عند الحساب غائبة وخافية مستورة من الأقوال والأعمال والنوايا. فما أشدّ هذا الإحصاء الثابت والمفصّل ثِقَلاً على الكافرين وعلى المجرمين المذنبين وعلى المكذّبين بالوعد والوعيد.

- فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ (19) :

وأمّا هذه الآية وما بعدها فلتفصيل أحوال العباد عند عرضهم على الحساب. فأمّا من أعطي كتابه بيمينه فسيستبشر بما أوتي بيمينه، لأنّ اليمين عند العرب من دلائل الفرح والسرور والاستبشار بالخير، ويستبشر بنجاته من السوء والمكروه فينطلق بسجلّه يعرضه على من حوله قائلا هاؤم اِقرؤوا سجلّ عملي مسرورا بما فيه من بشائر الخير وحسن الثواب.

- **إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (20) :**

وقد علم أنّه قد نال خيرا وبشائر سارّة لأنّه قد كان متيقّنا بأنّ يوم الحساب واقع حقا، فأعدّ له في دنياه عدّته. وما كان من الغافلين. وإنّ فعل (ظنّ) في الآية لا يُفيد الشكّ، وإنّما يعني اليقين. قال الضحّاك وعلماء اللّغة السابقون: "كلّ ظنّ في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شكّ". وقال مجاهد: "ظنّ الآخرة يقين، وظنّ الدنيا شكّ". وقال الحسن في هذه الآية: "إنّ المؤمن أحسن الظنّ بربّه فأحسن العمل، وإنّ المنافق أساء الظنّ بربّه فأساء العمل".

- **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (21) :**

فمن أوتي كتابه بيمينه فهو في عيش هنيء، رضِيّ به، وسعيد، لا يجد في عيشه نكدا ولا مكروها. روي عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قوله: "أنّهم يعيشون فلا يموتون أبدا، ويصحّون فلا يمرضون، وينعمون فلا يرون بؤسا أبدا، ويشِبُّون فلا يهرمون أبدا" (ذكره القرطبي في تفسيره على أنّه حديث من الصحيح...).

- **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) :**

ويجد نفسه في جنّة عظيمة في النّفوس، وفي العين. العلوّ هنا يعني علوّ المنزلة والفخامة.

- **قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) :**

ثمارُها متدلية، سهلة التناول والجني، لا يتعب المرء في تحصيلها. وهذه كقوله تعالى (وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)(الرحمان الآية54).

- **كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (24) :**

ويقال لهم: كلوا ما تشاؤون منها وما تشتهون،واِشربوا من مياهها العذبة، ومن اللبن، ومن أنهار الخمر والعسل ما ترغبون هنيئا مريئا جزاء لكم بما عملتم من صالح الأعمال في إيمان صادق بالله وبرسله وبكتبه وبملائكته وباليوم الآخر في الأيام الماضية في الدنيا. قال تعالى (مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ)(محمد الآية 15). ومعنى (هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ): سعداء بنتيجة ما عملتم سابقا في دنياكم. وهذه كقوله تعالى (كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)(الطور الآية 19).

- وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ (25) :

وأمّا الصنف الثّاني من البشر، أهل الكفر والتّكذيب بالدّين، وأهل المعاصي من الكبائر، فإنّ كلّ واحد منهم يعطى كتابه (سجلّ عمله) بشماله، فيتشاءم بما أوتي، ويسودّ وجهه ويعلو حزنه، ويغتمّ، ويعلم أنّه سيأوي إلى أسوإ مصير، فيقول معبّرا عن ندمه وعن حسرته (يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ) متمنّيا لو أنّ موته كان أبديا، وأنّه لم يُبعثْ منه إلى الحياة، ومتمنّيا لو لم يكن له سجلّ يحصي عليه عمله.

- وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ (26) :

وحينما يعرف مصيره الذي سيأوي إليه يتمنّى لو لم يطّلِعْ على عاقبته.

- يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ (27) :

ويتمنّى لو كانت مِيتَتُه أبدية ولم يُبعث، وهو تمَنٍّ مستحيلٌ تحقيقُه.

- مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ (28) :

ويقول في نفسه: ما نفعني مالي، وما دفع عنّي عذابا.

- هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ (29) :

وغاب عنّي سلطاني وجَاهي ووَجَاهَتِي، وذَلّتُ ولم أجد شيئا ليدفع عنّي هذا المصير، أو ينقذني منه.

- خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) :

وتؤمر الملائكة بأخذه بالقوّة للعذاب مشدودَ اليدين إلى العنق بالقيود والسلاسل.

- ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) :

ثمّ ألقوا به في النّار ليصلى فيها صليا، أي ليكوى بنارها من كلّ جانب وفي كلّ مكان من جسده كالمصلي.

- ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ (32) :

ثمّ أدخلوه في سلسلة طويلة ولفّوه فيها ليكتوي بها حتى تحمى عليه في نار جهنّم، وهذا من أشدّ أصناف العذاب، فإنّ الإكتواء بحديد ملتهب ومتوهّج لا يُحتمل وتضيق به الأنفاس وتختنق ويعلو صراخ المكتوي به من شدّة الألم. والعياذ بالله.

- إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ (33) :

ولقد لقي هذا العذاب الشّديد لأنّه لم يكن يؤمن بالله الكبير، الله الحقّ، العظيم، الواحد الأحد، فكان ملحدا أو كان مشركا يدّعي لنفسه إلاها آخر غير الله سبحانه.

- وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ (34) :

وقد كان بخيلا، لا يرحم المحتاج، لا يطعمه إذا جاع، ولا يعطيه إذا اِحتاج، ولا يحثّ أو يحرّض على إطعامه. وهذا كقوله تعالى (أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ)(الماعون الآيات 1-3).

- فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ (35) :

وهذا المرء لا يجد في آخرته صديقا أو قريبا يشفق عليه ويحميه من سوء مصيره ويشفع له. قال تعالى (يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)(عبس الآيات 34-37).

- وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) :

وليس له في جهنّم طعام إلاّ الصديد الذي تفرزه النّار وتخرجه وتسيله من أهل النّار من قَيْحٍ أو دم، وَهو طعام لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا يُستساغ.

- لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ (37) :

وهو طعام العصاة المذنبين عن عمد، والكافرين عنادا ومكابرة.

- فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) :

هذه الآية إلى آخر السورة في التأكيد على أنّ القرآن الكريم تنزيل من ربّ العالمين حقّا وصدقا لا ريب فيه. ومعنى الآية : لا حاجة للقسم بالمخلوقات المتنوّعة التي ترونها بأعينكم في حياتكم، وبكلّ الموجودات التي تشاهدون في محيطكم وفي عالمكم ووجودكم، لأنّ الأمر لا يحتاج للقسم فآية الصدق في موضوع القسم واضحة فيه وبيّنة.

- وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) :

ولا حاجة للقسم كذلك بما غاب عن أنظاركم من المخلوقات الموجودة وأنتم لا تشاهدونها لأنّكم لا تملكون القدرة البصرية لتعرفوها، وما تعلمون منها بما تكتشفون منها حين تتطوّر وسائل الرّصد عندكم هي أقلّ ممّا هو موجود فعلا.

- إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) :

إنّ ما يَبْلُغُكُم من كلامِ الله تعالى هو القرآن أوحي به إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم وهو رسول الله، وهو رسول(كَريم) نفيس، وهو الأفضل في جنسه، ولقد أجرى الله تعالى القرآن على لسانه ليتلوه عليكم، ويبلّغكم به.

- وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (41) :

وما هذا القرآن بِشِعر، لأنّ كلامه ليس من صنف الشعر، وما محمد صلّى الله عليه وسلّم بشاعر، لم تسمعوا منه من قبل شعرا، ولكنّكم قوم لا تحبّون أن تصدّقوا بهذا القرآن عنادا ومكابرة



لأنّه بيّن لكم ضلالتكم، ولأنّه قد جاءكم بما لا تحبّون من المبادئ التي تحملكم على الاستقامة على العدل وحسن المعاملة وحسن الخلق.

- وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (42) :

وما هذا القرآن بقول ساحر، لأنّ القرآن جاء بالنّهي عن أعمال السحر والشعوذة، وجاء بإنكار فعل السحرة، وبلعنة الكهنة والشياطين. ولو أنّكم قد أصغيتم للقرآن وتدبّرتم آياته لعلمتم أنّ اتّهامكم له بأنّه قول كاهن اتهام باطل، ولانتفعتم بمواعظه وإرشاده.

- تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (43) :

هذه الآية للتأكيد على جواب القسم الذي ورد في الآية السّابقة بأنّ هذا القرآن قول رسول كريم، فلمّا ثبت أنّه ليس بقول شاعر، ولا بقول كاهن فوجب التّصديق بأنّه تنزيل من ربّ العالمين: ربّ الإنس والجنّ أجمعين، وربّ الملائكة، وربّ السماوات والأرض وما فيهنّ، وربّ الخلق كلّهم وكلّ موجود ممّا يبصر النّاس وممّا لا يبصرون. فماذا بعد هذا القسم، وبعد ردّ التّهمة عن هذا التنزيل بأنّه من قول شاعر أو قول كاهن ليصدّق المكذّبون بالرسول صلّى الله عليه وسلّم والمشكّكون في صدقه بأنّ هذا القرآن من كلام ربّ العالمين ومن تنزيله. ليس بعد هذا الحقّ إلاّ الضلال...

- وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ (44) :

هذه الآية مع الآيات الثلاثة الموالية لطمأنة المرتابين والمشكّكين في صدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغهم به عن ربّه تعالى وفي صدق التنزيل بأنّه من عند ربّ العالمين أوحي به إليه صدقا ويقينا، وذلك ليعلموا أنّ أحدا لا يستطيع أن يدّعي تَلَقِّيَ الوحي من عند ربّه –وهو كاذب– لو أنّ أحدًا تجرّأ على الكذب على الله لكان اِنتقام الرحمان منه شديدا وفاضحا، ولا يُرَدُّ. والقصدُ التأكيدُ على أنّ ما جاءهم به رسولهم صلّى الله عليه وسلّم من قرآن هو حقّا تنزيل من ربّ العالمين لا ريب فيه. فهل ما يزال لأحد من المشككين بعد هذا من حجّة ليكذّب بالوحي وبالقرآن وبصدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغه للنّاس عن ربّ العالمين؟ ومعنى الآية: ولو تكلّف أحد على الله عزّ وجلّ قولا من عند نفسه، ونسبه إلى الله تعالى كذبا واِفتراء...

- لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ (45) :

لنال من الله تعالى عذابا كبيرا لا يفلت منه. والأخذ باليمين يعني الفتك بالعبد فتكا قويّا وبالبأس الشديد. ولمّا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم محاطا بعناية ربّه، وإنّ الدين الذي جاء به دائم الانتشار وسريع الظهور والإظهار على كلّ دين، وأنّ أتباعه يزدادون ولا ينقصون. فإنّه إذن الصادق الأمين فيما يبلّغ به عن ربّه من وحي وتنزيل.

- ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ (46) :

لو تقوّل أحد على الله سبحانه وتعالى قولا من عند نفسه كذبا وإفتراء لأهلكه الله عزّ وجلّ هلاكا سريعا فجئيا بقطع الوتين منه. والوتين هو عرق في القلب إذا إنقطع مات صاحبه، أو هو العرق الأبيض داخل العمود الفقري والصلب إذا إنقطع تجلّط صاحبه وشلّ وخرس. والمهمّ هو عرق في جسد الإنسان إذا إنقطع من إنسان هلك.

- فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ (47) :

وحينئذ لا يستطيع أحد من البشر أن يردّ عنه عذاب الله عزّ وجلّ وعقابه أو يحبسه عنه أو يحميه منه. فبعد كلّ هذه التّبرئة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم الصادق الأمين ممّا يتّهمه المكذّبون به والمشكّكون في التنزيل وفي الوحي ما يزال عند هؤلاء حجّة ليستمرّوا في تكذيبهم بالقرآن وبالرسالة. لا يثبت على تكذيبه إلاّ معاند أو حاسد أو مكابر أو متحجّر القلب أو إنسان لا يعقل.

- وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ (48) :

وإنّ القرآن الذي هو تنزيل من ربّ العالمين موعظة لمن يتّعظ، لمن ألقى السمع وتدبّر وعقل ما سمع ولاَنَ قلبُه للحقّ، وإنّه تذكير بالحقّ وبوجوه الضلالات لتنبيه الغافلين ليستقيموا على التي هي أقوم، وإنّه إرشاد للذين آمنوا بالله وبرُسُله وبكتبه وباليوم الآخر، الذين يخشون عذاب ربّهم، ويطمعون في النّجاة من هول الحساب ولما يقيهم من نار جهنّم وللذين يرغبون في ما عند الله الكريم الرّحمان الرّحيم من النّعيم والرّضوان.

- وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (49) :

وإنّ الله تعالى يعلم أنّه سيكون منكم المكذّبون بهذا التّنزيل وبالرّسول صلّى الله عليه وسلّم وبيوم الدين عنادا وجهلا ومكابرة.

- وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (50) :

وسيندم الكافرون به يوم الحساب حينما تنكشف لهم حقائق ما كذّبوا به أشدّ النّدم، وسيتحسرون على التفريط في إتّباع ما جاءهم من الإرشاد، وعلى إتّباعهم هواهم وعن إعراضهم عن طاعة ربّهم ورسوله ويومئذ يقول كلّ كافر: يا ليتني كنت ترابا، ولن ينفعه ندمُه وحسرتُه على نفسه.

- وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ (51) :

وإنّ ما جاء في هذا القرآن من إخبار ومن إنذار ومن وعد ووعيد هو الخبر الصادق وهو الخبر اليقين، ولا يعقله إلاّ العاقلون وذوو الألباب، والمعتبرون بأخبار الأمم السالفة، وكذلك العالمون الذين أوتوا الحكمة، وكذلك أصحاب الفطرة السليمة الذين يصدّقون برسل الله.

- فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ **(52) :**

فإذا تبيّن لك أيّها الإنسان أنّ هذا القرآن تنزيل من ربّ العالمين حقّا، وأنّ خبره يقين، فداوم على ذكر ربّك بتنزيهه عن الشريك والندّ وعن كلّ نقص، وعظّم ذكره بطاعاتك، وداوم على شكر نِعمِه عليك، وعلى الدعاء له مستغفرا وطلبا لرضوانه ولنعيمه وللنّجاة من عذابه، وأُسجد له، واِخضع لأمره، واِجتنب ما حرّمه عليك وما نهاك عنه، وراقبه في نفسك طاعة وذكرا وحَذَرًا من معصيته عساك تكون من المفلحين الفائزين برضوانه.

رقمها	سورة المعارج ـــــ مكية ـــــ	آياتها
70		44

سمّيت هذه السورة بسورة "المعارج" لأنّها إختصّت بذكر عروج الملائكة إلى المنازل العُليا.

وهي سورة مكية ركّزت في مواضيعها على التحذير من شدّة الحساب وشدّة العذاب الذي يلقاه المجرمون يوم تقوم الساعة، مع ذكر بعض من أشراطها. ورغّبت في الإيمان وفي جملة من الصفات التي يحبّها الله تعالى في عباده المؤمنين الموعودين بالتكريم في جنّات النّعيم. وجاء فيها دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للتّصبّر على ما يلقاه من المكذّبين. وخُتمت السورة بتهديد الكافرين باستبدالهم بآخرين.

- سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (1) :

ورد لفظ (سَآئِل) في صيغة التّنكير ليدلّ على العموم، ليدلّ على كلّ من يريد أن يسأل عن العذاب الذي يحذّر الله تعالى منه عباده. متى يقع؟ وعلى من يقع؟ وإنّ الحرف (ب) في (العذاب) هو بمعنى: عن، أي إذا سأل سائل عن عذاب واقع ينذر به الله تعالى: عن من يقع؟ ومتى يكون؟

والإجابة سترِدّ في الآيات الموالية إلى غاية الآية 18.

ويجوز أن يكون معنى الآية: دعا دَاعٍ من المكذّبين بالوعيد، والمستهزئين به من إستبعادهم لحصوله ووُقوعه، دعا طالبا بأن ينزل هذا العذاب ويقع فيه، وفي صَحْبه من أمثاله في التكذيب بالنّذير. وكان طلبه هذا للتحدّي، كالذين قالوا: (وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ) (الأنفال الآية32).

- لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (2) :

وإنّ هذا العذاب الواقع الموعود يخصّ الكافرين. اللام في (لِّلۡكَٰفِرِينَ) يفيد الاستحقاق والاختصاص. فهو واقع في الكافرين، ولن يقدر أحد أن يدفعه عنهم، أو يردّه، أو يشفع لهم فيه، أو يحميهم منه.

- مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (3) :

وإنّه عذاب واقع فيهم بأمر من الله عزّ وجلّ، صاحب السماوات العالية، وصاحب المراتب الرّفيعة، والدرجات السامية التي لا يبلغها أحد من خلقه، وذي العظمة وهو تعالى العظيم.

- تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (4) :

هذه من آيات الغيب. لا أحد من البشر يدّعي العلم ببيان معانيها، ولذلك يُقْتَصَرُ على بيان معاني المفردات. العروج هو الصعود إلى أعلى الدرجات والمنازل. والرّوح اِسم يطلق على الملك جبريل عليه السلام، وذلك لأنّ الآية تتحدّث عن عروج الملائكة عليهم السلام. وإنّ العروج إلى ملكوت الله عزّ وجلّ لو كُلِّف به غير الملائكة لكان عليه أن يقضي فيه زمنا يُقدّر بخمسين ألف سنة من إحصاء الزمن في الحياة الدنيوية، وهذا مما يدلّ على عظمة تلك المنازل في ملكوت الله العلوي، وعلى شرف اِرتفاعها واِتّساعها. وسبحان الله العظيم الّذي لا يحدّه زمان ولا مكان. والله أعلم بالقول الفصل.

- فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلاً (5) :

الخطاب في الآية للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ومن ورائه كلّ داعية للإصلاح الديني في قومه لمقاومة البدع الضالّة التي تحرّف دين التوحيد، وكلّ رئيس مسؤول وكلّ وزير أو قائد أو زعيم للأمّة داعٍ للرّشاد ومقاوم للفساد وناصر للحقّ والعدل ومقيم للمشاريع المنتجة المثمرة والتي تحقّق النّماء للبلاد، الدعوة فيها للتجلّد بالصبر في دعوته للناس للاستقامة على دين الله الحقّ دون يأس من إقناع الضالّ للصواب، وبموعظة المعارض والرافض للدعوة بالحكمة والحجّة، وبدون غلظة أو غضب، وهذا من مظاهر الصبر الجميل. الصبر الجميل يعني القدرة على تملّك النفس من الغضب أو الثورة على المعارض أو المكذّب بصلاح الدعوة والمشكّك فيها، ويعني اِحتمال أذى الطرف المعارض لتحمّل هزئه أو تكذيبه أو تولّيه عن السمع والطاعة، ويعني كذلك اِعتماد الحجّة والموعظة الحسنة والحكمة في بيان وجه الضلال، وطريق الصلاح، ولا تتعجّل في الاستجابة لدعوتك، أمهل وتمهّل فإنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء...

- إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدًا (6) وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا (7) :

ضمير الغائب في الآيتين في (يَرَوۡنَهُۥ) و(نَرَىٰه) عائد على العذاب الواقع الذي كان موضوع السؤال عنه في الآية الأولى من السورة. والآيتان في الإجابة عن زمن وقوعه. إنّ المكذّبين به يستبعدون حصوله ووقوعَه، ويتوهَّمُون أنّه لن يقع ربما لأنّهم يعتقدون أنّ آلهتهم التي يعبدون ناصرة لهم ومنقذة لهم منه. ولكنّ حلول هذا العذاب وحصوله واقع فيهم عند الله في زمن قريب. وقد رآه المشركون في واقعة بدر، وفي غيرها من الوقائع حتى كان الفتح المبين الذي كسرت فيه شوكة الشرك وذهب بريح المشركين وبزعمائهم وكهنتهم.

- يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ (8) :

هذه كقوله تعالى (فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ)(الرحمان الآية 37) وهي كذلك في علامة من علامات قيام الساعة وأشراطها. وهي أيضا في الإجابة عن زمن وقوع العذاب الواقع: موضوع سؤال السائل في الآية الأولى. هذا العذاب الموعود به أهل الكفر إن لم يقع فيهم

في دنياهم في القريب العاجل، فإنّه واقع فيهم حتما يوم تقوم الساعة. ويعرف قيام الساعة حين يتحوّل لون السماء من الزرقة الفاتحة الجميلة إلى لون شبيه بلون (المهل) الذي هو درديّ الزيت، ودرديّ الزيت ذو لون أحمر داكن مائل للسواد.

- **وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ (9) :**

وهذه في علامة أخرى من علامات قيام الساعة. وهي كقوله تعالى (وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ)(القارعة الآية 5). و(العهن) هو الصوف المصبوغ بألوان مختلفة ويكون منفوشا ومنشوفا. كذا تصير الجبال الصلبة والرواسي: الأوتاد وأعمدة الأرض، يتحوّل رخامها وجُلْمُودها وصخرها الثابت إلى مادّة هشّة رخوة لا قوة فيها، وتسيح على وجه الأرض. قال تعالى (وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ)(المرسلات الآية 10) وقال عزّ وجلّ (وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ)(التكوير الآية3).

- **وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (10) :**

فإذا اِنتهت الحياة الدنيا، وأذن الله عزّ وجلّ بالنّفخة الثانية ليقوم النّاس للحساب، حتى إذا قاموا ذهل الكافر بما رأى وعلم أنّ وعد الله حقّ، وأنّ الحساب لواقع، وحين يُؤتى كتابه بشماله فإنّه يحزن وينشغل بنفسه وبأمره، ولا يلتفت لأحد من قريب، ولا صديق، ولا يسأل عن حال أحد مهما كان ملازما له في دنياه. وهذا كقوله تعالى (لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ)(عبس الآية 37).

- **يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ (11) :**

في ذلك اليوم: يوم الحشر يرى كلّ إنسان أباه وأمه وإخوته وزوجه وذرّيته وأقرباءه وخلاّنه وعشيرته، ثمّ يفرّ بعضهم من بعض خوفا من المظالم، ويبصر المظلوم ظالمه، فيكون ذلك اليوم، يوم الجمع شديدا على الظالم، وعلى كلّ مجرم أجرم في حقّ نفسه بالكفر والتكذيب والهزء بالوعيد حين يرى جهنّم وحين يعلم أنّه سيكون من المستقرّين فيها، ويتمنّى عندئذ لو يقدر أن يفدي نفسه من العذاب الذي ينتظره بأعزّ من كان عنده في دنياه من أقاربه ومن أبنائه فلا يقدر، ولا يقبل منه في ذلك اليوم فدية من مال وبنين.

- **وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (12) :**

ويتمنّى أن يفتدي نفسه بزوجته، وبأقوى أنصاره عند الخصومة: أخيه من أمّه وأبيه.

- **وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ (13) :**

وكذلك بجميع أفراد عشيرته الذين ينصرونه عند البأس والشدّة. والفصيلة هي دون العشيرة، من الفصيلة: الأم والمربية والآباء الأقربون والأعمام والأخوال وأبناء العمومة والأنساب.

- **وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ (14) :**

ومن جزعه على نفسه من العذاب يتمنّى لو كان باستطاعته أن يفدي نفسه ممّا ينتظره من هول العذاب بمن في الأرض جميعا لينجو منه وليدفعه عنه، ولكن هيهات أن يقدر على ذلك، أو أن يُقبل منه هذا الفداء. والغرض المقصود من هذا العرض الرّهيب أن يعتبر كلّ إنسان ظالم أو كافر وعاص بما ينتظره من سوء العاقبة المهولة ليسارع للتّوبة وللإنابة لربّه لينقذ نفسه من المهلكة.

- **كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (15) :**

(كَلا) هنا بمعنى هيهات أن يُقبل منه فداء، أو أن يجد من يدفع عنه عقاب الله عزّ وجلّ، حقّا إنّ مصيره في جهنّم تتلظّى نيرانها، أي تشتعل ببدنه، تتقّد به، وتلتهب فيه.

- **نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (16) :**

وفي جهنّم نار حارقة تقتلع جلدة الرأس وتشويها شيّا، وقيل عن "الشوى" في معاني المفردات اللّغوية بأنّها اليدان والرجلان والرأس والمفاصل في الآدميين.

- **تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (17) :**

وتدعو جهنّم إليها كلّ من أدار ظهره للحقّ وللإيمان، وأعرض عن طاعة الله العزيز الرّحمان.

- **وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ (18) :**

وتدعو كذلك من جمع المال وملك الأرزاق، وحرص عليه واِمتنع عن أداء حقّ الله تعالى في ماله ومكاسبه من خيرات الأرض، وأمسك عن الإنفاق منه في وجوه البرّ والإحسان، وكان قتورا.

- **إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) :**

إنّ الإنسان عموما خلق شديد الحرص، قليل الصبر، سريع الحزن والجزع إذا مسّه مكروه، ولا يشبع.

- **إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (20) :**

وإذا أصابه مكروه أكثر من الحزن ومن الأسى ومن التشكّي والتباكي على الحظّ وعلى الدّهر، وإن لم يحصل على رغبته وشهوته ضجر وصخب، أو حزن حزنا شديدا بسبب طمعه وحبّه للتملّك.

- **وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (21) :**

وإذا أنعم الله تعالى عليه بسعة المال ووفرة الرّزق ظهر شحّه واِشتدّ حرصه على المزيد من الكسب والجمع، ويمتنع عن الإنفاق ممّا آتاه الله تعالى في وجوه الإحسان ومؤازرة المحتاج، ثمّ هو لا يؤدّي حقّ الله عزّ وجلّ فيما رزقه.

فهذه الآيات في غريزة الإنسان وما جُبل عليه من الحرص وحبّ الأنا والذات والمكاسب. وما جُبِلَ عليه من السخط والجزع حين لا يحصل على ما يرغب أو حين يُصاب بما يكره، ولا



يصبر. وقد جاء في الحديث الشريف قوله صلّى الله عليه وسلّم : "شرٌّ ما في الرجل: شحٌّ هالع، وجبن خالع".

- **إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ (22) :**

هذه في اِستثناء المصلّين من تلك الصفات الّتي يتّصف بها ذوو غرائز الهلع والجزع والمنع. وقد جاء في الآيات الموالية إلى الآية 35 بيان صفاتهم المميّزة التي جعلتهم من المكرمين.

والمصلّون هم المؤمنون بالله الواحد الأحد وبرسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، وهم العابدون الراكعون الساجدون لربّهم طاعة وعبادة وتقديسا وتسبيحا واِستغفارا، وهم الحامدون المستقيمون على دينه وشرائعه فيما أمره به، وفي الانتهاء عمّا نهى عنه خوفا من عقابه وطمعا في رحمته ورضوانه وجنّته وهم الذين يخشون ربّهم سرّا وعلانية.

والمصلّون المكرمون عند الله عزّ وجلّ هم المتّصفون بالصفات الثمانية الموالية.

- **ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ (23) :**

هذه في الصفة الأولى لهم: إنّهم الذين يواظبون على صلواتهم، لا يشغلهم عنها أيّ شاغل، ولا ينقطعون عنها.

- **وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ (24) لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ (25) :**

وهاتان في صفتهم الثانية: إنّهم الذين يؤدّون زكاة أموالهم: النّصيب المعيّن، يؤدّونه للّذي يسأل النّاس معونة وصدقة بسبب فقرهم وحاجتهم، وللّذي لا يجد طعاما يطعمه وكساء يكسو به نفسه، وهو متعفّف لا يسأل النّاس حاجته.

- **وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (26) :**

وصفتهم الثالثة: أنّهم يؤمنون بيوم القيامة، وبالحساب، ولا يكذّبون به، ويُعِدُّون له عدّتهم من صدق الإيمان وحسن العمل.

- **وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ (27) :**

وصفتهم الرابعة: أنّهم يخافون على أنفسهم من عذاب الله عزّ وجلّ، وهذا من خشيتهم من ربّهم، ومن رغبتهم في الحصول على رضوانه، ولذلك يفعلون ما يُؤمرون به، وينتهون عمّا نهاهم عنه.

- **إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ (28) :**

إنّ عذاب الله عزّ وجلّ واقع بالكافرين وبالعصاة المذنبين، وهو عذاب شديد الإيلام، وليس لهم منه مفرّ، ولا أحد بقادر على أن يدفعه عنهم.

- **وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ (29) :**

وصفتهم الخامسة: أنّهم أهل عِفَّةٍ، يحافظون على أنفسهم من الزنى ومن فعل الفواحش.

- إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ (30) :

وأمّا ممارستهم للجنس مع أزواجهم، أو الإيماء الرقيقات (وقد انتهى عهد الرقّ) فلا يُلاَمُون عن اِبتغاء الولد بزواجهم.

- فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ (31) :

فمن مارس الجنس في غير إطار الزّواج الشّرعي – الذي يقوم على أركانه الثّلاثة: الطلب والإيجاب، ودفع المهر، والإشهار، ثمّ تدوين عقد الزّواج وتوثيقه، فقد اِعتدى على الأنثى التي واقعها، وتجاوز حدّه في فعل الفاحشة، وفعل ما هو محرّم، ويُعتبر هذا الفعل من الزّنى ومن الاغتصاب، وهو فعل من الجرم.

- وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ (32) :

وصفتهم السادسة: أداء الأمانة لصاحبها، والوفاء بالعهد والوعد مع مُراعاة الأجل والشروط واِحترامها.

- وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ (33) :

وصفتهم السابعة أنّهم إذا طولبوا للإدلاء بشهادتهم أدّوها على وجهها الحقيقي بوضوح، ودون تحريف، ولا يكتمونها، وإنّ من الكبائر الّتي تؤدي بصاحبها لجهنّم شهادة الزّور، وذلك لأنّها تنحرف بالعدل إلى الحكم بغير الحقّ والقسط، وهذا من الظلم، ولا يكون الظالم الكاذب من أهل الجنّة.

- وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (34) :

وأمّا صفتهم الثامنة فهي المحافظة على الصلاة. جاء في الآية السابقة (عدد23) أنّهم "مداومون" على أداء الصلاة، وهذا كما تقدّم ذكره يعني الحرص على الثبات على أدائها دون اِنقطاع، أو تفريط في أدائها في أوقاتها المعلومة. وفي هذه الآية وصفوا بأنّهم "محافظون" على أداء الصلاة، والمحافظة عليها يعني العناية بأدائها على شروطها. من هذه الشروط: التطهّر بالاغتسال للطهر من الجنابة، أو الدم للنساء، والوضوء لها، ومنها: حسن القيام لها وإتمام الركوع والسجود، مع الذِّكر، وكذلك نظافة المكان واللباس وما يقتضي ذلك من ستر العورة.

وجاءت هذه الصفة للتأكيد على ما جاء في الآية السابقة (عدد23) للحرص على المداومة على أدائها مع حسن الأداء والمحافظة على شروطها (إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا) ولا صلاة لمؤمن بدون اِغتسال ووضوء وبدون قيام وركوع وسجود وذكر، وبدون ثياب طاهرة وفي مكان طاهر.

وقد خصّ الله تعالى "المصلّين" بالذكر دون سائر العبادات الأخرى: الصيام، والزكاة، والحجّ.

وذلك لأنّ الصلاة عبادة يومية، تُؤدَّى في أوقات من الليل، وفي أوقات من النهار، وغير مشروطة باستطاعة بدنية وبشهر محدّد كعبادة الصيام، وبمكان مخصوص وأيّام معلومة كعبادة الحجّ مع اِستطاعة بدنية واِستطاعة مالية، ولا بمكاسب ماديّة كعبادة الزكاة: هي عبادة يؤدّيها المقيم والمسافر، الصحيح السليم والمريض المعاق، الغنيّ والفقير، تؤدّى في أيّ مكان نظيف طاهر، في طهارة مائية أو من صعيد طاهر. الصلاة عبادة يقابل بها المؤمن وجه ربّه مستقبلا القبلة إن علمها، أو إلى أيّ وجهة إن جهل قبلته ليناجيه تعالى. في هذه العبادة ذكر وقراءة وتسبيح وتهليل وحمد لله تعالى، وهي ذات قيام وركوع وسجود. يسجد المؤمن راجيا مغفرة ربّه وخاشعا خائفا من غضبه وعقابه. إذا مسّه خير من ربّه سجد له شاكرا، وإن مسّه ضرّ سجد له داعيا ليكشف عنه ضرّه. وإن لم يمسسه سوء سجد له مناجيا طائعا عابدا ذاكرا ممتثلا لأمره تعالى. هي عبادة روحية تجعل المؤمن على صِلَةٍ بربّه آناء اللّيل وأطراف النّهار، وليس من عبادة فيها هذه الخصائص إلاّ الصلاة، لذلك خُصّت بالذكر، وقد جاء في الحديث النبويّ الشريف: "الصّلاة عماد الدين".

والصلاة تجعل الإنسان يراقب ربّه في عمله وقوله كلّ وقت وحين. الإنسان إذا أخطأ أو زلّ أو أساء ثمّ قام للصلاة تنبّه لفعله فسارع للاستغفار، ثمّ أصلح شأنه مع نفسه ومع ربّه. هي العبادة التي تجعل المؤمن نابض القلب يراقب الله في نفسه في كلّ وقت وحين، فيستقيم على صالح القول والعمل، ويتجنّب المعصية، فإذا هو العبد المنيب المؤمن الّذي يرجو رحمة ربّه ويخشى عذابه ويتقّي المعاصي والرذائل. وهي الضامنة للتوقّي من هوى النّفس ووسوسة الشياطين ومن الانحراف عن صراط الله المستقيم، وتجعل المُداوم عليها والمحافظ عليها دائم العروج بروحه وبنفسه وبذكره لربّه، وتجعله عابدا ذاكرا وشاكرا ومؤمنا صادقا مخلصا لله في الدين. لهذه العناصر ولغيرها ممّا هي في علم الله تعالى خصّ "الصّلاة" بالذِّكر وأُستُثْنِي "المصّلون" من كلّ صنف من عذاب الله تعالى، وجعلهم تعالى عنده من "المكرمين".

- أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ (35) :

يَعِدُ الله تعالى – وَوعده الحقّ – المصلّين المتّصفين بهذه الصّفات الثّمانية بإيوائهم في بساتين التّكريم يوم رجوعهم إليه. والمكرمون أصحاب حظوة كبيرة عند الله عزّ وجلّ.

- فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ (36) عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (37) :

فما لهؤلاء الذين لا يُؤمنون بالله واحدًا أحدًا، ولا يصدّقون بك يسرعون إليك ويجلسون من حولك (عِزِين) أي جماعات وحِلَقًا (مُهْطِعِين): مادّين أعناقهم، ويسرعون إليك، ثمّ يُسارعون إلى التكذيب بما أسمعتهم من خبر يوم الدّين...

- **أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ (38) :**

من المشركين من كان من هزئه بوعد الله تعالى للمؤمنين يقول عن أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لئن دخل هؤلاء الجنّة فسيسبقهم إليها، وجاءت هذه الآية لدحض مزاعم كلّ من يظنّ منهم أن يسبق المؤمنين من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى الجنّة. والاستفهام في الآية إنكاري وقد جاءت الإجابة عنه في الآية الموالية بـ (كَلَّآ).

- **كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ (39) :**

(كَلَّآ) أي لن يدخل الجنّة من لم يكن مؤمنا عابدا وعاملا الصالحات. جميع الخلق خلقوا ممّا يعلمون من منيّ ثم من نطفة ثمّ من علقة ثمّ أخرجوا من بطون أمهاتهم خلقا كسائر جنسهم. فلا فضل لأحدهم على الآخر في خلقه.

- **فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (40) :**

هذه الآية إلى آخر السورة في تهديد المكذّبين باستبدالهم بآخرين، وفي دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالصبر عليهم حتى يأتيهم يوم اليقين. ومعنى الآية: لا داعي للقسم بربّ المشارق والمغارب، وهو الله عزّ وجلّ هو تعالى الذي أنشأها وهو الّذي قدّرها. وكلّ عاقل يدرك من ذاته بأنّ الله تعالى هو الذي جعل الشّمس تظهر من مشرق الأرض وتغرب من غربها. ولمّا كانت الأرض كروية الشّكل ولمّا كانت تدور من حول الشّمس فإنّ زوايا مطلع الشّمس تختلف من يوم إلى آخر، ومن فصل إلى فصل، وكذلك زوايا الغروب، ولذلك جاءت الآية بذكر المشارق والمغارب مراعاة للدقّة.

وجواب القسم: (إِنَّا لَقَٰدِرُونَ) للتأكيد على أنّ الله عزّ وجلّ عظيم القدرة، وإنّ قدرته تعالى غير متناهية، قادر على فعل كلّ شيء للجزاء أو للعقاب، قادر على الخلق والإماتة، وقادر على إحياء الموتى، إنّه تعالى لا يعجزه أيّ شيء وأيّ أمر وأيّ فعل في السماوات وفي الأرض مع جميع ما خلق، كلّ شيء خاضع لإرادته وتقديره.

- **عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ (41) :**

والله تعالى قادر على اِستبدال المكذّبين بقوم آخرين خيرا منهم: مؤمنين وطائعين لأمر ربّهم. وليس الله تعالى بعاجز على الذهاب بهم وإبدالهم بغيرهم.

- **فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (42) :**

الخطاب في هذه الآية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لتسليته حتى لا يغتمّ بانصراف المشركين عن اِتّباعه، وحتى لا يحزن بهزئهم بما يسمعون من الوعيد. ومعنى الآية : أُتركهم في باطلهم: في تكذيبهم وهزئهم وفي تماديهم في الكفر، ودَعْهم للهوهم بدنياهم ومتاعهم، واِشتغل – يا نبيّ

الله – بما أمرت، ولا تشغل نفسك بهم حتى يأتيهم اليقين: العذاب الذي توعدهم الله به يوم الحساب، (وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ)(الشعراء الآية 227).

- يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ **(43)** :

أنْظِرهم حتى يقوموا من قبورهم في سرعة يوم ينفخ في الصور النفخة الثانية المؤذنة بالاجتماع والحضور عند الميزان للحساب، يومئذ يقومون مسرعين إلى شيء منصوب ظاهر أمامهم.

- خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ **(44)** :

يؤمئذ يُروْن ذليلين، لا يرفعون أبصارهم لما يتوقعونه من عذاب الله، ويغشاهم الهوان. ذلك يوم القيامة: يوم المحاسبة، يوم العقاب الذي كانوا يكذّبون به، ويستبعدون حصوله، وكانوا به يهزؤون.



رقمها	ســــورة نـــــــوح (عليه السلام)	آياتها
71	ـــــ مكية ـــــ	28

هذه السورة هي قصّة (نوح) عليه السلام، وهي سورة مكية.

وقد جاءت لإنذار المشركين، وليعتبروا بعاقبة قوم نوح لمّا كذّبوا رسولهم. وفي السورة تفصيل لأصول العقيدة السليمة التي دعا إليها نوح قومه، وهي نفس الأصول التي يدعو إليها الإسلام، بما يدلّ على وحدة الشرائع السماوية في عقيدة التوحيد وفي الدعوة لطاعة الله وحده وللعمل الصالح وأوله الاستغفار. وفيها عرض لعناد المشركين، وفيها جملة من المواعظ.

- إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (1) :

(إِنَّآ) هو الله عزّ وجلّ أرسل (نُوحًا) عليه السلام إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام لهديهم إلى عبادة الله الحقّ، وللإقلاع عن شركهم وللتّوبة منه وللاستغفار ممّا كانوا يعبدون. وكان من رسالته إنذارُهم من عذاب الله عزّ وجلّ إن لم يقلعوا عن شركهم، وإن تولّوا عن الاستقامة على عبادة الحقّ تعالى. وقد روى قتادة عن ابن عباس أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "أوّل رسول أُرسل : نوح عليه السلام، وأُرسل إلى جميع أهل الأرض". ونوح عليه السلام، هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس... ويرتفع نسبه إلى شيث بن آدم عليه السلام. وقد عمّر طويلا في دعوته لقومه ليهتدوا إلى التّوحيد.

- قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (2) :

هذه مع الآيتين المواليتين في موعظة نوح عليه السلام لقومه. كان يخوّف قومه من عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا، وإذا أصرّوا على شركهم. وقد بلغهم بأنّه رسول الله إليهم جاءهم ليحذّرهم من غضب الله، وكان تحذيرا واضح المعنى والبيان.

- أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) :

ودعاهم رسولهم لأن يعبدوا الله الواحد الأحد، ولئلاّ يعبدوا إلاها آخر سواه. ودعاهم لأن يخشوا غضب ربّهم وعقابه وذلك بطاعة أوامره وباجتناب معصيته ونواهيه. وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به فيما يوحى إليه من ربّه من طاعات ومن أعمال وأخلاق في السلوك والمعاملات ليكونوا من الصالحين.



- يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (4) :

وبشّر نوح عليه السلام قومه بمغفرة الله تعالى لذنوبهم السابقة فيما كان منهم من عبادة الأصنام إذا تابوا من شركهم، وإستقاموا على عبادة ربّهم الواحد الأحد، وحينئذ يبارك الله تعالى في أعمارهم، ولا يعجّل بعذابهم على الشّرك، فيتركهم إلى حين حلول آجالهم. ولا يُؤَخَّرُ الموتُ عمّن حضر أجلُ وفاته، ولا يُؤَخَّرُ عقابُ القوم بالشدائد إذا قضاه الله تعالى في من يكفر به وبوعيده لو كانوا يعلمون عظيم القدرة عند الله عزّ وجلّ، فإنّ قضاءه لا يُردُّ.

- قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) :

وهذه إلى آخر السورة في شكوى نوح عليه السّلام لربّه، وفي مناجاته بالدعاء. قال نوح شاكيا تصلّب قومه في الاستجابة لدعوته، يا ربّ إنّي لم أتهاون في دعوة قومي للاهتداء للدّين الحقّ، وفي تبليغ رسالتي إليهم باللّيل وبالنّهار دون سَأَمٍ.

- فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا (6) :

فما زادتهم دعوتي لهم للإيمان بك ربّا واحدا إلاّ هروبا منّي، ونفورا من الاستماع إليّ، وصدًّا.

- وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا (7) :

وإنّ من شدّة تمسّكهم بعبادة أصنامهم، ومن شدّة إصرارهم على كفرهم ورفضهم لدعوتي لهم للإيمان بالله وحده، ومن شدّة نفورهم من طلب مغفرة ربّهم أنّهم كلّما دعوتهم ليسمعوا لي سدّوا آذانهم بأصابعهم حتى لا يصلهم صوتي وكلامي، وبالغوا في تغطية رؤوسهم بملابسهم كراهة أن ينظروا إليّ، وتمسّكوا بما هم عليه من عبادة الأصنام ومن الكفر والشرك، وتكبّروا عن طاعتك – يا ربي – وعن السمع لي وعن الاستجابة لدعوتي تكبّرا مُبالغًا فيه.

- ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) :

ثمّ إنّي دعوتهم بأعلى صوتي في نواديهم وأسواقهم وليؤمنوا بربّهم، ويتركوا شركهم.

- ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) :

ثمّ إنّي صحت فيهم بأنّ ما يعبدون ضلالة وكفر، وحاولت مع بعضهم أفرادا وبعيدا عن الأعين ليؤمنوا بالله وحده، وليدَعُوا الشرك.

- فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (10) :

وقد كنتُ أدعوهم لأن يطلبوا مغفرة ربّهم من الكفر والشّرك، وكنت أبلّغهم بأنّ الله تعالى واسع المغفرة للتّائبين، وكثير الغفران لمن تاب وآمن وعمل صالحا.

- يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا (11) :

وينعم عليكم ربّكم باستغفاركم بإنزال الغيث الغزير المتتابع عليكم لتشربوا وتسقوا وتنجوا من العطش والقحط. وإنّ من أعظم البلاء اِبتلاء قوم بانحباس الغيث عنهم، وإصابتهم بالقحط.

واِعتمد الفقهاء على هذه الآية وعلى الآية 52 من سورة "هود" في اِستنباط القول بالإكثار من الاستغفار في صلاة الاستسقاء، وقالوا اِعتمادا على الآيتين بأنّ الاستغفار يُستَنْزَلُ به الرّزقُ والغيث.

- وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا (12) :

وقد رَغَّبْتُهم في الاستغفار من الشّرك ومن المعصية ومن التولّي عن طاعتك ليُنعم عليهم ربّهم الحقّ بإنجاب الولد والذريّة الصالحة، وبسعة الرزق والكسب، وليجعل لهم من أرضهم بساتين خضرة مثمرة، ولتكون عندهم أنهار تجري بالماء العذب.

- مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا (13) :

الرّجاء في هذه الآية يفيد معنى طلب الثّواب عن الطاعة والعبادة، كما يفيد الخوف من العقاب. وأمّا الوقار فيعني التّوقير تعظيما. ومعنى الآية: أيّ عذر لكم في أن لا تطلبوا من الله عزّ وجلّ الثواب عن طاعته وعبادته وتوقيره تعظيما لعزّته، وفي أن لا تخافوا عقابه، وألاّ تخافوا عظمة الله تعالى وقدرته عليكم بالعقوبة؟

- وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا (14) :

كيف لا ترجون لله تعظيما والحال أنّه جعل لكم في أنفسكم أدلّة على حسن تقديره وعلى خلقه لكم وعلى توحيده في خلقكم أطوارا: رُضَّعًا، ثم صِبْيانًا، ثمّ شبّانا، ثمّ كهولا، ثمّ شيوخا، فهل لكم من إلاه خالق لكم غير الله عزّ وجلّ..؟

- أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا (15) :

ألم تروا عظمة الله تعالى في الخلق وحسن التدبير، واِنفراده بالخلق في خلقه سبحانه للسماوات السبع طبقات فوق بعض دون تماسٍ، وبدون خلل.

- وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا (16) :

وهو الذي جعل القمر مُنيرا، وجعل الشّمس مصباحا مضيئا يبدّد الظلمة ويُنير كلّ شيء. فهل لكم من إلاه غيره ينير لكم القمر، ويضيء لكم النّهار بالشّمس؟ اعرفوا ربّكم الحقّ بدلائل خلقه واعبدوه ووقّروه تعظيما وإجلالا، واشكروا له،ولا تتّخذوا لكم من دونه إلاها آخر ليس له آية من خلقه تدلّ عليه.

- وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا (17) :

والله الّذي أدعوكم لطاعته وعبادته هو الذي أنشأكم من الأرض إنشاءً.

- ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجًا (18) :

ثمّ يعيدكم إلى باطن الأرض حين يتوفّاكم – وقد رأيتم ذلك حين دفنتم أمواتكم، ثمّ يخرجكم منها إخراجا حين تقوم الساعة، يومئذ تبعثون من قبوركم أحياء للحساب.

- وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا (19) :

واعلموا أنّ من فضل الله تعالى عليكم، ومن نِعَمِهِ أن جعل لكم الأرض (بِسَاطًا) أي ممهّدة ومنبسطة كالبساط وكالفراش الّذي يُستقرّ عليه.

- لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20) :

وهذا لتنتقلوا في جوانبها عبر طرق واسعة في منبسطها وبين جبالها كذلك، فأذكروا فضل ربّكم عليكم، وأشكروا له، وأطيعوه.. وهذا كقوله تعالى (وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ)(الأنبياء الآية 31).

- قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا (21) :

كذا كان نوح عليه السلام يدعو قومه للإيمان بالله الواحد الأحد الحقّ، وليتوبوا من شركهم وضلالتهم. كان يجتهد في تبليغهم بأنّ الله تعالى هو ربّهم الحقّ مستدلاّ على هذا الحق بدلائل خلقه وإنعامه الظاهرة، فكان واعظا حكيما لأنّه اعتمد الحجج المشاهدة في إقناعهم بأنّه يدعوهم للرّشاد ليطيعوه، ولكنّه شعر بأنّه لم يفلح في هديهم للصواب، فعاد لرفع شكواه لربّه فقال: يا ربّ إنّ قومي لم يطيعوني فيما أدعوهم للاهتداء إليك وإلى سبيلك وإلى طاعتك بسبب اِنقيادهم لزعمائهم وساداتهم أصحاب النفوذ والأموال والأملاك الذين لم تزدْهم النِّعم إلاّ بطرًا وكفرًا واِفتتانا للنّاس، فكانوا من الخاسرين الذين خسروا دنياهم ببطرهم وبضلالتهم، وبصدّهم عن سبيل الله، وخسروا كذلك آخرتهم لكفرهم وجحودهم وإضلال النّاس بافتتانهم.

- وَمَكَرُواْ مَكۡرًا كُبَّارًا (22) :

ولقد صدّوا النّاس عن الهدى، وعن الاهتداء للدين الحقّ، وتآمروا عليَّ وعلى الذين آمنوا من أتباعي تآمرا كبيرا وعظيما ومزعجا.

- وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا (23) :

وقال هؤلاء الأثرياء: زعماء القوم لأتباعهم: لا تتبعوا نوحا فيما يدعوكم إليه، لا تتركوا عبادة آلهتكم : (وَدًّا) وهو صنم في صورة كلب ، ولا (سُوَاعًا) وهو صنم لهُذيل، وأمّا(يَغُوثَ) فهو صنم في صورة أسد و(يَعُوق) صنم في صورة فرس و(نَسۡرًا) صنم في صورة نسر وهي أسماء لأصنام يدّعون أنّها صُوَرٌ لآلهتهم.

- وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا (24) :

وبدعوتهم هذه لأتباعهم صدّوا النّاس عن اِتّباعي وعن السماع لي، وأبعدوهم عنّي وأضلّوهم عن الحقّ. ثمّ دعا نوح عليه السلام عليهم بأن يزدادوا ضلالة حتى يحقّ فيهم وعد الله تعالى ليكونوا من أصحاب السعير. وما كان دعاء نوح عليهم بمزيد الضلالة إلاّ لأنّهم قد أرهقوه بمكرهم الكبير، ولأنّهم كانوا منه يضحكون وكانوا يحتقرون أتباعه ويغرونهم لأن ينفصلوا عنه، ولأنّهم قد شاقّوه بكفرهم.

- مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا **(25)** :

هذه من إخبار الله تعالى فيما فعل بهم عقابا لهم لإصرارهم على الكفر ولأنّهم شاقّوا رسوله. فبِسَبَب إصرارهم على الكفر وصدّهم النّاس عن سبيل الله، وبسبب مشاقّتهم لرسولهم – وكلّ هذه خطايا وآثام كبيرة – عجّل الله تعالى بإغراقهم حتى هلكوا، ولم تشفع لهم أصنامهم التي كانوا يعبدون من عذاب الله عزّ وجلّ. ويعقب هذا العقاب عقاب آخر حين تقوم الساعة فقد قضى الله تعالى فيهم بأن يدخلهم جهنّم ليعذّبوا بنارها، ولن تشفع لهم آلهتهم من هذا العذاب بمثل ما لم تشفع لهم من عذابهم بالغرق في دنياهم.

وفي قصة نوح عليه السلام اِلتفات لمشركي قريش وخاصة زعماءهم وسَادتهم ليعتبروا بسوء عاقبة من سبقهم من مشركي قوم نوح، وليحذروا ما كانوا يفعلون مع رسولهم محمد صلّى الله عليه وسلّم من الهزء به ومن الصدّ عنه، ومن مشاقّة وتكذيب، ومن إصرار على التمسّك بتقديس أصنامهم (اللاّت والعزّى ومناة...).

- وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا **(26)** :

ثمّ دعا نوح عليه السلام ربّه لتطهير الأرض كلّها من الشرك وعبادة الأصنام. دعا ربّه بأن لا يترك على الأرض دارا، ولا منزلا لكافر حتى يقطع دابر الكافرين، ويهلكهم جميعا، حتى لا يعبد عليها إلاّ الله وحده، وليستأصل الشّرك ومظاهر الكفر بالله تعالى الحقّ.

- إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا **(27)** :

وعلّل نوح عليه السّلام دعاءه باستئصال الكافرين حتّى لا يعْمَدُوا إلى تضليل النّاس وحتّى لا يصدّوا المؤمنين عن دينهم الحقّ، وحتّى لا يخرج من أصلابهم من هو أشدّ منهم كفرا وتجاوزًا للحدّ في المعصية والتّضليل.

- رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا**(28)** :

ثمّ دعا نوح عليه السلام لنفسه وَلوالديْه – وكانا مؤمنين، ولمن دخل مُصَلاّه مؤمنا ومصدّقا بالله وحده، ولم يكن مشركا، وكان مُطيعا له ومن أتباعه، ثمّ دعا لعامّة المؤمنين والمؤمنات إلى



يوم القيامة: من قومه وممن سبقه من المؤمنين واللاّحقين إلى آخر الدنيا، وختم بالدعاء على الكافرين: الظالمين لأنفسهم بالكفر بالهلاك والخسران والتّبار : هو الدمار.

والله نسأل الثبات على الإيمان وحسن العمل والقول.

رقمها	سورة الجنّ	آياتها
72	ــــ مكية ــــ	28

هذه سورة مكية، سُمّيت بسورة "الجنّ" لأنّها اِختصّت بذكر إيمان طائفة من الجنّ بالقرآن الكريم، وبالرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وقد تبرّؤوا من الشّرك، واِهتدوا إلى الرّشد بالتّصديق بوحدانية الله تعالى في الألوهية، وتبرّؤوا من عمل إبليس في إغواء رجال من الإنس. وشهدوا بأنّه لا علم لهم بالغيب، وأنّ الله تعالى قادر عليهم. وجاء في هذه السورة أنّ منهم المسلمين ومنهم القاسطين، وأنّ منهم الصالحين وما دون ذلك. وجاء فيها الترغيب في الاهتداء للرشاد، والترهيب من الوعيد، وأنّهم كالإنس في أنّهم يوم القيامة محاسبون.

وتشهد هذه السورة للنّبي صلّى الله عليه وسلّم بأنّه رسول "للثّقلين" : الإنس والجانّ، وفي هذا تشريف عظيم له صلّى الله عليه وسلّم ولرسالته الخاتمة.

- قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا **(1)** :

قل – يا أيّها النّبيّ – للنّاس بأنّ الله تعالى أخبرك بأنّ مجموعة من الجنّ قد اِستمعوا إليك وأنت تتلو ما تيسّر لك من التّنزيل، فلمّا أتممت قراءتك سارعوا إلى قومهم فأخبروهم بأنّهم قد سمعوا (قُرۡءَانًا عَجَبٗا) : قرآنا بديعا في نظمه ودقّة معناه وحسن إرشاده، ولا يمكن أن يكون من تصنيف أحد من البشر. و(الجنّ) خلقٌ من خلق الله عزّ وجلّ، خافين عن إبصار البشر، وخُلقوا من نار. قال تعالى (وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ)(الرّحمان الآية 15).

- يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا **(2)** :

وقالوا للقوم: إنّه قرآن يرشد للحقّ والصواب فصدّقنا به كلاما من عند الله عزّ وجلّ، وإنّا نؤمن بربّنا إلاها واحدا، لا إلاه إلاّ هو، ولن نشرك به أحدا.

- وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا **(3)** :

وإنّه تعالى هو ربّنا بحقّ، ولا ربّ لنا سواه، ولم تكن له صاحبة، وليس له ولد.

- وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا **(4)** :

(وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا) وهو إبليس، نُعِتَ بالسَّفَهِ لخفّة عقله، فقد كان يقول على الله عزّ وجل قولا (شَطَطٗا) مغاليا في الكذب، ومتجاوزا حدّه في الافتراء والقول الباطل ليضلّل به النّاس عن الهدى.

- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ (5) :

وإنّنا كنّا نعتقد أن لا يتجرّأ الإنس والجنّ على الله تعالى فينسبوا له الشريك أو الندّ أو الصاحبة والولد كذبا وإفتراءً..

وفي هذه الآيات إلتفات لأهل قريش لتأكيد الحجّة عليهم، فإذا كان الجنّ قد آمنوا بالقرآن وعلموا أنّه يهدي إلى الرشد وأنّهم قد سمعوا قرآنا عجبا، وأنّهم قد آمنوا بالله الواحد الأحد، ولم يشركوا به أحدا وأنّهم لا يقولون على الله شططا، فأهل قريش أحقّ بهذا الإيمان لأنّ الله تعالى قد شرّفهم بأن كان القرآن بلسانهم العربي، وأنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كان واحدا منهم وقد عرفوا صدقه وأمانته، فإذا علموا أنّ القول بالشرك قول شطط وكذب فهم الأحقّ بالتبرّؤ منه.

- ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ (6) :

هذه في التّعريض بطائفة من النّاس (يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ) أي يلجؤون إلى إستحضار بعض من الجنّ بتعاويذهم التي ينظّمها لهم المشعوذون والسحرة الدجّالون والكهنة الكاذبون في جلسات يحرقون فيها البخور، ويُتَمْتِمُونَ بتمائم غريبة غير مفهومة ولا معلومة بدعوى إستحضار الجنّ لطلب إعفاء أهل الصرع من صرعاتهم، أو لرفع النّحس عمّن أُصيب بنحس في علاقته الزوجيّة أو في سوء الطّالع في عمله وفي تحقيق مشروعه، أو للتخلّص من الرؤى التي يتوهم الرائي رؤيتها من أعمال الجنّ أو ما يسمعه من أصوات تُقِضُّ مضْجَعَهُ، ويطلب الدّجالون قرابين من أولئك النّاس لسفك دمائها إسترضاء للجنّ أو لطردهم. كلّ هذه أعمال من الدجل والشعوذة وتشير الآية أنّ هذا اللّجوء للجنّ لا يزيد اللاجئين إليهم إلاّ (رَهَقٗا) أي خطيئة وإثما، وخوفا من الجنّ.

والمستفاد من الآية الاستعانة بالله تعالى في كلّ أمر: عند طلب تيسير ما يعتزم الإنسان على فعله دون اللجوء إلى أساليب الشعوذة والتدجيل وتعليق الحروز والتمائم، وعند تأزّم الحال عند المرض أو عند تعسّر قضاء الشأن أو عند الخلافات الزّوجيّة. لا يلتجئ المرءِ العاقل عند طلب الحاجة أو عند التعرّض لبلاء لدفعه إلاّ إلى الله عزّ وجلّ. وتشير الآية بوضوح تام أنّ اللجوء لطلب عون الجنّ ما يزيد المرءَ إلاّ(رَهَقٗا).

- ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾ (7) :

هذه الآية في إخبار من الله تعالى بأنّ الجنّ كانوا يعتقدون –كما يعتقد رجال من الإنس– بأنّه ليس بعد الموت بعْثٌ لأحد، فمن مات فقد ذهب ولن يعود للحياة ثانية. ويمكن أن تُفهم الآية على الوجه التالي: وقد كان الجنّ يعتقدون– كما كان يعتقد رجال من الإنس أن لن يرسل الله تعالى رسولا إلى خلقه لتوحيده ولإرشادهم لدينه الحقّ ولصراطه المستقيم. وكلا المعنيين جائز. وفي الحالين كان إعتقاد الجنّ ورجال من الإنس في البعث أو في إرسال رسول إلى النّاس من جنسهم خاطئا.

- وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) :

هذه للتّأكيد على أنّ العلم بالغيب محجوب على الجنّ، وهذا ممّا يؤكّد على أنّ كلّ من يدّعي العلم بالغيب هو كذّاب ودجّال. ومعنى الآية أنّ الجنّ يخبرون بأنّهم قد أرادوا بلوغ مراقي التّنصّت على خبر ما سينزل من السماء إلى الأرض من أمر فلم يستطيعوا القرب منها لأنّ المكان قد شُدَّت عليه الحراسة بالملائكة الحفظة، وكانوا كُثْرًا وشديدي المراقبة، وكانوا يمنعون الاقتراب من المكان ويمنعون من التّنصّت، وقد تسلّحوا بالشهب. والشهب هي النيازك، وهي قطع من لهب الشمس الحارق جُعلت رجوما للشّياطين الذين يحاولون الاقتراب من مكان التّنصّت لإحراقهم على الفور ليهلكوا بعذاب الاحتراق.

- وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا (9) :

وأخبروا بأنّهم كانوا قبل بعثة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يتّخذون مقاعد للسمع للتّنصّت على خبر السماء لإبلاغها للكهنة، ولكن لما بعث النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم برسالته شدّت الحراسة على مواضع التّنصّت، ورُصِدت بالشّهب الحارقة المهلكة الماحقة التي لا تُخطِئُ كلّ من يقترب من أمكنتها. وقد جاء في الخبر أنّه لمّا بُعث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم برسالته مُنع الجنّ مقاعدهم للسمع.

وفي هذا تعريض بالكهنة : سدنة بيت الله الحرام، ونعتهم بالكذب والدجل.

- وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) :

وأخبروا جمعهم بأنّهم سبب منعهم من الاقتراب من مكان التّنصّت: هل أريد به مفاجأة أهل الأرض بعذاب الهلاك إن هم أصرّوا على كفرهم، وعلى التّكذيب برسولهم وبكتابه، أم أريد بهم الخير بتنزيل الوحي على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فترة بعد فترة بإذن من الله عزّ وجلّ حتى لا يعلم به أحد قبل رسوله، وهو تنزيل يهدي النّاس للحقّ وللرّشاد وللهدى لصراط الله المستقيم؟

- وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا (11) :

هذه في فرق الجنّ، فهم على طوائف بمثل أهل الأرض. فيهم الصالحون: المؤمنون الذين لا يؤذون. ومنهم طائفة غير صالحين، من أهل الشرّ والإفساد. فهم فرقٌ شتّى وعلى مذاهب مختلفة.

- وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا (12) :

ولقد علمنا أنّا – نحن الجنّ – غير فائتين ولا مُفلتين من الله عزّ وجلّ، وإنّه تعالى قادر علينا، ولن نستطيع من قضائه فينا مهربا وفرارا.

- وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) :

وإنّنا لما سمعنا القرآن صدّقنا به، وبأنّه كلام الله تعالى، ولم نكذّب به ولا برسوله.

ومن يؤمن بالله واحدا أحدا وبرسوله وبما أنزل على رسوله فإنّه لا يخاف نقصا من حسناته، ولا ظلما بالزّيادة في سيّئاته. وفي هذا اِلتِفَاتٌ لأهل قريش لحضّهم على الإيمان بالله تعالى واِتّباع هداه.

- وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا **(14)** :

وأخبروا قومهم بأنّهم بعد سماعهم لما تيسّر من القرآن على لسان النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم قد صدّقوا به نبيئا ورسولا واِتّبعوا عقيدة الإسلام فصاروا مسلمين يشهدون لله تعالى بالوحدانية وبمحمد صلّى الله عليه وسلّم بالنّبوّة والرّسالة وبالقرآن كلام الله تعالى الّذي أوحى به إلى رسوله ليبلّغه للثقلين: الإنس والجانّ، وصدّقوا بالبعث. وإنّ منهم من لم يؤمن ولم يسلم فبعُد عن الهدى وبقي على ضلالته، وهو القاسط الذي حاد عن الحقّ إلى الباطل. وأمّا المسلمون فقد عرفوا طريق الحقّ فاتّبعوه واِهتدوا بذلك للرّشاد وللصواب الذي يرتضيه العقل.

- وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا **(15)** :

وأمّا الذين حادوا عن الصواب، ورفضوا الاِهتداء للحقّ البيّن فمآلهم إلى جهنّم ليكونوا وقودا لها تشتعل بهم نارها وتتوهّج حتى يغدوا أمثال الخشب المحروق.

- وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا **(16)** :

الكلام في هذه الآية مع الآية التي تليها ليس من كلام الجنّ، وإنّما هو من كلام الله عزّ وجلّ لأنّ ضمير المتكلّم للعظمة في الأفعال الواردة في الآيتين لله سبحانه. وبهذا تكون الآيتان في وعد الذين (ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ) بالإنعام عليهم، وفي وعيد (وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ) بالعذاب. ومعنى الآية: ولو أنّ النّاس من أهل الأرض آمنوا بوحدانية الله تعالى، واِستقاموا على دينه الحقّ وعلى شرعه لأنعم عليهم بالغيث العميم ليحيوا الحياة الطيّبة ولم يحرمهم القطر حتى لا يهلكوا.

- لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا **(17)** :

ولنختبر شكرهم لربّهم على نعمته وما يأتي منها من خير. وأمّا من يعرض عن ذكر ربّه وعن طاعته وعن تنزيهه عن النّدّ والشريك فإنّه سيدخل في دوامة من العذاب المتصاعد الذي يزداد بدوامه عليه مشقّة.

- وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا **(18)** :

هذه الآية إلى آخر السورة في العنصر الثالث من السورة، وهي في ما جاء من الوحي في شأن إقام المساجد، وفي موقف المكذّبين بالرسول صلّى الله عليه وسلّم من بعثته ودعوته، وفي الإخبار بأنّ علم الغيب من علم الله وحده.



ومعنى الآية: وإنّما تقام المساجد لعبادة الله وحده، ومن دعا فيها لعبادة إلاه آخر غير الله عزّ وجلّ فقد اِعتدى على حقّ الله تعالى في أماكن عبادته وتقديسه. وفي هذه الآية اِلتفات لأهل قريش الذين اِعتدوا على المسجد الحرام حينما أقاموا فيها أصناما لآلهتهم التي يدعون، وصاروا يذكرون فيه غير الله تعالى، بل صدّوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الصلاة فيه لله تعالى.

وفي قوله تعالى بـ (أَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ) إضافة تشريف وتكريم للمساجد، ولذا يجب الحرص على آداب الدخول للمسجد التي منها الدخول إليها بصلاة، صلاة نافلة أو الصلاة المفروضة، أو بالتسبيح والتكبير والدعاء، ولا يجوز رفع الصوت فيها، والحديث فيها بغير الذكر، ويحرم الاشتغال فيها بمشغل من مشاغل الدنيا وقضاء الحاجة، ولا يجوز أن تُنسب لغير الله كأن يقال مسجد فلان... ويحسن الانشغال بتلاوة القرآن أو بالتسبيح عند اِنتظار إقام الصلاة، ويحسن مداومة تنظيف أركانها وفُرُشها وكذلك تهوئتها وتعطيرها.

- **وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا (19) :**

وإنّه لما قام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّي بأصحابه صلاة الصّبح تحت النّخلة، وشرع يقرأ القرآن جهرًا اِجتمع عليه الجنّ يستمعون إلى قراءته وأدعيته ويقتربون منه ويزدحمون عليه حتى كاد بعضهم يركب على بعض اِزدحاما عليه من حرصهم على سماع القرآن الذي كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرتّله ترتيلا. و(اللبدة) هي شعر رقبة الأسد الملتفّ والمتراكم، كذلك كان اِجتماع الجنّ على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حين قرأ القرآن، وحين دعا ربّه وسبّح.

والمُستفاد من الآية أنّ سماع القرآن من لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يرتّله ترتيلا، على نحو ما علّمه جبريل عليه السلام، كان له وقعٌ خاصّ على نفس السّامعين ممّا جعل الجنّ يزدحمون عليه للسماع منه. وفي هذا توبيخ للمشركين الذين كانت قلوبهم متحجرّة، ولم يؤثّر فيهم سماع القرآن من رسولهم صلّى الله عليه وسلّم، بل كانوا يلغون فيما يسمعون منه للتشويش على قراءته من عظيم جهلهم وكبريائهم، ولم تَلِنْ قلُوبهم كذلك لأدعيته ولتسابيحه.

ويجوز أن نفهم الآية على النّحو التالي: ولمّا رأى المشركون – وخاصة الكهنة: سدنة – (عَبۡدُ ٱللَّهِ) وهو محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قائما بالمسجد الحرام يصلّي لربّه على غير عادتهم في صلاتهم، ولمّا سمعوا منه قراءته ودعاءه وتسبيحه مخالفا ما كانوا يفعلون وما كانوا يدعون لأصنامهم، اِجتمعوا عليه، ومن حوله، كاللبدة حتّى كادوا يقعون عليه من شدّة اِزدحامهم عليه مستنكرين صلاته ودعاءه. وما جاء في الآية الموالية يرجّح هذا المعنى: والله أعلم بالأصوب من البَيَانَيْنِ.

- **قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا (20) :**

وقال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم للذين اِجتمعوا عليه، واِستنكروا عليه مجيئه إليهم بأمر عظيم مخالفًا به عبادة أجدادهم: إنّي لا أعبد إلاّ الله سبحانه ولا أدعو سواه، ولا أشرك به إلاها آخر. إنّ ربّي هو الله الواحد الأحد لا شريك له.

- قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) :

وهذه إلى الآية الأخيرة في البلاغ الّذي أوحي به للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليبلّغه للنّاس كافّة، ومعنى الآية: أخبرهم – يا نبيّ الله – بأنّك لا تقدر لهم على شيء لمعاقبتهم عن اِنصرافهم عن اِتّباع الهدى الذي جئتهم به، وبأنّك لا تستطيع أن تُنير عقولهم ليرشدوا ليهتدوا بذلك إلى الحقّ والصواب، لأنّ الهدى هدى الله، وإن مَسَّهُم سوءٌ أو ضرّ فمِنَ الله عزّ وجلّ عقابا لهم على إصرارهم على الكفر، فما أنت إلاّ رسول، وما عليك إلاّ البلاغ.

- قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا (22) :

وأخبرهم بأنّه لن ينفعك أحد غير الله تعالى بشيء، ولن يدفع عنك أحد من خلق الله عذابه إن عَصَيْتَهُ، وأنّه ليس لك من دون الله عزّ وجلّ (مُلْتَحَد) أيّ ملجإ تلتجئ إليه، هو الملجأ الذي تلتجئ إليه وهو المُنجّي الذي ينجيك من كلّ مكروه، وهو الوكيل والنّصير سبحانه.

- إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا(23) :

ألاَ إنّما أنا بشر مثلكم، وأنا منكم لا أقدر لكم على ضرّ ولا على نفع، ولا أقدر لنفسي على شيء إلاّ بالاِلتجاء إلى الله عزّ وجلّ بالدعاء ليكون لي وليا ونصيرا، وليس لي من أمر إلاّ أن أبلّغكم بما أرسلت به إليكم من عند الله تعالى من رسائل لتقيموا على توحيده وطاعته وعبادته، ولأنذركم بأنّ كلّ من يعصي الله في توحيده وعبادته، ويعصي رسوله فيما يدعوكم إليه من الطاعات والحكمة والهدى فإنّه سيُقْضَى فيه بالخلود في نار جهنّم لا يخرج منها عقابا له على شركه ومعصيته وعلى تولّيه عن الهدى وعن الاستقامة على دينه الذي اِرتضاه لعباده.

- حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24) :

وحين يلقى المكذّبون بالدين والمصرّون على شركهم ما توعدهم الله تعالى من عقاب في دنياهم، أو من عذابهم في آخرتهم، أو في كليهما معا فسيعرفون حينئذ من كان أضعف ناصرا ومن كان أقلّ عددا: أهُمْ أم المؤمنون..

وفي هذا ردّ ضمني عمّا كان يقوله المشركون للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حينما ينذرهم بوعيد ربّهم. كانوا يقولون: (نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ) (القمر الآية44) أو (وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)(سبأ الآية 35). أبطلت هذه الآية زعمهم، وأنبأت بأنّ الله تعالى مظهرٌ دينه، وأنّ الناس سيدخلون في دين الله بأعداد وفيرة وأنّ الله تعالى ناصرهم...



- قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا (25) :

أخبرهم – يا نبيّ الله– بأنّ ما أنذرتهم به من الوعيد قد يصيبهم في الأجل القريب في دنياهم، وربّما يُمهلون فيُؤخَّر لهم إلى يوم القيامة، فيجعل بينهم وبين ما يوعدون به زمنا لا يعلمه إلاّ الله سبحانه، فالأمر إلى الله عزّ وجلّ. ولقد حلّ ببعض زعمائهم عذاب السيف في بدر فهلكوا، وأمهل الله تعالى آخرين حتى يلاقوا ربّهم يوم الحساب.

- عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا (26) :

لا علم لأحد من الخلق بما في الغيب من قضاء وأسرار وخفايا. علم الغيب خاصّ بالله وحده. هو تعالى وحده عالم الغيب. ولا يُطلع الله على ما اِختصّ بعلمه أحدا.

- إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا (27) :

لا أحد يطّلع على ما في الغيب من علم إلاّ أن يشاء الله تعالى أن يظهره لمن يشاء من الرّسل المؤيّدين بالمعجزات، فإنّه تعالى يخبرهم عن بعض الغيبيات ليكون ذلك دالاّ على نبوّتهم. وحين يوحي الله تعالى لنبيّ بشيء من الغيب فإنّه يحفظ الوحي من اِستراق الشيطان لسمعه فيجعل ملائكة يحفظونه عن أن يقرب من الوحي شيطان. إنّ رسل الله محاطون بملائكة يحرسونهم من الشياطين حتى لا يتشبهون لهم بصور ملائكة وحتى لا يلقوا إليهم بكلام من غير الوحي.

وليس للمنجّم ممن يضرب بالحصى، أو ينظر في الكتب أو في البلّورات علم بالغيب. وفي الحديث الشريف: "كذب المنجّمون ولو صدقوا". ومعنى قوله صلّى الله عليه وسلّم: "ولو صدقوا" ولو صادف أنّ ما حكاه قد وقع بالمصادفة.

- لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا (28) :

وقد جعل الله تعالى ملائكة حفظة عند تنزيل الوحي ليعلم سبحانه أنّ الملائكة قد بلّغوا عنه لرسله وحْيَهُ كما شاءه محفوظا من كلّ زيادة أو نقصان، وعلم الله تعالى علما تامّا بما عند الرّسل، وعلم عدد كلّ شيء علما دقيقا.

وهذا لإثبات أنّ القرآن الكريم الذي أوحي به إلى النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم منزّه عن كلّ زيادة أو نقصان وعن كلّ شائبة، وحيّ نزل به جبريل عليه السلام من عند ربّه، ربّ العزّة، وكان التّنزيل محفوظا بالملائكة الحفظة.



رقمها	ســـــورة المزّمّـــــل	آياتها
73	ـــــ مكية ـــــ	20

سمّيت هذه السورة بسورة "المزّمّل" لافتتاحها بمناداة "المزّمّل". وهي سورة مكية، من أوائل السور في التنزيل، هي الثالثة بعد العلق والمدّثّر، أو هي الرابعة بعد العلق والقلم والمدّثّر.

مواضيعها: في الوحي وتنزيل القرآن، وفي دعوة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لتبليغ رسالته مستعينا بالصبر، ولتلاوة القرآن ترتيلا. وفي السورة توجيه للمؤمنين للمداومة على تلاوة القرآن والذكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإحسان مع المداومة على الاستغفار كذلك. وفيها وعيد للمكذّبين.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ (1) :

(ٱلۡمُزَّمِّلُ) هو النّائم الملتفّ بثيابه غطاءً. والخطاب للنّبي محمد صلّى الله عليه وسلّم ليصحو من نومه لينتبه لما سيُوحى إليه من كلام الله عزّ وجلّ. وكان هذا في أول زمن البعثة.

- قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) :

وجاءه الأمر بأن يقوم لصلاة الليل حين يكون الناس نياما، وهو أمر للمداومة عليها (إِلَّا قَلِيلاً) من الليل يخصّصه لراحته ولنومه، وهذه خاصية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تفسيرها فيما سيأتي.

- نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً (3) :

اِجعل نصف الليل أو أقلّ من ذلك قليلا للقيام، أو أكثر من نصفه على قدر طاقتك واِستعدادك.. كان هذا الأمر في بدء نزول الوحي لتزكو نفس النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لتلقّي الوحي. وهو أمر خاصّ به صلّى الله عليه وسلّم، وأمّا بالنسبة لأصحابه السابقين في الإسلام فكان الأمر للنّدب، ثمّ لمّا نزلت فريضة الصلوات الخمس صار هذا من الرّغائب من النّوافل ومن عمل التّطوّع.

- أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً (4) :

واِقرأ القرآن بِتُؤَدَةٍ وتَثَبُّتٍ مع تبيين حروفه لتبليغ سامعيه معَانِيَهُ. ويفيد المفعول المطلق (تَرۡتِيلا) التّأكيد على قراءة القرآن قراءة مُتَأَنِّيَةً على مهَل، وغير متعجّلة مع إخراج الحروف من مخارجها واضحة وبيان علامات إعرابه صحيحة لتكون معانيه في الإرشاد والمواعظ أو الأوامر والنّواهي واضحة عند السامع. والقصد من ذلك حسن البلاغ وتحريك المشاعر والأحاسيس والعقول لتدبّر ما يبلغُهم منه وللذكر والتذكّر وحسن الاستفادة من مواعظه.

وليس يعني الترتيل قراءة القرآن على مقام من مقامات الألحان الشجيّة، أو التغنّي به حتى تُمدّ مدوده بأكثر ممّا يلزم أو بالتغنّي عند فواصل الآيات بما يجعل السامعين يتأوّهون ويتمايلون دون فهم لما كانوا يسمعون. غاية الترتيل حسن الفهم وحسن التبليغ، وحتى لا تكون قراءة القرآن سَرْدِيَةً كأيّ نصٍّ مقروء. إنّه كلام الله تعالى الذي يهزّ المشاعر، ويردّ الضالّ، وينبّه الغافل، ويغرس الوعي...

- **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) :**

هذه مع الآية الموالية في بيان الغرض من فرض صلاة القيام باللّيل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. إنّ هذا الفرض متعلّق بإلقاء قول يثقل حمله، وحملُه شديد على النّفس. والقول الثقيل هو الوحي الذي سيلقى على رسول الله وهو القرآن، هو كلام الله عزّ وجلّ الذي يثقل على بعض النّاس العمل بشرائعه، ويثقل على الكافرين وصفهم بالجاهلين والكافرين وبالمجرمين والجاحدين والضالّين والمفترين وبالمستكبرين، ويثقل عليهم تهديدهم أو تحذيرهم من عقاب شديد في دنياهم، ووعيهم بعذاب أشدّ وأنكى في آخرتهم، ويثقل على المنافقين وصفهم بالمخادعين ووعيدهم بالدرك الأسفل من النّار. ويثقل على نفس المؤمن التّقي كلامُ الله تعالى خشيةً من الله عزّ وجلّ وطمعا في رحمته ورضوانه، وتدمع العين من وَجَلِ قلبه ولِينِه لذكر ربّه.

- **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) :**

إنّ ما ينشأ في الليل من العبادة والدعاء، وما يحدث فيه أشدّ تثبيتا للإيمان في القلب وموافقة للسمع على فهم ما تقرأ من القرآن، وأصدق في الدعاء، وأخلص للعبادة والطاعة، وألين للقلب، وأقرب لمناجاة الله تعالى، وكذلك أبيَنُ مقالا وأحسن قراءة وأثبت، وأكثر خشوعا. قال تعالى (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا)(الإسراء الآيتين 79-80). وقال جلّ وعلا (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا)(السجدة الآية 16).

لذا فإنّ نافلة الليل التي تكون بعد فترة من نوم، ثم يتوضأ المؤمن ويقوم لصلاة تسمّى صلاة التهجّد هي من أفضل النوافل لأنّها تدلّ على صدق الإيمان، وإنّ الدعاء فيها هو من دعاء الخوف والرجاء، وإنّ وعد الله عزّ وجلّ في الجزاء عنها – كما ورد في آية سورة الإسراء – عظيم الشرف.

- **إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (7) :**

وإنّ لك أثناء النهار وقتا متّسعا لتشتغل بأعمالك، ولتقوم بمهامك، فخُصّ ليلك للصلاة والدعاء والذكر.

- **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) :**

واذكر اِسم ربّك بالحمد على كلّ نعمة وبالتّسبيح بعظمته وجلاله، وأُذكره بالدعاء عند التوكّل عليه في عملك، وعند طلب توفيقه فيه وعونه. (وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ) أي وعند عبادته اِنقطع لله تعالى بالعبادة اِنقطاعا مستغرقا في طاعته وفي دعائه، وهذا الانقطاع هو المعبّرُ عنه بالخشوع الذي يجعل العابد المتبتل إلى الله تبتيلا مستحضرا ربّه في كلّ تسبيحة وفي كلّ دعاء مناجيا ربّه كأنّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنّ الله تعالى يراه، وهذا ما عبّر عنه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالإحسان في إجابته عن سؤال جبريل عليه السلام عن ما هو الإحسان؟ إنّ الإحسان في الطاعة والعبادة من معاني "التبتّل".

- **رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا (9) :**

(رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ) أُعبد الله ربّ الكون كلّه مشرقا ومغربا، وسيّد جميع الكائنات حيثما كانوا مشرقا ومغربا، هو المالك والمتصرّف في ما ترى في الوجود كله بكلّ الموجودات فيه مشرقا ومغربا. وإنّ معنى (رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ) ليس بمثل معنى (رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ) كما جاء في سورة (الرّحمان الآية 17)، وليس بمثل معنى (بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ) الذي جاء في سورة (المعارج الآية 40). فإنّ المعلوم لدى جميع الخلق أنّ الجهة الّتي تُشرق منها الشمس عند طلوعها هي الجهة الشرقية، وأنّ الجهة الّتي تغرب فيها الشمس هي الجهة الغربية، والله تعالى هو ربّ المشرق وربّ المغرب.

وبالنّظر في دوران الأرض حول الشمس، فإنّ نصفها الذي يواجه الشمس هو الشرق، وأمّا النّصف الثّاني فهو الغرب. فإذا اِستدارت صار ما كان مواجها للشمس وغدَا مظلما : غربًا، وما كان مغربا غدَا للنصف الثّاني مشرقا. فكأنّ للأرض مشرقيْن ومغربيْن، والله تعالى ربّ المشرقين وربّ المغربين، أي ربّ الأرض كلّها حيث اِستدارت.

وبالحساب الدقيق للزوايا الّتي تشرق فيها الشمس كلّ يوم في أيّ بلد، وللزوايا الّتي تغرب فيها الشمس فإنّها تختلف من يوم لآخر حسب موقع البلد في الأرض: شمالا أو جنوبا أو في المدار الاستوائي، وبحسب الفصول، ولمّا كانت الأرض بيْضَوية الشّكل فإنّ زوايا المشرق عديدة وكذلك زوايا غروب الشمس. والله تعالى هو ربّ المشارق وربّ المغارب، أي ربّ كلّ جزء من الأرض بزواياه المتعدّدة.

والغرض المقصود من الآية أن يخلص العبدُ لله تعالى في العبادة والطاعة، وأن يعلم علم اليقين بأنّ الله عزّ وجلّ مطّلع عليه في أيّ مكان وفي كلّ وقت وحين، وعليه أن لا يعبد إلاّ إيّاه، ولا يعبد إلاها آخر سواه، فإنّه الربّ الأوحد والمالك المتصرّف في الكون كلّه ليس معه إلاه آخر، ولا ندّ له ولا شريك. ليس لكم من إلاه غيره، هو الله الحقّ وهو واحد، أحد لا إلاه إلاّ هو. فتوكّل عليه فيما تقصد إليه من عمل لتحصل على توفيقه وبركاته، وفوّض أمورك جميعا إليه، ولا تتّخذ سواه نصيرا ومُعينا.

- وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلاً (10) :

الخطاب في الآية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولمّا كانت هذه السورة من أوائل التّنزيل، وقبل نزول الأمر للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يصدع بالوحي، فإنّ هذه الآية في تهيئة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم نفسيا ليتحمّل ما سيتعرض إليه من مشاق في تكذيب القوم لما سيبلّغهم به، فجاءه الأمر بالتجمّل بالصبر على ما سيلقاه من المشركين المعاندين من طعن في تصديقه ومن التكذيب برسالته وبما يوحي إليه. ودُعي صلّى الله عليه وسلّم لأن يتجنّب مبدئيا مواجهة المكذّبين المعاندين، ويتجنّب عتابهم أو مجاراتهم فيما يدعونه إليه من الكفّ عن دعوة النّاس لما يرشدهم إليه.

- وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلاً (11) :

وأُترك أمر المكذّبين من زعماء المشركين أصحاب الثروات وأصحاب النّعم الوفيرة وأهل الجاه إلى ربّك، وانِتظر قليلا حتى ترى ما سيُفعل بهم، وإلى ما سيصيرون إليه. فوّض أمرك فيهم إلى الله عزّ وجلّ، وامِض مستعينا بالصبر لما أمرت به، وسترى في مستقبل أيّامك ما سيكون من أمر المكذّبين السادة في قومهم. وهذه كقوله تعالى (فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ)(الطور الآيتين 45-46).

- إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا (12) :

سيجدون أنفسهم عند رجوعهم إلى ربّهم مقيّدين بقيود ثقيلة، ثمّ يلقون مثقلين بقيودهم في الجحيم ذات النّار المستعرة.

- وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) :

وإذا طعموا فإنّهم سيغصّون بما يُطعمون لأنّ طعامهم لا يمرّ بالحلق، لا يبتلع لقسوته كالحجارة، ولا يُستساغ لمرارته وحرقته. وسيلقون في مأواهم في الجحيم عذابا شديد الوجع، وغير مُحتملٍ.

- يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً (14) :

وذلك يوم تتزلزل الأرض زلزلة عظيمة تنفجر بها، وتتحوّل أوتادها الثقيلة وهي الجبال إلى أكداس من الرمل الرخو اللين الذي تغوص فيه الأقدام.

- إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولاً (15) :

الخطاب في هذه من الله تعالى إلى النّاس كافّة، وفيه اِلتفات لأهل الكتاب. وفي هذه الآية إثبات لرسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم بأنه رسولٌ من عند الله تعالى، هو الذي أرسله إلى النّاس كافّة، وقد جعله تعالى شاهدا عليهم بأنهم قد بلّغهم رسالة ربّهم بأنّه هو الله وهو واحد أحد

لا ندّ له ولا شريك وليس له صاحبة ولا ولد، وأنّه أنذرهم من الشرك وأنّه قد حذّر العصاة المذنبين الذين يعصون الله فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه من عذابه الشديد يوم الدين، وأنّه قد بلّغهم بيوم البعث والحساب، فمن آمن منهم كان رسول الله شاهدا له بالإيمان، ومن كفر به وبرسالته وبما جاءه به من شرع الله تعالى والوعيد كان شاهدا عليه بالتّبليغ ولكنّه تولّى عنه واِتّبع هواه في الكفر والمعصية. وما كان هذا الرّسول بدعةً في إرساله فلقد أرسل تعالى من قبله رسلا منهم موسى عليه السلام الذي أرسله إلى فرعون رسولا يدعوه ليؤمن بربّه وليدع دعواه بأنّه إلاه لأهل مصر، وليعتق بني إسرائيل من الاستعباد.

- **فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا (16) :**

فكذّب فرعون بالرسول وبرسالة ربّه إليه، وتمادى في ادّعائه الرّبوبية وطغى وعصى أمر ربّه، فأهلكه الله تعالى هلاكا شديدا قويّا ليكون عبرة لمن يعتبر من أهل المعصية ممن يكذّبون برسول الله وبما جاءهم به من عند ربّهم، فإنّهم صائرون للهلاك إن هم أصرّوا على الكفر والمعصية.

- **فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا (17) :**

فكيف تحفظون أنفسكم وتبعدون عنها عذاب ربّكم إن كفرتم في يوم يشيب لهوله رأس الرّضيع؟ والاستفهام للتحذير والإنذار.

- **ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا (18) :**

إنّ السماء تنشقّ لهول ذلك اليوم ولشدّته وعظيم هوله، ولخشيتها من وقوعه، وإنّ ما وعد الله به من قيام الساعة ووقوع البعث والحساب كائن لاشكّ فيه ولا خلاف.

- **إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (19) :**

إنّ هذا الإخبار للاعتبار وللحذر فمن شاء لنفسه النّجاة من هول ذلك اليوم وعذابه اِتّبع سبيل ربّه في توحيده وطاعته وعبادته وبالاستقامة على شرعه، وبتجنّب معصيته.

- **إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ (20)**

خُتمت السورة بهذه الآية التي فيها تشريف للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وطائفة من الذين معه بذكر حسن طاعتهم لربّهم عزّ وجلّ، وفيها حضّ للمؤمنين للمداومة على قراءة ما تيسّر من



القرآن في كلّ حال، وإن كان في حال المرض أو السفر أو القتال، مع المحافظة على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعلى الإحسان في وجوه البرّ مع المداومة على الاستغفار للحصول على عظيم الأجر من عند ربّ العزّة مع مغفرته ورحمته. ما أحوج كلّ مؤمن أن يجعل العمل بما في هذه الآية من إرشاد منهجا له في حياته لينال عظيم الحظوة عند ربّه...

ومعنى الآية : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ) العلم هنا بمعنى الاطلاع مع الرضى، أي لقد اِطلع ربّك على قيامك – يا نبيّ الله – أقلّ من ثلثي الليل أحيانا، وأحيانا بقدر نصف الليل، وأحيانا بقدر ثلثه، ومعك جماعة من المؤمنين، والله راضٍ عنك وعمّن معك. (وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ) والله يُثيبكم على قدر ما تقومون من الليل في صلاة وذكر وقراءة القرآن في صلاتكم، وعلى صلاتكم وذكركم وقراءتكم بالنّهار، ويُقَيِّمُهُ تقديرا حسنا وكريما. (عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ) يقال: هذا أمر لا أحصيه: أي لا أطيقه ولا أضبطه. ولقد جاء في الخبر أنّ أمر قيام الليل قد شقّ على بعض من الذين كانوا يقومون مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ممّا جعل أقدام بعضهم تنتفخ من طول القيام لطول القراءة، ممّا اِضطرّهم للانقطاع على بعض من القيام، وليس على كلّ القيام، أي أنّ بعضهم ما عاد يضبط زمن القيام، وما عاد بعضهم يطيقه، لذلك جاء فضل ربّهم عليهم بقوله (فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ) أي علم أنّكم لم تطيقوه فعاد عليكم بالعفو، تاب عليكم من فرض القيام بسبب عجزكم، (فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ) أي فاقرؤوا فيما تصلّونه بالليل ما خفّ عليكم ولم يثقل. والمشهور في هذا أنّ قيام الليل نُسِخَ في حقِ الأمّة، وبقيت الفريضة في حقّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. ويعلم الله تعالى أن سيكون من عباده المريض والمسافر في تجارة يبتغي الكسب والرّزق وما كتب الله تعالى من فضله وخيره، ومنهم من خرج في جهاد يُقاتل في سبيل الله عزّ وجلّ، فليخفّف على نفسه في قيامه وفي تلاوته ما يتيسّر له من القرآن على قدر طاقته في القيام. وحافظوا على إقام الصلوات المفروضة وأدائها في أوقاتها، وحافظوا على أداء زكاة أموالكم لمن فرضها الله لهم، وأحسنوا للمحتاجين وللضعفاء، وساهموا في أعمال البرّ بشيء من أموالكم، واِعلموا أنّ كلّ ما تقدّمونه من الصدقات من المال الحلال الطيّب وعن رضى وطيب نفس تقصدون بها وجه الله ومرضاته، وأنّ كلّ ما تنفقونه في سبيل الله تعالى هو عند الله قرض حسن سيردّ إليكم عند رجوعكم إلى الله سبحانه (أَعۡظَمَ أَجۡرًا): الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فهو أفضل وأكثر مما تقدّمون. وداوموا على طلب المغفرة لذنوبكم، واِعلموا أنّ الله عظيم الغفران، وكثير الرّحمة بعباده المؤمنين، لا يخيّب رجاءهم فيما يدْعُونه وفيما يسألونه.

رقمها	ســــورة **المدّثّــر**	آياتها
74	ـــــ مكية ـــــ	**56**

سمّيت بسورة "المدّثّر" لافتتاحها بهذا الوصف الذي وصف به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وهي من أوائل السور المكية تنزيلا، قيل هي الثالثة في التنزيل بعد: "العلق" و"القلم"، وقيل هي الثانية بعد "العلق".

وهي في تكليف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بتبليغ دعوته للإيمان بالله وحده، وبإنذار الكافرين من التكذيب بالبعث وبالوعيد، وقد جاء فيها أوصاف لعذاب المعاندين الكافرين المكذّبين بالقرآن. وختمت السورة بالحضّ على التذكرة للنّجاة من العذاب.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ (1) :

هذا نداء للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليستيقظ من نومه، وقد كان نائما مُلْتَفّا بغطائه وبدثاره وهو الثوب الظاهر الذي يُلبس فوق اللباس الداخلي، وهو نداء ليسمع ما سيكلّف به من عمل وجُهد.

- قُمۡ فَأَنذِرۡ (2) :

(قُم) القيام هنا ليس بمعنى اِستيقظ، وإنّما هو بمعنى: بَادِرْ، وبَلّغ ما تؤمر به بعزم ونشاط. (فَأَنذِر) الإنذار في بداية الوحي يعني الإعلام بالوحي، وبالنّبوّة، وبالرّسالة، وبالدعوة للتّوحيد وللتحذير من الشرك والكفر.

- وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ (3) :

وعظِّمْ ذكر ربّك، فهو تعالى الأكبر من كلّ كبير، وهو الأحقّ بالتّعظيم، وربّك هو سيّدك ومالك أمرك. وقد كان من حكمة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومن فطنته أنّه لمّا نزلت هذه الآية جعل اِفتتاح صلاته بالتكبير: الله أكبر، ثمّ لمّا نزلت فريضة الصلاة التي علّمها له جبريل عليه السّلام، جعل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عند اِفتتاحها، وعند الركوع والسجود والجلوس والقيام للركعة الموالية التكبير بقوله "الله أكبر" ما عدا عند القيام من الركوع جعله بالدعاء: سمع الله لمن حمده، فصار هذا التّكبير من سنن الصلاة القولية والعملية الفعلية.

- وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ (4) :

واحرص على نظافة ثيابك وطهارتها من كلّ نَجِسٍ عند ذكر الله تعالى إجلالاً لعظمته. وهذا أمر ليس خاصّا بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وإنما هو عام لكلّ عابد ذاكر يُجِلُّ مقام ربّه عزّ



وجلّ. وفي هذا الأمر تمهيد لتشريع طهارة البدن والثّوب في العبادات خاصة الصلاة والحجّ... وهذا مما يُعْرَفُ بالطهارة الحسية.

- وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ (5) :

(ٱلرُّجۡزَ) بكسر الرّاء هو العذاب. قال تعالى (لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ)(الأعراف الآية134) ، وقال أيضا (فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ)(الأعراف الآية162)، ومن الأعمال الّتي تؤدّي للعقاب بعذاب: الشّرك، والتكذيب، والصدّ عن سبيل الله، والتمادي في المعاصي... ولذا فإنّ الآية في الدعوة إلى هجر المعاصي وتركها والبعد عنها والتبرّؤ منها، وأعظم المعاصي: الافتراء على الله تعالى بنسبة الشريك له أو النِدّ أو الصاحبة والولد، وكذلك الافتراء على رسوله بالتكذيب وبمشاقّته، أو بالافتراء على كتاب الله تعالى بالتّكذيب به أو بالهزء بما جاء فيه من الوعيد أو بالتّولّي عن سماع ما جاء فيه وتدبّره لمعرفة الحقّ.

- وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ (6) :

ولا تبطل صدقتك بالمنّ، ولا طاعتك بالحديث عنها مستكثرا إيّاها، ولا تطلب الكثير من النّاس على التّبليغ مستكثرا جهدك في التّبليغ: فإنّ الهدى هدى الله تعالى.

- وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ (7) :

واِستعن بالصبر على أداء فرائض سيّدك ومولاك، واِصبر على عبادته، واِصبر على أداء رسالتك عند تبليغها للنّاس، فقد حملت أمرا عظيما فاصبر على تحمّل مشاقّ الأداء وما تلقاه من أذًى من الرّافضين والمكذّبين.

- فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ(8) :

بعد ما جاء من آيات كان الخطاب فيها للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لتهيئته نفسيا لتقبّل رسالة ربّه وأوامره، جاءت هذه الآية إلى الآية 30 في وعيد المكذّبين للإنذار وللتّخويف من سوء العاقبة لتيسير القبول بالرسالة وللتّصديق بنبوّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن. ومعنى الآية: فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية المؤذنة بالبعث للقيام للحساب.

- فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ (9) :

فذلك يوم شديد الهول على الكافرين، وهو شاقّ عليهم لأنّه منذر بوقوع العذاب الذي وُعِدُوا به فيهم.

- عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ (10) :

وهو يوم غير هيّن على الكافرين المكذّبين بيوم الدّين وبالوعيد، هو يوم شدّة وخوف بالنسبة إليهم.

- ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) :

(ذَرْنِي...) تعبير يُفيد التهديد، بمعنى: اِتركني وخصمي وحيدا: (رأسا برأس كما يقال)، وحينما تكون هذه المُواجهة بين العظيم القويّ والضعيف الظالم المعتدي على حقّ القويّ، فإنّه الهلاك الكبير للضعيف المعتدي الذي تجرّأ لسُخْف عقله وضعف إدراكه ولاغتراره بنفسه على القويّ الذي لا يُغلب. أمِنَ التّعقّل أن يفتري مخلوق ضعيف على سيّده الخالق القويّ كذبا، ويكذّب بكلامه وبوعيده؟ لذلك اِعتبر بعضهم هذه الآية أخوفَ آية في القرآن.

- وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالاً مَّمْدُودًا (12) :

ما أجهل الكافر بربّه! خلقه ربّه، فلم يشكره على نعمة الخلق والوجود، وجحد فضله عليه فعبد غيره، وعصى ربّه الخالق. وأنعم عليه ربّه فآتاه مالاً كثيرا مبسوطا فلم يكن له حامدا وشاكرا! (كان من أهل قريش الوليد بن المغيرة، وكان من أشدّ النّاس عداوة لهذا الدين، وكان يعبد الأصنام ويكفر بدعوة نبيّ الله محمد صلّى الله عليه وسلّم وللتّصديق به رسولا، وكان له من الزرع والأنعام الخير الكثير، وكان له مال واسع في التجارة، وكان له أربعون ولدا من الأشداء، فلم يكن لربّه شاكرا، ولا مقرّا له بفضله عليه).

- وَبَنِينَ شُهُودًا (13) :

وأنعم الله تعالى عليه بإنجاب الكثير من الأبناء الذين يحضرون معه مجالسه ومحافله فيزيده حضورهم معه وظهورهم صحبته هيبةً، ويكون لمقاله السمع والطاعة. ولكن ما زادته هذه النّعمة إلاّ تكبّرا، وجحودا...

- وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (14) :

وبسط الله تعالى له الرّئاسة والجاه العريض والشرف بالنّسب.

- ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) :

ومع كثرة ماله وأرزاقه ومكاسبه كان يطمع في أن يزداد ماله ومكاسبه، وبسطه في النّفوذ والجاه، ولقد كان الوليد بن المغيرة من الذين حسدوا نبيّ الله محمدا صلّى الله عليه وسلّم على ما اصطفاه الله تعالى بالنبوءة وبالرّسالة، وهو أحد الرّجلَيْن اللّذَيْن قال فيهما تعالى (وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)(الزخرف الآية31). وعموما فإنّ جلّ الأغنياء يستكثرون من الخيرات، ولا يحدّ طمعهم وجشعهم حدٌّ.. وقد جاء في الحديث النّبويّ الشريف الصحيح عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قوله: "لو كان لابن آدم وادٍ من مال لأُبتغى إليه ثانيا، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا، ولا يملأ جوف اِبن آدم إلاّ التراب. ويتوب الله على من تاب". (رواه أحمد والترمذي عن أنس، ورواه البخاري عن ابن عباس، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه البزّار عن بُرَيْدة).

- كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا (16) :

(كَلَّآ) أي لن يكون له ما يريد. إنّه عبدٌ جاحد معاند ومكابر، مكذّب بالله ربّا، ومنعما رزّاقا، ومكذّب برسوله صلّى الله عليه وسلّم، وبكتابه القرآن، وبالتّوحيد.

- سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا (17) :

وبسبب عناده ومكابرته وجحوده وبسبب تكذيبه سيعاقب بتكليفه أثقال ذنوبه عقبات شاقّة الصعود والمرتقى، وكلّما اِرتقى شيئا من المراقي أُسْقط إلى الأسفل ليعاود الصعود حتى يرهق ويتعب التعب الشاقّ بالصعود والسقوط بالأثقال.

- إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) :

إنّه لمّا سمع ما تيسّر من القرآن ظلّ يفكّر فيما سيقول فيما سمعه، (وَقَدَّر) وأعدّ في نفسه فيما سيقول في القرآن وفي الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أمام النّاس، وقد كان رجلا وجيها في قومه، ويُسمع لقوله.

- فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (19) :

(فَقُتِلَ) هذا دعاء عليه بالموت قتيلا فيما فكّر في قوله للنّاس كيف أعدّه ودبّره في نفسه.

- ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (20) :

هذه لمزيد الدعاء عليه بمعنى : قُتِل قتلا بعد قتل كيف دبّر قوله وكيف فكّر فيه ونظّمه...

- ثُمَّ نَظَرَ (21) :

ثمّ تطلّع في وجوه النّاس.

- ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) :

ثمّ قطّب وجهه،(وَبَسَر)وأظهر علامات عدم الرّضى بما سمع، وعلامات الكره، وكَلَحَ بوجهه.

- ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ (23) :

ثمّ أعرض عن القوم، وولّى ذاهبا إلى أهله، واِستكبر عن قول الحقّ، واِستكبر عن التّصديق وعن الإيمان.

- فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ (24) :

ولم يجد ما يقول في القرآن في النّاس وهو مدبر إلى أهله إن هذا إلاّ من كلام السحر المأثور والمنقول المروي عن الأقدمين.

- إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ (25) :

هذا ليس من كلام الله، هذا من قول البشر. ما كان وحيا من عند الله عزّ وجلّ، إنّما هو كلام المخلوقين الذي تنخدع به النّفوس والقلوب.

لقد جاء هذا العرض لبيان ما يفعل العنيد بنفسه من أمر غريب. أجهد نفسه في التّفكير والتقدير ليجد مخرجا للطعن في صدق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وفي صدق الوحي والكتاب. لم يبذل جهده في التفكير ليتبيّن الحقّ، وليتدبّر ما بلغه من آيات ربّه ليتبصّر الحقّ، ولم يبذل جهده في التّقدير ليصدق بالحقّ، وليعبّر عمّا شعر به في موضوعية بأنّ ما سمعه قول مختلف عن قول البشر وهو يعلم أنّ محمدًا صلّى الله عليه وسلّم كان صادقا وأمينا، وما كان ساحرا ولا كاذبا، وإنّما بذل جهده في التقدير إلى حدّ الحيرة، والتولّي إلى أهله ثمّ لم يجد إلاّ أن يقول في كلام الله بأنّه سحر مأثور ومن قول البشر. ما أعجب ما يفعل العنيد المكابر بنفسه!

ولقد روي أنّ الوليد بن المغيرة – وكان أحد زعماء الكفر والمكذّبين في قريش – قد قال فيما سمعه من التنزيل من سورة غافر (الآيات الثلاث الأولى) من قارئها: (والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر). وقالت قريش لمّا سمعوا منه قوله هذا: صَبَا الوليد لتَصْبُوَنَّ قريشٌ كلّها. ومع ذلك لم يسلم الوليد وأصرّ على كفره وتكذيبه عنادا ومكابرة.

- سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ (26) :

هذا العنيد الذي فكّر وقدّر، ثم اِزداد تفكيرا وتقديرا، ثمّ أعلن بأنّ ما سمعه من القرآن سحر يؤثر من قول البشر وتهرّب من الصدق بالحقّ مكابرة، وإصرارا على الكفر قضى الله تعالى فيه أن يُدخله جهنّم من باب سقر ليصلى فيها بنارها صليا، والصليّ هو الذي يُقلّب في حرّ النّار من كلّ جانب ومن أعلى رأسه إلى أخمص قدميه ليذوب بحرّ النّار ذَوَبَانًا، والعياذ بالله تعالى.

- وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ (27) :

(وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ...) تعبير يُفيد بأنّه لا أحد يستطيع أن يتصوّر عظيم ما يجري في ركن سقر من جهنّم، ولا أحد يعلمه أو يدركه بفهمه، فواقِعُه أعظم من كلّ تصوّر وتخيّل.

- لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ (28) :

لا تترك فيها أحدا بدون عذابٍ من حرق وكيّ وشيّ، وحتى بما يأكله فيها ويشرب، ولا تدع أحدا يفلت من عذابها، ولا تترك له عظما ولا لحما ولا عرقا أو عَصَبا أو دمًا إلاّ أحرقته، ولا شحما إلاّ ذاب.

- لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ (29) :

وإنّها محرقة لِبَشَرَةِ الإنسان: لظاهر جلود العباد، ومغيّرة لِلَوْنِها، نار سقر تلفح الوجوه لفحات فتَدَعُهَا شديدة السواد. قال تعالى (يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ)(آل عمران الآية 106).

- عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ (30) :

العدد تسعة عشر عند العرب عدد أصمّ، وعدد كبير في الأعداد الصمّاء التي لا تُقْسَمُ. وبهذا يكون المعنى بأنّ القائمين على سقر عدد كبير من خزنتها، وهم أشدّاء وأقوياء، وما هذا إلاّ للتأكيد على أنّه لا منجى للواقعين فيها من العذاب، ولا مفرّ لهم ولا ملجأ لهم من عذاب الحريق.

- وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ (31) :

بعدما جاء من إنذار المكذّبين بالقرآن وبالوعيد بعذاب سقر، ناسب هذا الإنذارَ الحديثُ على القائمين على عذاب النّار، وهذا هو موضوع الآية. ومعنى الآية: لقد جعل الله تعالى القائمين على عذاب النّار ملائكة لأنّهم خلقوا من نور، والملائكة لا يحرقون بنار، ثمّ إنّ الملائكة يفعلون ما يؤمرون، ولذلك لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أمر الله عزّ وجلّ وقضائه في المعذّبين بالنّار. وما جعل الله تعالى عدد الملائكة القائمين على سقر إلاّ بَلِيَةً للكافرين لأنّ الملائكة لا تأخذهم رحمة ولا رأفة في تنفيذ قضاء الله عزّ وجلّ. وبهذا الإخبار يتبيّن لليهود والنّصارى أنّ القرآن كلام الله تعالى حقّا وصدقا، وأنّ محمدًا رسول من عند ربّهم حقّا وصدقا لأنّ في كتابهم خبرا بمثل هذا الإخبار، وموافقا له بما يدلّ على أنّ مصدر الحكم والخبر واحدٌ، هو من عند الله تعالى بحقّ. وبهذا الإخبار يزداد الذين آمنوا إيمانا بربّهم حين يعلمون أنّ ما جاء في القرآن كان موافقا لما جاء في كتاب موسى، ذلك لأنّ مصدر الوحي واحد. ولا يشكّ عندئذ أهل الكتاب بأنّ القرآن الكريم كتاب الله تعالى من وحيه، وأنّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم رسول الله حقّا، وكذلك المؤمنون.

وأمّا المكذّبون بالوحي والتنزيل وبالرّسول، وكذلك الكافرون بوحدانية الله تعالى، المصرّون على شركهم فيتحيّرون ممّا يسمعون، ويقولون: ما المُراد بجعل الملائكة قائمين على جهنّم، وجعلهم خزنة لها، وما المُراد بذكر عددهم؟ (كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ) : كذا يتصرّف الله تعالى في خلقه، فإنّهم يهتدون إلى الحقّ وإلى الإيمان بالله تعالى ثمّ يطيعون، أو هم يتولّون عن الإيمان بوحدانية الله تعالى ويعرضون ويتمادون في معاصيهم، ولا يستجيبون لأمره تعالى بحسب اِستعداد كلّ واحد منهم للفهم وللإدراك، ولسيطرته على هوى نفسه ومكابرته وعناده. قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير ج 29 ص318) في تفسير هذه الجملة: و"إسناد الإضلال إلى الله باعتبار أنّه مُوجِد الأسباب الأصلية في الجبلاّت، واِقتباس الأهواء، واِرتباط أحوال العالم بعضها ببعض، ودعوة الأنبياء والصلحاء إلى الخير، ومقاومة أيمّة الضلال تلك

الدعوات. تلك الأسباب الّتي أدّت بالضالّين إلى ضلالهم، وبالمهتدين إلى هداهم، وكلٌّ من خلق الله. فما على الأنفس المريدة الخير والنّجاة إلاّ التّعرّض لأحد المَهْيَعَيْن بعد التجرّد والتدبّر "لها ما كسبت وعليها ما اِكتسبت". ومشيئة الله ذلك تعني تعلّق علمه بسلوك المهتدين والضالّين. (وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) أي أنّ جند الله هم المخلوقات التي سخّرها لتنفيذ أمره بدقّة واِنضباط، وهم أصناف لا يعلمها إلاّ هو، ولا يحصيهم إلاّ هو. فأمّا المؤمنون فيصدّقون بما أخبرهم الله تعالى به، وأمّا الكافرون والمكذّبون والمشكّكون في الخبر فيتحيّرون ويقولون (ماذا أراد الله بهذا مثلا). (وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ) وما جاء من خبر سقر وخزنتها وصفتها فما هو إلاّ للحذر والنّذير لمن شاء أن ينجو بنفسه من عذابها ويتّقيه، والسبيل إلى ذلك : الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه وبوعده ووعيده، ثمّ الاهتداء إلى صراطه المُستقيم والعمل بمواعظه وشرعه.

- كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ (32) :

هذه لآخر السورة في التّذكير بأنّ يوم الحساب واقع لمن شاء أن يُعِدَّ له. والآية مع الآيتين المواليتين في القسم ببعض من مخلوقات الله العظيمة الدالّة على عظيم خلق الله عزّ وجلّ وعظيم تدبيره وحكمة تقديره. و(كَلَّا) في هذه الآية بمعنى وليس الأمر كما يظنّ الجاهلون الذين ينكرون البعث ويحسبون أنّ الإنسان إذا مات هلك ولم يعد له من قيام، فيقال لناكري البعث: كلاّ ليس الأمر كما تتوهمون. قسما بالقمر الذي يظهر لكم ليلا مُتَلَأْلِئًا، ويغيب عن أنظاركم نهارا.

- وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ (33) :

وقسما بالليل إذا ولّى، وعوّضه بالنّهار، وهذا من دلائل حكمة الله في الخلق والتقدير.

- وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ (34) :

وقسما بالصباح حين يضيء ويشرق، ويبدّد ظلمة اللّيل.

- إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ(35) :

إنّ سقرًا لإحدى الدّواهي العظيمة، والأمور العظام، وهذه الآية في جواب القسم الوارد في الآيات السّابقة.

- نَذِيرًا لِّلۡبَشَرِ (36) :

وما جُعِلت سقرُ إلاّ لتحذير البشر من المعاصي ومن الكفر، ولإنذارهم من الوقوع فيها.

- لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ (37) :

وما هذا الإنذار إلاّ ليتحمّل كلّ إنسان مسؤوليته في اِختيار عاقبته، فمن شاء أن يتّقيَ سقر فعليه أن يتقدّم للحساب بإيمان وعمل الصالحات من الطاعات وأعمال البرّ. ومن شاء أن يتأخّر

عن الاستجابة للدّعوة للإيمان، وشاء أن يصرّ على كفره وشركه وعلى عمل المعاصي فلا يلومنّ إلاّ نفسه ألقيَ في سقر، ولم يشأ أن ينتفع بهذا النّذير.

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)﴾ :

أي أنّ كلّ إنسان مسؤول عن نفسه، وعن خياره لعاقبته، وإنّ عاقبة كلّ إنسان رهينة بمكاسبه من إيمان وأعمال برّ. ومن عصى وكفر رهن نفسه لسقر حين يقوم للحساب.

- ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ (39)﴾ :

إلاّ أهل اليمين، وهم المؤمنون العابدون والطائعون وأهل البرّ، فإنّهم غير معنيين بهذا النّذير، وليسوا من المرتهين إلى سقر.

- ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ (40) عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ (42)﴾ :

هؤلاء مستقرُّهم في بساتين النّعيم، وهم في مجالسهم يتساءلون فيما بينهم عن الأسباب والدّوافع الّتي أوقعت الذين كفروا وأجرموا في حقّ أنفسهم بإتيان المعاصي والذّنوب في سقر، وحشرهم فيها.

- ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ (43)﴾ :

وأقرّ المجرمون بأنّهم كانوا تاركين للصلاة. والصلاة في الإسلام عماد الدّين، لا يتركها عمدا إلاّ من كان مستهترا بالدين لضعف إيمانه ولاتباعه هوى نفسه حبّا في المحذورات والشهوات غير المشروعة. وما ينكرها وينفر منها إلاّ كافر بالدّين، وغافل عن ذكر ربّه.

- ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ (44)﴾ :

ولم نك من المحسنين للفقراء والمساكين المحتاجين ليطعموا.

- ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ (45)﴾ :

واِعترفوا بأنّهم كانوا يتلهون بالكلام الباطل في الله ورسوله وكتابه.

- ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (46)﴾ :

ولم نكن نصدّق بالبعث وبالحساب.

- ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ (47)﴾ :

حتّى جاءنا الموت وبُعثنا ووقفنا للحساب، وعرفنا أنّ ما وُعِدنا به كان أمرا يقينا.

والمستفاد من هذه الآيات أنّ المداومة على الصلاة والسجود له طاعةً وإيمانا ودعاءً، مع الإحسان للفقراء والمساكين، والبعد عن الخوض في الدّين بالكلام الباطل وبالتكذيب أو بالشكّ، مع التصديق بالبعث والقيام للحساب بعد الممات مع الإعداد له بما يلزم من الطاعات وأعمال



البرّ وصدق الإيمان هي العناصر الأساسية التي إذا اِلتزم الإنسان بها نجا من الدخول إلى سقر ومن الوقوع في عذابها، فلا منجى منها إلاّ باِلتزامها بالعناصر المنقذة منها.

- فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (48) :

ومن حُكِمَ عليه بدخول سقر فليس له من ينجيه منها، أو يشفع له لينقذه منها، أو يردّ عنه عذابها.

- فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ (49) :

فما لهؤلاء المجرمين الضالّين عن الموعظة منصرفين. والاستفهام للتّوبيخ، فلو أنّهم كانوا متعظين وعملوا بما ينقذهم منها ما وقعوا فيها وفي عذابها.

- كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ (50) فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ (51) :

ولكنّهم كانوا يهربون من سماع الموعظة التي جاءت في القرآن كهروب الحُمُرِ الوحشية من أسد، هروبا سريعا في شرود وتفرّق.

- بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ (52) :

لقد اِشترطوا في دنياهم على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليؤمنوا به وبكتابه أن يؤتيَ الله تعالى كلّ واحد منهم كتابا من السماء فيه من الله إلى فلان: اتّبع محمدا. ما أشدّ غرورهم وكبرياءهم!.. وهذا كقوله تعالى (وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ)(الإسراء الآية 93).

- كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ (53) :

كلاّ، لن ينالوا ما يطلبون، إنّهم قوم لا يحسبون للآخرة حسابها لأنّهم لا يؤمنون بالبعث ولا يصدّقون به.

- كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ (54) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (55) :

كلاّ! لن يؤتوا صحفا متفرّقة عليهم ليؤمنوا، لن يوعظوا بغير القرآن وحده، وإنّه خير موعظة لينقذوا أنفسهم من الضلالة والهلاك."فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر". فمن شاء إنقاذ نفسه ليعتبرْ به.

- وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ (56) :

ولن يحصل لكم الإتعاظ والانتفاع بمواعظه إلاّ بمشيئة الله تعالى. ومشيئة الله تمثّلها هدايته لعبده، واللطف به بما يجعل قلبه يلين لذكر ربّه، ويجعله غالبا لنفسه ولهواه، ومقبلا على طاعة ربّه. وإنّ الله تعالى هو الحقيق بأن يخافه عباده ويخشوا غضبه وعذابه، وهو الغفّار الذي يغفر الذنب ويقبل التوب، فهو الأحقّ بأن يطلبَ العبدُ عفوه ومغفرته. فمن شاء لنفسه النجاة من العذاب ومن سقر فعليه بخشية ربّه وطلب مغفرته، وذلك بالمداومة على ذكر ربّه وعلى الصلاة

والدعاء، وبالعمل بما جاء في كتابه من شرع وموعظة، وبالتصديق بما جاءه به رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم من كتاب وحكمة وموعظة، وبالتصديق بيوم القيامة والإعداد له بحسن العمل وصدق إيمان.

رقمها	ســــــورة القِيَامـــــة	آياتها
75	ـــــ مكيـة ـــــ	40

سمّيت هذه السورة باسم "القيامة" لوقوع القسم بيوم القيامة في مفتتحها، وهي سورة مكية.

ذكر ابن عطية في تفسيره عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: "من سأل عن القيامة أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها فليقرأ هذه السورة".

فمن أهمّ أغراض هذه السورة إثبات وقوع البعث وقيام القيامة للحساب عن الأعمال وعن الإيمان كذلك. ولذا فقد جاء في هذه السورة ذكر بعض أشراط قيام القيامة، وذكر أحوال العباد عند قيامها وعند الحساب لإثبات الجزاء عن الإيمان والعمل الصالح، ولإثبات العقاب على الذين لا يؤمنون والذين هم عُصاة ومذنبون.

- لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ (1) :

لا حاجة للقسم بيوم القيامة، لأنّه يوم واقع حتما لا ريب فيه، وإنّ القيامة قائمة بكلّ تأكيد، ودون أيّ شكّ، فما فائدة القسم بذاك اليوم وهو آت قريب لناظريه.

- وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (2) :

ولا حاجة للقسم بنفس المؤمن بالله وبيوم القيامة التي تكثر من اللّوم على صاحبها لتقصيره في التّكثير من أداء الطاعات وأعمال البرّ، وذلك لتحفيزه على الاستزادة منها لتَلْقَى ربّها وهو راضٍ عنها، ولتنجو من عذابه، ولتتقي المؤاخذة على ضعف الزّاد للآخرة، إنّ الّذي له نفس لوّامة لذو حظّ عظيم لأنّ له من ذاته حافزا يدفعه لفعل الخيرات، ويحذّره من إتيان المعاصي والشهوات.

- أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (3) :

هذا جواب القسم، أي أقسم بيوم القيامة وبالنّفس اللوّامة لنجمعنّ العظام للبعث فنعيدها خلقا جديدا بعد أن تصير رُفاتا. والمقصود بالإنسان هنا هو الكافر المكذّب بالبعث. وجمع العظام يعني إعادة الهيكل الّذي ينشأ عليه الإنسان ويركّب.

- بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ (4) :

ليس الأمر كما تتوهمون. إنّ الله تعالى قادر حقّا على جمع كلّ أجزاء عظام الإنسان بعد مماته لإعادته للحياة وأدقّها، ويسوّيه تسوية كاملة متقنة حتى (البنان) وهي الأنامل في أطراف أصابع اليدين والرّجلين بمقوّماتها وخصائصها.



- بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ (5) :

وإنّ الإنسان الكافر، ومحبّ المعاصي يريد ديمومة الحياة ليتمادى في (فجوره): كفره ومعاصيه والاسترسال في اِتّباع هواه وشهواته.

- يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ (6) :

وإذا أنذر هذا الإنسان بالبعث للحساب ليعدّل من سلوكه وينتهي عن معاصيه، وليستقيم على الصالح من الأعمال يسأل سؤال المستنكر والمستبعد له: متى تقوم الساعة؟ ومتى يقع البعث؟

- فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ (7) :

هذه الآية مع الآيتين المواليتين في أشراط الساعة. فإذا دهش البصر وتحيّر ممّا يراه ويذهل لما يبصره من أهوال شديدة ومفزعة إلى حدّ الشعور بالخوف والفزع فتلك علامة تدلّ على قرب قيام الساعة.

- وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ (8) :

وإذا ذهب نور القمر، ولم يعد يُرى بسبب خروجه عن مداره فانتظروا قيام القيامة.

- وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ (9) :

وإذا دخل القمر في مدار الشمس واِنفجر فيها، وما عاد عنكم تعاقبٌ للّيل والنّهار فاعلموا أنّ القيامة قد حان أوانها.

- يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ (10) :

وحين تقوم القيامة، ويتبيّن للمكذّب بها أنّ ما وُعد بها آتيه، عندئذ يبحث له عن مهرب يلجأ إليه ليعتصم به ويحفظ فيه نفسه من الهلاك ومن هول ما ينتظره.

- كَلَّا لَا وَزَرَ (11) :

كلاّ، ليس له من ملجإ من الهلاك يومئذ، وليس له من مهرب ومفرّ من قضاء الله تعالى فيه.

- إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ (12) :

يومها كُلٌّ مُقدَّمٌ إلى ربّه ليقضي فيه بحكمه: المؤمن العامل الصالحات يُدخلُ جنّة النّعيم، ويساق المجرمون إلى جهنّم وردا. الكُلُّ يُساق إلى ربّه، ويُعرض على الميزان.

وتُعتبر هذه الآيات الثلاث من أخوف آي القرآن، ذلك لأنّها تفيد تأييس الكافر من الهروب من الوقوف بين يدي ربّه مهما جرى، وبحث عن ملجإ له ليتخفّى عن مواجهة مصيره المهلك.

- يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۢ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) :

في ذلك اليوم يتمّ إخبار الإنسان بما قدّم من أعمال صالحة مع إيمان ليثاب عليها ويجزى الجزاء الأوفى، أو بما يتأخّر عن فعل الخيرات، وأعرض عن الإيمان وعن الطاعات، فيحاسب عن سيّئاته. قال تعالى في آخر سورة الزلزلة : (فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ).

- **بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ (14) وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (15) :**

بل إنّ كلّ إنسان يعرف ما كان يعمل في دنياه من خير أو شرّ حتّى إذا أنكر شيئا ممّا أُحصي عليه في دنياه فإنّ جوارحه تشهد عليه بما كان يفعل. قال تعالى (حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)(فصلت الآية 20). وعندئذ لا يجد من منجى إلاّ أن يعتذر عمّا فرط منه وعن تفريطه في الإيمان وعمل الصالحات، ولكن هيهات فإنّه لا يؤذن له للاعتذار، ولا يُقبل منه أيّ عذر. قال جلّ وعلا (وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ)(المرسلات الآية36). وقال عزّ وجلّ (فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ)(الرّوم الآية 57). وعموما كلّ إنسان على نفسه بصيرة فليتخيّر لنفسه ما يشاء من الخلود في النّعيم ثوابا على أعماله الصالحات، أو أن يعاقب على غفلته وعلى اِتباعه هواه وشهواته وإصراره على إتيان المعاصي.

- **لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ (16) :**

الخطاب في هذه الآية مع الآيات الثلاث الموالية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهي في كيفية تعامله صلّى الله عليه وسلّم مع ما ينزل عليه من الوحي. ومعنى الآية: لا تُكرّر ما يوحى إليك من القرآن خشية اِنفلاته عنك حال وحيه. روى البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان حين ينزل عليه الوحي يحرّك به لسانه ليحفظه حفظا متقنا ومخافة أن يتفلّت منه، فكان يُلاقي من هذا شِدَّةً، فنزلت الآية لطمأنته بأنّ الله تعالى كافل له حفظه على ما هو عليه دون زيادة أو نقصان أو نسيان.

- **إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ (17) :**

أي إنّ الله تعالى كافلٌ لك حفظه في صدرك وإثبات قراءته على هيأة ما نزل عليك في قراءته وكافل لك جمعه في صدرك بتمامه وكماله دون نسيان، فلا يذهب عنك منه شيء.

- **فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ (18) :**

فإذا قُرِئَ عليك فاستمع إليه جيّدا، وأنصت، ثمّ عليك أن تقرأه على النّاس كما أنزل عليك. وأخرج البخاري فقال: فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام اِستمع، وإذا اِنطلق جبريل قرأه النّبي صلّى الله عليه وسلّم ما أقرأه جبريل على نحو ما رتّله عليه ترتيلا. (فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ) أي فاعمل بشرائعه وأحكامه ومواعظه. ومثل هذا قوله سبحانه وتعالى (وَلَا

تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا)(طه الآية 114). وقوله عزّ وجلّ (لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ)(البلد الآية 1).

- ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ (19) :

ثمّ إن الله سبحانه كفيل بأن يفسّر لك ما أشكل عليك من معناه وخبره، وتوضيح الحلال والحرام، والحدود.

- كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ (21) :

(كَلَّا) أي ليس الخير في ما ترغبون فيه من الأعمال لكسب ما تحبّون من المال والجاه والخيرات لحياتكم (ٱلۡعَاجِلَةَ) التي هي الحياة الدنيوية الفانية سريعا، ثمّ تذهبون عنها، وتتركون العمل لكسب (ٱلۡأٓخِرَةَ) التي هي دار الخلود في النّعيم لمن قدّم لها من صالح الأعمال، أو هي دار الخلود في الجحيم لمن غفل عنها، ولم يُعِدَّ لها عُدَّتَهُ ليكسب فيها النعيم والأمان.

- وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ (23) :

في دار الآخرة تلقى وجوه جميع العباد حسنة، جميلة، وبيضاء منيرة، تنظر إلى ربّها بلا حجاب تكريما لها. وهذه وجوه الذين أعدّوا الزّاد لآخرتهم من صدق إيمان، وطاعات خالصة، وأعمال صالحة. قال تعالى (يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ) (آل عمران الآية 106).

- وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۢ بَاسِرَةٞ (24) :

ويوم القيامة ترى الذين غفلوا عن العمل للآخرة، فجاؤوا بالكفر وبالمعاصي من الأعمال وُجُوههم عابسة مسودّة كالحة كأنّ عليها غَبَرَة. قال تعالى عنهم في آخر سورة عبس (وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ).

- تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ (25) :

تتوقّع يقينًا بأن يحصل لها مكروه شديد، ودواهٍ عظيمة.

- كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (26) :

هذه للتّذكير بشدّة الحال عند نزول الموت حين يحضر الأجل. وقتئذ تبلغ الرّوح أعلى الصدر، عند الحلق، وتكون الحشرجة.

- وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (27) :

في ذلك الحين يسأل الإنسان الذي يخاف الموت ولقاء ربّه عن طبيب يشفيه. (رَاق) الذي عنده الرّقية الشافية، ولكن لا يقدر أيّ طبيب مهما تناهت مهارته في التّطبيب وحكمته أن يردّ عنه الأجل إذا جاءه.

- وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (28) :

وأيقن وقتها أنّه مفارق العاجلة: الدنيا، والحياة فيها، والأهل، والمال، والولد، والمكاسب، وذلك حين يرى الملك المأمور بقبض روحه.

- وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (29) :

أي فإذا اِتّصلت الشدّة بالشدّة عند سكرات الموت، وإذا اِلتفّت الساق بأختها في الكفن.

- إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (30) :

إذا حصلت هذه الظواهر، يومئذ يبدأ مساقُ العبد إلى ربّه، أي رجوعُه إليه، حتّى إذا قامت القيامة قام إلى ربّه للحساب.

هذه الآيات تذكّر الإنسان بأنّه ميّت يوما، لا مفرّ له من الموت. والقصد من هذا التذكير أن يصدّق بأنّه مُساقٌ إلى ربّه بعد موته، فعليه بأن يعدّ لذاك اليوم عدّته من صدق إيمان وكثرة من الأعمال الصالحة ليأمن على نفسه عند اِستجابته لأمر ربّه عند حضور أجله وعند قيامه يوم القيامة من الشدائد ومن سوء المآل ومن أن يقوم في الناس بوجه كالح.

وما يذّكر إلاّ أولو الألباب. ومن لم تؤثّر فيه هذه الآيات حين يسمعها لتردّه لرُشده ليعمل لِمَا بعد الموت فإنّه يحقّ فيه أن يوصف بأنّه أعمى القلب والبصيرة، وأنّه لا يعقل بأنه يلقي بنفسه للتهلكة.

- فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (31) :

هذه الآية إلى الآية 35 في الأسباب التي أودت بأصحابها إلى مستقرّهم في "سقر". كان الواحد منهم لا يصدّق بوحدانية الله تعالى، ولا برسوله، ولا بكتابه، ولا باليوم الآخر، ولا بالوعد والوعيد. وكان لا يصلّي، أي لا يعبد الله عزّ وجلّ، ولا يطيعه في أمر أو في نهي.

- وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (32) :

وبدل التّصديق فإنّه كذّب بالدّين، وكذّب بالله تعالى وبرسوله وبكتابه وبالبعث والحساب، وتولّى عن الإيمان وعن طاعة ربّه وعن الاستقامة على شرعه. كان كافرا غير مؤمن، وعاصيا غير عابد ولا مطيع، وما كان يعمل صالحا...

- ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (33) :

ثمّ يتعمّد أن يعود إلى أهله متمدّدا في مشيته اِفتخارا في كبرياء، معتزا بإعراضه عن دعوة الحقّ، ومعتزّا بأنّه باق على دين أهل الشّرك، وبأنّه لا يُشارك المستضعفين في ما آمنوا به.

- أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (34) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ (35) :

هذه وعيد شديد بكلّ من تخلّق بهذا الخلق، فإنّ له الويل بعد ويل، ثمّ له الويل بعد ويل. أربع مقابل أربع (لا صدّق ولا صلّى، وكذّب وتولّى). لهذا الكافر المعاند المستكبر المكذّب بكلّ ما



جاءه من عند ربّه الويل في دنياه، وله الويل عند مماته، وله الويل إذا قام لربّه، وله الويل بعد ذلك حين يلقى في "سقر". الويل في كلام العرب يعني الهلاك، وهو هلاك عظيم يجعل الهالك محلّ عبرة عند الناس وموضوع حديثهم في مجالسهم. وليس من أمر أثقل على نفسية المستكبر من أن يكون حديث النّاس في شماتة أو للاعتبار بسوء عاقبته.

- أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36) :

هذه إلى آخر السورة في موعظة الإنسان عموما، وليته يتدبّرها التدبّر الفكري العقلاني ليعلم أنّه من الحقّ ومن المنطق أن لا تكون حياة الإنسان عبثيّة، وأن يعيش حياته بدون أن يحاسب عن أعماله ليجازى عن ما عمل من حسنات، أو ليُعاقب عمّا أساء فيه. وهي بمعنى: أيظنّ الإنسان أن يترك في حياته يعمل ما يشاء دون حساب، أو أن يُترك مُهْمَلا بدون تكليف، وبدون حساب. هذا أمر يتنافى مع عظيم خلق الإنسان، ومع تشريفه بحمل أمانة المسؤولية. وهذه كقوله تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)(المؤمنون الآية 115).

- أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (37) :

هذا الذي يستكبر عن الإيمان بخالقه وعن طاعته، ثمّ يستبعد إعادة بعثه للحياة بعد مماته ألم يسأل نفسه عن نشأته وكيفية خلقه، ماذا كان قبل وجوده؟ ألم يوجد من قطرة ماء رجل أريقت في رحم اِمرأة؟

- ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (38) :

ثمّ لما اِختلطت تلك القطرة ببويضة المرأة تحوّل الخليط إلى دم علق في رحمها، وقدّر الله تعالى أن يخلق من ذاك الدم العالق بجدار رحم المرأة إنسانا، فسوّى خلقه، وأنشأه خلقا سويا على شاكلة خلق الإنسان، ثمّ قذف فيه الروح فخرج جنينا وليدا إنسانا سويا. أيُعْجِزُ الذي خلقه أوّل مرّة أن يُميته وأن يجعله في العدم ثمّ يعيده على الصورة الّتي خلقه فيها أول مرّة؟ قال تعالى (كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ)(الأنبياء الآية 104).

- فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (39) :

والخالق هو الّذي اِختار للمولود جنسه: أن يكون ذكرا أو أنثى. وليس لأيّ إنسان أن يتخيّر جنس ما يولد له من مواليد. فتعرّفوا على ربّكم وعلى قدرته من خلقكم أنفسكم، ولا تكفروا به.

- أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (40) :

أي إنّ الذي خلق الإنسان من عدمٍ: من قطرة ماء رجل تفاعلت مع بويضة اِمرأة، أيعجزه أن يعيد الحياة له بعد مماته، وبعد أن يبلى جسمه وتنخر عظامه وأن يصير إلى العدم؟ تدبّر أمر خلقك بموضوعية وعقلانية فسترى أنّ أمر إعادة الحياة لمن مات أيسر على الذي خلقه أول مرّة

من إنشائه بدايةً. قال جلّ وعلا (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)(يس الآيتين 78-79).

فهذه الآيات لإقناع المكذّب بالبعث بقدرة الله على إعادة إحيائه. "فماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال".

جاء في الخبر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين قرأ هذه السورة وبلغ هذه الآية قال: "سبحانك اللّهم"، وبكى.

وممّا أرشد إليه العلماء السابقون أن يقول القارئ أو المستمع لهذه الآية: "بلى"، إنّ الله تعالى قادر على أن يحيي الموتى سبحانه". وإذا كان المرء في صلاته وقرأها أو سمع هذه الآية من الإمام في قراءته قال في سِرِّهِ : "بلَى"، بمعنى: أجَلْ إنّ الله قادر على ذلك سبحانه.

وتعتبر هذه السورة شديدة الوقع على نفس كلّ قارئ مؤمن لما فيها من تذكير بشدائد يوم القيامة وأهوال أحداثها، ولما فيها من مواعظ ليجتهد في الإعداد لذلك اليوم المهول لينجو من أهواله وليقي نفسه من عذاب "سقر" والسعير. نسأل الله تعالى السلامة وحسن العاقبة.



رقمها	سورة **الإنسان**	آياتها
76	ـــــ مدنية ـــــ	**31**

سمّيت هذه السورة في بعض المصاحف بسورة "الإنسان"، وفي أخرى بسورة "الدهر"، ويسمّيها القرّاء والمؤدّبون سورة "هل أتى على الإنسان". وهي سورة مكية في بعض آياتها، وأكثر آياتها نزلت بالمدينة.

ومن أهّم أغراضها: تذكير الإنسان بفضل ربّه عليه بخلقه، وبالغاية من خلقه. وأكثر آياتها في ترغيب الإنسان ليكون من الأبرار في إيمانه، وفي صالح أعماله، فقد وعدهم الله بالخير الكثير من مظاهر النّعيم والتكريم في آخرتهم. وجاء فيها تثبيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للقيام بأعباء الرسالة في صبر وثبات، وختمت السورة بدعوة الإنسان للانتفاع بتذكرة القرآن وموعظته.

وإذا كانت السورة السابقة: "القيامة" تبكي من يخشى عذاب ربّه من إشفاقه على نفسه من عذاب "سقر" فإنّ هذه السورة تفتح أبواب الرجاء فسيحة في وعد الأبرار الأخيار بالخير الوفير.

- هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا **(1)** :

هذه الآية مع الآيتين المواليتين في تذكير الإنسان بفضل ربّه عليه في خلقه وهديه. ومعنى الآية: هل خطر على بال كلّ إنسان أن يتوقّف مع نفسه حينا من الزّمن فيسأل نفسه: كيف وُجِد حيًّا على وجه الأرض؟ وكيف خُلق من عدم؟ ما كان يُعرفُ له وجود، وما كان له ذكر في قومه قبل خلقه ووجوده.. وسيعود بعد هذا الوجود إلى العدم، وإلى اِنعدام ذكره كأنّه لم يُخلق ولم يكن له أثر من حياة. مَن الخالق؟ ومَن هو الواجد؟ وما غايةُ خلقِه وإيجاده؟ وما غاية تحديد أجل لوجوده ثمّ يميتُه خالقُه وواجدُه؟ هل خطر على بال كلّ إنسان أن يخصّص لنفسه فترة من الزمن ليتفكّر في وجوده وفي خالقه وفي الغاية من خلقه؟ فهذه الآية لتحفيز الإنسان ليتدبّر في خلقه وفي الوجود، ويعمل عقله تفكيرا ليتعرّف على خالقه، وعلى الغاية من خلقه، ومن إماتته، ويتأمّل في الوجود وواجده...

- إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا **(2)** :

(إِنَّا) إنّه هو الله عزّ وجلّ الذي خلق الإنسان من (نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ) من اِختلاط ماء الرّجل بماء بويضة المرأة في رحمها فنشأ عن هذا الإمتزاج بعد مراحل من التفاعل والتطوّر خلق الإنسان. وما كان خلقه عبثيا، وإنّما كان بغاية إختباره بجملة من الشرائع وجملة من الأوامر والنّواهي



لتُعرف طاعته لما أُمِر به، أو نهي عنه، أو يُكشف إعراضه عنها ويُكشف اِتّباعه لهواه وميلُه للمعاصي. وأنعم الله تعالى بنعمتي : السمع والبصر، ليسمع ما يبلغه من الهدى وليعيه بعقله وفكره وقلبه، وليبصر آيات ربّه حتى يتبيّن له الحقّ من الباطل، ولينعم بنعمة الوجود، ولتكون له بما يبصر وبما يعي بسمعه وعقله بصيرةٌ ليهتدي للصواب حتى لا يضلّ.

- إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3) :

والله تعالى أرشد الإنسان لطريق الهدى والخير لاتّباعه، وبيّن له طريق الضلال والباطل للبعد عنه وذلك عن طريق رسله وكتبه، وبما أودع فيه من فطرة وعقل وأحاسيس، وذلك ليكون مقرّا بفضل الله تعالى عليه، وليكون مؤمنا إذا اِكتسب رشده، أو يكون جاحدا وكافرا بأنعم الله عزّ وجلّ إذا عطّل سمعه وبصره وعقله عن الفهم والإدراك. وقد جاء في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد قال: "كلّ الناس يغدون، فبائع نفسه، فمُعْتِقُها أو مُوبِقُها".

- إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا (4) :

وهذه في إنذار الكافرين بعذاب الوثاق بالسلاسل التي تُحْمَى بالنّار الحامية في السعير فتصبح كاوية للموثوق بها كيًّا أليما، شديد الوجع، والذي يُحشر في السعير يُغَلُّ بأغلال تُقَيَّدُ بها يداه إلى عنقه لإذلاله، فتزيد عذابه الأليم عذابا آخر، هو عذاب المهانة. وما هذا النّذير إلاّ للتحذير وللتخويف ليفرّ الإنسان إلى ربّه. وقد جاء قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام (فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)(الذاريات الآية 50).

- إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) :

وأمّا الأبرار: فهم الذين آمنوا وكانوا يُكثرون من أعمال البرّ في الطاعات وفي الإحسان، ومن أعمال البرّ في الطاعات صلوات النوافل والرغائب، وصيام التطوّع، والاعتمار، والإكثار من التسبيح وعمارة المساجد وإقام المصالح العامّة لنفع العباد، هؤلاء يَلقَوْن عند ربّهم تكريما كبيرا باستضافتهم بكؤوس الخمرة ذات الرائحة الطيّبة كأنّها ممزوجة بالكافور.

- عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6) :

ويشربون ما يطيب لهم من الخمر أو العصير من عين لا ينفد عطاؤها (يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) أي تجعل تحت تصرّفهم كلّما أرادوا أن يشربوا منها.

والملاحظ في هذه الآية وصف الأبرار بأنّهم (عِبَادُ ٱللَّهِ) فقد أضاف الله تعالى هؤلاء العباد إلى اِسمه العليّ الأعلى، وحين يكون الحديث عن الكافرين ينعتون بالعبيد كقوله تعالى في أكثر من آية: "وأنّ الله ليس بظلاّم للعبيد". وحين يكون الحديث عن المؤمنين يقول تعالى: "عبادي" أو



"عباد الله". وحين يخصّ الحديث عموم البشر: المؤمنين منهم، وغير المؤمنين منهم المكذّبون والمنافقون يُستعمل لفظ "الإنسان" للمفرد، ولفظ "النّاس" للجمع.

- يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا (7) :

ومن صفات عباد الله الأبرار أنّهم يلتزمون بما تعهّدوا به من الطاعات التي أوجبوها على أنفسهم من تلقاء أنفسهم خشية شدائد يوم القيامة، وهو يومٌ شدائده مهولة ومنتشرة. يقدّمون في دنياهم طاعات كثيرة ليلقوا بها الأمان في ذاك اليوم المهول ولا يلقون بها شدائده.

- وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) :

ومن صفاتهم أنّهم يُشَرِّكون الأيتام والأسرى الذين أسروا في سبيل الله طعامهم، ويقاسمونهم إيّاه رغم حبّهم لذاك الطعام. يُوصفون بالإيثار والكرم.

- إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا (9) :

وما يطعمون طعامهم للمحتاجين الجائعين طلبا لحسن الثناء والذّكر، وإنّما يطعمونهم طمعًا في رحمة الله تعالى ورضوانه، ولا يطلبون شكر الناس وثناءهم عليهم، غايتُهم من صدقاتهم طلب رضوان الله تعالى عليهم.

- إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) :

(القمطرير) شديد العبوس والكدر. إنّ في نوايا الأبرار حين يحسنون للفقراء واليتامى والأسرى طلب النّجاة بفضل ربّهم عليهم من شدّة أهوال يوم تعبس فيه الوجوه من الخوف وتكلح ممّا يرون من أمور مفزعة، ومناظر مخيفة تكدّر النّفوس، وتقطّب الجبين والحاجبين.

- فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) :

فجازاهم الله تعالى بحفظهم من شرّ ذلك اليوم وأهواله، وأمَّنَهُم على أنفسهم من شدّته وعذابه، وأبدلهم خوفهم أمنا، فإذا هم يَلْقَوْن ربّهم بوجوه بيضاء بهية ونقية، وهم مسرورون بفضله تعالى عليهم. قال تعالى (وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)(النور الآية 55).

- وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) :

وجازاهم الله تعالى على صبرهم على أداء الطاعات بإيوائهم في مساكن طيّبة مريحة وألبسهم اللباس الفاخر من حرير لمزيد تكريمهم ولرفعة شأنهم. روى ابن عمر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سئل عن الصبر، فقال: "الصبر أربعة: أوّلها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على اِجتناب محارم الله، والصبر على المصائب". قال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ)(البقرة الآية 153).

- مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13) :

وفي جنّتهم يجدون أماكن مريحة للجلوس فيها للراحة أو للتحدّث في مجالس أُنْسهم يتكئون على سرر فاخرة كسرر الملوك والأمراء، ولا يجدون فيها الشمس الحارقة ولا البرد الشديد اللاسع لينعموا مع ذاك الرّفاه بالرّاحة، وحتى لا يشعروا بضيق الأنفاس.

- **وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلاً (14) :**

ولتمام الإنعام والتكريم فإنّهم يجدون بالقرب منهم أشجارا مثمرة متنوّعة، يسهل عليهم قطف ثمارها لأنّها متدلّية عليهم ودانية منهم. قال تعالى (وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٍ) (الرحمان الآية 54).

- **وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكۡوَابٍ كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ (15) :**

ومن بين أيديهم خَدَمٌ يطوفون عليهم بأواني الطعام الفضية كشأن موائد طعام الملوك والأثرياء، وبأكواب زجاجية للشراب.

- **قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرًا (16) :**

والأكواب الزّجاجيّة ذات القواعد الفضية يقدّمها السقاة الطوّافون ويملؤونها على قدر حاجة الشارب وعلى قدر ريّه.

- **وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (17) :**

ويسقون في جنّتهم شرابا ممتزجا برائحة طيّبة.

- **عَيۡنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلاً (18) :**

وهو شراب ممتلئ من عين في الجنّة تسمّى "سلسبيلا" لسَلاَسَة اِنحدار شرابها في الحلق وطيب مذاقه.

- **وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤًا مَّنثُورًا (19) :**

ويخدمهم ولدان مخلّدون لأنّهم أخفّ في الخدمة، ولدان لا يهْرَمُون ولا يتغيّرون على مرّ الزمان، وباقون على هيأتهم من الشباب ومن حسن المظهر والحسن، ويتواجدون في كلّ مكان لأنّهم كثيرون، وهم في خدمة أهل الجنّة، ورهن إشاراتهم، وطلباتهم، ومن كثرتهم ومن حسنهم فإنّك حينما تراهم تحسبهم لؤلؤا متفرّقا.

- **وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمًا وَمُلۡكًا كَبِيرًا (20) :**

وإذا نظرت في الجنّة فإنّك سترى من مظاهر النّعيم ما لا يخطر على بالك في سَعَته وتنوّعه ووفرته وجماله، وسترى بوجود الملائكة والولدان والحور والغرف والمعارج والزخرف والشجر والثمر والأنهار والسرر المرفوعة والفرش المنشورة وجميع مظاهر الترف والرفاه ما يعظم في عينك من سَعة الملك وعظمته وكبره بما لا يخطر على قلب بشر ولا تستوعبه الأعين وما لم تسمع به أذن.



- **عَلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا (21) :**

وعلى الأبرار ثياب داخليّة من حرير أخضر رقيق، وفوقها أثواب من ديباج غليظ وألبسوا في معاصمهم أساور من فضّة كما يلبس وزراء الدولة العظيمة، ويشربون في جلساتهم شرابا طهورا لا لغو فيه ولا تأثيم. قال تعالى (يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ)(الطور الآية 23).

- **إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا (22) :**

ويقال لهم عمّا هم فيه من النّعيم، ومن وجوه التكريم بالخدم واللّباس والرّفاه: إنّ هذا كان لكم ثوابا وجزاءً عن صدق إيمانكم بالله وحده، وعن إخلاصكم في عبادتكم وفي طاعته تعالى. وهذا لتعلموا أنّ الله تعالى قد شكر لكم عملكم في الطاعات وأثابكم عليها خيرا: غفر لكم ذنوبكم، وأثابكم بإيوائكم في جنّة النّعيم، وأحسن إليكم بالحسنى، وأثابكم عن نفقاتكم وعن إحسانكم بأضعاف مضاعفة، "وكان الله شاكرا عليما". وهذه هي التجارة الرّابحة، قال تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ)(فاطر الآيتين 29-30). وكذا يتمّ الحديث عن مظاهر تكريم الأبرار في هذه السورة.

- **إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا (23) :**

الخطاب في هذه الآية مع الآيات الثلاث الموالية للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، وهذه الآية في تصديقه في ما ينزل عليه من الوحي من عند الله عزّ وجلّ. ومعنى الآية (إِنَّا نَحۡنُ) هو الله عزّ وجلّ شأنه الذي أنزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم القرآن (تَنزِيلا)، ويفيد هذا المفعول المطلق التأكيد على أنّ القرآن منزل من عند الله تعالى، ولا يكذّب به، أو يشكّك إلاّ آثم أو كفور، كما يفيد بأن ينزل آية بعد آية، ينزل منجّما ومتفرّقا، ولم ينزل جملة واحدة. وقد فسّر تعالى هذا التّنجيم للردّ على المكذبين فقال تعالى (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا)(الفرقان الآية 32).

- **فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا (24) :**

(لِحُكۡمِ رَبِّكَ) في هذه الآية يعني تكليف رسوله صلّى الله عليه وسلّم بتبليغ رسالة الله تعالى لعباده، وقراءة كتابه عليهم، وكذلك قضاءه فيما يتبع هذا التكليف من مشاقّ. ومعنى الآية: اِمض – يا نبيّ الله – في نشر ما كلّفك الله سبحانه وتعالى بتبليغه للنّاس كافّة من الإيمان به إلاها واحدا، لا إلاه إلاّ هو، ومن الاستقامة على طاعته وعبادته وحده، ومن وجوب العمل بشرعه، والانتفاع بمواعظه، ومن العمل للآخرة، والالتزام بما يأمر به من حسن المعاملة وفاضل الأخلاق، وإجتناب كلّ ما نهى عنه من المعاصي ومن سوء الأخلاق والمعاملة. اِمض في نشر

رسالتك الّتي كُلّفت بتبليغها للنّاس كافّة في صبر وثبات. وستلقى من سيكذّب بك وبرسالتك وبالقرآن والذي يهزأ بك وبما تعظه به، فامض لما أُمرتَ به وأعرض عنه فإنّه آثم، وسيلقى في عاقبته سوءًا بما كان يفعل. وستلقى مشاقّة ممن كفر، وصدّ عنك، وأعرض ونأى عمّا تدعوه إليه فاصبر واحتمل ما تلقاه منه، ولا تُصْغِ إليه، ولا تُعِرْهُ اهتماما.

- وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا (25) :

وداوم على الصلاة في أوقاتٍ من اللّيل والنّهار. اِستعن بالصبر والصلاة.

- وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا (26) :

وتهجّد لله تعالى زمنا طويلا من الليل تطوّعا، وهذا كما جاء في أول قوله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا)(المزمّل الآيات 1-4).

- إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا (27) :

(هَٰٓؤُلَآءِ) اِسم إشارة للمشركين و(ٱلۡعَاجِلَةَ) هي الدنيا، سمّيت بالعاجلة لأنّ الحياة فيها وإن طالت هي قصيرة إزاء الخلود – واليوم الثقيل: صفة ليوم البعث الذي يُقدَّمُ فيه الإنسان للحساب، وهو ثقيل على الكافر، وعلى العاصي المذنب، وعلى المنافق. ومعنى الآية: إنّ هؤلاء المشركين قد أشغلهم حبّهم لدنياهم وزينتها وشهواتها عن الإعداد ليوم الحساب حين يبعثون، فتركوه وراء ظهورهم غفلة أو إنكارا، فما أشدّ ثقله لما فيه من أهوال وفزع من عذابه على الذين كفروا به وعلى الذين كذّبوا به، ولم يلتفتوا إليه بحسن الإعداد له.

- نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا (28) :

ألا يذكرون أنّ الله تعالى هو الذي خلقهم، ولم يخلقهم غيره. وهو تعالى الذي أحكم خلقهم بوصل عظامهم بـ (أَسۡرَهُمۡ) أي بالمفاصل، وربطها بالأعصاب والعروق، فهل لهم من خالق غيره؟ فلماذا لا يذكرون ربّهم بالشكر وبالتقديس والطاعة. وإنّه تعالى هو الذي أمدّ أنفاسهم وجعلهم يحيون رغم كفرهم وشركهم، ولو شاء لترك إمهالهم فعجّل بإهلاكهم واستبدالهم بقوم آخرين يكونون مؤمنين وأحسنهم عملا بالطاعات. (تَبۡدِيلا) مفعول مطلق من فعل (بَدَّلۡنَآ) ويدلّ هذا المفعول على التهديد وعلى الوعيد بتعجيل هلاكهم.

ولا نجاة من الهلاك إلاّ بالاستغفار. قال تعالى (وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا)(الكهف الآية 58).

- إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا (29) :

إنّ هذه السورة ينتفع بمواعظها من أراد لنفسه النّجاة من أهوال اليوم الثقيل، ولمن شاء أن ينعم بما وعد به الله تعالى عباده الأبرار من تكريم وإنعام.

والسبيل إلى الله يكون بتوحيده في ألوهيته، وبالإخلاص في عبادته وطاعته، وبالاجتهاد في التقرّب إليه بأعمال البرّ.

- **وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) :**

وإنّ مشيئة الله تعالى هي العليا، وإنّ التوفيق إلى طاعته وعبادته من عنده تعالى، وليست المشيئة خاضعة لإرادة الفرد. جاء هذا التّذكير ليعلم الإنسان إذا هداه الله تعالى للإيمان بأنّ الله سبحانه هو الذي تفضّل عليه بهديه لينقذه من النّار ولينعم عليه بعد ذلك بتكريمه عند بعثه، وحتّى لا يغترّ فينسب لنفسه هداه. جاء في قوله تعالى (وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ)(الأعراف الآية 43). فمشيئة الله تعالى هي النّافذة. وقد جاء في الحديث الشريف: "اِعملوا فكلّ ميسّر لما خُلق له". إنّ الله تعالى عليم بأعمالكم وعليم بما في صدوركم من إيمان وصدق فيه، وعليم بنواياكم، وبرغباتكم، وحكيم في تدبيره لأمور خلقه ليصيروا إلى ما كتبه لهم.

- **يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا (31) :**

إنّ الله تعالى يدخل مَنْ يشاء من عبادِهِ جنّته بفضلٍ منه تعالى وإحسان، ويعذّب الظالمين العذاب الأليم لكفرهم ومعاصيهم.

وهذا التذييل ليعلم المؤمن أنّه لا يدخل جنّة ربّه حين يدخلها بعمله وباجتهاده، وإنّما هو يدخلها برحمة من الله تعالى وفضله، وهذا ليظلّ الإنسان متعلّقا بربّه يكثر من الطاعات والدعاء رجاء قبول طاعاته ورجاء أن ينعم عليه ربّه برضوانه، وحتى يظلّ محترسا من الوقوع في المحارم خشية غضب ربّه، وبهذا يبقى الإنسان بين الخوف الرّجاء.



رقمها	سـورة **المرسـلات**	آياتها
77	ـــ مكية ـــ	50

سمّيت هذه السورة باسم القسم الذي أُفتتحت به: "المرسلات"، وهي سورة مكية.

من أغراضها: إثبات وقوع البعث، مع عرض لبعضٍ من أشراط الساعة. وجاء فيها وعيد الكافرين والمكذّبين بالعذاب يوم الدين، ووعدٌ بجنّة النعيم وبالأمان للمؤمنين، مع الاعتبار بآية الخلق، وآية خبر الأمم السالفة المكذبين بالدين.

- وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا (1) :

هذه الآية إلى الآية 15 في إثبات وقوع البعث، وفي بعض من علامات قيام الساعة. والآية في القسم بالرّياح المرسلة المتتابعة المأمورة بتنفيذ أمر الله عزّ وجلّ الذي أُرسلت به. الملاحظ في الاستعمال القرآني للفظ الرياح في صيغة الجمع فإنّها دائما الرياح المبشّرة بقدوم الغيث، أو هي الرياح اللّواقح لزهر الشجر لتأتي بثمارها. وحين يرد اللفظ في صيغة المفرد: "الريح" فإنّه يستعمل دوما في ما هو مُؤذِنٌ بالهلاك والعذاب كقوله تعالى في هلاك قوم عاد، بأنّهم هلكوا بريح صرصر عاتية.

ومن المفسّرين من جعل القَسم بالملائكة المرسلين بالوحي، والملاحظ عندي أنّ القسم في هذه الآية، وكذلك في الآيتين المواليتين بأنّه قسم بظواهر طبيعية مرسلة بأمر الله تعالى لتنفيذ أمره تعالى، وأمّا في ما بعدها من القسم، فهو قسم بالملائكة – كما سيتبيّن. والله أعلم.

- فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا (2) :

وقسما بالرّياح شديدة العواصف الّتي تعصف بالشجر فتقلعه، وبالبناءات فتهدمها وتعصف بها.

- وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا (3) :

وقسما بالرّياح التي تنشر السّحب فتُسيّرُها حيث أمرها تعالى لتُنزلَ ماءَها.

- فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا (4) :

وقسما بالملائكة الذين ينزلون بالوحي الفارق بين الحقّ والباطل، وبين الحلال والحرام.

- فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا (5) :

وقسما بملائكة الوحي الذين ينزلون على الأنبياء والمرسلين بالوحي من عند الله تعالى لتبليغه للنّاس.

- عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا (6) :

(عُذۡرًا) وهو وحي من عند الله تعالى لإعذار من آمن به، وتاب واِستغفر عمّا كان منه، ثمّ اِستقام على الدين الحقّ، (أَوۡ نُذۡرًا) أو لإنذار من كذّب به، وتولّى عن ذكر ربّه، وأصرّ على العِصيان بعذاب الله الأليم.

- إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ (7) :

هذا جواب القسم. قسما بما ورد سابقا فإنّ ما توعدون به من البعث والحساب واقع حتما بلاشكّ.

- فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ (8) :

وهذه مع الآيات الثلاث الموالية في علامات قيام الساعة للبعث. فإذا ذهبت النّجوم ولم تعد تظهر في السماء فأُعلم أنّ الساعة قائمة.

- وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ(9) :

هذه كقوله تعالى في مفتتح سورة الانشقاق (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ)، أي إذا تصدّعت السماء ورأيت فيها اِنشقاقا، وظهرت فيها فراغات، فهذه علامة من علامات الإذن بقيام القيامة.

- وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ (10) :

وإذا صارت الجبال كالصوف المنفوش، وكأكداس من التراب، وإذا ذهبت صلابتها فإنّها تُنْبِئُ بِأَنَّ الساعة قريبة.

- وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ (11) :

وإذا عُيِّنَ للرّسل وقتٌ محدّد للاجتماع فيه فإنّ موعد الساعة قريب.

- لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ(12) :

وإذا سُئل عن سبب تأخير سماع شهادة الرّسل على أقوامهم؟

- لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ (13) :

فإنّ الجواب عن هذا السؤال بأنّه قد أُجّل سماع شهادتهم حتى يأتي يوم القضاء بين الخلق وحتى يأتي يوم جمعهم : يوم يُبعثون.

- وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ (14) :

وما أشدّ هول يوم القضاء بين النّاس على الكافرين المكذّبين! وما أثقله على أنفسهم! وما أشدّ خوفهم ممّا ينتظرهم في ذاك اليوم من شدائد ومن عذاب!

- وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (15) :

الويل والهلاك يومئذ لمن كذّبوا برسل الله تعالى، وبما جاؤوا به، ولمن كذّبوا كذلك بيوم البعث واِستبعدوه.

- أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ (16) :

هذه للاعتبار بما حدث للأمم السالفة من المكذّبين كقوم عاد وثمود وإخوان لوط.. ألم يهلك الله تعالى المكذبين برسل الله تعالى وبما جاؤوا به بعذاب الاستئصال في دنياهم ودمّرهم تدميرا ليعتبر بسوء عاقبتهم كلّ من يعتبر من الذين يأتون من بعدهم.

- ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ (17) :

وهذه لتحذير الخَلَفِ، فإنّهم موعودون بعذاب الهلاك والاستئصال إذا كانوا أمثال أسلافهم في الكفر والعصيان، وفي تكذيب الرّسل، وفي التكذيب بالوعيد.

- كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ (18) :

هكذا قضى الله تعالى في (بِٱلۡمُجۡرِمِين)، الذين يكفرون به ربّا، ويكذّبون برسله، وبكتابه، وبوعيده. قضى أن يعذّبهم في دنياهم بعذاب الهلاك والاستئصال، ولهم في آخرتهم عذاب أشدّ وأنكى.

- وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (19) :

والويل لهم يوم يأتيهم عذاب الله بما كانوا يكذّبون بالتّوحيد وبالرّسل وبالوعيد.

- أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ (20) :

كيف تكفرون بالله تعالى الذي خلقكم من مَنِيّ قَذِرٍ عند الناس، ومحتقر عندهم، وهو ماء ضعيف. أفلا تنظرون في أنفسكم كيف خلقتم، وممّا خلقتم منه لتعرفوا ربّكم فتقدّروه حقّ قدره سبحانه. والاستفهام في الآية لتحفيز العقل للنّظر والتّدبّر.

- فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ (21) :

ثمّ جعل الله تعالى بقدرته هذا المنيّ يستقرّ في مستقرّ حصين، وهو الرَّحِم.

- إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ(22) :

إلى زمن معيّن، إلى زمن الولادة، فخرج من ذاك المنيّ وذاك الرّحم مولود له شأن، خرج إنسانا مكتمل الخِلقة وذا عقل وتدبير وإحساس...

- فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ (23) :

والله تعالى هو الذي قدّر خلقه وتصويره على الخلقة التي شاءها له تقديرا محكما. فكيف لهذا الإنسان أن يكفر بخالقه، وكيف يجحد فضله ولا يشكر له؟

- وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (24) :

والهلاك في عذاب لمن كذّب بخالقه، وجحد فضله عليه، ثمّ كفر به ربّا إلاها واحدا.

- أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا (25) :

ثمّ أُنظر، أيّها الإنسان، في محيطك البشري، وفي الأرض التي خرجت إليها وتعيش عليها. ألم يجعل الخالق الأرض تضمّ جميع الخلق وتجمعهم؟ ثمّ تكفيهم بخيراتها لطعامهم.

- أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا (26) :

تجمعهم جميعا، تجمع الأحياء على سطحها، والأموات في باطنها.

- وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا (27) :

ومن حسن التقدير، وحكمة الخلق أن أنشأ الله تعالى فيها جبالا مرتفعة صلبة لتثبّت الأرض، فهي أوتاد لها، وهو الذي سقاكم فيها بماء السماء أو بما ينبع منها من ينابيع، ماءً عذبا حلوا لتشربوا وتسقوا أنعامكم، وترووا مزارعكم وحقولكم.

- وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (28) :

والويل والهلاك للّذين يكذّبون بالله تعالى ونِعمه، والذين يكذّبون بآيات خلقه وتقديره، وبحكمته لضمان طعامهم وشرابهم ورزقهم وإيوائهم يوم يأتيهم عذابه المدمّر.

- ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (29) :

فإذا قامت الساعة، وآن أوان تحقيق الوعيد في الذين كذّبوا به يُقال للمكذّبين بالله تعالى وآياته ووعيده، اِذهبوا سريعا وتوجّهوا إلى العذاب الّذي كنتم تكذّبون به، وتنكرونه، وتستبعدونه.

- ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ (30) :

اِذهبوا مسرعين إلى الاستظلال بظلٍّ من دخان مفرّق ثلاث فرق عظيمة في جهنّم.

- لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ (31) :

لا يفيدكم بظلّه، ولا يقيكم حرًّا لأنّه حارقٌ، ولا يدفع عنكم حرّ شعلة النّار.

- إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ(32) :

ويتطاير من نار جهنّم جَمْرٌ أحمر كبير حارق، وهو جمرٌ عظيم في حجمه كحجم البناء الضخم.

- كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ (33) :

ويتطاير هذا الجمرُ فيرى في هيأته ولونه كأنّه قطيع من الإبل، أصفر اللون.

- وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (34) :

ما أشدّ عذاب المكذّبين بالبعث وبالوعيد في ذاك اليوم.

- هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ (35) :

وفي يوم القيامة مواقيت ومواطن لا تسمع فيها إلاّ همسا. والمتقدّمون للحساب من المجرمين المكذّبين بيوم الدين وبالوعد والوعيد يذهلون عند الميزان فلا يستطيعون قولا ولا همسا. قال تعالى (ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ)(يس الآية 65). ففي ذاك اليوم

لا يتكلّم المجرمون عند الحساب ولا يستطيعون نطقا. إنّه يوم عظيم تشخص فيه الأبصار، وتُخرس فيه الألسن.

- وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) :

ولا يسمح لهم بالاعتذار، ولا يقبل منهم ندم واستغفار. قال تعالى (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)(الروم الآية 57).

- وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (37) :

الويل والهلاك يومئذ للمكذّبين بيوم الدين.

- هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ (38) :

يوم القيامة هو يوم الفصل بين جميع الخلق: أولهم وآخرهم ليُؤْتَى كلُّ ذِي حقٍّ حقّه، وليتبيّن الحقّ من الباطل قال تعالى (قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)(الواقعة الآيتين 49-50).

- فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) :

فإن كان لكم حيلة في الخلاص من الهلاك فافعلوا وفرّوا ممّا ينتظركم من العذاب إن اِستطعتم، واِحتالوا ما شئتم.

- وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (40) :

لا مفرّ للمكذّبين من الهلاك بالويل والثبور في ذاك اليوم.

- إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ (41) :

بعد الوعيد الشديد بالمكذّبين الذين يكذّبون بيوم الدّين، جاءت هذه الآية مع الآيتين المواليتين بوعد المتقين بالنّعيم، وهذا على عادة القرآن في اِتّباع الوعيد بالوعد – إنّ المتّقين ينعمون في ذاك اليوم بنعيم الظلال المرفهة، ظلال الأشجار المثمرة، وينعمون بعيون الماء والشراب العذب الحلو في ديار الضيافة.

- وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) :

ويُطعمون كلّ ما يشتهون من الفواكه وما يرغبون فيه، عطاء غير ممنون.

- كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (43) :

ويقال لهم: كلوا ما شئتم وما تشتهون واشربوا من العيون ما تشاؤون هنيئا مريئا. هو جزاء لكم عن ما كنتم تعملون من الطاعات لله تعالى ومن الصالحات من الأعمال، ومن أعمال البرّ، ومن تجنّب للنواهي والمحرّمات والمعاصي.

- إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (44) :



كذا يكرم الله تعالى عباده المؤمنين الذين آمنوا وأحسنوا عملا وصدقوا في طاعاتهم جزاءً وثوابا عمّا كانوا يعملون.

- وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (45) :

وأمّا الذين كانوا يكذّبون بالدين وبالوعيد فلهم الويل والهلاك.

- كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ (46) :

اِنعموا – أيّها المكذّبون بالدين وشرائعه – بحياتكم الدنيوية القصيرة. تمتّعوا بالأكل، وبزينة حياتكم والهَوْا كما شئتم.

- وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (47) :

ولكم الويل والعذاب بعد ذلك حين تقومون للحساب، يومئذ ستعرفون الويل الذي اِنتظركم.

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ (48) :

ولقد دعوا للإيمان ولطاعة ربّهم وللصلاة وللخضوع لأمر الله تعالى فما آمنوا ولا صلّوا ولا أطاعوا. وقد اِستنبط الفقهاء من هذه الآية بأنّ الركوع في الصلاة فرض لازم لأنّ الصلاة في هذه الآية سمّيت بالركوع.

- وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (49) :

وسيعذّبون بعذاب شديد مهول لأنّهم رفضوا أن يعبدوا الله تعالى، وكانوا تاركي الصلاة.

- فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ (50) :

فإذا كانت هذه المواعظ لم تنفع المكذّبين بالدين ليؤمنوا بالله وحده وليعبدوه وليطيعوه وليصدّقوا برسوله وبكتابه وإذا كان هذا النّذير بالوعيد لم يَرُدَّهُمْ عن غيّهم، بل جعلهم يهزؤون أو يستبعدونه بعد موتهم، فماذا يطلب هذا المعاند المكابر متحجّر القلب ليصدّق بالحقّ وبما جاء من عند ربّه، وقد جاءه النّذير بلسان عربيّ مُبين، فبأيّ لسان يفهم ما يجب عليه من شكر وطاعة إزاء خالقه المنعم عليه بنعم الحياة والطعام والماء. إذا كان كلام الله تعالى البيّن لا يقنعه بأنّه على ضلالة فبأيّ كلام سيقتنع ليُقلع عن ضلالته، وليؤمن وليستقيم على الدين الحقّ؟ (فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ)(يونس الآية 32). إذا كان هذا الحديث لم يقنع المكذّبين بأنّهم على ضلالة فسيعرفون الحقّ يوم الدّين حينما ينطلقون إلى ظلّ ذي ثلاث شعب في السعير.



آياتها	ســـــورة النّبـــــــأ	رقمها
40	ـــــ مكيــة ـــــ	78

سمّيت هذه السورة في المصاحف باسم "النّبأ" لافتتاحيتها بالسؤال عن "النّبأ العظيم". وتسمّى عند القرّاء المؤدّبين بسورة "عمّ" باللفظ الذي بدئت به. وتسمّى عند بعض المفسّرين باسم "التسّاؤل"، أو "المعصرات"، وهما اِسمان غير مشهورين. وهي سورة مكية.

من أهمّ أغراضها : إثبات البعث الذي هو موضوع الاستفهام في أوّل السورة، وكذلك إنذار المكذّبين به، وبوحدانية الله تعالى بسوء العاقبة، ولذلك جاء فيها آيات عظيم القدرة لإثبات الألوهية والقدرة على بعث الأموات. وجاء فيها وعد المتقين بالمفاز بالنّعيم. وخُتمت بالتحذير من النّدم في الآخرة عن التّفريط في التصديق بما جاء في الكتاب.

- عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (1) :

هذه الآية مع الآيات الأربع الموالية في تقديم موضوع الإستفهام الذي حيّر العباد. ومعنى الآية: عن ماذا يتساءل النّاس في مجالسهم لمّا جاءهم الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم بالكتاب؟

- عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ (2) :

يتساءلون عن (ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ) : أي الخبر ذي الأهمية الذي حيّر أفكارهم فقسمهم بين مصدّق ومكذّب، ومتعجّب وناكر.

- ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) :

لقد أثار فيهم النبأ العظيم حيرة فانقسموا إلى طوائف بين مصدّق ومكذّب، ومندهش ومرتاب، ومتربّص.

- كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) :

(كَلَّا) النبأ الذي علمتم به لا يُثير الاختلاف، ستكشف لهم الآيات والدلائل صدق ما بلغهم من النبأ الّذي أثار دهشتهم وعجبهم وتساؤلهم.

- ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5) :

ثمّ سيتأكّد لهم صدق الخبر في مستقبل الأيّام حين يدخل النّاس في دين الله أفواجا، أو حين يقوم المكذّبون به والذين يستبعدونه للحساب يوم القيامة.



و(ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ) الذي كان موضوع تساؤل القوم هو نبأ نزول الوحي على محمد صلّى الله عليه وسلّم بأنّ الله تعالى واحد، وأنّه لا إلاه إلاّ الله وحده، وأنّ الآلهة التي كان يعبدها المشركون هي آلهة باطلة ومزعومة ولا تقدر لهم على شيء، وأنّ النّاس جميعهم سيبعثون بعد مماتهم للحياة الخالدة يوم القيامة ليحاسبوا عن إيمانهم وعن أعمالهم، فأمّا فريق المؤمنين فسيخلّدون في النّعيم، وأمّا فريق المكذّبين فمأواهم في العذاب في نار جهنّم.

- **أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا (6) :**

هذه الآية إلى الآية 16 في عرض بعضٍ من آيات القدرة للاستدلال على أنّ الله تعالى الخالق سبحانه هو الأحقّ بالألوهية، بل هو الله الحقّ، وما سواه إلاه باطل ومفترى، وهو تعالى الأحقّ بالطاعة والشكر، وهذه الآيات من الدلائل الكونية المنظورة التي يسهل على الإنسان العاقل المتدبّر أن يهتدي بها إلى ربّه الحقّ. ومعنى الآية: أُنظروا إلى الأرض كيف جعلها الله الخالق لكم ممهدة كالفِراش، أو كالبساط لتسيروا فيها بلا عناء، ولتستقرّوا عليها وتقيموا عليها بيوتكم ومحلاّت أعمالكم.

- **وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا (7) :**

ومن حكمة الله تعالى في الخلق والتقدير. وهذه كقوله تعالى (وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ)(المرسلات الآية 27). أي إنّ الله تعالى هو الّذي أنبت في الأرض وغرس فيها جبالا لتثبيت الأرض عند دورانها وجعلها أعمدة لها لشدّ أركانها حتّى تظلّ ثابتة، ولا تهتزّ.

- **وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا (8) :**

وخلقناكم ذكورا وإناثا بتقدير محكم من الله تعالى في تحديد جنس المولود. خلق الأنثى أو جعل المولود ذكرا هو من تقدير الله تعالى وليس الأمر خاضعا لإرادة البشرية. وإنّ من حكمته تعالى أن جعل نسبة ولادة الذكور معادلة لنسبة ولادة الإناث لخلق التوازن في الحياة البشرية. قال تعالى (لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ)(الشورى الآيتين 49–50).

- **وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا (9) :**

ومن حكمة التقدير أن جعل الله لكم الليل لقطع أعمالكم في نهاركم، وليتوفّر لكم وقتٌ لتريحوا أبدانكم بالاستغراق في النوم. و(السبات) هو القطع، وسمّي الليل سُباتا لأنّه يقطع العمل والحركة. وبهذا التّدبير في خلق الليل والنّهار، وفي خلق الحاجة للنّوم في الإنسان وفّر الله تعالى للإنسان نِعمة تجديد نشاطه، وحتى لا تكلّ الأبدان، وحتى لا تنهار قواه سريعا. وهذه النّعمة إذا تدبّرها الإنسان حقّ التدبّر عرف بها الفرد فضل ربّه عليه، فوجب عليه حمده تعالى وشكره. وقد



جاء في سورة الفرقان التّذكير بهذه النّعمة في قوله تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا)(الفرقان الآية 47).

- وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا (10) :

(الجعل) هنا في هذه الآي يعني التّقدير. أي أنّ الله سبحانه قد سخّر الليل لأن يكون للنّاس ساترا لهم بظلمته ليوفّر لهم السكون في بيوتهم للرّاحة، وليسكن الزّوجان لبعضيهما إذا اِبتغيا الولد في ستر. ويعتبر خلق الليل من آيات الله الكبرى الدالّة على عظيم خلقه وحكمة تقديره وتدبيره، ولذلك فإنّه كلّما ذكر الليل والنّهار في القرآن تقدّم ذكر الليل على النّهار، وكذلك في توقيت زمن الأشهر والطاعات، وإنّ طاعات الليل أفضل قدرا ومكانة من طاعات النّهار، والملاحظ في القرآن الكريم عند القسم بالتوقيت كان القسم بالليل، ولم يَرِدْ في القرآن قسمٌ بالنّهار، وجاء فيه التعظيم بالليالي العشر، وبليلة القدر، وخصّ الليل بسورة كاملة. وجاء في تعظيم خلق الليل قوله تعالى (إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلاً)(المزمّل الآية 6). وجعل تعالى الوحي بالليل، وكان إسراء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بليل، وكان تعرّف إبراهيم عليه السلام على ربّه واِهتداؤه إليه بنظره في حركة الليل، وكان كلام الله تعالى لموسى عليه السلام في جبل الطور بليل أدهم. فخلق الليل وناشئة الليل من آيات الله تعالى الكبرى.

- وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا (11) :

وقدّر تعالى أن يكون توقيت النّهار ليسعى الإنسان في طلب معاشه ورزقه بالعمل والكدّ وبالبحث وبذل الجهد، وهذا ليعيل نفسه ويُعيل عياله. ومن يتكاسل عن طلب معاشه أو يتواكل على غيره ليطعمه يكن مخالفا للفطرة التي فطر الله النّاس عليها.

- وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعًا شِدَادًا (12) :

وأنظروا فوق رؤوسكم لتروا عظيم قدرة الله تعالى وسعة ملكه وحسن تدبيره فيما أنشأه وأوجده من سماوات سبع شداد لا تتشقّق ولا تنفطر، وكلّ ما يجري فيها خاضع لمسار دقيق ومضبوط وفي زمن محدّد، وهي قوية في تماسكها وفي ثباتها لتكون لكم سقفا محفوظا. قال تعالى (وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ)(الأنبياء الآية 32).

- وَجَعَلۡنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) :

(السرّاج الوهّاج) صفة للشمس لأنّها تضيء بأشعتها كلّ ما يكون تحتها، وهي وهّاجة لأنّها كوكب ناري ملتهب اِلتهابا شديدا، وأشعتها خارقة. وقد جعلها تعالى آية للبشر ليعرفوا بها عظيم قدرة ربّهم وعظيم خلقه.

- وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا (14) :

(ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ) هي السحب المثقلة بالماء. و(الثّجّاج) كثير السيلان والانصباب. وهذه الآية في آية من آيات إنعام الله تعالى على سكّان الأرض بالماء ليشربوا، وليسقوا أنعامهم، ولتَرْوَى أراضيهم ونباتاتهم وأشجارهم.

ومعناها: وتعرّفوا على فضل ربّكم عليكم في إنعامه عليكم بإنزال الماء من السحب المثقلة بالماء الحلو إنزالا غزيرا، ويسيل سيلا ليملأ أنهاركم وآباركم لشرابكم ولأرزاقكم من الأرض، ولسقي دوابّكم، ولطهارة أبدانكم، ولصالح أشغالكم، وفي الماء منافع لا تُحصى لأنّ الله تعالى جعل من الماء كلّ شيء حيًّا. وبهذا ضمن لكم حياتكم في رغد العيش، وأنجاكم من القحط ومن الهلاك عطشا وجوعا، فاشكروا له نِعَمَه، واعبدوه، ولا تعبدوا إلاها غيره من الافتراء على الله الكذب. وهذه كقوله تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا)(الفرقان الآيات 48-50).

- لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا (15) :

وإنّ إنزال الماء بغزارة من السحب المثقلة لغرض إحياء الأرض ليخرج منها بفضل الله وقدرته أنواع من الحبوب من مثل القمح والشعير والبرّ والزيتون لطعامكم، وليخرج منها ما ترغبون من نبات الخضروات والبقول والقضب، فاشكروا الله تعالى فضله.

- وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا (16) :

وسقاكم الغيث العميم لتنعموا بغراسات الأشجار المثمرة، فأنشأ لكم بهذا الفضل بساتين خضرة نضرة أشجارها ملتفّة الأغصان ومتشابكة فيها خيرات كثيرة من الثمار الطيّبة ومتعة للعين وتدرّ بالرزق والمال الوفير. فهلاّ شكرتم ربّكم على فضله بطاعته، وليس لكم من إلاه غيره قد أنعم عليكم بهذه النعم فلا تعبدوا ربّا سواه، وآمنوا به ربّا واحدا، لا إلاه إلاّ هو. قال تعالى (فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢)(عبس الآيات 24-32).

فهذه فقرة للتذكير ببعض من آلاء الله تعالى على إنعامه وتقديره وعظيم خلقه ليعلم المتدبّر أنّ الله تعالى هو وحده الذي أنشأ كلّ هذه الخيرات والفضائل لتدلّ عليه تعالى ولتدلّ على وحدانيته حتى لا يُعبد إلاه آخر سواه، وليشكر المؤمنون فضله بطاعته.

- إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا (17) :

هذه الآية إلى الآية 30 في وعيد الطغاة الذين تجاوزوا حدّهم في ظلم أنفسهم بالكفر والتكذيب برسل الله وكتبه والمتجاوزين حدودهم في إتيان المعاصي. ومعنى الآية: إنّ ليوم

الحساب الذي يقضَى فيه بين النّاس لإحقاق الحقّ موعدا محدّدا، ووقتا معلوما عند الله عزّ جلّ يقع فيه، ويقوم، لا خُلف فيه.

- يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا (18) :

سيقوم هذا اليوم حين يُنفخُ في الصور النّفخة الثانية. يومئذ يُبعث جميع الخلق من قبورهم ويقومون ويتقدمون للحساب أفواجا. قال تعالى (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ)(الجاثية الآية 28). والمقصود بالأفواج: أقواما وأُمَمًا بحسب الزمن وبحسب أنبيائهم ورسلهم وكتبهم. قال تعالى (يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ)(الإسراء الآية 71).

- وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا (19) :

في ذاك اليوم تُرَى فتحات واسعة وكبيرة في السماء، وهو منظر يثير الفزع والهلع في الذين لم يكونوا يؤمنون بخبر الساعة ويكذّبون بها. وهذه الفتحات الواسعة تظهر للعيان كأنّها أبواب واسعة من ورائها فراغ شاسع، وهذا من اِنشقاق السماء واِنفطارها.

- وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا (20) :

ويوم تقوم الساعة تُبَدَّلُ خصائص الأرض بحدوث الزلزلة العظيمة التي تجعل الجبال الرّواسي تفقد خاصيّة الصلابة فتتحوّل إلى أكداس من تراب متناثر. يتخيّل الذي يراها يومئذ جبالا قائمة وما هي كذلك، وإنّما يتهيّأ له لأنّها في واقع الأمر قد تحوّلت إلى أكداس من تراب كالصوف المنفوش.

- إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا (21) :

وهذه إلى الآية 30 فيما ينتظر الطغاة من العذاب. حين تقوم الساعة وحين يُعرض الطاغون على الحساب فإنّ جهنّم ستكون مأواهم. ولقد كانت جهنّم في اِنتظارهم، وكانت ترقب مجيئهم. قال تعالى (وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا)(الفرقان الآيتين 11-12).

- لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا (22) :

ولقد أُعدّت جهنّم لتكون مأوى للطاغين، وهم الذين تجاوزوا حدّهم في الكفر بالدّين وفي التكذيب برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن، وبالبعث يوم الدين، وبالحساب، وكانوا يأتون الفواحش والمعاصي، ويهزؤون بالوعيد. لذا فإنّهم عند عودتهم لربّهم سيجدون جهنّم في اِنتظارهم.

- لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا (23) :

وستطول إقامتهم فيها زمنا طويلا، ودهورا، لا يخرجون منها.

- لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا (24) :

ولا ينعمون فيها ببرودة تخفّف عنهم بعضا من حرّ الحريق وحرّ اللّهيب، ولا يجدون فيها شرابا مستساغا يرطّبون به حلوقهم من الحميم، أو ليطفئوا به ظمأهم، أو لينتعشوا به من الحرّ.

- **إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) :**

ولن يجد هؤلاء الطغاة من الشراب سوى (الحميم) وهو الماء المغلّى الحارق للحلق والأمعاء، و(الغساق) وهو صديد القيح الخارج من جلود المحرقين بالنّار.

- **جَزَآءً وِفَاقًا (26) :**

ولقد عوقبوا بهذه الشدائد لتتوافق مع كفرهم وعصيانهم وهزئهم بالوعيد، ولتتوافق مع غفلتهم عن الخشية من الله تعالى، ومع مشاقّتهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

- **إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) :**

إنّهم لم يكونوا يصدّقون بالبعث وبالحساب وبالوعيد. كانوا يظنّون أنّ حياتهم تنتهي بمماتهم، وتستحيل عودتهم للحياة بعد أن تنخر عظامهم تحت التراب. قال تعالى (إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ)(الدخان الآية 35). وقال عزّ وجلّ في ما يزعمون من وهْمِهم الباطل (وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)(الجاثية الآية 24).

- **وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا (28) :**

ولقد كذّبوا بالتنزيل، وكذّبوا كذلك بدلائل الله الكونية في الخلق المرئية في محيطهم وفي أنفسهم في خلقهم، وكذّبوا بالدلائل العقلية، ولم يأتوا بحججهم عمّا يدّعون من الأباطيل، وأصرّوا على التّكذيب بكلّ ما آتاهم من حجج ودلائل ليعرفوا بها الحقّ، وليكشفوا بها ضلالتهم وأباطيلهم.

- **وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا (29) :**

وإنّ كلّ معاصيهم، وكلّ ما كانوا يقولون من هزء بالوعيد، ومن تكذيب بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وبالقرآن، وبدلائل الله عزّ وجلّ، وإنّ كلّ آثامهم محصى عليهم : كلّ صغيرة وكلّ كبيرة في سجلاّت أعمالهم دون تفريط، وسيفاجؤون يوم الحساب بالضبط الدقيق لكلّ ما صدر عنهم من عمل أو قول. قال تعالى (وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)(الكهف الآية 49).

- **فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30) :**

جاء في تفسير القرطبي (ج19 ص180 ط مصر 1952): "ليس في القرآن على أهل النّار أشدّ من هذه الآية، كلّما اِستغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشدّ منه". ومعنى الآية: تحمّلوا هذا العذاب أو اِستغيثوا منه فلن تغاثوا فليس لكم إلاّ لمزيد منه. قال تعالى (إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ



خَٰلِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ)(الزخرف الآيات 74-78).

- **إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) :**

هذه الآية مع الآيات الخمس التي تليها في وعد المتقين بالفوز يوم الدين بالنّعيم الدائم عطاء من عند الله الكريم. وقد جاءت هذه الآيات لمقابلة آيات وعيد الطاغين على عادة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد.

ومعنى الآية: ويوم الدين يفوز المتقون، وهم المؤمنون الذين كانوا يخشون عذاب ربّهم، فكانوا طائعين لأمره، منتهين عن نواهيه، ولا يعصونه فيما أمر، وكانوا يصدّقون بيوم الدين ويطمعون في الفوز بمرضاته وبما عنده من النّعيم والتكريم. هؤلاء يفوزون بالأمان من العذاب يومئذ، ويفوزون بمرضاة ربّهم، وبالإيواء في بساتين الضيافة والتكريم.

- **حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبًا (32) :**

فيجدون في مفازهم مآوِيَ في بساتين ذات أشجار مثمرة فيها من كلّ نوع من الثّمر، وفيها أشجار الكروم ممّا يؤكل ويعصر.

- **وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابًا (33) :**

ويجدون في منازل ضيافتهم الجواري الحسان، نداات لهم في مثل سنّهم ليأنسوا بهنّ، وهم جميلات في سنّ الشباب وذوات نواهد بارزة.

- **وَكَأۡسًا دِهَاقًا (34) :**

ويطاف عليهم في نُزُلهم بكؤوس الخمرة (دِهَاقًا) ممتلئة، لذّة للشاربين.

- **لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا وَلَا كِذَّٰبًا (35) :**

لا يسمعون في مجالسهم وعند شرابهم لكؤوسهم من الخمر هذيانا وسقطا من القول، ولا الكذب والافتراء لأنّ الخمرة في الآخرة لا تُسكر، ولا تذهب بالعقل، ولا تجعل شاربها يهذي أو يفقد توازنه.

- **جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا (36) :**

وإنّ ما ينعمون به من هذا الذي ذُكرَ إنّما هو ممّا جازاهم الله تعالى به إحسانا وتفضلا وتكريما من لدنه سبحانه وتعالى. وقد أثابهم بهذا وهو أكثر ممّا يستحقّون عن الصالح من إيمانهم وأعمالهم التي حوسبوا عليها. قد جازاهم الله بهذا برحمة منه تعالى ومن جوده ومن كرمه وإحسانه وفضله.

- **رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا (37) :**

هذه الآية إلى آخر السورة في التّأكيد على أنّ أمر السّاعة حدث واقع وأنّ الحساب للجزاء أو للعقاب أمر ثابت، وبهذا تتمّ الإجابة عمّا كان يسأل عنه النّاس الذي جاء في أوّل السورة، وبهذا يحتكم الربط بين أولها وآخرها. ومعنى الآية: إنّ الله الذي تدعون لعبادته وحده ولطاعته وللعمل بشرعه هو المالك والسيّد للسماوات وما فيها، وللأرض وما فيها من جميع الخلائق بما في ذلك جميع البشر، وهو القائم عليهنّ والمدبّر لأمرهنّ، وكلّ ما فيهنّ تحت قدرته وتصرّفه سبحانه. واِسمه الرّحمان، برحمته خلق جميع الخلق وأحسن خلق كلّ شيء ودبّر له أمر معاشه ووجوده. وإنّ من جلاله تعالى أنّ الألسن تنعقد عند حضرته يوم الحساب خشية ومهابة، ولا يجرؤ أحد من خلقه أن يتكلّم بشيء أو أن يراجعه في حُكْمٍ حَكَمَ به، أو أن يشفع لأحد. قال تعالى (وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا)(طه الآية 108).

- **يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا (38) :**

هذه الآية من الغيبيات، والأقوال في تعيين المقصود بـ (ٱلرُّوحُ) متعدّدة، قيل : المقصود به جبريل عليه السلام، وقيل هي روح كلّ آدمي، وقيل هو مخلوق عظيم الشأن قائم على الملائكة، وهناك أقوال أخرى، ولذا فإنّا نقول وحين يوضع الميزان يحضر الرّوح ويقوم على تنظيم جلسات قضاء أحكم الحاكمين في عباده، ويبدأ الحضور بحضور الملائكة صفّا، ويُحشرُ النّاس ويُقدّمون للحساب في صمت رهيب في حضرة الله عزّ وجلّ فلا أحد يتكلّم إلاّ من أذن له الرّحمان بالكلام للشفاعة، وكان كلامه صوابا، والكلام الصواب لا يأتي إلاّ ممن كان مؤمنا وتقيا وصالحا وكان مقرّبا عند الله عزّ وجلّ، ثم قال حقّا وعدلا.

- **ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا (39) :**

ذلك اليوم: يوم البعث للحساب حين تقوم الساعة أمر واقع حقّا وصدقا. (فَمَن شَآءَ) فمن أراد لنفسه النّجاة من عذاب يومئذ، وأحبّ أن ينعم بما عند ربّه من إحسان وتكريم، فعليه أن يرجع إلى ربّه بالتوبة وبالاستغفار وبصدق الإيمان، وبالعمل بالطاعات والإخلاص فيها، والانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وليرفع ذكر ربّه بالليل والنّهار. والآية واضحة في تحميل الإنسان مسؤوليته في اِختيار عاقبته.

- **إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا (40) :**

إنّ الله تعالى قد حذّركم – أيها النّاس – من عذاب ترونه بعيدا ويراه قريبا – يوم يقوم الحساب، يوم ينظر المرء في سجلّ عمله، ويقيّم بنفسه عمله قبل أن يتقدّم للحساب، فاحذروا من النّدم والحسرة على التّفريط في الإيمان وفي طاعة الرّحمان وعلى الغفلة من الاستقامة على دينه وشرعه حتى يتمنّى كلّ كافر لو لم يخلق، ولو لم يوجد في حياته الدنيوية من شدّة ندمه على ما

فرط منه، وعلى غفلته وعلى كفره ومكابرته، ومن شدّة خوفه ممّا ينتظره من العذاب. قال تعالى (وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ)(الزمر الآيتان 55-56). وخير ما يوعظ به الإنسان الغافل قوله تعالى (فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ)(الذاريات الآية 50).

وبهذه الآية في موعظة الإنسان تختم السورة.

آياتها	ســــورة النّازعـــــات ـــــ مكيـة ـــــ	رقمها
46		79

سمّيت هذه السورة بسورة "النّازعات" لافتتاحها بهذا اللفظ. وهي سورة مكية. نزلت بعد سورة "النّبأ". ولئن كان محور التساؤل في سورة "النّبأ" عن صدق خبر وجود يوم القيامة، فإنّ محور التّساؤل في هذه السورة عن: "الساعة" وموعدها. وقد أُفتُتحت بالحديث عن الملائكة وخصائصهم، وإنّ الإيمان بالملائكة من أصول العقيدة السليمة. وقد جاء في هذه السورة عرض لبعض أشراط الساعة، والحضّ على الاعتبار بسوء عاقبة فرعون الطاغية للنّجاة من الهلاك. وجاء فيها التّذكير ببعض من مظاهر القدرة الربانية للإيمان به ربّا واحدا. وأُختُتِمَت بالإجابة عن موعد قيام الساعة الذي كان موضوع السورة.

- وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقًا (1) :

هذه الآية مع الآيات الأربع الموالية في القسم بصفات لمخلوقات عظيمة مسخّرة لتنفيذ أمر الله تعالى بدقّة وبقوّة قاهرة، وهي مخلوقات ذات اِختصاصات متعدّدة. وما هذه الصفات إلاّ للملائكة الذين يفعلون ما يؤمرون، ولا يعصون الله تعالى فيما يأمرهم به. والملائكة مخلوقات من نور، نؤمن بهم ونصدّق بوجودهم ولا نراهم، وعندهم اِختصاصات عديدة لا تحصى منهم حملة العرش، ومنهم رسل الله إلى الأنبياء والمرسلين، ومنهم الحفظة، ومنهم الربانيّة، ومنهم المرسلون بأمر الله تعالى بالرّحمة أو بالعذاب للقوم الكافرين ومنهم من يكلّف بقبض الروح...

والقَسم في هذه الآية بالإخبار بوجود ملائكة يُوكَّلُ إليهم مهامُّ تتطلّب القوّة والشدّة لينتزعوا ما أُمروا بانتزاعه من أصله، وإن كان هذا الأصل عميقا ودفينا في الغريق. هؤلاء لا يعسُر عليهم اِقتلاع الشيء من جذوره سواء أكان في باطن الأرض وجوفها، أو كان في أعماق البحر، أو كان في قرار السماء، أو في عمق كوكب وإن كان ملتهبا. هؤلاء لا يعسر عليهم لقوّتهم وشدّتهم تنفيذ أمر الله عزّ وجلّ.

- وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطًا (2) :

وقَسما بالملائكة الذين يتقبّلون أمر الله عزّ وجلّ فيسارعون إلى تنفيذه بهمّة ونشاط.

- وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحًا (3) :

وقَسما بالملائكة الّذين ينزلون من السماء بأمر الله مسرعين لتنفيذه عن عجل، وإنّ إسراعهم في النّزول في الفضاء الرّحب للسماء كالسَّبْحِ. والمفعول المطلق (سَبۡحٗا) يُفيد التّأكيد على السرعة في اِختراق السماء.

- فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا (4) :

في السابقات قيل أقوال مختلفة في تعيينها، ولم يستند أيّ قول إلى شاهد موثوق، ولذا فقد رأيتُ أنّ الآية في طائفة من الملائكة من كلّ صنف من أصناف الملائكة السابقة تتسابق سبقا سريعا في تلقّي أمر الله تعالى، وتتسابق في تنفيذ ما أُمِرُوا به، والله أعلم بما يكونون.

- فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا (5) :

روى عطاء عن ابن عبّاس "أنّها الملائكة التي وكل إليها تدبير أحوال الأرض في الرّياح والأمطار وغير ذلك"، وأضيف إلى هذا... فيما أمر الله تعالى به لأنّه تعالى هو المدبّر الحكيم وهو القيّوم وهو المتصرّف في أحوال العباد وفي كلّ ما يجري من ظواهر طبيعية في السماء والأرض كسَوْقِ السحب والرّياح.

- يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (6) :

هذه إلى الآية 14 في ما يصيب الإنسان من فزع حين تقوم الساعة، وما هي إلا لإثبات البعث للذين ينكرونه أو يستبعدون حصوله. وهي كلّها جوابٌ للقسم بأصناف الملائكة التي جرى ذكرها في الآيات السابقة. وهذه الآية في علامة من علامات قيامها. يومئذ تضطرب السماء والأرض: تنشقّ السماء، وتطمس النّجوم، وتتزلزل الأرض إيذانا بموت جميع الخلائق، وبنهاية الحياة الدنيوية.

- تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (7) :

وتلحق هذه الرّجفة العظيمة نفخةُ البعث ليقوم النّاس للحساب.

- قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ (8) :

وحين يقوم النّاس من قبورهم بعد تلك النّفخة يقومون فزعين، قلوبهم مضطربة خائفة حين يرون الأرض غير الأرض، ويرون الحشر والحشد العظيم للخلق جميعهم أوّلهم وآخرهم، ويعلمون حينذاك أنّ وعد الله حقّ. وهذه حال خاصّة بالذين كانوا يكذّبون بالبعث وبالحشر للحساب. وأمّا الذين آمنوا فيقومون مطمئنّين قال تعالى (يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي) (الفجر الآيات 27-30).

- أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ (9) :

ويومئذ ترى أبصار الكافرين المكذّبين بيوم الدّين ذليلة ومنكسرة من شدّة الذهول والحيرة والخوف.



- **يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ (10) :**

هذه كقوله تعالى (وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)(مريم الآية 66). وقد كان هؤلاء الذين قاموا وقلوبهم واجفة وأبصارهم خاشعة يقولون في أنفسهم أو لمحاوريهم مشكّكين في بعثهم ومستبعدينه: أنرجع للحياة بعد مماتنا لصورتنا التي كنّا عليها. و(ٱلْحَافِرَةِ) من قولهم رجع فلان في حافرته إذا عاد إلى حيث كان، ورجع إلى المكان الذي كان فيه، أو إلى الوضع الذي كان عليه.

- **أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً (11) :**

كانوا يستبعدون حصول البعث، وإعادة الإحياء بعد أن تحوّلت عظامهم إلى بِلَى وبعد أن تفتّتَتْ، وهذا كقوله تعالى (أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ)(ق الآية 3).

- **قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) :**

وحين قاموا للبعث، ورأوه أمرا حاصلا وواقعا، وتبيّن لهم أنّهم قد أعيدوا للحياة للمحاسبة وعلموا أنّ ما وُعدوا به من عذاب لتكذيبهم بما أُنذروا به، قالوا إنّه الهلاك والخسران في اِنتظارنا، وليس لنا منه مَفَرّ، وإنّها عودة للحياة ثانية للهلاك والعذاب.

- **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ (13) :**

ما كان أسهل عودتهم للحياة بعد مماتهم، إنّما هي نفخة واحدة أو صيحة واحدة...

- **فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ (14) :**

فإذا هم قيام ينظرون على وجه أرض المحشر. وكان العرب يسمّون بساط الأرض الذي يقضون ليلهم عليها ساهرين: السّاهرة. وتسمية أرض المحشر بالسّاهرة يشير إلى طول ليلهم الحالك في ذلك الموقف وإلى طول إنتظارهم في عذاب نفسي من الهلع والخوف والشعور بالنّدم والحسرة.

- **هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (15) :**

وهذه الآية إلى الآية 26 في عاقبة الطاغية فرعون الذي كذّب بموسى عليه السلام وبآيات ربّه، والّذي ادّعى الربوبية فأهلكه الله بذنبه. وجاء هذا العرض ليعتبر بسوء عاقبة التّكذيب كفّارُ أهل قريش الذين كذّبوا برسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم وكذّبوا بالوعيد، ثمّ أشركوا بالله تعالى وكفروا به إلاها واحدا. ومعنى الآية: هل جاءك خبر موسى عليه السلام المبعوث برسالة ربّه إلى فرعون. والاستفهام في هذه الآية للتّشويق لمعرفة ما كان من خبره.

- **إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (16) :**

أُذكر إذ ناداه ربّه بوَادٍ في جانب جبل الطور المقدّس، اِكتسب صفة القداسة لأنّ الله تعالى شرّفه بدعوة رسوله موسى إليه، وكلّمه فيه تكليما، وهو جبل واقع في برية سيناء في جانبه الغربي.

- ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ (17) :

وكلّفه تعالى وقتئذ بأن يحمل رسالته إلى ملك مصر القبطي (فرعون) الذي تجاوز حدّه في الكفر وفي الظلم وفي الكبرياء والجور.

- ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ (18) :

وأمر تعالى رسوله موسى عليه السلام بأن يرغّب فرعون في أن يطهّر نفسه من الذّنب والإثم بكلّ أدب واِحترام لقدره ومنزلته في قومه، فإنّه صاحب السلطان فيهم، وحتى لا يُسْتَفَزَّ.

- ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ (19) :

وليرغِّبه بأدب في الاهتداء إلى سبيل الله تعالى، وللرشاد حتّى يتّقي عذاب ربّه الذي خلقه، وهو الله الحقّ.

- ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ (20) :

وأظهر له موسى عليه السلام آية صدقه التي أيّده الله تعالى بها، وكانت آية صدقه في عصاه التي كانت معه، وفي يده التي إذا أدخلها في جيب صدره خرجت بيضاء من غير سوء، وهما معجزتان ظاهرتان للعيان، كبيرتان لأنّهما خارقتان للقدرة البشرية.

- ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ (21) :

فكذّب فرعون برسالة موسى عليه السلام، وكذّب بآية ربّه، وعصى أمر الله تعالى، وأبى الاهتداء إليه.

- ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾ (22) :

وجرَتْ بعد ذلك أحداث كثيرة ولم تُسْرَدْ ها هنا، ولكن يعبّر عنها حرف العطف(ثُمَّ) الذي يدلّ على التّراخي في الزّمان، وممّا يُدْرِكُ فهمُه أنّ موسى عليه السلام لمّا رأى ما عليه فرعون من تكذيب به وبرسالته، ولمّا رأى منه إعراضا عن الإيمان بربّه اِنطلق بعد ذلك في دعوة النّاس للاهتداء لربّهم الحقّ لعبادته وحده ولطاعته، وإذا بفرعون يأمر بتعقّب موسى ومن يتبعه لصدّهم عن سبيل الله تعالى.

- ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ (23) :

ثمّ قرّر فرعون أن يجمع النّاس وأعوانه، ودعا إليه الكهنة والسحرة، فاجتمع له الحشد في يوم مشهود، ودعا موسى وأخاه هارون عليهما السلام، وقام في الجمع خطيبا.

- ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ (24) :

ومن شدّة كبريائه، واستعظامه لنفسه قال فيهم بأنّه هو سيّدهم الأعظم، السيّد المطاع، ولا طاعة لهم لسواه، وهدّد كلّ من يتّخذ لنفسه ربّا أعلى منه بالعقاب. وليس من ذنب أعظم ومن إثم أكبر من أن يدّعي إنسان الربوبيّة لنفسه، وليس من استكبار أعظم من هذا الاستكبار.



- فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَٓخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ (25) :

ولم يمهله الله تعالى بعد خطابه هذا فعجّل بهلاكه. أهلكه غرقا مع جنده، وجعل الله تعالى هلاكهم عبرة للنّاس وآية ليعلموا أنّه ليس لهم من ربّ إلاّ الله الواحد القهّار. وإنّ لفرعون وجنده وكهنته عذابا أشدّ وأبقى في آخرتهم. قال تعالى (وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ)(غافر الآيتان 45-46).

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ (26) :

وفي هذه العاقبة السيّئة آية وعبرة لكلّ طاغية متجبّر ليعرف قدرة ربّه عليه عساه يخاف عذاب ربّه فيرتدع، ويثوب لرشده، فيتوب، وينيبُ إلى الله عزّ وجلّ.

- ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (27) :

هذه إلى الآية 33 في التنبيه لبعضٍ من دلائل القدرة الربانية في الخلق، وبعضٍ من دلائل إنعامه تمهيدا لإثبات القدرة على البعث والحساب... ومعنى الآية: أُنظروا – أيّها المشكّكون في القدرة الربانية على البعث – في خلقكم وفي خلق السماء، أيّهما أعظم خلقا؟ ثمّ أُنظروا أيُعجز خالقُ السماوات بعظمتها الذي بناها بغير عمد أن يعيدكم للحياة بعد مماتكم. قال تعالى (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)(غافر الآية 57).

- رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (28) :

أُنظروا كيف رفعها وجعلها لكم سقفا محفوظا، سقفا عاليا، وأحسن بناءها فلا ترون فيها شقوقا وتصدّعا، بل ترونها جميلة مزيّنة بالنّجوم والكواكب.

- وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (29) :

وجعل ليلها مظلما ظلاما دامسا لتستريحوا من عمل النّهار، ثمّ أنار نهاركم كلّما أشرق ضحى الشمس بعد طلوعها بزمن قصير لتبتغوا الرّزق ولتسعوا في الأرض.

- وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (30) :

وإنّه تعالى قد أبدع خلق الأرض فجعلها منبسطة، وجعل شكلها (كالأدحية) وهي بيْضة النّعام. وهذه من الآيات الإعجازية، فقد أبلغ تعالى في تلك القرون الغابرة عند نزول القرآن الكريم بأنّ الأرض بيضويّة الشّكل، ولم يدرك النّاس هذه الحقيقة إلاّ حين تقدّم الكشف في العلم الكوني في القرن الماضي.

- أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (31) :

وإعلموا أنّ الله سبحانه هو الذي أخرج لكم من الأرض ينابيع وعيونا لتشربوا منها، وأجرى لكم الأنهار لتسقوا منها أنعامكم، ولترووا بها مزارعكم وبساتينكم. وهو تعالى الذي أنبت لكم الكلأ

والمراعي ممّا تأكلون وتأكل أنعامكم لتنتفعوا بألبانها ولطعامكم وركوبكم، فهل لكم من خالق لهذه الآلاء غيره؟ وهل يعجز الذي يخرج لكم من حبّ يابس مطمور في الأرض سنابل فوق سطح الأرض لتأكلوها أن يعيد الأجساد من باطن الأرض إلى الحياة على سطحها؟

- وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا (32) :

ومن حكمة التقدير وحسن التدبير أن جعل لكم الله عزّ وجلّ الجبال التي ترونها كالأوتاد الرّواسي لتشدّ الأرض لتمنع مَيْدَهَا، واِختلال توازنها لتستقرّوا عليها، وتطمئنّوا عليها في قراكم وفي بيوتكم وفي سعيكم وترحالكم ليطيب عيشكم عليها.

- مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (33) :

إنّ الله تعالى أنعم عليكم بهذه النّعم لتنتفعوا بها لحياتكم، ولتكسبوا ثروة من أنعامكم ممّا تأكلون أو تركبون أو تلبسون أو تفرشون.

فآمنوا بالله ربّا واحدا، لا إلاه لكم سواه، وأطيعوه، وآمنوا ببعثكم، وأعدّوا ليوم الحساب إيمانا صادقا وأعمالا صالحة لتنعموا بتكريم مخلّد ورزق كريم.

- فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ (34) :

هذه الآية إلى الآية 41 في تذكير الإنسان بأنّه محاسب على عمله في دنياه حتما بعد مماته، فإمّا أن يجازى عنه بإيوائه في النّعيم، وإمّا أن يؤاخذ على سوء فعله فيكون مأواه في الجحيم، وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى، والإنسان مسؤول عن اِختياره لعاقبته بحسب نَمَط عمله، وهذا هو موضوع الاعتبار والتّذكير في هذه الآيات. ومعنى هذه الآية: فإذا حدثت (ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ) وهي الداهية العظمى لا تُحتمل، وهذا للفظ من أسماء يوم القيامة الذي يُبعث فيه النّاس لربّ العالمين للحساب.

- يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (35) :

يومئذ ترجع بالإنسان ذاكرته ليتذكّر كلّ ما فعله في دنياه من خير أو شرّ، وما يتناساه يذكّره به سجلّه الذي يُؤْتاه بشماله يومئذ إذا كان من أهل الشّرور.

- وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (36) :

يومئذ تتراءى جهنّم التي تفور لأصحابها الذين سيأوُون إليها، ستتراءى له حيث اِلتفت بنظره واِستدار.

- فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (37) :

فأمّا من تجاوز حدّه في الكفر والتّكذيب بما بُلّغَ به من الحساب على العمل عند البعث، وتجاوز حدّه في الهزء بالوعيد، وفي إتيان المعاصي...



- **وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا (38) :**

وفضّل زينة الحياة الدنيا وملاذّها ومُتَعها غافلا عن العمل لآخرته...

- **فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ (39) :**

هذا الإنسان مصيره إلى الجحيم ليستقرّ فيه، وليس له من مأوى غيره.

- **وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ (40) :**

وأمّا من خَشِيَ عظمة ربّه وجلاله، وخشي وَقْفَتَه بين يديه للحساب في ذاك اليوم، فعمل في دنياه بطاعة ربّه فيما أمر به، وتجنّب ما نهى عنه لينجو من المؤاخذة عن ما أساء من عمل اِستحياءً من الله عزّ وجلّ وكان يُراقب ربّه في نفسه فقاوم كلّ رغباتها التي فيها معصية خشية أن يغضب ربّه...

- **فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ (41) :**

هذا المؤمن الذي كان يخشى أن يعصي ربّه خوفا منه ورغبة في أن ينال رضوانه، فعمل صالحا وقاوم هوى نفسه وشهواته رغبة ورهبة مأواه في الجنّة، يقيم فيها أبدا، لا يرى فيها عذابا ولا شقاءً.

- **يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا (42) :**

هذه الآية إلى آخر السورة في موضوع سؤال جميع الخلق عن الساعة متى تكون وتقع؟ وكثيرا ما كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُسأل عنها وعن علاماتها أو أشراطها. وقد أخرج البزّار والنّسائي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: "مازال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسأل عن الساعة، ويكثر منها حتى نزلت (فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ). فكفّ عن ذكرها، ولم يسأل عنها".

فهذه الآيات في إثارة تساؤل النّاس عن قيام الساعة، وفيها الردّ عن هذا السؤال، وهو ردّ لِصَرْفِ جميع الخلق: مؤمنين وغير مؤمنين، عن السؤال عنها ليعلموا أنّها في علم الغيب الذي اِستأثر به الله تعالى وحده. ومعنى الآية: (يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ)أي ما بال النّاس يسألونك – يا نبيّ الله – عن موعد قيام الساعة، ومتى يكون حلولها؟ وخاصّة أولئك الذين يسألون عنها وهم يستبعدون حصولها.

- **فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ (43) :**

أي: يا نبيّ الله من أين لك العلم بها حتّى تُسأل عنها، إنّما علمها عند الله وحده. وهذه كقوله تعالى (يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)(الأحزاب الآية 63).



- إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (44) :

لا يعلم موعدها إلاّ الله سبحانه. منتهى علم وقت قيامها عند الله عزّ وجلّ.

- إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا (45) :

إنّما عليك – يا نبيّ الله – الإخبار عنها ليحسب لها حسابها الذي يخاف حسابه عند ربّه، والذي يرهب لقاء ربّه يوم الحساب وهو آثم، أو يرهب شدائدها ويحبّ أن يكون آمنا يومئذ، وليس من المهمّ الإعلام عن زمن حدوثها.

والمستفاد من صرف النّاس عن السؤال عن زمن قيام السّاعة إلى الاهتمام بالإنذار منها، ليهتمّوا بالإعداد لها بحسن الإيمان وحسن العمل. روي أنّ رجلا سأل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الساعة فقال له الرّسول صلّى الله عليه وسلّم "وماذا أعددت لها".

- كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا (46) :

أي إنّ هؤلاء الذين يسألون عن الساعة اِستهزاءً، من شكّهم في التنزيل – أو لتوهّمهم باستحالة وقوعها، سيعلمون حين تقوم، وحين يحضرون للحساب أنّ زمن حدوثها لم يكن بعيدا عنهم. وسيشعرون أنّ الزمن الذي مضى عليهم بين مماتهم إلى قيامهم للحساب كان زمنا قصيرا جدّا كأنّه بين عشية يوم إلى زمن ضحى اليوم الموالي، كأنّه بين زوال الشمس وطلوعها. والمعنى: ما أقرب الزّمن بين الممات والبعث. الإنسان عند موته ينتقل إلى العدم، وفي العدم ينعدم الشعور بالزّمن وبكلّ شيء، لا يعاوده الشعور به إلاّ إذا أحْيِيَ، يكون الزّمن بين تحوّله من العدم إلى الحياة كالزّمن بين الرّقاد والعودة لليقظة.

نسأل الله تعالى السلامة وحسن العاقبة.



رقمها	ســـورة عبـــــس ـــــ مكيــة ـــــ	آياتها
80		42

سمّيت هذه السورة بسورة "عبس" لافتتاحها بهذا اللفظ. وهي سورة مكية. وقد جاءت بالدعوة لتأطير المؤمن ليذّكر، ويحسّن إيمانه بربّه، وليعرف فضل ربّه على الخلق. وجاء فيها التّذكير بفضل القرآن وأهميته في الموعظة تحذيرا من سوء العاقبة يوم الدّين.

وجاء في أسباب نزول هذه السورة على ما أخرجه التّرمذي والحاكم وغيرهما: "جاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جماعةٌ من أشراف قريش وصناديدهم، وهم: أُبَي بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو جهل، وغيرهم... فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعْرِضُ عليهم الإيمان، ويرغّبهم فيه، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحرص على إيمانهم، ويطمع فيه، لأنّ بإيمانهم يؤمن خلقٌ كثير، فبينما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مشغول بهؤلاء إذ بعبد الله بن أم مكتوم يُقْبِلُ، وهو رجل أعمى، وهو ممن أسلم قديما، فجعل يَسْتَقْرِئُ النَّبِيّ صلّى الله عليه وسلّم قائلا له: أَقْرِئْنِي كذا وكذا، أرشدني يا رسول الله، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتمنَّى أن يَتَرَيَّثَ عبدُ الله بعض الوقت ليتمكّن الرّسول من القيام بمُهِمَّتِهِ، فأعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقطّب وجهه، وكره كلامه وقتها، وأقبل على الآخرين، فأنزل الله تعالى هذه الآيات".

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك يكرمه، ويقضي له حاجته، وإذا رآه قال له: مَرْحَبًا بمن عاتبني فيه ربّي، ولقد خلّفه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في إحدى غزواته خليفة له على المدينة المنوّرة.

- عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (1) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (2) :

الآيتان إلى الآية 10 في دعوة الوعّاظ والعلماء للاهتمام بالمؤمنين الراغبين في الاسترشاد عن دينهم ليرشدوهم لما ينفعهم في دينهم، وهذا خير لهم من محاولة إستمالة الذين يستكبرون عن طاعة الله تعالى وعبادته، فقد لا تُجدي معهم محاولاتهم في إقناعهم للاستقامة على دين الله عزّ وجلّ.

ومعنى الآيتين : قطّب جبينه وأعرض عن مخاطبة الأعمى: عبد الله بن أم مكتوم.

- وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (3) :

ما كان ينبغي أن تعرض عن السماع له فلعلّه كان يريد بسؤاله الذي جاءك من أجله أن يتخلّص من حيرته ومن وساوسه ليتطهّر منها، فتصفو نفسه، ويطمئنّ قلبه بما آمن به، وبذلك



يسترشد لما ينتفع به لدينه ودنياه. والمستفاد من هذه الآيات الثلاث أنّ تأطير المؤمن لتثبيت إيمانه ولإرشاده خير من الانصراف عنه لمحاولة إقناع طائفة من الناس يعاندون ويجادلون في دين الله بغير علم ولا هدى.

- أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ (4) :

وما يدريك أنّه لو سمع منك الإجابة عن سؤاله الذي حيّره، وأثار فيه الوساوس لاتَّعَظَ واِعتبر واِسترشد فانتفع بموعظتك وإرشادك وهديك وعمل بها فاستفاد وأفاد.

- أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (5) :

وأمّا من اِسكتبر عن عبادة ربّه وطاعته، ورأى نفسه مستغنيا عن نصحك لترشده إلى الحقّ وإلى ما يرفع عنه ضلالته وجهله.

- فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (6) :

فأنت تتعرّض له تسعى جاهدا لإقناعه بما لا يحبّ أن يقتنع به. قال تعالى (كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ)(العلق الآيتين 6-7).

- وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (7) :

وليس عليك شيء من التّقصير في إبلاغ النّاس بما أنزل عليك، ولا شيء عليك إذا تولّى سادة القوم وأشرافهم عنك فلم يهتدوا بما ترشدهم إليه من الهُدى ليطهّروا قلوبهم من الضلالات، فلا تهتمّ بأمرهم، إن عليك إلاّ البلاغ. وهذا من رفق الله تعالى برسوله صلّى الله عليه وسلّم حتّى لا يلومنّ نفسه عن تقصير في هدي قومه للدّين الحقّ. قال تعالى (فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا)(الكهف الآية 6).

- وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (8) :

وأمّا من جاءك مسرعا يرغب في تعلّم دينه، وواجباته نحو ربّه.

- وَهُوَ يَخۡشَىٰ (9) :

وهو يخاف ربّه، ويخاف معصيته، وتجاوز حدود شرعه.

- فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (10) :

فأنت تتشاغل عنه بالحديث مع غيره ممن لا يخشى ربّه، ولا يقيم على دينه.

- كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ (11) :

هذه مع الآيات الخمس الموالية في فضل القرآن وأهميته. ومعنى الآية (كَلَّآ) أي لست مُلاما على ما جرى، إنّ هذه موعظة وتذكير للوعّاظ وللعلماء ليفيدوا بمواعظهم من تهيّأت نفسُه لقبولها.



والمستفاد من هذه الآيات ومن قوله تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ)(الأنعام الآية 68) أنّ على الواعظ عموما، وعلى الذي آتاه الله تعالى بفضل من لدنه شيئا من الفهم لآي القرآن الكريم على قدر ما آتاه الله تعالى من العلم أن لا يقدّموا الدروس في التفسير إلاّ للّذين عندهم رغبة في تدبّر كلام الله تعالى والذين يعرفون لحلقات الدرس حقّها من الإنصات والتّقدير حبّا في القرآن الكريم ورغبة في الانتفاع بمواعظه وحِكَمِه، وأمّا في المجالس التي يحضرها الملحدون أو المشكّكون في الدّين وعقائده، والمجادلون في الدين الجدال العقيم بغير علم ولا هدى فعلى الواعظ وخاصّة المختصّ في علم التفسير أن ينأى بنفسه عن هذه المجالس التي لا يرجى منها نفعٌ أو تذكّر أو اِهتداء. قال تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ)(النساء الآية 140).

- **فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (12) :**

فمن شاء أن يتّعظ ويتبصّر وأن يميّز بين الحقّ والباطل فهذا القرآن تذكرة فلْيتّعظ به...

- **فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (13) :**

لقد كان هذا القرآن قبل إنزاله إليكم مكتوبا في صحف عند الله عزّ وجلّ في اللّوح المحفوظ، وهي صحف مكرّمة عند الله تعالى لما فيها من إرشاد للدّين الحقّ، ولشرعه، ولأحكامه، ولحِكَمِه ومواعظه، ولما فيها من إخبارٍ بما هو من علم الغيب، وبما هو وعدٌ ووعيد عند قضائه سبحانه يوم الوقوف بين يدي الله: أحكم الحاكمين للميزان لئلاّ يكون للنّاس على الله الحكمِ العدلِ حجّةٌ بأنّهم كانوا لا يعلمون، فالقرآن بوعوده ضمان بالأمان للمؤمنين وبالإقامة الدائمة في جنّات النّعيم والتكريم عند ربّهم الجواد الكريم ذي الفضل العظيم، وهو بما جاء فيه من وعيد للطغاة الظالمين أنفسهم بالكفر والتّكذيب حجّة عليهم، حتّى إذا قضي عليهم بالعذاب لم تنفعهم معذرتهم، ولا هم يُستعتبون.

- **مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (14) :**

وهي صحف رفيعة القدر والمنزلة عند الله عزّ وجلّ. (مُّطَهَّرَة) مصانة عن التّحريف، وعن أن تكون عند كافر.

- **بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) :**

(السفرة) هم الملائكة الذين ينسخونها من اللوح المحفوظ فهم الكتبة. أو هم الملائكة الذين جعلهم الله تعالى سفراء بينه تعالى وبين رسله، وعموما فإنّ القرآن الكريم قد نزل من صحف كانت بين أيدي الملائكة الكتبة والسفراء الذين هم بين الرّحمان سبحانه ورسله.

- كِرَامِۭ بَرَرَةٖ (16) :

والملائكة السفرة (كِرَامِۭ) : أي خِيَارٌ. والخيارُ من النّاس هم الذين يترفعون عن المعاصي، وينفعون النّاس بأعمالهم. (بَرَرَةٖ): مطيعون لله تعالى وصادقون لله عزّ وجلّ في أعمالهم. قد جاء في الكتب الصحاح عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "الذي يقرأ القرآن، وهو ماهر به مع السّفرة الكرام البررة". ترغيبا في تعلّم القراءة الصحيحة المتقنة للقرآن الكريم إجلالا لقدره ولمنزلته عند الله تعالى وعند ملائكته وعند رسله وصالح المؤمنين.

فما عساه يقول الذي يكذّب بالتّنزيل على عظيم شرفه ومنزلته، وعلى عظيم قدر الملائكة الكرام البررة القائمين على صونه وعلى تنزيله على رسل الله عليهم السلام؟ وما عساه يقول الكافر به والمشكّك في تنزيله بوحي من ربّ العالمين إذا سئلوا عن حججهم في الكفر به أو التشكيك في الوحي وفي التكذيب بالتنزيل؟ وماذا يمكن أن يكون القضاء فيهم يوم الحساب وقد جاءتهم هذه البيّنات فتولّوا عنها وأصمّوا آذانهم؟ ما يقال فيهم إلاّ ما جاء في هذه الآية الموالية.

- قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (17) :

الموتُ لهذا الكافر... ما أشدّ كفره بالله تعالى وبكلامه وبكتابه! والاستفهام للتعجّب.

- مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (18) :

هذه الآية إلى الآية 32 في تذكير الإنسان الكافر بربّه بفضائل ربّه تعالى في خلقه وفي الإنعام عليه لإطعامه، وفي تذكيره بقدرته تعالى عليه وتصرّفه فيه لحياته ومماته قصد تنبيهه لأن لا يؤمن بإلاه غير الله سبحانه، وليؤدّي لربّه حقّه من الشكر والطاعة والعبادة.

ومعنى الآية: فلينظر الإنسان الذي يكفر بربّه الخالق من أيّ شيء خلقه؟ أفيستكبر هذا الذي خُلق من ماء مهين عن شكر العظيم القدير الذي خلقه من شيء مهين! ما أعجب أمره! وما أشدّ غفلته!

- مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (19) :

خلقه من اِلتقاء ماء الرّجل ببويضة اِمرأة فتحوّل إلى نطفة مُخَلَّقَةٍ، ثمّ هيّأ له من أسباب تكاثر الخلايا في هذه النّطفة والتكوين والنّشأة حتّى قدّر له الله سبحانه أن يخلقه إنسانا على نحو ما شاءه له في جنسه: ذكرا أو أنثى، من مشيئته، ثمّ أخرجه من رحم أمّه خلقا سويا وهيّأ له أسباب الحياة حين نفخ فيه الرّوح، وقدّر له رزقه وعمره. أفينكر هذا الإنسان فضل ربّه عليه في خلقه؟!

- ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (20) :

ولمّا أنشأه ربّه في رحم أمّه وقدّر له الوجود والحياة سهّل له الخروج من ذاك الرّحم، ولو لم يقدّر الله تعالى له ذلك لهلكت الأمّ وهلك ما كان في رحمها معها. أفلا يشكر ربّه على سلامته وسلامة أمّه عند ولادتها له؟!

- ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (21) :

ثمّ إنّ الله تعالى هو الّذي قدّر زمن وجوده في دنياه، وقدّر مدّة حياته حتى إذا بلغ ذاك الأجل أماته وما كان يستطيع أن يُطيل أجل بقائه وحياته وما كان له أن يقدر على ردّ الموت عنه. ولمّا مات قدّر له الدفن في قبره إكراما له.

- ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (22) :

ثمّ بمشيئة الله تعالى وتقديره يُحيِيهِ بعد موته لمحاسبته على أعماله.

- كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (23) :

(كَلَّا) هذا اللفظ في هذه الآية يعني أنّ الإنسان الكافر لم يأتِ عليه حينٌ من الزّمن ليتدبّر في نفسه: كيف خُلق؟ وكيف نشأ؟ ولم يتدبّر في القضاء بالموت على جمع من حوله ليعرف بهذا التفكّر والتأمّل والتدبّر ربّه فيشكر له فضله وليعرف قدرته عليه. كلاّ... لم يتدبّر يوما فيما جرى له وفيما يجري من حوله في ولادة النّاس وفي حياتهم وفي آجالهم ومماتهم، فلم يرتفعْ حجابُ الغفلة عن عينيه وعن قلبه وتولّى عن ذكر ربّه، ثمّ مات ولم يقض ما أمره به ربّه من الإيمان والعبادة والطاعة، ولم يفعل طول حياته. لفظ (لَمَّا) في الآية يُفيد نفيَ الفعل طوال حياته (في ماضيه وحاضره وما بعدهما).

- فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (24) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (25) :

ولمّا كان الإنسان لا يعيش من غير طعام ومن غير شراب، أفلم يكن ينظر إلى طعامه: من أين جاءه؟ وبأيّ قدرة؟ وكيف جاءه، وكيف أطعمه؟ أو لم ينظر كذلك إلى شرابه؟ من أين جاءه الماء الذي شربه؟ لو نظر بعين بصيرة ما كفر. لو تدبّر خلقه، وتدبّر ممّا جاءه طعامه وشرابه لعرف خالقه، ولعرف فضل ربّه عليه يهيّئ له أسباب العيش والحياة، ولكنّ أكثر النّاس يجهلون، وأكثر النّاس لا يشكرون. لقد أطعمهم الله تعالى مما تنبت الأرض وممّا تنتج في باطنها ومما يخرج منها. وما أكثر أسرار باطن الأرض وما تمدّ به الإنسان من نِعَمٍ وخيرات وأرزاق، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون. ولقد سقاهم الله تعالى الماء من السماء وبما أجرى لهم من السحب المثقلة فصبّت لهم الماء صبّا وفيرا لشرابهم وسقي أنعامهم ولريّ أرضهم، وسقْيُ الماء من السماء هو من عطاء الله تعالى ومن إنعامه ومن رحمته بالنّاس. فهلاّ نظر الكافر في ما تخرجه له الأرض ضمن الخيرات، وهلاّ نظر فيما تسقيه السماء من ماء حتى لا يهلك عطشا وحتّى لا تجفّ أرضه وحتى لا يُصيبه القحط فيهلك ليعرف فضل ربّه عليه ليشكره.

- ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (26) :

وأذكر – أيّها الإنسان – أنّ الله تعالى قد شقّ الأرض شقّا قويّا لتخرج ساق الشجرة أو السنبلة والنّبات عموما بعد أن كانت مطموسة بالتّراب.

- فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا (27) :

وجعل الله سبحانه الحبّ اليابس ينبت السنابل ويخرج من الحبّة الواحدة سنبلة في كلّ سنبلة حبّ كثير لطعام النّاس. وهذا الإنبات من فعل الله عزّ وجلّ، وليس من فعل البشر وليس من فعل الآلهة التي يعبدها المشركون اِفتراءً على الله عزّ وجلّ.

- وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا (28) :

وشقّ الأرض فأخرج منها شجر العنب الحلو، والعرب كانوا يحبّون كثيرا العنب: أكلا وعصيرا وشرابا، وأخرج منها علفا رطبا كالبرسيم لطعام الأنعام للشرب من ألبانها وللأكل من لحومها وللارتزاق من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ولركوبهم.

- وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا (29) :

ويخرج منها أشجار الزّيتون التي لهم منها ما يأكلون ويصنعون طعامهم، وكانوا يضيئون بالزيت الأسرجة، وأشجار النخل الباسق ليطعموا من رُطبها وتمرها..

- وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا (30) :

وينشئ لهم البساتين ذات الأشجار الكثيرة والغليظة والظليلة.

- وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا (31) :

وتثمر الأشجار فينشأ من أزهارها الثمر والفاكهة، ويخرج من الأرض الرطبة المروية (الأبّ) وهو الكلأ والعشب مما تأكله الأنعام وخاصّة الإبل، وأكثر رزق العرب من الإبل.

- مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (32) :

وما يخرج لكم من الأرض وممّا ترويه السماء هو منفعة لكم ولأنعامكم لمعاشكم وأرزاقهم ولحياتكم حتى لا تجوعوا ولا تهلكوا، وهي لفاكهتكم وللتلذّذ، فاشكروا ربّكم المنعم عليكم بهذه الفضائل، ولا تكفروا به، واعبدوه، وأطيعوه، ولا تعبدوا إلاها آخر غيره فإنّه سبحانه إلاه واحد لا إلاه إلاّ هو.

- فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (33) :

هذه الآية إلى آخر السورة في الإنذار بقيام الساعة لموعظة المؤمنين ليعدّوا لآخرتهم زادًا من التقوى والعمل الصالح ينجيهم من العذاب، ويجعلهم من الفائزين بالنّعيم المخلّد، ولتحذير العصاة والكافرين من سوء العاقبة إذا أصرّوا على كفرهم وعصيانهم ولم يتوبوا ممّا كانوا يعملون.

و(ٱلصَّآخَّةُ) اِسم من أسماء يوم القيامة الذي يكون يوما للبعث من القبور، وسمي هذا اليوم بالصاخّة لأنّ الساعة تقوم على صيحة قويّة شديدة تصمّ الآذان، وبها يقوم الخلق من موتهم، إذا جاءت هذه الصيحة المدويّة قام النّاس لربّ العالمين للحساب.

- يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (35) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (36) :

في ذلك اليوم يهرب الكافر من أخيه ولا يلتفت إليه من شدّة فزعه وهلعه وخوفه: يهرب من المناصر له والمدافع عنه ظالما أو مظلوما، بل يهرب من رؤيته وملاقاته والاستنجاد به، ويهرب كذلك من أمّه التي تحنّ عليه، وتفديه بحياتها كي لا يصيبه مكروه، ولا يلتفت لأبيه الذي يحميه ويدفع عنه ما يسوؤه، ويهرب من زوجته التي لا تريد به مكروها ولا تحبّ أن تفتقده فتدافع عن حياته بقوة وتناصره بشدّة، ويهرب كذلك من بنِيه الذين يحبّونه وهو يحبّهم. يهرب من أحبابه ومحبّيه ومناصريه والمدافعين عنه.

- لِكُلِّ ٱمۡرِيٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ (37) :

في ذاك اليوم كلّ إنسان مشغول بحاله، ولا يهمّه إلاّ أمره وتدبّر خلاصه، فلا يلتفت لأحد، ولا يحبّ أن يرى أحدا حتى لا يشغله عن تدبّر نجاته وخلاصه ممّا هو فيه من رعب وهلع وخوف... لا ينفع نفسا في ذلك اليوم إلاّ إيمانها. قال تعالى (يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا)(الأنعام الآية 158).

- وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ (38) ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ (39) :

في ذاك اليوم يكون النّاس على طائفتين: طائفة تقوم ووجوهُهم مضيئة متهلّلة بشرًا، وهم مسرورون بلقاء ربّهم ينتظرون ثوابه الجزيل.

- وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ (40) :

ووجوه الطائفة الثانية تظهر متغيّرة بما عليها من غبار داكن. قال تعالى (يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ)(آل عمران الآية 106).

- تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) :

تغشى وجوههم ظلمة وسواد من الحزن والنّدم والحيرة والخوف والذلّة.

- أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ (42) :

وبهذه الوجوه السوداء يعرف الكفّار الفجّار الذين تجاوزوا حدّهم في ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي، وبإيذائهم لرسلهم، وبهزئهم بالوعيد...

والخلاصة المستفادة من هذه الفقرة أنّ الإنسان مسؤول عن عاقبته التي يختارها لنفسه في دنياه قبل قيامه للحساب في آخرته، وما ربّك بظلاّم العبيد، فقد جاءتهم البيّنات وجاءهم الهدى، وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى وأنّ سعيه سوف يُرى.



رقمها	ســــورة **التّكويـــــر**	آياتها
81	ـــــ مكية ـــــ	**29**

سمّيت هذه السورة بسورة "التكوير" لافتتاحها بالإخبار عن تكوير الشّمس حين تقوم السّاعة، وهذه من أهمّ علامات قيامها، وهي سورة مكية.

ومن أهمّ مواضيعها: التأكيد على صدق خبر قيام الساعة مع بيان بعض من أشراطها، ثمّ أكّدت على صدق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في ما يبلّغ به عن ربّه عزّ وجلّ وختمت السورة بالدعوة للاستقامة على الدّين.

وهذه السورة من إحدى السور الثلاث الّتي أرشد إليها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لمعرفة أشراط السّاعة: (التكوير، الانفطار والانشقاق).

- إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ (1) :

هذه الآية إلى الآية 14 في أشراط الساعة. ومعنى الآية : إذا لفّت الشّمس وصارت في هيأتها كالكرة واِختلّ نظام تنويرها وإشعاعها، وتحوّل النّهار إلى ظلام دامس مخيف وصار كَلَيْلِهِ.

- وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ (2) :

وإذا ذهب اِنعكاس الشّمس على النّجوم لتظهر، فغابت بذلك النّجوم عن الأنظار فصار اللّيل أدهم مخيفا. قال تعالى (وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ)(الانفطار الآية2) وهذا يكون بسبب عدم ظهورها لأنّ الكواكب والنّجوم لا تظهر إلاّ بانعكاس أشعة الشّمس عليها.

- وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ (3) :

وإذا اِنتقلت الجبال من مواضعها، وأزيلت بارتجاج الأرض ودكّها، وصارت غير مستقرّة، وتحوّلت أكداسا من تُراب متحرّك.

- وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ (4) :

وإذا أُهملت النّوقُ الحامل لاشتغال أصحابها بأنفسهم بسبب ما أصابهم من الهلع والفزع.

- وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ (5) :

وإذا جُمِعت الوحوش من كلّ جهة في مكان واحد وهي فزعة. والوحوش تجري هاربة حين تحسّ بقرب حدوث الزلزال.



- وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) :

وإذا تحوّلت مياه البحار إلى مياه ساخنة جدًا بسبب ثورة البراكين التي ترمي بحِمَمِهَا فيها فصارت المياه مُوقَدَةً، وبما يخرج من باطنها من مواد مشتعلة حامية. ومن معاني (سُجِّرَتْ) الامتلاء إلى حدِّ الفَيْضِ، وعلى هذا يكون معنى الآية وإذا تجاوزت مياه البحار شطوطها وفاضت على اليابسة وغمرت مياهها المباني والحقول والممتلكات القريبة من شطوطها وسواحلها كالذي يقع في الأعاصير، والتسونامي... وكلا المعنيين واقعان.

هذه ستّ علامات من أشراط الساعة ستعقبها أحوال البعث.

- وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) :

وإذا لحقت كلّ نفس بجسدها وظهرت على شكلها التي كانت عليه. وهذا يعني عودة الأرواح إلى أجسادها واقترنت بها، ورُدّت إليها، فاقتران النّفوس بالأجساد كالتزويج.

- وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ (9) :

(الموؤودة) هي البنت المولودة التي تدفن حيّة، سمّيت في الجاهلية بهذا الإسم لأنّ هذه المولودة لا يُحفر لها قبر فتدفن فيه، وإنّما يُطرح عليها من التُراب فيؤدوها أي يثقلها حتى تموت. وكان البعض من عرب الجاهلية يفعلون هذا الفعل الشنيع بالإناث من مواليدهم إمّا مخافة الحاجة والإملاق– كما يدّعون– وإما خوفا من السبي والاسترقاق فيلحق بهم العار لهذا، وهذا من أكثر دوافعهم لهذا الوَأْدِ، وهذا كقوله تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)(النحل الآيتين 58–59).

ويوم القيامة تقوم الموؤودة فتسأل قاتلها ردما بالتراب فتقول لأبيها أو أمّها: بأيّ ذنب قتلتني؟ وهو سؤال توبيخ. والقصد من الآيتين: تشنيع هذا الفعل، فهو من أسوأ الأفعال، وكذلك توبيخ القاتل، وسيحاسب على فعله هذا يوم الميزان، ومن المُستفاد منهما كذلك أنّ القتل لا يصحّ إلاّ بذنب وجرم يستوجب ذلك، فإذا ظهر أنّ القتل لم يكن على جرم كان هذا الفعل بليةً على القاتل.

- وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) :

وإذا صحف الأعمال وُزِّعت على أصحابها.

- وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ (11) :

وإذا قُلعت السّماء باقتلاع سقفها، ونُزعت قشرتُها، أو سطحُها كما يُسلخ جلدُ الشاة.

- وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) :

وإذا أضرمت نار جهنّم وارتفعت ألسنة لَهِيبِها الحارقة.

- وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) :

وإذا اِقتُرِبت الجنّة من أصحابها، ودَنَتْ منهم. والجنّة لا تتحرّك من موضعها، ولكنّه تعبير للدلالة على أنّ المتقّين لا يشقَوْن ولا يتعبون في بلوغهم الجنّة ليدخلوها مسرورين، فإنّها قريبة منهم كأنّها هي الّتي اِقتربت منهم.

- عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ (14) :

هذا هو جواب الشرط الوارد في الآيات السابقة. روي عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّه قال حين بلغ هذه الآية في هذه السورة: "لهذا أُجْرِيتْ القصةُ، وإليك يُساق الأمر يا ابن آدم" (رواه القرطبي في تفسيره ج19 ص234). ومعنى الآية: إذا جرت تلك الأحداث الّتي ورد ذكرها في أوّل السورة فإنّ كلّ نفسه تعلم بما في صحفها وتتذكّر ما عملت من خير وشرّ، وما لها وما عليها، ويا ويل من حَبِطت أعماله الحسنة لكفره وتكذيبه بالدّين. وهذه كقوله تعالى (يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)(القيامة الآية 13).

- فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ (15) :

هذه الآية إلى آخر السورة في إثبات صدق النّبي صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغ به عن ربّه من الوحي، وذلك ردًّا على المكذّبين بالوحي، والمشكّكين بصدق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. ومعنى الآية: لا ضرورة للقسم (بِٱلْخُنَّسِ) وهي الكواكب السيارة في السّماء الّتي لا تُرى بالنّهار تحت ضوء الشّمس، وذلك لأنّكم لا تعلمون عظمة القسم بها ولأنّكم لا تدركون عظيم القدرة في خلقها وفي تدبير أمر تسييرها.

- ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ (16) :

وهذه الكواكب تسبح في الفضاء سبحا سريعا وتدور دورانا سريعا كأنّها تجري، وتغيب زمنا في السماوات غيابا لا تظهر فيه كأنّها كُنِسَتْ فيها كَنْسًا. وهذا من عجائب الخلق في السماوات. وإنّ في سير هذه الكواكب ومسارِها أسرارا ممّا لا تستطيع العقول البشرية أن تدرك كُنْهَهَا لذلك فإنّه ليس من الضرورة القسم بها، فأنّى للإنسان الذي ليس له من علم الفلك ومن أسرار الكون، وليس له من القدرة أن يترصد هذه الكواكب في حركتها مهما اِمتلك من آلات متطوّرة في الرصد، أن يفهم جلال هذا القسم وعظمته من عظمة الخلق وحكمة التّدبير وحسن التسيير!

- وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) :

وقَسما بالليل إذا أدبر بظلامه، أو أقبل بظلامه، وإنّ إدبار اللّيل بظلامه وإقباله من آيات الله العُظْمَى.

- وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) :

وقَسما بالصبح إذا اِمتدّ بضيائه حتى صار نهارا مضيئا.

- إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) :

هذا جواب القسم الوارد في الآيات السابقة. قسما بما سبق من آيات الله تعالى العظمى، إنّ ما جاءكم من القرآن الكريم هو كلام الله عزّ وجلّ نزل به وحيا من عند ربّه (رَسُول كَرِيمٍ) هو جبريل عليه السلام، القرآن الكريم كلام الله تعالى حقّا نزل به رسوله جبريل عليه السلام على رسول الله إليكم محمد صلّى الله عليه وسلّم.

- ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ (20) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) :

الآيتان في صفات ملك الوحي: جبريل عليه السّلام. وهي صفات أربع. إنّه ذو قوّة عند الله عزّ وجلّ، وإنّه مكين، وإنّه مطاع، وإنّه عند الله تعالى وفي السّماء وفي الأرض أمين.

إنّه(قويّ) في اِختراق حجب السّماء،وفي تنفيذ أمر الله تعالى سريعا، وفي تشكّله في أيّ صورة.

وهو عند الله عزّ وجلّ(مكين) أي صاحب قدر وشرف ومكانة رفيعة لطاعته لربّه ولأمانته ولقوّته.

وهو (مطاع) في السّماوات، وعند الملائكة فلا يُردُّ له أمرٌ.

وهو (أمين) لأنّه مؤتمن على الوحي الذي يبعث به الله تعالى إلى أنبيائه ورسله. والله أعلم.

- وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٍ (22) :

هذه الآية في الردّ على المكذّبين بمحمد صلّى الله عليه وسلّم والمشكّكين في رسالته والطاعنين فيه. والمقصود بالصاحب هو النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم.

ومعنى الآية: وما محمد بمجنون حتّى تطعنوا في رسالته وفي صدقه، وتتّهموه بما ليس فيه. والقصد من ردّ هذه التهمة عنه صلّى الله عليه وسلّم التأكيد على تصديقه فيما يبلّغ به عن ربّه تعالى من وحي ومن أمر وموعظة. وهذه كقوله تعالى (وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ)(القلم الآيتين 51–52).

- وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ (23) :

ولقد رأى محمد صلّى الله عليه وسلّم جبريل عليه السّلام على صورته الحقيقيّة بالأفق الواضح.

ولفظ (لَقَد) يفيد تحقيق وقوع الفعل، فلا تشكّكوا في صدقه، وفي بلاغه، وفيما يبلّغكم به من عند ربّكم. قال تعالى (مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ)(النجم الآيات 11–14).

- وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٍ (24) :

وما محمد صلّى الله عليه وسلّم بمقصّر في تبليغ ما يغيب عنكم من الوحي ومن خبر السّماء، وما هو ببخيل في إخباركم به.

- وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ (25) :

(وَمَا هُوَ) أي ما هذا القرآن بقول شيطان مرجوم بالشُّهُب، وإنّما هو كلام الله عزّ وجلّ.

وهذا للردّ على من قال من مشركي قريش من أنّ شيطانا أبيض كان يأتي محمدا صلّى الله عليه وسلّم في صورة جبريل ليَفْتِنَهُ. وقد قال عزّ وجلّ (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)(الشعراء الآيات 210-212).

- فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) :

فإلى أين أنتم مَاضُون في تكذيبكم برسولكم، وبالقرآن الكريم، وإلى أين أنتم سائرون بعنادكم ومكابرتكم في كفركم بالله تعالى إصرارا منكم على الشرك وعبادة الأصنام، وقد جاءتكم موعظة من ربّكم لإخراجكم من الظلمات إلى النّور، ومن الجهالة إلى معرفة الحق والاهتداء للرشاد بدل البقاء على الضلالة، والاستفهام للتوبيخ.

- إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (27) :

وما هذا القرآن إلاّ موعظة للنّاس أجمعين ليهتدوا به للحقّ والرشاد، ولكشف الباطل والضلال.

- لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) :

وهذا لمن أراد منكم لنفسه أن يتّبع الحقّ ويقيم عليه، ولمن شاء منكم أن ينقذ نفسه من الهلاك والعذاب بسبب عصيانه، وشاء أن ينعم في آخرته بنعيمها وبالأمان من العقاب.

- وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (29) :

واعلموا أنّ الهدي هو هدي الله تعالى، ولا هادي لمن أضلّه الله عزّ وجلّ، فالاِهتداء للدّين الحقّ من فضل الله تعالى على عبده وهو من هديه، ومن لم يوفقّه الله تعالى للإيمان فإنّه لا يهتدي. قال تعالى (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ)(الأنعام الآية 111).

وقال عزّ وجلّ مخاطبا نبيّه صلّى الله عليه وسلّم (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ)(القصص الآية 56). وجاء في تفسير ابن عاشور (ج30 ص 168) في تعقيبه على هذه الآية: "في هذه الآية وسورة الإنسان إفصاح عن شرف أهل الاِستقامة بكونهم محلّ العناية بربّهم إذ شاء لهم الاستقامة وهيّأهم لها، وهذه العناية معنى عظيم تحيّر أهل العلم في الكشف عنه، فمنهم من تطوّح به إلى الجبر، ومنهم من اِرتمى في وَهْدَةِ القَدَر، ومنهم من اِعتدل فجزَمَ بقوّةٍ للعبادِ حادثَةً يكونُ بها اِختيارُهم لسلوك الخير أو الشرّ فسمّاها بعض هؤلاء قدرةً "حادثةً"، وبعضهم سمّاها:"كسْبًا"، وحملوا ما خالف من ظواهر الآيات والأخبار على مقام تعليم الله عباده التأدّب مع جلاله. وهذا أقصى ما بلغت إليه الأفهامُ القويمة في مجامِلِ مُتعارض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ومن ورائه سلك دقيق يشُدُّه قد تقصر عنه الأفهامُ".

آياتها	ســــورة الإنفطـــــار	رقمها
19	ـــــ مكية ـــــ	82

سمّيت هذه السورة بسورة "الانفطار" لافتتاحها بـ (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ)، وهي سورة مكية. وهي في الإخبار ببعض من أشراط الساعة، وهي في إثبات البعث، وفي التّحذير من سوء العاقبة للإعداد ليوم الحساب بزادٍ من التقوى والعمل الصالح، يوم يكون النّاس على فريقين: كافرين مكذّبين وأبرار. وهي في مواضعها كسورتي "التكوير" و"الانشقاق".

- إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ (1) :

هذه الآية مع الآيات الأربع الموالية في بعض من أشراط الساعة. ومعنى الآية:إذا اِنشقّت السماء في علامة من علامات الإذن بانْتهاء الحياة الدنيوية ليعقبها قيام النّاس للحياة الأخروية.

- وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ (2) :

وإذا تساقطت الكواكب متفرّقة في الهواء فَاعْلَمْ أنّها نهاية الدنيا.

- وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ (3) :

وإذا أُفتتحت البحار على بعضها وإختلطت وإرتفع مستواها وإرتفعت أمواجها، وأخرجت ما فيها من موادّ حارّة ومتفجرّة وثقيلة، وإضطرب أمرها وغمرت اليابسة، وكانت تسونامي عظيما هادرا هائجا.

- وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ (4) :

وإذا أخرجت القبور ما فيها من عظام وجثث ورفات، وإنقلبت قيعانها فصارت على سطح الأرض، فاعلم أنّ الساعة قائمة للحساب، وأنّ البعث قريب.

- عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ (5) :

وإذا بُعث النّاس من قبورهم عند النفخة الثانية، وقاموا، عندئذ يعرف كلّ إنسان ما قدّم من أعمال الخير ومن الطاعات طمعا في الأجر والمثوبة، أو ما أخّر من أعمال البرّ والطاعات فيئس من المثوبة والأجر، وتوقّع لنفسه شرّا وعذابا عند محاسبته على أعماله. قال تعالى في آخر سورة الزلزلة (فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ).

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ (6) :

هذه مع الآيتين المواليتين في موعظة الإنسان ليؤمن بربّه الخالق فيطيعه فيما يأمر به وفيما ينهى عنه حتّى يلقى خيرا عنده تعالى يوم يعود إليه للحساب. ومعنى الآية: يا أيّها الإنسان



المعرض عن ذكر ربّه وعن طاعته: أيّ شيء خدعك بالله عزّ وجلّ فتجرَّأْت على معصيته، وهو ربّ كريم بعبده، أكرمه بخَلْقِهِ، وأرسل إليه رسولا ليهديه لسبيل الرّشاد، وأنعم عليه بنعمه؟ أيّ شيء خدعك به فقابلت إحسانه بالمعصية والتّولّي عن ذكره، ثمّ جعلت له شريكا أو ندّا من اِفترائك؟ والاستفهام للتنبيه.

- ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (7) :

الله الذي تدعى لعبادته هو الذي خلقك، وما خلقك أحد غيره. وهو تعالى الذي سوّى خلقك وأحسنه. وهو جلّ جلاله الذي جعلك معتدل الأعضاء، ومتناسبا، فهلاّ شكرت فضله عليك بطاعته، وبتسبيحه، وبتنزيهه عن الشريك والولد...

- فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (8) :

لقد أحسن خلقك في صورة إنسان سويّ معتدل، وكان قديرا على أن يصوّرك في أيّ صورة غير صورة إنسان. فهلاّ شكرت فضله! وهلاّ قابلت إحسانه في تصويرك في أحسن تقويم بطاعته وحمده!

- كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ (9) :

هذه مع الآيات الثلاث الموالية في التحذير من التكذيب بالدّين، ويفيد لفظ (كَلَّا) في هذه الآية التعجّب من أمر الإنسان، والاستغراب بمعنى: وما أعجب أمر الإنسان حين ينكر فضل ربّه عليه، أو يتجاهله، وما أغرب سلوكه مع ربّه المنعم عليه بالخلق وإرسال الهدى إليه لإرشاده ولإخراجه من ظلمة الجهالة إلى نور العلم بالحق، وإلى الاهتداء لصراط الله المستقيم. إنّه يكذّب بالدّين: لا يؤمن بربّه واحدا أحدًا، ولا يؤمن برسوله، ولا بكتابه، ويكذّب بما جاءه من الحقّ: من الإيمان بالبعث وبالحساب، وبالجزاء وبالعقاب، ثمّ يفتري على الله كذبا فيتّخذ الأصنام آلهة له: أصناما تخلق بيده وتصنع صناعة، لا تنفع ولا تضرّ، لا تسمع ولا تُجيب!؟

- وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ (10) :

هذه للتّنبيه وللتّحذير من الملائكة العدول الشهود الذين يسجّلون على كلّ إنسان عمله وقوله: خيرا كان أو شرّا قصد الحيطة من الوقوع في الخطإ أو الزّلل، وللحرص على أن لا يُسجّل عليه إلاّ ما هو خير له. ومعنى الآيات: واِعلموا أنّ عليكم – أيّها النّاس– ملائكة يُحْصُون عليكم جميع أعمالكم وجميع أقوالكم، ويراقبونكم في كلّ وقت وحين وفي كلّ موضع حتى يسجّلوا عليكم كلّ كبيرة وكلّ صغيرة مما يصدر عنكم من قول أو فعل، وهذا لتراقبوا أنفسكم في كلّ عمل وكلّ قول يصدر عنكم حتى لا تقولوا إلاّ خيرا، وحتى لا تعملوا إلاّ ما فيه خير لكم.

- كِرَامًا كَـٰتِبِينَ (11) :



وهم ملائكة (كِرَامًا) أي نفيسون في نوعهم وطاهرون، وهم (كَٰتِبِينَ) يضبطون أعمال من وُكِلُوا بمراقبتهم وأقوالهم، لا يهملون شيئا مما يصدر عن وكلائهم من خير أو شرّ بأمانة.

- يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ (12) :

وهم محيطون علما بكلّ ما يصدر عن وكلائهم من أعمال وأقوال وحتّى ما يخطر في نواياهم من خواطر شرّ أو خير. وبهذا تقوم الحجّة على كلّ إنسان ليعلم أنّه مسؤول يوم القيامة عمّا صدر عنه من قول أو عمل أو تدبير، فلا يلومنّ إلاّ نفسه عمّا صدر عنه من شرّ أو سوء أو أذى، وليسرّ المؤمن بما يعمل من الصالحات وبما ينوي من فعل الخيرات لعلمه بأنّ الله تعالى سيجازيه خيرا عن كلّ ما يصدر عنه من فعل الخيرات، وليطمئنّ قلبُه.

- إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ (13) :

هذه إلى آخر السورة في تصنيف النّاس يوم القيامة إلى صنفين: صنف الأبرار، وصنف الفجّار. وفي هذه الآيات ترغيبٌ للنّاس ليكونوا من الأبرار ومن أهل النّعيم في آخرتهم، وليحذروا من أن يكونوا من الفجّار الذين تسوء عاقبتهم لأنّ إيواءهم سيكون في الجحيم. والأبرار هم الذين صدقوا في إيمانهم ولم يكونوا من المنافقين، وأكثروا من أعمال البرّ في الطاعات وفي عمل الخير لوجه الله تعالى ولم يكونوا من المرائين. هؤلاء الأبرار الصادقون في إيمانهم والمخلصون لله تعالى في أعمالهم موعودون بأن يكونوا من أهل النّعيم في آخرتهم لا يمسّهم سوء، ولا هم يحزنون، بل هم من الفائزين بجميع مظاهر الرّفاه والتكريم.

- وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ (14) :

وأمّا (ٱلۡفُجَّارَ) وهم الّذين يجاهرون بالمعاصي والخروج عن تعاليم الدين وشرعه فسيكون مأواهم في الجحيم.

- يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ (15) :

يدخلونها ويقيمون في حرّها يوم القيامة عند الحساب.

- وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ (16) :

وإنّهم غير مُفلتين منها، ولن يفارقوا إقامتهم هذه إلى الأبد. قال تعالى (وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ)(البقرة الآية 167).

- وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ (17) ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ (18) :

تكرّرت الآية بنفس الصيغة تعظيما لشأن يوم الدين، وتكرار (وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ، ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ) لتهويل شدائد الحساب، فإنّه لا أحد يتصوّر أهوال ذلك اليوم وفظاعة الجحيم، وشدائد الوقوف

عند الميزان. وإنّ يوم الدّين اِسم من أسماء يوم القيامة، سمّي بهذا الاسم لأنّ من حسن الإيمان التصديق بقيامه وحدوثه ووقوعه، وإنّ التكذيب به من الكفر بالدّين.

- **يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـًٔاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ (19) :**

في ذلك اليوم لا يستطيع أحد أن ينتفع بشيء ممّا كان له من مال أو جاه أو مكاسب أو شرف في قومه أو أن يفتدي ببنيه، ولا أحد يقدر أن يشفع له، أو أن يدفع عنه ضرّا، (وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ) وإنّ القضاء يومئذ والحكم لله وحده، هو المَلِك والمالك ليوم الدين، وهو المتفرّد بالسلطان، بيده الأمر كلّه، وإليه يرجع الأمر كلّه. وهذا كقوله عزّ وجلّ (لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ)(غافر الآيتين 16-17).

نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.



رقمها	سـورة المطفّفيـن	آياتها
83	ــــ مكية ومدنية ــــ	36

سمّيت هذه السورة بسورة "المطفّفين" لافتتاحها بتهديد المطفّفين في المكاييل بالويل. وهي في بعض آياتها مكية، ونزلت آيات أخرى بالمدينة وهي الآيات الخاصة بالتطفيف في المكاييل.

ومن أهمّ مواضيعها: التّحذير من ظلم النّاس في حقّهم العادل في المكاييل، (وهذا من التنزيل المدني). وكشأن السور المكيّة فإنّ من مواضيعها التّرغيب في الإيمان وأعمال البرّ للفوز بجنّة النّعيم،والتّحذير من الكفر والفجور لسوء عاقبتهما. وخُتمت السورة ببيان سوء عاقبة الهزء بالمؤمنين.

- وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ (1) :

هذه مع الآيات الخمس الموالية في إنذار المطفّفين بالويل وسوء العاقبة يوم الحساب. والمطفّفون هم الذين يحتالون على النّاس ببَخْسِ حقّهم العادل في الكيل والميزان ويغشّونهم ليكسبوا الكسب الأوفى لأنفسهم، وهو كسب حرام لما فيه من غشّ وتحيّل وغدر، وغمط الحقّ. كان هذا في المدينة عند هجرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إليها، كان فيها أفراد إذا اِشتروا اِستوفوا بكيل راجح، وإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان، وحينما نزلت هذه الآيات اِنتهوا عن التّطفيف في الكيل والميزان، وصاروا يستوفون في الكيل والميزان.

والآية في إنذار المطفّفين بالويل. والويل يعني لقاء أشدّ العذاب في الآخرة.

- ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ (2) :

هؤلاء المطفّفون إذا اِشتروا من النّاس بالكيل أو بالميزان يأخذون حقوقهم وافية.

- وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ (3) :

وإذا باعوا للنّاس بالكيل أو الميزان يبخسونهم حقوقهم، ويُنقصون لهم في الكيل والوزن بما يفعلون من العبث بالمكاييل والموازين، وهذا مخالف لمبادئ العدل والأمانة. إنّه من عمل الغدر والغشّ.

- أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ (4) :

ألا يُوقن هؤلاء بالبعث للمحاسبة عن أعمالهم.

- لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ (5) :

هو يوم القيامة، هو يوم عظيم لأنّه مهول على الذين ظلموا النّاس في حقوقهم، وخانوهم، وغدروا بهم.



- يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (6) :

يوم يُبعثُ النّاسُ من قبورهم ليتقدّموا بين يدي الله تعالى أحكم الحاكمين ليحاسبهم على أفعالهم. والقصد التحذير من سوء عاقبة هذا الفعل في الآخرة.

- كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (7) :

هذه إلى الآية 17 في عمل الفجّار وفي ما ينتظرهم من سوء العاقبة في آخرتهم.

ومعنى لفظ (كَلا) في هذه الآية، ليس الأمر كما يتوهّم الفجّار، وكما يقولون في القرآن وفي البعث وفي الوعيد وفي يوم الدين وفي الحساب من جهلهم، ويمكن أن نفهمه على أنّه بمعنى : حقّا إنّ للفجّار سجِلاّت فيها ضبط لأعمالهم السيّئة على غير ما يتوهّمون بأنّهم غير مبعوثين. و(سِجّين) هو الوضع الذي يكون في أسفل السافلين اِحتقارا لشأن ما يقع فيه، وما يوضع فيه، وهو على عكس معنى: أعلى عليين.

ومعنى الآية : حقّا إنّ سجلاّت أعمال (ٱلْفُجَّارِ) الذين تجاوزوا حدّهم في الكفر وفي عمل المعاصي وتكذيب الرّسل وفي التكذيب بما جاؤوا به من بلاغ من عند ربّهم، ستوضع في الحضيض، في أسفل السافلين احتقارا لشأنهم وشأن أعمالهم، لأنّه ليس في هذه السجلاّت إلاّ ما يسوء ذكره من قول أو عمل.

- وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (8) :

ومن أين لك أن تعلم ما هو سجّين؟ والاستفهام لتعظيم أمر سجّين في جوانب الإهانة والإذلال والاحتقار. إنّه الموضع الذي يرمى فيه كلّ ما هو سيّء ومُشين، وهو في أدنى الدرجات السُفلى من الأماكن.

- كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (9) :

ويُرمى في سجّين كلّ سِجلّ مُعلّمٍ بعلامةٍ تدلّ على أنّ كلّ ما كُتِبَ فيه شَرٌّ كُلُّهُ، فلذلك فإنّه لا يصلح للاحتفاظ به في موضع ظاهر أو محترم، بل إنّ مكانه في الدهاليز المظلمة السفلية.

- وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (10) :

والويل يوم تُخرج هذه الكتب من دهاليزها السفلية، فتعطى لأصحابها الذين كانوا يكذّبون بالبعث وبالحساب وبالوعيد ليتقدّموا بها لمحاسبتهم على ما فيها من أعمال المعاصي والشرور. إنّه ليوم عظيم شديد الهول عليهم لتفاجُئهم بصدق الموعد، وبصدق الوعيد.

- ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (11) :

قد كانوا يكذّبون بقيام الساعة، ويكذّبون بعودة الحياة للأموات، ويكذّبون بالحساب، ويكذّبون بالوعيد، وكان من عناصر العقيدة الإيمانية الصحيحة: الإيمان بيوم البعث والحساب، ولكنّهم كانوا يكذّبون بما كان يجب عليهم الإيمان به.

- وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) :

ولا يكذّب بهذا اليوم الواقع حقّا إلاّ من تجاوز حدّه في الكفر بكلام الله تعالى، وفي التّكذيب بما جاء به الرسول صلّى الله عليه وسلّم من بلاغ صادق وحقيقي، وكان (أثيما)، كثير الذنوب والمعاصي.

- إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (13) :

ومن فجور المكذّب بالدّين وبيومه أنّه حين تُقْرأُ عليه آيات الله تعالى من القرآن الكريم لوعظه وإرشاده ولتنوير بصيرته لرفع الغشاوة عن عينيه ولإخراجه من ظلمة جهالته وضلالته قال عمّا يسمعه من آيات الله تعالى : هذا من خرافات الأوّلين السابقين ومن حكاياتهم الخرافية، وينكر أنّ ما سمعه كان من كلام الله عزّ وجلّ الّذي أوحى به إلى رسوله صلّى الله عليه وسلّم ليبلّغه للنّاس لهديهم إلى صراطه المستقيم.

- كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (14) :

(كَلَّا) في هذه الآية بمعنى : ليس الأمر كما يزعمون، وكما يقولون، وهي هنا بمعنى الرّدع والزّجر حتى لا يعودوا لما يقولون. وما كان تكذيبهم بالوحي وبكلام الله عزّ وجلّ إلاّ أنّ قلوبهم قد غشيها وغلّفها (الرّين) الذي إذا أصاب القلب جعله متحجّرا. ومتصلّبا لا يلين لسماع الحقّ، ولا ينفذ إليه النّور والهدي.

روي التّرمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ في قلبه نكتةٌ سوداء، فإذا هو نزع واِستغفر الله وتاب صَقُل قلبُه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه وهو (الرّان) الذي ذكر الله في كتابه : "كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" (حديث حسن صحيح عند الترمذي).

- كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (15) :

(كَلَّآ) هنا بمعنى حقّا. أي إنّهم حقّا بسبب فجورهم وتكذيبهم بآيات الله تعالى وقولهم فيها بأنّها أساطير الأوّلين يوم القيامة لن ينعموا بشرف النّظر إلى وجه الله تعالى، ولن ينظر الله تعالى إليهم من غضبه عليهم. قال تعالى في طائفة من أهل الكتاب (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(آل عمران الآية 77).

- ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (16) :

ثمّ إنّهم لداخلون إلى الجحيم ليذوقوا حرّها وعذاب الحريق فيها يوم يبعثون، يا لسوء عاقبتهم!

- ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (17) :



وفي الجحيم يقال لهم حين يطلبون التخفيف عنهم من عذاب الجحيم: هذا ما كنتم به تكذّبون، تذوّقوه الآن لتصدّقوا بأنّ ما جاءكم من الإنذار به ومن التحذير منه كان وعيدا حقّا. قال تعالى (وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ)(الزخرف الآيتين 77-78).

- كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (18) :

وهذه الآية إلى الآية 28 في منزلة الأبرار يوم الدّين. و(ٱلْأَبْرَارِ) هم الذين برّوا في إيمانهم فكانوا صادقين في أعمال الطاعات، وكانوا يضيفون إليها نوافل طلبا للقربى من الله تعالى وطلبا لرضوانه وطمعا في رحمته، وكانوا يحسنون عملا، ولا يسيئون، ولا يعصون الله تعالى فيما أمر به أو نهى عنه. ولفظ (كَلا) في هذه الآية يعني : حقّا، أي حقّا إنّ سجلاّت أعمال الأبرار محفوظة في أعلى دواوين سجلاّت أعمال الخير وأعمال البرّ تشريفا لها، وتمييزا لها على غيرها من السجلاّت.

- وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) :

ومن أين لك العلم بهذا الموضع المرتفع ذي الشرف والمنزلة العظيمة والفخمة؟ والمقصود بهذا الاستفهام : التعظيم والتفخيم.

- كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ (20) :

سجلّ الأبرار كتاب مُعلَّمٌ بعلامة تدلّ على أنّه مُمَيَّزٌ لما فيه من تسجيل للكثير من أعمال البرّ والإحسان.

- يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (21) :

يطّلِع عليه الملائكة المقرّبون عند الله عزّ وجلّ تنويها بأعمال أصحاب الكتاب.

- إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (22) :

إنّ الأبرار موعودون بأن يكونوا في آخرتهم مُنعَّمِين بجميع مظاهر الرّفاه والتكريم والنّعيم.

- عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (23) :

وإنّهم في مجالسهم يجلسون متّكئين على أسرّة فاخرة ومريحة ينظرون إلى ما أعدّ الله تعالى لهم من الخيرات ومن النّعيم ما يسرّ نفوسهم ويؤنسهم، وما يشعرهم بالأمن والرّخاء.

- تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (24) :

وترى على وجوههم آثار النّعمة والبهجة والسرور من إشراقها وصفائها وبياضها.

- يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (25) :



وتسقيهم غلمانهم شرابا من خمر صافية من أجود أنواع الشراب الذي لا يسكر ولا يذهب بالعقل. وتُختم كؤوس شرابهم بختام تفوح منه رائحة طيّبة فائحة، ولا تفتح الأختام إلاّ لأصحابها.

- خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ (26) :

والختام تفوح منه رائحة المسك الطيّب، ولمثل هذا الفضل والتكريم فليعمل العاملون الرّاغبون فيه. وليتنافسوا فيه للسَّبْقِ به حتّى لا يفوتهم الفوز به، وليتسابقوا إليه.

- وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ (27) عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ (28) :

ويمزج هذا الشراب ذو الرائحة الطيّبة الزكية بماء من عين عالية القيمة، شرابها أشرف شراب لا يشربه إلاّ الّذين قرّبهم الله تعالى منه عزّ وجلّ. و(تَسۡنِيم) ماء في الجنّة يتنزّل من عُلُوّ.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ (29) :

هذه إلى آخر السورة في هزء الكافرين بإيمان المؤمنين، وفي اِنقلاب الحال عليهم يوم الحساب حين يأوي كلّ فريق إلى مأواه الأخير المخلّد. ومعنى الآية: إنّ زعماء الكفر وأهل المعاصي كانوا يسخرون من الذين آمنوا بالبعث بعد الموت، وبالوعد الذي كانوا يرجون ويطمعون فيه، وكانوا يهزؤون بهم لتصديقهم بما كانوا لا يصدّقون بوقوعه.

- وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ (30) :

وإذا مرّوا بالمؤمنين، ورأوهم يصلّون أو يذكرون أشاروا إليهم بطرف الأعين اِستهزاءً بهم.

- وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (31) :

وإذا رجعوا إلى بيوتهم تحدّثوا عنهم إلى أهليهم متندّرين عليهم اِستخفافا بهم، وساخرين بصلاتهم وذكرهم.

- وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (32) :

وإذا رأوْا المؤمنين قالوا عنهم بأنّهم صابئون، قد تركوا دين آبائهم وأجدادهم، واِنسلخوا عنه من فساد رأيهم.

- وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَـٰفِظِينَ (33) :

هؤلاء الذين أجرموا بكفرهم، وبتكذيبهم بالدّين، وكانوا من الذين آمنوا يضحكون، وكانوا إذا مرّوا بهم يتغامزون عليهم، وكانوا إذا ذكروهم عند أهليهم تفكّهوا بذكرهم، وكانوا يرمونهم بسفه العقل في دينهم، هؤلاء هل أرسلوا ليكونُوا مُوكّلين بالمؤمنين وبأحوالهم، أو ليكونوا رُقباء عليهم يتصرّفوا معهم بمثل هذه المواقف الهازئة، كلاّ لم يُرسلوا عليهم رقباء ليُقيّموا أعمالهم وإيمانهم...

- فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ (34) :

(فَٱلۡيَوۡمَ) هو يوم القيامة، اِنقلب الحال فصار الذين آمنوا من الكفّار يضحكون على حالهم من الفزع حين تفاجؤوا بقيامهم للحساب بعد مماتهم، ورأوْا أنّ ما كانوا به يكذّبون قد صار أمرا واقعا حقّا، ويضحكون على محاولات فرارهم ممّا ينتظرهم دون أن يفلحوا، وعلى ما ينادون على أنفسهم من الويل حين أوتوا كُتُبهم بشمائلهم.

- عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (35) هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (36) :

وهم متّكئون على سررهم يرقبون القضاء في الكفّار الذين كانوا منهم يضحكون هل عوقبوا على سخريتهم بالمؤمنين في دنياهم. والاستفهام في الآية بـ (هَل) يُفيد التقرير، أي كيف كان عقابهم...

رقمها	سورة الانشقاق	آياتها
84	ــــ مكية ــــ	25

سمّيت هذه السورة بسورة "الانشقاق" لافتتاحها بالإخبار عن اِنشقاق السّماء عند قيام الساعة. وهي سورة مكية، وموضوعها في الترغيب في الإيمان، وفي التّحذير من الكفر والتّكذيب بالقرآن وجاء فيها أنّ النّاس عند قيام الساعة على طائفتين : طائفة ينعمون بالسعادة والنعيم، وطائفة في الشقاوة مخلّدون.

- إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (1) :

هذه مع الآيات الأربع الموالية في ظاهرتين من أشراط الساعة. ومعنى الآية: إذا تشقّقت السّماء، وتصدّعت، ولم تَعُدْ تظهر متماسكة فأُعلم أنّ الساعة قائمة.

- وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (2) :

وأطاعت السماء أمر ربّها، وحُقّ لها أن تطيع أمر ربّها لأنّه تعالى سيّدها وخالقها والقيّوم عليها.

- وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ (3) :

وإذا بُسطت الأرض، وأزيلت جبالُها، واِنبسطت، وغمرتها المياه.

- وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ (4) :

وأخرجت ما في جوفها، ورمت به على سطحها حتى لم يبق في باطنها شيء.

- وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (5) :

واِستجابت لأمر ربّها في الزلزلة وإخراج كلّ ما في باطنها، وحُقّ لها أن تطيع أمر الله عزّ وجلّ الّذي أنشأها والذي خلقها وخلق ما فيها وقدّر لها مكوّناتها وحركتها، إذا حصل هذا كلّه فاعلم أنّ الله تعالى قد أذن بقيام الساعة، وأنّه قد أذن بنهاية الحياة الدنيا لتقوم الحياة الأخرى الدائمة.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ (6) :

هذه الآية إلى الآية 15 في موعظة الإنسان ليعلم أنّه محاسب على عمله في دنياه، وأنّه في آخرته إمّا أن يكون مسرورا بفوزه بالنّعيم، وإمّا أن يكون شقيا يدعو ثبورا لتفريطه في العمل لآخرته بطاعة ربّه.



ومعنى الآية : يا ابن آدم كُتِبَ عليك في حياتك الدنيوية أن تكدح، والكدح هو العمل والكسب، وأنّ كدحك في دنياك مُراقَبٌ، وستعود بحصيلته إلى ربّك عزّ وجلّ، وستلاقي به ربّك لتحاسب عليه خيرا أو شرّا بحسب ما ستتقدّم به لملاقاة ربّك.

- فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) :

وإنّ كلّ من أوتي كتابه الذي فيه سجلّ عمله بيمينه لما فيه من إحصاء لوفرة أعماله الصالحة الموافقة لما أمر الله تعالى بها وحضّ على فعلها في إيمان صادق، فسيستبشر خيرا عند ملاقاته بربّه، وسيكون حسابه عند ربّه يسيرا، ليس فيه مساءلة، ولا مؤاخذة أو مناقشة.

- وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) :

وبعد ذلك يرجع إلى أهله الذين كانوا له في دنياه ليخبرهم بسلامته وبنجاته وبفوزه بالغفران وهو في غبطة وسرور من فرط اِبتهاجهم بما سيلقون في جنّة النّعيم من تكريم موعود.

- وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) :

وأمّا من أوتي كتابه: سجلّ عمله من خلفه، على ظهره، فذلك لثقل سجلّه بكثرة شروره، وسيّئاته، وكبائر معاصيه. الإنسان يحمل بيده ما خفّ ثقله، فإذا ثُقُل عليه الحِملُ رفعه على كتفه، وأمّا إذا عظم الثقل، أو ثُقل الحملُ ثقلا كبيرا حمله على ظهره. وفي التّعبير على حمل الكتاب وراء الظهر فيه إهانة كبيرة لصاحب الكتاب المحمول لأنّه شُبِّه بالدّابّة، لأنّ الحمل يحمل على ظهر الدابّة. وهذه الحال أسوأ من حال من يؤتى كتابه بشماله، فمن أوتي كتابه بشماله أخفّ سيّئة ممن حمله وراء ظهره يجرّه جرّا لثقله. والذي يؤتى كتابه وراء ظهره ليجرّه جرّا بقوّة وعسر هو الذي يُرْهق صعُودا، يُدْعى لأن يرتفع بما يجرّه جرّا بصعوبة لأنْ يصعد به في مرتفعات عالية فيمشي به مُكِبًّا على وجهه حتى يلاقي به ربّه وهو مُرْهَقُ رهقًا عظيما.

- فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (11) :

فإنّ كلّ من يؤتى كتابه وراء ظهره ينادي على نفسه بالهلاك، ويندب حظّه وعاقبته ويتوقع شرّا يحيط به ويرهقه ويعذّبه عذابا شديدا.

- وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (12) :

ويُدْخَلُ نارا متأجّجة ليصطلي بحرّها جزاءً وِفَاقًا لما جاء به من كتاب مثقل بذكر معاصيه وسيّئاته.

- إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) :

لقد كان في دنياه غارقا في الشّهوات والملذّات والمعاصي، وغافلا عن العمل لآخرته.

- إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (14) :



إنّه كان لا يصدّق بالبعث وبالرجوع إلى ربّه، وكان يكذّب بالحساب.

- بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا (15) :

أجل، إنّ ربّه كان عليما بعمله، ومطّلعا عليه، وكان خبيرا بما كان يفعل من المعاصي، وإنّه تعالى لم يكن يخفى عليه من أمره شيء.

والمُستفاد من هذه الآي أنّ من العدل، ومن الحكمة في الخلق وفي تقدير التكليف أن يكون للعاملين يومٌ للحساب ليجازى المحسن على إحسانه، وليعاقب المسيء على إساءاته، لذلك قدّر تعالى أن يجعل بعد اِنقضاء أجل الإنسان يوما للحساب لتحقيق العدل.

- فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ (16) :

هذه إلى الآية 19 في القسم بأنّ النّاس سيكونون على أحوال من الشدّة. ومعنى الآية: لا ضرورة للقسم بالحمرة التي ترى في الأفق بعد الغروب.

- وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ (17) :

ولا ضرورة كذلك للقسم بالليل، وضمّه للعباد والدوابّ في مآويهم بعد اِنتشارهم في الأرض في نهارهم طلبا لطعامهم وشرابهم.

- وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (18) :

ولا للقسم بالقمر إذا اِجتمع واِكتمل وصار بدرا.

- لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ(19) :

هذا جواب القسم السابق. روى البخاري على ابن عبّاس عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال في هذه الآية : "لتركبنّ حالا بعد حال من الشدّة: من العدم إلى الولادة، والحياة طورا بعد طور، إلى الموت، وهو شدّة – إلى البعث – وهو شدّة". وقيل في هذه الآية كذلك: قسما – يا ابن آدم – بما سبق ذكره لأنتَ مُنْتَقِلٌ من أمر إلى أمر، ومتقلّب بينهما من شدّة إلى رخاء، ومن رخاء إلى شدّة، من فقر إلى غنى، أو من غنى إلى فقر، ومن صحة إلى سقم، أو من سقم إلى صحة للاختبار بالرّخاء وبالشدّة كانتقال الزمن من نهار إلى ليل أو من بداية شهر إلى منتصفه النيّر ثمّ إلى أفول كمال القمر من هلال إلى بدر إلى أفول. وعموما فإنّ الإنسان في حياته غير مستقرّ على حال واحدة.

- فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (20) :

هذه إلى الآية 24 في توبيخ الكافرين المكذّبين بالقرآن، وبما جاء فيه، وفي سوء عاقبتهم للإنذار والتّحذير، وإقام الحجّة عليهم. والاستفهام في هذه الآية للاستغراب من شدّة إنكار الحق

البيّن، وما هو إلاّ للتوبيخ فلماذا يصرّون على التكذيب بما جاءهم من الحقّ على لسان رسولهم صلّى الله عليه وسلّم، وبما جاءهم في القرآن بغير حجّة ولا برهان.

- وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ (21) :

ومن عجيب أمرهم وغريبه أنّهم (لَا يَسْجُدُونَ) أي لا يذعنون إذا قُرئ عليهم القرآن الذي جاءهم بالحقّ بالحجّة والدلائل الكونية الواضحة وليتعظوا وليحذروا أن يُصيبهم مثل ما أصاب الأمم السالفة الذين كذّبوا رسلهم ولم يذعنوا للحقّ. فما أشدّ عنادهم وجهلهم!

وهذه الآية ليست موضع سجدة عند الإمام مالك وفي مذهبه لأنّ السجود هنا بمعنى الإذعان والخضوع.

- بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ (22) :

بل إن الذين كفروا بوحدانية الله عزّ وجلّ يكذّبون بالقرآن وبما جاءهم فيه من الهدى والموعظة لأنّهم مصرّون على تقليد آبائهم في عبادة الأصنام وتقديسها، ولما فيهم من عناد وجهالة وضلالة.

- وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) :

والله عليم بما في دخائل أنفسهم من حسد لنبيّهم لأنّه لم يكن من ذوي الجاه عندهم، وهو تعالى عليم بما في أنفسهم من إضمار لكرههم للقرآن لأنّه سفّههم ورماهم بالضلالة والجهالة وتوعّد زعماءهم بأشدّ العذاب وهم المستكبرون الذين يحبّون الفخر، ولذلك كانوا يقولون للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "ائت بقرآن غير هذا أو بدّله". وهو سبحانه عليم بما يفعل كهنة البيت مع الذين آمنوا وأسلموا حفاظا على مكانتهم في قومهم وعلى مصالحهم.

- فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24) :

وهذه عاقبتهم في آخرتهم تبعا لكفرهم وتكذيبهم بالدّين وبالقرآن، إنّهم موْعُودون بعذاب موجع وجعا أليما.

- إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25) :

بهذه الآية تُختم السورة، وهي في تبشير المؤمنين بالثواب الجزيل الدائم غير المنقطع وذلك جزاءَ تصديقهم بوحدانية الله تعالى، وتصديقهم بما جاءهم من القرآن، وجزاء ما عملوا من الصالحات في أداء ما فُرض عليهم من الطاعات، وما حُضّوا عليه من النوافل وأعمال البرّ ومن الإحسان.

وبهذا الترغيب في الإيمان والعمل الصالح تختم هذه السورة بعد ما جاء فيها من وعيد الكافرين والمكذّبين بالدّين وبالقرآن.



رقمها	ســــورة البُـــــرُوج	آياتها
85	ـــــ مكية ـــــ	22

سمّيت هذه السورة بسورة "البروج" لافتتاحها بالقسم بالسماء ذات البروج. وهي سورة مكية. وموضوعها في تحذير الذين يصدّون المؤمنين والمؤمنات عن الإيمان من بطش الله تعالى الشديد، على غرار ما كان مع أصحاب الأخدود وفرعون وثمود. وهي في التأكيد على التّصديق بالقرآن المجيد.

- وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ (1) :

هذه الآية إلى الآية 10 في وعيد الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات، والآية في القسم بالسماء ذات منازل الكواكب.

- وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ (2) :

وقسما باليوم الموعود هو يوم القيامة الذي قضاه الله تعالى للحساب للجزاء عن الصالح من الأعمال، ولعقاب الكافرين والعصاة المذنبين والمكذّبين بالدّين.

- وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ (3) :

وقسما بشاهد عدلٍ بالحقّ، ومشهود عليه وهو المُتّهم المسؤول والمحاسبُ على عمله وعلى قوله ولا يستطيع كذبا ولا إنكارا عند محاسبته.

- قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ (4) :

الموتُ والهلاك لأصحاب الأخدود. وهذا جواب القسم. قال ابن عباس : "كلّ شيء في القرآن: قُتِلَ... فهو لعْنٌ". وأصحاب الأخدود هم جماعة من السادة في قوم كانوا جبابرة، كلّما بلغهم أنّ بعضا من قومهم قد تنصّروا وخرجوا على دين جماعتهم أخذوهم إلى أخاديد يملؤونها وقودا، ويضرمون فيها نارا، ويعرضون عليها الذين تنصّروا، ويخيّرونهم بين الردّة إلى دين آبائهم أو رميهم في الأخدود ليحرقوا بنارها، وكلُّ من ثبت على نصرانيته أُلقي فيها. كان هذا في بلاد اليمن. والتّعذيب بالحرق بالنّار عادة قديمة في تعذيب المخالفين للقوم في الدين أو في الرأي، فقد أراد القوم بإبراهيم عليه السلام أن يحرقوه في كوم من الحطب المشتعل، ولكنّ الله تعالى سلّمه من الإحراق حين جعل النّار بردًا وسلاما على إبراهيم. والأخاديد هي شقوق تحفر في الأرض.

- ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ (5) :



أي أخاديد تضرم فيها نار ملتهبة بما فيها من وقود سريع الاشتعال.

- إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ (6) :

والسادة الكفّار الذين حكموا على المؤمنين بإحراقهم على أعين النّاس قائمون على عملية الاستجواب لتخيير المحكوم عليهم بالإحراق بين الردّة أو الثبات على دينهم يشهدون عملية إضرام النّار وإحراق المؤمنين بها في الأخدود للتأكّد من نفاذ الحكم.

- وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ (7) :

وحين يرمون بالمؤمنين في الأخدود بنار الحطب يقفون على عملهم ليشهدوا حريقهم وعذابهم وليشاهدوهم يحترقون إلى أن يطمئنّوا لهلاكهم واِشتعالهم، وليحضروا عذابهم وآلامهم وصراخهم بلا رأفة أو رحمة.

- وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (8) :

وما اِنتقموا منهم هذا الانتقام القاسي اللّاإنساني إلاّ لأنّهم آمنوا بالله (ٱلۡعَزِيزِ) الغالب الذي لا يقهر (ٱلۡحَمِيدِ) الذي يُحمد في السّماوات وفي الأرض، وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده. وهذا الّذي أنكروه عليهم وعابوهم عليه، فنكّلوا بهم كلّ هذا التنكيل المروّع.

- ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ (9) :

أنكروا عليهم أن يؤمنوا بالله الذي يملك كلّ ما في السماوات وكلّ ما في الأرض من موجودات وخلائق، والله على كلّ ما فعله المجرمون بعباده المؤمنين شهيد، وعليم بما فعلوا بهم....

- إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ(10) :

إنّ الذين عذّبوا المؤمنين وكذلك المؤمنات، وأحرقوهم واِبتلوهم بالأذى ليردّوهم بعد إيمانهم كافرين، ثمّ لم يتوبوا عن هذا الفعل، ولم يتوبوا عن كفرهم فإنّهم سيُعذّبون بعذاب جهنّم، وسيعذّبون بعذاب الحريق الدّائم كلّما أحرقت جلودهم بُدِّلوا جلودا غيرها ليعذبوا العذاب المستمرّ. قال تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا)(النساء الآية 56).

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ (11) :

وكعادة القرآن فإنّ بعد الوعيد يأتي الوعد للمقابلة، وهذه الآية في تبشير المؤمنين والمؤمنات الذين عملوا بالطاعات وعملوا أعمال برٍّ وإحسان بالفوز الكبير الذي يجعلهم يأوون في بساتين مرفهة وفسيحة في جنّة عدنٍ يقيمون فيها إقامة دائمة لا يخرجون منها أبدا.



- **إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) :**

إنّ اِنتقام ربّك قويّ، وإنّ أخذه تعالى للظالم الكافر قويّ وأليم جدّا.

- **إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ (13) :**

إنّه تعالى يبدأ الخلق ويبعثهم للوجود وللحياة بقدرته، ثم بقدرته يعيدهم إليه بالموت ثم يعيدهم إليه ببعثهم بعد موتهم ليحاسبهم على أعمالهم ليجازي المحسن منهم، ويعاقب المسيء.

- **وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ (14) :**

وهو تعالى (ٱلۡغَفُورُ) الذي يستر على عبده المؤمن المستغفر ذنبه ولا يؤاخذه عليه يوم الحساب، وهو جلّ وعلا (ٱلۡوَدُودُ) الذي يحبّ من أطاعه فيكْرِمُه بالعون والنُّصرة.

- **ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ (15) :**

وهو تعالى صاحب الملكوت العظيم، وصاحب السلطان العظيم وهو الحاكم الذي لا يردّ حكمه وأمره (ٱلۡمَجِيد)، وهو العظيم الجليل، الذي يعظم ذكرُه وجاهُه، وتُذكر أنعامُه وفضائله، وهو بالغ السموّ والعلوّ سبحانه.

- **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (16) :**

وهو الذي إذا أمر بشيء تحقّق، قال تعالى (إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)(يس الآية 82). لا يمنع عنه شيء، وإذا قدّر أمرا حصل ووقع، لا يردّ أمره أحدٌ، ولا شيء يعجزه. هذه الآيات الخمس في التحذير من بطش الله الشديد لمن عصاه ولمن ظلم عباده المؤمنين وآذاهم، وهي في الآن ذاته للترغيب في غفرانه وودّه، وهي كذلك لتمجيده وتعظيمه عند ذكره جلّ وعلا.

- **هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ (17) فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ (18) :**

هل جاءك خبر فرعون وجنده وخبر ثمود قوم صالح الذين آذوْا المؤمنين وعصوا أمر ربّهم وعصوا رسلهم كيف أهلكهم بذنوبهم، فمنهم من أُغرقوا، ومنهم من أهلكوا بالصيحة، وهذا ليعتبر بسوء عاقبتهم الظالمون، الجائرون عساهم يتوبون إلى الله عزّ وجل بالاِنتهاء عمّا يفعلون.

- **بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ (19) :**

وإنّ هؤلاء المشركين من قريش متمادون في تكذيبهم – يا نبيّ الله – وفي التكذيب بالقرآن، وكذلك بالوعيد.

- **وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ (20) :**

وإنّ الله تعالى قادر على أن يُنزل عليهم عذابا شديدا، فإنّ الله تعالى محيط بهم لا يعجزونه، وهم في قبضته، وتحت إرادته وسلطته، فإذا قضى فيهم أمره بالهلاك فلن يفلت من عذابه أحدٌ.

- **بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٌ مَّجِيدٌ (21) :**

يكذّبون بالقرآن بهديه، بل هو قرآن كثير المكارم، مُتَنَاهٍ في الشرف والبركة، هو كتاب الهدى والرّشاد، هو الذي يرفع الضلالة والجهالة ويفتح البصيرة على الحقّ والنّور، وهو الذكر والموعظة الحسنة. قال تعالى (كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ) (ص الآية 29).

- **فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ (22) :**

هو كتاب الله تعالى، فيه كلامه ومواعظه وشرعه وهديه ووعده ووعيده، وهو مُصان لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلقه. و(اللوح المحفوظ) من الغيبيات، نؤمن بوجوده، ولا نعرف كنهه.

قال تعالى (إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ)(الواقعة الآيات 77-79). والآية تعني أنّه كلام قديم بعيد عن التحريف "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه".

ما أعظم جُرْم من يكذّب بالقرآن، وما لهُ من حجّة على تكذيبه سوى ما في نفسه من عناد ومكابرة وضلالة!



رقمها	ســــورة الطـــــارق	آياتها
86	ــــ مكية ــــ	17

سمّيت هذه السورة بسورة "الطارق" لأنّها اِختصّت بذكر هذا اللّفظ، وهي سورة مكية. وموضوعها فإنّ لكلّ إنسان سجلاً لضبط عمله فيه، خيرا كان أو شرّا ليُحاسب عليه في آخرته، وما هذا بالقول الهزل، إنّما هو من القول الفصل.

- وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ (1) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ (2) :

هذه الآية إلى الآية 4 في القسم بأنّ لكلّ إنسان رقيبا يرقب عمله ويُسجِّلُه عليه أو لفائدته. ومعنى الآية: قسما بالسّماء، وبالنّجم الذي يطرق ليلا، أي يطلع باللّيل ويظهر ويختفي نهارا. ومن أين لك العلم كيف يظهر هذا النّجم وكيف يختفي. يقول العرب: جئتك اليوم طرقتين، أي مرّتين.

- ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ (3) :

النّجم المُضيء، وسمّي ثاقبا لأنّه بضوئه يثقب ظلمة اللّيل.

- إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ (4) :

هذه الآية في جواب القسم، ومعناها: قسما بما سبق ذكره من آيات الله تعالى في الخلق والتدبير إنّ كلّ إنسان عليه رقيب من الملائكة يرقب عمله وقوله وتدبيره ليسجّله عليه بصدق وأمانة ليحاسب عليه في آخرته خيرا إن كان عمله أو قوله طيّبا وحسنا وصالحا، فإن كان شرّا فإنّه يسجّله عليه لمؤاخذته عليه، وهذا الّذي سمّي في (سورة ق) بالقرين. وقال قتادة: الحفظة هم الملائكة الّذين يحفظون على عباد الله تعالى أرزاقهم وأعمالهم وآجالهم. والمهمّ هو أنّ الإنسان لم يخلق عبثا، ولم تجعل حياته عبثا، بل إنّه خاضع لقدرة الله تعالى فيما كُتب له لحياته، وهو مُراقب في عمله وقوله لأنّه مسؤول عنهما يوم القيامة.

- فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (5) :

هذه الآية مع الآيات الخمس المُوالية في دعوة الإنسان لينظر في أوّل أمره خلقه ليعلم أنّ من أنشأه بتلك الصفة لا يعجزه عن أن يُعيده بعد موته على هيأته بطريقة أخرى، وهذا ليعتقد في البعث ليعمل عملا يشهد له به حافظه بأنّه كان عملا صالحا ليُثاب عليه خيرا، فالغاية أن يعمل الإنسان في دنياه خيرا، ولا يعمل شرّا يكن له عليه الشهود فيلقى في آخرته العذاب. ومعنى

الآية: فلينظر الإنسان من أيّ شيء خُلق ليعرف شيئا من قدرة ربّه عليه، وليعلم شيئا من فضله عليه، والاستفهام في الآية لحفز العقل على التدبّر والتفكّر.

- خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ (6) :

خلق من ماء صُبَّ صَبًّا في رحم اِمرأة هي أمّه، ثمّ يلتقي هذا الماء بماء المرأة الذي في البويضة فيتكوّن الجنين بعد مراحل من التمازج.

- يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (7) :

وماء الرّجل الذي يكون منه المنيّ يخرج من ظهره، وماء المرأة يخرج من صدرها، ماء المرأة تفرزه عظام الصدر بين التُرقُوَتَيْن والثَّدْيَيْن (وهو موضع القلادة).

- إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ (9) يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ (8) :

وإنّ الّذي قدّر خلقه على هذا النحو، وبهذا التدبير قادر على إعادته حيّا بعد موته يوم تكشف مكنونات القلوب ودخائل النّفوس، وما كان الإنسان يحتفظ بسرّه ولا يبوح به، وما كان يُخْفيه من نوايا ومن عقائد، أو من مكر وكيد أو نفاق. يوم القيامة لا يفوز بالأمن والأمان إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

- فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ (10) :

فإذا كان يوم القيامة وقام الإنسان للحساب ولم يكن مؤمنا، وإنّما كان كافرا ومكذّبا بالدين أو كان منافقا أو كان ظالما جائرا فإنّه لا يجد لنفسه قوّة ليهرب من العذاب ولا ناصرا لينقذه منه أو ليدفعه عنه...

- وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ (11) :

هذه الآية إلى آخر السورة في التأكيد على أنّ القرآن حقّ وأنّ البعث حقّ وأنّ كلّ نفس عليها حافظ حقّ وما هذا بالقول الهزل، وإنّما هو قول فصل، ومن يكيد لهذا الدّين كيدا فإنّه ممهل للقاء عذاب. ومعنى الآية: قسما بالسّماء ذات المطر الذي ينزل على الأرض. وسمّي المطر بالرجع لأنّ الأصل فيه كان بخارا تبخّر من الماء الذي على سطح الأرض، فنشأ منه السحاب، ثمّ أنزل السحاب ماءه على الأرض وأرجع إليها ما تبخّر من مائها إلى السّماء، وسبحان القدير الحكيم المغيث.

- وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ (12) :

وقسما بالأرض الّتي تتشقّق بما ينزل عليها من ماء السّماء ليخرج من باطنها الحبّ والنّبات والشّجر والعشب، فالصدع هو التشقّق. قال عزّ وجلّ (أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا)(عبس الآيات 25-27).

- إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ (13) وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ (14) :

وهذا جواب القسم. والضمير (ـه) في (إِنَّهُۥ) عائد للقرآن الكريم. والمعنى: إنّ هذا القرآن يفصل بين الحقّ والباطل ويُميِّزُ بينهما، ويفصل بين الحلال والحرام، وهو القول الحقّ، وما جاء فيه من وعد ووعيد حقّ، وما جاء فيه عن البعث حقّ، وما جاء فيه من إخبار هو خبر واقع حقّا، وما جاء فيه من موعظة إرشاد، هو القول الجادّ، وكلّ ما فيه جدّ وليس من الهزل. ليس فيه شيء من الهزل للتّخويف أو للّهو به. أخرج التّرمذي والدرامي عن عليّ رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "إنّها ستكون فتنة"، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأُ مَن قبلكم، وخبَر ما بعدكم، وحكَمٌ فيما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه مِن جبّار قصمه الله ومن اِبتغى الهُدى في غيره أضلّه الله، وهو حبلُ الله المتين، ونوره المُبين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المُستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواءُ، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعّب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء ولا يملّه الأتقياء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الّذي لم تنتَهِ الجنّ لمّا سمعته أن قالوا: "إنّا سمعنا قرآنًا عجبا يهدي إلى الرّشد"، من عَلِمَ عِلْمه سبَقَ، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجِرَ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم".

- إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا (15) وَأَكِيدُ كَيۡدٗا (16) :

والضّمير في (إِنَّهُمۡ) عائد على مشركي مكة، وكلّ من كان يصدّ عن سبيل الله، وكلّ من يكذّب بالقرآن الكريم، ويشاقّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم أو بالهزء به، هؤلاء يمكرون بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبأتباعه إنتصارا لشركهم، وصدّا عن الدعوة إلى صراط الله المُستقيم، ويؤذون أتباعه المستضعفين منهم خاصة ليرتدّوا عن الإسلام، وإنّ الله عزّ وجلّ يستدرجهم إِستدراجا ليُقيم عليهم الحجّة، ولن يفلتهم من العقاب، وإنّه تعالى ذو إنتقام...

- فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا (17) :

فانتظر – يا نبيّ الله – عذابهم، ولا تستعجل الإنتقام منهم، فقد جعل الله تعالى لكلّ أجل كتابا وموعدا محدّدا، وفي هذا وعدٌ ضِمني للرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالنّصر على أعدائه الكافرين، وقد تحقّق هذا النصر في بدر، وفي غيرها من الوقائع.

رقمها	ســـــورة الأعلـــــــى	آياتها
87	ـــــ مكية ـــــ	19

سمّيت بسورة "الأعلى" لافتتاحها بتمجيد الأعلى، وهو ربّ العزّة والبالغ الكمال في الرّفعة.

وهي سورة مكية، فيها الدعوة لتنزيه الله العليّ الأعلى عن الشرك وعن كلّ نقص، وفيها أمر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم للتذكير بالقرآن، مع التّرغيب في العمل للآخرة وتزكية النّفس.

- سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى (1) :

هذه الآية مع الآيات الموالية في تنزيه الخالق عن كلّ عيب أو نقص. ومعنى الآية: نزِّهِ الله تعالى ومجّده عمّا لا يليق به من الشرك أو النّدّ أو عن الحاجة للصاحبة والولد، ونزِّهْهُ عن كلّ نقص وعيب. عظم ذكر اِسمه تعالى فهو (ٱلۡأَعۡلَى) أي البالغ الكمال في المجد والرفعة والعلوّ والشرف. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن هذا التّسبيح: "اجلعوه في سجودكم"، أي أن يقول الساجد في صلاته: سبحان ربّيَ الأعلى.

- ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (2):

وهو الذي خلق كلّ الموجودات: أحياء وجمادات ممّا في السماوات وممّا في الأرض، وسوّاها بأن أحسن الخلقة وجعل المخلوق الحيّ متناسب الأجزاء، وعلى نظام معيّن في طعامه وشرابه ومستقرّه وتكاثره، وهذا من حسن التقدير والتدبير، وخلق في الإنسان العقل والإحساس والفكر للتدبير، فهيّأ له الأسباب ليكون أهلا للتكليف وتدبير معاشه وتحمّل مسؤوليته عن كلّ ما يصدر عنه من قول أو فعل عند الحساب.

- وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (3) :

هذه من الآيات التي يعسر على كلّ من يكتب في بيان معاني آي القرآن أن يفسّرها لوجود لفظ (قَدَّر) فيها. أنَّى لأيّ إنسان-مهما أوتي من العلم الربّاني- أن يتكلّم في تقدير العزيز العليم؟ ولكنه يقول فيه بما فتح الله تعالى عليه من الفهم، ثمّ يسأل ربّه مغفرته عمّا فرط منه في بيانه...

ومعنى الآية: عظِّمْ – أيّها الإنسان – ذكر ربّك العليّ الأعلى الذي خلقك فسوّاك، والّذي قدّر لك الزّمان الّذي وُلدتَ فيه، وخرجت فيه للوجود وللحياة، وقدّر لك جنسك، وقدّر لك والديك وأهلك ووطنك، وما كان لك من خِيرَة. وقدّر لك وأنت جنين في بطن أمّك أجلك وصحتك وعملك وكسبك، وقدّر لك نصيبك في حياتك من الشقاوة والسعادة، وقدّر لك نسلك وخِلْفتك، وقدّر لك

كذلك في أيّ أرض تموت – وليس لك في هذه العناصر خيرة، أو قدرة على التغيير ، هذا من قَدَرِك، ولا مفرّ لك منه. وقدّر لك – كذلك – موهبتك، ودرجة فهمك وإدراكك وعلمك، ومنحك نفسا وألهمها فجورها وتقواها، ووهبك إحساسا فيه القسوة والشدّة، وفيه الحبّ والحنان والإشفاق والرّحمة والاندفاع للنجدة وفعل الخير، كما وهبك بصيرة لتميّز بها بين الحقّ والباطل، وهذا ممّا قدّره الله تعالى لكلّ إنسان ليكون مؤهّلا لمسؤولية الاستخلاف في الأرض، وليكون مسؤولا عن عمله، وليكون بهذا، وبالعقل الذي قدّره الله تعالى له، وبالفكر للتّدبير مميّزا عن البهائم الّتي قدّر الله تعالى لها أن تكون مسخّرة لإرادة الإنسان. هذا من بعض ما قدّره تعالى للإنسان، فهلاّ أدرك فضل ربّه عليه.

ثمّ (فَهَدَىٰ)، قال تعالى (إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا)(الإنسان الآية 3)... ولم يترك الله تعالى الإنسان لنفسه، بل أرسل إليه رسلا على فترات من الزّمن لإرشاده لطريق الخير والهدى وليبيّن له طريق الباطل والضلال لاجتنابه. وأنزل تعالى كتبا : صحف إبراهيم وموسى والإنجيل، ثمّ الكتاب المهيمن: القرآن الكريم، ليتذكّر، وليعتبر بخبر الأوّلين، وفي كتب الله تعالى الإرشاد للّتي هي أقوم، وشرْعه الفارق بين ما هو حلال، وما هو حرام، والمنهي عنه، وفيها آيات بيّنات للهدى وللاستقامة على الدين الحقّ، ولإقام شرع الله تعالى في الحكم على العدل والإنصاف، وللحكم بالقسط حتّى لا يتظالموا، وليقوم المجتمع الإنساني على العدل والإخاء والتآزر وعمل الصالحات، وما أكثر وجوه الهدى التي أرشد إليها تعالى عباده عن طريق رسله وفيما بيّنها في كتبه، وكذلك فيما ألهمه به فيما خلق له من إلهام وقلب ذي الحسّ المرهف، وبما أودع فيه من عقل وتفكير... والآية للحضّ على التدبّر فيما خلق الله تعالى في الإنسان ممّا يؤهّله ليكون أهلا لاستخلافه في الأرض، وأهلا لما خصّه الله تعالى من مظاهر تكريمه في خلقه وتفضيله على الكثير من خلقه تعالى تفضيلا، وهذا ليكون عبدا شكورا على ما قدّره الله تعالى له، وهلاّ نظر فيما أرسله تعالى إليه ليهتدي به للصواب وللرّشاد حتى لا يكون عبدا جاهلا لربّه، أو جاحدا أو ضالاّ كافرا!!! "وكان الإنسان ظلوما جهولا" إن عميت بصيرته وتحجّر قلبه وطمس عليهما، ثمّ عطّل عقله، وعاند وكابر ليصرّ على ضلالته وجهله وكفره وافترائه على الله تعالى في نسبة الندّ أو الشريك إليه.

- وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ **(4)** :

وهو تعالى الذي خلق جنس النبات لمعاش الدوابّ والسوائم، وأنبت العشب والكلأ الذي يرعى فيه الحيوان، وهو غير طعام الإنسان حتّى لا يزاحم الحيوان الإنسان في طعامه أو ينافسه فيه، وهذا من تقدير العزيز العليم، ولولا هذه الحكمة في التقدير ما وجد الإنسان لطعامه من نبات

الأرض سبيلا، فهلاّ علم الإنسان بهذا التقدير ليكون عبدا شكورا فيما يأكله من نبات الأرض من زروع وحبّ وخضر وبقول...

- فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ (5) :

وجعل ما في المراعي حَشائش (غُثَآءً) تَيْبَس وتجفّ، وتحوى فتصبح سمراء، وهذا لتنويع طعام الدوّاب وللتلذّذ، وهذا من تصاريف الله تعالى في طعام مخلوقاته، وحسن تدبيره وتقديره.

- سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (6) :

في هذه بُشرى للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يصير قارئا للكتاب، وأنّه لن ينسى ما يَقْرَأُه منه أو ما يُقْرأُ عليه منه، وهو النّبيّ الأمّيّ. وما كانت أمّيته إلاّ لغاية إعجازيّة ليُعرف صدقه فيما يقرأه مِنْ بَعْدُ على النّاس من كتاب الله تعالى لأنّهم قد علموا عنه أنّه ما كان قارئا لكتاب وما كان يعرف عليه أنّه يقرأ على أحد أو أنّه كان يُقرِئ أحدا، أو كان يقول كلاما مسترسلا بليغا، وقد علموا عنه أنّه ما كان يعرف شيئا من أخبار الأمم السالفة وما كان يقول شيئا قبل نبوّته من علم الغيب. وإنّ تبشيره بأنّه لا ينسى ممّا يُقرأ عليه شيئا حتى يكون أمينا في التبليغ، وحتّى لا يعتري ما يبلّغ به النّاس من كلام الله عزّ وجلّ اِضطراب أو اِختلاف.. وبهذا كفاه الله مشقّة النّسيان.

- إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ (7) :

وإنّه لا ينسى بمشيئة الله تعالى شيئا مما أوحِي إليه من القرآن إلاّ ما شاء الله تعالى أن ينسيه له لِنَسْخِهِ رحمةً بعباده، والله فعّال لما يريد. وإنّه سبحانه وتعالى عليم بما يقرأه على النّاس وبما يتلوه وبما يذكره، وعليم بما نسيه وأسقطته ذاكرته واِختفى من حافظته فيذكّره به. وهذا لمزيد طمأنة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّه لن ينسى شيئا من القرآن، وممّا كلّفه الله تعالى بتبليغه للنّاس.

- وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ (8) :

ونهوّنْ عليك – يا رسول الله – حِفْظه في ذاكرتك، ونيسّر لك العمل بشريعته، ونجعل عملك بالطاعات يسيرا، وتبليغك به بتحفيظه للكَتَبَةِ يسيرا كذلك. وقد تكون الآية بمعنى: ونوفّقك بما نوحي إليك – يا نبيّ الله – للشريعة اليسيرة، السمحة السهلة حتّى لا يصعب على أمّتك تحمّلها والقيام عليها بنفوس مطمئنّة. والمعنيان تتحمّلهما الآية وليس بينهما تضارب.

- فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ (9) :

فَعِظْ قومك – يا رسول الله – بالقرآن تذكرة للمؤمن، وحجّة على الكافر، من اِتّعظ بالقرآن فقد اِنتفع بمواعظه، ونجّى نفسه من العذاب إذا عمل به، ومن أعرض عن الاِتّعاظ به وتولّى عن سماعه وعن تدبّره، وعن العمل به ما اِنتفع بما جاءه من عند ربّه.



- سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ (10) :

سيتّعظ به من يخاف ربّه، ويخاف عذابه، ويخاف أن يلقى ربّه وهو تعالى غير راضٍ عنه.

- وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى (11) ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ (13) :

وسيتولّى عن الانتفاع بمواعظ القرآن، ويتركها وراء ظهره، ويحيد عنها، ويهمل العمل بها الإنسان الأكثر شقاوة في العباد لأنّه بتولّيه هذا قضى على نفسه بأن يُزَجّ به في نار جهنّم الكبرى لأنّها نار دائمة الإلتهاب لا تنطفئ. قال تعالى (مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا) (الإسراء الآية 97). وإنّه فيها لا يموت ليستريح من عذاب الحريق، ولا يستطيع فيها حياة وهو في عذابها يتقلّب ويتوجّع ويصرخ بلا مُجيب أو مُغيث، فهل من شقاوة أعظم من هذه الشقاوة؟!

- قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (14) :

قد فاز من طهّر نفسه من الشرك ومن الكفر والإلحاد وآمن بربّه الواحد الأحد، وأطاعه، واِنتفع بمواعظه وهديه وعمل بشرعه ولم يَعْصِه، ونجح في إنجاء نفسه من عذاب النّار الكُبرى.

- وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (15) :

وعظّم ذكر اِسم ربّه العليّ الأعلى بلسانه تسبيحا بحمده، وعبده عبادة صادقة في خشوع عند ركوعه، وفي سجوده، وصلّى صلاة العابد المتبتّل في ما فُرض عليه من صلوات، وفي صلاة النوافل الّتي يصلّيها تقرّبا من الله عزّ وجلّ طلبا لعفوه ومغفرته.

- بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا (16) :

وما يتولّى عن ذكر ربّه وعن أداء الصلاة في أوقاتها والقيام للنوافل إلاّ الّذين يفضّلون الحياة الدنيا على العمل للآخرة، ويختارون الانشغال بدنياهم عن الإعداد لآخرتهم.

- وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ (17) :

والآخرة – للعاقل التقي وللمؤمن الصادق– خير من الحياة الدنيوية لأنّها سعادة دائمة ليس فيها تعب ولا شقاء، وإنما فيها نعيم دائم باقٍ لا يزول، وجاء في الصحيح عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "ما الدنيا في الآخرة إلاّ كما يضع أحدكم إصبعه في اليمّ، فلينظر بمَ يرجعُ؟"

- إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ (18) صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (19) :

إنّ هذه المواعظ، وهذا التذكير، وهذا الترغيب في الآخرة وفي الإيمان والعمل بالطاعات، وهذا التّحذير من التولّي عن ذكر الله عزّ وجلّ قد ورد مثلها في الكتب المنزلة قبل القرآن. جاءت معاني هذا القول في ما أنزل على الرّسل السابقين من كتب، وفي كتاب إبراهيم عليه السلام، وفي التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام. إنّ ما جاءكم في القرآن من المواعظ والإرشاد ومن الوعد ومن التذكير بتسبيح الله الأعلى وحده دون سواه قد ورد مثله في معناه في الكتب السماوية السابقة. قال عزّ وجلّ (وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ)(الشعراء الآية 196).

رقمها	سورة الغاشية	آياتها
88	ـــ مكية ـــ	26

سمّيت بسورة "الغاشية" لورود هذا اللّفظ في مفتتحها، وهو اِسم من أسماء يوم القيامة. وهي سورة مكية. وقد جاء فيها من الوعد والوعيد ما يرغّب في الإيمان والعمل للآخرة بأداء الطاعات، والتّحذير من الكفر وعمل المعاصي المهلِكَيْن، وذكّرت بقدرة الله تعالى، وبالرّجوع إليه جلّ وعلا للحساب. وقد جاء في كتب السنن أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقرأ في الجمعة وفي العيدين بسورتي: "الأعلى والغاشية" (رواه مالك ومسلم وأبو داود والنّسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير).

- هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ (1) :

هذه إلى الآية 16 في وصف حال الكافرين وحال المؤمنين يوم القيامة للتذكير والإنذار قصد الترغيب في الإيمان والطاعات، وقصد التحذير من الكفر وعمل المعصية. ومعنى الآية: هل بلغك – أيّها الإنسان – خبر (ٱلۡغَٰشِيَةِ). والغاشية في معناها اللّغوي: الداهية العظيمة الّتي تعمّ جميع النّاس الذين تغشاهم بأهوالها وشدائدها، وهي هنا اِسم من أسماء يوم القيامة الّذي يغشى النّاس جميعهم، من مثل: الطّامّة والصّاخّة والواقعة... والغرض من الاستفهام: التنبيه لخبرها للحذر من يَوْمِهَا.

- وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (2) :

في ذاك اليوم ترى وجوه جمعٍ من النّاس (خَٰشِعَة) أي ذليلة بعد كبريائها، خاضعة من الخزي بعد هزئها.

- عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (3) :

(عَامِلَة) مستمرّة في مشيها وهي تجرّ الأغلال الّتي في أعناقها بجهد ومشقّة دون راحة. و(نَّاصِبَة) وهي مُتْعبة التّعب الشّديد بسبب مشقّة المشي وحرّ السلاسل الّتي في الأعناق.

- تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (4) :

متّجهة نحو جهنّم لتدخلها لتصلى بنارها شديدة الحرارة والحرق فتتقلّب فيها من كلّ جانب دُحُورًا.

- تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ (5) :

وإذا طلبت ماءً للشرب سُقِيَتْ ماءً من عين أدركت غايتها في الحرارة والغليان.

- لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (6) لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٍ (7) :

وأمّا طعام هؤلاء – أصحاب الوجوه الذليلة – فلا يطعمون إلاّ من نبات شائك نتن تعافه الدوابّ لمرارته، ولا يدفع عن آكله ألم الإحساس بالجوع، ولا تنتفع به الأبدان بغذائه وأكله....

- وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (8) :

وفي نفس ذاك اليوم ترى جمعا من النّاس وجوههم ذات بهجة، نضرة، ضاحكة مستبشرة.

- لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٌ (9) :

مسرورة بما وجدت من الثواب جزاء سعيها في الدنيا في مرضاة الله عزّ وجلّ.

- فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) :

ويأوون يومئذ إلى جنّة رفيعة المكان، بهية وذات منازل مرتفعة رفعا لقدر الذين يأْوونها.

- لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً (11) :

ولا يُسمع في الجنّة كلام باطل ، لغوٌ لا فائدة فيه ولا نفع.

- فِيهَا عَيۡنٌ جَارِيَةٌ (12) :

وفيها عين يتدفّق منها ماءٌ جارٍ صافٍ، يُستلذُّ شرابُه، ولا ينضُب، متعة للعين وللرّفاه.

- فِيهَا سُرُرٌ مَّرۡفُوعَةٌ (13) :

وفيها سرر للاتّكاء وللجلوس عليها الجلوس المريح لتبادل الحديث مع الخلاّن الأزواج، وهي سرر لرفع القدر والمنزلة.

- وَأَكۡوَابٌ مَّوۡضُوعَةٌ (14) :

ومن بين أيديهم كؤوس الشراب اللذيذ غير المسكر، وموضوعة أمامهم.

- وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٌ (15) :

وفي سررهم وسائد فارهة مصفوفة للاتّكاء عليها.

- وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ (16) :

وتحت أقدامهم بُسُطٌ من الزرابي المفروشة في كلّ مكان لكثرتها، وهذه من صفات المجالس الفخمة لأهل الفخامة. وهذه المظاهر تعدُّ من مظاهر الفخامة التي لا يتأتّاها إلاّ الملوك وأشراف القوم الأغنياء أصحاب السيادة، وقد أعدّها تعالى لعباده المؤمنين الصادقين العاملين الصالحات، وإنّ وعد الله تعالى حقّ.

- أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ (17) :

هذه الآية إلى آخر السورة في عرض بعض من دلائل الخلق والإنعام لإفراد الله عزّ وجلّ بالألوهية والعبادة والشكر، وفي التّذكير بأنّ جميع العباد عائدون إلى الله تعالى للحساب، وقد

جاء هذا التذكير بعد عرض ما أُعِدَّ للكافرين من عذاب وما أعدّ الله تعالى لعباده المؤمنين من مظاهر التكريم للحضّ على الإيمان والعمل بالطاعات، وللتحذير من الكفر والمعصية، ولإقام الحجّة على الذين لا يؤمنون. ومعنى الآية: ألا يتأمّل – هؤلاء الذين يكفرون بالله ولا يطيعون – كيف خلق الله تعالى الإبل لينتفعوا بلحومها وألبانها ولركوبهم وللانتفاع بجلودها وأشعارها، وليحملوا عليها أثقالهم وكيف جعلها تعالى مسخّرة لهم وذلولة ليعرفوا فضل ربّهم عليهم في الإنعام عليهم بها، ليؤدّوا حقّ الشكر للمنعم عزّ وجلّ.

- **وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ (18) :**

ألا يتأمّلون في السّماء كيف أقيمت عالية علوّا كبيرا بغير أعمدة ليعرفوا عظيم قدرة ربّهم الخالق.

- **وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ (19) :**

وإلى الجبال كيف وضعت قائمة شامخة راسية منتصبة حتى لا تميد بهم الأرض ليعرفوا حكمة التقدير ليعيشوا على سطح الأرض في بيوتهم مطمئنّين، وهذه نعمة جليلة.

- **وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ (20) :**

ولم يجعل لهم الأرض وعرة كالجبال، بل جعلها لهم ممهّدة ومنبسطة ومستوية ليسعوا فيها بيسر وليحرثوا أرضها وليغرسوها أو يزرعوها ليأكلوا منها، وليقيموا عليها بيوتهم، وما ذاك إلاّ من حكمة الله تعالى في التقدير والتدبير.

- **فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ (21) :**

فذكّر – يا رسول الله – النّاس بنعم الله تعالى عليهم في خلقهم وفيما سخّره لهم في الأرض ومن الأنعام، وفيما بيّن لهم من الآيات والآلاء ليؤمنوا وليهتدوا لربّهم الحقّ وليشكروا له، وعِظْهم ليخشوا ربّهم وليطيعوه ولئلا يُعْصُوه، إنّما أنت رسول واعظ تذكّر النّاس بوحدانية الله تعالى، وبوجوب طاعته وتقواه، ولتحذيرهم من معصيته ومن وعيد الكافرين والعصاة المذنبين.

- **لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ (22) :**

ولست على الكافرين والمكذّبين بالمتسلّط عليهم، وبالمتجبّر، وإنّما أنت داعٍ إلى الله عزّ وجلّ بالكلمة الطيّبة، وإنّما عليك البلاغ. وهذه لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يحزن لإعراض القوم عن الاستجابة لدعوته للإسلام.

- **إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ (24) :**

وأمّا من تولّى عن الإيمان بربّه وعن طاعته وخشيته، وكفر بنعمه وبوحدانيته وبوعيده، ولم يشأ أن يتذكّر ليهتدي فأمره إلى الله عزّ وجلّ الذي سيقضي بأن يُعذّب العذاب الأكبر في جهنّم ليذوق وبَال أمره، وعاقبة اِنصرافه عن الاستقامة على دين الله الحقّ.



- **إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ (25) :**

إنّهم عائدون إلى الله عزّ وجلّ وراجعون إليه يوم يبعثهم بعد مماتهم للحساب وهذه الآية مع الآية الموالية هما أساس موضوع السورة: إثبات البعث والحساب للمكذّبين المنكرين.

- **ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم (26) :**

ثمّ سيحاسبون على كفرهم ومعاصيهم بما يستحقّون من العذاب، فلا يحزنك – يا نبيّ الله – كفرهم وتكذيبهم بك ولا يحزنك إعراضهم عن الانتفاع بالقرآن وبالدعوة للإسلام، لست عليهم بمسيطر، فإنّما حسابهم عند ربّهم.

رقمها	ســـــورة الفَجـــــــر	آياتها
89	ـــــ مكية ـــــ	30

سمّيت بسورة "الفجر" لافتتاحها بالقسم بالفجر. وهي سورة مكية.

وموضوعها في تحذير المشركين من أن يُصيبهم عذاب دنيوي قبل عذاب الآخرة كما أصاب أممًا سالفة من الكافرين المكذّبين بوحدانيّة الله تعالى وبيوم الدين، ومن مواضيعها: الحضّ على شكر الله تعالى على نعمه، وفي وعد المؤمنين في آخرتهم بالنّعيم المقيم.

- **وَٱلۡفَجۡرِ (1) :**

هذه الآية إلى الآية 14 في تحذير المكذّبين من عذاب الاستئصال بمثل ما أصاب الأسلاف المكذّبين. والآية في القسم بفلق ظلمة الليل بخيط من ضوء يبشّر بانبلاج صبح نهار جديد، وهو الفلق الذي يوقظ النيام للصلاة إن كانوا مؤمنين وللانتشار في الأرض للسعي فيها طلبا للرزق.

وهذا قسم دالّ على عظيم القدرة الربانيّة في تملّك الزّمن، وإنّ ظهور الفجر يفرق بين أمرين متناقضين: بين الظلمة والضوء، بين اللّيل والنّهار، بين هدْأة السكن والنّوم، ونشاط السعي والعمل والكسب.

وإنّ القسم بالزمن أو بجزء منه لمن القسم العظيم، ذلك لأنّه ليس من شيء حيّر عقل الإنسان منذ القِدم سواء أكان فيلسوفا أو إنسانا عاديا – ليفهمه مثل صروف الزمن، وما يجري على الحيّ من تأثير عليه في معاشه وفي صحته وفي أحداثه وفي تقلّباته وفي مجرياته من يوم إلى آخر فيما هو طبيعيّ أو غير طبيعي حتى يبلغ بالإنسان إلى الضعف ثم إلى الوهن والموت. يعيش الإنسان طول حياته عاجزا عن فهم ما يدّخره الزمن في يومه الجديد مع انبلاج فجره من مسرّة وبشرى أو نكبة أو حادث سيّء. الماضي قد فات على الإنسان، ولم يكن للإنسان أيّ خيار في صناعته وفي مؤثّراته وحوادثه، ومستقبل الأيّام غائب عنه ويجهل ما يخبّئه له. يأتي الفجر كلّ يوم بأمر جديد للفرد أو للأمّة أو للكون لا دخل للإنسان في اختيار أحداثه.

ومن خصائص الفجر أنّه مبدّد للظلمة. ألا يجوز أن يكون هذا القسم بفجر اِنبلاج الدين الإسلامي الذي جاء ليبدّد ظلمة الجهالة والضلالة، ليفتح البصائر على الدين الحقّ، وينير العقول بما جاء فيها من بيّنات للهدى، ومن دلائل وآيات وآلاء لمعرفة حقّ الله تعالى على الإنسان للإيمان به واحدا أحدا، وليستقيم على طاعته وشكره جلّ ثناؤه.



وقد يكون قسما بزمن الحياة والوجود، فالظلمة رمز للعدمية، واِنبلاج الفجر هو الظهور للوجود وللحياة، وبعد اِنقضاء الفجر يظهر النّهار وتدبّ الحياة على وجه الأرض إلى أن يأتي الغروب فتسكن الحركة ويقلّ النشاط حتّى إذا جاء اللّيل اِنعدمت الحركة، فيكون السكون الشبيه بالموت حتى يأذن الله تعالى بانبلاج الفجر فمن كان نائما غدا صاحيا وعاد للحركة الوجوديّة، كذا حياة الإنسان كان في العدم ثم يظهر للوجود ويعيش فترة القوة ثم بعدها فترة التراجع إلى أن يبلغ الوهن ويعود للعدم، وحين يأذن الله تعالى بظهور الحياة الآخرة أعاده للوجود، وبعثه من نومه العميق، وسكونه عند موته.

إنّ بعض الأيمّة قالوا في هذا الفجر بأنّه فجر يوم المحرّم الذي تنفجر منه السنّة، وقال آخرون بأنّ المقصود منه القسم بصلاة الصبح، وقال آخرون: يريد صبيح يوم النحر، أو آخر أيّام العشر بعد يوم عرفة، وقال آخرون: هو فجر يوم شهر ذي الحجّة. وما هذه الأقوال إلاّ من التضييق على الواسع من المعاني، وهي أقوال من غير دليل معتمد. لذلك يستحسن أن نجعله قسما بفترة من الزمن لها دلالتها ولها رمزيتها. بمثل ما أقسم تعالى بالضحى، وبالعصر، وباللّيل، وبالنّهار. وإنّ من أعظم أسرار الحياة: الزمن وتصاريفه، وإنّ خبر ماضيه عند الله تعالى، وإنّ المستقبل من علم الغيب، وإنّ الحاضر من تقدير الله تعالى، وما بين عشية وضحاها لا يعرف الإنسان ما يمكن أن يحدث بينهما في حياته أو في عمله وكسبه أو في محيطه أو في الطبيعة أو في بلده أو في العالم من حياة أو موت أو التّصاريف الطبيعيّة.

- **وَلَيَالٍ عَشْرٍ(2) :**

أغلب المفسّرين على أنّ هذا القسم بليال عشر من شهر ذي الحجّة لأنّها ليالي تهليل وتكبير وتلبية ودعاء، وأداء مناسك الحجّ والعمرة ومنسك النحر، وأداء مشاعر منى وطواف الإفاضة بالبيت العتيق تنفيذا لأمر الله عزّ وجلّ بالحجّ والعمرة في أيّام معدودات. وهذه الليالي لا تبدأ بأوّل ليلة من ليالي ذي الحجّة لأنّ هذا الحساب يستثني ليالي رمي الجمرات، وطواف الإفاضة الذي هو ركن من أركان الحجّ. والأنسب أن تضمّ هذه الليالي ليلة الرابعة عشرة الّتي يُختم بها موسم الحجّ، ويُفتتح بها موسم العمرة.

ومن المفسّرين من جعلها ليالي من شهر رمضان بدءًا من الليلة السابعة عشرة الّتي توافق ليلة الفرقان: ليلة نزول القرآن الذي فرق بين الحقّ والباطل، وفرق بين الحلال والحرام بنزوله، إلى الليلة السابعة والعشرين التي لها شأن آخر تبعا لخبر إجلال ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، التي تتنزّل فيها الملائكة. ومنهم من قال هي الليالي العشر التي أتمّها الله تعالى لميقات قوم موسى وقال عنها تعالى: "وأتممناها بعشر". وعموما فإنّها ليالي طاعات وقيام وذكر

للنّاس، وهي ليالي فضل وإحسان وامتنان وتجلّى الرحمان على عباده المؤمنين الطائعين المتبتّلين بالمغفرة والرحمة والتبشير بالرضوان. وأمّا تعيينُها فلا أحد يُجْزِمُ بتحديدها – وقد وردت نكرة، فهي غير معلومة – ولم يُبيّنها الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، ولم يخبر عنها، فعِلْمُها عند ربّي لا يُجَلِّيها إلاّ هو سبحانه.

- وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ (3) :

كلّ ما هو زوجي هو "شفع"، وكلّ ما هو فردي هو "وتر". والقسم بالشفع والوتر غير معلوم القصد بهما. فقد خلق الله تعالى في خلقنا: في أبداننا، وفي كلّ الكائنات في الكون ما هو زوجي وما هو فردي. قال تعالى(مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ)(الأحزاب الآية 4). القلب في الإنسان وجوفه: كلاهما وتر. وقال جلّ وعلا (أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ)(البلد الآيتين 8-9). اللّسان في الإنسان وتر، والعينان والشفتان شفع، وكذلك اليدان والرجلان إلخ...

ولمّا كان القسم بالزمان في سياق اِفتتاح السورة، فقد يكون القسم – كما ذكره بعض المفسّرين – بيوم عرفة لأنّه يوم واحد، وِتر في العام كلّه، وأما الشفع فيُقصد بهما اليومان بعد مِنَى.

ومن المفسّرين من جعلهما في معنى الصلاة، منها ذات الركعات الزوجيّة، ومنها ذات الوتر في عدّ الرّكعات، والسياق ليس في الحديث عن الصلاة.

وعموما فإنّ الآية في القسم بالزمن، ومن الزمن ما تمرّ فيه الأيّام على النّاس – أفرادا أو جماعات – أو أمّة – رتيبة متشابهة، فهي أيام "شفعٍ". ويأتي على الإنسان أو على الأمّة يوم يكون "وترا" في حياته لا يعاد كيوم وفاة والده أو والدته، أو كيوم نجاحه في أرقى درجة علمه، أو كيوم حادث أليم جرى عليه، أو كيوم ثورة عارمة في أمّة ذهب بنظام حكم، واُستبدل بآخر، أو يوم وقع فيه زلزال عظيم أو فيضان عارم ذهب بأرواح بشرية كثيرة وهدّم مباني على رؤوس أصحابها. كلّ إنسان يعيش في حياته أياما أو ليالي "وترا"، أيّام سعادة وسرور، أو أيّام نكبات وأيام عُسر، وتمرّ به أيّام وليالي أشفاع رتيبة وعادية. ولعلّ المقصود بهذا القسم أن يعلم الإنسان بأنّ ما يجري في سير الأيّام واللليالي هو من قضاء الله تعالى وتقديره، منها ما تسير فيها الحياة منتظمة. ويأتي على الإنسان يوم في حياته لا ينسى أثره على نمط حياته إمّا خيرا أو شرّا، وذلك ليعلم أنّ قَدَره بيد الله تعالى، فما جاءه منه من خير وجب عليه شكر ربّه، وما جاءه منه من اِبتلاء فعليه بالصبر والاجتهاد في العمل بما يقيه من سوء أثره مستعينا بالدعاء والاستغفار والصلاة. وكذا يزداد المؤمن إيمانا بأنّه خاضع لمشيئة ربّه وقضائه وقدره. والله هو العليم الأعلم بالمقصود بهذا القسم.

- وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ (4) :

وقسما باللّيل حين يمضي وينقضي بدخول الفجر. وكذا كلّ ليل لابدّ له أن ينجلي. الليل رمز للظلم، ورمز للجهل والجهالة، ورمز للخوف والذعر، وأيّا كان رمزه فإنّه لابدّ أن ينقضي ويتبعه اِنتقام أو عدالة وعدل إن كان رمزًا للظلم، أو يزيله نور العلم ونور الهدى إذا كان رمزا للجهالة والضلالة. وإن كان رمزًا للخوف فإنّ الأمن والأمان آتيان بعده لأنّ دوام الحال من المُحال.

- **هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ (5) :**

الاستفهام في هذه الآية للتقرير، القصد منه الإقرار بالحقيقة والاعتراف بها، وهو اِستفهام موجّه لكلّ ذي حجر. وذو الحجر هو صاحب العقل سريع الإدراك والفهم لما يتلقّاه من علم أو إشارة، وهو صاحب الفكر الثاقب والرشاد والرأي السديد الوجيه الذي ينطق بالحقّ ولا يكذب، والذي يقضي بالحقّ ولا يظلم.

ومعنى الآية: أليس في هذا القسم بالزمن المتغيّر من ظلمة الظلم والجهالة والضلالة إلى نور الحقّ والعلم وفتح البصيرة، والمتغيّر من ظلمة الخوف إلى نور الأمن والأمان والاستعانة بنور الهدى لمعرفة الصواب للقضاء على الخوف للنجاة إلى برّ الأمان.. أليس فيه ما يكفي لكلّ ذي عقل حصيف لأن يعلم بأنّ لهذا العالم القائم على تصاريف الزمن فيه إلاها عظيما خالقا حكيما في التدبير والتقدير، وليعرف أنّ الإنسان خاضع في حياته وفي نشاطه اليومي وفي تصاريف حظّه من حياته لإرادة قدرة قاهرة، وأنّه خاضع لمن له التدبير في تقدير حظّه من الحياة ليقرّ له بالربوبيّة وملكية أمره، وليعلم أنّ لهذا الكون مدبّرا حكيما هو الله عزّ وجلّ صاحب الفضل عليه في إيجاده وفي خلق ما حوله، وهو المتصرّف في سير الكون وحياة الخلق.

وباعتماد منطق الأضداد، فإنّ كلّ إنسان لم يشعره الزمن بتصاريفه من الظلم إلى النور، ومن أيّام ذات خصوصية في حياته تسعده إلى أيام شقاوة وتعب وضنَكٍ، ولم تشعره الأيّام والليالي بمُضيها سريعا وبانقضائها بأنّه يتحوّل من حال إلى حال في شكله وفي قوته وصحته إلى ضعف ووهن وذهاب لنَضَارَتِه وشبابه، إن لم تشعره هذه الحادثات بأنّ لهذا الكون الفسيح، وما يجري فيه قيّوما عظيما يسيّره، وبأنّ لهذا الزّمن مدبّرا حكيما، وبأنّه في ذاته خاضع لإرادة ولقضاء خارجين عن إرادته ورغبته، إذا كان كلّ هذا لا يشعره بأنّ له سيّدا عظيما وإلاها خالقا ومدبّرا لأمره فإنّه لا يمكن أن يكون ذا عقل راجح، ولا ذا بصيرة نافذة....

- **أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) :**

وهذه إلى الآية 14 للاعتبار بسوء عاقبة الأمم السالفة الذين كانوا يكذّبون بالدين وبرسل الله. ومن هذه الأمم قوم عاد، قوم نبيّ الله هود عليه السلام، وعاد اِسم الجدّ الأوّل للقوم، والآية للتّذكير بما فعل بهم ربّهم...

- إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ (7) :

(إِرَمَ) هو اِسمٌ آخر لعاد نسبة إلى الجدّ الأعلى: إرم بن سام بن نوح. و(عاد) من : عُوص بن إرم. كانوا ينزلون قرب مكة مع العماليق، وهم الذين قال فيهم تعالى (وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ)(النجم الآية 50). وأمّا عاد الأخرى فكانت مساكنهم: الأحقاف في بلاد بين عمان وحضرموت، ونبيّهم: هود عليه السلام (ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ) كانوا يسكنون في فصل الرّبيع خياما عالية ذات عمد، ثمّ يرجعون إلى بيوتهم عندما ينضج الزّرع ويقرب زمن الحصاد.

- ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ (8) :

وقد كان القوم من أهل شدّة وقوة بدنية لطول قاماتهم واِكتمال أجسامهم، وكانوا ذوي بطش. قال فيهم تعالى (وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ)(الأعراف الآية 69). وقال جلّ وعلا (فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ)(فصّلت الآية 15).

- وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ (9) :

وأنظروا في آثار قوم (ثَمُود) قوم نبيّ الله "صالح" عليه السّلام، وقد كانوا يبنون بيوتهم بالصخر المنحوت لتكون حصينة، وبنوا قصورا وأبنية عظيمة في "الحجر" بين الشام والحجاز، أو في وادي القرى... أنظروا في آثار الدمار والخراب لتعرفوا سوء ما أصابهم بسبب كفرهم وتكذيبهم بنبيّهم.

- وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ (10) :

وتذكّروا ما فعل ربّكم بالطاغية: فرعون، حاكم مصر، زمن بعثة النّبيّ موسى عليه السّلام. وقد كان فرعون صاحب جاه عظيم فقد كان حاكما لمصر آمرًا للجند وكان عنده وزراء وأعوان وكان ذا قوة وبطش، ومالكا لمصر وخيراتها، يسخّر العباد لخدمته، وساءت عاقبته لكفره وشدّة طغيانه وظلمه فأغرق وجنده في اليمّ، ولم يجد له أنصارا لينقذوه من عذاب الله.

- ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ (11) فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ (12) :

إنّ هؤلاء – قوم عاد – وقوم ثمود، وفرعون وجنده وملئه – كانوا قد تجاوزوا حدودهم في الكفر والظلم في قراهم وبلدانهم. ظلموا النّاس وقهروهم وسخّروهم لخدمتهم وعذّبوا مخالفيهم، وقتلوا وتكبّروا، وتجبّروا....

- فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ (13) :

فأنزل عليهم الله عزّ وجلّ عذابا مهلكا، وشدّده عليهم حتّى هلكوا وهم في عذاب وخوف وذعر. منهم من هلكوا تحت أنقاض بيوتهم التي دمّرت على رؤوسهم. ومنهم من أهلكته الصيحة

المفزعة القويّة، ومنهم من هلك غريقا. وشدّد تعالى عليهم العذاب عقابا لهم على جورهم وطغيانهم وليكونوا عبرة لمن يعتبر، فاتقوا الله يا أولي الألباب.

- إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ (14) :

هذه لتحذير جميع النّاس من عذاب الله تعالى، ومن سوء العاقبة إن لم يكونوا مؤمنين، ولم يكونوا من أهل الصلاح ليعلموا أنّ الله عزّ وجلّ يرقب أعمال جميع عباده ومطّلع عليهم، وأنّه تعالى عليم بما يقولون وبما يدبّرون، وأنّه تعالى لا يرضى لعباده الكفر، ولا يرضى بالظلم والجور والإفساد في الأرض بقتل الأنفس وإشاعة الفواحش والمعاصي فإنّه سريع الانتقام من الذين ظلموا رحمة بعباده المستضعفين، فاخشوا ربّكم، واحِذروه، ولا تكفروا، ولا تظلموا...

- فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ (15) :

هذه الآية مع الآيات الخمس الموالية في حبّ الإنسان للجمع في حياته الدنيوية دون اِلتفات لمن حوله من ذوي الحاجة والفاقة من أنانيته. ومعنى الآية: فأمّا الإنسان إذا أمتُحن بالغنى واليُسر وسعة في المال والرّزق فإنّه يقول ربّي أعطاني لأنّي أستحقّ ذلك لما بذلتُ من جهد وتعب وحسن تدبير، ولا يذكر فضل ربّه عليه بالحمد والشكر، ويغفل عن ذلك، ويزهو بنفسه وبعمله وبفطنته وحظّه.

- وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ (16) :

وأمّا إذا ما اُختُبر بالتضييق عليه في الرّزق رغم جهده فيقول ربّي أذلّني ولم يُساعدني وأغلق عليّ الأبواب، ونَدَبَ حظّه في حياته، ولم يَرَ في نفسه أيَّ نعمة أنعم بها الله عليه من جحوده، لأنّه لا يعرف نعمةَ الله تعالى إلاّ في ما حَصَلَ عليه من مالٍ وجمعه.

- كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ (17) :

(كَلَّا) لفظ لإبطال القولين السابقين، لأنهما قولان من الفهم الخاطئ لتقدير الرّزق. قال تعالى (وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ)(الأنبياء الآية 35). على المؤمن أن يعي بأنّ الغِنَى والفقر من تقدير الله تعالى وقضائه ليكون المؤمن بين الرّجاء والصبر والدعاء والشكر في تقلّبات أحواله بين الرّخاء والشدّة. قال تعالى (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ)(الحج الآية 10). وليس حال المؤمن على هذا النّحو لأنّ المؤمن لا يكون جاحدا غير شاكر إذا أصابه خير، ولا يكون يائسا كفورا منقلبا على وجهه إذا ضاق عليه رزقُه. وإنّ الإنسان – من جشعه وأنانيته ومن حبّه لجمع المال، لا يلتفت إلى اليتيم خاصة إذا كان قاصرا أو كان ضعيفا وكان فقيرا، وهذا من اللاإنسانية، ومن دلائل تحجّر القلب، وضعف الإيمان، ولا يجوع يتيمٌ ولا يعرى إلاّ في قوم لئام لا تعرف قلوبهم الشفقة ولا الرحمة، وهم لا يؤمنون ولا يحسنون.

وقد تحدّثت الآية عن تكريم اليتيم. ومن أهمّ مظاهر تكريمه: كفالتُه. والكفالة تعني القيام بأمر اليتيم من إيواء، وإطعام، وإكساء، وتعليم، ثمّ تشغيل إلى أن يبلغ رشده، ويصبح قادرا على تحمّل مسؤولية نفسه، وكلّ ما يتبع هذا القيام من إنفاق يحسن أن يكون هِبَةً من مال الكافل رحمةً بالصغير، وطلبا لقرب المنزلة من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يوم القيامة في جنّة النّعيم لقوله صلّى الله عليه وسلّم: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" (وأشار بالسبابة والإبهام) (رواه أحمد والترمذي والبخاري عن سهل بن سعد، حديث رقم 2710 ج3 ص 46 في فيض القدير للمناوي) والمقصود بأنّ كافل اليتيم مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في الجنّة كالسبابة والإبهام، أنّه سابق في سرعة الدخول للجنّة تعظيما لحسن عمله في خلافته للوالدين وفي رحمته بالصغير لحمايته من التشرّد والضياع أو الهلاك جوعا وعريا، والأمر في الترغيب في كفالة اليتيم تكريما وعطفا ورحمة أوكد إذا كان اليتيم أنثى، فإنّ إهمالها من الظلم والقهر ومن الأسباب التي تدفع لإشاعة الفاحشة. وهذا لا يمكن أن يكون في المجتمع الإسلامي لأنّ من مبادئ الإسلام الإحاطة بالمستضعفين واحترام المرأة والحفظ على الشرف، ومن مبادئه الإخاء والتعاون وكفالة اليتيم، ولأنّه دين الإنسانية وتكريم الإنسان.

وقد كان للعرب في جاهليتهم عادة سيّئة إذ كانوا لا يورّثون اليتيمة، فلا يزيدون بعملهم هذا اليتيمة إلاّ ظلما وقهرا وعذابا وحاجة ويأسا وألما وتشرّدا. وقد جاء في سورة النساء : الوصية خيرا بمال اليتيم حفاظا على حقّه من الإسراف في إستهلاكه قبل أن يبلغُ اليتيم رُشده ليردّ عليه تامّا غير منقوص. قال جلّ وعلا: (وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ) (النساء الآية6) أي ينفق عليه من ماله جودا وكرما ورحمة وصدقةً وهِبَةً، بل يجوز للكافل أن يوصي لليتيم المكفول: ذكرا كان أو أنثى بشيء من تَرِكته على أن لا تتجاوز الوصية ثُلث ماله، ومن المشاريع الاجتماعية المشرّفة التي تُقام في البلد الذي تُحفظ فيه كرامة الإنسان وتُحترم حقوقه في الحياة إنشاء الجمعيات الخيريّة لكفالة الأيتام، وخاصة أيتام الكوارث والحروب، والمهجَّرِين قَسْرًا.

- وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ (18) :

ومن صفات أهل الجشع ومحبّي المال والمادّة الذين يفتقرون للإنسانيّة أنّهم لا يحثّون بعضهم وأهل اليُسر والرّخاء على التضامن مع الفقراء والمساكين لإعانتهم على تجاوز فاقتهم، وخاصّة عند الحاجة للدواء للعلاج أو عند الإصابة بكارثة في مسكنه أو عمله أو في أرضه مورد رزقه بسبب الإصابة بآفة أو فيضان جارف أهلك الزرع وقلع الشجر، وفي زمن تفشّى وباء هالك، فالشحّ أو البخل عن الإمداد بالعون بالمال للإنقاذ من الإفلاس والبطالة أو من الموت

بسبب اِنقطاع أسباب العلاج والتوقّي من الوباء، يُعدُّ من أسوإ الأخلاق، ومن دلائل ضعف الإيمان، ومن دلائل سيطرة حبّ الدنيا والتملّك على النفس، ومن دلائل تحجّر القلب.

وليس من صفات المؤمن أن يكون متحجّر القلب، ولا أن يكون بخيلا بما آتاه الله تعالى من فضله. المؤمن محسن كريم يحبّ فعل الخير، ويُؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة. ولا يحضّ على طعام المسكين إلاّ الّذي يكذّب بالدّين ولا يرجو رحمة ربّه قال عزّ وجلّ (أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ)(الماعون الآيات 1-3).

- **وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلًا لَّمًّا (19) :**

(ٱلتُّرَاث) هو الرّزق: من مال وممتلكات يخلّفه الإنسان بموته لورثته. وما يحصل عليه الوارث من نصيب من تركة الهالك القريب هو رزق حلال طيّب إذا جرت القسمة على ما فرضه الله تعالى وأوصى به في توزيع التّركة على الأصول والفروع.

وموضوع الآية ليس في هذا المال الموروث بوجه حلال على ما فرضه الله جلّ وعلا، وأوصى به، وإنّما موضوع الآية في الّذين يعتدون على ميراث الأيتام، والأرامل، أو الأخوات، ويغتصبون حقوقهم بالتحيّل عليهم، أو باعتماد المغالطة، أو ظلما وتجبّرا لأنّهم مستضعفون. هؤلاء يأكلون ميراث المستضعفين بغير وجه حقٍّ. هؤلاء يتكالبون على أموال الضعفاء والنساء اليتيمات والأرامل والأخوات ليحصلوا عليها، ويضمّوها إليهم بغير حقّ من طمعهم وجشعهم ومن عظيم حبّهم للمال والمكاسب ومن عظيم أنانيتهم. هؤلاء يحبون جمع مال الورثة المستضعفين لأنفسهم وضمّها لأموالهم ضمّا ولمّا دون خشية من الله تعالى، ومن غير شفقة ورحمة بالمستضعفين. نَهَمُهم وجشعهم طغى عليهم فلا هم يشبعون، ولا هم يرحمون الضعفاء والمساكين، ولا يحفظون للضعيف حقّا، ولا قَدْرًا، كذا يفعل الذين لا يؤمنون.

- **وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبًّا جَمًّا (20) :**

كذا جاء قوله تعالى(ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)(الكهف الآية 46)، وهذا حين يأتي المال من الكسب الحلال، وحين يكون الإبن من الفراش الحلال.

وموضوع الآية ليس في إطار ما يكسب من الحلال، وإنّما الآية في صفة من صفات الطغاة الذين يفسدون في الأرض، والذين يكذّبون بالدّين، ولا يخشون ربّهم، هؤلاء لا يتحرّون في كسب المال من الحلال، وإنّما سيطر عليهم حبّ المال وحبّ جمعه من أيّ وجه من وجوه الكسب وإن كان من وجوه حرّمها الشرع: كالمتاجرة بالمخدّرات، السموم القاتلة للأنفس البشريّة، وبالمسكرات المذهبة للعقل وقد تكون فتّاكة وقاتلة كالّتي تخلط بمواد كحولية مضرّة للأبدان، وكتنظيم الرحلات البحرية الخطرة الخارجة عن القانون (ما يعرف بالحرقة)، أو من المتاجرة في الجنس ومن جمع

المال من تنظيم نوادٍ للّهو والشرب والرقص... أو من وجوه الكسب المضرّ باقتصاد البلاد من مثل الكسب من تهريب السلع، أو ترويج السلع المستوردة، أو من التهرّب الجبائي، أو من اِحتكار طعام النّاس زمن العسرة للرفع من الكسب بالغلاء في الأسعار، أو اِحتكار الموادّ الحيويّة ممّا يحتاجه النّاس لحياتهم، وعموما كلّ وجوه الكسب غير المشروعة في الدين أو في قانون البلاد، وفي العرف لا يعتمدها إلاّ من كان ظلوما لنفسه، أعماه حبّه للمال الحبّ الكبير تحرّي كسبه من وجوه الحلال، ثمّ إنّه بما يكسبه من مال يتعاظم على النّاس، ويبخل به عن الإحسان منه. ويتلهّى هذا الإنسان بجمعه في دنياه غافلا عن ذكر يوم الحساب، يوم يسأل عن مأتاه، ثمّ يموت ويتركه لورثته. قال تعالى (كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ)(العلق الآيات 6-8). حبُّ غُنْمِ ألمال من الكسب غير المشروع، والذي يحوّل صاحبه بجمعه إلى طاغية هو المُستَنْكرُ في هذه الآية.

- كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا (21) :

هذه الآية مع الآيات الخمس التي تليها للتّحذير من مصير الذين لا يعتبرون بسوء عاقبة المكذّبين بالدّين، والطغاة. ومعنى الآية: (كَلا) لفظ يدلّ على إبطال وهْمِ الذين كانوا ينعمون بمكاسبهم من الإرث ومن أعمالهم غير المشروعة بأنّهم غيرُ مسؤولين عن وجوه مكاسبهم لأموالهم، كلاّ، ما هكذا سيكون الأمر، إنّهم سيُسْألون عن أموالهم ممّا اِكتسبوها، وفيمَ أنفقوها، وسيسألون عن ظلمهم في أكل أموال الأيتام والأرامل والأخوات وأصحاب الحقّ فيه، بأيّ وجه أخذوها، ولأيّ سبب حرموا المُستضعفين من حقوقهم فيها ومن نصيبهم المشروع، وذلك يوم تتحرّك الأرض تحرّكا عظيما بعد تحرّك، ومرّة بعد مرّة حتى يتكسّر كلّ ما عليها تكسّرا يسوّي كلّ شيء على ظهرها، ويزلزلها زلزالا عظيما يجعلها تخرج جميع ما في باطنها.

- وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا (22) :

ويوم يوضع الميزان، ويحضر الموكب أحكم الحاكمين، إلاه الخلق جميعهم، وجميع الملائكة وقد اِصطفّوا اِصطفافًا منتظما في اِنتظار أوامر الله عزّ وجلّ. قال تعالى (وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ)(الزمر الآية 69).

- وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ (23) :

وحين يعرف الظالم المعتدي على ميراث الأيتام وأصحاب الحقوق المستضعفين، والمتعاظم بماله الذي اِكتسبه من وجوه غير مشروعة حبّا في المال والمكاسب وكان من المُفسدين في الأرض برشاويه ومعاصيه وبالغصب والتّحيّل والتدليس، حين يعرف مصيره إلى النّار، وحين يرى بعينيه مآله إلى نار جهنّم المتقدة والملتهبة، عندئذ يتذكّر ما كان يُقال له من مواعظ وإرشاد



ليخشى ربّه في عمله وكسبه وفي العمل بشرع ربّه، ويتذكّر غفلته واِستهزاءه بالوعيد، وكيف له أن ينتفع بتلك المواعظ ليتوب وليستغفر ربّه في ذلك اليوم، وكيف له أن يعتبر بما صار إليه أمثاله من سوء المآل في ذلك الموقف، ما عاد تنفعه موعظة وما عاد ينفعه ندم، فقد فاته وقت الندم والتوبة.

- **يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِى قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِى (24) :**

يومئذ يندم عمّا فعل، ويتحسّر على ما فاته من العمل الصالح الذي ينتفع به لآخرته، ولكن ليست له فرصة لتدارك ما فاته، وهو يُساق إلى جهنّم. وهذه كقوله تعالى (إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِى كُنتُ تُرَٰبَۢا)(النبأ الآية 40).

- **فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ (26) :**

وحين يلقى به في جهنّم فلا حاجة لأن يُوكل به أحدٌ ليعذّبه، لأنّ مأواه محلّ عذاب، النّار تحيط به من كلّ جانب، وترميه بشرر، وشرابه من حميم، وطعامه من غسلين وشجر الزّقوم. لا حاجة لربطه بوِثاقٍ حتى لا يهرب من محلّ تعذيبه لأنّه ليس له من نار جهنّم من مفرّ، وإنّ جهنّم كلّها دار عذاب، وليس له منها من مخرج إذا غُلّقتْ عليه أبوابها، والعياذ بالله من كلّ عذاب – قال تعالى (فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ)(الجاثية الآية 35).

- **يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ (27) ٱرۡجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ (28) فَٱدۡخُلِى فِى عِبَٰدِى (29) وَٱدۡخُلِى جَنَّتِى (30) :**

بهذه الآيات تختم السورة، ومطمح كلّ مؤمن أن يحظى – بفضل من ربّه وبكرم منه تعالى وهو عظيم الرجاء – بهذا الخطاب. والنّفس المطمئنّة هي نفس المؤمن التي أسلمت كلّ أمرها إلى ربّها، وذلك برضاها بالله تعالى ربّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلّى الله عليه وسلّم نبيّا ورسولا، وبالقرآن كتابا من الله عزّ وجلّ للهدى به، وللذكر ، والتذكّر، وللتعبّد به بالعمل بأحكامه وشرعه في العبادات : صلاة وصياما وزكاة وحَجًّا وعمرة، وفي المعاملات بالعدل والقسط والإحسان، وفي ما حضّ عليه من الخُلق، والعمل الصالح التطوّعي رجاء رضوان الله سبحانه وتقرّبا منه، وطلبا للنّجاة من غضبه وعقابه، وهي النّفس الّتي ترضى بقضاء الله تعالى: خيره وشرّه، فإن كان شرّا اِستعانت عليه بالصبر والصلاة، وإن كان خيرا شكرت وبرّت وأحسنت كما أحسن الله إليها، وكانت في حياتها ذاكرة، خاشعة، متبتّلة، تقيّة، زكيّة ومحسنة.

هذه النّفس تشعر إذا دنا منها الأجل بالرّضى بما تستقبله من قضاء الله تعالى طمعا في أن تنعم بما عند الله عزّ وجلّ من النّعيم والتكريم الذي وعد الله تعالى به عباده المؤمنين المحسنين، ووعدُه حقٌّ. وإذا جاءها ملك الموت نوديت بهذا النّداء : (يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ). قال سعيد بن



زيد: قرأ رجل عند النّبي صلّى الله عليه وسلّم : (يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ) فقال أبو بكر : ما أحسن هذا يا رسول الله، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (إنّ الملك سيقولها لك يا أبا بكر) (رواه القرطبي في تفسيره ج20 ص 58).

ويقال لهذه النفس المطمئنّة عند قبض الروح: عودي إلى ربّك: سيّدك خالقك، راضية بحكمه، وستكونين راضية بعطائه لك وتكريمه، وادخلي في زمرة عباده الصالحين المقرّبين، وانضمّي إليهم في جنّة النّعيم والتكريم.

رقمها	ســـــورة البلـــــــد	آياتها
90	ـــــ مكية ـــــ	20

سمّيت هذه السورة بسورة "البلد" لافتتاحها بالقسم بالبلد، وهي مكّة المكرّمة.

وموضوعها في التحذير من شدّة الحساب في الآخرة ليعمل الإنسان في دنياه خيرا ليلقى في آخرته أمانا من العذاب وجزاء وثوابا على عمله، وليعلم أنّه مراقب في دنياه وأنّه محاسب على عمله، وليجعل عمله خالصا من الريّاء ليُثاب عليه.

- لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (1) :

لا حاجة للقسم بهذا البلد: مكّة المكرّمة: البلد الحرام الّذي فيه بيت الله الحرام والمشاعر العظام، لأنّكم تعرفون مكانته عند الله عزّ وجلّ. وعموما فإنّ مكانة هذا البلد عند المسلمين هي لارتباطه بمسائل كثيرة من الدين. وفي هذا القسم تنبيه لشرف المكان، لأنّه مهبط الوحي، ومناسك الحجّ الذي هو عبادة عظيمة من أركان الإسلام، وهو قبلة المسلمين، وهو البلد الّذي دعا له إبراهيم عليه السلام ليكون بلدا آمنا. وقد جاء في حديث متفق عليه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد قال في هذا البلد: "إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله عزّ وجلّ إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شجره، ولا يُختلى خلاؤه، وإنّما أُحِلَّتْ لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فلْيُبِلّغ الشاهدُ الغائب".

- وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (2) :

وأنتَ – يا نبيّ الله – مُقيم بهذا البلد ممّا زاده تشريفا، وِازداد بنزول الوحي فيه بركة، وبأداء مناسك الحجّ فيه والنحر والإقامة في المشاعر الحرم تقديسا.

- وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ (3) :

وقسما بالوالد وما نسل منه من ولد. قيل المقصود بالوالد: آدم وما نسل منه من ولد، وقيل: هو إبراهيم عليه السلام، ومن نسله كان إسماعيل عليه السلام، ثمّ كان من نسله نسْلاً بعد نسلٍ محمد صلّى الله عليه وسلّم الخاتم الّذي كانت ولادته بمكة المكرّمة.

- لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ (4) :

هذا جواب القسم. ومعنى الآية أنّ الإنسان في حياته معرّض لـ(كَبدٍ).والكَبد هو التّعبُ الشاقّ. فالإنسان يكابد مشاقّ طلب الرّزق، ويكابد المصائب الّتي يُمتحن بها في إيمانه ومعتقده وسلوكه،

ويجاهد من أجل البقاء عند الابتلاء بالمرض أو الجوع والقحط وعند الضعف والكِبَر، وعند سكرات الموت. حياة الإنسان جهاد كلّها. قال تعالى ﴿وَجَـٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾(الحج الآية 78).

- أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ (5) :

ثمّ إنّ من النّاس من يتقوّى على غيره، ويتعاظم فيظلم، ويجور، ويطغى، ويكفر، ويساير هواه وشهواته متوهّما أنّ لا أحد قادر عليه ليكفّ أذاه، أو ليحاسبه على أعماله ويعاقبه على سوء فعله، لذلك يكره الدّين، ولا يؤمن بالرجوع إلى ربّه للحساب وللمجازاة على الفعل. يتوهّم الظالم أن لا حياة بعد الممات، والحال أنّ الذي خلقه قادر عليه، قد يعجّل عذابه، وقد يؤخّره له إلى يوم الحساب.

- يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا (6) :

هذه إلى الآية 10 في إحاطة علم الله بجميع أفعال عباده، وفي إشعارهم بأنّه تعالى محاسبهم عليها، والغاية أن يراقب المرء ربّه في نفسه في كلّ قول وعمل ليُخْلِص فيهما، وفي نواياه تجنّبا للريّاء المحبط للعمل. ومعنى الآية: يقول الإنسان المتعاظم على النّاس مفتخرا بنفسه، ومزهوًا بعمله: لقد أنفقت المال الكثير في ضيافة فلان أو في جمعٍ من الأشراف، وتصدّقت بالمال الوفير على فلان أو تلك العائلة كيلا يموتوا جوعا، ويطلب هذا الفخر ومدح النّاس لعمله ويطلب الشهرة وحديث النّاس به، ولم يرد بما أنفقه على المستضعفين وجه الله تعالى وأجره وثوابه، فأحبط عمله.

- أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (7) :

هذه في تنبيه الإنسان بأنّه مُراقبٌ في كلّ عمل يعمله وإن تخفّى به، أو أخفاه عن أنظار النّاس جميعهم، ليعلم أنّ الله عزّ وجلّ مطّلع عليه فيما يعمله علنا أو سرّا وخفية من النّاس – وخاصة فيما هو كيد خفيّ – والمقصود بذلك أن يحسن الإنسان في عمله، وأن يخلص في نواياه، وأن يراقب الله تعالى في نفسه، وفي كلّ قول أو فعل. "والإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك". ومعنى الآية: أيظنّ الإنسان حين يحدّث النّاس بما فعل من وجوه الإحسان وأعمال البرّ لإشهاره وللفخر ولطلب الذكر به، أو حين يمكر في الخفاء ويعمل سوءًا من أعمال الكيد، كالتي ألقت بالنبات الشوكي في طريق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لتؤذيه، أيظنّ الإنسان إذا أساء لغيره بأنْ لا أحد قد رآه قد فعل ما فعل. كلاّ، ليس الأمر كما يتوهّم فإنّ الله سبحانه مطّلع على جميع أفعال عباده، لا تخفى عليه خافية، فهو العليم البصير سبحانه.

- أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ (8) وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ (9) :

الآيتان لتنبيه الإنسان ليتدبّر ما خُلق له ليعرف به فضل ربّه عليه، وليعرف به بديع صنعه تعالى. خلق له عينين ليُبصر بهما آيات ربّه الكونية البيّنة فيهتدي بهما لربّه الحقّ، وليهتدي بهما في حياته الدنيوية لطريقه الموصل لغايته لقضاء شأنه ولعمله. وخلق له لسانا ليفصح به

عن رغباته ويعبر به عن فكره ووجدانه، وعمّا يجول بخاطره، فيتميّز به عن البهائم بالنّطق والبيان عن ما يريد، وليتعلّم العلم ويعلّمه.

واللّسان في الإنسان المؤمن لسان ذاكر لربّه، وشاكر لأنعُمِه، لسان صادق في قوله، وناطق بالكلمة الطيّبة وممسك عن القول الباطل، وعن الكذب والافتراء. وهو في العبد غير المؤمن ناطق بالكفر، وسائق صاحبه لسوء العاقبة بكذبه ودجله وبفحشه وبهزئه بالحقّ.

والشفتان في الإنسان المؤمن مُغْلَقَتَان عن النطق بسفه الكلام وفحشه، وعن إدخال الحرام من الطعام والشراب إلى الجوف، لا تنفتحان إلاّ على الكلام الطيّب والطعام الحلال.

- وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ (10) :

ومن فضل الله تعالى على الإنسان أن خلق فيه إلهاما يرشده لما ينفعه، ويردّه عمّا يضرّه، قال تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا)(الشمس الآيتين 7-8). ثمّ أرسل له رسلا على فترات من الزمن، وأنزل إليه كتبا لإرشاده لطريق الخير، وليوضّح له طريق الشرّ المؤدّي للهاوية ولسوء العاقبة. هذا إلى جانب ما آتاه الله تعالى من مميّزات خصّه بها على سائر الخلق ليكون مهتديا للصواب من مثل العقل، والبصيرة، والإحساس القلبي ليكتسب بها الوعي والرّشاد. ويُضاف إلى هذه الخصائص المميّزة ما أودع الله تعالى فيه من قدرات بدنية وفكريّة ومواهب وطاقات ورغبات ومطامح تنمّيها العلوم، والتجارب، والدُّربة، وتصقلها ليكون الإنسان مبدعا فيما يبتكر لنفسه ولغيره ولمجتمعه وللبلد من روائع فنية في العمارة، ومن روائع علمية وأدبية تهذّب الطبائع والسلوك العام وتزيد الفكر حكمة، والبصيرة نفاذا ووضوحا، ومبدعا في اِبتكار أساليب تأطير المجتمع سياسيا وعدليا لتنظيم علاقة الفرد بأخيه الإنسان وبمحيطه الاجتماعي والبيئي وما إلى ذلك من الاكتشافات التي تحفظ للإنسان صحته وعافيته، أو تزيده علما ومعارف... وكلّ هذا ليكون الإنسان أهلا للغاية التي خلقه الله تعالى لها: اِستخلافه في الأرض مع تحمّل الأمانة الّتي هي المسؤولية حتى لا يعمل في حياته إلا ما كان صالحا من الأعمال، وما كان نافعا للبلاد والعباد وهو مؤمن بربٍّ يراقب عمله ويراه، ومحاسب له على عمله للمجازاة.

وما يغفل عن هذه المعاني، ويغفل عن الغاية التي خلق من أجلها، وقد وضّحها الله له في كتابه في قوله عزّ وجلّ:(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً)(البقرة الآية30) ، ويغفل عمّا جاءه على ألسنة الرّسل عليهم السلام وفي كتب الله السماوية من تذكير الإنسان بأنّه لله راجعٌ للحساب، وأنّه يوم الحساب إمّا أن يكون مكرما أو مهانا ومعذّبا، ما يغفل عن هذه المعاني إلاّ من أعمى بصيرته، وأصمّ أذنيه، واِتّبع هواه، وتولّى عن الاِهتداء للرّشاد... لهذا ولذاك فإنّ الإنسان مسؤول عن اِختياره لطريق سيره في حياته: طريق الرّشاد وعمل الصالحات، أو طريق

اِتّباع هواه والتولّي عن ذكر ربّه وعن العمل ليوم الحساب حتى إذا قام للحساب وجوزي عن فعله فإنّما كان هذا من فضل ربّه عليه ومن رحمته، وإن عوقب فإنّ الله تعالى لم يظلمه وإنّما هو الذي كان ظالما لنفسه.

- **فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ (11) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ (12) :**

الآيتان إلى آخر السورة في الأعمال التي تنقذ صاحبها من العذاب يوم الدّين. والاقتحام لغة هو الدخول للمكان المطلوب بجهد جهيد ومشقّة وصعوبة، وفيه تجاوز العقبات الشاقّة بقوّة وصبر وثبات. والعَقَبَةُ لغةً هي المَرْقَى الصعب إلى أعلى الجبل. وهذا اللفظ مشتقٌّ من (عقب) الذي منه: العُقبى وهي الآخرة، وجزاء العمل. ومنه العاقبة: آخر كلّ شيء، والجزاء على العمل بالخير وكذلك لفظ العقاب. لذا فإنّ الآية تفيد بأنّ الرُّقي إلى المكان عِليّ المقام في الآخرة جزاءً بالخير وتكريما، ونجاةً من العقاب يتطلّب جهدا جهيدا، ولا يُنال إلاّ بمشقّة، ولا يبلغه إلاّ من كان قويّا وصبورا وثابتا على مبدئه ورغبته في بلوغ مراده.

وما يدريك، وماذا يمكن أن تعلمه عن مدى الجهد الذي يجب أن يبذله الراغب في دخول العقبة بقوة ومدى ما يجب أن يكون عليه من صبر وثبات ومثابرة لاقتحامها وتجاوز صعوباتها؟ وهذا لتعظيم ما يجب بذلُه من جهد شاقّ في صبر وثبات لاقتحام العقبة واِختراقها، وهذا أيضا لتعظيم علوّ المنزلة التي سيبلغها هذا المقتحم جزاءً لجهده الذي بذَلَهُ لبُلُوغها.

- **فَكُّ رَقَبَةٍ (13) :**

أول الأعمال الشاقّة الواجب فعله للتمكّن من أوّل وسائل اِقتحام العقبة: تحرير أحد العبيد من الرّقّ، وفكّ رقبته من الاستعباد القهري... من أبشع ما ابتدعه الإنسان في تاريخ ظلمه لأخيه الإنسان: الاسترقاق، أو الاستعباد. الرقّ أو اِمتلاك رقبة إنسان بالقهر بالسيف، أو بخطفه من أهله عنوة، أو بشرائه في سوق النخاسة كشرائه لدابّة لتسخيره لأعماله الشاقّة أو لخدمته دون أجر ودون كرامة وبغصب جميع حقوقه الإنسانية: ذكرا كان أو أنثى، كلّ هذا يتنافى مع تكريم الله تعالى لجنس الإنسان وشرّفه بسجود الملائكة لآدم: أصل الآدميين الأول، ويتنافى مع جميع حقوق الإنسان في الحياة والوجود والحرية. وما أروع قول عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: متى اِستعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا. لقد لُعِن إبليس وأطرد من رحمة ربّه لأنّه لم يسجد لآدم تكريما لخلقه وتنفيذا لأمر ربّه اِستعلاء وعصيانا. فكيف يهين الإنسان أخاه الإنسان باستعباده، ويعمد إلى تحقيره وإذلاله وقد كرّم تعالى جنس الآدميين بتحميله أمانة التكليف. لذا فإن من أجلّ الأعمال الشاقّة على الأنفس فكّ رقاب العبيد المستعبدين وتحريرهم من الرقّ والقهر والمهانة وتسخيرهم للخدمة الشاقّة كالدوابّ، والحال أنّ الجنس الآدمي مكرّم عند الله تعالى، وإنّ الرقّ من أعظم مظاهر ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ومن أهمّ مظاهر لا إنسانيّة الإنسان المتجبّر.

وإنّ من أبرز مظاهر الاستعباد في القرنين الماضيين: الاستعمار، إنّه اِستعباد للشعوب واِستغلال لممتلكات بلادهم وأراضيهم، وإنّه من أسوإ مظاهر التسلّط على جمهور النّاس في البلد المستعمر، ومن أبشع مظاهر الظلم والقهر.

- أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ (14) يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ (15) أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ (16) :

ومن الأعمال الّتي تُساعد على اِقتحام العقبة: إطعام الجائع في زمن القحط والجفاف حين تشتدّ الحاجة للغذاء الذي يُفتقد، ولا يجده النّاس خاصة الفقراء منهم والمحاويج، في زمن يبخل فيه النّاس بما يدّخرون من طعامهم ويقتصدون فيه حتّى لا يحتاجوا إليه، فالإنسان زمن القحط والجفاف وغياب سلعة الطعام في الأسواق يكون شديد الحرص على ما يدّخر في بيته من الطعام، وفي هذا الظرف يمسك الإنسان عن الإنفاق منه لشدّة حاجته إليه ولخوفه من الافتقار إليه، واللحوق بالمحاويج إليه. وفي هذا الزّمن العسير فإنّ إطعام الجائع من خير ما يُقدَّمُ للاستعانة به على اِقتحام العقبة لأنّه من أرقى وجوه الإحسان، ومن أفضل وجوه الكرم والتّآزر. قال تعالى في هذا الأنموذج من الكرم والإحسان (وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا)(الإنسان الآية 8). ويكون هذا الإحسان أجمل حين يُطعم اليتيم الضعيف من ذوي القرابة زمن الشدّة والمجاعة والجفاف لما فيه من صلةٍ للرّحم، ومن شدِّ أزرِ الضعيف: فاقدِ السند، فإنّ هذا المرءُ أشدّ حاجة للإحاطة به، ولمؤانسته، وللرأفة به، وللعطف عنه، فهذا العمل من عمل الصدقة والصلة والإحسان والرأفة والإحاطة النفسية والاجتماعية. هذا عمل آخر يُستعان به على اِقتحام العقبة. كما يُستعان لاقتحامها للحدّ من شدّة الاختراق إطعام المسكين ذي متربة، وهو صاحب الفاقة الشديدة، الفقير المُعْدم الّذي يعيش على الإعانة والإحسان، وهو المُحتاج الذي لازمته الحاجة كلزوم التراب بالأرض اليابسة. هذا أحوج النّاس للاِلتفات إليه ولإطعامه ولمساعدته خاصة إذا كان شيخا عجوزا، أو معاقا عاجزا، أو مريضا أقعده المرض.

والملاحظ في مواضيع هذه الآيات مع الآية السابقة أنّها من أرقى الأعمال الإنسانيّة، ومن أسمى مظاهر التعاون والتآزر، فالإسلام دين الإنسانية ودين الإحسان والتراحم والتآزر ودين الأخوة الإنسانيّة والاجتماعية. بهذه المبادئ التي يجسّمها الإنسان بعمله في حياته الدنيوية وبخلقه يتسلّح لاقتحام العقبة ليرتقي لأعلى مراتب التكريم في آخرته، وحتى لا يكون في أسفل سافلين.

- ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ (17) :

وإنّه لا يُسمح لأحد أن يقتحم العقبة لينزل المنازل العُليا في الآخرة إلاّ أن يكون من الّذين آمنوا، وصدقوا في إيمانهم. لا يكفي المرء ليجوزَ له اِقتحام العقبة أن يكون من الذين أطعموا اليتيم من ذوي القرابة في يوم ذي مسغبة، وكان قد فكّ رقبة من الرّقّ والاستعباد، وكان كذلك

من الذين أحسنوا للمسكين الذي اِفتقر وقعد لعجزه أو مرضه، كلّ هذه الأعمال الخيريّة الإنسانية الفاضلة إذا كان فاعلها مؤمنا صادقا في إيمانه عُدّت له من أفضل الأعمال الصالحة المكتسبة التي تُجيز له اِقتحام العقبة ليرفع إلى أعلى منازل التكريم. إنّ من شروط قبول الأعمال الحسنة الفاضلة الإيمان بالله تعالى.

روي عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت يوما لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرّحم، ويطعم الطعام، ويفكّ العاني، ويعتق الرّقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئا؟" قال: "لا، إنّه لم يقل يوما ربّ اِغفر لي خطيئتي يوم الدين". (القرطبي ج. 20 ص 71، الجامع لأحكام القرآن).

ثمّ إنّ من دلائل حسن الإيمان وصدقه أن يتناصح المؤمنون بخُلقين من سموّ الفضائل، وقد جاء في الحديث الشريف: "الدين النّصيحة". ومن أفضل ما يتناصح به المؤمنون في زمن الشدائد: أو يوصي بعضُهم بعضا بـ:

أ – الصبر عند البلاء، وعلى الطاعات،

ب– وبالتراحم زمن المصائب، وعند الضيق.

وقد جاء في القرآن إرشاد المؤمنين في آيات كثيرة للاستعانة بالصبر والصلاة عند الشدائد، قال تعالى ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾(البقرة الآية 45). فالصبر من دلائل الخشوع، لأنّه من دلائل الرضى بالقضاء، ويُستعان بالدعاء مع الصلاة لتجاوز فترة العسر والشدّة.

يوصي المؤمنون بعضُهم بعضا بالصبر للاستعانة به على تجاوز مصاعب الحياة لتحمّل البلايا والمصائب عند فقْدِ الأحباب، وعند الاِبتلاء في الصحة بالمرض العضال، وللتغلّب على مشاقّ العمل ومتاعبه لكسب المال الحلال دون اللجوء إلى الكسب غير المشروع، ولتجاوز الخلافات العائليّة المفسدة لوحدة الأسرة أو لفساد العلاقة بين الأرحام، أو للعلاقات الاجتماعية. ويوصي بعضهم بعضا بالصّبر لحُسن الإقبال على طاعة الله تعالى في العبادات ذات المشقّة من مثل الصيام، ومقاومة شحّ النفس للإقبال بطواعية على أداء زكاة المال وزكاة الأرض، وللإقبال على صلاة القيام، ولمقاومة هوى النفس وشهواتها المحرّمة رغبةً ورهبةً.

ليس من أمر يُساعد على التغلّب على مشاقّ الطاعات، ومصاعب الحياة مثل الصبر. ولا يقدر عليه إلاّ من كان قويَّ الإيمان، رضِيًا بقضاء الله تعالى وقدَرِه، والذي وطَّدَ نفسه وربّاها على الجهاد والمجاهدة للتغلّب على المصاعب وتجاوزها وللتغلّب على كلّ عسير، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾(الحج الآية 78). ولا يقدر عليه إلاّ من كان كبير النّفس، ولا يَحُطّ من قدره مع الذي أخطأ في حقّه، وذلك بالصبر عليه فلا يعامله بمثل معاملته، فالصبر من

خلق العظيم الكريم. ومن حسن إيمان المؤمنين أن يوصي بعضهم بعضا بالتخلّق بخلق التّراحم. الإيمان وتحجّر القلب لا يجتمعان. لذلك كان من دلائل صدق الإيمان وحسنِه: رقّةُ القلب. قلب المؤمن مرهف الحسّ والمشاعر ورؤوف وعطوف. لذلك تراه يُسرع لنجدة الملهوف إذا دعاه، ويسرع لنجدة من حدث له حادث طارئ من تلقاء نفسه، ولا ينام شبعان وجاره جائع وهو يعلم حتّى يطعمه من طعامه، ويتفقّد صاحب العوز والفاقة بما يقدر عليه، وينتصر للمظلوم حتّى يأخذ له حقّه ويردّه له إن اِستطاع لذلك سبيلا، ويردّ المتخاصمين لحسن الصحبة والمعاشرة. هو البلسم لجراح الأخوة من ذوي القُربى، أو الجوار، أو حسن الصحبة والمعاشرة. هو البلسم لجراح الأخوة من ذوي القربى، أو الجوار، أو حسن الصحبة. وهذا من خلق النبيل، الكريم، العطوف، الرؤوف، الرّحيم. فما أحسن هذا الخلق في الإنسان الذي يجعله في أعين النّاس عظيما شريفا، حسن الذكر في حياته ومن بعده. اِرتفع لهذه المكانة وهذا القدر عند النّاس بما تميّز به من خلق التراحم، وهي صفة لازمة في جميع المؤمنين لأنّها من دلائل مبادئ : الإخاء، والتعاون، والتآزر، والتوادد التي دعا إليها الإسلام ورغّب فيها، وجعلها من خصائص العمل الصالح بعد أداء الطاعات الواجبة، وشرط الإيمان الصادق.

- **أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (18) :**

حُقّ للمؤمنين الذين كانوا على الصفات المذكورة في أعمالهم وإحسانهم أن يكونوا عند ربّهم يوم الرجوع إليه تعالى أن يكونوا من أصحاب اليُمن والبركة، والإكرام بجميع أنواع الخيرات والكرامات. هؤلاء هم الذين يحقّ لهم أن يقتحموا العقبة ليكونوا في أعلى عليين من المنازل، فقد أعدّوا عدّتهم لتجاوزها.

- **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (19) :**

وأمّا الذين كفروا بالله تعالى، وقد جاءتهم دلائل التوحيد، وآيات الهدى على ألسنة رسل الله، وفي كتبه، وقد جاءهم التذكير بسوء عاقبة الأمم الذين كذّبوا بدين وبرسله للاعتبار وللرجوع عن ضلالتهم وباطلهم، ولكنّهم أصرّوا على التكذيب، وأصرّوا على عصيانهم وشركهم، فهؤلاء سيُنْزَلُون منازل الإذلال والإهانة وكلّ ما فيه شؤم لهم.

- **عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (20) :**

سيستقرّ مقامهم في جهنّم ذات النّار الموقدة، وستوصد عليهم أبوابها وتغلق، فلا يجدون لهم منها مهربا، ولا خلاصا، ثمّ لا يموتون فيها ولا يُخرجون.

رقمها	ســــورة الشّمـــــــس	آياتها
91	ـــــ مكية ـــــ	15

سمّيت بسورة "الشّمس" لافتتاحها بالقسم بالشّمس، وهي سورة مكية.

موضوعها في الحضّ على تزكية النفس بالإيمان، وفي التحذير من سوء عاقبة العصيان.

- وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا (1) :

هذه الآية إلى الآية 10 في القسم بمخلوقات عظيمة خلقها الله تعالى للدّلالة على عظيم خلقه، وللدّلالة على وحدانيته في الألوهية، وعلى اِنفراده بالخلق والتّقدير والتّسيير، وللدّلالة على أنّ كلّ الوجود ملك له وخاضع لإرادته وأمره، وهو قسم للتّأكيد على فلاح النّفس الطّاهرة الزّكية، وعلى خيبة من دسّ نفسه في المعاصي. وهذه الآية في القسم بالكوكب المنير، الشّمس، وبزمن اِرتفاع الشّمس عن أفق مشرقها: الضّحى.

فالقسم بالكوكب ذاته، وبضيائه الصّادر عنه أمران مختلفان. هو قسمٌ بِخَلْقِ ذلك الكوكب العظيم، وقسمٌ ثانٍ بما يصدر عنه من منفعةٍ للنّاس. فالآية في القسم بالخلق وبالمنافع والنّعمة المنجرّة عن خلقه.

الشّمس من أعظم آيات الله تعالى في الخلق لعظم حجمها، وتقدير هذا الحجم من خصائص علماء الفلك، ولوفرة أسرار مكوّناتها لأنّها كوكب على الدوام ملتهب، لا تنطفئ نارها أبدا منذ أن وُجدت إلى أن يأذن الله تعالى بانشقاقها يوم تقوم الساعة، وهي تسبح في الفضاء الرّحب في السماء، ومن حولها كواكب تسير في مداراتها في دقّة مضبوطة لا تخرج عنها ودون أن يختلّ توازنها أو أن تتخلّف دقيقة عن وقتها المحتسب ومن هذه الكواكب، الأرض ومن حولها قمرنا الذي يحدّد لنا بحركته حولها تاريخ دخول الأشهر القمرية.

وإنّ كلّ من يتعرّف على حركة الكواكب حول الشمس في مداراتها مع دورانها حول نفسها ومعها أقمارها يشهد لله تعالى عن علم وعن قناعة حسن التّدبير لضبط خطّ مدار تسيير الكوكب حول الشّمس وزمن سيره ودورانه في دقّة عجيبة، ويشهد الله سبحانه بحسن التقدير، وبأنّ كلّ ما في السماء خاضع لإرادته وأمره، وأنّه تعالى القيّوم الذي لم يخلق الشيء عبثا أو مصادفة. كلّ في فلك يسبحون بأمر الله تعالى وتقديره سبحانه. وإنّ لكلّ كوكب في المجموعة الشّمسية زمنا

لدورته حول نفسه وفي دورته حول الشّمس، ولا أحد يمثل الآخر في حجمه ومكوّناته، ولله تعالى في خلقه شؤون.

ولا يعرف أحد غير الخالق مكوّنات الشّمس الغازيّة ممّا يجعلها تتّقد نارا على مدى الزّمن منذ خلقها. وقل للّذين يهزؤون بنار جهنّم، وبالخلود فيها دون أن يموتوا، قل لهم: تأمّلوا في الشّمس هل اِنقطع ضياؤها عن الأرض يوما بسبب إخماد نارها منذ أن خُلقت ووُجدت على هذه الهيأة منذ ملايين السنين، وستظلّ على هذه الحال متقدة ملتهبة إلى أن يأذن الله تعالى بتكويرها يوم تقوم الساعة.

وقودُها منها وفيها، لا يتحوّل إلى رماد، فيُذَرُّ، وتخمد ناره إلى أن تنطفئ، ولا تعرف من أيّ مادّة هو حتّى يكون دائم الاشتعال والتوقّد. وإنّ من الشمس يخرج من حين لآخر لسانٌ من اللّهب إذا مسّ نجما دمّره وحوّله إلى فتات.

ووجهُ الاعتبار بهذا القسم أن يعلم الإنسان قدرة الله عزّ وجلّ في خلق جهنّم ليجعلها دار إقامة للكافرين والظالمين والمستهزئين بالوعيد والمكذّبين بيوم الوعيد، يوم الحساب. فإنّ جهنّم شبيهة بكوكب الشّمس في الخلق من أصل ناري، ولكنّها أعظم منها أثرا، وأدوم وجودًا لأنّ الآخرة دار الإقامة الأبدية. وسيكون وقودها النّاس والحجارة لا يموتون فيها ولا يحيون، ماؤهم من حميم، وطعامهم من غسلين وشجر الزقوم، وتتطاير أجسامهم كالشرر، وشرر جهنّم كالقصر كأنّها جمالات صفر. من خلق الشّمس على النحو الذي نراه هل يعجزه أن يخلق على غرارها جهنّم. كلاّ، بل هو خلق أعظم لأنّ الله تعالى قد جعلها دار عذاب دائم – والعياذ بالله – ولعلماء الفلك أقوال وأرقام في الطاقة لهذا الكوكب ما لا يسع العقل البشري أن يتخيّله ويفهمه أو يستوعبه.

ومن خصائص الشّمس أنّها تُرسل أشعة على الدوام. ما وقعت على شيء: عظم في حجمه بمثل حجم الأرض وحجم القمر أو حجم كوكب أعظم، أو حجم مُتَنَاهٍ في الصّغر من مثل حصاة صغيرة في وادٍ إلاّ أنارته وأضاءته وكشفته بضيائها. ضوؤها ساطع إن لم تحجبه السحب. وكلّ إنسان إذا أضاء له شعاع الشّمس في ضحاها مكانه تفتّحت عيناه، وذهب عنه سُباتُه، وغدا قائما ساعيا إلى غايته في العمل وللكسب مستبشرا باليوم الجديد.

البيت الذي لا تدخله أشّعة الشّمس غير صحيّ، ومظلم، لا ينشرح له الصدر، وهو كالقبر، ولا يكون إلاّ نديا، من نام فيه لا يصحو بعد نومه فيه إلاّ متهالكا ومتثاقلا.

أشّعـة الشّمس تمنح جسم الإنسان فيتامين "د"، على ما يقوله الأطباء، وتصحّح العظام، وتقي من الإصابة بمرض المفاصل، ومن نزلات البرد، وفضلها عظيم في منحه الدفء زمن البرد.



ولا يخفى على أحد فضلها في تأثيرها على مياه البحار والمحيطات في عملية تبخّر الماء الذي تنشأ منه السّحب حتّى إذا ثقلت بالماء العذب الزلال أرسلها الله تعالى إلى الأرض الجدباء، وأنزل ماءها ليحيي به الأرض وليغيث به عباده، فيرويهم ويسقي بهائمهم، ويخرج لهم من طيّبات الأرض ما يأكلون.

ومن فوائد أشعة الشّمس المرسلة حرق البكتيريا والفيروسات الضارّة حفاظا على حياة الإنسان وحماية للبهائم ولثمر الشجر، ولكلّ ما يعلق منها بالملابس وبالمفارش، لذلك تُعرَّضُ الملابس والمفروشات لأشعّة الشّمس من حين لآخر، ولا أحد ينكر فضل الشّمس بما ترسله من أشعّة في تجفيف الأرض بعد نزول الغيث حتّى لا تتحوّل الأرض إلى طين، وفي تأثيره على الزرع ليجفّ الحبّ لطعام النّاس وليجفّ العُشب لطعام الحيوان، ولتخزين بعض البقول وأصناف طعام النّاس لاستهلاكه بعد خروج فصل إنتاجه.

منافع كثيرة وجليلة قدّرها الله تعالى لخلقه – بشرا وحيوانا ونباتا وأرضا بخلقه للشّمس، وهي منافع يعرفها العلماء والعقلاء والمتدبّرون في خلق الله سبحانه، فيقرّون لله تعالى بفضله عليهم ويشكرون له تعالى ويسبّحون بحمده ليلا ونهارا لا يفتُرون، وما ينكرها إلاّ الجاحدون والغافلون عن ذكر الله عزّ وجلّ.

إذن جاء القسم في هذه الآية بالشّمس، وبضيائها بما يصدر عنها من أشعّة في ضحاها إيذانا بالدخول في يوم جديد، وذلك لتدبّر عظمة الخالق فيما خلقه، ولتدبّر حسن تدبيره، وحكمة تقديره فيما قدّر لخلقه للانتفاع به لحياتهم ولضمان سلامة وجودهم وليعرفوا فضل ربّهم عليهم ونِعَمَه عليهم فيما دبّره لهم، وما هذا إلاّ ليؤمنوا به خالقا عظيما ومُنْعِمًا ذا فضل عظيم عليهم، وليصدُقوا في طاعته، ويثابروا على التّسبيح بحمده وبجلاله.

- **وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا (2) :**

وقسما بالقمر إذا عوّض الشّمس في الإضاءة حين تغيب بحلول اللّيل المظلم، القمر يبدّد تلك الظلمة المخيفة بانعكاس أشّعة الشّمس عليه، وبهذا لا يحرم من غابت عنهم الشّمس من نور يضيء لهم الطريق في السفر، ويؤنس من كان في بيته، وهذا من نعمة الله تعالى على خلقه حتى لا يعدموا الضوء والأنس به طردا للوحشة وشيء من الدُلجة، ومن تدبيره تعالى الحكيم.

- **وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا (3) :**

وقسما بالنّهار الذي يظهر الشّمس بوضوح كامل، وذلك حين تبسط أشعّتها المضيئة على سطح الأرض الواقع في واجهتها بأكمله.

- **وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا (4) :**

وقسما بزمن اللّيل إذا غشّى الشّمس، أي أذهب ضوءها عند غيابها في الأفق. والشّمس لا تُغشى، ولكنّه تعبير مجازي يُشير إلى التحوّل من الضّياء إلى الظُلمة، كأنّ ستارا أسود حالكا قد أُسْدِلَ على الشّمس مع سدّ منافذ كلّ إضاءة، وقد أُسدل هذا الغشاء على الشّمس للذهاب بضيائها ليجد النّاس راحتهم عند نومهم، وليحصل لهم السَّكَنُ، وهذا من حسن تدبير الله عزّ وجلّ ومن حسن إنعامه على خلقه من البشر ليجدوا زمنا لراحتهم بعد عناء الشغل وتعب النّهار، فهلاّ كانوا عبادا شاكرين.

والملاحظ أنّ هذه الآيات بتفصيل حال الشّمس عند ظهورها أوّل بزوغها وعند الضحى، وعند تجلّيها في النّهار، وعند غروبها وظهور القمر، وعند اِختفائها في ظلمة الليل قد جَمعت في ألفاظ قليلة كلّ أحوال الشّمس عند ظهورها نهارا: عند ضحاها، وعند تمام ظهورها ظهرا، وعند غروبها، وكذلك حال اِختفائها إذا اللّيل غشّاها. وجاء هذا العرض في جُمَلٍ قصيرة، جميلة الإيقاع، وفي تعبير مجازي في الآيتين الثانية والرابعة، وهذا من بلاغة القرآن وإعجازه.

وإنّ القسم في هذه الآيات– شأن كل قسم في القرآن الكريم– لا يُقصد به الحَلِفُ بمثل ما يُستعمل في لغة البشر، وإنّما يُقصدُ به التنبيه لآية من آيات الله تعالى العظيمة الدالّة على عظيم خلقه، أو الدالّة على آية من آيات إنعامه، وآلاء تكريمه لخلقه بحسن تقديره لصالحهم، أو حسن تدبيره.

- **وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا (5) :**

وقسما بالسّماء، فانظروا كيف خلقت، وانظروا في عظمتها رفعةً واِتّساعا، وقسما بكيفيّة بنائها وكيفيّة إقامتها محكمةً، متقنةً بغير أعمدة كما ترون، فهلاّ نظرتم كيف جُعلت لكم السّماء سقفا محفوظا، وكيف أقيم هذا السقف وبُني بغير أعمدة. قال تعالى (ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)(الرعد الآية2).

والسّماء هو الفضاء الخارجي للأرض، وهو فضاء عظيم الخلق في سعته وعلوّه وفي جهلنا بأسراره، وجهلنا بإحصاء ما فيه من كواكب، وكويكبات، وأجرام، ومسارات، وطرق، وعوالم مظلمة، وإنّا رغم تقدّم الإنسان في كشوفاته الفلكيّة ما نزال نجهل الكثير من خواصّ تكوينها وقيامها. ولكلّ كوكب في السّماء مداره لا يخرج عنه، يسير فيه في مسار دقيق، وفي زمن دقيق جدّا ليس فيه اختلال ولا اِضطراب من حسن تقدير الخالق وحسن تدبيره. ومن كواكب السّماء ما يكشف بانعكاس أشعّة شمسه عليه، ومنها ما هو مظلم وهو موجود ويدور ولا ينعكس عليه ضوء.

السّماء عالم مليء بالأسرار، وليس للعقل البشري قدرة على اِستيعاب سعته ومعرفة خواصّه وإدراك عظمته. الغرض من القسم بالسّماء في هذه الآية وبسرّ بنائها حفز عقل الإنسان للتأمّل في خلقٍ من خلق الله تعالى ليعرف عظمته وليقرّ له تعالى بألوهيته فيؤمن به ربّا وليُطيعه لما يرشده إليه لينال خيرا في آخرته ويُكرم كما أُكْرِمَ في دنياه بخلقه.



- **وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا (6) :**

(الطحو) هو البسط. والقسم في الآية بخلق الأرض – وهو شأن عظيم بالنظر في مكوّناتها وفي ما تحمل على سطحها، وبما تدّخر في باطنها، وبما طحاها ليجعلها صالحة للإقامة عليها وللبناء عليها وللسعي في أرجائها – وهذا شأن عجيب وهي التي في شكل بيضوي، وكل ما يوجد فيها من كائنات وبحار ومياه وبنايات قائمة على سطحها سقفها غلاف جوي غازي. ما أعجبه من خلق! وما أعجبه من تقدير وتسيير ! إنّه لأمر عظيم لمن تدبّره.

وإنّ لفظ (مَا) في (وَمَا طَحَىٰهَا) هو اِسم موصول لغير العاقل، يشير للتفكّر في السرّ الذي أودعه الله تعالى في مكوّنات خلق الأرض لتكون منبسطة لتصلح للإقامة عليها وهي شبه كروية، وثلثا سطحها من ماء، وفي الثلث الثالث الصالح لإقامة البشر وما خلق تعالى من دوابّ، فيه جبال وأودية وطرق وعرة ومسالك للسير، وأراضٍ زراعيّة، وغابات وواحات لم تجعل للإقامة، فماذا بقي من هذا الثلث لسكنى البشر ولمدافنهم. وإنّ كلّ ما وُجد على سطح الأرض من بشر ودوابّ وبنايات وبحار وأشجار ونباتات إنّما أقدامهم، أو قواعدها، أو جذورها هي على سطح الأرض ورؤوس العباد والأشجار وسطح المياه في البحار والمحيطات في هوائها كأنّ كلّ شيء مغروس فيها كغرس الدبابيس على سطح كرة. كلّ شيء ثابت على سطحها في إقامته وسعيه، أو في بنائها، وفي تموّج مياه البحار، والأرض تدور على نفسها بسرعة عجيبة على الدوام ولا يسقط من فوق سطحها شيء في فضائها، وتدور كذلك حول الشّمس على مدار سنة. فما الذي يمسك ما عليها ويُثَبِّتُه على سطحها المكوّر؟ هذا هو موضوع البحث عن المقصود باسم الموصول (مَا) في (وَمَا طَحَىٰهَا). وما يعلم كيفيّة هذا التقدير إلاّ الله عزّ وجلّ.

وقد جاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تبيّن فضل الله تعالى في خلق الأرض، وفي بيان عظيم خلقه، وفي ما ادّخر في باطنها من كنوز وأرزاق لعباده، وفي تنظيم تقدير الأقوات لمن عليها يحسن الوقوف عندها ليزداد المؤمن إيمانا بعظيم خلق الله تعالى وحسن تدبيره وتقديره. من ذلك قوله عزّ وجلّ (قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ)(فصلت الآيتين 9–10).

- **وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا (7) :**

وقسما بنفس الإنسان، وقسما بالتقدير الّذي أنشأها وعدّلها. وليس من شيء قد حيّر العقلَ البشري فهمُه في خلق الإنسان منذ القِدَمِ إلى الآن مثل مسألتي: الرّوح والنّفس. لا يُعرف للرّوح، ولا للنّفس مستقرّ في البَدَنِ. عبّر القرآن الكريم عن الروح بأنّها نفخة تلقى في الجسم فيتحوّل الجسم إلى كائن حيّ، فإذا أُنتزع منه صار ميّتا، وتحوّل إلى مادّة متحلّلة في باطن الأرض. ومن

أسس العقيدة الإيمانية السليمة أن يؤمن المؤمن بأنّ الرّوح عند اِنتزاعها من الجسم التي كانت فيه تُرفع إلى البرزخ، حتّى إذا أذن الله سبحانه بانتهاء الحياة الدنيوية، وأذن بقيام الآخرة عادت الرّوح لذاك الجسم ليُبعث من جديد ليقوم للحساب حيّا، وهو ما يُسمّى بعودة الرّوح.

ولا يعرف للنّفس مستقرّ في الجسم كذلك لأنّه يُعبّر عن الذات البشرية بالنفس، ويعبّر بها كذلك عن طباع الذات، وأخلاقها ومميّزاتها. وللنّفس البشريّة علوم خاصّة بها، منها علم الطبّ النفسي، وعلم النّفس الّذي هو من علوم المنطق والفلسفة، وهو من علوم التربية والأخلاق، وهو علم يبحث في خصائص النّفس البشريّة السلوكيّة، وفي الوراثة الجينية، وفي الطبائع، وفي مكتسبات الأخلاق والعلم. والنّفس مستقرّ للعقل والفكر والتدبير وللإلهام الذي تحدّثت عنه الآيات الموالية، وهي قابلة للتهذيب وللتوجيه ولمقاومة أهوائها، وهي مؤثّرة على السلوك. أسرارها كثيرة وأنواعها متعدّدة، فمنها النفس المُلْهمة، ومنها النفس اللوّامة، ومنها النفس الشريرة، ومنها النفس الزكية، ومنها النفس الماكرة الشيطانية، وذات العناد، وذات الكبرياء. وإنّ موضوع القسم في الآية في ذات النفس، وفي خصائصها كذلك. وقد عبّر لفظ (مَا) في (وَمَا سَوَّىٰهَا) عن تدبّر عناصر نشأتها وتعديل خصائصها. وهما أمران مختلفان إذا نظر الإنسان بعمق في نشأة نفسه في ذاته لَعَلِمَ قدرة ربّه تعالى فيما خلق فيه، وما خلق له، وفي مسؤوليته في حمل نفسه على الاستقامة على دين الله تعالى، وفي تعهّدها لملازمة شكر الله تعالى على فضله إذ قدّر تعالى فهدى.

- فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا (8) :

ومن فضل الله تعالى على كلّ آدميّ أن جعل له في قرارة نفسه وفي مكوّناتها التي سُوِّيت بها وخصّت رحمة به، جعل له المرشد الذي يهديه للعمل الذي له فيه منفعة، والذي يشعره بعدم الرّاحة والطمأنينة حين يَهُمُّ بعمل قد يَضُرُّ به، ويَسُوؤُه فيجعله يتردّد في فعله، ويجعله غير مرتاح للإقدام عليه، ويجعل نفسه تحدّثه بشرّ متوقّع منه بعد فعله.

هذا المرشد الذي أوجده تعالى في نفس كلّ آدمي لهديه ليعمل العمل الذي له فيه منفعة، والذي ينبهّه لشرّ متوقّع من عمل ينوي فعله ليردّه عنه، ولينتبه لسوء عاقبته وضرره عليه في دنياه وعاقبته هو "الإلهام".

"الإلهام" عند علماء النفس هو حدوث علم في النّفس بدون تعليم، أو تجربة، أو دليل، وبلا تفكير، ولكنّه من رحمة الله تعالى بخَلقِه، جعله في خَلْقِ كلّ نفس بشريّة يميّز بين ما فيه خير له، وما فيه شرٌّ له، ما فيه نفعٌ له أو فيه ضُرٌّ. وهو في البهائم: الغريزة. البهائم ترشدها غرائزها لما ينفعها ولما يضرّها. وأمّا الآدميون فعندهم في أنفسهم "الإلهام" الذي يرشدهم للخير، وينبّههم لما فيه شرٌّ لهم.

ومصداق هذا قوله عزّ وجلّ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾(الأعلى الآيات 1-3). فمن حسن تقدير الله عزّ وجلّ حين خلق الإنسان أن جعل له في نفسه ما يرشده للهدى، وما يحذّره من الشرّ ليحذره ويبعد عنه حتى لا يضرّ بنفسه في حياته وفي عاقبته.

و"الإلهام" لفظ مُحدَثٌ وجديد على العرب زمن نزول القرآن، هو من مبتكرات القرآن الكريم وإبداعه، ودليل ذلك أنّهم لم يكونوا يذكرونه في حديثهم وأشعارهم وفي ضرب المثل.

ولفظ "الفجور" في الآية يعني تجاوز الحدّ في الظلم. وهذا يعني أن كلّ ظالم حين يظلم نفسه بالكفر، أو حين يظلم غيره بالاعتداء عليه فإنّه يعلم في قرارة نفسه أنّه يظلم ويفجر، فلا يقولنّ إذا قام للحساب وكان في حياته ظالما أنّه ما كان يعرف أنّ عمله كان من الظلم، من اِدّعى هذا عند الميزان كذّبته نفسه. قال تعالى ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾(النحل الآية 111).

إذن فإنّ معنى الآية يفيد بأنّ الله عزّ وجلّ قد وهب كلّ نفس وسائل الإدراك لتقييم ما يريد فعله وما ينوي عمله ليميّز بين ما يدلّ على تقواه، وخشيته من ربّه بفعل ما يدلّ على اِمتثاله لأمره تعالى بفعله، وما يدلّ على الفجور والظلم لنفسه بكفره وجحوده وهزئه بوعيد ربّه وما يدلّ على ظلمه لغيره بفعله.

وبهذا الإلهام يُوَفَّقُ الإنسان ليعرف فضل خالقه وبالإنعام عليه بنعمة الوجود وتسوية خلقه وتكريمه باستخلافه في الأرض فيكون بهذا الإلهام مهتديا لربّه وتقيّا وشاكرا لربّه بالعمل بطاعاته وبامتثاله لربّه وبحرصه على عبادته مخلصا له الدّين. وهذا من حسن التّقدير الربّاني في خلق الإنسان ومن حسن التدبير. في كلّ نفس بشرية نفسٌ لوّامة يُعبّرُ عنها بالمصطلح الحديث: "الضمير"، وهو الذي يُعَرَّفُ بأنّه الصوت الباطني الّذي يراقب نوايا النفس وعملها فيؤنبّها عند الخطإ أو المعصية، ويشعرها بالرّضى عند فعل الخير، والإقبال على صالح الأعمال التي فيها نفع لها ولغيرها...

- قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (9) :

"الفلاح" هو الفوز بالرّبح والكسب الحسن نتيجة عمل سابق فيه من بذل الجهد ما كان متعبا وشاقا في مثابرة ومتابعة يوميّة، كشأن الفلاّح فإنّه لا يكسب الثمرات إلاّ إذا حرث الأرض وخدمها ثمّ غرسها أشجارا أو أطمر فيها حبّا، وتابع عمله بالسقي لريّ الأرض والنّبات متابعة دائما بما يحفظ زرعه أو غرسه من الطفيليّات، ثمّ يجني جنيه بعد لأْيٍ. وقد جاء في النداء للصلاة بعد حيّ على الصلاة: حيّ على الفلاّح بمعنى تعال للصلاة بعد أن تعدّ له من طهارتك وطهارة لباسك وصدق إيمان، ثمّ قم لطاعة ربّك، وثابر على صلاتك وطاعة ربّك.

وقد فاز برضوان الله تعالى وبرحمته وجنّة تكريمه يوم لقائه من زكّى نفسه: أي طهرها من الشرك، فحملها على الإيمان الصادق الحقّ وعلى عمل الطاعات، والعمل الصالح.

- وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا (10) :

وقد خسر آخرته، وفرّط في الربح من حياته من أقحم نفسه في المعاصي والغوايات، ودسّ لنفسه وجعلها في جملة الكافرين والمذنبين والغافلين عن ذكر الله وطاعته.

والآيتان: قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها هما جواب القسم الذي ورد في الآيات الثمانية السابقة وهما محلّ العبرة في السورة كلّها: الحضّ على تزكية النفس بحملها على طاعة الله تعالى وصدق الإيمان مع الحذر من دسّها في صحبة الكافرين العصاة المذنبين.

- كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ (11) :

هذه الآية إلى آخر السورة في تحذير المشركين المكذّبين بالدين وبالرسول صلّى الله عليه وسلّم من عاقبة مهلكة كسوء عاقبة قبيلة ثمود، وهي قبيلة نبيّ الله صالح عليه السلام.

ومعنى الآية: كذّبت قبيلة ثمود بالدين الحقّ: دين التوحيد، دين الإيمان بالله وحده، لا شريك له ولا ندّ، وبرسولهم، صالح عليه السلام، وبوعيد الله طغيانا وإصرارا على الشرك والمعصية ورفضا للاهتداء لدين الله الحقّ عنادا وكفرا.

- إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا (12) :

وأذكر إذ تقدّم أشقى رجل في القبيلة، وأعتاهم، وأشدّهم عنادا وكان زعيما فيهم إلى نبيّهم صالح عليه السلام فطلب منه أن يأتيهم بمعجزة يشهدونها بأعينهم ليؤمنوا به، وبما يدعوهم إليه من دين، فأخرج الله تعالى لهم – وهم يبصرون – ناقة من حجرة صمّاء كبيرة في جبل عظيم.

- فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا (13) :

وأمرهم رسولهم بأن لا يتعرّضوا للناقة التي أخرجها الله تعالى لهم من صخرة عظيمة من جبل وهم يبصرون بأذى حين تسرح، وحين تشرب، وجعل لهم رسولهم يوما لشربهم، ويوما لسقي الناقة. وحذّرهم رسول الله إليهم من التعرّض لها حتّى لا يلحقهم عقاب الله وإنتقامه.

- فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا (14) :

فكذّبوا بالوعيد وإستبعدوه، ونادوا صاحبهم فعقر النّاقة. قال تعالى (وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)(القمر الآيات 28–30). ولقد عاقبهم الله عزّ وجلّ بسبب طغيانهم، وإستخفافهم بوعيد الله سبحانه، فأرسل عليهم صيحة قويّة شديدة مدويّة زلزلت الأرض تحت أقدامهم، ودكّت بيوتهم على رؤوسهم، وهدم عليهم القرية، وسوّاهم وأبنيتهم بالأرض، وردمهم، وكان هلاكهم مدويّا، عبّر لفظ (فَدَمۡدَمَ) في الآية عن هذا الهلاك المدوّي وعن صوت الصيحة الشديد المفزع.



- **وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا (15) :**

معنى هذه الآية موجّه لمشركي مكّة. إنّه تعالى لا يعجزه أن يعاقب أيّ أمّة من الأمم بمثل سوء عاقبة ثمود إن كانوا بمثل تكذيبهم بدين الله تعالى وبرسوله وبوعيده، وإذا كانوا بمثل عنادهم وطغيانهم. قال تعالى (إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ)(سبأ الآية 9)، فإنّ عذاب الإهلاك لا يعجز الله تعالى في شيء، ويستبدل الله تعالى بالمهلَكين قوما آخرين. ولا يخاف رسول الله عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضررا يعود عليه وعلى أتباعه لأنّ الله عزّ وجلّ منجيه وأتباعه من الهلاك الذي لا يُصِيبُ إلاّ القوم الكافرين.

رقمها	سورة اللّيل	آياتها
92	مكية	21

سمّيت بسورة "اللّيل" لافتتاحها بالقسم بالليل، وهي سورة مكية.

وهي سورة في التّرغيب في الطاعات لوجه الله تعالى، وفي التحذير من التكذيب بالدين، والتولّي عن طاعة الله عزّ وجلّ.

- وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (1) :

قسما باللّيل حين يغطّي بظلمته الشّمس، والأشياء كلّها، ويشعرنا هذا القسم بأنّ تقدير اللّيل في حياة البشر من حسن التدبير لما فيه من تنظيم لسير حياتهم اليوميّة ليجدوا زمنا للرّاحة من عناء سعيهم في نهارهم طلبا لرزقهم وللاشتغال بأعمالهم، وليجدوا زمنا لسكنهم في بيوتهم مع أزواجهم. قال تعالى (قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ)(القصص الآية 72).

- وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (2) :

وقسما بالنّهار حين يظهر ضوؤه وتتّضح كلّ الأشياء. وكذا كان من تقدير الله عزّ وجلّ وحده أن دبّر للإنسان قبل خلقه زمنا لنشاطه ولعمله ولسعيه لقوته ومعاشه وزمنا لراحته وسكنه. قال تعالى (قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ)(القصص الآية 71). فإنّ تعاقب اللّيل والنّهار للنّاس آية من آيات الله تعالى الدالّة على حسن تقديره وحسن تدبيره في تنظيم حياة البشر لذلك كان القسم بهما في مفتتح السورة ليعلم النّاس فضل ربّهم عليهم لعلّهم يشكرون. وإنّهما آيتان لقوم يتدبّرون فيما يبصرون من آيات الله الكونية المشاهَدة، ويسمعون لما جاءهم من القرآن ليهتدوا به لربّهم الحقّ فلا يعبدون إلاها آخر سواه. فماذا بعد هذا البيان غير العمى والصمم ليبقى على الضلالة والجهالة!

- وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (3) :

وقسما بـ (مَا) خلق الذكر والأنثى، أي قسما بالتقدير الّذي جعل أمر اِختيار جنس المولود بيده تعالى. قال تعالى (لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ)(الشورى الآيتين 49-50). وهذا هو موضوع القسم. فأمر اِختيار جنس المولود للإنجاب ليس خاضعا لإرادة الزوجين، بل هو أمر

خاضع لتقدير الله عزّ وجلّ. وكلّ من لا يرضى بجنس وليده إذا كانت أنثى ويثور غضبا على زوجه أو يندب حظّه فإنّما هو يسخط على قضاء الله تعالى وتقديره. ولو كان الإنجاب خاضعا لإرادة البشر لأُنقطع نسلهم أو قلّ لحبّ الرجال لجنس الذكر، ولكراهتهم لجنس الأنثى. ومن حكمة الله في التقدير أن يجعل هذا الأمر خاضعا لإرادته حتى يحقّق التوازن على وجه الأرض في خلق الجنسين، وأُنظروا في نسبة المواليد في كلّ بلد في العالم فستجدونها متناصفة أو متقاربة.

وجعل تعالى إنجاب الذرية: ذكرانا وإناثا من أفضل نعمه على الأزواج، لا يدرك فضيلة هذه النّعمة وأهميتها في حياته لتحقيق سعادته في حياته الدنيوية وطمأنينته على حياته عند كبره إلاّ من حُرم من هذه النعمة وكان عقيما أو كانت زوجته عاقرا.

- إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ (4) :

هذا جواب القسم. إنّ أعمالكم مختلفة في الجزاء. ومعلوم أنّ أعمال النّاس في دنياهم مختلفة في التوجّه وفي الغاية والمقصد. فمن النّاس من يعمل صالحا، ويسعى بالخير، ومنهم من يفسد في الأرض بظلمه وطغيانه من أنانيته، ومن حبّه للجمع وللشهوات، وتفكيره وتدبيره في كلّ مكر سيّء. ومنهم المؤمنون، ومنهم الفاسقون، والكافرون، والمنافقون، فهم في أعمالهم ومساعيهم مختلفون، وليسوا سواءً، وسيكون جزاؤهم عند محاسبتهم على أعمالهم مختلفا في التقدير والتكريم، أو في الإهانة والإذلال.

- فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (5) :

هذه إلى الآية 11 في تفصيل اِختلاف أعمال العباد، وفي ما يقابل عمل الخير من الجزاء، وما يقابل عمل الشرّ من العقاب. ومعنى الآية: فمن كان يبذل ممّا رزقه الله تعالى من مال أو من خيرات أرضه إحسانا لفقير محتاج، ومؤازرة لمسكين معاق، أو في إنجاز مصلحة عامّة للعباد، وكان في ذاته تقيّا: صادق الإيمان بربّه وبقيام يوم للحساب للجزاء، فكان يطمع في المثوبة، ويتقّي بما يعمله من عمل صالح عقاب ربّه...

- وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (6) :

وكان مؤمنا بدار المثوبة والتكريم في الآخرة من حسن إيمانه وإسلامه، وكان يطمع في أن يكون من أهلها في أصحاب الجنّة، ولهذا السبب كان يحسن بماله وكان تقيّا، ولم يكن بفعله الخيري مرائيا.

- فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ (7) :

هذا المؤمن التقيّ المنفق ممّا رزقه الله تعالى طمعا في الجنّة يَعِدُه الله سبحانه بأن يوفّقه ليُسهّلَ له الطريق إلى الأمان والرّاحة والسعادة والنّعيم والتكريم.

- وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (8) :

وأمّا الذي كان على نقيضه يمنعه حبّه الجمّ للمال وللثراء ولامتلاك المكاسب من أن ينفق ممّا آتاه الله تعالى من فضله على الفقراء والمحتاجين وفي المصالح العامّة، ويبخل بماله فلا يحسن لأحَدٍ.

- وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (9) :

وكان لا يؤمن بيوم الحساب، ولا يؤمن بالجنّة ولا بالوعيد، وكان يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة الّتي يكذّب بها.

- فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ (10) :

هذا البخيل المكذّب بيوم المثوبة وبدار الجزاء فسيسهّل عليه طريقه المؤدّي إلى المشقّة والشدائد.

- وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (11) :

وإنّ ماله الذي حرص طول حياته على جمعه، ولم ينفق منه شيئا في وجوه الإحسان والبرّ لن يدفع عنه أجله إذا حضر مهما كثر ماله، ولن يدفع عنه الشدائد إذا قام للحساب، وأدخل جهنّم بسبب كفره وطغيانه.

- إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ (12) :

هذه الآية إلى آخر السورة في موعظة الإنسان ليهتدي لربّه حتّى ينقذ نفسه في آخرته من الشقاوة والندم والعذاب. ومعنى الآية: إنّ الله سبحانه يدلّ على الحقّ، ويبيّن طريق الرّشاد على ألسنة رسله، وفيما ينزل من كتبه، وفي ما يلهم به عباده في أنفسهم، وفيما وهبهم من عقل وقلب ونظر. وإنّ الهدى في العمل بأحكامه جلّ وعلا، وفي الاتّعاظ بمواعظه، وفي التخلّق بما رغّب في الاتّصاف به، وفي البعد عن نواهيه، وإجتناب المعاصي واتّباع الهوى والشهوات، وفي أداء طاعاته الّتي أمر بها من عبادات تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتربّي على الصبر والدعاء، وتقيم على الاستقامة في العمل وفي القول وفي السلوك وفي المعاملات مع الآخر.

- وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ (13) :

هذه كقوله تعالى (مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ)(النساء الآية 134). فمن طلب الدنيا وطلب الآخرة فعليه أن يطلبهما من عند مالكهما، ولا يلتجئ لأحد غيره. تؤتى الدنيا بالعلم والعمل والإخلاص فيه وبالدعاء بالتوفيق فيهما، وتطلب الآخرة بالإيمان والطاعات والعمل الصالح. لا تؤتى الدنيا بالتّحيّل وبالظلم والإفساد في الأرض وبالغصب والغشّ، ولا تؤتى الآخرة لمن لم يعمل لها. وقال عزّ وجلّ (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ)(الشورى الآية 20). وهذا ممّا يؤكّد على أنّ ثمار

الدنيا لا تطلب إلاّ من عند الله عزّ وجلّ ومن كان يريد ثواب الآخرة فإنّ مالك الآخرة هو الله تعالى فعليه بالعمل بما أمر به، وعليه بطاعته في ما أمر. الدنيا الأولى والآخرة ملك لله وحده، فلنسأل خيرهما من عند مالكهما الحقّ.

- فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ (14) :

الخطاب في الآية من الله عزّ وجلّ إلى النّاس كافة، إنّه تعالى يحذّرنا من التّعذيب بنار تلتهب وتتوقّد ولا تخمد في جهنّم. فالحذر الحذر من الوقوع فيها وزجّ النفس فيها....

- لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى (15) :

لا يدخلها، ويزجّ فيها إلاّ الّذي كثرت معاصيه ولم يكن مؤمنا، وإختار لنفسه الشقاوة والهلاك والتعاسة.

- ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (16) :

وذلك لأنّه كذّب بالدين: كذّب بالله ووحدانيته، كذّب برسله، وباليوم الآخر، وبالبعث والوعيد. وأعرض عن ذكر ربّه، وعن العمل بأحكامه وشرعه، وعن طاعته، فعمل بهواه، وأغرق في المعاصي والشهوات المحرّمة، فما أصبره على النّار الموقدة.

- وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى (17) :

وسيبتعد عن النّار الملتهبة الأكثرُ إمتثالا لأمر ربّه، وإجتنابا لنواهيه، والأكثرُ خشية من الله عزّ وجلّ ومن عقابه.

- ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (18) :

الّذي يكثر من الصدقات ومن البذل في وجوه البرّ والإحسان تطهيرا لنفسه من الذنوب، ورغبةً في أن يلقى ربّه زَكِيّ النّفس، ولا يطلب بإحسانه رياءً ولا سمعةً.

- وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ (19) إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (20) :

ولم يكن ينتظر جزاءً من أحد من صدقته وإحسانه في وجوه البرّ، وما كان ينتظر شكرا ومدحا من أحد تَصدَّق عليه، وإنّما كان يرجو بصدقاته وإحسانه وجه ربّه العليّ المتعالي، ويرجو بها التقرّب إليه بعمله الصالح، ويرجو بها رضوانه تعالى.

- وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ (21) :

هذه بشرى من الله عزّ وجلّ لكلّ تقيّ كان يعمل صالحا إبتغاء وجه ربّه الأعلى في صدقة ماله، وفي طاعته لربّه. يبشّره الله عزّ وجلّ بأن يؤتيه من الفضل والكرامات والنّعيم الدائم حتى يرضى بما عنده ولا يطلب مزيدا. قال تعالى (جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ)(البيّنة الآية8).



رقمها	ســـورة الضحـــــى	آياتها
93	ـــــ مكية ـــــ	11

سمّيت هذه السورة بسورة "الضحى" لافتتاحها بالقسم بالضحى، وهي سورة مكية من أوائل السور تنزيلا بعد فترة تأخّر فيها الوحي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وموضوعها في تسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّ الله تعالى ما وَدَعَهُ، وهو تعالى الذي حفّه بألطافه في صغره: في يُتمه وفقره، وفي شبابه إذ أدّبه على خلق الهدى.

وقد نزلت هذه السورة بعد فترة من اِنقطاع الوحي عنه فشمت فيه الشامتون.

- وَٱلضُّحَىٰ (1) وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ (2) :

قسما بوقت ظهور الشّمس وبدء اِرتفاعها في السماء، وقسما بالليل إذا اِشتد ظلامه واِستوى، وسكنت فيه الحركة. وأعجبني قول أحدهم بأنّ القسم بـ(ٱلضُّحَىٰ) هو قسم بالنور الذي في قلوب العارفين كهيأة النّهار، وقسما بـ(وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ) هو قسم بالسواد الذي في قلوب الكافرين كهيأة الليل. أعجبني هذا القول لما فيه من رمزيّة لأنّ السورة في ردّ شماتة الشامتين بالرسول صلّى الله عليه وسلّم حين تأخّر عنه الوحي. قال ابن جريح: "اِحتبس عنه الوحي اِثني عشر يوما". وقال ابن عبّاس : "خمسة عشر يوما". وقال مقاتل: "أربعين يوما". في هذه الفترة أظهر المشركون شماتتهم به صلّى الله عليه وسلّم وسخريتهم فقالوا: إنّ محمدا ودّعه ربّه وقلاه.

وأعجبتني تلك الرمزية لما في السورة من تذكير الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بألطاف الله تعالى الّتي حفّت به منذ ولادته.

- مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (3) :

هذا جواب القسم السابق، ما تركك الله عزّ وجلّ – يا نبيّ الله – لنفسك منذ أن اِختارك للنّبوّة، وما أهملك، و(وَمَا قَلَىٰ) أي وما أبغضك وكرهك كما يدّعي المشركون شماتة وحسدا من عند أنفسهم.

- وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ (4) :

هذه في بشارة النّبيّ بمزيد تكريمه، وهي لإغاظة حاسديه. فَمَعَ تكريمه في دنياه بالنّبوّة فقد أعدّ الله تعالى لآخرته ما هو أعلى درجة في التكريم والتشريف، إنّه صلّى الله عليه وسلّم رفيع



المنزلة عند ربّه في دنياه وقد شرّفه بالنّبوّة والرّسالة، وله في آخرته منزلة عظيمة في التكريم. وفي هذه الآية تسلية له صلّى الله عليه وسلّم وطمأنة.

- وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ (5) :

وفي هذه بشارة أخرى له بأن يعطيه ما يرجوه صلّى الله عليه وسلّم في آخرته من الخير حتّى يكتفي ولا يطلب مزيدا. وما كان نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم يرجو لنفسه شيئا، وإنّما كان يرجو أن يهتدي قومه للإسلام، وكان يرجو أن يظهر الله تعالى إلى دينه حتّى لا يكون على وجه الأرض إنسان ضالّ عن ربّه وعن دينه الحقّ، وكان يرجو أن تزكو أنفس النّاس جميعهم من الشرك وأن تتطهّر الأرض من الشرك ومن المعاصي، وكان صلّى الله عليه وسلّم يسأل ربّه أن يؤتيه الوسيلة والدرجة الرّفيعة ليكون شفيعا مشفّعا في أمّته يوم القيامة حتّى لا يدخل أحدٌ منهم جهنّم، ولَكَمْ كان يحزنه إعراض قومه عن دعوته لهم للهدى وللاستقامة على دين الله الحقّ.

- أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ (6) :

هذه الآية مع الآيتين المواليتين في تذكير النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بألطاف الله تعالى الّتي حفّته منذ صباه. فقد كان من فضل الله عزّ وجلّ أن جعل له الكافل حين وُلد، فقد توفي والده وهو جنين في بطن أمّه، ثمّ ماتت أمّه وهو صغير في سنٍّ مبكرة، فكفله جدّه عبد المطلب ورعاه رعاية حسنة، ثمّ لمّا مات جدّه تولّى عمّه: أبو طالب كفالته ورعايته.

- وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ (7) :

ووجدك ربّك لا تعرف أحكام الشرائع فوفّقك إلى منهج الحقّ بما أوحى إليك. والضلال هنا ليس يعني الحياد عن الصواب، وإنّما يعني أنّه كان يعيش في قوم يعبدون الأصنام وكانوا مشركين فهداه الله تعالى لأن لا يكون على دينهم، ولا على عاداتهم في بعدهم عن الصواب.

تفضّل الله تعالى عليه بأن جعله يعيش بعيدا عنهم في البرية يرعى الأغنام، فلم يخالطهم، وبهذا لم يسمعوا منه صلّى الله عليه ولّم طيلة أربعين عاما شعرا، ولا قولا في شريعة أو في عقيدة، ولم يسمعوا منه صلّى الله عليه وسلّم نهيا عن عبادتهم للأصنام ودعوة للتّوحيد، بل كان بفضل ما أدبّه الله تعالى عليه حسن الخلق حتى لقّبوه بالصادق الأمين صلّى الله عليه وسلّم.

وبهذا الفضل الذي أنشأه الله تعالى عليه، ثمّ لمّا زاده الله جلّ وعلا تكريما وتشريفا بتكليفه بحمل رسالته تعالى للإسلام للنّاس كافّة لم يجد في قومه من يذكّره بما كان يفعل معهم من قبل من تعبّد بآلهتهم لأنّه صلّى الله عليه وسلّم لم يفعل ولم يتعبّد يوما بما يتعبّدون به، وما اِستطاعوا أن يطعنوا في صدقه وأمانته لمّا بلّغهم بما أوحي إليه إلاّ ما كان من بعضٍ من حاسديه. الآية تُشير لفضل الله تعالى على نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بإحاطته بهداه وبعنايته منذ صباه حتّى يكون زَكِيّ القلب والنفس.



- وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغۡنَىٰ (8) :

ولقد كنت – يا نبيّ الله – فقيرا، فأعطاك الله سبحانه ما يكفيك ومنحك ما تحتاج إليه دون أن تحتاج إلى أحد، لقد كفاك الله تعالى وأغناك عن النّاس رغم فقرك، فأُذكر هذا الفضل لتعلم أنّ الله سبحانه قد حباك بعنايته وحفّك بألطافه في حياتك حتى لا يمْتَنَّ عليك أحدٌ بفضله عليك لمّا تكون سيّد الخلق جميعهم بحمل رسالة ربّك إليهم.

- فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ (9) :

هذه الآية مع الآيتين المُواليتين في الأعمال الّتي يرغّب الله تعالى فيها عباده المؤمنين ليكونوا عبادا شاكرين على ما أنعم عليهم من الهدى للإيمان، ومن إدرار الخيرات عليهم فأغناهم بها عن الحاجة للغير. والخطاب في هذه الآيات في صيغة الإفراد، وهو خطاب يعني كلّ فرد من المؤمنين. وأوّل هذه الأعمال التي يرغّب فيها الله تعالى عبده المؤمن بأن يرعى اليتيم الذي في كفالته بحسن المعاملة وبالأمانة، فلا يقهره بأكل ماله الموروث بدون وجه حقّ كالتصرّف فيه بتبذيره فيما لا ينفعه في مستقبل أيّامه، أو بإذلاله كلّما جاءه يطلب شيئا من حقّه فيه. اليتيم أولى النّاس بالرعاية وبملاطفته في مخاطبته وفي التعامل معه لتعويضه في فقد أبيه. فقد دلّت الآية على أنّ من أفضل أعمال البرّ: اللطف باليتيم، وبِرّه، والإحسان إليه ليكون له كالأب الرحيم، وإنّ قهر اليتيم من اللؤم ومن قسوة القلب، وهذا من أرذل الأعمال التي لا يرتضيها الله تعالى من عبده إذا كان مؤمنا.

- وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ (10) :

ومن حسن خلق المؤمن أن لا يردّ سؤال السائل دون بذْلٍ، فإن لم يجد ما يبذل له، ردّه ردًّا جميلا دون نَهْرٍ يدلّ على الاحتقار والمهانة والجفوة. قلب المؤمن رقيق، عطوف، والله تعالى يحبّ المحسنين. والإحسان من خلق النبيل الكريم.

- وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ (11) :

وهذه تحضّ على التحدّث بنِعم الله تعالى إعترافا بفضله عزّ وجلّ، وهذا الاعتراف من باب الشكر لله عزّ وجلّ على فضله. فالتحدّث بالنّعم من الشكر. ولا أحد يستطيع أن يحصي نِعَم ربّه عليه. أنعم الله تعالى على عبده المؤمن بالوجود وبالصحة وبالقوّة وبالموهبة في عمله، وأجرى عليه الرزق، ثمّ أنعم عليه بتكوين أسرة بزواجه، وأنعم عليه بالذريّة، وأنعم عليه بالأهل والأقارب والنسب، وأنعم عليه بالهداية فجعله يتقرّب إلى ربّه بالطاعات، وجعله يرجو من ربّه جنّته ورضوانه. وليسأل الإنسان مَن حرم نعمة الصحة، أو نعمة إنجاب الذريّة، أو مَنْ كان لقيطًا لا يعرف لنفسه أهلا ولا نسبا عمّا يشعر به من حزن ومن حاجة ليعرف فضل ربّه عليه.

وفي باب الفقه، فقد جاء في (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج 20 ص 103): ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب "المستدرك" له على البخاري ومسلم: حدّثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ الإمام بمكة في المسجد الحرام قال حدّثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ قال حدّثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزّة سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قُسطنطين، فلمّا بلغت: (والضحى)، قال: كبّر عند خاتمة كلّ سورةٍ حتّى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنّه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أنّ ابن عبّاس أمره بذلك، وأخبره ابن عبّاس أن أُبَيَّ بن كعب أمره بذلك، وأخبره أُبَيّ بن كعب أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمره بذلك. هذا حديث صحيح.

رقمها	ســـورة الشـــــرح	آياتها
94	ــــــ مكية ــــــ	8

سمّيت هذه السورة بسورة "الشرح" لافتتاحها بهذا اللفظ، وهي سورة مكية.

وهي في موضوعها متمّمة لما جاء في سورة "الضحى" من تذكير للرسول صلّى الله عليه وسلّم بفضل ربّه عليه بهداه قبل أن يأتيه الوحي. ثمّ جاء فيها بالتفضّل عليه صلّى الله عليه وسلّم برفع ذكره باصطفائه بحمل رسالة ربّه للنّاس كافّة. وجاء فيها كذلك دعوته للصبر على تحمّل مشاقّ التبليغ حتّى يأذن الله تعالى بإظهار دينه على الدين كلّه.

- أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ (1) :

الاستفهام في هذه الآية للتذكير بما كان في ما مضى من الزمن. والآية بمعنى: تذكّر أنّ الله تعالى قد شرح صدرك للإسلام، وفسحه بالحكمة، والإحساس الباطني بالرغبة في تزكية نفسك بالكمال الخُلقيّ لتكون عند النّاس من أهل الصدق والفضائل، ولتكون عندهم من أهل الفضل والحكمة. وقد قال تعالى(أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ)(الزمر الآية 22). ومن فضائل شرح الصدر كذلك تهيئة نفسه صلّى الله عليه وسلّم لقبول الوحي وحفظ ما ينزل عليه، ولتحمّل أعباء مشقّة التّبليغ في صبر.

- وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ (2) ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ (3) :

وأذكر إذ خفّفنا عليك حِملَك الثقيل في مسؤولية التبليغ الّتي أثقلت كاهلك وأتعبتك بسبب إعراض قومك عنك واتّهامك بالجنون والكذب، فسهّل الله تعالى لك مهمّة التّبليغ. وقد جاء في بعض التفاسير أنّ معنى الآية يفيد بأنّ الله عزّ وجلّ قد عصم رسوله صلّى الله عليه وسلّم من عمل السيئة واِقتراف الذنب حفاظا على أخلاقه وسيرته العطرة قبل أن ينزل عليه الوحي ويُكلّف بالنبوّة. والمعنيان تتحمّلهما الآية. وكلاهما صحيح ومقبول، ولا تعارض بينهما.

- وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ (4) :

ولقد شرّفناك برفع ذكرك إلى يوم الدّين لمّا جاءك الوحي، واِصطفاك ربّك بالنبوّة، وحمّلك رسالة تبليغ دينه الحقّ: الإسلام للنّاس كافّة، وجعلك تذكر في الشهادة بعد إعلاء ذكر الله تعالى بتوحيده (أشهد أن لا إلاه إلاّ الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله)، ورفع الله تعالى ذكره في الأذان، وفي

الإقامة، وفي الخطب. وأخذ الله تعالى على الأنبياء من قبل وأممهم أن يؤمنوا به قبل ولادته وبعثته. جاء في مديح حسان بن ثابت في هذا الرفع لذكره صلّى الله عليه وسلّم قوله:

وضمّ الإلاه إسم النّبيّ إلى إسمه *** إذا قال في الخمس المؤذن : أشهد

وشقّ له من إسمه ليُجِلّهُ *** فذو العرش محمود وهذا محمد

- **فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا (5) إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا (6) :**

الآية الثانية لتأكيد معنى الآية الأولى. وقد ورد لفظ (ٱلۡعُسۡرِ) في الآيتين معرّفا، فدلّ على أنّ العسر واحد، وأمر معيّن بذاته لا غير، والمقصود به : مشقّة التبليغ في قوم أمّيين لا يعرفون الشرائع السماوية السابقة، ولا الأديان السماوية، وهم قوم قد جعلتهم الصحراء القاحلة التي يعيشون فيها والجبال الرواسي الوعرة مع قساوة المناخ الصحراوي وندرة المياه قوما معاندين، في قلوبهم قسوة وجفوة، ولا يتفتّحون على غير ما اِعتادوا عليه، وجعلتهم طبيعتهم شديدي المراس في رفض أيّ تغيير لحالهم. وجاء لفظ (يُسۡرًا) نكرة ليدلّ على أنّ اليسر غير معيّن لتعدّد وجوهه. فقد يأتي هذا اليسر في تليين قلوب بعضهم لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ليستجيبوا إليه، وقد يأتي في تأييده بحفظه من كيد الكائدين، أو بنصرته على أعدائه، أو بإظهار دينه على معتقدهم الفاسد. وأحفظ قولا عن أستاذي عن شيخه محمد الطاهر ابن عاشور: "ولا يغلب العسر يُسْرَيْن". لأنّ العسر في الآيتين معرّف وأمّا اليسر فقد تكرّر في صيغته النكرة وهذا ممّا يُفيد تعدّده.

وجاءت الآيتان لتأنيس الرسول صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّه سيجد مشقّة في التبليغ وعسرا في اِستجابة القوم لدعوته، وليتأكّد بأنّ الله تعالى ميسّرٌ له أمره، وناصره، ومظهر دينه، وأنّ الله تعالى حافظه، وسيبدل عسره يسرين حين يرى نصره على أعدائه، وحين يرى النّاس يدخلون في دين الله أفواجا.

- **فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ (7) :**

وإذا أتممت – يا نبيّ الله – أعمالك الخاصّة فيما يهمّ حياتك وشؤونك الاجتماعية والأسرية، فاجتهد في طاعة ربّك بذكر وصلاة، واِجتهد في تبليغ النّاس ما أوحيَ إليك من ربّك، وادعهم إلى الهدى ورفع الغشاوة عن أبصارهم للاستقامة على دين الله الحقّ.

- **وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب (8) :**

وتضرّع إلى الله عزّ وجلّ طلبا لمرضاته، واِجعل أعمالك خالصة له وحده. اِجعل همّك ورغبتك فيما عند الله تعالى في كلّ عمل تعمله، وفي كلّ طاعة وفي كلّ صلاة، وفي كلّ ما تدعو إليه الناس للهدى، وفي تبليغك إيّاهم ما يوحَى إليك من ربّك عزّ وجلّ.

رقمها	سـورة التّيـن	آياتها
95	ــــ مكية ــــ	8

سمّيت بسورة "التّين" لافتتاحها بالقسم بالتّين. وهي سورة مكية. وموضوعها في تكريم الإنسان في خلقه في أحسن تقويم، وفي موضوع الإيمان بيوم الحساب للجزاء.

- وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ (1) :

قسما بالتّين والزّيتون، وهذا القسم للإشارة لبركتهما وعظيم منافعهما. للتّين منافع صحيّة للبدن، وللزّيتون منافع عديدة جدا، وهو مادة أساسيّة لبعض الشعوب لطبخ طعامهم ولأكلهم ولبعض علاجاتهم. وهذا من إنعام الله تعالى على البشر فيما خلق لفائدتهم، لطعامهم وصحتهم وفاكهتهم. فهلاّ شكروا الله تعالى فضله إذا أكلوا منها !

- وَطُورِ سِينِينَ (2) :

وقسما بالجبل الذي نادى الله تعالى فيه موسى، وكلّمه فيه. و(طُورِ) هو الجبل. ومعنى (سِينِينَ): المبارك والحسن. وقيل هو جبل ببيت المقدس كان مقام الأنبياء.

- وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ (3) :

وقسما بمكة، سمّيت بالبلد الأمين لأنّ كلّ من دخله كان آمنا على نفسه من الأذى، لأنّه بلد حرام. وجاء هذا القسم بمكة لأنّها بلد بيت الله الحرام، وبلد مناسك الحجّ، ولأنّها أثر إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، ولأنّها دار خاتم الأنبياء محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وتشريفا لهذا البلد وللطور جاء القسم بهما.

- لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ (4) :

هذا جواب القسم السابق. ومعنى الآية: لقد تفضّل الله تعالى على الآدميّ بإحسان خلقته، فجعله في أحسن صورة: في إعتداله وإستوائه وجمال منظره ومظهره، ومُزيّنا بالعقل ليكون حكيما، وباللّسان ليكون ناطقا ومُبينا على رغبته ورأيه، ولم يجعله بهيميا. قال ابن العربي في تفسيره (أحكام القرآن) : "ليس لله خلقٌ أحسنَ من الإنسان، فإنّ الله خلقه حيّا، عالما، قادرا، مُريدا، متكلّما، سميعا، بصيرا، مدبّرا وحكيما...". فهذا يدلّك على أنّ الإنسان أحسنُ خلق الله باطنا وظاهرا: جمالُ هيأة، وبديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما إحتملتاه. ولذلك قالت الفلاسفة: إنّه العالم الأصغر، إذ كلّ ما في المخلوقات أُجمع فيه". (عن القرطبي ج20 ص 114).

• **ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ (5) :**

ثمّ يصير الإنسان بعد حسن هيأته وقوامه، وبعد قوّته وبهجته إلى الضعف والهرم، وربما إلى ما هو أسوأ منه حينما يردّ إلى أرذل العمر، وحين يُصاب بداء (الزهايمر) فلم يعد يفرّق بين اللّحم والسمك،ولا يفرّق بين أمه وزوجه أو اِبنته، ويضطرب كلامه ومنطقه بعد حسنه وتمام عقله.

ويحتمل أن يكون معنى الآية على الوجه التالي: وإنّ الإنسان الذي خلق على أحسن صورة وأقومها إذا كان كافرا ولم يكن مؤمنا يردّ في آخرته إلى أسفل سافلين فيسودّ وجهه، ويحرق ويأكل من غسلين بعد طيب طعامه، ويشرب من حميم بعد شربه للماء العذب، ويقيم في الجحيم بعد مقامه في أفخم البيوت. وهذان المعنيان تتحمّلهما الآية: وهذا يوافق مدلول الآية الموالية أكثر ممّا يوافقه المعنى الأوّل وذلك لوجود لفظ الاستثناء (إِلَّا).

• **إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ (6) :**

ولا يردّ أسفل سافلين الذين آمنوا بربّهم الواحد الأحد وأطاعوه ولم يعبدوا سواه ثمّ عملوا بشرعه فأحلّوا حلاله وحرّموا حرامه وتعاملوا مع بعض بالحسنى والإحسان، فهؤلاء سينعمون في آخرتهم بجزاء لا ينقطع عنهم لينعموا بكلّ ما يرجون من وجوه التكريم ومظاهر الرّفاه والنّعيم.

• **فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ (7) :**

هذا الخطاب للكافر المعاند الذي يرفض أن يستجيب لدعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للإيمان بالله وحده وليستقيم على شريعة الإسلام بعد أن جاءه الهدى من عند ربّه عبر رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وفيما جاءه من كتاب من عند ربّه وفيه من الآيات ما يدلّ على الدين الحقّ وما يكشف عن الضلال. ومعنى الآية: فما الذي يجعلك يا عبد الله تكذّب بما جاءك من الدين الحقّ، وتكذّب بالله تعالى وقد خلقك فأحسن خلقك وقد يكون الخطاب في الآية للرسول صلّى الله عليه وسلّم فيكون معنى الآية على النحو التالي: "فلا يكذّبك – يا نبيّ الله – بما جئت به من الدين الحقّ: دين التوحيد بعد ما جاءك من البيّنات والدلائل التي تشهد على صدقك وعلى صدق الوحي إلاّ من سيردّ إلى أسفل سافلين.

• **أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ (8) :**

الاستفهام في الآية تقريري، والجواب عنه: بلى إنّ الله تعالى هو أحكم الحاكمين، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومعنى الآية: أنّ الله سبحانه أعدل من حكم، وهو أقوى حجّة وحكمة في قضائه من كلّ الحاكمين مهما كانوا عدولا. قضاؤه لا يشوبه باطل. ومن مظاهر عدله مكافأة المحسن، والانتصاف من الظالم الجائر اِنتصارا للحقّ.

رقمها	سـورة العلـق	آياتها
96	ــــ مكية ــــ	19

سمّيت هذه السورة بسورة "العلق" في المصاحف، وكانت تسمّى في عهد الصحابة باسم سورة "اِقرأ باسم ربّك"، وبهذا الاسم ما تزال تسمّى عند القرّاء والمؤدّبين، وتسمّى عند هؤلاء كذلك باسم سورة "اِقرأ". وهي سورة مكية. هي أوّل سورة نزلت على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما كتب في السيرة النبويّة وفي الأحاديث الصحيحة في باب الوحي والتنزيل. نزل أوّلها على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في ليلة من ليالي النصف الثّاني من شهر رمضان في غار حِرَاء حيث كان يتعبّد معتزلا عن أهله على عادته في أشهر رمضان، وقد نزل عليه ليلتها من أوّل السورة إلى قوله تعالى: "علّم الإنسان ما لم يعلم".

وفي السورة الإخبار بتلقين الرسول صلّى الله عليه وسلّم الوحي ودعوته لتلاوته. ومن مواضيع السورة توعّد بعذاب كلّ كافر طاغية مكذّب بالدّين وبالرسول صلّى الله عليه وسلّم وبالوحي. وختمت السورة بالدعوة للسجود لله تعالى تقرّبا منه.

- ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (1) :

عن عائشة – أمّ المؤمنين – رضي الله عنها أنّها قالت: "أوّل ما بدئ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، ثمّ حبّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه – وهو المتعبّد الليالي ذوات العدد – قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك ثمّ يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحقّ وهو في غار حراء فجاءه الملَك فقال: "اِقرأ". قال : "ما أنا بقارئ". قال: "فأخذني فغطّني حتى بلغ منّي الجَهْدُ، ثمّ أرسلني فقال: "اِقرأ". قلت: "ما أنا بقارئ". فأخذني فغطّني الثالثة ثمّ أرسلني فقال: "اِقرأ باسم ربّك الّذي خلق. خلق الإنسان من علق. اِقرأ وربّك الأكرم". فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: "زمّلوني زّملوني". فزمّلوه حتّى ذهب عنه الرَّوْع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي". فقالت خديجة "كلاّ، والله ما يخزيك الله أبدا، إنّك لتصل الرّحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسب المعدومَ، وتُقري الضيفَ، وتعين على نوائب الحقّ".... (البخاري).

كذا بدأ الوحي، وكذا نزلت هذه الآية مع الآيتين المُواليتين.

ومعنى الآية : اِقرأ مبتدِئًا بذكر اِسم ربّك الخالق. ومعنى "اِقرأ" في هذه الآية: أُنشر دعوة الله في قومك بأن تقرأ عليه ما يُوحى إليك من ربّك مفتتحا قراءتك بذكر اِسم ربّك الخالق. والأمر بالقراءة بعد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المكلّف بتبليغ الوحي واجب على كلّ مسلم يحسن القراءة، فهو أمر عامّ، فإن كان المسلم أمّيا لا يحسن القراءة وجب عليه الإنصاتُ لما يُقرأ عليه.

- **خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (2) :**

العلقُ هنا هو الدم الجامد.الإنسان – عموما في جنسه– مخلوق من دم جامد بسبب دخول حيوان منوي في بويضة اِمرأة فَتَحَوَّلَ خليطُهما إلى نطفة ثمّ علقت هذه النّطفة في جدار رحم المرأة وكانت دمًا جامدا. وقد تكرّر فعل خلق في هذه الآية، وهو هنا للدلالة على القدرة وعلى عظيم الفعل. وجاءت هذه الآية بتذكير الإنسان بأصل نشأته حتى لا يكابر ولا يتعاظم عن ذكر ربّه وعن طاعته وعن السجود له وعن الخضوع لأمره. بينما كان فعل خلق في الآية السابقة دالاً على العموم – لا على الخصوص بمثل هذه الآية – ليعلم القارئ والسامع أنّ الربّ الحقيقيّ هو الخالق، وخلقه هو الدالّ عليه، وكلّ إلاه لم يخلق شيئا وليس له آية على خلقه لا يكون ربّا،ولا يجوز تقديسه وتعظيمه. قال تعالى (قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ)(الأحقاف الآية 4).

- **ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (3) :**

اِقرأ – يا نبيّ الله – على النّاس ما أنزل عليك من ربّك، وبلّغهم إيّاه، وأُنشره فيهم. ولمّا كانت العبرة في القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإنّ هذا الفعل يدلّ في عمومه على الأمر بوجوب قراءة كلام الله تعالى. وربّك – يا نبيّ الله – كثير الكرم بعباده حين أرسلك إليهم لهديهم للّتي هي أقوم: لصراطه المستقيم، وكثير الكرم بعباده الذين يقرؤون كتابه، ثمّ يعملون بأحكامه، ويتّعظون بمواعظه. وهو كثير الكرم بمن قرأه وتدبّره، فخرج بهديه من ظلمة الجهالة والضلالة إلى نور الهدى. قال تعالى(إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ)(الدخان الآيتين 5-6).

- **ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (4) :**

وربّك كثير الكرم إذ علّم الإنسان العلم بما جرى به القلم، وعلّم الإنسان نقل العلم لغيره بالكتابة بالقلم، فإنّ القلم أداة الكتابة، والكتابة تدوين للعلم لنقله جيلا بعد جيل للانتفاع به في تنوير البصائر ورفع الغشاوة عنها، وفي تنمية العقول بالحكمة رفعا للجهالة، وحفظا للأنفس من الضلالة، ولقد جاء في القرآن سورة باسم القلم تشريفا له ولمهمته وتقديرا لمهمته في تدوين العلم وتوثيقه، وتوثيق الحقوق، وجاء في هذه السورة القسم به (راجع ما جاء في تفسير تلك الآية). روى سعيد عن مقاتل قال: "القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يَقُمْ دينٌ، ولم يصلح

عيش، فدلّ على كمال كرمه سبحانه بأنّه علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونَبَّهَ على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة الّتي لا يحيط بها إلاّ هو. وما دُوّنت العلوم، ولا قُيّدت الحكمُ، ولا ضُبطت أخبارُ الأوّلين ومقالاتهم ولا كتبُ الله المنزلة إلاّ بالكتابة، ولولا هي ما اِستقامت أمورُ الدين والدنيا".

- **عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (5) :**

الملاحظ في هذه الآيات التي أُفتُتحت بها هذه السورة اِفتتاحُها بالأمر بالقراءة للاستفادة بما في الكتاب من الهدى للحقّ. ثمّ أفادت بأنّ هذه الاستفادة هي من كرم الله تعالى على الإنسان لإنقاذه من الوقوع في الضلالات. ثمّ ذكّرت بفضل الله تعالى على الإنسان بتعليمه بما يخطّه القلم من تدوين للحكمة وللمعارف بشتّى أنواعها لضمان اِستمرارية تطوير الكشوفات وتنوير الفكر والعقل ورفع شأن الإنسان بالعلم. وجاءت هذه الآية في تنبيه الإنسان بأنّ الله تعالى هو الّذي علّم الإنسان ما لم يكن يعلمه من قبل أن يهديه عزّ وجلّ لكشفه ولتدوينه ولتبليغه للنّاس.

تحدّثت هذه الآيات الخمس عن فضائل خصّ الله تعالى بها عباده دون سائر مخلوقاته، وبها شرّفه وميّزه وأعلى مكانته على جميع ما خلق: القراءة، والكتابة، والعلم. فلا يفرّط في هذه العناصر الّتي جعلها تعالى من مظاهر كرمه الكبير والعظيم على الإنسان، وهو كرم لا يُضاهيه أيّ كرم، لا يفرّط فيها إلاّ شقيٌّ تعِسٌ حظُّه في دنياه، ومن أوتيها فقد فاز بكرم ربّه عليه، وقد قال تعالى (قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ)(الزمر الآية 9).

ومعنى الآية: اِفتتح قراءتك للوحي باسم ربّك تعالى الّذي أنعم على الإنسان –عموما– بفضيلة مَلَكَةِ التّعلّم ليستوعب العلم الذي يعلّمه إيّاه الله جلّ وعلا. وما كان تكريم آدم عليه السلام بسجود الملائكة له إلاّ بما علّمه الله تعالى وخصّه به، فقد جاء في قوله تعالى (وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا)(البقرة الآية 31)، وإنّ العلم الّذي يعلّمه الله تعالى عباده لا حدود له، ولا حصر لاختصاصاته في كلّ ما يهمّ شؤون المعرفة في جميع اِختصاصات العلوم، والكشوفات، وفي ما يخترع ويصنع ويبتكر ويبتدع في جميع مجالات الحياة.

- **كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ (6) أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ (7) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ (8) :**

هذه الآيات إلى آخر السورة في بيان سوء عاقبة من حوّله ثراؤه الفاحش إلى طاغية يصدّ المهتدي عن سبيل الله تعالى. وقد جاءت هذه الآيات عقب تلك المقدّمة الّتي جاءت بذكر فضل الله تعالى على عبده إذا قرأ وتعلّم بالقلم وتعلّم العلم فارتفعت منزلته بما تكرّم عليه ربّه بما علّمه. فالشرف في طلب العلم، وليس في طلب الثراء الفاحش.

ومعنى الآيات : (كَلَّآ) أي ليس تكريم الإنسان بإيتائه المال الكثير، وإنّما التكريم بما يُؤْتَى الإنسان من علم علّمه الله تعالى إيّاه. وما أعجب حال الإنسان حين يطغى إذا رأى نفسه قد أثرى، وصار ذا مال، وله أعوان وخدم، فاغترّ بما آتاه الله تعالى، بما عنده من مال، فجرّه اِغتراره واِعتزازه بما عنده إلى الطغيان، وذلك بتجاوز حدوده في إتيان المعاصي والشهوات المحرّمة، وبتجاوز حدّه في الكفر وإغراء أتباعه ليصدّهم عن الاهتداء لسبيل الله القويم.

ومن غريب أمر محبّي المال والثّراء عبر المكاسب غير المشروعة السطو على أملاك البلاد بإرشاء من لا ذِمّة له لتدليس الوثائق، أو بالبيع بأثمان بخسة، وبالإغراء بإقام السهرات الماجنة الّتي تُؤْتَى فيها كلّ المعاصي. بالرشاوي وبالإغراء بالمعاصي، وبالتدليس أو بالتهريب يملكون، وفي أنفسهم جَشَعٌ وطمعٌ يجعلهم لا يكتفون ولا يشبعون ولا يقنعون. ثمّ يتقدّمون للترّشح لمناصب عليا في الدولة أو لمراكز نفوذ وقرار ويوشون ويعلون ليكثروا من ثرواتهم ومن طغيانهم ومن معاصيهم ومن إفسادهم في الأرض، ولا يزعجهم إلاّ صوت من يناديهم لتقوى الله تعالى. وقد جاءت الآية الثالثة بتذكير أمثال هؤلاء الذين يثرون ثراءً فاحشا من إفساد في الأرض ومن طرق غير مشروعة بأنّهم راجعون إلى الله تعالى. والرجوع إليه يعني الوقوف بين يديه سبحانه وتعالى للحساب عن أعمالهم في دنياهم، ومن هذه الأعمال التي سيحاسبون عليها: من أيّ كسب اكتسبوا أموالهم وأرزاقهم؟ وفيما أنفقوها؟ (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ) من أبلغ ما يُوعظ به كلّ إنسان ليعلم أن سيسأل عن عمله في دنياه وعن كسبه فيها وعن مدى حرصه على طاعة ربّه واِجتناب معصيته، وما هذه الموعظة إلاّ لتذكيره بيوم الحساب ليكون له من نفسه الرادع الذي يزجره عن فعل المحرّمات، وعن التمادي في الغيّ والغواية والطغيان، والرّادع الذي يرفع عنه حجاب الغفلة.

- أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ (10) :

الاستفهام في الآية يُفيد الاستغراب. والمستغربُ منه هو أن يدعوَ أحدُهم إنسانا يراه يعبد الله تعالى في صلاة لأن يترك صلاته وتسبيحه، ويزجره عنها، ثمّ يزيّن له فعل المعاصي. وإنّ في النّاس مَنْ لا يتورَّعُ عن جهره بالهزء بالمصلّين، وبحركاتهم في صلاتهم وما أعجب أمر من يهزأ بصلاة الاستسقاء خاصّة ويعتبرها –من جهله بالسنّة النبويّة– من الشعوذة، أو لم يعلم أنّ الصلاة دعاء، وأنّ القصد من هذه الصلاة التوجّه إلى الله تعالى بالدعاء طلبا للسقيا. ومن الروائيين من يقدّم الواعظ أو الداعية لدين الله تعالى في صورة ساخرة، فيجعله في مظهره، وفي ما يتلفّظ به من قول مثارا للضحك، أو يقدّمه في صورة الإرهابي الذي يحرّض أتباعه على الإجرام، والذي يكفّر النّاس في خطبه ومواعظه، وما هذا إلاّ من الأعمال الّتي تنفّر من الدّين، وهي من الأعمال الّتي فيها تجنٍّ على الدين وأتباعه.

- أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ (11) :

أرأيت هذا الّذي ينفّر من الدّين هل هو على منهج الهدى والرّشاد؟ أيدعو لما هو خير من الاستقامة على الحقّ والعمل الصالح وحسن الخلق؟ والاستفهام في الآية للاستغراب مِن عمل مَن ينهى عبدًا إذا صلّى، وللتأكيد على التعجّب من غيّه وطغيانه.

- أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ (12) :

وهل كان بنهيه الآخر عن الصلاة قد نصح بالخشية من الله تعالى واِتّقاء عقابه وعذابه؟ والجواب عن الاستفهام بالنفي بكلاّ، إنّه ليس على الهدى وإنّه لا ينصح بالخوف من الله تعالى، وإنما هو داعٍ لحزب الشيطان، ألاَ إنّ حزب الشيطان هم الأخسرون.

- أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (13) :

وهذه في مظهر آخر من غَيّ هذه الطاغية. والاستفهام هنا للتوبيخ. ومعنى الآية أرأيت سلوكا أعجب من سلوك ذاك الذي أغراه ثراؤه فطغى به على النّاس، وعلى دعوة ربّه تعالى كذلك. كذّب بالدّين الذي دعا إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم النّاس، وكذّب بوحدانية الله تعالى، وبرسوله، وبالوحي وبكتاب الله، وكذّب بيوم البعث وبالحساب، ثمّ أعرض عن الإيمان وعن طاعة ربّه وعن الاستقامة على الدين الحقّ مصرًا على الكفر وإتيان المعاصي والفواحش والطغيان.

- أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ (14) :

وهذه في تنبيه كلّ من كان على هذا النحو من السلوك ليعلم بأنّ الله سبحانه مطّلع على جميع أفعال عباده وكلّ أقوالهم، وأنّه تعالى لا تخفى عليه خافية ممّا يفعلون ومما يضمرون في صدورهم.

إنّ في هذه الآيات تعريضا بزعماء قريش وساداتهم الذين كانوا يؤذون المؤمنين ليصدّوهم عن سبيل الله، ولقد كانوا يعمدون إلى إيذائهم حينما كانوا يصلّون، وكانوا يسخرون منهم، ويحتقرون عبادتهم، ويستفزّونهم قصد صدّهم عن دين الله، وليردّوهم إلى الشرك حتى بلغ بهم الأمر الامتناع عن البيع لهم أو الشراء من عندهم، كشكل من أشكال المحاصرة الاقتصادية – إلى أن خرج المسلمون صحبة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى البرية واِعتزلوهم هروبا من كيدهم. وكان الأسياد يعذّبون عبيدهم إذا أسلموا وآمنوا بالدين الجديد. وكانوا يحذّرون الأعراب الذين يقصدون البيت للحجّ من أن يستمعوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأن يحضروا مجالسه.

- كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ (15) :

هذه في تهديد الطاغي الذي يصدّ غيره عن الصلاة ليردّه عن الهدى للضلالة. ويفيد لفظ (كَلَّا) في هذه الآية التنبيه بأن هذا الّذي يصدّ الآخر عن الهدى وعن الصلاة لن يفلت من



عقاب الله عزّ وجلّ. لا يعتقدَنَّ هذا الّذي أطغاه ثراؤه الفاحش بأنّه غير محاسَبٍ عن فعله، كلاّ ليس الأمر كما يظنّ. إنّه لم يكفّ عن صدّه النّاس عن سبيل الله تعالى وإن لم يتوقّف عن نهيه المصلّي عن صلاته فإنه سيُسحَبُ من مقدّمة رأسه حيث منبت الشعر، وسيجرّ منها إلى العذاب في ذلّة ومهانة وألم.

- نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) :

كان صاحب هذا الرأس الذي يجرّ من مقدّمته يكذّب بالتوحيد وبالدين وبالرسول صلّى الله عليه وسلّم وبالكتاب، وكان يقترف المعاصي والآثام، وكانت ناصيته خاطئة باستخفافها بالوعيد، وكانت آثمة، وكانت تمشي في النّاس مترفعة ومزهوة بذاتها، فاليوم تُنكَّسُ وتجرّ للعذاب جرّا.

- فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ (17) :

ويومئذ فليدع إلاهه، ومن كان يظنّ أن يكون شفيعا له لينقذه من المهانة والإذلال، وليُنادِ على أهل عشيرته وأعوانه ليستجير بهم لينقذوه من العذاب والألم إن اِستجابوا له. والأمر في هذه الآية للتعجيز وللتأييس، لأنه لن يكون له في ذاك اليوم أيّ مجير.

- سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (18) :

هذه للتهكّم. إذا كان هذا الطاغي يدعو شفعاءه ففي الآخرة سيُدْعى له بالزبانية. والزبانية في كلام العرب قديما يدلّ على الشرطة في مفهومنا الحديث، وهم في القرآن الكريم: ملائكة التعذيب الذين يوكل إليهم سَوْق الكافرين إلى جهنّم وحشرهم فيها بالجرّ أو الدفع، وهم ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

- كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب (19) :

هذه في الدلالة على ما ينقذ من سوء العاقبة ومن العذاب. ويفيدُ لفظ (كَلَّا) هنا: لا تسمع لقول من ينهاك عن الصلاة وعن الهدى، لا تطعه، بل حافظ على صلاتك وإن نهاك عنها النّاهون، وداوم عليها وعلى السجود لربّك طاعة واِمتثالا لأمره وطلبا لهداه وشكرا له وتسبيحا بحمده (وَٱقۡتَرِب) واِجتهد في التقرّب من الله تعالى بصدق الإيمان وحسن العمل وبالطاعات وأعمال البرّ وحسن الخلق. وقد جاء في الحديث الصحيح عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "أمّا الرّكوع فعظّموا فيه الربّ، وأمّا السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء، فإنّه قَمِنٌ (أي جدير) أن يُستجاب لكم". قال صلّى الله عليه وسلّم: "أقرب ما يكون العبد من ربّه، وأحبّه إليه ما كانت جَبْهَتُهُ في الأرض ساجدا لله".

رقمها	ســـــورة القـــــدر	آياتها
97	ـــــ مكية ـــــ	5

سمّيت هذه السورة باسم "القدر" في المصاحف لاختصاصها بالحديث عن "ليلة القدر"، وتسمى عن المؤدبّين باسم سورة "إنّا أنزلناه" بما أُفتُتحت به. وهي سورة مكية. وموضوعها في فضيلة ليلة تنزيل القرآن الكريم تعظيما لشأن هذا الكتاب الكريم.

- إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ (1) :

أُفتُتحت الآية الّتي بدئت بها السورة بضمير المتكلّم المؤكّد (إِنَّا) الذي هو الله جلّ جلاله. وجاء الفعل (أَنزَلۡنَٰه) بضمير الغائب (ه) وهو عائد على القرآن الكريم إشارة لشهرته، ولأنّه من المعلوم أنّ الّذي أنزل من عند الله عزّ وجلّ هو الوحي، هو القرآن العظيم، ولم يكن شيء آخر غيره. والمنزّل هو الله تعالى لإبعاد كلّ شبهة عن الوحي وعن القرآن، لِرَدّ كلّ تهمة عن أنّ القرآن الكريم قد كان من عند غير الله سبحانه. فهو كتاب من عند الله تعالى أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ونزل به الرّوح الأمين: أمين الوحي: جبريل عليه السّلام على النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ليبلّغه للنّاس قصد الإهتداء به لربّهم الحقّ، وللعمل بشرعه، وللانضباط للخلق الذي رغّب فيه، ولاجتناب مخالفته لتحقيق حسن اِختلافهم في الأرض، وليأمنوا في آخرتهم من العذاب، وليكون حسابهم عند الميزان يسيرا.

وقد جاء في الآية الإخبار بأنّ تنزيل القرآن العظيم كان في ليلة القدر. والقدر عند العرب يعني عظيم الشرف، والشأن. إذن كان تنزيله في ليلة هي عند الله تعالى ذات منزلة وذات شرف، فهي ليلة مباركة كما جاء الإخبار بهذا في قوله تعالى (إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)(الدخان الآية 3). وإنّها لليلةٌ ذات قدر وذات شرف لأنّها الليلة التي نزل فيها كلام الله عزّ وجلّ من اللوح المحفوظ لهدي النّاس لشرعه وللدّين القويم ولهداه، ولأنها الليلة التي نزل فيها إلى الأرض أمين الوحي، الملك جبريل عليه السلام ذو القدر والشرف الذي قال فيه عزّ وجلّ (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ)(التكوير الآيات 19-21).

ونزل هذا القرآن على رسول ذي قدر وشرف، وهو النبيّ الخاتم صلّى الله عليه وسلّم الذي أرسل للنّاس كافّة، ونزل كذلك على أمّة هي خير أمّة أخرجت للنّاس. وهذه اللّيلة هي من ليالي شهر رمضان المعظم الذي خصّ بطاعة خاصّة هي الصيام لقوله عزّ وجلّ (شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ)(البقرة آية 185).



- وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ (2) :

وجاءت هذه الآية للتأكيد على تعظيم قدر هذه الليلة: ليلة التنزيل، وتعظيم شرفها، ذلك لأنّ الاستفهام في هذه الآية يفيد التفخيم والتعظيم، إنّها ليلة تنزيل هدي الله تعالى لعباده.

- لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ (3) :

إنّها ليلة تفضل في قدرِها وشرفها ألف شهر من سائر الأشهر العادية في العام. قد كانت ليلة اِفتتاح نزول جبريل عليه السلام بكلام الله عزّ وجلّ على محمد صلّى الله عليه وسلّم لنشر هداه ودينه القويم على الأرض تمهيدا ليقرأ النّاس ما كان محفوظا عند الله تعالى من أحكام ومن وعد ومن وعيد باللوح المحفوظ.

وقد جاء في كتب السنن التّرغيب في عمل الطاعات في هذه الليلة لأنّ الجزاء عليها جزيل، والأجر عليها عظيم، ذلك لأنّها ليلة تجلّي الرحمان وليلة تنزيل الملائكة – كما سيأتي بيانه في الآية الموالية – وإنّ ليلة القدر غير مُعيّنة، لا يعلمها إلاّ الله سبحانه، وقد أخفاها تعالى حتى لا يتواكل النّاس عليها. وجاء في الصحيحين عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر". وروى أحمد والنّسائي قوله صلّى الله عليه وسلّم في فضل رمضان: "فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرِمَ".

- تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ (4) :

في هذه الليلة تنزيل ملائكة الرحمة إلى الأرض فوجا بعد فوج، وجبريل عليه السلام: أمين الوحي، تنزل بإذن ربّهم بكلّ أمر من الخير والبركة من الله عزّ وجلّ، وتنزل لقضاء كلّ أمر أراد الله تعالى قضاءه وتنفيذه. وقد ورد لفظ (أَمۡرٖ) نكرة ليدلّ على كلّ نوعٍ من الأمر، ولا يعلم أمر الله تعالى أحدٌ إلاّ هو سبحانه.

وفي هذا ترغيب للمسلمين ليجتهدوا في الطاعات في هذه الليلة لتشهد لهم الملائكة بحسن عملهم ولمباركة طاعاتهم، وإنّها ليلة الاستجابة للدعاء. وفّقنا الله تعالى للانتفاع ببركة هذه الليلة.

- سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ (5) :

السّلام هنا يعني السلامة من كلّ شرّ وأذى، ويعني الأمان، ويعني التحية والثناء على العمل، ولعلّه يعني من ربّ العزّة الغفران وإجزال الثواب والاستجابة للدعاء، والبشارة بالخير لمن صام وقام وعمل صالحا من الطاعات وأعمال البرّ والإحسان. هي ليلة مباركة إلى غاية ختام الليل وطلوع الفجر وقد اِختلف العلماء في تعيين هذه الليلة، والمطلوب الاجتهاد في جميع ليالي رمضان وخاصة أواخرها. ونسأل الله تعالى أن لا يحرمنا ثوابها ورضوانه تعالى عنّا وقبول الصالح من أعمالنا بعظيم الأجر.

رقمها	سورة البيّنة	آياتها
98	ـــــ مدنية ـــــ	8

سمّيت هذه السورة في المصاحف باسم "البيّنة"، وفي كتب السنّة وبعض كتب التفسير وعند القرّاء المؤدّبين سورة: "لم يكن الذين كفروا". وسمّيت في بعض كتب التفسير سورة "القيّمة" وفي أخرى سورة "الانفكاك". وهي سورة مدنية.

موضوعها في توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن الكريم وبالرّسول صلّى الله عليه وسلّم. وفيها تعجّب من تفرّق أهل الكتاب في الإيمان بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وبالتنزيل بعد أن جاءتهم البيّنة. وقد جاء في وصف هؤلاء المكذّبين بأنّهم شرّ البريّة، وعلى عكسهم وصف أهل الإيمان بأنّهم خير البريّة.

- لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ **(1)** :

حينما جهر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بدعوته في قومه بمكّة المكرّمة لقي مشقّة كبيرة في تصديقه: كذّبوا برسالته، وكذّبوا بالوحي والتنزيل، وأنكر عليه قومه دعوته للتّوحيد ونبذ الشرك لأنّهم كانوا مشركين ومصرّين على كفرهم، ثمّ زادوا في مشاقّته بصدّهم النّاس عن اِتّباعه والسماع له حتّى هاجر إلى المدينة المنوّرة للخلاص من تآمرهم عليه وعلى دعوته وكيد له ولأتباعه. فلمّا بلغ المدينة لقي معاناة أخرى من أهل الكتاب الذين كانوا يقيمون فيها، كانوا يهودا من ثلاثة بطون: بني نضير، وبني قُنَيْقَاع، وبني قريظة. كذّب هؤلاء برسالة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكذّبوا بكتابه وبما أوحي إليه، وهم الذين آمنوا بالتوراة. وعلموا الوحي، وهم أتباعُ رسولٍ: موسى عليه السلام، وقد جاءهم خبرُ من كان قبلهم من الأمم ومن الرسل وصحف إبراهيم، وقد أُخِذَ عليهم العهدُ بأن يؤمنوا برسول يأتيهم من بعد رسولهم مصدقا لما معهم، ولكنّهم لمّا جاءهم ما عاهدوا عليه ربّهم ورسولهم للإيمان به كذّبوا بنبيّ الله محمد صلّى الله عليه وسلّم وبما أوحي إليه. وجاءت هذه الآية في توبيخهم وتوبيخ المشركين الأمّيين لأنّهم لم يكونوا أهل كتاب، ولم يأتهم رسولٌ من قبل محمد صلّى الله عليه وسلّم. ومعنى الآية: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منقطعين عمّا هم فيه من المعتقد إلى أن تأتيهم الحجّة الواضحة الدالّة على صدق رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم، وقد علموا أنّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم صادق أمين وأنّه كان لا يقول شعرا ولا يدّعي كهانة، وأنه ما كان يعلم شيئا من الشرائع السماوية

السابقة، وأنّ ما جاء به من قول كان قولا معجزا يتحدّى الإنس والجنّ لأنّ يأتوا بسورة من مثله. قد جاءتهم الحجّة البيّنة الواضحة، ولكنّهم لم يؤمنوا، وأصرّوا على الكفر، ولم يكونوا منفكّين على التكذيب وإنكار البيّنة رغم معاينتهم لها وعلمهم بها. قال تعالى (مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ)(البقرة الآية 105). وجاء في وصف إصرارهم على الكفر والتكذيب قوله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ)(يونس الآيتين 96-97).

- **رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ (2) فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ (3) :**

لقد جاءهم رسول من الله يعرفون صدقه وأمانته وأميّته يقرأ عليهم قرآنا دُوِّن في صحف منزّهة عن الباطل والشُّبهات والتّحريف. فيها آيات وأحكام مكتوبة مستقيمة لا عِوجَ فيها. هي عادلة ومُحكمَة.

وقد جاء قوله تعالى مخاطبا أهل الكتاب (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ)(المائدة الآيتين 15-16). ولكنّهم أعموا أبصارهم عن النّظر فيه، وعطّلوا عقولهم عن تدبّر ما جاءهم فيه، وأصمّوا آذانهم، وكفروا برسول الله وبالصحف المطهّرة. ومن النّاس من يتّخذ من الدّين موقفا رافضا للاستقامة عليه، ورافضا للطاعات فيه، ورافضا للتّصديق بالقرآن، وبالرسول صلّى الله عليه وسلّم، هؤلاء لا يقنعهم نصّ ولا منطق ولا يحبّون أن يسمعوا ما يخالف موقفهم الرافض للدّين عنادا ومكابرة. قال تعالى (وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ)(الأنفال الآيات 21-23).

- **وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ (4) :**

وما اِختلف أهل الكتاب، وصاروا شيعا وأحزابا في شأن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وفي شأن القرآن، وما جاء فيه من أخبار عنهم وعن اِختلافهم على أنبيائهم ورسلهم بين مؤمن، وكافر، ومنافق مداهن، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومكذّب إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بما كانوا عليه من اِختلافهم على أنبيائهم، وبما أخلفوا ما عاهدوا الله تعالى عليه بالخبر اليقين وبالحجّة الواضحة البالغة. وهذا كقوله سبحانه (وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ)(الشورى الآية 14).

- **وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ (5) :**

أي وما كان لهؤلاء الكافرين من أهل الكتاب والمشركين أن يشاقّوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ولا أن يعرضوا عن تدبّر ما جاءهم من القرآن الكريم، ولا أن ينكروا الوحي، ولا أن يرفضوا الدعوة للإسلام وللإيمان بالله الخالق الذي تدلّ آيات الخلق والإنعام على أنّه هو الله الحقّ، وأنّ كلّ إلاه مزعوم من دونه باطل، لا ينفعهم ولا يضرّهم، ولا سلطان له عليهم، ما كان لهم أن يرفضوا هذه الدعوة للإسلام، والحال أنّه ما جاءهم من الأمر منه إلاّ أن يعبدوا الله مخلصين له حنفاء، غير مشركين به، وأن يقيموا الصلاة إليه وحده، وأن لا يعبدوا أو يدعوا سواه، وأن يؤتوا الزكاة شكرا لله تعالى على أنعمه، ولمؤازرة بعضهم لبعض ليتحابوا وليتآخوا. ليس في ما يُدْعَوْن إليه مشاقّ، فلماذا الاختلاف على هذا الدين؟ ولماذا هذا الرفض منهم بدون حجّة. لم يؤمروا إلاّ بتوحيد الله عزّ وجلّ وعبادته وحده، وبأداء الزكاة. وهذا هو الدّين القيّم. هذا دين الأمّة القائمة بالحقّ. هذا هو دين الملّة المستقيمة على الاعتدال الذي ليس فيه اِنحراف ولا عوج له. قال تعالى (**فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ**)(الروم الآيتين 30-31).

- **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ (6):**

هذه في تحذير المصرّين على الكفر بما جاءهم من العلم بدين الله الحقّ من طائفتي أهل الكتاب والمشركين من إيوائهم في جهنّم حيث يقيمون فيها الإقامة الدائمة في العذاب، ذلك لأنّهم بانصرافهم عن طاعة الله عزّ وجلّ وعن الاستجابة لدعوته تخيّروا لأنفسهم بأن يكونوا من شرّ خلق الله.

وإن اِستعمال لفظ (**أُوْلَٰٓئِكَ**) الدالّ على البعد قد قُصِدَ ليدلّ على أنّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين بعيدون عن رحمة الله تعالى لأنّهم أصرّوا على أن يكونُوا بعيدين عن الحقّ وعن الصواب وعن طاعة الله. وإنّهم أشرّ خلق الله عزّ وجلّ لاختيارهم أن يكونوا عصاة له ولأمرهم، ورافضين للسجود إليه تعالى، ورافضين للتقرّب منه.

- **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ (7) :**

وعلى نقيضهم فإنّ الذين آمنوا وعملوا بالطاعات وأعمال البرّ، ولم يشاقّوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ولم يعصوا الله عزّ وجلّ فيما أمرهم به، وكانوا له تعالى ساجدين فقد وصفوا بأنّهم

عند الله تعالى أكثر خلقه خيرا، وقربا. واِستعمال اِسم الإشارة (أُوْلَـٰٓئِكَ) للبعيد في هذه الآية على علوّ منزلتهم ورفعة مكانتهم.

- جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّـٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِىَ رَبَّهُۥ **(8)** :

وأمّا الذين آمنوا بالله وحده، ولم يشركوا به أحدا في الطاعة والعبادة، وكانوا له مخلصين في الدعاء، وفي الانتهاء عمّا نهى، وصدّقوا برسوله صلّى الله عليه وسلّم واِتّبعوه ونصروه وآزروه، واتّبعوا سنّته في الطاعات والعمل الصالح، وصدّقوا بالوحي فأقبلوا على تلاوة القرآن والحرص على العمل بما جاء فيه من الأحكام، فيبشّرهم ربّهم بالجزاء العظيم. جزاؤهم عند ربّهم أن يأويهم في بساتين في منتهى الحسن والرفاه، يقيمون فيها إقامة دائمة، ويجدون فيها أنهارا تجري من تحتها لتؤتي أشجارها خيراتها من كلّ ثمر، ومن كلّ ما يشتهون من متعة. ومع هذا النّعيم المادي فإنّهم ينعمون بما هو أفضل وأرقى وأسعد للنّفس: ينعمون برضوان الله تعالى، وهذا من أعلى مراتب التكريم. فمن رضي الله تعالى عنه لقيَ من الإحسان إغداق النِّعم ما يغمره حتى لا يبقى لديه رغبة في شيء، ويرضى بما آتاه الله عزّ وجلّ كلّ الرّضى.

وهذا الوعد من التكريم والإحسان يلقاه عند ربّه كلّ من كان يخشى ربّه باجتناب معصيته، وبحرصه على طاعة ربّه والمداومة على ذكره وطلب عفوه ومغفرته، واِجتهد في التقرّب إليه تعالى بالنّوافل والصدقات، وكان مخلصا في دينه وصادقا في إيمانه والاقتداء بسنن الأنبياء والمرسلين والصالحين، مع المحافظة على سلامة القلب واللسان من الزَّيْغ.



رقمها	سـورة الزلزلـة	آياتها
99	ــــ مكية ــــ	8

سمّيت بسورة "الزلزلة" في المصاحف لافتتاحها بالخبر عن زلزال الأرض حين تقوم الساعة. وتسمّى كذلك بسورة "إذا زلزلت" باللفظ الذي أفتتُحت به. وهي في المشهور سورة مكية. وموضوعها في بعض أشراط الساعة، وفي إثبات البعث.

- إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا **(1)** :

هذه كقوله تعالى (إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا)(الواقعة الآية 4). والآية في شرط من أشراط السّاعة، أي في علامة من علامات الإذن بقيامها. علامتها أن ترتجّ الأرض اِرتجاجا شديدا، وأن تتحرّك تحرّكا عنيفا فتنشق الأرض، وتخرج ما فيها، وتدكّ الجبال، وتغمر المياه اليابسة، ويكون الحادث مهولا ومفزعا.

قال تعالى (إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ)(الحج الآيتين 1-2).

وجاء لفظ (زِلۡزَالَهَا) ليدّل على أنّ الزلزلة لا تكون رجّة واحدة وإنّما هو اِرتجاج عنيف متكرّر، وتكون هذه الزلزلة حين تكون النفخة الأولى المؤذنة بنهاية الحياة الدنيوية.

- وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا **(2)** :

حين تقع هذه الزلزلة تخرج الأرض ما دُفن فيها من الجثث وتلقي بها على سطحها، وتخرج كذلك كلّ ما في باطنها من معادن وصخور ملتهبة كما يحدث في ثورة البراكين، وحتّى البحار تلتهب مياهها بما يُرْمى فيها من سوائل ملتهبة. قال تعالى (وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ)(التكوير الآية 6).

- وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا **(3)** :

يومئذ يفاجأ النّاس الأحياء بما يجري في الأرض من اِرتجاج وأصوات اِنفجارات قويّة وقرقعة واِلتهابات فيتساءلون في اِستغراب وذعر شديد عمّا يحدث في الأرض وهم في خوف على أنفسهم من أن تدمّر أسقُفُهم على رؤوسهم أو تُرْمَى عليهم الحجارة الملتهبة، وذلك من اِنقلاب حال اِستقرار الأرض على نحوٍ غير معهود.

- يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا **(4)** :

في ذاك اليوم يتبيّن لكلّ إنسان صدق خبر قيام الساعة، وتظهر له علاماتها.

وقوله تعالى (تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) تعبير مجازي يدلّ على أنّ ما يجري في ذلك اليوم من اِنقلاب حال الأرض في اِستقرارها يثبت صدق خبر قيام الساعة بظهور دلائله.

- بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (5) :

الوحي هنا بمعنى الأمر من الله تعالى الذي نزل على الأرض لتستجيب له. قال تعالى(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)(الانشقاق الآية 5). ومعنى الآية : إذا حدثت تلك الزلزلة العظيمة وأخرجت الأرض ما فيها وألقته على سطحها فأُعلم أنّه قد جاءها أمر ربّها لتزول إيذانا بقيام الحياة الآخرة، وإنهاءً للحياة الدنيوية وفناءها.

- يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ (6) :

بعد هذا الفناء يُنفخ في الصور ثانية إيذانا بالبعث، فيقوم الأموات من موتهم أحياء ويُنشرون (أَشْتَاتًا) جماعات جماعات، كلّ أمّة تدعى إلى كتابها، ويقدّمون للحشر وللميزان ليحاسبوا على أعمالهم، وينقسمون في توجّههم إلى طائفتين كبيرتين: تنصرف طائفة منهم يمنةً، وينصرف الآخرون مذعورين وخائفين شمالا، سيعرف كلّ واحد منهم مآله في النّعيم أو في الشقاء الأبديّ على قدر عمله في دنياه من خير أو شرّ.

- فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ (8) :

تعتبر الآيتان من جوامع الكَلِم. وصفهما النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالجامعة النّافذة. وقال فيهما عبد الله بن مسعود: "هذه أحكم آية في القرآن". وقال فيهما كعب الأحبار: "لقد أنزل الله تعالى على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزّبر والصحف: "فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره". وسمعها أعرابيّ فقال: قد وعيت القرآن: من يعمل خيرا يره ومن يعمل شرّا يره على حدّ قوله وفهمه. ومعنى الآيتين أنّ كلّ إنسان مجازى على عمله، فمن يعمل خيرا وإن كان بسيطا في قدره وأثَرِه وفي نفقته من مثل الكلمة الطيّبة في وقت الضيق أو لإصلاح ذات البين، أو تقديم شربة ماء لعطشان أو شقّ تمرة لصائم أو دعاء برحمة أو عون – فإنّه سيجد عند ربّه يوم حسابه ثوابا له عن عمله ذاك وجزاء مضاعفا كرمًا من عنده تعالى. ومن كان في دنياه عاصيا متفحّشا في كلامه وعمله وكان كافرا وظلوما ومفسدا في الأرض وشرّيرا في تعامله مع النّاس فسيلقى في آخرته عذابا عِقابًا له على شروره وعصيانه. فاعل الخير يلقى في آخرته خيرا. وفاعل الشرّ لا يلقى إلاّ عذابا وإذلالا ومهانة وعاقبة سيّئة في آخرته. الجزاء من جنس العمل.

وقوله تعالى (مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) يفيد أنّ عمل الإنسان في حياته الدنيوية مسجّل عليه بكلّ دقّة دون تفريط في جزئياته وإن كانت في وزن ما لا يوزن لخفّته، وأنّه سيثاب عليه خيرا إن كان من حسن



العمل، وأنّه مؤاخذٌ عليه إن كان من السيّئات. ويدلّ هذا الاستعمال على عدل الله عزّ وجل قال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾(النساء الآية 40).

والآيتان من خير ما يُستدلّ به على أنّ الإنسان مسؤول عن عمله مهما صغُر، أو ظنّ أنّه غير ذي قيمة وغير ذي أهمية، وهذا ليحذر الإنسان من كلّ ما يصدر عنه من قول أو عمل قال جلّ وعلا: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(الأنبياء الآية 47).

وقد جاءت هذه السورة للبلاغ، ليعلم النّاس كافّة أنّ الساعة قائمة، وأنّ مردّهم إلى الله تعالى بعد ذلك للحساب، وليتحمّل كلّ إنسان مسؤوليته في اِختياره لعاقبته فمن شاء لنفسه السعادة في آخرته والنجاة من العذاب فعليه أن يعمل صالحا في إيمان. ومن كان أكبر همّه حياته في دنياه في غفلة عن آخرته ثمّ اتّبع هواه في شهواته فلا يلومنّ إلاّ نفسه إذا حشر في آخرته في جهنّم، لأنّه هو الذي فرّط في نجاته من العذاب بإعراضه عن ذكر ربّه وذكر حسابه في آخرته.



رقمها	ســـورة العاديــــــات	آياتها
100	ـــــ مكية ـــــ	11

سمّيت هذه السّورة بسورة "العاديات" لافتتاحها بالقسم بهذا اللفظ. وهي سورة مكية، وقيل هي مدنية بمثل ما اِختلفوا في سورة "الزلزلة".

وموضوعها بمثل موضوع السورة السابقة. هي في موعظة النّاس ليعلموا أنّهم محاسبون على أعمالهم بعد مماتهم عند بعثهم، ومجازون عليها خيرا أو شرّا، وما هذا التماثّل إلاّ للتّأكيد على التحذير من الحساب للإعداد له بحسن العمل في إيمان.

- وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا (1) :

قسما بالخيل الّتي تعدو في سبيل الله فـ(تضْبَح) أي تضطرب أنفاسها. وتتردّد هذه الأنفاس في حناجرها من شدّة العدْوِ، وتحمحم.

- فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا (2) :

فإذا هي من شدّة عدْوِها تقدح حوافرها نارًا لقوّة اِحتكاكها بالحصى في ميدان المعركة. وهذا يعني أنّها خيول قويّة ومهاجمة. وتعتبر هذه الصفات من صفات القوّة في المداهمة والهجوم وملاحقة العدوّ. ومثل هذه الخيول من أحسن العتاد في الغزوات.

- فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا (3) :

وهي خيول لا ترتاح، وتغير على العدوّ عند الصباح الباكر للمباغتة بالهجوم. وما من قوم داهمتهم هذه الخيول وهم نيام إلاّ هُزموا وذلّوا، وساء صباحهم، ونادوا على أنفسهم بالويل.

- فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا (4) :

وأثارت التراب بسرعة عدْوِها وباحتكاك حوافرها بالعصى وبهجومها المباغت في هدأة الصباح، وهيّجت (به) أي في ميدان المعركة (النقع) وهو الغبار.

- فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا (5) :

وإذا توسّطت هذه الخيول وفرسانها القوم المَغْزُوّين ولم يستطع أيّ أحد منهم أن يفلت من قبضتهم فسيعلمون أيّ بلاء قد حلّ بهم وأيّ ذلّ وحسرة.

وجاء في تفسير ابن عاشور في تعليقه على هذه الآيات: "ومن بديع النَّظْم وإعجازه إيثارُ كلمات: "العاديات"، و"ضبحا"، و"الموريات"، و"قدحا"، و"المغيرات"، و"صبحا"، و"وسطن جمعا"



دون غيرها لأنّها برشاقتها تتحمّل أن يكون المقسم به خيلا، ورواحل الحجّ، وعطف الأوصاف بالفاء في كلام العرب للتعجّب" (التحرير والتنوير، ج30 ص501).

- إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ (6) :

هذه الآية مع الآيتين المواليتين في جواب القسم الوارد في الآيات السابقة. و(كنود) هو الكفور، كثير الجحود للنّعمة. ومعنى الآية: قسما بما سبق ذكره لقد طُبع الإنسان عموما على الكفران بالنعمة وجحودها، كما طبع على حبّ الشهوات والمعاصي واِتباع هواه.

- وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (7) :

وإنّ الإنسان حينما يسيء ويعصي ويأتي الفواحش يعلم في قرارة نفسه أنّه قد أساء أو عصى أو فاحش، وربّما يتحدّث بما يفعل، وإنّه ليشهد على نفسه بما يصنع. وإنّ الكافر يعلن عن نفسه بأنّه ملحد أو هو كافر ولا يحبّ الإيمان. قال تعالى: (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ)(التوبة الآية 17).

- وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) :

وطبع الإنسان على حبّ المال واِمتلاك الثروات والمكاسب حبّا جمّا قويّا، حبّ المتهالك عليه في جشع حتّى أنّه لا يشبع بما جمع وبما كسب، ويقول: هل من مزيد، ولا يتورّع عن كسبه من الحرام ومن المفاسد. وأمّا في أعمال البرّ فإنّه بخيل شحيح لا ينفق من ماله إلاّ مراء وبالمنّ وطلبا للسّمعة والفخر.

هذه الطباع لا تكون في المؤمن لأنّ الإيمان يطهّر قلبه ونفسه وسلوكه من الجحود وعمل المعاصي ومن الجشع، بل يجعله عبدا شكورا مستقيما على الصالح من الأعمال وإنسانا كريما محسنا. لذا فالإنسان المقصود في هذه الآيات هو الكافر أو المنافق المرائي. وعلى هذا فإنّ الغرض من القسم الذي جاء في أوّل السورة يُفيد تحذير هذا الصنف من النّاس من أن يكونوا هدفا لجيش غازٍ يذلّهم في دنياهم، ولن يجدوا أنصارا لهم.

- أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ (9) :

وتأتي هذه الآيات التي تُختم بها السورة لتحذير الإنسان الكنود الجحود البخيل عن الإنفاق في وجوه البرّ والإحسان من سوء عاقبته في آخرته. وبدئت الآية باستفهام للتذكير والتوبيخ لأنّه قد جاءه العلم بأنّ كلّ إنسان سيُبعث بعد مماته يوم القيامة لمحاسبته على عمله في دنياه ومجازاته عليه خيرا أو شرّا على نحو ما كان يفعل، ولكنّه يغفل عن الإعداد لذاك اليوم كأنّه لا علم له به، فماذا يكون حاله إذا أخرجت الأرض ما دُفن فيها من الأجساد، ونثرته على سطحها؟

- وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ (10) :

ثمّ إذا تقدّم للحساب ومعه سجلّه الّذي أُحْصِي فيه كلّ ما صدر عنه من قول وفعل، وكلّ ما دبّره في الخفاء وما نواهُ وما كان يُعِدُّه لشهواته ونزواته، أو من مكر ليكسب المكاسب الوفيرة بطرق غير مشروعة. قال تعالى (وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)(الكهف الآيات 47-49).

- إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ (11) :

أي حين يقوم هذا الكافر الجحود البخيل العاصي الغافل عن العمل لآخرته سيعلم هو وأمثاله علم اليقين وبالحجّة والدليل والشواهد أنّ ربّهم كان مطلعا اِطلاع العليم الخبير بكلّ ما كان قد صدر عنهم من قول وفعل ومن كلّ خاطر، وكيدٍ، وكلّ ما اِجتهدوا في التستّر به من عمل الشقاوة والفساد، لم يكن يخفى عن ربّهم من أمرهم أيّ شيء.



رقمها	ســــورة القارعـــــة	آياتها
101	ـــــ مكية ـــــ	11

سمّيت هذه السورة بسورة "القارعة" لافتتاحها بهذا اللفظ. وهو اِسم من أسماء يوم القيامة. وهي سورة مكية في أغلب أقوالها. وموضوعها في التأكيد على وقوع البعث للحساب، ويومئذ يتمّ الجزاء على الأعمال.

- ٱلۡقَارِعَةُ (1) :

هذا اِسم من أسماء يوم البعث، هي القيامة، والواقعة، والساعة ليقوم النّاس لربّ العالمين: أحكم الحاكمين، للفصل بينهم بالحقّ والعدل والقسط، وليؤتي كلّ ذي حقّ حقّه، ولتقييم أعمال كلّ إنسان للمجازاة خيرا، أو للعقاب عن سيّئاته، ولمجازاة المؤمنين عن إيمانهم وطاعاتهم، وسؤال الكافرين عن حجّتهم على كفرهم وعلى معاصيهم.

سُمّي ذاك اليوم بالقارعة لأنّه يوم تفزع فيه القلوب والأسماع لشدّة ما يقع فيه من القرع. والقرعُ – لغةً – هو الضرب الشديد للأجساد بعضها ببعض بقوّة وشدّة، فتصدر عن هذا الضرب قرقعات مفزعة تصمّ الآذان. يقول العرب: قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفاقرة إذا وقع بهم أمر فظيع مهول. إذن فالقارعة هو الحدث العظيم، شديد الهول والفزع.

- مَا ٱلۡقَارِعَةُ (2) :

اِستفهام مع إعادة نفس اللفظ يفيد التهويل، وتعظيم أمر القارعة فيما تحدثه من أصوات وقرقعات مفزعة ومهولة.

- وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ (3) :

هذه لمزيد تفخيم هول الأمر في ذاك اليوم، وشدّة الفزع. وهذه كقوله تعالى في مفتتح سورة الحاقّة (ٱلۡحَآقَّةُ مَا ٱلۡحَآقَّةُ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ).

وقد جاء هذا للتّحذير من هول ذاك اليوم الذي لا يأمن فيه إلاّ المؤمنون، قال تعالى (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ)(الأنعام الآية 82).

- يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ (4) :

(الفراش) هنا بمعنى فرخ الجراد حين يخرج من بيضه من الأرض يركب بعضه بعضا، وهذا في قوله تعالى (خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ)(القمر الآية 7). وكذا مفهوم



العرب للفراش، وما كان عندهم تلك الحشرات الصغيرة الطائرة بين الزهور لأن بيئتهم كانت صحراوية، وكان يهاجمهم من حين لآخر الجراد. ومعنى الآية أنّ النّاس يقومون حين تقرعهم القارعة كفرخ الجراد المنتشر والمتطاير والمتلاطم بعضه على بعض والزاحف والمتسابق للمنادي.

- وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ (5) :

وفي ذاك اليوم تذهب عن الجبال صلابتها وشموخها، وتغدو كالصوف الذي نُفِشَ باليد فصار مُنْحَلاًّ خفيفا.

- فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (7) :

(أمّا) للدلالة على تفصيل أحوال العباد. في ذلك اليوم يتقدّم النّاس جميعهم للحساب عن إيمانهم وعن أعمالهم، ويكونون في ذاك اليوم على طائفتين. فأمّا من ثقل ميزانه بحسناته وأعماله الصالحة من طاعات وأعمال برّ وإحسان وكان مؤمنا فإنّه سيسعد في آخرته لأنّه سيجد فيها عيشا هنيئا وعيشة رضية يرضاها وينعم بها، ولا يرى فيها شقاءً.

- وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ (8) فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ (9) :

وعلى العكس من صنف ذاك السعيد، فإنّ الكافر الذي يأتي بالمعصية، وليس له من الأعمال الصالحة والطاعات ما يُوزن فسيهوى على أمّ رأسه في نار جهنّم. المقصود (بالأمّ) في الآية الدماغ الذي هو أمّ الرأس. و(الهاوية) اِسم للمكان المنخفض بين الجبلين الذي إذا سقط فيه أحد من الخلق هلك. وهي في القرآن اِسم لقعر جهنّم.

- وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌۢ (11) :

وما أشدّ عذاب من ألقي به في الهاوية على رأسه! ومن أين لك العلم بعذاب نار جهنّم؟ وما هذا الاِستفهام إلاّ لتهويل عذابها، فإنّه عذاب أشدّ من كلّ تصوّر. نار قعر جهنّم شديدة الاحتراق والاِلتهاب، كَيُّها أو شيُّهَا مؤلم جدّا، ولا مُجيب لصارخ ولا منقذ.

وما هذه الآيات إلاّ للموعظة ليدبّر كلّ إنسان صنف عاقبته، فقد أعذر من أنذر. "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر". ومن شاء اِستقام على دين ربّه ليأمن عذابه ولينعم برضوانه تعالى وإنعامه. ومن كفر فعليه كفره وما ربّك بظلاّم للعبيد.



رقمها	ســـــورة التكاثـــــر	آياتها
102	ـــــ مكية ـــــ	8

سمّيت هذه السورة بسورة "التكاثر" لافتتاحها بـ (أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ). وهي سورة مكيّة. وموضوعها النّهي عن التفاخر بالمكاسب الدنيوية في غفلة عن الإعداد للآخرة بحسن إيمان وعمل صالح.

- أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ (1) :

قال ابن عباس: قرأ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : (أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ) قال: "تكاثر الأموال: جمعها من غير حقّها، وشدّها في الأوعية". والمستفاد من هذا التفسير النّبوي للآية موعظة الإنسان لأن لا يجعل أكبر همّه في حياته جمع المال من غير وجه شرعي مباح، والنّهي عن حبّ المال حبّا جمّا يلهي صاحبه عن أداء حقّه من الزكاة والإحسان، أو يدفعه حبّه للمال لكسبه من الحرام وبالتّحيّل والغشّ أو الغصب بالقوة وبغير حقّ أو بأيّ وجه من وجوه الفساد من مثل الرشاوي وتدليس الوثائق وأكل أموال اليتامى أو بالربا أو من باب من أبواب الميسر والإغراء بالربح. وأمّا قوله صلّى الله عليه وسلّم (شدّها في الأوعية) فالمقصود به : إحتكار طعام الناس وتخزينه لإخفائه عنهم طلبا للغلاء والرّبح، ولم يعُدْ الاحتكار مقتصرا على الطعام بل تعدّاه لكلّ ما يحتاجه الإنسان من مثل أصناف من الأدوية الحيوية. ومن وجوه الفساد المالي: التهريب لضرب اِقتصاد البلاد ومصانعها مما يخلّ بميزانية الدولة، ويغلق مشاريع التنمية والعمل فتكثر بذلك بطالة اليد العاملة، وما إلى ذلك من الأشكال الّتي تعسّر على الإنسان قضاء مصالحه، أو أن يقضيها بمشقة وبغلاء مشطّ، وفي المقابل يربح المحتكر والمهرب المال الوفير على حساب شقاوة الآخرين. هذا منْهِي عنه والمطلوب أن يخشى العبد ربّه في خلقه، وأن يتحرّى الكسب الحلال، وأن يتذكّر دوما آخرته وحسابه حتى لا يكون ما كسبه في دنياه وبالا عليه في آخرته. قال تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ)(المنافقون الآية 9).

ومن اللهو بالتكاثر: الإكثار من الزوجات للإكثار من إنجاب البنين، وكان هذا مفخرة عند العرب. ومن التكاثر المتنافس فيه بين جموع محبّي المال ومتاع الدنيا حبّ تملك الأرض والبساتين والدور والأنعام وكثرة العبيد والأعوان، وإن كلّ هذا إلاّ من متاع الحياة الدنيا.

- حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ (2) :



أي وظللتم منشغلين بأموالكم وبأبنائكم ومكاسبكم وشهواتكم وبمتع الحياة الدنيوية حتى لفظتكم الحياة وضمّكم القبر، وأنتم عن الآخرة والعمل لها ساهون وغافلون أو ناكرون لها وغير مصدّقين بالبعث والحساب، وتركتم كلّ أموالكم ومكاسبكم خلفكم ولا تحملون معكم شيئا ممّا كان من زينتها ونعيمها.

- كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (3) :

(كَلَّا) ليس الأمر كما تظنّون خطأ أو تكذيبا، سوف تعلمون حين تقوم الساعة بأنّ ما جاءكم من خبر قيامها كان حقّا وصدقا، وأنّ ما جاءكم من الوعد والوعيد كان خبرا يقينا عندما تقفون عند الميزان للحساب وللجزاء. وحينما ستسألون عن أعمالكم فسوف تندمون وتتحسّرون عن تكذيبكم للحقّ لمّا جاءكم، وسوف تعلمون أنّما أموالكم وأبناؤكم كانوا لكم فتنة للاختبار بما ستفعلون بالنّعمة حين تأتيكم.

- ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (4) :

ثمّ سوف تعلمون حينما ترون العذابَ وسوءَ عاقبة غَفْلَتِكم بأنّ الوعيد كان خبرا يقينا.

وما جاء هذا التكرار إلاّ لمزيد التحذير من الغفلة عن ذكر الله تعالى وطاعته موعظةً للغافل الذي شغله حبّه للدنيا وألهاه حبّه لكثرة المال وزينة الحياة الدنيوية عن العمل لآخرته ليأمن شدائدها وعذاب الجحيم.

- كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ (5) :

جاء لفظ(كَلَّا) في هذه الآية ليفيد معنى: حقّا. أي حقّا لو كنتم تعلمون العلم الثابت – الذي لا يداخلكم فيه شكٌّ– ما سيصيب اللاّهي بزينة الدنيا وطلبها في غفلةٍ عن ذكر ربّه وطاعته من عذاب، وما سيشعر به من ندم وحسرة على ما فرّط من طاعات لله وإنابة، لو كنتم تعلمون حقّ العلم لَمَا غفلتم عن الإعداد لآخرتكم لتأمنوا عذاب يومئذ، ولكنتم مبادرين للأعمال الصالحة لتنالوا خيرا، ولتتنعموا بجنّات النّعيم.

- لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ (6) :

اللاّم في (لَتَرَوُنَّ) مع النون المشدّدة يُفيدان التأكيد الثابت حصوله. والآية التي تليها في وعيد الجاحدين الغافلين عن ذكر الله تعالى الظالمين أنفسهم بإتيان المعاصي والكفر بالوعيد بإيوائهم في الجحيم ليعذّبوا بنارها المحرقة المستعرة وبماء الحميم وطعام الغسلين.

- ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ (7) :

إنّ هؤلاء سيعيشون حقّا في الجحيم، وسيشاهدون نارها الملتهبة، وسيذوقون حريقها وسيطعمون من طعامها ويشربون من حميمها بكلّ تأكيد، وهذا أمر ثابت ويقيني يوم يأتون



للحساب ويساقون إليها بالزجر والدفع والجرّ على وجوههم. وعندئذ يرون العذاب عين اليقين بأنّ وعيد الله تعالى للكافرين وللغافلين عن ذكره وعن الإيمان به وطاعته كان حقّا وصدقا لأنّه جارٍ عليهم، وما هم منه بمخرجين.

- **ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ (8) :**

وحين يقوم الحساب فإنّ من الأمور المؤكّدة في ذاك اليوم أن يسألوا عمّا كانوا فيه من نعيم الدنيا ماذا فعلوا به، وهل أدّوا حقّه من الشكر. سيُسألون عن نعمة وجودهم واِكتمال عقولهم وأجسامهم كيف قابلوا هذه النّعمة، وماذا فعلوا بها، وسيسألون عن مكاسبهم: عن مأتاها وفيم أنفقت وكيف كان شكرهم عن هذه النّعم، وسيسألون عن حججهم لرفض دعوتهم للإيمان بالهدى وعن حججهم في تكذيبهم بالساعة وبالوعيد، ثمّ يسألون عن أعمالهم وعن أعمارهم فيما قضوها.. ويومئذ يشتدّ عليهم حسابهم، وقد تقدّم في سورة الحاقّة تفصيل ذلك (الآيات 25-37).



آياتها	ســــورة العصــــــــر	رقمها
3	ـــــ مكية ـــــ	103

سمّيت هذه السورة بسورة "العصر" لافتتاحها بالقسم بالعصر. وهي سورة مكية في ثلاث آيات.

هي إحدى السور الثلاث القصار: العصر، الكوثر والنّصر.

وهي في موعظة النّاس للانتفاع بزمن حياتهم حتّى لا يفرّطوا في الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحقّ.

قال الإمام الشافعي – رحمه الله – في بيان فضلها: "لو تدبّر النّاس هذه السورة لَوَسِعَتْهم". قصده لوَسِعَهُم الانتفاع بموعظتهم، وكفَتْهُمْ موْعظةً بما جاء فيها من جوامع الكَلِمِ.

- وَٱلۡعَصۡرِ (1) :

الآية في القسم بالعصر، والعصر في كلام العرب – على حدّ قول ابن عبّاس – هو الدهر. العصر جزء من زمن النّهار، وفي كلام العرب يدلّ الجزء على الكلّ، وعلى هذا فإنّه قسم بالزّمن، فإنّهم كانوا يقولون: "عصر النبوة". وقد يكون هذا القَسَمُ بصروف الزّمن في حياة النّاس فيحوّل حالهم من حالٍ إلى آخر على ما قدّره الله تعالى لكلّ فرد. وقد يكون هذا القسم بجزء من النّهار الذي يُؤْذِن بانصراف النّهار بضوئه ونشاطه ليحلّ محلّه بعد فترة قصيرة من الزمن إلى دخول الليل بظلمته. وفي هذا رمزية كبيرة فإذا وُلد الإنسان كان ظهوره كظهور فجر النّهار، ثمّ يكون ضحاها ثم يتقوّى ويشتدّ ضياء النّهار كما تشتدّ قوى الإنسان ويكتمل عقله ونضجه حتّى إذا بلغ زمن عَصْرِهِ بدت عليه علامات ضعفه حتى يأتيه اللّيل فيذهب بضيائه ونهاره، ليقوم بعده نهار آخر جديد. وعلى هذا يكون هذا القسم لموعظة الإنسان إذا ظهرت عليه علامات ضعفه لتقدّمه في سنّه فعليه أن يسارع لفعل الخيرات ولتدارك أمره في الإيمان وعمل الطاعات والصالحات قبل أن يفاجئه زمنه بانتهائه. والله تعالى أعلم بالمقصود، وعموما فإنّه قسم بالزمن الذي يعلم بقرب تحوّله إلى زوال.

- إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ (2) :

هذا جواب القسم. ومعنى الآية: قسما بالزّمن وتصاريفه الخاضعة لقضاء الله تعالى وتقديره إنّ كلّ إنسان لهالك ولَفِي خسارة إن لم ينتفع بزمن حياته ووُجوده، وأضاعه في اللّهو بزينة الحياة ومشاغلها واتّبع هواه ولم يعمل في حياته صالحا حتى هلك ومات. لقد خسر إِنتفاعه بحياته،



وخسر كذلك آخرته. قال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ)(المنافقين الآية 9).

- إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ **(3)** :

وأمّا هؤلاء فليسوا من الخاسرين، بل هم من الفائزين. وصفاتهم أنّهم مؤمنون بالله وحده، غير مشركين به، ومؤمنون برسله، وبكتبه، وبملائكته وباليوم الآخر، وبالقضاء: خيره وشرّه. ومع إيمانهم هذا فإنّهم مداومون على عمل الصالحات التي تعني أداء الطاعات، واِجتناب المحرّمات والمنهيات، وتعني أعمال البرّ والإحسان فيما ينفع البلاد والعباد من غير رياء ولا مَنٍّ أو أذى، وتعني كذلك معاملة الإنسان لأخيه الإنسان بخلق حسن. ومن صفاتهم أنّهم يتواصون بكلّ أمر فيه إنصاف لتحقيق العدل، ومَنْعٌ للظلم والجور واِغتصاب حقوق المستضعفين ومن الحقّ الذي يتواصون به منع الإضرار بالمصالح العامّة، والوقوف في وجه الباطل والإفساد في الأرض والكسب غير المشروع واِنتشار الرذائل والفواحش، وترويج المخدّرات والمهلكات لصحة النّاس وأخلاقهم. وهذا من عمل ذوي الحكمة والرشاد، وأهل الوعظ بالموعظة الحسنة، ومن تأديب المربّين على الفضائل. ومن صفاتهم كذلك أنّهم يتواصون بالصبر. والصبر اِسم جامع لضبط النفس لتتقوّى على تحمّل مشاقّ الحياة، ومجاهدة أعباء المسؤولية، ولتتحمّل الإحساس بالمرارة عند المرض أو فَقْدِ العزيز حتى لا تجزع ولترضى بقضاء الله تعالى وتقديره. ومن فضائل الصبر مقاومة هوى النفس حتى لا تهوى المعاصي والفواحش وكلّ رذيلة لتترفع عنها وتطلب العفّة والعزّة والطهر. قال تعالى (وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ)(البقرة الآيات 155-157).

قال الفخر الرّازي في (تفسيره الكبير ج32 ص 90) : "دلّت الآية على أنّ الحقّ ثقيل، وأنّ المِحَنَ تلازمه فلذلك قُرِنَ بالتواصي".

وهذه الآية هي محلّ الموعظة في السورة، وهي الهدف منها. القصد حضّ الإنسان على أن يكون مؤمنا وأن يعمل صالحا في حياته ليأمن عذاب الآخرة ولتكون حياته سببا لينال خيرا عند ربّه في آخرته، وبذلك يكون قد اِستفاد من حياته ومن وجوده، ولا يكون من الخاسرين. ومن مقاصدها دعوة المجتمع الإيماني ليتواصوْا بالحقّ والعدل ليأمنوا من الظلم والجور في حياتهم الدنيوية، وليتواصوا بالصبر ليتحمّلوا الشدائد التي تعترضهم في حياتهم في مؤازرة. قال تعالى (وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ)(التوبة الآية 71) وبهذا يتحابّون ويتعاونون ويسعدون في حياتهم الدنيوية حتى لا يكونوا في خسر.

رقمها	ســــورة الهمـــــــزة	آياتها
104	ـــــ مكية ـــــ	9

سمّيت هذه السورة بسورة "الهُمزة" لافتتاحها بتهديد الهُمزة. وهي سورة مكية. وموضوعها في وعيد الهمّاز اللمّاز بالعذاب الشديد يوم القيامة تحذيرا من الاتصاف بهذه الصفة المستنكرة.

- وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ (1) :

(الويل) هو الدعاء بالهلاك، وهو إنذار شديد بوعيدٍ بسوءِ العاقبة يوم الحساب. و(الهمّاز) هو الذي يغمز بإشارة من عينه لمن حوله، وبإشارة من يده ليعبّر بهذه الإشارة في مجلسه لمن حوله إذا رأى أحدا يقترب منه، وهو لا يرغب فيه، ولا يحبّ رؤيته ولا حضوره معه في نفس المجلس قصد التحقير من شأنه، أو الاستخفاف به، أو للتحذير منه طعنا في أخلاقه وكراهية له.

وأمّا (اللمز) فهو ذكر أحد النّاس في غيابه بسوء طعنا في سلوكه أو أخلاقه. ومن اللمز كذلك مواجهة أحد النّاس في مجلس بالطعن في أخلاقه وبذكر عيوبه وبحضوره للتشهير به وإيذائه علنًا لإهانته.

والخُلُقان كلاهما من أخلاق اللئام، وسوء الأخلاق، ومن طباع الأجلاف. وهما خلقان يتنافيان مع ما يدعو إليه الإسلام من قيم المعاملة بالإحسان، والتآخي، والنهي عن التكبّر واحتقار الآخر، ونبذ الكراهية. قال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)(الحجرات الآية 11). وجاء قوله تعالى (وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ)(القلم الآيتين 10-11).

وقد جاءت هذه الآية بالنهي عن هذين الخلقين اللذين يفسدان العلاقة الاجتماعية القائمة على الإحسان والمحبّة والتوادد واللذين يزرعان الفتنة والكراهية وكلّ عناصر التفرقة في المجتمع، وهذا ما يتنافى مع ما وصف به الله تعالى المؤمنين في قوله جلّ وعلا (إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ)(الحجرات الآية10). ولذلك دُعِيَ على الذي يتّصف بخلق الهمز واللمز بالويل والثبور الذي يعني تهديده بسوء عاقبته.

- ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ (2) :



وما كان هذا همّازا لمّازا إلاّ لاغتراره بما جمع من مال ومكاسب فأثرى بها، فصار متكبّرا يحتقر منْ كان أضعف منه مالا وأقلّ مكاسب. وليس من خلق المؤمن الشريف النبيل الذي يكسب ماله من وجوه الكسب الحلال مما آتاه الله تعالى من فضله أن يحتقر أخاه المؤمن لفقره وقلّة ذات اليد.

- يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ (3) :

أيظنّ هذا الغنيّ أنّه حين يجمع مالا كثيرا ومكاسب وفيرة أنّه سيخلّد بها فلا يموت ولا يهلك؟ فالآية في التذكير بأنّ المال وصاحبه إلى زوال، فلا يجعلنّ العاقل جمعَه للمال سببا لسوء عاقبته.

- كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ (4) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ (5) :

(كَلا) أي ليس الأمر كما يتوهم. سيهلك هذا الهمّاز اللمّاز الذي لم يكن شاكرا لأنعم الله تعالى عليه، والذي جعله جمعُه للمال متكبّرا محتقرا للنّاس، وسيُلقَى به ويطرح في (ٱلۡحُطَمَةِ) أي في جهنّم. وقد سمّيت بالحطمة لأنّه بإلقائه فيها ستتحطم عظامه وتتكسّر فيتألّم ألمًا شديدا بهذا التحطيم إلى جانب الحرق بنارها، وهذا هو الويل الموعود به في آخرته.

- نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ (6) :

ومع تحطيم عظامه وتكسيرها سيُكوى في جهنّم بنارها الملتهبة اِلتهابا شديدا ليعرف عاقبة تكبّره على النّاس واِحتقاره لهم وليعرف عاقبة همزه ولمزه.

- ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ (7) :

إنّها نار تنفذ من قوتها إلى القلب، ويصل حريقها إلى عمق البدن بمثل ما يُحرق ظاهره.

- إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ (8) :

وإنّ أبواب جهنّم مغلقة عليهم، فليس لهم مفرّ منها، ولا خروج. قال تعالى (كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا)(الحج الآية 22).

- فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ (9) :

وسيكونون فيها موثوقين في أعمدة طويلة ممتدة، وهذا لمزيد العذاب والإذلال.

وهكذا فإنّ السورة في التحذير من هذا الخلق اللئيم: الهمز واللمز الذي يفسد علاقة المؤمنين ببعض ويفسد توادّهم وتراحمهم. وما هذا التهديد بعذاب الحطمة ونارها الموقدة إلاّ لمزيد التحذير من التكبّر على النّاس واحتقار الضعفاء والفقراء منهم خاصة بسبب ما آتى الله بعضهم من الثراء.



رقمها	ســـورة الفيـــــل	آياتها
105	ـــــ مكية ـــــ	5

سمّيت هذه السورة بسورة "الفيل" للتذكير بحادثة الفيل.

وتسمّى عند القرّاء: "ألم ترَ" وهي سورة مكية.

وموضوعها في تذكير أهل قريش بنعمة الله تعالى عليهم بحفظهم وحفظ الكعبة: بيت الله الحرام من غزوة أصحاب الفيل. وهي في الآن ذاته في تحذير القرشيين من بطشه تعالى بهم إذا أرادوا برسوله صلّى الله عليه وسلّم كيدا وأذًى.

- أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ (1) :

(أَلَمۡ تَرَ) اِستفهام للتّذكير، وفعل الرؤية هنا يُفيد العلم. وعلى هذا يكون معنى الآية: ألا تذكر، أَوَ لَمْ تعلم كيف فعل ربّك وحده بقدرته وتصرّفه بأصحاب الفيل الذين هاجموا بيت الله الحرام ليردّهم عن بيته، وليصدّهم عنها ويردّهم عن عزمهم خائبين لم ينالوا خيرا، بل هلكوا دون تدخل أيّ واحد من سكّان مكّة والقرى المجاورة؟ أُذكروا ذلك لتعرفوا قدرة ربّكم على الذين يريدون برسوله صلّى الله عليه وسلّم أذى أو يكيدون له كيدا.

وملخص الحادثة أنّ (أبرهة) زعيم الحبشة كان قد بنى كنيسة في صنعاء، وسمّاها (القُليس)، وكان يريد أن يحجّ إليها النّاس، وخاصة العرب الذين كانوا بالبيت العتيق الذي في قريتهم ينافسون رغبته. وقام رجل من بني كنانة من نفسه فقصد (القُليس) وتغوّط فيها اِحتقارا، فوجد (أبرهة) في هذا العمل ذريعة لغزو مكة وهدم الكعبة حتى يصرف العرب للحجّ لكنيسته، وينقطعوا عن الحجّ لمكّة، وساق لمكة جُندًا من الحبشة، وتقدّمهم هو بنفسه على فيلِه الضخم المدلهمّ. ولمّا وصل قرب مكة أرسل إلى (عبد المطلب) الذي كان زعيما لقومه، وكان من أشرفهم عندهم، وكان مُطاعا عندهم، وأبلغه بتحذيره لقومه من التعرّض له ولجنده عند دخولهم لمكة. ولمّا بلغ (عبد المطلب) هذا التحذير أمر أهله وقومه بالخروج من مكة إلى الجبال المحيطة بها خشية من معرّة الجيش وخوفا عليهم من الأذى، وقال قولته الشهيرة حين سئل عن تدبيره للانصراف عن قتال الغزاة الذين يريدون هدم الكعبة: "إنّ للبيت ربّا يحميه". وظلّ (عبد المطلب) متعلّقا بحلقة باب الكعبة يدعو ربّه لحفظها ثمّ خرجوا...

وزحف جيش أبرهة نحو البيت حين دخلوا مكة، وفي اليوم التالي وحين كان (عبد المطلب) يدعو ربّه ممسكا بحلقة باب الكعبة اِلتفت صدفة فإذا هو بِطَيْرٍ من نحو اليمن – جهة البحر – في أسراب تسدّ الأفق تتّجِهُ جهة مكّة. كان يرى طيرا غريبا، كلّ طائر يحمل في منقاره وأرجله حجارة صغيرة، وحين يلقي الطير حجارته في جمع جيش أبرهة يرى تفرّقا وتشتّتا في القوم.

- أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) :

أي ألم تعلم كيف ردّ الله تعالى كيدهم، وخيّب مسعاهم، وردّهم خائبين خاسرين هالكين رغم ما كانوا يملكون من قوة وعتاد وعزم على هدم الكعبة.

- وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (4) :

وذلك بأن بعث الله تعالى عليهم طيرا (أَبَابِيلَ) أي أسرابا كثيرة متتابعة ومتفرّقة، جاءت من قِبَلِ البحر، وجعلت ترميهم من مناقيرها وأرجلها بحجارة من (سِجِّيل) أي طين متحجّر محروق مثل الآجر. ما أصابت أحدا إلاّ أهلكته وأفزعته أو أصابته بداء جلدي أليم.

- فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (5) :

فجعل هذا المخلوق الضعيف (الطير) بما حمله بمنقاره أو رجلاه على ضعفهما وخفّة حمله ذاك الجند بقوّته وعتاده حين رماه بما حمل (كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) أي كورق الزرع الذي أكلته البهائم وداسته بقوائمها وأهلكته. أرسل تعالى على أهل القوة والجبروت أضعف خلقه ورماهم بحجارة صغيرة من طين متحجّر فأهلكهم. الصّغير الضعيف أهلك القويّ. وما ذاك إلاّ من تقدير الله عزّ وجلّ ليعتبر به من يعتبر، وبهذا حمى الله تعالى بيته الحرام وجعل ما حوله آمنا في البلد الأمين، وأمّن سكّانه على أرواحهم وممتلكاتهم.

قال العرب بعد هذه الحادثة عن قريش: هم أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة قتال عدوّهم. وعظّموهم تبعا لذلك. وما عاد أحد يجرؤ على الإغارة على مكّة.

وقد جاءت هذه السورة لتذكير أهل قريش بفضل الله تعالى عليهم في حمايتهم من جند أبرهة، فما كان لهم أن يكذّبوا بدين الله الحقّ وما كان من حقّهم أن يكذّبوا برسولهم لمّا جاءهم من عند الله تعالى، وما كان لهم أن يكذّبوا بكتابه وهم الذين حضروا آية من آياته وعاينوها بأنفسهم إذ أمّنهم على أرواحهم وممتلكاتهم وآمنهم من خوف. فما أشدّ جحود من كفر بالله تعالى بنعمة الله عليه يوم كان مهدّدا في نفسه.



رقمها	ســـــورة قريـــــش ـــــ مكية ـــــ	آياتها
106		4

تسمّى هذه السورة بسورة "لإيلاف قريش" لوقوع هذا اللفظ فيها، ولم يذكر في غيرها، وهي سورة مكية. وهي في موضوعها شديدة الصلة بسورة "الفيل"، فكأنّ هذه السورة في تعيين واجب قريش نحو ربّهم الذي أنجاهم من الهلاك والإذلال حينما غُزوا في قريتهم بجند صاحب الفيل الذين لم يكن لهم قِبَلٌ بهم، ولا قدرة لهم عليهم، وقد عاينوا كيف حماهم الله تعالى منهم وحمى بيته بأضعف خلقه (الطير)، فكان من حقّه تعالى عليهم أن يشكروا له وأن لا يؤمنوا بإلاه آخر غيره لا يستطيع لهم نفعا.

- لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ (1) إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ (2) :

أَلِفَت قريش الخروج في رحلتين في العام للتجارة: رحلة في فصل الشتاء إلى الشام، ورحلة ثانية في الصيف إلى اليمن لابتغاء طعامهم منهما لأنّه لم يكن في بلدهم زرع ولا ضرع ولا ثمر إلاّ النُّدْرَةَ منها. ولم يكن قطّاع الطرق يتعرّضون لقوافلهم التجارية في رحلتيْهم اللتين ألفوهما، وذلك لأنّ النّاس بعد حادثة الفيل صاروا يعظمون قريشا وسكّان مكّة حتى قطاع الطرق، ولم يعد يتعرّض إليهم أحد حيثما حلّوا وإرتحلوا، بل صار القريشيون إذا جاءهم الصيف يخرجون من مكة إلى الطائف للتبرّد، ثمّ يعودون لمكّة في أمن وأمان لا يغيرُ عليهم أحد، ولا يجرؤ على ذلك لأنّهم عندهم على قولهم: أهل الله.

- فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ(3) :

قال الزمخشري في تفسيره لهذه الآية : أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين على معنى أنّ نِعَم الله عليهم لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة. (الكشّاف ج.4 ص 235).

فالمعنى: تبعا لما منَّ الله تعالى به عليهم من نِعمة الأمن والأمان على الرّوح والمال والرزق من الاعتداء والإغارة فليعبدوا الله تعالى الذي حفظهم من عدوّهم وعلى رفع قدرهم ومنزلتهم بترهيب العدوّ منهم، وليشكروا له، وعليهم أن لا يعبدوا غيره ليس له أيّ فضل عليهم، بل عليهم أن يخصّوا الله صاحب البيت بالعبادة والشكر إذ جعل لهم بلدهم آمنا وجعلهم آمنين على أنفسهم لوجودهم في حرم بيته الحرام. ربّ البيت أولى بالعبادة والتقديس والتعظيم دون سواه.



وقال الرّازي في تفسيره للآية (التفسير الكبير ج.32 ص107): "اِعلم أنّ الإنعام على فضيلتين: إحداهما: دفع الضرر، وثانيهما: جلب النّفع، والأوّل أهمّ وأقدم، ولذلك قالوا: دفع الضرر عن النفس واجب، وأمّا جلب النفع فإنّه غير واجب. فلهذا السبب بيّن تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل، ونعمة جلب النفع في هذه السورة. ولمّا تقرّر أنّ الإنعام لابدّ أن يُقابل بالشكر والعبوديّة، لا جَرَمَ أتْبَع ذكر النّعمة بطلب العبوديّة".

- ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ **(4)** :

وإنّ ربّ البيت حقيق بالعبادة والشكر لأنّه أمَّنَكُمْ على أنفسكم من غزو الغزاة وأمّنكم على قوافلكم التجاريّة بأن خوّف قطاع الطرق منكم فلم يتعرّضوا لكم فأمنتم الطريق، ثمّ إنّه تعالى جعل لكم ساحلا بحريّا ترسو فيه السفن المحمّلة بالطعام آتية من الحبشة فتتاجرون فيها وتشترون طعامكم وتحمّلون إبلكم بها على مسيرة ليلتين فحسب، وكان النّاس يَفِدُون إليكم من كلّ جانب للحجّ للبيت محمّلين بالمال والطّعام فكان طعامكم يأتيكم رغدا من كلّ مكان فلم تعرفوا بهذا جوعا رغم أنّ بلدكم لا ينبت زرعا ولا كلأ ولا تُغرس فيها الأشجار المثمرة غير النّخيل. فهلاّ عرفتم فضل ربّكم في ما يسوقه إليكم لطعامكم لتشكروه وتعظّموه وتعبدوه.

رقمها	ســـــورة الماعـــــون	آياتها
107	ـــــ مكية ـــــ	7

سمّيت هذه السورة بسورة "الماعون" لورود هذا اللفظ فيها، ولم يذكر في غيرها. وهي سورة مكية. وتسمّى في بعض كتب التفسير بسورة : "أرأيت الذي" وهو اِسم غير مشهور.

وموضوعها في التعجّب من صفات الّذي يكذّب بالدين وبيوم البعث للحساب.

- أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ (1) :

ما أعجب أمر الذي يكذّب بهذا الدّين بغير حجّة، وبغير سلطان – وقد جاءه من الآيات ما يهديه للصواب، ويرفع عنه الغشاوة، ويقيه من الضلالة! وما يكذّب بهذا الدين بغير حجّة إلاّ معاند ومكابر، أو من كان يتوهّم أنّ حياته كانت مصادفة نتيجة لهو، وما يهلكه إلاّ الدهر. وما أعجب أمره كذلك حين ينكر البعث وقيام الساعة، ويهزأ بالوعد والوعيد كأنّما الحياة خلقت عبثا، وأنّ الإنسان غير محاسب على عمله!

- فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ (2) :

(يَدُعُّ) أي يدفع عنه للإبعاد، ويطرد طردا فيه إذلال. ومعنى الآية: ذاك الذي يكذّب بالدين إذا جاءه يتيم من ذوي قرابته يطلب منه عونا وإحسانا، أو يطلب منه حقّه من إرث أبيه أطرده ونهره في إذلال حتى لا يعود إليه. وهذا من تحجّر قلبه، ومن فظاظته، وغلظة طبعه. والمؤمن لا يكون على هذا الطبع لأنّ الإيمان يرقّق القلب، ويرغّب في الإحسان وفي التراحم، ويوجب أداء الحقوق لأصحابها. المؤمن يألفُ ويؤلف، يعطف ولا يحقر، ولا يستكبر، ويحنو ولا يطرد من حماه الضعيف، واليتيم أضعف خلق الله تعالى، وأحوجهم للحنو والعطف والمؤازرة.

- وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (3) :

المسكين هو المعاق، أو الذين أقعده المرض عن العمل، والذي أفلس بعد غناه، والذي عجز وهرم بعد نشاطه. والمساكين في المجتمع كُثْرٌ وخاصة في جنس النساء: فيهنّ العانس التي فقدت والديها وكانت وحيدة، والأرملة صغيرة السنّ ذات البنين وما لها من عمل ومورد رزق قارّ، أو التي كبرت في السنّ وليس لها أولاد، وهناك حالات إنسانيّة كثيرة تستوجب الرعاية والإحسان من طرف ذوي القربى والجوار... وإنّما يختبر النّاس في صدق إيمانهم، وفي عملهم الصالح من الإحسان، وفي رقّة قلوبهم، وفي تعاطفهم ومؤازرتهم في عنايتهم بهذه الطوائف من المستضعفين.

هؤلاء يجدون عند المؤمنين الصادقين العناية والرأفة والعون وهم الذين قال فيهم تعالى (وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا)(الإنسان الآيتين 8-9).

ولا يردّهم عن حاجتهم ويمنع عنهم العون إلاّ متحجّر قلب. وهذه صفة لا تكون إلاّ في مكذّب بالدّين، ومكذّب بالجزاء والثواب، بل إنّ المكذّب بالدّين يثني غيره ممن يحسن لطائفة من هؤلاء المستضعفين عن الإحسان إليهم. إنّه لا يرحم، ولا يترك غيره يرحم، ولقد تأسّست جمعيات في البلاد لرعاية المسنّين فاقدي السند، وللمواليد والأطفال فاقدي السند لرعايتهم وحمايتهم من الهلاك والتشرّد، وللمرضى بالأمراض المزمنة المستعصية، فهذه الجمعيات تستحقّ كلّ دعم في المجتمع الإنساني الإيماني، وأمّا الذي يكذّب بالدين فلا يلتفت إليها لأنّه لا يؤمن بيوم الحساب للجزاء على حسن العمل كالذين قالوا (أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ)(يس الآية 47).

- **فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ (4) ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ (5) ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ (6) وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ (7) :**

هذه في تهديد المصلّين المتّصفين بالصفات الثلاث الّتي ورد ذكرها في جملتي صلة الموصول: (ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ) وَ(ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ)، و(وَيَمۡنَعُون ٱلۡمَاعُونَ). وليس التهديد للمصلّين في المطلق لأنّ الصلاة عبادة، والعبادة لا تكون إلاّ من مؤمن. والسورة في صفات (الذي يكذّب بالدين). وصلاة المكذّب بالدين ليست للعبادة لأنّه غير مؤمن، وإنّما هي حركات للمخادعة وللرياء أي للتظاهر بها أمام المؤمنين لينسب إليهم نفسه حتّى يأمنوا جانبه، وليتعاطوا معه في تجارتهم ومعاملاتهم، وليأمن مقاطعتهم له وحذرهم منه. والمكذّب بالدين غير حريص على أداء الصلاة في وقتها وحين يخلو بنفسه، وإنّما هو يصلّي أمام النّاس. المكذّب بالدين يضيّع صلاته إن لم يجد من النّاس من يراقبه فيها، وهذا كقوله تعالى (فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)(مريم الآية 59) وقوله تعالى (عَن صَلَاتِهِمۡ) أفاد الحرف (عَن) البعد عن الصلاة، و(سَاهُونَ) في الآية لا يعني النسيان غفلة، وإنّما يعني أنّها لا تخطر على بالهم إذا لم يكونوا في جمع من المصلّين، ولا يهتمّون بها إذا كانوا مُفْرَدِين، ولا يخشون عند تركها عقابا، ولا يأملون عند أدائها جزاءً. وإنّ المكذّبين بالدّين لا ينتفع أحد من جواره بمنفعة منه ولو "بعارية"، أي يعيره لقضاء حاجته آنية من مثل: فأس أو قدر أو دلو أو قدّاحة، أو ملح لطعام أو آنية لطعام أو شراب أو ماء لتسديد حاجةٍ آنيةٍ سريعة أو في مناسبة خاصة. المكذّب بالدين لا ينتفع بجواره أحد من الجيران أو الأقارب لبخله وإستكباره وكرهه للمؤمنين.

هذا النصف هو المهدَّدُ بالويل، وليس التهديد في قوله تعالى (فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ) للعابدين المؤمنين عموما، وإنّما هو تهديد للمصلّين المرائين المكذّبين بالدّين والذين لا يرجون من أداء الصلاة في جموع المؤمنين ثوابا، ولا يخافون عقابا عند تركهم لها والذين هم لا ينتفع منهم بشيء لا الجوار ولا القريب.

والسورة في موعظة المؤمنين حتى لا يتّصفوا بهذه الصفات اللاإنسانيّة الواردة فيها.

آياتها	سـورة الكوثـر	رقمها
3	ـــ مكية ـــ	108

سمّيت هذه السورة بسورة "الكوثر" لانفرادها بذكر هذا اللفظ. وهي سورة مكية، وعند بعضهم هي مدنية. وموضوعها في بيان فضل الله تعالى على نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بتخصيصه بالكوثر.

- إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ (1) :

(إِنَّآ) هو الله عزّ وجلّ، هو الذي أعطى لنبيّه الكوثر، وذلك لأنّ ضمير المخاطب يعود على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وإختلف المفسّرون في تحديد معنى الكوثر الذي آتاه الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، وخصّه به على ستّة عشر قولا: الأوّل على أنّه نهر في الجنّة (رواه البخاري والترمذي وأحمد عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إغفاءة فرفع رأسه مبتسما، قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّه أُنزلت عليّ آنفا سورةٌ، فقرأ : "إنّا أعطيناك الكوثر" حتّى ختمها، فقال: أتدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربّي عزّ وجلّ في الجنّة عليه خير كثير، تَرِدُ عليه أمّتي يوم القيامة). وقيل: إنّه حوض النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الموقف (قاله عطاء). وقال عكرمة: "الكوثر هو النّبوّة والكتاب". وقال الحسن: "هو القرآن". وقيل: هو كثرة الأصحاب والأمّة والأشياع. (عن الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج20 ص 217).

وعموما فإنّه عطاء عظيم من الله عزّ وجلّ لرسوله صلّى الله عليه وسلّم تكريما وتشريفا وكرامة له ولأتباعه. وبهذا العطاء العظيم أثلج الله تعالى صدر رسوله صلّى الله عليه وسلّم لمواساته عمّا كان يلقاه من أعدائه وحاسديه ومن المكذّبين به من إستخفافٍ به ومن مُشَاقّةٍ وغمزٍ ولَمْزٍ.

- فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ (2) :

فاشكر ربّك على هذا الفضل بإقام الصلاة المفروضة، والنوافل للثناء على الله تعالى تعظيما له. ثمّ انحر ذبيحتك وأُضحيتك، وما هو نُسك لك وهو الهَديُ، وأُذكر اِسم الله وحده، وكبّر باسم الله على الذبيحة تعظيما لجلاله.

وعلى الترتيب الوارد في الآية في تقديم الصلاة على النّحر، قال الفقهاء: لا يكون النّحرُ يوم النّحر إلاّ بعد صلاة العيد.

- **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ (3) :**

يكاد يُجمع المفسّرون إِستنادا على ما جاء في أسباب النزول بأنّ هذه الآية قد جاءت في الرّد على العاص بن وائل الذي وقف ذات يوم مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يكلّمه، ثمّ اِلتحق ببعض من زعماء قريش فقالوا له: "مَعَ مَنْ كنتَ واقفا؟" فقال: "مع ذلك الأبتر". وكان العرب يسمّون من لم يكن له ذكرٌ من البنين أبتر. فنزلت هذه الآية بوصف العاص بن وائل بأنّه هو الأبتر، وليس النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم موصول البركات وله أثر عظيم من السنّة الزكية الشريفة التي جعلت للناس قدوة، وأمّا الذي عيّره بعدم الخلفة لولد ذكر فهو الأبتر، بمعنى أنّه المنقطع عنه خير الدنيا والآخرة، والذي سينقطع ذكره بموته. و(الشانئ) لغةً هو المبغِضُ، وفي الآية هو المقطوع الذي لا خير فيه.

وجاء في الحديث الشريف: "كلّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر". أي مقطوع البركة.

رقمها	ســــورة **الكافـــــرون**	آياتها
109	ــــــ مكية ــــــ	**6**

سمّيت هذه السورة بسورة "الكافرون" لأنّ الله تعالى أمر نبيّه محمد صلّى الله عليه وسلّم بأن يخاطب بها الكافرين. وتوصف بمثل ما توصف به سورتا : "التوبة" و"الإخلاص" بِـ "المقشقشة" لما فيها من التبرّؤ من الشرك ومن النّفاق.

وذكر اِبن إسحاق وغيره عن اِبن عباس : في سبب نزولها أنّ الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمّية بن خلف لقُوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا : يا محمد، هلمّ فلنعبدْ ما تعبدُ سنةً، وتعبد أنت ما نعبد سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرا ممّا نعبد كنّا قد أخذنا بحظّنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا ممّا تعبد كنتَ قد أخذتَ حظّك منه. فقال: مَعاذ الله أن نشرك به غيره، وأنزل الله عزّ وجلّ هذه السورة.

وأردف ابن عباس قوله: فلمّا سمعوها يئسوا منه، وآذوْه، وآذوْا أصحابه. وعلى هذا فإنّها سورة مكية. وموضوعها: البراءة من الشّرك.

وفي الحديث الّذي رواه الترمذي عن أنس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال عنها: إنّها تعدل ثلث القرآن، وفي حديث آخر مرفوع: أنّها تعدل ربع القرآن. وذلك لأنّها في عقيدة التوحيد والبراءة من الشرك، وهي أسّ العقيدة الصحيحة السليمة.

- قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ **(1)** :

أمرٌ من الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم بأن يخاطب المشركين بصفتهم: "يا أيّها الكافرون". وكان من أشدّ ما يغيظ زعماء قريش وصناديدها وسندة البيت، ومن أشدّ ما يُثيرُ غضبهم مناداتُهم بالكافرين.

والكفر هو طمس الحقّ. ومن طمس الحقّ الكذبُ على الله عزّ وجلّ والإفتراء عليه بادّعاء شريك له أو ندّ، أو أن ينسب إليه الولد والصاحبة وهو الله الواحد الأحد، ومن طمس الحقّ في حقّ الله عزّ وجلّ ألاّ يُعبد في الأرض ولا أن يُطاع، ويطاع بدل ذلك الكهنة وتعبد الأصنام: الحجارة الصمّاء، فهذا طمس للحقّ، واِدّعاء بالباطل، لذلك نُعِتُوا بالكافرين.

- لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ **(2)** :



قل لهم – يا نبيّ الله – لا أعبد – حاضرا ولا مستقبلا – ما تعبدون من الحجارة الصمّاء، وفي هذا الرفض لما اِقترحوا عليه من عبادة آلهتهم سنةً اِستخفافٌ بمقترحهم، وفيه كذلك اِحتقار لشأن آلهتهم المزعومة التي لا تستحقّ الألوهية لأنّها من اِختلاقهم المزعوم الضالّ.

- **وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ (3) :**

هذه في بيان عناد أولئك السادة الذين اِقترحوا على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يعبدوا إلاهه سنةً، ولرفض عبادتهم التي ليس فيها إخلاص لله تعالى في العبادة، وإنّما هي عبادة مجاملة، وأنّ إيمانهم بالله وحده لم يكن صادقا ولا عن قناعة ووعي. وكلّ عبادة، وكلّ إيمان ليس فيه صدق وإخلاص فهو غير مقبول. وفي الآية إخبار بالغيب بأنّهم سيموتون على كفرهم ولن يؤمنوا. وقد حصل، وهذا من صدق نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم، ومن صدق الخبر.

- **وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ (4) :**

أي ولم أكن – والضمير للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم – من قبلُ فيما سلف من عمري عابدا ما عبدتم. قال تعالى (وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ)(الضحى الآية 7). ولن أعبد ما تعبدون. وهذا لتأييسهم من اِستمالتهم له لعبادة آلهتهم المزعومة، ولرفض مقترحهم اِستخفافا به.

- **وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ (5) :**

هذه في توكيد الآية السابقة (آية 3) للتأكيد على أنّ هؤلاء المشركين سيصرّون على كفرهم إلى أن يموتوا، وأنّهم لن يؤمنوا، ولن يتركوا آلهتهم المزعومة، ولن يتوب أحد منهم من شركه عنادا ومكابرة.

- **لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ (6) :**

(الدين) هو العقيدة والملّة. ومعنى الآية: اِبقوا على كفركم وشرككم، وسأظلّ على عبادتي لله وحده لا أشرك به أحدا. وهذه كقوله تعالى (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ)(يونس الآية 41). وكذا يُخاطب المصرّ على كفره فإنّما حسابه عند ربّه، وإنّك لا تهدي من أحببت، فإنّ الهدى لمن يهتدي، ويتبصّر ويتدبّر ولمن يسمع ويعقل.

وهذه الآية هي محلّ الموعظة في السورة.

رقمها	ســـــورة النّصـــــــــر	آياتها
110	ــــــ مدنية ــــــ	3

سمّيت هذه السورة بسورة "إذا جاء نصر الله"، وتسمّى بسورة "النّصر" في المصاحف لذكر نصر الله تعالى فيها، وتسمّى عند بعضهم سورة "التوديع" عند بعض المفسّرين، وهو اِسم غير مشهور.

وموضوعها في بشارة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بنصر قريب على المشركين وفتح قريب لإظهار دين الله تعالى وفتح مكة وتطهيرها من دنس الشرك.

وهذه آخر سورة تنزيلا في القرآن، ولم ينزل بعدها إلاّ الآية 281 الّتي ألحقت بسورة البقرة على ما رواه القرّاء، وما جاء في كتب التفاسير السابقة. لذلك سميّت بسورة "التوديع" عندهم.

وهي سورة مدنية.

- إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ (1) :

هذه في التبشير بما سيكون في مستقبل الأيّام إظهارا لدين الله تعالى ونصرةً لرسوله صلّى الله عليه وسلّم على أعدائه وفتحا مبينا للبلد الحرام لتطهيره من الوثنية وتعظيم الأصنام تجسيما لقوله تعالى (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا)(الفتح الآية 28).

ومعنى الآية: إذا تمّ وعد الله تعالى بنصرك – يا نبيّ الله – على أعدائك المشركين والمنافقين فأظهرك عليهم، وهزمهم في ميدان المعركة وردّهم عنك وعن المسلمين وعمّا أرادوه لهذا الدين من الهزيمة للصدّ عنه، وإذا أتمّ عليك وعلى المؤمنين نعمته بفتح مكّة ليدخلها المؤمنين في حجّ أو عمرة آمنين مطمئنّين. إذا أتمّ عليك النّصر والفتح...

- وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا (2) :

وعندما ترى النّاس يفدون عليك – يا محمد – جماعات جماعات، فوجا بعد فوج من كلّ القبائل العربية من جميع القرى المحيطة بأمّ القرى – مكة – يعلنون إسلامهم فيشهدون لله تعالى بالوحدانية ولك بالرسالة، ثمّ يعاهدونك على العمل بشرع الله تعالى وطاعاته: عبادة وشريعة...

وقد تمّ تحقيق وعد الله عزّ وجلّ بعد فتح مكّة بزمن قصير سنة تسع للهجرة. لقد وفدت على المدينة المنوّرة وفود من مختلف القرى من كلّ جهة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يشهرون



إسلامهم ويسألون عن دينهم، وأقبلوا يتعلّمون منه صلّى الله عليه وسلّم شريعة ربّهم. ومن كثرة ما وفد على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من وفود سمّى المسلمون تلك السنة : سنة الوفود، ودخلت قبائل العرب بأسرها في دين الله : الإسلام.

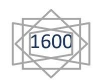
- فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا (3) :

أي إذا تحقّق لك – يا نبيّ الله – وعد الله تعالى بنصرك وبفتح مكة على دين الله وتطهّرت من الشرك، وأقبل عليك النّاس أفواجا راغبين في تعلّم دينهم، فداوم على شكر الله تعالى، وداوم على التّسبيح له بالحمد في ذكرك باللسان وفي صلاتك: فرضا ونافلة، وداوم على الاستغفار تواضعا لله تعالى وتعليما لأمّتك. لقد مَنَّ الله تعالى عليك بفضل عظيم، والاستغفار، بالنسبة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم طلب للمغفرة لأمّته، وخاصة لمن كان غافلا عن ذكر ربّه ليهديه الله تعالى لصراطه المستقيم، ولمن كان قد شاقّه من قبل أو آذاه من مثل عكرمة بن أبي جهل الذي أسلم قبل موته وكان قد آذى المسلمين كثيرا. والاستغفار من المؤمنين طلب للمغفرة، وهو مجلبة للخير، قال تعالى (فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا)(نوح الآيات 10-12). وقد جاء في الحديث الشريف أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إنّه ليُغانُ على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرّة" والعدد هنا ليس للحصر وإنّما ليدلّ على الكثرة. وروى الأئمة عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة : "إذا جاء نصر الله والفتح" إلاّ يقول: "سبحانك ربّنا وبحمدك اللّهمّ اغفر لي" (اللفظ للبخاري) وفي رواية عن أم سلمة أنّها قالت كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلاّ قال: "سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه".

وإنّه سبحانه كثير المغفرة وقبول التوبة من المداومين على الاستغفار والتسبيح.

وقد جاء في كتب السنن أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم قد فهموا عند نزول هذه السورة أنّها تنعى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليه نفسه. ولذلك سمّيت هذه السورة بسورة "التوديع" عندهم.

ولمّا كانت العبرة في القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإنّ من المُستفاد من السورة أنّ كلّ مؤمن إذا حقّق الله تعالى رجاءه في نجاحه في إمتحانه فنصره بالفوز وبالنجاح فيه، أو إذا فتح عليه بالشفاء بعد داء عضال، وأنعم عليه بالعافية، أو جاءته وفود مهنئة بزواجه وبإنجاب الولد أو بعودته سليما بعد أداء فريضة الحجّ، أو لفوزه بمنصب رفيع في قومه وما إلى ذلك من وجوه المسرّة فعليه أن يقابل تلك النعمة بالشكر وبالتسبيح بحمد الله تعالى وبالاستغفار من أن ينسب لنفسه الفوز دون ذكر فضل ربّه عليه في ذلك.



رقمها	ســــورة المســـــــد	آياتها
111	ـــــ مكية ـــــ	5

سمّيت هذه السورة باسم سورة "المسد" في المصاحف لانفرادها بذكر هذا اللفظ، كما تسمّى بسورة "تبّت يدا" بما أُفتتحت به، ويسمّيها آخرون بسورة "أبي لهب" لذكره فيها. وهي سورة مكية.

جاء في أسباب النزول: أنّها نزلت في السنّة الرّابعة من البعثة. وجاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عبّاس قال: لمّا نزل قوله تعالى : "وأنذر عشيرتك الأقربين"، خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى صعد الصفا فهتف: "يا صاحباه"! (وهي كلمة في عهد الجاهلية تعني إنذار القوم من عدوّ غازٍ) فاجتمعت إليه قريش فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إنّي نذير لكم بين يدي الله عذابًا شديدًا". فقال أبو لهب: "تبّا لك! أما جمعتنا إلاّ لهذا! ثمّ قام، فنزلت هذه السورة.

وموضوع السورة في وعيد أبي لهب، وفي وعيد اِمرأته لبغضها للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

- تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ (1) :

(التبّ) هو الخسران، والهلاك والخيبة، وهذا دعاء على أبي لهب لقوله: تبّا لك مخاطبا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وروي في كتاب السيرة أنّه أخذ بيده حجرا ليرميه به ولكنّه لم يفعل. وأبو لهب هو عبد العزّى بن عبد المطلب، عمّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كُنِّيَ بأبي لهب لإشراق وجهه بشيء من الحمرة. وقد أُختير ذكره بهذه الكنية لأنّه صائر إلى لهيب نار جهنم.

وعُطف التبّ الثانية على الدعاء للإغلاظ له في الشتم والتّقريع.

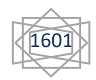
- مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ (2) :

أي ولن يدفع عنه ماله العذاب والهلاك في الآخرة، ولن ينقذه كسبه من الممتلكات والأنعام من التبّ، وهذا لوعيده بأنّه غير ناجٍ من عقاب الله تعالى لعداوته للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وشتمه له في جمع النّاس على رؤوس الأشهاد.

- سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ (3) :

سيدخل جهنّم وسيقاسي حرّ نارها الملتهبة اِلتهابا شديدا، وسيذوق عذابها بسبب عداوته للرسول صلّى الله عليه وسلّم وشتمه.

- وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ (5) :



وستكون اِمرأته معه في نار جهنّم لبغضها للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهي زوجة عمّه المكناة: أمّ جميل، واسمها: أَرْوَى بنتُ حرب، أخت أبي سفيان. كانت تحمل الشوك والعضاه حين تخرج تحطب للوقود، ثمّ تطرحها ليلا في طريق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي يسلكه إلى بيته ليعثر فيهما في ظلمة الليل فَيَجْرَحَا قَدَميه وَيُدْمِيَاهُمَا، وهذا من بغضها له بلا سبب. ووُعدت لآخرتها بأنّها ستحمل حطبا في جهنّم لإسعار النّار على زوجها، وسيُربط حول عنقها حبل من (مسد) أي من ليفٍ يُفتل فتلا قويّا لتجَرَّ به في جهنّم، وتُعذَّبَ به، وذلك لأنّها كانت في دنياها تحمل قلادة فاخرة في عنقها تفاخر بها، فستبدل قلادتها بحبل من مسد لإذلالها بعد كبريائها.

ولمّا نزلت هذه السورة وسمعها النّاس فأبلغوها بها أتت أبا بكر وهو مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبيدها حجر فقالت: بلغني أنّ صاحبك هجاني، لأفعلنّ ولأفعلنّ به – وقد أعمى الله تعالى بصرها عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم تَرَهُ معه.

ومات أبو لهب وماتت أم جميل على الشرك، ولم يتوبا، فحقّ عليهما العذاب الموعود.

وكان أمر الله مفعولا.

رقمها	سورة الإخلاص	آياتها
112	ـــــ مكية ـــــ	4

سمّيت هذه السورة في عهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعند الصحابة بسورة "قل هو الله أحد". وسمّيت في المصاحف بسورة "الإخلاص" لما فيها من تعليم النّاس سلامة المعتقد من الشرك وإخلاص العبادة لله تعالى. وتسمّى عند علماء التوحيد سورة "التوحيد" لما تضمّنت من إثبات الوحدانية لله تعالى، وسورة "الأساس" لأنّها قائمة على توحيد الله تعالى وهو أساس الإسلام، ولكثرة فضائلها. ولقد جمع فخر الدين الرّازي لها عشرين إسما. ومن هذه الأسماء: "المقشقشة" من الشرك، و"المبرّئة" من النّفاق، و"الصمد" لانفرادها بذكر هذه الصفة لله تعالى، و"التفريد" و"التّجريد" لما فيها من صفات الجلال، و"النّجاة" لأنّها تُنجي من الكفر في الدنيا، ومن النّار في الآخرة، و"المانعة" و"المذكّرة"، و"المنفّرة" لأنّ الشيطان ينفر من ذكرها، و"النور" و"الإيمان"... وغير ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل هذه السورة، وأشهرها قوله صلّى الله عليه وسلّم: "قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن". وهذه سورة مكية. وموضوعها في التّوحيد.

ومن أشهر الأقوال في سبب نزولها ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن جرير عن أُبّي بن كعب: أنّ المشركين قالوا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: اِنسب لنا ربّك، فأنزل الله تعالى هذه السورة، وهي في إثبات وحدانية الله تعالى، وأنّه لا يُقصد في طلب الحوائج إلاّ هو، وهي كذلك في تنزيهه سبحانه من الصاحبة والولد والشبيه والنّدّ.

- قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (1) :

(قُل) الأمر في هذا الفعل للإرشاد والتّعليم، وللالتزام به أمانةً حتّى لا يقال خلافه. وأمّا الضمير (هُو) فهو ضمير الشأن الذي يعني الله عزّ وجلّ، ولتعيين الإجابة عن سؤال المشركين الذين قالوا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "اِنسب لنا ربّك". فجاء هذا الجواب: الربّ هو الله تعالى. (ٱللَّهُ أَحَدٌ) أي إنّ الذي تسألون عنه هو "الله". اِسمه العلم هو "الله"، واِسمه يدلّ على ألوهيته. هو الله الحقّ، وما سواه باطل. لا يجب أن يسمّى بهذا الاسم غيره. ولمّا كان هو الله، فهو الحقيق بالعبادة والتقديس والتذلّل له والاستجابة لأمره.

وهو (أَحَدٌ) إنّه فرد، وِتر، منفرد بالألوهية، وليس متعددًا، وما يُنسب لغيره بالألوهية فنَسَبُه باطل. وقال (أَحَدٌ) ولم يقل واحد، لأنّ الصفة المشبّهة نهاية ما يُمكن به تقريبُ معنى وحدانية

الله تعالى للعقل الواعي. وهذه الصفة تنفي عنه تعالى الشبيه والنّظير، ولا ثانيَ لهُ. وهذه الصفة تنفي عنه الشريك والنّدّ، ومن قال هو ثالث ثلاثة فقوله باطل ينتفي مع صفته تعالى (أَحَدٌ).

- ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (2) :

هذا إخبار ثانٍ عن صفة الله تعالى فإنّه (ٱلصَّمَدُ). وقد جاءت هذه الصفة معرّفة بأل ليدلّ على قصرِ صفة الصمدية على الله وحده. و(ٱلصَّمَدُ) كما ورد عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم هو: "السيّد الذي يُصمد إليه في الحوائج". أي هو المقصود لقضاء الحاجة، وعند النوازل لكشفها، وهو المقصود لتحقيق الرغائب، والمستعان على المصائب والشدائد. قال تعالى (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ)(النحل الآية53). و(ٱلصَّمَدُ) اِسم من أسماء الله الحسنى جامع لجملةٍ من صفات الجلال والجمال. وعموما هو وحده الذي يُتَوَجَّهُ إليه بالسؤال والدعاء والنداء عند الحاجة إذا عسرت وعند المرض إذا اِشتدّ، وعند المُصيبة إذا عظمت، وعند الرغبة المرجوة إذا تطلبت المعجزة. ومن توجّه لغيره بالتعظيم والدعاء وطلب العون أو الرضى وقضاء الحاجة فقد أخطأ الصواب.

وفي هذا تعريض للمشركين الذين يفزعون لأصنامهم عند نوائبهم ونوازلهم ليعلموا أنّهم يدعون ما لا يسمع نداء ولا يجيب دعاءً. قال تعالى (وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ)(الأحقاف الآية 5).

- لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ (3) :

هذا إخبار ثالث عن جلاله سبحانه. إنّه تعالى وِتْرٌ ليس له ولد، وإنّه جلّ وعلا لم يكن في العدم حتى وُلد. وفي هذا نفي للتعدّد بالتوالد تأكيدا لوحدانية الله عزّ وجلّ. وفي هذا إبطال لزعم المشركين الذين ادّعوا اِفتراءً بأنّ الملائكة بنات الله من سراة الجنّ، وإبطال لمزاعم اليهود الذين قالوا عزير بن الله، وإبطال لمزاعم النّصارى الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة وأنّ المسيح عيسى بن الله. تنزّه الله تعالى عمّا يزعمون. ليس كمثله شيء، ولم يكن له صاحبة ولا ولد. وإنّه سبحانه وتعالى منزّه عن الحاجة للصاحبة وللولد فإنّه أزليّ حيّ دائم، كلّ شيء هالك إلاّ وجهه.

- وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ (4) :

وهذه الآية في إخبار رابع عن الله عزّ وجلّ. إنّها في عنصر آخر من عناصر التوحيد. وهي كسابقتها في نفي عنصر نقص، وقد جاءت الآية الأولى والثانية في إثبات صفات الجلال. ومعنى الآية: ليس كمثل الله تعالى شيء كان ما كان. لا يوجد أحد في الوجود كلّه يماثل الله عزّ وجلّ في عزّته وجلاله، وفي كمال صفاته وكمال جلاله وجماله، أو يُساويه، أو يدانيه، أو ينافسه، لا ندّ له ولا عديل. هو تعالى أحد في ملكوته وألوهيته وفي جميع صفاته.

وقد جاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة في جملة من السور تؤكّد على هذه الصفات بالحجّة العقلية وبآيات الله الكونية المشاهدة. من ذلك قوله تعالى (لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ)(الأنبياء الآية 22) (لفسدتا= السماوات والأرض). وكذلك قوله عزّ وجلّ (وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ)(النحل الآية 51).

رقمها	ســـــورة الفلـــــــق	آياتها
113	ـــــ مكية ـــــ	**5**

سمّى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هذه السورة بـ"قل أعوذ بربّ الفلق". بما بدئت به. وتسمّى في المصاحف باسم "الفلق" لورود هذا اللفظ فيها دون سواها. وتسمّى مع سورة النّاس – عند الصحابة، وفي المشهور – بالمعوّذتين. وهي مكية على المشهور.

وموضوعها في التعوّذ من شرّ بعض مخلوقات الله تعالى، ومن شرّ بعض الأوقات أو الأحوال التي تأتي بالشرور، ومن شرّ الحسد والحاسدين.

وقد جاء في كتب السنن أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يتعوّذ بها وبسورة النّاس. ولذا يُنصح بالتعوّذ بهما لاتقاء الشرور إذا أصبح المؤمن وعندما يمسي عند اِضطجاعه للنّوم.

- قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ (1) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (2) :

(ٱلۡفَلَقِ) هو كلّ ما ينشقّ، فيظهر عند اِنشقاقه شيء ما يخشاه الإنسان على نفسه ويخيفه ويقضّ مضجعه أو يرعبه من مثل المرض المفاجئ والوجع البدني، أو مهاجمة اللصوص، أو التفاجؤ بكلب متوحش أو سامّة...

وعموما هو كلّ ما يفاجئ الإنسان بسوء وشرّ، أو يثير فيه الخوف على نفسه ويرعبه، وهو كلّ ما يتعرّض إليه الإنسان من مكروه أو مداهمة ماكرة مفاجئة. والاستعاذة بالله من هذا الأمر يعني اللّجوء إلى الله تعالى لحفظه منه، وَلِيَقِيه من شرّ ما فاجأه، وليرفع عنه الشدّة والضيق.

فالاستعاذة تعني اللجوء إلى الله عزّ وجلّ لطلب الحفظ من المهلكة، وللاستعانة بقدرته لدفع الضرّ عن عبده المستجير به. ولا تكون الاستعاذة بالله من شرّ ما خلق إلاّ من مؤمن. فالاستعاذة بالله تعالى من دلائل الإيمان بقدرة الله عزّ وجلّ على دفع الضرّ، ولكشف الضرّ والبلاء، وتسخير الأسباب للتفريج عن الكرب وللّطف بعبده.

- وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) :

هذه مع الآيات الموالية في تفصيل بعض الشرور الّتي تخوّف منها الإنسان ويُطلب من الله عزّ وجلّ الحفظ والتوقّي منها وردّها. من هذه الشرور (الغاسق) وهو الليل إذا اِشتدّ ظلامه وصار مخيفا. وأمّا (وَقَبَ) فيعني توقّع اِنسياب الأفاعي والعقارب في المحلّ خاصة في فصل



الصيف أو إنطلاق الكلاب السائبة والوحوش الضارية من مثل الذئاب في الجبال والبراري، أو توقّع مداهمة اللصوص وأهل الشرور من النّاس.

- وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ **(4)** :

ويتعوّذ المؤمن من النّاس الذين يبيّتون الغدر والشرّ، وخاصة السحرة، وعادة ما يتفشّى هذا الخوف في النّساء. ومعنى الآية: ألجأ إلى الله سبحانه ليبعد عنّي كيد الساحرات اللاّئي ينفثن (وهو النّفخ مع ريق الفم) في عُقَدِ الخيوط ليسحرن بها. ألجأ إلى الله القدير الحفيظ العليم أن يحفظني من ضررهنّ وأذيتهنّ، ومن سحر كلّ ساحر.

- وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ **(5)** :

وهذه في التّعوّذ من ناس ذوي خُلق سيّئٍ لاَ يُحبّون الخير لغيرهم، وإنّما يرجون لهم الضرّ والأذى. والحسد هو تمنّي زوال نعمة المحسود وتحوّلها للحاسد. والحسد شرٌّ وخلق ذميم. والحاسدُ يحمله حسده على إيقاع الشرّ بالمحسود فيتّبع مساوئه ويطلب عثراته. والحاسد عند الناس ممقوت، مبغوض ومطرود. والتعوّذ منه في هذه الآية دليل على أنّ الله تعالى يلعنه لأنّه عدوّ لنعمة الله على غيره، وغير رضي بما قسم الله جلّ جلاله له وقضاه. والتعوّذ منه ومن حسده طلب من الله عزّ وجلّ أن يحفظ عليه نعمته من الزوال ومن حسد الحاسدين وكيد الكائدين الذين يتمنّون له زوال النعمة.



رقمها	ســــورة النّـــــــاس	آياتها
114	ــــــ مكية ــــــ	6

سمّى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هذه السورة باسم : "قل أعود بربّ النّاس". بمثل ما بدئت به. وفي المصاحف تسمّى بسورة "النّاس". وهي سورة مكية. وهي ثاني المعوّذتين.

وموضوعها في التعوّذ من شرّ الوسواس الخنّاس من الجنّة والنّاس الذين يحاولون إفساد عمل الطائعين لربّهم.

- قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ (1) :

الخطاب في هذه الآية عام وشامل لكلّ إنسان إذا ضاق بوسواسه. والتعوّذ – كما سبق ذكره – هو الاِلتجاء إلى الله عزّ وجلّ للاستجارة بقدرته طلبا لِلُطفه وحفظه لردّ كلّ شرّ ومكروه عن نفس المستعيذ بالله تعالى. وقد جاء الاِلتجاء إلى الله عزّ وجلّ بربوبيته سبحانه، فهو تعالى سيّد النّاس جميعهم وهو المتصرّف في أحوالهم.

- مَلِكِ ٱلنَّاسِ (2) :

والاِلتجاء إلى الله تعالى لطلب حمايته وحفظه في هذه الآية لأنّه الملك، صاحب السلطان على النّاس، فهو المجير، هو الحامي وهو الذي يعاقب الجاني.

- إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ (3) :

وفي هذه الآية فإنّ الاستجارة بالله عزّ وجلّ بأنّه تعالى هو الله الخالق المغيث المحيي والمميت، وهو تعالى صاحب القدرة وصاحب أمر: كُنْ فيكون.

والملاحظ في هذه الآيات الثلاث أنّ الاستجارة بالله عزّ وجلّ، والاِلتجاء إليه كان قويّا، ذلك لأنّ التوجّه فيها كان:

- بسيّد النّاس: مدبّر أمرهم، ومصلح أحوالهم، ومتعهّدهم بالعناية والرعاية.
- وبأنّه تعالى الملك عليهم، هو الحاكم فيهم بأمره وهو السلطان المعزّ والقاهر والغالب على أمره وهو العزيز.
- وبأنّه إلاههم الهادي وذو اِنتقام، وهو الذي لا يخشى ولا يُخشى غيره، وهو المطلع على أحوال خلقه وما هذا التوسّل إلاّ لأنّ الأمر المُستعاذ عنه جَلَلٌ وعظيم الأثر، وذو خطورة على النفس.



والغريب أنّ المستجار بهذه الصفات لله تعالى من صفات عزّته وقدرته هو أمر واحد:

- مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ (4) :

هذا هو المستعاذ منه، ومعنى الآية: أعوذ بالله الربّ والملك وإلاه النّاس من شرّ الوسوسة الّتي تقع في النفس المنذرة بالشرّ والسوء. ومن صفة الوسواس أنّه (خنّاس) وهو المتخفّي الّذي ينبسط حين يختلي المرء بنفسه، وأمّا إذا كان العبد ذاكرا فإنّ الوسواس ينقبض. وقد جاء قوله تعالى (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(الأعراف الآية 200).

ولذا وجب طرد الوسواس – وخاصّة الآمر بالسوء، أو الذي يلقي في النّفس اليأس والشؤم – بالاستعاذة بالله تعالى منه، وبالمداومة على ذكر الله تعالى.

- ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ (5) :

أي أعوذ بالله من الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس بإلقاء خواطر الشرّ والسوء وتزيين المعاصي في القلوب، ذلك لأنّ الخواطر محلّها القلب الذي في الصدر عند العرب.

- مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ (6) :

أي أعوذ بالله من الذي يوسوس في صدور النّاس بالمكيدة وعمل الشرّ والسوء سواءً أكان هذا الموسوس شيطانا لا يُرى، وإنّما يلقى تدبيره الشيطانيّ في الخاطر، أم كان إنسانا شرّيرا محتالا وصاحب مكائد شريرة وخبيثة مضرّة للغير. كفانا الله تعالى شرّ الثقلين وشرّ ما برأ وشرّ ما ذرأ. قال تعالى (وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِى بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورًا)(الأنعام الآية 112).

والملاحظ في المعوّذتين أنّ الإلتجاء في سورة الفلق كان بالتوسّل إلى الله تعالى باسمه ربّ الفلق مرّة واحدة وقد أُستعيذ باسمه تعالى من أربعة عناصر: من شرّ ما خلق، ومن شرّ ما يأتي به الليل الدامس من مفاجأة ضارّة، ومن شرّ السحر والشعوذة، ومن شرّ الحسد.

وأمّا في هذه السورة فكانت الاستعاذة بالربّ والملك والإلاه، بثلاث من صفات العزّة والجبروت، والمستعاذ منه عنصر وحيد فقط: الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور النّاس بالشرّ والمكائد، للدلالة على عظيم شرّ هذا الأمر. والوقاية منه بذكر الله عزّ وجلّ.



وبهذا نختتم هذا البيان لمعاني القرآن الذي سمّيناه :

التفسير الحديث المبسّط (2021)

نفعنا الله تعالى بالقرآن العظيم، وجعلنا من العالمين به والعاملين.

ونرجو أن نكون موفّقين في مساعدة الراغبين في تدبّر آياته والإِستفادة منه، وهذا ما بلغ به الجهد.

وبارك الله تعالى في الذين أعانوا على رقنه ومراجعته لإصلاح الأخطاء المطبعية ومراجعة القول في الأحكام الفقهية، والذين عملوا على تسجيله في الانترنت لينتفع به كلّ قارئ ومطّلع عليه في كلّ مكان في العالم.

جازاهم الله تعالى خيرا، وأثابهم على جهودهم.

والســــــلام

تمّ تحريره الإربعاء 07-12-2021

وختاما،

فللّه الحمد كلّه على عظيم فضله، إذ قضى أن أُكَلَّفَ برقن هذا العمل الشريف.
وهل من عمل أشرف من أن يكتب المرء بيده وبفائق عنايته كلام الله عزّ وجلّ، مع بيان معاني آياته!!!
أسأل الله تعالى حُسن القبول وعظيم الأجر لي ولوالديّ ولذرّيتي.
وأسأله عزّ وجلّ حُسن الإفادة لمن قرأ وانتفع لهدى الله تعالى
ولله الحمد بدءًا وختاما...

الراقنة : رجاء المجد معلى